الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم

٣-٤

شركة مكتبة ومطبعة

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
مباشر محمد أمين عمران

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ»
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء

مقاصدها تسع :

المقصد الأول : من قوله (ياأيها الناس) إلى قوله (ونساء) .

المقصد الثانى : فى صلة الأرحام والوصية على اليتامى من قوله (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) إلى قوله (حسيبا) .

المقصد الثالث : فى قسم التركات والمعاملات المالية من قوله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) إلى قوله (ولهم عذاب مهين) .

المقصد الرابع : فى صلة الصنفين الذكر والأنثى وأحكام ارتباطهما بعقد أو بغير عقد من قوله (واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم) إلى قوله (إن الله كان عليما خبيرا) .

المقصد الخامس : فى طاعة الله والرسول وأولياء الأمور وإكرام الوالدين واليتامى والعبادات والإنفاق وتأدية الأمانات من قوله (واعبدوا الله) إلى قوله (وكفى بالله عليما) .

المقصد السادس : فى القتال والجهاد من قوله (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) إلى قوله (وكان الله عليما حكيما) .

المقصد السابع : فى أحكام القضاة والمحامين ولوم القضاة إذا قصروا فى التحقيق وذمّ المحامين إذا زوروا من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب) إلى قوله (وكان فضل الله عليك عظيما) .

المقصد الثامن : فى العدل فى النساء وذمّ أتباع الشيطان ومدح الإخلاص لله والقيام بالقسط لليتامى، وفى ترك مصادقة أعداء المسلمين ونحو ذلك من قوله (لاخير فى كثير من نجواهم) إلى قوله (وكان الله غفورا رحيما) .

المقصد التاسع : فى الجدال مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وتقريعهم على ذنوبهم مثل الربا وعلى جهلهم مثل المغالاة فى الدين وختام السورة بجواب عن الفتيا من قوله (يسألك أهل الكتاب) إلى آخر السورة .

ملخص هذه السورة

كأن الله عز وجل يقول فى القسم الأول : ياأيها الناس أنتم من أب وأمّ والأب أصل لكم والأم فرع ومنهما كان رجال ونساء ، فالوحدة فى الكثرة ؟ أولا ترون أنكم كرجل واحد ؟ وكيف لايكون كذلك وأنتم جميعا يعين بعضكم بعضا ؟ فالشرقى يلبس مانسجه الغربى ، والغربى ينسج مازرعه الشرقى وأنتم تتبادلون جميع المنافع ، فإذا اتحدتم أصلا فها أنتم أولاء اتحدتم عملا ، فالأصل واحد والعمل متحد ؟ أولا ترون أن

الإنسان الواحد يده تعمل غير عمل عينه ؟ وعينه تعمل غير عمل الكبد ؟ والكبد يخالف الرئة ؟ وكلها متعاونة لو اختل واحد منها لهلك الإنسان ؛ هكذا مجموع الناس كشخص واحـــد ، فاتقون ولا تعصون أيها الناس .

وكأنه يقول فى القسم الثانى : فلماذا إذن أيها الناس لاتتواصلون ولا تتراحمون ولا يعطف بعضكم على بعض ؟ وإذا كان الناس كلهم شرقا وغربا كأسرة واحدة ، فبالأجدر يكون الأقارب والأرحام فواسوهم ، ثم اليتامى فلا تأكلوا أموالهم ، وإياكم والإسراف فى التزوج وكثرة النساء ، واقتصروا على أربع إن عدلتم وواحدة إن خفتم الظلم ، وأعطوا النساء مهورهن ولا تضيعوا أموالكم بإعطائها لمن لايحفظها وأعطوهم مايقيمهم وحافظوا على أموال اليتامى وكونوا أعفاء .

وكأنه يقول فى القسم الثالث : واقسموا التركات بالحق الذى بينته ؛ فالذكر كالأنثيين ، وللبنت المنفردة النصف ، وإن كانت بنتان فلهما الثلثان ولكل من الأب والأم السدس إن كان للميت ورثة ، فإن لم تكن ذرية فلأمه الثلث ، وإن كان له إخوة فلأمه السدس ، وللزوج نصف تارة وربع أخرى ، وللزوجة ربع تارة وثمن أخرى ، ومن مات ولا ولد له ولا والد يكون لأخيه من أمه السدس ، فإن زاد عن واحد فلهم مهما كان عددهم الثلث والذكر هنا كالأنثى .

وكأنه يقول فى القسم الرابع : عاشروا النساء بالمعروف وأشهدوا على اللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم بعد استيفاء الحد فلا يتعرض لما وقعن فيه حتى يتزوجن ، وللتوبة منزلة شريفة فى الإسلام مالم يكن الاحتضار ولا تتخذوا النساء سلما للميراث ولا تحبسوهن عليكم من غير رغبة فيهن لأجل أن تأخذوا بعض ماأخذن منكم من المهر إلا فى أحوال خاصة ، ولتكن المعاشرة بالمعروف ، وإياكم أن تأخذوا منهن ما أعطيتموهن فإن ذلك عار وكيف يكون هذا الشقاق بعد الوفاق والخلطة ؟ ولقد حرمت عليكم نساء آبائكم وكثيرا من القريبات كالأم والأخت الخ وجميع المتزوجات كل هؤلاء حرام عليكم ، واحذروا السفاح ولا تتزوجوا بالإماء اللاتى ملكهن غيركم إلا أن تخافوا الفتنة ، واحذروا الشهوات والميل فى الأموال كما تحذرونه فى الأعراض ، ولقد أعفو عن الصغائر إذا اجتنبتم الكبائر ، وهذه الأموال والنساء عاريات مردودات فلا يقل امرؤ لم استمتع غيرى بالنساء والأموال وأنا محروم ؟ فارجعوا إلى الله والله هو المعطى ، وإذا أعطيت المرأة نصف ما للرجل فليس لها اعتراض ، وليأخذن كل وارث ما استحقه فلا يحسدن أحد أحدا على ماقسم له وليسأل كل الله ؛ وإذا أخذ الرجل ضعف المرأة فإنما ذلك لكونه قواما عليها فله فضل ذلك ، كما أن له تأديبها بالأنواع التى أباحها له الشرع فإذا خفتم الشقاق فابعثوا الحكمين .

وكأنه يقول فى القسم الخامس : اعبدوا الله وبروا الوالدين وصلوا الأرحام واصنعوا المعروف مع اليتيم الخ وإياكم والرياء والله لايظلم ، وإن رسولى شهيد عليكم فاحذروا أن تظهروا أمامه مشوهى الصور الروحية فتخجلوا وتفضحوا فضيحة عظيمة فلتكن الصلاة بقلوب حاضرة لابمجرد أقوال وأفعال ، ولتكن على نظافة لتبتهج أفئدتكم وتكون أرواحكم مشرقة ويكون الظاهر معراج الباطن ، فالصلاة بلا حضور قلب ولاطهارة لاتفيد بل تبطل وذلك يناسب مايفعله اليهود من تحريف الكلام فى التوراة حفظا للرياسة وكذبا ؛ ألا وإن الظهور بالمظهر الكاذب يورث القلوب النفاق والخلال الدنية وتصبح مجبولة على الأكاذيب والخداع وتخفى عنها الحقائق ، ألا وإن بعض أهل الكتاب باستدامة هذه الخلال أخذوا يؤمنون بالأصنام ويفضلونها على دين الإسلام لكثرة الأكاذيب حتى صارت سجية فلايبالون بنتائجها أفليس ذلك يستوجب اللعنة لهم ؟ ولو أن الملك لهم لبخلوا وهم يحسدون الناس لأن المعاصى يجر بعضها بعضا ، فليؤد الناس الأمانة وليطيعوا أولى الأمر منهم وليرضوا بقضاء قضاتهم العادلين ، وليتعظوا الجاهلين وليعلموا أن المطيعين منكم مع الأنبياء والصديقين .

وكأنه يقول فى القسم السادس : فلا تكونوا أيها المؤمنون ذوى نفاق تثبطون عن القتال وتكونون كمن يعبد الله على حرف فإن رأوا خيرا أقبلوا وإن رأوا شرا أدبروا ، فقاتلوا فى سبيل الله وأنقذوا المستضعفين من أهل مكة الذين ظلمهم الكفار . عجبا لقوم أحبوا القتال فلما أمروا به هابوه وكرهوه مع أن الحياة متاع والموت مطاع وهم ينسبون أكثر مايقضى عليهم من الشر لك وينسبون الخير لله ، بل الشر من أنفسهم لأنفسهم وهم يظهرون خلاف مايبطنون فى طاعتهم لك ويفشون الأسرار ويشيعون الأخبار فى الحرب والسلم بلا هدى ولا كتاب منير ؛ فقاتل ولو وحدك وحرض المؤمنين واحذر المنافقين ولا يقتل مسلم مسلما عمدا ، وللخطأ الدية وجزاء العمد جهنم ، ومن أسلم فدمه حرام ، والمجاهدون فى سبيل الله لهم فضل عظيم ، ولا يقعد قادر راضيا بظلم الكافرين فليهاجر ، وللمسافر قصر الصلاة ، وإذا صليتم فى أوقات الحرب فاحذروا الأعداء وأقيموها وقت السلم وكونوا أقوياء على الأعداء .

وكأنه يقول فى القسم السابع : إياكم أيها القضاة والتهاون فى القضايا ولا يسلبن ألبابكم المحامون عن المدعى عليهم بذلاقة ألسنتهم .

وكأنه يقول فى القسم الثامن : خير المناجاة ماكان للبر والصدقة والصلح ، وفيه ذم اتباع الشيطان ، والمرء مجزى بأعماله فليخلص لله وليعط كل ذى حق حقه لاسيما الضعفاء ، ولا تظلموا النساء ولتصلحوا بين الرجال وبينهن ، وعلى الرجل أن لايميل كل الميل عن المرأة ، وإن الظالمين منكم أستبدل بهم غيرهم فأقيموا الشهادة حقا ولا تضلنكم الأهواء . وفيه ذم المنافقين وذم من يتخذ بطانة من الأعداء .

وفى القسم التاسع : ذم اليهود لنقضهم الميثاق وتبجحهم بأنهم قتلوا المسيح ، واليهود والنصارى سيؤمنون بأن المسيح عبد الله ورسوله عند الاحتضار ، ولقد ضيقنا على اليهود فى دينهم لأنهم ظالمون آكلون أموال الناس باطلا إلا فحول العلماء منهم ، وأنت ومن قبلك مبشرون ومنذرون ، فلا تغالوا يا أهل الكتاب فى الدين ، فالمسيح لايتعالى أن يكون عبدا ولا الملائكة الخ ، انتهى القول فى جمل من معانى هذه السورة .

مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد قدمنا أن سورة البقرة مسوقة لأحوال بنى إسرائيل وأن آل عمران كأنها متممة لها ، ذلك أن عيسى عليه السلام من بنى إسرائيل ، وقد جاء بدين لإصلاح ما أفسده الدهر من الدين القديم وعنوان السورة يشهد بذلك .

وقد قدمنا أن سورة آل عمران مبدوءة بالنظر العلمى مختومة بالعلمى والعملى ، ابتدئت بالنظر فى السموات والأرض ، واختتمت بالابتهاج بجمال العالم العلوى والسفلى ، وأن من لم تكشف له الحقائق كانت فضيحته وعاره عظيمين ، وقد جاء فى خلال ذلك الكلام فى غزوة أحد والتلميح إلى غزوة بدر ؛ فكأن تاريخ بنى إسرائيل أعقبه تاريخ المسيح بالترتيب الزمانى هكذا بعض تاريخ الأعمال الإسلامية فى غزوة بدر وأحد .

ولما كان ماورد فى آل عمران من أحوال الإسلام لايعدو فى مجموعه جهاد الأعداء ودفعهم عن الأوطان والذب عن حياض الدولة وحراسة الملة ناسب أن يؤتى عقبها بما يصون البلاد فى داخلها من القوانين المسنونة لصيانة الأموال والأعراض ونظام الأسرات من قسم التركات وحفظ الزوجات وتبيان المحرمات وحفظ الأنفس من القتل ونظام القضاة والقضايا والمحامين المدافعين عن المدعى عليهم والصلح بين الأزواج والصدق والشهادات وأداء الأمانات وإغاثة المستضعفين وما أشبه ذلك مما قرأته مجملا وستعرفه مفصلا ، فكان تسميتها بالنساء أقرب لأن المسألة ترجع إلى أمر الأسرات والأحوال المنزلية وحفظ العائلات والنساء أس المنازل ، كما أن الرجال أساطين الحروب والأعمال الخارجية ؛ فلنبتدئ فى تفسير هذه المقاصد التسعة :

(المقصد

(المَقْصِدُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً،

التفسير اللفظى

(يا أيها الناس) هـذا الخطاب عام لجميع نوع الإنسان (اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) هو آدم (وخلق منها زوجها) حواء (وبث) نشر (منهما) من تلك النفس والزوج المخلوقة منها (رجالا كثيرا ونساءا) بنين وبنات كثيرة اه . اعلم أن الله عز وجل لما فرغ من سورة آل عمران وقد حث فى أولها وآخرها على النظر العلمى والتفكر فى خلق السموات والأرض وذكر الله باللسان والقلب وكان ذلك أشبه بالنظام العلمى فى فن الحكمة أخذ يكمله فى أول هذه السورة بالنظام العملى ، فهناك العلم وقوة الأبدان وهنا نظام الأسرات وحفظ العائلات فأخذ يمهد لذلك بمقدمة لطيفة تدل على اتحادنا منشأ وتشابهنا خلقة . واعلم أن خلق آدم وحواء ليس هناك دليل قطعى على كيفيته ، والقرآن أتى به مجملا على مقتضى ماتقبله العقول وتفهمه النفوس ؛ فأما التفصيل فليس للكتب السماوية وإنما هذه مقدمات يؤتى بها للمقاصد . فأما التفصيل فقد قام به علماء الأمم من عجم وعرب . ومن عجب أنهم لم يهتدوا للحقائق ولم يصلوا إلى أصل الخلق ؛ ألا ترى كيف قال آباؤنا السابقون: إن الحيوانات أول ماخلق منها البحرية لأن البحر قبل البر ثم كانت البرية وكل حيوان أنقص خلقة مقـدم على ماهو أكمل ، وقالوا إن الحيوانات التامة الخلقة لم تكن من البحر بل خلقت تحت خط الاستواء وكل منها تناسل من ذكر وأنثى والحرارة هناك كافية للتوليد ؛ فلما أن انتشرت تلك الحيوانات كالبقر والغنم والآساد والنمور فى الأرض خفضت تلك الحرارة فى الأرحام لتتأهل لنمو الأجنة ، والإنسان أيضا كتلك الحيوانات وأبونا آدم وزوجه حواء خلقا كما خلق من كل نوع زوجان تحت خط الاستواء وتفرقت الذرية فى الأرض كسائر الحيوانات ، ثم آباؤنا نقلوه عمن قبلهم من الأمم ولذلك تجد جزيرة سيلان (سرنديب) التى هى قرب خط الاستواء مذكور فى كتبهم أنها فيها خلق آدم ، ومن هذا جعلت كل الأمم أن آسيا منبع الجنس البشرى وأهل أوربا يقولون إن أكثرهم من آسيا وإن أممًا نزحت قديما وهاجرت إلى تلك الأقطار الباردة منها وعلى ذلك شاع وذاع لفظ (يأجوج ومأجوج) أى أهل تلك الأقطار وهم التتر والمغول (هكذا رأيتها فى كتب الجغرافيا القديمة) وإنهم يفسدون فى الأرض فكلما كثروا نزحوا إلى أوربا وغيرها كما تقرؤه عن أمة (الهون) وغيرها قبل العصور الحاضرة وقد هاجروا إلى أوربا وكما تقرؤه فى أخبار جنكيزخان (الذى ستقرأ خبره وتخريبه لبلاد الإسلام فى آخر سورة الكهف وترى هناك معجزات النبوة واضحة) وهو لاكو ومن نحا نحوهما ممن أزالوا دولتنا العربية ببغداد وذهبوا إلى الروسيا واستوطنوا شواطىء نهر فولجا وهم الآن مسلمون كل هـذا مذكور فى التاريخ . والسر الأصل فيه أن الناس قديما يرون أن مهد الجنس البشرى فى الشرق ، وسره الأكبر ظنهم تولد الأبوين الأصليين من كل حيوان فى خط الاستواء ، أما الفرنجة فإنهم لايزالون يتخبطون وليس لأقوالهم نهاية ، ففريق يرى أن الحيوانات البحرية مقدمة على البرية والأنقص قبل الأكمل مثل قدمائنا ولكن يرون أن الحيوانات التامة الخلقة مسلسلة من ناقصة الخلق حتى الإنسان ، وهذا المذهب قد سار شوطا بعيـدا فى القرن الماضى ولكن علماء العصر

الحاضر حقروه ونبذوه ظهريا وذموا قائله وقابلوه بالنكران وكفروا به وهم لايزالون فى البحث مجدّين ولا يزالون مختلفين ، أما القرآن والتوراة فإنهما نصا على أن آدم خلق من التراب وحواء خلقت منه . هذا هو كلام الديانات وهـــذه علوم الناس قد أحضرتها بين يديك على سبيل الإجمال . وياليت شعرى إذا كان القرآن والكتب السماوية أجملت المقال والفلاسفة والحكماء تفرقوا شيعا فأين السبيل ؟. أقول : اعلم أن الكتب السماوية إنما تذكر هذا لغرض أسمى من معرفة أصل الأبوين وماذا نجنى من وراء معرفة أصلهما نعم البحث فى العوالم كلها مرقى للعقول ولكن كل مايعرفه البشر فى هـذا المقام لايصل للحقيقة الواقعة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) إن الناس لم يشهدوا مبدأ العالم ولا مبدأ أنفسهم ، وإنما المقام هنا الدلالة على الوحدة العامة الإنسانية ، فلئن ذكر الله اتحادنا فى المنشأ والتشابه فى الأحوال فإنما ذلك ليدلنا بطريق الكناية على الوحدة العامة الإنسانية والنظام الشامل لهذا الوجود ، والكناية هنا هى المقصودة بالذات كما يقول علماء البيان ؛ ألا ترى إلى قول الخنساء وقد خطبها دريد بن الصمة .

معاذ الله يرضعنى حـــبركى   قصير الشبر من جشم بن بكر

تقول أنا أستعيذ بالله أن يرضعنى قصير القامة ضئيل الجسم من هذه القبيلة ، ولم يكن ذم الإرضاع مقصدها ولا الولد القصير الشبر عدوا لها وإنما تريد ماهو أهم لها فى زواجها ، وهو أن يكون الزوج طويل القامة عظيم الهامة من قبيلة شريفة ، فإنها لو تزوجت ناقص الخلق ضئيل الجسم حملت منه فوضعت ولدا يشبه أباه فانتقلت من المعلول إلى العلة ، ومن الفرع إلى الأصل فكانت النتيجة هكذا ؛ أنا لا أتزوج رجلا ضئيلا قصيرا حقير النظر لايملأ القلوب مهابة ، ولا العيون إجلالا ، وليس من الملأ الشرفاء ، ولا من السادة العظماء . هذا هو الذى يفهمه الرجال والنساء والعامة والعلماء ؛ فهكذا هنا لم يقصد الخلق ومبدؤه لذاته وإنما يراد منه الاتحاد والوحدة العامة الإنسانية فى هذا الوجود ، وكأنه بعد أن أبان تناسب المادة وتناسقها فى آخر آل عمران أخذ يبين تناسب الجنس البشرى واتحاده النظرى ورتب عليـه التراحم والمودة وصلة الأرحام وحفظ مال الأيتام والعدل فى قسم التركات والقضايا والدعوات وأداء الشهادات ؛ وإذا كانت الحكمة تثبت أن هذا العالم الحيوانى والإنسانى متشابهان فى الخلق متناسقان فى الوضع حتى إنك لترى أن النبات أدناه يقرب من المعادن كخضراء الدمن : أى النباتات التى تراها أيام الربيع بالغداة حتى إذا حميت الشمس ذبل النبات وصار هباء منثورا ، فإذا كان اليوم الثانى طلع كالذى قبله ثم يرتقى النبات طبقا عن طبق حتى يكون أعلاه مايعيش على غيره كنبات يسمى الكشوثى فإنه لاساق له وإنما يعيش على غيره ويمتص من عصاراته كما تمتص الدودة من الرطوبات وكالنخل لأنه تميز ذكره من أنثاه وهكذا إذا قطعت رأسه مات ، فصفات النخل وصفات الكشوثى أشبه بصفات الحيوان ؛ ويلى هذين وأشباههما الحيوان وله أدنى وأعلى ، فالأدنى أشبه بالنبات كما هو معلوم فى محله وشرحته فى كتاب الفلسفة مما يعيش فى القوقع على شاطئ البحار ، ثم يرقى طبقا عن طبق كالآساد والنمور والقرود بحيث ترى الأدنى يتلوه الأعلى ، فذوات البيض أقل من التى تحمل وتلد وترضع أولادها ، وهكذا حتى تصل إلى المتوحشين من بنى آدم ويرتقى نوع الإنسان إلى العلماء والأنبياء ويليهم الملائكة على تفصيل فى ذلك ، وعالم الحيوان وعالم النبات كمملكة واحدة تدبرها نفس واحدة وكأنها جسم تدبره نفس واحدة يشير لذلك (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) فإذن علمت مما قدمناه فى هذا التفسير أن هذه العوالم كلها متضامنات بينها مناسبات كأنها أسرة واحدة لمنظم واحد ، أفلا تكون الأسر الإنسانية أقرب إلى التعاطف والتراحم لاقترابها ، وقد قضت الحكمة أن الاتحاد أعم منها فكيف يكون أمرها ؟ وإذا كان الاتحاد العام والنظام الشامل بحسب الحكمة يدعوانا أن نرحم الحيوان وننظم هذه الكرة الأرضية فكيف بالإنسان وهو أخو الإنسان ؟ يقول الله أيها الناس تراحموا وتوادوا فأنتم أسرة واحدة من أب واحد . وقال سقراط

لتلاميذه وقد أنكر بعضهم العبادة والقربان لله وأنكر وجود عقول غير عقل الإنسان لأنه لم يره (ألست ترى أن صورة الإنسان من المواد الهوائية والمائية والأرضية قال بلى ! قال : فإذن أنت تؤمن أن جسمك المركب من مواد ضئيلة صغيرة جدا من العوالم الكبيرة المحيطة بنا له عقل ، ولا تؤمن بأن هذه العوالم الكبيرة فيها عقل : أى أن مادة الهواء والماء والجسم الأرضى التى اشتمل عليها جسمك تحظى بعقل وفهم فأما الأرض ذات الفجاج والهواء ذو الرياح والبحر ذو الأمواج فكل هذه محرومة من العقل : أى أن العقل يناله القليل الضئيل ويحرم منه العظيم الكبير الكلى ؛ إن العقل يكذب هذه القضية وهذا العالم منظم بعقل كلى) هذا تحرير ما قاله سقراط فى محاوراته مع تلاميذه ويستدلون على ذلك أيضا بأن كل معدن كالملح والنطرون والشب والمغنيسيا والأسرب والنحاس والذهب له عمل غير عمل الآخر ، وهكذا النبات والحيوان والماء فإنا نراها مختلفة النتائج متحدة الوجهة لغرض واحد ، ونرى الشمس تمتزج حرارتها بالماء وبالتراب وبالهواء ويكون أنواع النبات ، ثم إن المعادن تتعاون معها فتكون منافع للناس تتبعها أخرى ورتبوا على ذلك ما يقال له:

النفس الكلية

وجعلوا أن الشمس والقمر والكواكب والماء والهواء بالنسبة إليها كآلات النجار والحداد ، فالحرارة آلة والبرودة آلة والهواء آلة والماء آلة ، وبهذه الآلات وتحريكها تصور هذه الصور بإذن الله تعالى ، هذا ما يقوله الحكماء ؛ فتلك العناصر والقوى فى العالم أشبه بالأعضاء والآلات التى يستعملها الإنسان وتكون أنفسنا لتلك النفس الكلية أشبه بالعين والسمع والبصر والشم بالنسبة لأنفسنا ؛ فالعالم مدبر بنفس واحدة أبدعها الله ، وهذه النفس مستمدة قواها من العقل الأول الذى هو اللوح المحفوظ عند علماء الشريعة ، ونفوسنا أشبه بالأسماع والأبصار لها ؛ وكما أن نفوسنا تسمع وتبصر وتبطش وتتكلم وتهضم بالأذن والعين واليد واللسان والمعدة والنفس واحدة والقوى والأعمال مختلفة ، هكذا هذا العالم كله مدبر بنفس واحدة كنفوسنا وهذه النفس لها قوى مختلفات تدبر العوالم ، فالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والكهربائية والمغناطيس كل واحد منها له عمل مخالف للآخر والنفس واحدة والأعمال منتشرة تبع القوى ، وكما أن اختلاف الأعين والآذان والأيدى فى الأعمال لا يمنع أن النفس واحدة هكذا لا يمنع اختلاف النبات والحيوان والماء والهواء والحرارة والبرودة أن النفس المدبرة لها واحدة ، فالله واحد ، والنفس المدبرة الكلية واحدة لها آلات وقوى يدبر بها العمل تدبيرا منظما متجها إلى نتائج منتظمة كما تتجه أغراض الإنسان لما يريد من حوائج لغرضه الأصلى ، هذا تحقيق المقام فى النفس الواحدة عند الحكماء ، فإذا صح هذا تكون النفس الواحدة التى عبر عنها بآدم تذكرة للنفس الواحدة المنظمة للعالم ولهذه الوحدة المنظمة ترى الناس يخدم بعضهم بعضا وإن لم يعلموا .

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وعلى هذه القاعدة ترى جميع نوع الإنسان على الأرض يخدم بعضهم بعضا وهم لا يشعرون ، والمرء لا يقدر أن يخبز ويحرث ويزرع ويخيط ويأتى بالحديد والنحاس من الجبال ولا يصنع المراكب فى البحار ولا القطرات فوق القضب الحديدية ولا يزرع جميع أنواع الزرع . إن حاجات الناس تزداد كلما زاد العمران وتعظم كلما ارتقى نوع الإنسان ، وهنا يقال : إن كل امرىء محتاج لغيره فى ضروريات معيشته كالأكل والملبس ، وفى كمالياته كالزينة والعطر فغيره هو المكمل له ، فمن كره غيره فقد كره من يكون سبب ضرورياته وكمالياته ، ومن كره من هو سبب لكمالياته وضرورياته فقد كره كمال نفسه وحياتها ، ومن كره كمال نفسه وحياتها فهو فاقد العقل متخبط فى براهينه لأن القضية العقلية الصادقة هكذا كل امرىء يحب نفسه وكمال نفسه . ولكن من يكره الناس تكون نتيجة كراهته لهم هكذا أنه يكره كمال نفسه وحياتها فتكون النتيجة أنه

يحب حياة نفسه وكمالها وأنه يكره حياة نفسه وكمالها . فأما القضية الأولى فهى بالبداهة . وأما الثانية فبالبرهان لأنه يكره الناس ، فالإنسان فى الصين وفى أوروبا جميعا يعين بعضه بعضا حتى إنك ترى أن أوروبا لما أرادت أن تستغنى عن دولة البلشفيك فى الروسيا طلبت بعد سبع سنين ودّها لأنها رأت ألا مناص من مصادقتها ، فكل عالم فى الشرق ينفع الغرب ، وكل صانع فى الغرب يصل أثره للشرق ، فالعالم الإنسانى كجسم واحد ، والأمم أعضاؤه وأفراد الناس ذراته ، وإذا كره زيد عمرا وأبغضت دولة دولة فما ذلك إلا من عوارض خلقت لمصلحة التنافس والتسابق ؛ فالمحبة أصل الوجود والعداوة طارئة لأن العالم بنى على الرحمة والجمال والحب ، وكل ماطرأ عليه فهو زائل ونهاية كل شئ الجمال والرحمة والبهاء والنعمة لأن الله رحيم والرحمة وسعت كل شئ ، ولا يبقى فى غضب الله إلا من سبق عليهم القضاء .

ذكرى

أيها الذكى هذا مقام عزيز المنال شريف المغزى ، فإذا أنست فى نفسك قبولا لما نقول وفهمته فذاك وإن وجدت حرجا فى صدرك وعاقك عن قبوله ما ورثته من الأقوال وظواهر الكلمات فأنا أنصحك أن تجلس دقائق كل يوم وتوجه قلبك لمبدع هذا العالم وتجعل قلبك متجها إليه وتطلب منه بالقلب وباللسان أن يفتح لك الباب وهناك ترى منه فتوحا متى أخلصت فى الإقبال عليه مع الطاعة والإخلاص والنشاط «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» .

[لطيفة : فى تناسب السورتين] قال الله فى آخر السورة السابقة (واتقوا الله لعلكم تفلحون) وأعقبها بأول سورة النساء بقوله (يا أيها الناس اتقوا ربكم) كأنهما سورة واحدة والخطاب عام للناس كلهم ، كما قال فى سورة أخرى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) وهنا يقول (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) انتهى المقصد الأول .

(المَقْصِدُ الثَّانِى)

وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * وَآتُوا ٱلْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَامَى فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَىْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا * وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِٱللَّهِ حَسِيبًا *

التفسير اللفظي

(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها عطفا على لفظ الجلالة ، أو والأرحام بالجر معطوفا على الضمير: أي تساءلون به وبالأرحام . تقول العرب سألتك بالله وبالرحم ، وناشدتك بالله وبالرحم ، والرحم القرابة وهي إما من الرحمة وإما من الرحم ، لأنهم خرجوا من رحم واحدة ، في البخاري ومسلم . قال عليه الصلاة والسلام : « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » وروى أيضا : « من سره أن يبسط عليه من رزقه ، وينسأ في أثره فليصل رحمه » وقوله ينسأ في أثره : أي يؤخر له في أجله ، ويروى «لايدخل الجنة قاطع» (إن الله كان عليكم رقيبا) حافظا مطلعا (وآتوا اليتامى أموالهم) أي إذا بلغوا الرشد، واليتيم هو الصبي الذي مات والده (ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب) أي ولاتستبدلوا الخبيث الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم ، يقول: ولاتستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم (ولا تأكلوا أموالهم) مضمومة (إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً) ذنبا عظيما . نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره ، فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له فمنعه عمه فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع إلى اليتيم ماله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فانه يحل داره » يعني جنته ، فلما قبض الصبي ماله أنفقه في سبيل الله .

إن الناس كثيراً ماينحازون إلى جهة من الدين ويتركون الأخرى والحياة لاقوام لها إلا بالكمال ومراعاة القضايا الدينية من سائر أطرافها ، بل مامثل الناس في أمورهم الدينية إلا كمثل التلاميذ في المدارس النظامية أوكمثل الحكومات الرسمية ؛ فلو أن تلميذا قرأ النحو والصرف والحساب وترك العلوم الطبيعية في المدرسة لحرم الشهادة التي يعطيها له المدرسون ، ولو أن حكومة غفلت عن نظام الريّ وحفظ الجسور وهي ذات عناية تامة بتحصيل الضرائب وأجرة الخفراء وتعليم التلاميذ وارتقاء الجند لكانت آيلة إلى الزوال ، ذاهبة إلى النكال ، يحل بها البوار في سنين معدودات ؛ فالنظام الاجتماعي هيكل منظم كهيكل جسم الإنسان ، متى أصيب أحد أعضائه الأصلية سرى الخلل إلى سائر الأطراف ، فتعطلت أعضاؤه وذهب كأمس الدابر ، ولات حين مناص .

هكذا هنا في هذه الآية يقول الله تعالى مامعناه : مالكم لما سمعتم الوعيد على من لم يقم لليتيم بحقه هلعتم من عذاب الله والحوب الكبير وأنتم مع ذلك لم تحترسوا من الزنا وهو حوب كبير ، فهل أنتم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فعليكم أن تحترسوا من سائر الكبائر على السواء ؛ فكما خفتم من أكل مال اليتامى خافوا من الزنا الذي هو اعتداء على حقوق غيركم بل فيه اعتداء على حقوق من هم كاليتامى ، وكيف لا يكون كذلك ؟ والزانية قد تلد ولداً لاأب له فتسرع بإلقائه في الطرقات فيؤخذ لقيطا فيربيه غير والده ، فهاهو ذايتيم أنتم كنتم سبب وجوده وبقائه وشقائه الأبدي ، فكيف تحرجتم من أكل حق اليتيم الشاهد ولم تتحرجوا من هضم حق اليتيم الغائب والأخير من نسلكم وأمره ومبدؤه منكم ، فانكحوا ماتحبون من النساء على شريطة العدل والمساواة اجتنابا للزنا ، فإذا كان الزنا لقضاء الشهوات البهيمية أفلا يكفيكم أن تتزوجوا من واحدة إلى أربع ، وإياكم والظلم في القسم بينهن فاعدلوا وهو أقرب للتقوى ، فإذا كنا حرمنا عليكم أكل مال اليتامى وحرمنا الزنا وأمرناكم أن تتزوجوا فاحترسوا من الظلم وعدم العدل عند التعدد ، فان وجدتم من أنفسكم ضعفا فعجزتم عن العدل بينهن فتزوجوا زوجة واحدة ولامانع من كثرة السراري والإماء فهؤلاء يحل لكم الإكثار منهن ، فهذا قوله تعالى :

(وإن خفتم أن لاتقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) أي إن خفتم ياأولياء اليتامى أن لاتعدلوا معهم فما لكم ظلمتم بالزنا فانكحوا الخ .

ولآية وجه آخر وهو وإن خفتم ألا تعدلوا فى يتامى النساء إذا تزوجتم بهن فتزوجوا ماطاب لكم من غيرهن إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضنا بها فربما يكون عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن، وهذا يقدمه علماء التفسير عادة، وقوله (مثنى وثلاث ورباع) أى اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا ، والواو هنا بمعنى أو كما تقول تزوج اثنتين أوثلاثا أوأربعا ، ولوكانت على حالها لصار المعنى أنه يضم هذا العدد كله .

واعلم أن الآية ليس فيها مايمنع الزيادة على أربع . ألا ترى أنك لو قلت لرجل تمتع فى بستان أو اثنين أوثلاثة أوأربعة من بساتينى وانزل فى رحب وعيش رغد هنى لم يكن ذلك مانعا من التمتع بغير الأربعة، وإباحة شئ لاتقتضى منع سواه ولكن السنة والإجماع هما اللذان عينا الأربع. ألا ترى إلى ماروى عن ابن عمر « أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا». وهكذا روى «أن قيس بن الحارث قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعا » وإنما الزيادة من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم؛ والعبد له أن يتزوج بأربع على إحدى روايتين عن مالك، وأكثر العلماء أنه على النصف من الحر (فان خفتم ألا تعدلوا) أيها الأزواج بين الأربع (فواحدة) أى فتكفيكم واحدة على الرفع، أو فانكحوا واحدة على النصب (أو ماملكت أيمانكم) سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السرارى لخفة مئونتهن وعدم وجوب القسم بينهن (ذلك) التقليل منهن أواختيار الواحدة أوالتسرى (أدنى) أقرب من (ألا تعولوا) أى أقرب من ألا تميلوا ، يقال عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار (وآتوا النساء صدقاتهن) مهورهن (نحلة) عطية، يقال نحله كذا نحلة ونحلا إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض فليس للأزواج منع المهر ولا للأولياء الاستيلاء عليه لأنهم كانوا يأخذون مهور مولياتهم (فان طبن لكم عن شئ منه نفسا) أى فان طابت نفوسهن ووهبن لكم من الصداق شيئا (فكلوه هنيئا مريئا) فخذوه وأنفقوه حلالا لاتبعة فيه ، وهنيئا طيبا ، ومريئا سائغا (ولاتؤتوا) أيها الأولياء والآباء (السفهاء) الذين تحت وصايتكم ونساءكم وأطفالكم (أموالكم) التى تتصرفون فيها بطريق الولايات والتى تملكونها لأنفسكم (التى جعل الله لكم قياما) أى تقومون بها (وارزقوهم) أى أطعموهم (فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) عدوهم عدة جميلة تطيب بها نفوسهم ، والمعروف ماعرفه الشرع والعقل بالحسن (وابتلوا) اختبروا (اليتامى) قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى صلاح الدين وحسن ضبط المال والتصرف (حتى إذا بلغوا النكاح) أى حد البلوغ بأن يحتلم أويستكمل خمس عشرة سنة عند الشافعية، وثمانى عشرة سنة عند أبى حنيفة ؛ ولقد كنى ببلوغ النكاح عن البلوغ لأنه يصلح للنكاح عنده (فان آنستم) أبصرتم (منهم رشدا) فى المعاملات (فادفعوا إليهم أموالهم) من غير تأخير عن البلوغ ، فلايجوز أن يدفع لهم مالهم قبل الرشد . وقال أبوحنيفة : إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير الأحوال لأن الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد (ولاتأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) أى مسرفين ومبادرين كبرهم (ومن كان غنيا فليستعفف) من أكلها (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بقدر حاجته وأجرة سعيه . وللعلماء فى هذا المقام ثلاثة أقوال: فمنهم من منع أخذ شئ من مال اليتيم فقيرا كان أوغنيا، ومنهم من قال يأخذ بقدر أجره بالمعروف إن احتاج، ومنهم من قال إن احتاج يقترض ثم يرده إذا أيسر وإذا أعسر فلاشئ عليه . وأرى أن الأمة الإسلامية يجب أن يكون التعليم فيها عاما محيا فى الإخلاص وبعد ذلك يقوم بأمثال هذه الأعمال الأغنياء متبرعين فلاحاجة إذا للفقراء ، فالمهم التفكر والعلم ؛ وأما الأحكام فانما هى للضرورات التى أوجبها شح الناس وعدم الإخلاص فى الأعمال (فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) بأنهم قبضوها فانه أنفى للتهمة فلايصدق فى دعواه أنه سلمها لليتيم إلا بالبينة عند

الشافعى ومالك خلافا لأبى حنيفة (وكفى بالله حسيبا) محاسبا ومجازيا فلا تخالفوا أمره انتهى التفسير اللفظى .

يقول الله تعالى يا أيها الناس أنتم أسرة واحدة أو جسم واحد لأن أباكم واحد وكل امرئ منكم كعضو من أعضاء الجمية الإنسانية ، أولا ترون أن فيكم من هو كالسمع والبصر من العقلاء ؟ وفيكم من هم كاليد والرجل من العمال؟ وفيكم من هم كالطاحنين والخازنين كالمعدة والأمعاء ؟ أفلا تتقون وتخافونى وأنتم تذكرون الرحم مقرونة باسمى ؟ فأنا الرحيم وهى الرحم، فالقرابة التى بينكم المشتقة كلها من اسمى أجدر بالمراعاة والمحاباة فضلا عن الإنسانية العامة ، أى عبادى إنى عليكم رقيب أرقب ماتصنعون بأرحامكم ، وكيف لا أرقب ذلك والرحمة صنفى ؟ فمن قطع الرحم قطعته ومن وصلها وصلته ، فأنا الرحيم أحب الرحيم سيما إذا كان ذلك على القرابة الأدنين . أنا سائلكم أيها الناس عن البعيد كما أسألكم عن القريب ، بل إنى أسألكم عن كل ما تقدرون عليه فإنى لا أكلف نفسا إلا وسعها ، فالرحمة أنتم عنها مسئولون ، فإذا كان فيكم فضل قوة على رعاية اليتامى من الناس فلا تجعلوا مالهم غنيمة لكم ولا تأكلوا أموالهم ولكم أن تأخذوا قدر عملكم بما هو المتعارف المألوف ، وإن كنتم أغنياء فخير لكم أن تستعفوا وتعملوا فى أموالهم بلا أجر إلى آخر ما تقدم ، وفى هذا القسم أربع لطائف :

[اللطيفة الأولى] إن الله كان عليكم رقيبا .

[اللطيفة الثانية] تعدد النساء فى الإسلام .

[اللطيفة الثالثة] ولا تؤتوا السفهاء أموالكم .

[اللطيفة الرابعة] فادفعوا إليهم أموالهم .

[اللطيفة الأولى] « إن الله كان عليكم رقيبا » وهذه اللطيفة واضحة فيما تقدم فلا نطيل فيه .

[اللطيفة الثانية : تعدد النساء فى الإسلام] اعلم أنه قد كثر لغط الفرنجة ومن نحا نحوهم ممن خالطهم من المسلمين فى تعدد أزواج المسلمين وزوجات النبى صلى الله عليه وسلم فلهم أربع وله صلى الله عليه وسلم أكثر . فاعلم أنى قد ألفت رسالة تسمى السر العجيب ، وقد محضت هذا المقام تلخيصا بسائر أطرافه ، وهذا المقام لايسع الإفاضة فيه خيفة السآمة ولكنى أدلى إليك بيسير من القول لتقف على ما تيسر فأقول : لقد حسد الفرنجة المسلمين وغيرهم على تناسلهم حتى إنهم فى أفريقيا الجنوبية لما رأى الإنكليز أن رجلا يتزوج عشرا من النسوة وهن يسعين لرزقه وهو يأكل ويشرب فيلد بنين وبنات كالديك مع الدجاجات ساءهم ذلك لأن النسل يكثر وهم يريدون تقليله فعمدوا إلى إيجاب الضرائب على هذا النوع من الزواج ، وهكذا لما رأوا الأمم الإسلامية تتكاثر وتتناسل أثاروا هذه المسألة ، ولقد بحث الباحثون فوجدوا أن الذين يتزوجون أكثر من واحدة فى الإسلام لايزيدون عن خمسة فى المائة ولا ينقصون عن ثلاثة فى المائة ، وهذا العدد القليل لاجرم يغتفر فى جانب العدد العظيم . واعلم أن الله سبحانه جعل للذكور والإناث قانونا لايتعدونه ، فالذكور والإناث فى دفاتر المواليد فى كل قرية ومدينة وأمة ، وفى الكرة الأرضية كلها متساويان تقريبا لحسن النظام وجمال الإتقان وبديع الصنع ، فقل لى رعاك الله هل سمعت أن أمة من الأمم ولدت إناثا فقط أو ذكورا فقط فى سنة أوشهر أو يوم ؟ كلا! فالله خلقهما متساويى العدد غالبا ؟ فلو أن المسلم أراد أن يتزوج اثنتين وكان ذلك عاما فأين النساء ولا نساء فلكل رجل نظيرة منهن ، وكأن الخرافة التى جرت على ألسنة العامة أشبه بهذا إذ يقولون إن لكل رجل قرينة من الجان يقولونها وهم لايعقلون معناها يتلقفونها عن الدجالين بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير وإنما الله أجراها على ألسنتهم . وسرها أن لكل رجل امرأة من الناس تخلق مقارنة له ، فعند أهل القرى والأمصار تجد هذه القاعدة مطردة ، ومن هذا السر العجيب الذى وضعه الله فى الطبيعة التى نظمها « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » أى تناقض واختلال . ولو أنه خلق فى مقابل

الرجل امرأتين أو بالعكس لاختل النظام ، فياليت شعرى كيف يمكن أن يتزوج المسلمون كلهم أو كثير منهم بأكثر من واحـــدة والله لم يخلق ذلك وإنما جعل الله فى كل أمة قوما ضعافا لاقدرة لهم ولا مال فهؤلاء لايتزوجون ، وآخرين لهم قوة ومال وهم ذو طباع حادة ولا تكفيهم زوجة واحدة بل يذهبون للزنا ، وهذا شر مستطير فأباح الله لهم أن يتزوجوا بأكثر من واحدة إكثارا للنسل ومنعا لانتشار الزنا وقتل أولاد السفاح ورميهم فى الطرقات ؟ ولعمرى إن هؤلاء خير من أغنياء الأوروبيين الذين يصاحبون أكثر من واحدة سرا ، فهم وإن لم يتزوجوا أكثر من واحدة جهرا فقد تزوجوا سرا ، ولقد ذمهم علماؤهم وأذكر منهم العلامة جوستاف ليبون وأخبر أن التعدد آت لاريب فيه، ولقد أوضحت الحرب العامة هذه المسألة أيما إيضاح فإن الرجال توفى كثير منهم فى الحرب وأصبحوا قليلا وكثرت النساء فمن ذا يعولهن ومن ذا يقوم بأمرهن فأباحت بعض الدول تعدد الزوجات .

فأما المسلمون فإنى أرى أن يكون الأمر موكولا لذوى الحل والعقد منهم ، وليكن التعدد على مقدار الحاجة وليحصوا الرجال والنساء فى البلاد ولينظروا العدد الذى لم يتزوج من الفريقين وليأمروا كل شاب بلغ سنا معينة مثل ٢٠ أو ١٨ سنة بالتزوج فإن لم يتزوج أوجبوا عليه مالا معينا يدفعه للحكومة تنفقه على فقير ذى عيال، والنساء اللاتى لم يتزوجن تبحث عن رجال يتزوجونهن منفردات ، وإلا كان ذلك مثنى وثلاث ورباع للقادرين الأقوياء الأغنياء ، فإذا فعلت الأمم الإسلاميـــة ذلك فليكن بأمر أهل الحل والعقد منهم لابأمر الفرنجة ، فإن الفرنجة يقصدون تقليل النسل وتقليل الزواج وإكثار السفاح والفساد فى الإسلام فاحذروهم أيها المسلمون ، فليحذر المسلمون الذين يحكمهم الفرنجة أن يوحوا إليهم بأمر من هذا فإنهم يريدون الزنا وقلة النسل وضياع البلاد ، فأما أهل الحل والعقد منكم فلهم أن ينظروا فى الصالح وهم أعلم بما يناسب حالتهم .

تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم

لقد أجمع المسلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم من خصوصياته أن له الزيادة على أربع ، ومع هـــذا الإجماع ترى أنه اختار من نسائه أربعا أذكر منهن عائشة وحفصة ، فأما الباقيات فإنهن رضين أن يكن أمهات المؤمنين وسامحن فى أمر المبيت عندهن ، فكأن النبى صلى الله عليه وسلم اقتصر على أربع فى الحقيقة فأصبح كالأمة وإن لم يطلق الباقيات لأسباب أوضحتها فى الكتاب المذكور ، انتهى المقصود من ذلك الكتاب ملخصا ، فاقرأ هذا الكلام مفصلا فى سورة الأحزاب ففيها تلك الرسالة كاملة .

[اللطيفة الثالثة] « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » نهى الله الأوصياء والآباء أن يؤتوا اليتامى أموالهم قبل بلوغ سن الرشد وحسن التصرف ، وهكذا النساء والأطفال فإن قلة عقل الطفل والمرأة تجعلهما يسرفان ويبذران فى الأموال فيصبح الرجل حسيرا ، هذا ما فى هذه الآيات .

ومن عجب أن الأمم الإسلامية تعطى أموالها سفاهة للأوربيين، إما كرها بالاحتلال كأهل جاوة وماوالاها من الجزائر وكأهل المغرب تونس والجزائر ومراكش وكأهل السودان كل هؤلاء يدفعون المال للفرنجة قهرا، وإما طوعا بأن يدفعوا أثمان البضائع التى تصنع فى بلادهم ، فأصبح المصرى والهندى والمغربى جميعا يعملون ويكدحون ، والغربى هو الذى يستنزف ثروتنا وهـــذا سفاهة دولية لأمة الإسلام ، ولعمرى لاتبلغ أمة الإسلام الرشد حتى تصنع ماتحتاج إليه من الصناعات ملبسا ومأكلا وآلات ، فإن لم يفعلوا وسيفعلون فذلك ضياع مدنهم وذهاب دولهم ، وياليت شعرى إذا كانت الدريهمات التى يعطيها الإنسان لابنه الصغير أو لزوجته يتصرفان فيها بلا عقل قد نهانا الله عن التفريط فيها ، فما بالك بأموال الأمة والأسرات التى يمتصها الفرنجى بملابس نحن نقدر أن نصنع غيرها ونستغنى عنها ويكون الثمن فى أيدى أبناء البلاد أليس هذا أدعى إلى النهى

وإذا كان الله يقول لنا فيما نعطيه للأطفال « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » فجعل هذه الأموال قياما لنا تحفظ كياننا ونعيش بها ، فما بالك بما نراه فى بلادنا المصرية من تلك القناطير المقنطرة من الذهب وهى تبلغ كما فى إحصاء الماليين نحو (٧٠ مليونا) من الجنيهات وأكثرها بلا ربح فى المصارف الإفرنجية وهم ينتفعون بتلك النقود والمسلمون لم يأخذوا ربا لأنه حرام ، والفوائد قد ذهبت إلى أوروبا يصنعون بها الطيارات والمدافع ويقذفونها على أبناء المسلمين فى الجزائر وتونس ومراكش والهند ومصر ، كل ذلك والمسلمون غافلون نائمون فلايصدقون أن مصارف البلاد التى أنشئت حديثا تقوم مقام المصارف الإفرنجية ويتركون تلك الأموال عند الفرنجة ولا ينتفعون بها فى تجارة أو شركة أو زراعة بل يتركون أنفسهم عالة على أوروبا التى تأخذ ما لهم كأنهم قاصرون والأجانب يريدون أكل مال هؤلاء الأيتام ، ولكن الآن قد ظهرت بوادر الإصلاح فى الهند ومصر وأكثر البلاد الإسلامية .

[حكاية] قابلت شابا هنديا منذ أيام وهو لابس ملابس كلها من قطن مغزول غزلا يدويا من رأسه إلى قدميه وليس مما ينسجه الأوروبيون ، فقلت أغزل بلادكم هذا ؟ فقال نعم ! ولو أننى خالفت هذا ولبست ما ينسجه الأوروبيون لعدونى خارجا عن الوطن ولرمونى بأقبح التهم ولقتلونى ، وذلك من تعاليم الزعيم العظيم غاندى ، تلك التعاليم التى حرمت على جميع الهنود الملابس الإفرنجية . وأقول ومن كلامه الذى ذكرته فى سورة آل عمران أن أوروبا اليوم لاتمثل روح الله ولا روح المسيح بل تمثل روح الشيطان ، وما أعظم نجاح الشيطان إذ ظهر ولسانه يردد اسم الله . وقال أيضا إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا وهو العار على كثير من العائلات .

[اللطيفة الرابعة] « فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » لقد رأى الشافعى رضى الله عنه أن تصرف الصبى قبل البلوغ وهو مميز بإذن وليه غير صحيح ، وصححه أبو حنيفة ؛ فاختباره بالبيع والشراء والأخذ والعطاء عند الحنفية ، وبالنظر فى أحواله وعقله وإدراكه عند الشافعى ، ويبلغ بالإنزال كل من الصبى والجارية سواء أكان بالاحتلام أم بالجماع . فأما بالسن فأكثر أهل العلم أن بلوغ الغلام والجارية بخمس عشرة سنة ، وجعل له أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة ولها سبع عشرة سنة . وتختص النساء بالحيض والحبل ، فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها ، وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل ، ثم إذا بلغ الصبى وهو صالح للتصرف فى ماله وإن فسد دينه سلم له المال عند أبى حنيفة خلافا للشافعى لجعل الصلاح فى الدين أيضا شرطا ، فإن كان مفسدا لماله أيضا لم يسلم المال له حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة كما تقدم فيسلم له ولو لم يكن صالحا فى ماله ، انتهى .

عظة واعتبار

لقد تبين فى هـــذا المقام كيف جعل الله المال قياما لنا وأمرنا ألا نعطيه للسفهاء من النساء والأطفال جعل الله المال قياما لنا أى قياما لحياتنا الدنيوية والأخروية ، وها أنت ذا أيها الذكى ترى كلام علماء الإسلام والأئمة رضى الله عنهم وكيف دققوا فى أموال اليتامى وفى الرشد ؟ وكيف يقول الإمام مالك إن الجارية إذا بلغت رشيدة لايدفع المال إليها إلا إذا تزوجت فإذا تزوجت دفع إليها مالها ولا ينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج مالم تكبر وتجرب ، فهذا التشديد والتقييد فى المال والدقة فى البحث توجب يقظة المسلمين وانتباههم ، فياعجبا كل العجب يجعل الله المال قياما لنا فى القرآن ويشدد علماء الإسلام ويدخل الفرنجة بالمنسوجات الديار المصرية وبلاد المغرب فى تونس والجزائر ومراكش وسوريا ويأخذون الأموال ويضحكون على العقول ويلهوننا بالفسوق والفجور والزخارف كما فعلوا بالأندلس لما أمضوا معاهدة الصلح بينهم وبين أمراء الإسلام ، وأقيمت الأفراح وكانت نعال خيل بعض الأمراء من ذهب وكانت هكذا حرية التجارة وحرية التعليم وحرية الدين ،

فقال قائل من المسلمين : هذه المعاهدة لاتدفع عارا ولا تذكى نارا ولا تنفع جارا ، وسيأتى زمان قريب يحقر فيه تاريخ الإسلام وينسى فيه مجد الآباء الأعلام ، ويشرب فيه الخمر جهارا ، ويلبس أبناء البلاد عارا وشنارا وتكون الملابس إفرنجية وتزول من الرءوس الحمية ، فردوا عليه هازئين وسمعوا له ساخرين ، وقالوا والله إنك لست من السياسيين ، ثم عملوا أفراحهم وأولموا ولائمهم ودخل الخمر فى البلاد ، وقلدوا الفرنجة فى العادات ، ومشى فى الشوارع الشبان مع الغادات جهارا ، وهم يظهرون العصيان نهارا ، واستدان المسلمون وظهر الربا وهجرت مدارس الإسلام وعمرت مدارس الأسبان ، وأدخلوا فى عقولهم تحقير أسلافهم وسقوهم الخمر وهم غافلون ، حتى إن راهبا أسبانيا كان يعلم التلاميذ فى قرطبة اشترى عنبها جميعا وحلف ألا يبيعه إلا لأبنائه وتلاميذه المسلمين حبا فى رقيهم وسعيا لإسعادهم وغراما بفرحهم لأنهم أحبابه المخلصون وأصدقاؤه الأقربون ، وقد كثر لبس الحرير والترف والنعيم والكسل وحب الإفرنج واحتقار الآباء ودينهم وتاريخهم ، وهكذا حتى أزالهم الملك فرديناند والملكة إزابله من بلاد الأندلس ورموهم فى البحر بعد أن قتلوا أكثرهم ، ومن تنصر منهم وهم قليل جدا حقروا تنصرهم وسموهم مرتدين وزال ملكهم وهم جاهلون ؛ هكذا نرى اليوم أبناء العرب لم يتوبوا ولم يثوبوا لرشدهم ولم يرجعوا عن غيهم ، والفرنجة يطاردونهم ويستعملون رؤساء الدين فى مراكش وتونس والجزائر والأمراء فى مصر وبلاد العرب شبكة لصيدهم وسيفا مسموما ورمحا جارحا يغدقون عليهم النعم ويغمسونهم فى الترف ويزجونهم فى سجن الشهوات ، وهؤلاء هم الذين يجرون هذه الشعوب الغافلة إلى الرزايا ويضعون الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى جحيم الذل وفى نار الاستعباد ورؤساؤهم هم المسيطرون عليهم سواء أكانوا من الشرفاء أم من الأمراء ، ألاساء مثلا القوم المغفلون؟ ويكون ذلك سبب جلب الشقاء واستنزاف الثروة ونقلها إلى الفرنجة بما فعل هؤلاء الشرفاء والأمراء وهم جميعا فى جهنم الاستعباد مصفدون ، حتى إذا وقعت الواقعة وقرعت القارعة ونزعت النازعة واقترب الوعد الحق للقصاص وقع أولئك الرؤساء فى الذل كأممهم ولات حين مناص ، فنزلوا عن مراتبهم وأودعوا سجن الذلة والهوان يقولون « ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين » .

أيها الأمراء المسلمون وياروساء الدين قد آن أن يلاقى بعضكم حتفهم وهذا يوم مصرعكم والله قد حكم أنكم فى هذه الأيام تسامون سوء العذاب جزاء ما كنتم تكسبون ، لبستم ملابس الظالمين ، وتمتم بعيش الغافلين ، ورضيتم بإذلال شعوبكم أجمعين . ألم تروا إلى قيصر الروس كيف كان عند المسيحيين يمثل حضرة المسيح ، وإلى كثير من الملوك كيف طردتهم أممهم وأذلتهم جيوشهم فصرعوا وهم ظالمون . هكذا عما قريب ستقطع تلك الرؤوس الظالمة الفاجرة فى الأمم الإسلامية تلك الرؤوس الفاسقة الفاجرة التى خضعت أمام الفرنجة ألا قطعا لتلك الرؤوس وموتا لتلك النفوس . يا أبناء الإسلام قد تنبه الهنديون ، واستيقظ الروسيون . وحرمت المنسوجات الفرنجية فى بلاد الهند ، وزالت الغفلة عن كثير إلا أبناء العرب . يا أبناء العرب إن الدين دينكم ، والمجد مجدكم ، وماضركم إلا رؤساء السوء تارة بالكيد لكم وفتح البلاد للفرنجة ، وتارة بكتم العلم عن المستحقين ، هذا القرآن يقرأ صباحاً ومساء ، وفيه أن المال قيام لنا ، وعلماؤنا قد حققوه تحقيقا ، وماتركوا شاردة ولاواردة إلا أحصوها ؛ فما بال العلماء يغفلون عن النصيحة ، بل ما بال العالم ينقاد لآراء الجهلاء . ألم يأن للمصريين ولأبناء المغاربة وسوريا والعراق وأضرابهم أن يثوبوا إلى رشدهم . ألم يأن لرجال مصر أن يعلموا نساءهم أن الملابس الأوروبية خربت ديارهم ، وجعلت الأغلال فى أعناقهم ؛ ألم يعلموا أن هناك حركة سرية مدبرة لاقتناص الأموال وفساد العائلات ، وأن هناك خائطات فرنجيات يخطن الملابس للغانيات ، ويدبرن المكائد للآنسات ، ويبتدعن كل يوم بدعة جديدة ، فيغيرن الطراز فى يوم أوبعض يوم ، ويبطلن عادة ويجددن أخرى ، والرجال غافلون والأمراء نائمون بل راضون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ،

وريع

وريع الأطيان ، وتود الموظفين والتجار جميعها فى هذا السبيل مصروفة ، فذل العزيز ، وعز الذليل ، وتقربت أشرف السيدات أصلا ، وأعرقهن مجداً ، وأعلاهن فرعا ، وأرفعهن رأسا إلى خادمة إفرنجية أصبحت خائطة مصرية ، فتزلفت إليها بالمال ، وتقربت إليها فى كل حال لتخصها بزى جديد حتى تتباهى على المتفضلات أمثالها ، وتلك الخائطة تترفع ترفع القاصرة ، وتترفع على هذه القاصرة فترضيها بالمال ، وتود لو تحظى دون أترابها من أسرتها بهذا الزى الجديد ، وتقول الخائطة لها هل من مزيد ، أولايرون مايدبر لهم الفرنجة من المكائد والشركات من المصائد ، وكيف ترسل تلك المجلات التى فيها الأزياء الجديدة وتعطى للعائلات مجانا ؟ وترسل للغانيات فضلا من الفرنجة وإنعاماً ، أو لايرون أن النساء فى مصر لايهنأ لهن طعام ولا شراب مالم يقلدن تلك الأزياء التى رسمت فى تلك المجلات . ذهب المجد وزال ، ولكن قد آن أن ينكشف هذا الجهل ويزول .

والنجم من بعد الرجوع استقامة والشمس من بعد الغروب طلوع

أقول لقد ظهرت بوادر الإصلاح وليقومن فى هذه البلاد وغيرها من يوقظون الأمة العربية ويرجعون لها مجدها وشامخ عزها وقديم فضلها ، ولولا أنى واثق وموقن أشد الإيقان بهذا المقال ماخططت حرفا ، ولكنى كتبت وأنا موقن أن القلوب تفقه ، والعيون تبصر ، والآذان تسمع ، وأن فى السويداء رجالا ، وأن مجداً قد أظل أوانه ، وأقبل إبانه ، وبزغ بدره ، وظهر فجره ، وأشرقت شمسه « ولتعلمن نبأه بعد حين » وإذن يظهر سر قوله « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما »

ومن أجمل مايسر أنى وقت كتابة هذه السطور قرأت فى الجرائد أن حكومتنا فى هذا اليوم حرمت الترخيص لتجار الخمر أن يفتحوا محال جديدة من الآن ، وهذا من بوادر الإصلاح فى حكومتنا الجديدة الوطنية التى التأمت فى هذا الأسبوع بأمر المجلس الوطنى العام .

(المَقْصِدُ الثَّالِثُ)

فى قسم التركات والمعاملات المالية

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ، وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ، وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ، يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةً

مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ كانَ عليماً حكيماً * وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْتُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ ، وَإنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ ، فَإنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فى الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَليمٌ حَليمٌ * تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نارًا خالِدًا فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ *

يقول الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) والمراد المتوارثون بالقرابة، ثم أبدل من قوله مما ترك قوله (مما قل منه أوكثر) حال كونه (نصيباً مفروضا) «روى أن أوس بن الصامت الأنصارى خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فانهم ماكانوا يورثون النساء والأطفال وقالوا إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه فقال ارجعى حتى أنظر مايحدث الله سبحانه وتعالى فنزلت فبعث إليهما لاتفرقا من مال أوس شيئاً فان الله قد جعل لهن نصيبا ولم يبين حتى نزل قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم) فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم» .

ولما كانت آية الميراث تمنع كثيراً من قرابة الميت وغيرهم فلاشىء لهم فى الميراث ، وكان الإسلام هو الذى جاء بنشر المعروف والفضل بين الناس على القاعدة المذكورة أول السورة من اتحاد الناس وتعاونهم والمجموع لايصلح إلا بصلاح أفراده المتضامنين كأعضاء الجسد الواحد ـ نزلت الآية الخاصة على إعطاء من لم تعطه آيات الميراث الآتية تعميما للفضل ، وتحقيقا للتسامح ، وإصلاحاً للمجموع . وتلك الآية هى (وإذا حضر القسمة أولوا القربى) ممن لايرثون من الميت (واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا) بأن يدعوا لهم ويستقلوا ماأعطوهم ولا يمنوا عليهم . يقول فأعطوهم شيئا من المقسوم وجوبا على مذهب أبى موسى الأشعرى وإبراهيم النخعى والشعبى والزهرى ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير فهؤلاء كانوا يعطون من حضر شيئاً من التركة . وروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قسم ميراث أبيه وعائشة حية فلم يترك فى الدار أحداً إلا أعطاه وتلا هذه الآية . قال الفخر الرازى فهذا تفصيل قول من قال بأن هذا الحكم ثبت على سبيل الوجوب، أما المذهب المتعارف بين الفقهاء، فليس فيه إلا الندب للورثة الكبار أما الورثة الصغار فيكتفى بقول المعروف عنهم ، وعلى الوجوب روى محمد بن سيرين أن عبيدة السلمانى قسم أموال أيتام فأمر بشاة فذبحت وصنعت طعاماً لأجل هذه الآية ، وقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالى ، وهذا القول وإن لم يكن معمولا به عند أكثر الفقهاء هو الأحرى بهذه الأمة اليوم رجوعا بالأحكام إلى ظواهر القرآن وإلى آراء الصحابة والتابعين وهم أعلم بالقرآن ، والمسلمون اليوم أحوج لاتباع ظواهر الكتاب . ولما فرغ من الكلام فيمن حضر القسمة من هذه الطوائف رجع إلى الكلام فى اليتامى فخبر أوصياءهم قائلا (وليخش)

الأولياء

الأولياء (الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) فليفعلوا بأولاد غيرهم مايفعلون بأولادهم من البر والشفقة والرعاية وحفظ الأموال والتربية الصادقة وتعليمهم العلم وإدخالهم المدارس أوتعليمهم الصناعات ، هذا هو الواجب عليهم (فليتقوا الله) فى أمر اليتامى بفعل ماتقدم (وليقولوا قولا سديدا) مثل مايقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب والتعليم مع الإخلاص : ثم أنذر الظالمين من الأوصياء لليتامى فقال (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) ظالمين (إنما يأكلون فى بطونهم) ملء بطونهم (ناراً) مايجر إلى النار ويئول إليها . عن أبى بردة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يبعث الله قوما من قبورهم تأجج أفواههم نارا فقيل من هم ؟ فقال ألم تر أن الله يقول : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا» (وسيصلون سعيرا) نارا موقدة مسعرة ، وإنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع فى الكلام ، ومعناه أن أكل مال اليتيم ظلماً يفضى به إلى النار وخص الأكل بالذكر مع أن جميع الإتلاف مثله لأن الأكل معظم المقصود . وعن أبى سعيد الخدرى قال حدثنا النبى صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم قلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا» . فهاهو ذا ذكر الميراث إجمالا وأن الرجال والنساء لهم نصيب منه؛ وكذلك الأقارب الذين لم يذكروا فى الآية الآتية والمساكين واليتامى لهم بعض الحقوق واليتامى الذين لهم وصى عليه أن يكون أبا لهم وأن يعاملهم معاملة أبنائه ، ثم حذرهم العقاب فى جهنم إذا فرطوا . ثم أخذ يبين أصحاب التركات من الورثة فقال (يوصيكم الله فى أولادكم) يأمركم ويعهد إليكم فى شأن ميراث أولادكم ، ثم فصله فقال (للذكر مثل حظ الأنثيين) أى يعد كل واحد باثنتين حيث اجتمع الصنفان (فإن كنّ نساء) أى فإن كان الأولاد نساء خلصا ليس معهن ذكر (فوق اثنتين) أى زائدات على اثنتين (فلهن ثلثا ماترك) المتوفى منكم (وإن كانت واحدة فلها النصف) أى وإن كانت المولودة واحدة والاثنتان حكمهما حكم ما فوقهما فلهما الثلثان عند أكثر العلماء (ولأبويه) أى أبوى الميت (لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له) للميت (ولد) ذكر أو أنثى ولكن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة وما بقى من ذوى الفروض بالتعصيب (فإن لم يكن له) يعنى للميت (ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث) يعنى أن للميت إذا مات عن أبوين وليس له وارث سواهما فإن الأم تأخذ الثلث بالفرض ويأخذ الأب الباقى بالفرض والتعصيب ؛ فيكون إذن المال بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين . ولما اعتبر الشرع أن لها نصف ما للأب وجب أن يعتبر ذلك فيما لو كان معهما أحد الزوجين فيعطيان الباقى هكذا أى يكون لها ثلث مابقى بعد مايأخذه أحد الزوجين خلافا لابن عباس حيث يعطيها ثلث المال كله فتفضل الأنثى على الذكر أى تفضل الأم على الأب ، وهو خلاف وضع الشرع (فإن كان له إخوة) ذكورا كانوا أو إناثا (فلأمه السدس) أى فلأم الميت إذا كان معها أب ، والمراد بالأخوة الذين يردونها من الثلث إلى السدس مازاد عن الواحد ، وهو قول كثير من الصحابة كعمر وعثمان وعلى والجمهور فإذا مات رجل عن أبوين وأخوين فللأم السدس والباقى وهو خمسة أسداس ، للأب سدس بالفريضة والباقى بالتعصيب ولا شىء للإخوة فكأنهم حجبوا أمهم ورد السدس لأبيهم الذى كان هو لا أمه ينفق عليهم ، ثم قال سبحانه هذه الأنصباء للورثة (من بعد وصية يوصى بها أو دين) ثم قال سبحانه (آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) يقول آباؤكم وأبناؤكم ؛ يعنى الذين يرثونكم لاتعلمون أيهم أنفع لكم فى الدين والدنيا ، فربما ظن الإنسان أن أباه أنفع فأعطاه أكثر أو عكس القضية فأعطى الابن ؛ فالله تولى أمركم ودبر لكم مافيه المصلحة ولو وكله إليكم لتحيرتم فلا تعلمون لمن تعطون ومن تمنعون ، ثم قال فرض ذلك (فريضة من الله) وهذا مصدر مؤكد (إن الله كان عليما) بالمصالح والرتب (حكيما) فى قسمة الميراث (ولكم نصف ماترك

أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن) والمراد بالولد الوارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وإن سفل كان ذكرا كان أو أنثى منكم أو من غيركم (من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) فللرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما فى النسب وكما فى الأبوين فى مسألة الأب والأم إن لم يكن إخوة ، وإنما يستثنى أولاد الأم كما سيأتى وللعتقة وتستوى الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن (وإن كان رجل يورث) الجملة صفة رجل (كلالة) خبر كان ، وهو من لم يخلف ولدا ولا والدا فهى قرابة ليست من جهة الوالد والولد ، والكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال ، قال الأعشى :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من جوى حتى تلاق محمدا

فاستعيرت لقرابة ليست بالبعضية ثم وصف بها الموروث والوارث أى ذا كلالة (أو امرأة) عطف على رجل (وله أخ أو أخت) ومثله المرأة والمراد بالأخ والأخت هنا من الأم المذكورة ، وفى قراءة أبىّ وسعد ابن مالك ـ وله أخ أو أخت من الأم ـ وجواب الشرط قوله (فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) سوّى بين الذكر والأنثى فى القسمة .

واعلم أن مقتضى الآية أن لا يرثوا مع الأم والجدة فجاء الإجماع وخصص المفهوم بميراثهم مع الأم ومع الجدة، وقد أجمع العلماء على أنهم شركاء فى الثلث إذا كانوا اثنين فصاعدا والذكر كالأنثى وقوله (من بعد وصية يوصى بها أو دين) مفهوم (غير مضار) لورثته بالزيادة على الثلث فى الوصية أو بنفس الوصية بأن يقصد المضارة بها لا وجه الله أو بالإقرار بدين لا يلزمه وهو حال من فاعل يوصى، وقوله (وصية من الله) مصدر مؤكد (والله عليم) بالمضار وغيره (حليم) لا يعاجل بعقوبته ، ثم أشار إلى الأحكام المذكورة فقال (تلك حدود الله) شرائعه التى هى كالحدود المحدودة (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) هذه الآيات ظاهرة .

لطيفتان

(الأولى) حصر الفروض المتقدمة فى جدول ليكون أقرب للفهم .

(الثانية) كيف تكون التعاليم الإسلامية فى مستقبل الزمان .

[اللطيفة الأولى] إذا مات الميت وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله ثم تقضى ديونه إن كان عليه دين ثم تنفذ وصاياه ، ولا يجوز أن يوصى بأكثر من الثلث لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد بن أبى وقاص قال : « الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » أخرجاه فى الصحيحين، فالوصية بأكثر من الثلث لا تجوز ويحل النقص عنه ، ولا تجوز الوصية لوارث ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر» ثم ما فضل بعد الدين والوصية يقسم بين ورثته . والوارثون من الرجال عشرة ، والوارثات من النساء سبع ، ومنهم من لا يحجب بالحرمان نحو الأبوين والولدين والزوجين . والورثة أصناف صنف يرث بالفرض كالزوجين والبنات، وقسم يرث بالتعصيب كالبنين والإخوة ، وقسم يرث بالتعصيب تارة والفرض أخرى كالأب والجد ، وقد عرفت أصحاب الفروض فى الآيات ؛ فأما العصبة فهى اسم لكل من يأخذ المال جميعه إذا انفرد كالأب والابن ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفروض . وأسباب الميراث النسب والنكاح والولاء كولاية المعتق ، فإن المعتق وعصباته يرثون المعتق بالفتح والكافر لا يرث المسلم والمسلم لا يرث الكافر ، وهكذا القاتل لا يرث المقتول عمدا كان القتل أو خطأ .

همة علماء الإسلام في علم الفرائض المستخرج من هذه الآيات وأمثالها

تعجب أيها الذكي في أمر أمة الإسلام وعلماء الإسلام ، وانظر كيف سلكوا سبلا وذللوا طرقا وعبدوها فأصبحنا نتهجها ولا ندري كيف سلكوها ـ آيات ها أنت ذا تقرؤها أمامك في ثنايا هذا التفسير وفي المصاحف سهلة واضحة ، فما أسهل أن يفهم الإنسان أن البنت لها نصف ماللابن ، هذه أمور سهلة ، ولكن الدين وإن جاء سهلا يحمل متبعيه على البحث والتنقيب في الأسرار التي ينطوي عليها هذا السهل . انظر رعاك الله هذه الآيات الواضحات وتأمل كيف أحوجت آباءنا إلى تدوين علم يسمى « علم الفرائض » أدخلوه ضمن علم الفقه وأبانوا العصبة وذوي الفروض وأصحاب الثلث والنصف والسدس والثمن وكيف يحجب أحدهم الآخر ، فدخلوا في بحر لجي وتغلغلوا في المسائل ، فبعد أن تراها في القرآن واضحة سهلة لاعوج فيها ولا أمتا ، ترى علم الفرائض عويصا شديد المراس صعبا إلا على ذوي الجد والاجتهاد . ولما كانت التركات يحوزها نوع من الحساب جاسوا خلال العلوم وبحثوا في الفنون وجدوا في السير حتى استنبطوا حسابا للفرائض واشتقوه من علم الحساب العام، وعلم الحساب العام مشتق من علم الارثماطيقي أي علم خواص الأعداد ؛ فياعجبا كل العجب لهؤلاء الأعلام غاصوا في بحار العلوم فاستخرجوا در الحساب وحلوا به مسائل الفرائض ليسهل لهم قسمة التركات وحفظ نظام الأسرات وإيفاء حقوق الأبناء والبنات ، ضربوا في كل علم بسهم ، ومدوا أيديهم إلى فرع من فروع العلم الرياضي الذي هو أحد أقسام علم الفلسفة الشاملة لسائر العلوم لجذبوه حتى استظلت به سهام التركات وانتظمت به الأسرات ؛ فها أنا ذا أبين لك نموذجا لما صنعوا حتى تقرأ في هذا التفسير صفوة علم الفرائض أولا وفروع علم الحساب ثانيا لتكون على بينة من أمر أمتك وأجدادك وعلمائهم ، وكيف كانوا جيدي النظر واسعي الفكر ، فاستعانوا بالعلوم على الاستنباط من القرآن ولم يدخروا وسعا في استنباط العلوم واستخدام مايحتاجون إليه من علوم الحكمة العامة وكيف مات المتأخرون وجهلوا سائر العلوم ، واقتصروا على علم الفقه جهالة وخسة وقصر نظر ، وإذا قرءوا الفرائض تلقفوا حسابها جمعا وضربا وطرحا وقسمة وهم لايعلمون من أين هـــذا العلم ومن فروع أي العلوم هو ، ويجهلون أن آباءهم قد عرفوا العلوم الحكمية وهم الذين اصطفوا هذا الفرع من الحساب العام ، ألا ساء مثلا القوم الجاهلون ؛ ولكني أقول لك لاتحزن ولا تأسف وأبشر فإن النهضة الإسلامية بشائر هذا أوانها ، ولرقي الشرق زمانا هو مانحن فيه .

واعلم أن المفكرين في الإسلام اليوم أخذوا فعلا ينسجون على منوال الأوائل ، ودليلك على ذلك مافي هذا التفسير . فقل للآباء ناموا قريري العين واعلموا أننا اليوم أخذنا ننسج على منوالكم ؛ فلئن خدمتم الأمة بالعلوم ودونتم في الفقه حسابا استخلصتموه من علم الحساب فنحن نقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوما على الآباء نتكل

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل مافعلوا

قد خدموا أمة الإسلام في الأحكام الشرعية لحفظ كيان الأمة ، فحق علينا أن نبين من الآيات العلوم الكونية حتى يلتحق الشرق بالغربي .

يا أمة الإسلام آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها ، الله أكبر جل العلم وجلت الحكمة . هذا زمان العلوم هذا زمان ظهور نور الإسلام هذا زمان رقيه ، ياليت شعري لماذا لانعمل في آيات العلوم الكونية مافعله آباؤنا في آيات الميراث . ولكني أقول الحمد لله الحمد لله إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض لأنه فرض كفاية ؛ فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله وهي فرض عين على كل قادر كما هو مقرر في باب الشكر للامام الغزالي وهي نفس علم التوحيد الحقيقي ، والمعرفة والشكر يكونان على كل

امرئ بقدر طاقته ، إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق ، والله يهدي من يشاء إلى سواء الصراط .

إذا عرفت هذا فهاك ماوعدتك به من خلاصة علم الفرائض ، ثم أتبعه بذكر فروع علم الحساب لتعرف كيف كان جد آبائنا الأكابر في علوم الدين .

خلاصة علم الفرائض

اعلم أن أقرب طريق لمعرفة الفرائض الميراثية ماوضعه العلامة ابن الهائم ، وهو جدول لطيف مشتمل على ثلاثين مربعا في النصف الأعلى ثم هو أشبه بمثلث ، ويمكن كل مطلع عليه ممن لم يقرءوا علم الميراث أن يعطي كل ذي حق حقه في أسرع وقت إذا اطلع عليه مراعيا التنبيهات التي جعلت مفتاحا له ، وها هو ذا ملحق بالتفسير ويمكن استخراج مئات المسائل منه ، وهذا من نعمة الله التي أفاضها على قلوب الفضلاء من هذه الأمة انتهى .

وإذا عرفت خلاصة من علم الفرائض من الجدول الملحق فهاك فروع الحساب المستنبطة من علم الخواص العددية .

علم الحساب العام ، وهو علم بقواعد يعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات المخصوصة وله تسعة فروع :

(١) علم حساب الهواء وهو الذي به يعرف حساب الأموال العظيمة في الخيال بلا كتابة .

(٢) وعلم حساب التخت والميل وهو العلم المشهور في مدارس الشرق والغرب الآن المكتوب بالأرقام الهندية المعروفة المرتبة ترتيبا يدل على الآحاد والعشرات والمئات الخ .

(٣) وعلم الجبر والمقابلة وهو معروف .

(٤) وعلم حساب الخطأين وله طرق مخصوصة مختصرة يتعرف بها المجهول .

(٥) وعلم الدرهم والدينار وهو العلم الذي يعرف به من المسائل ما لا يعرف بالجبر .

(٦) وعلم حساب العقود أي عقود الأصابع ولهم طرق في استخراج المجهول بها وهو ينفع لمن لا يحسن الكتابة ولمن كان مسافرا الخ .

(٧) وعلم التعابي وهو الذي به يعرف ترتيب العساكر في الحروب .

(٨) وعلم حساب النجوم الذي به يعرف حساب الدرج والدقائق والثواني وهكذا .

(٩) وعلم حساب الفرائض وهو الذي نحن بصدده وبه يعرف قسمة التركات مثل تصحيح السهام لذوي الفروض إذا تعددت وانكسرت أو زادت الفروض على المال ، وهذا حساب جزئي باعتبار أحكام الفقه انتهى .

هذه هي الفروع التي تفرعت من علم الحساب وطبقها قدماؤنا على فروع الحياة ؛ فالمجاهدون اتخذوا علم التعابي وعلماء الفرائض علم حسابهم ، والتجار في الأسفار علم حساب العقود ، ورجال الدواوين علم التخت والميل .

هذه أعمال آبائنا ، وها نحن أولاء في القرن الرابع عشر الإسلامي نحذو حذوهم في سائر أعمال الحياة ونذكر خلاصة علوم الشرق وعلوم الغرب ، وعجائب صنع الله عز وجل وهي التي بها قامت المدنية الحاضرة في تفسير الآيات ، وقد انتشرت هذه الفكرة بين المسلمين في هذا الزمان وهم بها آخذون وهم بها مستبشرون إلا من أكل الحسد قلوبهم من صغار الفقهاء « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

جوهرة

قد عرفت أن آيات الميراث تبعها علم الحساب ، ولا جرم أن التركة لاتقسم على الوجه الأكمل إلا بمساحة

الأرض إذا اشتملت عليها ، والمساحة من فروع الهندسة ولابد للمساحة من علم الفلك ، لأن علماء المساحة الراسخين يضطرون إلى الاعتماد على بعض النجوم كما يضطر الملاحون لملاحظة النجوم فى سير السفن ، هذا هو الإسلام .

[اللطيفة الثانية] كيف تكون التعاليم الإسلامية فى مستقبل الزمان ؟ إن مفتاح التربية المستقبلة فى آية اليتامى ، يقول الله تعالى فى هذه الآيات «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

اعلم أن الله عز وجل قد رمز فى هذه الآية للتربية الحقيقية الإسلامية ، وسنبرز ما كمن فيها للأمم الإسلامية المستقبلة ليعلموا أن الله عز وجل خبأ لهم كنوز العلم فى القرآن ليستخرجوها وليبحثوا فى نفوسهم وفى الآفاق عما كنز فيها من الجواهر والحكم والجمال والبهاء ، إن النفوس الإنسانية كبحر لجى وكل من الناس لاينال من خبايا نفسه وجواهرها إلا ما قصده ، ولا يستمتع إلا بما أراد ، ويبقى ما كمن فى الأنفس ملقى فيها لايجد من يثيره وينتفع به . ألا فليعلم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أن هذه الآية تدعو حثيثا إلى استخراج جمال النفوس وجواهر الحكم من غورها .

فاعلم أيها الذكى أن التعاليم فى هذا العالم الإنسانى على قسمين : تعاليم بالإرهاب ، وتعاليم بالرغبة والوجدان ؛ فأما تعاليم الإرهاب فهى التى يسلكها الإنسان فى معاملته مع الصبيان والجهال وأصحاب النفوس الضعيفة التى لم تستخرج كنوزها ، كما ترى أن البلور ترتسم فيه الصور بلا صقل ولا تعب ؛ فأما الحديد فلا يقبل الصور إلا بعد العناء فى صقله والتعب فى تحسينه حتى يقبل الصور كما يقبلها البلور ، وفى الحديث : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام » فتفطن لما يلقى عليك أيها الذكى اليوم من جواهر هذه الآية الواردة فى الأيتام وفى الحكم المستودعة فيها . لقد أرشد الله الأوصياء قائلا « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم الخ » .

يقول أيها الناس إنى قد جعلت الرحمة والشفقة والعطف والحنان من الغرائز الممنوحة لأهل الأرض قاطبة ، فتشوا أيها الناس فى قلوبكم وانظروا بعيونكم هل ترون إلا رحمة ممتزجة بنفوسكم وإشفاقا فى قلوبكم ؟ أولا ترون الحيوانات من الخيل والبقر والمعز والغنم ؟ بل الحيوانات المفترسة أودعت فى قلوبها رحمة على أبناء جنسها عامة وعلى أولادها خاصة ، وأنا الذى حكمت عليها أن تأكل الأنعام لحكمة دبرتها وغاية يعرفها الحكماء وأكابر العلماء ، فأى امرىء منكم لم ير فى نفسه ميلا وإشفاقا على الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام ؟ ولو أن المرء خلى وغريزته الأولية لأيقن أن العطف الذى على ولده الصغير هو العطف الذى يجده على جميع الضعفاء وإن دفن تلك الرحمة وأسدل الستار عليها وغطاها بحجب الشهوات تارة والعدوان أخرى ؛ فمن طمع فى مال غيره من الضعفاء كالدول الكبيرة فإن هذا الطمع يسدل الحجب على تلك الغرائز الشريفة فيسترها كما ستر الرحمة التى فى الآساد للبهائم ماطبعت عليه من الافتراس العارض لها .

المحبة والكهرباء

ألا وإن المحبة والمجد والعطف كامنات فى النفوس كمون الكهرباء فى الأجسام .

أيها الناس إن المحبة والمجد كامنان فى نفوسكم كما كمنت الكهرباء فى الأجسام ، أو لاترون أن الزجاج والراتينج أى شمع الختم إذا دلك كل منهما بطرق مخصوصة وقرب لب السيسبان مثلا من الزجاج جذبه إليه وضمه ثم نفر منه وطرده ، فإذا قربناه من الراتينج المدلوك جذبه إليه والتزق به ثم طرده ، فإذا أرجعناه للزجاج قبله وهكذا ، وهذه التجربة البسيطة الصغيرة أوجدت قسمين : كهرباء سميت موجبة وهى الزجاجية وكهرباء سميت سالبة وهى الراتينجية ، وجميع الكهرباء فى الهواء والماء والسحاب والمعادن لا تعدو هذين

القسين ، وهــذه هي التي لما كشفها الناس حملتهم وأطعمتهم وكستهم وحرثت أرضهم وفعلت عجائب لم تخطر بالهم ، وإذا كانت هذه المادة مخلوقة لكم وفيها هذا السر النافع العجيب ، أفلا تكونون أنفسكم أصدق محكا وأعظم مقاسا ، وأنتم لو فتشتم فيها لوجدتم أن فيها ماهو فوق الكهرباء فى إسعادكم ورقيكم وتشييد مجدكم .

انظروا أيها الناس ألم تكن الأعمال الجراحية تعمل لكم وأنتم متألمون أشد الآلام ؟ ألم تستطيعوا أن تأتوا بمخدر يسهل العمل ويقلل الألم ويدفعه عنكم ؟ هذا مثل مما وصلتم إليه .

الترغيب والترهيب فى الآيات

هكذا أنتم تقومون بالأعمال إما طوعا وإما كرها كالأوصياء هنا ، فإن الله تعالى قال لهم فتشوا ضمائركم وانظروا فى نفوسكم ألستم تعاملون أبناءكم برحمة ومودة وعطف وشفقة ؟ فهكذا عاملوا اليتامى واحفظوا لهم أموالهم كأبنائكم ، وهذه الآية يراد منها إثارة العواطف الكامنة فى النفوس التى مبدؤها الرحمة وغايتها سعادة الضمير بما يرى منقوشا فيه من صور الإحسان وما يسمع من الثناء من الناس وما يتصف به من جميل الأخلاق والمزايا الحسان . ولما كانت أكثر النفوس لاتعرف إلا الإنذار والتخويف ولا تفهم الشرف النفسى ولا اللذات العقلية أعقب الآية بالوعيد لهم بأنهم إنما يأكلون النار فى بطونهم وسيصلون نارا مسعرة مهددا لهم وزاجرا كأنه يقول : أيها الناس إن سعادة نفوسكم بالإحسان والفضائل التى تشرف بها النفس ، وإذا لم تفهموا فأنا أحذركم نار جهنم بسبب أكل مال اليتيم .

واعلم أن ذكر النار فى هذه الآية ، وفى حديث الإسراء المتقدم وهو أنه يؤتى بحجر من النار فيدخل فى فيه نازلا فى جسمه ، فإنما ذلك تصوير لما عليه حال الإنسان الآن ، وإن لم يحس به فإن الحرص والطمع والحسد وعدم الرحمة ، كل ذلك مؤلم للنفوس فى هـــذه الدنيا والناس كالمخدرين لايشعرون ، فإذا ماتوا انكشفت السوآت وظهرت العورات .

واعلم أن الناس لايصدقون هذا إلا إذا كانوا مفكرين ؛ فتأمل أيها الذكى ألست ترى أن المال كلما زاد زاد التعب به ، وأن المناصب والأولاد وأمثالها لاتمنع الشرور عن الإنسان بل تزيدها ، وأنا لا أطيل فى هذا المقام ؛ فارجع إليه فى سورة البقرة عند قوله تعالى « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع » .

العمل للمحبة أدوم ، والعمل بالقهر قصير الأجل ، لأقدم لك ما قاله النابغة الذبيانى :

لو أنها برزت لأشمط راهب ... عبد الإله صرورة متعبد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ... ولخاله رشدا وإن لم يرشد

وقال فى هذا المعنى كثير عزة :

رهبان مدين والذين عهدتهم ... يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعـــزة ركعا وسجودا

فانظر كيف جعل النابغة وكثير أن الرهبان والعباد الذين يبكون من خشية العذاب ، إذا سمعوا قول معشوقتيهما تركوا عبادة ربهم وأصغوا إلى حديث هذه الفاتنة الجميلة . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

فالتعليم أيها الناس بالتخويف لايفيد الأمم ، وإنما نتيجة هذا البحث أن الله يحثنا أن نعلم بطرق الترغيب ونستخرج ما كمن فى النفوس بما فيها من الجمال ؛ وها أناذا آت لك بصور من ذلك :

الطريق الأول : أن نذكر سير النابغين فى علم أو عمل أو وطنية ، فليذكر كل أهل قطر سير عظمائهم الذين أفادوا بلادهم بأن علموهم أو أدوا إليهم عملا شريفا أو حفظوا أوطانهم من العدو فيلقفه التلاميذ ذلك

فإن

فإن ذلك يهيج الشعور فى قلوبهم فتمتلئ بالحماسة ويسيرون على منهج سابقيهم ويقلدونهم ويعملون عملهم؛ إن الأمم التى تنسى هذا لامحالة فاقدة مجدها آيلة إلى خرابها ذاهبة إلى الحضيض . هذا هو الذى يرمى إليه قوله تعالى « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » يريد تحريك الوجدان والشعور فلنحرك الوجدان والشعور والمجد بالطرق التى نعرفها وهذه منها .

الطريق الثانى : كثرة النظر فى جمال الطبيعة حتى يعتاد الشاب الحسن والجمال فى هذه المشاهدات المخلوقة فى الأرض والسماء .

الطريق الثالث : أن يكون مع التلميذ مذكرة يحصى فيها ما يستحسنه مما رآه وما ذمه مما مر عليه من الأمور المهمة يرجع إليها عند الحاجة ، فهذه الثلاثة متى اجتمعت فى امرئ جعلته فى مصاف العظماء ونهج منهج الحكماء .

جوهرة فى قابلية الناس للكمال وواجب العلماء فى أمة الإسلام

الناس جميعا قابلون لهذه الفضائل : العلم والقدوة ، كفيلان باستخراج فضائلهم وإن كانوا مختلفين اختلاف المعادن والخشب فى الكهرباء ؛ فالخشب يقل سريان الكهرباء فيه ، والمعدن كثرت قابليته . فليقم الأساتذة فى الإسلام بعلم أبرزه الله فى هذه الآيات ، قدم الله آية الترغيب بالبحث فى النفس عن الرحمة على الترهيب بأكل نار جهنم التى سترها وجودنا فى حياتنا الدنيا وإن كنا نحس بآلام الحرص والطمع أحيانا . رغبنا الله فى إيقاظ العقول لتستخرج فضائلها وهذا أفضل من الترهيب ، إن أمما معاصرة لنا سلكت هذه السبل ، فقلت القضايا كأهل سويسرا يمر الشهر ولاترى أمام القاضى قضية ولامحاماة بل ينصرف كل إلى عمله ، وذلك لأنهم يرضعون الفضائل وحب البلاد مع اللبن يلقنونه فى المهد والتربية والمدارس ، لاتذاكر فى مراكب الترام لاتذاكر فى القطار . يسير الراكب ويضع الأجرة فى صندوق مقفل بحيث لايعلم أحد ماذا دفع . يارب عجب من أمة الإسلام عجب وألف عجب ! إلى متى ديننا يأمرنا أن نوقظ الشعور ؟ نحن من نوع الإنسان ولنا دين الإسلام ، فلم سبقنا الفرنجة من أهل سويسرا ؟ يا ألله إليك أشكو ! التعليم فى الإسلام ناقص أبتر ، تعليم لايثير الفضائل ، تعليم ليس فيه إلا التخويف لم يمل قيد شعرة عن ذكر المخوفات والمزعجات ، مع أنك أنت يا ألله أنزلت فى الكتاب سبعمائة وخمسين آية فيها جمال هذا العالم ، والنظر فى الجمال يدخل فى النفس صور الجمال ، والجمال يجذب بعضه بعضا ، فيجذب مافى نفوسنا من الجمال والفضائل ، أمرت بالبحث فى النفس فى هذه الآيات عن فضائلها ؛ فاقتصر أهل العلم على ذكر النار مع أن النفس الإنسانية فيها مبدأ الكمال والجمال ، يارب لم يعلم الناس أن القرآن فيه تعاليم كثيرة فلم يأخذوا منها إلا قولا واحدا غالبا وهو عذاب الجحيم ؛ فأما الفضائل الكامنة فلم يثيروها ولم يستخرجوها بل تركوها عليها الصدأ « بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم » قد أبنت يا ألله أن الران والصدأ إذا غطى القلب حجب صاحبه عن النعيم ودخل الجحيم ، فقالوا نترك المعاصى فحسب ونعمل الطاعات ولكن لم يفكر أكثر العلماء فى جمال الطبيعة والسير الشريفة عند التعليم إلا قليلا منهم مع أنهم لايتقنونها .

حكاية وبشارة بمستقبل التعليم فى الإسلام

قال لى صديق تعلم فى أوروبا سنين طويلة ، هل يمكن أن تعم الأمانة الناس والصدق ؟ قلت له نعم ! فأنكر ذلك أشد الإنكار ، قلت له : فإذا برهنت على ما أقول ببرهان تشاهده فى منزلكم هنا ؟ فقال : يكون عجيبا ! قلت : ألم تجد أحدا زوج أختا له جميلة لرجل وهى أجمل من امرأته هو ؟ قال بلى ! هذا كثير ؟ قلت له : أليست هذه الأخت أنثى كالإناث والطبع يميل إليها بشهوة الطبيعة ؟ قال بلى ! فإنا نجد المجوس وهم

من نوع الإنسان يتزوجون بناتهم وأخواتهم ، قلت له حسن : فالذى منع طبائع المسلمين والنصارى أن تكون كطبائع المجوس أليس هو التعليم والبيئة ؟ أولست تجد أن العامة والجهلاء فى البلاد والقرى المصرية لا يرضون بسرقة حصر المسجد وقنديله وهم يسرقون كل شئ ؟ أفلست ترى أن ذلك من البيئة والعادة المستمرة فى احترام المساجد واحترام الأرحام بحيث يرى الشاب أن أخته كأنها مقدسة وأمه كذلك وبنته لا يخطر بباله أن ينالها بسوء ؟ لعمرى إن هذا ليس من الطبيعة فى شئ إنما هو من التعليم؛ فالتعليم أيقظ فى النفس فضائل أخرى أوجدها ، وقد كانت فيها كامنة ، أفلست ترى ما تمتع به أهل سويسرا من الأدب والفضل ؟ نحن أهل الشرق أولى أن نناله ونحن آباؤهم وأسلم منهم عقولا وأصح منهم جسوما وأقدم مدنية ، قال بلى ! أما الآن فقد آمنت بقضيتك وصدقت كلتك ، قلت له : أنا أشعر أن مستقبل الأمم الإسلامية سيكون على هذا المنوال ولو بعد حين ، وأنهم ينالون هذا النعيم فى الحياة وتقل القضايا وترفع الرزايا ، ويقوم الوجدان بدل القانون والإحسان مقام السجان ، والمعرفة مقام الشر والسفه ، والمعاونة بدل المخاصمة . أليس هذا يشير له آيات المحرمات من النساء ؟ وكأنه يقول أنا حرمت الأمهات والبنات حتى لم تعد لكم حاجة فيهن مع أن الطبع يقتضيهن ، وذلك لما أبرزتم ما كمن فى نفوسكم من الحمية والشرف ؛ هكذا فلتفعلوا فى سائر التعاليم كقضية اليتامى ، أليس هـــذا مقتضى ماقيل : « لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » وما قيل : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » بالحب قامت السموات والأرض. ومن هذا السر حديث : « الحياء من الإيمان » .

فليكن كل قصدك أيها الذكى نشر المعرفة وبث السير الجميلة والقدوة الحسنة ، وليكن هذا من الإسلام فذلك أرقى من التهديد ، وليقم فى البلاد مصلحون على هذا النظام وليجدد التعليم على هذا الأساس ، وينبذ ماعداه إلا للنفوس التى هى كالخشب المسندة ؛ فأما أمثالك فليس لهم غير إثارة الجمال فى نفوسهم والحسن والكمال انتهى .

المَقْصِدُ الرَّابِعُ

فى صلة الذكر والأنثى وأحكام اختلاطهما بعقد أو بغير عقد

وَاللاَّتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً * إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ
إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ
وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ
آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ
وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ
اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا
مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ
مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا
أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا
خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ
مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا
فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا * وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا * الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ، وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ، فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا *

فى هذا المقصد ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى تعدّى حدود الله المذكور قبل هذا المقصد وكيف يوبخ الزناة وتقطع صلتهم بالناس إلى قوله « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

الفصل الثانى : فى المحرمات من النساء إلى قوله « والله غفور رحيم » .

الفصل الثالث : فى أحكام عامة للنساء وللأموال وبيان الصلح بين الزوجين الخ .

الفصل الأول : التفسير اللفظى

(واللاتى يأتين الفاحشة) الزنا لزيادة قبحها وشناعتها (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) فاطلبوا ممن قذفهن أربعة من الرجال تشهد عليهن (فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت) احبسوهن فى البيوت واجعلوها سجنا عليهن بعد أن يجلدن كيلا يجرى ماجرى بسبب الخروج والتعرض للرجال (أو يجعل الله لهن سبيلا) بأن يتزوجن فيستغنين عن السفاح (واللذان يأتيانها منكم) يعنى الزانى والزانية (فآذوهما) بالتوبيخ والتقريع (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) فاقطعوا عنهما الإيذاء وأعرضوا عنهما بالإغماض والستر (إن الله كان توابا رحيما) علة الأمر بالإعراض وترك المذمة والستر بعد الفضيحة . فهذه الآيات لتأديب الزناة تأديبا عرفيا أخلاقيا نفسيا ومن ثبت عليه الزنا منهما يقام عليه الحد ، وقد تحبس المرأة للآية السابقة (إنما التوبة) أى قبولها (على الله) أى أن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده من تاب (للذين يعملون السوء بجهالة) متلبسين بها سفها لأن المذنب سفيه (ثم يتوبون من قريب) أى من زمان قريب، أى قبل حضور الموت لقول الله تعالى «حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن» ولقوله عليه الصلاة والسلام « إن الله يقبل توبة عبده مالم يغرغر » ومن للتبعيض أى فى أى جزء من أجزاء الزمان القريب أى الذى هو ماقبل أن ينزل بهم الموت (فأولئك يتوب الله عليهم)وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله « إنما التوبة على الله » (وكان الله عليما) بإخلاصهم فى التوبة (حكيما) والحكيم لايعاقب التائب (وليست التوبة للذين) إلى قوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) فيه تسوية لمن لم يتب حتى يغرغر بالميت كافرا فى أن كلا

منهما

منهما لايعتد بتوبته تغليظا على من أخر التوبة وتشديدا عليه حتى جعل كمن مات كافرا (أعتدنا لهم) أى هيأنا لهم وأعددنا لهم (عذابا أليما ، يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها) كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقى ثوبه على امرأته وقال : أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول ، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ، وإن شاء منعها من الزواج حتى تفتدى بما ورثت من زوجها (ولا تعضلوهن) أيها الأزواج لاتحبسوا النساء من غير حاجة ورغبة حتى ترثوا منهن أو يختلعن بمهورهن ، وأصل العضل التضييق ، فيقال : عضلت الدجاجة ببيضها ، يقول : ولا تحبسوهن لتضيقوا عليهن لعلة (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف (وعاشروهن بالمعروف) بالإنصاف فى الفعل والإجمال فى القول (فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن ؛ فالنفس قد تكره ماهو خير كثير ، وقد تحب ماهو شر (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) تطليق امرأة وتزوج أخرى (وآتيتم إحداهن قنطارا) أى إحدى الزوجات مالا كثيرا (فلا تأخذوا منه) من القنطار (شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟) لأجل البهتان والإثم أو باهتين آثمين ، وهو استفهام توبيخ وإنكار ، ثم قال منكرا لاسترداد المهر (وكيف تأخذونه) (و) الحال أنه (قد أفضى بعضكم إلى بعض) بالملامسة ودخلتم بها وتقرر المهر (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) عهدا وثيقا وهو حق الصحبة والممازجة ، وميثاق الله الذى أخذه عليكم فى شأنهن من قوله تعالى « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) ومن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » انتهى التفسير اللفظى .

يقول الله تعالى إذا أتى الفاحشة النساء وشهد أربعة عليهن وأقمتم الحد عليهن فاحبسوهن فى البيوت إذا رأيتم أن الحد لم يزجرهن حتى يجعل الله لهن سبيلا بالتزوج المغنى لهن عن السفاح ، وكذلك إذا درىء عنهن الحد لشبهة . وإنما قرر حبس المرأة لأنها لاتكون الفاحشة معها إلا إذا كانت خارجة السجن ؛ فأما الرجل فلا يحبس لأنه يقوم بأمور المعاش . وعلى الحاكم أن يأمر بتقريعهما وتوبيخهما والإيذاء حتى إذا تابا ورجعا يعفو عنهما ، وهذا التقريع والتوبيخ لمن شهد عليه شاهدان فلم يقم عليه الحد أو ثلاثة شهود أو كان أربعة شهود ودرىء الحد عن المتهم ؛ فحينئذ لابد من التقريع والتوبيخ ، فإذا تاب كل منهما بطل التقريع لأن الله يتوب على من تاب توبة مقبولة مالم تكن فى حال الاحتضار .

ولما أتم الكلام على عقاب الزناة وحبس الزانيات وإيذاء الجنسين لفعل القبيح أخذ يوصى الرجال عليهن ويقول : أيها الرجال لاترثوا النساء كرها كما ترثون المتاع ، إن الميت له ماله ، والزوجة انحل عقد النكاح بموته ، وليست ملكا له حتى يملكها أقاربه ؛ فإياكم أن تمنعوها عن زواج أو تأخذوا منها مالا أو تمنعوها ميراثا فى مقابلة إطلاق سراحها ، وعليكم أيها الأزواج أن لاتجعلوا العيش معهن لغاية مالية وفائدة لكم مضارة لها ، بأن تأخذوا بذلك بعض ما أخذن من المهر وأنتم تتربصون موتهن فترثونهن ، وإياكم أن تفعلوا ذلك إلا إذا أظهرن عدم العفة وعاملنكم معاملة جائرة بنشوز وسوء عشرة ؛ فحينئذ لكم عضلهن والتضييق عليهن ، وعاشروهن أيها الأزواج بالمعروف ولا تطيعوا أهواءكم فى كراهتهن فرب مكروه كان خيرا كثيرا ، ورب محبوب كان شرا مستطيرا . أقول ومن قرأ ماذكرناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى « وبشر الصابرين الخ » عرف فوائد المكروه وأن الحياة لاسعادة فيها إلا بالمشاق والمكاره ، فلا نطيل به هنا فارجع إليه ليظهر معنى هذه الآية ، ثم قال : وإذا أعطيتموهن شيئا فإياكم والرجوع فيه ولو كان قنطارا ، وكيف ترجعون فى العطية وقد بذلتموها ، وتردون الهدية وقد أوليتموها ، وليس من المروءة استردادها ، ولا من الشهامة إرجاعها بعد ماكان بينكما من الصفاء والمحبة والوفاء ، إن هذا لشين مبين وظلم عظيم .

جوهرة من جواهر القرآن فى مستقبل الإسلام

تعجب أيها الذكى من نوادر القرآن وغرائبه ، واعجب معى لهذه الأضواء الساطعة فى سماء العلم التى أشرقت فى ثنايا سطور هـذا التفسير ، ياليت شعرى هل يقرأ ما أكتب المسلمون ، وهل يعجبون معى فيما أقول !

انظروا أيها العلماء ؛ انظروا أيها الأمراء ، فكروا أيها الحكماء فى معنى هذه الآيات ، يقول من قبل آيات «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية الخ» ولقد شرحناها هناك، ويقول هنا «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » ويقول فى آية أخرى « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » .

هذه أنواع ثلاثة من أنواع التربية قد سطرها القرآن والمسلمون عن الأنفس والآفاق لاهون نائمون ولقد يكتفى أكثر العقلاء والعلماء بالأحكام الفقهية والبيوع الشرعية والقضايا الميراثية وهم عن حقائقه معرضون ، فثل هذه الآيات ينظر فيها العالم إلى الخلاف الذى بين العلماء ، فمن قائل إن آية « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » منسوخة ، ومن قائل إنها فى اللاتى يأتين السحاق مع بعضهن ، وفى الثانية وهى : « واللذان يأتيانها منكم » قالت طائفة إنها فى اللواط ، وقالت طائفة أخرى إنها فى الزناة وقد نسخت . ولقد اصطفيت لك اللب من كلام العلماء ، ونبذت القشر وفسرت الآية بما ينطبق على قول بعض المفسرين مراعيا الفوائد العلمية والعجائب النفسية والأخلاق الإنسانية والطبائع البشرية .

إن القرآن نزل منذ أربع وأربعين وثلاثمائة وألف سنة ، وهذه الآيات تقرأ والناس مصروفون عنها وعن أمثالها بأمرين :

(الأول) أن يكتفوا بأقوال الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين فى الحدود والبيوع وما أشبهها ، ويقولون قد تم الأمر فلا حاجة لبحث ولا تنقيب ؛ اللهم إلا الاطلاع على آراء العلماء فى هذه الآيات ، ويكون ذلك مجرد اطلاع .

(الثانى) أن يكتفوا بالقرآن ويعبدوا الله بالتلاوة ، وهذان الأمران هما اللذان أصبحا حجابا بين المسلمين وبين القرآن . وها أنذا أريد أن يرفع الحجاب ويظهر اللباب ويطلع الناس على جمال القرآن وعجائبه مع اتقاء مخالفة الأولين والجنوح فى التفسير إلى رأى من آراء السابقين حتى لانكون مبتدعين فى التفسير ولا مخالفين المتقدمين ؛ فاصغ لما أتلو عليك من جمال التربية الإسلامية من هذه الآيات . ولأقدم مقدمة فأقول :

اعلم أن العوالم المشاهدة لاتخلو من واحدة من ثلاث أحوال : إما أن تكون مضيئة كالنار والشموس ، وإما أن تكون معتمة كالمواد الأرضية من الحجر والشجر والطين ، وإما أن تكون شفافة كالماء والهواء والبللور والزجاج المصنوع من الرمل المخلوط بالمغنيسيا والقلى : فالأول مايضىء على غيره ، والثانى ما يحجب النور عما وراءه ، والثالث مايقبل الضوء والظلمة ولا يحجبهما عما وراءه .

إذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن النفوس البشرية ثلاثة أقسام : قسم مضىء ، وقسم مشف ، وقسم معتم .

فالأول هم أصحاب النفوس الشريفة فهؤلاء يمنعهم عن الرذائل إشراق نفوسهم فقيل لهم « وليخش الذين لو تركوا الخ » يقول انظروا بفطركم السليمة وعقولكم المضيئة فى أمر اليتامى ، وقد قدمنا أن هذه فتح باب لتربية العقول بطرق خاصة .

والثانى هم المتوسطون الذين لاقدرة لهم على الاستنتاج من أنفسهم ، فأمثال هؤلاء يقرعون ويزجرون باللسان ويوبخون إذا اقترفوا الذنوب كفعل الزنا سواء أقيم الحد كما فى البكر أم لم يقم الحد وكانت الشهادة

لم تتم بالأربعة ؛ فحينئذ يوبخون ويقرعون الخ ، وهكذا يفتح باب التقريع والتوبيخ . وأقول ذلك ليفتح المسلمون هذا الباب وليشهر على ألسنة الجرائد والصحف من لم يرتدع فى الدائرة التى هو فيها حتى يرجع إلى رشده ، يقول الله « فآذوهما » والإيذاء فى كل قبيل بحسبه ، إن هؤلاء أشبه بالجسم الشفاف ، ولعمرى إن التأديب بهذه الطريق أقرب إلى السلامة وأبعد عن الجهالة وأسعد للأمم وأبعث لرقى الهمم ، إن المرء لا يرقى إلى المعالى إلا إذا أحس بالمسئولية ولا إحساس بها إلا بإثارة ما كمن فيها من عوامل الشرف ؛ فلتجعل الجرائد وسيلة لتعيير من يتهكون حرمة الآداب . إن الجرائد فى الأيام الحاضرة بها إقامة الحرب والسلم ونظام الأمم وتأديب الغاوين ومدح الناصحين وإرشاد الضالين وهداية الغافلين ؛ فلتجعل وسيلة إلى ردع من ضل بالهوى وغوى وأعرض عن نفع الجمهور .

وأما القسم الثالث فهم الذين فرغت الحيلة فيهم وعجزت الزواجر عن ردعهم ، فأولئك يقطعون من جسم الأمة قطعا وينبذون منها نبذا كأن يقتل القاتلون ويرجم الزانون إذا لم تدرأ الحدود بالشبهات وقامت على أعمالهم الشهادات .

واعلم أن الجسم المعتم قد يقبل الصقل كالحديد فإن الحيلة تجعله يقبل صور المرئيات ويرى الإنسان وجهه كالمرآة المعلومة ، فهؤلاء الذين جعلناهم كالأجسام المعتمة يمكن صقلهم بالعلوم ، فإن لم ينجع فيهم القول سللنا عليهم سيفا قاطعا وفصلنا أرواحهم عن الأجسام فزاروا الرموس بعد قطع الرءوس ، هذا هو الصراط المستقيم ولتعلم أن الله ليس يريد الانتقام وإنما هو مربى الأنام وما العقاب إلا اتقاء الشرور ، فإذا أثيرت حمية النفوس بالمباحث العلمية الجلية وتواصى الناس بالحق فى معاملة أولئك الجناة فنبذوهم ظهريا وتركوهم كما ترى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فى عشرات الأيام ، وستقرؤها فى سورة التوبة فقد هجرهم الرسول والمؤمنون ولم يعف عنهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ونزلت الآية بالعفو عنهم ؛ هكذا فعل الله فى سياسته مع المتخلفين ، فقوله هنا « فآذوهما » فتح لهذا الباب ، ومن تاب بالتقريع وصلح فليعف عنه وليعامل معاملة الصالحين ، هذا هو السر الذى أردت إظهاره لتقرأه المسلمين وتشرحه المخلصين .

الفصل الثانى

(ولا تنكحوا مانكح آباؤكم) أى التى نكحها آباؤكم ، وبينه بقوله (من النساء إلا ماقد سلف) استثناء من المعنى كأنه قيل تستحقون العقاب بنكاح مانكح آباؤكم إلا ماقد سلف قبل التحريم . روى أنه لما توفى أبو قيس وكان من صالحى الأنصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه ، فقالت : إنى أتخذتك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستأمره فأتته فأخبرته فنزلت هذه الآية وحرم نكاح زوجة الأب (إنه كان فاحشة) أقبح المعاصى (ومقتا) يورث أشد الغضب من الله وغاية الخزى والعار (وساء سبيلا) وبئس ذلك طريقا .

رجع فى هذا المقام إلى تقبيح المعاصى والذنوب بالتقبيح والتشنيع والذم ، وهذا هو الذى ستتبعه الأمة الإسلامية للطبقة الوسطى ، فالذم والتشنيع ورسم صور الأشياء وعرضها على الناس فيرون قبحها تارة وحسنها أخرى ، هو الذى يستخرج من نفوس الأمم ما كمن فيها من الاستحسان والاستقباح كما قدمناه فى قوله تعالى « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » وهنا يقول « فاحشة ومقتا وساء سبيلا » كل هذا للتنفير من الذنب وكان يكفى أن يقول إنى أعذبه بجهنم وأسلط عليه أنواع العذاب فى الآخرة ، لم يقل هـذا ؛ بل استعمل التشنيع والتنفير من الذم . فليفتح هذا الباب المسلمون ولتكن المؤثرات النفسية هى محور أعمالهم كما تقدم . ولقد بلغنا لهذا العهد أن الألمانيين لم يكثر نسلهم إلا بعد أن أمر ملوكهم الأساتذة فصوروا صورتى زوجين

ومعهما أبناؤهما وبناتهما وأمامهما أعمال مختلفة ، فهذه تطبخ الطعام ، وهذه تحضر الأواني ، وهذه تدبر أمر المنزل ، والأبوان جالسان منشرحان ، وصوّرت زوجين آخرين عقيمين متزوجين ضعيفين ، لا ولد لهما ولا بنت تحولهما ، ولا مؤنس لهما ، وعرضوا هذه الصور على نظر الجمهور ؛ فانكبوا على الزواج وكثر نسلهم وكثر جمعهم ، وذلك جزاء المفكرين العاقلين .

ثم أخذ يشرح بقية المحرمات من النساء فقال (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت) أي حرم نكاحهن ، والأم من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت ، والبنت من ولدتها أو ولدت من ولدها وإن سفلت ، والأخت إما من الأب وإما من الأم وإما منهما ، والعمة كل أنثى ولدها من ولد ذكرا ولدك ، والخالة كل أنثى ولدها من ولد أنثى ولدتك قريبا أو بعيدا ، وبنات الأخ وبنات الأخت يتناول القربى والبعدى ؛ فالمحرمات بالنسب سبع بنص الكتاب .

واعلم أن كل ماحرم بالنسب يحرم بالرضاع ، فإذا رضعت من امرأة فقد حرمت عليك التي أرضعتك وصارت أماً لك وكل بنت لها صارت أختك وزوجها أباك وأمها جدتك وأخت زوجها عمتك وأختها هي خالتك وأم زوجها جدتك وبنت ابنها بنت أخيك ، فأصبحت من أسرة الرضاعة كما أنك من أسرة النسب . ثم إن الجمهور على أن قليل الإرضاع وكثيره يحرم ، وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد ابن المسيب والثورى والأوزاعي ومالك وابن المبارك وأبي حنيفة وأحمد في إحدى روايتين عنه ، والقليل كالشافعي وعبد الله بن الزبير وأحمد في إحدى روايتين عنه : أن التحريم بخمس رضعات معلومات متفرقات وحجة الأولين أن التحريم في الآية لم يقيد بعدد ، وحجة الشافعي ومن معه الحديث المبين للقرآن . فأما المدة التي يحرم الرضاع فيها فهي مادون الحولين وهو رأى الجمهور ومنهم الشافعي وابن مسعود ومالك وأبو داود . وقال أبو حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا ، فهذا ملخص آراء الأئمة في قوله تعالى (وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) وهذا معطوف على أمهاتكم واكتفى بالأم والأخت عن ذكر الباقي ، وفي الحديث « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » فكل بنت لها سابقة أو لاحقة فهي أخته وهكذا البقية كما تقدم . فهؤلاء أربع عشرة امرأة تحرم ، سبعة بالنسب وسبعة بالرضاع ؛ وإنما ذكر الرضاع بعد النسب لأنه لحمة كلحمة النسب وسيتبعها بحرمة المصاهرة ، وقد تقدم منها زوجة الأب .

فاعلم أنّ من عقد على امرأة حرمت عليه أمها بمجرد العقد وبحرمة أم المعقود عليها تحرم جميع جداتها من قبل أمها كما في النسب والرضاع ، وتحريم الأم وما معها بمجرد العقد مذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين والجمهور وعليه العمل . وقال فريق من الصحابة: إن أم المرأة لاتحرم إلا بالدخول بابنتها وهومذهب زيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وابن عباس في رواية عنه ؛ هذا ملخص ما قالوه في أم المعقود عليها . أما بنتها من رجل آخر فإنها تحرم عليه متى دخل بالأم ؛ وهكذا كل بنت لأبنائها أو بناتها وإن سلفن من النسب أو الرضاع . ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم « أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها ، وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها دخل بها أو لم يدخل » وهذا قوله تعالى عطفا على أمهاتكم (وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) الربائب جمع ربيبة ، والربيب ولد المرأة من رجل آخر، سمي به لأنه يربه كما يرب ولده في غالب الأمر فعيل بمعنى مفعول ولحقته التاء لأنه صار اسما ، وقوله اللاتي في حجوركم مكمل لعلة التحريم ، وكأنه قيل إن بنات نسائكم تربونهن كما تربون أولادكم وهم في حجوركم كأولادكم فقوى شبههن بأولادكم فهن محرمات عليكم ، فذكر الحجور والتعبير بما يدل على التربية علة للتحريم لا لأنه شرط ، وهذا مذهب الجمهور وأخذ سيدنا عليّ بلفظ الآية

وجعل

وجعل التربية لهن شرطا فى التحريم حتى يتحقق حضانة الرجل لهن وتربيتهن ، ولا يكون التحريم إلا بالنكاح الصحيح ، فلو زنى بامرأة لم تحرم عليه أمها ولا بنتها إذا أراد التزوج بهن ، ولا تحرم المزنى بها على آباء الزانى ولا بناته ، فالنكاح هو الذى يحرم مايترتب عليه وجوب الصداق والعدة ولحوق الولد سواء أكان صحيحا أم فاسدا . أما الزنا أو لمس امرأة أجنبية بشهوة أو تقبيلها كذلك بشهوة فلا ، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهرى ومالك والشافعى وفقهاء الحجاز ؛ وخالفهم قوم ، فقال عمران ابن حصين وأبو هريرة وجابر والحسن وأهل العراق إن الزنا يحرم .

ومما يحرم عليه بالمصاهرة أزواج أبنائه أو أبناء أولاده وإن سفلوا من النسب والرضاع بمجرد العقد إذا كانوا من الصلب ، أما الذى تبناه فلا تحرم زوجته وكذلك أخت زوجته بنسب أو رضاع فلا يجمعها معها فى نكاح ولا يجمع وطأهما فى ملك يمين ، وكذلك إذا كانت إحداهما بعقد والأخرى بملك اليمين . وهذا قوله تعالى عاطفا على أمهاتكم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) لا المتبنين كزيد بن حارثة الآتى فى سورة الأحزاب (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف) أى لكن ماقد مضى فإنه معفو عنه (وكان الله غفورا رحيما) فيكون نكاح الأختين فى الجاهلية نافذ العقد ويختار الرجل أيهما شاء حتى لايجمع بينهما ولا يحتاج لعقد جديد على التى اختارها . روى عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : «قلت يارسول الله إنى أسلمت وتحتى أختان ، قال : طلق أيهما شئت» وعطف على أمهاتكم أيضا قوله (والمحصنات من النساء) ذوات الأزواج أحصنهن التزوج ، وفى قراءة والمحصنات بكسر الصاد بمعنى أنهن أحصن فروجهن (إلا ماملكت أيمانكم) من اللاتى سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للسابين والنكاح مرتفع بالسبى . قال أبو سعيد رضى الله عنه «أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج كفار فكرهنا أن نقع عليهن ، فسألنا النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فاستحللناهن» قال الفرزدق :

وذات حليل أنكحتها رماحنا   حلال لمن يبنى بهـا لم تطلق

وقال أبو حنيفة : لو سبى الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للسابى . ولما تم الكلام على المحرمات قال : كتب الله عليكم تحريم هؤلاء (كتاب الله عليكم) ثم عطف على الفعل المضمر الذى ذكرناه قوله (وأحل لكم ماوراء ذلكم) ماسوى المحرمات المذكورة وما فى معناها كالجمع بين المرأة وعمتها وخالتها ، وكالمطلقة ثلاثا لاتحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجا غيره ، ونكاح المعتدة ؛ وهكذا من المحرمات التى ورد بها القرآن أو السنة ، فكل هذه وغيرها تخصص هـذه الآية فهذا من العام المخصوص ، وإنما أحل ذلك (لتبتغوا بأموالكم) تطلبوا بأموالكم أى تنكحوا بصداق وتشتروا بثمن (محصنين) متزوجين ومتعففين (غير مسافحين) غير زانين (فما استمتعتم) تمتعتم به من المنكوحات (فآتوهن أجورهن) حال كون الأجور (فريضة) مفروضة (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) أى فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضى (إن الله كان عليما) بالمصالح (حكيما) فى شريعته وأحكامه . ثم أخذ يبين حكم من لم يقدر على نكاح الحرائر فقال :

واعلم أن من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فله أن يتزوج الأمة المؤمنة وذلك بشرطين :

(الأول) أن لايجد مهر حرة لأنها غالبا غالية المهر ، ومهر الأمة أخف لاشتغالها بخدمة سيدها .

(الثانى) خوف الزنا عند جمع من الصحابة والشافعى وأحمد ، والشرط الأول لايقول به أبو حنيفة رضى الله عنه ؛ فيجوز للحر أن ينكح أمة وإن كان موسرا مالم تكن عنده حليلة حرة .

واعلم أن سبب منع نكاح الحر للأمة إذا كان موسرا أن الولد يتبع الأم فى الرق والحرية ، وإذا كانت هى رقيقة لسيدها ، فإن ولدها رقيق له مثلها ، وهل يرضى بهذا حر ؟ وأيضا إنها تكون فى خدمة

سيدها فله أن يحبسها عنه فى خدمته ، ولا يجوز نكاح الأمة إلا إذا كانت مؤمنة ، أما الكافرة ففيها نقصان الكفر والرق معاً ، وفى المؤمنة الرقيقة نقص واحد ؛ وهـذا رأى الشافعى ومالك وجمع من الصحابة ، وأما أبو حنيفة فإنه أجاز نكاح الأمة الكتابية ، وهذا فى قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات) أى من لم يستطع منكم غنى ـ والمراد مايصرف فى المهر والنفقة ـ يبلغ به نكاح المحصنات يعنى الحرائر(فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) يعنى الإماء المؤمنات ، وحمل أبوحنيفة رضى الله عنه طول المحصنات على أن يملك فراشهن والنكاح على الوطء ، وعليه يجوز للموسر الذى لاحرة فى فراشه أن يتزوج أمة كما تقدم ، والفتيات الجاريات المملوكة جمع فتاة ، والعبد فتى .

ولما كانت النفوس تأنف من الإماء أردفه سبحانه بأن المدار على القلوب ؛ فرب رقيقة أفضل من حرة بسبب إيمانها ، أو ليس الناس بعضهم من بعض فلاتفاضل إلابالقلوب والنفوس؛ فأما الرق والحرية فهما أمران جسمانيان صوريان ، وكم من رقيق سيد لسيده ، وكم من حر هو عبد عبده ، فهذا قوله تعالى (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) وإذا كان كذلك (فانكحوهن بإذن أهلهن) أى أربابهن (وآتوهن أجورهن) مهورهن بإذن أهلهن وهوحق لسيدها لأنها لاتملك ، وعند مالك هو حقها رجوعا لظاهر اللفظ (بالمعروف) بلا مطل ولا إضرار (محصنات) عفيفات (غير مسافحات) غير مجاهرات بالسفاح (ولا متخذات أخدان) أخلاء فى السر (فإذا أحصن) بالتزويج (فإن أتين بفاحشة) زنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) الحرائر (من العذاب) من الحد: الجلد ، إذا زنين فتجلد الرقيقة خمسين جلدة وهى نصف ما تجلده الحرة وهو مائة جلدة ، وكذلك العبد والمتزوج منهما عقابه كذلك فلا رجم على العبد ولا الأمة لأن الرجم لاينصف (ذلك) أى نكاح الإماء (لمن خشى العنت منكم) أى لمن خاف الوقوع فى الزنا (وأن تصبروا خير) أى وصبركم على نكاح الإماء متعففين خير لكم (والله غفور رحيم) أى غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه ، انتهى تفسير الفصل الثانى ؛ وفيه لطائف أربع :

[اللطيفة الأولى] لنجعل المحرمات بهيئة منظمة لتسهل على القارئ .

[اللطيفة الثانية] ما الحكمة فى الشهوات والمحرمات وماذا تفيدنا من الحكم الاجتماعية والخلقية والاستنتاجية ؟ وكيف نعرف من هذا المقام سر النفوس وعجائبها ؟ وكيف يحترق الناس بالشهوات كما يحترقون بالنيران وهم غافلون ؟ وعجائب وبدائع من أسرار القرآن الشريف ليصل الناس لربهم ويعجبون من حكمه الباهرة .

[اللطيفة الثالثة] سر القرآن فى تحريم زواج الأمة إذا خاف الحر الزنا وما علاقتها بالأمم الإسلامية ؟ اليوم سياسة .

[اللطيفة الرابعة] الأحرار والعبيد وأن بعضهم من بعض والعبرة بالأعمال .

اللطيفة الأولى

يحرم هؤلاء على الرجل من النسب والرضاع	هؤلاء يحرمن من غير الرضاع والنسب
(١) الأم .	(١) تحرم المرأة بانقضاء العدة
(٢) البنت .	(٢) يحرم الجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها أو أختها الخ
(٣) الأخت .	(٣) يحرم عليه امرأة أبيه .
(٤) بنت الأخ .	(٤) اللاعنة تحرم على زوجها .
(٥) بنت الأخت .	(٥) من عنده أربع نسوة لايزيد عليهن .

(٦) الخالة
(٧) العمة .
(٦) المطلقة ثلاثا لاتحل لزوجها إلا بشروط خاصة .
(٧) حليلة الابن .
(٨) الربيبة .

اللطيفة الثانية : الشهوة تقلب رحمة

(أولا) اعلم أن النساء بالنسبة لجميع الرجال مشتهيات لافرق بين الأجنبية والمحرم كالأخت والأم . فالطبيعة البشرية لافرق عندها بين الأخت والأم والخالة والأجنبية فكل عندها سواء كما فى البهائم ، فالنفس البهيمية لاتفرق بين الأخت والأجنبية هكذا الإنسان .

والدليل على ذلك أن المجوس يتزوجون بناتهم وأخواتهم ونفوسهم لاتأنف ذلك . أما المسلمون والنصارى وأمثالهم فإن الرجل قد تكون عنده أجمل أخت ثم ينظر للأجنبية التى هى أقل جمالا منها نظر شهوة، ولأخته نظر عطف وحنان . فهذا دليل فى كل منزل على ما للنفس الإنسانية من القدرة والعظمة والشرف . يقول الله للناس :

ها أنتم أولاء تقدرون على أن ترفعوا نفوسكم إلى مستوى الملائكة ، إن فى نفوسكم لقدرة عظيمة وعزيمة قوية الشكيمة فاستبشروا بها، ذلكم أنكم لما سمعتم تحريم المحارم وعرفه الصغير منكم والكبير وصار ذلك عادة مألوفة انصرفت نفوسكم عن نظر الشهوة إليهن واستبدلتها بالحنان والتقديس والرحمة فرجعت نفوسكم بالنسبة إليهن عن صفة البهيمية إلى صفة الملائكة ، فأمهاتكم مقدسات ساميات شريفات وأخواتكم وعماتكم كذلك ، لأن فى قدرتكم أن تسموا بأنفسكم إلى العلا وتسموا بأرواحكم إلى الملأ الأعلى ، أى عبادى إنما أبقيت دين المجوس لتسمعوا به وليكون عنوانا لكم على أن شهوة المحرمات فيكم مثلهم، وبالتعلم والعادة انقلبت الشهوة محبة شريفة عالية إيذانا من الله أن فى نفوسكم قدرة أن تسمو إلى أشرف مصاف الكمال ، فإذا فكر الناس فى هذا أيقنوا أنهم يقدرون على تغيير أخلاقهم والتنزل عن خسائس عادتهم فتنقلب النفوس الشريرة إلى الخير بالقصد والعزيمة . إن نوع الإنسان مستعدٌ للسعادة العالية على مقدار طاقته فى هذه الحياة .

إن احترام الأم والأخت بعد أن ركزت الشهوة إليهن فى الطبيعة مؤذن بأن النوع الإنسانى اليوم طفل فى الأخلاق طفل فى العلوم غرٌّ جاهل ، وكأن الله يقول : أيها الناس إذا كنتم فى الشهوة البهيمية التى هى ألزم لكم من ظلكم وأقوى عليكم من كل أعدائكم، وهى ألدّ الأعداء وأعظم الداء قد سلطتكم عليها فملكتموها وأعطيتكم قيادها فسستموها وأطفأتم نارها فاستخدمتموها ، فقلنا : يا نار كونى بردا وسلاما فصارت ذماما ومحبة وونّاما وإعظاما واحتراما ؛ أفليس هذا دليلا أنكم على الاعتدال فى المال أقدر فتقدسون ما لغيركم من الحقوق فلا غبن ولا ظلم ولا إسراف ولا تقتير بل يصبح المال فى أيديكم كالماء وتصبح النار المشتعلة فيكم للمال بردا وسلاما ، وإذا كانت أملك الشهوات لكم ذللتموها فأنتم على غيرها أقدر تذليلا وأصدق قيلا ولكنكم لاتزالون أطفالا وفى الحكمة جهالا وعلى موائد العلم طفيليين ، فإذا شاعت الفضائل بينكم ولقنتموها تلقين المحارم مع اللبن فى الرضاع انقلبت الشهوة المالية حرمات إنسانية وأصبحتم بقدر الإمكان أيها العباد إخوانا . فلتكن فيكم بعض هذه الأخلاق .

(ثانيا) تحريم القريبات وتزوج الأجنبيات لازدياد المحبات الإنسانية ولعدم فساد الأسرات وارتقاء نفوس الشبان والشابات .

إن الرجل إذا أحب محارمه على سبيل الرحمة تارة والإعظام والإجلال أخرى ، فما يدنس هذه المحبة أن تعتريها الشهوة ، فالشاب يحمى أخته ويقدسها ويحترم أمه ، فلو أنه تزوج أخته أو خالته لأصبحتا عنده محل شهوته وقصر نظره فى المحبة على الشهوات ، وتكون مكانتها عنده على مقدار التمتع بها ، ولا جرم أن ذلك

يقلل من قيمة المحبة الرحمية ، ولا يراعى إلا المحبة الشهوية ، والنفس تتعود ذلك ولا تعرف سواه ، فيكون ذلك وبالا على الأرحام وتزول تلك العاطفة الشريفة . ثم هو بزواجه أخرى من الناس قد ضم أسرة إليه فأصبح له أسرة بالنسب وأخرى بالمصاهرة ، وهـذه سعة فى المحبة والمروءة ، ولو أبيحت هؤلاء المحرمات لأصبح النسب والمصاهرة فى جهة واحدة فضاقت سبل المحبات وانحصرت فى بعض النسمات . وأيضا تكون الأسرات دائما فى شقاق لما يحصل من الإخوة والآباء وأبناء الإخوة والأخوات من التنافس والتشاجر والتقاطع بسبب اقتتالهم على إحدى نساء العائلة كبنت الرجل يتشاجر عليها أخواها أو أبوها وأحد أخويها وهكذا ، وهذا فيه من الفساد أقصاه ، ومن قطع الرحم منتهاه ، فانظر كم فى تحريم الأرحام من البدائع العلمية والعجائب الحكمية .

(ثالثا) اعلم أن نيران الشهوات كالنيران التى نوقدها وكالكهرباء التى نستثيرها ، وكالأنوار العلمية التى نعقلها .

فكل نار وكل كهرباء لها عملان : تفريق وجمع ، وإبعاد وتقريب . فانظر ألست ترى النار تحرق الخشب ؟ فيطير منه أجزاء فى الهواء وتبقى أخرى فى التراب ؟ ففى الأول تفريق ، وفى الثانى اجتماع . ألست ترى أن السحابتين إذا كانت كهربائيتهما متجانسة بأن كانتا إيجابيتين أو سلبيتين ، فإنهما تتنافران ، وإذا اختلفتا إيجابا وسلبا فهما تتجاذبان . فهكذا النيران التى فينا معاشر الناس ، فإذا رأينا النار التى تحيط بنا ، والتى هى داخل الأرض التى نعيش فوقها تجمع الطين واللبن وتفرق أجزاء الخشب والكهرباء سالبة وموجبة ، فهكذا نحس فى أنفسنا بنار تشتعل اشتعالا معنويا ، إما لطلب الغذاء أو التزاوج ، وإما لرحمة الضعفاء كالأبناء ، وإما لدفع الأعداء كالغضب والغيرة والحسد ، وجميع العداوات التى تعترى نوع الإنسان ، فانظر كيف كانت أرضنا نارا يحيط بها قشرة أصلها نار جمدت ، وكنا نحن من تلك القشرة فكنت النار فى باطننا رحمة من الله لنا حتى تسوقنا الشهوة لطلب الغذاء والكساء والتزاوج ، وتدفعنا القوة الغضبية لدفع الأعداء وإبعاد الإيذاء ، ثم كانت فينا نار ألطف وأجمل من هاتين كالقوة العلمية تدفع الجهالات وتجذب إلينا أجمل المعلومات ، فهاهى ذه فرقت وجمعت . فليت شعرى أى فرق بين النارين ، وأى ابتعاد بين الأمرين ؟ فالشهوة البهيمية فينا لجلب الغذاء والكساء ، والقوة الغضبية لدفع الأعداء ، والعلم يدفع عار الجهل ، ويجذب أجمل صور العلم . فلئن جففت النار الطين وأذابت الشمع وجذبت الكهرباء تارة ودفعت أخرى . فلقد منعت الأعداء النفس الغضبية ، وأزالت الجهالة القوة العقلية كما جذبت إلينا العلم ، وجذبت الشهوة ملاذ الطعام والشراب .

فانظر كيف تقلب الإنسان فى أنواع من النفوس المحرقة ؟ نعم محرقة ، ولكن الناس لا يكادون يفقهون إلا قليلا ممن تعلموا ، فأولئك يعقلون ويفهمون ، فالوالدة على فلذة كبدها فى احتراق ، والوامقة لعاشقها فى احتراق ، والذى غاظه الأعداء فى احتراق . ونتيجة المقال فى هذا المقام أن نار الشهوات للأجنبيات ونار الرحمات للقريبات ونار العداوات تتأجج على من جرح مالهن من الحرمات ، ونار أشواق العلوم لما بينا فى هذه المقالة من الآيات البينات ، والعجائب الحكميات ، وهاك صورا ثلاثا للانسان :

(١) نار الشهوة ، ونار الرحمة ، ونار الغضب ، هن أصول التفاعل النفسى ، وبالتفاعل بينها يكون نور العقل على مقدار التمازج والاتحاد ، وما مثل هذه النيران الثلاثة إلا كمثل العناصر الداخلة فى المركبات الجسمانية فهى نار لها نور وهو القوة العاقلة .

(٢) تصور فتاة ترضع ولدها اليتيم وعاشقها الذى يخطبها جالس أمامها وأعداؤها يحيطون بها ، فهى

بين ثلاثة نيران : نار الرحمة للولد والشهوة والغرام للعاشق ، والعداوة لأعدائها ، فهذه العواطف هى عبارة عن هذه المرأة .

(٣) شاب جلس مع أخته وحبيبته وعـدوه ؛ فهو مع الأخت ملك ، ومع الأجنبية بهيم ، ومع العدو أسد ، فانظر عجائب الإنسان كيف اجتمعت فيه اللطائف المتفرقة .

اللطيفة الثالثة

إن تحريم زواج الأمة على من قدر على مهر الحرة تحذير للمسلمين من السقوط فى مهواة الذل والصغار ، ولزوم العار والشنار بأن يلدوا الأبناء الأرقاء تبعا لأمهاتهم المملوكات ، فإذا كانوا يمنعون من عبودية أبنائهم المسلمين مثلهم ، فما بالك بهم ؟ وقد ملك الفرنجة أرضهم ، وأخذوا ديارهم وهم خامدون ، وأحاطوا بهم من كل جانب وهم ساهون لاهون .

حكاية

حضر إلى الديار المصرية صديق من ناحيـة أدلب من أعمال حلب الشهباء ، فدار الحديث بيننا على احتلال الفرنسيين لبلادهم . فأخبرنى بما تقشعر له الأبدان من قتل النفوس ، وسلب الأموال ، والظلم البين ، وقد كان الرجل سيدا فى قومه من الأشراف ، وكبار العلماء ، وله سيادة فى قومه . فحدثنى قائلا : طلبنى الضابط الأكبر فى الجيش الفرنسى قائلا : لماذا تكرهون الفرنسيين ؟ وهم إنما جاءوا لتمدينكم ، وإسباغ النعمة عليكم ، قال فأجبته قائلا : إن الأمة إذا قام غيرها بما يصلحها ، ونام أهلها سلبها الله مواهبها وسلمها إلى سادتها ، لأن العضو الذى لا عمل له لا يبقى له قوة ؛ وأيضا تصبح كالحيوانات المنزلية لما قمنا بسقيها وتغذيتها فقدت الغرائز التى تحلت بها نظائرها فى البرارى والقفار من الغزلان وبقر الوحش السعيد فى مراعيها الحسنة المناظر ، فقال له : هل هذا فى كتبكم ؟ فأجابه قائلا : هذا كلام قرأته فى كتاب يسمى نهضة الأمة وحياتها تأليف فلان وهو مصرى . قال فسكت ولم يرد جوابا ، فإذا كان القرآن يمنع أن نلد من أمة لمسلم مثلنا ، فكيف يتحمل المسلمون العبودية والرق فى الأقطار الشرقية ، ووضع الفرنجة الأغلال فى أعناقهم وهم صاغرون؟ . ألا فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن الله قد قرب يوم عتقهم من ذل الفرنجة ، وقد جاء أوانه وظهر إبانه ، ومن عجيب الاتفاق أن تستقل ثلاث دول وهى : الأفغان ، والترك ، والفرس ، وهاهى ذه بلادنا المصرية خطت خطوات واسعات فى سبيل الاستقلال ، ولا بد من تمامه إن شاء الله وستخطو الأمم الإسلامية خطوات وتحظى بالاستقلال والخلاص .

اللطيفة الرابعة فى الأحرار والعبيد

يقول الله تعالى « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » هاتان الجملتان ذكرنا فى هذا المقام لتهدم ما بنته العادات ، وأبرزته الديانات ، وأظهرته القوانين المسطورات . لعمرى لقـد هدم الله الظواهر المذكورة فى هذه السورة بهاتين الجملتين ، ولفت الناس إلى الأعمال القلبية . يقول الله: لا عبرة بالصور والأشباح ، ولا الغلبة فى الحروب ، ولا قوة الدول والممالك والأساطيل؛ إنما هذه مظاهر يغترّ بها الغافلون « اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى ، بعضكم من بعض لا فرق بين العربى والعجمى ، اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » أنتم أيها الناس عبيدى ولا عبيد لكم ، لا يغرنكم مظاهر الميراث والمال والعقار والديار ، إن كل ذلك إلا مظاهر يفتخر بها الجهلاء ، وإنما النفوس والعقول والأخلاق والآداب ، وكل ذلك عندنا فى كتاب؛ فرب خامل ذكره عندنا رفيع ، ورب عظيم القدر عندنا ماله شفيع ، فإياكم أن تغتروا بما ترون من الأحكام الشرعية والحدود المرعية ، فهذه إنما جاءت لحفظ المجموع ، وصيانة الجموع .

فإذا اختص الحر بالميراث ، وامتاز فى أحوال الحياة ، فإنما ذلك من ظواهر الأمور ، فإذا مات الحر والعبد استويا فى الأحوال وافترقا فى الشرف والكمال . انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث

(يريد الله ليبين لكم) أى التبيين لكم ، واللام زيدت للتأكيد كما قال قيس بن سعد .

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

ثم عطف عليه قوله : (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) مناهج من تقدمهم من أهل الرشد لتتبعوا طريقهم ، وتسلكوا سبيلهم (ويتوب عليكم) ويصدكم عن المعاصى بتلك الهداية بأن يلهم قلوبكم النفور منها بسبب الهداية المذكورة (والله عليم) بمصالح العباد (حكيم) فيما يدبر من أمورهم . ولما كان نوع الإنسان قد فطر على حب اللذات والاستئثار بالمنافع ، وكان ذلك حتما ليجدّ فى عمله ويتنافس فى الفضائل والأعمال الشريفة ، وجعل من فروع تلك الفطرة الحسد للناس على نعمهم ، والسعى فى هدم ما بنوا من المجد ، وما أوتوا من الفضل بين الله ذلك إذ قال إن هدايتكم يريدها الله ، وهذه الهداية يحاول إبطالها الغاوون ، ويسعى فى إبقائها الفاسقون . فيقول الزناة وأهل الدعارة والفسق إذا امتاز هؤلاء بالإقلاع عن هذه المعاصى ازدرانا الناس وولوا وجوههم عنا ، وتطلعت الوجوه إلى هؤلاء المتنسكين ، ولذلك قال الله تعالى (والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا) عن الفضائل إلى الرذائل التى انغمسوا فيها وارتطموا فى أوحالها (ميلا عظيما) بأن تأتوا المحرمات فتكونون مثلهم . فذكر التوبة فى هذا المقام ليس للتكرار تأكيدا وإنما هو للمقابلة بين إرادة الله وإرادة الذين يتبعون الشهوات ثم قال (يريد الله أن يخفف عنكم) يا أمة محمد ما تنوءون تحته من الأثقال فى دنياكم ودينكم فأباح نكاح الإماء بشروط خاصة تسهيلا لكم وسيأتى قريبا بيان معنى التخفيف بما هو أوسع من هذا بعد تمام تفسير هذا القصد (وخلق الإنسان ضعيفا) لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات . ولما كانت علاقات الرجال بالنساء لا تنفك عن الأموال توالت الآيات فيها ، فترى آيات الميراث أوّلا وآيات التحذير من أكل الأموال بالباطل هنا فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) بما لا يحل فى الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة والرشوة والأكاذيب فى المحاماة فى المحاكم.

ولما كان الشئ يستوجب تذكار ضده والنفس الإنسانية تحضر الضد عند ذكر الضد بين الله أن التجارة ليس منهيا عنها لأن النفس راضية بالتعاقد أن يأكل زيد مال عمرو بتلك المبادلة فقال (إلا أن تكون تجارة) صادرة (عن تراض منكم) أى لكن كون تجارة عن تراض منكم غير منهى عنه . واعلموا أيها الناس أن رشوة الحكام والربا والقمار وأكل أموال الناس بالباطل يورث خللا فى نظامكم . أيها الناس أنا ما حللت حلالا ولا حرمت حراما إلا لتعيشوا فى هذه الحياة آمنين . فهذه الأحكام الشرعية والحدود الدينية التى أبينها لكم ليست تراد إلا لحفظ نظام هيئتكم المدنية فإذا قلت لكم فيما مضى إن المدار على القلوب فهكذا هنا أقول إن توصيتى على الأموال تارة وعلى الأعراض أخرى إنما أردت بها حياتكم وبقاء دولكم ، فأما إذا اغتال الأغنياء الفقراء وظلم الأقوياء الضعفاء وانتهك الحكام الحرمات وظنوا أن الناس عبيدهم فإن يد العمل فى الأمة تشل وكذلك الأعمال النافعة فى البلاد ، فيهجم عليكم الأمم حولكم فتدوسكم بأرجلها وتطؤكم بمناسمها ويدخلون عندكم الشركات ويقتسمون الأموال ويربحون وأنتم نائمون وهذا هو القتل الحقيقى للأنفس وضياع البلاد والعباد وهذا معنى قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أيها المسلمون وهذا بعينه هو الحاصل فى زماننا . ألا ترى أن المسلمين منذ أربعمائة سنة أتى إليهم الأسبان فغلوا بساحتهم وانتزعوا منهم أرض الجزيرة ، ولعمرك لم يكن ذلك بالخيل والسلاح والكراع وإنما كان بتلك المعاهدة التى دبرها الفرنجة بأمر البابا وباورونات أوربا ودوق

فينزيا وأباحوا الخمر بمقتضى حرية التجارة ودخل الكسل والبطالة على أهل البلاد فكان الربا والترف والنعيم والكسل فماتت الأمة وهذا هو القتل . هذا قتل الأنفس العام وهو أشد من قتل المرء نفسه المحرم أيضاً ، هذه هي المناسبة لذكر القتل .

ولقد استمر المسلمون يقتلون أنفسهم هذا القتل الشنيع بعد ما سمعوا أن فرديناند وإزابلا قدرموا بأمة العرب فى البحر الأبيض المتوسط وبعد أن قتلوا منهم آلافاً مؤلفة وطردوهم وأغرقوهم . ولعمرك لم يقتلهم الأسبانيون إلا بعد أن قتلوا هم أنفسهم بالجهل فى الأموال والتجارات فكانوا يتهافتون على صناعات أوربا ويتركون صناعتهم لأن صناعات أوربا كانت أشهى إلى قلوبهم . وليت شعرى كيف يذكر الله قتل الأنفس بعد ذكر التجارة . أيها المسلمون إن التجارة وإن كانت حلالا هى التى أودت بالمسلمين ، انظروا أليس تجار الإفرنج هم الذين خدّروا عقول الأسبانيين؟ أليس تجار أوربا الآن قد استولوا على أهم موارد حياتنا؟ أليست الحرب الحاضرة قائمة على أساس الأموال والتجارة ؟ إن المسلمين نائمون ، إن التجارة الإفرنجية هى التى قتلت الشرقيين ولذلك أراد (غاندى) أن يلتمس الخروج من الخطر بتحريم المنسوجات الإفرنجية وقد نجح نجاحاً عظيماً . فهل يعلم المسلمون أن خراب دولهم إنما جاء لجهلهم علوم التجارة وأنهم قوم لايعلمون منها إلا قليلا . التجارة تسبق الحرب ، فما ملك الإنجليز بلاد الهند إلا بالشركة الإنجليزية هناك والعادات الفرنجية تغلغلت فى قلوب المصريين والسوريين وجميع سكان شمال إفريقيا، هذا هو القتل المذكور فى القرآن، وهذا هو السر فى تعقيب التجارة بالتحذير من قتل النفس . ولما كان ذلك التحذير من فضل الله ورحمته قال تعالى (إن الله كان بكم رحيما) فى تصويركم وخلقكم ورزقكم فكيف لاترحمون أنفسكم بعد قتلها الاقتصادى بالإسراف وضياع أموالكم أو قتل أنفسكم انتحاراً .

اعلم أن من عادة القرآن أن يرشد بطريقين : طريق العقل والهداية ، وطريق الإرهاب وكانت أولى الطريقتين قد ذكرها أولا بأن الأمم يعتريها الفساد وتضيع الدول وكان هذا المعنى لايعقله إلا قليل ولا يفهم مغزاه إلا من خصه الله ، وقد شرع فى الطريق الثانى فقال (ومن يفعل ذلك عدواناً) إفراطاً فى التجاوز عن الحق (وظلماً) للنفوس بتعريضها للهلاك فى الدنيا والآخرة (فسوف نصليه ناراً) ندخله ناراً يصلى فيها (وكان ذلك على الله يسيراً) ولما كان هذا القول ربما أوقع فى النفوس يأساً قال (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) وهى كبائر الذنوب وهى التى عظمت عقوبتها (نكفر عنكم سيئاتكم) نغفر لكم صغائركم ونمحها ولعل الكبائر تختلف باختلاف المراتب ، فقد يكون الذنب صغيراً للعامى وكبيراً على الصديق؛ فلقد عوتب النبى صلى الله عليه وسلم على خطرات النفس، وقد يكون الذنب كبيراً باعتبار وصغيراً باعتبار آخر. ومما اتفق عليه السبع الواردة فى الحديث «الإشراك والقتل وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف والعقوق» . وعن ابن عباس: الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، وقول ابن عباس يشير إلى ما قلناه من اختلاف الذنب باختلاف المراتب ، فالعلماء والحكماء والصدّيقون تكون كبائرهم كثيرة بحيث لو ضيع أحدهم وقتاً بلا ثمر للفضيلة عد آثماً .

واعلم أن الناس أشبه بفصائل الحيوان ، ولكل فصيلة عمل يخصها ؛ فتجد العامة أشبه بالببغاء يقول ولا يعقل وصلاتهم كلام لاتوجه معه ، والفضلاء إذا سهوا فى جزء من الصلاة كان ذلك ذنباً عظيماً واعتبروه إعراضاً عن خالقهم (وندخلكم مدخلا كريماً) الجنة؛ ومن الآثام الدائمة الحسد، وهو شائع بين العلماء والجهلاء، وهو يشتد كلما تقاربت المراكز والأحوال فالأقارب والمشتركون فى صناعة أو تجارة أو قرية أو حارة أو علم . وبالجملة من تقاربوا فى أكثر الأحوال أو بعضها يتحاسدون بمقدار هذا الاشتراك ، فلذلك قال (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) كالجاه والمال والجمال والتمكن فى الأرض والصيت وأمثالها تمنياً يفضى بكم

إلى البحث فى زوال النعم عن المنعم عليه بإتلاف ماله والسعاية والوشاية والقتل وأمثال ذلك ، فإن هذه الغريزة مخلوقة فيكم للحث على طلب الكمال لأنشئكم لاهدم مابناه غيركم من المجد ؛ فالمسابقة للكمال فضيلة ، أما السعى فى هدم ما بناه الغير فإنه حرام ، وكيف تسعى فى زوال مجد يرجع إليك ، فإن الناس بعضهم لبعض خادم ، وزوال النعم عن الناس مفض إلى نقصها من المجموع ، وكيف تفعلون ذلك و(للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) فلكلّ مواهب فطرية أو حظوظ اتفاقية ، والله هو الذى وهبهم فارجعوا عن غيكم (واسألوا الله من فضله) أن يعطيكم وهذه هى الغبطة ؛ فالغبطة أن تتمنى مثل ماعند الغير وتسعى له بالعمل لابالتمنى والكسل . وإياك أن تقول أيها الإنسان : لم كان هذا أميرا أو وزيرا أو عالما أو غنيا وأنا محروم من ذلك ؟ ولم كان فلان وارثا وأنا محروم من الميراث ؟ أو تقول المرأة : لم أخذ الرجل أكثر منى ؟ فإيا كم أيها الوارثون والحسد ، وإيا كم أيها الناس والتمادى فى الاعتراض على ما أعطيت الناس من مواهب مالية ونعم علمية ومناصب أميرية فإنى عليم بالعباد بصير بالمخلوقات وجعلت لكل امرئ خاصة يمتاز بها لإصلاح المجموع ، ورتبتكم مراتب إلا أنكم أيها الناس كجسم ، فمنكم من يمثل العين ومنكم من يمثل الدماغ ومنكم من يمثل اليد ومنكم من يمثل المعدة ، ولا يعيش المجموع إلابتوزيع الوظائف الإنسانية عليكم ، فمن ذا يعرف هذا الجمال ويعترض عليه ؟ ومن ذا يقرأ هذا الحسن ولا يقرّبه ؟ إنى نظمتكم على نظام أنا أعلم به (إن الله كان بكل شئ عليما) فعلى هذا العلم العام رتبنا ملكنا وأنزلنا شرائعنا وخصصنا لكل وارث مقدارا من المال نصيبه من مال مورثه ، فلا يحسد بعضكم بعضا على هذا التباين فى الأنصباء ، فإنكم تجهلون حسن نظامى وإنما يعرفه الحكماء فيكم لاغير ؛ فتماديكم فى الحسد عذاب عظيم عليكم ، فإنا قد جعلنا لكل من الرجال والنساء الميتين وارثين من إخوتهم وبنى عمهم وسائر عصباتهم يرثون مما ترك والدوهم وأقرباؤهم وبينا لكلّ نصيبه، فهذا معنى (ولكل) من الرجال والنساء (جعلنا موالى) ورثة من بنى عم أو إخوة أو غيرهم يرثون (مما ترك الوالدان والأقربون) أى من ميراثهم .

ولما كان المتحالفون بينهم عهد وميثاق أن يفوا بما عاهدوا عليه ، وكان الحلف فى الجاهلية على النصرة عند الأمور العظيمة من الحقوق الواجبة على الإنسان فهى تشبه الميراث من جهة الاستحقاق ، فالقريب والصهر يرثان الأموال ، والحليف الذى أخذ العهد والميثاق علينا يجب علينا نصره فى أيام حياتنا ولورثتنا المال فى الممات ؛ فلذلك أعقب ماتقدم بقوله (والذين عقدت) أو عاقدت (أيمانكم) فى الجاهلية أن تنصروهم (فآتوهم نصيبهم) أعطوهم حظهم من النصرة التى عاقدتموهم عليها فالله مطلع على عقدكم (إن الله كان على كل شئ شهيدا) ومن ذا يقوى أن يخون فيما شهده الله .

ولما كان النساء بيننا وبينهنّ عقد وميثاق كالذى أعطيناه للحلفاء فى الجاهلية وكالذى فرضه الله فى القرآن للوارثين، وقد فرض الله الوفاء فهما علينا أخذ عز وجل يذكرنا بالسلطة المخوّلة لنا من جهة الفطرة عليهن وذلك أننا أقوياء وهن ضعفاء ونحن أقرب إلى العلم والأدب منهن والخبرة فى الأمور ، وهذه كلها أشبه بعقد كعقد الحلفاء ؛ فللحليف علينا النصر وللوارث نصيبه وللزوجة قسطها من العمل تحت إشرافنا ، فنحن قوامون عليهن بالسلطة والتأديب بفضلنا عليهن فى العقل وحسن التدبير وبما أنفقنا من المهر لهن . والنساء على قسمين : صالحات مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج ، وعاصيات ناشزات لايطعن أزواجهنّ ، فالقسم الأول أمره معلوم . أما الفريق الثانى فابتدئوا بوعظه فان لم ينجع الوعظ فاهجروهن فى المضاجع ولا تبيتوا معهن ليتبن ، فان لم يتبن فاضربوهن ضربا غير مبرح، وإياكم ومخالفة هذا الترتيب فالوعظ يتلوه الهجر والهجر يتلوه الضرب فمن أطاعت واعتدلت فانسوا ذنبها ولا تذكروه ألبتة لأن الله فوقكم كما أنكم فوق النساء مقاما وقدرة ، فإذا تبن من الذنب فلا تعتدوا بما لكم من القدرة عليهنّ فالله أقدر عليكم من قدرتكم

عليهن ، وإن خفتم خلافا بينهما فابعثوا رجلين يصلحان للحكومة أحدهما من أهله والآخر من أهلها وهما أدرى بأحوالهما ليوفقا بينهما ، فهذا قوله تعالى (الرجال قوّامون على النساء) فهم كالولاة والنساء كالرعية (بما فضل الله بعضهم على بعض) بسبب تفضيله الرجال على النساء بما هو معلوم مما تقدم (وبما أنفقوا من أموالهم) كالمهر والنفقة، وهن قسمان مطيعات وعاصيات (فالصالحات قانتات) مطيعات لله (حافظات للغيب) يحفظن فى غيبة أزواجهن ما يجب أن يحفظ فى النفس والمال (بما حفظ الله) أى بسبب حفظ الله لهن حيث حثهن ورغبهن بالوعد وأنذرهن وخوفهن بالتهديد ووفقهن لحفظ أسرار الزوج وللعفة ومراعاة ما يجب عليهن مراعاته فى غيبته من أعراضهن وأموال الأزواج، فعنه عليه الصلاة والسلام : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها ، وتلا الآية » . فأما القسم الثانى وهن العاصيات ، فقال فيهن (واللاتى تخافون نشوزهن) عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج (فعظوهن واهجروهن فى المضاجع) المراقد (واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) بالتوبيخ والإيذاء فإن التائب من الذنب كمن لاذنب له (إن الله كان عليا كبيرا) وهذه المعانى قد قدمناها هنا ، وقوله (وإن خفتم شقاق بينهما) أى خلافا بين المرأة وزوجها وإضافة الشقاق إلى البين على حد قولهم : نهاره صائم وليله قائم، والحكم الوسط الذى يصلح للحكومة والإصلاح، وكون الحكمين من أهله وأهلها أفضل ولا يمنع أن يكون من الأجانب ، وإرسال الحكمين من قبل الحكام أو من قبل الزوجين أو من قبل صالحى الأمة، وللحكمين أن يجريا الخلع بلا إذن من الزوجين إن رأيا الإصلاح فيه عند مالك ، وعند غيره لايليان جمعا ولا تفريقا إلا بإذن الزوجين .

واعلم أن لإرادة الحكمين دخلا فى تحقيق الصلح كما قال (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) إن يرد الحكمان إصلاحا يوفق الله بين الزوجين أو بين الحكمين فى إتمام الصلح . ويسن للحاكم أن يبعث عدلين ويجعلهما حكمين عند الشافعى . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس فقال فما شأن هذين؟ قالوا وقع بينهما شقاق، قال على «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » ثم قال للحكمين أتدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما الخ .

فاعجب للمسلمين فى مصر والشام وكثير من بلاد الإسلام كيف غفلوا عن بعث الحكمين وكيف نام القضاة وعلماء الدين عن هذه الآية، اللهم إن المسلمين قد غفلوا عن كتابك ، يالله إن القضاة فى ديارنا نائمون يتركون الزوجين أشهرا ويرهقونهما بالدعاوى والبينات والشهود ويسلطون المحامين الذين يستنزفون ثروتهم، يا الله قد قام المحامى المؤجر مقام الحكمين إن هذا مخالف للدين وكيف ينبذ أمر الحكمين عندنا أهل السنة وقد بلغنى أن الشيعة يعملون بهذه الآية ، فأما أهل السنة فقد تركوها وهى واضحة ظاهرة اللهم إن بعض أمة الإسلام قد نبذوا العمل بهذه الآية إتعابا للناس واستنزافا لثروتهم وضياعا للصبية الصغار والنساء الفقيرات المسكينات والقضاة غافلون وأهل العلم غير مستيقظين والناس قد تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأصبح كلّ على كلّ متكلا فلترجع الأحكام الشرعية لسابق عهدها ولينبذ ذلك النوم العميق والجهل المطبق وليجدد العلماء مجد الدين وليحفظوا بلادهم التى أضاعها الجهل فأرسل الله الفرنجة عليها جزاء وفاقا كأن الناس كانوا لايرجون حسابا وكذبوا بآيات الله كذابا. هذا ، ويظهر من كلام سيدنا علىّ أن الحكمين يقومان مقام الزوجين فى كل شئ» انتهى التفسير. وههنا لطيفتان :

[اللطيفة الأولى] قوله ـ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ـ وقد ذكر قبلها أنه يريد أن يتوب علينا وذكر بعدها أنه يريد أن يخفف عنا وأن الإنسان ضعيف .

[اللطيفة الثانية] قوله ـ ولا تقتلوا أنفسكم ـ قد ذكرها بعد أمر مباح وهو التجارة ، وذكر بعدها أنه رحيم بنا .

وهاتان اللطيفتان ترميان لغرض واحد سنشرحه شرحا وافيا فى هذا المقام ولنبتدئ بما روى عن ابن عباس ثم نتبعه بما فتح الله به . عن ابن عباس رضى الله عنهما: ثمان آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: منها ثلاث من قوله «يريد الله ليبين لكم ويهديكم إلى قوله وخلق الإنسان ضعيفا» والخمس الباقيهى« ـ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ـ و ـ إن الله لا يغفر أن يشرك به ـ و ـ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ـ من يعمل سوءا يجز به ـ ما يفعل الله بعذابكم» الآية ، فتدبره .

اعلم أنى لما قرأت كلام ابن عباس لمع من بين تلك الآيات أنوار مشرقة فإن الآيات الثلاث هى التى ذكرتك بها فإن إرادة الله البيان لنا أوّلا والتوبة ثانيا وأن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن نميل ميلا عظيما ترينا أن الإسلام اليوم سيخلص من القيود التى قيد بها فمن هم الذين يتبعون الشهوات .

أهل أوربا فى الغرب ورجال الإسلام فى الشرق وكيف استذلوهم بالشهوات

اعلم أن الذين يتبعون الشهوات فريقان فريق داخل بلاد الإسلام وفريق خارج بلاد الإسلام ؛ فالفريق الذى هو داخل بلاد الإسلام هم الزناة والمقامرون وشاربو الخمر والمرتشون من رجال الحكومات الإسلامية والذين يوالون الفرنجة فيجعلونهم سببا لانتهاب البلاد الإسلامية واستعباد أهلها وإذلالهم فهذا الفريق هم الذين يتبعون الشهوات داخل بلاد الإسلام ، أما الذين يتبعون الشهوات خارج بلاد الإسلام فهم أهل أوربا أفلست ترى أنهم قد ملكوا بلاد الإسلام بشهوة الغزو والفتح والاستعمار واستعباد الأمم واستذلالها فهؤلاء شهواتهم للاستعلاء واستنزاف الثروة ، فأما أهل البلاد الإسلامية فشهواتهم ما يلبسون ويأكلون ويشربون ويتمتعون بالنساء الشرقيات والغربيات ويميزون عن أبناء الشرق بمصاحبة الفرنجة ويتكبرون عليهم، وأنا موقن بأن الله يهدى المسلمين جميعا ويتقدم كما سأوضحه فى هذا المقام .

أسرار النبوة فى مسألة المسيح الدجال والأحاديث الصحيحة الواردة فيه
وظهور صدق النبوة وتبشيرى للمسلمين بإقبال الزمان وانقشاع الظلم عنهم قريبا وهذا أوانه

روى الشيخان وأبو داود عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن مع الدجال إذا خرج ماء ونارا ، فأما الذى يرى الناس أنه نار فماء عذب ، وأما الذى يرى الناس أنه ماء فنار تحرق، فمن أدرك ذلك منكم فليقع فى الذى يرى أنه نار فإنه ماء بارد عذب» . وفى حديث آخر عن أبى سعيد الخدرى «ومعه مثل الجنة والنار فناره جنة وماؤه نار، ألا وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى فإذا خرجا من القرية دخل أول أصحاب الدجال» أخرجه رزين . فهذا الحديث الذى أخرجه رزين وإن لم يكن فى البخارى ولا فى مسلم هو الذى أوضح لنا المقام وأفهمنا ما نحن فيه الآن فإنه يقال إن معه مثل الجنة والنار وهذا هو المعقول فإن الجنة والنار اللتين فى الآخرة لا يكونان إلا بعد الموت وإذن هنا مثل الجنة والنار ولا شك أن الذى هو مثل الجنة والنار ما نراه الآن ، فإن الجنة الأفرنجية ما وضحناه لك فى هذا المقام وفى غيره فبالتجارة أخذ الإنجليز الهند وكذلك الفرنسيون قبلهم وهكذا بلاد جاوه والجزائر حولها استعمرها الهولنديون واتحد أهل أسبانيا وفرنسا على بلاد مراكش. فإن الأسبانيين بعد أن طردوا المسلمين من بلاد الأندلس عبروا البحر وراءهم ليطردوهم أيضا من شمال أفريقيا ليموتوا فى الصحراء الكبرى ولو قدر الإنجليز على أهل بلادى لرموا بهم فى غابات السودان وجردوهم مما يملكون ودفنوهم فى البحيرات عند خط الاستواء ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(إيضاح

إيضاح جنة الإفرنج ونارهم واحتلال البلاد

لقد عرفت جنة الإفرنج وهى التجارة ، أما النار فهى المدافع والطيارات والنار التى يلقونها على المسلمين فى الهند والعراق وشمال إفريقيا؛ فإيطاليا تعذب طرابلس وأسبانيا وفرنسا ترسلان القنابل على أهل مراكش هذه هى النار . واعلم أن الحديث الذى أخرجه رزين هو الذى كفانا مئونة القول بالمجاز ، أما وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فلا قول لنا ولو لم يأت لتكلفت المجاز فى حديث الشيخين .

سر النبوة الذى ظهر

ألا تعجب معى أيها الذكى ألا تنظر إلى نور النبوة ألا تفكر فيما نقول؟ فقل لى رعاك الله ألست ترى قوله فى الحديث « إن هناك رجلين بين يديه ينذران أهل القرى فإذا خرجا من القرية دخلها أول أصحاب المسيخ الدجال» . فياليت شعرى من هم أصحاب هذا الدجال ومن هم أول أصحابه وأين هم ؟ أصحاب الدجال هم الفرنجة ولكنا لانراه وإنما نرى أصحابه فسواء جاء هو أو لم يجىء فالمقصود منه قد حصل وهو إنذار أهل القرى تارة وإضلالهم بالشهوات ودخول أصحابه البلاد وقد تم كل هذا فضحكوا علينا بنسائهم وشهواتهم وأخذونا بالتخويف، كل هذا قد تم، وربما كان الدجال حقيقة كلية تطلق على النصابين والكذابين واللصوص فكل هؤلاء دجالون صغار ولكن أكبر الدجالين هم الذين يسرقون الدول ويقلبون الأمم فهم يذكرون فى مقابلة الأنبياء والملك يذكر المسيح مع الدجال ، فالمسيح ابن مريم للهداية ونظيره الدجال للاضلال، أمرنا بالاستعاذة منه فقلنا فى صلاتنا «وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال» وها نحن أولاء وقعنا فى فتنة أصحابه الذين ابتدءوا ببلاد الأندلس وماقتل أهل الأندلس إلا انغماسهم فى تجارتهم وإضلالهم وأحوالهم واتبعناهم نحن فى بلاد الشرق، ولقد رأيت فى الحديث أننا أمرنا أن ندخل فى ناره ونتجنب جنته ولقد صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، فكل من اغتر بأهل أوربا وجنتهم أصبحوا عبيدا لهم كما أوضحته وكما قاله هنرى الفرنسى فيما نقلته عنه فى سورة البقرة فى تفسير آية الخمر وأن من اتبعهم فقد ذل ذلا عظيما يريد بذلك أهل الجزائر . وأول من قبل ذلك من المسلمين أهل الأندلس كما ذكرناه فى هذا التفسير مرارا فإنهم لما شربوا خمرهم ولبسوا منسوجاتهم ودخلوا مدارسهم وقرءوا سير آبائهم وصاروا تلاميذ لأساتذتهم وتعاملوا بالربا من مصارفهم وأصبحوا مترفين منعمين وانغمسوا فى ملاذهم وأكلوا فى مطاعمهم واستقذروا بيوت آبائهم كان ذلك مبدأ ضعفهم فأذلوهم أجمعين وقتلوهم أكتعين أبصعين ورموا من بقى منهم خارج البلاد وساموهم سوء العذاب بما كانوا يجهلون . ذلك منذ أربعمائة سنة . ثم توالى فتح الفرنجة للبلاد حتى ملكوا بلاد مصر والشام والعراق والهند وتخطوا إلى الصين ولم ينالوا كل مقصدهم هناك ، كل ذلك أيها الذكى سر قوله تعالى - ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما -

إيضاح شهوات الاستعماريين فى أوربا وشهوات الأمم الشرقية عموما والإسلام خصوصا

اعلم أن هذه الشهوات المذكورة فى هذه الآية قد وضحت فى هذه الآيات إذ أعقبها بذكر التجارة وإباحتها وبالنهى عن قتل النفس .

فياعجبا كل العجب ها أناذا أقرأ القرآن وأنا أكتب هذا التفسير هذه الليلة الثامنة من شهر رجب قبيل الفجر سنة ١٣٤٢ هجرية لا أذكر أن آية ذكر فيها أمر حلال وأعقب بالنهى عن قتل النفس إن التجارة حلال وأخذ المال بالباطل حرام . تحرم السرقة والربا والرشوة . هذا حق ولكن التجارة حلال لأنها عن تراض ، ومتى رضى المتبايعان صار المبيع حلالا للمشترى وصار الثمن حلالا للبائع . وليت شعرى أى قتل النفس هنا حتى ينهانا الله عنه إن فى المسألة لسرا ، عجبا، إن فى المسألة سرا قد كشفه الزمان الغابر والدهر الحاضر والحرب

العظمى بين دول الشرق والغرب، إن التجارة هي السر وهي الحياة وهي القتل ، والتجارة كانت سبب حروب أوربا الطاحنة في هـــذا القرن إن التجارة هي كل شيء . يقول الله : أيها الناس إن الأموال إذا أخذتموها بالتراضي فإنها حلال ولـكن ما الذي يقتل الناس أكثر من الحلال ، إن الحلال فيه السم، إن السم في الدسم، وما التجارة إلا كالـكذاب ويقول فيه الشاعر :

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلة

وأن التجارة كالصديق قال الشاعر :

احــذر عــدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصــديــ ق فكان أعرف بالمضرة

أيها الذكي لاتتعجب من قولي: إن التجارة هي التي سلطها أهل الغرب على أهل الشرق فأفسدوا أخلاق أهل البلاد، إن التجارة هي الداء العضال هي شبكة الصائدين وحيلة المحتالين ونصب الدجالين ونظام المستعمرين.

التجارة هي مثل جنة المسيخ الدجال الذي حل أشباهه وأصحابه بالشرق من أوربا

اعلم أن القرآن تظهر معانيه في هذا الزمان وقد أراد الله أن يظهر السر المكنون والعلم المخزون والحكمة الإسلامية في هذا الزمان لماذا ؟ لأنها قد كشفت واتضحت بالحوادث .

انظر في بلادنا المصرية وفي بلاد مراكش وتونس وبلاد طرابلس والعراق وأكثر بلاد الإسلام ، انظر ألست ترى أن المسلمين لاسيما المتعلمين والأغنياء لايهنأ لهم طعام ولا شراب ولا جلوس ولا نوم ولا راحة ولاملبس ولا تمتع إلا في مطاعم الفرنجة وبخمورهم وفي قهواتهم وفي تزلهم وهي اللوكندات ومن منسوجاتهم وبنسائهم على طريق الزنا . ولو رأيت ما أراه اليوم لهالك الأمر واستهوتك أحزان . يجيء اليوناني خالي الوفاض بادي الإنفاض فقيرا لايملك شروى نقير صعلوكا فلا يمضي عليه عشر سنوات حتى يملك الديار والعقار والقصور والجنات بماذا كل هذا بكاسات من الخمر المغشوش المملوء سما زعافا ليسقيه لأهل بلادي فيقتلهم ويأخذ مالهم ، والله لقد كتبت في الجرائد ونشرت وكذلك كثير من أهل العلم وعسى الله أن يأتي بالفتح ورفع هذه الظلمات .

بشارة المسلمين بقرب انقشاع الظلمات عن بلاد الشرق والإسلام

يقول الله ــ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ــ ويذكر قبلها أنه يريد أن يبين لنا ويقول بعدها ــ يريد الله أن يخفف عنكم ــ ويذكر أن الناس خلقوا ضعافا . فإذا كان الله أراد البيان وأراد أن يتوب علينا فهاتان الإرادتان تمحقان إرادة الذين يتبعون الشهوات فيذلون المسلمين . وأول من تفطن لذلك رجال الأفغان والترك والعجم وبلادنا المصرية التي جردوها من السلاح فقد أخذت تناضل بالأقلام والقول، وقد نلنا بعض الحقوق وأخذنا ندخل في نارهم عسى أن نستقل ، وقد قبلنا مدافعهم في وجوهنا ورصاص بنادقهم فقتلوا النساء والأطفال وصبر المصريون صبر الكرام والوقت قد حان لخروجنا من معرتهم وهاهي ذه بلاد الترك قد حرمت الخمر وهكذا في بلادنا تجد الحكومة في منع المسكرات والمستقبل لله .

إيضاح آية التجارة والقتل

كأن الله يقول : أيها الناس إن التجارة حلال لكم ، ولقد تركت لكم الخيار فيها ، ولقد خلقتكم برحمتي وقويت أبدانكم ورزقتكم وجعلت لكم الحرية فيما تبيعون وتشترون ، أفلا تتفكرون أيها المسلمون فتعلمون أني أنا الذي رحمتكم فكيف لاترحمون أنفسكم بالتفكر في أمر التجارة فلا تنغمسون في نعيم الأمم الظالمة التي تخدر أعصابكم بالشهوات واستنزاف الأموال فارحموا أنفسكم بالتفكير في ذلك كما رحمتكم برحمتي الواسعة .

جمال هذا المقام

لقد أبنت لك أن الأفغان والترك والفرس قد تنبهوا وفكروا وخرجوا من ظلم الفرنجة وكذلك مصر اقترب الوعد لخروجها . هذه هداية ونور أزال الظلمات وسيزيلها بالتدريج وقد جاء فى الحديث أن الدجال أنذر به الأنبياء أممهم كنوح وإبراهيم وغيرهم قال « ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته أنذره نوح عليه السلام أمته والنبيون بعده وإنه يخرج عليكم فما خفى عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم الخ » . أقول ولعل الأنبياء كانوا يحذرون أممهم به لئلا يستأصلهم من يغشونهم من الأمم ، الأمة المحمدية ألهمها الله الاستيقاظ الآن وستبقى إلى آخر الزمان ولن تبيد هذه الأمة إلا إذا عاشت غافلة عن أخلاق الأمم التى حولها كما كانت فى القرن التاسع عشر ؛ فأما الآن فقد ظهرت عليها دلائل التعقل والهدى . فيكون ملخص ماتقدم أن النبوة لما أشرق نورها على الأنبياء ضربوا الأمثال لأممهم كما اتفق أن نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء قد رأى فى عالم المثال أنواعا من الصور كصور الزناة والمغتابين والذين يقولون قولا زورا وآكلى الربا وجبريل يفسر له تلك الصور وهى أمور عجيبة سنشرحها فى سورة الإسراء فهكذا هنا أنذر المسلمين وحذرهم ممن يسمى المسيخ الدجال وعدّد له صفات ولكن نحن لم نره ورأينا أهم آثاره ، ولعمرك ماالذى يهم المسلمين من أمتنا إلا الآثار التى تمس مصالحهم ، فأما جسمه وأحواله فنحن لسنا نتكلم مع العامة الجهلاء الذين يجمدون على الألفاظ ، وإنما نحن ألهمنا أن نكلم الناس بحقائق ديننا والحقائق هنا وضحت ؛ فالمسيح ابن مريم والمسيخ الدجال لسنا نريد إلا آثارهما وهكذا المهدى ، فإذا وجدنا الآثار انتفعنا بها . وأنا أقول بأعلى صوتى أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها كيف نقرأ فى صلاتنا صباحا ومساء داعين مبتهلين إلى الله أن يدفع عنا المسيخ الدجال وكان نبينا والصحابة والتابعون كذلك ، هل كان كل هذا الدعاء عبثا وباطلا يقصد به رجل واحد لايحققه الله إلا بعد آلاف السنين، وإذن يكون الدعاء ملغى لاعمل له ، والحقيقة أن المعنى المقصود حاصل لاشك فيه ظاهر فى قوله ولا تقتلوا أنفسكم عند ذكر التعامل بالتجارة، وقد أوضحت هذا المقام لكم أيها المسلمون إيضاحا كافيا ، فكل من بذل منكم يا أحبابى قراء هذا الكتاب جهده ونشر العلم وأزاح الظلمات وسعى سعيا حثيثا فى نبذ المصنوعات الإفرنجية والترف والنعيم وحث الأمة على الصناعات وفتح المدارس ومحال الصناعات فهو من الذين يسعون فى الهداية أو هو من مقدمات المهدى أو فيه نور المسيح المحمدى، أعنى أن المسيح الموعود به والمهدى الموعود به لايجوز لنا أن نتكاسل لانتظاره وإلا كان هذا بلاهة وجهالة ليس يقصد من المسيح أن ننام حتى يأتى بل نمهد لزمانه ولو كانت أشخاص الأنبياء هى المقصودة لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بطل دينه بموته مع أن نشره للدين نشرا حقيقيا لم يتجاوز عشر سنين وما هى السنين العشر إنها قليل بالنسبة للزمن الكثير بعده ولكن شريعته هى السارية الآن أما شخصه فغيب عنا .

إذا ثبت هذا فليس يقصد من مجىء المسيح إلا الآثار النافعة فى وجوده وبعده . إن تعاليم المسيح الصفاء والطهارة والإخلاص والتعاون والتوحيد والمحبة وحسن الخلق وتحمل الأذى ويقرب من هذا المهدى ، فلنتجمل بهذه الصفات الآن تدريجا ولا نتربص حتى يجىء فلا يكون لنا فضل .

فأنت أيها الذكى قد عرفت الفكرة الأوروبية المنتشرة بيننا وقد أثبت لك أن أعمال أوروبا هى أعمال المسيخ الدجال وقد ابتدأت الهداية فى الإسلام والشرق ، فكل من حذر من أوروبا وقلل من مصنوعاتهم كما فى الهند وطردهم كما فى تركيا واستخدم صناعهم وعلماءهم ليعلموا أبناء البلاد مثل المرحوم محمد على باشا فهؤلاء قوم هداة كأنهم أصحاب المهدى أو أصحاب عيسى عليه السلام . ولقد ظهرت الفكرة العيسوية اليوم فى العالم فترى العمال فى أكثر الممالك قد نبغوا وظهروا وطلبوا المساواة وهى كلها أفكار المسيح الأصلى الذى

هو شرقى لاغربى . فليعم التعليم فى بلاد الإسلام وليحترسوا من التجارات الإفرنجية وسائر أعمالهم ولايأخذوا منها إلا ما لايكون عندهم ولينشئوا عندهم مصانع ومحال صناعات كما فعل غاندى فى الهند .

فإياكم أيها المسلمون والاتكال على المهدى المنتظر ولا المسيح بل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فالهداية قد ابتدأت والمسيح يأتى فى وقت لانعرفه ، وكل من رقى المسلمين أو نفعهم فهو من أعوان المهدى والمسيح الإسلامى المذكور فى الأحاديث ؛ كما أن رجال السوء فى بلاد المغرب فى شمال أفريقيا وفى البلاد الإسلامية الأخرى ومن يحتالون على المسلمين ويضحكون عليهم من الفرنجة من أصحاب المسيخ الدجال كما قدمناه فكن من أصحاب المسيح الإسلامى أو المهدى ؛ كما أن الأمم المستعمرة أصحاب المسيخ الدجال فلتقابل الأصحاب بالأصحاب ولا ننتظر الدجال والمسيح فإن أعمالهما ظاهرة ، فكل أمة لم تغتر بالفرنجة فقد حلت فيها الروح الشريفة المسيحية الإسلامية ، وكل أمة انغمست فى نعيم تجاراتهم واستنزفت ثروتها فقد آمنت بأصحاب المسيخ الدجال تذكر ما جاء فى أول السورة من قوله تعالى ـ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ـ وكيف حذرنا من وضعها فى يد صغارنا لئلا يضيعوا مابه قيامنا . ثم لينظر الذكى كيف ذكر ذلك أول السورة ، ونبه هنا على مسألة التجارة وأن القتل للأمم منها فتعجب ؛ انتهى الكلام على المقصد الرابع .

المَقْصِدُ الخَامِسُ

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ *

وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ
وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا
مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ
وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا * إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللهُ يُزَكِّي
مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا
مُبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ
اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ
مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
الْعَذَابَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا *
إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ
إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ
أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى

مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا *

اعلم أن هذا القسم ثلاثة فصول .

[الفصل الأول] الفضائل العامة بمعاملة الخلق والقربى من الله من قوله ـ واعبدوا الله ـ إلى قوله ـ إن الله كان غفورا رحيما ـ

[الفصل الثانى] فى الفريق المقابل لهؤلاء وهم البخلاء والحساد والعابدون للطاغوت من قوله « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ـ إلى قوله ـ وندخلهم ظلا ظليلا »

[الفصل الثالث] فى عدل الحاكمين وتأدية الأمانة للمحكومين وإعطائهم حقوقهم وأمر المحكومين أن يطيعوا حكامهم لينتظم أمر الرعية من قوله «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ـ إلى قوله ـ وكفى بالله عليما»

الفصل الأول

اعلم أن ماتقدم من أول السورة إنما كان فى قسم التركات ومعاملة النساء وزواجهن والمحرمات وفى الزناة والزانيات ونشوز النساء وفى الصلح ، وهذه مسائل أساسها فى الأسرات وأصلها فى المنازل ، ولا جرم أن ذلك يحصر الفكر فى الأمور الجزئية والأحوال المنزلية والأعمال الفردية العائلية . ولما كانت النفس الإنسانية مدنية بالطبع لها صلة بالمجموع كصلتها بأهل منزلها أردفه بذكر العبادات والاحسان العام للقريب والبعيد فيبدأ بالوالدين والأقربين ثم يتمادى إلى أكثر الناس احتياجا كاليتامى ثم المساكين وكل جار قريبا كان أو بعيدا وكل رفيق لك فى تجارة أو صناعة أو علم وكل مسافر أو ضعيف وكل مملوك من العبيد والإماء ، فإن الله عز وجل يكره من يتكبر على جيرانه أو يأنف من أهله وأقاربه ويتفاخر عليهم . وهؤلاء المفتخرون المتكبرون يبخلون على الناس بما آتاهم الله من فضله ، فإن كان علما كتموه ، وإن كان مالا كنزوه ومن سوء طباعهم

وقبائح فعلهم أن ينهوا الناس عن الفضائل ليساووهم فى الرذائل لما فى النفوس من الغرائز ألا يحب الإنسان إلا من على شاكلته ولا يأنس إلا بمن يلائمه ويخاف أن يفوقه الناس بمزية أو يعلوا عليه فى قضية، ذلك فعل اليهود مع النبي كتموا نعته فى التوراة وكنزوا الأموال ولم ينفقوها وخوفوا المنفقين من الفقر فلذلك أعدّ الله لهم عذابا مهينا ، ومن سوء طباع هؤلاء المتكبرين أرباب الفخر أن طائفة منهم لقلة إيمانها بالله وعدم الثقة بالدين لا تنفق المال إلا رياء ولا تعطى الفقراء إلا استحياء لا يريدون إلا الصيت ومدح المادحين ولا يريدون وجه رب العالمين ، فلا وربك إنهم ليسوا بمؤمنين وهم ومن تقدمهم فى الذم شركاء ، فالبخيل مذموم عند الله والمرائى بعمله شريكه فى الذم ، فالأول لإفراطه فى الشح والثانى لتفريطه فى النية كلاهما عن الحق مصروف وبالباطل معروف، والطريق المستقيم والحق الصراح تمام الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق من الرزق المملوك، فماذا عليهم لو استقاموا فى الأمرين واتسموا بالفضلين : صدق القلوب ، وعمل الجوارح إنهما فى الفضل فرسا رهان صنوان لا يفترقان . أو لايعلمون أن الله يعلم ما فى القلوب وهو عدل فى حكمه حكيم فى فعله لا يظلم مثقال ذرة وهى النملة الصغيرة أو أقل منها كذرات الهباء الطائرات فى الهواء الداخلات فى الكوى من ضوء الشمس داخل البنيان وان كان مثقال الذرة حسنة يضاعفها ويعط من عنده عطاء جزيلا ، فاذا كان الله أوعد السيئين باللعنات فقد فتح باب الرحمة والرجاء وأوسع المصراعين لخلقه العاصين والطائعين وهو أرحم الراحمين فهو يزيد فى الحسنات كما يغفر السيئات ، ومن كان هذا شأنه يجب أن يخشى بأسه ويتحاشى حسابه لأن الكريم إذا كثر عطاؤه وعم نداؤه وغفر للمسيء وأعطى الشريف والدنيء خجل منه المسيئون عند لقائه فليس كل عذاب جسميا ولا كل نعيم شهويا .

يقول الله : أفلا يخشون يوما يحشر الناس فيه إلىّ وقد دعونا من كل أمة شهيدا يشهد أن أتباعه نبذوا الحقائق وتركوا صدق الشرائع وجاءت أمتك يامحمد مع الحاضرين وشهدت عليهم أجمعين ، حينئذ يتمنى عصاة أمتك والكافرون بك أن يدفنوا فى الأرض ويقولون ليتنا لم نخلق وياليت أمهاتنا لم تلدنا لما يرون من مقام رهيب ومشهد عجيب وعظمة وكمال وجمال وجلال ، والملائكة حول العرش حافون وقد تجلى الله بجماله وظهر لهم بكماله فيخجلون خجلا تذوب له القلوب وتكون النار أقل منه عذابا ذلك كله معروف فى الفطر الإنسانية تدركه النفوس الفطنة والعقول الذكية، ذلك هو الخزى الذي تقدم فى سورة آل عمران إذ قال تعالى هناك ـ ولا تخزنا يوم القيامة ـ وفى آية أخرى ـ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ـ وقد قال حكماء الإسلام كما فى الرازى: إن عذاب النفوس أشد من عذاب الأجسام ، ولقد ظهر فى هذا المقام والفطر الإنسانية تدركه ومن كلامهم : النار ولا العار . ولقد شرحته هناك شرحا وافيا كافيا . والذى تحقق فى هذا المقام وأمثاله أن الخجل والفضيحة لا تختص بالذنوب الجسمية بل تشمل الصور العقلية فالكفر هنا من أعظم الجهالات والبخل من أشأم الذنوب ومتى ضممنا اليه ما فى سورة آل عمران من التفكر فى الخلق والتأمل فى عجائب الليل والنهار الى آخر ما هناك وأن جهل ذلك مستوجب العار ظهر لنا ظهوراً واضحاً أن الخجل والفضيحة حاصلان لجميع النفوس الناقصة والقلوب الساهية اللاهية ، فالعامة يخجلون لذنوبهم والخاصة يخجلون لنقص نفوسهم وعدم تحليتها بالعلم والعرفان .

ياقوم ليس يلقى الله إلا نفس مضيئة قد خلت من الذنوب وتحلت بالعلوم الكونية وما الأنبياء إلا مبلغون، وعلى الناس البحث والتفكير فليعرفوا ما حولهم لئلا يخجلوا فى ذلك المقام الشريف والمشهد المنيف فليعط الله الناس من النعيم الجسمى ما يشاءون وليغفر لهم كما جاء فى هذه الآية وفى الأحاديث وليخرج كثيرا منهم من النار مع إعطائهم نعما لا تحصى ، كل ذلك يزيد فى خجل النفوس الشريفة إذ يرون أنهم ليسوا أهلا لمقعد الصدق والمقام الأقدس عند مليك مقتدر فإن ذلك لا يكون إلا لكل حكيم عليم .

ذلك المقام الذى يظهر فيه الجمال والجلال والحسن والبهاء والأنوار ومجالى السعادة يخرس الألسنة أن تنطق ولا يجد المذنب مفراً من الإقرار بذنوبه والاعتراف بعيوبه ولا يكتم المذنبون الله حديثا

ولما كان هذا المقام شريفاً عزيزا ولا ينال إلا بأن يخلص القلب فيصير كالشمس المضيئة ليس دونها سحاب الذنوب ولا غشاوات العيوب، أردف ما تقدم بما يقرب الإنسان من الحضرة العلية ويخلصه من ذنوبه ويرجعه عن عيوبه وذلك باقامة الصلاة لأنها أوّلا تنهى عن الفحشاء التى تغطى القلوب بسحائب الذنوب، وثانيا يتجلى على القلب حكم وأنوار وبهاء لا سيما إذا كان ذلك فى وقت السحر وقد خلا من الشواغل . فإذن لا ينبغى أن يكون المصلى سكران لأن السكران لايعى ما يقول وما القصد من الصلاة إلا مناجاة تلك الحضرة والمران على مخاطبة ذلك المقام الأقدس وذلك المران يستدعى التجليات والمشاهدات ومن لم يحظ فى الدنيا بهذه المشاهدات ولم تقر عينه فى الصلوات لم يحظ بما يريد من لقاء منبع الجمال ومبدإ الكمال . وكما أن القلب فى الصلاة يجب أن يكون حاضرا لا ساهيا ولا سكران ليحصل المقصود هكذا يجب أن يكون المرء على طهارة كاملة . فالقلب حاضر للمناجاة والجسم طاهر من الأقذار والحدث والجنابة وللظاهر فى الباطن آثار؛ فإياك أن تشغل قلبك وقت الصلاة فلا سكر ولا فكر إلا فى مناجاة الله لتشاهد ولو بعد حين الأنوار فذكر السكر رمزاً الى سائر الشواغل حتى يعلم الانسان ما يقول ، ولعمرى أىّ فرق بين السكران ومستغرق الهمّ فى أعماله الدنيوية ، الحق أن الصلاة إما باطلة أوفى حكم الباطلة كما قدمناه فى سورة البقرة فلا مشاهدة لذلك الجمال بعد الموت إلا بمقدمات المشاهدات اليوم . وإذا كان القلب فى الصلاة يجب أن يكون حاضراً والجسم يجب أن يكون طاهراً لئلا تصرفه قذارة الجسد أو شغل البال عن مناجاة الله فإنه يغتفر للضرورة ما يعترى الناس من الأحوال التى تضطرهم الى ترك استعمال الماء فى الطهارات كالجنب الذى فقد الماء فى سفره فكيف يغتسل والمريض الذى عرف بقول الطبيب أن الماء يؤذيه ، فالمسافر الذى لا يجد الماء لوضوئه إذا شمس أو لمسه والمريض كلاهما يتيمم بضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين لتبقى صورة الطاعة محفوظة وما ذلك إلا كما يتمرن الجند على الرماية والتلاميذ فى المدارس على أعمال الحساب وقراءة اللغات لترسخ الملكة فيهم فذلك فى العلوم وهنا فى الأعمال فتصبح أعمال الاغتسال سجية لهم متى جاء وقتها، هذا ملخص معنى الآيات فى الفصل الأول فلأوضح بعض الألفاظ مع تفصيل ما ينبغى تفصيله فى هذا الفصل .

قوله (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) بدل من قوله من كان، قوله (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) الغنى والعلم ، ويصح أن يقال الذين يبخلون الخ مبتدأ وخبره محذوف تقديره فهم يستحقون اللوم والتعنيف ، وقوله (وأعتدنا) هيأنا وأعددنا ، قد نزلت فى اليهود كانت طائفة منهم تخالط رجالا من الأنصار ينهونهم عن الإنفاق ويخوفونهم الفقر وهم أنفسهم لاينفقون المال ويكتمون صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس الخ) مفعول لأجله ؛ أى ينفقونه للفخار ، والذين يجوز أن يكون معطوفا على ما قبله أو يكون مبتدأ خبره محذوف ؛ أى يكون الشيطان لهم قرينا ، وقوله (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) إيذان بأن الشيطان هو الذى يغريهم وهم له مطيعون ؛ فالمبذرون إخوان الشياطين والمراءون إخوان الشياطين ، لأن الأفعال إما شرعية وإما مخالفة للشرع ، فالأولى اتباع للشرع والأخرى اتباع للشياطين (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر الخ) أى وأى تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق (وكان الله بهم عليما) وعيد لهم وتخويف (إن الله لايظلم مثقال ذرة ـ إلى قوله ـ ويؤت من لدنه أجرا عظيما) تقدم فى المعنى تفسيره ، وقوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) أى نبى (وجئنا بك) يامحمد (على هؤلاء) أى أمتك (شهيدا) كما فى آية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) أى يودون أن تسوى بهم الأرض وحالهم أنهم لايكتمون من الله حديثا ولايكذبونه بقولهم «والله ربنا

ما كنا مشركين) إذ روى أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوّى بهم الأرض ، وقوله (يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية) أى لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى سكر نوم ، أى لاتقربوها عند غلبة النوم (حتى تعلموا ماتقولون) لما فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لايدرى لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه » فأما ماروى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما لبعض الصحابة فأكلوا وسقاهم خمرا وأمهم على بن أبى طالب فقرأ ـ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ـ وكان ذلك فى صلاة المغرب فنزلت هذه الآية ، فهذا الحديث حسن غريب ولم يرد فى الصحيحين ، وإنما أخرجه الترمذى وأبو داود فسكارى يحتمل سكر النوم والسكر المعروف (ولاجنبا) عطف على « وأنتم سكارى » ، والجنب الذى أصابته الجنابة يستوى فيه الذكر والمؤنث والواحد والجمع فيجرى مجرى المصدر ،وقوله (إلاعابرى سبيل) إما بمعنى المسافرين ، وإما بمعنى عابرى سبيل المسجد فيكون على الأول هكذا لاتقربوا الصلاة جنبا فى عامة الأحوال إلا فى السفر فلم تجدوا ماء فتيمموا ، وعلى الثانى لاتقربوا مواضع الصلاة وهى المساجد جنبا إلا مجتازين فيها دخولا أو خروجا ، والأول مذهب أبى حنيفة وهو مروى عن على وابن عباس ، فعليه يمنع الجنب من العبور فى المسجد . والثانى قول ابن مسعود وأنس والزهرى والشافعى وأحمد ، فيجوز للجنب على هذا عبور المسجد ، وقوله (حتى تغتسلوا) غاية للنهى عن القربان حال الجنابة، وقوله (وإن كنتم مرضى) أى مرضا يخاف معه من استعمال الماء ، فإن الواجد له كالفاقد ، أو مرضا يمنعكم من الوصول إليه (أو على سفر) لاتجدونه فيه (أو جاء أحد منكم من الغائط) فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين ، والغائط المطمئنّ من الأرض وجمعه الغيطان وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث ، فكنوا به عن الحدث تسمية له باسم مكانه (أو لامستم النساء) أى جامعتم ، وهو قول على وابن عباس والحسن ، أو ماسستم بشرتهن ببشرتكم بجماع أو بغيره .

(١) وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى والشافعى ، فاللمس عنده ينقض الوضوء ومن لمس محرمه لاينتقض وضوءه على أصح القولين عند الشافعى ، ولاينتقض وضوء الملموس على أحد قولين له بل اللامس فقط .

(٢) واشترط مالك والليث وأحمد أن يكون اللمس بشهوة حتى ينتقض به الوضوء وإن لم يكن بشهوة فلا .

(٣) وقال أبو حنيفة لاينتقض الوضوء إلا أن يحصل الانتشار .

(٤) وقال ابن عباس لاينتقض بحال وكذلك الحسن والثورى ، فابن عباس ومن عطف عليه مخففون؛ والشافعى مشدد ، ومالك وأبو حنيفة متوسطان بينهما ، ولكل من هؤلاء أحاديث رووها ولكل وجهة هو موليها .

وقوله (فلم تجدوا ماء) أى فلم تتمكنوا من استعماله إذ الممنوع عنه كالمفقود .

واعلم أن المرخص بالتيمم : إما محدث أو جنب، والذى يقتضيه فى الغالب مرض أو سفر. وكأنه قيل وإن كنتم جنبا مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء (فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) أى فتعمدوا شيئا من وجه الأرض طاهرا ، فاضربوا ضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين بحيث يضرب المتيمم كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه ثم يضرب ضربة أخرى فيمسح يديه إلى المرفقين ، وعند الحنفية لو ضرب التيمم يده على حجر صلب ومسح أجزأه وكفى وكذا الرمل أو الجص والنورة والزرنيخ ، وينوى عند التيمم استباحة الصلاة بعد دخول الوقت ويصلى فرضا واحدا عند ابن عباس

وعلى ومالك والشافعي وأحمد ، وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيقدم جوازا على الوقت ويصلى به فرائض كثيرة مالم يحدث وهو قول سعيد بن المسيب والزهري والثوري ؛ فأما النوافل فقد اتفق الجميع على أن يصلى الكثير منها بتيمم واحد قبل الفرض وبعده وأن يقرأ القرآن وهو جنب ، وأبو حنيفة لايشترط طلب الماء ، وعند الشافعي لايقع اسم الصعيد إلا على تراب ذى غبار . ولما كان ما تقدم فيه تسهيل قال تعالى (إن الله كان عفوّا غفورا) فلذلك يرخص لكم ؛ انتهى الكلام على الفصل الأول من هذا القسم لفظاً ومعنى وحكما ملخصا .

الفصل الثاني

(ألم تر إلى) أحبار اليهود (الذين أوتوا نصيبا) حظا يسيرا (من الكتاب) من علم التوراة (يشترون الضلالة) يختارونها على الهدى بإنكارهم نبوة محمد وأخذهم الرشا وأكلهم أموال الناس بالباطل (ويريدون أن تضلوا) أيها المؤمنون (السبيل) سبيل الحق (والله أعلم) منكم (بأعدائكم) وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم (وكفى بالله وليا) يلى أمركم (وكفى بالله نصيرا) فهو ينصركم عليهم فثقوا بولايته ونصره ثم أخذ يذكر بعض فرق هؤلاء اليهود الذين يشترون الضلالة فقال (من الذين هادوا) قوم (يحرّفون الكلم) يميلونه (عن مواضعه) التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه (ويقولون سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (واسمع غير مسمع) أى مدعوّا عليك بلا سمعت بأن تكون أصم أو ميتا (وراعنا) انظر نكلمك (ليا بألسنتهم) فتلا بها وصرفا للكلام إلى مايشبه السب إذ وضعوا راعنا المشابه لما يتسابون به موضع انظرنا كما تقدم فى سورة البقرة (وطعنا فى الدين) استهزاء به وسخرية (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) أى لكان قولهم ذلك خيرا لهم وأعدل (ولكن لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من الرحمة (بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) المراد بالقلة العدم ، قال الشاعر :

قليـل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ثم خاطبهم قائلا (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) أى نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها يعنى الأقفاء ، وأصل الطمس إزالة الأعلام الماثلة وقد يراد بمعنى الطمس إزالة الصورة ؛ وأحسن المعانى التى ذكرها المفسرون أن يكون مجازا كأنه يقال يا أيها العلماء بالكتاب ومعكم دلائل توجب أن تصدقوا محمدا آمنوا بما نزلنا عليه فإذا خالفتم كتابكم وطمستم الحقائق وزغتم عن الجادة صار ذلك بتكراره عادة فيكم وسجية لامفر منها لتكرارها وصار العلم على حسب الأهواء والدين تبعاً للملبس والغذاء فتستعذب القلوب مامرنت عليه وتنفر من الحق نفورا وتذر العلم وتتبع الهوى فتعمى القلوب وتطمس البصائر فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب ، ثم عطف على نطمس وجوها قوله (أو نلعنهم) أى أصحاب الوجوه على لسانك (كما لعنا أصحاب السبت) على لسان داود وهم الذين صادوا السمك يوم السبت وقد نهوا عنه (وكان أمر الله) بإيقاع وعيده (مفعولا) نافذا (إن الله لا يغفر أن يشرك به) فالمشرك مخلد فى النار (ويغفر ما دون ذلك) ما دون الشرك صغيرا كان أو كبيرا (لمن يشاء) تفضلا (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) ارتكب ما تستحقر دونه الآثام (ألم تر إلى) أهل الكتاب (الذين يزكون أنفسهم) فيقولون نحن أبناء الله وأحباؤه (بل الله يزكى من يشاء) فتزكيته هى المعتد بها ، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين ، وأصل التزكية : نفى مايستقبح فعلا أو قولا (ولا يظلمون) بذم أو عقاب أى لاينقصون (فتيلا) أى الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى الحقارة (انظر كيف يفترون على الله الكذب) إذ يزعمون أنهم أبناء الله (وكفى به) بزعمهم هذا أو بالافتراء (إثماً مبينا) أى إثما لا يخفى بل هو ظاهر من بين آثامهم .

أعلم

اعلم أن اليهود لما وجدوا النبي صلى الله عليه وسلم معهم فى المدينة ورأوا دينا هجم على القلوب فاجتمعت وسرى إلى النفوس فاستنارت ساءهم ذلك ورأوه ماسا برياستهم هادما لمجدهم مميتاً لمنزلتهم فأخذوا تارة يمدحون أنفسهم فيقولون :

(١) نحن أبناء الله وأحباؤه .

(٢) وتارة يذمون هذا الدين الجديد ويفضلون عليه عبادة الأوثان وهم يعلمون أنهم فى ذلك كاذبون ، إذ جاء حى بن أخطب وكعب بن الأشرف فى جمع من اليهود إلى أهل مكة ليحالفوا قريشا على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحاربونهم فقالت قريش لهم أنتم أهل كتاب ، فإذن أنتم أقرب لمحمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم ، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم فسجدوا للجبت وهو صنم أو أصله الجبس وهو مالا خير فيه ، وقد استعمل فى كل ما عبد من دون الله ، والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود أو غيره . ولما قال أبو سفيان لكعب ابن الأشرف نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ونقرى الضيف ونفك العانى ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث قال له كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد .

(٣) وقد ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نظر الحسد ويتمنون زوال النعمة عنهم فيقولون تارة نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب ؟ .

(٤) وتارة يقولون كيف يجمع محمد الكثير من النساء فيكون له تسع نسوة ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء .

وقد أجاب الله عن الأول بما تقدم فى قوله ـ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ـ

وعن الثانى بقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) وتقدم تفسيرها (ويقولون للذين كفروا) لأجلهم وفيهم (هؤلاء) إشارة إليهم (أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أقوم دينا وأرشد طريقا (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) يمنع العذاب عنه بشفاعة أو غيرها .

وعن الثالث بقوله (أم) بل (لهم نصيب من الملك) أى ليس لهم نصيب من الملك البتة ، ولئن كان لهم نصيب من الملك (فإذن لايؤتون الناس نقيرا) وهو النقرة التى تكون على ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ، كما أن الفتيل هو ما فى شق النواة الذى أعد لأخذ الأغذية لتغذى النواة كما فى العلوم النباتية .

وقال فى الثالث (أم) بل (يحسدون الناس) رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب (على ما آتاهم الله من فضله) إذ سلقوهم بألسنة حداد إنكارا للنبوة والمناصب الرفيعة التى جاءت للعرب وسعيا فى إزالة تلك النعم أن يفعلوا ذلك (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) والنبوة كداود وسليمان ولم يشغلهم الملك والنساء عنهما ، فقد كان لداود مائة امرأة ولسليمان أكثر من ذلك فضلا عن الإماء ، فنالوا النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) والناس يكونون على حسب قواهم واستعدادهم ، فمنهم من قويت أبدانهم وعقولهم ، فلا يمنعهم بعض الأعمال عن بعض ، ومنهم الضعفاء تؤثر فيهم الأعراض ، فإذا مالوا إلى جانب حادوا عن الآخر . وأكثر الناس إذا أوتوا الملك صرفهم عن النبوة أو النبوة صرفتهم عن الملك ، وهكذا العلماء والحكماء فأكثرهم مصروفون عن الدنيا ومن لم يصرف عنها منهم نقص علمه وقليل منهم من جمع بينهما ففاز بهما معا ، ومن هؤلاء الأقوياء من الأنبياء داود وسليمان ومحمد ، فكيف تعترضون على محمد وأنبياؤكم كانوا ذوى مناصب ونساء كثيرة فلم يشغلهم شأن عن شأن ؟ .

ولما فرغ من الرد عليهم ذكر أنهم قسمان : قسم آمن بالنبي ، وقسم صد عنه فقال (فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه) أعرض عنه (وكفى بجهنم سعيرا) نارا مسعرة يعذبون فيها ، وقد يعجل العذاب فى الدنيا (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) وهذا تقرير لما قبله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) بأن يزال عنهم أثر الإحراق ليعود إحساسهم كما قال (ليذوقوا العذاب) أى ليدوم لهم ذوقه .

واعلم أن العذاب فى الحقيقة للنفس كما أوضحناه مرارا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، فارجع إليها فى السور المتقدمة فإنها تزيل اللبس ، ولتعلم أن الجسد ليس إلا آلة خشب ، ولو لم يكن اتصال الأعصاب بالمخ لم يحس الإنسان بالألم ؛ فالألم الجسمى والألم النفسى كلاهما راجع للنفس . ولكن أحدهما آت للنفس بلا واسطة الجسم ، والثانى يأتى لها بواسطة الجسم . ألا ترى أن المنوّم تنويما مغناطيسيا يشاهد الناس فى هذا العصر ؟ أنه تغرز فيه الإبر فلا يحس ، وتتبدل جميع عوارض الإحساس .

وهذا مقام يوجب البحث والتنقيب والتفكير ، ولم تأت الديانات بهذه الأمور إلا لتحض العقل على التفكير فى أمر النفوس الإنسانية ولا نعيم فى الحقيقة إلا لأهل العلم المفكرين ، لأنا فى هذه الدنيا لم نخلق إلا لذلك ، والحضرة الإلهية لايقرب منها الناس إلا بالحكمة والعلم والبحث هذا هو الأول والآخر ، وكل محجوب بما نحن فيه من العوارض ، فإنه يبقى بعد الموت على ما هو عليه ، فيكون فى أحوال تتجدد عليه وكلها شؤم على النفس ، كما تتجدد الأحوال الدنيوية علينا وكلها متقلبة غير ثابتة تجدد الآلام ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد (إن الله كان عزيزا) غالبا لايمتنع عليه ما يريده (حكيما) يعاقب بحكمة ، فليس تبديل الجلود ودوام العذاب على الناس إلا لحكمة قد يعرفها من آتاهم الله الحكمة ووهبهم الفطنة ودرسوا نظام هذا الوجود ، فهؤلاء وحدهم هم الذين يعقلون كيف يعذب الله الناس عذابا لايطاق لحظة ؟ وكيف يبقى هذا العذاب إلى الأبد ؟ وهؤلاء متى أدركوا ذلك لوّحوا بمعانيه للناس تلويحا وأسروه فى أنفسهم ، لأنهم يسيرون على نهج العزيز الحكيم الذى علمهم ، فلا يعطون الحكمة لغير أهلها لئلا تضل العقول .

وسأذكر لك طرفا فى هذا المقام فى سورة هود عند قوله « فأما الذين شقوا ففى النار الخ » لتتبين بعض الحقيقة على ما تقتضيه الحكمة التى أبرزها الله لهذا الوجود وصور بها كل موجود وعلمها لبعض عباده المفكرين .

ولما ذكر النار أتبعها بذكر الجنة فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) كنينا لاتنسخه الشمس ، ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وهو ظل الجنة ، وهذا كقولهم : شمس شامس وليل أليل ويوم أيوم . وقد مضى الكلام على النار والجنة فى سورة البقرة وفى سورة آل عمران ، فارجع إلى هذا القول هناك فى المباحث .

لطيفة فى الحسد والبخل

لقد وصف الله اليهود بالحسد والبخل فى هذه الآيات وحكم عليهم بأنهم لايستحقون الملك .

واعلم أن الحسود لكراهته للنعمة التى يسبغها الله على عباده شريك البخيل بماله يمنعه عن الناس ، ولكن الحاسد شر لأنه يبخل بنعم الله ، والثانى بماله هو ، وهاتان الصفتان قاتلتان للإنسان . ألا ترى أن للقلوب آثارا وللنفوس أسرارا ، ومن غرست فى قلبه كراهة الناس أذله الله على أيديهم ، ولكن رأينا ممن عاشرناهم فى هذه الحياة من اتصفوا بالحسد وكراهة الناس وغشوهم بالظواهر فافتضحوا فى آخر حياتهم ، وأرداهم سوء طويتهم ، والحق لابد من ظهوره ؛ والقلوب فيها مكنون الآراء ، تتفاعل كما تتفاعل العناصر . ثم تنبت نباتا على مقتضى البذور ، ثم تخرج على اللسان تارة وعلى الأعضاء أخرى ، وتنبعث أيضا بتيار

كهربائي يسرى إلى نفوس الناس وهم لايشعرون ، فيحدث ذلك بغضا أو حبا ، فتنفر النفوس أو تنجذب إلى ذلك القلب وصاحبه ، هذا ما قرأته فى بعض كتب النفس فى العلم الحديث فى كتاب بالإنجليزية يسمى هكذا [قواك وكيف تستعملها] وهذا سر ذكر الملك وسلبه عن اليهود مع ذكر الحسد والبخل اللذين يجمعهما اختصاص الإنسان بالنعمة وانفراده بالمجد ؟ ولقد علمت أن الإنسان كله كنفس واحدة ، ولكل وظيفة فى أعمال الحياة كوظائف أعضاء الجسد ، وهذا مقتضى ما جاء فى أول السورة أن الله خلق الناس من نفس واحدة وأوصاهم بالتعاون ، فلهذا السر لايصلح للملك الحاسدون .

يبذل وحلم ساد فى قومه الفتى   وكونك إياه عليك يسير

وهذا هو بعض معنى الآية .

ولذلك نجد أن من تخلوا عن الدنيا أقبل الناس عليهم بالإعظام والإجلال ، والأنبياء والصالحون كلهم على هذا النمط كلما زهدوا فيها أقبل الناس عليهم وأحبوهم ، انتهى الكلام على الفصل الثانى .

الفصل الثالث

هذا الفصل درس أعطاه الله على ما تقدم من بخل اليهود وحسدهم وأن الحسود من أى أمة والبخيل وذا الصفة الممقوتة ليس أهلا للملك ، والله لايؤتى الملك إلا لذوى النفوس الواسعة ، فتقبل النفوس عليهم وتلتف الجموع حولهم . فلذلك أخذ يشرح ما يجب على الحكام حتى ينالوا الملك ، واليهود لما كان كل غرضهم المال ، وكانت مصارف العالم فى أيديهم اليوم كما كانوا قديما وحديثا يختصون أنفسهم بالمال ، أباحوا الربا مع الأمم إلا مع أنفسهم حرمهم الله من الملك وأمر بصفات تخالف صفتهم .

ومن عجب أن الذين أحدثوا البلشفية هم علماء اليهود فى ألمانيا وأولهم عالمهم ماركس ، وامتد عمله إلى الروسيا ، فقام لينين اليهودى ومن معه مثل تشتشرين ، وهذه العصبة منهم هم أصل تكوين البلشفية فى الروسيا ، فأزالوا دولة القياصرة وحلوا محلها ، والبلشفية فيها اليهود وهم أصلها ، وفيهم قوم من الروس النصارى لاضطهاد القياصرة لهم ، وهم يقسمون المال بين الناس . فانظر كيف سلب اليهود الملك ولم يعطه منهم أحدا إلا حين تركوا الاختصاص بالمال ، بل تغالوا فى تقسيمه بين الناس ، وهؤلاء طبعا ممقوتون من إخوانهم اليهود ، لأن اليهود يحللون الربا مع الأمم وهؤلاء يحرمونه ، فرجع هؤلاء عن آراء أجدادهم ودينهم فأوتوا الملك ، وهذا من عجائب القرآن ، فكيف ذكر البخل هنا والحسد وسلب الملك عنهم ؟ وكيف يقول فى آيات أخرى « وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » كما سيأتى فى تفسير هذه الآية وكيف حكم عليهم بتمزيق شملهم ؟ فلا ملك لهم إلى يوم القيامة ، وكيف تم ذلك بحذافيره ؟ وفرقوا فى البلاد وكيف قامت لهم دولة ليست باسم اليهود ؟ بل باسم غيرهم لما خالفوا طريق اليهود ، لأنه إذا زال السبب وهو الاختصاص بالمال زال المسبب وهو الحرمان من الملك ، فلذلك أمر الله فى القرآن باجتناب أخلاقهم وصفاتهم المانعة من الملك . فأمر الولاة أن يحكموا بالعدل والإنصاف بالسوية ، فلا يحابون غنيا لغناه ، ولاقويا لقوته ، ولا يحيفون على فقير لأخذهم الرشوة من الغنى ، ألا ترى أن أول السورة عنوان هذا كله ؟ وهو أن الناس من نفس واحدة ، ويتبع ذلك أن يكونوا كأنهم نفس واحدة ، فالعين تبصر ، والعقل يفكر ، والأعضاء تطيع ، هكذا على الحكام وهم كالعقول فى الأمم أن يحكموا بالعدل فلا يميلون مع الهوى ، وعلى الرعايا أن يطيعوا ما أمر به الولاة على مقتضى الشريعة المرضية ، فإن تنازع الرعاة فى أمر فليردوه إلى أولى الأمر وليراجعوا كتاب الله وسنة الرسول ، ولا يفعلون ما فعل بعض المنافقين من عدم الرضا بحكم الله ، والرسل لم يرسلوا إلا ليطاعوا ، فلا إيمان إلا إذا رضى الإنسان بحكم الله وانتظم شمل الألفة وصار الأنبياء

والولاة كالعقل والقوى الفكرة ، وصار الرعايا كالأعضاء العاملة فتنفذ صواب ما أقرته العقول ورضيته النفوس ، ويكون ذلك إيمانا بالقلب ورضا بالحكم ، كما تذعن الأعضاء فى الجسد ، ونتيجة ذلك كله أن يجتمع شمل التابع والمتبوع فى الآخرة كما اجتمعوا فى الدنيا ، ويصير الحكام الفاضلون والأنبياء الطاهرون مع الرعايا والأمم فى مقعد صدق ؛ متحابين فى عالم الأرواح فى البرزخ وفى الجنة كما كانوا متحابين فى الدنيا ؛ فهذه التربية الجسمية الدنيوية مع ما يمازجها من الأحكام والقضايا ونتائجها ، إن صلحت صلحت النفوس بعد الموت واستعدت للسعادة والألفة ، وإن فسدت فسدت تلك الألفة وتفرقت الأوصال كما أوضحه العلامة الفارابى فى كتابه [آراء أهل المدينة الفاضلة] فهذا سر قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم الخ) بعد الكلام على طاعة أولى الأمر وطاعة الله ورسوله ، وهذا من عجائب القرآن ونظامه ، فمن هذا المقام وأمثاله فلتعرف بعض أسراره ، وعلى هذا النمط فلتعرف بلاغته ، ولتتوجه العقول إلى أمثال هذه المعانى ، ولا تتلكأ فى النكت اللفظية والقواعد البديعية ، فذلك يجتزئ به المتوسطون ويفرح به الذين لا يعلمون ، فاحرصوا أيها المسلمون من أسرار القرآن على ما به تقوم مدنيتكم وتسمو أممكم ويرتقى شأنكم ، فلقد سبقنا الفرنج درجات وتركونا فى الأخريات ، فإن المسلمين لما صرفوا هممهم إلى ألفاظ القرآن صرفت عنهم المعانى ، وتراهم فى الأندلس لما قدسوا الشعر ولم يتغلغلوا فى باطن الحكمة نزل إليهم الأسبان من الجبال فتخطفوهم ، وكان الملك يسند إلى الحكماء والعقلاء والمفكرين من رجال الأسبان ، ولا يسند إلا إلى الشعراء وأهل الخيال من الإسلام كابن جهور وابن زيدون وأمثالهما فحقت كلمة الله على المسلمين .

اقرأ كتاب العلامة (بيباردو الفرنسى) فى تاريخ العرب بالأندلس ، وقد ترجم حديثا إلى العربية وسترى فى سورة الشعراء هذا المقام بإيضاح وإياك أن تقف عند كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب وأمثالهما وتقرأ ما يرد فى الحديث وفى الآيات على أنه مجرد قصص ، فالقصص بدون حكمة لا نتيجة له ، فلم تذكر هذه الأحوال إلا لغاياتها ، ولا هذه القصص إلا لفوائدها ، فالجهلاء بالحكايات يتسلون ، والعلماء بالمعانى يرتقون و « كل حزب بما لديهم فرحون » .

وإذ عرفت بعض سر الفصل الثالث فى هذه الكلمات فلنشرع فى تفسير لفظه فنقول :

روى « أن عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه لوى على يده وأخذه منه وفتح فدخل صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ، فأمره الله أن يرده إليه ، فأمر عليا بأن يرده ويعتذر إليه ، وصار ذلك سببا لإسلامه ، ونزل الوحى بأن السدانة فى أولاده أبدا » وهذا قوله (إن الله يأمركم) أيها الناس والحكام وولاة الأمور (أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وهى كل ما اؤتمنتم عليه من قول أو عمل أو مال أو علم ؛ وبالجملة كل ما يكون عند الإنسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره فليسلم ذلك إلى أربابه ، ومن ذلك الحكام والولاة ، فليؤدوا الأمانات إلى أهلها . وفى حديث البخارى أن الصدق وتأدية الأمانة والوفاء بالوعد علامات الإيمان وأضدادها علامات النفاق ، ونتائج الإيمان على هذا المنوال سعادة المجموع الذى هو كنفس واحدة ، ونتيجة النفاق ونقص الإيمان على هذا المعنى شقاء المجموع ، ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية لما أصبحت عبادتها لفظية وقضايا المحاكم الشرعية فيها رسمية لا حقيقية ، وجهل القضاة القصد من الأحكام ، وجاروا فى أحكامهم بالجهل تارة والرشا أخرى ذهبت ريحهم وانقضت عليهم أوربا بخيلها ورجلها ، وانتزعوا الأحكام من أيدينا ، فالأمانة أس العمران ، والخيانة خراب البلدان .

ولعمرك لاتنفع ظواهر العبادات ، ولا قشور القضايا والبينات إلا بإدراك الغايات من مقاصد العبادة وحقائق العدل وبواطن الأمور على قدر الطاقة البشرية عند تحقيق الشهادة ، وذلك هو الذى ذهب من يد المسلمين ، فحل قضاة الفرنجة محل قضاة المسلمين ، وسيرجع الأمر إلى نصابه ويقوم جيل فى الإسلام يأتى الأمر من بابه « ولتعلمن نبأه بعد حين » وسيقوم فى هذه الأمة عما قريب من يعقل قوله تعالى (و) إن الله يأمركم (إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فيسوّى القاضى بين الخصمين فى خمسة أشياء : فى الدخول عليه ، والجلوس بين يديه ، والإقبال عليهما ، والاستماع منهما ، والحكم بالحق فيما لهما وعليهما .

وملخص ذلك : أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه ، وأن لايمتزج ذلك بغرض آخر (إن الله نعما يعظكم به) أى نعم شيئا يعظكم به ، والمخصوص بالمدح المأمور به من أداء الأمانات والعدل فى الأحكام (إن الله كان سميعاً) لأقوالكم (بصيرا) بأحكامكم وما تفعلون فى الأمانات . ولقد علمت فيما تقدم فى هذه السورة الجميلة أن التعليم بطريقين : طريق الإقناع العقلى ، وطريق الإرهاب .

ولما كان المخاطبون من أرقى الطبقات فى الأمة الذين منهم الحكماء أتى بهاتين الطريقتين بشكل عجيب فمدح هذا الوعظ إنعاشا للقلوب وإيقاظا للنفوس ؛ فكأنه يقول انظروا بعقولكم وفكروا بوجدانكم وفتشوا فى ضمائركم ، ألستم ترون أن مبدأ السورة أن الناس إخوانا متعاونون ؟ وهم كأنهم جسم وأعضاء خادمة ومخدومة فلكل مساعد وعضد ، أليس هذا التعاون منفعة للجميع ؟ وإن كان الحكام إذا لم يكن لهم رعايا ذهب عنهم الملك ، وأن الملك لايكون إلا بالعدل ، وأن الرأس لايستقيم إلا بالأعضاء ، فإذا عدلتم بين الناس فالأمر راجع للجميع ، والرعايا إن لم يطمئنوا نقصت الغلات ، ونقصها ينقص رزق الجند ويوجب ذهاب الدولة وذهابها ينزل الحكام عن كراسيهم فيصبحون سوقة ، فهذا سر قوله « نعما يعظكم به » .

ولما كانت هذه المعانى الشريفة الجميلة تخفى على كثير من الحكام وأهل النظر أردفه بالتهديد على النسق الذى رأيته فى هذه السورة ، ولكنه تهديد لطيف فلم يخوفهم بجهنم كما أخاف اليهود بل تلطف فذكر أنه يسمعهم ويبصرهم ، فليحذروا نقمه وطوى ذكر العذاب والنقمة اكتفاء بفطنتهم ، وهذا غاية الإبداع معنى والإحسان لفظا من هنا ، فليذق الناس البلاغة القرآنية وليعجبوا من الحكم البديعة .

ولما فرغ من نصح الحاكمين شرع ينصح المحكومين باعتبار أنها جميعا كإنسان واحد فقال (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وهذا يشمل الكتاب والسنة والقياس والإجماع ؛ فالكتاب والسنة يفهمان من طاعة الله ورسوله ، والقياس والإجماع كذلك من قوله مثلا « فاعتبروا يا أولى الأبصار » والإجماع من قوله « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى » ومما ورد « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وحديث : « مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » وقوله (وأولى الأمر منكم) هم أهل الحل والعقد فى الأمم الإسلامية الذين يكون الأمر بينهم شورى ويكون الرأى الغالب معمولا به وأل فى الأمر للعهد والمعهود ذلك فى قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فهذا هو الأمر المذكور هنا . أما الحكام فإن طاعتهم واجبة لوجوب طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ، فأولو الأمر هم الذين يولون الملوك والملوك يولون الحكام فى الأقاليم ، فإذا أطاع المسلمون عثمان بن عفان فذلك لأن المجلس الشورى الذى أمر به سيدنا عمر قضى بخلافته . وإذا أطاع المسلمون حكام الأقاليم فقد أطاعوا أولياء الأمر منهم بالواسطة ، فطاعة الله ورسوله وما ترتب عليهما تكون فى الأمور الدينية ، وطاعة أولى الأمر تكون فى الشئون الدنيوية المتفرعة على الدينية والمحافظة عليها ، وهناك لابد من تنازع فى فروع الفقه والدين وفى مجالس الشورى بين المسلمين ؛ فليرد المتنازعون أمر ما تنازعوا فيه إلى ما ورثوه من العلوم فى الكتاب والسنة ، وليقتبسوا منهما ولينظروا فيهما حتى يستقيم الأمر ويعتدل ، وهذا هو قوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم

تؤمنون بالله واليوم الآخر) فإن الإيمان يوجب ذلك (ذلك) أى الرد (خير) لكم (وأحسن تأويلا) أحمد عاقبة أو أحسن من تأويلكم بلا رد .

وستأتى محاورات فى المجلس الذى سيعقد بعد مئات من السنين للأمم الإسلامية بعد تفسير المقصد السادس بعد هذا من سورة النساء التى نحن بصدد الكلام عليها ، وهى تطبيق على هذه الآية فلتقرأها ولتتدبرها ، هذا .

واعلم أنه فى هذه الأيام طرد الترك آل عثمان والخليفة من بلادهم ، فكتبت هذه المقالة فى عدد الثلاثاء ١٨ مارس سنة ١٩٢٤ ، ١٢ شعبان سنة ١٣٤٢ بجريدة المقطم ، وهذا نصها :

الخلافة فى الإسلام

الفطرة نور إلهى سار فى المخلوقات الحية ظاهر فى نوع الطير فى جو السماء ، وفى ذوات الأربع فوق الغبراء ، والحيوان البحرى فى لجج الماء ، فهذه الغرائز أنوار مشرقة على الأحياء إشراق الكواكب والشمس والقمر على سائر الأرجاء .

فهذه الفطرة حببت الأمهات فى أولادها ، وبها حنت الذرية إلى أمهاتها ، ودلف الطير إلى عشه وكر الأسد إلى عرينه ، وجرت الحية إلى وكرها ، وسارعت الغزالة إلى كناسها ، وعاشت الأحياء فى سلامة وسلام .

بهذه الفطرة عاش الإنسان قبل التاريخ ، ثم امتاز قوم بنور أبهى وإشراق أجلى وهم الأنبياء فأخذوا يعدون إخوانهم بما به يعدون ، ويعلمونهم مايلهمون ، والفطرة لاتخدع فيقبلون عليهم ويصغون إليهم وكأنهم ماسمعوا إلا لفطرهم ، ولا أصغوا إلا لنفوسهم .

هكذا كان بوذا وكونفشيوس وموسى وعيسى فى الأزمان الغابرة ، ولما طال الأمد أخذت تلك الشعوب تلون الديانات بألوانها وتصبغها بصبغتها ، فتطبع بطابعها وتنسى المبادئ الأولى للديانات ، وتظهر أجيال تشاهد ما ليس من طبع الدين ، وإنما هو من طبع المتدينين وأخلاق التابعين .

وكلما كثرت الأجيال وتوالت الأمم وامتد الزمان تباعد الدين عن أصله وصار على غير شكله ، هناك يكون ضلالا لتابعيه ، وتأخيرا لمعتنقيه ، فيصبح مر المذاق طعمه لن يطاق ، قليل الجدا قيدا فى الأرجل غلا فى الأعناق ؛ فكما كان فى أوله عدة النشاط مفتاح النجاح ، صار فى آخره قيد النفوس جالبا للبؤس .

فقام فى كل أمة من هذه الأمم مجددون ، وظهر فيها مستنيرون ، فعلموا أممهم ، وهذبوا طرقهم ، وأنت ترى تعاليم أوروبا فى العصر الحديث إذ نهجت غير المناهج القديمة فى العصور الوسطى ، ونادى أناس بالحرية العملية والعلمية والانطلاق من الوثاق ، وقام لوثر وأمثاله من المصلحين ، فانجلت بعض الغياهب وظهرت بعض الحقائق وارتقت الشعوب .

دين الإسلام

وجاء دين الإسلام موافقا للفطر كسائر الديانات فى أول أمرها ، فقبله العرب الأولون وأصلح أخلاقهم وجمعهم وكان سهل التعليم ، فطاروا به فى الأرض شرقا وغربا ، وخلف النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، فكانوا على أخلاق النبوة سائرين ولطريق النبوة سالكين وفى سبيلها عاملين متخلقين بالأخلاق المحمدية وهم فى حكمهم عادلون .

الخلافة المحجبة المبرقعة

ثم لما طال الأمد قست القلوب ووهنت النفوس وبطر الخلفاء وتظاهروا بالكبرياء ، فتراهم فى أواسط

الدولة العباسية وأواخرها ببغداد ، وفى أواخر دولة بنى أمية بالأندلس وكذلك الفاطميون بمصر والعثمانيون بالأستانة كل هؤلاء أخيراً قد احتجبوا فى قصورهم مع الخصيان والنساء ساهين لاهين ، وكما هلك خليفة إبتدع من بعده بدعا وأنواعا من الترف وهم فى غيهم يعمهون وفى جهالاتهم تائهون ، والعلماء والحكماء لايستطيعون تقويض ذلك البنيان ولاتغيير تلك الحال بل يمدحونهم بالقصائد وهم يزدادون فى قصورهم قصورا ويملكون فيها ولدانا وحورا وحجابا وخصيانا ونساء لا فرق بين الآخرين منهم والأولين وأنس الناس بتلك المناظر وخضعوا لتلك المناظر وخرست الألسن فلا تسمع إلا همسا ، وبتوالى الزمان أصبح ذلك عادة مألوفة وجبلة ثابتة ، كيف لا ؟ والعادة طبيعة خامسة ، وإذا مات الخليفة قام مقامه آخر من نفس البيت بطريق مرسوم والأمم قبلت ذلك لسببين : أولهما أنهم يخافون قيام الثورات وظهور الفتن فى البلاد ، وثانيهما أن هؤلاء مثلهم للدولة كمثل شبكة الصائد أو جرعة الطبيب أو التنويم المغناطيسى ، فهذه المظاهر والزخارف تأنس النفوس وتخضع الرقاب ، وكما أراد الشعب انطلاقا لم يزده الخلفاء إلا وثاقا بما يزخرفون ويشيدون وبمن حولهم من الحراس والحجاب وأرباب الدولة والمظاهر الخلابة ، فهذه أشبه شئ بأدوية مسكنة للشعب ليهلع لوقعها ويخضع لمرآها ، وهذه تزداد على مدى الزمان وترى هذه المظاهر منومات للشعوب ، فتفتر الهمم وتضل النفوس وترتبك العقول ، وهنالك تخطى الفطن البشرية وتنام العقول الإنسانية أجيالا وأجيالا ، حتى إذا وقعت الواقعة وانشقت سماء الوهم فهى يومئذ واهية أتى لهؤلاء الخلفاء يومهم الموعود وحضر لهم الشاهد والمشهود فذل العزيز وعز الذليل فتكسر تلك الأغلال وتتبدل الحال ، إما من داخل البلاد كما فى دولة الترك الحاليين ، وإما من خارجها كما فى التتار إذ قتل هولاكو آخر خليفة عباسى فى القرن السابع وزالت الدولة العباسية من بغداد ، وقد فعل صلاح الدين الأيوبى مع الخليفة الفاطمى بمصر فى ذلك الزمن ما هو أشد وأنكى ألف مرة مما فعله الترك فى بيت آل عثمان إذ حبس الشبان والشابات من بيت الخلافة متباعدين فى أماكن حتى لايتناسلوا ثم ماتوا فى سنين معدودة وهم لايرحمون . وهكذا انقرضت الخلافة الأموية من الأندلس وجاء ملوك متفرقون شذر مذر حتى تفرقت الكلمة واجتمعت أوربا على مناصرة الأسبانيين فأخرجوهم من الجزيرة وهم يائسون ليس فى هذه الحياة مايبقى إلا إذا كان أصلح للوجود وكيف يبقى مالافائدة له ؟ قاصرون فى القصور مائتون فى الحجرات كيف يعيشون بين الأمم إلا إلى أجل معدود كالأعضاء الأثرية فى الحيوان إنه ليس فى الوجود معطل ولا يبقى إلا ماهو أصلح للحياة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » تبقى تلك العروش قرونا ثم تبيد كما يهلك الشيخ إذا انتهى أجله وفرغ عمله وذهب أمله وقلّ نفعه فيكون موته رحمة له وللعالمين ، ولذلك ترى أناسا ينبتون فى الأمم فيزيلون تلك المظاهر المعطلة والمناظر المضللة التى لايحترمها الناس إلا رياء ولا يعظمونها إلا شفاها وهم فى أنفسهم كارهون وفى قلوبهم مبغضون ولذلك شكا المصريون منذ أربعمائة سنة من الترك وشكا الترك حديثا من المصريين وسائر المسلمين الذين هم واقعون تحت ضغط الأوربيين ، فقال المصريون لقد سطا الترك على خليفتنا فأخذوه وبايعهم بالخلافة وانفرد بها السلطان سليم ، وقال الترك حديثا إن المصريين أرسلوا العمال إلى فلسطين نحو مليون أو يزيدون ، وهكذا سارت الجنود المصرية إلى مكة فى الحرب العامة ؟ حاربوا جيوش الخلافة وهم مسلمون فغضب الترك على الخلافة وأخرجوها من الديار وقالوا لاطاقة لنا اليوم بما لاخير فيه وليس له احترام . ألا إنما السبيل للحل هو الشورى ويكون الخليفة بالانتخاب .

لقد أبنت فى هذه المقدمات سنة الوجود ، وأن الأمم تخضع للعروش إلى أجل محدود وليس يهمنا فى هذا المقام إلا أمر الأمة المحمدية المترامية الأطراف البعيدة الأكناف ، لقد جاء فى القرآن سورة باسم الشورى إيذانا بعظمتها وتعريفا بحكمتها وتبيينا لفضلها ، وهذه السورة نزلت بمكة ونزلت سورة النساء بالمدينة ، وجاء

فى الأولى « وأمرهم شورى بينهم » وعمل بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع أحواله ، وترى المشاورة فى الغزوات مشهورة معلومة عن المحدثين . ولقد شاور أصحابه صلى الله عليه وسلم يوم غزوة أحد فاختلفوا وكان هو أميل فى أول الأمر إلى انتظار للهاجمين فى المدينة وأيد ذلك رؤية رآها ، ولكن الحجج التى أدلى بها من مال إلى الخروج إلى القتال كانت أرجح فانحاز إليها وغضب أصحاب الرأى الأول وأسرعوا للهزيمة ، كعبد الله بن أبىّ بن سلول ، وكان ما كان .

فانظر ماذا قاله الله فى سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ومن هم أولو الأمر هم المعهودون عندهم ، هم أهل الشورى المذكورون فى السورة النازلة قبلها فى مكة « وأمرهم شورى بينهم » فليكن فى كل بلد إسلامى مجلس للشورى ، وبعبارة أخرى نواب ، وهذا المجلس له القول الفصل فى أمر البلاد ، فليفعل مايشاء وليحكم بما يريد . وليكن هناك مجلس عام من الأمم الإسلامية ، ولكلّ مجلس خاص فيه أعضاء ينوبون عنه ويمثلونه وليقترعوا اقتراعا سريا أى عظماء الإسلام يقلدونه الخلافة ، ومتى انتخبوا واحدا كان له الخلافة ، ومن المعقول أن هذه الجموع لاتنتخب سرا ولا جهرا إلا من هو مستقل ليس لأوربا عليه سلطان ، ويكون ذلك الخليفة له أعمال يخصصها له المجلس بحسب الزمان والمكان ، لأنه خليفة على سائر المسلمين وهم متفرقون فى الأرض ، ومنهم من هم فى أحضان المستعمرين ، بهذا يكون للإسلام خلافة حقا ، وإلا فكيف نرى فى مصر للفاطميين ؟ وفى بغداد للعباسيين ، وفى الأندلس للأمويين خلافات متنوعة فى زمن واحد ، فأى خلافة هذه ؟ إنما ملك أعطى لقب الخلافة .

ولقد نرى رجالا من الأمة تزيوا بزى الخلافة على أشكال شتى من الأمم الإسلامية المتأخرة ، متشبهين بالخلافات البائدة وأثروا فى عقول الشعب ، إما بالنسب وإما بالانتساب إلى ولىّ من الأولياء بطريق العهد وما أشبه ذلك ، فعاشوا فى رغد العيش وتمتعوا بنعيم الملوك فى غفلة من الأمم الإسلامية ، وكانوا أكبر عون للفاتحين من الأوربيين ، وهم مشهورون لاسيما فى البلاد العربية فى شمال إفريقيا وغيرها ، وهم هم أعوان كل فاتح فى بلاد الغرب ، وذلك مستفيض بين الجمهور . إن الشورى ممكنة فى هذه القرون المقبلة لسهولة المواصلات والمخاطبات والمكاتبات ووجود القطار والبرق ، وهل يتم ذلك وبينهم المستعمرون ؟ إن ذلك موكول إلى المستقبل ففيه تبين الحقائق ، ولله عاقبة الأمور ، انتهت المقالة .

ولما كانت طاعة الله ورسوله واجبة أردفها بما وقع من مخالفة :

(١) فذكر المنافق الذى لم يرض بحكم رسول الله .

(٢) وأتبعه بذكر الأمر بالقتال ، وكيف كان من المنافقين مثبطون ؟ وذلك من عدم الطاعة .

(٣) ثم ذكر ما كان يفعله ضعفة المسلمين ، إذ بلغهم خبر عن سرايا النبى صلى الله عليه وسلم من طريق الوحى بنصر أو تخويف من عدوّ ، فإنهم كانوا يذيعون ذلك وفى الإذاعة ضرر بالسياسة ، وعليهم أنهم كانوا يردونه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم .

أما الأول . فذلك أن ناسا من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم ، وكانت قريظة فى الجاهلية حلفاء الخزرج والنضير حلفاء الأوس ، وكان إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلا من بنى النضير قتل له أو أخذت ديته مائة وسق من تمر ، وإذا قتل رجل من بنى النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقا ، فلما جاء الإسلام وهاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فاختصموا فى ذلك فقال بنو النضير : كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا ، وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقا فنحن نعطيكم ذلك ، فقال الخزرج : هذا شىء أخذتموه فى الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك

فاليوم

فاليوم نحن إخوة فى الدين فلا فضل لكم علينا ، فقال المنافقون منهم : ننطلق إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى ، وقال المسلمون من الفريقين ننطلق إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبى بردة الكاهن ليحكم بينهم ، فأبى أن يحكم بينهم إلا بمال كثير ، فنزلت آية القصاص وهذه الآية (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) أى المنافقين ممن آمنوا من أهل الكتاب (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) وهو أبو بردة الكاهن على قول السدى المتقدم أو كعب بن الأشرف على قول ابن عباس ، والطاغوت كل باطل من معبود غير الله أوقاض أو كاهن (وقد أمروا أن يكفروا به) لأن الكفر بالباطل وهو الطاغوت إيمان بالحق وهو الله (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) عن الحق (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) أى فكيف تكون حال هؤلاء المنافقين ؟ وكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها ؟ (ثم جاءوك) حين تصيبهم المصيبة (يحلفون بالله) الجملة حال (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) من النفاق فلا يغنى عنهم الكتمان (فأعرض عنهم) عن عقابهم (وعظهم) بلسانك وكفهم عما هم عليه (وقل لهم فى أنفسهم) أى خاليا بهم ، فإن النصح فى السر أنجع (قولا بليغا) يبلغ منهم ويؤثر فيهم ، فهذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يتجافى عن ذنوبهم وينصح لهم ويبالغ فى الترغيب والترهيب ، لأن الأنبياء أهل الشفقة على الأمم .

ولما كان ما فعله منافقو اليهود مخالفة للرسول وقد أمروا بطاعته قبل هذه الآية أردفه بأنه لا يرسل الله رسولا إلا ليطاع ؛ وكما أن اللسان خلق ليتكلم ، والعين لتنظر ، والمعدة لتهضم ، والعقل ليفكر ، هكذا الرسول أرسل ليطاع ، وهذه قاعدة عامة فقال (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) بسبب إذنه فى طاعته (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) بالتحاكم إلى الطاغوت (جاءوك فاستغفروا الله) بالتوبة والإخلاص (واستغفر لهم الرسول) أى من مخالفته والتحاكم إلى غيره (لوجدوا الله توابا رحيما) أى لعلموا أنه قابل توبتهم راحم لهم (فلا وربك) أى فوربك ولا زائدة للتأكيد (لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فيما اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لتداخل أغصانه (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) ضيقا مما حكمت به (ويسلموا تسليما) وينقادوا لك انقيادا ظاهرا وباطنا (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) كما كتبنا على بنى إسرائيل فامتثلوا (أو اخرجوا من دياركم) كما خرج بنو إسرائيل حين استتيبوا من عبادة العجل (ما فعلوه إلا قليل منهم) إلا أناس قليل وهم المخلصون ، وقد تقدم أن الإيمان لايتم إلا بأن يسلموا حق التسليم (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) من متابعة الرسول رغبة لا رهبة (لكان خيرا لهم) فى العاجلة والآجلة (وأشد تثبيتا) فى دينهم ، وهنا يقال ما يكون لهم بعد التثبيت فقال (وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما) وزاد فى تأكيد الطاعة لله وللرسول فقال (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فهم مع الأنبياء الذين بلغوا درجة الكمال والتكميل والصديقين الذين ارتقت نفوسهم بمراقى النظر تارة وبالتصفية والمجاهدة تارة أخرى والشهداء الذين أداهم حرصهم على الطاعة إلى بذل أرواحهم فى سبيل الله والصالحين الذين صرفوا أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وما أحسن مرافقة هؤلاء الأربعة (وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل) كائن (من الله وكفى بالله عليما) بجزاء من أطاعه .

التسليم والرضا وسورة النساء وسورة الشورى

ذكرى للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بالمدنية المستقبلة والتربية العالية

هل لكم أيها المسلمون أن تسمعوا لماذا يشير كلام الله فى هذه الآيات ، وهل يعلم الناس ماذا يريد الله

عز وجل بقوله « ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ؟ يقول لا إيمان إلا إذا حصل الإذعان للأحكام والرضا بالقلوب والتسليم ، وكيف سمى هذه السورة باسم النساء كما سمى أخرى باسم الشورى فقيل هناك (سورة الشورى) وقيل هنا (سورة النساء) .

إن هذا المقام يحتاج للاسهاب والتطويل ولكنى أوجز القول فأقول :

إن هذه السورة سميت باسم النساء ، لأن المرأة أظهر ما فيها من الأحوال أمران : الرحمة والتربية ، فبالرحمة تعطف على الأبناء وتجمعهم ، وبالتربية تغذو أولادها بلبنها وتعطيهم مالها وتكوّن بالأمرين ألفة جامعة ونظاما يكفلهم ، ولذلك ابتدأ السورة بأنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها خلقا كثيرا ، ولماذا هذا ؟ لأنه يريد أن يكون الناس أسرة واحدة لهم ألفة جامعة ؛ وكما أن الأم ترحم البنين هكذا القضاة والحكام ، يجب أن يربوا بطريقة تغرس فى قلوبهم الرحمة حتى يكونوا كالأم ، والأم لاتقضى بين بنيها إلا بالعدل بقدر طاقتها وإذا أنفذت حكما فيهم لم يكن ذلك تشفيا ولا انتقاما ، وإنما ذلك لقصد إصلاحهم وإسعادهم ، وهى تتحمل أذاهم ، وترى الولد إذا وصله من أمه أذى فليس ذلك يدعو إلى كراهتها غالبا ، بل هو يعطف عليها ويرجع إليها رجوعا قلبيا ؛ ثم إن أبناء المرأة الواحدة إذا كان لهم إخوة من أم أخرى اجتمعوا صفا وكانوا يدا واحدة على إخوتهم ، فلهم جامعة واحدة من جهة أمهم كما هو مشاهد معروف ، حتى إن الأخ من الأم والأب مقدم فى الميراث ، ويحجب الأخ لأب لأنهم اتحدوا فى المودة والمحبة وتشاركوا فى الآراء وأمور الحياة لجامعة الأم ، فهكذا الأمة يجب أن تتشاور فى الأمر ويكون رأى الشورى وأولى الأمر فيهم نافذا بطريق القبول ؛ كما أن حكم الأم صادر من قلب رحيم يشعر به الأبناء ويتلقونه بالقبول والتسليم فيكون أمرهم شورى بينهم والأحكام النافذة من القضاة مقبولة قبولا نفسيا لا قهريا جسميا .

ولعمرى هذا هو الذى يطلبه القرآن أيها المسلمون . وياليت شعرى أى فائدة فى الإيمان إذا لم تجعل الأمة كتلة واحدة وأسرة واحدة ذات حب خالص والتئام واتحاد ؟.

أيها المسلمون ؛ أى فائدة نجنيها من هذه الأحكام الشرعية والمرافعات القضائية والتربية فى البلاد غير مرعية . أنا لا أقول غيروا طرق الأحكام فحسب ؛ بل أقول غيروا طرق التعلم . التعليم اليوم ليس على طراز الدين ، أترضون أيها المسلمون أن يكون هذا التعلم فاشيا فى أوربا ويحرم منه الإسلام ؟ .

ألم يبلغكم ما يفعله التلاميذ هناك إنهم يقرءون قانون المدارس وفيه تحديد العقاب على كل ذنب فماذا يصنع التلاميذ يرتكب زيد ذنبا كأن ينسى واجبا يعمله فيأتى إلى المدرسة فيدخل السجن ويجلس فيه المدة المقررة للعقاب بلا حارس يحرسه ولا خفير يحفظه بل جعل نفسه على نفسه حسيبا ويعد التلميذ من العار أن يحرسه الخادمون أو يقف على الباب الديدبان بل هو الحابس وهو المحبوس وهوالحارس وهوالمحروس وهو الراضى وهو المرضى عنه ، فهذه الآية لم تذكر فى القرآن للتلاوات ولا لتكرير العبارات ولا لمجرد العبادات بل جاءت لشئ فوق العبادات والأحكام هو الذى جاءت له الرسل ووضعت الشرائع وأنزل الوحى ، ومن أجله صوّرت صور الموجودات بالجمال وزوقت بالحسن وحسنت سماؤها وأضاءت نواحيها ؛ فالجو جميلة أضواؤه والماء حسن الرواء والسماء بديعة البناء والنجوم باهرة الأنوار والمشارق والمغارب بديعة المناظر النائية المطالع حسنة بهجة تسر الناظرين ، فهل أرانا الله ذلك لنحرم من ثمراته فى القلوب أو نغيب عما صوّر فيه من كل عجب عجاب ؟ .

أرانا الله الجمال وأوحى إلى الأنبياء ما شاكله من الكمال ، فجاء على لسان عيسى أن يكون الناس أحبابا ، وجاء فى هذه السورة أننا أسرة واحدة وعنوان السورة بذلك شهيد وقال فى غضونها إن أولى الأمر ينظرون فى أمور الرعية وإن المحكومين يسلمون فى أحكام القضايا وإنه لا إيمان لهم إلا بالتسليم .

ولعمرى كيف يكون التسليم والرضا من قلوب مقفلة وعيون مسبلة وآذان فيها وقر وعيون عليها ختم وأنفس لم تعرف من المحبة إلا لفظها ولا من التربية إلا ظاهرها ، ولا من التعليم إلا أدناه ولا من التهذيب إلا ما لا يرضاه ، فويل لمن عاشوا عيشة لفظية فماتوا موتة جاهلية ، وويل ثم ويل لمن وعظهم الدهر بضرباته واتهرهم بوثباته فلم يفيقوا من غفلاتهم ولم يتعظوا بنكباته من الأمم الإسلامية التى دهمها الفرنجة فأردوهم وضربوهم فمزقوا شملهم ، فهل ترى لهم مدنا مستقلة أو أصولا ثابتة ؟ فمتى ينتفضون ؟ وفى أى طريق يسلكون ؟ .

الطريقة المثلى لرقى الإسلام

هى التربية الشريفة ونبذ ما هم عليه وأن يملأ صدور التلاميذ من العواطف والرحمة والحب للشعب ويربى الأبناء على حب النظام والعمل للمجموع والحب العام بالحكايات اللطيفة والسير الجميلة وسيرة النافعين للأمم الإسلامية بحيث تهذب القصص والحكايات ، فلا يدخل فيها ما ينقص سير الأبطال ولا يدمج فيها مايضر بسمعتهم ولو كان حقا . ويشخص كل جميل وينبذ كل قبيح ، وليعدل إلى الروايات المشجعة تارة والمحببة للمجموع أخرى والمعطشة للعلم والمرغبة لمساعدة للإخوان آونة ، وليكن ذلك كثيرا حتى ترسخ الملكات فى النفوس ، هنالك يتم الإيمان هناك يحب الشعب حكامه هنالك يطيع رؤساءه ولا يجد المحكومون فى أنفسهم حرجا من الحاكمين ذلك هو الصراط المستقيم فعلى المسلمين أن يحرصوا على هذه التربية حرصا دائما ، فلئن اقتصر الجهال من المسلمين على تعظيم الأحكام الشرعية فليحرض العلماء الشعب على اتساع نطاق التربية الخلقية والمحبة الجنسية والفضائل الخلقية ، فذلك أعلى تقديسا وأشرف مقاما وأعز مقصدا وأوسع مددا وأقرب منالا وأكثر إفضالا وأقرب إلى مرامى النبوات وإلى جمال هذه المخلوقات .

فكما يبصر الناس بالعيون جمالا فى السموات يبصرون فى قلوبهم جمالا فى النيات . فياليت شعرى لم قال الله « نعما يعظكم به » فى تأدية الأمانات وأمر بإزالة الحرج من النفوس عند الحكم فى الدعوات وأمر رسوله أن يعظهم فى ذلك بأبلغ العبارات ، هل كل ذلك لحوادث جزئية وقضايا وقتية ؟ كلا ثم كلا ، إن الله خزن ذلك فى القرآن وأبقاه لنا إلى أن آن الأوان وظهرت حوادث الزمان وسبق الفرنجة بهذه التعاليم ونحن أرقى منهم أديانا وأرفع شأنا منهم فلنقم بالأمر خير قيام ولنعلم الشعب حسن الأخلاق .

ولعمرك هل جملت الصور المحسوسة والبدائع المنظورة فى أنحاء المعمورة إلا بصنعة باهرة وأعمال ظاهرة وأصول قيمة وهندسة متقنة ، هكذا لن تجمل النفوس ولن تجمل الأخلاق وتحسن الشعوب ويتم النظام إلا بصنع النفوس صنعا يعليها ووعظها وعظا يدنيها بالأمثال النافعة والحكايات الممتعة والآراء الناجحة والأقوال الشارحة وسير الأبطال وفضائل الرجال وشمائل العلماء وأخلاق الحكماء وطرق العقلاء وشيم الأذكياء وتراجم الصلحاء الذين نفعوا الأمم بعلومهم ورقوها بأموالهم وأنفسهم ، وذلك هو القول البليغ الذى أمر به الرسول والوعظ الممدوح والقول المشروح الشارح للصدور المهيء لتبوىء النفوس مقام الصدق ومطالع العرفان والنور ، انتهى المقصد الخامس .

المَقصِدُ السَّادِسُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ

أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم
فأفوز فوزا عظيما * فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل
في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما * وما لكم لا تقاتلون في سبيل
الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية
الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا * الذين آمنوا يقاتلون
في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد
الشيطان كان ضعيفا * ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا
الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية
وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب * قل متاع الدنيا قليل،
والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم
في بروج مشيدة، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا
هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا *
ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وأرسلناك للناس رسولا
وكفى بالله شهيدا * من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا
ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب
ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا * أفلا يتدبرون القرآن ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا * وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف
أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم
ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا * فقاتل في سبيل الله
لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد
بأسا وأشد تنكيلا * من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، ومن يشفع
شفاعة سيئة يكن له كفل منها، وكان الله على كل شيء مقيتا * وإذا حييتم بتحية

فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا * فَمَا لَكُمْ
فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا
مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ
فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا *
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا
فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا
خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ
كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ
خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ
فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ
دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ
مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ

قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ؛ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا * وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *

هذا المقصد إكمال للدروس المعطاة للمسلمين تطبيقا على وجوب طاعة الله والرسول الخ .

وفي هذا المقصد أحد عشر فصلا :

(١) الوعيد على الإهمال في الجهاد والوعد بالسعادة الأخروية للجاهدين .

(٢) الحض على إنقاذ المستضعفين من المؤمنين من يد الأعداء .

(٣) ذم الجبناء بخورهم وخوفهم بعد ظهورهم بهيئة الشجعان .

(٤) كيف يخاف الناس من الموت وهو لاحقهم أينما كانوا .

(٥) ذم التشاؤم من المخلوق بحدوث المصائب مع أن الله هو الفاعل لكل شئ .

(٦) إعادة الكلام في وجوب طاعة الرسول مع العلم أن كل ما تقدم من تلك الطاعة .

(٧) ذم المرجفين الذين يذيعون الأخبار قبل مراجعة أولي الأمر .

(٨) الكلام على المنافقين .

(٩) تحريم قتل المؤمن كما وجب محاربة المعتدين على البلاد والعدو المغير .

(١٠) التحريض على الهجرة للقادرين .

(١١) قصر صلاة المسافرين والكلام على صلاة الخوف فى الحرب .

فمحصل الكلام فى هذا القسم :

(١) جهاد من المؤمنين الصادقين .

(٢) حكم على المنافقين بالضلال .

(٣) تحريم قتل المؤمن .

(٤) فرار القادرين الذين لا يجدون نصيرا فى أرض العدو .

التفسير اللفظى

يقول فى الفصل الأول (خذوا حذركم) تيقظوا واستعدوا بالسلاح للقتال (فانفروا) اخرجوا الجهاد (ثبات) جماعات متفرقة جمع ثبة تقول ثبيت على فلان تثبية إذا ذكرت جميع محاسنه وجمع الثبة ثبين (أوانفروا جميعا) مجتمعين كوكبة واحدة ، وذلك وإن كان واردا فى الحرب فهو عام لكل خير (وإنّ منكم لمن ليبطئن) اللام الأولى لام الابتداء المسماة بالمزحلقة ، والثانية واقعة فى جواب القسم ، وليبطئن إما بمعنى يتباطأ ويتثاقل فلا يتوجه للحرب ، وإما بمعنى تثبيط غيره كما فعل بعض المنافقين يوم أحد ، وبطأ بالتشديد من بطؤ بك المتعدى بالباء ومن اسم موصول اسم إن ، أى وإن منكم بحسب الظاهر منافقين فى الباطن والله ليتخلفن عن الجهاد (فإن أصابتكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) ذلك المبطىء (قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل من الله) كفتح وغنيمة (ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) وجملة كأن لم تكن الخ معترضة ، وهذا القول لضعف فى العقيدة (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون) يبيعون (الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) .

وقال فى الفصل الثانى (وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله و) فى سبيل استنقاذ المؤمنين (المستضعفين) من أيدى الكفار ، ثم بينهم فقال (من الرجال والنساء والولدان) فى مكة (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فأجاب الله دعاءهم ، وهذا وإن كان قد نزل فى المستضعفين بمكة فحكمه عام ، والمسلمون اليوم آثمون ، ولذلك سلط الله عليهم الفرنجة فأذلوهم ، وقوله (الطاغوت) الشيطان ونحو ذلك ثم أمرهم بقتال أولياء الشيطان وأبان ضعفه تشجيعا لأن الباطل لاثبات له .

وقال فى الفصل الثالث : (ألم تر) يامحمد إلى الذين كانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا بمكة قبل أن يهاجروا وكانوا يستأذنونك فى القتال فكنت تأمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم الحرب حتى نأذنك بذلك فلما كتبنا عليهم القتال خاف بعضهم لقاء العدو فصاروا يخافون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وهذا من الجبن وحب الحياة والميل إليها (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال الخ) .

وقال فى الفصل الرابع (قل) لهم (متاع الدنيا قليل) سريع زواله (والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون) تنقصون أدنى شىء من ثوابكم (فتيلا) ما يكون فى شق النواة كما تقدم (البروج المشيدة) القصور أوالحصون المرتفعة ، وأصل البرج : بيت على طرف القصر ، من تبرجت المرأة إذا ظهرت .

وفى الفصل الخامس : إن المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك ، فقال المنافقون واليهود ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه فقال الله تعالى (وإن تصبهم حسنة) خصب

وثمار (يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة) جدب فى الثمار (يقولوا هذه من عندك) أى من شؤم محمد وأصحابه (قل) يا محمد (كلٌّ) من الحسنة والسيئة (من عند الله) فأما الحسنة فإنعام ، وأما السيئة فابتلاء ، لأنه سبحانه يربى الناس بالسراء والضراء والتربية يلزمها الأمران (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) يوعظون به وهو القرآن ، فكله ناطق أن كل شىء من الله (ما أصابك) أيها الإنسان (من حسنة) نعمة (فمن الله ، وما أصابك من سيئة) بلية (فمن نفسك) لأن الاستعداد والقابلية لنفسك لم يلق لها إلا تلك البلية ، لأن الله يربى الناس وينقلهم من حال النقص إلى حال الكمال ، فاستعداد الضعيف ليس كاستعداد القوى والبلايا ماهى إلا نقص وما النقص إلا عدم الكمال فالله لم يخلق العدم وإنما خلق الوجود ، وليس يقال إن الله ظلم الدودة فلم يعطها فلسفة أفلاطون ولاحكمة لقمان ، لأن خلق الدودة لايستلزم تلك الحكمة بل لافائدة لها فى ذلك الكمال (وأرسلناك) يا محمد إلى كافة الناس رسولا لتبلغهم رسالتى وما أرسلتك به ، ولست رسولا إلى العرب وحدهم بل أرسلناك (للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) على إرسالك للناس كافة .

وقال فى الفصل السادس (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى) عن طاعته (فما أرسلناك عليهم حفيظا) تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقوله (ويقولون طاعة) أى أمرنا طاعة أو منا طاعة (فإذا برزوا) خرجوا وقوله (بيت طائفة منهم) أى زورت خلاف ما قلت لها أو ماقالت لك من القول ، وبيت من البيتوتة ، لأن الأمور تدبر بالليل (والله يكتب ما يبيتون) يزورون (فأعرض عنهم) قلل المبالاة بهم وتجاف عنهم (وتوكل على الله) فى الأمور كلها لاسيما فى هذا الأمر (وكفى بالله وكيلا) يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم (أفلايتدبرون القرآن) يتأملون معانيه والتدبر النظر فى أدبار الشىء وعواقبه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) من تناقض المعنى وتفاوت النظم وبعضه تسهل معارضته وبعضه تصعب معارضته وبعضه يطابق خبره المستقبل الواقع وبعضه لايطابق وبعضه يوافق العقل وبعضه يخالفه .

وقال فى الفصل السابع (وإذا جاءهم أمر) مما يوجب الأمن أو الخوف أفشوه ، فإذا سمع بعض ضعفة المسلمين خبرا عن سرية من السرايا عن طريق الوحى أو عن طريق المنافقين أذاعوه بين الناس وفى ذلك مفسدة فى السياسة ؛ ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول وإلى آراء أولى الأمر منهم البصراء بالأمور (لعلمه) العقلاء (الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجون تدبيره بذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بأمور الحرب وهم الذين يعرفون ما ينبغى أن يذاع وما ينبغى أن يكتم إحكاما للسياسة ، فكان يجب على هؤلاء الضعفاء أن يرجعوا إلى أولئك المستنبطين من أولى الأمر فيما يرد من الأخبار .

ولما دعا الناس عليه الصلاة والسلام إلى القتال فى بدر الصغرى إلى الخروج كرهه بعضهم وقد تقدم ذلك فى غزوة أحد فى سورة آل عمران ، وأن أبا سفيان واعد النبى صلى الله عليه وسلم موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد ، فلما كره بعضهم الجهاد حين دعاهم فى الموعد نزل (فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) إلا فعل نفسك فخرج فى سبعين راكبا (وحرض المؤمنين) على القتال (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) يعنى قريشا وقد فعل فألقى فى قلب أبى سفيان ومن معه الرعب فرجعوا (والله أشد بأساً) من قريش (وأشد تنكيلا) تعذيبا (من يشفع شفاعة حسنة) أى من يصر شفعا لوتر أصحابك يا محمد فيشفعهم فى جهاد عدوهم (يكن له نصيب منها) حظ وافر منها (ومن يشفع شفاعة سيئة) بأن قاتل أصحابك وكفر بدينك (يكن له كفل) نصيب (منها وكان الله على كل شىء مقيتا) مقتدرا قال الشاعر :

وذى ضغن كففت الشر عنه   وكنت على إساءته مقيتا

أى

أى قادرا ، وقال ابن عباس فى هذا المقام فى الحسنة والسيئة مالها مقسر غيرى : معناه من أمر بالتوحيد وقاتل أهل الكفر وضده السيئة ، وأقول إن هذا التفسير هو المناسب للمقام .

ولما ذكر الله أنه يكافئ المحسن بنصيب والمسئ بكفل وأنه قادر على كل شئ أردفه بأنكم أيضا أيها الناس عليكم أن تقتدوا بربكم وتتخلقوا بأخلاقه وتسيروا على نهجه ، فتقابلون الإحسان بالإحسان فقال (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) التحية : العطية ، فإذا أعطى الإنسان عطية فليعط أفضل منها أو يردها وجوبا وهو قول قديم للشافعى .

والجمهور حمله على السلام فيزيد من رد السلام : ورحمة الله فان قالها المسلم زاد وبركاته، والرد واجب وجوبا كفائيا ، ولا يشرع الرد فى بعض الأحوال فلا رد فى الخطبة وقراءة القرآن وفى الحمام وعند قضاء الحاجة (إن الله كان على كل شئ حسيبا) يحاسبكم على الشفاعة السيئة وعلى عدم رد التحية بأحسن منها أو مثلها . وللسلام أحكام تطلب من علم الفقه فلانطيل بها ، وأما قوله (الله لاإله إلاهو إلى قوله حديثا) فتفسيره ظاهر.

وقال فى الفصل الثامن: (فما لكم) تفرقتم (فى) أمر(المنافقين)فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم (والله أركسهم) بأن صيرهم إلى النار ، وأصل الركس رد الشئ مقلوبا (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) أى تجعلوه من أهل الهداية (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) إلى الهدى وقوله (ودوا لو تكفرون كما كفروا) أى ودوا لو تكفرون كفرا مثل كفرهم (فتكونون سواء) مستوين أنتم وهم فى الكفر (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) فلا توالوهم حتى يؤمنوا بأن يهاجروا من الكفر إلى الإيمان لأن الهجرة فى سبيل الله بالإسلام (فإن تولوا) عن الإيمان (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) كما هو حكم سائر المشركين (ولا تتخذوا منهم وليا) توالونه (ولا نصيرا) وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوهم .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمى على ألا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل إلى هلال والتجأ إليه فله من الجوار مثل الذى لهلال كان الأسلميون بهذا من المعاهدين أيضا ، لقد كان بنو مدلج عاهدوا ألا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشا ألا يقاتلوهم فبهذا يكون بنو مدلج مسالمين والأسلميون معاهدين .

وهذا هو قوله تعالى مستثنيا من قوله « فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم » الخ (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا الذين يتصلون إلى الأسلميين ونحوهم ممن لهم عهد (أو جاءوكم حصرت) ضاقت (صدورهم) عن (أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) عطف على الصلة : أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم كبنى مدلج ، والحصر : الضيق والانقباض . ثم بين الله أن صرفهم عن المسلمين من فضل الله فقال (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) بأن يقوى قلوبهم ويشرح صدورهم ويزيل الرعب من قلوبهم (فلقاتلوكم) ولم يكفوا عن قتالكم (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم) الاستسلام والانقياد (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى فما أذن لكم فى أخذهم وقتلهم .

ثم إن أسدا وغطفان وبنى عبد الدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا بأس المسلمين ، فلما رجعوا كفروا وكلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين قاتلوهم ، فهذا قوله تعالى (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم) بإظهار الإيمان فى المدينة (ويأمنوا قومهم) بمحاربتكم إذا رجعوا إليهم (كلما ردوا إلى الفتنة) الكفر (أركسوا فيها) عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم) ولم يلقوا الصلح (ويكفوا أيديهم) عن قتالكم (فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم) حيث تمكنتم منهم (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) حجة واضحة فى التعرض لهم بالقتل والسبى لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم .

وقال فى الفصل التاسع : ما ملخصه إن القتل ثلاثة أقسام : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ . فأما العمد المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالبا فيقتل به ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية مغلظة سيأتى بيانها فى مال القاتل . وأما شبه العمد فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لايقتل بمثله غالبا ، مثل أن ضربه بعصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه ، وتجب عليه دية مغلظة على عاقلته المؤجلة إلى ثلاث سنين وأما الخطأ المحض فهو ألا يقصد قتله بل قصد شيئا آخر فأصابه فمات فلا قصاص عليه ، وتجب فيه دية مخففة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين ، وقتل الخطأ مثل أن يقصد قتل كافر فيصيب مسلما .

ودية الحر مائة من الإبل فإن لم توجد الإبل فقيمتها وهى ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم ، وفى الدية المغلظة والمخففة كلام طويل فى علم الفقه يرجع إلى أن تكون الإبل أصغر سنا من التى هى مغلظة مع كونها مائة ، وهل دية الذمى والمعاهد مثل دية المسلم ؟ رأيان : وهذا قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا) بغير حق (إلا خطأ) أى إلا قتلا خطأ كما اتفق لعياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل من الأم لقى الحارث بن زيد فى طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياش فقتله (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) أى فواجبه تحرير رقبة أى عتق رقبة مؤمنة (ودية مسلمة إلى أهله) مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث (إلا أن يصدقوا) يتصدقوا عليه بالدية فسمى العفو عنها صدقة حثا عليها (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أى إن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله كفارة دون الدية لأنها ترجع إلى الورثة ، والكافرون لايرثون المؤمنين كما هو معلوم فى الميراث (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أى وإن كان من قوم معاهدين أو أهل ذمة فحكمه حكم المسلم فى وجوب الكفارة والدية (فمن لم يجد) رقبة بأن لم يملكها ولا مايتوصل به إليها (ف) عليه (صيام شهرين متتابعين) شرع ذلك (توبة) صادرة (من الله وكان الله عليما) بحاله (حكيما) فيما أمر فى شأنه (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) .

واعلم أن قتل المسلم عمدا والزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين وأشباهها لاتوجب خلودا فى النار ولكن عذابها شديد لأنها من الكبائر ؛ والمراد بالخلود المكث الطويل ، فإن الدلائل متظاهرة أن عصاة المسلمين لايدوم عذابهم . روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا وبقى مرداس ثقة بإسلامه ؛ فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا به وكبروا كبر ونزل وقال : لاإله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، فقتله أسامة واستاق غنمه فنزل (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم) سافرتم وذهبتم للغزو (فى سبيل الله فتبينوا) اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام) لمن حياكم بتحية الإسلام . وفى قراءة - السلم - أى الاستسلام والانقياد (لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا) تطلبون ماله الذى هو حطام سريع النفاد (فعند الله مغانم كثيرة) لكم تغنيكم عن قتل أمثاله لماله (كذلك كنتم من قبل) أول ما دخلتم فى الإسلام فتحصنتم بالشهادتين من غير أن يعلم ما فى قلوبكم (فمن الله عليكم) بالاشتهار بالإيمان (فتبينوا) وافعلوا بالداخلين فى الدين ما فعل بكم (إن الله كان بما تعملون خبيرا) عالما به .

وقال فى الفصل العاشر : (لايستوى القاعدون) عن الحرب (من المؤمنين غير أولى الضرر) بالرفع صفة للقاعدون أو بدل أو بالنصب حال (والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لامساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) أى بدرجة (وكلا) من القاعدين والمجاهدين (وعد الله الحسنى) المثوبة الحسنى وهى الجنة (وفضل الله المجاهدين على

القاعدين

القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) وفضل متضمن معنى أعطى وأجرا مفعول ثان له ودرجات ومغفرة ورحمة كلها بدل من أجرا (وكان الله غفورا) لما عسى أن يفرط منهم (رحيما) بما وعد لهم .

وقال فى الفصل العاشر أيضا : (إن الذين توفاهم الملائكة) أى توفتهم أو تتوفاهم فهو ماض أو مضارع أى تتوفاهم بقبض أرواحهم (ظالمى أنفسهم) أى حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة كقيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة فهذان وأشباههما دخلوا فى الإسلام ولم يهاجروا ، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار ، والمعلوم أن الله تعالى لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله صلى الله عليه وسلم «لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » أخرجاه فى الصحيحين فسألهم الملائكة حين قبض أرواحهم (قالوا فيم كنتم) سؤال توبيخ وتقريع (قالوا كنا مستضعفين) عاجزين (فى الأرض) أرض مكة (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟) كما فعل المهاجرون إلى المدينة وإلى الحبشة (فأولئك مأواهم جهنم) لأنهم تركوا الواجب وساعدوا الكفار (وساءت مصيرا) والمخصوص بالذم جهنم (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) استثناء منقطع (لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) حالان من المستضعفين (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًّا غفورا) وهذا ظاهر (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا) وهو التراب ، يقال خرج الرجل عن قومه مراغما لهم : أى مغاضبا لهم ومقاطعا ؛ فالمراغم المذهب والمهاجر والمتحول كأنه خرج رغم أنفهم ، والرغم التراب كأنه أذلهم ، بخروجه ، وأنشد الزجاج :

إلى بلد غير دانى المحل   بعيد المراغم والمضطرب

(وسعة) فى الرزق وإظهار الدين (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما) ومعنى وقع وجب . نزلت فى جندب بن ضمرة حمله بنوه على سرير متوجها إلى المدينة ، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله وقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فيه .

وقال فى الفصل الحادى عشر : (وإذا ضربتم فى الأرض) أى سافرتم (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) بتنصيف ركعاتها فيصير الظهر والعصر والعشاء كل منها ركعتين كالصبح وجوبا عند أبى حنيفة لقول عمر رضى الله عنه « صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم» ولقول عائشة رضى الله عنها «أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فقصرت فى السفر وزيدت فى الحضر » ورأى الشافعى أن القصر رخصة فى السفر والإكمال عزيمة لأن لاجناح يستعمل فى موضع التخفيف والرخصة لافى موضع العزيمة . وقال الحنفية : إنه عزيمة لارخصة ولا يجوز الإكمال لقول عمر المذكور ، وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا فى القصر فنفى عنهم الجناح لتطيب نفوسهم بالقصر ويطمئنوا إليه ، ثم قال (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) جار على حسب الغالب فى ذلك الوقت ولذلك لم يعتبر المفهوم فالصلاة تقصر فى الخوف وفى الأمن كما فى قوله تعالى « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما الخ » فالسنن تظاهرت على جوازه فى حال الأمن .

آراء العلماء

(١) صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر عند ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله والسدى وأبى حنيفة فقصرها إذن تخفيف الركوع والسجود .

(٢) صلاة المسافر مقصورة وليست بأصل ، وهو قول مجاهد وطاوس والشافعى وأحمد .

(٣) يجوز القصر فى كل سفر مباح عند الشافعى ومالك وأحمد والجمهور .

(٤) يجوز القصر بشرط أن يكون سفر حجّ أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة .

(٥) لايجوز القصر فى سفر المعصية ، وأبو حنيفة والثورى يجيزانه فيه .

أىّ سفر يكون القصر فيه ؟

(١) قال داود وأهل الظاهر : يجوز القصر فى قصير السفر وطويله وروى عن مالك أيضا .

(٢) قال الأوزاعى يشترط سفر يوم .

(٣) وقال الحسن والزهرى سير يومين .

(٤) وقال الشافعى سير ليلتين وذلك ستة عشر فرسخا كل فرسخ ثلاثة أميال فتكون ثمانية وأربعين ميلا بالهاشمى ، والميل ستة آلاف ذراع ؛ والذراع ٢٤ أصبعا معترضة معتدلة ؛ والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات .

(٥) ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران فى مسيرة أربعة برد ، وهى ستة عشر فرسخا كالمتقدم وهكذا مالك وأحمد وإسحق .

(٦) وقال الثورى وأبو حنيفة وأهل الكوفة : لا قصر فى أقل من ثلاثة أيام .

فأبو حنيفة مشدد ، وداود وأهل الظاهر مسهلون ، والباقون متوسطون ، ثم قوله تعالى « إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا » يروى فيه أن عمر رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال « صدقة تصدق الله عليكم بها فاقبلوا صدقته » أخرجه مسلم .

ثم شرع يذكر صلاة الخوف فقال (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) . ملخص ذلك :

أن يجعلهم طائفتين تقوم إحداهما معه يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو ، والذين يصلون معه يجب أن يأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجد المصلون وجب أن يكون الذين لايصلون حارسين لهم من ورائهم ، ثم يذهب المصلون إلى وجه العدو ويأتى الحارسون فيصلون مع الإمام ويجب أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم .

هذا معنى الآية . وهناك كيفيات لتلك الصلاة ، وهذا بيانها :

[الأولى] صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يبطن نخل صلى مرتين بكل طائفة مرة وهذا ظاهر .

[الثانية] أن يصلى صلاة واحدة بكل ركعة فى التى هى ركعتان ، فيصلى بالأولى ركعة وينتظر قائما حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتى الأخرى فيصلى بهم الركعة الثانية ثم ينتظرهم قاعدا حتى يتموا صلاتهم ويسلم بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع .

وقال أبو حنيفة يصلى بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو ، وتأتى الأخرى فتصلى معه ركعة ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو ، وتأتى الأولى فتؤدى الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها ، ثم تعود وتأتى الأخرى فتؤدى الركعة بقراءة وتتم صلاتها ، وإذا كان العدو فى جهة القبلة فليصفهم صفين ويحرم بهم جميعا ، فإذا سجد سجد معه أحد الصفين ووقف الصف الآخر يحرسهم ، فإذا رفع سجدوا ولحقوه وتشهد الإمام بالصفين .

والعبرة بترتيب الإمام ونظره فى الحرب ، ولا دخل لأحد إلا نظر القائد الذى يصلى بهم والآية واضحة ، وإنما حذرهم الله لأن العدو يتربص وقت الصلاة ليغنمهم فيه ولذلك قال (ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن

أسلحتكم

أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة فى صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة .

من اراء العلماء

(١) رأى أبى يوسف والحسن وابن زياد من أصحاب أبى حنيفة أن صلاة الخوف كانت خاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا تجوز لغيره .

(٢) المزنى من أصحاب الشافعى يقول كانت ثابتة ثم نسخت .

(٣) على بن أبى طالب وأبوموسى وحذيفة بن اليمان صلوها : الأول ليلة الهرير، والثالث بطبرستان ولم يخالفهم الصحابة وهو مذهب أبى حنيفة والشافعى وكثير من العلماء .

واعلم أنه إذا اشتدت الحرب والتحم القتال صلوا رجالا وركبانا يومئون للركوع والسجود إلى أى جهة كانت عند الشافعى . وعليه يكون قوله تعالى فيا يأتى « فإذا قضيتم الصلاة » أى إذا أردتم أداءها واشتد الخوف فأدوها كيف أمكن قياما مسايفين ومقارعين وقعودا مرامين وعلى جنوبكم مثخنين ؟ ومذهب أبى حنيفة أنهم لايصلون، فإذا أمنوا قضوا ما فاتهم من الصلاة ، ثم قال (ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى) أى لاحرج عليكم فى حال المطر وحال المرض (أن تضعوا أسلحتكم) لأن السلاح يثقل حمله عليكم (وخذوا حذركم) أى راقبوا العدو ولا تغفلوا عنه (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) ثم قال تعالى (فإذا قضيتم الصلاة) أديتموها وفرغتم منها (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) فدوموا على الذكر فى جميع الأحوال .

قالت عائشة رضى الله عنها« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل أحيانه» (فإذا اطمأننتم) سكنت قلوبكم من الخوف (فأقيموا الصلاة) أى أتموها أربعا وذلك فى الإقامة فى الأوطان ، أو أتموا ركوعها وسجودها إذا سكن القلب بالأمن بعد الخوف (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) فرضا مؤقتا محدود الأوقات لايجوز إخراجها عن أوقاتها فى شئ من الأحوال (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) لاتضعفوا فى طلب الكفار بالقتال (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجون) فالألم قدر مشترك بينكما ، وقد صبروا على ألمهم أفلا تصبرون ؟ وقد امتزتم بأنكم على الحق وفى قلوبكم رجاء النصر فى الدنيا والثواب فى الأخرى فأنتم ترجون إحدى الحسنيين (وكان الله عليما حكيما) فهو يعلم مصلحتكم ، انتهى التفسير اللفظى .

التفسير المعنوى وجمال القرآن والإسلام

(١) مناسبة هذه الآيات لأول السورة فى خلق آدم .

(٢) كيف تحفظ صور الموجودات الجمادية باليبوسة بعد أن شكلت بالرطوبة ؟

(٣) كيف تحفظ الأنفس الحيوانية بما هو فوق ذلك من قوة غضبية وأسلحة مختلفة ؟

(٤) علم الإنسان ورحمته وقواه النفسية للحياة وشجاعته لحفظها ودوامها .

(٥) ظهرت هذه القوة الغضبية فى الشجاعة لحفظ الإنسان ، وفى مظاهر الشهامة عند المتوحشين .

(٦) عند بعض الأديان القديمة .

(٧) عند الأمم المختلفة بأشكال متباينة .

(٨) تركها بعض الديانات فضلت أممهم سواء السبيل واتبعت الشهوات .

(٩) الإسلام له فى ذلك ثلاث درجات .

(١٠) الآيات التى قرأتها الآن والسابقة للمحافظة على الوطن وتقصير بعض المسلمين وفضل بعضهم فى التقدم .

(١١) تجاوز ذلك الإسلام إلى إدخال سائر العناصر وجعلهم أمة واحدة ككافور الإخشيدى والعبيد المصريون يسودون ساداتهم وهذا بخلاف أوربا ، وإن الدين الذى بهذا الشكل يصلح للمدنية إذا وجد رؤوسا كبيرة تراعى الزمان والمكان .

نظام هذا العالم ونظام الإنسان والتئام أول هذه السورة مع علومها

اعلم أن الله عز وجل خلق هذا العالم متشابها متشاكلا متجاذب الأطراف وحسبك أن تنظر ما حولك من العناصر والمركبات الطبيعية، ألست ترى كل صورة حجرية أو كتلة مدرية مانالت شكلها إلا برطوبة ألانتها ومائية سهلتها فقبلت التدوير أو التثليث أو التربيع أو التخميس ثم ألحت عليها الشمس إلحاحا فماسكت الأجزاء وتجاذبت الأطراف أو لست ترى أن اللبنات يصيرها الناس آجرا بإحراقها بالنار محافظة على الصورة أن تفلت من مادتها . فلعمرك لم تقبل الشكل إلا وهى بالرطوبة مشبعة ولم يبق الشكل يوما أو بعض يوم أو مئات السنين إلا باليبوسة التى أنتجتها الحرارة الشمسية أو الحرارة النارية يستوى فى ذلك الجماد والمعدن والنبات والحيوان .

أليس آدم الذى أشير إليه فى أول السورة بأننا منه خلقنا ذكورا وإناثا قد خلق من صلصال وما الصلصال إلا الفخار والفخار كان رطبا حتى شكل وبعد ذلك ألحت عليه النار فيبس .

أيها الذكى ارفع طرفك قليلا وليكن بصرك حديدا فلتنظر أليست النفوس الحيوانية فيها القوة الغضبية لتحفظ كيانها وتمنع عدوها وتنطحه بقرونها أو تقتله بمخالبها وقوتها أو ترفسه بأرجلها أوتعدو إلى أوكارها الخ .

أليس هذا شيئا اختص بالنفوس لم يكن فى الأجسام الجمادية فهو هنا حرارة نفسية وهناك فى الصلصال حرارة نارية جسمية ، ثم إن النفوس الحيوانية والإنسانية لاتحيا إلا بآراء وغرائز تقوم بها من رحمة وحب والحب قد يكون لطلب الطعام الذى به حياة الأجسام وطلب الإناث من النوع لتولد الأمثال .

فالحب والرحمة فى الأنفس قائمان مقام الرطوبة فى الأجسام الطبيعية لتقبل الأشكال الصورية والقوة الغضبية فى هذه الحيوانات كاليبوسة فى الأجسام فلولا الغذاء ماعاش حيوان ولا نما إنسان كما لايصور نبات ولامادة ترابية إلا بمخالطة الرطوبات ، ولولا غريزة حب البقاء فى الإنسان والحيوان والغضب المودع فيهما للدفاع عن النفس ما عاش أحد منهما إلا قليلا .

فالمحافظة فى سائر الحيوان على الأنفس غرائز واجبة الحصول . فترى ماألهمه كل حيوان ظهر أثره على أعضائه فترى القرون والمخالب والأنياب وقوة العدو والصدف على جسد السلحفاة والإبر على جلد القنفذ وأنياب الأسد وسم الحيات والعقارب وقوة الفيل . كل تلك آلات تطابق ماجبلت عليه تلك النفوس من المحافظة على أجسامها بقواها الغضبية المسلحة بالأعضاء الظاهرية ، وترى هذه القوى الباطنية لا أثر لها فى الأحجار كما لا أثر لأسلحتها فى تلك الجمادات .

وتعال فوق ذلك إلى الإنسان ، تر الطيارات الهوائية والجيوش البرية والمراكب البحرية والغواصات المائية كل ذلك مطابقة لقواه الفكرية واستعداداته العقلية .

على ذلك درج الإنسان قديما وحديثا بأشكال مختلفة وهو فى الحقيقة لم يتعد طور ما حوله من المخلوقات وإنما ذلك تنوع فى أنواع الدفاع . ولعمرك لم يخرج عما جاء فى أول السورة أنه من أبيه آدم وهومن صلصال جبست صورته بالنار فيبست الصورة وحفظت .

هكذا

هكذا هنا تبقى الصورة الإنسانية والحيوانية بدفاع العدو عنها فلايتلفها وذلك بالسلاح القائم مقام الحرارة فى الصور الجمادية .

ألم تر إلى المتوحشين من أهل السودان كيف ظهر ذلك فى أعمالهم العادية ، وأن الشاب يظهر أمام الفتيات إذا أراد الزوج بواحدة منهن فيضربونه ضربا متواليا حتى يسيل الدم من ظهره وهو لايظهر الألم شجاعة وقوة حتى يستعظمه الواقفون وعلأ عين من ترغبه زوجا لها .

ثم ارتفع عن هذه الطبقة إلى الأمم التى أخذت من العلم بنصيب ، ألم يكن أهل أسبارطة يجعلون التربية دائرة على أن يمرن الشبان على احتمال الضرب كل يوم بالسياط أمام الأشراف . فأما الصبيان فإنهم يضربون ضربا صوريا ثم يزاد كل يوم شدة بحيث يمرنون تدريجا ويكون ذلك قوة لهم حتى يتحملوا ما سيلقيه الدهر عليهم من دروسه فتقوى أجسامهم ويكونون شجعانا .

ثم ارتفع فوق ذلك المستوى وانظر إلى الأديان القديمة كالدين الذى كان شائعا فى شمال أوروبا فى جهة السويد ونروج ، إذ قام فيهم عظيم يدعى (أودين) فاتبعوه قرونا طويلة وحكم ألا يموت أحدهم إلا قتيلا وعد الموت العادى جريمة وإثما مبينا حتى إنه إذا كان عظيم من العظماء قد دنا أجله نزل فى سفينة وأوقدوا فيها النار حتى يموت الملك أو الأمير بين الماء والنار .

ولعمرك لم يكن ذلك إلا لتربية الشجاعة فى القلوب وأن يألف الإنسان عظائم الأمور فلا يجزع للمصائب ولا يحزن للمصائب .

كل ذلك من السر الذى فى صلصال آدم والمحافظة على النفوس من طريق الشجاعة ؛ ولقد ثبت أن الحيوانات البحرية أطول أعمارا ، وانظر هذا فى الدين وهو الدين المسيحى كيف حرم مقابلة السيئة بمثلها ؟ ولكن أتباعه بعد حين صاروا أظلم الأمم . فهتكوا الأعراض وخربوا البلاد وملكوا المسلمين شرقا وغربا وظلم بعضهم بعضا كما حصل فى حرب الألمان وأوروبا فلم يرحموا إنسانا من دينهم أو غير دينهم ، فالقوة الغضبية غالبة على هذا الإنسان .

ولما جاء الدين البوذى فى الهند ومنع الناس من الظلم اجتاحهم الأوروبيون ، ولقد تشكلت هذه الصفة فى الأمم بأشكال مختلفة كما فصله الفارابى فى كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة :

(١) من الأمم من اتخذت القهر بالسلاح لإشباع الشهوات البهيمية والقوة الشهوية ومطاوعة الحواس الخمس فى مطالبها الظاهرية .

(٢) ومنهم من يقول كلا ، وإنما أريد الغلبة لحفظ كرامتى وعظمتى بين الناس .

(٣) ومنهم من يقول أغلب الناس لشهواتى ولحفظ كرامتى معا .

(٤) ومنهم من يقول ليست الغلبة والقهر طبيعيين فى الإنسان وهذه تسمى المدينة المسالمة

(٥) وهؤلاء يقاتلون إن قوتلوا وأريد إيذاؤهم .

(٦) وأولئك لهم طرق فى الغلبة فتارة تكون الغلبة بالحرب .

(٧) وتارة تكون بتجارة النساء وحرب الرجال .

(٨) ومنهم من يستعبدون أمة ويتخذونها مساعدة لحرب أخرى .

(٩) ومنهم من يجعل المعاهدات سلما للظلم فيعاهدون أمة ويحاربون معها أخرى

ولا نطيل بذلك ، بل نقتصر على ما أتى بالمقصود فنقول :

ها أنت ذا رأيت طبائع الإنسان وآراء بعض الديانات وسياسات الأمم فهاك أمر الإسلام .

لقد أثبت لك فى سورة البقرة أن للاسلام فى الحرب ثلاث مراتب :

[المرتبة الأولى] ألا حرب ولا نضال . وذلك فى زمن الضعف كما فى أيام إقامة النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة .

[المرتبة الثانية] محاربة المحاربين والذين يهجمون على الأوطان .

وجوب المحافظة على الوطن فى الإسلام من أهم ما فى القرآن

انظر ما مر عليك فى سورة البقرة ألم تر إلى قوله تعالى فى قصص بنى إسرائيل (ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) وانظر ما تقدم فى سورة آل عمران كيف رأيت أن غزوة بدر المشار إليها فى أولها إنما كانت محاربة لأهل مكة الذين أخرجوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ، وغزوة أحد كيف كانت لما أراد الأعداء مهاجمة المدينة ؛ وقد تشاور النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وأشار بعضهم بالخروج إلى الأعداء ، وبعضهم أشار بالبقاء فى المدينة ثم تغلب الفريق الأول وخرجوا إلى أحد ، ثم انظر إلى هذه الآيات وكيف يقول (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الخ) فأفاد أنه سبحانه يحرضهم على إنقاذ المؤمنين بمكة من ظلم الكافرين هناك ، وهذا ولاشك دفاع عن الوطن ، فانظر كيف جعل الله الوطن محترما وجعل المحافظة عليه أمرا عظيما وكيف كانت سورة آل عمران قد كان منها قسط كبير للجهاد وهكذا هذه السورة كل ذلك للمحافظة على الأوطان .

أفلست ترى أن المسلمين أيام حرب الأندلس لم يكن عندهم شهامة ولا حمية ولا شرف ولا دين وهم جهلاء ؟ أفلا ترى أيضا أن للمسلمين اليوم نائمون ؟ اللهم إلا ما حصل قريبا من أهل الأفغان والفرس والترك فإنهم استقلوا ونبذوا حكم الفرنجة لبلادهم .

فأما باقى المسلمين فإنهم نائمون ضربت عليهم الفرنجة ذلة الاستعباد وهاهى ذه بلادنا المصرية تنفست الصعداء قليلا فى هذه الأيام والفرنجة لايزالون يغدون ويروحون فى مصر وتونس والجزائر ومراكش وبلاد جاوه وسومطرة والشام وفلسطين والعراق وأهل البلاد فى تلك الأصقاع متحاسدون متباغضون متثاقلون يجهلون الشرف ولايعرفون المحبة والاتحاد « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » .

ألم يقرءوا قوله تعالى فى هذه الآيات (ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الخ) فالمسلمون مأمورون أن يخلصوا من وقع فى يد الأعداء من إخوانهم وهؤلاء يقدمون إخوانهم قربانا للفرنجة فى مراكش وتونس والجزائر ومصر وربوع الشام والعراق .

لقد أصبح أبناء العرب مثلا للذين يخضعون وطعمة لمن يأكلون ولكن آن أن يزول ذلك الرجس من القلوب ويرجع لهم مجدهم المفقود إن شاء الله تعالى فقد بدت بوادر النجاح وتباشير الفلاح .

الواجب على المسلمين فى أقطار الأرض

أيها المسلمون الفرار الفرار من العار ؛ انظروا فى سائر شؤونكم ، الجهاد ليس قاصرا على الحرب أنتم اليوم تحتاجون للجهاد فى كل شىء : فى التجارة ، فى العلم ، فى حفظ البلاد ، فى عدم ضياع الوقت ، فى حفظ الصحة فى السياسة ، فى التفكر .

فلتكن أكثر ملابسكم من مصنوعات إخوانكم فى بلادكم ولترقوا الصناعات الإسلامية وتنشئوا للمدارس العالية بكثرة ، فعشرة متعلمون تعلما راقيا أفضل من آلاف من الناقصين تعلما ، ولا تمكنوا الأجانب من البقاء فى بلادكم وجدوا فى القوة لإخراجهم واتحدوا فيما يمكن لطردهم ، ذلك ما يجب عليكم أيها المسلمون .

[أما المرتبة الثالثة التى ذكرت فى سورة البقرة] فقد ذكر نظيرها فى بعض هذه الآيات وهى قتال المشركين

أين وجدناهم كما قال فى آية (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) والقصد من هذه إدماج الأمم وجعلها أمة واحدة .

ولقد تجد هذا واضحا فى أمة الإسلام وقد صار خلقا ، فالمسلمون بحب الدين لايفضلون أحدا على أحد إلا بالتقوى .

ألا ترى إلى كافور الإخشيدى كيف كان عبدا أسود وحكم المصريين وفيها الأشراف من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف ترى أسامة بن زيد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش ودام كذلك زمن أبى بكر .

وترى فى بلادنا المصرية آثار العبيد ظاهرة فى هذه الأيام ، فإن عبيد الخديويين لهم من الملك ما ليس لأعظم الأحرار فى البلاد ، كل ذلك لأن الإسلام خلط الأمم وجعلها أمة واحدة كما فى أول هذه السورة (الذى خلقكم من نفس واحدة) فإذا كانت الحرب لأمم أخرى فليس القصد إلا ترقية الأجناس المنحطة ، فإنك ترى العسكر الانكشارية فى الدولة التركية ما كانوا إلا شراذم من العبيد الذين اشتروهم بالمال ، وكذلك المماليك البرية والبحرية بمصر إن هم إلا أرقاء كانوا يجلبون من بلاد الروس والصقالبة ويشترون بالمال ، فإذا مات السيد من الأمراء المصريين ورثه عبده الذى اشتراه .

ومن هؤلاء الظاهر بيبرس ومن قبله ومن بعده من الملوك الذين استولوا على مصر نحو ثلثمائة سنة ، وهكذا تسلهم بقوا فيها بعد فتح الدولة التركية لها إلى دخول المغفور له محمد على باشا فى أول القرن الثامن عشر المسيحى فمزقهم شر ممزق وكذلك الترك قتلوا الانكشارية الذين هم عبيد أيضا كانوا يتعلمون الدين والقرآن ويحكمون الدولة ويدافعون عنها فاستعبدوا ملوك بنى عثمان وقتلوا الدولة وأهلكوها وأخروها والقصد من هذا القول أن الإسلام لعدم تفرقته بين الأجناس تغالت الأمم الإسلامية فى تسليط الأجانب عليها متى أسلموا حتى أنست بالمذلة فأرهقتهم الفرنجة ، والقرآن هو الأصل الذى عليه الاعتماد فى ذلك ، هذا كان مقصد الإسلام من الأسرى ثم فكهم وإعتاقهم ، فالقرآن يأمر بالحرب للسلم وللتعليم فيأتى بالجهلاء والمتوحشين فيرقيهم ويعلمهم ثم يكونون فى نعمة لم يحلم بها آباؤهم ، وهذا العمل من المسلمين مطابق لقوله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

أفليس ما هناك هو ما فى هذه السورة ؟ أليس يقول هنا فى أول السورة إنه خلقنا من نفس واحدة ؟ ثم يحرضنا على القتال لحفظ الوطن ثم يشير إلى القتال العام ثم يقول حرروا الرقبة المؤمنة إذا قتلتم مؤمنا خطأ فجعل التوبة من الذنوب أن تحرر الأسرى . إن تحرير الأسرى ظهر فى الإسلام ظهورا واضحا ، فكثيرا ما يأمر بالتحرير وعتق العبيد ، وهذا هو السر فى اختلاط الشعوب الإسلامية .

مقايسة أوروبا بالإسلام

لقد دخلت أوروبا بلاد الشرق وقالت أنتم أيها الناس أحرار ، ولكن هل جعل الإنجليز من المصريين وزيرا أم الفرنسيون جعلوا من الجزائريين أميراً ؟ أم اتخذ الأسبان من أهل مراكش وكيلا ؟ كلا ثم كلا ، وكثير من تلك الدول تغتال الأموال جهارا وتقتل الناس بالطيارات فلا يامون إلا غرارا ، فأى الحكمين أقرب للعدل وأولى بالحق . هل جعل الفرنجة من المسلمين ملكا على بلادهم كما جعلنا كافورا ملكا فى مصر لمجرد الإسلام . كلا هذه هى الميزة الإسلامية على سائر الأمم الغربية .

نحن جعلنا كافورا ملكا وأمريكا لاترضى أن يكون السود جالسين مع أبنائها فى العربات ويحقرون أن يساووهم ، فالإنسان جهول كفار .

محاورات فى المجلس العام للمسلمين بعد مائتى سنة فأكثر

يحكى فى عالم الخيال أنه اجتمع مجلس الشورى العام (البرلمان) فى الأستانة وقيل فى أنقرة وقيل فى مكة وحضر من كل أمة من الأمم العربية والتركية والفارسية والأفغانية ونحوها نائبون . ولما استقر بهم الجلوس وقف أحد الأعضاء وقال لقد أغارت الأمم الإسلامية على أمة كذا وأدخلتها فى حوزتها فهل يرى المجلس أن نعاملها معاملة أوروبا لأهل أمريكا الأصليين فنميتهم بالتدريج ونقرضهم من الوجود كما هى السنة المتبعة فى الاستعمار ؟ فرد نائب الأفغان وقال : إنا إذا فعلنا ذلك كنا مثل السوء فى العالمين وكيف نفعل ذلك ونبينا جاء رحمة للعالمين ونحن خلفاؤه على المخلوقين ، فقال نائب الفرس مالكم تردون كل مورد وتذهبون فى البحث بعيدا فالعضو المحترم الأول حكم بالإهلاك والثانى أوجب ألا يمسوا بسوء وهل تذكرون أوسط الأمور وأفضلها عند الجمهور أن نجعل بعضهم لبعض عدواً كما فعل الإسكندر بملوك الطوائف كما أمره أستاذه أرسطاطاليس وسلط عليهم الشهوات وزوجهم الغانيات وألبسهم التيجان وأتم كلا اسم الملك فتنازعوا بينهم والإسكندر حكم يحكم بينهم فهم الأعداء وهو المحبوب وهكذا حذت حذوه إنكلترة وفرنسا وسائر أمم أوروبا حتى فرقت المسلمين شذر مذر أيام القرون الأولى ، وهانحن أولاء قد منّ الله علينا فاجتمعنا فلنفعل معهم كما فعلوا معنا ، فقام عالم مصرى وقال :

أيها الإخوان أذكركم بالقرآن ألم يقل الله (فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول) فى سورة النساء . فلترد الأمر إلى كتاب الله وفعل الرسول ونظام هذا العالم ، يقول الله (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) فلم يقل يا أيها المؤمنون بل جعل الخطاب للناس والناس كلهم أسرة واحدة ، ولقد وصى على الأيتام وأمرنا أن نعولهم وأن نعفف إذا كنا أغنياء ونأخذ أجرنا بالحق إذا كنا فقراء ؛ فهؤلاء الذين دخلوا فى حوزتنا كالأيتام فلنكن عونا لهم ولنحافظ عليهم ولنعلمهم حتى يتهيئوا للحياة والاستقلال ، والمقصود من الرد إلى كتاب الله النظر فى المقصد العام من فعل الله وقوله على وجه العموم فقال العضو التركى لقد قلت قولا فيه الإثم والشنار وما الفائدة العائدة على المسلمين تعلمهم وتربيهم فيصبحون مثلنا ويحارب أبناؤهم أبناءنا إن هذا هو الجهالة العمياء والضلالة السوداء ، فقال العالم التونسى وهو عضو بالبرلمان إن النظرية الفرنجية عارية من العقل خالية من الفهم كانوا يخافون أن ترقى الدول فيبطشون بهم وهذا قصر فى النظر وضعف فى الفكر .

إن هؤلاء قد جنوا عكس مازرعوا وبئسما زرعوا علموا أبناءهم الاتكال على ماصنع غيرهم فينامون على وساد الراحة والمسلمون يعملون نحملت أممهم وضعفت قواتهم لأن آباءنا كانوا يزيدون نشاطا وهم يتدلون انحطاطا فتكامل الحول فى الآخرين وتم النشاط والقوة فى الأولين حتى دالت دولة الغربيين وأشرقت شمس الشرقيين فهذه النظرية جاهلية . أما الذى أراه فان الله عز وجل جعلنا خلفاءه فى الأرض ووكل لنا إصلاح عباده وأوجب علينا قيادتهم وإرشادهم وحفظهم فلنعاملهم بالأمانة ولنعلمهم ولنهذبهم ولانفعل مافعل آباؤنا المسلمون فقد كانوا يأتون بالأوباش والجهلاء ويسلطونهم على منازلهم وممالكهم فيحكمون الدول ؛ كلا ثم كلا ، فذلك هو الذى أضاع الدولتين العربية والتركية القديمة وهذا تفريط من المسلمين ولا نذلهم إذلالا شديدا كما فعل الأوربيون فى المسلمين ، ولكن نتخذ الطريق السوى فنعلمهم ونربيهم ونتركهم متى استقلوا بأنفسهم ويكونون لنا أصدقاء مخلصين .

فأما ماقاله العضو المحترم إن أبناءهم يقتلون أبناءنا فهذه نظرية أوروبية خاطئة . ذلك أنه لايبقى فى الوجود إلا الأصلح له والأمة المصلحة النافعة للناس لن تبيد من الوجود ، فما دمنا نافعين للناس فالدوام مضمون ولسنا نخاف على أبنائنا إلا من نومهم وكسلهم وحرصهم وجبنهم ، ولن يكون ذلك إلا إذا ظلمنا هؤلاء الذين

ملككم فسخر نام لأبنائنا فينام هؤلاء الأبناء على فراش الراحة الوثير كما نام الأوروبيون على حساب الشرقيين نوقعوا فى ذل الشهوات فزالت مدنيتهم وتفرق جمعهم وزال اسمهم من الوجود ، فهذه الأم كانت أنظارها قصيرة وآراؤها سقيمة يفعلون ما فعلته الدولة العباسية والدولة الناعمة التركية التى كانت تأكل أرزاق الأمم فتصبح عالة عليها وتزول من الوجود كما كانت دولة الرومان .

وعلى هذا فلنساعد هؤلاء القوم ونقول لأبنائنا استعدوا للحياة وكونوا ذوى عزم وحزم ، ولنعودهم السلام والأعمال الشريفة ولنهذبهم ونعلمهم الحب والاتحاد وهذا هو المسمى الجيد والرأى السديد فإذا اجتمعت الأمم على مضرتهم لن يضروهم لأنهم بالحق قائمون والعالم مخلصون والله لايزيل من أرض المصلحين وإنما يهلك المفسدين وقال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

فأخذت الأصوات فنال هذا الرئيس الأخير ٢٨٩ صوتا ضد ١٢٨ صوتا وعليه صار العمل ، انتهى المقصد السادس .

(الختم) (الختم) (الختم)

المَقْصِدُ السَّابِعُ

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً * وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً *

تفسير هذه الآيات

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار يقال له طعمة (مثلثة الطاء والكسر أفصح) ابن أبيرق من بنى ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى داره ثم خبأها عند رجل يهودى يقال له زيد بن السمين فالتمسوا الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم ، فقال أصحاب الدرع لقد

رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره ، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودى فأخذوه منه فقال اليهودى إنه دفعها إلىّ طعمة بن أبيرق وشهد له جماعة من اليهود ، وجاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاقب اليهودى وأن يقطع يده فأنزل الله هذه الآية .

ولما نزلت هذه الآيات فيه لحق بمكة مرتدّا عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقى ركبا فعرض لهم وقال ابن سبيل ومنقطع به فحملوه حتى إذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ثم انطلق فركبوا فى طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة حتى مات . قال بعضهم إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات فهذا قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك) يامحمد (الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) أى بما علمك الله وأوحى إليك (ولاتكن) يامحمد (للخائنين خصيما) أى ولاتكن لأجل الخائنين وهم قوم طعمة مخاصما عنهم ومدافعا ومعينا (واستغفر الله) مما هممت به من معاقبة اليهودى ومن أنك هممت بالمجادلة عن طعمة (إن الله كان غفورا) يعنى لذنوب عباده يسترها عليهم (رحيما) بعباده المؤمنين (ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم) يخونونها (إن الله لايحب من كان خوانا أثيما) أى مبالغا فى الخيانة مصرا عليها منهمكا فيها (يستخفون من الناس) يستترون منهم حياء وخوفا (ولايستخفون من الله) وهو أحق أن يستحيا منه (وهو معهم) لايخفى عليه أسرارهم (إذ يبيتون) يزوّرون (مالايرضى من القول) من رمى البرئ والحلف الكاذب وشهادة الزور (وكان الله بما يعملون محيطا) لايخفى عليه شئ من أسرارهم ولاأسرار غيرهم (ها) للتنبيه (أنتم) يا (هؤلاء) والإشارة إلى من كانوا يدافعون عن طعمة وقومه (جادلتم) خاصمتم (عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) محاميا يحميهم من عذاب الله (ومن يعمل سوءا) قبيحا يسوء به غيره (أو يظلم نفسه) بما يختص به ولايتعداه (ثم يستغفر الله) بالتوبة (يجد الله غفورا) لذنوبه (رحيما) متفضلا عليه وهذا حث لطعمة وقومه أن يتوبوا (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه) لايتعداه وباله (وكان الله عليما حكيما) فهو عالم بفعله حكيم فى مجازاته (ومن يكسب خطيئة) صغيرة (أو إثما) كبيرة (ثم يرم به بريئا) كما رمى طعمة زيدا (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) بسبب رمى البرى، وتبرئة نفسه (ولولا فضل الله عليك ورحمته) بإعلام ماهم عليه بالوحى (لهمت طائفة منهم أن يضلوك) عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال (ومايضرونك من شئ) فان الله عصمك (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم) من خفيات الأمور الدينية والحكمية (وكان فضل الله عليك عظيما) وأىّ فضل أعظم من النبوة ؟ انتهى التفسير اللفظى .

بيان أجلى ونور أشرق

لقد تبين أن هذه السورة نزلت لجعل الناس أمة واحدة لأن أباهم واحد وقد خلقوا من نفس واحدة ؛ وأن رجالا كثيرا ونساء خلقوا من تلك ، وأن فيها الوصية على الرحم والقرابة واليتامى والمساكين والوصية بالجار القريب والمسكين ؛ فاعلم أن الأمر فوق ذلك فأصبح الدين الإسلامى بهذه السورة وهذا القصد منها يحمى اليهودى الذى قال الله فى أهل دينه « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » فانظر كيف جعل اليهود ألدّ الأعداء فى الإسلام وكيف أنزل فى الوحى هذه الآيات . يقول يصف الكتاب إنه أنزله بالحق وإنك يامحمد تحكم بين الناس بالعدل وكيف تكون قاضيا بالحق وتهمّ بالمحاماة عن الخائن فاستغفر يامحمد الله فإن الله غفور رحيم ، وكيف تجادل عن الخائنين والله لايحبهم إنهم قوم يراءون الناس ويخشونهم ولايرقبون ربهم . هب أنكم أيها المحامون جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن ذا الذى ينفعهم يوم الحساب

وأين

وأين المحامون هناك وأين الوكلاء فى تلك الدار ؟ ولقد كاد القوم يضلونك ولن يقدروا عليك لأنك معصوم فأمددناك بلطائف من عندنا وأعطيناك رحمة من لدنا واصطفيناك للناس فضلنا عليك عظيم .

يقال هذا القول وأمثاله لأجل يهودى يجب بحسب الظاهر أن يعدّ من السارقين ، فلقد وجد الدرع فى داره ومع ذلك يعاتب نبينا صلى الله عليه وسلم عتابا طويلا على ماهمّ به مما يؤيده ظاهر الحال .

فانظر كيف حفظ الإسلام الحقوق مع أعدى أعداء الإسلام وأنزلت الآيات للنبى عتابا عظيما ، فلو أن المسلمين اليوم رجعوا إلى ديننا ونظروا فى الحقائق الساطعة لأصبحوا أرقى العالمين فانظر كيف كانت هذه حال الإسلام وقد خالفها فريقان :

[الفريق الأول] أكثر أمة الإسلام فإنهم يتعصبون لأقاربهم ويجادلون عن أصحابهم وإخوانهم وأقاربهم بالحق وبالباطل ولايظهرون الحقائق ولايشهدون بالحق ويقولون فلنستر على الإخوان والله يقول كلا . انظروا إلى اليهودى كيف ضربت الذكر صفحا عن قبيلة برمتها من العرب وأخزيتهم وأخجلتهم بآيات القرآن وقرّعتهم تقريعا يقرأ لآخر الدهر ولم أبال بأنهم مسلمون وهو يهودى بل نصرت الحق والحق أبلج، فإن أهل الأرض أمة واحدة وجميع الناس خلق وأنا الذى صوّرتهم وأوجدتهم فى أرضى وأنا الذى أنزلت الديانات وحكمت على كل أمة أن تتبع دينا وجعلتكم خير الأمم وأنتم رحمة العالمين ، فعليكم أن تخالفوا الأمم فى أخلاقها وأن تكونوا أشرف من أوروبا مقاما وأرفع شأنا وأرقى أخلاقا وأوسع إشراقا وأحلى مذاقا وأجمل اتساقا وأعظم للحقوق إحقاقا .

[الفريق الثانى] الدول الأوروبية . إن أمم الفرنجة لا تعدل فى القضاء إلا فى رعاياها . ولقد حدث وأنا أؤلف هذا التفسير أن شابا مصريا يدعى على فهمى يبلغ من العمر ٢٣ سنة تزوج امرأة فرنجية من بلاد فرنسا ولم تلبث معه إلا ستة أشهر وبينما هى تعيش معه فى بلاد الإنكليز تشاجرت معه فضربته برصاصة من (بندقيتها) فأردته قتيلا فقدمت للقضاء فأقرت بذلك فحكم القاضى والمحكمون فى المحكمة أنها بريئة لاإثم عليها معللين ذلك بأنه كان يؤذيها ويحجزها فى منزله وكان يفعل معها أفعالا تناسلية لاتليق ولم يكن لديها أى إثبات إلا ماكانت تلقيه بلسانها . وبهذا الحكم تقربوا لفرنسا واحتقروا المصريين والمسلمين . فانظر الحكمين وتعجب من العملين أيهما أقرب للانسانية وأيهما يأنس بالوحشية هذا هو دين الإسلام وهذه هى المدنية فى أوروبا ، فالحمد لله الذى وفقنا بهذا الحادث أن تكون الموازنة بين الديانات الشرقية والجهالات الغربية والدعاوى الكاذبة بأنهم قوم متمدينون فلتقومنّ فى بلاد الإسلام ممالك مجيبة وأمم حكيمة تحتقر مافى أوروبا من سفاسف الأخلاق والجهالة العمياء ، ويطلعون على القرآن وينظرون فيه بإمعان ، ويكون لهم فى القضاء القدح المعلى ، وفى حكم الشعوب المقام الأكمل ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون « فأما الزبد فيذهب جفاءا وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كل فى كتاب مبين » انتهى تفسير المقصد السابع .

المَقْصِدُ الثَّامِنُ

لَاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا *
لَعَنَهُ اللَّهُ، وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ
مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا * لَيْسَ
بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا * وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِهِ عَلِيمًا * وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا
بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ
كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى

بِاللهِ وَكِيلاً * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَٰلِكَ قَدِيرًا * مَنْ
كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا
فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ
فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا
وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ
جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ
مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ
وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ
وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ
اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا * لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ
مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *

وفى هذا المقصد أربعة فصول :

الفصل الأول : إكمال القول على العدل فى الأحكام وذلك بذم المحاماة عن الكاذبين الخائنين وعن التزوير سرا لنصرهم ومدح شرف النفس ونصر الحق والحض على الصلح والبر والمعروف والصدق بدل مالاخير فيه من تزور المحامين ، وفيه بيان عدل الله الذى هو النهج الذى يقتدى به عباده فى العدل فى أفعالهم وأحكامهم وكيف جعل أمره غير خاضع لإرادة أحد من المسلمين والأمم السالفة بل «من يعمل سوءا يجز به ـ إلى قوله تعالى ـ وكان الله بكل شئ محيطا » .

الفصل الثانى : فى بيان بعض مسائل فى العدل تطبيقا على القاعدة السابقة كالعدل فى يتامى النساء والمستضعفين من الولدان واليتامى وحسن معاشرة النساء من قوله « ويستفتونك فى النساء ـ إلى قوله ـ وكفى بالله وكيلا » .

الفصل الثالث : فى بيان أن الأمم التى عدم العدل فى أحكامها بين أفرادها تندرس معالمها وتنحل أجزاؤها ويأتى الله بأمم أخرى تحكمها وتدوسها وتجعلها فى الأذلين ، وبيان إنكار الذات والأهل عند الصدق فى الشهادة حتى لاتتعرض الأمة لأسباب الانقراض من قوله « إن يشأ يذهبكم » إلى قوله « فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

الفصل الرابع : فى بيان الإخلاص فى الإيمان لأن العقيدة هى أس العمل بالعدل الذى شرحه فى الفصول السابقة ، فجعل هذا العمل أساسا لها ، فأوضح فيه رذيلة النفاق وموالاة الأعداء ، مما يجعل القلوب مذبذبة مضطربة لاثبات لها ، فلا يكون عدل فى الأحكام ولا صدق فى الشهادات ، فتزول الدولة ويستخلف الله قوما آخرين من قوله « يا أيها الذين آمنوا ـ إلى قوله ـ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما » .

الفصل الأول

لقد أبان فى المقصد السابع كيف يكون العدل فى الإسلام ، وكيف يذم الله المحامين فى القضايا المزورة ومن يزورون الشهادات وكيف يلوم القضاة على عدم البحث الدقيق والكشف والتحقيق والأخذ بالأحوط وجمع الدلائل والتروّى فى الأحكام حتى تجمع الأدلة وتعرف كل علة وما على المدعى أو له ، فأخذ فى هذا المقصد يقول تتميما للمرام وتنويرا للأفهام « لاخير فى كثير من نجواهم » يقال ناجيته ساررته والنجوى أيضا الإسرار فى التدبير يقول : لاخير فى كثير مما يتسار الناس به ويدبرونه سرا سواء أكان المتسارون قوم طعمة أو غيرهم (إلا) نجوى (من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فالنجوى للصدقات خير والمعروف وهو كل مايستحسنه الشرع ولا ينكره العقل خير كالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع وتدبير الحرب وحفظ البلاد والثغور وما أشبه ذلك ؛ فالمعروف أعم من الصدقة ، والإصلاح بين الناس خير ؛ فالنجوى إذن على قسمين : نجوى الشر ونجوى الخير ، فالشر محذور والخير متبع (ومن يفعل ذلك ابتغاء

مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى ومن يفعل هذه الأشياء المذكورة طلبا لرضا الله فإن الله يكافئه بالأجر العظيم ، وقد رتب الأجر العظيم على العقيدة النفسية بأن تكون جميع الأعمال صادرة لغرض الخير المغروس فى النفس ، لأن الحياة الدنيا يراد منها الملكات الفاضلة فى النفوس ؛ فأما بذل المال أو العلم بلا قصد شريف ، فإنما يكون أشبه بهبوب الماء على ذرات الهباء ، وما الأعمال إلا ثمرات القلوب فإذا لم يكن العمل منبعه القلوب لم تترب الإرادات فى النفوس ولم يكن لها إلا النصب فى الإنفاق والتعب والمشاق بلا نمو فى الأخلاق ولا رقى فى الشعور والوجدان .

ولما كانت المناجاة بالشر تابعة لما فى النفس من شقاق ، كما أن المناجاة بالخير تتبع ما فيها من وفاق ، لأن العقيدة أس الأعمال فلا خير إلا بالعقائد ولا شر إلا منها حاصل ، وكان الذى يجمع الأمم اتحاد عقائدها ، والذى يفرقها تشتيت آرائها أردفه بذم انشقاق الألفة الجامعة فى الأمم الإسلامية فقال (ومن يشاقق الرسول) يخالفه من الشق فكل من المتخالفين فى شق غير الشق الآخر (من بعد ماتبين له الهدى) ظهر له الحق (ويتبع غير سبيل المؤمنين) غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل (نوله ماتولى) نكله فى الآخرة إلى ماتولاه فى الدنيا (ونصله جهنم) نلزمه جهنم وأصله من الصلى وهو لزوم النار وقت الاستدفاء (وساءت مصيرا) جهنم ، وإذا كان اتباع غير سبيل المؤمنين ممنوعا كان اتباع سبيلهم واجبا . وهذا دليل على أن الإجماع من الأدلة الشرعية .

ولما كان اتحاد الأمم مبناه اتحاد الفكرة ، فإذا كان المعبود فى نفوسهم واحدا اتجهوا لغرض واحد ، وإذا تفرقت الأهواء تفرقت الأمم أردفه بذكر التوحيد ، وكأنه يقول إن تفرق الأمة فى أعمالها واختلافها فى أغراضها راجع إلى مافى القلوب من الاختلاف وما فى النفوس من الأهواء . فأما إذا اتحدت العقائد وانتظمت الآراء ، فإن الأعمال تكون على مقتضاها اتحادا والتئاما فقال (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ومدار الأمر على الوحدة العقلية ، والوحدة العقلية تتبعها الوحدة العملية . فأما تفاصيل الأعمال وتباين الأحوال من طاعة وعصيان مع ثبات العقيدة الأصلية فليس بمانع من الانتظام العام فقد يغتفر فى الفروع مالايغتفر فى الأصول ؛ فالشرك لاغفران فى اعتقاده ، والمغفرة قد تكون فى الأحوال العملية فليس كل ذنب موجبا زلزلة القواعد ، وما مثل القواعد الإيمانية إلا كمثل القواعد المنزلية فى البيوت المبنية ، فإن زالت القواعد هدم البناء ، ألم تر إلى قوله تعالى « فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون ، فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا » فالقواعد أصول العقائد والبناية الأعمال العامة الحافظة للمجموع ، وبزلزلة القواعد يسقط البنيان ويكون الخزى فى الحياة والعذاب فى الممات ؛ فهكذا هنا ذكر اتحاد الأمة وعدم مخالفتها وبين سبب ذلك وهو تكوين الوحدة الفكرية ، وإن هدمها هدم ذلك البنيان .

وهذه المسألة هى الأصل الذى بنى عليه قدماء الفرس إدخال النحل الكثيرة فى الإسلام والمذاهب المتعددة تفريقا لكلمة العرب وتشتيتا لشملهم ، وهى هى التى اختارها البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا لما أرادوا غزو المسلمين فى الأندلس ، فقد قرروا فيما بينهم أن لانجاة من المسلمين ولا غلبة عليهم إلا بتحويل عقائدهم وإدخال الشك فى قلوبهم وتعليمهم الإلحاد واحتقار الديانات والاستعانة على ذلك بتغيير أزيائهم وإدخال المعاصي الظاهرة من الزنا والخمر عليهم وتعويدهم الترف والنعيم حتى تزول تلك العصبية ويأتى جيل سهل الانقياد سريع الانفعال فننقض عليه فنخرجه من أرضنا ، وقد تم ذلك فى ثلثمائة سنة ونجح الغربيون فى تشتيت شمل العرب المسلمين ، كما نجح الفرس ببث العقائد المختلفة ففرقوا الأمم شيعا وأصبح بأسهم بينهم

شديدا ، فلذلك تجد التشديد على الشرك فى هذه الآيات بعد أن ذكر الاتحاد وأكده فقال (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) عن الحق ، وإنما كان بعيدا عنه لأن القلوب تختلف تبع ما اختلفت فيه فكل يتبع ما أحبه وعبده ، فمن عبد اللات أو العزى أو منات فقد انصرف قلبه إلى ماعبده وكره ماسواه ، فيكون لكل صنم جماعة فتفرق الشيع فلا يكون اتحاد فتختطف الأمم تلك الأمة لعدم اتحادها ، ولذلك أعقبه بقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثا) وهى الأصنام المذكورات ، فقد كانوا يقولون أنثى بنى فلان فيسمون الصنم بلفظ أنثى ، ولا جرم أن الأنثى منفعلة ، والرب يكون فاعلا لامنفعلا ، ثم ذكر سببه فقال (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) المريد والمارد والمتمرد : العاتى الخارج عن الطاعة ، فاتباع الشيطان سبب فى عبادة الأوثان ، وعبادة الأوثان سبب لترك التوحيد المبنى عليه تفريق الألفة وتشتيت الشمل ، ثم وصف الشيطان بوصفين آخرين وهما أنه ملعون يضل بعض الناس ويقذف فى قلوبهم الأمانى الباطلة ويأمر بتغيير خلق الله كأن يشقوا آذان الأنعام الخ ، وهذا قوله تعالى (لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) أى نصيبا قدر لى وفرض ، من قولهم فرض له فى العطاء (ولأضلنهم) عن الحق (ولأمنينهم) الأمانى الباطلة كطول الحياة وأن لابعث ولا عقاب (ولآمرنهم فليبتكنّ آذان الأنعام) ليشقنها لتحريم ما أحل الله كما كانت تفعل العرب فى البحائر جمع بحيرة ، والسوائب جمع سائبة .

(١) وقد كان العرب يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا ، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها .

(٢) والنساء يأتين بشعر غير شعرهن يصلنه به وهؤلاء يسمين الواصلات .

(٣) ومنهنّ الواشمات اللاتى يلوّنّ أجسامهن بلوّنّ الخضرة بغرز الإبر فى الجلد وهو الوشم .

(٤) ومن تغيير خلق الله الإخصاء وقطع الآذان وفقء العيون .

(٥) وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً عور عين فحلها .

(٦) ومن تغيير خلق الله التخنث .

(٧) ومنها عبادة الشمس والقمر والكواكب التى خلقت للمنفعة فجعلوها معبودة .

وهذه هى أنواع تغيير الخلق التى ذكرها المفسرون الأجلاء .

فترى أنساً يكره إخصاء الغنم لأنها تغيير خلق الله وأدخلوا فى هـذا السحاق واللواط لأنها تغيير لوجهة خلق الله والفعل الطبيعى الإلهى ، وهذا هو قوله تعالى (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) عن وجهه وصورته أو صفته (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) إذ ضيع رأس ماله (يعدهم) ما لاينجزه (ويمنيهم) ما لاينالون (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) وهو إظهار النفع فيما فيـه الضرر (أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا) معدلا ومهربا ، من حاص يحيص إذا عدل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ إلى قوله ـ ومن أصدق من الله قيلا) ظاهر تفسيرها ثم قال (ليس) ماوعد الله من الثواب لينال (بأمانيكم) أيها المسلمون (ولا) (أمانى أهل الكتاب) وإنما ينال بالإيمان والعمل والصالح .

ذلك أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كلا ! نحن أولى بالله منكم ، نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة (من يعمل سوءا يجز به) عاجلا أو آجلا . وروى « أنها لما نزلت قال أبو بكر فمن ينجو مع هذا يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما تمرض أما تحزن أما يصيبك اللأواء ، قال بلى يارسول الله ؛ قال هو ذاك » وهـذا الحديث لم يرد فى الصحيحين وفى إسناده ضعف (ولا يجد له من دون الله وليا

ولا

ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) لاينقصون شيئاً من الثواب (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) أخلص نفسه لله لايعرف لها ربا سواه (وهو محسن) آت بالحسنات تارك للسيئات (واتبع ملة إبراهيم) وهي الموافقة لدين الإسلام (حنيفا) مائلا عن سائر الأديان (واتخذ الله إبراهيم خليلا) اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله والخلة من الخلال لأن الود يتخلل النفس ويخالطها (ولله مافى السموات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا) إحاطة علم وقدرة فيجازى الناس على أعمالهم فلا يذر أحدا من عباده إلا حاسبه ، لافرق بين مسلم وغير مسلم ويهودى ونصرانى ، انتهى التفسير اللفظى للفصل الأول من هذا المقصد .

وهنا لطائف :

[اللطيفة الأولى] فى قوله تعالى « فليغيرن خلق الله » .

[اللطيفة الثانية] فى الشيطان .

[اللطيفة الثالثة] « ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب » .

اللطيفة الأولى

لقد اطلعت فى هذا التفسير على ماقاله المفسرون فى معنى تغيير خلق الله وأنه حرام وذهبوا مذاهب ترجع إلى وصل شعر أو وشم جلد أو فقء عين جمل أو شق أذن أو تحريم بهيمة لها عمل نافع بأن ولدت أربعا والخامس ذكر أو تخنث أو سحاق أو لواط أو إخصاء كإخصاء العبيد ، فكل ذلك تغيير خلق الله .

وياليت شعرى أن كل ذلك إلا فى التغيير الظاهرى والتشويه الجسمى ، فيجر إلى فسوق تارة كالوشم ووصل الشعر ، أو تحريم أخرى كالمشقوقة الأذن يحرمونها عليهم .

واعلم أن أهمّ تغيير خلق الله ماسأذكره لك هنا ، وهو تغيير وجهة الفطرة الإنسانية ، ألا ترى أن الله خلق فى كل قطر من أقطار الأرض أناسا لهم مزايا فى أممهم ؛ وبعبارة أخرى أن كل أمة أشبه بجسم الإنسان ففيها من هم كالسمع وكالبصر وكالشم ، وفيها من هم كاليد أو الفعل ، فالاستعدادات فى الأفراد تختلف كالاختلاف فى الأعضاء فى الجسم الواحد .

ولقد وضحت هنا فى سورة البقرة عند قوله تعالى «لايكلف الله نفسا إلا وسعها» أن الناس قد اختلفوا فى فطرهم وقابلياتهم ؛ فيجب أن يوضع كل فى مكانه الذى استعد له .

فعلى مجالس النواب فى الأمة أن يأمروا بأن يوضع كل فى مكانه الخاص به ، وعلى المدرسين أن يمتحنوا التلاميذ بالعدل ويضعوا كلا فى العلم الذى غلب على عقله حتى يستخرج من الأرض ثمراتها ، فمن نقص تلميذا درجة فقد غير خلق الله ، ومن وضع موظفا فى غير وظيفته فقد غير خلق الله ، ومن لم يلاحظ الاستعداد فقد غير خلق الله ، والحكومات التى لاتلاحظ الشبان فتتركهم وشأنهم بلا زواج قد غيرت خلق الله بالسكوت عن عقابهم ماليا بضرب ضريبة على الأعزب كما فى بعض الدول الغربية ، وأمم أوروبا التى أغارت على بلاد الشرق فأكثرت من الأخلاق الرديئة وغيرت فى أوضاع الأمم قد غيرت خلق الله ، فمنعت العلم عن الشرقيين وحرمت النبوغ على بعض المسلمين .

وإذا كنا بشق أذن بهيمة وفقء عين جمل ووشم جلد قد غيرنا خلق الله ، وهكذا بتحريم بهيمة كأن حرمنا على أنفسنا أكل لحمها أو ركوب ظهرها قد غيرنا خلق الله ؛ فما بالك بتحويل ماهو أرفع مقاما وأوفق زماما وأعلى شرفا ؟ وهى الفطر الإنسانية ، فنضع العقول الكبيرة من أبناء البلاد فى أعمال صغيرة ، فربما اتفق أن يكون العامل فى الحقول أبرع من الوزير فى السياسة لو أنه وضع من صغره فى المدرسة ،

وربما كان فى دست الوزارة من لا يصلح إلا لأعمال الفلاحة ، فلكل من الناس عمل يوافقه وطريق أنسب له ، وكم فى البلاد الإسلامية من أيد عاطلة وعقول نائمة وأفكار خامدة ، فإذا أنزلنا عليها ماء العلم اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

حكمة فى العقل والمعدة

ولعلك ترى أن العقل يطالبك فى كل آن بلذاته ويؤنبك فى كل حين على حرمانه ، ويقول لك إذا وقفت على شجر أو نظرت إلى حجر أو سموت بوجهك إلى قمر أو شخصت بعينك إلى كوكب سيار أو راقبت طائرا وقد طار يقول : لم أعطيت المعدة شهوتها ومنعتنى ؟ وراقبت الغذاء وتركتنى ؟ وذكرت نفسك ونسيتنى ؟ ماهذا النجم الثاقب ؟ وما هذا الجبل الشامخ ؟ وكيف تزلزل الأرض زلزالها ؟ وما أسبابها ؟ وما تاريخ هذه الجبال ؟ وما أسباب هذا الجمال ؟ ولم جئنا فى هذا الوجود ؟ ولم كان العابد والمعبود ؟ ولم نرى الديانات تأتى بعجائب خافيات ؟ وحياة بعد الممات ؟ وحشر وحساب ؟ ونعيم وعقاب ؟ كل ذلك خفى أمره علىّ فكن لى ولا تكن علىّ ، وانظر نظرة إلى حق أعرف هذه الحقائق ، فأنا أولى من المعدة الجبارة ، وأنا أحق بهذه المهارة ، انتهى كلام العقل .

ثم إن عقلك يخاطبك بهذا الخطاب وأنت تجيبه بالسكوت ، ولكن الله يقول على لسان الشيطان «ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله» فخلق المعدة فينا لم يغير خلقنا ، وإنما نحن أغرنا على العقل فأطفأناه وغيرناه .

أقول : إن الجهل بهذه الأمور وأمثالها على المستعد حرام ، بل ربما كان من الكبائر وأقل مافيه أنه فرض كفاية ، ولا كفاية اليوم فى الأمم الإسلامية ، فالذنب واقع على الجميع . ورب جهل عند عمرو لا يعدّ ذنبا ، وجهل عند خالد يعد ذنبا على حسب استعدادهما ، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعد عليهم أعمالهم ويستغفرون الله من ذنوبهم ؛ فهكذا ذوو العقول الكبيرة يحاسبون عليها حسابا عسيرا .

واعلم أن علماء الإسلام تفطنوا لهذا وقالوا : من عنده قدرة فى علم نافع وجب عليه تحصيله ؛ فهذا دليل على أن الأمة فكرت فى هذا ، إذن يكون حراما على القادر تركه ولا يحرم على العاجز أن يترك ذلك العلم .

وانظر إلى الأمم الإسلامية كيف تركت العقل والعلم ، فانظر ماذا فعل الله فيها ؟ سلط عليها الفرنجة . ذلك أن الله لم يخلق شيئا إلا لمنفعة ، فإذا فاتت المنفعة زال ذلك الشئ ، والعضو إذا ترك استعماله أصابه الضمور ، وإذا استعمل قوى وجرى فيه الدم ؛ هكذا العقول الإنسانية إذا سلط الله على الأمم رؤساء جهالا فأفهموا الشعب ألا يفكر أبناؤه كما حصل للمسلمين أخذت القوة العاقلة تذهب شيئا فشيئا كما ذهبت من الحيوانات الداجنة وتحول ذلك العقل من المفكرين من رؤساء الفرنجة كما حوله الله من الحيوانات الداجنة إلى أخواتها الحيوانات الوحشية . والله لا يعطل الوجود لأجل جهل المسلمين ، ولم يخلق الله ملكه لقوم كسالى عاطلين نائمين ، الملك ليس بمعطل شمسه تجرى وقمره وكواكبه وأنهاره وحيوانه ، فمن خالف هذه القاعدة كبعض المسلمين اليوم أذله الله لأنه غير خلق الله بل أجمل خلق الله وهو العقل ، بل إن هذا من أولئك الذين قال الله فيهم « من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها » وأى طمس أشد من طمس العقل وما الوجه إلا مرآة له ، وهو الأصل والوجه هو الفرع .

إن تغيير خلق الله العقل ظاهر اليوم فى بعض الأمم الإسلامية ، وطمس العقول واضح وقد آن أن يبدل الله الحال ويرجع لهم مجدهم وتستنير عقولهم ، ذلك هو الذى سيكون ، ولله عاقبة الأمور .

هذا ولتقرأ ما كتبته على قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » فى سورة البقرة .

اللطيفة الثانية

جاء فى هذه الآيات أن الشيطان مريد أى عات خارج عن الطاعة ، وأنه أقسم أن يتخذ له من عباد الله

جماعة من نصيبه ويجعلهم من حاشيته فإن أمرهم أطاعوا وإن وعظهم بالوسوسة استمعوا له ، وإن قال أيها الناس قطعوا آذان الأنعام فعلوا أو غيروا خلق الله بتشويه الجلد ووصل الشعر وتعطيل العقول أخلدوا إليه واطمأنوا ، وهو الذى أمر الأمم الكبيرة كالفرنجة أن يطئوا بأقدامهم على رءوس الأمم الصغيرة فى الشرق ويحرموهم من العلوم والصناعات ويسلبوا أموالهم كل هذا بأمر الشيطان .

فياليت شعرى أى مخلوق هذا وهل هو حى يرزق ؟ أم هو صورة يقصد بها ضرب الأمثال والتقريب من العقول والتلطف فى القول .

لقد بحث العلماء فى ذلك بحثا دقيقا ونقبوا فى الشرق والغرب عن هـذا الشيطان فأنكر قوم وجوده وقالوا ليس هناك إلا نفوسنا وأخلاقنا واستعدادنا وأن الذنوب على حسب الاستعداد والقوى ، وقال آخرون : كلا ! فإن الأمراض التى تأتى إلينا على حسب استعدادنا ظهر اليوم أنها من حيوانات حية ؟ فالحمى والجدرى والحصباء وسائر الأمراض التى نمتعد لها لاتحصل إلا بتلك الحيوانات الذرية الصغيرة التى تتوالد وتتناسل فينا ونحن غير شاعرين بها ولا عالمين ، وفى أجسامنا آلاف آلاف الآلاف من الحيوانات الذرية الصغيرة التى تعيش فى الدم كأنها جنود مجندة بالسلاح ، وكأنها حوافظ لأجسامنا تقيها عاديات الدهر ومزعجات الليالى وصروف الزمان ، وبينما هى آمنة فى سربها ساعية فى معاشها هادئة فى أماكنها إذا حيوانات غريبة هاجمة عليها فيقتتل الطرفان ويتلاقى الجمعان ويتضارب الشجعان ويتدخل الحزبان ويكثر الطعان والنزال ، وقد كسرت القنا على القنا وموج المنايا حولهن متلاطم ، فتنجلى المعركة عن قتلى من الطرفين وجرحى من الحزبين فأما الإنسان منا أو الحيوان فيكون قد ارتفعت درجة حرارته من هول الحرب فى الميدان ، ويكون المرض على حسب الحيوانات الهاجمة ، فتارة يقال إنها حمى ، وتارة يقال حصباء ، وأخرى يقال جدرى وما أشبه ذلك مختلفا باختلاف الحيوانات الهاجمة . فأما الحيوانات البيضاء التى فى الجسم فإنها تدافع بأمانة وشرف حتى إذا غلبت على أمرها وسلمت للموت أنفسها ؟ هنالك تظهر الأمراض من جدرى وحصباء وأنواع الحمى المختلفات .

هذا فى الأمراض المعروفة التى لم يكن ليصدق العقل أن هناك حيا يرزق داخل أجسامنا ، ولا أن هناك مخلوقا يتدخل فى أمور أمراضنا ؟ فما بالك بالأمراض العقلية والآراء النفسية والنزعات العقلية والأكاذيب الإنسانية والأفعال الشيطانية ؟ فربما كان هناك عوالم تفعل فى عقولنا مافعله الذباب فى أعيننا .

ألا ترى أن الذبابة لاتقع إلا على العين القذرة والجلود الوسخة ؟ ومتى وقعت هناك باضت بيضا فى تلك الأماكن فكان دود فمرض ؟ فالاستعداد هو الذى أغرى الذباب ، فكان الديدان فجاء المرض والناس ساهون لاهون كما دخل المرض أجسامنا بإهمال النظام فى الشراب والطعام فكانت الحمى وكان الحمام .

لامانع فى العقل يمنع من وجود الشيطان وأنه يلقى إلينا الوساوس وأضغاث الأحلام ، ولكن الإمكان غير الوقوع ، والاحتمال غير التحقيق ؟ هنالك ظهر قوم وقالوا ليس الشيطان محتمل الوقوع فحسب بل هو عالم موجود فى هذا الوجود ، وكما أن فى العالم ملائكة ففيه شياطين .

فهذه النفوس البشرية إذا ماتت هى وأمثالها من العالم المشابه لعالمنا لاتذهب شعاعا ، ولا تكون ضياعا ولا تكون سدى أو يلحقها الردى . كلا ! بل هى حية تسعى ولها فى العالم أعمال إذ لاعاطل فى الوجود ، فكل إنسان فى هذه الحياة بعد موته يصبح مغرما بما خلق الله له فى الحياة فيلازم النفوس التى على شاكلته ويوسوس بالشر أو يلهم بالخير على مقتضى سجيته . فكل امرئ اليوم إما فاضل وإما ناقص ؟ فالناقص شيطان محبوس فى قفصه الجسمى ، والفاضل ملك ممنوع عن مكانه العلوى ؟ فإذا خرجا من سجنهما انطلق كل

منهما إلى مكانه ورجع إلى إخوانه وسار معهم في سبيله ، فيكون إما ملهما للخيرات ، وإما موسوسا بالسيئات .

قال الفخر الرازى في سورة إبراهيم عند تفسير قوله تعالى « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق » الآية ، وذكر بعض العلماء فيه أيضا احتمالا ثالثا ، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها ، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة فى بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة ، وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ، ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاما ، وإن كان في باب الشر كان وسوسة ، انتهى .

وقال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٦٢ :

واعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل ، فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد ؛ وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجساد المحتجبة عن الأبصار .

وقال قبل ذلك ما ملخصه :

إن هذه النفوس الشرّيرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى ؛ فحينئذ تصبح النفس كأنها لا حية ولا ميتة كما قال تعالى « لا يموت فيها ولا يحيا » وتقول « ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، ياليتنى كنت ترابا — هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا » وقال تعالى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » لما ركب فيهم من الأخلاق الثابتة وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم وهكذا ، انتهى ملخصا من إخوان الصفاء .

وإن شئت فارجع إلى ما ذكرته في سورة البقرة عند قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » وكيف بينت هناك أن الفرنجة قد بحثوا في هذا الموضوع بحثا أوسع نطاقا . وكيف قامت دولة أمريكا وانكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وجميع دول أوروبا ، وبحثوا في حادث الأرواح وقبوا ورفعت عريضة في القرن الفائت لمجلس الأعيان في أمريكا من ٢٥ ألف رجل يطلبون معرفة الحوادث الروحية التي حدثت في بلادهم مثل ظهور أشباح وأرواح ، وكيف قامت الجمعيات العلمية وأثبتت أن هذا حق وأن أرواح الأموات هي التي فعلت ذلك ، وكيف أثبتت جمعيات في أوروبا رسميا من جهة الحكومات أنفسها ما قاله أهل أمريكا وصدقوا أقوالهم . كل هذا والمسلمون ناعسون نائمون لا يدرون ماذا يقول العلماء في مثل هذه الآيات ، وإنما شأن المسلم أحد أمرين : إما أن يسلم بالقول تسليما وهم الجهلاء ، وإما أن ينكره إنكارا ويقول كل هذه أكاذيب وما هي إلا أضاليل ليقال إنه عالم عظيم ومحقق كبير ، فلا هو ولا من قبله عالمان ، كلاهما مغرور وكلاهما جهول ، بل يجب التوقف في الأمر حتى تنجلي الحقائق وتظهر الدقائق ؛ فالكبرياء تمنع لإقناع الناس بأن الإنسان فيلسوف ، ولكن العقل البشرى والفطرة الإنسانية أجل من أن تخضع لتلك الترهات ، بل لا تزال تطالب بالبينات .

وقال

وقال العلامة أوليفر لودج العالم الإنجليزى الشهير فى خطبة خطبها فى الحياة بعد الموت ، وذلك فى أيام الحرب العظمى : كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مناجاة المدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية إلى أن قال : إنى تحققت أن بعض أصدقائى الذين ماتوا لايزالون موجودين إذ أنى قد ناجيتهم ، ومناجاة الموتى ممكنة إلى أن قال : وقد حادثت أصدقائى الموتى كما أحادث واحدا من الحضور وقد كانوا فى حياتهم من أهل العلم ، ولذلك برهنوا لى براهين قاطعة (نشر بعضها وسينشر البعض الآخر فى حينه) أنهم كانوا يحدثوننى وأنى لست واهما .

إن ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبصحتها بكل مافى من قوة الاقتناع ، إنى مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت ، وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير ويقدرون على مناجاتنا أحيانا إلى أن قال : وذلك مايبعثى على القول إن الإنسان ليس منفردا بل تحيط به مدركات أخرى .

وقال فى إخوان الصفا المتقدم : إن الأرواح بتعليمها للبشر تزيد ارتقاء فى عالمها ، كما أن الأستاذ بتعليمه التلاميذ يزيد ارتقاء وثباتا فى علمه .

وإنما نقلت لك كلام الأوائل والأواخر فى هذا المقام لتطلع على آراء الأمم قديما وحديثا ، ولتعلم أن العقول الإنسانية لها مرام واسعة عظيمة المدى لم تقف عند مشاهدات الأبصار بل استعملت البصائر ، فإن كفاك ماذكرناه فى اعتقاد الملائكة التى كانت تساعد فى غزوة بدر وأحد ، وفى اعتقاد الشياطين التى تأمرنا أن نقطع آذان الأنعام ونشق الوجوه والأجسام ونخصى العبيد ونغير خلق الله فيها ونمثل ، وإلا فاحذر أن تقف موقف المدعين الذين يقولون قد عرفنا كل شئ واحذر من الكبرياء ، وإنما عليك أن تجد وتبحث لتزداد علما ، والطريقة المثلى لذلك أن لايتكل المسلمون على آراء الغربيين ولا آراء القدماء من المسلمين ، وإنما عليهم أن يبحثوا أنفسهم حتى إذا رأوا حقا أثبتوه ، أو رأوا باطلا رفضوه . هذا هو الواجب على المسلمين .

ولعمرك مادهى هذه الأمة إلا الكبرياء وإظهار العظمة جهلا وزورا ، فيكتفى الجاهل منهم بقوله « إن هذا إلا أساطير الأولين » وهذه إنما هى خرافات . فإياك أن تكون من المغرورين تصديقا أو تكذيبا فتوقف حتى تهتدى بنور عقلك الباحث فى العوالم المطلع على طرق البحث المنقب المجد « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

واعلم أن هذا المقام سأكتفى به فى كل مقام يناسبه فى مباحث الشياطين والملائكة وفى الوسوسة والإلهام، وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب الأرواح الذى ألفته لهذا الغرض .

اللطيفة الثالثة : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب »

لقد علمت أن المسلمين كانوا يفتخرون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبكتابنا وهو القرآن ، وأن أهل الكتاب كانوا يفتخرون بأنهم كانوا أقدم عهدا وأرسخ مجدا فجاءت هذه الآية وكذبت الطرفين وأخرست الحزبين ، وهذه إحدى نكبات المسلمين ورزايا المسيحيين ، لقد اغتر المسلمون اغترارا فاحشا فناموا وجهلوا جهلا فاحشا فخفروا .

يزعم المغرورون الطائشون من أهل العلم ومن على شاكلتهم من الجهال فى الإسلام أن الانتساب للاسلام كاف لإنقاذهم فساء فألهم وقل جمعهم وضل سعيهم ، فهم أشبه بمن قال الله فيهم « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ومن قال فيهم أيضا « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » ولعل مانقلناه عن الأمم فى الشياطين والملائكة يكفينا فى هذا المقام .

أفلا ترى كيف يقول علماؤنا كالإمام الرازى وأضرابه وعلماء الأمم : إن الإنسان بعد الموت يكون على حسب أخلاقه فى الحياة ؟ فالمسلم بعد الموت هو هو الذى كان حيا ، فإذا كان فى الحياة الدنيا ساهيا لاهيا جاهلا أو فاسقا ، ذهب إلى ذلك العالم أعزل من السلاح مجردا من قوة الكفاح ، فنزل إلى مصاف الخدم والعبيد ، ولا ينفعه الانتساب إلى أولى الألباب « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » فإذا ظن المغرورون أن انتسابهم إلى الإسلام يرفع وحده من شأنهم فقد خاب فألهم ، فلا الإسلام وحده يرفعنا ولا الأمانى تفيدنا، إن الأرواح جاءت هذه الأرض لتستكمل حظها وترفع قدرها وتكمل فى أوصافها وتتحلى بأجنحة معنوية تطير بها فى تلك الساحات وتسافر بها فى تلك الباحات ، فبالعلم أجنحتها وبالعمل قوتها ، وبالإحسان سعادتها وبالمحبة شرفها ؟ فإياك أن تكسل فى الأعمال ، وإياك أن تتوانى فى منفعة الأمة ، وإياك أن تقبض يدك عنها ، فجد فى إعلاء شأنها ، وأحب الناس جميعا ، ولتكن أخا كريما ، وأبا للناس رحيما ، إن الله رحيم ، فكن بأخلاقه متخلقا ، واعلم أنك خليفته فى الأرض فإن شئت فعلى نفسك ، وإن شئت فعلى أسرتك وأهلك وقرابتك وأمتك وسائر الأمم ، فإذا قدرت على نفع سائر الناس فافعل فكلهم عباده ، وكن رءوفا بالحيوان ساعيا جهدك فى ترقية الأمم موجها وجهك لله ذى الجلال .

وإلا فبالله ما هذه الغزوات والجهاد ؟ وما هذه التكاليف والأعمال ؟ وما هذه الحياة التى اتصفنا بها وهى ملأى بالآلام محفوفة بالأخطار ؟ كل ذلك لاقتناص الكمال بالعلوم والأعمال ، انتهى الفصل الأول فى هذا المقصد .

الفصل الثانى

روى «أن عيينة بن حصن أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال: أخبرنا أنك تعطى الابنة النصف والأخت النصف ، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : بذلك أمرت» وكذلك حديث بنات كحة ، وقد تقدم فى أول السورة .

وأيضا كانت اليتيمة تربى فى حجر الرجل وهو وليها فيرغب فى نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال، ويعطيها أقل من صداقها ، وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها فلا يتزوجها ، وربما لا يزوجها غيره حرصا على مالها فيحبسها عن الزواج حتى تموت فنهاهم الله عن ذلك كله وقال (ويستفتونك فى النساء) فى ميراثهن (قل الله يفتيكم فيهن) الإفتاء تبيين المبهم ، وعطف على لفظ الجلالة قوله (وما يتلى عليكم) أى والمتلوّ عليكم (فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن) مافرض لهن من الميراث (وترغبون أن تنكحوهن) أى فى أن تنكحوهن أو عن أن تنكحوهن فإن تنكحوهن فبأقل من الصداق ، وإن لم تنكحوهن لدمامتهن حبستموهن عن الزواج ليبقى المال فى أيديكم .

أقول: ولعل هناك أحوالا كان لليتيمة فيها مال عندهم حتى لا يتصادم مع ماورد فى هذا المقام أنهم لا يعطون الصغار ولا النساء مالا فتفطن لذلك ، فما تلى عليكم من كتاب الله قد بين لكم ذلك ، فيأخذن مالهن كاملا وصداقهن كاملا ، فهذا هو قوله « وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء الخ » (و) فى (المستضعفين من الولدان) يعنى ويفتيكم فى المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم، لأن العرب فى الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار كما تقدم، فنهاهم عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث، ثم قال (و) يأمركم (أن تقوموا) أيها الأئمة (لليتامى بالقسط) أن تنظروا لهم وتستوفوا لهم حقوقهم بالعدل فى ميراثهم ومالهم (وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) فيجازيكم عليه .

ولما كان العدل مع الضعاف ليس خاصا بالصداق أو الميراث ، بل يتجاوز ذلك إلى المعاشرة وحسن السلوك فليعدل الرجال مع النساء فى القسم ، وهذا حتم لازم .

ثم

ثم إن الطلاق مباح فى الإسلام وإن كان هو أبغض الحلال ، فإذا وجب القسم لمرأة كان الطلاق مسقطا لذلك الحق وتخلص المرأة من الرجل بهذه الوسيلة ، فليس هناك وسيلة إلا المصالحة بينهما إذا رغبت المرأة فتنزل عن بعض المال أو بعض القسمة فى البيت لتدوم على أولادها مثلا ، أو فى عصمته فيكون الصلح خيرا من الفرقة ، والنفوس مجبولات على الشح مطبوعة عليه ، فلا المرأة تكاد تسمح بحقها فى البيت ولا الرجل يرضى بالمبيت عندها إذا رغب عنها ، فكل واحد منهما يطلب راحته ، فليخالف هذا الطبع وليعدل الرجال بين النساء فى القسم وإن كان مخالفا لطباعهم فإن ذلك إحسان وتقوى ولهم ثواب عظيم فى ذلك .

والعــدل بين النساء فى القلوب لايمكن ، فالقلب ميل إلى واحدة أكثر من الأخرى مهما حرص الإنسان ، فليكن العدل فى العمل واغتفر ما فى القلوب ، إذ ليس فى الطاقة اجتنابه . فأما ترك العدل ميلا فى القلب وعملا بحيث لايقسم لها ، فإن ذلك يجعل المرأة كالمعلقة ليست ذات بعل ولا مطلقة ، على أن الله إذا افترقا يغنى كلا منهما عن الآخر من فضله وغناه .

هــذا ملخص مافى هذه الآيات الآتية ، وهى قوله تعالى (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا) توقعت تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها (أو إعراضا) بأن يقل مجالستها ومحادثتها ؛ كما روى أن عمرة بنت محمد بن مسلمة واسمها خولة كانت تحت رافع بن خديج وهى شابة ، فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الأولى ، فأتت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وجواب الشرط قوله (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) كما تقدم إيضاحه (والصلح خير) من الفرقة وسوء العشرة (وأحضرت الأنفس الشح) أى جعل الشح حاضرا لها لايغيب عنها أبدا فهى مطبوعة عليه فكل من الزوجين لايفرط فى حقه .

ولما كان الرجال أحق بالفضل خاطبهم الله قائلا (وإن تحسنوا) بالإقامة على نسائكم ، وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة (وتتقوا) النشوز والإعراض عنهن (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازكم خيرا على هــذا الإحسان (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فإذا مالت القلوب التى لاتملك فلتعدلوا فى القسم فى البيت وهو الممكن .

وكان صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ويقول : «هذا قسمى فيما أملك فلاتؤاخذنى فيما تملك» (وإن تصلحوا) ما كنتم تفسدون من أمورهن (وتتقوا) فيما يستقبل من الزمان (فإن الله كان غفورا رحيما) يغفر لكم مامضى من ذنوبكم (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) غناه وقدرته (وكان الله واسعا حكيما) مقتدرا متقنا فى أفعاله وأحكامه فهو الذى يسع جميع خلقه ، فإن اصطلح الزوجان أعطى من سعة فضله من صبر منهما ثوابا ، وإن افترقا أغناهما عن بعضهما بجوده وسعة فضله ، وكيف لايكون ذلك (ولله مافى السموات وما فى الأرض) ملكا وخلقا فما أعظمهما ، ومن ذلك أنه سبحانه وصى الناس قبلنا بالتقوى كما وصانا ، فكما وسعت عطاياه البرايا وسعت وصاياه الأمم ، فلذلك أعقبه بقوله (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم) معطوف على الذين (أن اتقوا الله) أى بأن اتقوا الله (وإن تكفروا فإن لله مافى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا) أى وإن تجحدوا ما أوصاكم به فإن الله خالق السموات والأرض الخ ، فحق على الكل أن يتقيه ويرجوه وكان الله غنيا عن جميع خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم محمودا على نعمه عليهم (ولله مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا) فاتخذوه وكيلا ولا تتكلوا على غيره .

ولقد كرر ذكر السموات والأرض ثلاث مرات ، وكأنه يقول ملكت السموات والأرض فلاوصى عبيدى لإصلاح شأنهم لأنى أملكهم ، فإن أعرضوا عن وصيتى فأنا غنى بسعة ملكى وقدرتى ، ولست تاركا أحدا منهم فليتوكلوا علىّ لأنهم جميعا فى ملكى ، هذه فوائد التكرار. أو لعله لما كانت الأحوال ثلاثة :

الحال الأعلى وهى البيت معهن والرضا بعشرتهن وإن كن مرغوبا عنهن .
والحال الوسطى وهى أن تتنازل المرأة عن بعض حقها إرضاء للزوج لتبقى معه .
والحال الدنيا وهى أن يتفرقا .

ذكر ملك السموات والأرض ثلاث مرات إيذانا بأن الله بقدرته وسعة ملكه يقوم بأمر عباده فى كل حال مجازاة بالخير وكفاية لمن توكل عليه لأنه عام الجود واسع العطايا .

لطيفة

إن الله لما ذكر مسألة الأزواج والنشوز والإعراض والصلح وما أشبه ذلك من الأمور الحيوانية الإنسانية ذكر الناس بملك السموات والأرض وكرره كما قدمناه ليذكر النفوس الأرضية بالعوالم السماوية وليفهمهم أنهم لم يخلقوا إلا لمقام أعلى مما هم فيه ، فأكثر من ذكر العوالم العلوية والسفلية فى مقام الأمور المنزلية الصغيرة ليرفع النفوس من خمودها ويقيمها من مراقدها .

حكاية وحكم

وإذا كنا نرى فيلسوف الهند الذى أرسله ملكهم إلى الإسكندر لما فتح بلادهم وهو يحاور الإسكندر فى الخبر المشهور فى التاريخ يعرض عن العالم الأرضى وينظر فى النجوم ويتغير وجهه ويقول : أنا من عالم أعلى أنا من السماء ، فلم أبقى فى هذه الأرض ؟ فيا أقه من السماء روحى فردنى إليها فى جوارك .

فما بالك بالقرآن النازل لأشرف الأمم ؟ أفلا يذكر الناس بالعوالم العلوية والسفلية والكواكب والشموس وهم منهمكون فى الأمور الحيوانية والأعمال الأرضية ؟ ويقول : إلى هناك خلقتم ؟ ولهذا سكنتم الأرض ؟ وإلا فلماذا نرى الأنوار تكتنفنا ؟ والنجوم من حولنا والجمال يحيط بنا ؟ وكيف نتلهى عن هذا الجمال بما نحن فيه من الأحوال ؟ وكأنه عز وجل يقول : أيها الرجال ، إن جمال النساء والشهوات التى ركزتها فى طباعكم لهن شىء يسير بالنسبة لما ترونه فى عالم الجمال والنور الذى يشرق عليكم وأنتم عنه غافلون ، فإذا شغلتكم بهذه الأمور وقتا ما فذلك لحكمة وهى أن تستعدوا لهذا المقام الأقدس بالاختبار فى الأعمال الأرضية ، ثم أرفعكم إلى تلك المنزلة الشريفة .

ولعلك تقول ماملخص تلك الحكاية ؟

فأقول: لما سار الإسكندر إلى الهند ففتحها أرسل له أحد الملوك يقول: هل لك أن أرسل لك ابنتى فتكون زوجا لك ؟ وفيلسوفا يخبر بكل ماتضمره نفسك من قبل أن تخاطبه ؟ أما ابنته فإن الوفد الذى أرسله لما رآها حارت أبصارهم فى جمالها وكأنما أغشى عليهم مما رأوا من الحسن والجمال ، وأما الفيلسوف فإن الإسكندر لم يحاوره إلا بالإشارات . فأرسل إليه برنية مملوءة سمنا ، فلما رآها الفيلسوف أتى بإبر ووضعها فى ذلك السمن وردها إليه ، فلما رآها الإسكندر أخذ الإبر وجعلها كرة مصمتة وردها إليه ، فلما رآها الفيلسوف أخذ الكرة فجعلها مرآة مصقولة يتراءى فيها كل صورة تقابلها ، فلما أرسلها للاسكندر وضعها فى إناء فيه ماء فكان الماء فوقها ، فلما رجعت إلى الفيلسوف جعلها كرة مجوفة تطفو على وجه الماء ، فلما ردت إلى الإسكندر ملأها ترابا وأرجعها إليه فبكى الفيلسوف ونظر إلى السماء ونجومها وأخذ يفكر فى مبدعها ويقول : مايدل على ولوعه بذلك الجمال وشغفه بالحكمة العالية ، والعروج إلى السماء والخلاص من العناصر الأرضية التى اقتضت روحه حبسته عن العالم الباقى ، فبلغ ذلك الإسكندر فأرسل إليه فحضر ، ولما دخل وضع يده على أنفه ولم يتكلم لأن الشرط أن يكون كل محاورة معه بالإشارات ؟ فحينئذ قال له الإسكندر : لم وضعت يدك

على أنفك ؟ قال لأنى أردت أن أقول لك ماقى نفسك وهو أنك لما رأيتنى أعظمتنى إذ رأيت جمال صورتى بعد أن عرفت حكمتى فخطر فى بالك أنك أعظم رجال الهند ، فوضعت يدى على أنفى كأنى أقول لك إن الأنف أعلى مافى الوجه وأنا فى الهنود كالأنف فى الوجه ، قال : لقد أصبت أيها الحكيم ففسر لى مادار بيننا . قال الفيلسوف : إن السمن الذى أرسلته لى كأنك تقول إن الحكمة التى أعطانيها الله لاتحتاج لمزيد ، فأنا مملوء حكمة فوضعت الإبر فى السمن كأنى أقول : أنا أتلطف وأدخل فى حكمتك حكمة أخرى ، ولما جعلت أنت الإبر فى كرة مصمتة كان معناه أن فتح البلدان والسير فى الأعمال البشرية يعيق النفس الإنسانية عن الصعود إلى الملكوت ، فلما جعلتها أنا مرآة تظهر فيها صور المرئيات كان معناه أن نفسك وإن شغلت بهذا العالم الثقيل فإنى أجلوها ، فلما جعلتها أنت فى الماء كان معناه أن الحوادث الأرضية تغشى عليها ، فلما جعلتها أنا كرة مجوفة كأنى قلت لك إنى مع ذلك أحتال فأرفع نفسك إلى أعلى وإن كانت مشغولة بالأمور الجسمية ، فلما وضعت أنت التراب فيها أذكرتنى برجوعنا إلى التراب وذهاب الأجل ، وتذكرت إذ ذاك ذلك الجمال الأسنى والشرف الأعلى ، لحنت نفسى إليه .

فقال له : تمنّ علىّ مالا ؟ فقال : لاينبغى للحكيم أن يأخذ من أحد مالا ، وإنما أنا أطلب منك أن تكون بأهل الهند رحيما وتقفو سنن الله فى الحكمة والعدل والجمال والكمال .

وإنما ذكرت لك هذه الحكاية لتعلم أن الله لم يكرر ذكر السموات والأرض ثلاث مرات فى هذا المقام إلا ليرفع من شأن الفقهاء فى الإسلام فلا يغترون بالأحكام الشرعية ولا يقولون هذا هو دين الله فقط ، فإن هذا خطأ بل يكون المقصد الأسمى ذلك الجمال الأعلى ، وما القضاء إلا أعمال ضرورية فى الحياة الأرضية ، فإذا كان الفيلسوف المذكور يتلطف مع الإسكندر ويقول : أنا أجتهد فى رفع نفسك ، وإن كانت منغمسة فى الشهوات النفسية وفتح الممالك للأغراض الاستعمارية وأبث لك الحكمة حتى يكون لك نصيب من الشرف الأعلى والجمال الأقدس فبالأولى القرآن الذى لم يكن رأى حكيم أرضى بل تنزيل من حكيم حميد .

فكأنه عز وجل يقول : أنا ألفت عقولكم وأوجه أذهانكم إلى العالم العلوى والسفلى ، فلا يشغلكم المال ولا البنون ولا النساء ، وقسمهن عن الأمور العالية ، وهذا كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ولكن الذكر هنا يكون بالتوجه النفسى لمناظر الجمال الجاذبة للنفس فى مقابلة الجاذبة الحيوانية .

أقول: وسيكون فى الأمة الإسلامية من يحيون هذه الفكرة فى المسلمين وإحياؤها يحيى القلوب ، فتقلّ المنازعات والقضايا والبينات والخصوم والشهادات ، فهذا هو المقصد الحقيق من دين الإسلام بل من كل دين فى الأرض ، ولذلك أتى فى هذه الآيات بأنه وصى جميع الأمم بالتقوى وقرنها بذكر السموات ليهدى المسلمين الذين يجيئون بعدنا إلى أن الجمال فى السموات والأرض والحكم التى تثبت فى العقول هى التى بها تشرف العقول الإنسانية ويكون الصفاء والصدق غالبا عليها . فأما القضايا والأحكام فإنما هى حيلة الأمم العاجزة عن الفضائل الكاذبة الخاملة . فليكن دين الإسلام دين الصدق والجلال والجمال ، ولذلك ترى الله ذكر فى هذه السورة الشهادة على النفس وعلى الوالدين الخ ، كل ذلك منبعه ذلك الجمال والصفاء .

اللطيفة الثانية

يناسب هنا أن نذكر ملخصا من علوم الديانات السابقة قبل الإسلام ويغنينا من ذلك ما ذكرناه فى سورة آل عمران فى قصة عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فارجع إليها ، انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث

وفيه بيان أن الأمم التى غلبت عليها الشهوات وضلت سواء السبيل وعاشت ساهية لاهية غافلة يذهبها الله

ويأتى بقوم آخرين ، كما قال تعالى « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » وبيان الإخلاص والصدق فى المعاملات وأهمها تأدية الشهادة بالحق ولو على النفس أو الوالد أو الولد ، فإن الأمم التى لاصدق فى المعاملة بينها تنقضى حياتهم فى الخصومات والمنازعات ولا يتفرغون للأعمال الشريفة وتضيع مصالح البلاد وتنقبض الأيدى عن العمل ، وينضب من النفوس الأمل ، فتأخذها الدول الأجنبية وتحل بها كل بلية ، وهذا يؤخذ من قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس) أى يفنكم كما أفنى أهل أمريكا بأيد أوروبا وأهلك أهل الأندلس من العرب وأتى بدلهم بقوم آخرين وهم الأسبانيون ، وكما يفعل ذلك كل قرن فى الأمم والدول والممالك (ويأت ب)قوم (آخرين) مكانكم (وكان الله على ذلك قديرا . من كان يريد ثواب الدنيا) كالمجاهدين الغنيمة (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فما باله لايطلب أحسن الأمرين وطلب أخسهما وهو المال مع الغفلة عن النظام العام .

وذلك داع حثيث إلى ارتكاس الأمم وذهابها ، فلا بقاء لأمة يريد رجالها الحياة الحيوانية ، فإن المجموع لايعيش ولا يسعد إلا بأناس يعملون للمصالح العامة بنيات شريفة ، فأما إذا كان الغرض النافع الفردية فذلك باب الخراب وموت الأمة (وكان الله سميعا بصيرا) فلذلك يرفع الأمم التى علت وجهتها ، ويميت الأمم التى خمدت فكرتها .

ومن إرادة ثواب الآخرة الشهادات بالحق وهى من أهمّ مايبقى الدول والممالك لإقامة العدل فيها ، فلاتفنى بالظلم فلذلك قال (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) مواظبين على العدل مجتهدين فى إقامته (شهداء لله) بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله (ولو) كانت الشهادة (على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) فإن المدار على المصلحة العامة وحفظ النظام وبقاء الدولة فليس المقام مقام أفراد يعيشون على مال غيرهم ولكن المجموع مرتبط بعضه ببعض وهو كجسم واحد لو اختلّ نظام أحد الأعضاء اختل المجموع فمرض فمات، هكذا أنتم يامعاشر المسلمين إن لم تقيموا الشهادة لله وتراعوا المصالح العامة لاتبقى أممكم إلا قليلا فإذا كانت الشهادة صادقة وتحملتم المكروه عليكم وعلى أقاربكم وكان ذلك خلقا فى الأمة عاشت عيشة راضية فلا يعتريها الفناء إلا إذا اعتراها هذا الداء وإلا أذهبتكم وأتيت بقوم آخرين فإياكم أن تقولوا إن هذا الغنىّ عاله يؤذينى إذا شهدت عليه وإن هذا الفقير إذا شهدت عليه اعتراه الأذى فيجتمع عليه الأمران الفقر الطبيعى والحكم المدنى .

فالنظام العام يقضى بهدم تلك النظريات ونبذ تلك النزعات (إن يكن) المشهود عليه (غنيا أو فقيرا) فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة عليه ولاتجوروا فيها ولاتميلوا ميلا (فالله أولى بهما) بالغنى والفقير فالمصالح العامة هى التى بها بقاء الأمم (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى لأن تعدلوا عن الحق (وإن تلووا) ألسنتكم عن شهادة الحق (أو تعرضوا) عن أدائها (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا الخاص فى أنفسكم .

لطائف : اللطيفة الأولى

كان ينبغى أن أذكر هنا الدول الإسلامية وغيرها التى فنيت بارتكاب الجرائم ، وقد ذكرت جملا فى ذلك عند قوله تعالى « أتستبدلون الذى هو أدنى الخ » فى سورة البقرة وفى مواضع أخرى فلا نعيد .

اللطيفة الثانية : منظر جميل

• بعدما كتبت ما تقدم قمت إلى ضواحى القاهرة لأجدد النشاط فى الهواء النقى والنظر إلى المزارع الخضرة والمناظر البهجة وأستجلى الجمال من وجوه النجم والشجر والبر والبحر وأشاهد آثار الجمال فى الحقول وعظمة الجلال فى مشارق النور فتمثلت فى خيالى صورة عجيبة وهيئة غريبة ومنظر جميل ، فأردت إثباتها هنا ليحلى بها

المقام وتزدان بها جيد التفسير لأنها توضح هذه الآيات ، فهى حلية حكمية وآية بهية وأسرار خفية أبرزها الله فى هذا الزمان ليظهره على الدين كله ، ويكون القرآن مجلى المعانى ومسرح الأمانى وبهجة العالمين وشرف الموقنين .

الصورة التى تمثلتها فى الخلوات

هى أنى تمثلت لى ثلاثة أعمدة من الياقوت بهجات مصطفات صفا وأمامهن عمود من الماس يلمع كالكوكب الدرى وبينهما حبال نورية مشرقة ممتدات من الأعمدة الياقوتية إلى عمود الماس وقد علق فى تلك الحبال سفط من البلور الجميل مملوء جواهر بديعة بحيث لو سقطت الأعمدة الياقوتية أو سقط العمود الماسى يسقط السفط بجواهره على الأرض فيكسر البلور وتنفرط الجواهر فى التراب وتتبعثر فى كل ناحية .

تفسيرها

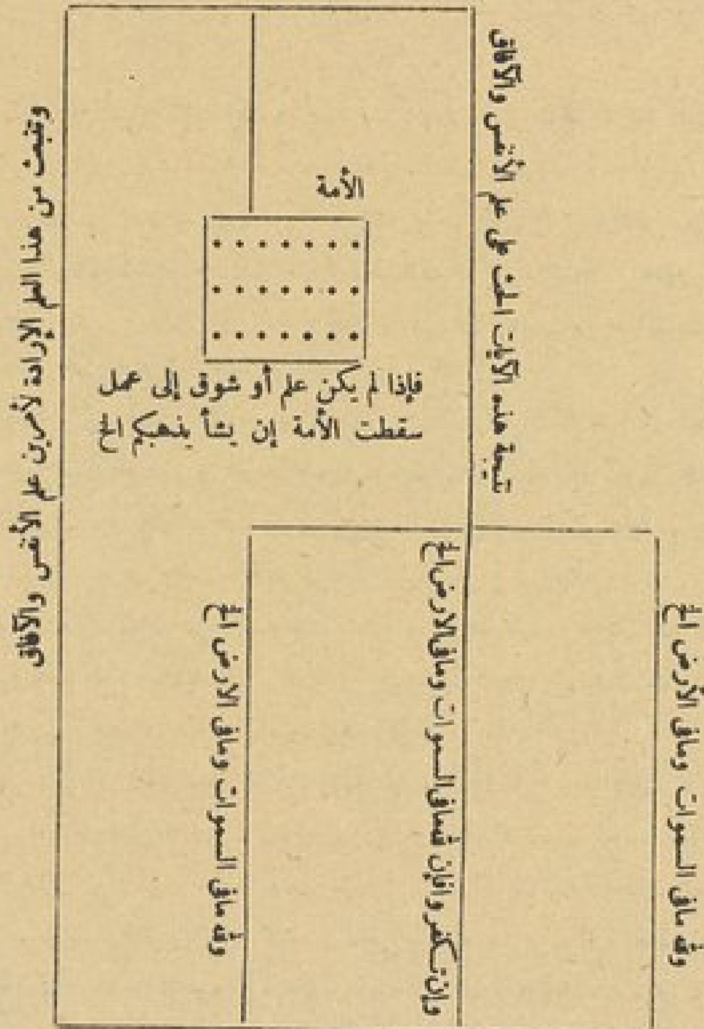
اعلم أن الأمم لاتحيا إلا بالمعرفة أولا والعمل ثانيا ولا يكون العمل صالحا إلا إذا كانت النيات ولا نيات إلا بشوق فى النفوس ولا شوق إلا بالمعرفة، فالمعرفة أساس والنيات تتبع المعارف وعلى حسب النيات تكون الأعمال ، فإذا سمعت الله عز وجل يقول « من كان يريد ثواب الدنيا الخ » فليس معنى الإرادة مايفهمه أكثر الناس وبعض الفقهاء فى الإسلام، ولكن النية انبعاث النفوس إلى مااشتاقت إليه ورضيته بعد علمها به.

وكما أن الإنسان لا يتعاطى الطعام إلا إذا جاع أولا وأيقن أن الحاضر لديه موافق لشهوته ثانيا لاتشذ عن قابليته فتنبعث إذ ذاك رغبته إلى الطعام فتكون النية ثم الأكل .

فلا نية إلا بعد العلم ، وإذا فكر المهندس فى أنواع البيوت ثم رسم شكلا منها فإن الذى رسمه هو الذى استحسنه فى نفسه بعد إعمال الفكر فى أنواع الصور الهندسية فقد سبق العلم بالصور الهندسية النية لعمل الصورة الخاصة التى هى نتيجة تلك المعرفة فيكون الرسم والبناء على صورة منوية تقدمها علم بشؤون الصور الهندسية هكذا هنا لما ذكر الله عز وجل معاملة الرجال للنساء من قسم وصلح ونشوز وإعراض وما أشبه ذلك أدخل الله فى غضون الكلام أمورا تستوجب النظر وتنبه الفكر . فياليت شعرى ماهذا التكرار للسموات والأرض فى هذا المقام وما مناسبة أن الله قادر على ذهاب الدول واستبدال سواها وأية علاقة لذلك كله بما نحن فيه ولماذا ذكر هنا الإرادة وأن منها ماهو أعلى ومنها ماهو أدنى؟ ثم نرى أنه كرر السموات والأرض مقدما وأخر ذكر الإرادة وجعل الكلام على استبدال الدول فى وسط الآيات بين العلم بالسموات والإرادة ؟ فاعلم أنه سبحانه وتعالى كما ذكرنا يريد أن يرينا أن هذه الأحوال النفسية والأحكام الشرعية فى الأعمال الإنسانية لايجوز أن تكون سجنا نسجن فيه لئلا تموت نفوسنا فلتصقل بالمعرفة والعلم فتشرق النفوس بالنظر فى السموات والأرض وإن كانت فى سجن الطبيعة . وإذا كان الفيلسوف المخلوق حاول بفطنته أن يجلو الحديد فيجعله مرآة بهية تارة وتارة يجعله كرة خفيفة والحديد معدن ثقيل مظلم فبذلك حاول أن يجعله خفيفا ومضيئا والخفة والإضاءة من شأن العوالم الجميلة ليجعل ذلك رمزا للنفوس الأرضية فى المحاورة السابقة فلننظر فى هذه الآيات كيف جعل الله عز وجل النظر فى السموات والأرض مكررا ثلاث مرات أثناء المباحث الأرضية والأعمال الحيوانية التى انغمست فيها النفوس الإنسانية أفلا ترى أن النظر فى السموات والأرض المذكور ثلاث مرات أشبه بالأعمدة الياقوتية؟ أو ليس قوله «من كان يريد ثواب الدنيا الخ» أشبه بالعمود من الماس؟ أوليس السفط الذى فيه الجواهر أشبه بالأمة الإسلامية فإذا لم تتشوق الأمة بالعلوم العلوية والسفلية إلى معرفة ما فى هذا العالم من جمال وبهاء وحكمة لم تنبعث لها إرادات للأعمال الشريفة فإذا سقطت أعمدة العلم أو سقط عمود الإرادة خرّت الأمة ساقطة « ولات حين مناص » .

فإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » فلتعلم أن النيات لاتأتى بلفظ نويت وإنما تأتى بعلوم وأشواق وبحث وتنقيب فإذا قال المصلى « اهدنا الصراط المستقيم » فإن الله لايستجيب الدعاء إلا بحضور القلب بما أثر فيه من الرحمة التى لحظها فى المخلوقات عند قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم » .

وإذا شرع فى عمل من الأعمال النافعة للأمة فلا يتم على الوجه الأكمل إلا بعلم يتقدمه والعلم هو الذى يحدث النية فالنية نتيجة العلم والأمة بين العلم والنية إذا لم يكونا أو لم يكن أحدهما خرّت صريعة لليدين وللفم ، فهذا سرّ هذه الآيات . وهذه صورته .



هذا هو الذى خبأه الله فى القرآن وكنزه فى الآيات ليظهر فى هذا الزمان وليكون هناك جيل فى الشرق لم تحلم به الدهور ولم يعلمه الجمهور ، فأما الفقيه فإنه لايعرف من هذه الآيات إلا أحكام القسم والنشوز والصلح والإعراض وأن الرجل يجب عليه أن يحسن العشرة مع المرأة ويجمع بين الأحاديث ويستنتج ثم يقف عند حدّ ذلك ، وأما العالم الإسلامى الذى سيكون فى هذه الأمة بعد الآن فسينظر ويقول إنا نرى الله خلق النبات وجعله قوت الحيوان والإنسان ومع ذلك قد جعل الله فيه حكماً تدق عن العقول يفرح بها العالمون والذى خلق النبات هو الذى أنزل القرآن بطريق الوحى فأنا إن قصرت همى على المباحث الفقهية صرت كالعامة لا ينبغى

إلا مثل ما تتعاطاه الدواب ويفرح به الجهلاء في النبات، وإن تدبرت في ذكر السموات والأرض وكيف كررت في هذا المقام وكيف ذكر ذهاب الدول وأنه يأتي الله بقوم آخرين فإني أقول الحق وهو أحق أن يتبع إن هذا القول له مغزى شريف ومعنى رفيع وكما كان في النبات غذاء الحيوان وحكمة الحكماء هكذا «ولله المثل الأعلى» كان هذا القرآن فيه المسائل الفقهية لنظام الحياة الإنسانية وفي نفس الآيات النازلة لذلك أشرقت شمس العلوم ونظام الحكمة وتجلت للناظرين من آفاق الجلال بالحكمة والكمال .

ولعمري إن الآخرة خير لنا من الأولى ، وإذا تجلت الحكمة والجلال الأفقي في العالم العلوي والسفلي قل النزاع وكثر الحب فلا محكمة ولا محاكم ولا نزاع ولا جدال بل يشرق النور على هؤلاء المتشاجرين، فالقضايا والدعاوى إنما تكون من الجاهلين، فالشرع الحقيقي هو العلم الإلهي والنظر الحكمي والله يؤتي الحكمة من يشاء والله واسع عليم اهـ الفصل الثالث .

اللطيفة الثالثة : عجائب العلم الحديث في هذه الآيات

وبيان ما فيها من الرموز والإشارات ومعجزات القرآن في القرن العشرين

يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط الخ » يأمرنا أننا إذا قتلنا أو سرقنا أو زنينا ووقفنا تحت آلات القتل نقر ، وإذا رأيت أبي واقفا وآلة الشنق منصوبة له أقول إن أبي قاتل ولا أخجل ولا أخاف كل ذلك يأمرني به الله . يأمرنا الله بما لم يشهد أحد عمله إلا نادرا جدا وليس في النوع الإنساني من يبادر إلى ذلك إلا في النادر ولكن الله سبحانه إنما يريد أن يعيش الناس بسلام ووئام ويكونوا إخوانا لتحلو الحياة ويكون الصفاء .

فهل لك أن تسمع من العلم الحديث والكشف الغريب مايجعل هذا الإقرار أمرا متداولا . هل لك أن تقرأ ما رسمته الدول المعاصرة لنا وما كشفوه في هذا المقام حتى تحكم أنهم إذا ساروا على هذا المنوال سنين أصبح مايقوله الله الآن أمرا معتادا ويقر الإنسان على نفسه وعلى أمه وعلى أبيه وعلى قريبه وعلى ملكه وعلى اللص الذي سرق معه بل يصبح الناس لاسرقة عندهم ولا قتل إلا نادرا ويزول الكذب في الشهادات وتصدق الأحكام . فلأذكر لك ثلاث مسائل .

المسألة الأولى : الإقرار بمصل الصدق

وأصل هذا المصل أن طبيبا يسمى الدكتور هاوس من المختصين بالتوليد وعادة الأطباء أنهم إذا رأوا امرأة تعسر وضعها حقنوها بهذا المصل المسمى (اسكو بلامين) فلاحظ أثناء الحقن والمرأة تضع وهي لا تحس بألم أنها تفشي أسرارا ما كانت تنطق بها عادة بل تلك الأسرار من أكبر الفضائح والعار فتوجه إلى رجال الحكومة وأحضروا من السجون نحو خمسمائة مسجون وحقنوهم بالمصل كما تحقن الوالدات واستنطقوهم فكانوا يجيبون إجابات صريحة ويخبرون بالحقائق كما هي ولم يجدوا في جميع من سألوهم كلمة واحدة تخالف الصواب ولما أفاق أولئك الرجال دهشوا لما علموا أنهم أجابوا بالحقائق التي أنكروها قبلا، وقد قال العلماء في ذلك إن استعماله سيفضي إلى إخلاء السجون من الأبرياء، ولقد وضعوا الرجال المتهمين على موائد كما توضع المرضى وحقنوهم ثم سألوهم في معارض حضرها رجال القضاء والطب فأسفرت عن النتائج عينها ويقولون إنه في بلاد الإنجليز التي كشف فيها هذا المصل يقدم عشرة متهمين للمحاكمة فلا يحكم إلا على واحد لثبوت التهمة ويبرأ الباقي ومتى حقنوا بهذا المصل ظهر الحق من المبطل وأيضا يقبض على الثلث من المقبوض عليهم خطأ ويبرءون فبابعد فهذا المصل ينفي التهمة ويخرجهم وليس هذا نافعا لإنكلترا وحدها بل للعالم قاطبة متى انتشر في الكرة الأرضية .

المسألة الثانية

إن الجناة يعرفون فى العالم الإنسانى الآن بآثار الإبهام وذلك أن بلادنا المصرية جعلت إدارة خاصة لآثار الأصابع وجعلتها أصنافا وأنواعا بحيث إن الإنسان ليس يكون أثر إبهامه له مشابه آخر فى الشرق أو فى الغرب ولذلك تراهم يأتون بالمذنبين ويأمرونهم بوضع أصابعهم على الورقة وهى ملونة بالحبر فهذا الأثر يدل على صاحبه لايشاركه فيه سواه . هكذا الأقدام فإن عرب البادية فى بلادنا يعرفون الناس بآثارهم كالقدماء من العرب الذين كانوا يقصون الأثر فكل امرئ له قدم بصفات خاصة لايشاركه سواه .

المسألة الثالثة

لقد ظهر فى أمريكا وفى أوربا علم يقال له (علم السيكومترى) أعنى علم قياس الأثر ، وقد استعملت هذه اللفظة سنة ١٨٤٢ وهى مشتقة من لفظة يونانية (سيكى) أى النفس و (مترون) أى قياس ، ومعناها اللفظى قياس النفس .

وقالوا فى هذا العلم إنه لايقع ظل على حائط من دون أن يترك أثرا فيه يمكن إظهاره بالوسائل الصناعية وكل غرفة تظن أنها محجوبة عن العيون فيها آثار كل ماحصل فيها ولو من مئات السنين بل كل حجر وشجر ومدر توجد عليه رسوم ماحصل عنده من خير أو شر فكل حركة وكل فكرة تصدر من الناس ترسم على ما حولهم فكأن هناك صورا لطيفة لاعدد لها ثابتة على جميع الأشياء لاتزول بمرور القرون والدهور .

قال الدكتور جون وليم مؤلف كتاب سر تقدم أوربا ما يأتى (بعد أن أفاد معنى ما تقدم) ويمكنى أن أصرح بأن صدى العبارات التى قالها الواحد منا يمكن أن يسمع بعد مرور الأعوام العديدة على موته ويبقى من بعده عظة لأولاده .

ثم إن هذه الصور والآثار التى أشار إليها دريبر قد تظهر بهيئة أفكار تطرأ على الأذهان فكل فكر من أفكارنا وحركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا يترك حتما أثرا لاتمحوه الأيام . ثم قال وأنا أصرح بأن البارع فى هذا العلم يمكنه إذا سئل أن يصف عيشة أى إنسان بمجرد ما يرى أثرا من آثاره أو يسمع بعضا من أقواله أو يتأمل فى مكان يقيم فيه أو يتردد فقط عليه .

وقد كان الأستاذ دانتون زوجته وأولاده وأخته جميعهن بارعات فى قياس الأثر فمتى أعطاهن شعرا من شعر إنسان أو أى شئ من آثاره قصوا أثره وقد أثبتوا أن فى كل عشرة من الرجال وفى كل ست من النساء واحدا يقدر أن يتعلم هذا العلم بسهولة ثم العالم دانتون وثق بهذا العلم بعد أن جربه . مثلا أعطى قطعة من حجر من الأحجار الساقطة من الجو إلى حماته فقالت إنى أرى أشياء تشبه النجوم والندى ويخيل لى أنى صاعدة إلى فوق ثم أعطاها لزوجته فى مكان آخر وهى لاتعلم فقالت مثل ماتقدم ثم وضعه فى صندوق مع أحجار كثيرة وأمر زوجته أن تلتقط كل حجر وتصفه فصارت تصف كل حجر ومدر وتقول هذا من بلدة كذا وحصل عنده كذا وكذا وهذا من المكسيك وهذا من رومة وهكذا ومنها حجر من جبل الزيتون فوصفت أورشليم وصفا جيدا ولما وصلت إلى الحجر الذى سقط من الجو وصفته كما وصفته أولا اهـ .

انظر إلى هذه المسائل الثلاث بعقلك وتفكر فيها ألست ترى أن المسألة الأولى هى التى تحقق إقرار الإنسان على نفسه وعلى أبويه وتكون الأمم أقرب إلى السعادة منها الآن وإذا كان هذا الكشف الحديث يعم العالم ويظهر صدقه أفليس ذلك يكون مما يجب علينا الأخذ به متى تحققنا أن ما يقوله الفرنجة حق لاخطأ فيه قلنا نحن نأخذ بقولهم بل نجرب تجاربهم ونعمل بها بعد التحقيق وإذا كان النوع الإنسانى ليس عنده من الصدق والأمانة ما يحمله على الإقرار على النفس والأهل أفلا يكون أمثال هذا العمل (إذا صح مايقال)

من

من أوجب الواجبات على أمة الإسلام . بل أقول فوق ذلك إنه يجب على أمراء الإسلام والمجالس النيابية أن يظهروا رجالا فى العلوم ويعدوهم بقوتهم حتى يكشفوا ويخترعوا وينظروا وكفانا نوما فقد نامت عقول المسلمين آمادا طويلة .

اعتراض على مؤلف هذا التفسير

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد العلماء، واطلع على ما كتبت فأظهر أشد الاستياء وقال ياسبحان الله كيف تجيز أن تأخذ بقول من حقنوا بهذا المصل وكيف نأخذ بأقوال من فقدوا الإرادة إن هذا لقول هراء بحيالك كيف تقول ذلك والله عز وجل يطلب أن نقر على أنفسنا وأعلنا بمحض إرادتنا وأما أنت فإنك تقول يكفى أن يسلبوا عقولهم كالمجانين ثم يقرون وهذا لايقرك عليه العقلاء ولا الجهلاء، وهو أشبه بالخرافات وأقرب إلى الضلالات .

الجواب

فقلت له حياك الله وبياك فهل إذا أتيت لك دليلا على ما أقول من كتاب الله تعمل به ؟ فقال بشرط أن يكون مقنعا ، فقلت له ألست ترى أن الله أحكم الحاكمين قال بلى ، قلت أفلست ترى أنه مطلع على مافى ضمائرنا ؟ قال بلى ، قلت لقد قبل هو الشهادة من الأيدى والأرجل وحكم بها فمن باب أولى الذين هم ليسوا بأحكم الحاكمين وهم قضاة البشر . ألم تر إلى قوله تعالى «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» وقوله أيضا « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون » وفى آية أخرى « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم الخ » فإذا كان الله قبل هذه الشهادة من الجلود والجوارح بالرغم من أصحابها وهم يعاتبون أعضاءهم على ذلك صريحا فكيف لاتقبل من يحقن بالمصل وشهد بالحق ويكون حكم القضاة حقا لازلل فيه بخلاف الأحكام الحاضرة فإنها ظنية لأن الشهادات لاتثبت الحقيقة أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدى فى أيامنا الحاضرة هو نفس الذى صرح به القرآن وإذا كان الله يعلم مافى البواطن بل هو القائل للانسان « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » والقائل « بل الإنسان على نفسه بصيرة » .

أفلا يكون ذكر الأيدى والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين وأن هناك ما هو أفضل منها وهى التى يحكم بها الله فاحكموا بها ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أن الأيدى فيها أسرار وفى الأرجل أسرار وفى النفوس أسرار . فالأيدى لاتشتبه والأرجل لا تشتبه فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم والألسنة تنطق بالحق متى أعمت البصيرة إنابة بهذا المصل أو بغيره .

أو ليس فى الحق أن أقول إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه وإلا فلماذا هذه المسائل التى ظهرت فى هذا العصر تظهر فى القرآن بنصها وفصها والمسلمون كانوا غافلين عنها كما غفلوا عن منع الخمر والربا وقامت الأمم الغربية بهذا خير قيام .

أو ليس قوله « قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ » يشير إلى ماكشفه علماء أوربا وأمريكا فى علم (السيكومترى) المتقدم وأن كل فكر من أفكارنا وقول وعمل يرسم بصور غير محسوسة على الحيطان والأبواب والأحجار ويقرؤه قوم بعد آلاف السنين ويفهمون حوادثنا التى فعلناها .

أليس هذا من معانى النطق التى جعلها الله فى كل شئ أو ليس ذلك يفسر لنا كثيرا من أسرار ديننا مثل أن المؤذن يشهد له ما حوله إلى غاية ما وصل إليه صوته .

ولقد علمنا أن أستاذا فى المدرسة الأمريكية معه آلة لها مفتاح فإذا تكلم فتحها وبعد انتهاء المجلس أو الخطبة يستمع لتلك الآلة فتلقى له القول كما قاله فإذا وجد خطأ فى الحديث أرسل لأصحابه ما يكمله وهذا موجود فى زماننا الحاضر بل المدرسة قريبة من بيتى الذى أسكنه بينهما نحو كيلو مترين وهذه الآلة استحضرها من أمريكا وهو أمريكى الجنس .

وأقول لعل هذا العلم هو الذى ورد فى حديث الترمذى عن أبى سعيد الخدرى وإن لم يرد فى الصحيحين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده» ومعنى عذبة سوطه المعلق فى طرفه اهـ .

ومعلوم أن الآلة التى تسترق السمع المذكورة يمكن أن تسمع كل شئ حولها فى المكان حتى الهمس الذى يهمس ثم يكبر الصوت كما يكبر البصر سواء بسواء اهـ .

فعلى المسلمين أن يفتحوا أعينهم فليس لهم أن يقيموا على الجهالة البتراء وليعلموا أن دين الإسلام فيه أبواب واسعة ما طرقوها وعرفها الغربيون والطرقان يجهلان أن تلك الأبواب فى القرآن .

الفصل الرابع

(ياأيها الذين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين (آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) أى اثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه ولتوافق قلوبكم ألسنتكم فإن منكم من لم يثبت إيمانهم لأنه لاعلم لديهم يثبت عقائدهم ، وهذه العقائد المزلزلة هى التى جعلتهم معرضين عن خلق السموات والأرض التى تقدم الكلام عليها فزلزلت نياتهم وذلك يئول إلى انقراض تلك الأمم الزائلة كما تقدم فى الآيات السابقة وهؤلاء هم المنافقون الآتى بيانهم فيما سيأتى من الآيات فلذلك أتبعه بقوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) أى ومن يكفر بشئ من ذلك (فقد ضل ضلالا بعيدا) عن القصد بحيث لايكاد يعود إلى طريقه لأن اتحاد العقائد يدعو إلى اتحاد القلوب فتتحد المشارب فتكون الحياة الدنيا منظمة وتتبعها الأخرى والإيمان بجميع الأنبياء يدعو للاتحاد ، ولو أننا كفرنا بنبى من الأنبياء السابقين لكان ذلك مورثا للتقاطع والتدابر مع الأمم المنتسبة إليه ولو بحسب الظاهر ولكن احترام الجميع أدعى للوئام فما بالك فيما بين المسلم وأخيه ، فليكن اتحاد العقائد وإلاضل الإنسان وحاد عن الجادة فبترمن مجموع الأمة وسلك مفازة فتاربهم فى الأخلاق والطرائق ، هذا هو الإسلام .

أما الفرنجة فإنهم استبدلوا بالدين الوطنية وجعلوا الأمة مرتبطة بالوطن لا الدين وقالوا الوطن يوجب الاتحاد ، وهناك جامعات أخرى كاللغات والملك الجامع والاشتراك فى ملك واحد وماأشبه ذلك فليكن كلامنا فى الجامعة الدينية التى نحن فيها وهى ترجع إلى الاتحاد فى العقائد . واعلم أن هذه الآية تمهيد لذكر المنافقين الذين يظهرون خلاف مايبطنون ولذلك أتبعه بقوله (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم سبيلا) وهؤلاء هم المنافقون كفروا فى العمر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وعلى التمادى فى إفساد الأمر على المؤمنين ، ثم رتب عليه قوله (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) وضع بشر موضع أنذر للتهكم بهم ، قال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل ‏ ‏ تحية بينهم ضرب وجيع

ثم وصف الأعمال المترتبة على تزلزل العقائد فقال (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين

أيبتغون

أيبتغون عندهم العزة) أى أيتعززون بموالاتهم ومودّاتهم (فإن العزة لله جميعا) لايتعزز إلا من أعزه الله وقد كتب العزة لأوليائه فقال « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فعزة غيرهم لا يؤبه لها، ثم زاد تفصيلا لهذه المخالفات المبنية على زلزلة العقائد فقال فى سورة الأنعام «وقد نزل عليكم فى الكتاب» أى القرآن وأنتم بمكة لما كان المشركون بها يستهزئون « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » فلما هاجرتم إلى المدينة أخذ اليهود يستهزئون كما استهزأ أهل مكة فكيف لاتعرضون عنهم إذا خاضوا؟ وهذا قوله تعالى (أن) أى إنه فهى مخففة من الثقيلة (إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم) فى الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو فى الكفر إذا رضيتم بقولهم وطعنهم فى الإسلام وهذا هو النفاق (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) فالقاعد والمقعود معه فى النار مجموعين (الذين يتربصون بكم) ينتظرون وقوع أمر بكم وهو صفة المنافقين (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) مظاهرين لكم فأسهموا لنا فيما غنمتم (وإن كان للكافرين نصيب) من الحرب التى تكون سجالا عادة (قالوا ألم نستحوذ عليكم) أى قالوا للكافرين ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم ، والاستحواذ الاستيلاء (ونمنعكم من المؤمنين) بأن خذلناهم وتوانينا فى نصرهم ، والتعبير بالفتح فى جانب المسلمين والنصيب فى جانب الكافرين إشارة لشرف الأول وخسة الثانى لأنه أمر دنيوى (فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أى حجة يوم القيامة على قول علىّ وابن عباس رضى الله عنهم ، وقال كثير من العلماء فى الدنيا فلاتفنى دولة الإسلام بحيث تمحى من الوجود بالكلية فيستبيحوا بيضتهم فلا يبقى منهم أحد .

وقد قال بعض العلماء إن معنى ذلك أن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة ، وفرعوا على ذلك مسائل فقهية مثل أن الكافر لايرث المسلم ، وإذا استولى كافر على مال مسلم لايملكه ، وأن الكافر ليس له أن يشترى عبدا مسلما ، وأن المسلم لايقتل بالذمى على رأى ، وأنت تعلم أن قول على وابن عباس أنسب لسياق الكلام .

ثم أخذ يصف النفاق فى العبادات بعد النفاق فى السياسة فقال (إن المنافقين يخادعون الله) يعاملونه معاملة المخادع (وهو خادعهم) مجازيهم (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) متثاقلين إذ لايرون لها ثوابا ، فكيف يتعبون أنفسهم فكأنهم مكرهون على الفعل (يراءون الناس) ليخالوهم مؤمنين والمراآة مفاعلة (ولا يذكرون الله إلا قليلا) فإن المرائى لايفعل إلا بحضرة من يرائيه والمراد بالذكر مايشمل الصلاة والذكر فى غيرها ، فهم يصلون ويذكرون بحضرة من يراءونه حال كونهم (مذبذبين بين ذلك) متحيرين متردّدين (لاإلى هؤلاء ولاإلى هؤلاء) لامنسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) إلى الحق والصواب .

ثم أمر المؤمنين أن لايفعلوا مثل ما فعل المنافقون من موالاة الأعداء ، فإن هذا يضيع البلاد فقال (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وكيف تفعلون ذلك (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) حجة بينة فيعاقبكم بضياع دولكم وهذا العقاب طبيعى ، لأن موالاة الأعداء تفرّق شمل الدولة وهو الحاصل الآن فى الأمم الإسلامية .

فلعمرك لا تجد أمة فرنجية احتلت بلاد إسلامية إلا باتحادها مع بعض أفراد أهل البلاد ، ولن يقدر الفرنجة أن يعيشوا يوما واحدا فى الشرق إلا بمساعدة أهل البلاد ، فلذلك ابتلعوا ثروتنا وأخذوا ملكنا ، فهذا هو السلطان المبين والحجة الظاهرة .

ولما كان ذلك خلق المنافقين أردفه بإنذارهم وتخويفهم فقال (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) وهى الطبقة التى فى قعر جهنم ، والدرك بسكون الراء وفتحها قراءتان (ولن تجد لهم نصيرا) يخرجهم منه

(إلا الذين تابوا) عن النفاق (وأصلحوا) ما أفسدوه من أحوالهم فى حال النفاق (واعتصموا بالله) وثقوا به وتمسكوا بدينه (وأخلصوا دينهم لله) لايريدون بطاعتهم إلا وجه الله (فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) فيساهمونهم فيه .

ثم أفاد أن كل ما ذكر من عقاب المنافقين والكافرين ليس تشفيا من غيظ ولا انتقاما من عدو (مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا) مثيبا يقبل اليسير ويعطى الجزيل (عليما) بحق شكركم وإيمانكم ، وكيف يكون ذلك والناس جميعا مخلوقون له تعالى ؟ وإنما ينزل الكتب السماوية ويسلط الآفات الجوية والحوادث السماوية والأرضية بحسب النظام العام لاستخراج ما كمن فى النفوس من الغرائز والعجائب الحكمية حتى تخلص من الطبيعة وترقى إلى عالم الجمال وتتبرأ من المادة هذا هو العقاب ؛ وكما أن من الأجسام ما لايذوب إلا على درجة ١٧٧٥ من الحرارة كالبلاتين ، ومنها ما يذوب على درجة الصفر كالماء القطر .

هكذا النفوس الإنسانية : منها ما لايظهر ما فيها من الجمال إلا بعد عناء وتعذيب ، ومنها ما يظهر بأدنى التفاتة إليها ، فهؤلاء المنافقون وكثير من العصاة أشبه بالبلاتين ، فيعذبون فى الدنيا بالإنذار والتخويف وفى القبر وفى جهنم ثم يخرجون منها كما فى الحديث الآتى ، ومنهم من لايحتاج إلى شئ من ذلك ويكفيهم أدنى إشارة كالصدّيقين وعظماء الأمم ، فهم كالماء المقطر به الحياة ، وليس البلاتين مع صلابته عديم المنفعة ، بل له مصالح نشاهدها ، كذلك أصحاب هذه القلوب الجاحدة الفاجرة خلقوا للنظام العام ، فليس الله مبغضا لأحد فيعذبه ، بل هو ربّ العالمين ومصلح لخلقه ، فليس يعذب انتقاما بل يصلح الناس إصلاحا .

ولنا أن نمثل ذلك أيضا بقابلية توصيل المعادن للحرارة .

إن الأجسام على قسمين : أجسام موصلة للحرارة توصيلا جيدا . وأجسام رديئة التوصيل للحرارة ، فالمعادن موصلة جيدة للحرارة ، بل هى أكثر الأجسام الصلبة توصيلا للحرارة ، وغير المعادن كالخشب والزجاج والفحم والصوف والحرير ، وجميع الأجسام العضوية رديئة التوصيل للحرارة .

والمعادن درجات بعضها فوق بعض فى توصيل الحرارة ، فإذا فرضنا توصيل الفضة للحرارة مائة فإن البزموت (هو أحد المعادن) يكون ١ر٨ ، والبلاتين ٨ر٤ وهكذا .

ولأرسم لك الجدولين : جدول الصهر والذوبان ، وجدول توصيل الحرارة :

جدول الذوبان

الأجسام	درجات الانصهار	الأجسام	درجات الانصهار
الالمنيم	٦٢٥	الفسفور	٤٤ر٢
البلاتين	١٧ر٧٥	الفضة	٩ر٥٤
حمض الستياريك	٧٠	القصدير	٢١٠
الخارصين	٤ر١٥	الكبريت	١١٤ر٥
الذهب	١٠ر٧٥	ماء البحر	٢ر٥
الرصاص	٢ر٣٦	الماء القطر	٠
الزئبق	٣٩ر ٥	النحاس	١٠ر٥٤

جدول

جدول توصيل الحرارة فى المعادن باعتبار أن توصيل الفضة لها معتبر مائة درجة وهى مرتبة فأعلاها توصيل الفضة وأدناها البزموت :

المعدن	الدرجة	المعدن	الدرجة
الفضة	١٠٠	القصدير	١٤ر٥
النحاس	٧٣ر٦	الحديد	١١ر٩
الذهب	٥٣ر٢	الرصاص	٨ر٥
الشبة	٢٣ر٦	البلاتين	٨ر٤
الخارصين	١٩	البزموت	١ر٨

ولعلك أن الناس يشاهدون بعض ما فى هذه الجداول ولا يفكرون فيها ، فإنهم يصنعون مقابض القدور وأوانى الشاى وغيرها من كل ما تغلى فيه السوائل من خشب ، لأن الخشب موصل ردىء للحرارة : أى إن الحرارة لاتسرى فيه بسرعة ولو كانت تلك المقابض من نفس المعدن لسرت الحرارة فلم يمكن التصرف فيها بالقبض عليها واستعمالها فالخشب خير وقاية لذلك ، فالموصل الردىء للحرارة نعمة علينا ، كما أن الموصل الجيد كالحديد والنحاس نعمة علينا فله علينا الفضل فى الخشب الموصل الردىء للحرارة وفى المعادن الموصلة الجيدة فكلاهما نعمة وكلاهما لابد منه لحياتنا ، وترى الناس يغلفون أنابيب المياه الحارة وأنابيب البخار وجميع الأجزاء التى قد تكون معرضة للهواء من مراجل بعض الآلات البخارية بغلف من الفلين أوخليط من طين بتبن أو طين بشعر أو نوع من طوب قد صنع من فتات الفلين كل ذلك لأن هذه موصلة رديئة للحرارة : أى الطين المخلوط بالتبن والطين المخلوط بالشعر مثلا يمنعان ويحبسان الحرارة فى المراجل فلا تتبعثر فى الخارج فهذه الأجسام الرديئة التوصيل الحابسة للحرارة أشبه برعاة الغنم والأمراء والحكام والوعاظ الذين يحافظون على الأمم .

ولعمرى إن نعمة العلم والحكمة أجلّ من الدنيا ومن فيها وأى خير فى الحياة إذا لم تطلع على هذه الحكم والعجائب ، فالجاهل يتعثر فى الأوهام ، والعالم يرى العالم كله جمالا وكمالا ، فإذا رأى جسما يذوب سريعا كماء البحر ، وجسما يحتاج لزمن متوسط كالفضة وآخر يحتاج إلى زمن أطول كالبلاتين وهكذا فى توصيل الحرارة أدرك بعلمه وعلم بفطنته فى العالم المشاهد أن البلاتين والفضة والنحاس لو ذابت سريعا ما أمكننا الانتفاع بها ولم تصبر الفضة على الحرارة الجوية التى نعيش فيها وهى تختلف من صفر إلى ٤٠ر٥٠ وهكذا النحاس لو أنه يذوب سريعا ما أمكننا أن نوقد عليه النار لنطبخ فيه الطعام ، فجموده وعدم ذوبانه بالحرارة النارية لمنفعتنا ، فإذا كان الماء يسيل على درجة ٢ر٥ والنحاس لايصهر إلا على درجة ١٠٥٤ فهذان معا لمنافعنا ، فلو علا الماء عن الذوبان أو سهل ذوبان النحاس لكانت الحياة لاتطاق .

عجبا أيها الناس ! عجبا أيها المسلمون ما بالنا نعيش فى جو مملوء من الحكمة ونحن ساهون لاهون ، ياقوم أليس العلم نلمسه بأيدينا ونحن نائمون ؟ حقا إن الإنسان لظلوم كفار ، حقا إن الإنسان لجهول ، حقا إن المسلمين فى المستقبل خير من كثير من الأمم السابقة ، إنهم سيطلعون على ما أذكره الآن ويبرعون ويعرفون عجائب هذه الدنيا التى غفلت عنها الأمم السالفة التى نزل إليها القرآن وهم نائمون بعد الصدر الأول الذين اشتعل الإيمان فى قلوبهم فطاروا إلى الأقطار وسيشتعل العلم فى قلوب أبنائنا بعدنا فيطيرون إلى عوالم الجمال والكمال ويقرءون عجائب ماحولنا ، والله إننا لفى جو من الجمال والحكمة « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها

وهم عنها معرضون » فهل لك أن أسمعك الحديث الذى رواه مسلم ؟ ويذكره المفسرون عادة فى الآية المتقدمة فى هذه السورة « وإن تك حسنة يضاعفها » ولكن أذكره لك الآن لترى أن نظام الله فى أحوال النفس الإنسانية أشبه بنظامه فى أحوال المخلوقات الطبيعية سواء بسواء « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ولا اختلاف بل هو عالم متجانس متحد الوجهة .

العالم الروحانى أشبه بالجسمانى فى النظام والترتيب ، فالذين نسميهم عصاة لم يخرجوا عن كونهم قوما لهم درجات مختلفة كاختلاف المعادن انصهارا بالحرارة وتوصيلا لها وذلك لمنافع كثيرة ؛ فلو كان الناس كلهم على نسق واحد لاختلت أمور هذه الحياة ، فإذن لاتجزع ولا تتألم لما ترى من الاختلاف ، وإذن أسمعك الحديث بعد أن اطلعت على الطبيعة .

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل « ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم ، قيل يارسول الله : وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار » . وفى رواية : « يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه . ثم يقولون ربنا مابقى فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرا . فيقول الله تبارك وتعالى : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر مايكون إلى الشمس أصيفر أو أخيضر ؟ وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ! فقالوا يارسول الله : كأنك كنت ترعى بالبادية ؟ قال : فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : أدخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم . فيقولون : ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون : ربنا أى شىء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » لفظ مسلم وهو بعض حديث .

ألست ترى أن اختلافهم فى مرورهم على الصراط ما بين طرفة العين والريح وأجاويد الخيل أشبه بما ذكرناه وأن نفس النبوة قد جعلت الحركات الطبيعية واختلافها كاختلاف الخلوص من الذنوب والعروج إلى مستوى السعادة فلم يكن هذا العذاب إلا للتهذيب .

وإذا كانت شفاعة الشافعين المذكورة فى الحديث بعد مافهمتها فى سورة البقرة بما يناسب رقى الأمة الإسلامية ، هناك توجب خروج طوائف كثيرة من العصاة من جهنم ورقيهم ، فإن الله بما أودع فى هذا العالم من النواميس الطبيعية يهذب كثيرا من النفوس بالحوادث الطبيعية وينقيها بما يصيبها من الأوجاع والأمراض والأحزان فتخف الأرواح وتطير إلى العلا ؛ فالعلوم مهذبات والديانات مهذبات والحوادث مهذبات ،

والمقصود

والمقصود التام خلوص النفوس من عالم الطبيعة ، قال تعالى « لتركبن طبقا عن طبق » إلى عالم السعادة والهنا والحياة الروحية ، فإذا كان البلاتين والماء لاسبيل إلى ذوبانهما أو غليانهما إلا بالحرارة ، فالسبل إلى رقى النفوس الإنسانية متشعبة ، فتارة تكون بالدين وأخرى بالعلوم التى يطلبها الدين وأخرى بالمصائب والحوادث وما أشبه ذلك .

هذا هو السر المصون فى حكمة العذاب الذى قد تجلى الآن بأجلى بيان ، وبه تعلم معنى هذه الآية التى نحن بصددها « مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » فالله لم يخلق الخلق ليفرح بغيظهم أو يشمت فى مصائبهم ، كلا ! بل هو الله الرحمن الرحيم الذى خلق الخشب الذى لايوصل الحرارة ليكون واسطة تمسك به الإناء الذى فيه الشاى ، كما خلق الغلاظ الجناة من الرجال الأقوياء البنية ليقوم بهم نظام الحياة ، فتارة يهذبون بالديانات وتارة يهذبون بالحوادث وتارة يهذبهم عذاب بعد الموت أو فى جهنم ، وإذا خفت نفوسهم خرجوا كما يخرج الفرخ من البيضة والجنين من بطن أمه فى أمد معلوم ، وكما يخرج النبات من الحب والبزور ، هذا فى المؤمنين معلوم . أما فى عذاب الكفار الذى يكون مخلدا ؟ فلعلك تقول : لم يعذبهم وهم عباده ؟ وإذا قلت لنا إن الله لاعذاب عنده وإنما هو إنضاج وطبخ وصهر وترقية ، فأين الترقية فى عذاب الكافرين ؟

أقول لك كفاك ماذكرته الآن ولا أزيد فكفى ! ولكن أشير عليك بقراءة كتاب [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] للامام الغزالى .

واعلم أن أكثر الناس عن العلم محجوبون وبالله جاهلون وعن الطبيعة التى خلقها غافلون .

وإذا كان أهل أمريكا قد جعلوا السجون مواضع للتهذيب ويحيطون المسجون بجميع أنواع الرأفة حتى إذا ظهرت عليه علامات الكمال أخرجوه ، وهكذا ترى الناس قد عرفوا أن الذنوب لم تكن إلا من فعل البيئة والتربية والأحوال المحيطة بالإنسان وأنه لاموجب للتعذيب فلذلك جعلوا المسجون يغتسل ويتنظف ويتعلم صناعة لأنه ثبت عندهم كما قاله بنتام أنه لايقترف الذنوب إلا الذى لاعمل له أو الذى لانظافة فى جسده ، فلذلك ترى السجون فى بلادنا المصرية تفعل بعض هذا نقلا وتقليدا لأهل أوربا إذا كان هذا كله حاصلا فى النوع الإنسانى فما بالك بالله تعالى ؟

أفلا ترى أن يكون فعله تهذيبا لاتعذيبا ؟ وأن يكون قول نبينا صلى الله عليه وسلم « فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة » رمزا لحال يراها الناس بعد هذه الحياة وتكون تلك أشبه بمدرسة يتربى فيها الجاهلون الذين لم تهذبهم الحياة الدنيا ، وتكون سلسلة الحياة كسلسلة المدارس المنظمة درجة بعد أخرى وتكون كباب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؟ فالحياة فى الدنيا ظاهرها عذاب وباطنها رحمة ، وهكذا تلك الحياة التى يحياها العصاة بعد الموت وهم ناقصون « وأن إلى ربك المنتهى » .

هذا . ولما كان ذكر المنافقين وذمهم فى الآيات السابقة تعريضا لاتصريحا أردفه الله بما يفيد أن الجهر بالسوء من القول لاينبغى ولكن من ظلم للبناء بالفاعل يفعل ما لا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء من القول ، وقرئ بالبناء للمجهول بمعنى أن من ظلمه أحد فتظلم منه لمن يدفع عنه الظلم فلا عقاب عليه ولا ذنب ، ثم قال (وكان الله سميعا) لكلام المظلوم (عليما) بالظالم (إن تبدوا خيرا) طاعة وبرا (أو تخفوه) أو تفعلوه سرا (أو تعفوا عن سوء) لكم أن تؤاخذوا عليه (فإن الله كان عفوا قديرا) يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته فلتقتدوا به ولا تجهروا بالسوء من القول وإن كنتم مظلومين وقد رخصت لكم فى الجهر فإن ذلك من مكارم الأخلاق ، ولقد فعلت ذلك مع المنافقين فلم أصرح بأسمائهم فى الآيات السابقة لعفوى عنهم ولاستجلاب قلوبهم إلى المودة الدينية (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله) بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر

بعض (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) طريقا وسطا بين الإيمان والكفر ولا واسطة إذ الحق لايختلف ، فالإيمان بالله لابد معه من الإيمان بالرسل وتصديقهم فيا بلغوا (أولئك هم الكافرون) هم الكاملون فى الكفر (حقا) مصدر مؤكد لغيره (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) ثم ذكر أضدادهم فقال (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) ودخول بين على أحد مع أن بين يقتضى متعددا لأن أحدا وقع فى سياق النفى فصار عاما (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) الموعودة لهم (وكان الله غفورا) لما فرط منهم (رحيما) عليهم فيضعف حسناتهم ، انتهى المقصد الثامن .

المَقْصِدُ التَّاسِعُ

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا

مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

فى هذا المقصد ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تقريع اليهود على الطامات التى ارتكبوها وهى قريب من ١٦ ذنبا من قوله «يسألك أهل الكتاب ـ إلى قوله ـ أجرا عظيما» .

الفصل الثانى : فى بيان أن الرسالة اللاحقة كالسابقة كلها بالوحى وتعداد بعض الأنبياء والوعظ باتباعهم من قوله «إنا أوحينا إليك ـ إلى قوله ـ وكان الله عليما حكيما» .

الفصل الثالث : فى خطاب النصارى وتحريجهـــم على ضلالتهم فى شأن المسيح وأنه ليس ثالث ثلاثة وفى خطاب المسلمين أن يعطوا كل ذى حق حقه فى الميراث من قوله « يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم إلى آخر السورة » .

الفصل الأول

هذا الفصل فيه الذنوب التى ارتكبها اليهود قديما . ولقد تقدم كثير منها فى سورة البقرة ولكن ذكر هنا نحو ١٦ ذنبا لتعنت الأحبار منهم على النبى صلى الله عليه وسلم . ذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص ابن عازوراء من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فائتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أتى موسى بالتوراة ، فقال الله لاتطمعن فى إيمانهم يا محمد فإنهم من فرط جهلهم واجترائهم على الله لو أتيتهم بكتاب من السماء ما آمنوا بك ، وكيف يؤمنون وقد لقى موسى منهم مالقى ؟ والذى لقيـــه أشد مما لقيت منهم .

(١) فهم قالوا له (أرنا الله جهرة) عيانا وتقدم هذا فى سورة البقرة (فأخذتهم الصاعقة) وهى نار من السماء فأهلكتهم .

(٢) (ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات)المعجزات ، والعجل كان من ذهب صنعه لهم السامرى فعبدوه وتركوا عبادة الله (فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) حجة واضحة تدل على صدقه .

(٣) (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) أى رفعنا الجبل المسمى بالطور فوق رءوسهم لما لم يقبلوا التوراة حتى يخافوا فقبلوه ، وهذه الأمور كلها لاينكرها اليهود فهى حجة عليهم .

(٤) (وقلنا لهم) والطور يظلهم (ادخلوا الباب سجدا) أى ادخلوا باب إيلياء مطأطئين عند الدخول رءوسكم فخالفوا ودخلوها وهم يزحفون على أستاههم .

(٥) (وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت) أى وقلنا لهم لاتجاوزوا فى يوم السبت الحدّ إلى مالا يحل لكم فلا تعملوا عملا فيه لاصيد سمك ولا غيره ، فاصطادوا السمك فيه .

(٦) فنقضوا ميثاقهم فعلنا بهم مافعلنا (فبما نقضهم ميثاقهم) ما زائدة للتأكيد **والتقدير فعاقبناهم** بنقضهم ميثاقهم .

(٧) (وكفرهم بآيات الله) فى التوراة والقرآن .

(٨) (وقتلهم الأنبياء بغير حق) .

(٩) (وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف : أى على قلوبنا أغطيةوغشاوات فهى لاتفقه ماتقول .

(١٠) (بل طبع الله عليها بكفرهم) فجعلها محجوبة عن العلم بكثرة الذنوبوالكفر فأصبح ذلك كالطابع يختم على القلب فلا يدخله شئ (فلا يؤمنون إلا قليلا) كعبد الله بن سلام .

(١١) (وبكفرهم) بعيسى ابن مريم معطوف على كفرهم ، فهو من عطف الخاص على العام .

(١٢) (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) إذ رموها بالزنا .

(١٣) (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) ادّعت اليهود أنهم قتلوا عيسى وصدقتهم النصارى على ذلك ، فكذبهم الله قائلا (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) ولقد تقدم إيضاح هذا المقام فى سورة آل عمران بما لا مزيد عليه ، فارجع إليه إن شئت تر أن إنجيل برنابا قد تكفل بهذه المسألة ، ونقلنا النصوص هناك وأن يهوذا هو الذى ألقى عليه شبه المسيح وصلب وقتل . وقد كان هو التلميذ الذى خان نبيه وأستاذه (وإن الذين اختلفوا فيه) فى شأن عيسى (لفى شك منه) فهذه الأناجيل قد اختلفوا فيها

حتى كانت المجامع التى أقيمت قديما ، وهناك حصل حذف وإثبات كما تقدم (مالهم به من علم إلا اتباع الظن) بسبب أن المسيح اختار رسله من الشعب الهادى قوما كانوا صيادى سمك فى بحيرة طبرية ليفهم الناس أن دينه لايحتاج إلى ذكاء خارق للعادة فجاء بولس وهو (فريسى) ويعرف اللغة اليونانية وادعى أنه هو المختص بالمعرفة الحقيقية لدين المسيح وأخذ يخاصم بطرس ، فتألف بعد رفع المسيح صنفان من النصارى صنف يتبع بقية أتباع المسيح ، وصنف يتبع بولس المذكور ، ثم نشبت الحرب بين الدولة الرومانية فى زمن نيرون بقيادة فسباسيانوس الرومانى وبين اليهود .

ولما مات القائد الرومانى تولى القيادة ابنه طيطس وفتحت أورشليم عام ٧٠ ، وضرب الهيكل فتفرق اليهود فى كل واد يهيمون ، وانحلت الرابطة وكان كل أسقف يعلم جماعاته بما يغلب على عقله مع الحكمة المأثورة عن المسيح ، ثم اختلطت التعاليم بالفلسفة اليونانية لاسيما فى مدارس الإسكندرية . وغلبت الفلسفة على تلك التعاليم البسيطة لجهل القائمين بها وقوة الفلاسفة ، فنشأت فى آخر الجيل الأول الأناجيل المنقولة فى الأصل عن الرسل ، وقد أحصى فابريسيوس منها ٣٥ إنجيلا ، فهذا العدد كان بعض مافى الجيل الأول والثانى ، وبقى الأمر على هـــذا المنوال إلى سنة ٣٨٤ لما رأى البابا داماسيوس ما فى الأناجيل المنتشرة من الاختلاف والتناقض فأمر مارايرو نيموس أن يحرر ترجمة لاتينية جديدة ، وذلك لأن الملك تيودوسيوس ضجر من الخاصمات وصدر الأمر بأن يكون الأسقف فى رومة هو الذى له الحق وحده أن يتبعه عموم النصارى ، وهذه الترجمة ثبتها المجمع التريدنتينى سنة ١٥٤٦ ، وخطأها سيستوس الخامس ســنة ١٥٩٠ ، وشحها بنسخة جديدة ، وخطأ هذه كليمنضوس الثامن وطبع نسخة جديدة بترجمة جديدة وهى الباقية إلى الآن عند الكاثوليكيين .

فهذا هو معنى قوله تعالى «وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن» أى لكنهم يتبعون الظن ، فالاستثناء منقطع (وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا (بل رفعه الله إليه) ردّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه (وكان الله عزيزا) لايغلب على مايريده (حكيما) فيما دبر لعيسى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى وما من أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى بل أهل الملل جميعا إلا والله ليؤمنن بعيسى حين ينزل من السماء ويقتل الدجال فيهلكه حتى تكون الملة واحدة وهو الإسلام ، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور الخ .

هذا ماجاء فى كلام علماء التفسير ، وقد أوضح هذا المقام مع بعض التحقيق (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) فيشهد على اليهود بالتكذيب ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله .

(١٤) (فبظلم من الذين هادوا) أى فبسبب ظلم منهم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى ماحرمنا عليهم الطيبات التى كانت حلالا لهم إلا بظلم عظيم ارتكبوه من نقضهم الميثاق ونحوه ، وتلك الطيبات التى حرمت ستأتى فى سورة الأنعام بأن حرم عليهم كل ذى ظفر الخ .

(١٥) (وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا) ناسا كثيرا .

(١٦) (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) قد كان الربا محرما عليهم فأحلوه م وحرمت عليهم الرشوة فأخذوها بالباطل (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) دون من تاب وآمن (لكن الراسخون فى العلم منهم) عبد الله بن سلام (والمؤمنون) منهم كأصحاب عبد الله بن سلام (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، و) أمدح (المقيمين الصلاة و) هم (المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما) وجاء أمثال ذلك فى كلام العرب ، قال الشاعر :

لايبعدن قومى الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأزر

أى أذكر النازلين وهم الطيبون ، فالنازلين كالمقيمين هنا ، والطيبون كالمؤتون الزكاة ، وبعضهم جعل للقيمين معطوفا على قوله « بما أنزل إليك » أى يؤمنون بالكتاب وبالأنبياء الذين يقيمون الصلاة ، وهذا لايحتاج إلى تبيين ، انتهى التفسير اللفظى .

لطيفة لشرح مسألة المسيح ، وكيف ينزل فى آخر الزمان ، وما المقصود من هذا ؟

اعلم أن العالم الإنسانى قد سئم الصراع والنزال والجدال والحروب والمدافع والبارود والسفن والطيارات والقنابل والغواصات الغاصات ، فالعالم الإنسانى فى هرج ومرج مستمرين دائبين ، فكأن الإنسان حكم عليه أن يكون شقيا أبد الآبدين ودهر الداهرين .

فياليت شعرى ما هذه المدارس والديانات المشروحة والعلوم المنمقة والآداب العامة ؟ والعالم الإنسانى أجمعه فى الشرق والغرب يقول نحن فى عصر المدنية والعرفان مع أنهم لايزدادون إلا طغيانا ولم تزدهم المعارف إلا بهتانا . فالناس فى الشرق والغرب مخادعون كاذبون دجالون يخادع كل أخاه ، وهم يخدعون أنفسهم ، كيف لا وضعف أمة واحدة يضعف المجموع ، وقتل ذكاء فرد واحد يدعو لقتل ذكاء المجموع ، فكيف يقتل ذكاء أمة بتمامها ذلك هو الدرس السائد الآن ، فإن علماء أوروبا وحكماءها ومدرسيها سلطوا مجالس نوابها وجيوشها الجرارة على أهل الشرق ، فأخذوهم وقتلوا ذكاءهم وجردوهم من السلاح العلمى ، كما سلبوا منهم السلاح البرى والبحرى ، وهكذا الإنسان قديما وحديثا ، فهو فى الصورة إنسان وفى الحقيقة العملية ثعبان أو شيطان .

ولقد ألفت كتابا فى ذلك سميته : «أين الإنسان؟» وأرسلته إلى مؤتمر الأجناس فى انكلترا قبل الحرب العظمى بنحو ثلاث سنين ، فمنع علماء أوروبا الحقد والحسد أن يترجموا الكتاب بعد ما وعدونى بترجمته ، ولكن جاء العلامة ستلانة الطليانى وقرظه فى مجلته ، وقال إن هذا الكتاب ظاهره خدمة المجموع الإنسانى وباطنه احتجاج على أوروبا لجشعها وابتلاعها الشرق ، وبالاختصار إن هذا الإنسان اليوم حائد عن الصراط السوى ، ولكن يدور على الألسنة وتشتاق النفوس إلى يوم يكون الناس فيه أسرة واحدة ، وإذا كان الناس يشاهدون خلية النحل فيها نظام جميل ولها ملكة ونحل شغال وآخر لأجل النسل ، ثم إن النحل يجتمع على ما لاعمل له منه فيقتله والنظام سائد ، فمنها المربيات للأولاد ، ومنها الجامعات للشمع ، ومنها الجامعات للعسل ، ومنها الحافظات الحارسات فلا يدخل غريب عليها وهكذا مما لايحصره المقام ، فإذا كان هذا فى خلية النحل فأين مزية الإنسان ؟ نعم يقال إن كل أمة من الأمم كخلية النحل وما أكثر الخلايا ونحن نقول أين مزية الإنسان إذا كان طوائف كطوائف النحل ؟ وأين مزيته التى يمتاز بها على الحيوان ؟ ليس فى قدرة نحل البلدة الواحدة أن يكون خلية واحدة ليس فى طاقته ذلك ، ولكن الإنسان الذى سخر له البحر والبر وذلل له السهل والجبل وخاطب شرقيه غربيه وغربيه شرقيه قادر اليوم أن يكون كخلية نحل واحدة لها نظام خاص ، بحيث تكون كل أمة منه أشبه بعضو فى الجسم الإنسانى ، وكل فرد من الأمة أشبه بالأعضاء الداخلة فى تكوين ذلك العضو ، وبعبارة أخرى إننا نجد اليد مركبة من عضد وساعد ، والساعد من عظمين وعظام فى الرسغ ، وعظام فى اليد والأصابع ، فاليد الواحدة فى الجسم تشبهها الأمة من أمم الأرض ، والأعضاء الداخلة فيها كأفراد تلك الأمة .

ولا تظنن أن هذا العلم حديث بل هو قديم اقرأ كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى فإنه جعل

للمدنية

المدنية الفاضلة أن تكون الأمة منتظمة تنظيم الجسم الإنسانى ، ويجعل الأفراد فى الأمة فى المراتب التى تناسبهم ؛ فكما أن المعدة لاتصلح للتفكير والكبد لايصلح لهضم الطعام هكذا لايصلح أصحاب العقول المتوسطة للحكمة العالية ، وأصحاب العقول الكبيرة لايجوز أن يتنزلوا لما هو أقل من مراتبهم ، بل يوضع كل فى مرتبته وزاد على ذلك فقال : وقد يقال معمورة فاضلة : أى إن الأمة من الأمم تكون أشبه بعضو فى جسم الإنسان العام وتجعل فى مركزها الخاص بها . وبناء على هذا يصبح الإنسان كله أسرة واحدة ولهم مجلس عام وهو الذى يخصص لكل طائفة من الأمم أعمالها ، ويقرر على كل أمة مقدار مايلزمها من العمل العام للانسانية على مقدار طبيعة أرضها ونسبة عدد سكانها وقدرتهم ويلزمون بذلك قسرا إن لم يتم التعليم العام بانشراح الصدور لذلك ، وإذا حصل هذا أعطيت كل أمة ماتحتاج إليه من المال العام للأمم بنظام خاص ، فتوزع نتائج الصناعات والمزارع على الأمم ، ومتى قصرت أمة منها تقاتل وتؤدب كما أن الفرد إذا قصر حوكم بالقتل كما كان قدماء المصريين يفعلون ذلك .

هذا هو النظام العام الممكن فى مستقبل الأمم . هذا هو الأمر المحبوب من جميع العقلاء فى العالم وجميع المصلحين عنه يبحثون ، فهل هذا الخيال الذى ذكرته لك الآن ممكن أم ذلك خرافة تقال وتميق فى المقال فلننظر فى الآيات التى نحن بصددها الآن .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم المسيح ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله أحد » زاد فى رواية «وحتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه اقرءوا ما شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته الآية » وفى رواية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لينزلن فيكم ابن مريم حكما عادلا ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » أخرجاه فى الصحيحين .

فياليت شعرى كيف يترك القلوص من الإبل وعلى أى دابة يركب ؟ ولعله يركب القطار والطيارات وكيف يقول خذوا المال فلا يأخذه أحد ؟ وما هذه الثروة العظيمة فى الأرض ، بل ما هذا الصلاح العظيم ، وكيف يكون الناس أمة واحدة ؟ وما هذا التضامن وما هذه العفة ، يقول : خذوا المال فيقولون : لانأخذ كأن المال حجارة أو حديد أو أشغال شاقة .

اعلم أن هذه الحال حال أخرى من أحوال الإنسانية لاتأتى فجأة ، فلا بد لها من مقدمات وليس فى عمل هذه الطبيعة المسخرة بأمر الله من طفرة : الطفرة محالة فلا بد من مقدمات تتقدم هذه الأحوال المستقبلة .

واعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا بهذا إلا لنستعد لذلك اليوم الذى يرتقى فيه الإنسان ويكون جميع الناس إخوانا كأنهم خلية نحل واحدة .

وانظر الآن ألست ترى أن الإنسانية تغالت فى الآلات المهلكة والفاتكة والغازات الخانقة ، والدول الآن تزيد فى المهلكات ، والدولة الألمانية المغلوبة اليوم على أمرها تدبر فى السر من المهلكات مالم يحلم به البشر ، بل يقال إنهم يقدرون أن يعملوا فى الجو ما يهلك من فى الأرض جميعا ويهلكون مع الناس ، أنا لا أقول لك هذا سيحصل وإنما أقول هو ممكن ، وما فى الإمكان فى هذه الأيام سريع الوجود ، سريع الظهور ، سريع العمل ، كثير الأثر ، وهذا زمن العجائب الذى أخبرت به الأنبياء .

فالمستقبل أحد أمرين : إما أن الأمم يهلك بعضها بعضا وهذا على ما أظن لايكون ، وإما أن تغلب أمة قوية على البقية وتجبرها على اتباع النظام العام الذى ذكرته لك ، ويصبح هذا النظام خلقا للناس ينقادون إليه وتكون هناك ألفة جامعة . أنا لا أقول ذلك سيكون ولـكن أقول إنه محتمل ، فإذا حصل هذا ودام أجيالا ألف الناس العمل وتبذوا الـكسل ، وظهرت المحبة والمودة وجاء يوم الإنسانية الجديدة ، وظهر الإنسان بأوفى معانيه وحينئذ ما فائدة المال ، ولم يخزن الإنسان المال ما فائدة النقود ولا نقود . النقود للتعليل بها ولا تعامل إذن بل هى المبادلات وإذن تبطل البنوك (المصارف) فلا ربا ويبطل الخمر ، وأبشرك اليوم بأن الخمر أبطلته أمريكا والترك ، والربا أبطله أهل الروسيا وهم البلشفية ، وبعض ما ذكرته لك يفعله الروسيون ، فالنقود عندهم أوراق وقتية تبطل فى أمد معلوم ، والخبز والملبس يأخذهما الناس فى مقابلة العمل . ولست أقول إن هذا هو الذى سيكون ، ولـكن أقول ربما أن يكون هناك عمل يشبه هذا فى المستقبل ويترقى لأنى اليوم أجهل ما فى تلك البلاد .

فإذا ارتقى النظام على هذا المنوال على توالى الزمان ، فلا يمضى زمان قليل حتى يكون الاتحاد العام ، وحينئذ يفسر الحديث الشريف الذى روى فى البخارى ومسلم وعلى المسلمين إذا ذاك أن يتأهبوا لذلك اليوم فلا يأخذون جزية ، لأن الجزية تكون حيث لم يكن هناك اتحاد عام ، فإذا حصل فعليهم أن يكونوا مع الأمم يدا واحدة .

يقول بعض المفسرين إن أخذ الجزية مقيد بزمن نزول المسيح عليه السلام فلا جزية إذ ذاك ، وسيأتى فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى « فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » إن ذلك حين نزول عيسى : أى أن وضع الحرب أوزارها أيام عيسى عليه السلام .

كيف ينزل المسيح

وهنا نقول : هل ينزل المسيح بنفسه ؟ أم ذلك رمز لنزع الغل والحقد من القلوب واتحاد الأمم وتعاونها وتصالحها

اعلم أن أتباع كل دين فى الأرض لا يصدقون بغير دينهم ولو أن المسيح اليوم جاء للنصارى لقالوا له كذبت وكذلك نحن معاشر المسلمين لو جاءنا أى إنسان وقال أنا عيسى أو موسى أو محمد لقلنا أنت مدع .

ألا ترى أن اليهود وعدوا بمجىء المسيح فلما جاء كذبوه والنصارى لما أرسل سيدنا محمد كذبوه إلا قليلا منهم . فهكذا نحن معاشر المسلمين إذا جاء لنا أى إنسان مهما كان شأنه فإن الجمهور لايصدقه وإنما يفعلون معه مافعلته الأمم مع الأنبياء فيتبعه قوم ويرفضه آخرون . هذا هو الأمر الذى يمكن وقوعه فإذا نزل المسيح فلا ينال من النصارى واليهود والمسلمين إلا ماذكرته لك فيتبعه قوم ويخذله آخرون ويقولون أنت لست الموعود به .

فأين الهناء وزوال التحاسد والتباغض وثبوت المحبة فى الأرض اللهم إلا أنه يحصل فى عقول النوع الإنسانى حال غريبة فجائية ، ثم مافائدة هذا الزمان القليل أى زمان وجود المسيح فى الأرض وللأمم أعمار طويلة فإذا تهنأت الأمم كلها عدة أعوام وذهب المسيح من بينهم فهذا أمر لاتكون فائدته تامة .

ومالى أذهب معك بعيدا ، انظر إلى الأمم الآن ألست ترى فى الهند من قام وقال إنى أنا المسيح ومات فى زماننا وجاء بتعاليم إسلامية ونهى عن الحرب والحكومة الإنجليزية ساعدته وله أتباع هناك فى الهند ؟ أولا ترى إلى طائفة البهائية ببلاد الفرس فإنهم قاموا بتعاليم عامة من القرآن ونشروها فى أمريكا وأوربا واتبعهم أناس كثيرون وأخبرتنى سيدة إنجليزية من أتباعه أنه هو المسيح ومع ذلك لايزال التحاسد فى الأمم كما هو والحرب والضرب والتخريب وهم يقولون إن هذه الشريعة تعلو على الأديان كلها وأكثر التابعين لهذا الدين من أمم

الفرنجة وقليل من المسلمين اتبعوه وهم يجعلون شرعهم هذا هو شرع المسيح الموعود به وقد اتبعهم ملايين كثيرة وربما جاء كثير يقولون بهذه الدعوة فأيهم يتبعه الناس ولعل مقدمات عيسى المذكورة في الحديث هي الحال التي سيصير إليها البشر من الاتحاد والإخاء والأعمال النافعة العامة الموافقة لروح الإسلام ثم يأتي هو ويظهر أن الزمان المستقبل يكون مداره على الحقائق لا على الظواهر فيكون الدجال رمزا لما عليه الأمم الآن من الدجل والكذب والنفاق والجهالة والعمى ، والمسيح إشارة لما تستأهل له الأمم في المستقبل من ظهور الحقائق وتقارب الأمم واتحاد الأعمال والنظام العام وربما كان ذكر أنه لا تركب الإبل في الحديث الشريف الإشارة إلى أن زمان ذلك الحب قد قرب فإن الناس أخذت تركب القطار والطيارات فإذا عم هذا يكون قد اقترب زمان التعاون بين الأمم لأن سرعة النقل بين الشرق والغرب تقرب وجهة النظر ، فأما تباعد المسافات فإنه يورث الاختلاف في الغايات . ولا تظن أني أقول بمنع وجوده في الأرض ولكني أقول إن المهم في الأمر ليس شخصية المسيح ولا وجود ذاته وإنما المهم السلام العام والصدق والإخلاص ، هذا هو الذي تشد إليه الرحال ويعتني بشرحه أكابر الرجال ، فليس القصد من المسيح ذاته سواء أحضر بنفسه أم كانت المحبة الأخوية بين الجامعة الإنسانية ، فالمقصد سعادة الأمم لا حضور الأشخاص فلينزل المسيح فهو أمر ممكن ولكن المدار على الإخاء العام ، فأما الديانات فإن الكتب تنتشر في أنحاء المعمورة كما هو حاصل اليوم .

ألا ترى أن دولة إنكلترا قد أخذت تعتنق الإسلام وابتدأ بذلك عظماؤها الأغنياء ، وذلك للدراسة فنشر الدين اليوم يسير بطريقة غير طريقة السيف بل بالإقناع فالمدار على الحقائق ، فإذا وجدنا أن ديننا ينتشر بطريقة الإقناع وسيتم ذلك في زمان السلام العام بنزول المسيح فلنفعل ذلك كما يفعل الفرنجة في دينهم فلا تحارب ولا تقاتل لأن المقصود هو الإذعان والإيمان يحصل بلا حرب ولا ضرب ونحن ليس عندنا مبشرون فما بالك لو كان هناك مبشرون دينيون مسلمون . وسترى كلام المفسرين في سورة محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم يقولون بمنع الحرب أيام نزول المسيح .

واعلم أن الأرض كانت منذ مئات (الملايين) من السنين عبارة عن كرة نارية وبتوالي الأزمان برد سطحها شيئا فشيئا وبهذا التبريد المستمر تكونت طبقات بعضها فوق بعض وعدّوا أزمنتها ستة أعصر تسمى (الأعصر الجيولوجية) وهي العصر الأصلي والانتقالي والثانوي والثالث والطوفاني واللاحق للطوفاني وهو الحالي ، ونرى أن الأرض ترتفع حرارتها درجة واحدة في كل ثلاثين مترا من العمق ، ففي عمق ثلثمائة متر عشر درجات وفي عمق ثلاثة آلاف متر مئة درجة وهي درجة الماء المغلي وفي عمق ثلاثين كيلو مترا ألف درجة وفي عمق مائة كيلو متر أكثر من ثلاثة آلاف وثلثمائة درجة وهي حرارة تذوب فيها الجوامد كلها وقطر الكرة الأرضية نحو ثلاثة عشر ألف كيلو متر فتكون الأرض بعد ذلك كلها مواد سائلة .

فانظر كيف كان سكان الأرض قبل هذا العصر وكيف كانت الحيوانات والنباتات وكيف كان الانقلاب ؟ إن الانقلاب كان عظيما وقد جاء العصر الطوفاني وهو الخامس وزلزل الأرض زلزالا شديدا واستدارت الأرض في غمضة عين وحدث انفجار هائل فانقلبت كلها حتى إن القطبين اللذين كانا تحت الاستواء حرارة انقلبا فجأة وأصبحا في برد قارس وثلج متراكم كأنه الجبال الشاهقات على ظاهرها والدليل على ذلك ما وجدوه في باطن الأرض من الفيلة العظيمة التي لا تكون إلا في الأقطار الحارة فكأن الزلزلة والطوفان لما جاءا لم يجد ذلك الحيوان ملجأ للفرار فانطمر وهلك .

كل هذا يريك أن الأرض كلما كان سطحها أكثر حرارة كان الساكنون عليها أقرب للفاجآت كما هو معقول ، وكلما كان سطحها أقرب للاعتدال كان الحيوان عليها أقرب إلى البقاء والسكون والهدوء .

ألا ترى أن العصر الطوفانى المنقضى أعقبه العصر الحالى ولم يحصل فيه إلا بعض الزلازل المعروفة ، وإلا الطوفان الأسيوى المذكور فى القرآن والتوراة وكتاب الفيدا وهو الكتاب المقدس الهندى وما ذلك إلا ما حصل من انقلاب البحر العظيم الذى كان يمتد قديما من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالى ، فترى من آثاره بحر الخزر والأزوف والبحيرات المالحة المنتشرة فى سهول التتر ومفاوز روسيا ، فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالى والقسم الآخر انقلب فى الأوقيانوس الهندى فغرق بلاد ما بين النهرين وكل البقاع التى يسكنها أسلاف الشعب العبرانى .

هذا هو تاريخ الأرض الذى مضى ، والأرض لها عمر محدود ودورات محدودة ، وهى بدورانها حول الأرض جارية على مدى الزمان تزيد كمالا كالإنسان يكون فى أول حياته بنشوة الصبوة والفتوة ، ثم يصير كهلا ثم شيخا وقورا ، هكذا أرضنا الآن استقرت .

أما سكانها ونوع الإنسان على الخصوص فإنهم يفعلون اليوم ما حصل للأرض وقد اضطربوا فى أخلاقهم والحروب قائمة بينهم ، لأنهم من الأرض خلقوا والأرض نار خارجة من نار ، وسطحها مكوّن فوق نار ، ولا تزال البراكين تخرج كل يوم من باطنها نارا ، فترى جميع أفعال أهلها نارية من فرح وحزن وغم وحرية وعشق وغرام وحقد ورحمة وغيظ وطمع .

كل ذلك حرارة فى النفوس كالحرارة التى فى النبات والأجسام ، فهذه فى القلوب معنوية ، وهذه فى الأجسام حسية ، وهذا الإنسان أخذ الآن يرتقى ويتقارب ، فاستخرج الفحم الذى تكوّن من ملايين السنين وها هو ذا ينتفع به ، ولابد بعد اجتياز هذا الدور الذى نحن فيه من بلوغ دور الكمال كما كملت الأرض التى نحن عليها شيئا فشيئا ، فالأرض تزيد فى النبات والإنسان لابد يوما ما يصير أكمل منه الآن ، وتغلب الحكمة على الشيطنة التى غلبت عليه الآن وبوادر ذلك ظاهرة اليوم ، فإنهم يقولون جمعية الأمم وتنقيص السلاح وما أشبه ذلك ، وذلك هو اليوم الذى قيل فيه : إن المسيح يرسل لأهل الأرض ونزول الحقد والحسد من أهل الأرض ويعيش الناس بسلام ويصبح الناس إخوانا ولا يأخذ المسلمون الجزية بل يعيشون بسلام مع الأمم، وهذا هو مقصد الحديث النبوى ليستعد المسلمون لذلك اليوم، ولاندرى أقريب هو أم بعيد ؟ اهـ .

وكل هذا ذكرته للتقريب ، وليس على ذلك برهان عقلى .

لطيفة فى تعاليم الأرواح وكيف كانت أخلاق المسيح وأعماله موافقة لذلك الحديث النبوى المتقدم

قد قلت لك قبل هذا الفصل إن العقل ليس له منفذ لاستطلاع المستقبل ، وليس يمكنه أن يعرف هل الناس فى مستقبل الزمان يكونون سعداء ، وليس لدينا من الدين مايدل على نزول المسيح إلا الأحاديث المذكورة ، والقرآن ليس فيه نص على ذلك ، وعلى هذا قال بعض علمائنا إن هذه المسألة ليست من العقائد اليقينية لأن العلماء يجعلون الأحاديث الصحيحة كالتى فى البخارى ومسلم ظنية لايقينية ، كما فى فتح البارى على البخارى ، والعقائد عندنا هى اليقين لا الظن ، وغاية الأمر أن صحاح الأحاديث يعمل بها فى الأحكام الشرعية ومخالفها فاسق لا كافر .

هذا ما كان من أمر شريعتنا الإسلامية الغراء .

فلننظر إلى ما وصل إلى علماء الجميات النفسية فى أوربا ، وهل عندهم من هذا القبيل شئ ؟

نقول : قد اطلعت بعد ما كتبت ماتقدم على أن بعض الجميات فى أوربا استحضرت روح غاليلى الفيلسوف فأجابها قائلا ما مختصره :

لابد للأرض أن تزول يوما ما وتمحى من سفر الحياة ، ويمكن تقسيم حياة العوالم إلى أدوار ثلاثة :
دور الطفولة ، إذ يتم تجمع مادة الكواكب الحديثة كالأرض فى أول وجودها .
الثانى دور الكهولة : وفيه يتم تجمد القشرة وتكامل الحياة حتى يظهر المثال الأكمل .
الثالث دور الانحطاط : وفيه يفقد الكوكب مادته بسببين : الأول الاحتكاك ، والثانى تحلل أجزائه كما ينحل الحجر إلى حصى ورمال .

وفى هذا الدور يزيد سكانه ارتقاء فى الكمال العقلى والروحى ؛ وكلما نقصت مادة الكوكب أثر ذلك فى دورانه فيحصل هناك تغير فى الدورات ويصبح النظام بالتدريج غير النظام المعتاد فى الأيام والأشهر الخ .
هذا ملخص ماقيل فى ذلك عن الأرواح .

إذا علمت هذا فإنك تجده يطابق الحديث بعض المطابقة ، فإن المروى فيما تقدم أن الناس يكونون غير متحاسدين ولا متباغضين ويكونون أسرة واحدة ، وهذا هو المناسب للدور الثالث المذكور إذ ترتقى الأرواح فتكون أرضنا شيخة كبيرة ونحن عقلاء كاملون ، وكأن هناك تناسبا بين أخلاقنا وحياة أرضنا ، وأن حياتنا مرتبطة بأخلاق أرضنا وعمرها وكيتها ودورتها ، ولذلك تجد فى بعض الأحاديث أن أيام آخر الزمان تكون غير أيامنا هذه مغايرة لها بعض المغايرة .

وإذا ارتقت الأرواح كانت الحياة قائمة بالمحبة ، وعليه نذكر كيفية حياة المسيح فنقول :

اعلم أن قوما يسمون (الأسونيين) كانوا عائشين فى فلسطين حتى وادى النيل حافظين تقاليد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخلاقهم ، وكانت مهنتهم فى الظاهر الطب وفى الباطن نشر المحبة والإخلاص بين الناس . وروى عنهم المؤرخ يوسفوس وفيلون وبلينوس أنهم كانوا أفضل قوم على وجه الأرض ، وتعليمهم أشبه بتعليم فيثاغورس فيقولون بخلود النفس وأنها كانت فى الأقطار الشفافة العلوية المضيئة وقد ربطت فى الجسد لترتقى ، ومتى انطلقت منه ترجع إلى عالمها وكانت أرزاقهم شائعة بينهم يأكلون على مائدة واحدة وطعامهم زهيد ولا يذوقون اللحم إلا نادرا ولم يستخدموا الأسرى لاعتقادهم أن هذا حرام ويخالف الطبيعة العامة لأن الناس جميعا أحرار ولباسهم كان عبارة عن حلة بيضاء يرمزون بها إلى نقاوة النفس وصفائها وفوقها عباءة بيضاء ، ويقسمون أوقاتهم مابين الصلاة والعمل والتأمل والدرس .

أما الأساتذة فكانوا متفرغين للفلسفة والطب يبحثون فى خواص النبات والمعادن ويستعملون الطريقة المغنطيسية فى شفاء الأمراض .

وقد تحقق اليوم عند العلماء الباحثين أن المسيح كان مختلطا بهؤلاء القوم سنين طويلة وإن لم تذكر ذلك الأناجيل ، وثبت ذلك عند هؤلاء المؤرخين أن تعليمه مشابه لهذه التعاليم ، فكان يأمر بحب القريب والمساواة بين الناس ولا يقر إلا بإله واحد يسمى (الأب) ولا يقدم له ذبيحة فى هيكل ، وهيكله هو هذا الكون ، فلا حاجة للعبادة فى مكان محدود ومكان عبادته الحقيقى المقدس هو القلب وكان يحقر الكذب والانتقام والحرب ، وكان يحب الوداعة ودماثة الأخلاق والتواضع والسهولة واحتقار المال والتجرد من حطام الدنيا . وكان شعار المسيحيين (السلام عليكم) والنصارى الأولون اختلطوا مع الأسونيين فكانوا شعبا واحدا ، اهـ .

هذا هو الدين المسيحى الذى كان عليه المسيحيون الحقيقيون ، وإذا كان كذلك وقد قررت الأحاديث نزول المسيح فهل هكذا سيكون الناس جميعا إخوانا فى سائر الأرض ؟ ويكون المسلمون هم أصحاب هذا الرأى ؟ إذا تم هذا فهو نفس الإسلام ، يقول الله تعالى « ليظهره على الدين كله » ويقول « وما أرسلناك

إلا رحمة للعالمين » هذه هى الرحمة المحمدية التى رمز لها فى الحديث أنها عيسوية ، فدين عيسى داخل فى الدين الإسلامى ، فالإسلام ظاهره تشريع وباطنه حب وسلام .

وياليت شعرى ما المقصود من الحدود ، والأحكام ليس لها والله معنى ولا مغزى إلا السلام فى الأرض ، ومتى حصل السلام بالتعاليم فقدت الشرائع والأحكام سلطانها لأنه لاسلطان لها إلا على الخاطئين ، فإذا زال الخطأ واصطلح الناس وتقدمت العقول فأى داع لقطع اليد والصلب وشهادة الشهود ، بل كل ذلك يقل ويحل محله الحكمة والعمل .

أيها المسلمون اعلموا أن نبينا صلى الله عليه وسلم ينبهنا أنكم مستعدون للرقى والسعادة ، مستعدون للكمال النفسى ، وإذا كنا نرى سويسرا النصرانية أصبحت ولا يسمع فيها بخائنين ولا سارقين ولا قاتلين ولا ظالمين إلا قليلا ، فما بالنا عن الكمال نائمين ؟

ولقد سأل المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى المصرى فتاة ترعى بقرا كثيرا فى المراعى الواسعة فى سهول سويسرا قائلا : كيف تامنين ؟ ألا تخافين من اللصوص ؟ فما فهمت مايقول ، بل قالت : وهل أحد يأخذ مال غيره ؟ وترى الرجل لايأخذ تذكرة للقطار إذا سافر فيه اتكالا على أمانته ، وهو الذى يضع النقود فى الصندوق بذمته وأمانته .

ولقد سأل المرحوم محمد بك فريد أيضا عن قاض من القضاة متى يحضر المحكمة ؟ فقالوا له : ليس يحضرها إلا فى أول كل شهر ، فتوجه إليه فوجده يخيط النعال ليقتات بصناعته ، فقال له : أليس لك مرتب ؟ فقال : المرتب على قدر العمل ، ولا عمل لى إلا ثلاثة أيام فى أول الشهر لقلة القضايا ، اهـ .

أفليس الإسلام أحق بهذه الفضيلة ؟ ألا فليحول الناس وجهتهم إلى الفضيلة وهى مقصد الإسلام .

يا معاشر المسلمين ؟ هل قصرت أنظاركم أن تكونوا كهؤلاء ؟ يا معاشر المسلمين ، ويا علماء الأمة اقتصاركم على الأحكام الشرعية جهالة عمياء ، وبلادة حمقاء ، افتحوا عيون الشعوب للجمال الإلهى والأخلاق والفضائل ، فتح لكم الباب نبينا صلى الله عليه وسلم فأراكم أنه سيأتى زمان تكونون فيه كالمسيحيين الأولين الذين كانوا على الحق فيرشدكم بطريق الإشارة إلى أن تكونوا أمة أرقى من هذه الأمة . إن نبينا جاء للهدى فلتكن هداة ، وها هو ذا يقول لنا إن ذلك الزمان لايؤخذ فيه الجزية وإن الحسد ينزع فجدّوا فى العلوم ، بهذا جاء الدين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » اهـ الفصل الأول .

الفصل الثانى

اعلم أن هـــذا الفصل متصل بالفصل الذى قبله لأن ذلك كان فى ذكر ذنوب اليهود وهى ١٦ ذنبا دالة على أنهم كانوا مجرمين من قبل ، فإذا اقترحوا أن تنزل عليهم يا محمد « كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك » الخ .

ثم أخذ يجيب بنوع آخر من العلم ، فإذا قال أولا إن اليهود إذا اقترحوا عليك أن تنزل عليهم كتابا من السماء فهم قوم غلاظ القلوب وحق لهم كذا وكذا فإنه يقول فى هذا الفصل : وهل كنت بدعا من الرسل ؟ وأى نبى نزل عليه الكتاب جملة واحدة من السماء ؟ وإن اليهود يعترفون بالأنبياء السابقين ولم ينزل على واحد منهم كتاب مرة واحدة ، فكيف يريدون مخالفة سنة الله فى إنزال الكتب السماوية ؟ فمن أشهر الأنبياء نوح وإبراهيم وإسماعيل الخ وهم اثنا عشر نبيا ، هذا هو قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى قوله (وآتينا داود زبورا) أى كتابا مزبورا أى مكتوبا ، ويصح أن يكون الزبور بالفتح اسم الكتاب الذى أنزل على داود وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام بل تسبيح

وتقديس وتمجيد وثناء على الله ومواعظ (ورسلا قد قصصناهم عليك) أى قصصنا رسلا الخ من باب الاشتغال (من قبل) من قبل هذه السورة (ورسلا لم نقصصهم عليك) أى لم نسمهم لك ولم نعرّفك أخبارهم (وكلم الله موسى تكليما) وتكليم الله أقصى مراتب الوحى ، ثم قال أمدح (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا) لايغلب على أمره (حكيما) فى تخصيص كل نبى بنوع من الإلهام وإذا كانوا تعنتوا عليك ولا يشهدون بنبوتك فعليهم وزرهم (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) من القرآن الدالّ على النبوة (أنزله بعلمه) أى متلبسا به الخاص به وهو العلم بتأليفه على نظم معجز مشتمل على مايحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم (والملائكة يشهدون) بنبوتك (وكفى بالله شهيدا) أى كفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) ذلك لأنهم جمعوا بين ضلالهم وإضلال غيرهم (إن الذين كفروا وظلموا) محمدا بإنكار نبوته وصد الناس عن الإسلام (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا ، إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) لايعسر عليه ولا يستعظمه .

ولما قرر أمر النبوة وردّ دعوة المعترضين دعا الناس دعوة عامة ، فقال (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا) إيمانا (خيرا لكم وإن تكفروا) فهو غنىّ عنكم (فإن لله مافى السموات وما فى الأرض) لايتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم (وكان الله عليما حكيما) فيما دبر لكم ، انتهى الفصل الثانى .

الفصل الثالث

يقول الله (يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم) يخاطب النصارى (ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم) أوصلها إليها وحصلها فيها (وروح منه) وذو روح صدر منه فلذلك يحيى الأموات والقلوب (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) أى الآلهة ثلاثة أو الله ثلاثة أو الله ثلاثة أقانيم الأب والابن والروح القدس ؛ فالأب الذات ، والابن العلم ، وروح القدس الحياة (انتهوا) عن التثليث انتهاء (خيرا لكم إنما الله إله واحد) بالذات لاتعدّد فيه بوجه ما (سبحانه أن يكون له ولد) أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد ، فإن الولد يكون لمن يفنى فيكون بقاء ذكره بعده إلى أمد معلوم وينفع والديه فى كبرهما ، والله ليس كذلك فهو باق (له مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا) والحاجة إلى الولد ليكون وكيلا عن أبيه قائما بنظام بيته ، والله هو الوكيل ، فأين الحاجة للولد إذن ؟ هذا من جهة الله ، أما المسيح فلن يأنف أن يكون عبدا لله بل الملائكة المقربون لايأنفون من ذلك ، ولذلك قال (لن يستنكف المسيح) لن يأنف من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك ، من (أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) أن يكونوا عبيدا لله (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) ومن يترفع عنها (فسيحشرهم إليه جميعا) فيجازيهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) تفسيره ظاهر ؛ ثم خاطب الناس قائلا (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) البرهان المعجزات ، والنور القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه) فى ثواب (ويهديهم إليه صراطا مستقيما) هو الإسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الآخرة .

يروى أن جابر بن عبد الله كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى كلالة فكيف أصنع فى مالى ؟ فنزلت هذه الآية وهى آخر مانزل من آيات الأحكام (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) تقدم تفسيرها فى أول السورة (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك) الأخت هنا من الأبوين

أو أب لأن أخاها عصبة وابن الأم لايكون عصبة، وقوله «ليس له ولد» يعنى ولا والد ، فالأخت المذكورة لها نصف المال إن انفردت والباقى لبيت المال على مذهب زيد والشافعى، فأما أبوحنيفة وأهل العراق فإنهم يردون الباقى إليها. أما إذا كان للميت بنت فإنها تأخذ النصف بالفرض وتأخذ الأخت النصف الثانى بالتعصيب لا بالفرض، لأن الأخوات مع البنات عصبة (وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أى والرجل يرث أخته إن كان الأمر بالعكس. فإذا ماتت الأخت وتركت أخا من الأب والأم أو من الأب فإنه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد ولم يكن للأخت ولد ، فأما الأخ للأم فإنه صاحب فرض لايستغرق جميع المال (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) لمن مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك ؛ فالمراد بالاثنتين هما وما فوقهما (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) أى وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب الذكر على المؤنث أى وإن كان المتروكون من جهة الإخوة رجالا ونساء فللذكر منهم نصيب اثنتين من أخواته الإناث (يبين الله لكم) الأحكام والفرائض ، كراهية (أن تضلوا والله بكل شىء عليم) فهو عالم بمصالح العباد فى المحيا والممات .

لطيفتان

اللطيفة الأولى فى شرائع الأنبياء : اللطيفة الثانية فى المسيح

[اللطيفة الأولى] ارجع إلى شرائع الأنبياء فى سورة آل عمران وكيف ترى أن الدين واحد بما نقلناه هناك فى مسألة المسيح فقد ذكرنا نبذا من ديانات كثيرة .

[اللطيفة الثانية] قد كتبت فى مجلة الملاجىء العباسية تفسير آيات المسيح المتقدمة باتساع أشمل وموعظة أكمل فلا نقلها هنا الآن برمتها فأقول « قل يا أهل الكتاب - إلى قوله - فسيحشرهم إليه جميعا » .

الإنسان أرقى من الحيوان تمتع بالحرية وهو مع ذلك ضعيف الإرادة خامد العزيمة تتجاذبه الأهواء وتقذف به فى هوّات الجهالة وترديه فى أسفل سافلين .

يطغيه المال حتى يستعبده وبه يتعالى على أخيه ، وإذا تولى أمر الناس سعى فى الأرض ليفسد فيها بالظلم والعدوان ، وإذا اتبع دينا أو عظم كبيرا تغالى فى وصفه وغفل عن تعليمه وأدبه ، وإذا أعرض عنه أساء وصفه ووسمه بأشنع السمات .

عجب أمر هذا الإنسان ! إن كان غنيا طغى أو قائما بأمر الناس بغى أو متدينا بدين غلا وزل وحاد عن القصد فى العقيدة . ومن عجب أن أولئك المتغالين يسحرون الناس ويسخرونهم فيستذلون للظالمين ويخضعونهم ويتبعون أهواء أهل الغلوّ من رجال الدين .

ألم تر إلى لويس الرابع عشر كيف كانت تقام حفلتان لاستيقاظه كل صباح ؟ وكيف كان يتولى خدمته جموع لو صرف ذكاؤهم العجيب فى الأعمال النافعة لكان خيرا للانسان ، وكيف كان لبعض ملوك الإسلام عند الصلاة عساكر يصطفون وجيوش بالسلاح مدججون ؟

الإنسان حرّ لكنه كالفراش يتساقط فى النار ، الغنى بحبسه ماله ، والملك يذله ملكه ، وذو العلم أو الدين كثيرا مايتبع أهواءه بلا هدى ولا كتاب منير .

من ذلك ما قصه الله فى هاتين الآيتين من تعالى اليهود فى التشهير بالسيد المسيح عليه السلام وبعض النصارى قديما من اتخاذه إلها .

فقال (يا أهل الكتاب) اليهود والنصارى (لا تغلوا فى دينكم) لاتجاوزوا الحد فيه إذ يقول اليهود إنه عليه السلام ولد لغير رشدة وبعض النصارى أنه الإله (ولا تقولوا على الله إلا الحق) وكيف ينزله بعضكم

إلى

إلى أسفل الدرجات وآخرون يرفعونه إلى مافوق السموات ونهاية الغايات ؟ فهلا انتهجتم سبيلا وسطا لاشطط فيه ولاخطل ؟ فلا تنزلونه إلى أسوأ المراتب ولا ترفعونه إلى رتبة لاتليق للخالق «إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم» أوصلها إليها وحصلها فيها بلا توسط مادة على خلاف العادة المألوفة والسنة المعروفة ، وهــــذا مفاد قوله «وروح منه» وقوله (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد) ظاهر معروف «سبحانه» تنزيها له أن يكون له ولد ولا يولد إلا لمن يعتريه العناء ويحل به الفناء ليقوم الولد بأعبائه ويخلفه بعد فنائه ، وكيف يصطفى الله ولدا مما خلق ؟ و «له مافى السموات وما فى الأرض» ملكا وخلقا وعبيدا ، وهل احتياج الناس للولد إلا ليخلفهم ويكون وكيلا لهم ، والله عز وجل قائم بنظام العوالم حافظ لكل شئ «وكفى بالله وكيلا» فكفى الله من جهة قيامه بالأشياء وحفظه لها ، فالولد له ضرب من المحال .

ليس التغالى فى الدين قاصرا على أمة دون أمة ، ولا طائفة دون طائفة جهل الإنسان وطغى قديما وحديثا .

اقرأ تاريخ الأمم أمة أمة وابحث أخلاقها وأسرارها وتاريخ دينها تر التعصب فى الأمم والجمود فى القرائح ساريا فى أكثر البشر «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم - إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» الحق والصبر سعادة الإنسان وما عداهما فإنما هو الضلال والطيش أو الباطل والرعونة . ينزل الله الدين على لسان رسله فيستمسكون بقشوره وينبذون العمل به وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون ، ولقد أخذ المسلمون حظهم من الخلاف وافترقوا نيفا وسبعين فرقة خلقتها وساوس الشيطان ونصبتها أيدى الشهوات واغتر كل قوم بعصبيتهم واعتزوا بجيوشهم «وفرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» .

ماكادت شمس الذات المحمدية تغرب من سماء هذا العالم حتى اتبع كل فريق أحد كبار هذه الأمة فتمزقوا خرائق وتفرقوا طرائق ، وكان منهم من عبد سيدنا عليا كرم الله وجهه فى حياته فقاتلهم عليه السلام وهزمهم ، ومنهم من اعتقد العصمة فى رجل وقال بالإمام المعصوم حتى إن الحاكم بأمر الله لايزال يعظم إلى اليوم ، ولقد كثر المفترون فى هذه الأمة ، فالعالم يغتر بعلمه ، والعابد بعبادته ، وكثير من الناس يغترون بطاعة فعلوها ثم يتبعونها بالحزبيات والذنوب ، وقد يغتر الشريف بنسبه والتلميذ الذى اتخذ له شيخا بشيخه .

فأنزل الله هذه الآية ليعرّف الناس منازلهم ويقفوا عند حدهم ، ومن العجب أن المبتدعين من المسلمين انتهجوا سبل الضلالة ونصبوا أشراك الغواية واستحبوا العمى على الهدى وعظموا أناسا ليأكلوا باسمهم ويظلموا الناس بالانتساب إليهم ، ألا وإن أثر تلك السيئة ظاهر فى الأمة الآن .

وكم مريد قنع بما تلقفه من شيخه وهو عن الدين والقرآن غافل ، وإنى وإن كنت أقر لكثير بالأدب والعلم والإصلاح فلا أزال آسى على هذه الأمة لما تسلط على أفئدتها كثير ممن لاخلاق لهم فيوحون إلى الناس مايوحون من الزور والبهتان حتى لم يبق فى الأرض ملك فى بحبوحة العيش ونعيم الحياة إلا بعض أولئك الرؤساء الذين تسللوا لواذا من الجامعة القومية والتف حولهم أشياعهم وأغدقوا عليهم النعم وحبس أولئك السادة عنهم العلم والحكمة وعجائب القرآن وزهدوهم فى العلوم وأناموهم على مهاد الراحة فأحيط بهم من كل جانب وهم لايشعرون .

وإذا قلت يا أيها المريد : لم غفلت وعصيت وجهلت ؟ يقول إن صلة شيخى بالله تشفع لى وإنى بتعظيمى

له والتجأنى إليه تغفر ذنوبى فإذا أجبناه أنه لايملك لك من الله شيئا « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » امتعض وقال لقد حططت من قيمته وأنزلت من قدره ، وذلك كما جاء وفد نجران للنبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : لم تعيب صاحبنا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صاحبكم ؟ قالوا عيسى عليه السلام : قال وأى شىء أقول ؟ قالوا تقول إنه عبد الله ورسوله ، قال إنه ليس بعار أن يكون عبد الله ورسوله ، فنزل قوله تعالى « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون » نكف عنه كفرح ونصر كاستنكف ، يقال نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك ، أى لن يأنف وهذا كقولهم أصبح لايخالفه رئيس ولا مرءوس مبالغة فى التكثير واستعمال شائع عربى .

وإذا كان السيد المسيح عليه السلام لايستنكف أن يكون عبدا لله وهو من أولى العزم فكيف يضل فريق من أمتنا ويتغالون فى الطرق التى يسلكونها ويعولون على شيوخهم الأحياء أو الأموات فى مغفرة ذنوبهم ولن يصل شيوخهم إلى رتبة المسيح عليه السلام ، وأنى للولى أن يصل مرتبة النبى صلى الله عليه وسلم .

أقول ذلك وقد أيقنت بأن طائفة تغالت من الأمة فظنوا أنهم يصلون إلى حال تصلهم بالله يرفع عنهم بها التكليف ، ولقد سمعت مريدا يقول : إن شيخى هو الله ، ومن هذا علمت أن التعاليم الباطنية القديمة العهد بمواثيقها وعهودها لاتزال تتوالى فى الأمة يتلقنها الأبناء عن الآباء .

وأنا أقول أيها المسلمون وجب علينا الآن أن نبين للأمة عيوبها وحق علينا نصحها وإرشادها .

يا أيها الناس إنى فى وجل أن تضيع الأمة وتذهب ريحها ، يقول العاصى إنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وكفتنى هذه النسبة .

وقد ضرب الإمام الغزالى لهؤلاء الجهلاء مثلا ، فقال مامعناه : من المغترين بالله من يعظم الدين وهو مقيم على معاصيه فمثلهم كمثل رجل أمسك بذقن آخر وضربه على وجهه ، وقال إن أباك كان عظيما شريفا .

قال لى رجل فى محفل فى بلاد الفلاحين بالشرقية إن الله يغفر بالحج الذنوب الكبائر ، فقلت له : ياهذا إذا أرسلت اللصوص فسرقوا ألف جمل وقتلوا مائة رجل واسترقوا عشرين ألف جنيه ، ثم حججت بمائة منها ، فماذا ترى ؟ أفترى أيها الرجل أنك أدخلت الحيلة عليه ومكرت به وهو أسرع الحاسبين !

يا أيها الناس اتقوا الله واعلموا أن نبينا أفضل الأنبياء فشرعه أنسب للأمة ، وهل يليق بكرامته أن يكون تابعوه أقل الناس أدبا وأكثرهم ذنوبا وأجهلهم صناعة وأضلهم سياسة وأبعدهم عن الفضائل وأقربهم إلى الرذائل ويتبجحون بقولهم (إننا أتباعه) وهل هذه النسبة اللفظية تقنع الجاهل فضلا عن العالم .

لقد قال اليهود والنصارى قديما مثل ذلك ، فنزل ذما لهم قوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ » بالقتل والهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة « بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » وقال قبل ذلك « فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق مايشاء والله على كل شىء قدير » هنا جاء الحق وزهق الباطل وبطلت حجة الجهال المدعين أنهم أحق بالله من غيرهم .

وإذا كان المسيح عليه السلام عرضة لهلاكه هو وجميع من فى الأرض ، فأى حجة يا أيها الناس للتواكل ؟ الأنبياء جرى عليهم القانون والناموس ، يقول الله عز وجل على لسان نبيه « ولو كنت أعلم

الغيب

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ويقول الله عز وجل على لسان نبيه أيضا « وما أدرى مايفعل بى ولا بكم » يا أيها الناس إياكم والشك فى كلام الله أن يقول امرؤ هذا ظاهر وله باطن .

يا قوم إنا نظرنا فى طرق هذه الأمة فرأيناها مزقت كل ممزق .

يا قوم لاسبيل لأن يزول الضلال إلابالعلم والحكمة .

يا قوم ديننا ناموس عام لايستثنى شريفا ولا وضيعا ، وليس عند الله عظيم ونسيب .

يا قوم ليس لى من هذا القول كلة واحدة إنما هذه آراء أسلافنا وعظمائنا .

يا قوم إن هذا رأى الإمام الغزالى وشيوخ الصوفية أنفسهم ، فاحذروا بعض رجال العصر الحاضر فأكثرهم لايعلمون ، وإذا كان الله عز وجل يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله (وإن كان) يامحمد (كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا) منفذا تنفذ به (فى) جوف (الأرض أو سلما) مصعدا تصعد به إلى (السماء فتأتيهم بآية) مما يقترحون عليك فافعل ذلك ، أى أنت لاتقدر عليه (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ف) أنذرهم واصبر و (لا تكونن من الجاهلين) الذين يجزعون فى مواطن الصبر ، فإن ذلك من دأب الجهلاء .

ويقول سبحانه إذ جاء ابن أم مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام ، فقال : يارسول الله علمنى مما علمك الله وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه ، فنزل قوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) وأى شئ يجعلك داريا بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك (ومايدريك لعله يزكى أو يذكر) يتعظ (فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى) تتعرض بالإقبال عليه ، وليس عليك بأس فى أن لايتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على الإسلام إلى الإعراض عمن أسلم (وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى) يسرع طالبا للخير (وهو يخشى) كبوة الطريق لأنه أعمى لاقائد له (فأنت عنه تلهى) تتشاغل .

فانظروا يارجال الإسلام خطاب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ولعيسى ولأهل الأرض قاطبة .

أنظروا ياأهل العلم كيف عتب الله على نبيه أن أعرض عن رجل أعمى ، وقد تصدى لدعوة عظماء قريش ، وهو يطمع أن يعز الله بهم الإسلام لاتكبرا عليه .

ولقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى واستخلفه على المدينة مرتين .

ولقد روى أن عتبة بن أبى وقاص شج النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟ وهمّ أن يدعو عليهم ، فنزل قوله تعالى (ليس لك من الأمر شئ) ويقول صلى الله عليه وسلم «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ويقول « يافاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا » .

يا أمة الإسلام هذا كلام ربكم ، وهــذه حال نبينا والأنبياء والمسيح عليه السلام ، الناس أجمعون عبيد لله .

فانظروا من أين دخلت الغفلة على المسلمين . ياقوم «من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، دين الإسلام أخلاق ، فاتقوا الله أيها الناس واعلموا أن الإسلام دين الفضيلة ، دين الحكمة دين العلم ، دين الأدب .

وإذا اكتفى الحاج بحجته ، والمصلى بصلاته ، والمريد بشيخه ، والفقيه بفقهه ، والأديب بأدبه اللفظى ، فلمن أنزل القرآن وآدابه ؟

يارجال الإسلام أنذركم هلاك العدد ، وقطع المدد ، ورق الولد ، وضياع البلد ! ، أنذركم اقتراب أجل الأمة المحمدية ، أنذركم صاعقة العذاب والهون . لم يبق إلا أيام قلائل فإن لم ترجعوا إلى الجادة هلكت الأمة وصاروا كأهل الأندلس قديما .

لقد أطلت فى هذا المقام وشرحت حال المسلمين الحاضرة بعد أن أطلت فيها التفكير فأيقنت بما كتبت .

هذا لمناسبة السيد المسيح عليه السلام ، ولعمرك لم يسمعنا الله ذلك إلا لنذكر ونعتبر .

ولنرجع إلى بقية الآية (ومن يستنكف) يترفع عن عبادته (ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) فيجازيهم والاستكبار دون الاستنكاف حيث لا استحقاق ، وقد يكون الاستكبار عن استحقاق .

يا أيها المسلمون ما أكثر الغرور وما أجهل المغرورين ، دين الإسلام أخلاق وفضيلة . ولقد عيرنا سائر الأمم بهذا النقص الشين ، فإن لم نرجع عن عيبنا فإننا فى عذاب الخزى والهون . اللهم ارزق أمتنا رجالا مصلحين وفقهها فى أخلاق دينها إنك سميع قريب .

هذا الذى شرحناه اليوم فى الآيتين من سورة النساء بعض مافهمه الصحابة رضوان الله عليهم . وانظروا إلى عمر رضى الله عنه وقد تلق الشريعة عن صاحبها ، وشاهد كسر رباعيته فى أحد والدم يسيل على وجهه ، وسمع آية الوحى « ليس لك من الأمر شىء » .

أنظروا كيف علم أن الناس كلهم خاضعون لناموس واحد فى الدنيا والآخرة ، فقال لابن القبطى : اضرب ابن عمرو بن العاص كما ضربك بحضر من الصحابة ، وكيف يقول له كيف تستعبدون الناس وقد ولدوا أحرارا ، وكيف جعل الأمر شورى عند موته ؟ .

تأملوا ياقوم فى الأمر فإنى أخاف أن يضيع من أيدينا فالوقت قصير .

حكى لى أن رجلا هولانديا ، قال : إن دين محمد صلى الله عليه وسلم فهمه أصحابه فى القرن الأول، ثم تولى شأن دينه شعوب حقيرة ونفوس صغيرة وعقول قصيرة ، فرجعوا القهقرى ، وتقهقروا إلى الوراء وصاروا عبرة للورى .

[تم تفسير سورة النساء]

سورة المائدة مدنية

وآياتها مائة وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقسيم سورة المائدة

(١) الحلال والحرام فى الصيد ونحوه من أول السورة إلى قوله (الخاسرين)

(٢) طهارة الجسم بالماء ، وطهارة القلب بالصلاة وبالعدل وشكر النعمة من قوله (يا أيها الذين آمنوا) إلى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

(٣) أخذ العهد على بنى إسرائيل بالصلاة والزكاة والإيمان فنقضوا عهدهم وكذلك النصارى وتوبيخ الطائفتين وتقريعهم وقصة دخول بنى إسرائيل بيت المقدس من قوله (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) إلى قوله (على القوم الفاسقين) .

(٤) قصة ابنى آدم وكيف كان الظلم قديماً كما صار حديثاً من قوله (واتل عليهم) إلى قوله (فأصبح من النادمين) .

(٥) حكم القاتل وقاطع الطريق والسارق من قوله (من أجل ذلك) إلى قوله (والله على كل شىء قدير) .

(٦) أحكام التوراة والإنجيل والقرآن وأن أهل كل كتاب يحكمون به من قوله (يا أيها الرسول لايحزنك) إلى قوله (يوقنون) .

(٧) أمر الله للمؤمنين أن لايتولوا اليهود والنصارى وأن لايرتدوا ، وتقريع اليهود والنصارى على ذنوبهم من قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى) إلى قوله (وكثير منهم ساء ما يعملون) .

(٨) أمر الله للنبى صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة ، ووعده له بحفظه من الناس وأن يجاهر اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على شىء من دينهم ، وذكر فريقين من النصارى : هادين وضالين ، وذم اليهود من قوله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) إلى قوله (أولئك أصحاب الجحيم) .

(٩) الحلال والحرام فى الصيد ، وذكر الخمر والميسر ونحوهما من قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) إلى قوله (فينبئكم بما كنتم تعملون) .

(١٠) نوع من الشهادات من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) إلى قوله (والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

(١١) خطاب الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة وجوابه من قوله (يوم يجمع الله الرسل) إلى آخر السورة .

مقدمة

نزلت سورة المائدة بالمدينة إلا قوله « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنها نزلت بعرفة فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ، فقرأها النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة وقال « يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » .

قال البغوى : روى عن ميسرة أن الله تعالى أنزل فى هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها فى غيرها وهى قوله تعالى :

(١) والمنخنقة (٢) والموقوذة (٣) والمتردية (٤) والنطيحة (٥) وما أكل السبع إلا ما ذكيتم (٦) وما ذبح على النصب (٧) وأن تستقسموا بالأزلام (٨) وما علمتم من الجوارح مكلبين (٩) وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم (١٠) والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب (١١) وتمام بيان الطهر فى قوله « إذا قمتم إلى الصلاة » (١٢) والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما (١٣) لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم (١٤) ما جعل الله من بحيرة (١٥) ولا سائبة (١٦) ولا وصيلة (١٧) ولا حام ، وقوله (١٨) شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت .

أقول : وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول ما حرم وكان حلالا عند العرب وهو سبعة .

والثانى ما أحل وهو سبعة .

والثالث أربعة أقسام : ما يفضى إلى تنزيه الجسم من الأقذار الحسية والمعنوية وهى النجس والحدث ، وإلى تنزيه النفوس من الخيانة فى الأموال بالسرقات ، وإلى عدم قتل الحيوان فى أحوال خاصة ، وإلى العدل فى الشهادة فهذه هى ١٨ فلنشرح :

(١) أوّلا هذه الأقسام الثلاثة (٢) ثم لأبين كيف أباح الله قتل الحيوان مع أنه رحيم ؟ وكيف اجتمعت الرحمة والإيلام فى عالمنا الأرضى (٣) وبيان الحيوانات الآكلة والمأكولة (٤) وكيف كان النظام يطلب ذلك (٥) وكيف اختلف نوع الإنسان اختلاف الحيوان ؟ وكيف كان الإسلامُ وسطا ؟ وكيف كان الله هو الملهم والمعلم بالإلهام تارة والإخبار تارة أخرى . (٦) وتحريم أكل الطيور النافعة للانسان شرعا (٧) وكيف سمى الله هذه السورة مائدة وبسط فيها الحلال والحرام ؟ (٨) وكيف كانت هذه السورة هى مفتاح لباب العلوم الحيوانية حتى يلج منه المسلمون فيعرفوا الضار والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى ، واختبار الضار والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويحرمون أكله ، وفى ذلك باب واسع لدرس الحيوانات كلها ولسائر ما فى الأرض ، وهذا بحر مستمد من قوله تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » فلابد من دراسة العالم الذى نحن فيه .

فأما البقاء على الجهالة العمياء فى الإسلام فذلك باب يجر إلى فناء هذه الأمة وقيام غيرها مقامها ، فليس علم الفقه المعروف كل شئ بل هو جزء قليل جدا من الدين والدين لايزال بحاله ، فليقم فى الإسلام عقلاء وليفكروا فهذا موسمهم والله قد أذن بذلك .

فهذه ثمان مسائل فلنبتدئ بالمسألة الأولى فنقول :

(١) شرح هذه الأقسام الثلاثة ذات المسائل الثمانية عشرة :

القسم الأول منها ما كان حلالا وحرم بالقرآن وهو سبعة خلاف الأربعة التى حرمت قبل هذه السورة فى القرآن وهى الميتة والدم والخنزير وما أهل لغير الله به ، فيكون هذا مما أضيف إليه أحد عشر محرما :

(١) أحدها الميتة ، كانت العرب تقول : إنكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله .

إن تحريم الميتة موافق للعقل لأن الدم جوهر لطيف ، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله مضار .

(٢) ثانيها الميتة، كانوا يملئون المعى من الدم ويشوونه ويطعمونه الضيف فحرم عليهم ذلك، وقال الأعشى:

فإياك والميتات لاتقربنهـا ولا تأخذن عظما حديدا لتفصدا

ولا تنكحن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا

يقول مفسرو هذه الأبيات: إن العرب كانوا إذا أجدبوا جرحوا إبلهم بالنصال فنزل الدم فشربوه .

(٣) الثالث لحم الخنزير؛ لأن الخنزير أضرى الحيوان على الطعام والشهوات وأشرهه ، فأكل لحمه يورث الأخلاق التى عليها ذلك الحيوان كما أن الحيوان المريض يورث آكله مرضا .

ولقد ثبت فى العصر الحاضر أن الدودة الوحيدة لاتكون إلا من أكل لحم الخنزير ، فلحوم الناس وعظامهم تابعة لأغذيتهم وهذا باب واسع فى العلم يجب النظر فيه طويلا والبحث فى الحكمة والعالم الشاهد .

(٤) الرابع « ما أهل لغير الله به » الإهلال رفع الصوت ، يقال أهل فلان بالحج إذا لبى به ، ومنه استهل الصبى وهو صراخه إذا ولد ، وكانوا يقولون عند الذبح: باسم اللات والعزى ، فحرم الله تعالى ذلك وإنما حرم ذلك لتصان العقائد عن التفرق والاختلاف ، فإن ذكر اسم الأصنام عند الذبح مشعر بتفرق الوجهة ، وتفرقها داع لتفرق الأعمال والأحوال ، فلا يكون نظام للأمور الحيوية ويتبعها أن يخسروا الآخرة، والآخرة إنما هى نتيجة الحياة الدنيا تنظيما واختلالا فى العقيدة والعمل .

(٥) الخامس المنخنقة ، يقال خنقه فاختنق ، والخنق والاختناق انعصار الحلق . فهذا الخنق بأى وجه موجب للتحريم ، فمنه أنهم كانوا فى الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها ، ومنها مايخنق بحبل الصائد ، ومنها ما يدخل رأسها بين عودين فى شجرة فتختنق فتموت . وهذه المنخنقة بأى وجه من جنس الميتة ، لأنها لما ماتت لم يسل دمها فكانت منها .

(٦) السادس الموقوذة، وهى التى ضربت إلى أن ماتت ، يقال وقذها وأوقذها إذا ضربها إلى أن ماتت ومن الموقوذة ما رمى بالبندق فمات ، وهى من الميتة لأنها لم يسل دمها .

(٧) السابع المتردية، والمتردى هو الواقع فى الردى وهو الهلاك قال الله تعالى« وما يغنى عنه ماله إذا تردى» أى وقع فى الردى وهو فى الآية النار ، ويقال فلان تردى من السطح، فالمتردية هى التى تسقط من جبل أو موضع مشرف فتموت ، وهذه أيضا من الميتة لأنها ماتت وما سال منها الدم ، وكذلك ماتشابه أمرها فلم نعلم أمتردية هى أم مصابة بالسهم بأن وقعت من فوق الجبل وقد أصابها سهم فلاندرى بأيهما ماتت : أبالسهم أم بالتردى ؟

(٨) الثامن النطيحة ، وهى المنطوحة إلى أن ماتت كشاتين تناطحتا إلى أن ماتتا أو ماتت إحداهما ، وهى من الميتة لأنها ماتت من غير سيلان الدم .

واعلم أن فعيل بمعنى مفعول يستوى فيه الذكر والمؤنث إذا كان الموصوف مذكورا ، فإذا لم يكن الموصوف مذكورا كما هنا دخلت التاء فارقة .

(٩) التاسع « ما أكل السبع إلا ما ذكيتم » السبع يقع على ماله ناب ويعدو به على الإنسان والدواب ويفترسها مثل الأسد وما دونه .

وكان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئا فقتله وأكل بعضه أكلوا ما بقى ، فحرمه الله تعالى، وتقدير

الآية : وما أكل السبع منه ، لأن ما أكل السبع قد نفد وقوله « إلا ما ذكيتم » أصل الذكاة إتمام الشئ ومنه الذكاء فى الفهم ، ويقال ذكيت النار أتممت إشعالها فقوله « إلا ما ذكيتم » أى إلا ما وجدتم له عينا تطرف أو ذنبا يتحرك أو رجلا تركض فذبحتموه فإنه حلال . فإنه لولا بقاء الحياة ما حصلت هذه الأحوال ، ويكون هذا الاستثناء مما تقدم من المنخنقة إلى قوله « وما أكل السبع » والتذكية هنا هى التى أجهزت على الحيوان لا الخنق ولا الوقذ الخ .

وهذا قول علىّ وابن عباس والحسن وقتادة ، ويقول بعضهم كلا ، بل هذا راجع لما أكل السبع ، والقول الثالث إنه استثناء منقطع، أى إلا ماذكيتم من غير هذه ، فأما هذه فلا تحل ذكيت أو لم تذك .

(١٠) العاشر « وما ذبح على النصب » وهى أحجار كانوا ينصبونها حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها للأصنام وكانوا يلطخونها بتلك الدماء ويضعون اللحوم عليها ، فقال المسلمون يارسول الله : كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق بأن نعظمه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لم ينكره فأنزل الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » والنصب : جمع نصاب كحمار وحمر أو نصب كسقف وسقف أو النصبة وهى العلامة تنصب للقوم أى وما ذبح على اعتقاد تعظيم النصب أو للنصب .

(١١) الحادى عشر قوله « وأن تستقسموا بالأزلام » كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزوا أو تجارة أو نكاحا أو أمرا آخر من معاظم الأمور ضرب بالقداح ، وكانوا قد كتبوا على واحد منها « أمرنى ربى » وعلى الثانى « نهانى ربى » والثالث لاشئ عليه ، فإن خرج الأمر أقدموا على الفعل ، وإن خرج النهى أمسكوا عنه ، وإن خرج الذى لم يكتب عليه أعادوا العمل مرة أخرى ، فمعنى الاستقسام بالأزلام : طلب معرفة ما قسم لهم من الخير والشر بواسطة ضرب القداح ، والأزلام القداح واحدها زلم ، وسميت الأقداح بالأزلام لأنها زلمت : أى سويت ، ويقال رجل مزلم وامرأة مزلمة إذا كان كل منهما خفيفا قليل العلائق ، ويقال قدح مزلم إذا ظرف وأجيدقدّه وصنعته ، وإنما حرم ذلك لأنهم كانوا يحملون تلك الأزلام عند الأصنام ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهى على تلك الأزلام إنما يكون بإرشاد الأصنام وإعانتها ، فلهذا السبب كان فسقا وحراما .

واعلم أن الله عز وجل منع علم الغيب عنا لحكمة وهى الجدّ ، ولو أننا عرفنا الغيب ما عملنا عملا بل كان الإنسان ينام منتظرا مايجىء به القدر . وهذا تعطيل لمصالح الدنيا فلذلك منع الله علم الغيب عن الناس وجعل الرؤى وغيرها فيها الحق والباطل والصدق والكذب ليحترس الناس وليفكروا بعقولهم ولا يتكلوا إلا على ربهم الذى حجبهم برحمته عن معرفة الغيب إلا بما شاء لحكمة ، انتهى القسم الأول من الأقسام الثلاثة : وهى السبعة التى حرمت فى هذه السورة مضافا لها الأربعة التى معها وكانت محرمة قبل نزول هذه السورة .

القسم الثانى : ما أحل وهو سبعة (١) ما صـــدناه بالجوارح المعلمة (٢) وطعام الذين أوتوا الكتاب (٣) والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب (٤) بيان البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

(١) ماصدناه بالجوارح المعلمة «وماعلمتم من الجوارح مكلبين» والجوارح جمع جارحة وهى الكواسب من السباع والطير كالفهد والنمر والكلب والبازى والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير مما يقبل التعليم، سميت جوارح من الجرح لأنه يجرح الصيد عند إمساكه، ويصح أن تسمى جوارح بمعنى كواسب من جرح واجترح بمعنى كسب واكتسب ، ومعنى مكلبين معلمين ، والمكلب هو الذى يغرى الكلاب على الصيد أوهو مؤدب الجوارح ومعلمها، وإنما اشتق له الاسم من الكلب لأنه أكثر احتياجا إلى التعليم هكذا قالوا. وأقول: بل هو أقرب إلى الائتناس بالناس وأدنى إلى طاعتهم بخلاف الطيور .

ثم قال تعالى « تعلمونهن مما علمكم الله » من الحيل وطرق التأديب فإن العلم بها إلهام من الله أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة منه سبحانه وتعالى ، ومنه أن يتبع الصيد إذا أمره صاحبه وأن ينزجر عنه إذا انزجر وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه ولا ينفر من صاحبه إذا أراده وأن يجيبه إذا دعاه فهذا هو تعليم الجوارح فإذا وجد منها ذلك مرارا كانت معلمة ، وأقلها ثلاث مرات عند أبى يوسف ومحمد، ومرتان فى رواية عن أبى حنيفة وعند أحمد أيضا، ومرة واحدة عند الحسن البصرى ويعتبر العرف عند الشافعى وأبى حنيفة فى أظهر الروايات عنه ، قال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل » .

(١) فإذا كان الكلب معلما وصاد صيدا وجرحه وقتله وأدركه الصائد ميتا فهو حلال لأن جرح الجارحة كالذبح .

(٢) الجوارح المعلمة حكمها حكم الكلب .

(٣ و ٤) والسهم والرمح كذلك . فإذا صاده الكلب وجثم عليه وقتله بالفم من غير جرح ففيه قولان :

(١) أنه ميتة لا يؤكل (٢) يحل لدخوله فيما أمسكن عليكم وهذا كله مالم يأكل منه فإن أكل منه فقد اختلف العلماء فيه فمن قائل لا يحل وهو قول ابن عباس وطاوس والشعبى وعطاء والسدى وأظهر أقوال الشافعى مستدلين بقوله تعالى «فكلوا مما أمسكن عليكم» وهذا قد أمسكه على نفسه .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعدى بن أبى حاتم « إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أدركته ولم يقتل فاذبح واذكر اسم الله عليه وإن أدركته وقد قتل ولم يأكل فكل فقد أمسك عليك وإن وجدته قد أكل فلا تطعم منه شيئا فإنما أمسك على نفسه » .

ومن قائل يحل وهو قول سلمان الفارسى وسعد بن أبى وقاص وابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم . فهؤلاء يقولون يحل وإن أكل منه وهو القول الثانى للشافعى .

(٢) الثانى من السبعة التى تحل طعام الذين أوتوا الكتاب فى قوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم» فطعام الذين أوتوا الكتاب هنا هى الذبائح التى يذبحونها، وأما المجوس فلا نأكل ذبائحهم ولا نتزوج نساءهم ولا نأكل ذبائح أهل الشرك من العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب لهم، فأما غير الذبائح فلا كلام فيها لأنها محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم لا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة ، ولو ذبح اليهودى أو النصرانى على غير اسم الله :

(١) قيل لا يحل ذلك وهو قول ربيعة .

(٢) ولكن أكثر أهل العلم أنه يحل وهو مذهب الشعبى وعطاء قالا لأن الله أحل ذبائحهم وهو يعلم مايقولون

(٣) وقال الحسن إذا ذكرا غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل ، وإذا غاب عنك فكل فقد أحله الله

(٤) وزعمت طائفة أنه يحل مطلقا ولو ذكرا اسم غير الله، وأما قوله « وطعامكم حل لهم » أى يحل لكم أن تطعموهم من طعامكم وكأنه لما كانت المناكحة غير جائزة من بعض الوجوه بأن يتزوجوا نساءنا نبه بهذا على أنه يجوز أن نطعمهم من طعامنا وإن لم يجز أن نزوجهم من نسائنا .

(٣) الثالث من السبعة التى تحل « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » أى وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وهل يراد بالمحصنات الحرائر منهن ؟ .

(١) وهذا قول ابن عباس فلا يتزوج بالأمة الكتابية من اليهود والنصارى لأنه اجتمع فى حقها نوعان من النقص : الكفر والرق وهو مذهب الشافعى (٢) وقال الحسن والشعبى والنخعى والضحاك : المحصنات العفيفات من أهل الكتاب فيجوز التزوج بالأمة الكتابية وهو مذهب أبى حنيفة لعموم هذه الآية، فزواج الكتابيات

الذميات جائز، وقد تزوج عثمان بن عفان نائلة بنت الفراقصة على نسائه وهي نصرانية وطلحة بن عبيد الله تزوج يهودية ، وقد كره ابن عمر ذلك وكان يحتج بقوله تعالى « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » .

وقال الجمهور : هذه الآيات التي ذكرها عامة وخصصت بهذه الآية فجميع المشركات محرمات مالم يؤمن إلا الكتابيات فذلك عام وهذا خاص فخلت الكتابيات وبقي تحريم غيرهن من المشركات .

وقال سعيد بن المسيب والحسن : يجوز التزوج بالذميات والحربيات من أهل الكتاب لعموم الآية ، والجمهور أنها خاصة بالذميات دون الحربيات .

قال ابن عباس: من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهن من لاتحل لنا وقرأ « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله » إلى قوله « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » والمراد بهم أهل الذمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب وقوله «إذا آتيتموهن أجورهن» أي مهورهن وهي العوض الذي يبذله الرجل للمرأة «محصنين غير مسافحين » أي مستعفين بالتزوج غير زانين « ولا متخذي أخدان » يعني ولا منفردين ببغي واحدة قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده .

حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الخدن وأحله على جهة الإحصان وهو التزوج بعقد صحيح (ومن يكفر بالإيمان) ومن يجحد ماأمر الله به من توحيده ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله (فقد حبط عمله) بطل ثواب عمله الذي عمله في الدنيا وخاب وخسر في الدنيا والآخرة (وهو في الآخرة من الخاسرين) إذا مات على ذلك .

الرابع والخامس والسادس والسابع من التي تحل هي المذكورات في قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تركب ولا تحلب فهذه هي البحيرة .

وأما السائبة : فإن الرجل منهم كان يقول إن شفيت فناقتي سائبة ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها .

وأما الوصيلة: فقد كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكرا ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركوها في الغنم وإن كانت ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر فلم يذبحوه من أجل ذلك .

والحامي هو الفحل إذا اتفق له أحد أمرين: إما أن يركب ولد ولده أو ينتج من صلبه عشرة أبطن فيقولون حمي ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا من مرعى فإذا مات أكله الرجال والنساء ، وقوله « ما جعل الله » ما شرع الله « من بحيرة الخ » .

القسم الثالث : وهو مايشير إلى تنزيه الجسم عن الأقذار الحسية والمعنوية وهي الحدث والنجس وإلى تبرئة النفس من الخيانة في الأموال بالسرقات وإلى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة وإلى العدل في الشهادة وأدائها

المسألة الأولى : نظافة الجسم

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة (فاغسلوا وجوهكم) من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولا ومن الأذن إلى الأذن عرضا مع وصول الماء إلى ماتحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وإن كانت كثة، وأما اللحية فإن كانت كثة لاترى البشرة من تحتها لايجب غسل ماتحتها ويجب غسل الخفيفة ، ولم يوجب أبوحنيفة مرور الماء على مانزل من شعر اللحية عن حد الرأس، ويجب إمرار الماء على ظاهره عند غيره (وأيديكم إلى المرافق) المرفق بالكسر هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد ، ومذهب جمهور العلماء دخول المرفقين في الغسل الواجب ،ونقل عن مالك والشعبي وأبي بكر

ابن

ابن داود الظاهرى أنه لايجب وكذا ابن جرير الطبرى، وحجة الجمهور أن إلى بمعنى مع ، وحجة غيرهم أن الغاية للشئ لاتدخل فيه والحد غير المحدود (وامسحوا برءوسكم) أى برءوسكم ، أو الصقوا المسح برءوسكم؛ فالباء إما زائدة وإما أن يكون الفعل تضمن معنى الإلصاق. والمسح عند الشافعى أقل مايقع عليه الاسم . وعند أبى حنيفة ربع الرأس . وعند مالك جميع الرأس (وأرجلكم إلى الكعبين) بالنصب عطفا على وجوهكم أو بالجر للجوار وفرض الرجلين :

(١) إما المسح عند ابن عباس وقتادة وعكرمة والشعبى والإمامية من الشيعة (٢) وإما المسح بالقرآن والغسل بالسنة عند أنس (٣) وإما الجمع بين الغسل والمسح عند داود الظاهرى (٤) وإما التخيير بين الغسل والمسح عند الحسن البصرى ومحمد بن جرير الطبرى (٥) وإما الغسل فقط عند جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الأئمة الأربعة وأصحابهم ، وهذا الخلاف كله راجع لقراءة الجر والنصب والأحاديث واردة بطرق مختلفة والاستنتاج كقول الشعبى : إنما المسح على الرجلين؛ ألا ترى أن ما كان فيه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه المسح أهمل . وقال ابن عباس : الوضوء غسلتان ومسحتان وهكذا، وقوله «إلى الكعبين» الخلاف فى دخول الكعبين كالخلاف فى دخول المرفقين ، والكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم عند جمهور العلماء فى اللغة والفقه ، وشذت الشيعة والقائلون بمسح الرجلين إذ قالوا الكعب عظم مستدير على ظهر القدم فيكون فى كل رجل كعب واحد .

كيفية الوضوء

فروض الوضوء : اعلم أن فروض الوضوء التسمية وتقديم غسل اليدين والمضمضة والسواك والاستنشاق والنية عند غسل الوجه وغسل الوجه وداخل العين مع مقدم الأذن وغسل اليدين وتقديم اليمنى ومسح الرأس وغسل الرأس مع المسح وغسل الرجلين والترتيب والفور ويكون لكل صلاة والتدليك .

فالتسمية عند أحمد وإسحق ، وتقديم غسل اليدين عند بعض الفقهاء كما فى الرازى، والمضمضة والاستنشاق عند أحمد وإسحق فى الوضوء والغسل . وعند أبى حنيفة فى الغسل دون الوضوء. والسواك عند داود ، والنية عند الشافعى والترتيب عنده أيضا ، والفور وهو الموالاة عند مالك وما أقبل من الأذن مع الوجه غسلا وما أدبر مع الرأس مسحا عند الشعبى وإدخال الماء فى العين عند ابن عباس وتقديم اليد اليمنى عند أحمد ومسح الرأس مع غسلها عند داود الظاهرى ، ويجب الوضوء لكل صلاة عنده أيضا والتدليك عند مالك .

وأبو حنيفة لم يوجب منها إلا أربعة وهى المذكورة فى الآية، وزاد الشافعى خامسا وهو النية، وزاد الشافعى أيضا وأحمد سادسا وهو الترتيب كالآية، وأوجب مالك الموالاة والتدليك فالاتفاق على أربعة والاختلاف فى اثنى عشر.

[فائدة] قال الأوزاعى والثورى وأحمد يجوز مسح العمامة بدل مسح الرأس وخالفهم الجمهور، والمسح على الخفين أجازه الشافعى وأبو حنيفة وأكثر الفقهاء وذلك للمسافر ثلاثة أيام بلياليها من وقت الحدث بعد اللبس وأنكره الشيعة والخوارج؛ وأما قوله تعالى (وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) فقد سبق تفسيره فى سورة النساء . ولكن لنوضح الطهارة من الجنابة فنقول: للجنابة سببان : التقاء الختانين والإنزال . وقال زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدرى: لايجب الغسل إلا عند نزول الماء ، وختان الرجل موضع قطع جلدة القلفة ، وختان المرأة موضع قطع الجلدة الرقيقة القائمة مثل عرف الديك بين الشفرين وتحتها مجرى البول وهو ضيق وتحت هذا ثقبة يخرج منها الحيض والولد وهى مدخل مايجب به الغسل ، والتطهر الاغتسال وهو

أن يعم الجسد بالماء ، وأوجب مالك الدلك ، وأوجب أبو ثور وداود تقديم الوضوء ، وأوجب أبو حنيفة المضمضة والاستنشاق .

ثم إن شعر الرأس إن كان مفتولا مشدودا بعضه ببعض ومنع وصول الماء إلى البشرة لم يوجب مالك نقضه (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج) أى مايريد الله بالطهارة للصلاة ولا بالأمر بالتيمم تضييقا عليكم (ولكن يريد ليطهركم) لينظفكم والنظافة الظاهرة داعية للباطنة ومن اعتاد نظافة الظاهر صار سجية له يعتادها وملازمة الاعتدال والجمال تؤثر فى نفس الملازم ؛ ولقد بينا هذا فى سورة البقرة عند قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وأفدنا هناك أن النظافة والعمل يرقيان النفوس الإنسانية ، والقذارة والبطالة يوجبان نقصها فارجع إليه إن شئت (وليتم نعمته عليكم) بالطهارة والنظافة وما يترتب عليها من صفاء القلوب وإخلاص السرائر وصفاء النيات (لعلكم تشكرون) نعمته .

المسألة الثانية

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) حد اليد من رءوس الأصابع إلى الكوع : أى فيما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة وهذه جملة ، وقوله « فاقطعوا أيديهما » جملة أخرى (جزاء بما كسبا) مفعول لأجله (نكالا من الله) أى عقوبة مفعول لأجله أيضا (والله عزيز حكيم) عز فحكم فقطع ، ولاتقطع اليد إلا إذا كان المسروق يساوى ربع دينار وسرق من حرز مثله . وقال مالك وأحمد وإسحق يقطع فى ثلاثة دراهم أو قيمتها ، وعن أبى هريرة أنه خمسة دراهم ، وقال قوم لابد من دينار أو عشرة دراهم وهذا مروى عن ابن مسعود وسفيان وأبى حنيفة وابن عباس ، وروى عن ابن الزبير والحسن أن القدر غير معتبر فيقطع على القليل والكثير ، ولا يشترط أن يكون من حرز مثله وهو مذهب داود .

وتقطع يده اليمنى من الكوع فإن سرق ثانية قطعت رجله اليسرى ، وهنا قال سيدنا علىّ : إنى أستحى أن لا أدع له يدا يستنجى بها ولا رجلا يمشى بها فلا يقطع اليد الثانية ولا الرجل الثانية بل يحبس ، وهو قول الشعبى والنخعى والأوزاعى وأحمد وأصحاب الرأى ، وذهب غيرهم إلى أنه تقطع يده اليسرى فى المرة الثالثة ورجله اليمنى فى المرة الرابعة .

التخفيف فلا قطع فى حالين

الحال الأولى : إذا سرق مالا له فيه شبهة كالولد يسرق مال والده ، والوالد يسرق مال ولده ، والعبد يسرق مال سيده ، والشريك يسرق مال شريكه ، بل إن مجرد الإنكار عند بعضهم كالشافعية يمنع القطع ، فلو قال لم أسرق وقد سرق كان شبهة تمنع القطع ويكتفى بالعقوبة (التعزير) .

الحال الثانية : أن يتوب كما قال الله تعالى (فمن تاب) من السراق (من بعد ظلمه) بعد سرقته (وأصلح) أمره بالتفصى عن التبعات والعزم على أن لايعود إليها (فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة ، ولاتقطع يده عند بعض العلماء بدليل قوله تعالى « غفور رحيم » .

المسألة الثالثة

(ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم) محرمون جمع حرام أو داخلون الحرم ، فيحرم على من أحرم بالحج أو العمرة وعلى من دخل الحرم وإن لم يكن محرما أن يقتل الصيد ، وهو كل حيوان متوحش مأكول اللحم أو غير مأكول اللحم كالغزال والأسد ، واستثنى من ذلك خمس : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور (ومن قتله منكم متعمدا) ذاكرا لاحرامه عالما بأنه حرام عليه قتل مايقتله (فجزاء مثل ماقتل من النعم) أى فعليه جزاء يماثل ماقتل من النعم .

روى أنه عنّ لهم فى عمرة الحديبية حمار وحشى فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله فنزلت هذه الآية .

واعلم أن من تعمد قتل الصيد وهو ذاكر لإحرامه فإن ذنبه أكبر من أن يكون له كفارة ، ولكن ابن عباس والجمهور يحكمون عليه بالجزاء .

ومن تعمد قتل الصيد مع نسيان الإحرام أو قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمى فأصابه فهو كالعمد فعليه الجزاء ؛ فالقرآن نزل فى العمد ، والسنة جرت بالخطأ .

المثل الواجب

أبالخلقة هو أم بالقيمة ؟ والجمهور على الأول ، فقد حكم الصحابة رضى الله عنهم فى النعامة ببدنة وهى لاتساوى بدنة ، وفى حمار الوحش ببقرة وهو لايساوى بقرة ، وفى الضبع بكبش ، وفى الظبى بشاة ، وفى الأرنب بسخل ، وفى الضب بسخلة ، وفى اليربوع بجفرة ؛ ويجب فى الحمامة وكل ماعبّ وهدر كالفواخت والقمرى وذوات الأطباق شاة ، وماسوى ذلك من الطير ففيه القيمة فى المكان الذى أصيب فيه .

وروى عن عمر أنه قضى فى الضبع بكبش وفى الغزال بعنز وفى الأرنب بعناق وفى اليربوع بجفرة .

وقال أبو حنيفة : يقوّم الصيد حيث صيد؛ فإن بلغت القيمة ثمن هدى خير بين أن يهدى ماقيمته قيمته، وبين أن يشترى به طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما ، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم قال تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) أى يحكم بالجزاء فى قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغى أن يكونا فقيهين فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به (هديا) حال من الهاء فى به (بالغ الكعبة) وصف به هديا، ومعنى بلوغه الكعبة أنه يذبح فى الحرم ويتصدق به ثمت .

وقال أبو حنيفة يذبح فى الحرم ويتصدق به حيث شاء (أو كفارة طعام مساكين) عطف بيان أو بدل من كفارة، والمعنى عند الشافعى أن يكفر بإطعام مساكين مايساوى قيمة الهدى من غالب قوت البلد فيعطى كل مسكين مدا (أو عدل ذلك صياما) أو ماساواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوما، وإنما كان عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم (ليذوق وبال أمره) ثقل فعله وسوء عاقبته بهتكه لحرمة الإحرام أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله ، وأصل الوبال الثقل ومنه الطعام الوبيل (عفا الله عما سلف) من قتل المحرم الصيد فى الجاهلية أو قبل التحريم أو فى هذه المرة (ومن عاد فينتقم الله منه) مع أن عليه الكفارة (والله عزيز ذو انتقام) ممن أصر على عصيانه .

ثم أخذ يشرح صيد البحر فقال (أحل لكم صيد البحر) ماصيد منه مما لايعيش إلا فى الماء وهو حلال كله .

وقال أبو حنيفة : لايحل منه إلا السمك ، وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره فى البر (وطعامه) ماقذفه ورمى به إلى الساحل أو نضب عنه (متاعا لكم) تمتيعا لكم (وللسيارة) أى ولسيارتكم يتزودونه قديدا : أى يتمتع به المسافرون والمقيمون .

إيضاح هذا المقام

الحيوان البحرى: إما سمك وإما غير سمك، فجميع السمك حلال. وقال أبو حنيفة لايحل إلا أن يموت بسبب. وما عدا السمك فهو قسمان قسم يعيش فى البر والبحر كالضفدع والسرطان فلا يحل أكلهما . وقال سفيان أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس ، والجراد وطير الماء من صيد البر ، فإن أصاب جرادة فعليه صدقة .

وقال أحمد يؤكل ما فى البحر إلا الضفدع والتمساح ، قال لأن التمساح يفترس ويأكل الناس . وقال ابن أبى ليلى ومالك : يباح كل ما فى البحر . وقال بعضهم : الكلب والخنزير فى الماء وكل ماله نظير لا يؤكل فى البر لا يؤكل هو ، والبقر البحرى والجاموس يؤكل لأن له نظيرا فى البر يؤكل اهـ .

المسألة الرابعة من هذا القسم : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم » الآية

اعلم أن تميما الدارى وعدىّ بن بداء خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فدوّن ما معه فى صحيفة وطرحها فى متاعه ولم يخبرهما به وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه فأصاب أهله الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدا فترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر كما هو نص الآية ثم خلى سبيلهما ثم وجد الإناء فى أيديهما فأتاهما بنوسهم فى ذلك فقالا قد اشتريناه منه ولكن لم يكن عليه بينة فكرهنا أن نقر به فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل بقية الآية وهى تفيد أن يقوم اثنان من أولياء الميت ليحلفا بدل هذين الوصيين النصرانيين فقام عمرو بن العاص ومطلب بن أبى رفاعة السهميان فقاما مقام النصرانيين فأقسما أن شهادتهما أحق من شهادة الوصيين المذكورين بالقبول وهذا قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) أى الإشهاد فى الوصية وأضافه إلى بينكم توسعا (إذا حضر أحدكم الموت) أى شارفه كما اتفق لبديل ظرف لشهادة (حين الوصية) بدل منه (اثنان) فاعل شهادة (ذوا عدل منكم) وصف لاثنان (أو آخران من غيركم) عطف على اثنان : أى من غير دينكم وملتكم (إن أنتم ضربتم فى الأرض) أى سافرتم (فأصابتكم مصيبة الموت) أى قاربتم الأجل (تحبسونهما من بعد الصلاة) وكأنه قيل كيف نفعل بهما إن ارتبنا قال تحبسونهما وتقفونهما من بعد الصلاة أى صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس (فيقسمان بالله إن ارتبتم) أى ارتاب الوارثون منكم ، والمقسم عليه قوله (لا نشترى به) أى لا نستبدل بالقسم أو بالله (ثمنا) عرضا من الدنيا : أى لا نحلف بالله كذبا لطمع (ولو كان) المقسم له (ذا قربى) قريبا منا (ولا نكتم شهادة الله) له : أى الشهادة التى أمرنا بإقامتها (إنا إذا لمن الآثمين) إن كتمنا (فإن عثر) اطلع (على أنهما) أى النصرانيين (استحقا إثما) خيانة (فآخران) أى وليان آخران من أولياء الميت وهو بديل وهما هنا عمرو بن العاص ومطلب بن أبى رفاعة (يقومان مقامهما) مقام النصرانيين (من الذين استحق عليهم الأوليان) أى من الورثة الذين استحق عليهم أى الأوليان : أى الأحقان من بينهم بالشهادة فيصطفيهما الورثة ليظهر كذب هذين الوصيين ، فالورثة يختارون اثنين يكونان أحق بالميت وأولى به فيقسمان بالله إن شهادتهما أحق من شهادة الوصيين وذلك لأنه قد ظهر للناس خيانتهما .

قضاء شريح بهذه الآية وأنها ليست منسوخة وقضاء أبى موسى الأشعرى

قال شريح : من كان بأرض غربة لم يجد مسلما يشهد وصيته فليشهد كافرين على أى دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الأصنام فشهادتهم جائزة فى هذا الموضع ، ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلا على وصية فى سفر لا يجد فيه مسلما .

وعن الشعبى أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هذه ولم يجد أحدا من المسلمين حضر يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى : هذا أمر لم يكن بعد الذى كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيرا ، وأنها وصية الرجل وتركته فأمضى شهادتهما .

ومذهب

ومذهب الشافعى ومالك وأبى حنيفة والحسن والزهرى وعكرمة عدم جواز شهادة الكافر ، ولا فى هذه المسألة ، وإنما أجاز أبو حنيفة شهادة أهل الذمة فيما بينهم ، واحتج آخرون بأن هذه السورة ليس فيها منسوخ البتة ، وأيضا ماذا يفعل المسلم الذى حضرته الوفاة فى المال إذا لم يجد مسلما فهذا مضطر أن يشهد أى كافر كان اه .

ثم قال الله تعالى (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) أصدق من شهادتهما وأولى بأن تقبل (وما اعتدينا) أى وما تجاوزنا فيها الحد (إنا إذا لمن الظالمين) الواضعين الباطل موضع الحق ، وهذا المقام من المواضع التى رد فيها اليمين إلى الورثة لظهور خيانة الوصيين (ذلك) الحكم الذى تقدم (أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أى ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة كما فى مسألة بديل (واتقوا الله واسمعوا) ما توصون به سماع إجابة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم قوما فاسقين والله لا يهدى القوم الفاسقين .

وإذ فرغت من المسائل الثمانية عشرة وهى التى قسمتها ثلاثة أقسام وهى المروية عن ميسرة فلأشرع فى الكلام على أن الله عز وجل :

(١) كيف أباح قتل الحيوان مع أنه رحيم وكيف اجتمعت الرحمة والإيلام فى عالمنا الأرضى (٢) وبيان الحيوانات الآكلة والمأكولة (٣) وكيف كان النظام يطلب ذلك (٤) وكيف اختلف نوع الإنسان اختلاف الحيوان (٥) وكيف كان الإسلام وسطا (٦) وكيف كان الله هو الملهم والمعلم بالإلهام تارة والاختبار والعقل تارة أخرى (٧) وتحريم أكل الطيور النافعة للإنسان شرعا (٨) وكيف سمى الله هذه السورة مائدة ؟ وبسط فيها الحلال والحرام ، وكيف كانت هذه السورة هى مفتاح للعلوم الحيوانية حتى يلج المسلمون منه فيعرفوا الضار والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى واختبار الضار والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويجتنبون ما يضرهم .

كيف أمر الله بذبح الحيوان وهو أرحم الراحمين

اعلم أيها الذكى العاقل الفطن أن هذا التفسير قد جعل بابا من أبواب الحكمة وبه سيصير المسلم القارىء له من الذين دخلوا للحكمة من بابها ، ذلك أنك ستجد الإجابة على أسئلة كثيرة ترد على العقول ولقد ضل بها كثير من الناس .

ولتعلم أن الإنسان لا يصل إلى السعادة والصفاء والجمال إلا إذا وقف على الحقائق ولكن مادام واقفا على شاطىء الحقيقة لم يهجم عليها ولم يركب سفن النجاة الجارية فى بحارها عاش جبانا جاهلا ومات غير متزود من هذه الدنيا زادا يسير به فى الحياة العقلية فى العالم الكامل بعد خروجه من السجن الأرضى الذى حكم عليه بالبقاء فيه أياما وأعواما .

فمن الأسئلة التى ترد على قلوب العقلاء والفضلاء هذا السؤال : كيف يؤلمنا الله وهو أرحم الراحمين ؟ فإما أن يكون ليس أرحم الراحمين ؛ وإما أن لا يؤلم من لا ذنب له وقد رأيناه يؤلم الصبيان والبهائم والمجانين فأصبح الشك محصورا فى الرحمة ؛ فأين الرحمة إذن ؟

الجواب

اعلم أن الرحمة التى بمعنى رقة القلب مستحيلة على الله تعالى ، بل الرحمة التى هى الرقة ناقصة .

ألا ترى أن الطبيب يعطى المريض الدواء المر ويسقيه كل ما يكرهه ويقطع عضوه وهذه الرحمة خير من رحمة أم المريض وصاحبته التى لا ترضى له بالألم الذى يكون نعمة عليه ، ولا جرم أن رحمة الأب الممزوج رقتها بشدتها خير من رحمة الأم القصيرة النظر للنعمة للابن .

ولقد رأينا فى أهل الأرض حالا مطردة وهى أن من صبروا على ماجاءهم من صروف الدهر وذاقوا المر والنصب والتعب فإن هؤلاء يسودون ولذلك رأينا الأنبياء والحكماء وهكذا عظماء الأمم فى الوقت الحاضر هم الذين قاسوا ماهو مرّ المذاق والصاب والعلقم وأنواع الآلام والسجون والمشقات وأن المترفين المنعمين هم الهالكون فى هذه الدنيا الذين يسقطون فى أيام امتحان نوائب الدهر وحدثانه فيسقطون ويعلو عليهم سواهم من المجدين الكاملين . ذلك هو الناموس والصراط المستقيم .

ويوضح هذا قوله تعالى « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا الخ » ولقد تقدم تقرير هذا المقام فى تفسير آل عمران عند قوله تعالى « لتبلونّ فى أموالكم وأنفسكم » واقرأ إذا شئت كتابا حديثا يسمى [الكوخ الهندى] ألفه أحد الفرنسيين وهو وكتاب [لفرقابس] الذىّ شرحته فى البقرة من واد واحد وهو أن المنعمين لاسعادة لهم فى هذه الدنيا وأن الذين يصيبهم النصب والتعب هم الذين ينالون حظهم وكمالهم .

الحيوان منه آكل ومأكول

اعلم أن الحيوان ينقسم قسمين : قسم يأكل الحشائش والنبات وأوراق الشجر والزهر والحب كالأنعام والبهائم والغزلان والأرانب وما أشبه ذلك ، والقسم الثانى لايأكل إلا اللحم وهى الأسود والنمور والضباع والسباع ، فهذه الحيوانات حرم عليها أن تأكل شيئا غير اللحم وترى هذه الطائفة منها مافى الجوّ من الصقور والشواهين ، ومنها ماعلى الأرض كالآساد ، ومنها مافى التراب كالحيات ، ومنها مافى البحر كالتماسيح والتنانين ، وهذه الأقسام الأربعة هى التى تتولى نظام الحيوان ولا علم لها بهذه الولاية .

وإيضاحه أنك ترى أن الحيوانات التى تأكل الحشائش تتكاثر وتتناسل على وجه الأرض فلو تركت وشأنها لملأت السهل والجبل ولكانت رممها تملأ الأودية والسهول فتعفن فيحصل الهلاك لها ولغيرها ؟ لذلك خلقت الحيوانات الآكلات التى حكم عليها أن لا تكون بطونها إلا مقابر لهذه الحيوانات ومتى كانت مقابر لها أصبحت داخلة فى دمائها مختلطة بلحومها منقلبة إلى أجزائها صالحة للحياة لاضرر منها على سكان الأرض .

اعتبر ذلك فى كل ماتراه ، ألا ترى أن الذباب لا يرى إلا فى محالّ الرطوبات والأمكنة الرطبة وعند اللبانين وبائعى السمن والعسل وما أشبه ذلك لأنها تتعاطى العفونات من تلك الأماكن وتصبح أجسادها مأوى لتلك العفونات التى لو بقيت لكان منها الضار فى الهواء فيفسد وتكون الأمراض الوبيلة الفتاكة .

وذلك الذباب وما أشبهه كالبق والناموس يصطاده العصفور والعصفور يصطاده الخطاف والخطاف يصطاده ماهو أقوى منه وهكذا إذا مات الباز والشاهين وكل ماتصطاد ما هو أدنى منها أكلها الدود والدود يمتص الرطوبات فهى دائرة أولها آخرها ولولا هذه الدائرة لم يبق حى فى عالمنا الأرضى .

هكذا ترى الآساد والنمور وبنى آدم جميعا تأكل الضأن والمعز والإبل والبقر وما أشبه ذلك ، ثم إن بنى آدم والأسود والنمور إذا ماتوا أكلهم الدود .

الأمراض العامة فى الإنسان والحيوان

ثم إنك فى الحياة الدنيا ترى أن الإنسان تنتابه الحمى والجدرى والتيفوس والحصباء وأكثر الأمراض إنما تكون من حيوانات لاعدد لها وهكذا الحيوانات الأخرى ويعرف ذلك البياطرة للحيوان والأطباء للانسان .

القاتل للإنسان نوعان من الحيوان

والذى يقتل الإنسان من الحيوان نوع ظاهرى ونوع باطنى : فالنوع الظاهرى : الآساد والنمور والذئاب والحيات وما أشبه ذلك .

والنوع الباطنى : حيوانات صغيرة جدا تسمى (المكروبات) وهذه الحيوانات تدخل أجسامنا وتتوغل فيها وتحدث فينا أمراضا مختلفة بما تثير فى داخل أجسامنا من الحرارة بالثورات الداخلية ويكون اختلاف الأمراض باختلاف أنواع تلك الحيوانات، فمنها حيوانات للوباء العام، ومنها حيوانات لإحداث مرض البول (البلهارسيا) ومنها ما تحدث الحمى ومنها ما تحدث الجدرى وما أشبه ذلك .

وكل هذه الحيوانات تؤلمنا أشد الألم ولا يخلصنا منها ولا من أضرارها بنا إلا أحد أمرين :
إما الأدوية القوية كتلك التى اخترعوها لمرض المسمى بالزهرى وتسمى دواء (٦٠٦) لأنه نتج من ٦٠٦ تجربة ، وإما الموت الذى يكون أرحم من الحياة معها .

ثم إن الحيوانات الظاهرة القاتلة للانسان تنقسم قسمين : ناطقة وغير ناطقة فغير الناطقة قد تقدمت ؛ والناطقة هى الإنسان يقتل الإنسان وتساعده على ذلك دياناته فإنك لا تجد دينا فى الأرض إلا حرض على حفظ النفس وحفظ الوطن وحفظ الشرف ، ومن الديانات مامنعت المقاتلة كالدين المسيحى ولكن الفطرة الإنسانية أبت أن تسكت على ذلك فأصبح هؤلاء المسيحيون رافعى لواء القتل والإهلاك والإبادة فى الجنس البشرى .

فدلنا هذا أن الحيوان والإنسان ودياناته غالبا متعاونون على تطهير الأرض من ازدحام الأحياء .

ولعلك تقول : لماذا يكون هذا الإهلاك والقتل ؟

أقول: اعلم أن الأرض التى نحن عليها ليست أرقى عالم فى هذا الوجود ، بل الظاهر أنها عالم متأخر بدليل أن الكشف الحديث دلنا أن هناك مايقرب من ثلثمائة مليون أرض ، وتلك الملايين بعضها عوالم أوسع من أرضنا وألطف وأجمل وأبهى وأعظم بما لاحد له .

وإذا كنا نرى أن أرضنا مع ضيقها وصغر حجمها قد حوت من أنواع الحيوان مالا حصر له ، فمنه الدود الذى ليس له إلا حاسة واحدة ، ومنها القرود المتمتعة بجميع مواهب الحواس ، ومنها الإنسان وفيه الأنبياء والعلماء ، وأنت لو نسبت الدود إلى الإنسان لم تجد هناك أى مناسبة بل وجدت بينهما بونا شاسعا عظيما مترامياً، فإذا كانت أرضنا مع ضيقها قد جمعت مابين المشارب التى تسكن التراب وبين الإنسان الذى يقطن فى الأرض ويركب متن الهواء ويستخدم البخار والكهرباء ، فما بالك بتلك العوالم الشاسعة ؟ تلك العوالم التى لايعرف مدى كمالها وجمالها .

أفليس من المعقول والمقبول أن يقال إن هناك حياة تكون نسبة حياتنا إليها كنسبة حياة الدود إلينا ، أو ليس ذلك أقرب لعقولنا ؟ أو ليس العقل بطريق القياس يرى أن هناك من الارتقاء ما لاحد له ، فإذا كان الارتقاء فى أرضنا بلغ حدا عظيما جدا .

فياليت شعرى أين الدودة التى فى الصخرة وأين الإنسان ؟ وبمثل ذلك نقول : أين حياة هذا الإنسان التى هى أشبه بالدود بالنسبة لحياة أخرى فى عالم أرقى من عالمنا ؟ فالعقل يرى أن أرضنا عبارة عن مزرعة تزرع فيها أنواع الحيوان ثم ترتقى تلك المزارع انتقالا مجهولا لنا ؛ وغاية الأمر أن نقيسه على مانفعل بالزرع ، فإن الناس يزرعون البزور ثم ينقلونها كما نرى فى الأشجار عند رجال الحدائق والبساتين الذين يزرعون البزور فى مواضع خاصة ثم ينقلونها فتزرع زرعا أرقى ، ويكون اللاحق على مقتضى السابق والآخرة كالأولى ، فهكذا هذه الحيوانات خلقت فى الأرض خلقا مؤقتا لتنتقل إلى حال أرقى ، ونحن هنا لاندرى إلى أى جهة تصدر هذه الحيوانات .

فطرة العامة والنبوات

وهذا القياس الذى يخطر بالنفس هو بعينه ما جاء على قلوب الأنبياء وما غرس فى فطرة البشر ، فإنك

لاتدخل أرضا ولا تأتى مملكة إلا سمعت صدى صوت هذا الموضوع والإخبار عما هو غائب عن العيون ، فترى كل أمة تؤمن أن للنفوس حالا غير هذه الحال ، ولم يشذ عن هذا إلا أفراد فى كل أمة خلقوا للبحث فتحيروا وهؤلاء لايؤثرون فى المجموع ، وإذا وجدنا قوما زهدوا فى الطعام تدينا وتزهدا فذلك لايقدح فى الفطرة العامة التى تطلب الطعام لبقاء الأشخاص .

وليس وجود أناس يحرّمون النساء من أهل الديانات بمؤثر فى الفطرة العامة الإنسانية ، فإن فطرة اقتراب الجنسين عامة لبقاء النوع .

هكذا هنا إن الفطرة قاضية ببقاء الناس بعد الموت ، وأن هناك حقائق لابد منها وأن أعمالنا تؤثر فى ذلك المستقبل ضعة وشرفا .

هذه عقيدة عامة فى البشر كعقيدة الطعام والشراب ، فإنكارها مكابرة ، والفطرة العامة قط لاتكذب هى أبدا صادقة ، وإنما الخلاف فى تأدية العبارات والصور الظاهرة والقشور ، أما الحقائق فإنها لاتتغير ؛ فالطعام والشراب واقتراب الجنسين والاعتقاد بحال بعد الموت كل ذلك لم يتغير ولن يتغير ، والفلسفة تقول كذلك .

فياليت شعرى أى فائدة من هذا الوجود مالم يكن هناك ارتقاء وحال غير هـــذه ، وإلا كان ذلك كله ضلالا ووبالا .

أفى الإعدام رحمة ؟

ولما كان الأمر على ماذكر وكانت الحياة الدنيا مؤقتة وكان التناسل يوجب أن يبقى الأبناء ويعدم الآباء وأن كل جيل يحل محل الذى قبله كان الإعدام حتما لازما . إن الحياة رحمة حياة الحيوان وحياة الإنسان ، ولكن لو عاش الإنسان ٥٠٠ سنة لكانت الحياة وبالا والعيش نكدا وأصبح على القدم ألف قدم وأصبحت الحياة لاتطاق .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نقول : إذا كانت هذه الحياة مؤقتة فى عالم غير متقدم بل هو متأخر ، فالبقاء فيها أذى وشر بل يجب الرحيل منها ، فكان من الرحمة والحكمة أن يساعد الأحياء بعضهم بعضا على التفانى والخروج من هذه الحياة بعد اكتساب الفضائل والتجارب ، فكفى أن الحيوانات قد تربت وجربت على مقدار طاقتها ، وهكذا الإنسان بالآلام والأمراض والديانات والتجارب يستعد لحياة أخرى ، فيخرج من الأرض ، فكما أن كل واحد يحافظ على صحته وحياته هكذا يقوم غيره فيقتله ويفنيه لرحمته ولرحمة أهل الأرض لتخلو لمن يأتون بعدنا .

عقائد الإنسان فى أكل الحيوان وتحريمه وعاداته فى ذلك

واعلم أن الإنسان منه من لايأكل إلا اللحم كقوم فى الأقطار الشمالية ، وهؤلاء يسكنون فى أماكن ثلجية ولا يعيشون إلا على حيوانات البحر وليس لديهم نبات ، فما مثلهم إلا كمثل الأسود والنمور ، ومن الإنسان من لايأكل إلا نوع النبات ولا يذوق غيره ، ومنه من يأكل الحيوان والنبات معا كأكثر أهل الأرض .

ولما كانت الديانات لاتخرج غالبا عن مجاراة العادات كان منها مايحرم اللحم كالبوذيين وعكسهم أهل الصين .

وجاء فى بعض الجرائد فى ٢٢ مايو سنة ١٩٢٥ أن الصينيين يأكلون الديدان الصغيرة والنمل والضفادع

يشوونها ثم يقرمونها ، والقرومة منزلتها عظيمة جدا عندهم ، ولهم فيها صناعات تبلغ أربعين صنعة . وكذلك الهر والكلب والجرذان ، اه .

ومنها مايبيح لحم الإنسان كبعض ديانات المتوحشين ، ومنها مايجمع بين الأمرين ، وجاء الإسلام بطريق وسط فلم يبح أكل الإنسان ، ونظر في الحيوان فما رآه مخلوقا لإفادة أهل الأرض كالأسود والنمور حرّمه وما ليس كذلك حلله فيقول « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث» ويقول أيضا « اليوم أحل لكم الطيبات » فالطيبات حلال والخبيثات حرام ، وقد جعل لذلك قانون وهو أن الطيبات ما استطابته النفوس الشريفة من المؤمنين أصحاب اللسان العربي ، ولا عبرة بأهل البادية إلا ماورد الشرع بتحريمه وما استخبثوه فهو خبيث إلا ماورد الشرع بتحليله .

وقد جاء في كتب الشافعية أنه يحرم من السباع كل ماله ناب قوي يعدو به وذكروا من ذلك الأسد والنمر والذئب والدب والفيل والقرد ، ومن ذي الناب الكلب والخنزير والفهد وابن آوى وهو فوق الثعلب ودون الكلب طويل المخالب فيه شبه من الذئب وشبه من الثعلب والهرة .

ويحرم من الطيور ماله مخلب قوي وهو الظفر كالظفر للإنسان يجرح به كالصقر والباز والشاهين والنسر والعقاب وجميع جوارح الطير .

كيف وافق الإسلام الطبيعة

انظر أيها الذكي كيف وافق الإسلام الطبيعة ، وكيف حرّم من الحيوان ما كان نافعا بقاؤه ليطهر الأرض من الرم والعفونات ، وأباح ذبح ماليس كذلك كالبقر والجاموس .

أفلا تعجب معي ! كيف اتفق الشرع والطبع ؟ وكيف أصبحنا في زمان تظهر فيه مخبآت الحقائق وتنجلي للناظرين ؟

يحرّم الطيور الجوارح ويحرّم الأسود ، لماذا ؟ لأنها جارحة ، ثم لماذا هذا ؟ يكون الجواب السكوت ، ونحن نقول لاسكوت ، إن هذه الحيوانات نافعة لإزالة الجرائم والحيوانات ورممها من وجه الأرض ، هذا هو السبب .

فثبت إذن أن ذبحنا للحيوان ليس مخالفا للطبيعة بل هو مساوق لها ، فإن الإنسان يذبح والحيوان يذبح ، الإنسان يذبح بالحيوانات التي تدخل جسمه فتفترسه وتدخل فيه الأمراض ، وليست الآلام التي يتحملها الإنسان بأقل من الآلام التي يتحملها الحيوان ، الإنسان لابد أن ينال حظه من الآلام أكثر من الحيوان ، الحيوان يذبح مرة والإنسان يذبح كل يوم بأمراضه وهمومه وأفكاره .

ولذلك نجد بعض الناس يقتلون أنفسهم ومن بقي اجتمعت عليه الحيوانات من داخله فخربت هيكله تدريجا ، وكل يوم تذيقه أنواع العذاب وتقطع لحمه وعروقه وتؤلمه ألما شديدا ، ولكن ذلك كله رحمة واسعة لما قدمنا .

إن المتاعب تقوّي الروح .. فإما أن يتعب الإنسان بالنظام العام ويتألم لحفظ الصحة والنظافة وإلا فلا بد من تعب ونصب ، فنحن والحيوان سيان في تحمل الآلام وحركات المذبوح من الحيوان ليست شيئا مذكورا في جانب آلام الإنسان التي تعتريه كل آن ، بل الحيوان متى قطعت أوداجه اعتراه الذهول فلا يحس بألم وإنما تلك الحركات عضلية لا أثر للألم فيها وإنما يألم الأحياء منا .

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا ... كاسفا باله قليل الرجاء

النتيجة

إن الحيوان يألم والإنسان يألم ، والذبح من آلام الحيوان أخفّ من آلام الإنسان بما لا يقدّر ، وألم كل منهما نعمة عليه تقوّى روحه ، ولا بد لهما من حال بعد الموت « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شئ » ولا ندرى ماهى إلا ماتصوره الديانات بصور عامة ، والحيوانات الجارحة تأكل التى تأكل الحشائش لتكون نعمة على سكان الأرض بمنع العفونات ، والناس اختلفوا فى أكل الحيوان كاختلاف الحيوان فى أكل اللحوم ، والإسلام عدلٌ حرّم ماجعله الله لأكل اللحوم لتطهير الجوّ من العفونات ، فإذن يكون ذبح الحيوان غير خارج عن الطبيعة بل هو مساعد له على الخروج من الدنيا ومن هذه الحياة على الأرض وهى من العوالم المتأخرة .

البوذية والمانوية وأبو العلاء المعرى

ما أكثر الجهلاء فى الأمم ! فياليت شعرى إذا كانت هذه هى الحقيقة الناصعة فأى حجة للبوذية الذين يحرّمون أكل كل حيوان لأنه تعذيب لها ، وانظر لما كان يقوله أبو العلاء المعرى ، عرض عليه الطبيب دجاجا ، فقال : لماذا لم يصفوا لى شبل الأسد ؟ أطلقوا سراحه فوالله مامنعهم من وصف الشبل إلا قوته وضعفنا ، أفلست ترى أن هذه النظريات ضئيلة فاسدة ؟

فيالت شعرى كيف غفل هؤلاء عما نقتله من الحيوان كل يوم ونحن أمرنا طبيا ألا نشرب ماء النيل حتى نغليه لقتل الحيوانات التى فيه . أفليس هذا قتلا للحيوان ؟ فإذا كانت شربة الماء يقتل لأجلها مئات الألوف وألوف الألوف ولا ينكره أحد فى الشرق والغرب ، فكيف ننكر القليل مما نأكله ؟ إن أكثر الناس جاهلون .

لم سميت هذه السورة باسم المائدة ؟

وجوب درس علم الحيوان

اعلم أن هذه السورة حقيقة مائدة نصبها الله لعباده ليأكلوا منها مايشتهون ويتزودوا ويتعلموا .

لقد جعل الله الحيوان فيها على ثلاثة أقسام : حيوان يحرم قتله وهو ما كان فى الحرم وما كان له مخلب من الطيور أو ناب من حيوانات البر ، وقسم يحل أكله وهوما استطابته الأشراف من هذه الأمة كالإبل والبقر والغنم ، وقسم جاز قتله كالكلب العقور والفأرة ، وهكذا بقية الفواسق الخمس الواردة فى الحديث ، فكأن الله جعل هذه المائدة منصوبة لنا ولم يترك الأمر سدى بل أبان ما يؤلمنا وجوده كالفواسق الخمس الواردة فى الحديث ، وما يؤلمنا عدمه الذى سماه بالخبائث لأنه ينظف جوّنا ويطهر أرضنا ، وماينفعنا أكله كالبهائم وبقية الطيور .

أو لست ترى أن هذه المائدة التى نصبها الله لنا لايصح الإغضاء عنها ؟ وهل من الأدب أن ننظر إليها من بعيد كأنها ليست لنا ؟

كيف ساغ للمسلمين أن يناموا بعد الأولين السابقين من الأئمة الأعلام

لقد ظنوا أن الأئمة رضوان الله عليهم ماتركوا قولا لقائل فى جميع العلوم ، ولكن فاتهم أن الأئمة اعتنوا أشد العناية بما هو أمسّ بالعبادة اتكالا منهم على عقول الأمة فى الباقى .

وإذا كنا نرى الإمام الشافعى رحمه الله تعالى يقول : إن الترتيب واجب فى الوضوء مستنتجا ذلك من ترتيب الأعضاء فى القرآن ، ويوجب النية فى الوضوء مستنتجا ذلك من آية فى آخر القرآن « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين » .

ونرى أبا حنيفة يقول : لانية للوضوء لأنها لم تذكر فى القرآن ، ونرى أنهم اختلفوا فى اثنى عشرة مسألة فى فرائض الوضوء ومسح الوجه وجميع أجزائه قطعة قطعة ، فما تركوا شعرا ولا بشرة ولا جفنا ولا عينا ولا عنفقة إلا بحثوا ودققوا ، فلماذا هذا كله ؟ للطهارة ، والطهارة مقدمة العبادة .

فانظر كيف كان جدهم واجتهادهم وحرصهم على الدين وعلى ارتقاء الإنسان فى أموره الدينية ، فهلا نظر المتأخرون فيما أودعه الله فى القرآن وحققوا كما حقق آباؤنا وأجدادنا ؟ وهلا نظروا فيما حوته هذه المائدة المنصوبة فى الأرض فوفوها حقها كما كان الأئمة رضوان الله عليهم يفعلون ؟ حرضت السنة على قتل كل حيوان يؤذينا ؛ فليبحث علماء الأمة فى أنواع المكروبات القاتلة لنا قياسا على ماعلم من الكلب العقور والفأرة وأمثالهما ، ولو أنا وجدنا كلبا يعقر الناس لوجب علينا قتله .

هكذا يجب علينا أن نبحث فى الكلاب المستترة تحت أجسامنا وهى المكروبات والحيوانات الذرية الصغيرة ولنخصص لها الأطباء ، وديننا يأمرنا بذلك كما أمر نبينا صلى الله عليه وسلم فى الفواسق الخمس .

وهكذا إذا وجدنا أنه أبقى بعض الحيوان فى الحرم ، وغيره أبقاه فى كل مكان ، وظهر الآن أن بقاءه لتنظيف الجو ؛ فلنقم نحن بحراسة هذه الحيوانات ولنبحث على أمثالها فى الأرض ، لنبحث على كل حيوان نافع لزرعنا ولنبقيه ولا نأكله .

حكاية

قد ذكرت فى هذا التفسير أن الحكومة المصرية قد بحثت فى أمر الطيور ومنعت قتل كثير منها لنفعها فى الزراعة ، وسبب ذلك أن المصريين القدماء كانوا قد درسوا أنواع الحيوان وجعلوا بعضها محفوظة لأنها قاتلة للحشرات الآكلة للزرع ؛ فلما دار الزمان دورته وتقلب الغرب والشرق وجاء أهل أوربا إلى بلادنا أنسوا المصريين أخلاقهم وعوائدهم فانهالوا على الحيوانات التى كانت نافعة فقتلوها صيدا ليتزينوا بريشها ، فلما تنبهت الحكومة المصرية إلى ذلك أمرت بإحصاء الحيوانات الآكلة للحشرات وأمرت بحفظها وهى هذه :

(١) عصفور سكسيكولا : هو عصفور ملون بالزرقة والصفرة والسواد .
(٢) العصفور المغنى : هو أصغر من العصفور السابق .
(٣) أبو فصادة : هو كالسابق حجما .
(٤) عصفور بيبيت : تغلب على لونه الصفرة مع السواد .
(٥) عصفور آكل الذباب .
(٦) الوروار : هو فى حجم الحمامة ذو منقار طويل تغلب على لونه الخضرة .
(٧) الهدهد : هو معروف .
(٨) الكروان : هو كبير الحجم كالدجاجة ملون بلون الشفق مع السواد .
(٩) الزقزاق الشامى : أصغر مما قبله قليلا لكنه جميل الشكل .
(١٠) الزقزاق البلدى : يقرب من السابق ، وللأول غرة ممتدة خلفه وتغلب عليه الخضرة من ظاهره والبياض من باطنه ، والثانى على لون مختلط بياضا وصفرة من ظاهره والسواد فى أسفله .
(١١) القنابر : وهى معروفة تقرب من شكل صغار العصافير .
(١٢) أبوقردان : وهو معروف أبيض اللون طويل الرجلين والمنقار كبير الحجم .

الدليل على أن هذه الحيوانات محرّم أكلها

هذه الحيوانات هي التي يجب حفظها لحفظ الزرع .

ولعلك تقول : هل كل هذه الحيوانات نصّ على تحريمها القدماء ؟

أقول : اعلم أن هذه الحيوانات متى ثبت نفعها للزراعة صارت محرمة ، وإن لم تكن مما استخبثته الطباع. ألا ترى إلى قوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » فى سورة النساء ، وقد قدمنا أن هــذه الآية تحرّم علينا أخذ التجارة الفرنجية إلا ما عجزنا عن عمله وإلا إذا كان ذلك قتلا لنا ، وما مثل التجارة الفرنجية إلا كمثل الحلوى تعطى للأطفال وفيها السم فيموتون ، أو كمثل الحب يرمى تحت الشبكة والشبكة تقتنص الطير بسبب هذا الحب ، أو كالصائد يحفر حفرة فى الجبل ويغطيها بشئ من الحشائش والأعشاب فيمر عليها الأسد فيسقط فيها .

فهذا معنى قوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » فى مسائل التجارة ؛ هكذا هنا فى الزراعة ؛ لو أنا تركنا تلك الطيور يفتك بها الجهال بعد أن ثبت لنا نفعها لأنها تأكل الحشرات ، فإن قتلها إبقاء للحشرات ، وإبقاء الحشرات موت لزرعنا ، وهلاك زرعنا هلاك لنا ؛ فكأن بإباحة قتل الحيوانات أبحنا قتل أنفسنا ، وهذا هو الجهل المبين .

فليقم فى الأمة الإسلامية أقوام يختصون بالعلوم المختلفة كل فيما يناسبه ، وليكن للحيوان علماء من حشرات وأنعام حتى نعرف مايضر وما ينفع ، فهناك من النافع والضار ما نجهله جهلا فاضحا ، وديننا يأمرنا بالبحث فى ذلك .

ألا ترى إلى قوله تعالى هنا « تعلمونهن مما علمكم الله » وقال علماؤنا : تعليم الله لنا بالإلهام وبالعقل ، فدل هذا على أن هناك علماء فى الحيوان سيعرفه المسلمون .

وياليت شعرى لماذا يقول هنا ؛ « مما علمكم الله » فكأن هذا تنبيه على أن الله سيعلمنا فى الحيوان مالم نعلم الآن ، ومن ذلك التعليم مانعلمه للحيوان الذى به نصطاد غيره .

فليكن فى أمة الإسلام النائمة الآن علماء للحيوان وعلماء للنجوم ، فإنا لانعيش على هذه الأرض ونحن جاهلون مافيها .

هذه المائدة حسية ومعنوية

فعلى هذا تكون المائدة التى نصبها الله للمسلمين ليست قاصرة على التزوج والتناسل والمآكل وما أشبه ذلك ، فإنه لو كان الأمر كذلك لم يكن فرق بيننا وبين الحيوان ، إنما خلقنا على الأرض ليكون التفاعل والتدخل بيننا وبين بعضنا ، وبيننا وبين الحيوان موجبا لإظهار ما كمن فى نفوسنا من الفطر والغرائز والأخلاق ، وليس يمكن أن يتم هذا إلا بالإحساس بما هو مؤلم ، وبالإحساس بما هو مستلذ ؛ فيكون ألم وتكون لذة ، وكلاهما ليس مقصودا لذاته ، كلا !

وكما أن الفتى والفتاة يقترنان لداعى الشهوة ، ثم يظهر فى آخر الأمر أن تلك اللذة غير مقصودة وأنهما معا يتحدان ويتعاونان ويجتهدان فى تعليم الولد وتربيته والقيام بواجباته وحبه وبنسيان تلك اللذة ويفرحان من تلك الطفولية ، وهما مدفوعان لحب الولد وبقائه ، وكلاهما مجدّ فى التفرغ لسعادته وبقائه ، حريصين على تقدمه وارتقائه ، ويعطيانه مايملكان ، ويورّثانه مايكسبان .

فهكذا هذه المائدة التى أنزلها الله لنا فى القرآن وأبرزها فى هذه الدنيا للعيان ، وفيها المآكل الحيوانية واللذات الحسية من اقتران الجنسين فى أول هذه السورة لم تكن مقصودة لذاتها بل يراد النظر فى دقائقها والتحقق من عجائبها ، والفهم لبواطنها ودرس العلوم التى أدمجت فى أسرارها ، ورمز لذلك بقوله « مما علمكم الله » .

ولما أتم الكلام على الحيوان وأكله والنساء والتزوج بهن من المحصنات شرع يطهرنا بالوضوء ويفتح لنا باب الصلاة ، وكأنه يقول إن الصلاة بعد النظافة معراج تعرجون عليه لأفتح لكم كنوز هذه الأرض فأروض عقولكم بالبحث فى مائدتى والتفرج على أنواع حيوانها وأسرارها وغرائبها ، فتعرج أرواحكم إلىّ وأنتم فى الدنيا بالعلوم ، وإذا صرتم إلىّ كنتم فى جوارى لأنه لايجاورنى إلا العلماء ، ولا يصل إلى ملكوتى إلا الفضلاء ؛ فإذا وقفتم عند المآكل والنساء المذكورات فى أول السورة وغفلتم عن العروج إلىّ بالنظافة والصلاة لتشكروا نعمتى بمعرفتها ، إذا فعلتم ذلك فأى فرق بينكم وبين الحيوان ؟

العلماء الذين سيكونون فى أمة الإسلام فى مستقبل الزمان

سيكون هناك طوائف لدراسة المخلوقات ، وإليك بيانها :

(١) علم طبقات الأرض لدرس علوم كثيرة أخصها التاريخ الطبيعى للحيوان .

(٢) علم النبات . (٣) علم الحشرات .

(٤) علم الأنعام والآساد والطيور . (٥) علم الإنسان .

(٦) علوم السياسة . (٧) علوم المعادن .

(٨) علم الكواكب والفلك ، وهكذا . (٩) علم الطب .

وسيكون هناك مجلس عام من هؤلاء العلماء ويكون قرارهم معمولا به فى شئون الأمة .

مثال ذلك :

(١) أن الحيوان النافع يحرم قتله . (٢) وأن الحيوان الضارّ يجب قتله .

(٣) وتكون الأحكام الصادرة من هذه المجالس واجبة التنفيذ .

ياعلماء الأمة الإسلامية ويا أمراءها لقد رأيتم فى هذه السورة أن هذه العلوم أصبحت واجبة ودين الإسلام لايزال بكرا ولم يدرس منه إلا القليل ؟

يارجال الأمة إن آباءنا رحمهم الله قد أدوا ماعليهم فى ألف وثلثمائة سنة ؛ فها نحن أولاء قد جئنا اليوم ، فلتكن الألف والثلثمائة سنة المستقبلة للبحث فى حقائق الكون التى سترت وكنت وحفظت لكم ، حفظها لكم الآباء ، حفظوا القرآن لكم ، حفظوه فى المصاحف كما تحفظ الأم الجنين فى البطن وتخاف عليه وزوجها أن يمس بسوء .

هكذا آباؤنا حافظوا لنا على أمرين : أمر القرآن حتى سلموه لنا ، وأمر التحقيقات الدينية ، فأرونا كيف كانوا يحققون ؟

ولقد بينت لكم هنا كيف كانوا يحققون وكيف كانوا يدققون فى أقل المسائل ، فى غسل أنف أو غسل عين أو غسل جفن ، كل ذلك لحرصهم وفضلهم فى العلم وفى الدين ، كأنى بكم وقد صار فيكم محققون وأئمة فى الفلك والنبات والحيوان وفى العلوم التى ذكرتها لكم ، انظروا كيف كانوا يستدلون ، انظروا كيف كانوا يبحثون ؟.

آن الأوان وجاء الزمان وظهر الحق وسيكون الجيل المقبل من خير الأجيال علما وعملا .

أيها الأبناء الذين ستكونون بعدنا ، انظروا كيف اختلف آباؤنا فى آية واحدة وهى آية الوضوء ، وكيف وصلت فروض الوضوء إلى ١٦ ؟ وكيف أتوا بالأدلة والبراهين والأحاديث ؟

فكيف إذا جئتم أيها الأذكياء وبحثتم فى أمر الجمال الإلهى فى الأرض والسماء كعلم الحيوان الذى ذكرته لكم من سورة المائدة ، وكيف ترتقى العقول بارتقائه ؟ وكيف تكون فى الكرة الأرضية أمم عظام ؟

إذا كان ذلك الخلاف كله فى آية فى الوضوء ، والوضوء مقدمة العبادة ، فما بالكم إذا عرف المسلمون فى أقطار الأرض أن العلم والفكر فى مصنوعات الله عبادة حقة وهى أرقى من العبادة العملية ، العبادة العملية مشرّفة للنفس . فالصلاة معراج ، والوضوء مفتاح لذلك المعراج ، ولكن بم يكون العروج ؟ يكون بالعلوم ؛ فإذا نصبنا سلما وجعلنا له بابا ، فالسلم هو الصلاة ، والباب هو الوضوء ، ولكن العروج على ذلك السلم لايكون إلا بدرس العلوم من القادرين ، والدراسة إما أن تكون للمنافع كالتى قدمناها لمقتضى هذه السورة ، وإما أن تكون لارتقاء الروح مع المنافع ، كما فى قوله تعالى « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم الخ » ألم يقل الله لنا « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » فلماذا لانبحث مافى الأرض جميعا ؟ لماذا لانبحث بحثاتاما ؟ فإذا كان الله خلق لنا هذا كله ، فلماذا تركناه وأضعناه ؟ وعقولنا نامت جميعا نومة واحدة حتى ملكنا الفرنجة ، فليستيقظ المسلمون وليتعلم المخلصون .

فإذا تعاون آباؤنا على آية الوضوء فلنتعاون على ماهو أشرف من الوضوء ، وما هو المقصود الأكمل وهو المعرفة وعروج النفس إلى مقامات الكمال .

إن الله لايجلس على مائدته إلا الأكابر ، ولا أكابر إلا المفكرون ؛ ابتدأ سورة المائدة بالحيوان وحله والنساء وحلهن ، وختمها بمائدة عيسى ابن مريم وأن الحواريين اطمأنت قلوبهم بها لما أكلوا منها .

إن الملك إذا مد سماطه لرعيته فتناولوا الطعام ، فالعامة يفرحون بما أكلوا والخاصة لايبالون بالطعام ، وإنما يتعرفون مجلس الوزراء وخواص الدولة وأكابرها ، ولو أن أحد الفضلاء أكل على سماط الملك وحرم من التشرف بلقائه والتمتع بالشرف العظيم لرجع كليل الطرف حسيرا لعلمه أن الملك معرض عنه ؛ فويل لمن ظن أن المائدة طعام وشراب وفاكهة وحسان ، وإنما المائدة الحقيقية شرف العلم والوقوف على أسرار هذا الوجود لاسيما الحيوان وأنواعه للانتفاع به « فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » فويل ثم ويل لشيوخ حصروا تلاميذهم فى دائرة ضيقة ، وويل ثم ويل للتالين لكتاب الله وهم به جاهلون ، وويل ثم ويل لشيوخ جهلوا وعلموا تلاميذهم أنواع الجهالات فصدوهم عن العلم وأنكروه ؛ فليبك على نفسه من أضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم .

اعتراض على المؤلف وجوابه

قال لى عالم فاضل لما اطلع على هذا : إن من اطلع على كلامك هذا يرى أنك تحرّض على أكل اللحم والاكثار منه لأنك جعلت أن الحيوان إن تألم من الذبح فألمه أقل من ألم الإنسان ، وأبنت أن الحيوانات الذرية تفتك بأجسامنا فتميتنا ، وجعلت أن نوع الإنسان وأنواع الحيوان خلقوا فى نصب وتعب للارتقاء وتقوية الأرواح وأن هناك عالما أرقى ، وأبنت أن الأحياء على الأرض مختلفون جميعا من أضعف حياة إلى أقواها ولا تكاد تحصى تلك الأنواع من الحياة ، وأن العوالم التى تراها لابد أن تكون فيها عوالم أوسع

وأعظم وأشرف درجات كثيرة ، كل هذا لاغبار عليه إنما إفاضتك القول فى اللحم وأكله ينافى ماذكرته فى سورة البقرة وأن أكل اللحم والإكثار منه مضرّ بالصحة ، فأين هذا القول من ذاك المقال ؟

الإجابة

اعلم أنى الآن أبحث فى نظام هــذه الدنيا وقراءة حيوانها واختلافه وأن بعض المخلوقات يأكل الآخر ، فأما كون اللحم مذموما أو ممدوحا فشئ آخر ، وهذا يرجع إلى أحوال الشخص ، فإن أراد صفاء النفس وقلة الأمراض فليقلل من اللحم ، فأما المكثرون منه فهم معرّضون للأخطار كما قدمنا ، وإذا ترك اللحم كان خيرا وأحسن تأويلا .

واعلم أن الناس إذا أكلوا اللحم فإن البهائم المذبوحة المأكولة تتحول دائما أجسامها إلى عفونات وتلك العفونات تنقلب فى الأجسام ذرات قتالة ، ولها حياة أيضا فتفتك بالناس وتقتلهم «ولكن أكثر الناس لايشعرون» أن أكثر الأمراض فى الطعام ، وأضر أنواعه اللحم فإنه هو الذى يورث فى الجسم العفونة التى تنقلب حيوانات فاتكة تفسد هيا كلها .

هذا من العجائب !

أليس من عجب أن نريح الحيوان بذبحه فيثيبنا على ذلك بإعدام حياتنا بعد دفنه فى أجسامنا ، نريحه بالذبح ونأكله ، وهو يريحنا بأن يكون سببا لأمراض تورث الموت أو تقربه لنخرج من هذه الأرض .

وبعبارة أخرى نعذب الحيوان بذبحه ونقطع حياته فيفعل معنا مافعلناه معه ، حذو القذة بالقذة « وجزاء سيئة سيئة مثلها » أفلا ترى أن كل جزاء من جنس العمل ؟

ياعجبا كل العجب ! نفنى الحيوان فيفنينا . ونذبحه فيمرضنا ، ونقتله فيقتلنا ، هو الذى يدخل فى الأجسام فيضع فيها أنواعا من الأمراض كما نص عليه الأطباء فى عصرنا الحاضر ، ودلت عليه التجارب .

إن العذاب بعد الموت يكون بنفس العمل ، ونفس العمل هو الذى يفتك بنا إذ ذاك كما فتك بنا لحم الحيوان .

انتهى الكلام على المقدمة فى تفسير آيات الأحكام الواردة فى حديث ميسرة ، وإنما جمعتها هنا تيمنا بالحديث الشريف وتسهيلا للمراجعة ، وسأحيل عليها عند ذكر آياتها فيما سيأتى فى تفسير السورة .

فلنبدأ فى تفسير مقاصد السورة فنقول :

المَقْصِدُ الأَوَّلُ

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَايُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَايُرِيدُ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

أمر الله سبحانه وتعالى أن نفى بالعقود ونقوم بها ، والعقود مايعقده الناس بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن ، وكذلك ما عقده الله من عهود الإيمان فيما أحل وحرم ، وهكذا عقد اليمين وعقد النكاح وعقد العهد وعقد البيع وعقد الشركة .

(١) مسألة : لو نذر أن يصوم يوم العيد ، أو يذبح ولده وجب عليه الوفاء به عند أبى حنيفة لأجل هذه الآية « أوفوا بالعقود » ولكن يصوم غير يوم العيد ويذبح غير ولده حلالا ، والشافعى يمنع ذلك ويقول لاينعقد النذر .

(٢) خيار المجلس فى البيع عند أبى حنيفة غير جائز لقوله « أوفوا بالعقود » فأين الوفاء مع الخيار ؟ والشافعى يقول بخيار المجلس للحديث المخصص للآية .

وهذا تفسير قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) اعلم أن الإبل والبقر والغنم والمعز والظباء وبقر الوحش وحمر الوحش ونحوها وهى بهيمة الأنعام حلال لنا ، والبهيمة اسم لكل ذى أربع من الحيوان ، وإضافتها إلى الأنعام كثوب خز للبيان أى البهيمة من الأنعام ، وحل هذه البهائم إذا لم تحرم بالأسباب الآتية فى قوله « حرمت عليكم الميتة الخ » وإذا لم تكن الوحشية منها كالظباء وبقر الوحش والحمر قد صدتموها وأنتم محرمون ، وإلا حرمت كما اتضح فى المقدمة .

هذا معنى قوله تعالى مبينا بعض العقود التى يجب الوفاء بها (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم) أى إلا محرم مايتلى عليكم فى قوله « حرمت عليكم الميتة » حال كونكم (غير محلى الصيد وأنتم حرم) أى غير محلى صيدها وأنتم محرمون فى حال الإحرام كما تقدم (إن الله يحكم مايريد) من تحليل وتحريم .

ثم إن الله حرم علينا أن نتهاون فى الشرائع التى سنها وهى المسماة (شعائر الله) جمع شعيرة ؛ فالشرائع والشعائر بمعنى ، ومنعنا أن نصد الناس عن الحج فى أشهر الحج (ولا الشهر الحرام) وأن لانتعرض للهدى : جمع

هدية ، وهو مايهدى إلى الحرم من النسائك فلا تغصبه ولا تمنعه أن يصل إلى محله ، وكذلك لاتتعرض إلى الإبل والبقر والغنم التى اعتاد العرب أن يشدوا فى أعناقها قلائد : جمع قلادة من نعال أو لحاء شجر أو غيرهما ليعلم به أنها هدى فلا يتعرض لها ، وكذلك لاتتعرض لقاصدى البيت الحرام وهى الكعبة يطلبون فضلا من ربهم ورضوانا .

وهذا معنى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين) قاصدين (البيت الحرام) الكعبة (يبتغون فضلا من ربهم) بالتجارة ، حال من الضمير فى آمين (ورضوانا) وأن يرضى عنهم : أى لاتتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم .

ثم إذا كان الصيد حراما وقت الإحرام ، فإن الحرمة تزول متى حل وانتهى أمر الإحرام ، هذا معنى (وإذا حللتم فاصطادوا) فهذا إذن ، لا أمر للوجوب .

واعلم أن أهل مكة صدوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الوصول إلى مكة عام الحديبية لأداء العمرة ، فأراد المسلمون الانتقام منهم ، فقال الله (ولا يجرمنكم) أى لايحملنكم (شنآن قوم) شدة بغضهم (أن صدوكم عن المسجد الحرام) عام الحديبية (أن تعتدوا) عليهم بالانتقام ، أى لايحملنكم بغض أهل مكة على أن تعتدوا عليهم لصدهم لكم عن المسجد الحرام (وتعاونوا على البر والتقوى) على العفو والإغضاء (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) والبر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع الناس عليه (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) فانتقامه أشد من انتقامكم من أهل مكة ، وقوله (حرمت عليكم الميتة) إلى قوله (ذلكم فسق) قد سبق تفسيره فى المقدمة .

ونزل يوم الجمعة بعد العصر فى يوم عرفة والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق وبركت من شدة الوحى فى حجة الوداع سنة عشر من الهجرة ، آية « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم — إلى قوله — ورضيت لكم الإسلام دينا » يقول الله (اليوم) فى هذا الزمن وليس يوما بعينه كما يقال يوملنا ويوم علينا (يئس الذين كفروا من دينكم) يئسوا من رجوعكم عن دينكم ومن تحليل هذه الخبائث كما يحللونها ومن أن يغلبوكم (فلا تخشوهم) فلا تخافوا الكفار أيها المؤمنون أن يظهروا على دينكم فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم (واخشون) وخافوا مخالفة أمرى ، ولقد كنت أنزل لكم الأحكام لأوقات خاصة فكان كمالها وقتيا (اليوم أكملت لكم دينكم) بحيث يصلح إلى آخر الزمان بما فيه من الفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ، وبأنه لم يحج معكم فى هذا العام مشرك وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، وبأنى أظهرت دينكم على الأديان وبأن دينكم لاينسخ ولا يزول وأنه باق إلى يوم القيامة ، وبأنكم آمنتم بكل نبى بخلاف الديانات كلها ، وبأنكم سلمتم من عدوكم (وأتممت عليكم نعمتى) بالهداية والتوفيق وإكمال الدين وفتح مكة وهدم منار الجاهلية (ورضيت لكم الإسلام دينا) الإسلام الانقياد لطاعتى فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود .

قال أصحاب الآثار : إنه لما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم لم يعمر بعد نزولها إلا أحدا وثمانين يوما أو اثنين وثمانين يوما ولم يحصل فى الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل ألبتة ، وكان ذلك جاريا مجرى إخبار النبى صلى الله عليه وسلم عن قرب وفاته وذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزا .

ومما يؤيد ذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على الصحابة فرحوا جدا وأظهروا السرور العظيم إلا أبا بكر رضى الله عنه فإنه بكى ؟ فسئل ، فقال : هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال ، فكان ذلك دليلا على كمال علم الصديق رضى الله عنه حيث وقف من هذه الآية على سر لم يقف عليه غيره .

ومن عجب أن خطبة الوداع كانت مصرحة بهذا المعنى ، ألم تر إلى قوله فيها « ليبلغ الشاهد منكم الغائب ؛ فرب مبلغ أوعى من سامع ؟ » وقوله « لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » وأخذ يوصى بالنساء وبالأرقاء وغير ذلك ، فقوله « لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » أشبه بما فى الآية .

وقد روى أيضا أن عمر رضى الله عنه بكى بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية وفهم كما فهم أبو بكر رضى الله عنه ؛ وتوفى صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

وروى البغوى بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قال جبريل: قال الله عز وجل: هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه » وهذا كقوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام » ولقد فتح الكسائى همزة « إن الدين » وجعل البصريون ذلك بدلا مما قبله كقولك ضربت زيدا نفسه فيصير التقدير هكذا : شهد الله والملائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم قائما بالقسط أن الدين عند الله الإسلام ، فعلى هذا كون الدين عند الله الإسلام هو عين إن الله واحد حال كونه قائما بالقسط فى تدبير ملكه ، وأصل الدين الجزاء وتسمى الطاعة دينا لأنه سبب الجزاء ، والإسلام أصله إما الانقياد وإما الدخول فى السلم وهو السلام وإما الإخلاص .

وللآية وجه آخر فى الإعراب ، وهو أن الدين مفعول شهد ، وقوله أنه لا إله إلا هو أى لأجل أنه لا إله إلا هو فيصير نظم الآية هكذا : شهد الله والملائكة وأولوا العلم أن الدين عند الله الإسلام بسبب أنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله حال كونه قائما بالعدل فى المخلوقات كلها فتصير وحدانيته وتوحيد أفعاله بالعدل فى هذا النظام سببا فى أن الله شهد بأن الدين إنما هو الإسلام ، وأن العلماء والملائكة شهدوا بذلك: أى لأنهم شهدوا الوحدة فى هذا الوجود ، والوحدة يصحبها العدل لأن العدل وحسن النظام أثر وحدة الخالق جل وعلا ؛ فلما علموا ذلك شهدوا أن الدين إنما يكون الانقياد والإخلاص لمن نظم هذه الوحدة العجيبة والعدل المتقن ، والنظام الكامل الذى يراه العلماء كأنه شخص واحد منتظم كامل ، فإذا لم يعرف علماء الأمة ذلك فشهادتهم أن الدين هو الإسلام فقدت سببها وهو معرفة حسن النظام فى الطبيعة والفلك ونحوهما .

ولما كانت الآيات السابقة على هذه قد ذكر فيها المحرمات ختمها بقوله « ذلكم فسق » ثم أبان بهذه الجمل الاعتراضية أن تجنب هذه المحرمات من جملة الدين الكامل .

وهنا شرع يقرر أن التناول منها اضطرارا جائز بأن كان الإنسان فى مجاعة وليس مائلا لإثم فلا هو آكل فوق الشبع كما قال فقهاء العراق ، ولا متعرض لمعصية وهو قول علماء الحجاز .

وهذا معنى قوله (فمن اضطر فى مخمصة) مجاعة (غير متجانف) غير مائل (لإثم) من أكل فوق الشبع أو معصية (فإن الله غفور رحيم) لايؤاخذه بأكله .

ولما أتم الكلام على المحرمات أخذ يذكر ما أحل أكله فقال (يسألونك ماذا أحل لهم) فأجابهم قائلا (قل أحل لكم الطيبات) مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر منه ، ومفهومه أن المستخبثات حرام ، فالحلال والحرام تبع الاستخباث والاستطابة .

وقد تقدم فى المقدمة أنه يجب أن تكون لجنة إسلامية تبحث فى جميع الحيوان ، فما نفعنا للزراعة

حرمنا صيده كما حرمنا صيد الحرم ، وما يضر أكله طيبا منعناه ، وما خلق لمنفعة العامة تركناه كما أوضحناه ، وإذا كانت الاستطابة والاستخباث يرجعان إلى طبائع أفضل رجال العرب ، فلأن يكونوا أطباء خير وأبقى وأنفع ، وأما قوله تعالى « وما علمتم من الجوارح مكلبين – إلى قوله – وهو فى الآخرة من الخاسرين » فقد تقدم تفسيره فى المقدمة .

عجائب القرآن

زيادة إيضاح « ورضيت لكم الإسلام دينا »

يقول الله فيما تقدم « ورضيت لكم الإسلام دينا » ومعلوم هناك أن كون الدين عند الله الإسلام سببه أنه قائم بالعدل فى الخلق والنظام ، فلا بقاء لأمة بلا عدل ولا نظام ، مؤمنة كانت أو كافرة والحيوان والمعدن والسموات والأرض لاقيام لها إلا بحسن النظام ، فأخذ يذكر هنا القسط والعدل فى أفعال العباد ليكون على وفق نظام الله ، كما قال الله تعالى فى سورة الرحمن « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » فهو هناك يقول : وزنت كل شئ ونظمته لأجل أن تعدلوا وتنظموا ، وهنا يقول « رضيت لكم الإسلام دينا » فقوموا بالقسط والعدل الذى كان سببا فى آتى شهدت وشهد العلماء والملائكة أن الدين هو الانقياد والإخلاص لمن أبدع النظام ، فتنظموا كما نظم وتعدلوا كما عدل وتكونوا متخلقين بأخلاق الله .

المَقْصِدُ الثانى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

فأما قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) إلى قوله (وليتمّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون) فقد تقدم فى المقدمة ، وأما قوله (واذكروا نعمة الله عليكم) من الصحة والمال والحياة وتسخير السموات والأرض ومنها الطهارة والصلاة والأحكام الشرعية المذكورة ، فإن الله يذكرنا بذلك كله (وميثاقه الذى واثقكم به) يعنى الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم النبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره (واتقوا الله) فيما أخذ عليكم من الميثاق فلا تنقضوه (إن الله عليم بذات الصدور) أى بما فى قلوب عباده من خير وشر .

واعلم أنه سبحانه ابتدأ السورة بطلب الوفاء بالعقود وأخذ يذكر كثيرا منها ، فمنها الحلال ومنها الحرام ، ثم ختمها بتذكيرهم بالميثاق مرة أخرى .

ولما أتمّ الكلام على العهد والميثاق فى الحلال والحرام فى بهيمة الأنعام أخذ يذكر معاملات الإنسان مع الناس ، وأنه يجب أن يكون المرء عدلا فى شهادته ، فلا يشهد لقريبه ولا على عدوه بل الشهادة تكون على وجهها .

وهـــذا قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أى ولا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم ، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا بسبب ما فى قلوبكم (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى العدل أقرب للتقوى ، وبهذا أمر بالعدل .

وإذا كان العدل يجب أن يكون مع الكافرين ، فكيف يكون الأمر مع المسلمين ؟ (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) والتكرار لمزيد الاهتمام (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) وقوله «لهم مغفرة وأجر عظيم» دالّ على المفعول الثانى لوعد ، ولما كان أحد الفريقين يذكر بعد الآخر أتبعه بقوله (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) ثم أخذ يذكر المسلمين نعم الله عليهم بالنجاة عما دبر لهم من الكيد .

ذلك أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا بعسفان إلى الظهر معا ، فلما صلوا ندموا على أنهم لم يفاجئوهم بالقتل مرة واحدة وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى العصر ، فرد الله عليهم كيدهم .

وأيضا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه خلفاؤه الأربعة قريظة يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو ابن أمية الضمرى يحسبهما مشركين فقالوا نعم وأكرموه ظاهرا وعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج .

وأيضا نزل النبى صلى الله عليه وسلم منزلا وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه فجاءه أعرابى فسلّ سيفه ، فقال من يمنعك منى ؟ فقال الله : فأسقطه جبريل من يده فأخذه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك منى ؟ فقال لا أحد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فنزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) انتهى المقصد الثانى .

المقصد

المَقْصِدُ الثَّالِثُ

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ

قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

اعلم أن هذا القصد مملوء بالعجب غاص بالحكم ، ذكر أخبار بنى إسرائيل إذ خرجوا من مصر وكيف وعدهم الله أن يملكهم الأرض المباركة ، وقد أرسلوا اثنى عشر رجلا منهم فرأوا الأرض المباركة فرجعوا وفى أيديهم الثمر ، فلما رأوهم قد مدحوا تلك الأرض تركوا هذا الخبر وجبنوا وأصغوا لأقوال المرجفين المخوفين وقالوا لاطاقة لنا بقتال القوم فأتاهم الله أربعين سنة كما سأنقله لك من نفس التوراة ، فهؤلاء بنو إسرائيل عصوا ربهم وجبنوا عن الحرب ولم يوفوا بالميثاق ، فلما عصوا أذلهم الله فأتاهم أربعين سنة ولم يدخل الأرض المقدسة إلا أبناؤهم .

هكذا يكون حال المسلمين الذين أعطوا ميثاق الله بقبول القرآن وأمروا فى أول هذه السورة أن يفوا بالعهود فقيل لهم « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود الخ » وسرد العقود والعهود ثم أخذ يذكر مافعله بنو إسرائيل إذ أخذ عليهم العهد والميثاق فخالفوا العهد فخرجوا من الأرض المقدسة ، وهكذا النصارى لم يفوا بعهودهم فأوقع الفشل بينهم وجعلهم فرقا متشاكسة وألقى بين دولهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وذلك لأنهم قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم مع أن المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة تحت رحمة الله ، فلو شاء لأهلك الأرض ومن عليها بأى علة من العلل السماوية أو كوكب يقترب منها فيهلكها .

ومن هو المسيح ؟ ومن هى أمه ؟ ومن هم أهل الأرض ؟ وما الأرض التى هم عليها إلا من المخلوقات المتأخرة التى ليست أعظم الخلائق ولا أكبر الأرضين ، وكم فى الكون من شموس وأراض قد تبلغ ثلثمائة مليون أرض على حسب ما استنتجه الإنسان اليوم ، فكيف يكون عيسى ابن مريم الذى هو فى أرض ضئيلة ضعيفة إلها ، إن هذا لعجب عجاب وجهل عظيم !

هذه هى ذنوب اليهود والنصارى معا ، ثم أخذ يقرعهم جميعا أى اليهود والنصارى ، ويقول أيها اليهود أيها النصارى ، كيف تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه ؟ وبأى وجه تقولون هذا القول ؟

خبرونى إذا كنتم صادقين فى قولكم ، فلماذا يكون عقاب على الذنوب ؟ فالمحبون لايعاقبون ، ولقد قلت لكم إن من فى الأرض جميعا ليسوا شيئا يذكر فى جانب السموات والأرض ، أهل الأرض مغترون وأين أرضكم ومن عليها ؟ بل أنتم بشر من خلق فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء .

لقد طال عليكم الأمد وقست قلوبكم وطالت الأيام على أديانكم ، فها أناذا أرسلت لكم رسولا يبشركم وينذركم ، ثم ختم هذا القصد بإتمام الكلام على عصيان بنى إسرائيل لموسى ولم يشأ أن يطيل الكلام على النصارى لأن بنى إسرائيل أصحاب التوراة وهم أصعب مراسا ، فقال اذكر يا محمد خبر موسى إذ قال لقومه

اذكروا نعمة الله عليكم إذ أعطاكم نعما لم يعطها أحدا من العالمين ، كيف تجبنون وتخافون من دخول الأرض المقدسة ؟ فقالوا « إن فيها قوما جبارين » الخ الآيات .

هذا ملخص موجز لهذا المقصد سأوضحه لك الآن من نفس التوراة .

ولعمرك ليس يريد الله من هذه الحكايات ولا الأحاديث سرد تاريخ اليهود ودخولهم الأرض المقدسة .

ولم يرد قط سبحانه وتعالى أن يفهمنا مافعله النصارى مجرد إخبار ، فلم يقصد إلا أمر المسلمين تذكيرا لهم يقول الله تعالى : أيها المسلمون انظروا فى أمر بنى إسرائيل كيف جبنوا عن قتال الجبارين فحرمتهم الأرض المقدسة وتمتع بها أبناؤهم الشجعان ، ويقول : كيف نظر الناس إلى المسيح نظر الإله ؟ فمن هو المسيح ؟ وماهى الأرض ، ومن أنتم ؟

يقول الله : جعلت النصارى فرقا بينها حرب شعواء ، وقد حصل ذلك فى أوربا فقد اقتتلوا أجيالا وتحاربوا أعواما لأجل الدين والعقائد .

وهـــذا معنى قوله « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء » يقول الله إذا اختلف الناس فى الأمور العظيمة والعقائد العالية أوقعت الحرب بينهم كما فعلت فى النصارى ، وإذا عصوا ربهم وجبنوا حرمتهم التمتع بالسعادة فى الدنيا كما حصل من اليهود خافوا دخول الأرض المقدسة جبنا فأوقفتهم بطور سيناء مدة طويلة لأربيهم ، هكذا المسلمون لما اختلفوا فى العقائد ودخلت الشكوك بينهم ذاق بعضهم بأس بعض واقتتلوا على الخلافة والإمامة ، ولما جبنوا سلطت عليهم الفرنجة لأهذبهم كما هذبت بنى إسرائيل بالتيه وبقائهم به أربعين سنة .

فلعمرك لم تكن هذه القصص لمجرد التاريخ وماذا يهمّ المسلمين من ذلك ، لايهمّ المسلمين إلا التعقل والتفكر .

أيها المسلمون كفوا عن السير الذى أنتم عليه ، إن هذه القصص جاءت لكم أنتم فليقم منكم علماء وليتركوا تلك البدع والجهالات ، فلقد ظن قوم أنهم وصلوا للألوهية من طوائف المتصوفة ، وآخرون أخذوا يتفاخرون بالدين أو بالطرق التى اتبعوها ، وكل يدعى أنه أولى بالله ، ولكن الله يقول على رءوس الأشهاد إنى لن أعبأ بأرضكم ومن عليها فاتركوا هــــذه الدعاوى واعلموا أنكم عبيد خاضعون ، فاعملوا صالحا ودعوا الكبرياء .

وإذا عرفت المقصود من هذا المقصد فتعال أسمعك ماجاء فى التوراة فى هذا المقام .

قال فى سفر العدد : الإصحاح الأول : وكلم الرب موسى فى برية سيناء فى خيمة الاجتماع فى أول الشهر الثانى فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلا : احصوا كل جماعة بنى إسرائيل بعشائرهم .

وهنا ذكر تعدادهم سبطا سبطا قبيلة قبيلة ، ثم قال هؤلاء هم المعدودون الذين عدّهم موسى وهارون ورؤساء بنى إسرائيل الاثنى عشر رجلا رجل واحد لبيت آبائه ، فكان جميع المعدودين من بنى إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين سنة فصاعدا كل خارج للحرب فى إسرائيل ، كان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين ثم لم يعدّ اللاويين منهم .

وقال فى الإصحاح الرابع والثلاثين : وكلم الرب موسى قائلا أوص بنى إسرائيل وقل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان ، هذه هى الأرض التى تقع لكم نصيبا أرض كنعان بتخومها الخ .

ثم سمى فى هذا الصحاح الرجلين اللذين يقسمان الأرض بين بنى إسرائيل وهما : (العازار الكاهن ويشوع بن نون) وهكذا رئيس واحد من كل سبط ، وذكر من سبط يهوذا (كالب بن يفنة) .

وقال فى الإصحاح الذى قبله : إن هارون مات فى السنة الأربعين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى الشهر الخامس فى اليوم الأول من الشهر ، وكان هارون ابن مائة وثلاث وعشرين سنة حين مات فى جبل (هور) .

وقال فى سفر (التثنية) قال فى الإصحاح الأول : فى السنة الأربعين فى الشهر الحادى عشر فى الأول من الشهر .

كلم موسى بنى إسرائيل حسب كل ما أوصاه الرب إليهم بعد ماضرب سيحون ملك الأموريين الساكن فى حشبون وعوج ملك باشان فى عبر الأردن فى أرض موآب (قد جعلت أمامكم الأرض ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم) وهنا ذكر لهم أنه جعل منهم قضاة يقضون بينهم الخ .

ثم أخذ يوبخهم بكلام طويل ملخصه :

أن الرب قال لاتخف ولا ترتعد وادخل أرض كنعان ، فلما سمعتم ذلك منى قلتم نرسل منا ١٢ رجلا ليدخلوا تلك الأرض ويتجسسوا فصعدوا الجبل وأتوا إلى وادى (أشكول) وتجسسوه وأخذوا فى أيديهم من أثمار الأرض ونزلوا به إلينا وردوا لنا خبرا ، وقالوا جيدة هى الأرض التى أعطانا الرب إلهنا لكنكم لم تشاءوا أن تصعدوا وعصيتم قول الرب إلهكم وتمرمرتم فى خيامكم وقلتم الرب بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدى الأموريين لكى يهلكنا ، إلى أين نحن صاعدون ؟ لقد أذاب إخواننا قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا مدن عظيمة محصنة إلى السماء ، وقد رأينا بنى عناق هناك ، فقلت لكم لاترهبوا ولاتخافوا منهم ، وهكذا أخذ موسى يذكرهم أن الرب قد نظر لكم نظر رحمة فى مصر فهو لاينساكم ، فلم يفد الكلام فيكم فسخط الرب عليكم وأقسم قائلا : لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التى أقسمت أن أعطيها لآبائكم ماعدا (كالب بن يفنة) وعلىّ أيضا غضب الرب لسببكم قائلا : وأنت أيضا لاتدخل إلى هناك يشوع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك فشدده الخ ، وأما أطفالكم الذين لم يعرفوا الخير والشر فهم يدخلون إلى هناك وهم يملكونها ، وأما أنتم فتحولوا وارتحلوا إلى البرية على طريق بحر سوف .

ثم ذكر هنا أن موسى رحل بهم وبقى فى البرية ثمانيا وثلاثين سنة حتى فنى كل الجيل ، وحينئذ أمر موسى بالحرب ففعل وقابلهم ملك يقال له عوج وهو ملك باشان فغلبه موسى وأخذ أرضه لبنى إسرائيل .

ثم قال فى الإصحاح الثالث من التثنية : وتضرعت إلى الرب قائلا : ياسيد الرب دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن ، هذا الجبل الجيد ولبنان ، لكن الرب غضب علىّ بسببكم ولم يسمع لى بل قال لى الرب كفاك لاتعد تكلمنى أيضا فى هذا الأمر ، إلى أن قال لاتعبر هذا الأردن ، وأما يشوع فأوصه وشدده لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض التى تراها .

تذكيرهم بالنعم

ثم قال : فاسأل عن الأيام الأولى التى كانت قبلك من اليوم الذى خلق الله فيه الإنسان على الأرض ومن أقصاء السماء إلى أقصائها ، هل جرى مثل هذا الأمر العظيم ؟ أو هل سمع نظيره ؟ أو هل شرع الله أن يأتى ويأخذ لنفسه شعبا بتجارب وآيات وعجائب وحرب ؟ مثل كل مافعل لكم الرب إلهكم فى مصر أمام أعينكم إنك قد رأيت لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواه الخ .

وهذا كله هو وغيره تذكير بالنعم وهو مايقوله الله هنا « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » .

حكمة هذه التجارب

فى الإصحاح الثامن من التثنية

أفاد فى هذا الإصحاح أن الأربعين سنة التى قضوها فى القفر ليذلهم بالجوع والعطش وليأكلوا المنّ الذى لم يأكله آباؤهم ، وذلك لفائدتين : الأولى أنهم يعرفون أنه ليس يعيش بالخبز وحده بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيى الإنسان .

وقال فيه : فاعلم فى قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدبك الرب إلهك ..

ثم وصف الأرض التى وعدهم بها وذكر جناتها وأعنابها وزيتها وعسلها وحديدها ونحاسها ، ووصى أن لاينسى الرب وحذرهم من نسيانه إذا شبعوا ، وليتذكروا أن الله هو الذى أخرجهم من أرض مصر فى ذل العبودية وحكم عليهم بالعطش والجوع فى البرّية وسقاهم من الماء النابع من الحجر .

ثم قال : (لكى يذلك ويجربك لكى يحسن إليك فى آخرتك ؛ ولئلا تقول فى قلبك قوّتى وقدرة يدى اصطنعت لى هذه الثروة بل اذكر الرب إلهك) انتهى ملخصا مختصرا من التوراة .

لقد ظهر لك مقصود هـذه الآيات من التوراة ؛ فلأذكر لك تفسيرها اللفظى ومطابقتها للحقائق ، فأقول :

قوله (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) أى كما أخذ الميثاق على المسلمين فأولئك بالتوراة وهؤلاء فى القرآن كما فى أول السورة فهذه سورة العهود والمواثيق (وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) شاهدا ، هم الذين أرسلوهم لينقبوا ويفتشوا فى أرض كنعان ، من كل قبيلة واحد وهكذا فى كل أمر كان يؤخذ من كل سبط واحد يقوم مقام إخوانه وهذا شرحناه فيما تقدم من نفس التوراة (وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة) إلى قوله (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) وهذا الميثاق وأمثاله أخذ على المسلمين ، وفى هذه السورة ١٨ ميثاقا جديدة لم تكن فى السورة السابقة ، وقوله (فبما نقضهم ميثاقهم) ما زائدة للتأكيد (لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) ولذلك (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به) حرفوا الكلام المنزل فى التوراة وتركوا نصيبا مهما منها (خائنة) فرقة خائنة (إلا قليلا منهم) لم يخونوا وهم الذين آمنوا ، ثم قال (و) أخذنا (من الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا) من غرى بالشئ لصق به (بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) بين فرق النصارى ومنهم نسطورية ويعقوبية وملكانية وفرق أخرى كالبروتستانت والأرثوذكس اللتين ظهرتا بعد نزول القرآن ، ومن المسيحيين من ينكر وجود المسيح ومنهم من يرى أن هذه روايات وأباطيل وكل هؤلاء من نفس النصارى تنصلوا من الدين ، وقوله (مما كنتم تخفون من الكتاب) كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى إنجيل برنابا وقد أخفى ذلك الإنجيل عمدا كما وضحناه فى سورة البقرة (ويعفو عن كثير) فلا يفضحكم بإظهار ما كتمتموه عن شعوبكم (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) هو القرآن (سبل السلام) طرق السلامة من العذاب (الظلمات) الكفر ، و (النور) الإسلام (بإذنه) بإرادته (صراط مستقيم) طريق هو أقرب الطرق (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) هم الذين قالوا بالاتحاد منهم ، يعنى أن الله قد حل فى بدن عيسى ويقولون الأب والابن والروح القدس إله واحد وأنت تعرف أن هذه سرت للمسيحيين من الإنجيل الهندى فإنى رأيته بعينى رأسى وقد وازن المسيحيون بينه وبين بعض الأناجيل فلم يجدوا إلا فرقا يسيرا بلا تصرف فيه وفيه التثليث والصلب وقد كان تاريخه قبل المسيح بنحو أربعة آلاف سنة وستراه مفصلا فى آخر هذه السورة ، وقوله (قل فمن يملك من الله شيئا) أى فمن يمنع من قدرته وإرادته ؟

بهذا بين عجز البشر واغترارهم بأنبيائهم وأن الله له من فى السموات ومن فى الأرض وقد تقدم ثم أخذ يوبخ الطائفتين اليهود والنصارى إجمالا بعد التفصيل فقال (وقالت اليهود والنصارى الخ) يقول إن اليهود قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل أنى أدخل من ولدك النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد اسرائيل فيخرجون .

وقالت النصارى إن المسيح ابن الله والمسيح منهم فقالوا نحن أبناء الله لهذا السبب والمسيحيون أيضا لما سمعوا قول المسيح : أذهب إلى أبى وأبيكم وأيضا يقرءون فى صلواتهم يا أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك ظنوا أن البنوة كبنوة الناس وأن الأب ينيمهم على فراش الراحة ، فقال الله لهم : كلا هذه ديانات تغيرت (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) أى جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحى كراهة (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير الخ) .

وقد قيل كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة ، ثم قال (وإذ قال موسى لقومه) شرع يكمل قصص بنى إسرائيل إذ خرجوا من أرض مصر (ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء) فأرشدكم وشرفكم وقد تقدم ملخصه من التوراة منقولا من سفر التثنية (وجعلكم ملوكا) أى وجعل منكم ملوكا (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) كما قال فى سفر التثنية المتقدم من اليوم الذى خلق الله فيه الإنسان على الأرض ومن أقصاء السماء إلى أقصائها هل جرى مثل هذا الأمر العظيم وهل سمع نظيره الخ فهذا هو معنى الآية هنا (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة) ولقد عرفتها وهى ماعبد نهر الأردن التى منع موسى من دخولها ووعد بها فتاه (التى كتب الله لكم) قسمها لكم (ولا ترتدوا على أدباركم) ولاترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة (فتنقلبوا خاسرين) ثواب الدارين (قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين) لاتتأتى مقاومتهم وقد تقدم إيضاحه فى التوراة (وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون) أى يخافون الله تعالى وهما كالب ويوشع (أنعم الله عليهما) بالإيمان والثبات (ادخلوا عليهم الباب) باب قريتهم (فإذا دخلتموه فإنكم غالبون) كما جاء فى الوحى لموسى .

وأما قوله (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) إلى قوله (إنا ههنا قاعدون) فهو مفهوم ، ويقصدون من قولهم (اذهب أنت وربك) الاستهانة بالله ورسوله فبث شكواه إلى الله ، و (قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها) أى الأرض التى وعدوا بها (محرمة عليهم أربعين سنة) لايدخلونها حتى يفنى هذا الجيل الجاهل الشرير (يتيهون فى الأرض) يسيرون فيها متحيرين (فلا تأس على القوم الفاسقين) .

لقد فسرت لك الآيات فى هذا المقصد تفسيرا ينطبق على الحياة الاجتماعية الإسلامية وقلت إن المسلمين عاهدوا الله وبنو إسرائيل عاهدوه أيضا ، فأما بنو اسرائيل فإنهم خالفوا موسى وجبنوا عن محاربة الكنعانيين فحرمهم الله ولم يدخل البلاد إلا أبناؤهم ، وهكذا النصارى تغالوا فى الدين وتفاخروا بقربهم من الله فجعلهم فرقا متشاكسين الخ ، وأزيد الآن إيضاحا للمقام فأقول :

أيها المسلمون فى أقطار الأرض لم ينزل القرآن لمجرد التلاوة ، احذروا احذروا وهذه القصص لا تقصد لتبرئنا مالنا وللأمم السابقة إنما قصصهم عبرة والعبرة هنا أن بنى اسرائيل قست قلوبهم وهكذا المسلمون قست قلوبهم وغلظت نفوسهم فانكبوا على الفقه عاكفين وظنوا أن مذاهبهم هى كل شىء فى الدين فنسوا جمال الله فى الأرض والسموات وجهلوا خلق الكائنات فأذلتهم الفرنجة لأنهم جاهلون وقتلوهم لأنهم نائمون .

ولما طغوا فى العقائد وتفرقوا فرقا أوقع العداوة فيما بينهم كما حصل للنصارى ثم زاد المسلمون المتأخرون

فتعالوا فى الإسلام وجعلوا أن كل من انتسب إليه فهو ناج فعلوا كما فعل اليهود والنصارى ، وكأنهم أيضا يقولون نحو أبناء الله وأحباؤه ، وهذا هو الغرور الباطل كما تقدم فى سورة النساء « ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب » فهذه الآية التى هنا وهى آية المسيح يراد بها أن لا يتغالى المسلمون فى الاغترار بالدين وإنما لكل امرئ ما كسب وعليه ما اكتسب ؛ هذا هو القصد من هذه الآيات .

وأيضا يفيدنا الله قائلا : أيها المسلمون إذا رأيتم الأعداء حلوا بساحتكم فاعلموا أن الذى يخرجهم إنما هو الصبر والقوّة والجلد والعزيمة وأن يظهر جيل جديد يخرجهم وأن من يعيشون فى نعيم وترف أحكم عليهم بالهلاك والدمار .

أما أولئك الذين يعيشون فى شظف العيش فإنهم أقوياء البنية يجدّدون نشاطهم ويرجعون مجدهم ويرفعون لواءهم .

وكأنه يقول : أيها المسلمون إذا رأيتم هذا الجيل خاضعا للفرنجة ؛ فربوا أولادكم على الشهامة والمروءة كما ربيت بنى إسرائيل فى الصحراء تقوية لأبدانهم وتعويدا لهم على الاحتمال والصبر .

وإن شئت فاقرأ هذا المقام فى سورة البقرة عند قوله « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ثم ذكر أنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة ؛ فاقرأ هذا الموضوع هناك فإنه مستوفى ، ولكن هنا بعض زيادات نافعة فافهم ، اهـ المقصد الثالث .

المَقْصِدُ الرَّابِعُ

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

التفسير اللفظى لهذا المقصد

يقول الله (واتل عليهم) يا محمد (نبأ) قابيل وهابيل (ابنى آدم) اللذين أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر أى التى ولدت معه من بطن حواء ، وكانت حواء تلد فى كل بطن اثنين ذكرا

وأتق ؛ فأما هابيل فرضى ، وأما قابيل فسخط لأن توأمه كانت أجمل من توأم هابيل التى حكم عليه أن يتزوجها ، فحكم عليهما آدم أن يقربا قربانا فمن نزلت نار من السماء فأحرقت قربانه فهو المقبول وهو الذى يتزوج هذه الجميلة ، فقبل الله قربان هابيل فابتلعته النار فازداد قابيل سخطا . ويقال إن ابنى آدم رجلان من بنى إسرائيل ، وسواء كان هذا أو ذاك فإن الله أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتلو علينا نبأهما (بالحق) أى تلاوة ملتبسة بالحق (إذ قرّبا قربانا) الظرف متعلق بنبأ .

وكان قابيل صاحب زرع وقرّب أردأ القمح ، وهابيل صاحب ضرع فقرب جملا سمينا (فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) لأن قابيل غير مخلص النية (قال لأقتلنك) حسداً لقبوله عند الله وزواجه بالحسناء (قال) فى جوابه (إنما يتقبل الله من المتقين) فأنا بتقواى قبل قربانى ، فلتجتهد مثلى ليقبل قربانك ولا تعول على إزالة النعمة عنى لأن الله جعل الدنيا دار جهاد فكن مثلى ولا تعزم على إهلاكى ، وأنا قادر على إهلاكك ولكنى لا أفعل امتثالا لأمر الله ، والله (لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) فأنا وإن كنت أقوى منك يمنعنى خوف الله تعالى من الإقدام على قتلك فلا ضعف عندى وإنما هو دينى (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) أى ترجع بعقاب ذنبى بقتلك لى وعقاب ذنبك بمعاصيك (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوّعت) سهلت ووسعت من طاع له المرتع إذا اتسع (له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) دينا ودنيا ، ولما قتله تحير فى أمره ولم يدر مايصنع به فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر بمنقاره ورجليه ، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه فى الحفرة (ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) ليرى الله أو الغراب قابيل كيف يوارى جسد أخيه هابيل ، ولما رأى ذلك (قال ياويلتا) كلمة جزع وتحسر (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى؟) أى فأستر جيفته وعورته عن الأعين (فأصبح من النادمين) لأنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله وسخط عليه أبواه (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس) أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أو فساد فى الأرض) أو بغير فساد فى الأرض كالشرك أو قطع الطريق (فكأنما قتل الناس جميعا) من حيث إنه هتك حرمة الدماء وأنه سنّ القتل وجرّأ الناس عليه (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) أى ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعا (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون) أى بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحات لكى يخافوا ، أسرف كثير منهم فى القتل وتباعدوا عن الاعتدال فيه .

سئل الحسن عن هذه الآية أهى لنا كما كانت لبنى إسرائيل ؟ فقال إى والله الذى لا إله غيره ما كانت دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا ، اهـ التفسير اللفظى .

التفسير الحقيق على مقدار الطاقة

بينا أكتب هذه الكلمات إذ حضر عندى فاضل من الأذكياء واطلع على ما كتبته فقال : لم أورد الله هذه القصة وأنت تعلم أن عقول الناس ليس عندها متسع لمثل هذا ؟ وما المناسبة بين ماتقدم وبين القصة ؟ وما لنا ولآدم وبنيه ونحن فى القرن العشرين ؟ فما فائدتنا والمدنية الحاضرة قد رقت الأمم ونحن نرجع إلى أشياء كانت فى القرون الأولى ولا ندرى ماذا فعل الزمان بها ؟ وما فائدة ذكر الغراب وحسد ابن آدم ؟ إن الشك والكفر يرفرفان على عقول جميع المتعلمين الأذكياء فى البلاد الإسلامية ؟ فإن لم تأت بجواب شاف

فإنى

فإني قلت لك الحقيقة ناصعة بيضاء ، وأنت تعلم أن ديننا هو آخر الأديان والله يظهره على الدين كله ، أيحتل دفن الغراب يظهره على الدين كله ؟ وهذا عصر الكهرباء والبخار والطيارات والعجائب والكشف الحديث فأين العلوم وأين المعارف وأين عجائب القرآن ؟.

فقلت له : لو لم يكن في القرآن سوى هذه القصة لكفت في الإعجاز والسوق إلى مافوق المدنية الحاضرة، إن هذه القصة لاتقنع بالمدنية الحاضرة ، إنها ترمى إلى أشياء لم يعلمها البشر ، هى تشير إلى أن الناس نائمون وبالفكر في أمثال هذا القول يستيقظون .

هذه الآية فتحت باب السعادة الإنسانية والمحبة الأخوية والمودات الآدمية والإخلاص وإشراف القلوب ونزع مافى الصدور وارتقاء سائر نوع الإنسان مسلمين وغير مسلمين ، ولكنها في الوقت نفسه توبخ المسلمين أشد توبيخ وتقرعهم أعظم تقريع ، وتطلب من النوع الإنساني أن يصل إلى منتهاه وأن يرقى إلى أقصى مداه .

فقال ذلك الفاضل : إن ماتقوله لى الآن أشبه بأقوال الصوفية في هذا العصر الذين يمدحون الدين ولا يأتون سرا من أسراره ولا نبأ من أحواله ، وإنما هى كلمات يتلقفونها ، وأقوال يزخرفونها كابرا عن كابر ، وإذا سألتهم : أين تلك العجائب ؟ ظهر عجزهم وضلوا سواء السبيل ؟ فأفصح ماقلت .

فقلت :

الإجابة عن السؤال

ألم يتقدم في هذه السورة الصيد حلاله وحرامه وحل النساء ؟ قال بلى ! قلت ألم يذكر فيها اليهود والنصارى وكيف تغالوا في الدين وأن الإسلام قد جاء لإصلاح ما أفسده الزمان من العقائد والمغالاة في الدين بألوهية الأنبياء أو بغفران الذنوب مجانا لانتساب الناس إلى الدين ؟ قال بلى ! قلت : أولم أقل إن المسلمين لم يذكر لهم هذا إلا ليحترسوا من ذلك التفرق وقد وقعوا فيه فتفرقوا واقتتلوا كما اقتتل النصارى ورجعوا إلى التواكل واعتقاد الغفران لأجل الدين كما فعل أهل الكتاب ؟ قال بلى ! قلت له : إن الله جاء بهذه القصة التى هى من جملة القرآن لتكون بلسما يداوى به جراح الأمم الإسلامية في هذا الزمان وفى مستقبل الزمان .

هذه القصة قصها الله لهذا ، فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : أنت تعلم أن الفطرة الإنسانية فيها غريزتان : لاينفك الإنسان عنهما ولا يعيش إلا بهما : إحداهما أنه يحب أن يختص وحده بكل مكرمة ونعمة ، فهو أبدا يحب أن يكون له السبق والفضل في كل شىء ، في المال ، في الجمال ، في العلم ، في الملك ، في الشهرة ، في الجنة في عالم الملائكة ، في كل مايسمعه أو يقرؤه . وثانيهما أنه يحب من حوله ويود لو يكون معه قوم كثيرون ليساعدوه في أموره ؛ فهو إذن بين متناقضين في الغريزة : أولا الاختصاص ، وثانيا الاجتماع ، ولا اجتماع إلا حيث يكون الناس لهم حياة ، والحياة ذات مزايا كثيرة ؛ فالإنسان لما كان روحا عالية شريفة أحب الانفراد بالعلو ، ولما كانت تلك الروح نزلت إلى عالمنا الأرضى الضعيف المتأخر وسكنت هذه البنية احتاجت البنية إلى المساعدة من الأهل والأقارب وأهل الوطن وسائر أفراد الأمة وجميع الأمم ، وهاتان الغريزتان أبدا تتجادلان في الإنسان ، فإن غلبت الأولى وقع الإنسان في الظلم والحسد والكبر وأمثالها ، وإن غلبت الثانية ربما أضر بنفسه ونزل إلى الذلة والصغار واستسلم للفقر والاحتقار ، فإن اعتدلا اعتدل الإنسان وسار سيرا حسنا في حياته مع الناس أجمعين .

فالحاجة إلى اجتماعه بأبناء جنسه حملته على مزايا شريفة كثيرة كالندم على مايفرط منه لهم والحزن والكآبة عليهم وكمساعدتهم في السراء والضراء وما أشبه ذلك ، فهذه المزايا مغروسة في نفوسنا ثابتة لايزحزحها فلسفة ولا يمحها زخرف من القول زور .

والعقل الإنسانى هو الذى يتصرف فى هاتين الغريزتين ببصيرته حتى لاتطغى إحداهما على الأخرى فلا حب الانفراد يعمينا عن المساعدة الأخوية ولا المحبة الأخوية تصدنا عن حفظ أنفسنا والعمل لإسعادها .

قال بلى ! ثم ماذا ؟ قلت : وأنت ترى أن هـذا العقل المتصرف فى هاتين الغريزتين ينظر فيما حوله ويشرف عجائب هذه الدنيا فيدرس نظامها ويتخذ لنفسه من كل شئ أحسنه فإذا رأى النبات زرعه وجدّ فى إنمائه أو الحيوان اجتهد فى تذليله وتعلم من صناعاته فنسج كالعنكبوت وطار فى الطيارات كالطيور وسبح فى البحر كالسمك وصنع القناطر على البحار كما تصنع القرود من أنفسها بحيث تجتمع تحت شجرة على شاطئ النهر ويأتى أحدها ويتعلق بالشجرة ويمسك به آخر وهكذا يمسك بعضها ببعض فيصير منها شبه جسر طويل متصل بعضه ببعض ثم يأتى أسفلها ويمد رأسه إلى جهة الشط الآخر وتتجه جميع القردة المتصلة بعضها ببعض إلى الشط الآخر فما أسرع أن يصل القرد الأسفل إلى شجرة من الجهة الأخرى من النهر ويمسك بالشجرة ذلك القرد الذى كان أدنى وهنا تمت القنطرة التى تصنعها القردة محدبة بوضع هندسى ثم تمر القردة الصغار على هذه القنطرة وهن يتغامزن ويضحكن ويجرين فوق تلك القنطرة القردية فإذا انتهى المزور ثبت القرد الذى فى الشط الآخر فى مكانه فوق الشجرة متمسكا بها وأنزل يديه إلى القرد الذى تمسك بالشجرة الأولى فى الشط الأول ومتى ترك الشجرة رأيت هذه القنطرة كلها أصبحت صفا واحدا فى الشط الثانى معلقا فى القرد الذى استمسك بالشجرة الثانية وحينئذ ما أسهل أن يجرى كل واحد فى الأرض الفضاء آمنا مطمئنا .

وإذا رأى الرياح والنحل والحشرات تلقح الزرع ولاعلم لها به فليقم هو بالإلقاح ليزيد النماء والخير والبركات وإذا رأى الشمس والكوكب أضاءت له السبل فإنه يقلد الطبيعة ويأتى بالسرج التى توقد فى منازله وهكذا يتعلم الإنسان مما حوله كل ما استعدت له نفسه من السعادة أليس كذلك ؟ قال بلى ! قلت لننظر فى الآية الآن : أليست هذه الآية جاءت للبحث فى الفطرة الإنسانية الخالصة من كل شائبة ، أليس قتل قابيل لهابيل راجعا للغريزة الأولى ؟ قال بلى ! قلت : أليس استسلام هابيل لقابيل راجعا للاستسلام للعاطفة الثانية وإنكار الذات كل الإنكار ؟ قال بلى ! وإنى معجب بهذا القول ، وأول مرة سمعت هذا فى تفسير هذه الآية ، قلت : أليس هابيل لما استسلم للعاطفة الثانية كان جزاؤه القتل من أخيه ؟ قال بلى ! وهذا لا يرضاه ديننا ؟ وإن كان دين المسيح يرضاه ، ومع ذلك ترى المسيحيين تركوا هذا كله ، قلت : ألست ترى أن الغريزة والفطرة قد أوجبت عليه أن يندم ويحزن وقد حار فى أمره ؟ قال بلى ! قلت : ولما لم يهتد إلى مسألة الدفن جاء له الغراب فأراه الدفن ؟ قال بلى ! قلت : أليس هذا هو فعل العقل وأنه يجب أن يسيطر إما بالتعليم وإما بما يحدثه الله للإنسان من الحوادث التى توقعه فى النكبات فتنفتح بصيرته للفهم والتعقل فيدرك الحقائق ، وإذا رأى قابيل غرابا يبحث فى الأرض وقت حزنه فقلده ودفن أخاه ؛ فكم رأى من غراب وحية وأسد ونملة ونحلة وهو يطلع على عجائبها كل يوم ولا يفكر ولا يعقل ما تفعل ، ولكن لما وقع فى النوائب استعمل عقله فتعلم مما حوله وهو الغراب ، قال : هذا كلام حسن وجميل ، قلت له : فلذلك قال الله إن عاطفة الانفراد لما تغلبت على عاطفة الاجتماع وأصبح الناس يقتل بعضهم بعضا وغلب الظلم عليهم قديما وحديثا حتى نسوا عقولهم ولم يفكروا فى أمرهم كتبنا فيما شرعنا فى كل دين من الديانات أن القتل إثمه عظيم ، وأن حياة الإنسان شريفة .

قال لم يقل الله ذلك فأوضح ؟ قلت : ألست تعلم مما ذكرناه فى أول سورة النساء أن الناس على وجه الأرض كأنهم شخص واحد ؟ وأن بنى آدم على ظهر الكرة الأرضية متضامنون وإن لم يعلموا متعاونون وإن لم

يعرفوا

يعرفوا ؟ وعندى أنه لافرق بين النحل وتلقيحها الأشجار وهى تجهل ذلك أثناء شربها العسل من الزهرات وبين الإنسان ؟ فإن كل أمة تخدم سائر الأمم وهى غافلة عما تفعله بل تحارب كل أمة الأخرى وهم جميعا غافلون نائمون لايعلمون أنهم بهذا ينقصون الثمرات التى هى خير للجميع ، قال أوضح : قلت : إنك ترى أن القطن فى بلادنا المصرية لو حصل فى بلاد الصين أو اليابان نكبة وفقر ولم تأخذ من قطننا أفليس ذلك يكون نكبة علينا ؟ قال بلى ! قلت : إذا لم نأخذ نحن معاشر المصريين الشاى الوارد من الصين أو البن الوارد من اليمن أو الثياب المصنوعة فى أوربا أفليست كل تلك الأمم تتأثر وتنقص ثمراتها بنسبة عدم شرائنا ؟ قال بلى ! قلت : أفلست ترى هذا الإنسان المسكين تحارب كل أمة منه الأخرى وتقتل رجالها وهم لايحفلون بتلك المساعدة الخفية ؟ قال بلى ! قلت : فالفيلسوف فى الصين والهند وفى أوربا والمخترع من هذه الأمم يؤثر فى أمته مباشرة وفى الأمم الأخرى إما مباشرة وإما بالواسطة ؟ قال : وكيف ذلك ؟ قلت : فالذى اخترع قطار السكة الحديدية والتلغراف والكهرباء وأمثالها أثر فى أمته وفى الأمم الأخرى فعلا ؟ قال نعم ! قلت : لكن العالم والمدرس والمهندس وأمثالهم يؤثرون فى أمتهم فينفعونها وأمتهم عضو من سائر الأمم تفيد فى المجتمع ؟ قال نعم ! قلت : إذن العامل الصغير والفلاح والمزارع كل له عمل فى أمته وأمته لها فائدة فى جميع الأمم إجمالا ؟ قال : هذا حق ، قلت : هذا معنى الآية .

يقول الله لما تخلى الإنسان عن عقله وترك الكبرياء والحسد يطغيان عليه تارة فيقتل سواه وتارة أخرى يقع فى التهلكة ولا يستيقظ عقله للتفكر إلا بعد مايذوق الشدائد كما اتفق لقابيل ، أرسلت رسلا وعلمت الإنسان بواسطتهم لأن غريزة الإنسان قد يتركها لهواه ، وتنوم الشهوات عقله تنويما مغناطيسيا فلا يستيقظ للفكر إلا بعد حلول النوائب ، ومما قلته فى ذلك التعليم « أن من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا » لأن الإنسانية متضامنة وهو عضو منها « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » ومثل هذا يظهر فى النابغين والمخترعين الذين يظهر فضلهم لسائر الناس وينفعونهم جميعا ، ولكن غير النابغين لايتفطن لمنفعتهم للإنسانية إلا الأقلون .

فعلى ذلك يكون كل من قتل من الناس تعطلت منفعته عن العموم وكل من يبق فمنفعته للعموم ، قال هذا حسن ولكنه خفى على أكثر العقول .

قلت فإذا قال فى أول السورة إن من الصيد ماهو حلال ومنه ماهو حرام ، وقال أحللت لكم صنف كذا من النساء فقد قال هنا :

أيها الناس أنا لم أخلقكم لأجل اللذات ولم تحيوا للشهوات ، وإنما هذه مقدمات يراد بها الحياة ، فإياكم أن تشغلكم شهوات الصيد عن عجائب الطبيعة وغرائبها البديعة ، كما ترون فى غرائز الغراب من آيات الله والحكمة ، وكيف تعلمتم منه ومن غيره من الحيوان ، فاحذروا أن يلهيكم أكل الحيوان وصيده عن الحكمة والعلم فيه ، وكيف يلهيكم هذا وقد قلت لكم إن ابن آدم دعا بالويل والثبور ؟ وقال كيف جهلت علم الطيور ولم أعرف حفر القبور ؟

فعلى عقولكم فاتكلوا وعلى ضياع غرائزكم فلتحزنوا ، وكأنه يقول إذا أحللت لكم النساء فليس معناه أن تغفلوا عن العدل كما غفل قابيل فقتل أخاه لأجل امرأة ، ولكن اعدلوا فى أعمالكم لتنتظم جماعاتكم وادرسوا علوم الطير والأنعام لتنالوا سعادة الحياة والممات .

وإذا قال الله إن اليهود والنصارى أفرطوا وأسرفوا فى عقائدهم ، وقلنا نحن أيضا إن المسلمين قد لحقوهم فيما وقعوا فيه فذلوا ، فقد قال الله هناك : أيها الناس ارجعوا إلى العقل والتفكير وليرجع الناس لعقولهم ويفكروا .

وكما أن قابيل تنبه إلى فضل الغراب بعد الآلام والندم .

هكذا من أصابهم العطب وتزل بهم الشقاء من الأمم فليفزعوا لعقولهم وليفكروا فيما حولهم وليتأملوا فيما خلقته لهم .

إن المسيحيين لما مسهم الضر بسبب عقائدهم العتيقة جاء الإسلام فحدث وفصل واستنارت عقولهم بسببه ، فأما الإسلام فإن أهله أصابهم الغرور وناموا نوما عميقا فنبههم الله بالمصائب والكوارث ، وقد جاء دورهم فليتنبهوا .

نداء لأمة الإسلام

هذا هو الذى انشرح له صدرى يا أمة الإسلام .

أقول لكم وأنا ملازم أن أقول لكم : أقول لكم : كيف يقول الله على لسان ابن آدم « ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟» كيف دعا ابن آدم بالويل والثبور لجهله ؟ وكيف يقال ذلك ؟ ألمجرد حكاية ؟ كلا ! هل يظن المسلمون أن القرآن يأتى لمجرد الفكاهة ؟ كلا ! ثم كلا ! وانظر كيف يقول الله « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » الله هو الذى يقول بعث غرابا يعلم ابن آدم ويريه كيف يوارى سوأة أخيه .

أيها المسلمون إن الأمر عظيم ، تضعضع المسلمون وضعفوا وما نجاتهم إلا بهذه القصة وأمثالها .

هذه القصة تقول إن ابن آدم لما ندم على تفريطه عقل وفهم عن الطير ، وأنا أقول : الله يريد أن يعلمنا علم ما فى الأرض والسماء ، وما الغراب إلا ضرب مثل ، وما الحكاية إلا رمز ، رمزحقا وليس القصد منها لفظها ، وإذا كان شراح كتاب كليلة ودمنة والوزير الفارسى ، وكذلك ابن المقفع يقولون إن الحكايات الخرافية التى فيها تكون تسلية للعامة وعلما وحكمة وسياسة وفلسفة للخاصة ، أفلا يكون كتاب الله تعالى أولى بهذا ، فإذا كانت الخرافة تجعل رمزا للحكمة والفلسفة ، فما بالك بكتاب الله الذى قال إنه سيظهر على الدين كله ؟

إذن المسألة أكبر مما نظن وأعظم مما نفهم . والمسلمون اليوم لهم حصن يلجئون إليه وملجأ ، وهو التفكر والتعقل والفهم وجميع العلوم أصبحت هى نفس الدين ولم اختار الله الغراب فى التعبير ؟

الغراب من الحيوانات الفواسق التى ورد الشرع بجواز قتلها كما تقدم ، فإذا كان ابن آدم إذا أخطأت فكرته يرجع إلى الحيوان بل إلى أقل الحيوان احتراما فى الدين الإسلامى ، فكيف يكون الفكر فى باقى الحيوان وفى علوم الأمم وصناعاتها .

نحن أمرنا الله أن نعرف علم الحيوان بل أدنى الحيوان ، فما بالك بعلم الإنسان ؟

فلأقل أنا أيها الأستاذ لك : ولتقل لى : ياويلتنا أعجزنا أن نعرف ماتعرفه الأمم التى حولنا فنوارى سوأة أمتنا الإسلامية فأصبحنا من النادمين ؟ أعجزنا أن ندرس جميع العلوم ونعرف كل ماخلق الله ليرينا الله كمال غرائز الحيوان ؟ ولكن الإنسان يخطىء ولذلك نرى الإنسان يتعلم من الحيوان وتعلم ابن آدم من الغراب ؟ فالحيوان غريزته كافية لحياته والإنسان تدنس الشهوات غريزته ، وبعد ذلك يتعلم من الطبيعة بتعليم الله .

هكذا يقول الله « ليريه » فهو خلق لنا ماحولنا ليعلمنا ولم يخلقه لنصطاد منه فقط بل خلقه للتعليم ، وكأن الله يقول هل ذكرت فى هذه السورة أن ابن آدم قال ياويلتا على ضياع صيد أو ضياع الشهوات بل دعا بالويل للجهل بالأمور الطبيعية .

هكذا يحج الله بالقرآن ويرشد أمة الإسلام .

وإذا كان الله يعلمنا بالغراب ، أفلا يعلمنا بما هو أقرب إلينا من الغراب وهم الأمم التي حولنا ؟

هكذا يقول الله تعالى : يقول لا تجهلوا ماحولكم مما علمته للأمم وما خزنته فى الطبيعة ورمز لذلك بتعليم الغراب .

قال صاحبي ولكن الناس يقولون إن غرامك بالطبيعة وعلومها جعلك تلح فى هذه الآيات وتأتى فيها بما هو بعيد عن الآية ، فهل هذا كله يترتب على قول الله ؟ « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » قلت فاسمع غيرها : قال الله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد » فانظر كيف ذكر أن هذه الأشياء تكون تبصرة وذكرى وتكون رزقا للعباد ، وقدم التبصرة والذكرى على كونها رزقا للعباد ، وهذا يدل على عناية الحكمة الإلهية فى القرآن أن يتفكر الناس فى علوم الطبيعة والمخلوقات .

فقال : ولكن هذه الفكرة مفهومة من سبعمائة وخمسين آية كما قلت أنت ، فما الداعى إذن لاستخراجها من قصة كهذه ؟

فقلت : المجاز أبلغ من الحقيقة ، وهذه القصة متى عرفها المسلمون على الوجه الذى ذكرناه وبالمنهج الذى سلكناه ثاروا فى وجه الجهالة وقاموا للعلم قومة رجل واحد لأن الأمة ليست على بينة من هذا ، فهذا القصص دلالته أفصح ومنافعه أكمل وتأثيره أشد وفعله أوقع فى النفوس وأذهب للبؤس وأجلب للفهم وأقرب للعلم وأدعى لرجوع الأمة إلى كمالها ونهوضها إلى شرفها العظيم .

نداء إلى علماء الإسلام

حرام على علماء الإسلام أن يذروا الأمة تتخبط فى ديجورها وحالك ظلامها ، ألم يأن لكم أيها العلماء أن ترشدوا الأمة لكمالها ؟ ألم يأن لكم أن تهدوهم إلى الصراط المستقيم ؟ .

انظروا كيف استنبط الإمام الشافعى رحمه الله تعالى من آية واحدة من القرآن واردة فى غزوة من الغزوات وهى « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ربع الدلائل الفقهية وهو القياس ، وكيف جعل أبو حنيفة الاقتصار على الأعضاء الأربعة فى آية الوضوء دليلا على أنه لا يجب على الإنسان غيرها ، وكيف جعل الشافعى الترتيب فرضا لأن الآية ذكرت الأعضاء على هذا النمط .

وانظروا كيف كانوا يدققون فى كل صغيرة وكبيرة ، فهل نام الذين بعدهم ؟ وهل عموا وصموا فلم ينظروا فى القرآن ليسدوا هذه الثلمة الإسلامية والحوادث الحربية والمصائب الأوربية الواقعة على الأمم الشرقية ، فإذا كان أئمتنا بهذه الدقة ، فما بالنا أصبحنا نائمين ؟ هل على الأعين غشاوة ؟ أم فى القلوب مرض ؟

عجب للمسلمين وأى عجب ! كيف تمر عليكم أيها القوم هذه الآية ؟ يقول الله بعث الغراب ليبحث فى الأرض ويعلمكم وأن ابن آدم تألم لجهله بما علمه الغراب ، فكيف يمر هذا القول عليكم وأنتم نائمون ؟ أين أنت يا أبا حنيفة وأين الشافعى ومالك ؟ فليحضروا ليستنتجوا لنا من القرآن ، فقد فترت الهمم وماتت الأمم ولم يبق إلا الرمم .

لو كان الشافعى حيا وأبو حنيفة ومالك ورأوا ما نحن فيه لاجتهدوا لنا فى الدين ولألزمونا بقراءة نظام العالمين كما عرفونا الصلاة والركوع والسجود والزكاة وأكثر المعاملات .

لو كانوا يعلمون أننا سنكون على هذه الحال لألفوا لنا فى هذه الأمور كتبا كثيرة ، ولكنهم ما كانوا للغيب عالمين .

ثم ألقوا لنا فى العبادات فحفظوا أممنا فى داخلها فجزاهم الله خيرا ولو أنهم اطلعوا علينا فى هذا الزمان لأفهمونا أن علوم الكائنات أولى بالرعاية وأحق بالتعقل وأولى بالتفهم ، والتوحيد أفضل من العبادات .

ثم ورد عنهم مثل هذا ولكنه لم يكن له أبواب وفصول ؛ والحق أن علوم الكائنات أفضل من العلوم الفقهية لأنها دالة على الله عز وجل ولأن فيها نظام الأمم وحياتها ، فأصبح اليوم علم التوحيد مأخوذا من الطبيعة وحياتنا موقوفة على الطبيعة ، وتفسير قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » متوقف على الطبيعة .

فليقرأ المسلمون علم الكائنات ليقربوا من رب البريات ، فذلك خير لهم وأحسن تأويلا .

الخزائن الحديدية فى القرآن

لقد خزن الله فى باطن الأرض الفحم واستخرجه الإنسان الآن ، وخزن البترول والنفط والحديد والذهب وخزن الكهرباء فى الجو والماء فى الأرض وفى كل شئ وكذا البخار ، كل ذلك خزنه الله ولم يطلع عليه الناس إلا شيئا فشيئا ، وليس الخزن معناه الاختفاء ، كلا ! بل يكون الشئ أمام أعيننا ولا نعقل له معنى ؛ فالبخار كنا نراه وأنه يميل إلى الصعود ولكنا مافكرنا فى منفعته ، والسمك المسمى بالرعاد كنا نحس بكهربائيته ولكنا كنا عنها غافلين ، هكذا القرآن قد ظهر لعامة المسلمين والفقهاء السابقين منه الأعمال الشرعية والتكاليف الدينية ؛ أما الحكم الكونية والعجائب الإلهية فقد كان المسلمون عنها غافلين اللهم إلا أكابرهم وماكان المسلمون لهم بمصغين ولا لقولهم سامعين .

وها هى ذى آية الغراب وكيف ذكرها الله فى القرآن ، وقال فى هذه السورة قولين فى هذا المعنى :

القول الأول : « تعلمونهن مما علمكم الله » والثانى قوله : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين » .

فتارة يقول لنا علموا الحيوان مما تعلمتم من الله وكلوا مما أمسكن عليكم ، وتارة يقول تعلموا من الطير ويقول ابن آدم : ياويلتا أبلغ الجهل بى والحمق أن أكون أدنى من الحيوان علما وأقل منه فهما وأنزل منه شرفا .

ألست ترى أن هذه خزائن أودعت فى القرآن وأقفلها الله كما أقفل خزائن البخار والكهرباء ونحن نراها ، فهذه الآيات تتلى والمسلمون نائمون ، حتى إذا جاء الأوان وساعد الزمان وظهر نوع الإنسان وبرع فى الإتقان فتح الله هذه الخزائن الحديدية المقفلة وأرانا عجائبها وأطلعنا على جمالها ، وقال قولوا لإخوانكم المسلمين: إن هذه العجائب من دينكم والتفكر فيها أعظم عباداتكم « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » ولقد خزنا أمثال هـذه القصة لأمثال للمسلمين الآتين بعدكم ، وهذا أوان مجدكم وإشراق شمسكم .

فبينوا للناس تبيينا وزينوا لهم مازيناه وأظهروا لهم ماخزناه فهذا أوانه ، وليقم فى كل أمة مصلحون وفى كل إقليم مجددون ، فانشروا العلوم وأبرزوها للعموم ، وإذا كان بعض السابقين لم يكن لهم من هذا حظ عظيم ؛ فلقد أذن الله ببلوغ المسلمين درجة الإتقان وارتفاع الشأن وقد كانوا بالجهل كصغار الأيتام ، فلما أذن الله بانشراح القلوب للعلوم صاروا أهلا لنيل ماخبأه لهم واستعدوا لاستثمار ماغرسه لهم ، إذ صاروا بالفهم كالبالغين ، إن الله لايعطى إلا المستحقين ويمنع من لايشكرون النعمة ، وليس يشكرها إلا من يعقلها ، والله هو الولى الحميد .

فتح الخزائن القرآنية والتفرج على عجائبها الحكمية

فى الطيور

لقد كنت ألفت كتابا سميته [جمال العالم] منذ ٢٢ سنة وذكرت فيـــه من كل نوع من أنواع المخلوقات عجبا !

فها أناذا أيها اللبيب أقص عليك منه ماينا سب المقام ، وأذكر عجائب بعض الطيور لتتفرج على خزائن الله التى أذن بإظهارها وفتحها لأبنائنا المسلمين الذين سيوقنون أن الدين الإسلامى جاء لكشف الحقائق وإظهار الدقائق وإبراز العجائب ، ولتعلم أن أعظم المخترعين وأكبر المفكرين وهم الذين ينفعون النوع الإنسانى سيكونون من المسلمين لإيقانهم أن العلوم الطبيعية قربى إلى الله تعالى وهى علوم ترفع فى الدنيا والدين وأن كل مخترع ومدقق وكاشف ونافع للأمم جميعها بالعلم خليفة الله وهم أولى بهذه الخلافة .

فلأسمعك ماجاء فى ذلك الكتاب .

الكلام على الطيور

فقال صاحبى : لقد اتضح لى السبب وعرفت الحكمة وفهمنا الحيوانات وعجائبها ، فأرجو أن تذكر كلاما على الطيور وغرائبها وما أودع فيها من الحكم ، فقلت : إن الله قسمها قسمة عادلة كقسمة الحيوانات التى على الأرض ، فجعل منها الآكلة والمأكولة ، وترى الصقور والشواهين والبزاة والبوم والغربان قد خلقت لها المناقير الملتوية والمخالب المعقربة والريش الطويل فى الأجنحة والأذناب ، وهذا الأخير ليكون موازنا لأجسامها ليمكنها أن تديرها كدفة المركب وذيل السمكة ، إذ لايمكنها أن تستدير يمنة أو يسرة إلا بتحريكه ضد ماتريد ، أنظر كتابنا [جواهر العلوم] وحدب مناقيرها لئلا تصادم الرياح فتعوقها عن الطيران إذا كانت عريضة ، وأعطيت حواس قوية حتى يمكنها أن ترى أقل شئ فى الأرض على بعد عظيم ، وتشم الرائحة من أبعد مكان ، ولها من السرعة مالايخطر بالبال حتى أن النسر ليطير فى الساعة أكثر من مائة ميل ، وقد يحمل الأرنب أو الحمل أو الطفل ، ومع ذلك ربما لايزيد وزن الطائر عن نحو اثنى عشر رطلا .

لطائف عن الطيور الجارحة

ولنذكر غرائب الخفاش والغراب والبوم ليكون مجلسنا هــذا جميلا فلا نذكر فيه إلا ماجمل من الحديث وليكون تذكرة للعقلاء وسلوة للحكماء وتنبيها للنبهاء وليرى الشبان الأذكياء مالم يكن ليخطر على بالهم من العجائب التى يراها عامة الناس ولا يفقهون لها معنى وكيف جهلناها وأعرضنا عن العلم فأعرضت المدنية « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

فإذا قرأت مايأتى من غرائب الطيور وفطنت إلى ماسنذكره من الحكم ثم نظرت الأمة حولك كيف أعرضت وجهلت تعرف سرا من أسرار القرآن ، وكيف سمى هذا نسيانا ؟ وظن العامة منا وكثير من الخاصة أن المدار على أن يقول : أعرف الله بلسانه وهو يجهل ما حوله من الكائنات ومنافعها « أفلم ينظروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » ثم هدد فقال « إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » إشارة إلى الذلة التى تحيط بالجاهلين .

ولنشرع فيما وعدنا فنقول :

الخفاش

لا يعدّ الخفاش من الطيور إلا تساهلا إذ لا ريش له ثم هو لا يرى إلا ليلا لقوة عينيه فيجهر بصره نهارا ويقوى ليلا ليكون لصا ، وهذا النوع أعطى قوة على أن يطير فلا يسمع ويبصر ليلا وهو لا يبصر ، ومنه خفاش جثته كبيرة كالثعلب أو الكلب حتى يسمى الكلب الطيار ، فهذا وذاك كلاهما موجودان فى العالم وشاهدهما أهل هذا العصر ووصفوهما فى الكتب « وفى الأرض آيات للموقنين ـ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ورب قارئ يقرأ هذا ويقول : أنا لا أصدق إلا بما شاهدت ، وهذا إنما هو من الغافلين ، فإن هذا من آيات الله الدالة على صفته المشحونة بها الكتب فى العصر الحاضر الآتية بها الأخبار من أقاصى المعمورة « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون؟ فاسجدوا لله واعبدوا » ونحن إذا تمادينا على الاستهزاء بهذه العجائب وأعرضنا عن ذكر الله بسببها ذهبت منا مدنيتنا مع أن علماءنا السابقين وآباءنا الأولين كانوا هم السابقين لها المعلمين لعلماء أوروبا الهادين لهم إلى سبيل الفكر والعلم ، والقرآن هو الهادى إلى ذلك .

ومن الخفاش نوع يعيش على دم الإنسان والحيوان فيشرب دم الخيل والإبل والبقر والغنم ، فإذا رأى إنسانا نائما جاء بلطف وخفة وروّح على وجهه حتى يستغرق فى نومه بتجديد النسمات عليه ثم يضع منقاره فى موضع مكشوف من جسده ويمتص منه الدم ، ولا يزال كذلك حتى يمتلئ ثم يطير بأسرع من لمح البصر ويترك النائم على شفا جرف هار من الموت أو المرض .

وما أشبه هذا بالأمم الفاتكة بغيرها بطرق الخداع واستهواء العقول ، جلت صنعة الحكيم العليم الذى أتقن صنعه وعلم الحيوان فوق علم الإنسان فى كل فن من الفنون حتى السياسة ، عجب من هذا الصنع الباهر والحكمة الظاهرة ! فإلى متى يا قوم لا تقرءون علم الحيوان ولا تذكرون الله إلا قليلا ؟ « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

حكمة الله فى البوم

البوم حيوان قوى جدا لا يظهر نهارا لأن له عينين كبيرتين واسعتين لا تقدر أن تحمل نور الشمس القوى ، وإنما تقدر أن تنظر فى الغلس وتبحث إذن عن الطعام ، تعيش على الفيران الغيطية والمنزلية والسمك والحشرات ، فإذا جاعت ولم تجد شيئا من ذلك أكلت من الطيور ، صفت أجنحتها بحيث تطير بلا صوت ولها أذنان قويتا الإحساس جدا بحيث تسمعان أقل حركة من حيوان صغير كالفأر على الحشيش ، فإذا رأت فأرا على الأرض أو سمكة على سطح الماء أسرعت إليه فى الحال نازلة فى طبقة الهواء وحينئذ تنقض عليه وتقتنصه بمخاليبها ثم تطير به وتزدرده كله عظاما ولحما ، فإذا هضم اللحم فى فمها وتخلص من العظم لفظت العظم .

إذا شاهدت عش بوم فى جوف شجرة أو خربة فلتعلم أنك سترى آكاما كبيرة من العظام التى أكل لحمها البوم بل نفس تلك الأعشاش إنما هى آكام صغيرة من عظم يابس ، البوم نافع عظيم للفلاح فيأكل الفيران التى تضر بالزرع .

وقد قيل إن بومة واحدة قد تأكل قدر هرة خمس أو ست مرات .

حكى أن رجلا له حمام مستأنس فى برجه فوجده ناقصا فأخذ بندقيته وترصد ليلا حتى إذا جاءت بومة

ودخلت

ودخلت البرج ، ولما خرجت وفى فمها شئ ظنه الرجل بماما وظنها سارقة له ، ولما ضربها ووقعت صريعة وجد ما فى فمها الفأر التى هى المفترسة على الحقيقة ، فندم ولات ساعة مندم .

وفى بعض الجهات يستعملون البوم لصيد الطيور ، وذلك أنهم يأتون بأغصان ويدهنونها بصمغ يسمى صمغ الطيور يلتصق الشئ به كالغراء ثم يربط البوم فى حبل قريب من تلك الأغصان حتى لايتمكن من الفرار فى الحقل ، ثم إن الطيور تكرهها كراهة شديدة لأنهن يعلمن أنها فى بعض الأزمان تقلق راحتهن وتحاول اقتناصهن ، فإذا رأوها مربوطة ولن تقدر على أن تلحق ضررا بهن يفجعن فى عدد كبير وجم غفير ويلتففن حولها لينقرنها بالمناقير ويضربنها بأى وسيلة يقدرن عليها ، وفى الحال تثب تلك الطيور على الأغصان المدهونة بالغراء أو تلمسها بأجنحتها فيمسكهن حالا ويقتنصهن الرجل سريعا ويضعهن فى القفص المعد لذلك ويذهب إلى حيث يريد .

الغراب

هو من الملحقات بآكالة اللحوم وضعه الله فى الأرض ليساعد الفلاح على عمله فى الحقول ليأكل الدود والجرذان وغيرهما من هوام وحشرات .

ومن العجيب أنه يعرف الخطر فيتقيه إلهاما من الله تعالى فيبنى مساكن من الأغصان مجتمعة على الإحكام والإتقان فى أعالى الأشجار حتى لايقدر الريح على إفساد أعشاشهن أو إيقاعهن عن أماكنها ويخرجن لطلب الرزق زرافات ، فإذا وقعن فى حقل ليلتقطن ما أودع الله لهن من الحشرات والهوام جعلن واحدا منهن حارسا مترصدا للأعداء محاذرا هجمات الفاتكين ، فإذا نعق (غاق) علمن قرب خطر محدق بهن فطرن فى الهواء .

ومن العجيب أن الناس فى بلادنا لايفهمون لهذا الطير معنى ويؤذونه وقد يضربونه بالبنادق وهم يجهلون أنه صديقهم قاتل عدوهم الدود ، فهو يحسن وهم يسيئون .

وفى ظنى أن كثرة الدود فى بلادنا إنما جاءت من قلة الأشجار ، ولو أن الناس غرسوا على الترع والجسور والخلجان أشجارا لعششت فيها الطيور المختلفة وأبادت الدود والحشرات .

إذ من المحقق أن الحشرات أصلها الدود ، فكل حشرة تبتدئ بيضة فتنقلب دودة ، حتى إذا أكلت ونامت نسجت عليها نسجا حريريا فكونته كتلة صغيرة أو كبيرة وتسمى بلسان علماء الحيوان (شرنقة) ويبق فيها ذلك الحيوان نائما ثم تخلق له الأجنحة والأرجل فيخرقها ويطير كما فى دود القز ودود القطن الذى يخرج منه أبو دقيق ، وسنوضحه فى هذا المختصر إن شاء الله تعالى ، وستقف فيه على أن الطيور وضعت لأكل الحشرات والدود الضارة بالزراعات والأشجار فى مساكنها ، فمن قطعها فقد جنى على الزرع جناية لايكفرها إلا العلم بها .

الغراب والموازنة بينه وبين البوم والخفاش والفلاح فى الحقل وأن هذه مملكة سياسية

لقد صدق علينا اليوم قوله تعالى «وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» .

هذه آية الغراب نشاهده كل يوم ونسمع ذكره فى القرآن ، وأن بعض عباد الله تعلم عنه و «قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ » وحرم علينا أكله .

فياليت شعرى ما الذى فيه من المنافع وما الذى أودع مدبر الكون فيه من الحكم والمصالح ، وهل له ارتباط بمعايشنا وأرزاقنا ؟ نعم ! إى وربى إنه لحق ، وهل يذكر فى القرآن إلا لينبه النفوس الغافلة والعقول الخامدة ؟

اعلم أن الغراب من أعظم نعم الله على الفلاح وزرعه فإنه يأكل الحشرات الصغيرة والديدان من الأرض التي لو بقيت لأضرت الزرع فهلك الحرث والنسل .

فانظر كيف جعل الله هذا الحيوان مساعدا على نمو نباتنا وبقاء حياتنا كما جعل البوم آكلا للفيران ليبقى الزرع محفوظا إلى أجل مسمى .

فانظر كيف سلطهما الله على تلك الحيوانات المضرة بزرعنا ، وانظر الحكمة فى الشريعة المطهرة وكيف حرم أكلهما على الناس لطفا من الله بنا وبقاء لزرعنا ، فضلا عن ضررها بأجسامنا كما تشير إليه الآيات والأحاديث .

مقارنة بين سياسة الله تعالى فى العالم وسياسة الأمم وبرهان على وجوده وحكمته

هل لك أيها السيد الأخ أن تتأمل معى فى أربعة أصناف كوّنت محكمة واحدة ؟

تصوّر الغراب والبوم والخفاش والفلاح يتعاونون على إنماء الزرع ؟ فترى الفلاح يحرث ويبذر ويسقى ويحضر الآلات لتنقية الحشيش ، وهذا هو الوزير الأول لهذه المملكة ، وهذا الوزير يعجز عن إبادة الجنود المجندة من الحيوانات التى تفتك بزرعه صباح مساء ؛ فلما عجز عن ذلك أغاثه الله وأعانه بالبوم ، فقد جعل الله معيشته على الفيران والحشرات وأشياء أخرى مما يضر بالزرع ، فإذا أفلت شىء من هذه الحيوانات ولم يبده البوم تلقاه الخفاش فإنه مسوق طبعا لأكل الفراش وغيره ، وهذا لو ترك وشأنه لوضع بيضا يبقى فى الأرض زمنا ثم يخرج منه دود وهو فى الغالب عند ابتداء خروج النبات من الأرض فيهلكه ، ومتى بقى شىء من ذلك وقد أفلت من البوم والخفاش سلط الله عز وجل حيوانا نهاريا وهو الغراب فأكل ذلك الدود من الأرض .

فانظر كيف جعل كل صنف من هذه الأصناف الأربعة ، وهى : الإنسان ، والبوم ، والخفاش ، والغربان مساعدا للآخر فى إنماء الزرع وهو لا يدرى ما نتيجة عمله .

ومن العجيب أنك ترى أن الخفاش والبوم حيوانان ليليان أعدهما الصانع الحكيم للهجوم على الحيوانات المبصرة السميعة القادرة على الطيران والجرى فوهبهما أعضاء وحواس تناسب الهجوم فى الظلمة .

وانظر كيف كان الغراب حيوانا نهاريا لأن معيشته غالبا من أكل الدود وهو لا قدرة له على الجرى ولا سمع ولا بصر ، فلم يكن من الحكمة أن يجعل ليليا ، وهكذا الإنسان .

وانظر كيف جهل كل صنف من هذه الأصناف عمل الآخر كما قدمنا .

ولا جرم أن الذى علم النتيجة من هذه الأعمال الليلية والنهارية هو الصانع الحكيم الذى دبر الكون وأتقنه ، فظهر إذن أن الحقول كالممالك ، فكما أن الملك أو الوزير يعطى كل عامل قسطه من العمل الذى يصلح له ، فهكذا نرى أن كل حيوان ناطق أو غير ناطق قام بعمل يصلح له فى الزرع .

وكما أن الملك أو الوزير يوعز إلى رئيس الأشغال أو الإدارة أو الحقوق أو المعارف بما لا يوعز به إلى الآخر فهكذا نرى أن كل حيوان جبل على عمل برع فيه .

وكما أن كل رئيس من رؤساء الحكومة يعلم ما تحت إمرته تفصيلا ويجهل سواه ، فهكذا تلك الحيوانات والإنسان كل يعلم ما استعدّ له ويجهل سواه .

وكما أن نتيجة جميع نظام الأمة موقوف على إرادة الملك أو الوزير بحيث ينظران الأشغال والإدارة وغيرهما وينسبان بعضهما إلى بعض ويلاحظان النتيجة ويزيدان ما نقص وينقصان ما زاد ، فهكذا الحكيم مدبر الكون رتب هذه الأصناف من الحيوانات وغيرها وعرف مقدار ما تخرجه المزارع بعد ترتيبها وإحكامها ،

فالميزان العمومي في يد الله تعالى يخفض ويرفع ويزيد وينقص على حسب ما أراد في إخراج النتيجة والثمرة التي يختارها .

وكما أن رؤساء المصالح في الحكومات إذا لم يكن لها رئيس أكبر يجمعها وينظر شئونها مزقت كل ممزق ولم يكن لها نتيجة ألبتة .

فهكذا هذه الحيوانات إن لم يضع مدبر الكون لها حدودا ولم يلهم كلا رشده لم تحصل الثمرة المطلوبة ، ومن هنا نفهم قوله تعالى « أفرأيتم ما تحرثون ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ » يشير إلى أن الحرث إنما قصد لإنمائه ، والنبات يحتاج لأمرين : جلب المصالح ودفع المضار ، فيفعل الإنسان جلب المصلحة وبالحيوان دفع المضرة ، ولذلك قال « لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون بل نحن محرومون » .

ولما بلغ بنا المقال إلى هذا المقام ، قال صاحبي : قد عرفت شيئا من عجائب الطيور الجارحة وغرائبها ، فهل لك أن تذكر لي شيئا من عجائب الطيور غير الجارحة ليعرف من يطلع على مقالنا هذا كيف حال الطيور غير الجارحة مع الجارحة ويقارنها بحال الحيوانات أكالة الحشيش مع المفترسة ؟ فقلت : إن الكلام على هذه الطيور يطول ، ولنذكر كلاما إجماليا عليها فنقول :

تقسم باعتبار الماء والأرض والهواء إلى ثلاثة أقسام كلها زينت بالريش القصير على أجسامها الطويل في أجنحتها وذيولها ليكون كدفة السفينة يساعدها على الدوران بسرعة يمينا ويسارا في الهواء ، هذا مع ما لها من الألوان المختلفة والأصوات العجيبة المتباينة .

المائية

وانظر كيف ميز الله المائية عما عداها بزيت وضع في ريشها طبيعيا ليقيها غوائل البلل ، وأرجل منسوجة نسجا عجيبا لتساعدها على العوم في الماء كمجاديف السمك والسفينة .

فانظر وتأمل كيف وضع لماء ما يناسبه من ذلك النسيج بين الأصابع ، ومن ذلك الزيت الدائم الذي يقي من البلل .

ولم تكن هاتان الخاصتان إلا في هذا النوع وحده ، والبط والأوز من هذا النوع .

الهوائية

أما الطيور الهوائية فقد دبرها الله بصنعة تناسب الهواء والتسلق على غصون الأشجار ، فجعل أجسامها صغيرة وأجنحتها طويلة ، وصور الأصابع مستعدة أن تقبض بخفة على غصون الأشجار حتى في أثناء النوم ، والعصافير والغربان من هذا النوع .

فانظر كيف صغرت الأجسام لتستقل بالطيران في الهواء ، وكيف طالت الأجنحة لتقوى على ذلك ، وكيف فصلت أظافرها وجعلت صالحة للقبض على الغصون كما نسجت في الطيور المائية لسهولة العوم في الماء .

الأرضية

أما الطيور الأرضية فأجسامها كبيرة وأرجلها قصيرة قوية وأظافرها صالحة للبحث في الأرض ، والدجاج نوع من هذا .

فتأمل ياسيدي كيف قويت أرجلها لكبر أجسامها ، وكيف كانت أظافرها غير منسوجة كالمائية ولا صالحة للقبض على الغصون كالهوائية بل مستعدة للبحث في الأرض لمناسبة المعيشة فيها .

وهذه حكم عجيبة « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

عجيبة

ذكر علماء الحيوان عن هذه الطيور عجائب لايسع المقام ذكرها ، نكتفي منها بمسألة واحدة .

عن أحد العلماء أنه صاد خطافا ضربه بالبندقية فوق سطح البحر فوقع على الموج فانتظر ذلك العالم حتى يأتي به إلى الشاطىء ؛ وبينما هو كذلك إذا بأربعة من ذلك النوع أحدق اثنان منهن بالمجروح كل واحدة أمسكت بطرف جناح وطارتا به قليلا وتعبتا فنابت عنهما أختاها فحملتاه أمتارا ، وهكذا مازلن يتناوبن الحمل بمرأى .

العصفور

وهل أتاك نبأ عصفور دورى أخبر عنه المستكشفون ؟ وذلك أن فيه حكما تخبرنا عن عجيب الإتقان فى ذلك الصنع الباهر والحكمة الظاهرة .

وذلك ان هذا العصفور لايبنى له عشا ، وإنما يبحث عن أعشاش نوع آخر من جنسه يماثله حجما ، وينتهز فرصة غياب صاحب العش ويضع فيه بيضته ، فإذا رجع صاحب العش لم يعرف الفرق بين العددين فيحضن الجميع ، وأول فرخ يخرج من البيضة ذلك الفرخ الأجنبي فيفرح به صاحب العش ظنا منه أنه ابنه وقد جرت عادة الله أن من تعب فى شئ مستحسنا له أحبه ، ثم ينمو هذا العصفور بسرعة حتى يضيق المكان إذ ذاك وتبتدئ الفراخ التى فى بيض صاحبة العش أن تنقر البيض بمناقيرها وتخرج واحدة بعد الأخرى .

فانظر كيف وضع الله فى فهم ذلك العصفور الأجنبي أن يساعد أمه الحنون الجديدة ويبنى عشا آخر فى أقرب زمن .

وانظر كيف جعل الله فى ظهره فجوة أو حفرة فيها يضع إخوته الصغار واحدا بعد الآخر وينقلهن إلى العش الجديد ؛ فتأمل ثم تأمل ! كيف ساعد أمه الجديدة على تربية أبنائها مكافأة لها على حضنه ثم استيطانه المكان الذى بنته ؟ فلعلك إذا تأملت هذه الحكم العجيبة تسعى لنفع أمتك مثل ماعلمك الأولون وتجدد مجدها ، انتهى ماجاء فى كتاب [جمال العالم]

الحيوان كتاب مفتوح للناظرين كتبه الله بيده وسطره بحروف بارزة واضحة بهجة تسر الناظرين ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ، فدلهم على ذلك الكتاب المنظور بما أنزله فى الكتاب المسموع الوارد من الوحى على قلوب الأنبياء ، فقال تعالى هنا على لسان ابن آدم « ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى » وقال فى سورة النمل على لسان الهدهد مخاطبا النبى سليمان عليه السلام « قال أحطت بما لم تحط به » وفى سورة البقرة يقول الله تعالى « إن الله لايستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ولقد سمى الله السور بأسماء الحيوانات كالأنعام والبقرة ، وبأسماء الحشرات كالعنكبوت والنمل والنحل ، فانظر كيف يقول الهدهد أحطت بما لم تحط به مخاطبا نبيا عظيما مشيرا إلى أن الإنسان وإن عظم مقامه وارتفع شأوه جدير بأن يقرأ علم الحيوان ، وإذا كانت عناية الله عز وجل موجهة إلى أحقر الحشرات وهى البعوضة وما هو أدق منها ، فضرب بها الأمثال ولم يكتف بذلك بل سمى السور بأسمائها ، فلا جرم أن الأمر لعظيم .

إن المسلمين بعدنا سيكونون أبعد مرمى مما نحن عليه ، إن المسلمين اليوم نائمون لايعلمون ما للحيوان والحشرات من الأهمية العلمية ولم يوجهوا هممهم إلى ذلك ، وكم للحيوان من حكومات منظمات ، فترى النمل يخدم كل واحد من الجماعة الآخرين ، وهكذا النحل ومثلها كلاب البحر والقربان وغيرها .

إن دراسة الحيوان تفهمنا إلى أى اتجاه تتجه الحياة ، وإن نظام الحياة الفردية موجه للمجموع .

إن سنة الله فى الحيوان أن يخدم الفرد المجموع ، بل لاسعادة له ولا كمال ولا لذة إلا بحسب غيره ، والعمل له سواء أعلم ذلك أم كان من الجاهلين ، فإذا ترى المسلمون تربية فردية كما هى الحال اليوم قادتهم

الأمم إلى أسفل سافلين وأصبحوا فى العذاب المهين ، فليكن كل فرد عاملا للمجموع قصدا ، ولتكن وجهة تربيته لذلك ، وإلا اضمحل وتفرق المجموع ، وإن أردت زيادة التبيان فهاك حياة الحشرة المسماة فرس النبي وحياة العقرب .

فرس النبي والعقرب

إن الحشرة المسماة فرس النبي التي ترى على الأشجار وبين الأوراق خضراء مشاكلة لما هي فيه من الخضرة والتي يغر ظاهرها أنها أشبه بالصالحين من هيئة منظرها ، هذه الحشرة من الحشرات التي تعيش على صيد غيرها ، وتفتك بما يمر بها من الحشرات ، وصمتها وسكونها وهدوءها لأجل أن تغر ما يمر بها من الحشرات فتلتقمه على حين غفلة ، هذه هي المسماة فرس النبي ، وطريقة تناسلها أن يقترب الذكر من الأنثى وتحصل عملية الإلقاح ، ولا يكاد الذكر يفرغ من تلك العملية حتى تنقض عليه الأنثى فتأكله وهو ساكن لاحراك له .

العقرب

العقرب حيوان معروف يتغذى من العناكب والجراد والصراصير والذباب .

تناسله

إذا أتى فصل الصيف خرج الذكر فى الليل باحثا عن الأنثى ، فإذا لقيها قبض بطرفيه الساكين على طرفى الأنثى المائلة ، فتريد الأنثى أن تتخلص منه وتفر من الذكر ، فيذهب للبحث عنها ثم يسير بها مدة من الزمان لاويا ذيله فوق جسمه للفرطح راجعا القهقرى جارا معه الأنثى حتى يدخلا معا تحت حجر أو فى شق فى الأرض ، ولا يدخلان ذلك المضيق إلا بعد دوام الرياضة مدة ساعات كأنهما يتغازلان ، والذكر فى أثناء تلك الرياضة يقرّب فمه من فمها ، ومتى دخلا الشق أو المكان المختبئ حصلت عملية الإلقاح ، ومتى تم التلقيح تنقضّ الأنثى على الذكر وتأخذ تنهشه وهو لا يزال حيا حتى إذا أكلت الأعضاء العصبية الرئيسية مات وانتهى أجله ، وفى بعض الأوقات يفلت الذكر من الأنثى بخلاف فرس النبي ، فإن الذكر لايفلت من الأنثى بل لابدّ من موته ، هنالك ينمو البيض فى رحم العقرب الأنثى ، ثم تبيض نحو أربعين بيضة وهى تشق غلاف كل بيضة تلدها فتخرج العقارب الصغار وتنام على ظهر أمها أسبوعا كاملا ، وهناك يتغير جلد الصغار وتعيش أيضا أسبوعا آخر على أمها ، وقد صارت جلودها المتساقطة على أمها أشبه ببساط على ظهرها تنام الصغار عليه ، ومتى تمّ الأسبوعان استقلت العقارب الجديدة ومضت تطلب رزقها أما أمها فإنها غالبا تموت بعد مفارقة صغارها لها .

دود القز وتناسله

ويماثل ماتقدم دودة القز ، فإن الفراش التى تنقلب إليه الدودة يتناسل بعد خروجه من الشرنقة فيلقح الذكر منه الأنثى ثم يموت الذكر وتموت الأنثى بعد أن تبيض ، فهذه الحياة الطويلة للشرنقة إن هى إلا تحضير لهذا التناسل .

طبيعة الإنسان لاتخالف طبيعة الحيوان فى أن التناسل مقدمة الموت
وأن حياة الفرد حياة للمجموع

قل لى بربك أيها الذكى المطلع على هذا الكتاب ، ماذا يراد بحياة الفرد الإنسانى ؟ إنه يراد بها أن تكون غذاء للمجموع وعضوا عاملا فيها ؛ فالفرد غذاء للمجموع ومقدّمة له ، وهاك البرهان :

لعمرك لئن رأينا ذكر العقرب وذكر فرس النبي يذهبان ضحية الأنثى فتأكلهما عقب الحمل بحيث يلتحق المأتم بالعرس ، واحتفال الجنازة باحتفال الزواج ليظهرن ذلك في الإنسان أتم ظهور بعد البيان .

فقل لي رعاك الله : أيّ فارقة بين مغازلة الإنسان ومغازلة الحيوان ؟ ترى الديك الرومي (المالطي) يظهر للأنثى جمال ريشه وهو منتفخ معجب بنفسه ليعجبها جماله .

وهكذا ترى الطيور المغردة يغرد الذكر للأنثى ليسرها صوته فتحبه ثم يكون الإلقاح ، وهكذا مامر في العقرب الذكر مع الأنثى ، كل هؤلاء يحتال ذكرانها على إناثها لمسألة الإلقاح .

هكذا ترى الإنسان يغازل الحسان وينتهي الأمر بالزواج فماذا بعد ذلك ؟ لايكون إلا مارأيت في العقرب وفي فرس النبي ، أبناء يولدون ، وأمّ رءوم ، وزوج يكدّ ويكدح ليلا ونهارا لإرضاء الزوجة وتربية أولادها وهو وهي معاً قد أخذا يقبلان الأطفال بعد تقبيل كل منهما صاحبه ، فأصبحا خاضعين خادمين لأولادهما لايرضيهما إلا مايرضى الأولاد ، ثم تتبرع الأم بما لديها من مال وحلى لابنتها ، والأب يخرج عن ماله بطيب خاطر في حياته وبعد موته لأولاده ، فلعمرى أى فارقة بين العقرب وفرس النبي والإنسان ؟ الذكر في الأولين افترسته الأنثى ، لماذا ؟ لأجل أن يكوّن قوة عظيمة لتربية البيض في بطنها ، ثم إن العقرب تموت بعد استقلال صغارها ، فهي لم تعش بعد الذكر إلا لحفظ الأمانة التي استودعها إياها ، فهي تحافظ على البيض وتربيه ثم تموت ، والبيض في بطنها نما وكبر بفضل جسم الذكر الذي تحلل في باطنها وامتزج بجسمها .

أفلا ترى أن الرجل كذلك ؟ جاد ذكر العقرب وذكر فرس النبي بجسمه لتخلق أولاده وهو ماعلمك ، أما الإنسان فإنه يجود بماله وكسبه وكدحه وكده مدّة حياته ولايزال جسمه في ضمور وولده في ظهور وهو فرح فخور به حتى يزول هو من الوجود ويبقى ابنه بعده إلى حين ، هذه قضية الإنسان وقصته ، مغازلة وعرس وزواج فولد فموت .

يظنّ الرجل أنه تزوج المرأة لحظ نفسه وهي تظن كذلك ، ولكن خاب فألهما فما هما في ذلك إلا مخدوعان كما خدع العقرب وفرس النبي اللذان يجيء الموت للذكرين عقب الحمل ، وهنا يكون الموت تدريجياً ويبتدئ بأوّل مولود ، فترى كلا من الأبوين يحنو عليه ويحبه ويود لو يقدّم له كل ماعلك ، ومهما طال الزمن فإن المسألة ترجع إلى فقد الأبوين وحلول الولد محلهما .

العرس واحتفال الزواج أشبه بالمأتم لأنهما أخوان ، فالعرس يعقبه التناسل ، والنسل يحل محل الأصل في حياته وبعد موته .

إن من احتفل بالعرس فقد أخذ يهيء الأسباب للجنازة ، يتزوّج ليلد ، والولد يحل محل الوالدين ، فالاحتفال بالزواج احتفال بالموت في الحقيقة ، فصار الإنسان في ذلك كالعقارب أو فرس النبي كل يحتفل بالقران وبعد ذلك احتفال الموت ، غاية الأمر أنه في الإنسان بطيء وفي الحيوان سريع ، تغنى المغنيات في العرس وما هنّ إلا داعيات للنادبات الصارخات بعد حين على العروسين ، ذلك هو المبدأ والختام .

نتيجة ذلك كله

أن الإنسان مخلوق للمجموع لا لنفسه ، ومن خلق لمنفعة غيره فلا حظ له إلا فيما خلق لأجله ، فإذا رأينا المرأة تحنو على ولدها فذلك لغريزة حيوانية ، وإذا نظرنا إلى ماهو أعلى من ذلك وجدنا القوّاد والأمراء والملوك يسهرون على الرعايا ، ووجدنا الحكماء والعلماء يؤلفون لمن بعدهم ، ووجدنا فوق ذلك الأنبياء يأتون بوصايا وشرائع لمن بعدهم ، هؤلاء هم الذين فهموا الوجود .

طبيعة الوجود أن الفرد لمجموع ، فمن كان لمجموع أشبه بالأم لأولادها ، فذلك الذى هو جار على سنن الفطرة ، ومن ليس كذلك فهو فاسق ، هذا هو دين الإسلام وهذا هو الحق .

وياليت شعرى أىّ كارثة حلت بالإسلام وأىّ مصيبة أصابته ، كيف تقاعدوا وتباعدوا فأخذتهم الأمم من كل جانب ؟ ذلك لجهلهم بالقرآن وبسنن الله فى الوجود وبتربية الأمم .

مات الذكر والأنثى من فراش دود القز بعد عملية الإلقاح والبيض كأنهما قد أتما ماعليهما فى الوجود ، هكذا يموت العالم فرحا إذا أتم ماعليه للأمة من الإصلاح ، وهكذا الحكماء والأنبياء ، يقول الله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » نزلت هذه السورة فعرفوا منها أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتهت لأنه خلق للدعوة وقد تمت فماذا بعد ذلك إلا الموت .

كل ذلك جار على هذا الناموس فى الوجود ، فالفرد خلق لمجموع ، فالحيوان والنساء من نوع الإنسان يعملون للأبناء بالغريزة ، والأنبياء بالإلهام يعملون للأمة ، والعلماء والحكماء بالتعليم ، على هذا فليكن تعليم الإسلام ، وبهذا ارتقت أمم فى الوجود .

ولأذكر لك نموذج التعاليم الألمانية .

حكاية اليمامة

يمامة باضت فى عشها فى قصر ببرلين ثلاث بيضات فخرج لها منها ثلاث أفراخ ، فاحترق القصر فأخذت تجول حول النار ثم انقضت على أفراخها فاختطفت منها واحدا ثم وضعته بجانب شجرة ثم رجعت كرة أخرى وخرجت ظافرة بالثانى بعد أن احترق بعض ريشها ، وقد كان القوم من منظرها بائسين ، فلما رجعت ثالثة لتأخذ الثالث وقد اشتدّ لهب النار لم ترجع وماتت ضحية إنقاذ الثالث من أفراخها .

ذلك هو نوع من الحكايات التى يربون بها تلاميذهم ليعلموهم أنهم خلقوا لمجموع ، والله يقول فى القرآن على لسان ابن آدم « ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ » والهدهد يخاطب سليمان عليه السلام بقوله « أحطت بما لم تحط به » .

هكذا يجب أن يكون التعليم فى الإسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر عالم من أصدقائى واطلع على هذا وقال : أهكذا تكتب فى التفسير ؟ وهل هكذا سيرك فيه ؟ فقلت نعم ! قال : إن هذا الأسلوب مخالف للحقائق بعيد عن الصدق والصواب .

فياليت شعرى أىّ مناسبة بين الإنسان فى الزواج والموت وبين العقرب ؟ وكيف تدعى أن احتفال الزواج مقدّمة لاحتفال الموت ؟ وكيف تقول إن منازلة ذكران العقارب لإناثها الذى جعل مقدمة لموت الذكر هو بعينه منازلة الرجال للنساء فى الإنسان ويتبع ذلك الموت .

إن هذا القول أشبه بشعر أبى العلاء المعرّى القائل :

وشبيه صوت النعى إذا قيـ ... ـس بصوت البشير فى كل ناد

ولعمرى لئن صحّ هذا فى الشعر لا يصحّ فى تفسير القرآن المبنى على الحقائق ، فقلت : ليس ماقلته شعريا بل هو حقائق ثابتة ، فقال : وأين هى ؟ قلت : اعلم رعاك الله أن الحيوان على ثلاثة أقسام :

قسم يذر بيضه فى العراء ويتكفل الله بتربيته وإخراج الذرية منه ، وذلك كالذباب والناموس والجراد وما أشبه ذلك ، ومن هذا دود القز .

والقسم الثانى ما يحافظ على صغاره ويتعهدها زمناً ما ، وذلك فى الطيور الجارحة وغير الجارحة ، فإنها أرقى من الذباب ؛ فترى العصافير والحمام وجوارح الطير تحضن بيضها وتربى أولادها .

والقسم الثالث ذوات اللبن من السباع والأنعام والقرود والإنسان ، فكل هذه تربى أولادها بعد حملها فى بطنها مدّة ما .

ثم انظر الحكمة العجيبة ! انظر وتعجب كيف رأينا الموت يتبع طريقة التناسل :

(١) فإن كان الحيوان من أدنى الطبقات بحيث لايقدر على تربية صغاره ولاحضن بيضه كالجراد وكدود القز، فهذا لايبقى لتربية صغاره لأن الفرع يقوم مقام الأصل ، ولا حاجة للأصل فى التربية ، واعتبر هذا فى فراش دود القز الذى يموت الذكر والأنثى منه عقب البيض ، وترى أمثال الجراد والناموس ليس عندها غريزة حفظ الولد ولا حضن البيض ، فلذلك ماتت وتركت بيضها والله سبحانه وتعالى تولى تربيته فيهلك أكثره وما بقى يملأ السهل والجبل .

(٢) وإن كان الحيوان أرقى قليلا كالعقارب فإنا نرى الذكر عقب حفلة الزفاف تنتهشه الأنثى لبقائها وبقاء أولادها ، وهذه هى الثروة التى يملكها الذكر فقدّمها لنسله ولزوجه ، فأما الأنثى فلا بدّ من بقائها حتى يستغنى عنها أولادها ، فلذلك تبقى حتى تبيض وتعيش أربعة عشر يوما ويستغنى عنها صغارها ثم تموت ، ذلك لأنها لاحاجة لبقائها ، أليس هذا يدلك على أن بقاء الأصل إنما يكون لمصلحة الفرع ؟

(٣) فإذا كان الحيوان أرقى كالحمام وكواسر الطير فإنه يعيش ليحضن البيض ويطعم الولد ، ويلد مرارا وتكرارا ولا يموت عقب عملية البيض لأن الحاجة ماسة لبقائه ، هكذا الأنعام والدواب والقرد والإنسان ، كل هؤلاء يعيشون متمتعات بالحياة .

ألست ترى أن القاعدة العامّة أن الأصل إنما يكون بقاؤه لاحتياج الفرع إليه ، وأنه لوكان الإنسان وإخوته من الحيوان لاتحتاج الذرية إلى حياتهم ماعاش إنسان بعد وجود الذرية ، وأن حياته لابدّ منها لتربية الذرية ، وأن ذكر العقرب إذا مات عقب ساعة العرس يشبه الإنسان غاية الأمر أن موته بطىء وبقاءه مدة لحفظ ولده .

هذه هى القاعدة العامّة بقاء لحفظ الولد وموته للاستغناء عن الرعاية .

ولا يضر هذه القاعدة أن من الناس من لايلدون ، ومنهم من يموتون وقد تركوا ذرية ، وقد يموت الرجل والمرأة عن طفل صغير وما أشبه ذلك ، فإن هذه أحوال عارضة ، وقد جعل الله الناس أشبه بجسم واحد ، فإذا مات الأبوان فهناك مجموع الأمّة يقومون بذلك النقص .

فتبين من هذا أن حياة الرجال والنساء بعد حصول الذرية بما ركز فى نفوسهما من القدرة على التربية ، وأن الحكمة الإلهية اقتضت أن لاتكون حياة إلا لعمل ومن خالف هذه الحكمة ضلّ وغوى .

وإذا أعطى النمل قوّة الادخار وهكذا النحل فذلك لأنه فى حاجة إليها فألهم ذلك مع تربية الذرية ، وحرم من ذلك الجراد فلا ادخار ولا تربية للولد ، فإذن لم يعط هذه الغريزة لعدم الحاجة إليها .

هذا هو الصراط المستقيم ، فبنو آدم خلقوا متضامنين وفيهم غريزة حفظ الولد وحفظ المجموع كما فى جبلة النمل والغربان ونحوهما ، فمن أعرض عن فطرته ولم يعمل للمجموع فهو ضال جهول لم يجر على فطرة الله التى فطر الناس عليها .

الله فطر الناس على حبّ التربية للذرية وعلى حفظ المجموع ومساعدته ، ولا معنى لبقائهم فى الدنيا

إلا

إلا لمساعدة الذرية ومساعدة المجموع ، ولولا هذا لم يكن لبقائهم فائدة كما لم يكن لفراش دود القز ولا لذكر العقرب بعد الإلقاح ولا لأنثاه بعد استقلال الصغار فائدة فى الحياة .

إن المسلمين اليوم قد خالف كثير منهم فطرة الله ، فترى قوما يحاربون مع أهل أوروبا ضد إخوانهم كما تراه فى شمال أفريقيا ، يحارب قوم بدراهم معدودة مع الطليان وآخرون مع الأسبان والفرنسيين ضد إخوانهم فى الدين .

وهكذا ترى التربية والتعليم فى نقص مستمر ، لذلك سلط الله على أكثر المسلمين غيرهم فأذلوهم حتى يستيقظوا .

وهذا الكتاب إن شاء الله وأمثاله سيكون من أسباب استكمال النهضة الإسلامية الحالية ، هذا كله داخل فى قوله تعالى « قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ » .

كل ماذكرته فى هذا المقام من سرهذه الآية ، وكيف أصبح بعض المسلمين الآن لايصنع ماصنعه الغراب الذى يوارى سوأة أخيه .

أما المسلم الساذج فإنه يكشف سوأة أخيه ويحارب مع عدوه ، فإذن صار الغراب أشرف وأرقى من بعض المسلمين اليوم .

إن فى القرآن لسراً سيكشفه علماء بعدنا ، وهذا من مبادئ الكشف .

فقال صديق : ولم خص الغراب بالذكر هنا ؟ قلت : الغراب حاز الفضيلتين : فضيلة تربية الولد ، وفضيلة خدمة الجمهور ، فليس كذكر العقرب ولا كالجراد ، فهؤلاء لاتربى صغارها ولا كالحمام والدجاج اللاتى وإن ربت الصغار لاتحتاج إلى جماعة تعيش معها ؛ فالغراب يربى الأفراخ ويتصل بإخوانه ، إن هذا هو الذى تضمنه قوله تعالى « ليوارى سوأة أخيه » فإن مواراة سوأة الأخ لاتكون إلا بعد المحافظة على الذرية ، فهى تكون فى الحيوانات الراقية ، والإنسان أرقى الحيوان فليكن نافعا لنفسه ولولده ولأهل وطنه وأهل دينه ولسائر الناس إن كان من المفلحين .

إن المسلم الصادق هو الذى يكون خليفة الله والناس جميعا عباده فهو لهم خادم أمين .

خاتمة هذا المقال وجماله فى السفينة والسمكة والمنطاد والمراكب الهوائية

التى تعلمها الإنسان من الطير حوالى أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضى

ذلك كله فى عجائب قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى ؟ الخ » .

أى عجائب الآية التى نحن بصدد الكلام عليها والتى قد ذكرنا عجائب الطيور بصددها وغرائب الحيوان وكيف يموت إذا استغنى عنه ويعيش إذا كان له منفعة ، وكيف كان الحيوان عبرة للانسان يريه ما استقر فى فطرته وكمن فى خلقته وعجائبه .

أقول هذه الآية الآن وسأسمعك عجبا فيها وأى عجب ! ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر فيها بلفظ « بعث » وقال إن الغراب يرينا كيف نوارى سوأة إخواننا فندفن الموتى كما دفن .

التعبير بلفظ البعث عجب وأى عجب ! بعث الله الأنبياء ، وبعث الله الطيور التى منها الغراب .

إن لهذا التعبير رمزا ، الله بعث الطيور قبل بعث الأنبياء ، إن الله بعث كل مخلوق فى الأرض من طير وأنعام وحجر وشجر .

بعث هذه العجائب لنا قبل بعث الأنبياء ، بعث لنا فهى لنا مبعوثة وأعمالها وأحوالها هى كتبها التى

شرؤها ، فأعمالها صحف منشورة يراها الناس ولكن أكثر الناس لايعقلون ؛ ولما جهل الناس مايرون بأبصارهم لأنهم فى هذه الأرض من عالم منحط الإدراك ضعيف ميز الله منهم أناسا اصطفاهم فبثهم ليسمعوا أقوالا ، والأقوال معبرات عن المعانى ، والمعانى هى المقصودة ، والناس للأقوال أفهم منهم للمحسوسات .

الأبصار ترى العجائب ولكن العقول غافلة ، أما الأسماع فإنها تلقى إليها تلك البصرات بعبارات سهلة فتفهمها إجمالا .

أنزل الله الكتب السماوية لتنبه الناس إلى مايشاهدون ليتعقلوه ، ولو أن الناس جميعا واعون فاهمون لم يحتاجوا إلى الرسل ، فالرسل أرسلوا ليسمعوا الخلق الوحى ، ومتى سمعوا تيقظوا فأدكوا ففكروا ففهموا فاستخرجوا المجهول .

إن الله بعث لنا هذه العجائب التى رمز لها بالغراب وبعث لنا الأنبياء ليدلونا عليها ، بعث الله هذه المخلوقات من : طير وذر ونجم وشمس كلها مبعوثات ، كما أنها مسخرات كلها منافع لنا وكلها كتب مقروءة ، كل هذا نفهمه من آية الغراب ؛ فالغراب وما شاكله كتاب نقرؤه ، والعوالم الشاهدات كتب نقرؤها ، والقرآن هو الذى يدل على ذلك ، يقول « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » الغراب يوارى سوأة أخيه ، والمسلم والإنسان عامة عليه أن يوارى سوأة أخيه بل عليه أن يجد حتى يجد للانسان مقاما فى الهواء ومنفذا من هذه الأرض الضيقة .

ضاقت الأرض بأهلها ، فاذا أرانا الغراب أنه له مدنية وجماعة يعيش معها ، وأنه يربى أولاده وأنه يحافظ على جماعته وأنه يهيمن على الجمهورية الغرابية ، وأننا إن قصرنا فى دولتنا وجماعتنا فقد أصبحنا أقل من الغراب وأمثال الغراب من كل جماعة تعيش فى الهواء أو على الأرض أو فى البحر .

ففى البر الفيلة وحمار الوحش وأنواع كثيرة تعيش جماعات ، وهناك الحشرات كذلك مثل النحل والزنبور والنمل ، فهذه كلها تعيش جماعات وكلها ترينا كيف نحافظ على الجماعة والجمهورية ، كلها تفعل ذلك بفطرتها الغريزية ونحن نتعلمها منها بالفكر والعقل .

حكم الله علينا أن لايكون رقينا إلا بالتفكر ، وحكم على تلك الحيوانات أن يكون ارتقاؤها بالغريزة ، فهى تعلمنا أن ننظم جماعاتنا ونرقيها .

هكذا نرى جماعات من السمك كالحيوان المسمى (بالنمر) فى البحر ، وهو قد يكون طوله ثمانية أمتار فإنه يعيش جماعات ومثله الحيوانات المسميات (بحوت العنبر) وهو المسمى (كشالو) ذلك الذى يبلغ طول جثته نحو ٢٠ مترا ، ثم ينقض على النمر المتقدم ذكره فيأكله ، وهذا النمر المذكور شرس الطباع جدا فتاك كالنمر المعروف فيكون طعاما لحوت العنبر ، ذلك الحوت الذى تتعفن المواد التى يأكلها من أنواع السمك فى بعض أجزاء الأمعاء فتصير عنبرا ، ثم إن سلسلة الظهر المستطيلة تحيط بها مواد شمعية كثيرة بيضاء تعريبا تتجمد فى الهواء ممتدة على جانب العمود الفقرى وعند الرأس ، فهذه المواد هى المسماة (منّ القيطس) وهى تستعمل فى معاجين الزينة وفى صناعة اللؤلؤ الصناعى ، ومن الواحد منها يستخرجون نحو عشرين طنا ، ومعلوم أن الطن أكثر من عشرين قنطارا .

فانظر كيف كان هذا الحوت عظيم الجثة وعظيم النفعة ، وكيف استخرج منه العنبر إن كان مريضا ، والمنّ يوزن بمئات القناطير ، وهذا الحيوان يعيش جماعات قوية البأس شكسة الطباع ، وهى كلها تتنفس بالهواء ثم ترجع إلى قاع البحر مدة طويلة وهى لاتترك ثأرها إذا قتل أحدها فتكسر أعظم السفن .

فها أنا ذا ذكرت لك الجماعات فى الجو وعلى الأرض وفى البحار وكلها تعلمنا مما علمها الله ، تعلمنا علما

أعظم

أعظم من العلم الذى نعلمها إياه ، فنحن نعلمها كيف تصيد لنا فنأكل ولكنها هى تعلمنا كيف نعيش جماعات ونحب أبناء جنسنا .

وهذا هو السر فى أنه قال « فبعث الله غرابا » ولكن لم يقل إنى بعثتكم لتعليمها ، بل قال « تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا الخ » فهى مبعوثة لتعلمنا ، ونحن لسنا مبعوثين لها بل نعلمها لنأكل مما تحضره لنا .

تبين لك أن تعليم النظام المدنى والحب الأخوى ليس خاصا بالغربان ولا بالطيور .

فلم اختصت الطيور بأنها ترينا ؟

علمت أن الجماعات والجمهوريات ليست خاصة بالطيور التى منها الغربان ، بل رأيت أن الحيتان فيها الجماعات والحشرات والدواب والأنعام كلها ذات جماعات ونظام عجيب جعله الله بفطرتها الغريزية .

فياليت شعرى لم يقول الله ذلك فى الطيور وحدها ويجعلها ترينا حفظ الأخ ؟ مع أن حوت العنبر والنحل والفيل كل هذه لها جماعات منتظمات وكلها ترينا حفظ الأخ ومنفعة الأخ والمحافظة على الأخ ، فلم خص الطيور ؟

أقول جوابا على ذلك :

اعلم أن هذا السر لم يظهر إلا فى هذا الزمان .

هذا هو الزمان الذى تظهر فيه العجائب والغرائب .

هذا هو الزمان الذى أذن الله فيه بإظهار الأسرار وجمال الأنوار والمناطيد والمراكب الهوائية .

خص الله الغراب وهو من أنواع الطيور بأنه يرينا كيف يوارى سوأة أخيه ، وقال فى سورة تبارك (الملك) « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » فهنا يقول « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » وهناك يقول « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » فالطير هنا يرينا ، وهناك يوبخنا الله قائلا « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات الخ » فهنا الإراءة وهناك التوبيخ على عدم الرؤية ، فالطيور أرتنا ونحن يجب علينا أن نرى : أى نرى عجائب صنع الحكمة الإلهية ، ولا جرم أن الذى نراه قسمان : قسم يختص بالنظر فى العجائب الإلهية ، إذ قال هناك فى موضع آخر « ما يمسكهن إلا الرحمن » وقسم يختص بالمنافع الدنيوية كما قال هنا « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه » فإذن الطيور تنفعنا فى علم معرفة الله تعالى لأنه رحيم وعليم ، وتنفعنا فى أن ننفع الناس كما ستر الغراب على أخيه ، وكما فعل الله ذلك فى الغراب والطيور فعل فى الزرع والشجر ، فقال تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب — إلى أن قال — والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد » فإذن الله خلق النبات والشجر لأمرين : التبصرة والرزق ، وهكذا يقول فى النار « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » فالنار تذكرة والطير تذكرة ، والنار متاع للمقوين ، والغراب يرينا منافع إخوانه فننظر فى أمر الطير فماذا نجد ؟

نجد أن الأمم التى حولنا نظرت فى أمره فصنعت المراكب الهوائية والمناطيد بتعليمه .

إذا قرأت أيها الذكى هذا سيأخذك أعظم الشك فى قولى ، وتقول أى مناسبة لهذا الكلام ؟ أقول لك : اعلم أنه لولا الطير ما طارت المراكب الهوائية فى الجو بين لندن وباريس أثناء طبع هذا الكتاب ، الكتاب الآن يطبع والجرائد تقول إن المراكب الهوائية تجرى الآن بين باريس ولندن فى زمن قليل ، وقد جرت الطيارات بين طهران وأنقره فى اثنتى عشرة ساعة ، كل ذلك فى هذين اليومين .

وهكذا قد عوّلوا على إنشاء محطة فى بلادنا المصرية لتكون نقطة الاتصال بين بلاد الشرق وبلاد الغرب للسفن الهوائية ، الطيارات ملأت أقطار الأرض ، الطيارات كثيرة فى اليابان والصين وتركيا والعراق وأوروبا .

إن الله عز وجل بعث الحرب الكبرى التى ابتدأت سنة ١٩١٤ ، وانتهت سنة ١٩١٨ بنهار رحمة بالعباد . هذه الحرب قد نبهت الأمم للطيارات لتنفعهم فى الحرب .

إن الناس على الأرض أطفال جهال مغمورون فى العداوات والشهوات .

فهذه الحرب التى هى منشطة لهم كانت هى أكبر عامل فى ارتقاء الطيارات ، وها نحن أولاء اليوم نحصد مازرعنا .

النوع الإنسانى ابتكر الطيارات للحرب ، ولكن الله يعلم أنها ستكون من أكبر نعمة فى السلم .

فى زمن قريب جداً سيكون الجو محل السفر وتخلو الأرض للزرع .

فى زمن قريب جدًا سيكون الانتقال فى الجو بالمراكب الهوائية ويحتقر الناس ماعلى الأرض من القطرات والسيارات والمركبات التى تسير بالكهرباء ، كل هـــذا ستقوم مقامه السفن الهوائية ويشارك الناس الطير فى الهواء ويتمتعون بنعم لم يحلم بها السابقون .

أتدرى لم كل هذا ؟ لقوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض » .

وإيضاح ذلك أن علماء القرن التاسع عشر كانوا يطيرون بالمناطيد ، والمناطيد ماهى إلا على قاعدة السفن ؛ وبيانه أن كل ماهو أخف من الماء يعوم فوقه وماهو أثقل منه يغرق فيه ، فجميع السفن التى تجرى فى البحر لو أنك وزنتها لوجدتها تساوى وزن الماء الذى أزاحته من البحر فلذلك تعوم ، وكما أنك ترى الفلين وأمثاله من الخشب يعوم على وجه الماء ، هكذا تعوم السفن وتعوم السمكة .

إن السمكة لها فى باطنها منفاخ ، فإذا أرادت أن تعوم نفخته فصارت أخف من الماء فتعوم ، وإذا أرادت أن تغوص فى الماء قبضته فصغر حجمها فغارت ، فهى دائما فى عوم وغوص كل ذلك بهذا المنفاخ الذى هو آلتها الرافعة الخافضة المتحركة على القاعدة التى شرحها (أرشميدس) فكل ماخف علا وكل ماثقل سقط ؛ فالسفينة والسمكة أختان متشابهتان السفينة كالسمكة . السفينة لولا خفتها لغرقت ، ولولا أنهم يحسبون حجمها ووزنها ومقدار الماء الذى تزحه حتى تكون أشبه بالسمكة فى حال انتفاخ منفاخها ، لولا أنهم يفعلون ذلك لغرقت ولم تعم ، وسواء فى ذلك المراكب الشراعية والأساطيل الحربية .

المناطيد

ستوى فى سورة الملك بإيضاح هـذا المقام ، وترى أن المناطيد عبارة عن مراكب هوائية جارية مجرى السفينه والسمكة ؛ فكما أن السفينة والسمكة لاتعومان إلا إذا كانتا أخف من الماء ، هكذا هذه المناطيد لاتطير فى الجوّ إلا إذا كانت فيها غازات أخف من الهواء فترفعها كما رفعت السفينة والسمكة ، ولولا أنها كانت فى ثقل الهواء أو أثقل منه لم تطر ولم ترتفع ، فإذن لافرق بين المناطيد والسفن ، فهذه سفن فى الهواء وتلك سفن فى الماء وتكون القاعدة واحدة ، فلله ما أجمل العلم والحكمة .

إن المناطيد أشبه بالكرات التى يلعب بها الأطفال أيام الأعياد والمواسم .

هذا هو سرها وعلمها ، إن المناطيد لم تخرج عن كونها أشبه بالريش الطائر فى الجوّ وبالذرات الطائرات فى الكوى ، كل هذه إنما ارتفعت فى الجوّ بسبب خفة أجرامها لا أقل ولا أكثر .

أنا فى هذه الساعة أعتقد أنك فهمت المناطيد ، وهذا الفهم توطئة لما هو أشرف وهو المقصود .

المراكب

المراكب الهوائية

وهنا يظهر سر القرآن فأقول لك : لقد عرفت المناطيد ، عرفتها لأنها ظهرت لك ظهورا تاما ، وإن لم تكن اطلعت على أصول هذه العلوم ، فها أناذا الآن أنقلك إلى المقصود فأقول :

إن المناطيد جرت فى الهواء وأدرك الناس أمرها ، ولكنهم بعد ذلك أنكروا وقالوا : لماذا نرى الطيور تطير ؟ ياويلتى أعجزنا أن نكون مثل هذه الطيور ؟

نحن الآن تعلمنا علم السفن من السمك وتعلمنا المناطيد من طيارات الأطفال التى هى على قاعدة السفينة والسمك ، فياويلتى أعجزنا أن نطير كما تطير الطيور ؟

إن الطيور أثقل من الهواء ، لو وزنا العصفور لوجدناه أثقل جدا من الهواء الذى أزاحه بجسمه بخلاف السفينة ، فإن وزنها كلها بجيوشها وسلاحهم ودروعهم ومدافعهم وما فيها من حديد وفولاذ وذخائر كل هذه إذا وزناها لاتزيد عن ثقل الماء الذى أزاحته السفينة ، أما العصفور وأما الغراب وأما الحمامة فإننا نرى كلا منها أثقل مئات المرات من الهواء الذى أزاحه .

الطير أثقل من الهواء فكيف يطير فيه ؟ عامت السفينة وعامت السمكة لأنهما أخفّ من الماء ، وهكذا النطاد لأنه أخفّ من الهواء ، أما الغراب وأما الحمام وأما العصفور فإنها أثقل من الهواء الذى حلت فى مكانه أضعافا مضاعفة .

هنالك قام أحد العلماء فى هذا القرن : أى القرن العشرين أيام تأليف هذا التفسير وقبله بقليل .

قام هـــذا العالم بعد أن مات عشرات الرجال فى التجارب التى جربوها فلم تغن فتيلا وذهبت تجاربهم وأعمارهم أدراج الرياح ويئس الناس فى أوروبا وأمريكا أن يلحقوا الطير فى طيرانها ، فإن هذا شئ خاص بها ، والناس مستحيل عليهم أن يصلوا لمستواها .

ولكن الفطرة الإنسانية توّاقة للعلا متعطشة للعلم والنظر ، فقام العالم الذى سيأتى ذكر اسمه وأعماله مفصلا فى سورة تبارك الملك وراقب الطيور وطيرانها وبحث ودقق وعرف بأى الأساليب قدرت الطيور أن تطير فى الهواء وهى أثقل منه وخالفت سنة السمكة والسفينة والنطاد .

وهناك أظهر تجاربه ونجح قوم ومات آخرون وانتفع الناس ببعضها فى الحرب . وها هى ذى آثارها ملأت الأقطار وأصبحنا نرى عالما جديدا طائرا كما تطير الطيور .

هذا هو السر فى قوله تعالى « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه » إن الله بعث الطيور إلينا فأرتنا علما جديدا لم يكن قبل تعليمها ما كنا نعلم قبل الآن إلا السفن ، ولكن الطيور فتحت للانسان أيام هذا التفسير علما جديدا وهو علم الطيارات التى لم تكن من قبل ولم تكن مقيسة على السمكة والسفينة ولا على النطاد الجاريات على قاعدة (أرشميدس الفيلسوف) بل على قاعدة الطير المعروف الذى أرانا ما لايرينا الحوت فى بحره ولا الفيل والغزال على الأرض .

الحوت وإن عاش جماعات ونظمها وربى أولاده وعام بعنفاخه لم يعطنا درس الطير الذى هو أثقل وأثقل من الهواء ثم هو يطير فيه ، والفيلة لاتعوم فى البحر ولا تطير فى الهواء فلا تعطينا إلا نظم السياسة ، وأما الغربان فإنها تربى أولادها وتنظم جماعتها وتحافظ على جمهوريتها وهى فوق ذلك تطير وأجسامها أثقل من الهواء ففاقت السمك وحيوان البر ، فلذلك أرتنا وعلمتنا فعلا .

ياليت شعرى من ذا كان يظنّ أن الطير يعلم الناس علما فوق علم السفن الهوائية ؟ من ذا كان يعقل هذا ؟ الطيور نراها ، ولكن أين البصائر ؟ أين العقول حتى قيض الله من عباده من فهموا أن الحيوان خلق

ليريناً فدرسوه وخبروه لابكتاب نزل ولا بوحى ؟ ولكن درسوه بعقولهم والمسلمون نائمون أجمعون أكتمون أبصمون نحاون .

لطيفة

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه أحد الأصدقاء ذوى الفكر والفهم ، فقال : لقد أحسنت من وجه وأسأت من وجه ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أما الإحسان فظاهر ، فإنك ذكرت أن الحيوان الذى لايربى أولاده يموت لأنه لامعطل فى الطبيعة وأن الذى يربى أولاده يبق كالدجاج والحمام ، وفوق هذين مايعيش جماعات كالحيتان ، وفوق هؤلاء ماتقتدى به فى أن نطير فى الجوّ بطياراتنا مع تمثل الطيارات ، وأن القرآن جاء بهذه المخلوقات لنستفيد منها فى حياتنا ولنعرف بها ربنا ، كل ذلك فهم من كلامك موضحاً بأدلة ساطعة ، فهذا وجه الإحسان ، أما وجه الإساءة فإنك فى كل مادبّ ودرج وبأىّ مناسبة ؟ وفى أىّ حال تلصق بالقرآن وبالدين الإسلامى ماليس منه ! فلا تذر طيارة ولا منطاداً ولا برقاً (تلغرافاً) ولا كهرباء ولا صناعة ولا علما إلا ألصقته بالقرآن ، والإسلام فى نظرك سفينة نوح تأخذ من كل زوجين اثنين ، إن هذا ماهو منك إلا تطرف وزيادة ، تريد رقىّ المسلمين فتنسب كل شئ للدين ؟ هذا فنّ المركبات الهوائية حديث العهد ، فما للاسلام ولهذا ؟ إنك فى هذا مغال كثير الغلوّ طويل النجاد

الجواب

فقلت له : إن ماقلته إنما جاء من وجدانك لامن عقلك ، قال : وكيف ذلك ؟ إنك أنت تحكم بوجدانك ، فإنك لشغفك برقىّ المسلمين تحشر كل شئ فى دينهم ولست على حق فيما تقول ، فقلت : «أولوجئتك بشئ مبين؟ قال فأت به إن كنت من الصادقين » وبين لى ذلك بطرق العلوم الدينية ، فقلت : أوتسكن للحقيقة إذا ظهرت ؟ قال نعم ! أسكن لها وأنشرها ، فقلت : إذن أبين ماتقول باختصار يكفيك فروض الكفايات .

أيها الفضال أليست الواجبات قسمين : واجبات عينية ، وواجبات هى فروض كفايات ، قال بلى ! قلت : أليس فرض العين كالصلاة والصيام إذا تركه الإنسان أثم ؟ قال بلى ! قلت : أوليس فرض الكفاية كالصلاة على الميت وتجهيزه إلخ إذا تركه أهل القرية أثموا جميعاً ، وإذا قام بذلك جماعة سقط الإثم عن الباقين ؟ قال بلى ! قلت : ألم يقل بعض العلماء كإمام الحرمين : إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لأنه أعمّ نفعاً ؟ قال بلى ! قلت : أفليست جميع العلوم والصناعات من فروض الكفايات ؟ قال : ففى أى كتاب هذه ؟ قلت : فى جمع الجوامع ، قال : الكلام هناك ليس مفصلا بل هو مجمل ، قلت : ماتقول فى الذى ذكره الإمام الغزالى فى الإحياء ؟ قال : ماذا قال ؟ قلت : عقد فصلا هذا عنوانه [بيان العلم الذى هو فرض كفاية] وذلك فى الجزء الأوّل ، فقال : لاأذكر هذا فاذكر لى مافيه ، قلت . يقول : إن فرض الكفاية هو كل علم لايستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ومثل بأعلى ذلك كالسياسة وبأوسطه كالحياكة والخياطة والفلاحة وأدناه كالحجامة ، وذكر الطب والحساب ، قال : زدنى ، قلت : وقال بعد ذلك مانصه بالحرف الواحد [الدنيا مزرعة الآخرة ، ولايتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان] وقال أيضاً : [واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من الشيطان ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق] .

وقد شنع أيضاً على العلماء بكثرة المجادلات والمشاحنات لاسيما بين الشافعية والحنفية ، وزعموا أنهم ينصرون به الدين ورتبوا فى ذلك أنواع المجادلات ، قال : وهم مستمرون عليه إلى الآن ؟ ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار اه .

فقال

فقال صاحبي : ماملخص مايقصده الإمام الغزالى ؟ قلت : ملخص ماذكره أن علم الدين الحقيق هو معرفة السموات والأرض وجمال الله تعالى وعجائبه مثل ما كتبنا فى هـــذا التفسير ، وأيضا قراءة العلوم التى هى فرض كفاية ، وإنما ذمّ علماء زمانه لاقتصارهم على علم الفقه ، وقال إنما انكبوا عليه وتركوا ماعداه لأنهم به يتوصلون إلى تولى القضاء والوصية على الأيتام والتصدر والعظمة فى الدنيا ولا يبالون بتهذيب النفس ولا بما ذرأ الله فى الأرض والسموات ، فلا يهتمون بأمر المصالح العامة والصناعات التى تحتاج إليها الأمة ولا يكلفون أنفسهم ، فهذا هو السبب فى أنه جعلهم شرا من الشياطين .

فقال : عجبا ! ذلك كان فى زمان الدولة العباسية والإسلام قوىّ الشوكة ، فما بالنا نحن الآن ونحن على ما كان عليه أسلافنا فلا علوم ولا صناعات ؟ ، فقلت له : إذن أنت اقتنعت بهذه الأدلة ووافقتنى ، قال نعم ! إنك بنيت القول على أساس متين من كلام الأئمة ، قلت : ومن قول الله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » كما فصلته فى بعض المقالات فلا أطيل به .

ثم قلت : ألست ترى معى أن علم المراكب الهوائية وغيرها من علوم الكهرباء والمغناطيس أصبحت اليوم لابدّ منها للناس ، قال بلى ! قلت : إذن هى فرض كفاية ؟ قال بلى ! قلت : إذن فهم الناس أن القرآن ورجال الإسلام مجمعون على أن هذا وأمثاله فرض كفاية وأنا وأنت مسئولون وجميع الأمة عن كل صناعة وعلم حظى به قوم فى أوروبا وهو نافع ثم جهلناه نحن .

هذا هو الذى يجب نشره الآن وتعميمه فى أنحاء المعمورة .

وأنا لم أقل إن أهل أوروبا استنتجوه من القرآن بل استنتجوه بعقولهم ، ولقد بعث الله الغراب وغير الغراب لهم كما بعث لنا ، وأراهم الغراب وغير الغراب كما أرانا ، ولكن هم رأوا ، ونحن ما رأينا وهذا عار على أمة الإسلام أن تجهل عقلها وتجهل دينها ، فأنا لم ألصق بالقرآن ياصاح علما ولا صناعة وإنما أنا متبع لا مبتدع ، فقال : لقد أحسنت كل الإحسان وأجبت بما شفى صدرى وعلمت اليوم أن الذين يقولون فيك ماقلته الآن جهال لم يقرءوا مقالة تامة من كلامك ، فقلت : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

فها نحن ذكرنا الطيور والحيوانات بمناسبة الغراب وجماعاتها وارتفاعها فى الجوّ وتعلم الإنسان منها فى أيامنا الحاضرة ، فقال : لم أعقب الله مسألة ابنى آدم والغراب وحديثه بمسائل السرقة والقتل والإفساد فى الأرض وما أشبه ذلك ؟ قلت : الأمر واضح ، فإن القصة مسوقة لتعلم الإنسان من الحيوان العطف على الإخوان وهؤلاء السارقون والقاتلون ضارون بالمجموع ومثلهم الكاسلون والجاهلون . فكل هؤلاء يعاقبون بما فى الآيات ، ويعاقبون أيضا بالذل فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة .

تم الكلام فى هذا المقام ، والحمد لله رب العالمين ، اهـ المقصد الرابع .

المَقْصِدُ الخَامِسُ

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ،

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ * وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ذكر الله فى القصد السابق أنه من قتل نفسا فقد آذى الناس جميعا ونقص مجموع النوع الإنسانى ، لأنهم متضامنون على اختلاف أجناسهم وأديانهم وأوطانهم ، فهم أمة واحدة كما قال فى معنى آية أخرى « كان الناس أمة واحدة فضقوا فأرسلنا لهم الأنبياء » .

هكذا هنا قال : من قتل نفسا بلا سبب فقد جنى على بنى آدم كلهم ، ومن أحيا نفسا بشفاعة أو عفو أو نفع الأمم بعلومه أو صناعاته فقد تعدى عمله ونفعه للناس أجمعين ؛ فعمل الفرد نافع للمجموع وشره راجع للمجموع ، والرسل قد جاءوا الناس بالبينات ولكن أكثر الناس لايزالون سفاكين للدماء قطاعين للطرق مسرفين فى القتل والنهب .

فإذا كان هذا النوع الإنسانى هذا دأبه لايرجع كثير منهم عن الغى بالحكمة والعلم والموعظة الحسنة ، وهى هنا المحبة العامة والمنفعة لسائر الناس وغفل أكثرهم عن هذه الحكمة العالية وأخذ كل يحارب أخاه جهلا وغفلة وتباعد عن طرق العقل والفهم لم يبق إلا العقاب الدنيوى ، فلذلك أعقبه بقوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) بالمخالفة والإسراف فى القتل والنهب والسلب وقطع الطرق واللصوصية ، ولو كانت اللصوصية فى بلد كبير ومصر عظيم ، وقوله (ويسعون فى الأرض فسادا) أى مفسدين أن يفعل بهم واحد من أربعة : إما القتل وحده ، وإما القتل ثم الصلب بعده تشهيرا لهم ، وإما أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى ، وإما أن ينفوا من الأرض :

هذا كله إذا لم يتوبوا قبل القدرة عليهم ، فإن تابوا قبل القدرة عليهم فالعفو عنهم حسن .

فهذه خمسة أمور : العفو إذا تابوا قبل القدرة ، والقتل ، أو القتل مع الصلب ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض .

واعلم أن الحاكم مخير بين هذه الأربعة يفعل مايراه أصلح .

وقال أبو حنيفة : النفى من الأرض المراد به السجن ، وبعض العلماء يقول : القتل إذا قتلوا قصاصا ، والقتل مع الصلب إن قتلوا وأخذوا المال ، وقطع الأيدى والأرجل إن أخذوا المال ولم يقتلوا ، والنفى من الأرض إذا أخافوا الناس .

وفى هذا المقام أحاديث كثيرة وردت بسبب نزول هذه الآية ، ولكن نذكر منها مارواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك « ذلك أن أناسا من عكل وعرينة قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وتكلموا

بالإسلام ، فقالوا يانبىّ الله إنا كنا أهل ضرع (يعنى أهل ماشية) ولم نكن أهل ريف (أى لسنا من أهل الأرض التى فيها زرع وخصب ، والجمع أرياف ؛ والمعنى أنهم قوم يعيشون فى البادية ويشربون ألبان المواشى) واستوخموا المدينة (أى لم توافق أمزجتهم) فأمر لهم النبى صلى الله عليه وسلم بذود (الذود من الإبل مابين الثلاثة إلى العشرة) وراع ، وأمرهم بأن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة (وهى أرض ذات حجارة سود ، وهى هنا اسم لأرض بظاهر المدينة معروفة) كفروا بعد الإسلام وقتلوا راعى النبى صلى الله عليه وسلم واستاقوا الذود ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب فى أثرهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم » اهـ .

وقد اختلف العلماء فى هذا الحديث خلافا كثيرا ، ورجح بعضهم أن هذا حصل قبل نزول الآية ، فلما نزلت ظهر الحكم الذى يعمل به النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون .

والحاصل أن هذه المسألة محل اجتهاد ينظر القاضى ماهو أصلح .

هذا كله فى قطاع الطرق من المسلمين ، أما الكافر فإنه متى أسلم سقط عنه كل شئ قبل القدرة عليه وبعدها .

واعلم أن الأمم الأوروبية اليوم قد ذهبت فى التعذيب والتنكيل حدّا بعيدا جدا ، فهم لأجل السياسة والجشع يرسلون الطيارات لقتل الأنفس البريئة وينزلون الصواعق على الأطفال الصغار والشيوخ الكبار كما حصل فى الهند وبلاد العرب ، لا لذنب جنوه ولا لإثم اقترفوه ، بل لدريهمات يطلبونها عما يقتضيه أمر الحكومات الفرنجية ، فيشوهون الوجوه ويفقئون الأعين ويعملون مالا يخطر على بالنا .

وترى أهل أسبانيا وفرنسا ينصبون المشانق ويصلبون الناس عليها ظلما وبهتانا وإذلالا وتعذيبا .

ولقد أخبرنى أحد شبان المغاربة المراكشيين أن أسبانيا تأتى إلى جهة من جهات البلاد وتحضر عشرات الرجال من رؤساء العشائر وتذبحهم ذبحا سريعا ، فيقال لها : لماذا تفعلين ذلك ؟ فتقول : لأن بلادكم فيها قوم يكرهوننا ليذلوا النفوس ويخيفوا الأمة .

هذا عمل الأوروبيين ، فأما الإسلام فهو الذى حدّد العقاب وحرم الظلم ، وآخر عقاب لأعظم جان أن يصلب هو أو يقتل أو تقطع يده ورجله أو ينفى عنه . فأما قتل الأطفال والعجائز والنساء كما يفعل أهل أوروبا فذلك شرّ مستطير وجهل كبير ، ولا بدّ أن الله سيغير هذه الأمم بأمم أشرف منها ، فكيف فقد عمرت الأرض بالاختراعات وأكثرت فيها الفساد بالظلم ولا يبقى فى الأرض إلا المصلحون ، فإذا كان شرهم أكثر من خيرهم فلا بدّ من زوال مجدهم بالتدريج ، أو لعل الله يهديهم على أيدى الحكومات الشرقية الراقية المستقبلة فيعيشون معهم بسلام ، ولذلك قال بعدها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) أى ماتتوسلون به إلى ثوابه ، والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصى ، من وصل إلى كذا تقرب إليه (وجاهدوا فى سبيله) بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة فتذودون عن بلادكم كل غاصب ومحارب من أوروبا مثلا ، وتعذبون وتذلون كل مفسد فى بلادكم من اللصوص والحكام المرتشين وتعلمونهم .

وهكذا يجب أن تهذبوا أنفسكم فتصلح الأفراد وتصلح الأمم (لعلكم تفلحون) بالفوز والكرامة والوصول لله تعالى ، لأن مافى الأرض من المواد الجسمية والأعمال الدنيوية والصناعات الإنسانية والأموال الذهبية والفضية وكل ما اقتناه الإنسان من الأحوال المادية لاينفع الإنسان إذا اعترته المنية وأقيمت عليه القضية ولو قدم الفداء أو لاذ بالشفعاء ، وكيف يكون ذلك وأنتم أيها الناس فى الأرض هكذا تصنعون ؟

أليس الذى قطع الطريق وأخاف الناس هكذا عاملتموه ؟ فيقتل وليس له شفيع ؟ ويصلب وماله من مغيث ؟ وتقطع الأيدى والأرجل وهو حسير ؟ ويحبس أو يغرّب من البلاد وهو ذليل ؟

كل ذلك يلقاه وماله لايغنيه ، وأهله وأصدقاؤه وشفعاؤه عنه لايدفعون .

كل هؤلاء لاينفعون ولا يشفعون ، ولا فدية بمال مقبولة ولا رحمة عليه ملموسة .

هكذا أيها الناس أفعل يوم القيامة ، فلا ينفع المال ولو كان ملء الأرض ذهبا ، وكيف يقبل عندى وأنا لم أرد إلا تهذيب النفوس وارتقاءها إلى مقام الصدق وموقف الحق والشرف الأسمى والمقام الأعلى كما تفعلون فى حكوماتكم ونظام مدنكم ، وهذا قوله (إن الذين كفروا لو) ثبت (أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم) والمقصد من هذا أن تعذيب الأجسام سواء أكان فى الدنيا أم فى الآخرة يقصد منه تهذيب النفوس ، فأما الفدية ونحوها فإنها لاتؤدى إلى الغرض المقصود من الكمال .

فحكومات الآخرة والدنيا على طراز واحد ؛ فالحكومة الفاضلة العادلة هكذا تفعل ، وحكومات الله المستقبلة هكذا فعلها ، ولا يقصد منها كلها إلا تهذيب النفوس ؛ فإذا قام المسلمون وهذبوا النفوس بالعلم والعرفان قام التهذيب مقام التعذيب ، والتعليم مقام الإيلام ، والحكمة مقام المحكمة ، والعلم مقام الألم .

واعلم أن الذين لم يتهذبوا فى الدنيا يحسون بألم فى نفوسهم ، فترى من اعتاد كثرة الكلام أو شرب الخمر يريد كل منهما أن يخرج من عادته وأن ينسلخ من خلقه فيرى نفسه عاجزا عن الانسلاخ بائسا يائسا حزينا يقول مالى وللخمر ، ومالى ولكثرة الكلام ، ومالى ولعداوة الناس ، ومالى وللتفاخر بالزينة ، وهكذا مايحس به كل امرئ على وجه الأرض .

وهكذا هذه الأخلاق تلازم الروح بعد فراقها الجسد وتمنى لو تخلص من الأخلاق التى لازمتها والأحوال التى لصقت بها ، هذا هو قوله تعالى (يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) أى مقيم مع نفوسهم لايفارقها كما لايفارق الظل الشخص ؛ فالأخلاق هى منشأ العذاب فى الدنيا والآخرة ، والتهذيب يمنع التعذيب ؛ فالعذاب من الصفات التى لصقت بنفوسنا من سوء الأخلاق ، ولذلك ترى الزاهدين فى الدنيا تجلهم جميع الشعوب من أهل الأرض فافهم .

ولما كان قطع الطرق والسرقة متشابهين فى أن كلا منهما شر صادر من النفوس الإنسانية الصغيرة الضعيفة المتأخرة التى لم تعرف أن الإنسانية كلها يؤذيها مايؤذى واحدا منها ، وأن عيونهم فى غطاء عن الذكر ، أردفه بقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) إلى قوله (فإن الله غفور رحيم) وقد تقدم تفسير هذه الآية فى المقدمة ، ثم أردفه بأن ملك السموات والأرض قائم على النظام التام فيعذب من لايعقل ليصل إلى العقل والحكمة ، ويغفر لمن أقلع عن المعاصى وهو قادر على كل شئ ، وبهذه القدرة التامة يصرف العوالم وينقلها من حال إلى حال ، تارة باللين والكلام العذب حكمة ودينا ، وتارة بالقمع والقهر والشدة ويجعل النشأة الآخرة منظمة نظاما بديعا متتابعا كما يشاهد فى نظام الدنيا « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فهو يأمر بعقاب من لايعقلون ، فإذا ماتوا يوضعون فى المراكز التى استعدوا لها خفضا ورفعا ، وهـذا قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شئ قدير) .

لطيفة

ذكر السموات والأرض فى كل مقام حكمة بالغة ؛ فتارة يذكران لمعرفة الله وتارة للوحدانية وتارة لعلم

وتارة للقدرة ، وهكذا مما ذكرناه سابقا ، وتارة يذكران كما هنا لنظام المخلوقات ، وتدرجها فى سبل السعادات وطرق الوصول إلى المعالى كما نشاهد فى الدنيا ، إن الأعلى يرى الأدنى أنه فى عذاب كما يرى الناس أن الحيات أدنى منهم والدود ، فتكون كل مرتبة بالنسبة لما هو أرقى منها معذبة متألمة ، وترى الزبالين والكناسين يرون أنفسهم فى عذاب بالنسبة للملوك والأمراء ، ويقول الأمراء : إنا منعمون وهم معذبون ، ولكن هؤلاء أيضا بالنسبة لعوالم أرقى منهم كالدود بالنسبة للانسان .

فهذه المراتب نشاهدها فى نظام السموات والأرض ونراها عدلا. يقول الله هنا : إن عذابى فى الآخرة أشبه بهذا تقريبا لعقولنا وتدريبا لنفوسنا على التفكر والحكمة والعلم والنظر ، وأن نرى أن الحيوانات الدنيئة كالديدان والميكروبات بالنسبة للانسان ذليلة حقيرة ويراها الإنسان معذبة بهذه الحياة .

هكذا تكون الحياة الأخرى ؛ فعذابها أشبه بما نراه من الدرجات ، فإذا كان الدر والحيوانات الدنيئة نراها معذبة مهانة فى القاذورات فى قاع البحار وفى أقصاها محرومة من الهواء اللطيف والزرع والشجر والجمال والحواس الباهرة الظاهرة ، ونرانا نحن فى ضوء الشمس وحولنا الشجر والزهر والزرع والحدائق والفواكه والأنوار والجمال والبهجة .

لاشك أننا أسعد منها حالا بل نحن فى جنة وهى فى نار ، وأىّ زمهرير أشدّ من هذا ؛ فههنا ظهر العذاب وربتت الدرجات سواء أكان بين الناس أنفسهم أو بينهم وبين الحيوان ، ولكن جميع الناس على وجه الأرض غافلون لايرقبون أنفسهم ولا يفقهون هذه النظرية المحسوسة المعقولة المفهومة ؛ فالعذاب والدرجات موجودتان فى الدنيا ويريد الله منا أن نفهم درجات الآخرة من درجات الدنيا ، وهذا معنى قوله تعالى فى سورة أخرى « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » نقول قد سرنا ونظرنا فرأينا درجات لاتعدّ ولا تحصى بين الأحياء من أقل ذرة إلى أعلى نبىّ ، وكل واحدة أقل مما بعدها وأرقى مما قبلها وشاهدنا سعادة وشقاء بنسبة بعض الدرجات إلى بعض ، قال الله بعدها « ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » فما معنى ينشىء النشأة الآخرة ، معناه على مقتضى النظام والدرجات فينقلنا فى درجات من كثافة إلى لطافة ، فيكون أعلانا عند مليك مقتدر ، وأدنانا لايزال فى الأخريات عند الحيوان ومجاورا للمادة وهو محروم من الصعود إلى العلا أشبه بالعقارب والحيات اللازمة للتراب المحروم من الصعود إلى الهواء كالطير أو من العقل والحكمة والبصيرة العالية كالإنسان .

استبصار

لعلك يصعب عليك ماذكرته ، فإياك أن يصعب عليك فهمه فالقرآن هو الذى أوضحه، ألم يقل « أفرأيتم ماتمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟ » فما معنى قوله « ولقد علمتم النشأة الأولى؟ » إن النشأة الأولى منظمة مرتبة درجات بعضها فوق بعض فى المولدات وفى نشأة الإنسان ، هكذا يقول « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » فكأنه يقول إن الآخرة درجات كالدرجات التى تنظرونها فى هذا العالم ، ولكنها أوسع نطاقا لأنه عالم لطيف ، واللطيف يسع ما لايسع الكثيف ، ويقول « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فعلى ذلك يكون عالم الآخرة على نظام الدنيا ترتيبا وترقية وإن خالفه هيئة وجمالا ؛ فعالم الآخرة والدنيا نظام واحد ودرجات متناسقات ، قال الشاعر :

الجهل لايلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا

فانظر لدود خلق من الرم فإن له حياة على مقدار ماخلق فيه ؛ فاذا وازنتها بعوالم السباع والضباع والإنسان لم تعترض على الحكيم فى صنعه فهو جواد أعطى على مقدار الاستعداد .

هذا هو الوجود وهذه هى الدنيا ، وكذلك الآخرة فهى تناسق ونظام واستعداد ، وحكيم يعطى على مقدار الاستعداد ، والجنة والنار على هذا المنوال .

هذا هو معنى ذكر السموات والأرض فى هذا المقام ، فلهما فى كل مقام تفسير .

بهذا فليفسر القرآن للمسلمين فى مستقبل الزمان ، والقرآن جاء لشرح الطبيعة التى خلقها الله قبل أن ينزل القرآن ، إن شرح الطبيعة هو كل شئ .

فياليت شعرى لماذا يذكر الله السموات والأرض بالتكرار ، أقول لهذا يكرر ولهذا يذكر ، وهكذا فليفهم ، فالمسلم فى المستقبل هو الذى يدرس هذه الكائنات ويدرك هذه الدرجات ويعرف هذه الحكمة ويبصر طرق السعادات ، أما المسلمون النائمون فهم فى الجهالة هائمون وعلى الدعوات متكلون وبالغرور يعيشون ، وخلقوا وكأنهم ماهم مخلوقون « إنا لله وإنا إليه راجعون » انتهى المقصد الخامس .

الْمَقْصِدُ السَّادِسُ

يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَايَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ

وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

هذا المقصد فيه حكم أهل الكتاب إذا تحاكموا إلينا ، وهل نحكم عليهم ؟ وبماذا نحكم ؟ وهل نخير بين أن نحكم وبين أن لانحكم أم نحكم ولانتريث ؟

وفيه أيضا الوعيد الشديد والذم والتقريع والإهانة لمن يأخذون الرشوة فى الأحكام .

وفيه أيضا توصية القضاة والحكام وتوجيه هممهم إلى العدل والإنصاف لأنهم أمناء الله فى الأرض ، فلا يخشون شريفا لشرفه ، ولايستهينون بضعيف لفقره ، بل يحكمون بالحق ولا يخافون لومة لائم .

وكل ذلك فى هذا المقصد مذكور لأسباب أوجبته ، وأحوال أزمته ، وحوادث لأجلها نزلت هذه الآيات وسيقت مع آى التنزيل ، وذكر فيها أحكام التوراة والإنجيل ، وأن اليهود أعرضوا عنها إعراضا لأغراض شهوية وأمور دنيوية ، وأحوال جاهلية ، وأن الأنبياء ينزلون إلى أهل الأرض رقباء على عباده ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة أخذ يحاسب اليهود على تعطيلهم أحكام التوراة وتجافيهم عما أمروا بإقامته من الأحكام وآذوا بمخالفته الأنام . فهاك ما روى فى هذا المقام :

ذلك أن رجلا وامرأة من أشراف اليهود بخيبر زنيا وكانا محصنين ، وكانا حدّهما الرجم عندهم فى التوراة فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما ، فأرسلوا رهطا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ماقبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فأمر بهما النبى صلى الله عليه وسلم فرجما » اه المقصود ،

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوا » .

ومعنى هذا : أن اليهود كانوا يجلدون الزانى أربعين جلدة بحبل مطلى بقار ثم تسود وجوههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما أنحاء البلد ، وقد جعلوا ذلك مكان الرجم المذكور فى التوراة .

وهذا كله بسبب أنهم كانوا إذا زنى شريف تركوه ، وإذا زنى وضيع رجموه ، فاصطلحوا على أمر يجرى على الشريف والوضيع ، لأن الزنا بسبب ذلك التهاون كثر فى الأشراف ففعلوا ما تقدم .

هكذا قال ابن صوريا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو من أحبار اليهود وأعلمهم .

ولقد كان أهل خيبر لما أرسلوا قومهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصوهم فقالوا لهم : إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا ، وإن أمركم بالرجم فلا ، والتحميم : هو تسويد الوجه كما تقدم بالحمم وهو الفحم .

وهل يجب علينا الحكم بين أهل الكتاب ؟

(١) من العلماء من أوجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا ، ومنهم ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدى .

(٢) ومنهم من قال : نحن مخيرون إذا ترافعوا إلينا بين الحكم وعدمه ، وهذا رأى الحسن والشعبى والنخعى والزهرى وبه قال أحمد .

(٣) وقال الشافعى يجب الحكم بينهم ولا تخيير ، وإنما التخيير فى الحكم بين المعاهدين الذين بينهم وبين المسلمين عهد إلى مدة فتكون الآية الآتية الدالة على التخيير مخصوصة بالمعاهدين .

أما إذا كان المترافعان ذميين أو أحدهما ذمى فالحكم بينهما واجب ، لأنا مكلفون بالمحافظة عليهم والذب عنهم .

وكل ذلك منشؤه آيتان :

الآية الأولى : (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) .

والآية الأخرى هى : (فاحكم بينهم بما أنزل الله) .

وروى أيضا أن أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد ! عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلهم ، وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضى لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) الخ .

وروى أيضا أن بنى قريظة والنضير وهما حيان من اليهود كان بينهم دماء قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت بنو قريظة : إن بنى النضير يعطونا سبعين وسقا من تمر فى القتيل منا ، وإذا قتلنا منهم أخذوا منا الضعف وهكذا أرش جراحاتنا على النصف من أرش جراحاتهم ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدل وأن لافضل لأحدهما على الآخر ، فغضبت بنو النضير وقالوا لانرضى بحكمك فإنك لنا عدو وإنك ما تألو فى وضعنا وتصغيرنا ، فأنزل الله (أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

هذه هى أسباب النزول التى وردت فى هذا المقصد وآياته المختلفة .

والمهم فى هذا المقام كله الحكم بالعدل فى سائر الأحوال وعدم التحيز لفريق دون آخر والرشوة والمحاباة، ولو كانت المحاباة أمرا عظيما كدخول أمة بأسرها فى الإسلام فإن اليهود حاولوا أن يفهموه صلى الله عليه وسلم

أنهم

أنهم يدخلون الإسلام إذا حكم لهم فلم يرض ، وعلى حكام المسلمين أن يقتفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالوا بأس ، بل يكونون خلفاءه ويحكمون على البر والفاجر ، والعالم والجاهل ، والغنى والفقير ، والشريف والوضيع .

هكذا يجب أن يكون الإسلام والمسلمون ، والآيات لهذا أنزلت ، فالقرآن اليوم لنا نحن ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من اليهود وبنى قريظة والنضير فإنهم فى العالم الباقى ، والقرآن اليوم يقرأ لنا والأوامر لنا والعلم ، فلنأخذ به ولنتبعه .

ولنفسر الآيات فنقول :

(يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر) أى لاتهتم بموالاتهم الكفار ولا تبال بهم ، فإنى ناصرك عليهم وكافيك شرهم .

واعلم أن الآية المتقدمة ذكر فيها أن الله له ملك السموات والأرض . فله تعذيب من يشاء والمغفرة لمن يشاء ، وقد قلنا إن ذلك على حسب المراتب والأحوال والاستعداد ، فلا عذاب ولا نعيم إلا على مقتضى الدرجات « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون؟ » فالناس فتنة لبعضهم كل لكل فتنة ، والله بهذا يختبر العباد ويرقيهم إلى مقام الإسعاد ، فلذلك ذكر عقبها الأمر بعدم الحزن مراعاة للمراتب والدرجات الخلقية فكأنه يقول: يا محمد أنا رتبت الدرجات . وهذه الدرجات لامحالة تجمع بين الأشقياء والسعداء ، فمن عرف الحقائق لاتخفى عليه هذه الحقائق ، فكيف تحزن على المنافقين أو تأسى على القوم الكافرين ؟ فإذا رأيت المنافقين يخادعون واليهود جمهورهم للكذب سماعون فلا تحزن عليهم ولا تهتم بشأنهم فقد أريناك نظام الدرجات .

فكيف تحزن لهؤلاء المنافقين المسارعين فى الكفر (من) المنافقين (الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا) وهم اليهود (سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) لم يحضروا مجلسك وهم أهل خيبر الذين تقدم ذكرهم فى الأحاديث السابقة (يحرّفون الكلم من بعد مواضعه) أى يميلون الكلام الذى وضعه الله فى التوراة عن مواضعه ، تارة بإهماله وتارة بتغيير وصفه وتارة بحمله على غير المراد منه (يقولون) لمن جاءوا يتحاكمون عند النبى صلى الله عليه وسلم منهم (إن أوتيتم هذا) أى إن أفتاكم محمد بالمحرّف وهو الجلد والفضيحة للزانى والزانية (فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا) قبول ما أفتاكم به لأننا أرسلناكم ليسهل الأمر عليكم اتباعا للأسهل من الأحكام لاطلبا للحقيقة مراعاة لذوى الوجاهة عندنا وضنا بمحبتهم (ومن يرد الله فتنته) ضلاله أو فضيحته (فلن تملك له من الله شيئا) فلن تستطيع له من الله شيئا فى دفعها (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) لأن درجاتهم النفسية فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى غير صالحة للرقى كما تقدم عند قوله « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » مرتب الدرجات فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء فهؤلاء من الذين لم يصلوا لدرجة الكمال النفسية (لهم فى الدنيا خزى) هوان بالجزية والخوف من المؤمنين على حسب درجتهم فى الحياة (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو النار (سماعون للكذب) أى اليهود وكرره للتأكيد (أكالون للسحت) الحرام كالرشا ، من سحته: إذا استأصله ، لأنه مسحوت البركة مثل كعب ابن الأشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم ، وفى الحديث « لعن الله الراشى والمرتشى » أخرجه الترمذى وأبو داود .

قال الحسن : ذلك فى الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلا أو يبطل عنك حقا (فإن جاءوك) يعنى اليهود (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضرّوك شيئا) وهذا إما وارد فى اليهوديين الزانيين وإما فى الرجلين من قريظة والنضير ، وقد تقدم كل ذلك (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) بالعدل (إن الله يحب المقسطين) فيحفظهم ويعظم شأنهم .

ثم أخذ فى التعجيب منهم فقال (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ؟) بالرّجم وإنما طلبوا ذلك فرارا من الحق وعدولا عن العدل وتجاوزا عن النصفة ، وإلا فكيف يحكمونك فتحكم بينهم على مقتضى التوراة (ثم يتولون) يعرضون عن حكمك (من بعد ذلك وما أولئك) اليهود (بالمؤمنين) بكتابهم بإعراضهم عنه أوّلا وعما يوافقه ثانيا (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى) يهدى إلى الحق (ونور) يكشف عما استبهم من الأحكام (يحكم بها النبيون) يعنى أنبياء بنى إسرائيل (الذين أسلموا) هذه صفة مدح بها النبيين ينوهها بشأن المسلمين وتعريضا لليهود الذين حادوا عن جادة أسلافهم فى أخذ الربا وقد نهوا عنه وأكلوا أموال الناس بالباطل كشأن المسلمين اليوم وكثير من قضاتهم وحكامهم فلا فرق بينهم وبين أولئك اليهود فى شئ ، ولذلك مزّقت البلاد شر ممزق ؛ ألا لافرق بين حكام المسلمين فى العصور المتأخرة فى قضائهم الفاشّ وأفعالهم المنكرة وأحوالهم المحزنة ، وبين أولئك اليهود فى بلاد العرب الذين دالت دولتهم « فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون » . أقول هذا وأنا أعتقد أن هذه الآيات أنزلت لأجلنا نحن ، فأولئك اليهود قد ماتوا وخلفهم قوم آخرون ولا يدينون بكتابنا ، وإنما ذكرهم الله عبرة لنا وتعليما وتنبيها وإلا فما معنى قوله « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » فكان أنبياء بنى إسرائيل لما كانوا على الهدى مسلمين .

فأما الأمة الإسلامية اليوم وقد حاد القضاة عن الحق والعدل وتنكبوا طرق الشرع القويم وزاغوا عن الحق ، فهؤلاء القضاة فيها ليسوا على سنن الإسلام ولا طريق الهدى ولا جارين على منهج الإسلام .

وعلى ذكر القضاة أذكر هنا حادثة واحدة لقضاة مصر :

جاء أحد الولاة فى مصر وقال لمن له الأمر الشرعى فى البلاد : إنكم تقضون بمذهب أبى حنيفة والفتاوى يناقض بعضها بعضا ، فهل لنا أن نجعل لنا قانونا واحدا مناسبا لأحوال الأمة من المذاهب الإسلامية كما فعل المسلمون فى الأستانة وفيها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال ذلك الشيخ : كلا ، افعلوا ما تشاءون ، فاضطر الوالى أن يأتى بالقانون الفرنسى فجعله شاملا عاما فى جميع البلاد ، وذلك بفعل هذا الشيخ الشره ، لأن هذا الشيخ خاف أن يشترك مع مذهب أبى حنيفة الذى هو يعرفه مذاهب أخرى ، وهذا مما يجعل علماء المذاهب الأخرى يشاركونه فى الصيت والذكر والشهرة والفتوى وتزول تلك الأبهة والعظمة والهيبة الكبرى من النفوس ، ويقاسمه العلماء سطوته وهيبته ونفوذه ونقوده، إن ذلك هو التلاعب بالدين ، وهو أشبه بما جاء عن اليهود وأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه .

فهذا أنكر مذاهب ثلاثة لأجل خبز يأكله ومال يكنزه ، فبهذا الشيخ وأمثاله ذهبت هيبة الإسلام وضلت الأحكام .

وأنا لا أحدثك عن شهاد الزور الذين يقبلونهم وهم يعلمون أنهم مزوّرون ، ولا عن الرشا ولا عن التهاون فى الأحكام فذلك شائع ذائع .

فهل هذه صفة علماء المسلمين الذين هم كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا يحكمون بالتوراة (للذين هادوا ، والربانيون والأحبار) الزهاد والعلماء السالكون طريق أنبيائهم، وهومعطوف على النبيون (بما استحفظوا من كتاب الله) بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف (وكانوا عليه شهداء) رقباء لئلا يبدل كما فعل كعب بن الأشرف ومن حذا حذوه الذين لم يحفظوا كتاب الله وليسوا عليه رقباء ، فلذلك يبدل *

وهكذا

وهكذا أمر بعض علماء الإسلام لما تقهقرت الأمم الإسلامية ، فإنهم قد زاغوا عن طريق الجادة وأجازوا الفتاوى المتناقضة على مقتضى الأقوال المختلفة ، والله لايرضى ذلك لأنه صادر عن هوى .

فليس هؤلاء شهداء على القرآن ولا رقباء فكأنهم غيروه ، وليس التغيير للفظه بل التغير فى مقصود الأحكام وذلك يؤدى إلى انهيار الأمة وضياعها عما تهاونوا فى الدين القويم .

ثم خاطب الله الحكام قائلا (فلا تخشوا الناس واخشون) يقول للحكام لاتخشوا غير الله فى حكوماتكم وإياكم والمداهنة فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير (ومن لم يحكم بما أنزل الله) مستهينا به منكرا له (فأولئك هم الكافرون) لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره فكفرهم لإنكارهم ، وفسقهم بالخروج عنه وظلمهم بالحكم على خلافه ، والظلم والفسق قد ذكرا فى الآيات الآتية هنا .

ثم أخذ يسرد أحكاما من التوراة فقال (وكتبنا عليهم فيها) فى التوراة (أن النفس بالنفس) أى أن النفس تقتل بالنفس (والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن) أى إن العين مفقوءة بالعين والأنف مجدوع بالأنف والأذن مصلومة بالأذن والسن مقلوعة بالسن (والجروح قصاص) أى ذات قصاص : أى حكومة عدل ، وهذه قاعدة عامة ذكرها بعد الأربعة التى خصصها بالذكر .

يقول ليس هذا خاصا بالأربعة ، فالجروح على وجه العموم قصاص فيما يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل والذكر والأنثيين .

فأما مالا يمكن القصاص فيه كرض فى لحم أو كسر فى عظم أو جراحة فى بطن يخاف منها التلف ففيها الأرش والحكومة العادلة .

لطيفة

هذه شريعة التوراة وردت فيه ، وقد أجمعت الأمة على صحة الاستدلال بقوله (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس الخ) على هذه الأحكام ، ولا جرم أن هذا من شريعة من تقدم من الأمم ؛ فنحن إذن متعبدون بشريعة من قبلنا : أى إنا متعبدون بما صح من شرائع من قبلنا بطريق الوحى لامن طريق كتبهم المبدلة ونقل أربابها ، وهذا مذهب أبى حنيفة وبعض أصحاب الشافعى وعن أحمد فى إحدى الروايتين عنه .

وقال قوم كابن الحاجب من المتأخرين : إننا متعبدون بما لم ينسخ من الأحكام الباقية قبل شريعتنا ، لكنهم لم يعتبروا قيد الوحى ، فإن الوحى واجب التنفيذ سواء وافق شرع من قبلنا أم لم يوافقه .

وقال آخرون كالأشاعرة والمعتزلة والآمدى : ليس شرع من قبلنا شرعا لنا .

وهذا الخلاف بينهم لايتناول هذه الأحكام التى أجمعت الأمة عليها ، وهى : أن الجروح قصاص مع التفصيل المتقدم (فمن تصدق به) أى القصاص : أى فمن عفا عنه (فهو) أى التصدق (كفارة له) للمتصدق يكفر الله به ذنوبه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم) وأتبعناهم على آثارهم (بعيسى ابن مريم) مفعول ثان عدى إليه الفعل بالباء (مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) هذه الجملة حال (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) عطف عليه ، وهكذا قوله (وهدى وموعظة للمتقين) .

ثم قال (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) عن حكمه أو عن الإيمان به إن كان مستهينا به .

وهذا يدل على أن الإنجيل قد نسخ أحكاما فى التوراة وهو بها مستقل ويجب العمل به على متبعيه (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) أى القرآن (ومهيمنا عليه) ورقيبا على سائر الكتب المنزلة ، لأن القرآن مصدق لجميع الكتب السماوية ، وفى قراءة بالبناء للمجهول : أى هو من عليه وحفظ من التحريف والحافظ

هو الله والحفاظ فى كل عصر (فاحكم بينهم بما أنزل الله) إليك (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه (لكل جعلنا منكم) أيها الناس (شرعة) شريعة : وهى الطريق إلى الماء شبه به الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية (ومنهاجا) طريقا واضحا فى الدين ، من نهج الأمر : إذا وضح .

واعلم أن هذه الآيات أبانت أن شريعة محمد وشريعة موسى وشريعة عيسى عليهم الصلاة والسلام متباينات وهناك آيات أخرى تقدمت وستأتى أن الشرائع متفقات كما فى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الخ» فآيات الاتفاق راجعة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفعل الفضائل العامة واجتناب الرذائل .

فأما الاختلاف بين هذه الديانات ففى الفروع كطرق العبادات وبعض الأحكام التى تتغير بتغير الأزمنة ، لأن الله جبل هذا العالم على الاختلاف (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه (ولكن) أراد أن يختبركم ، فكما غاير بين صوركم وأخلاقكم وأوطانكم وأحوالكم غاير بين شرائعكم (ليبلوكم) يختبركم (فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة ، هل تعملون بها أم لا ؟ وهل تذعنون لها معتقدين أن اختلافها مقتضى الحكمة الإلهية بنظركم الثاقب وفهمكم لما تشاهدون من نظامنا العجيب الدالّ على الحكم فى الاختلاف فى المشاهدات الحسية التى يترتب على اختلافها الآثار النافعة (فاستبقوا الخيرات) فابتدروها انتهازا للفرصة فلا تشغلوا الفكر فيما يوقعكم فى الشك والريب كالاختلاف المذكور فلا تقولوا لانبالى بالشكوك التى تجول بخواطرنا ، ولنسر فى ديننا ولا نسأل عن هذا الاحتراق فى أفئدتنا الناجم من الشكوك المؤلمة ، بل يجب الفكر فى أسبابه لأننا إنما نختبركم لتظهر آثار قواكم الفكرية وعجائب عقولكم ، فعلى أولى الألباب منكم أن يعكفوا على الفكر فى كل ما اشتبه لأننا خلقنا عقولكم لهدايتكم ، فالكتب السماوية جاءت لفتح باب الفكر ، وبالفكر فيما التبس تكون الهداية (إلى الله مرجعكم جميعا) وكيف ترجعون إليه ناقصين بلها متحيرين فهو علم بالمقصرين منكم والمبادرين (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) فينزل المقصرين عن درجة المبادرين (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) أى أنزلنا إليك الكتاب وأن تحكم بينهم أى والحكم بما أنزل الله (ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أى يضلك أحبار اليهود فتحكم لهم وتقضى على خصومهم من اليهود على أن يؤمنوا بك فيتبعك عامة اليهود كما تقدم (فإن تولوا) عن الحكم المنزل وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى ذنب التولى عن حكم الله الذى هو بعض ذنوبهم الكثيرة (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) متمردون فى الكفر (أفحكم الجاهلية يبغون ؟) وهو الميل والمداهنة فى الحكم ومتابعة الهوى كما يريد بنو النضير .

وقد تقدم هذا فى مقدمة هذا المقصد (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) يعنى أى حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أن لكم ربا وأنه سبحانه عدل فى أحكامه ، اهـ المقصد السادس .

المَقْصِدُ السَّابِعُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ

عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا
بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * يا أيها الذين
آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على
المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا
الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين
آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم
هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن
كنتم مؤمنين * وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون *
قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل
وأن أكثركم فاسقون * قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله
وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن
سواء السبيل * وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله
أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان ، وأكلهم
السحت ، لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم ،
وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون * وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم
ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل
إليك من ربك طغيانا وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما
أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين * ولو
أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولأدخلناهم جنات النعيم *
ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن
تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون *

التفسير اللفظى

يروى أن عبادة بن الصامت قال : إن لى أولياء من اليهود كثيرا عددهم شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ولا مولى لى إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبىّ ابن سلول للنبى : لا أبرأ من ولاية اليهود فإنى أخاف الدوائر ولابدّ لى منهم .

وأيضا لما اشتدّ الأمر على طائفة من الناس فى وقعة أحد وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار ، قال رجل من المسلمين : أنا ألحق بفلان اليهودى وآخذ منه أمانا إنى أخاف أن يدال علينا اليهود ، وقال رجل آخر : أنا ألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وآخذ منه أمانا .

وأيضا كان أبو لبابة بن عبد المنذر قد بعثه النبى صلى الله عليـه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصرهم فاستشاروه فى النزول وقالوا : ماذا يصنع بنا إذا نزلنا ؟ فجعل أصبعه فى حلقه مشيرا إلى أنه الذبح وأنه يقتلكم .

هذه هى الأسباب التى ذكرها المفسرون الأجلاء لنزول هذه الآية التى تراد لتهذيبنا اليوم وتعليمنا كيف تكون أمة عزيزة الجانب موفورة المنزلة باتحاد الكلمة وهى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أنصارا وأعوانا على أهل الإيمان بالله ورسوله .

ألا ترون أيها المؤمنون أن بعض اليهود أعوان بعض عليكم ؟ وبعض النصارى أعوان بعض عليكم ، فكيف تتخذون منهم أولياء ؟

إن من يتخذ منهم أعوانا فإنه منهم ، وهو يكون ظالما لنفسه ولأمته بمعاونته أعداءهم وهذا هو قوله (بعضهم أولياء بعض) إلى قوله (والله لايهدى القوم الظالمين) .

ثم أخذ يفصل ذلك بنحو ما تقدّم فى الأحاديث فقال (فترى الذين فى قلوبهم مرض) نفاق (يسارعون فيهم) أى فى موالاتهم (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار (فعسى الله أن يأتى بالفتح) لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار دينه على الأديان كلها وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وفتح مكة وفتح قرى اليهود كخيبر وفدك ونحوهما من بلادهم (أو أمر من عنده) مثل أن يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتعب ، كما ألقى الرّعب فى قلوبهم فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم وحملوا إلى الشام (فيصبحوا) أى يصبح المنافقون المذكورون (على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) على ما أبطنوه من الكفر والشك وعلى موالاة هؤلاء ولذلك تحقق ما ذكر .

واعلم أن عسى من الله واجب ، لأن الكريم إذا أطمع فى خير فعله وهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له . وهنا يخطر سؤال فيقال ماذا يقول المؤمنون حينئذ ؟ فقال (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟) أى يقول المؤمنون بعضهم لبعض تعجبا من حال المنافقين وفرحا بما منّ الله عليهم من الإخلاص (حبطت أعمالهم) أى بطل ما كانوا يعملون من الخيرات لأجل ما أظهروه من النفاق وموالاة اليهود (فأصبحوا خاسرين) دنياهم بافتضاحهم لموالاتهم من هزمهم الله وفى الآخرة أيضا بإحباط ثواب أعمالهم .

الكلام على الردة

اعلم أنه قد ارتدّ من العرب فى أواخر عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم ثلاث فرق : بنو مدلج ، وبنو حنيفة . وبنو أسد . وسبع فرق فى عهد أبى بكر رضى الله عنه : فزارة ، وغطفان ، وبنو سليم ،

وبنو

وبنو يربوع ، وبعض تميم وكندة ، وبنو بكر بن وائل . وفرقة واحدة ارتدّت فى خلافة عمر بن الخطاب : وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم .

هؤلاء هم الذين ارتدّوا من العرب فى زمان النبوّة وبعدها إلى زمن عمر رضى الله عنه .

قتال أهل الردة

أما الفرق التى ارتدّت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن بنى مدلج كان رئيسهم ذا الخمار الأسود العنسى ، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ، ثم قتله فيروز الديلمى ليلة قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من غدها وأخبر الرسول فى تلك الليلة فسر المسلمون وأتى الخبر فى أواخر ربيع الأوّل .

وأما بنو حنيفة : فهم أصحاب مسيلمة الكذاب ، تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك » .

فأجاب رسول الله : « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فحاربه أبو بكر بجند من المسلمين ، وقتل كما سيأتى .

وأما بنو أسد : فهم قوم طليحة بن خويلد ، ولقد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .

هذه هى الفرق التى ارتدّت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الفرق السبع التى ارتدّت فى زمن أبى بكر رضى الله عنه ، فاعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قبض ارتدّ عامة العرب إلا أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من بنى عبد القيس ، فإنهم ثبتوا على الإسلام ونصر الله بهم الدين .

ولما ارتدّ من ارتدّ من العرب ومنعوا الزكاة همّ أبو بكر بقتالهم، وكره ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عمر : كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله » فقال أبو بكر : والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقا أو قال عقالا كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها .

وقال أنس بن مالك : كره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال مانعى الزكاة وقالوا هم أهل القبلة فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدّا من الخروج على أثره .

وقال ابن مسعود : كرهنا ذلك فى الابتداء ثم حمدناه فى الانتهاء .

وأثنى أبو حصين على أبى بكر لبسالته وقال : إنه أفضل من ولد بعد النبيين لقتاله أهل الردّة . .

ولقد أرسل خالد بن الوليد فى جيش كثير إلى بنى حنيفة باليمامة وهم قوم مسيلمة الكذاب ، فأهلك الله مسيلمة على يد وحشىّ غلام مطعم بن عدى الذى قتل حمزة .

والفرق السبع التى ارتدّت فى زمن أبى بكر لما حاربها رجعت إلى الإسلام بجيوش من الصحابة ومن معهم .

وأما التى ارتدّت فى زمن سيدنا عمر فهى غسان قوم جبلة بن الأيهم تنصروا وساروا إلى الشام ،

من هم القوم الذين يحبون الله ويحبهم الله

هم الصحابة الذين قاتلوا أهل الردّة وأهل اليمن ، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل اليمن كما أثنى على الصحابة إذ قال : « أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » وكذلك الأنصار الذين هم قسم من الصحابة وقوم من اليمن ، منهم ألفان من النخع وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا يوم القادسية مع عمر ، وكذلك الفرس « لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم الذين يحبهم ويحبونه فضرب يده على عاتق سلمان وقال هذا وذووه » .

هؤلاء هم الذين وردت الأحاديث المختلفة بأنهم الذين يحبهم الله ويحبونه وأن ذلك معجزة ، فإن ردّة العرب ورجوعهم للاسلام ونصر الله للمسلمين بجنوده ، كل ذلك كان مغيبا

واعلم أن ما فى هذه الأحاديث ليس حاصرا لمن يحبهم الله ويحبونه ؛ فإن معنى حبّ الله العبد : إرادته الهدى والتوفيق له فى الدنيا وحسن الثواب له فى الآخرة .

ومعنى محبة العباد له : إرادة طاعته والتحرز من معصيته ، وليس ذلك خاصا بهؤلاء ، بل إن الأمم الإسلامية كلما خمدت أمّة جاءت أمم ، حتى إنك لترى التتار الذين جاءوا من بلادهم وأزالوا الدولة العباسية على يد أبناء جنكيزخان وقتلوا الخليفة العباسى وحكموا الإسلام هم الذين أسلموا بعد ذلك ، وهم فى بلاد الروسيا الآن وعلى نهر فولجا وغيره ويبلغون عشرات الملايين .

وكذلك يوجد أمم أسلمت فى جزائر الهند الشرقية نحو ٦٢ مليونا من جاوه وما والاها من البلدان ، وكذلك فى الصين وفى السودان ولايزال الإسلام ينتشر للآن .

أفليس هؤلاء من الذين يحبهم الله ؟ نعم ! يحب الله من صلح من هذه الأمم وقام بالأمر خير قيام .

وكذلك أسلم فى زماننا من عظماء الإنجليز اللورد هدلى ، وقد قابلته فرأيته رجلا عظيما بعد ما قرأت رسائله فى الإسلام خصوصا بعد ما زار الأقطار الحجازية وأدى فريضة الحج ، فكل هؤلاء داخلون فى المحبة المذكورة .

فالله بهذه الآيات يقول لنا : كلما ارتدّت أمّة عن الإسلام دخلت فيه أمّة أخرى ، لأن الإسلام وحى أراد الله بقاءه ليكون من الموازين التى ينصبها الله للعدل والحياة فى الأرض ، فهذا هو قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه) إلى قوله (والله واسع عليم) ومعنى (أذلة على المؤمنين) عاطفين عليهم متذللين لهم جمع ذليل لاذلول فإن جمعه ذلل ، وقوله (أعزّة على الكافرين) أى شداد متغلبين عليهم من عزّه إذا غلبه وقوله (يجاهدون فى سبيل الله) صفة أخرى لقوم ، وقوله (ولا يخافون لومة لائم) عطف على يجاهدون ، فهم جامعون للمجاهدة فى سبيل الله والتصلب فى دينه ، وقوله (ذلك) أى المتقدّم من الأوصاف (فضل الله يؤتيه من يشاء) يمنحه ويوفقه له (والله واسع عليم) كثير الفضل عليم بمن هو أهله .

ولما أتمّ الكلام على الردّة المذكورة فى غضون النفاق لمناسبتها له ولقربها منه لاقتراب المنافق من مراتب الكافرين ، وازدلافه إلى دركات المرتدين أخذ يتكلم على النفاق والموالاة ، ومن الذين نواليهم فقال (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .

لما أسلم عبد الله بن سلام قال يارسول الله « إن قومنا بنى قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لايجالسونا ، فنزلت فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله بن سلام : رضينا بالله ربا ، وبرسوله نبيا ، وبالمؤمنين أولياء » .

واعلم أن الآية عامّة ولا سبب من الأسباب الواردة يخصصها ، فهو يقول : إن أهل معونتكم وموالاتكم

هم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم متواضعون لامستكبرون عليكم كما تقدم فى قوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) ثم أبان أن من اتبع هذا الفريق فإنه فائز لأنهم هم الغالبون ، وهذا قوله تعالى (ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) يعنى فإنهم هم الغالبون لكن وضع الظاهر موضع المضمر تعظيما لشأنهم .

ثم أخذ يشرح الموضوع زيادة إيضاح لأهميته فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لايعقلون) .

والمعنى أن أهل الكتاب الذين اتخذوا الذين هزوًا ولعبا والكفار وهم عبدة الأصنام ، لايجوز للمسلمين أن يتخذوهم أنصارا وأولياء ، وهذا على قراءة النصب بعطف الكفار على الذين اتخذوا دينهم ، وقرأ بالجر أبو عمرو والكسائى ويعقوب فيكون الذين اتخذوا الدين هزوًا ولعبا من أهل الكتاب ومن عبدة الأوثان وهم الكفار معا ، وعلى كل من القراءتين لاتجوز موالاتهم .

روى أن نصرانيا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدا رسول الله، قال أحرق الله الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شررها فى البيت فأحرقه وأهله .

وروى « أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث أظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادّونهما فنهى الله عن موالاة هؤلاء جميعا » وقوله (واتقوا الله) أى بترك مانهاكم عنه. وقوله (إن كنتم مؤمنين) أى بوعده ووعيده ، وقوله (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) لأن السفه يؤدّى إلى الجهل بالحق والهزؤ به والعقل يمنع منه .

ثم إن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به فقال « أومن بالله وما أنزل إلينا » إلى قوله (ونحن له مسلمون) فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام : لانعلم دينا شرا من دينكم، فقال الله له (قل) لهم (يا أهل الكتاب هل تنقمون منا ؟) هل تنكرون منا وتعيبون ؟ يقال : نقم منه إذا أنكره وانتقم إذا كافأه (إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) أى لاتنكرون منا إلا إيماننا بالله وبما أنزل إلينا من القرآن وما أنزل إلى الأنبياء واعتقاد أن أكثركم فاسقون ، وهذا على حد قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب .

فهل الحق ينكر ، أو الخير يعاب ؟ آمنا بالأنبياء الذين أرسلهم الله فنقمتم علينا واعتقدنا أنكم فاسقون خارجون عن سنن الحق بتحريفكم فى دينكم وكفركم بديننا وهذا صدق . فكيف تنكرون وتعيبون ذلك ؟ وكيف تقولون لانعلم دينا شرا من دينكم (قل) لهم يا محمد (هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) جزاء وثوابا عند الله ، والمثوبة فى الخير كالعقوبة فى الشر (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير) بدل من شر : أى بشرّ من أهل ذلك ، وهؤلاء هم اليهود أبعدهم الله من رحمته ومسخ بعضهم قردة وخنازير وهم أصحاب السبت ، إما مسخا جسميا وإما مسخا معنويا بأن صاروا مقلدين كالقرود وذوى شهوات كالخنازير بسبب المعاصى التى ارتكبوها بمخالفة التوراة (وعبد الطاغوت) معطوف على صلة من: أى أطاع الشيطان فيما سوّل له .

وفى معناه العجل الذى عبدوه والكهان والأحبار والرهبان الذين اتبعوهم فيما أحلوا وحرموا (أولئك) الملعونون (شر مكانا) وإذا كان مكانهم شرا فهم أولى بالشر (وأضل عن سواء السبيل) أى قصد الطريق

المتوسط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود (وإذا جاءوكم قالوا آمنا) أي اليهود، فإنهم نافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عامة المنافقين (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) أي يخرجون من عندك كما دخلوا (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر ، وفيه وعيد لهم (وترى كثيرا منهم) أي من اليهود أو المنافقين (يسارعون في الإثم) أي ما يختص بهم من الحرام (والعدوان) ما يتعدّى إلى غيرهم (وأكلهم السحت) أي الحرام (لبئس ما كانوا يعملون) لبئس شيئا عملوه (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .

يقول الله هلا ينهاهم هؤلاء العلماء الزاهدون والعابدون عن قول الإثم وأكل الحرام (لبئس ما كانوا يصنعون) وهذا توبيخ لهم وتقريع أشدّ من تقريع العامة الذين قرعهم على عملهم ، وهؤلاء قرّعهم على صنعهم ، والصنع لا يكون إلا بعد التروّي .

وهؤلاء العلماء قد أمسكوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قصدا وعمدا للمحافظة على رئاستهم وأخذ الأموال بالباطل ، والعالم أولى بالعقاب من الجاهل .

فالعلماء أقرب الناس إلى العذاب في كل أمة متى قصروا عن النصيحة للأمم .

ولقد كان اليهود أغنياء ، فلما كانت أيام النبي صلى الله عليه وسلم قل مالهم ، فقالت اليهود إن الله ممسك مقتر ، وهذا قوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) فهو مجاز ، إما عن البخل أو الفقر (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) دعاء عليهم بالبخل والنكد أو بالفقر والمسكنة ، أو بغل الأيدي حقيقة ليكونوا أسرى في الدنيا ويوم القيامة (بل يداه مبسوطتان) ثنى اليد مبالغة في نفي البخل وإثبات الجود (ينفق كيف يشاء) أي يرزق كما يريد ويختار ، فيوسع على من يشاء ويقتر على من يشاء (وليزيدنّ كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فلا تتوافق قلوبهم (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) فترى النصارى مختلفين مذاهب دينية وعقائد .

وهكذا اليهود وذلك موجب لتفرق الكلمة ، فكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بالتخاذل (ويسعون في الأرض فسادا) أي للفساد ، وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحرب والفتن وهتك المحارم (والله لا يحب المفسدين) فلا يجازيهم إلا شرا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم (واتقوا) ما ذكرناه من المعاصي (لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) بإذاعة ما فيها من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والقيام بأحكامهما (وما أنزل إليهم من ربهم) أي سائر الكتب المنزلة (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أي لوسع الله عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض أو بكثرة ثمر الأشجار وغلة الزرع ونموه ووفرته (منهم أمة مقتصدة) متوسطة في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم (وكثير منهم ساء ما يعملون) أي بئس ما يعملونه ، وفيه تعجيب : أي ما أسوأ عملهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض والإفراط في العداوة . انتهى التفسير اللفظي .

لطائف

(١) اللطيفة الأولى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) .

(٢) اللطيفة الثانية : (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا ؟) الآية .

(٣) اللطيفة الثالثة : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) .

(٤) (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) .

اللطيفة الأولى

ليس القصد من اليهود والنصارى خصوصهما ، وإنما ذلك يراد به أن يحفظ كيان الدولة ولا يفرق الجمع بالتخاذل والاتفاق السرى مع الأعداء، من أى دولة ومن أى دين ، وإلا فقد جاء التتار من جهة الشرق وأزالوا دولة العرب واتحد معهم الوزير العلقمى سرا وذهبت الدولة لهذا الغدر .

فهل كان يجوز فعل ذلك الوزير؟ ذلك لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى بل هم مجوس. كلا ! لا تجوز موالاتهم قال الشاعر إذ ذاك :

يا أمة الإسلام قومى واندبى   وابكى على ما تمّ للمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه   لابن الفرات فصار لابن العلقمى

وهذا الوزير كان شيعيا وأراد بذلك النكاية فى أهل السنة الذين هم سنيون .

ثم إن التتار خربوا الديار وفتكوا بالأمة فتكا شنيعا بسبب موالاة الوزير لهم وانشقاقه على المسلمين .

وأيضا إذا عاهدنا أمة كتابية فإنا نفى بعهدهم ، وكذلك أهل الذمة ندافع عنهم ونحوطهم بعنايتنا ، وإذا عاهدنا قوما فلنف بعهدهم ونحارب معهم على أى دين كانوا ، وجاء فى سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالقرآن يرجع فيه للعقل والتفصيل والبحث والتنقيب .

فأما العمل بالآيات بدون بحث فإنما هو فعل الغافلين .

اللطيفة الثانية

يقول الله على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ؟ الخ) وأنا أورد حكاية لمناسبة هذه الآية . فأقول :

الحكاية

توجهت يوما إلى أحد أصحابى بدكانه جهة باب الخلق بالقاهرة فسلمت عليه فرد السلام ، وقد رأيت رجلا معمما جالسا معه. فقال: أنا أحب أن أعرفك بفلان المبشر. فقلت : كلنا مبشرون . فقال ذلك الضيف: وهل يبشر إلا بابن الله الوحيد ؟ فقلت : كلى بالعقل وليكن حكما . إما أن تقولوا إن العالم ليس له إله وإما أن تقولوا له إله . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : إذا كان الله يترك العالم بلا هاد ولا مرشد مئات الألوف من السنين ؟ ثم يأتى فى آخر الزمان ويقول لهم : هذا هو ابنى الوحيد يهديكم ، أفليس ذلك معناه البخل والجمود ؟ والإله الذى يترك عباده هكذا سبهللا ثم يتذكرهم آخرا ليس بكريم .

وإذن يكون هذا ليس بإله ! فالإله متصف بأجمل الصفات وأبهاها ، فقولكم هذا ؟ معناه أنه لا إله فى العالم .

فلما سمع ذلك منى اتجه بالكلام إلى جهة أخرى وقال : ما الذى فعله نبيكم وليس كل فضل له إلا فى فصاحة القرآن بالإعجاز ؟ مع أن امرأ القيس قال : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل »

وهذا فى الإيجاز لاينقص عن القرآن . فقلت له : إذا كان هذا هو البلاغة فى نظرك فاسمع منى (العالم منظم) وهذه الجملة على إيجازها تجمع التوراة والإنجيل والقرآن وجميع الكتب السماوية وسائر الديانات ، فهل أنا بقولى هذه الجملة الجامعة الآن أصبحت فوق النبيين ؟ قال : كلا ! قلت : إذن لامعنى لهذا القول . فقال : إن نبيكم علمه رجلان . قلت له : أنتم أخذتموها من قول الكفار (إنما يعلمه بشر) وأنا أقول لك : أى نبى لم يتعلم ؟ ألم يتعلم موسى ؟ ألم يتعلم عيسى ؟ أليس كل نبى لابد له من طريق يسير فيه ؟ أفليس يسأل الناس عنها ؟ أفليس له ظئر ترضعه ومربية ؟ قال : بلى ! قلت : هذا تعلم . ثم قلت له : ألست ترى أن للعلمين فى المدارس المصرية وفى الأزهر تعلمون ؟ قال : بلى ! قلت : ومعلومهم لم يكن لهم نظير فى العلم أيام النبى صلى الله عليه وسلم . قال : نعم ! لأنهم كانوا جاهلية . قلت : فإذا كان الأمر كذلك ، وأن المدار على التعلم فلماذا لم نكن جميعا أنبياء ؟!

(يا فلان) أنا أقول الحق : إن هذه المحاورات التى يقولها المبشرون إنما جعلت لأكل الخبز ، وإلا فبالله إذا أراد الناس الحق فلماذا ينكر النصارى على نبينا هدايته للناس .

أليس يأمرهم بفعل الطاعات وترك المعاصى ؟ قال : بلى ! قلت : أليس المسيح جاء ليهذّب الناس فكرهه أتباع موسى وكفروه . قال : بلى ! قلت أنا : أشهد الله أن أكثر المتدينين لايريدون إلا الخبز والملبس والشهوات .

وهكذا قال علماؤنا المفكرون : إن علماء الدين فى أكثر الأمم عقولهم أقرب إلى عقول العامة يسعون للخبز .

انظر (يافلان) ألسنا نقرأ كلام شكسبير الإنجليزى ، وروسو الفرنسى ، وجميع علماء الأمم يقرأ بعضهم كلام بعض بسرور ، فما بال القسيسين من النصارى يكرهون من جاء بعدهم ليهدى الناس إلى الحق . والحق أقول : إن هذا لأجل الخبز ، والإنسانية ضائعة فى هذه المجادلات والمحاورات .

فقال صاحب الدكان (يا فلان) إن هذا المبشر يصلى سرا صلاة إسلامية ، وهو فى الجهر يعيش مع المبشرين ويأكل من صناعة التبشير ، فوافق المبشر على ذلك .

اللطيفة الثالثة

حكاية مع شاب هندى

قابلنى منذ أيام شابٌ هندى ، فرأيته لابسا ملابس قطنية مغزولة باليد منسوجة بنسج غليظ الخيطان ومن هذا النسج (قلنسوته) على رأسه وثيابه على جسده . فقلت له : أهذا صناعة بلادكم ؟ فقال : نعم ! فقلت له : أنت اليوم فى مصر ، فهل يمنع أن تلبس كالمصريين ؟ فقال : لو فعلت ذلك لكنت خارجا عن الوطنية والعهود التى أخذت علينا . فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال أخذ علينا العهد الوطنى أن لانلبس إلاما نسجه الهنديون وغزله الوطنيون بعد الثورة الهندية . فقلت له : حدثنى عنها . فقال : إن الهنود الوثنيين ليس بينهم رابطة لاختلافهم أديانا ، حتى إن كل جماعة منهم تبلغ ١٥ مليونا فى المتوسط لها دين خاص بها ، ولما أراد الرئيس غاندى (الزعيم الهندى) هو والرؤساء المسلمون الثورة لم يجدوا بابا يلجونه إلا مدرسة على كره الإسلامية ، فقالوا للتلاميذ ابدءوا بالإضراب فأضربوا فاتبعهم جميع الوثنيين ، وكان ما كان من هذا الميثاق الوطنى ، وليس عندنا رئيس يخالف الميثاق ولا مرءوس . فقال قائل : إن الرؤساء فى مصر قد يخطئون فى أعمالهم ، فقال : ليس عندنا كذلك ، بل الشعب واقف لهم بالمرصاد ، قال تعالى (لولا ينهاهم الربانيون

والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) فأعجبني حسن بيانه ، وأيقنت أن هناك روحا في الإسلام استجدت لم تكن من قبل « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » وهذه الحكاية تقدمت ولكن هنا زيادة تناسب المقام .

اللطيفة الرابعة قوله تعالى « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله »

اعلم أن هذه القاعدة طبيعية إلهية ، لقد خلق الله أنواع الحيوان وسلط الآساد على الغزلان ولكنه قلل من نسل الصنف الأول وأكثر من نسل الصنف الثاني حتى يبقى ما هو مأكول لقلة ما هو آكل ، وهكذا يجعل في نوع الإنسان قوانين لبقائه وشروطا لحياته .

ألا ترى أنه يحدث بين الدول تصادما واختلافا ؟ وهذا الاختلاف لولاه لأهلك بعض الأمم بعضا فيقولون: يجب حفظ التوازن ، ومتى حفظ التوازن لاتستبد إحدى الدول بالأمم الصغيرة .

فلذلك تجد أمم أوروبا تجتمع من جهة على إضعاف أهل الشرق ، ومن جهة أخرى لاتسمح واحدة منها لأخرى بابتلاع بلاد كثيرة خيفة أن تكبر عليهن وتعظم ، ومع ذلك تراهم دائبين في إيقاع الفتن والشرور والعداوات بين الأمم الشرقية ليدوم لهم العز والسلطان ويسودوا في بلادنا والرؤساء في بلادنا يوالونهم ، وهم يملئون قلوبهم حبا للجشع والشره ، فهذا هو إيقاد نار الحرب وذلك إطفاؤها . انتهى المقصد السابع .

المَقصِدُ الثَّامِنُ

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ

وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

التفسير اللفظى

اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد شجّ رأسه وكسرت رباعيته ، وهذا قد تقدم فى غزوة أحد ، وهكذا أيضا تقدم حديث الأعرابى الذى أراد قتله بالسيف فسقط من يده وهو تحت الشجرة ، ثم تناول السيف صلى الله عليه وسلم فأسلم الرجل بعد أن تمكن النبى صلى الله عليه وسلم من قتله فلم يقتله .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال «بعثنى الله برسالته فضقت بها ذرعا ، فأوحى الله تعالى إلىّ : إن لم تبلغ رسالتى عذّبتك، وضمن لى العصمة فقويت» .

وعن أنس رضى الله عنه «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك الآية فأخرج رأسه من قبة أدم ، فقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله من الناس

وهذا قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) أى جميع ما أنزل إليك ولا تراقب أحدا ولا تخف مكروها ولا تبال باستهزاء اليهود ولا بكراهة المنافقين الجهاد ولا باستثقال اليهود حكم الرجم الذى حكمت به ، وهو موافق للتوراة (وإن لم تفعل) وإن لم تبلغ جميعه كما أمرت (فما بلغت رسالته) فما أديت الرسالة ، لأن كتمان البعض يضيع ما أدى منها ، كما تبطل الصلاة بترك ركن فيها ، وبموت الحى بقطع رأسه أو قلبه أو عضو رئيس أياكان من أعضائه ، وإن خفت الناس فقد حفظتك منهم (والله يعصمك من الناس) وهذا عدة من الله وضمان أن يعصم روحه من تعرض الأعادى (إن الله لايهدى القوم الكافرين) لايمكنهم مما يريدون بك .

وهكذا كل من كتم شيئا من الدين فإنه لم يبلغه ويكون ترك البعض كأنه ترك الكل .

ألا ترى أن رافع بن حارثة ، وسلام بن مشكم ، ومالك بن الصيف ، ورافع بن حرملة لما قالوا لمحمد : ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق ؟ أجابهم قائلا : بلى ! ولكنكم أحدثتم وجحدتم مافيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فأنا برئ من أحداثكم ؛ قالوا : فإنا نأخذ بما فى أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن لك ولا نتبعك ، فها هو ذا يقول لهم : قد كتمتم ، فكتمان بعض الدين لم يجز فى الإسلام كما لم يجز فيما قبله ، وهذا هو قوله تعالى بعد ماتقدم (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) دين يعتد به (حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) ومن إقامة الدين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله (فلا تأس) لاتحزن عليهم لزيادة طغيانهم ، وقوله (إن الذين آمنوا الخ) تقديره : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ــ مما أمامهم ، ولا هم يحزنون ــ على ما فاتهم (والصابئون) كذلك وإنما أفرد الصابئين دون الأديان لأنهم أشد إنكارا للأنبياء ، يقولون إننا لانتبع إلا الملائكة ، فأما البشر فإنهم متساوون ، ويزعمون أن الملائكة هم الذين يعلمونهم ، فقيل لهم : من لقنكم هذا ؟ فقالوا : هذا شرع إبراهيم ، قيل لهم : فإبراهيم إذن نبيكم ؟ فثبت أن البشر يكونون واسطة بين الناس وبين الملائكة ، والمحاورة هناك مبسوطة فى كتاب [الشهرستانى] .

ومعنى هذه الآيات أن من آمن من أى دين وعمل صالحا فإن الله يجازيه على ذلك خيرا بالجنة وبالنجاة من النار ، وقد تقدم نظيرها فى سورة البقرة (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا) ليذكروهم (كلما جاءهم رسول) منهم (بما لاتهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) فقوله كذبوا جواب كلما ، وجملة كلما صفة رسلا (وحسبوا) أى بنو إسرائيل (أن لاتكون فتنة) أى أن لايصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم (فعموا) عن الدين وعن الدلائل والهدى (وصموا) عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل (ثم تاب الله عليهم) أى ثم تابوا فتاب الله عليهم (ثم عموا وصموا) كرة أخرى (كثير منهم) بدل من الضمير (والله بصير بما يعملون) فيجازيهم . ثم أخذ يشرح حال النصارى بعد الفراغ من أمر اليهود فقال (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله) هو ظاهر التفسير إلى قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة ، أى يقولون إنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم : أب ، وابن ، وروح قدس ، وهذه الثلاثة إله واحد ، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة ، وعنوا بالأب الذات ، وبالابن الكلمة ، وبالروح الحياة ، وقالوا إن الكلمة هى كلام الله اختلطت بجسد المسيح اختلاط الماء باللبن ، وقالوا إن الأب إله ، والابن إله ، والروح إله ، والكل إله واحد .

ونقل المفسرون قولا ثانيا أن الثلاثة : الله ، ومريم . وعيسى . آلهة ثلاثة ؛ والألوهية مشتركة بينهم ، وكل واحد منهم إله ، قال تعالى (وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون) ولم يوحدوا (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؟) أى أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد (والله غفور رحيم) يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة) كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق (كانا يأكلان الطعام) ويفتقران إليه افتقار سائر الإنسان والحيوان .

فبهذا تبين ما نعتوا به من الرسالة والصدق، ولهما مشاركون من نوع الإنسان، فأين الألوهية؟ وتبين أيضا النقص الذى يساويهما مع أصغر المخلوقات ، وهذا موجب للعجب من تصديق الألوهية ، وهذا قوله (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) كيف يصرفون عن استماع الحق (قل) يا محمد لأتباع المسيح (أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّا ولا نفعا ؟) وكل ما جاء على يده يملكه الله له لا من نفسه ، فإذا كان هكذا فى مشاركة المخلوقات له فى النقص والكمال ، وليس له من نفسه نفع ولا ضر فكيف تعبدونه ؟ وقوله « ما لا يملك » أى شيئا لا يملك وهو عيسى عليه السلام (إن الله هو السميع العليم) بالأقوال والعقائد فيجازى عليها إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشر (قل) يا محمد (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق) أى غلوّا باطلا فترفعوا عيسى عليه السلام إلى أن تدّعوا له الألوهية (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) عن طريق الشرع الحنيف ، يعنى أسلافهم وأئمتهم الذين ضلوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم (وأضلوا كثيرا) شايعهم على بدعهم وضلالهم (وضلوا عن سواء السبيل) ضلالا عقليا أخلاقيا (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) أى لعنهم الله فى الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى ؛ فأهل أيلة لما اعتدوا فى السبت لعنوا فيه ومسخوا قردة ، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى أصبحوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) تقدّم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بأوفى بيان (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أى لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكرات التى فعلوها (لبئس ما كانوا يفعلون) تعجب من سوء فعلهم (ترى كثيرا منهم) أى أهل الكتاب (يتولون الذين كفروا) يوالون المشركين (لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم) لبئس شيئا قدّموه ليردّوا عليه يوم القيامة ، والمخصوص بالذم قوله (أن سخط الله عليهم) أن غضب عليهم ، وقوله (وفى العذاب هم خالدون) أى فى الآخرة (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىّ) يعنى نبيهم كموسى وعيسى (وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) لأن دين الأنبياء لا يرضى بالشرك (ولكن كثيرا منهم فاسقون) خارجون عن دينهم ومتمردون فى نفاقهم .

ثم أخذ يوازن ما بين النصارى واليهود مع المسلمين والمشركين فقال (لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) لشدّة شكيمتهم وتضاعف كفرهم (ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) لأنك ترى أن دين المسيح يأمر بالمسامحة والعفو والمغفرة وحب العدوّ والصديق والإحسان إلى الغريب والقريب ، ولكن اليهود على خلاف ذلك بل هم لا يريدون إلا أنتهم وحدها وهم قديما وحديثا لا يريدون إلا أنفسهم ولو أضرّوا الناس بذلك ، ثم أيد مودّة النصارى بقوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) أى علماء وعبادا (وأنهم لا يستكبرون) فهم متواضعون ؛ فالتواضع والإقبال على العلم والإعراض عن الشهوات كلها خصال محمودة وإن كانت فى كافرين .

نزلت هذه الآية حين هاجر المسلمون من إيذاء الكفار بمكة كعثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزبير وعبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف . وأبى حذيفة وغيرهم

وجميعهم

وجيهم ١١ رجلا وأربع نسوة ، وكان ذلك سرا فى رجب فى السنة الخامسة من البعثة وهى الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبى طالب وغيره وهى الهجرة الثانية حتى صاروا اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فوجهت قريش وفدا على رأسهم عمرو بن العاص ومعهم هدايا للنجاشى وبطارقته ليردوهم إلى قومهم ، فقال عمرو بن العاص : قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها وزعم أنه نبى وقد أرسل إليك رهطا فنسألك أن تردهم إلى قومنا ؛ فأحضر النجاشى المسلمين ، وقال : مايقول صاحبكم فى عيسى وأمه ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : يقول هو عبد الله ورسوله وكلة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء ، ويقول فى مريم إنها العذراء البتول ، ثم طلب منهم ماجاء فى ذلك فقرأ جعفر سورة مريم وهو والقسيسون والرهبان يسمعون ، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فلم ينل عمرو بن العاص شيئا من المسلمين ورجع بخفى حنين من عند النجاشى وبقى القوم عنده إلى سنة ست من الهجرة ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى أن يزوجه أمّ حبيبة بنت أبى سفيان لما مات زوجها فزوّجها له والمهر أربعمائة دينار ، وأمر النجاشى أن يبعث إليها نساؤه مما عندهنّ من دهن وعود ، فوردت أمّ حبيبة إليه صلى الله عليه وسلم وهو محاصر خيبر ، وكذلك جعفر وأصحابه وسبعون رجلا عليهم الثياب الصوف ، منهم ٦٢ رجلا من الحبشة وثمانية من الشام ، وسمعوا سورة يس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك جاء ثمانون رجلا ٤٠ منهم من نصارى نجران ، و٣٢ من الحبشة ، وثمانية من روم أهل الشام فآمنوا .

فنى هؤلاء وأمثالهم نزلت هذه الآية وما بعدها ، وهو قوله تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فا كتبنا مع الشاهدين) من الذين شهدوا بأنه حق وبنبوّته ، ولقد أرسل النجاشى ابنه أزهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى ٦٠ رجلا من أصحابه ، وكتب إليه يقول :

أشهد أنك رسول الله صادقا مصدّقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفرا ، وقد بعثت إليك ابنى أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسى فعلت والسلام عليك يارسول الله ، فغرق ابنه فى البحر مع أصحابه (وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أى وأىّ شئ حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين بوحدانية الله ، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (فأثابهم الله بما قالوا) عن اعتقاد (جنات تجرى من تحتها الأنهار) إلى قوله (المحسنين) أى الذين أحسنوا النظر والعمل واعتادوا الإحسان فى الأمور كلها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) وهو ظاهر التفسير ، انتهى المقصد الثامن .

المَقصدُ التَّاسِعُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا . وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ

واحفظوا أيمانكم . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون * يا أيها
الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر
ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول
واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين * ليس على الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا
ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين * يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء
من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك
فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم
متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة
أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ،
ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ، أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا
لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون *
جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ، ذلك
لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم . اعلموا أن
الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم . ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون
وما تكتمون . قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله
يا أولي الألباب لعلكم تفلحون . يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ، والله غفور حليم
قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين . ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة
ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون *

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَهْتَدُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لما كان مدح النصارى وتواضعهم وإنصافهم ربما جرّ المسلمين أن يفعلوا كما فعلوا ويتركوا النساء ويكونوا رهبانا .

لاسيما أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما وبالغ فى إنذارهم ، فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لايزالوا صائمين قائمين ، وأن لايناموا على الفراش ، وأن لايأكلوا اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ، ويلبسوا المسوح ، ويسيحوا فى الأرض ، ويجبوا مذاكيرهم ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللهم إنى لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » ونزل (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين) فى الإفراط فى كسر الشهوات كما لايحب المفرطين فى الشهوات بفعل الحرام (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أى كلوا ماحلّ لكم وطاب مما رزقكم الله (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) هو مايبدو من المرء بلا قصد ، كقولك لا والله ، وبلى والله ، وإليه ذهب الشافعى ، وقيل الحلف على مايظن أنه كذلك ولم يكن ، وإليه ذهب أبو حنيفة (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية (فكفارته) أى كفارة نكثه : أى الفعلة التى تستره وتذهب إثمه (إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) أى أن الكفارة بأحد أمور ثلاثة :

الأمر الأول

(١) إما أن يطعم عشرة مساكين بأن يغديهم ويعشيهم ، عند أبى حنيفة .

(٢) أو يعطى لكل مسكين مدّ طعام ، وهو رطل وثلث بالبغدادى من غالب قوت البلد عند الشافعى وكذا سائر الكفارات ، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ومالك وغيرهم .

(٣) أو مدين من بر وهو نصف صاع لكل مسكين عند عمر وعلىّ وعائشة ، وبه قال أهل العراق :

(٤) أو مدّين من الحنطة كما تقدم ، وهو نصف صاع ومن غيرها صاع ، وهو قول الشعبى والنخعى وسعيد بن جبير ومجاهد .

(٥) أو مدّا من البر لكل مسكين ونصف صاع من غيره ، مثل التمر والشعير .

(٦) وجوّز أبو حنيفة إخراج القيمة فى الكفارة كالدراهم والدنانير وإخراج الدقيق والخبز كذلك ، فمذهبه أوسع المذاهب فى هذا ، هذا هو الأمر الأول .

الأمر الثانى من الكفارات : الكسوة

(١) وهو إما ثوب جامع كالملحفة عند النخعى .

(٢) أو ثوب واحد مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء عند ابن عباس والحسن وعطاء وطاووس والشافعى .

(٣) أو ما تجوز به الصلاة ؛ فللرجل ثوب وللمرأة ثوبان : درع وخمار ، وهو أدنى ما يجزى فى الصلاة وهو قول مالك .

(٤) أو قميص وإزار ورداء ، وهو قول ابن عمر .

(٥) أو ثوبان وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين .

الأمر الثالث من الكفارات : العتق

فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وأجزأت الكفارة عند أبى حنيفة ، هذه هى الثلاثة التى يخير بينها الحالف .

والنوع الرابع : الصوم

(فمن لم يجد) الكفارة (فصيام ثلاثة أيام) أى فإذا عجز من لزمته الكفارة فى اليمين عن الإطعام والكسوة والعتق وجب عليه صيام ثلاثة أيام ، ومتى كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته وفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام ، وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام .

وقال أبو حنيفة يجوز له الصيام إن لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة .

وقال الحسن إذا لم يجد درهمين صام ، وقال سعيد بن جبير ثلاثة دراهم .

والتتابع فى الصوم إما واجب عند ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وأبى حنيفة وأحمد وأحد قولى الشافعى ، وإما لا يجب والتتابع أفضل عند الحسن ومالك ، والقول الثانى للشافعى (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) وحنثتم (واحفظوا أيمانكم) بأن تضنوا بها ولا تبذلوها لكل أمر أو بأن تبروا فيها ما استطعتم (كذلك) أى مثل ذلك البيان (يبين الله لكم آياته) أعلام شرائعه (لعلكم تشكرون) نعمة التعليم (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب) الأصنام التى نصبت للعبادة (والأزلام) تقدمت فى أول السورة (رجس) قذر تعاف عنه العقول (من عمل الشيطان) لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه (فاجتنبوه) أى الرجس (لعلكم تفلحون) لكى تفلحوا بالاجتناب (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وغيرهما وخصهما بالذكر لعظم قدرهما (فهل أنتم منتهون) هذا أبلغ حث على الانتهاء جاء بصيغة الاستفهام وهى أبلغ فى الأمر .

واعلم أن الكلام على الخمر والميسر قد تقدم بأوسع بيان فى سورة البقرة ، فارجع إليه إن شئت (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمرا به (واحذروا) ما نهيا عنه (فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وإذا كان عليه البلاغ فقد أداه ، فإذن أنتم أضررتم بأنفسكم .

فصل : فى المطعومات

(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) مما لم يحرم عليهم (إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات) فى أنفسهم (ثم اتقوا وآمنوا) بينهم وبين الناس (ثم اتقوا وأحسنوا) بينهم وبين الله (والله يحب المحسنين) فلا يؤاخذهم بشىء .

ولما كان عام الحديبية ابتلى الله المؤمنين بالصيد ، وكانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم وهم محرمون فنزل (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد

تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب) فالذى تناله أيديهم كالفرخ والبيض وما لايقدر أن يفرّ من صغار الصيد ، والذى تناله الرماح كبار الصيد كحمر الوحش .

وذلك الابتلاء كما ابتلى أصحاب السبت بصيد السمك فيه ، ولكن عصم الله المسلمين فلم يصطادوا (فمن اعتدى بعد ذلك) فصاد فى حالة الإحرام بعد النهى (فله عذاب أليم) فى الدنيا فيوجع ظهره وبطنه عند ابن عباس، وهذا قول أكثر المفسرين .

وأما قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم) إلى قوله (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فقد تقدم تفسيره فى مقدمة السورة . قال تعالى (جعل الله الكعبة) أى صيرها وسمى البيت كعبة لتكعبه ، وقوله (البيت الحرام) عطف مبين للكعبة وفيه للمدح (قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا الخ) .

ومعنى كون الكعبة قياما للناس أنها انتعاش لهم : أى أنها سبب انتعاشهم فى أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ، ويربح التجار عنده ويتوجه إليه الحجاج والعمار ؛ والشهر الحرام فى هذا المقام ذو الحجة ، لأن الحج يؤدى فيه .

والمراد بالهدى : مايهدى إلى الحرم من الأنعام ، والقلائد: أى النعم التى تهدى وتقلد بنحو النعال أولحاء الشجر أو غيرها ، وهى من عطف الخاص على العام .

ومحصل القول : أن الله عز وجل يمتنّ علينا معاشر المسلمين . يقول إنى جعلت لكم بيتا تأتون إليه من كل فج عميق تحجون وتأمنون فيه على أنفسكم ، وفيه تؤدون المناسك وتهدون النعم المقلدة بالقلائد وغير المقلدة ، وكما جعلت لكم البيت حرما وملجأ ومأمنا حرمت الشهر وأمرت بالكف عن القتال فيه ولو على سبيل الندب بعد النسخ .

من نظر إلى حال المسلمين اليوم فى الهند والصين وبلاد جاوه والملايو والروسيا والحجازيين والنجديين وأهل البربر والسودانيين علم أن الكعبة حصن لهم وملجأ : مكان يتعارف فيه المتناكرون ويجتمع فيه المتفرقون .

ومن اطلع على أحوال الحجاج فى تأدية المناسك : كالطواف والوقوف بعرفة وغيرها ورأى كيف يلقح المصرى فكر الهندى ، والمكى عقل الجاوى والمليزى والصينى واليابانى ؛ عرف كيف أصبح المسلمون فى أقطار الأرض على نمط متقارب ومبدأ يكاد يكون واحدا .

فللكعبة والحج سر مكنون ، والكعبة شمس تشرق أنوارها على المسلمين ، فكم بزغت من تحت أستارها الأنوار ، واستضاء بإشراقها كوكب سيار ، واستنار بنورها بدر التمام .

فإن بزغ فى الهند كوكب طلع نوره فى مكة المكرمة ، ومنها يشع على المسلمين بما ينقل الحجاج عن الحجاج ويذكر الصادرون أخبار الوارد .

ومن الآثار المشهودة والنفحات المحمودة والعجائب المعدودة ، ما آنسته فى إحدى السنين إذ لقينى عالم صالح فاضل من علماء مكة صانها الله وحرسها . ولقد كنا تعارفنا قبل اللقاء بما كان يلقى إلينا من الأنباء من الحجاج الواردين والشيوخ الصالحين ، فلما التقينا تعارفت الأشباح كما تعانقت من قبل ذلك الأرواح وتناجت النفوس ، وأخبرنى أن ذلك التعارف القلبى بسبب ما قرأه فى نظام العالم والأمم من الآراء العلمية الموافقة للشريعة الإسلامية الغراء ، وباحثنى حفظه الله فى عجائب الماء ، وكيف يحلل إلى الأكسوجين والأودروجين ، ورأيته مسروراً بذلك وفرحاً . وقد قال : لاسعادة للاسلام إلا بتطبيق العلوم الطبيعية على الآيات القرآنية ،

فحمدت الله عز وجل إذ جمع بين القلوب وأطلع على كل أرض من بلاد الإسلام كوكبا يضيء وبدرا مشرقاً .
ولقد قابلت مثله من أكثر الأقطار وهم جميعاً متحدو الأفكار وإن تنامت الديار .

أليس ذلك من آثار البيت الحرام ؟ فلولا تعارف الحجاج عند تأدية المناسك ما عرفت ذلك العالم ولا عرفني .

ومن ذا الذي كان يخبرني خبره ويعرفني قدره ؟ ذلك من آيات الله !

ولقد كنت كتبت نحو ذلك في كتاب « القرآن والعلوم العصرية » منذ أربع سنين ، وقد قرأه العالم الإسلامي وانتشر والحمد لله ، ولكني ما كنت أعلم أن ذلك الاجتماع يحصل في أيام حياتي ؛ فها أنذا أقول لك أيها الذكي ، لقد تجلى الحق وسطع وظهرت آيات الله الكبرى ، فقد اجتمع المسلمون في هذه السنة في مكة المشرفة أيام عيد الأضحى : أي أثناء طبع هذا التفسير ، وشكلت لجنة مؤلفة من علماء الهند وتركيا والأفغان والشام وفلسطين ومصر والسودان المصري وغير المصري ، وبلاد الروسيا وجاوه وجميع العالم الإسلامي سنة ١٣٤٤ هـ . وهذا أول مجلس إسلامي اجتمع فيه المسلمون من سائر الأقطار يتشاورون في أحوال المسلمين وجزيرة العرب ، وذلك بدعوة من الأمير ابن السعود .

ومن هنا تستدل على أن هذا التفسير ذو حظ عظيم ، لأنه ينشر أيام النهضة وانقلاب الأحوال الإسلامية من الانحطاط إلى السؤدد والرقي والسعادة والحمد لله رب العالمين . وهذا من السر المكنون الذي تضمنه قوله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس الخ » .

أليس هذا من العجب ؟ ومن ذا الذي كان يعلم هذه الأسرار قبل ظهورها إلا مبدعها وخالقها ، فلذلك قال بعدها (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم) ولطالما كنت أقرأ القرآن متفكرا في المعنى أيام الشباب ، فإذا وصلت هذه الآية تعجبت من قوله (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات الخ) وأقول في نفسي : هل كون الكعبة محل نسك وحج وعبادة يحتاج إلى هذه العناية أو تحوزه هذه الرعاية ؟ وما المناسبة لذكر علمه ما في السموات والأرض لذكر الكعبة وجعلها انتعاشا للناس في أمر دينهم ودنياهم . فلما أن فهمت ما أبنته لك علمت أن القرآن مفعم بالأسرار محلوء بالحكم ، ولن يفهم الناس منه إلا على مقدار ما آتاهم الله من العلم .

واعلم أن ما ذكرناه من آثار الكعبة قطرة من بحر أو ذرة من جبل ، فإنك لو تصفحت ما يجرى في الأمم والممالك من تقلبات السياسة وتقلب القلوب ونشر الأخبار بواسطة الحجاج لقضيت العجب العجاب .
ولسوف يرقى المسلمون بالمعارف والعلوم ، وتكون الكعبة مشرق شمسها ومصبّ أنهارها ؛ ومن يعش يره .

ثم أخذ يرغب في الطيب من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها وينفر من الخبيث من ذلك كله فقال تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) فالفرق بين الأشياء بالجودة والرداءة لابالكثرة والقلة ؛ فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير (فاتقوا الله يا أولى الألباب) فلا تأخذوا الخبيث وإن كثر وآثروا الطيب وإن قلّ (لعلكم تفلحون) راجين أن تبلغوا الفلاح .

الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا الخ »

اعلم أنه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس وصلى الظهر ، فقام على المنبر فذكر الساعة فذكر فيها أمورا عظاما ، ثم قال : من أحب أن يسألني عن شئ فليسأل ، فلا تسألوني عن شئ إلا أخبرتكم به مادمت في مقامي هذا ، فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا ، فقام عبد الله بن حذافة

البيهمي ، فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة ، ثم أكثر أن يقول سلوني ، فبرك عمر على ركبتيه ، فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا فسكت ، ثم قال : عرضت عليّ الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر .

ولقد روى أن أم عبد الله بن حذافة قالت لعبد الله بن حذافة ما سمعت بابن قط أعق منك مأمنت أن تكون أمك قارفت بعض ماتقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ؟ فقال عبد الله بن حذافة : لو ألحقني بعبد أسود للحقته .

وأيضا قد كان قوم يسألون رسول الله استهزاء ، فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي ؟

وأيضا لما نزلت « ولله على الناس حج البيت الخ » قالوا يارسول الله : أفي كل عام ؟ فسكت ، فقالوا يارسول الله : أكل عام ؟ قال لا : ولو قلت نعم لوجبت .

ومما قال « وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، إذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه » .

وأيضا كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى لاتسألوا عن أشياء إن تظهر لكم تغمكم ، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم ، فمن سأل عن الحج هل يأمن أن يقول له : نعم يجب في كل سنة فلا يطيقه الناس (عفا الله عنها) أى عما سلف من الأسئلة (والله غفور حليم) لا يعاجل بالعقوبة (قد سألها) الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا (قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أى بسببها حيث لم يأتمروا بها ، وقوله (ماجعل الله من بحيرة) إلى قوله (وأكثرهم لايعقلون) تقدم تفسيرها في مقدمة السورة ، ثم قال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا) لقصور عقولهم (أ) حسبهم ماوجدوا عليه آباءهم (ولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون) تفسيره ظاهر .

الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الخ »

عن أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه قال : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم » ولا تضعونها موضعها ولا تدرون ماهي ؟ وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « إن الناس إذا رأوا ظالما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، وزاد أبو داود فيه « مامن قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون أن يغيروا ولا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب » قال ابن مسعود : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ماقبل منكم ، فإن ردّ عليكم فعليكم أنفسكم .

واعلم أن هذا لايصح إلا إذا كان من أمرناه بالمعروف أقوى منا ، فإن قدرنا على تأديبه بالقوة أدّبناه .

ثم قال إن القرآن نزل منه آى قد مضى تأويلهنّ قبل أن ينزلن ، ومنه آى وقع تأويلهنّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ، ومنه آى يقع تأويلهنّ في آخر الزمان ، ومنه آى يقع تأويلهنّ يوم القيامة ، وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر إلى آخر كلامه .

ويقصد بذلك أن القول إذا لم ينفع يترك ، وهذه لانرضاها ، فإن المسلمين قد اتكلوا على مثل هذه الشبهة

من أمثاله وهو من العظماء ، ومثل هذا القول يجب أن لا نأخذ به ، بل علينا الجهاد باللسان وبالقلم ، والتحيل فى توصيل الآراء إلى الناس كافة .

واعلم أن الأمة كلها كأنها نفس واحدة ، فإذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فقد نفعنا هذه النفس التى نحن نجزء منها .

وقد علمت فيما تقدم عند قوله تعالى « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » أن الأمة كلها فضلا عن الناس أجمعين يؤثر فيها جهل فرد واحد منها أو فقهه أو كسله ، فنفس واحد نقص للمجموع .

ويوافق هــذا القول مانقل عن عبد الله بن المبارك ، قال : هذه الآية أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لأن الله تعالى قال « عليكم أنفسكم » يعنى أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضا ويرغبه فى الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات ، والذى يؤكد ذلك أن معنى قوله « عليكم أنفسكم » أى احفظوا أنفسكم ، وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

يقول مؤلف الكتاب (التفسير) هذا هو القول الحق . وإياك أن تلتفت إلى قول فى أىّ مسألة من تفسير القرآن لا توافق الحقائق ، فما كل من قال أجاد ، وما ضل أكثر المسلمين إلا بالاتكال على أقوال بعض المتقدمين .

وهذا هو تفسير قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضلّ إذا اهتديتم) أى لايضركم ضلال من ضل إذا اهتديتم ، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر ، كما قال عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكرا واستطاع أن يغيره فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه » والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم (إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) انتهى المقصد التاسع .

الْمَقْصِدُ الْعَاشِرُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ۞ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ، وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞

قد تقدم تفسير هذا المقصد فى مقدمة السورة .

المقصد الحادى عشر

يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب * إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين * وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون . إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين * وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم * لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شىء قدير *

التفسير اللفظى

قوله (يوم يجمع الله الرسل) على حذف مضاف ، والتقدير احمعوا خبر يوم يجمع الله الرسل (فيقول ماذا أجبتم ؟) أى أىّ إجابة أجبتم (قالوا لاعلم لنا) بما كنت تعلم (إنك أنت علام الغيوب) فتعلم مانعلم مما أجابونا وأظهروا لنا ، وما لم نعلم مما أضمروا (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) بدل من « يوم يجمع » والمقصود أنه يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم ، وقوله (إذ) ظرف لنعمتى (أيدتك بروح القدس) قوّيتك بجبريل عليه السلام أو بالكلام الذى يحيا به الدين أو النفس حياة أبدية ويطهره من الآثام (تكلم الناسَ فى المهد وكهلا) أى كائنا فى المهد ، وكهلا : أى تكلمهم فى الطفولة والكهولة على حدّ سواء فى كمال العقل والتكلم (وإذ علمتك الكتاب) الكتابة وهى الخط (والحكمة) الفهم والاطلاع على أسرار العلوم (والتوراة والإنجيل) أى وعلمتك التوراة والإنجيل (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ) أى تجعل وتصوّر من الطين كصورة الطير فتنفخ (فيها) أى فى الطير لأنها تكون مؤنثة (فتكون طيرا بإذنى ، وتبرئ الأكمه) أى وتشفى الأكمه ، وهو الأعمى المطموس البصر ، والأبرص معلوم (وإذ تخرج الموتى بإذنى) من قبورهم أحياء (وإذ كففت بنى إسرائيل عنك) أى واذكر نعمتى عليك إذ كففت بنى إسرائيل الخ (إذ جئتهم بالبينات) بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات (فقال الذين كفروا منهم) استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا (إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الحواريين) ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم فهو وحى إلهام كما أوحى إلى أمّ موسى عليه السلام (أن آمنوا بى وبرسولى) أن هنا مفسرة (قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) تفسيره ظاهر ، واذكر (إذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة ؟) أى هل إذا سألته ينزل علينا مائدة ، المائدة الخوان الذى عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه طعام ، إنما يقال خوان أو طبق ، وأصلها من ماد يميد إذا تحرك كأنها تميد بما عليها من الطعام (قال) عيسى للحواريين (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى اتقوا الله ولا تسألوا ما لاينبغى أن يسأل عنه فى الإيمان بالأنبياء ، لأن المحسوسات لاتؤدى إلى العقائد وثبوتها كما حصل فى بنى إسرائيل إذ رأوا كثيرا من الآيات وكانوا بها يكفرون .

فهذه المائدة لاتفيدكم يقينا ، والمفيد لليقين إنما هو البحث والعلم والتنقيب . لأن عالم الحس لاسلطان له على القلوب إلا ظاهريا ، فإن كنتم مؤمنين ومصدّقين فلا تسألوها واتقوا الله (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا) بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال على كمال قدرة الله (ونعلم أن صدقتنا) فى ادّعاء النبوّة (ونكون عليها من الشاهدين) حتى إذا استشهدتنا فنشهد عن عيان لاسماع الخبر ، وفرق بين الخبر والمشاهدة (قال عيسى ابن مريم) لما رأى أنهم لايقلعون عنه (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا) العيد يوم السرور العائد (لأوّلنا وآخرنا) أى فنتخذ ذلك اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا نعظمه ونصلى فيه نحن ومن يجىء من بعدنا ، يقال إنها نزلت يوم الأحد ، وقيل تكون المائدة عيدا يأكل منها أوّل طائفتنا وآخرها (وآية) عطف على عيدا (منك) صفة لها (وارزقنا) المائدة (وأنت خير الرازقين) أى خير من يرزق ، لأنه يرزق ويعطى بلا عوض (قال الله إنى منزلها عليكم) إجابة لسؤالكم كما أجيب سؤال من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكن ذلك يكون على مقدار حالهم ومقتضى سؤالهم ، وإن كان ذلك لا يتفق مع مصلحتهم كما أعطى الغنىّ مالا والجاهل ضياعا وقرى (فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه) أى لا أعذب ذلك العذاب (أحدا من العالمين) لأنى أعذب العلماء أكثر من الجهلاء إذا فرطوا ، وأنتم على حسب أخلاقكم وقوتكم رأيتم أن المائدة مقنعة لكم دالة على حقية النبوّة ، وأنا لا أخلط

العالم المشاهد وأخرق نواميسه إلا لحكمة ، فإذا لم تتم الحكمة ولم تؤمنوا فاللوم عليكم ، وهل يكون العذاب معجلا فى الدنيا أم يؤجل للآخرة ؟ احتمالان عند العلماء : وهل نزلت المائدة ؟

قال الحسن ومجاهد : كلا ! لأنهم خافوا فلم تنزل ، فيكون معنى « إنى منزلها عليكم » إن سألتم بعد هذا الإنذار والتخويف ، وأكثر المفسرين على أنها نزلت .

وقال المفسرون أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم ؛ فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلنى من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة .

ثم قام فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل ، وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما ، وعند رأسها ملح ، وعند ذنبها خل ، وحولها من أنواع البقول ماخلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة : على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون : ياروح الله ، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ قال : ليس منهما ، ولكنه اخترعه الله بقدرته ، كلوا ماسألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله ، فقالوا : ياروح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال : ياسمكة احيى بإذن الله فاضطربت ، ثم قال لها : عودى كما كنت ، فعادت مشوية ، فقالوا : ياروح الله كن أول من يأكل منها ، فقال : أنا آكل منها ؟ يأكل منها من سألها ؛ فخافوا أن يأكلوا منها ، فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين ، فقال : كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء .

ويقال إنها بعد أن مكثت أربعين يوما يأكل منها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء وتبقى منصوبة حتى يفىء الفىء ، فإذا فاء الفىء طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم ، وكانت تنزل يوما ويوما لاتنزل ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتى ورزقى للفقراء دون الأغنياء ، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، وقالوا ترون المائدة تنزل حقا من السماء ، فأوحى الله إلى عيسى : أنى معذب من كفر على مخالفة ماشرطه عليهم .

وهناك كلام كثير فى مسخ أناس يعدون بالمئات ونحو ذلك ، وقد كتبت أهمّ ماجاء فى الروايات .

لطيفة فى تحقيق هذا المقام

لما وصلت إلى هذا المقام واطلعَ عليه أحد أهل العلم الذين لهم قدم صدق فى العلوم العصرية ، فقال :

(١) كيف يذكر فى القرآن مثل هذا ؟ (٢) وما مثل هذه الحكاية إلا كما نقرؤه فى [ألف ليلة وليلة ؟] من الذى يخترعه العقل البشرى شارحا النفس وجالبا للأنس

ثم بعد هذا مافائدة هذا القول لنا معاشر المسلمين ؟ وأى فائدة لنا فى أن عيسى طلب أن تنزل مائدة من السماء ؟

فقلت : إن القرآن ليس فيه شئ من ذلك ، بل ليس فيه أن المائدة نزلت بدليل اختلاف المفسرين كما رأيت ؛ فالقرآن لم يذكر تلك الحكايات ولم يعدنا ما جاء فيها ، بل جاء الأمر مطلقا ولم يقيده ولم يبين ما المائدة المطلوب نزولها من السماء ، فأما كونها كحكاية [ألف ليلة وليلة] فليس يضرنا فى شئ ، لأن القرآن لم يذكر هذه الحكاية ، قال هذا حق : ولكن القرآن نفسه نزل فيه «ربنا أنزل علينا مائدة من السماء» ونزول المائدة سواء أكان خبزا أم ملحا أم أفخر ما يأكله الملوك ، فذلك لايمنع غرابتها ، فأما طهى الطعام ونظام الأكل وبهجة المائدة فهذا ليس يفرح به إلا الجهلاء ، ولكننا لانفرق بين هذه الأمور ؛ فالمائدة هى المائدة ، فتصريح القرآن بذلك هو الذى يحتاج للبحث .

وكيف يعقل أن المائدة تنزل من السماء ، وإذا كان ذلك غير ممكن من الطبيعة البشرية فهو غير ممكن من الأنبياء ، فإنى قرأت لك ولغيرك أنه لولا أن الناس يرون رؤيا صادقة أو يسمعون بها ممن حولهم ماصدّقوا الأنبياء ؛ فبناء على هذا كيف نصدّق شيئا ليس فى قدرتنا الحصول عليه من أنفسنا ؟ فكيف يأتى أنبياؤنا بأشياء ليست فى فطرنا حتى تبرز على يد أحد من الناس ، فنأنس به ونقول : إنه ممكن فى الفطرة البشرية . والأنبياء بامتيازهم نبغوا فيه فصار معجزة لهم ، إن كل شئ أحتمله إلا هذه المائدة وتنقلها .

فقلت له : إن الإخبار بالغيب بسبب الرؤيا الصادقة كما قلت فى الفطر الإنسانية مع اختلاط الحق بالباطل فيه .

هكذا نرى أن فطرنا الإنسانية فيها مبدأ ماجاء فى القرآن على لسان المسيح ، قال : وكيف ذلك ؟

قلت : نحن فى هذا المقام نلجأ إلى عالم آخر ، قال : وما هو ؟ قلت : علم الأرواح ، قال : إن هذا العلم لا أصدقه ، قلت له : قل ماتشاء . ولكن قولك هذا يشاركك فيه سائر الجهلاء ، فإنى كنت فى البلاد القروية وأنا بالجامع الأزهر أسمع من الفلاحين هذا القول ، ويقولون عن أمورهذه الآخرة والجنة والنار وما أشبهها هذه أشياء أنتم كبرتموها لأجل وعظنا ، فهذا الإنكار لا فرق فيه بين المتعلم والجاهل الآن ، والذى يجب أن يكون هناك فرق بحيث يقول العالم : أنا لا أصدّق ولا أكذب حتى أقف على الحقيقة .

هذا هو العقل والحكمة ، فأما إنكار المتعلمين فإنما هو رياء ليظهروا أمام الناس أنهم فلاسفة ، والإنكار الآن هو الباب الأعظم لظهور الناس بمظهر العظماء والحكماء ، وهم فى أنفسهم ربما صدّقوا بأخس الأشياء .

فهذا الفريق من الناس ضرره عظيم ، بل يجب عليهم أن يتعلموا ، قال : أنا معك فى إظهار التوقف لا الإنكار ، قلت : إذن أنت تتوقف فى علم الأرواح ؟ قال نعم ، قلت : حسن ، وهل تظن أن أحدا منا يعرف جميع العلوم ؟ قال : كلا ! قلت : أفلسنا كل يوم نسمع كلام الأطباء فى الوباء والذرات الحية التى تفتك بأجسامنا ونحن لم نشاهدها ، وكذلك فى علم الفلك يقولون : هناك نجوم لاتقل عن مائتى مليون ، ونحن لانقول لهم كذبتم ، قال بلى ! قلت : فها هنا علماء الأرواح الذين ظهروا فى أوروبا ، وقد قدّمت الكلام عليهم فى سورة البقرة ؛ فتقرأ كلامهم وأنا معك ، إننا لانوقن به ولكنا نطلع عليه حتى نبحث فيه بأنفسنا فيما بعد ، ويكون ذلك الكلام معرضا للبحث منا لا أننا نقلدهم ، قال : هذا كلام حسن ، قلت : اقرأ مانقلته عنهم فى سورة البقرة ، فإن الجمعية الإنجليزية الرسمية الروحانية قررت هذا العلم وأنه صحيح ، وأنا أطلب أن يبحث المسلمون فيه فيما بعد ، قال : حسن ، قلت له : انظر ما نقلته فى كتاب [الأرواح] الذى ألفته ، وتأمل كيف جاء فيه أن للأرواح سلطة على المادّة الأصلية لاتدركونها بعد ، وبفعل إرادة الروح تستطيع أن تضم العناصر الأصلية بعضها إلى بعض وتصوغ منها شكلا على حسب ماتريد ، وفيه هناك أن الأرواح تقدر أن تصوغ أغذية وفواكه وأدوية ، وهذه الأدوية قد يبرأ بها العليل وتصيغ أطعمة .

وقد ضربت الأرواح مثلا لذلك لما سألوها ، فقالت: إن علم الكيمياء كل يوم يأتى لكم بالعجب العجاب وللأرواح آلات غير آلاتكم وهى الإرادة منهم وقدرة الله فوقهم ، وقالوا : إن الروح كلما كان أرقى كان أقدر على الصنعة فى المادّة ، وكلما كان أدنى كان أعجز .

وهذا ملخص مما نقل عن المعلم (ألان كاردك) وروى العلامة (وللاس) الإنجليزى أن الآنسة نيثول أحضرت زهورا وفواكه داخل غرفة محكمة الغلق وكانت فى منزلى ، فبعد أن تناولنا الشاى لأننا كنا فى فصل الشتاء دخلنا حجرة صغيرة مغلقة بإحكام ، وما مكثنا برهة من الزمان حتى لاح على المائدة التى جلسنا حولها كمية وافرة من الزهور منها شقائق النعمان والخزامى والأقحوان الأصفر وخلافها من الزهور الربيعية ،

وكل

وكل أوراقها غضة مكللة بالندى الرطب ، قال فبعثها كلها وحفظتها باعتناء بعد أن علقت عليها شهادة ممضاة من الحضور .

ثم قال : ومثل هذا الحادث تكرر مرارا فى ظروف مختلفة فى مئات المرار ، وفى بعض الأوقات يكون مع الزهور ثمار يطلبها الحضور .

وفى بعض الجلسات طلب بعض الحضور إحضار دوار الشمس ، فنى زمن قليل انحطت على المائدة هذه الزهرة وعلوّها ستة أقدام وجرثومتها مسكوّة بكومة من التراب ..

أنا لا أطيل فى نقل هذا فهو فى كتاب الأرواح الذى ألفته فى ذلك نقلا عن علماء أوروبا .

ثم إن (وللاس) هذا قرين دوارين الإنجليزى صاحب المذهب المشهور ، وكان معتقدا لمذهبه كما يعتقد علم الأرواح ، ويرى هذه الزهور والفواكه فى منزله ، ولو كان فى بلادنا المصرية هيئات علمية منظمة لدوّنت ماجاء على يد رجل من بلاد الصعيد فقد شاهدت مئات من القضاة والمحامين والعلماء والمديرين ماجاء على يديه من فاكهة ومآكل ونقود وغرائب لايعدّ بجانبها ماذكره الأوروبيون شيئا وقد مات فى أوائل هذا القرن ، فقال صاحبى : أنا أنظر لهذا نظر من يريد أن يبحث بعد ، فقلت له : إذن على مقتضى هذا تكون أرواحنا فى قدرتها ــ بإذن الله ــ متى طارت من البدن أن تكون فعالة فى المادّة قادرة على أفعال فيها على حسب طاقتها بإذن الله ، قال : ممكن، قلت : والدليل على اقتراب هذا من الصحة أن النفوس البشرية يسرها جدّا الروايات والخرافات التى فيها تطلق النفس من الحبس وتسبح فى سماء الخيال غير مراعية قانون الأجساد التى حكمت عليها بالحبس فى هذه الأرض ، فإنك تجد العامّة والجهلاء الذين هم أقرب إلى الفطرة إذا سمعوا الأشياء التى لايكون لها نظير عندهم ، بل بطريق الخيال والوهم يفرحون بها فرحا ويصدّقون بها طربا .

ولعمرى كيف يفرح الإنسان بما ليس من طبعه ، وكما لايفرح الإنسان بأكل المرّ والحريف الشديد ، والحار القوى والبارد الشديد ، هكذا لايفرح بما ينافى طبعه ؛ فالعامّة والجهلاء والأطفال يفرحون بالأحاديث التى لا تسير على النواميس المعروفة فى الأرض لأن أرواحهم مستعدّة لذلك بعد خلاصها من هذا الجسد .

فإذا جاء المسيح وطلب مائدة من السماء سواء أنزلت كما يقوله أكثر المفسرين ، أم لم تنزل كما قاله أقلهم فنزولها معجزة له ، ولو نزلت على يد ساحر أو منوّم مغناطيسى لم تعتبر معجزة كما نص عليه العلماء أن خوارق العادات لاتكون معجزات إلا إذا قرنت بدعوى النبوّة ، وكانت حال صاحبها تدل على ذلك .

قال : إذا سلمت لك ماذكرته وإنما ننظر فى أقوال هؤلاء العلماء نظر الباحثين ، وهب أننا بحثنا فوجدنا هذه الأشياء لها وجود ، وأن الأرواح هى كما تقول ، فما علاقة المسيح بعلم الأرواح ؟ قلت : إن المسيح إنسان وله روح بل هو الذى أطلق عليه أنه مؤيد بروح القدس ، ولم يقل هذا القول لى ولا لك ، قال نعم ! قلت : فهل هناك مايمنع أن روحه الكبيرة تعطى قوّة أن تفعل فعل الروح التى فارقت الجسد لشدّة علوّها وقوّتها وسلطانها على الجسد ؟ قال : ليس هناك مانع والكلام الآن مقبول .

ثم قال : إذا صح هذا فلم حذر الله من نزول المائدة ؟ قلت نعم ! إنك إن قرأت علم الأرواح تجد فيه أنها لما سئلت أجابت أن الله لايرضى بخلط العالم الروحى بالجسمى ، وليس يحصل هذا العمل إلا نادرا جدا لأغراض خاصة ، فإن أهل الأرض لابدّ أن يعيشوا على النمط المعروف ، لا أنهم يأكلون وهم نائمون ، بل إنهم خلقوا ليجدّوا وينصبوا ويتعبوا ، ولو أن الطعام أعطى لهم بلا عمل لكان ذلك عليهم وبالا ولضاع المقصود من وجودهم ولماتوا وهم لم يزيدوا ارتقاء ورقيا .

قال : ولكن أليس ذلك يكون برهانا ؟ قلت : البراهين الحسية لاتفيد العقول البشرية إلا قليلا .

ألا ترى أن بنى إسرائيل لما رأوا العصا تلقف الحيات آمنوا ، ولما رأوا عجل السامرى كفروا ؟ قال بلى ! قلت : وأما سحرة فرعون فإنهم لما رأوا أن موسى عليه السلام جاء على يديه ماهو فوق طاقتهم آمنوا وصبروا وماتوا صرعى الحقيقة وهم فرحون .

فهذه المائدة لاتفيد ماديا ولا معنويا ، قال : وما فائدتها لنا نحن المسلمين ؟ قلت : من فوائدها أننا حركنا الهمم لعلوم سوف تدخل فى الأمة الإسلامية بعد انتشار هذا التفسير وهى علوم الأرواح ، ومتى انتشرت يحصل هناك شكوك وأوهام وأكاذيب ، فيظهر حينئذ حكماء وعلماء يزيدون الناس علما ، وكلما حصل الأخذ والرد زاد الناس علما وارتقى النوع الإنسانى وكان المسلمون أعظم ارتقاء ، فإن الشكوك والأوهام مفاتيح للمعارف ؛ فأما العقول الخامدة التى لم تحركها الشكوك والمشوقات فإنها أسرع إلى الفناء وأقرب إلى الهلاك .

ومن فوائدها أننا لانعول إلا على المعقولات ولا نجعل علومنا كعلوم العامة الذين لايحققون الأمور . فكأن هذه القصة تحث المسلمين أن يكونوا مفكرين لما علمت فى عصا موسى وسحرة فرعون ، وأن العلم يورث اليقين ، فأما هذه المعجزات الظاهرة فإنها لاتفيد إلا العامة والجهلاء وقتاما ، ألم تر إلى قول الله تعالى « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » وقوله « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فالمعول فى شريعتنا الغراء على التعقل والتفكر .

وهذه القصة قد وردت هنا للرد على أولئك الذين ألحفوا فى المسألة ، فقال لهم الله « يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » فأورد هذه القصة ، لأنه كان من جملة أسئلتهم أنه يأتى لهم بآية ، فقال لهم هذه ليريهم أن ذلك يصبح امتحانا من الله .

قال صاحبى : والله لقد أشبعت هذا القول فى هذا المقام ، وأنا واثق أن السير فى التفسير على هذا المنوال يكون معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وإلا فكيف نرى أن تكون قصة المائدة لحكمة علمية وآية إلهية وفكرة قدسية وعجائب ربانية ، فبذلك فليفرح المفكرون ، وفيه فليتنافس المتنافسون .

ثم قال : لقد قال علماء الصوفية إن المائدة ههنا عبارة عن الحقائق والمعارف فإنها غذاء الروح ، كما أن الأطعمة غذاء البدن ، قالوا : فلعلهم رغبوا فى حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها ؟ فقال عيسى عليه السلام : إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع على الحقائق ، فلم يقلعوا عن السؤال فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله تعالى أن الإنزال سهل ولكن فيه خطر ، فإن السالك إذا كشف له ماهو فوق مقامه لايحتمله ولا يستقر له فيضل ضلالا بعيدا ، قلت له : هذا مقبول ولا فرق بين عالم الأرواح وعالم الأجساد كلاهما إذا أعطيناه فى الدنيا بلا استحقاق كان خطرا علينا ، وكم من مريد سالك فتح عليه باب من أبواب الكشف فكان ذلك وبالا عليه فألهاه عن الارتقاء ، وما مثل أهل الكشف إلا كمثل أهل المال كلاهما أعطى قوة ، فإذا ظن المكشوف له أنه فى مأمن من غارات الامتحانات فهو مخدوع مغرور .

فالله يمتحن أرباب القوة وأرباب المال وأرباب العلم وأرباب الجمال وأرباب الكشف ، وكم عند الله من درجات ، وكم من مفتوح عليه أصبح بهذا الفتوح شيطانا رجيما .

فقول الصوفية حق ، ولا فرق بين الحسيات والمعنويات فى هذا المقام ؛ فليخبر المكشوف له بالغيب وليقل مايشاء . فليس هذا كل شئ ، وما ذلك إلا من القوى التى أودعها الله فينا وخبأها إلى أمد معلوم حتى تظهر بعد حفظها لنا . فأما إذا أسرفنا فيها فإن ذلك يكون كالإسراف فى المال ، ولنقف بالأدب مع الله والله هو الولى الحميد ، انتهى الكلام على مائدة عيسى عليه السلام .

إذن

إذن فلنرجع إلى تفسير آخر السورة ، فنقول (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ، لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير) .

هذه صورة خطاب الله عز وجل وجواب المسيح عليه السلام له يوم القيامة حين يجمع الرسل ويسألهم عن أممهم فيقولون : لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب ، فيكون العلم لله عز وجل .

ولقد قال فى الآية السابقة « ماعلى الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » وقد بين لكم الرسول مناسككم وعباداتكم وأخلاقكم ، فعليه البلاغ، وعلينا الحساب .

فيسأل عيسى عليه السلام قائلا « ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » أى متوصلين بنا إلى عبادة الله عز وجل ، فإن مريم والمسيح فى العبادة أنقص مرتبة من رتبة الله عز وجل ، وعبادتهما توصل لعبادته عندهم .

هذا معنى ماقاله البيضاوى رحمه الله ، فأجابه المسيح عليه السلام أحسن إجابة بأربع جمل :

الجملة الأولى : دالة على آدابه وأخلاقه الفاضلة وشمائله وسجاياه ، وهى هل يتسنى لى الكذب أو يليق بى وأنا عبدك ونبيك أن أتطاول لمقامك وأدعى الألوهية ؟ وهل يسامى العبد سيده ؟ والمربوب الرب ؟ والمخلوق الخالق ؟ وإذا قبح الكذب على الناس فأقبح به على رب الأرباب ، والعالم بما فى الألباب ، فهذا بعض معنى قوله تعالى « مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق » .

الجملة الثانية : الاستشهاد بعلمه والاحتجاج باطلاع الرب العليم على مانطق به المسيح ، فقال « إن كنت قلته فقد علمته » .

الجملة الثالثة : تقرير الثانية وإثبات لها واعتراف بالقصور فى العلم ، فقال « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك » .

وأكدها بالرابعة فقال « إنك أنت علام الغيوب » فى السموات والأرض وما بينهما .

ثم أخذ يشرح ماقاله بأقصر عبارة ، فقال « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به » وهو عبادة الله ربى وربكم ؛ ثم شرح المراقبة منه وهو حىّ ، فقال « وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم » أى رقيبا أمنعهم من ذلك القول أو كنت مشاهدا لأحوالهم من كفر وإيمان « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته بما تنزل عليه من الآيات ، وما تنصب له من الدلالات وما تبعث من رسلك بالكتب والآيات « وأنت على كل شئ شهيد » مراقب له مطلع عليه « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » فالصادقون فى الدنيا فى العلم والعبادة يتبين صدقهم يوم القيامة ، ويجازون عليه « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ، لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير » هذا ظاهر واضح .

تأمل هذه المحاورة التى قصها الله عز وجل مما سيكون فى يوم القيامة بينه وبين سيدنا عيسى عليه السلام، وتأمل كيف يقول إنى راقبتهم فى الدنيا وأنت إذ توفيتنى ، والتوفى أخذ الشئ وافيا ، فالموت توفٍّ ، والرفع إلى السماء توفٍّ ، والمراد هنا الرفع فقط « كنت أنت الرقيب عليهم » .

وارجع إن شئت المزيد إلى إنجيل برنابا ، فقد شرح حال النصارى فى حياة المسيح عليه السلام وكيف كانوا يعبدونه ، وكيف كان يتبرأ منهم ، وكيف رفع الأمر لقيصر الروم ليصدّ الناس عن عبادته ، وكيف كان يبكى ويقول مامعناه : (ستظلم الأرض بعدى) وكيف استغاث ورفع صوته صارخا ، وقال : ياأخى ياسيا ، وكيف سأله برنابا من مسيا ؟ وكيف أجابه بقوله : محمد حبيبى رسول الله .

فمن أراد استيفاء هذه المعانى كلها فليقرأ إنجيل برنابا المذكور الذى كان سرا مكتوما عند بابا رومة بلاد إيطاليا من أيام سيدنا المسيح إلى أن أظهره عظيم من عظماء الإنجليز وأسلم ، وأسلم كثير من الناس معه .

وياحسرة على المسلمين الغافلين . فإن هذا الإنجيل لم ينتشر بيننا إلا قريبا ، وقد طبع فى [مجلة المنار] فليعلم المسلمون هذا الإنجيل وليقرءوه وليعلموا غرائب القرآن وبدائعه .

ولن يفهمك هـذه الآية حق فهمها إلا الاطلاع على ذلك الإنجيل فإنه أقرب إلى التنزيل ، وقد تقدّم فى سورتى : البقرة ، وآل عمران من هذا الإنجيل مقتطفات شتى .

لطائف : اللطيفة الأولى

اعلم أن الله عز وجل فى هذا المقام برّأ المسيح عليه السلام من كل ما ألصقه به النصارى من الألوهية ، ذلك أنهم لما رأوا صفات عالية وأخلاقا سامية وشمائل غالية قدّسوه تقديسا وعظموه ورفعوه إلى مقام الألوهية ؛ ذلك لما فى طباع البشر من الضعف وقصور النظر .

وما مثلهم فى ذلك إلا كمثل من يعشق رسول حبيبه جهالة وغباوة .

هكذا ترى الناس فى الإسلام وفى الديانات الأخرى إذا شاهدوا ذا صفات حميدة جميلة دينية أغرموا به ونسوا دينهم الذى ما أحبوا هذا الصالح إلا لأجله ، ذلك الجهل مشاهد فى أمتنا الإسلامية ، ترى كثيرا من تلاميذ رجال الطرق يجعلون شيوخهم فوق كل شىء ويجعلون الحب خالصا لهم ، مع أن الحب يجب أن يكون لله عز وجل خاصة .

وإذا تغنى أولئك الجهلة بكرامات أولئك الشيوخ فهم لايصلون فى كراماتهم إلى مقام المسيح الذى خلق الله على يديه طيرا من الطين ونفخ فيه وكان طيرا بإذن الله .

فإذا كان المسيح عليه السلام مع هذه المزايا يقول « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به الخ » ويتبرأ مما نسبوه إليه ، فكيف يكون هؤلاء الشيوخ .

إن الله عز وجل ذكر هنا أنه أكرم المسيح بمزايا منها خلق الطير ، ثم أتبع ذلك كما سأوضحه فى أوّل سورة الأنعام إن شاء الله بأنه خلقنا معاشر بنى آدم من طين ، كأنه يقول : ثكلتك أمك أيها الإنسان ، أتغرم بالمسيح لأنى خلقت الطير على يديه ؟ ولا تغرم بى أنا ، وأنا خلقتك أنت من الطين ؟ فإذن أنا خلقت من الطين من هو أفضل من الطير وهو أنت ، فكيف تنسانى وتذكره أو تعبده ؟

هكذا أيها المسلم الجاهل كيف تنسانى بشيخك ولو كان وليا وهو لم يعط ما أعطى المسيح ؟ وكيف تكون أقصر نظرا من النصارى جاوزوا الحدّ فى حب المسيح ، وأنت أيها المسلم ربما نسيت نبيك وربك بشيخك .

اقرأ ما فى السموات وما فى الأرض ، فذلك هو المطلوب منك ، تلك آثارى ، ومن أحب أحدا درس آثاره ونطق بأخباره ، فما معجزات الأنبياء ولا كرامات الأولياء فى جانب مخلوقاتى وبدائع صنعى وغرائب حكمتى إلا كما يأخذه منقار الطائر إذا شرب من البحر .

إن

إن العامة من المسلمين ومن المسيحيين لغفلتهم لايرفعون نظرهم إلى عجائب ربهم التى أشار إليها هنا فى آخر السورة ، فقال « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير » وابتدأ سورة الأنعام بذكر أن « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » إذن فما خلق الطير على يدى المسيح وما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء .

أيها الناس لايصدنكم أفضل المخلوقات عن النظر فى عجائب خالقكم القدير .

هذا ، ويناسب هذا المقام ماجاء فى إنجيل برنابا (من صفحة ١٧٨ وما بعدها) .

قال المسيح عليه السلام :

حكاية إيليا (إلياس)

حدث فى زمن النبى إيليا أن إيليا رأى رجلا ضريرا حسن السيرة يبكى ، فسأله قائلا : لماذا تبكى أيها الأخ ؟ أجاب الضرير : أبكى لأنى لا أقدر أن أبصر إيلياء النبى قدوس الله ، فوبخه إيلياء قائلا : كف عن البكاء أيها الرجل لأنك ببكائك تخطىء ، أجاب الضرير : ألا قل لى أرؤية نبى الله الذى يقيم الموتى وينزل نارا من السماء خطيئة ؟ أجاب إيليا : إنك لاتقول الصدق ، لأن إيليا لايقدر أن يأتى شيئا مما قلت على الإطلاق فإنه رجل نظيرك ، لأن أهل العالم بأسرهم لايقدرون أن يخلقوا ذبابة واحدة ، فقال الضرير : إنك تقول هذا أيها الرجل لأنه لابد أن يكون قد وبخك إيليا على بعض خطاياك فلذلك تكرهه ، أجاب إيليا عسى أن تكون قد نطقت بالحق لأنى لو أبغضت إيليا أيها الأخ لأحببت الله ، وكلما زدت بغضا لإيليا زدت حبا فى الله ، فاغتاظ الضرير لذلك غيظا شديدا وقال : لعمرالله إنك لفاجر ، أيمكن لأحد أن يحب الله وهو يكره نبى الله ؟ انصرف من هنا لأنى لست بمصغ إليك فيما بعد ، أجاب إيليا : أيها الأخ إنك لترى الآن بعقلك شدة شر البصر الجسدى لأنك تمنى بصرا لتبصر إيليا وأنت تبغض إيليا بنفسك ، فأجاب الضرير : ألا فانصرف لأنك أنت الشيطان الذى يريد أن يجعلنى أخطئ إلى قدوس الله ، فتنهد حينئذ إيليا وقال بدموع : إنك لقد قلت الصدق أيها الأخ لأن جسدى الذى تود أن تراه يفصلنى عن الله ، فقال الضرير : إنى لا أود أن أراك بل لو كان لى عينان لأغمضتهما لكى لا أراك . حينئذ قال إيليا : اعلم أيها الأخ أنى أنا إيليا ، أجاب الضرير : إنك لاتقول الصدق ، حينئذ قال تلاميذ إيليا : أيها الأخ إنه إيليا نبى الله بعينه ، فقال الضرير : إذا كان النبى فليقل لى من أى ذرية أنا وكيف صرت ضريرا ؟ أجاب إيليا : إنك من سبط لاوى ولأنك نظرت وأنت داخل هيكل الله إلى امرأة بشهوة على مقربة من القدس أزال إلهنا بصرك ، فقال حينئذ الضرير باكيا : اغفر لى يانبى الله الطاهر ، لأنى قد أخطأت إليك فى الكلام وإنى لو أبصرتك لما كنت أخطأت ، فأجاب إيليا ليغفر لك إلهنا أيها الأخ ، لأنى أعلم أنك فيما يختصنى قد قلت الصدق ، لأنى كلما ازددت بغضا لنفسى ازددت محبة لله ، ولو رأيتنى لخمدت رغبتك التى ليست مرضية لله ، لأن إيليا ليس هو خالقك بل الله ، ثم قال إيليا باكيا : إنى أنا الشيطان فيما يختص بك لأنى أحولك عن خالقك ، فابك إذن أيها الأخ إذ لم يكن لك نور يريك الحق من الباطل لأنه لو كان لك ذلك لما احتقرت تعليمى ، لذلك أقول لك : إن كثيرين يتمنون أن يرونى ويأتون من بعيد ليرونى وهم يحتقرون كلامى ، لذلك كان خيرا لهم لخلاصهم أن لايكون لهم عيون لأن كل من يجد لذة فى المخلوق أيا كان ولا يطلب أن يجد لذة فى الله فقد صنع صنما فى قلبه وترك الله ، ثم قال يسوع متنهدا : أفهمتم كل ماقاله إيليا ؟ أجاب التلاميذ : حقا لقد فهمنا وإننا لحيارى من العلم بأنه لايوجد على الأرض إلا قليلون من الذين لايعبدون الأصنام ، انتهت اللطيفة الأولى .

لعدوه. وانتحلوا قولا ما أنزل الله به من سلطان ، وكيف اختلقوا الأسباب وجعلوا ذم العمرين أجرا لنصره ؟

أفلا يبرأ رسول الله من أولئك الجاهلين ويكل أمرهم إلى الله يوم الدين « يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

(س) لقد أطلت فى سؤالك وإنى خفت أن أكون أثقلت كاهلك وحملتك فوق طاقتك ، ولكن المقام يحتاج لشرح فزدنى من هذه الأخبار فما أشبه هؤلاء بالكفار .

(ج) ليس يحضرنى من الفرق الضالة الآن إلا فرقة اسمها « الكيسانية » وإمامهم المختار بن أبى عبيد الثقفى دعا الناس إلى إمامة محمد ابن الحنفية واستولى على عرش الكوفة ، وقد قتل من رجال الكوفة كل من قاتلوا سيدنا الحسين رضى الله عنه .

ومن العجيب أن هـــذا الرجل يدعو الناس لإمامة محمد ابن الحنفية ، وعلك الكوفة والجزيرة وبلاد أرمينية .

ثم يضله قومه ويغره شياطين الإنس فيقولون له : أنت حجة هذا الزمان ! فيدعى النبوة ويزعم أنه يوحى إليه وصار يسجع كما تسجع الكهان ، ومن خطبه ما يأتى :

الحمد لله الذى جعلنى بصيرا ، ونوّر قلبى تنويرا ، والله لأحرقن بالمصر دورا ، ولأنبشن بها قبورا ، ولأشفين منها صدوراً الخ .

ألا تعجب كيف كانت هذه المصائب منصبة على أمتنا الإسلامية ؟ وكيف يضل هذا الكافر الناس ولا يخاف الله رب العالمين ؟.

ولما أن سمع محمد ابن الحنفية بهذا خاف من جهة الفتنة فى الدين ، فأراد القدوم إليه بالعراق ليصير إلى الذين اعتقدوا إمامته التى دعا لها المختار .

فلما سمع المختار ذلك خاف من قدومه العراق وذهاب رياسته وولايته فقال لجنده : أنا على بيعة المهدى ، ولكن للمهدى علامة : وهو أن يضرب بالسيف ضربة ، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدى ، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية فأقام بمكة خوفا من أن يقتله المختار بالكوفة .

أليس أمثال هذا أحق ببراءة الرسول ؟ ومثلهم فى الإسلام كمثل الذين ذكرهم الله فى سورة المائدة من الفرق الضالة .

(س) لعله آن الأوان أن تطلعنى على آثار تلك الضلالات اليوم .

(ج) إن المسلمين اليوم تفرقوا فرقاً وذاق بعضهم بأس بعض بالبدع المنكرة التى قذفت فى قلوبهم والأقاويل التى خيمت بظلامها على عقولهم ، وباضت طيورها فى أعشاش أدمغتهم وأخرجت فراخ الجهل المخجل .

ألا ترى كيف فعل المهدى بالسودان وتبعه الخليفة التعايشى ؟ وكيف أفتى بحل نساء المصريين وبناتهم إلى أوغادهم بلا عقد يعقدونه ولا كتاب ولا سنة ؟ مدعيا أن من لم يؤمن ببيعته فهو من الكفرة الفجار والجهلة الأشرار .

ولئن سألته بماذا استحللت الحرام واستعبدت الأنام وفعلت الآثام ؟ قال لك : ذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل والخضر الجليل .

أوليس

أو ليس المهدى السودانى أشبه بالمختار بن عبيد فى دعوته ؟ بلى المهدى توغل فى الضلالة فدعا لنفسه وافترى إثما على ربه .

والتعايشى المجهول كان وارث دعوته والقائم بملكه حتى طاحت البلاد ونعب بها الغراب وذهبت الآمال وضاعت الأموال وقطعت الرءوس وزهقت النفوس ، واستحال الدرهم والدينار إلى فلوس ، وكان ماكان من استئصال القبائل وصار الرجال هناك قلائل ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

لولا البدع المنكرة ما تناكر الفارسى والتركى ، ولاتقاطع المراكشى والأفغانى ، ولاتدابر العربى والتركى.

لقد قال العلامة (دوارد براون) الإنجليزى لقد قدمت تقريرا ضافيا عن حال المسلمين من فرس وترك وشيعة وسنيين ، أيتحدون أم يبقون مختلفين ؟ فكتبت : ألا طمع فى اجتماعهم ولا محيص من تفرقهم إذ يقولون سنيون وشيعيون ، ولله فى خلقه شؤون .

هذا ، ولقد قرأت بعض ما كتبه السائحون الفرنسيون بمراكش وكيف يملكون البلاد بلا ضرب ولا جلاد فاتفقت كلمتهم وأجمع رأيهم على أن المسلمين لايخضعهم إلا استمالة شيوخ الصوفية وإرضاء أمرائهم .

فمتى أخذ شيوخهم باللين والشدة والوعد والوعيد وأغدقت عليهم النعم كما يهدّدون بالنقم لانت شرّتهم وأمكن أن تسام الأمة الخسف ، فإنهم فى لجة الجهل غارقون وفى عذاب جهنم الضلال تائهون ، فكان ماكان من توالى الآلام على بلاد الإسلام ، فلولا الجهالة ما هلك المسلمون .

وبلغنا أن الكتانى هناك من كبار الصالحين آذاه الفرنسيون كثيرا لأنه يحافظ على بلاده .

(س) دع ذكر الأمم والممالك واذكر حكاية صغيرة يعرفها الفلاحون ويفهمها المزارعون الذين يعقلون

(ج) نعم !

[المسألة الأولى] قابلنى منذ ٢٠ سنة مزارع صغيرمن قريتنا (كفر عوض الله حجازى) . فقال: ماذا ترى فى أمرنا ؟ فقلت : ماذا ؟ فقال : امرأتى فى حاجة إلى ثوب تلبسه ولست أملك إلا عنزا تساوى ٤٠ قرشا ، وقد قام الناس إلى مولد سيدى أبى مسلم الكبير ، فإن أرضيت أبامسلم أعريت زوجتى ، وإن كسوتها أغضبت أبا مسلم رضى الله عنه . فقلت : أأنا أكرم أم أبو مسلم ؟ قال أبو مسلم : قلت : فإذا تصدقت علىّ الآن فهل ترانى أقبل منك ؟ قال : كلا ! قلت : إذن أبو مسلم وهو أكرم منى غنى عن صدقتك ، وتفكر فى الأمر من وجه آخر :

إذا كان أبو مسلم حيا وألقيت له هذه المسألة ، أفتراه مع غناه وفقرك يقبل عطاءك أم يعطيك ؟ قال : بل يعطينى ! قلت : فهل أبومسلم الكريم بعد أن لقى مولاه وتنعم بالحور والولدان وحظى بلقاء النبى صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه نزلت درجته وترك الله وجماله والحور والولدان والنبى والإخوان ثم بحث عن الفلاحين المساكين الذين لايجدون ما ينفقون ؟ فقال : هذا كلام حق ، ولكن أخاف أن يقتل أولادى ويخرب دارى ولكن (من قلد عالما لقى الله سالما) وقد وضعتها فى رقبتك وسأكسو زوجتى إن شاء الله بثمن العنز . قلت : إذن اهتديت . فإن سوّلت لك نفسك الخوف وقذف الشيطان فى قلبك الرعب ؟ فقل لأبى مسلم إن فلانا هو الذى أغرانى وكسوت زوجتى بثمن عنزى .

[المسألة الثانية] قال لى عمى الشيخ محمد شلبى رحمه الله تعالى : هل لك أن أريك عجيبة ؟ قلت: نعم ! قال : يا أباحمودة . قال : نعم ! قال له : احلف إنك ما سرقت من حديقتنا العنب . قال له : بماذا أحلف ؟ قال : بالله ! فحلف . فقال : احلف بأبى مسلم . قال : لا ! فقال : لماذا ؟ فقال : إن الله واسع رحيم وأبو مسلم ضيق الصدر فأخاف أن يبطش بى ويقتل أولادى .

[المسألة الثالثة] قابلني هذا العام أحد أهل العلم بقريتنا . فقال : أقصّ عليك قصص مع زوجي .
فقلت : نعم ! قال : زرت أنا وهي أمس ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فطلبت منى ريالا كنت نذرته فأبيت أن أعطيها ، ولجت فى طلبها ولججت فى منعى ، فلما أن خيم الظلام وضرب النوم الخيام وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان ، جاءتنى السيدة رضى الله عنها وأرضاها وأخذت تعدو ورائى عدوا حثيثاً وتقول : أيها الملعون كيف تظن أنى لا بركة فىّ فلا تدفع الريال إلىّ ، ووالله لأعذبنك حتى تصدّق بكرامتى وتخضع لسطوتى ؟
قال : وما زالت تطاردنى حتى انفلق عمود الصباح وقال المنادى : حى على الفلاح .

قال هذا وكان أربعة رجال حاضرين من متعلمى قريتنا والأميين . فقلت : يا فلان ! أيهما أقرب إلى دار الكرامة وأبعد عن دار اللؤم والقبح ؟ ومن الذى صار أقرب معرفة بربه وأبعد عن مقارفة ذنبه ؟ أنحن الأحياء أم أولئك الذين صاروا فى جوار مولاهم؟ فقال : بل أولئك الذين فى جوار مولاهم . فقلت : إذن السيدة رضى الله عنها صارت عارفة بربها الآن أكثر من الأحياء . قال : نعم ! قلت : لو أن رجلا جاءنى وأبلغنى أن رجلا عظيما أخذ يلتنى ويضرب بكلامى عرض الحائط ويقول أنا لا أعبأ بآرائه ولا أصدق مايقول. لو أنى بلغت هذا لكبرت نفسى أن تهتم بمقاله أو تعير أذنا لكلامه ، وأنا أمامك على ما ترى فى الدنيا دار اللؤم والجهل ، فكيف بمن شرف قدرها وعظم سرها وعلا نسبها وقربت من ربها ، فهل تنزل عن مقامها الرفيع فى جنة الفردوس مع الذين أنعم الله عليهم وتجرى وراءك تقول صدّق بكرامتى ؟ ومن أنت حتى تبحث عنك سيدة أكثر المؤمنات .

وكيف يظن الفلاح المسكين أن السيد البدوى رضى الله عنه والرفاعى والدسوقى يتنزلون من سماء عظمتهم ويهرولون وراءه فى الغيطان ليلتقطوا منهم دراهم أوليفرحوا بالتفافهم حول أضرحتهم فى الموالد المعروفة.

فلما سمع الحاضرون مقالى أثنوا عليه وقالوا : والله إنا لفى ضلال مبين . وكيف يتجاوز ساداتنا الأولياء أغنياء التجار والعظماء وناظر النظار والوزراء والمأمورين وأصحاب القصور الشاهقة « والخيل المسومة والأنعام والحرث » ثم يجرون وراء من لايملك قوت يومه وليس عنده من نقير ولا قطمير .

(س) إذن النبى صلى الله عليه وسلم سيتبرأ من هذه الأعمال يوم القيامة ويقول « لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب » وهو برىء من كل ما سطرته يد الجهل فى أدمغة الجاهلين الذين يقولون : إن الأولياء يغضب بعضهم من بعض ويكره بعضهم بعضا ، ويظلمهم الناس فى ذلك وهم برآء مما يقوله الجاهلون .

وعلى ذلك ضل الناس فى مسألة الزار، إذ يقولون : إن الشيوخ حضروا أو غابوا كما ضلوا بأعمال المغاربة الدجالين والجهلة النصابين .

(ج) اللهم إنا نبرأ إليك من الكتمان ونقول نحن نصحنا للأمة وكلنا الخاصة كما أوضحنا للعامة ، فمن عقل فاز ، ومن جهل فإنه من حزب الشيطان « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

(س) فما الدواء لهذا الداء وماذا يصنع المسلمون ؟

(ج) الرجوع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(س) هذا كلام عام وما ابتدع مبتدع إلا وقال : إنى أتبع الكتاب وادعى أنه على منهج السنة فالتنا بقول فصل .

(ج) يجب على المسلمين فى أقطار الأرض أن يعمموا التعليم وينظروا فيما خلق الله عز وجل من العوالم العجيبة ، ويتفكروا ويتأملوا وينتفعوا بما أودع فى هذا العالم من الصنائع المحكمة والعجائب المبدعة اهـ .

خاتمة السورة

معجزات القرآن فى آخر الزمان

هل لك أيها الذكى أن أحدثك عن هذه الآيات وعجائبها ؟ وكيف يقول الله لعيسى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) وكيف يجمع الله الرسل ويسأل عيسى ابن مريم خاصة فيبرأ عيسى بما نحل النصارى . الله أكبر ظهر السر فى هذا العصر وتبين أن الأناجيل منقولة عن كتب الهند ، فمنها ما نقل عن كتب كرشنة والخرافات الشائعة حوله . ومنها ما نقل عن كتب (بوذا) إن هذا لعجب عجاب . إن هذا التفسير حظه عظيم ، فقد جاء فى زمن انكشاف الحقائق .

ألا ترى إلى ما جاء فى كتاب «العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية » وكيف كانت الحقائق التى فيه منقولة عن ثمانية وأربعين كتابا مؤلفا باللغات الأفرنجية مثل كتاب « ألن الهند » ومثل كتاب « أمبرلى تحليل الإيمان » ومثل كتاب « الأديان القديمة » الخ . فهل لك أن أطلعك ناقلا من الكتاب على أن الأناجيل منقولة خرافاتها بالحرف من خرافات الهنود مصداقا لهذه الآيات إذ تبرأ المسيح من أكاذيبهم ، وبقى علينا أن نبين مصادر تلك الأكاذيب .

جاء فى هذا الكتاب ما نصه :

مقابلة النص الصريح بين كرشنة ويسوع المسيح

وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن كرشنة بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح

أقوال الهنود الوثنيين فى كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى يسوع المسيح ابن الله
كرشنة هو (المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس) .	يسوع المسيح هو (المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس)
١ ولد كرشنة من العذراء ديفاكى التى اختارها الله والدة لابنه (كذا) بسبب طهارتها وعفتها .	١ ولد يسوع من العذراء مريم التى اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها .
٢ قد مجد الملائكة ديفاكى والدة كرشنة ابن الله وقالوا (يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة)	٢ فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيها المنعم عليها الرب معك .
٣ عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذى ظهر فى السماء .	٣ لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه فى المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته .
٤ لما ولد كرشنة سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرواح وهامت ملائكة السماء فرحا وطربا ورتل السحاب بأنغام مطربة .	٤ لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا وظهر من السحاب أنغام مطربة .
٥ كان كرشنة من سلالة ملوكانية ، ولكنه ولد فى غار بحال الذل والفقر .	٥ كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه (ملك اليهود) ولكنه ولد فى حالة الذل والفقر بغار .
٦ لما ولد كرشنة أضىء الغار بنور عظيم . وصار وجه أمه ديفاكى يرسل أشعة نور مجد .	٦ لما ولد يسوع المسيح أضىء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عينى القابلة وعينى خطيب أمه يوسف النجار

كرشنة	يسوع المسيح
٧ ومن بعد ما وضعته صارت تبكى وتندب سوء عاقبة رسالته فكلمها وعزاها .	٧ وقال يسوع المسيح لأمه وهو طفل (يا مريم أنا يسوع ابن الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذى أرسله أبى إليك وقد أتيت لأخلص العالم) .
٨ وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له	٨ وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له .
٩ وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب .	٩ وآمن الناس بيسوع المسيح وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر .
١٠ وسمع نبي الهنود (نارد) بولد الطفل الآلهى كرشنة ، فذهب وزاره فى (كوكول) وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود آلهى يعبد .	١٠ ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيردوس الملك إذ المجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود .
١١ لما ولد كرشنة كان (ناندا) خطيب أمه ديفاكى غائبا عن البيت حيث أتى إلى المدينة كى يدفع ما عليه من الخراج للملك .	١١ ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائبا عن البيت وأتى كى يدفع ما عليه من الخراج للملك .
١٢ ولد كرشنة بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية .	١٢ ولد يسوع المسيح بحالة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية .
١٣ وسمع (ناندا) خطيب ديفاكى والدة كرشنة نداء من السماء يقول له: قم وخذ الصبى وأمه فهربهما إلى (كاكول) واقطع نهر جمنه ، لأن الملك طالب إهلاكه.	١٣ وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كى يأخذ الصبى وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه .
١٤ وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الآلهى وطلب قتل الولد ، ولكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا فى الليلة التى ولد فيها كرشنة .	١٤ وسمع حاكم البلاد بولادة يسوع الطفل الآلهى وطلب قتله ، ولكى يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا فى الليلة التى ولد فيها يسوع المسيح .
١٥ واسم المدينة التى ولد فيها كرشنة (مطرا) وفيها عمل الآيات العجيبة ، ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا .	١٥ واسم المدينة التى هاجر إليها يسوع المسيح فى مصر لما ترك اليهودية هى (المطرية) ويقال إنه عمل فيها آيات وقوات عديدة .
١٦ كانت ولادة القديس (راما) قبل ظهور كرشنة فى الناسوت بزمن قليل ، وقد سعى (فانسا) ملك البلاد فى إهلاك القديس (راما) وإهلاك كرشنة أيضا .	١٦ وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل ، وقد سعى الملك هيردوس فى إهلاك يوحنا ، كما سعى فى إهلاك الطفل يسوع المسيح ، وكان يوحنا مبشرا بولادة يسوع المسيح .
١٧ وربى كرشنة بين الرعاة ، ولما جىء به إلى (مطرا) كان فى احتياج عظيم فأتى له بمعلم خبير ، وفى وقت قليل فاق على أستاذه فى العلوم وأعياه فى المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقة .	١٧ وأرسل يسوع المسيح إلى عند المعلم ذاخوس كى يعلمه ، فكتب له أحرف ألف باء وقال ليسوع : قل (ألف) فقال الرب يسوع أخبرنى أولا عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول (الباء) فتهدد المعلم يسوع بالضرب ، فقام يسوع وفسر معنى

كرشنة	يسوع المسيح
	الألف والباء ، وأخبره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتى لها نقط وحركات والتى ليس لها نقط ، ولماذا وضعت فى هذا الترتيب : أى بعض الحروف قبل غيرها وطفق يخبره عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها فى كتاب .
١٨ وفى أحد الأيام كان كرشنة سائراً مع قطيع من البقر فاختاروه ملكا عليهم ، وذهبت كل بقرة إلى المكان الذى عينه لها هذا الملك .	١٨ وفى شهر آذار جمع يسوع الأولاد ورتبهم كأنه ملك عليهم ، وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصبا ويأمرونه بالسجود للملك .
١٩ وفى أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فماتوا فشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء .	١٩ وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم ، فلمس يسوع ذاك الصبى بيده فعاد إلى حال صحته .
٢٠ وسرق بعض أصحاب كرشنة مع عجولهم وأخفاهم السارقون فى غار فخلق كرشنة أصحابا وعجولا مثلهم فى الشكل والهيئة .	٢٠ وأخفى الأولاد الذين كانوا يلعبون مع يسوع أنفسهم فى فرن فبدلوا إلى هيئة جداء (أى جديان) فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا يا أيها الأولاد لنلعب فأعيدت تلك الجداء إلى هيأتهم الأولى صبيانا
٢١ وأول الآيات والعجائب التى عملها كرشنة شفاء الأبرص .	٢١ وأول الآيات والعجائب التى عملها يسوع المسيح هى شفاء الأبرص .
٢٢ وأتى إلى عند كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وزباد وغير ذلك من أنواع الطيب فدهنت منه جبين كرشنة بعلامة خصوصية وسكبت الباقى على رأسه .	٢٢ وفيما كان يسوع فى منزل عنيا فى منزل سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فسكبته على رأسه وهو متكئ .
٢٣ كرشنة صلب ومات على الصليب .	٢٣ يسوع صلب ومات على الصليب .
٢٤ لما مات كرشنة حدثت مصائب وعلامات شر عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس فى وسط النهار وأمطرت السماء نارا ورمادا وتأججت أشعة نار حامية وصار الشياطين يفسدون فى الأرض وشاهد الناس ألوفا من الأرواح فى جو السماء يتحاربون صباحا ومساء ، وكان ظهورها فى كل مكان .	٢٤ لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة ، وفتحت القبور وقام كثيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم .
٢٥ وثقب جنب كرشنة بحربة .	٢٥ وثقب جنب يسوع بحربة .
٢٦ وقال كرشنة للصياد الذى رماه بالنبلة وهو مصلوب ، اذهب أيها الصياد محفوفا برحمتى إلى السماء مسكن الآلهة .	٢٦ وقال يسوع لأحد اللصين اللذين صلب معه (الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس).
٢٧ ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات .	٢٧ ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.

كرشنة	يسوع المسيح
٢٨ ونزل كرشنة إلى الجحيم .	٢٨ ونزل يسوع إلى الجحيم .
٢٩ وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون يشاهدونه صاعداً .	٢٩ وصعد يسوع بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدا .
٣٠ ولسوف يأتي كرشنة إلى الأرض في اليوم الأخير ، ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب ، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء	٣٠ ولسوف يأتي يسوع إلى الأرض في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر أيضا وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء .
٣١ وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الأخير	٣١ ويدين يسوع الأموات في اليوم الأخير .
٣٢ ويقولون عن كرشنة إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي .	٣٢ ويقولون عن يسوع المسيح إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي .
٣٣ كرشنة الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شيء .	٣٣ يسوع الألف والياء والوسط وآخر كل شيء
٣٤ لما كان كرشنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي كانت تكتنفه ، ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة المخلوع كما كان أولا ونصرة الضعيف على القوي ، والمظلوم على ظالمه . وكان إذ ذاك يعبدونه ويزدحمون عليه ويعدونه إلها .	٣٤ لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي كانت تكتنفه وكان ينشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأخرس والأعمى والمريض ، وينصر الضعيف على القوي ، والمظلوم على ظالمه ، وكان الناس يزدحمون عليه ويعدونه إلها .
٣٥ كان كرشنة يحب تلميذه أرجونا أكثر من بقية التلاميذ بكثير .	٣٥ كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ .
٣٦ وفي حضور أرجونا بدلت هيئة كرشنة وأضاء وجهه كالشمس ومجد العلي اجتمع في كرشنة إله الآلهة فأحنى أرجونا رأسه تذللا ومهابة وتكتف تواضعا وقال باحترام : الآن رأيت حقيقتك كما أنت ، وإني أرجو رحمتك يارب الأرباب فعد واظهر لي في ناسوتك ثانية أنت محيط بالملكوت .	٣٦ وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج . وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائل : هذا هو ابني الحبيب الذي سررت له اسمعوا . ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً .
٣٧ وكان كرشنة خير الناس خلقا وخلقا وعلم بإخلاص ونصح ، وهو الطاهر العفيف مثال الإنسانية وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهميين ، وهو الكاهن العظيم برهما وهو العزيز القادر ظهر لنا بالناسوت .	٣٧ كان يسوع خير الناس خلقا وخلقا وعلم بإخلاص وغيرة ، وهو الطاهر العفيف مكمل الإنسانية ومثالها وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل التلاميذ وهو الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالناسوت

كرشنة	يسوع المسيح
٣٨ كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سرّ من أسراره العجيبة الإلهية .	٣٨ يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره فى الناسوت سر من أسراره العظيمة الإلهية .
٣٩ كرشنة الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته .	٣٩ يسوع المسيح الاقنوم الثانى من الثالوث المقدس عند النصارى .
٤٠ وأمر كرشنة كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة مايشتهيه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره فى الله فقط .	٤٠ وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتى (وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذى فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية) .
٤١ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب أرجونا إنه مهما عملت ومهما أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قرّبت من قربان ومهما فعلت من الأفعال المقدسة الصالحة فليكن جميعه بإخلاص لى أنا الحكيم والعليم ليس لى ابتداء وأنا الحاكم المسيطر والحافظ .	٤١ فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئا فافعلوا كل شىء لمجد الله .
٤٢ قال كرشنة أنا علة وجود الكائنات فىّ كانت وفىّ تحلّ وعلىّ جميع ما فى الكون يتكل وفىّ يتعلق كاللؤلؤ المنظوم فى خيط .	٤٢ من يسوع وفى يسوع وليسوع كل شىء (كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان).
٤٣ وقال كرشنة (أنا النور الكائن فى الشمس والقمر ، وأنا النور الكائن فى اللهب . وأنا نور كل ما يضىء ، ونور الأنوار ليس فىّ ظلمة) .	٤٣ ثم كلمهم يسوع قائلا (أنا هو نور العالم من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة) .
٤٤ قال كرشنة (أنا الحافظ للعالم وربه وملجئه وطريقه) .	٤٤ قال له يسوع (أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتى الآب إلا بى) .
٤٥ وقال كرشنة (أنا صلاح الصالح وأنا الابتداء والوسط والأخير والأبدى وخالق كل شىء وأنا فانيه ومهلكه) .	٤٥ وقال يسوع (أنا هو الأول والآخر ولى مفاتيح الهاوية والموت) .
٤٦ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب (لاتحزن يا أرجونا من كثرة ذنوبك ، أنا أخلصك منها فقط ثق بى وتوكل علىّ واعبدنى واسجد لى ولا تتصور أحدا سواى ، لأنك هكذا تأتى إلىّ إلى السكن العظيم الذى لاحاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما منى.	٤٦ وقال يسوع للمفلوج ثق يابنى مغفورة لك خطاياك . يابنى أعطنى قلبك . والمدينة لاتحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها الخروف سراجها .
هذا شىء قليل من كثير اكتفينا به حبا بالاختصار	

مقابلة النص الصريح بين بوظا ويسوع المسيح

وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن بوظا بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح

أقوال الهنود الوثنيين فى بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين فى يسوع المسيح ابن الله
١ ولد بوظا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل	١ ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل .
٢ كان تجسد بوظا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا .	٢ كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم .
٣ لما نزل بوظا من مقعد الأرواح ودخل فى جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر بوظا فيه كزهرة جميلة .	٣ لما نزل يسوع من مقعده السماوى ودخل فى جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقى وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة .
٤ وقد دل على ولادة بوظا نجم ظهر فى أفق السماء ويدعونه (نجم المسيح) .	٤ وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر فى المشرق قال دوان ومن الواجب أن يدعى (نجم المسيح) .
٥ ولد بوظا ابن العذراء مايا التى حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أى فى (٢٥ كانون الأول) .	٥ ولد يسوع ابن العذراء مريم التى حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أى (فى ٢٥ كانون الأول)
٦ لما ولد بوظا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين (ولد اليوم بوظا على الأرض كى يعطى الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصرا للعمى) .	٦ لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمدا للواحد المبارك قائلين (المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة) .
٧ وعرف الحكماء بوظا وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إله الآلهة	٧ وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه (إله الآلهة).
٨ وأهدوا بوظا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة .	٨ وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر .
٩ لما كان بوظا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعا .	٩ لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم (أنا ابن الله) .
١٠ كان بوظا ولدا مخيفا وقد سعى الملك عبسارا وراء قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقى حيا .	١٠ كان يسوع ولدا مخيفا سعى الملك هيرودس ورأى قتله كى لا ينزع الملك من يده .
١١ لما أرسل بوظا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل وفاق الجميع فى الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة .	١١ لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف) لقد أتيتنى بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم) .
١٢ لما صار عمر بوظا اثنى عشرة سنة دخل أحد الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظريه .	١٢ لما صار عمر يسوع اثنى عشرة سنة جاءوا به إلى (الهيكل) أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع .

بوظا	يسوع المسيح
١٣ ودخل بوظا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجودا له .	١٣ وكان يسوع مارًا قرب حاملى الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجودا له
١٤ ويصلون نسب كوتاما بوظا من أبيه (صدودانا) فى أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى ماها سماطا وهو على زعمهم أول ملك صار فى الدنيا والحوادث والأنساب المذكورة فى كتاب (بورانا) البرهمى توجد فى أنسابه غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخى البوظية أدخلوا فيها أسماء قبائل واخترعوا أسماء تمكنهم من إعلاء نسب حكيمهم عدا عن اعتبارهم إياه إلها .	١٤ ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف فى أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم أبى البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة فى سلالته مذكورة فى التوراة كتاب اليهود وليس بالإمكان تحقيق حكاياتهم مع بعضها بعضا ويظهر لنا أن المؤرخين النصارى قد اخترعوا أسماء قصد إعلاء نسب حكيمهم علاوة على قولهم بألوهيته .
١٥ لما عزم بوظا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه ــ مارا ــ (أى الشيطان) كى يجربه .	١٥ لما شرع يسوع فى التبشير ظهر له الشيطان كى يجربه .
١٦ وقال مارا (أى الشيطان) لبوظا لا تسرف حياتك فى الأعمال الدينية لأنك بعدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا .	١٦ وقال (أى إبليس) له (أى ليسوع) أعطيك هذه (أى الدنيا) جميعها إن خررت وسجدت لى .
١٧ فلم يعبأ بوظا بكلام الشيطان بل قال له : (اذهب عنى)	١٧ فأجابه يسوع وقال اذهب يا شيطان .
١٨ ولما ترك مارا (أى الشيطان) تجربة بوظا أمطرت السماء زهرا وطيبا ملأ الهواء طيب عرفه .	١٨ ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه .
١٩ وصام بوظا وقتا طويلا .	١٩ وصام يسوع وقتا طويلا .
٢٠ وقد عمد بوظا المخلص وحين عمادته بالماء كان روح الله حاضرا وهو لم يكن الإله العظيم فقط ، بل وروح القدس الذى فيه صار تجسد كوتاما لما حل على العذراء مايا .	٢٠ ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط ، بل والروح القدس الذى فيه تم جسده عند ما حل على العذراء مريم فهو الآب والابن والروح القدس .
٢١ ولما كان بوظا على الأرض فى أواخر أيامه بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل (بنداقا) أى الأصفر البيض فى (سيلان) ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل إكليل ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضىء كالشمس أو كالقمر ، وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة ، وحينما رأى الحاضرون هذا التبدل فى هيئته قالوا : ما هذا بشرا ؟ إن هو إلا إله عظيم .	٢١ لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور .

بوذا	يسوع المسيح
٢٢ وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة تحير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره .	٢٢ وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة تحير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره .
٢٣ وفي صلاتهم لبوذا يأمل المؤمنون به بدخول الفردوس .	٢٣ وفي صلاتهم ليسوع يأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس .
٢٤ لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية : أي بقوة إلهية	٢٤ لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة غير اعتيادية : أي بقوة إلهية .
٢٥ وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض .	٢٥ وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله على الأرض .
٢٦ ولسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها .	٢٦ ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها .
٢٧ وسيدين بوذا الأموات .	٢٧ وسيدين يسوع الأموات .
٢٨ بوذا الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء وهو الكائن العظيم والواحد الأزلي .	٢٨ يسوع الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء وهو الكائن العظيم والواحد الأبدي .
٢٩ قال بوذا فلتكن الذنوب التي ارتكبت في هذه الدنيا عليّ ليخلص العالم من الخطيئة .	٢٩ يسوع هو مخلص العالم وكافة الذنوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عوضا عن الذين اقترفوها ويخلص العالم .
٣٠ قال بوذا اخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية .	٣٠ قال يسوع اخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية .
٣١ ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية ، والشرير مارا (ويدعونه أيضا الحية) ذات مظلمة غير طبيعية .	٣١ ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية شمس برّ ، وعدوه الشيطان الحية القديمة .
٣٢ وفي أحد الأيام التى (أناندا) تلميذ بوذا وهو سائر في البلاد بالمرأة (متانجي) وهي من سبط (الكندلاس) المرذولين قرب بئر ماء فطلب منها قليلا من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لا يجوز له أن تقترب منه لأنها من سبط محتقر ، فقال لها : يا أختي إني لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك ، إنما سألتك شربة ماء ، فصارت من ذاك الحين تلميذة بوذية .	٣٢ وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعد ما سار مسافة حتى كاد ينهكه التعب وبينما هو قاعد قرب البئر عند مدينة (السامرة) أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر . فقال لها يسوع : اسقيني شربة ماء . فقالت له المرأة السامرية : أنت يهودي وكيف تطلب مني شربة ماء ؟ فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين .
٣٣ قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس . كلا ! بل أتى ليكمله وقد سرّه عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء .	٣٣ وقال يسوع (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل) .

بوظا	يسوع المسيح
٣٤ وبحسب تعليم بوظا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى .	٣٤ قال يسوع (أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم) .
٣٥ وفى أوائل أيام بوظا التى علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندنيا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلامذة له ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه .	٣٥ وفى أوائل أيام يسوع التى علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة (كفر ناحوم) وعلم فيها فتبعه بذلك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به .
٣٦ وقال بوظا للذين صاروا تلامذة له كى يتركوا الدنيا وغناهم وينذرون عيشة الفقر والفاقة	٣٦ وقال يسوع للذين صاروا تلاميذ له كى يتركوا غناهم وينذرون عيشة الفقر والفاقة .
٣٧ وجاء فى كتب البوظية القانونيـة المقدسة أن الجموع طلبوا من بوظا آية كى يؤمنوا به .	٣٧ وجاء فى كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة (أى آية) ليؤمنوا به .
٣٨ لما اقترب انتهاء أيام بوظا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التى ستقع قال لتلميذه (أناندا) ما يأتى (يا أناندا متى أنا ذهبت لاتظن أنه لم يعد لبوظا وجود . كلا ! فالكلام الذى قلته والفرائض التى افترضتها تكون خلفا عنى وهى لك كذاتى أنا .	٣٨ لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التى ستقع من بعده وقال لتلاميذه (اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر) .
٣٩ وجاء فى التعاليم البوظية بأن إنفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه لأن النفس تبخل بالمال وتتمسك به وأما هو فقد وهب ونذر حياته شفقة وحنوا الخير الناس فلماذا تتمسك بغناء الدنيا الزهيد . ولما تخلص بوظا من حب الشتهيات الدنيوية وملذاتها نال المعرفة الإلهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم الهاجر لملذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية .	٣٩ وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية . قال له يسوع إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى . لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لايفسد سوس ولا صدأ وحيث لاينقب سارقون ولا يسرقون .
٤٠ وكان قصـد بوظا تشييد مملكة دينية أى مملكة سماوية .	٤٠ ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات .
٤١ وقال بوظا (الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة المعظم) ومن أجل هذا فإنى ذاهب إلى مدينة (بينارس) لأهب نورا للتائهين فى الظلام وأفتح باب الحياة للانسانية .	٤١ من بعـد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينية ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة (كفر ناحوم) ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله الشعب الجالس فى ظلمة أبصر نورا عظيما والجالسون فى كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور .

بوذا	يسوع المسيح
٤٢ وقال بوذا لتلميذه الحبيب (أناندا) يا أناندا إن كلامي حق لاريب فيه فلا يزول قطعيا ولو وقعت السموات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعا .	٤٢ الناموس أعطى لموسى أما النعمة والحق فيسوع المسيح صارا . الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامي لايزول .
٤٣ قال بوذا (لايوجد شيء أعظم فعلا في الإنسان من الاشتهاء والهوى الشهوانى ولحسن الحظ والسعادة لايوجد سوى اشتهاء شهوانى واحد ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم فى النساء وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير حاضرين معهن وإذا كلمتموهن فاحترسوا على قلوبكم .	٤٣ وقال يسوع (قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن . وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه .
٤٤ وقال بوذا (الرجل العاقل الحكيم لايتزوج قط يرى الحياة الزوجية كأتون نار متأججة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنا) .	٤٤ حسن للرجل أن لايمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ، لأن التزوج أصلح من التحرق .
٤٥ ومن جملة التعاليم البوذية قولهم (إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاما وهذه الآلام جزاء عليها) . وإذا لم يكن ارتكب شيئا من الآثام فى هذا الدور الحاضر من حياته لابد وأن يكون قد ارتكبه فى أحد الأدوار السابقة من ظهوره (أى فى أحد أدوار تقمصه)	٤٥ وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى .
٤٦ كان بوذا يعلم أفكار الناس عند ما يدير تصوراته نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها.	٤٦ كان يسوع يعلم أفكار الناس عند مايدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها .
٤٧ وجاء فى كتاب الصومادينا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها أشككته .	٤٧ قال يسوع (فإن كانت عينك اليمين تعثرك فاقلعها وألقها عنك) .
٤٨ لما عزم بوذا على التنسك كان راكبا جوادا يدعى (كنتاكو) ففرشت الملائكة طريقه بالزهر. اه	٤٨ لما كان يسوع داخلا إلى أورشليم راكبا على حمار فرشت الجموع الطريق بأغصان النخيل. اه

تم الجزء الثالث من تفسير الجواهر ، ويليه : الجزء الرابع ، أوله تفسير سورة الأنعام

فهرست

الجزء الثالث من تفسير الجواهر

صفحة

٢ سورة النساء مقاصدها تسع ، وبيانها إجمالا .
ملخص هذه السورة بحيث يطلع القارئ على ملخص ما فيها .
٤ مقدّمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها ، كما أن آل عمران من بنى إسرائيل الذين رتبنا تاريخهم ترتيبا زمانيا فى سورة البقرة .
٥ و٦ و٧ المقصد الأوّل وتفسيره ، وبيان أن خلق آدم فى القرآن مجمل ، والحكماء فى الشرق والغرب هم الذين يبحثون فى ذلك ، وبيان مايقوله قدماؤنا والأوروبيون فى خلق آدم وسائر الحيوان برّا وبحرا وأن جميع الحكماء لم يصلوا للحقيقة ، والكلام على النفس الكلية وعلى احتياج الناس بعضهم لبعض فهم أشبه بنفس واحدة .
٧ برهان على أن من كره الناس فهو واقع فى التناقض المنطق ، إذ ينتج أنه يحب نفسه ويكرهها .
٨ المقصد الثانى من السورة « واتقوا الله الذى تساءلون به — إلى — حسيبا » .
٩ تفسيره اللفظى .
وصف الناس بأنهم كأعضاء جسم واحد ، تساوى الذكران والإناث ولادة .
١٠ تعدّد الزوجات فى الإسلام .
١١ حقد أوربا على المسلمين وسعيهم فى ذلك .
١٢ تعدد زوجات النبى صلى الله عليه وسلم .
اللطيفة الثالثة « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » .
١٣ بيان الجهل الفاشى فى مصر وغيرها إذ يتركون الأموال فى المصارف الإفرنجية ويشترون منسوجاتهم ثم يصيرون عبيدا لهم غافلين عن قوله تعالى « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » وقد تنبه لذلك أهل الهند والترك وغيرهما .
١٥ المقصد الثالث فى قسم التركات والمعاملات المالية « للرجال نصيب — إلى قوله — ولهم عذاب مهين » .
١٦ تفسير هذا القسم تفسيرا لفظيا .
١٨ لطيفتان : الأولى : حصر الفروض المتقدّمة فى جدول .
الثانية : كيف تكون التعاليم الإسلامية فى مستقبل الزمان .
١٩ همة علماء الإسلام فى علم الفرائض المستخرج من هذه الآيات وأمثالها .
فإذا كان علماء الإسلام استخرجوا الفرائض وحسبوها فعلينا نحن أن نتم الأمر ونظهر مافى القرآن من العلوم الطبيعية والفلكية ، كما أتموا أهمّ العلوم العملية .
٢٠ خلاصة علم الفرائض .
أنواع علم الحساب المستخرجة من الأرثماطيق من علم الفلسفة وحساب الفرائض منها .

صفحة
٢١ استنتاج التعليم فى مستقبل الإسلام من قوله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية الخ » وبيان أن الإسلام يحث على الترغيب والإقناع واستخراج ما كمن فى النفوس من الرحمة والألفة . أما الاقتناع بالترهيب فإنه يجعل الأمة راقية .
المحبة والكهرباء وإيضاحهما وأن المحبة والفضائل كامنة فى النفوس كمون الكهرباء فى الأجسام .
٢٢ الترغيب والترهيب فى الآيات . موازنة بين الرغبة والرهبة وشعر النابغة وكثير عزة المفيد أن الرغبة أصل وما عداها ضعيف .
٢٣ جوهرة فى قابلية الناس الكمال ، وواجب علماء الإسلام . ذكر أهل سويسرا وكيف نبغوا فى الأمانة والأخلاق ، وكيف قصر المسلمون فى ذلك ، وأن الأمثلة قائمة على أن المسلمين وأهل الشرق مستعدون أن ينالوا أرقى الأخلاق .
٢٤ المقصد الرابع فى صلة الذكر والأنثى وأحكام اختلاطهما بعقد أو بغير عقد « واللاتى يأتين الفاحشة الخ » .
٢٦ تقسيم هذا المقصد إلى ثلاثة فصول ، التفسير اللفظى للفصل الأول .
٢٧ إيضاح لهذه الآيات .
٢٨ جوهرة من جواهر القرآن فى التربية فى مستقبل الإسلام .
صرف المسلم عن الدين بأمرين : الاكتفاء بقراءة القرآن تعبدا ، والوقوف عن التفكر فيه ما دام فى غير علم الفقه . النفوس البشرية ثلاثة أقسام : مضيئة ، ومشفة ، ومعتمة ؛ كالشمس ، والهواء ، والحجر الخ .
٢٩ تفسير الفصل الثانى اللفظى .
٣٢ لطائف أربع : اللطيفة الأولى : ذكر جدول للحرمات .
٣٣ اللطيفة الثانية : الشهوة قد تنقلب رحمة ، والكلام على الشهوات المركوزة فى نفوسنا ونار الغضب ونار الرحمة ونار الشهوة ، وكيف انقلبت الشهوة للمحارم رحمة لهن ، ذلك دال على قدرة الإنسان على الارتقاء وقابليته .
تصور فتاة تتنازعها العوامل وشابا كذلك .
٣٥ حكاية عالم عظيم من بلاد الشام ناقلا ما دار بينه وبين ضابط فرنسى . اللطيفة الرابعة الأحرار والعبيد
٣٦ تفسير الفصل الثالث .
٣٧ جهل المسلمين واستمرارهم على شراء بضائع الفرنجة بعد ما قاتلوا المسلمين بالأندلس وضربوهم .
٣٩ غفلة المسلمين فى أكثر البلاد عن مسألة الحكمين : وهذا جهل بالقرآن .
٤٠ أهل أوربا فى الغرب ورجال الإسلام فى الشرق ، وكيف استذلوهم بالشهوات وأن من الذين اتبعوا الشهوات أهل أوروبا ورؤساء الإسلام لإذلال المسلمين ، وبيان تلاميذ وأصحاب المسيح الدجال ، وأن ما هو حاصل الآن قد جاء فى الحديث ، وأن جنة الفرنجة بإعطاء الملاذ ونارهم بضرب البلاد بالمدافع يشبهان جنة الدجال وناره الواردين فى الحديث ، وأن هذا سر النبوة ظهر الآن .
٤١ إيضاح شهوات الاستعماريين فى أوربا وشهوات الأمم الشرقية عموما والمسلمين خصوصا
٤٢ التجارة هى مثل جنة المسيح الدجال الذى حل أشباهه وأصحابه بالشرق من أوربا .
بشارة المسلمين بقرب انقشاع الظلمات من بلاد الإسلام .
إيضاح آية التجارة والقتل .

صفحة
٤٣ جمال هذا المقام .
٤٤ زيادة الإيضاح ، وأن المسلمين عليهم أن يعملوا ولا ينتظروا المسيح ولا المهدى ، بل ليرقوا نفوسهم حتى يستعدوا أن ينزل فيهم المسيح .
المقصد الخامس « واعبدوا الله الخ » .
٤٦ تقسيم هذا المقصد إلى ثلاثة فصول وتلخيص الفصل الأوّل .
تفسير كلمات الفصل الأول ، تفسير ألفاظه .
٥٠ الفصل الثانى .
٥٢ لطيفة : الحسد والبخل .
٥٣ الفصل الثالث فى تاريخ اليهود وكيف تفرقوا فى الأرض وكيف أحدثوا البلشفية وكيف قام الملك لهم مع غيرهم لالهم وحدهم مصداقا للقرآن : طاعة الرعايا للحكام وفوائده دنيا وأخرى .
٥٤ تفسير « إن الله يأمركم الخ » تفسيرا لفظيا .
٥٦ الخلافة فى الإسلام ، وهذه مقالة نشرتها فى بعض الجرائد المصرية .
دين الإسلام ، الخلافة المحجبة المبرقعة .
٥٧ بقية المقالة .
٥٨ بيان أن أولى الأمر هم المذكورون فى سورة الشورى (وهى مكية) .
٥٩ إكمال التفسير اللفظى .
التسليم والرضا ، وسورة النساء وسورة الشورى .
٦١ الطريقة المثلى لرقّ المسلمين بالعظات البالغات والتشويق بسير الأبطال كما يعشقون فى جمال هذه الدنيا
المقصد السادس « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ــ إلى قوله ــ عليما حكيما » .
٦٤ تقسيم المقصد إلى أحد عشر فصلا .
٦٥ التفسير اللفظى للفصل الأول وما بعده .
٦٩ آراء العلماء فى صلاة المسافر .
٧٠ أىّ سفر يكون القصر فيه ؟
صلاة الخوف .
٧١ التفسير المعنوى وجمال القرآن والإسلام . ذكر إحدى عشرة فكرة بهيئة جدول .
٧٢ نظام العالم ونظام الإنسان والتئام أوّل هذه السورة مع علومها .
٧٣ سر الصلصال فى آدم بالحرارة لحفظ جسده ، وأن الغضب والشجاعة يقومان بحفظ الأجسام ، وقد تنوّع ذلك فى الحيوانات والعاجات .
٧٤ وجوب المحافظة على الوطن فى الإسلام من أهمّ مافى القرآن ، الواجب على المسلمين فى أقطار الأرض .
٧٥ تسامح الإسلام وظلم أوروبا فقد جعنا من العبيد لنا ملوكا ولم يفعل شيئا من هذا أهل أوروبا .
٧٦ محاورات بين المسلمين بعد مائتى سنة فأكثر على طريق الخيال ، وكل نائب من نوّاب المسلمين يقول مافى نفسه ثم يصطلحون أن يكونوا رحماء بالناس جميعا .
٧٧ المقصد السابع « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق الخ » . تفسير هذه الآيات .

صفحة

٧٨ بيان أجلى ونور أشرق ، وبيان أن هذه الآيات نزلت لأجل يهودى ونصره على مسلم ، وأن المسلمين بحسب وضع ديننا خلقوا ليكونوا رحمة للعالمين جميعا .

٧٩ كثير من المسلمين اليوم متعصبون لأقاربهم أو لأهل وطنهم ، وأهل أوروبا كذلك كما فعل الإنجليز أخيرا إذ برءوا زوجة على فهمى (الشاب المصرى) وقد قتلته امرأة إنجليزية وأقرت بقتله ، فالإسلام نبراس العالم.

المقصد الثامن « لاخير فى كثير من نجواهم الخ » .

بقية الآيات إلى قوله « وكان الله غفورا رحيما » .

٨٢ وفى هذا المقصد أربعة فصول : الفصل الأول .

بقية تفسير الفصل الأول .

٨٤ ذكر سبعة أنواع من تغيير خلق الله .

٨٥ اللطيفة الأولى فى إفاضة الكلام على تغيير خلق الله .

٨٦ تغيير العقول فى الأمم ومنع العلم وإذلال الشعوب ووضع التلاميذ والموظفين فى غير مواضعهم تغيير لخلق الله ، وعدم إعطاء العقل نصيبه من التفكر مع إعطاء المعدة حظها من الغذاء تغيير لخلق الله فى المآكل ، وأن المسلمين جميعا آثمون لإهمالهم فروض الكفايات وليس عندهم قوم مختصون فى كل علم وصناعة .

٨٧ أىّ مخلوق هو الشيطان ؟ أهو مجرد مذكور لاحقيقة له ؟ أم له وجود ؟ وما دليله ؟ وكيف يكون لكل مرض حيوانات تسببه ؟ وكيف جاء فى الرازى والغزالى وإخوان الصفاء ، والعلم الحديث أن الشيطان موجود ، وخطبة العلامة أوليفر لودج الإنجليزى أن الأموات أحياء وهو يخاطبهم .

٨٨ غرور المسلمين وغرور المسيحيين ، كل بدينه ونبيه جهل ، والله يقول (ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب الخ) .

٩٠ تفسير الفصل الثانى (ويستفتونك فى النساء) .

بقية تفسير هذا الفصل .

٩٢ حكاية الاسكندر والفيلسوف الهندى إذ أرسل الأول للثانى (برنية سمن) ووضع الثانى فيها (إبرا) ثم ردها إليه الخ .

بقية الحكاية وتفسير الفيلسوف للاسكندر تلك الإشارات ، وأولها وضع يده على أنفه الخ ، وقوله للاسكندر لاينبغى للفيلسوف أن يأخذ مالا من أحد الخ .

٩٤ تفسير بقية الآيات . منظر جميل .

٩٥ تفسير ذلك المنظر الجميل الذى تخيله المؤلف فى الخلوات من الأعمدة الياقوتية وعمود الماس والجبال الممدودات والسقف المملوء جواهر بحيث لو سقطت الأعمدة الياقوتية أو عمود الماس يسقط السقف ، وأن ذلك رمز للعلم والأرواح والأمة الخ ، وذلك كله فى هذه الآيات .

٩٦ صورة ماتقدم بالرسم موضحة .

صفحة
٩٧ عجائب العلم الحديث فى هذه الآيات ، وذكر مصلى الصدق الذى كشف فى بلاد الإنجليز وآثار الأيدى والأقدام وعلم (السيكومترى) وكيف يظهر فى كل فكر وكل قول أو عمل على الحجارة والحيطان ونحن لانشعر ويفتضح السر بعد آلاف السنين كما وردت به السنة فى بعض الأحاديث .
٩٩ اعتراض على المؤلف وجوابه ، وكيف كان واردا فى نفس القرآن والمسلمون ساهون لاهون .
١٠٠ تفسير الفصل الرابع « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله الخ » .
١٠٢ الأجسام قسمان : موصل للحرارة ورديئة التوصيل ، فالأولى كالمعادن والثانية كالخشب الخ . وهكذا تختلف فى صهرها وذوبانها كالبلاتين والماء المقطر ، فالثانى يسيل على درجة صفر ، والأول على درجة ١٧٧٥ ، هكذا بنو آدم فقضاتهم وفضلاؤهم يشبهون ماتقدم ، وحديث مسلم شبه أعلاهم فى المرور على الصراط بطرفة عين وأدناهم بركاب الإبل وبينهما درجات مذكورة ، وهناك جدولان للمعادن أحدهما لتوصيل الحرارة ، والثانى للانصهار والذوبان .
١٠٦ المقصد التاسع « يسألك أهل الكتاب الخ » .
١٠٧ هذا المقصد ثلاثة فصول .
١٠٨ تفسير (١٦) ذنبا من ذنوب اليهود مفصلات فى هذه الآيات .
١١٠ الناس فى الأرض مخادعون فى أمور السياسة ، وبيان أنى ألفت كتاب [أين الإنسان] وأرسلته إلى أوروبا : يشتاق الناس إلى يوم يعود فيه السلام العام وكلام الفارابى فى ذلك ، وقد جاء فى حديث البخارى ومسلم : نزول عيسى عليه السلام وأن عيسى لايركب القلوص فلعل هذا زمانه لأن الناس تركب القطار .
١١٢ المدار فى نزول المسيح على رقى الأمم حين نزوله وبعده فليس المدار على الأشخاص بل على الآثار ، فيبدأ المسلمون بالرقى من الآن ليكونوا رحمة للعالمين وليستأهلوا أن ينزل المسيح .
١١٣ الأعصر السابقة فى علم طبقات الأرض .
١١٥ لطيفة فى تعاليم الأرواح ، وكيف كانت أخلاق المسيح وأعماله موافقة لذلك الحديث .
١١٧ تفسير قوله تعالى « يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم » وهو الفصل الثالث .
١١٨ لطيفتان : اللطيفة الأولى فى شرائع الأنبياء ، اللطيفة الثانية فى المسيح .
١٢٠ اغترار كثير من جهلة المسلمين بشيوخهم ومثلهم كمثل اليهود والنصارى إذ قالوا « نحن أبناء الله وأحباؤه » وقد غفلوا عن قول الله فى نبينا صلى الله عليه وسلم « عبس وتولى الخ » وقوله « وإن كان كبر عليك إعراضهم الخ » .
١٢٣ (سورة المائدة) هى أحد عشر قسما .
١٢٤ مقدمة يذكر فيها جميع ماخصت به هذه السورة من الأحكام وهى ١٨ حكما ، وهى ثلاثة أقسام .
١٢٥ شرح وتفسير هذه الأحكام ، وهى المنخنقة والموقوذة .
حل ماصدناه من الجوارح وشروطه .
١٢٦ حل طعام الذين أوتوا الكتاب والمحصنات منهم ، والكلام على البحيرة والسائبة والوصيلة والحام الخ .
١٢٨ المسألة الأولى : نظافة الجسم « إذا قمتم إلى الصلاة » .
١٢٩ كيفية الوضوء ، وأن الفروض نحو ١٦ فرضا ، المتفق عليه منها أربع ، والباقى فيه خلاف .

صفحة

١٢٩ إيضاح للمذاهب كلها فى هذه المسألة .
١٣٠ المسألة الثانية « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » التخفيف فلا قطع فى حالين .
المسألة الثالثة « لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم »
١٣١ المثل الواجب والاختلاف فيه ، وإيضاح هذا المقام :
الجراد وطير الماء والضفدع والتمساح وحكم ذلك كله .
١٣٢ المسألة الرابعة « شهادة بينكم » الآية ، وقصة تميم الدارى وعدى بن بداء مع بديل مولى عمرو ابن العاص ، وتركته التى كان فيها إناء من فضة ، وقضاء شريح بهذه الآية .
١٣٣ مذهب الشافعى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم فى هذه المسألة ، وكيف أمر الله بذبح الحيوان وهو أرحم الراحمين ؟ . الجواب أن الرحمة بمعنى رقة القلب مستحيلة الخ .
١٣٤ الحيوان منه آكل ومأكول ، الأمراض العامة فى الإنسان والحيوان ، القاتل للإنسان نوعان من الحيوان
١٣٥ ولعلك تقول : لماذا يكون هذا الإهلاك والقتل ؟ وبيان أن العالم الأرضى من العوالم المتأخرة الخ ، فطرة العامة والنبوات .
١٣٦ أفى الإعدام رحمة ؟ وبيان أن طول حياة الإنسان تنافى الرحمة لشدة الازدحام فى الأرض ، عقائد الإنسان فى أكل الحيوان وتحريمه وعاداته فى ذلك .
١٣٧ كيف وافق الإسلام الطبيعة ؟
بيان السبب فى تحريم الجوارح والآساد مثلا .
١٣٨ الجواب عنه ، البوذية وأبو العلاء المعرى ، لم سميت هذه السورة باسم المائدة ؟ وجوب درس علم الحيوان .
كيف ساغ للمسلمين أن يناموا بعد الأولين السابقين من الأئمة الأعلام .
١٣٩ ذكر الحيوانات التى منعت الحكومة المصرية صيدها وهى ١٢ جنسا .
١٤٠ الدليل على أن هذه الحيوانات محرم أكلها ، هذه المائدة حسية ومعنوية .
١٤١ العلماء الذين سيكونون فى مستقبل الزمان ، وبيان العلوم التى يدرسونها مثل علم النبات والحشرات الخ .
١٤٢ إتمام هذا الموضوع وبيان أن الوضوء مفتاح الصلاة ، والصلاة معراج ولا عروج إلا بالعلم ، اعتراض على المؤلف وجوابه .
١٤٣ نحن نذبح الحيوان فنريحه وهو يدخل أجسامنا بالأكل فينقلب ذوات حية تأكل أجسامنا بالأمراض المختلفة . المقصد الأول « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود الخ »
١٤٤ تفسير لفظى لهذا المقصد .
١٤٥ تفسير قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم الخ » وما جاء فيها من رأى أبى بكر وعمر وبكاء الأول
١٤٦ وهكذا خطبة الوداع تشير إلى ذلك ومناسبة هذه الآية لقوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو» الآية .
١٤٧ عجائب القرآن ، زيادة إيضاح « ورضيت لكم الإسلام دينا الخ » .
المقصد الثانى « إذا قمتم إلى الصلاة الخ » .
١٤٨ تفسير هذا المقصد .
١٤٩ المقصد الثالث « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل الخ » .

صفحة

١٥٠ كلام عامّ فى المقصد الثالث.

١٥١ ما المقصد من قوله تعالى « وألقينا بينهم العداوة الخ » ونقل ما فى سفر العدد من التوراة وما فى سفر التثنية مما يناسب هذا المقام .

١٥٢ تذكير بنى إسرائيل بالنعم .

١٥٣ حكمة هذه التجارب بما فى الإصحاح الثامن من التثنية ، وأن إذلالهم فى التيه ليكون تأديبا لهم ولئلا يقول الإنسان قوتى وقدرة يدى صنعت لى هذه الثروة .

تفسير هذا المقصد تفسيرا لفظيا على مقتضى هذه المقدمة .

١٥٥ تذكير المفسرين المسلمين أن هــنا تذكيرا لهم ، فلا يشتغلون إلا بتربية الشبان على الشهامة والمروءة والعفة .

المقصد الرابع « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق الخ » .

تفسيره تفسيرا لفظيا .

١٥٦ تحقيق هذا المقام ، وسؤال المؤلف لم ذكر الله هذه القصة الخ .

١٥٧ إجابة المؤلف أنه لو لم يكن إلا هى فى القرآن لكفت ، وبيان أن الإنسان فيه غريزة الانفراد بالمنفعة وغريزة مساعدة الناس فإن لم يتوسط فلا بد أن يكون ظالما كقابيل أو مستسلما كهابيل ، وبيان القرود التى صنعت قنطرة من أنفسها على النهر وغير ذلك .

١٥١ بيان أن الناس على الأرض جميعا متعاونون فى الشرق والغرب ، وإن كانوا يتحاربون فهم اليوم أشبه بالنحلة تلقح الشجر وهى تمر بالزهرات لاعلم لها . وكل عالم وكل صانع هكذا فعله ، فالناس اليوم جهلاء غالبا ؛ فمن قتل نفسا فقد فوّت المنفعة على أهل الأرض جميعا . وبيان أن الله وإن أحل لنا صيد الحيوان فقد حثنا أن نحذو حذوه فى النافع والعلم بعمله أنفع وأشرف من صيده .

١٦٠ نداء المفسر لأمة الإسلام وأن النداء بالويل من ابن آدم على جهله بما عرفه الغراب يراد منه أن يتأسف ويندم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على جهلهم الفاضح وتأخرهم الواضح ، فليقولوا ياويلنا أعجزنا أن نكون كأهل أوروبا وأمريكا واليابان ، فضــلا عن أن نعرف نظام الحيوان والسموات والأرضين .

١٦١ نداء إلى علماء الإسلام ، وبيان أن الأئمة اجتهدوا ودققوا فى العبادات ، فليكن جهاد العلماء اليوم فى التوحيد ، وهو علم الفلك والطبيعة الخ .

١٦٢ الخزائن الحديدية فى القرآن .

١٦٣ بيان أن علم الطيور وعلوم الكائنات ذكرت فى القرآن ، وفى هذه الآيات ، والناس يرونها أمامهم وهم عنها منصرفون فكأنها فى خزائن من حديد ، وذكر بعض ما فى الخزائن من طيور ، والطيور الجارحة .

١٦٤ الخفاش والبوم ووصفهما وفوائدهما وعجائبهما .

صفحة

١٦٥ الغراب وأنه مساعد للفلاح وكيف يبني بيته ، وكيف يحافظ على الجماعة ويأكل الدود فيحفظ الزرع ، الموازنة بين الغراب والبوم والخفاش والفلاح فى الحقل وأن هذه مملكة سياسية ؛ فالوزير الأول الفلاح يزرع الأرض ، والوزير الثانى البوم إذ يأكل الفيران والحشرات ، فإذا بقى شئ من الحشرات أكله الخفاش ، فإذا أفلت شئ من الخفاش ليلا تلقاه الغراب نهارا فأكله وذلك هو الدود .

١٦٧ الطيور المائية والهوائية والأرضية ، العصفور الدورى لايبنى عشا وإنما يضع بيضه فى عش عصفور آخر يعائله وربى ولده وهو لايشعر .

١٦٨ الحيوان كتاب مفتوح للناظرين ، يخاطب الهدهد سليمان عليه السلام بقوله « أحطت بما لم تحط به » وهكذا . إن سياسة الله فى الإنسان والحيوان أن يخدم الفرد المجموع .

١٦٩ الكلام على الحشرة المسماة فرس النبى وعلى العقرب ، وكيف يموت الذكر بعد عملية الإلقاح لأنه لاعمل له .

دود القز وتناسله وموته بعد ذلك ، وأن ما اقتضت المصلحة بقاءه بقى بعد ظهور الولد كالطيور والدواب والإنسان ، ولو استغنت الذرية عن هؤلاء لهلكوا وكان المأتم عقب العرس كما هو الحال فى دود القز والجراد وغيرهما .

١٧٠ إن كل الناس يخدم بعضهم بعضا ، وكلما كان الإنسان أوسع نفعا كان أفضل كالأنبياء والحكماء الخ .

١٧١ علماء ألمانيا يؤلفون لصغارهم كتبا عن الطيور ضربا للأمثال كحكاية الحمامة . اعتراض على المؤلف وجوابه ، وفى الإجابة إيضاح مراتب الحيوان وعجائبه من حيث حفظ الذرية ، وبيان أن بعض المسلمين اليوم فى مساعدتهم الأعداء على حرب إخوانهم أدنى من الحيوان وأجهل من الدواب .

١٧٣ خاتمة هذا المقال وجماله فى السفينة والسمكة والمنطاد والمراكب الهوائية التى تعلمها الإنسان من الطير قبيل الحرب الكبرى ، وبيان أن الله لم يبعث الغراب وحده لنا ، بل بعث لنا كل العوالم العلوية والسفلية لنتعلم منها ، ولما غفلنا بعث لنا الأنبياء وقال : انظروا إن فى البحر جماعات من السمك كحوت العنبر الذى يبلغ طوله ثلاثين مترا وهو يأكل نمر البحر ، ومن هذا الحوت يكون العنبر ومن القيطس الذى يبلغ مئات القناطير ، وهكذا الأنعام فى البر تكون جماعات كالحمر الوحشية ، فلم اختص الله الطيور ومنها الغراب بقوله « ليريه كيف يوارى سوأة أخيه الخ » .

بيان أن الطير فيه سر أعظم لم يظهر إلا فى هذه الأيام ، فإن السفن والسمك فى البحر لاتعوم إلا إذا كانت أخف من الماء .

١٧٦ ومثلها المناطيد الهوائية الطائرة فى الجو بما فيها من غاز خفيف أخف من الهواء ، فهى على قاعدة السفينة والسمكة ، أما الطير فهو أثقل مئات المرات من الهواء المماثل لجسمه حجما ، وقد حار الناس فى الطيران فى الجوّ بالطيارات الثقيلة فاهتدوا فى أواخر القرن الماضى بمراقبة الطير إلى صنع الطيارات وهى أثقل من الهواء جدا كالطير ؛ فها هو ذا الطير ربانا وعلمنا فعلا فى هذا القرن .

١٧٨ اعتراض على المؤلف بأنه يلصق كل شئ بالدين وهذا منه ، وجوابه على ذلك بأنها فروض كفايات ، والمسلمون جميعا معاقبون على تركها ، وقد ذمّ الغزالى علماء زمانه على ذلك وجعلهم شرا من الشياطين .

صفحة

١٧٨ بيان أن هذه العلوم كلها ألزم للمسلمين اليوم من أيام الغزالى حين كان المسلمون أقوى الأمم ، فالآن يذم العلماء أقبح الذم إن لم يحرضوا على هذه العلوم ولم يتعلموها .
١٧٩ المقصد الخامس « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الخ » .
١٨٠ تفسير هذا المقصد ، وبيان حكم قطاع الطريق .
١٨١ إن أهل أوروبا اليوم يهلكون المسلمين ظلما وطغيانا بلا سبب ، وبيان حكم السارق والسارقة الخ .
١٨٢ ذكر السموات والأرض فى كل مقام لحكمة تناسبه .
١٨٣ استبصار فى بيان أن جميع المخلوقات مراتب بعضها فوق بعض فى الدنيا ، فالأخرى كذلك .
١٨٤ المقصد السادس « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر الخ » .
١٨٥ الكلام فى الحكم بين أهل الكتاب الخ ، وقصة اليهودى واليهودية الزانيين ، والكلام فى عدم المحاباة فى الحكم .
١٨٧ تفسير الآيات تفسيرا لفظيا ، والكلام على الراشى والمرتشى ولعنهما .
بقية تفسير هذه الآيات .
١٨٨ بيان مافعله بعض علماء الإسلام فى مصر والجشع ، ودخول القانون الفرنسى بمصر .
١٨٩ هل شرع من قبلنا شرع لنا ؟ وبقية تفسير هذه الآيات .
١٩٠ المقصد السابع « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الخ » .
١٩٢ التفسير اللفظى لهذا المقصد ، الكلام على الردة .
١٩٣ قتال أهل الردة وذكر مسيلمة الكذاب وخطابه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر المتنبئين مثل ذى الخمار الأسود العنسى ، ومثل طلحة بن خويلد ، وقتال أبى بكر الصديق لأهل الردة .
١٩٤ من هم القوم الذين يحبون الله ويحبهم الله ؟ وبيان أنهم موجودون إلى يوم القيامة .
بقية التفسير اللفظى لآيات هذا المقصد .
١٩٦ لطائف أربع .
١٩٧ خيانة الوزير العلقمى لدولة الإسلام لأنه كان شيعيا ليقتص من أهل السنة ، تحقيق مع مبشر مسيحى وإقامة الحجة عليه وإقراره بأنه مسلم سرا مبشر جهرا .
١٩٨ اللطيفة الثالثة : حكاية مع شاب هندى ظهر من كلامه أنهم يعملون بنصائح القرآن .
١٩٩ ذكر قوله تعالى « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » .
المقصد الثامن « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الخ » .
٢٠٠ التفسير اللفظى لهذا المقصد .
٢٠٢ ذكر هجرة المسلمين إلى الحبشة (الأولى والثانية) .
٢٠٣ عمرو بن العاص ومن معه أرسلهم أهل مكة إلى النجاشى للايقاع بالصحابة وردهم مخذولين .
إسلام النجاشى وبكاؤه والقسيسون معه لما سمعوا قراءة (سورة مريم) .
المقصد التاسع « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » .

صفحة

٢٠٥ بيان كفارة اليمين تفصيلا فى المذاهب كلها .
٢٠٦ بقية تفسير الآيات .
٢٠٧ الكلام على تحريم الصيد فى حال الإحرام ، والكلام على أن الكعبة ملجأ المسلمين .
٢٠٨ ذكر ما كتبته سابقا فى أمر الكعبة وأنها ستكون هى الجمع الذى يجمع المسلمين علميا وسياسيا ، وأن ذلك ابتداء هذه السنة فعلا على يد الأمير ابن سعود .
« يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء الخ » .
٢٠٩ الكلام على قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الخ » .
٢١٠ تفسير عبد الله بن المبارك من أتانا نحفظ أهل ديننا الخ .
المقصد العاشر « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم الخ » وبيان أن المعنى تقدم فى أول السورة .
٢١١ المقصد الحادى عشر « يوم يجمع الله الرسل إلى آخر السورة » .
٢١٢ التفسير اللفظى لهذا المقصد وابتداء التفسير اللفظى .
٢١٣ بقية التفسير اللفظى ، وصف المائدة التى جاءت فى الروايات .
هل نزلت المائدة ؟ خلاف المفسرين فى ذلك واتصال هذا بعلم الأرواح الحديث .
٢١٤ واللاس الإنجليزى أحضرت الآنسة نيثول أمامه زهورا وفاكهة الخ .
٢١٥ إن الأرواح بعد الموت يعطيها الله قدرة على صنع بعض المواد .
٢١٦ المائدة الحسية لاتفيد يقينا ، ونزولها ابتلاء كما يبتلى السالكون بالكشف الخ .
الامتحان عام لذوى المال والجمال والكشف والعلم الخ .
٢١٨ إنجيل برنابا وكيف ظهر فى هذا العصر وأبان أن المسيح برىء من كل مايدعيه النصارى فيه ، وكيف نسى المسلم ربه بشيخه الذى هو أقل من المسيح .
٢١٩ حكاية المسيح عن إيليا إذ صرح أن الناس إذا أحبوا الأنبياء وشغلوا عن الله فإنهم كعباد الأصنام .
٢٢١ الفرق الإسلامية مثل السبئية والبيانية والزيدية والكيسانية .
٢٢٢ ضحك الفرنسيين على المسلمين ورشوتهم بالمال .
٢٢٣ حكاية الفلاح وزوجته وعنزه وأبى مسلم ، وحكاية الشيخ محمد شلبى مع المؤلف .
٢٢٤ الفلاح وزوجته والسيدة نفيسة رضى الله عنها وإقناع المفسر ذلك الفلاح أن الأمر لله وحده ، ووجوب تعميم التعليم فى الإسلام حتى يزول الضلال .
٢٢٥ مقابلة النص الصريح بين كرشنة ويسوع المسيح ، وبيان أن الأناجيل قد نقل فيها عن أهل الهند كثير مثل الهادى والمخلص والمعزى الخ .
٢٢٦ ومثل أنه ربى مع الرعاة وأنه ربى بحال الفقر والذل .
٢٢٧ ومثل أنه صلب ومات وأنه ثقب جنبه بحربة وأنه قام مع الأموات ، كل ذلك منقول من كتب الهند .
٢٢٨ ومثل أنه الألف والياء والوسط وآخر كل شئ ، ومثل أنه كان يحارب الشياطين ، ومثل أنه الصانع الأبدى الخ .

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الرابع

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
عباشرة محمد أمين عمران

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام هي مكية

﴿ إلاست آيات من قوله تعالى ـ قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم ـ إلى آخر ثلاث آيات ، وقوله تعالى ـ وما قدروا الله حق قدره ـ الآية ، وقوله تعالى ـ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ـ إلى آخر الآيتين ، ويقال إنها نزلت جملة واحدة ليلا وكتبوها من ليلتهم غير الآيات الست المستثنيات ﴾

وهذه السورة ست مقاصد

المقصد الأول : في إثبات الله بالعلوم الطبيعية وإثبات الرسالة ومحاورات شتى مع المعاندين من أوّل السورة إلى قوله وهو الحكيم الخبير .

المقصد الثاني : في نظرات الخليل عليه الصلاة والسلام في عوالم السموات وفي الأنبياء من ذريته وما يتبع ذلك من قوله ـ وإذ قال إبراهيم ـ إلى قوله تعالى ـ وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ـ

المقصد الثالث : العجائب الطبيعية العلوية والسفلية من قوله تعالى ـ إن الله فالق الحب والنوى ـ إلى قوله ـ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ـ

المقصد الرابع : بعض صفات الله ومحاجة الجاحدين والرد عليهم من قوله تعالى ـ وجعلوا لله شركاء الجنّ ـ إلى قوله تعالى ـ لايفلح الظالمون ـ

المقصد الخامس : الحلال والحرام في الأنعام من قوله ـ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ـ إلى قوله ـ وهم بربهم يعدلون ـ

المقصد السادس : بعض المحرمات والعدل والهدى والتوبة المقبولة ومضاعفة الحسنات وأنواع من الفضائل وأضدادها من قوله تعالى ـ قل تعالوا أتل ماحرّم ربكم عليكم ـ إلى آخر السورة .

المقصد الأوّل من هذه السورة قسمان : القسم الأوّل من أوّل السورة إلى قوله تعالى ـ ويعلم ما تكسبون ـ ، القسم الثاني من قوله تعالى ـ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ـ إلى قوله ـ وهو الحكيم الخبير ـ

(الْمَقْصِدُ الْأَوَّلُ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۞

التفسير اللفظى لهذا القسم

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) تقدّم معنى الحمد فى سورة الفاتحة ، ويقول أهل المعانى لفظه خبر ومعناه الأمر : أى احمدوا الله وصيغة الخبر هذه المتضمنة معنى الأمر أبلغ فى البيان من احمدوا ، ثم بين المحمود عليه فذكر خلقه للسموات والأرض وجعله للظلمات والنور ، والجعل بمعنى الخلق أى وخلق الظلمات والنور ، فالظلمات كظلمات الليل والكفر والجهل ، والنور نور الكواكب والشموس والعلم والإيمان (ثم الذين كفروا) بعد هذا البيان وأن الله مستحق للحمد لهذه النعم العظيمة حمده الحامدون أم لم يحمدوه (بربهم يعدلون) أى يعدلون بالله غيره ويجعلون له عديلا من خلقه فيعبدون الحجارة مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض ، والجملة عطف على جملة الحمد لله (هو الذى خلقكم من طين) أى ابتدأ خلق أبيكم آدم منه وهكذا أنتم ترجع أكثر المواد التى تتغذون بها إلى عناصر مبثوثة من الطين ولاجرم أن خلق الإنسان أشرف من خلق الطير المذكور فى السورة السابقة أنه نفخ فيه عيسى فصار طيراً بإذن الله ، فخالق الإنسان من الطين أحق بالعبادة ممن نفخ فى صورة الطير من الطين فحيى بإذن ربه ، وهذا فيه تقريع للعقول الإنسانية الصغيرة المقلدة التى تعبد المسيح جهالة وغفلة وقوله (ثم قضى أجلا) أى أجل الموت وقوله (وأجل مسمى عنده) أى أجل القيامة (ثم أنتم تمترون) أى تشكون أو تجادلون من المرية أو المراء (وهو الله فى السموات وفى الأرض) أى وهو المعبود فيهما (يعلم سركم وجهركم) الجملة خبر ثان والأول لفظ الجلالة (ويعلم ماتكسبون) من خير أو شر . انتهى التفسير اللفظى لهذا القسم .

اعلم أن هذا المقام يستدعى أن تتصل هذه السورة بما قبلها ، ولما أخذت أكتب حضر صاحبى الذى كان يسألنى فى آخر المائدة وقال : إن هذه السورة لابد أوّلا من معرفة ربطها بما قبلها . وثانيا قد كنت أنت كتبت تفسيراً لأوّل هذه السورة وهو هذا القسم الذى نحن بصدده من أوّل السورة إلى قوله تعالى ـ ويعلم ماتكسبون ـ فى مجلة الملاجىء العباسية ، وذكرت فيه عجائب النور المشتقة من الظلمات الدخانية والفحم وكيف يكون الدخان المزدرى بين الناس منبعا للكهرباء تشتق منه فأرجو إثباته هنا لأنه يفيدنا عجائب من هذه الآية التى جمع الله فيها بين الظلمات والنور كما جمعهما فى أعمالنا المشاهدة . ثالثا لابد من معرفة سبب ترتيب هذه الأربعة وهى السموات والأرض والظلمات والنور . وهل للكشف الحديث أثر فى هذا الترتيب .

وإذا كنا نرى الأئمة رضى الله عنهم فى سورة المائدة قد أطنبوا فى ترتيب أعضاء الوضوء حتى إن الشافعى أوجب الترتيب فيها غسلا لترتيبها فى القرآن ذكراً فمن الجهالة أن لايفكر علماء الإسلام فى هذا الزمان فى هذه المذكورات الأربعة ، ومعلوم أن العلم مقدّم على العمل ، وإذا كانت عناية القدماء بالأعمال فلتكن عناية علماء المستقبل بالعلوم أى العلوم الطبيعية ويقولون لم ذكرت السموات فالأرض فالظلمة فالنور كما ذكر الوجه فاليدان فالرأس فالرجلان ، ما السبب فى ذلك ؟ (فقلت) : أما مناسبة هذه السورة لما قبلها فذلك أمور : الأوّل أن المائدة قد كثر فيها ذكر مايحل من الطعام وما يحرم فى أوّل السورة وفى خلالها وفى آخرها وسورة الأنعام فيها ذلك كما سيأتى حتى إنها سميت باسم الأنعام وهى داخلة فى باب الحلال والحرام . الثانى أن السورة المتقدّمة مختومة بقوله تعالى « لله ملك السموات والأرض وما فيهنّ » والأنعام مستفتحة بقوله «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » . الثالث أن سؤال الله لعيسى ابن مريم فى أواخر السورة تضمن توبيخ أهل الكتاب على طلب البراهين التى تكون من قبيل خوارق العادات كالمائدة التى تنزل من السماء ، وذكر أيضا أن عيسى كان يحيى الموتى وينفخ فى الطين فيكون طيراً بإذن الله وكأنه قيل له إذا لم يكن طلب إنزال المائدة من السماء من الأمور المحمودة وقد أنذر الله الحواريين لما طلبوها وذكرت هذه لما سأل

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خوارق العادات منه وقيل لهم «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» فإذا لم يكن ذلك محمودا فما العمل لمعرفة الحقائق قال الله بعد ذلك : اقرءوا هذه الكائنات وأخذ يذكر الحمد على خلق السموات وخلق الأرض وجعل الظلمات والنور . وكأنه يقول إذا كنت أنعمت على المسيح أن يخلق طيراً من الطين وينفخ فيه فيكون طيراً بإذنى فأنا خلقتكم أنتم من طين والتفكير فى الطبيعة أهم من التفكر فيما أنعمت به على عبد من عبادى وهو عيسى فكيف تتركون أيها الناس هذه السموات وهذه الأرض وهذه الظلمات وهذا النور ثم تقولون لأنبيائكم أرونا آيات وعجائب مثل طلبكم مائدة من عيسى ومثل أسئلتكم لمحمد ونحو ذلك فيقول له الرجل من أبى ويلحف آخر فى السؤال . وكيف تغمضون عيونكم وتصمون آذانكم عن هذه المناظر العجيبة وتطلبون البرهان من المخلوق مع أن الخالق أراكم الآيات فأعرضتم عنها .

أيها الناس إن العقول القاصرة والنفوس النائمة والأمم الكاسلة هى التى تذر الآيات الباهرات فى الطبيعة وتلتمس ما هو أقل منها مما لا يتناهى من الأنبياء والأنبياء يشيرون إلى الطبيعة وهم مرسلون من عند خالقها ليعرّفوكم صنعه ويعلموكم قدره من فضله وبديع خلقه وكيف تكتفون بمائدة تنزل على عيسى أو طير من طين أمرته أن ينفخ فيه ومائدتى أوسع مساحة وأبهى نظاما وأجمل إحكاما وأرقى ما كلا وأنا من الطين خلقت آلافا من الطير والحيوان والإنسان ، فمائدتى السموات والأرض لا أرغفة وسمكة وخلّ وزيتون بل فى هذه الأرض ما تشتهيه كل النفوس وما يملأ العيون بهجة والقلوب حكمة . ولست أقول لكم آمنوا فحسب بل أقول لكم قولوا « الحمد الذى خلق السموات والأرض » أى فلتحمدوا الله فضلا عن الاعتراف بقدرته والإيمان بوجوده فإن الإيمان فى هذا المقام ليس يكفى ذكره بل نطلب منكم أن تحمدوا الله على النعم التى شملتكم والأنوار التى غمرتكم والجمال الذى غشاكم والفضل الذى عمكم .

ولما كان هذا المقام عظيما ومبدأ سورة الأنعام فى مقام سام لأن هذه المسألة من أهم المسائل وهى مسألة المعجزات وخوارق العادات والعلوم الطبيعيات والانتقال من دور الأطفال إلى دور الرجال وخلق أمة تكون أرقى من الأمم البائدة ناسب أن يؤتى هنا بالحمد لله .

واعلم أنه لم يذكر فى القرآن من أوله إلى هنا الحمد لله إلا فى الفاتحة وفى هذا المقام . أما الفاتحة فإنها أول القرآن وبالحمد ابتدئت لأن الحمد شأنه عظيم ، وقد وضحت معناه هناك إيضاحا تاما ولم يعد الحمد بعده إلا هنا إيقاظا للنفوس وتحريكا للهمم وترقية للنفوس وتنبيها لها أن تخرج من دور التقليد إلى دور النظر ، ومن مقام الجهلاء إلى مصاف العلماء ، ومن دركات الضعفاء إلى درجات الأقوياء ، ومن صف العلماء إلى مقام الحكماء ، فالحمد هنا لهذه الحكمة مذكور . ألا ترى إلى ما سيأتى فى هذه السورة من ذكر نظرات الخليل فى النجم والقمر والشمس . ألا ترى إلى ما بعد ذلك من ذكر فلق الحب والنوى وإخراج الحى من الميت والميت من الحى وفلق الإصباح والاهتداء بالنجوم وإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات المتشابهات وغير المتشابهات . أفلا ترى أيها الذكى الفطن أن هذا هو بعينه الآيات البينات الطبيعية الإلهية التى أشار إليها بقوله « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » فإذا كان الحمد فى الفاتحة على تربية العالمين فهو إجمالى . ولما استأنس العاقل بذلك أخذ هنا يفصل العالم فذكر السموات التى هى محل الإشراق ومنها اشتقت الأرضون ثم كانت تلك الأرضون تأخذ فى الجمود شيئا فشيئا حتى تصير مظلمة ثم يكون الإنسان من الطين ويأخذ فى النور والعلم شيئا فشيئا حتى يصل إلى مبدأ الجمال والبهاء وعالم النور والصفاء ثم تعرج روحه نيرة إلى عالم النور ولا تزال ترقى من نور إلى ما هو أنور منه « وأن إلى ربك المنتهى » كما سيأتى إيضاحه فى الجواب على السؤال الثالث . فالله هنا يقول

هذه

هذه الآيات والعبر هي التي يجب أن تعقلوها ومتى عقلتموها عرفتم محمداً ثم الله لأنه خلق السموات والأرض، هذا ما أردت ذكره في الجواب الأول .

﴿ أما الجواب على السؤال الثاني وهو أن أذكر ما كتبته في مجلة الملاجئ العباسية في هذا المقام ﴾

فأقول: قلت هناك بعد إيراد الآيات من قوله ـ الحمد لله الذي خلق السموات ـ إلى قوله ـ ويعلم ماتكسبون ـ يقول الله إن الله يستحق الحمد على نعمه الجسيمة وآلائه العظيمة ومنحه الكبيرة حمده الحامدون أم لم يحمدوا كفر به الناس أم عبدوه، ثم عدد من صنوف نعمه أربع نعم خلق السموات والأرض وإنشاء الظلمات وإنشاء النور؛ فالسماء ذات الكواكب والشمس والقمر والظلمات كثيرة كظلمة الصخر والبحر والكهف والليل، كما أن الضلال متنوع الصور متكثر الأشكال بخلاف الهداية فهي الصراط المستقيم والنور كله هاد للناس لاضلال فيه ولاغرور .

وكأنه عز وجل يقول الله محمود على هذه العجائب البديعة أي مستحق الحمد لأنه خلقها نعمة على العباد « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » عن الحمد بل يكفرون بنعم الله عزوجل أو يسوون بربهم غيره كالأوثان . وكيف يسوون به غيره مما لايقدر على شيء وهو الذي خلق هذه العجائب .

(س) اذكر لي مثلين اثنين بحيث يكون المثل شاملا لعجائب السموات والأرض وبدائع الظلمات والنور .

(ج) تصوّر أعظم قصر منيف لملك عظيم مرقش السقوف مزين الجوانب والأركان والحيطان والسقف بما لايرى إلا في خزائن الملوك وفيه سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة، وترى الطنافس (نحو السجاجيد) طويلة الوبر خالية الشعر خلابة النظر .

وفي وسط ذلك القصر حجرة بهية جميلة مزخرفة معلق على بابها ثمان ستائر ؛ فأما السبعة الأولى فإنها ذوات ألوان مختلفة، فمنها الأحمر ومنها الأصفر ومنها الأزرق ومنها النيلي ومنها البرتقالي ومنها الأخضر ومنها البنفسجي فهذه الستائر السبع المختلفة الألوان فإنها تنضام وتتداخل وتتحد وتصير ستارة واحدة ذات لون أبيض تسر الناظرين .

وأما الستارة الثامنة فهي سوداء، فيرجع عدد الستائر اثنتين بيضاء وسوداء .

هذان الستاران يتعاقبان على تلك الحجرة التي في وسط القصر وفي داخلها رجال كثير ونساء .

فإذا أسدل الستار الأسود ظهر مافي القصر من الحجرات والأركان ونقوش السقف والجواهر المرصعة في أكنافه فاتضح بالظلمات مافي القصر من الفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والجواهر المرصعة والدراري اللامعة واليواقيت البهجة .

فإذا أسدل الستار الأبيض حجب القصر ومافيه وحجب البياض عن سكان الحجرة كل جمال وبهاء ولم يروا إلا النقوش المبدعة واختلاف الألوان في أشعار الطنافس المفروشة تحت الأرجل من أحمر قان وأخضر ناضر وأزرق زاهر وأصفر فاقع وأبيض ناصع؛ فالستار الأبيض يحجب القصر عن سكان الحجرة ويضيء داخلها والستار الأسود يظلم داخلها ويضيء خارجها .

(س) هذا التمثيل غير معقول وكيف يكون الظلام معطيا الإبصار وكيف يكون الضياء حاجبا عن العيون بدائع القصر وغرائب النقش .

(ج) أما القصر فهو العالم من السموات والأرض وأما الستار الأسود فهو الليل، وأما الأبيض المشكل من سبعة الألوان فهو ضوء النهار وأما منقش السقف ومزوق الجدران والحيطان فهي النجوم وأما الحجرة التي فيها السكان فهي الأرض عليها نوع الانسان والليل إذا أرسل سدوله ونشر مطارفه السود فإنه يحجب عنا

ما أقلت الأرض من الأشياء العجيبة والنقوش البديعة . ورينا النجوم وضياءها من السيارات الصغيرة والثوابت الكبيرة والمنازل العالية والبروج المشيدة ومن ذاتى النجمة القطبية أو بنات نعش أو الفرقدين الساهرين أو الثريا أو السماك الرامح إلا إذا حجب الظلام زينة الأرض عن الأنام وطمس نقوشها فأبرز جمال العالم فى سمائه وزينته وبهائه ولاجرم أن الأرض للعبر عنها هنا بالحجرة أصغر من كل نجمة من نجوم السماء والنجوم لانهاية لعددها ولاإحصاء لأجرامها فهذه الكواكب السماوية هى العالم كله ولسنا نراها إلا فى الظلام فأما الضياء النهارى فإنه يحجب عنا العالم كله . ولايرينا إلا ماتحت أرجلنا وهى الأرض ونقوشها وزينتها من النبات والحيوان والإنسان والبر والبحر والطير فقد وضح أن الظلمة أضوأ من النور وأن النور حجاب الأبصار عن رؤية كل ثابت وسيار .

(س) لقد فهمت ما وصفت ولكنى لم أفهم كيف صارت الألوان السبعة لونا واحدا .

(ج) إن ماتراه من الضوء المنبسط على الأرض الذى يشع من الشمس إنما هو الألوان السبعة كما وصفنا فالضياء مركب من سبعة ألوان والظلمة واحد بسيط قال كيف تفسر القرآن وتقول بلا برهان ؟ قلت ألم تر إلى قوس قزح الذى يظهر فى السماء حين المطر وتراه ذا سبعة ألوان يقابل الشمس أينما كانت فإن كانت فى الأفق الشرقى قابلها فى الأفق الغربى وإن تبدت فى الأفق الغربى بدا ظاهراً فى الأفق الشرقى فإن ارتفعت ارتفع وإن انحطت فهو بحذائها تابع لها . أليست تلك الألوان لون الشمس تحلل ألواناً وتظهر للناس عيانا

(س) فاضرب لى مثلا أقرب وائت ببرهان أوضح .

(ج) ألم تر البلور المضلع الذى تراه فى النجفات المتقدات . ألم تر كيف حلل النور فى زواياه وصار الضياء الأبيض ألوانا وقد تراه فى قطرات الماء المتناثرات فى الرشاش ، ذلك بيان ما عنه سألت وإيضاح ماله طلبت . ألا وإن هذه لمحة من لمحات قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور »

(س) اضرب لى مثلا يمثل حالنا على الأرض وحال الكواكب الجارية .

(ج) إن مثلنا على الغبراء كمثل سمك يجرى فى بحر لجى تجرى من فوقه السفن الجاريات فى البحر كالجبال فوق سطح الغبراء وما أجهل السمكات بالسفن الجاريات فهكذا حالنا مع الكواكب إنهن لجوار فى السماء ولاعلم لنا بها إلا كما يعلم السمك من حال المسافرين فى السفن الجاريات فى البحار .

(س) كيف تعرف أن الألوان السبعة ترجع إلى لون واحد ومن أى علم نقف على ذلك .

(ج) على المسلمين فى أقطار الأرض أن يتعلموا العلوم الطبيعية ، عليهم أن يفهموا ما ذرأ الله فى الأرض والسماء ، عليهم أن يفهموا الحيوان ويدرسوا النبات ويفقهوا ما ذرأ الله لهم فى العالم من الجمال والبهجة والبهاء . ألم تر كيف كان معنى الآية التى نحن بصددها . هكذا الله مستحق الحمد على النعم التى أنعمها على العباد من السموات والأرض والظلمات والنور ومع أنه مستحق الحمد والشكر ترى الذين كفروا بربهم الذى رباهم بهذه النعم يعدلون عن الحمد فيكفرون بنعمه ولا يشكرونه عليها وكيف يشكر المسلمون نعم ربهم إذا جهلوها فالشكر لايكون على المجهول . ألا فلنتعلم هذه العلوم فى مدارس الإسلام وإلا حقت علينا كلمة العذاب .

(س) إذن تريد أن نقرأ كل علم مما يقرؤه الغربيون وكأن ديننا يطلبها كلها .

(ج) نعم إنى أقول بأعلى صوتى ما دام المسلمون يجهلون هذه العلوم فإنهم عن شكر الله غافلون ولذلك ضرب عليهم الذل خيامه وأوردهم الجهل موارد الهلكة وسلط عليهم جيرانهم فأحاطوا بهم من كل فج عميق فمن نفر الناس عن هذه العلوم فإنه ضال مضل جاهل حقود . هذا كلام الله وهذه شريعة نبيه وهذا حجة الإسلام الغزالى لما شرح باب الشكر فى الجزء الرابع من الإحياء ذكر السماء ونجومها والأرض وجبالها

والسحب

والسحب وبرقها والرعد وصوته والبرق وضوءه وقال من عرف الله بهذه المخلوقات وتأمل هذه الكائنات ودرس هذه النظامات فهو الشكور ، ومثله القطب الشيرازى والفخر الرازى . فهل هؤلاء الأعلام ضالون وأضدادهم ممن يصدون عن هذه العلوم مهتدون . وإذا كان القرآن ونصوص العلماء لاتقنع الجاهلين فهل الجاهلون هم المحقون. اللهم ألهم أمة الاسلام وعلماء الدين جمالك وجلالك وأرهم محاسن صنعك حتى يقولوا « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

(س) لقد قرر الامام البيضاوى فى هذه الآية تفسيرين فهل توضحهما وتأتى بمثل آخر عليهما .

(ج) التفسيران اللذان ذكرهما الامام البيضاوى يرجعان إلى تقدير الاعراب فإن جعلنا التقدير أن نعطف الجملة الثانية على جملة الحمد كان المعنى هكذا الله مستحق الحامد على نعمه المذكورة ثم الذين كفروا بالله الذى رباهم بتلك النعم يعدلون عن حمده ولايشكرونه، وإن عطف على جملة خلق صار المعنى هكذا الحمدلله الذى خلق ما ذكر ثم الذين كفروا يسوون بربهم الذى خلق ذلك غيره من الأوثان التى لاتخلق ويكون أول التفسيرين كقوله تعالى « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون » وعلى التأويل الثانى كقوله « أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون »

(س) قرب لى مثل نعمة الله التى نجهلها وكيف يكون الجهل مانعا من الشكر وكيف تكون العلوم التى يدرسها التلاميذ فى أوربا شكر الله عز وجل فبين هذا بمثال محسوس مشاهد فى المنازل ودع السماء ونجومها والشمس وقمرها والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس فقد تكرر على أسماعنا وتوالى على عقولنا .

(ج) هل تعرف الفحم الحجرى والفحم البلدى وهل شاهدت الدخان المتصاعد منهما المدنس الثياب المسوّد للفرش الذى يظلم المكان وتدمع منه العينان . أخير هو أم شرّ ؟ . فقال بل شرّ . قلت إن ذلك الدخان المنبعث عن الفحم الحجرى نعمة من الله كبرى على العلماء، ومصيبة على الجهلاء، فإن هذه الظلمة المغشية للمنازل المدنسة للثياب ذات الرائحة الكريهة والمنظر القبيح تعطى للناس نوراً وتصبغ الثياب بأجمل الألوان وتولد الكهرباء وتدير الدولاب وتسوق القطار كما يسوقه البخار. وتسير السفن فى البحار وقطرات الترام فى شوارع الاسكندرية والقاهرة فتعجب كيف أبدع الله النور والظلمة وسوّاهما وأحكمهما بحيث اتخذ النور من الظلمة والحركة من السكون والجمال من القبح إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر المسلمين نائمون .

(س) هذا خارج عن المعقول وكيف صار الدخان نورا ؟ أوضح لى هذا المثل .

(ج) اعلم أن الله عز وجلّ أدهش العقول بعجائب حكمه وبدائع صنعه وجعل هذا الفحم الذى تراه فى بيوتنا على أربعة أنواع الحجرى والعظمى والنباتى والطبيعى المسمى فحم الجرافت. وهذه الأنواع الفحمية كلها من نوع الظلمات . وهناك فحم آخر يسمى فحم المعوجات وهو الذى يتخذ مما يتراكم من الدخان المستطير من الفحم الحجرى حين احتراقه المتصاعد إلى أعلى فيتخذ ويحصر ويضغط عليه ويجعل أشكالا مستطيلات وهذه هى المسماة فحم المعوجات . فإذا أخذت قطعة من تلك وألبست من أعلاها بقطعة نحاس سميت العمود النحاسى فإذا وضع ذلك العمود النحاسىّ فى إناء من الفخار الذى كثرت مسامّه ووضع ذلك فى بطارية ثم أتى بعمود من الزنك الذى يسميه علماء الكيميا بالخارصين ويسميه العامة بالتوتيا وهو الذى يتخذ منه الأدلاء (جمع دلو) التى يستقى بها المسماة (جرادل) فيحصل عندنا الآن العمود النحاسى وعمود التوتيا الموضوعان فى البطارية ثم يؤتى بملح النوشادر الذى يبيض به المبيضون ويذاب فى الماء ثم يوضع ذلك الماء المذاب فيه ملح النوشادر فى البطارية فتحلل أجزاء من التوتيا ويحلل الماء كذلك إلى أوكسجين وأودروجين ويحصل تفاعل مابين الفحم وما أحاط به من المركبات الجديدة فيتولد تيار كهربائى مابين الموجب وهو عمود النحاس

أو فحم للموجات وبين السالب وهو الزنك . فالخلاصة أن دخان الفحم الحجرى المضغوط الذى سمى فحم للموجات إذا وضع فى بطارية وقرن بقطعة من الزنك وجىء معهما بماء مذاب فيه ملح النوشادر فإن الله عزّ وجل يولد بين تلك الأشياء الآنفة كهرباء . فتعجب كيف كان دخان الفحم المظلم مشرق الأنوار ومولد الأضواء ومجرى العربات ومسير السفن والقطرات وسائق الترام وموقد البيوت وشارح الصدور وضارب أجراس المسرّة (التليفون) .

(س) ما معنى قولك كهرباء .

(ج) إنها مثل ما يحصل للفلاح حين يعثر على سمك يسمى (أباالرعاش) فهذا السمك يحدث حالة فى جسم الذى يصطاده فهذه كالكهرباء .

(س) كيف يحدث الدخان ضوءا وهو ظلمة .

(ج) إن الفحم الحجرى إذا أحرق بالنار فى إناء عظيم تطاير دخانا فيستقبلونه فى ماء كما يمرّ دخان مدخن الحشيشة فى ذلك الذى يسمونه (الجوزة) فإذا مرّ من ذلك الماء رسب فيه القطران ومرّ خالص الدخان إلى ماء آخر ثم آخر حتى يصير دخانا صافيا تاما وما تخلف فى تلك المياه فإنه يعطى أصباغا من أحمر وأصفر وغيرها حتى أوصلها بعض الألمانيين إلى ألفى لون ، وأما الدخان الصافى فإنه يمرّ فى الأنابيب متجها إلى الشوارع والمنازل وتجعل له منافذ فى الأمكنة المراد إيقادها فمتى لمست النار اشتعلت وذلك المسمى (غاز الاستصباح) الذى نستضىء به فى شوارع القاهرة والاسكندرية وذلك غير ضوء الكهرباء التى شرحناها فإنها تولد النار والضوء والحرارة والحركة .

(س) عرفت فحم للموجات والفحم الحجرى وكيف ولدت الكهرباء منهما وكيف كانا مصدرين للأضواء والألوان ، فما فائدة الفحم العظمى والنباتى والجرافت .

(ج) الفحم العظمى هو المتخذ من العظام المحرقة ومن خواصه سلب ألوان السوائل المارة به حتى إن الخل الأحمر إذا تخلله سلب لونه . والفحم النباتى المتخذ من الأشجار يذهب بالعفونة وله منافع أخرى ليس كلامنا فيها فإن الكلام فى تفسير قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » وهكذا ليس لنا أن نشرح فحم الجرافت الذى خلقه الله عزّ وجل فى الجبال كهيئة صفائح وجعله نافعا للكتابة وهو الذى يسمى بعد وضعه فى خشب الدردار (أقلام الرصاص) على أن الفحم العظمى والفحم النباتى يصلحان لما يصلح له الفحم الحجرى من إحداث الأضواء ولكنه هو المستعمل النافع . ومن عجب أن الماس من الفحم حتى إن العالم (داق) ضغط على الكربون الخالص فصار ماسا وحلل الماس فرجع إلى كربون . أليس من العجب أن يكون الفحم منبع الكهرباء والنور والحركة وأن يصير ماسا تحلى به الغانيات ويجعل ذخيرة فى الخزانات ، فما أجمل العلم وما أعجب الحكمة . فمن ذا الذى يعلم هذا ولا يأخذه العجب كل مأخذ من الجهل الفاضح الذى حلّ بنا معشر المسلمين بقول الله عزّ وجل « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » يقول إنه أهل الحمد على هذه النعم والذين كفروا يعدلون عن الحمد على أحد التفسيرين ونحن غافلون عن حكمه فى عجائب صنعه فإذا جهلنا نعمة الدخان فكيف نشكره تعالى عليه . اللهم علم أمتنا وألهمنا الحكمة اللهم إنى برىء ممن يصدّون عن العلوم اللهم إنى أعجب لهذه الأنوار الناجمة من تلك الظلمات . أتعجب كيف جعلت النور من الدخان . كيف أدرت الدولاب بالكهرباء الناجمة من الدخان وهو فحم للموجات . أتعجب كيف خلقت الماس من الفحم . اللهم إنك أعززت قوما بالعلم وأذللت قوما بالجهل . اللهم ألهمنا العلم والحكمة إنك أنت السميع العليم . فهذه جوهرة من جواهر بحور أنوار أسرار قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » وهبة من نسماتها ونفحة من نفحاتها وسرّ من أسرارها . اللهم ألهمنا العلم والحكمة وأذق أمتنا الإسلامية

حلاوة العلم كما أذاقها مرارة الجهل وأنالها درجات العز كما نزلت لسوء طالعها فى دركات الجهل إنه سميع عليم .

الآية الثانية والثالثة

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) .

أثبت الله عز وجل فيما تقدم وحدانيته بما أبان من خلق السموات والأرض وما أوقد من النور الأبلج وما أرخى على الكون من ستائر الظلمات فى جنح الظلام ؛ فأورد فى هذه الآية دلائل البعث بما صدع من الحق وما أزاح من الشك وأبان من السلطان والحجة والبرهان إذ يقول « هو الذى خلقكم من طين » فإن أصلكم وهو آدم منه وأنتم بانى آدم من التراب خلقتم . ألا ترون إلى أجسامكم كيف كانت من العناصر الأرضية مركبة وكيف لا وأنتم تتغذون بما أنبتت الأرض مما حملت على ظهرها من كل نابتة أنفذت عروقها فى بطنها فاخضرت واستوت على سافها وازينت . النبات إنما ترعرع ونما بما سبق إليه من الهواء وما أوتى من الماء وأتيح من العناصر الأرضية ، وليس الحيوان إلا النبات والمخلوقات العامة من الماء والهواء الخ فليس جسم الإنسان غريبا عن هذا العالم فهو من ذلك كله ركب ونظم على أعجب نظام وأبدع إتقان . ومن ذا الذى يذكر عناصر الجسم الإنسانى ونظامه وتركيبه ثم لا يتعجب كيف ضم عنصراً إلى عنصر وهواء إلى ماء وفسفورا إلى حديد ورملا إلى جير لجمعهن عز وجل بمقدار وسواهن بحسبان ووزنهن بميزان . الإنسان طين يمشى وجماد يتحرك ومواد يعقل . جسمك مركب مما تدوسه بقدمك وتأكله بفمك وتستنشقه بأنفك من الأرض والغذاء والهواء . أنت تعقل وتفكر وتصور العلم فى عقلك تزن الدنيا والآخرة بفطنتك وذكائك . ثم إذا حللت جسمك ألفيته مما تعافه الأنفس ولاتلذ به الأعين ؛ ففى العظم فسفور وجير وفى العين رمل مصنوع مع مواد أخرى تكون الجسم الزجاجى فيها كما يفعل الزجاجيون ولولا الحديد ما صلح الدم الحيوانى . لا ينطق الرمل كلا ولا الجير ولا الحديد ولما اجتمعت وانتظمت هى وغيرها وتآلفت واتحدت أحدث الله فيها سره المصون وعلمه المكنون ونفخ الروح وأنزل العلم وقال إنى جاعل فى الأرض خليفة ، ومن ذا الذى جعل مقر الشهوة فى المعدة وما تحتها ثم أحل آثار الغضب فى القلب إذ يهتاج ساكنه ويغلى مرجله ويحمى وطيسه إذا ما أغضب الانسان وكيف جعل العقل مستقرا فى الدماغ . تراب وماء وهواء وعناصر شتى اتحدت معا فكان أعلاها للملك ودولته وأعوانه من سمع وبصر وذوق وشم ، فالعقل هو الملك الأعلى وله المكان الأعلى (وهى الرأس) فأما القلب فمستوى الغضب ومثار الدم ومصدره ومورده . ولقد تجلى للعلماء والحكماء فضل العقل على القوة الغضبية وهى أعلى من قوة الشهوة . فتعجب كيف كان الأعلى لأعلاها والأوسط لأوسطها ، فأما الأدنى فهو أجدر بالشهوات وتعاطى المأديات المغذيات من المواد الأرضية فمستقرها المعدة والأمعاء ثم كيف نظمت الأعضاء وكونت العضلات . أليس هذا كله من العجائب وكيف يكون طول كل إنسان ثمانية أشبار بشبره وإذا مد يديه إلى أعلى كان طوله عشرة أشبار وتكون سرته إذ ذاك فى وسطه بحيث إنك لو قست من أسفل القدم إلى السرة ومنها إلى أصابع يديك الممدودتين لكان كل جزء خمسة أشبار وإذا مد يديه إلى الجانبين على طول الباع كان طوله كعرضه وكل ثمانية أشبار . ذلك كله من الطين المركب ، ذلك العجب فى صميم الإنسان وجسم الإنسان مركب من عناصر الأرض والماء والهواء والمعادن وهى لاتعقل ولا تحس ولاتبصر فلما اجتمعت نظمت بأبدع نظام وقسمت ورتبت وهندست وجعلت بمقياس بحيث صار طول الوجه كطول القدم شبر وربع بشبر الانسان ، إذا اعتدلت خلقته واستقامت فى سائر ماتقدم ثم تحركت ونطقت وعقلت ودبرت النفس والمنزل والمدينة وربما أدارت إدارة الكرة الأرضية

وهل كما تعلم عناصر مبثوثة وأجزاء ملقاة فمن ذا الذى كوّنها ونظمها وهندسها وأنطقها وسوّاها وعلمها وألهمها فجورها وتقواها ثم هو الله فهذا كله داخل فى قوله تعالى « هو الذى خلقكم من طين » ومعنى قوله « ثم قضى أجلا » قدّر لكل امرىء وقتا يموت فيه ويطلق الأجل على مدّة الحياة مابين نفخ الروح والموت. قوله وأجل مسمى عنده : هو أجل القيامة أو المدّة مابين الموت والبعث وعلى ذلك يصير المعنى هكذا استدلالا على البعث هو الذى جمع العناصر المفرّقة من الطين وما فى معناه فنظمها وهندسها فصوّركم منها ونفخ فيها الروح وقضى لكم أجلا تنتهون إليه وغاية تصلونها وهو الموت ، وارتضى لكم مدة تعيشون فيها وهى مابين نفخ الروح فى الجسم وقبضها بالموت وعنده أجل آخر قضاه لكم وهو القيامة أو المدّة التى ما بين موتكم وقيام الساعة فإذا كان الله عز وجل قادرا على جمعكم من شتات العناصر المفرّقة والأجزاء المبدّدة وعلى ضرب أجل لبقائكم فكيف تمترون وتشكون فى البعث وقد شاهدتم أوّل الخلقين وأوّل الأجلين ومن قدر على ما سمعتم من المدهشات فى خلقكم وترتيب أبدانكم فهو أقدر على إعادتكم فالعطف بثم هنا استبعاد لا متراثهم وشكهم من بعد أن علموا أنه خالقهم وخالق أصولهم ومنظمها ومحييهم إلى آجالهم فإن من قدر على خلق العناصر وترتيبها وتنظيمها وتصويرها ونفخ الروح فيها وإبقائه إلى مايشاء كان أقدر على جمع تلك الموادّ وإحيائها ثانيا ، فظهر بهذا أن الآية السابقة توحيد واللاحقة استدلال على البعث .

ولما كان الناس كثيراً مايخدعون أنفسهم فيقولون نعم آمنا بالله وباليوم الآخر ولكنا إنما نفعل المعاصى بحيل نبتغيها نقلناها عن السابقين كأن نحتال على عدم الزكاة ببيع المال لولد أو قريب أو زوج قبل أن يحول الحول فيتجدد الزمن وتسقط الزكاة ويظنّ الفقيه أنه بذلك نجا من الإثم وتخلص من العقاب أويأ كل الرجل وشرب فى رمضان فى كسر بيت « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم » أو يصلى ساهيا قال الله بعد ذلك « وهو الله فى السموات والأرض » كأنه عزوجل فيهما لكمال علمه وإحاطته بالكليات والجزئيات ، وقوله « يعلم سرّكم وجهركم » فى بيان وتقرير . يقول بعد أن قرر التوحيد والبعث إن الله أحاط بالسموات والأرض علما لا تخفى عليه فيهما خافية فكأنه فيهما ، فهو يعلم سرّكم وجهركم ما يخفى وما يظهر من أعمال أنفسكم فإنها من العالم ويعلم مكتسبكم من أعمال الجوارح والأعضاء فخافوا عقابه فهذه الآيات الثلاث منظمة هكذا أولاها توحيد والثانية للبعث والثالثة إثبات علم الله بما فى الآفاق والأنفس ليخاف الناس يوم الحساب ويستقيم أمر المعاش ليفوزوا يوم القيامة بالثواب وينجوا من العقاب . تمّ الكلام على السؤال الثانى .

الجواب على السؤال الثالث . وهو ما كشفه العلم فى ترتيب هذه الأربعة وهى السموات والأرض والظلمات والنور .

عجائب القرآن فى العلوم الحديثة

وإنه حرام على أهل العلم فى أقطار الإسلام أن يختموا على قلوب الشبان فلا يلفتوهم لهذا الجمال لنبتدىء الآن فى شرح السؤال الثالث . الكلام على خلق السموات ولماذا قدّم . نقلت لصاحبى : اعلم أن ترتيب هذه الأربعة هو الذى جاء به العلم الطبيعى والفلكى وعلم طبقات الأرض . قال حدثنى كيف كان ذلك . قلت تصوّر أنك فى مكان خال ليلا فى فضاء متسع وقد رأيت حولك ظلاما حالكا وهناك نجوم مبعثرات فى أقطار السموات . قال تصوّرت ذلك . قلت والنسمات تهب عليك وحفيف الأشجار وصرير الماء وأصوات الحشرات فى الحدائق الغناء والأحراش والزروع وليس فى المكان إلا أنت تسمع هذه النغمات المختلفات وقد صفت نفسك وانشرح صدرك ورأيت جمالا يحيط بك . قال تصوّرت ذلك . قلت وأنت تعلم أن النجوم الجميلات التى أحاطت بك تبلغ مئات الملايين . قال نعم . قلت وكل واحدة منها غالبا أكبر من شمسنا بآلاف الآلاف ولكل كوكب من هذه الكواكب سيارات مثل أرضنا قال نعم . قلت إن لم تكن قرأته فى المدارس فقد مرّ فى هذا التفسير قال قرأت هذا وذاك . قلت فهل تدرى أى شىء من هذه خلق أوّلا ؟ قال : اعلم أن العالم كان

أصله

أصله مادة لطيفة جداً لاتؤثر فيها المؤثرات فلا الحرّ ولا البرد يؤثران فيها وهذه هي المسماة بالأثير ثم هذا الأثير يكوّن منه ضوء وحرارة وحركة وكهرباء ومغناطيس وهذه المذكورات ينقلب بعضها إلى بعض فالحرارة تكون حركة والعكس . قلت له لأفصل لك هذا المقام بعض التفصيل . فأقول إن الجرم يشاهد على ثلاثة أحوال إما أن يكون جامداً فتكون فيه الصلابة والمدونة والتبلور مثلا والأشكال المختلفة ، وإما أن يكون سائلا كالماء وهو يفقدها كلها فلاصلابة ولا لدونة ولاتبلور ولاشكلا ثابتا بل هو سائل لا لون له بل هو شفاف ولا كثافة بل هو لطيف، وإما أن يكون (غازا) أى جسما دخانيا والماء إذا صار غازا بالبخر مثلا زاد تمددا وانبساطا فيزيد حجمه ١٧٠٠ مرة عن حاله وهوسائل وتصبح الأجسام الغازية كلها شفافة متحدة لا أثر فيها للصلابة ولاللدونة ولا للون ولا للشكل ولا لغيرها وتتبرأ من كل ماتتنوع به السوائل والجوامد ولا تختلف الغازات عن بعضها إلا فى عوارض قليلة كالوزن وبعض أعراض أخرى .

وقد أثبت العلامة كروكس حالا رابعة بتجارب خاصة تصير فيها المادة ألطف من الغازية فيسرع التهابها وتضىء ويكون بها شعاع كهربائى تقوم به أشعة رنتجن وتسمى الحالة المشعة وهى تبعد فى اللطافة عن الغازية أكثر من ابتعاد الغازية عن الحالة المائية . وهناك حال خامسة وهى الأثيرية أى أن تكون المادة أثيراً وهى لاتقبل الوزن وتكون منتشرة مالئة الكون بأسره وباختلاف اهتزازها تولد الحرارة الكهربائية والأشعة المرئية والتى لاترى . وهناك حال سادسة لم يقل بها إلا علماء الأرواح إن الروح جسما سيالا لايفعل فيه أقصى الحر ولا أشدّ البرد وأىّ عمل فهذه الأحوال الست هى آخر ماوصل له العلم الحديث فى المادة، فألطفها الشفاف الذى هو أقرب إلى الأرواح ثم الأثير ثم المشعّ ثم الغاز ثم السائل ثم الصلب . فترى الزرع والحيوان والأشكال الكثيرة فى حال الصلابة فيكون هناك الاختلاف أكثر ويكون الاختلاف فى الماء أقل؛ فالاختلاف فى حال التلطف وكلما صفا الجسم كان أقرب إلى الوحدة فالوحدة فى اللطافة والكثرة فى الكثافة . وأصل هذه العوالم من مبتدأ أمرها كانت لطيفة بالحالة الأثيرية ومايقرب منها ثم حصل تجاذب وتدافع فتكونت شموس كثيرة لاتحدم وتلك الشموس هى التى تراها . وهذه الشموس دارت مئات الملايين حول نفسها وهى فى حالها النورية الشفافية ثم أخذت تتقلص شيئا فشيئا وأخذ بعضها ينفصل عنها من عند خط الاستواء فيها بسبب سرعة الدوران فتكون السيارات كالأرض والمريخ والمشترى الخ فالأرض إذا تكونت بعد الشمس . وعلى هذا تكون السموات وهى الأجرام الأثيرية والشموس التى تجرى فيها مخلوقة قبل الأرضين لأن الأرضين ماهى إلا تلك الكرات المنفصلات بعد تكوّن الشموس التى خلقت من الأثير أو فيه فثبت بهذا ثبوتاً علمياً لايشك فيه أحد من أهل الأرض أن السموات خلقت قبل الأرض فهذا هو السبب فى ذكر الأرض بعد السموات . فقال ولماذا أفرد الأرض ؟ قلت له أذكرك بأنى قلت لك اجلس فى أرض قفراء والسماء حولك فهل رأيت إلا أرضا واحدة وهى التى أنت عليها أما الأرضون الأخرى فلم ترها قال نعم . قلت هو ذاك . قال حدثنى إذن عن الأرض وعن الظلمات وعن النور كما وعدت بالكلام على خلق الأرض . فقلت أما الأرض فإنها لما انفصلت عن الشمس كانت حارّة حرارة شديدة . قال إذن هى كالشمس . قلت كلا إن الشمس ربما كانت تقدّر بمئات الآلاف من الدرجات ونحن لاندريها ولكنّ الأرض أمكننا معرفتها . قال وكيف ذلك . قلت بعلم طبقات الأرض، قال حدّثنى عنه وأوجز . قلت له إن وجه الأرض كانت حرارته إذ ذاك نحو ٣٣٠٠ ثلاثة آلاف وثلثمائة درجة من الحرارة . قال أنا أعرف معنى درجة الحرارة ولكن أرجو إيضاحها لمن لم يقرأ علم الطبيعة . قلت أنت تعلم أن الماء يكون ثلجا قال نعم . قلت فإذا كان مقطراً فإنه فى حال سيلانه تسمى درجته صفراً فإذا سلطنا عليه النار وغلا وفار فهذه تسمى مائة فالأحوال التى طرأت على الماء حتى أوصلته للغليان قسموها مائة درجة وجعلوا هذه الدرجات مقياسا . قال فهمت ولكن قل لى من أين جاء لنا أن الأرض كانت حرارتها

٣٣٠٠ درجة عند انفصالها من الشمس ومن أن جاء لنا أن الشمس كانت أكثر منها حرارة . قلت لأن قشرة الأرض تبلغ مائة كيلو متر عند علماء طبقات الأرض وكل ثلاثين مترا تنزلها فى باطن الأرض ترتفع الحرارة درجة ، فني عمق ٣٠٠ متر عشر درجات وفى عمق ثلاثة آلاف متر مائة درجة وفيها يغلى الماء فإذا ضعفنا هذا المقدار ٣٣ مرة وثلثا بأن تعمقنا إلى مائة كيلو متر صـــار عندنا نحو ٣٣٣٣ درجة أى تكون درجة الحرارة بعد قشرة الأرض مقدار مايغلى الماء نحو ٣٣ مرة وثلث أى حرارتها أعلى ٣٣ مرة وثلثا من حرارة غليان الماء وهذه الحرارة أقلّ من حرارة الشمس لأن الأرض لم تنفصل إلا لأنها كانت بالنسبة للشمس قشرة ظاهرة فانفصلت فهى أبرد منها والشموس التى نراها يذوب فيها كل شئ فتكون العناصر فيها إما معدومة وإما قليلة فإن النجوم البيضاء التى هى أشدّ حرارة من الشمس لا تحوى من العناصر إلا الأدروجين والفـفور ولم تظهر عناصر أخرى فيها ؟ أما الشمس فلما كانت أقدم عهداً كانت عناصرها كثيرة لتولدها وطول عمرها والحديد فيها بحسب ما ظهر من أنوار الطيف عنصر مركب من عناصر مجهولة عندنا لـكونه هناك أكثر حرارة فاتضح أمره فيها أما فى الأرض فهو معتبر بسيطا . قال ثم ماذا حصل لما انفصلت الأرض . قلت إن الأرض كانت كروية تدور حول الشمس وأخذت حرارتها تتناقص بالنسبة لصغر حجمها . قال حسن ثم ماذا . قلت أخذت الأرض تبرد وتربى لها قشرة فى ملايين السنين فتكوّنت ٢٦ طبقة كل طبقة متميزة عن الأخرى وهذه الطبقات فى ستة عصور تقدّم ذكرها وهى : العصر الأصلى والانتقالى والثانوى والثالثى والطوفانى واللاحق للطوفانى وهو الحالى . فالقشرة الأولى حجر صوّانى شديد الصلابة . والقشرة الثانية فى العصر الثانى ، كان فيها طبقات راسبة وبعض الحيوانات والحشائش . وفى الثالثة ظهرت الأشجار . وفى الرابعة ارتفعت الجبال الشوامخ وارتفع ما فى جوف الأرض من الأصداف وظهرت الطيور والحيوانات البرية . وفى الخامسة حصل طوفان عام وبرد القطبان فجأة وكانا حارين تحط الاستواء . والسادسة هى التى نحن فيها الآن .

لما كان العصر الأوّل أيام الطبقة الصوّانية كانت جميع المعادن من الذهب والفضة والنحاس والقصدير تكوّن جوّا حول الأرض وتمطر سحبا كما يمطر السحاب الآن . فقال ولماذا قلت له لأن البلاتين يصهر على ١٧٧٥ من الحرارة والذهب يحتاج إلى ١٠٧٥ والنحاس إلى ١٠٥٤ والفضة إلى ٩٥٤ والألمنيم إلى ٦٢٥ والخارصين إلى ٤١٥ والرصاص إلى ٣٢٦ والقصدير إلى ٢١٠ والكبريت إلى ١١٤ر٥ والفسفور إلى ٤٤ر٢ وهكذا والماء إلى صفر .

السحب التى كانت تمطر ذهبا وفضة وبقية المعادن

فأنت ترى أن حرارة الأرض فى الأزمان الغابرة لما كانت مرتفعة بحيث تبلغ نحو نصف ما ذكرناه بأن كانت ألفا وخمسمائة أو ألفى درجة فى العصور السابقة أو أكثر من ذلك كانت المعادن فى تلك الأيام وقبلها تزجى سحابا ، ثم تؤلف بينه ، ثم تجعله ركاما ، ثم تنزل فى خلجان فى باطن الأرض وهى تجرى على اليابسة فكان هناك أنهار من ذهب ومن فضة ونحاس وقصدير وخارصين وأمثالها . وأوّل ما جمد من المعادن التى ذكرناها البلاتين فالذهب فالنحاس فالفضة فالألمنيم فالخارصين فالرصاص فالقصدير فالكبريت فالفسفور . وبينما كنت ترى الخارصين أصبح جامدا إذا بالكبريت لايزال بخاراً فى الجوّ والفسفور كذلك فإن الخارصين يعوزه حرارة أشدّ من الكبريت والكبريت يعوزه حرارة أشدّ من الفسفور وهكذا على هذا الترتيب .

فهذه الأمطار التى صارت أنهراً من المعادن لاتزال باقية للآن لأنها جمدت بالبرودة ومرّت عليها أجيال فى تلك الطبقات الصخرية ثم حصلت زلازل وعوامل هامة فارتفع ما كان باطنا ووصل إلى أعلى بتلك العوامل

ورفع

ورفع ما كان فيه من المعادن وذلك هو الجبال التى نراها اليوم فإن الأرض قد رفعها كما ترتفع أسنان الطفل فى فمه . فقال صاحبى ما معنى كما ترتفع أسنان الطفل . فقلت لأن الجبال لما كانت صلبة وفيها منافع اقتضت الحكمة أن ترتفع إلى أعلى لا أن تبقى فى أسفل الطبقات ، وأسنان الطفل كانت موادّ فى الجسم فاجتمعت وتجمدت وظهرت فى الفم فنفعت فى هضم الطعام هكذا جبال الأرض فيها ذهب للمنافع والزينة وحديد ونحاس وقصدير إلى آخره وهذه الآن تفعل فعل الإنسان فهى زينة وطاحنة للأحجار كالحديد ومهلكة للحيوان وللإنسان فالحيوان يذبح بالحديد وكذا الإنسان يموت بالمدافع وهكذا . فالجبال أسنان الأرض والعظام التى فى أفواهنا خلقت لمنافعنا . ألست بهذا تفهم قوله تعالى « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وهذا كقوله « أنزل من السماء ماء » فكلاهما إنزال وكلاهما من السماء وهذا مطر وهذا مطر وهذا نهر وهذا نهر وهذا ثلج وهذا معدن ظهر فى جبالنا . فإذا استخرج الناس المعادن اليوم من الأرض فتلك أمطار أنزلها الله فى قديم الأزمان لتبقى لنا مخزونة إلى وقتنا الحاضر . إن المسلمين لنائمون إن المسلمين لنائمون إن المسلمين لايقرءون ولكنهم سيقرءون بعد انتشار هذا الكتاب وأمثاله ، وقد ظهرت بوادره بانتشاره فى الأقطار كما ألهمت من المبدع الحكيم بل كما بشرت بعموم ارتقاء المسلمين فى المستقبل القريب .

قشرة الكرة الأرضية والكرة النارية فيها

قد قلنا إن قشرة الأرض طبقات ٢٦ ولها عصور ستة وأنها مائة كيلو متر ونقول إن قطر الأرض نحو ١٣ ألف كيلو متر فيكون نصف القطر فوق سبعة آلاف كيلو وهذا المقدار أكبر من القشرة المذكورة نحو سبعين مرة والقطر كله أكبر من القشرة ١٤٠ مرة أفليس ذلك كقشرة التفاحة والبيضة والبطيخة فقشرة الأرض قشرة تفاحة وقشرة بيضة والأرض الحقيقية هى النار .

الأراضى التى خلقها الله كلها كأرضنا

ولقد علمت أن هناك شموساً تعدّ بمئات الملايين وكل شمس حولها أرضون وسيارة أخرى حولها سيارات كسيارات شمسنا ومن السيارات ما أصبح له قشرة كقشرة أرضنا ومنها مالايزال دخانا وناراً منتشرة جدًا . ولقد قال علماء العصر الحاضر إن أقلّ ما يكون حول كل شمس من الشموس المعروفة من الأرضين لايقلّ عن ثلاث فإذا تصورنا ذلك وقلنا إن بقية السيارات حولهنّ لايزال متقدا ، فإننا على الأقل نتصوّر أن هناك ثلثمائة مليون أرض باعتبار أن الشموس مائة مليون والتحقيق إنها مئات ملايين كما تقدّم فى هذا التفسير فلنقف فى العد للأرضين عند ثلثمائة مليون ، ولنقل إن فيها سكانا لأنه ليس يعقل أن تكون خالية ويكون لها قشرة كقشرة أرضنا وهذه القشرة قد تكون رقيقة وقد تكون سميكة ، فإذا كانت رقيقة كأرضنا أيام أن كانت حرارتها مرتفعة فإن اضطرابها وغليانها يمنع سعادة سكانها ويقلل راحتهم ، وإذا كانت سميكة كانوا أقرب إلى الراحة والطمأنينة والسعادة .

هل كشف العلم عالم جهنم ويكون ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والقرآن ؟ أفلا نقول إن الأرض التى تعدّ بالمئات كلها نار وإن سكانها إذا كانوا على حال فيه نيران تلظى يكونون أشقياء ، وإذا كانوا فى حال أصلح يكونون سعداء ، وإن الشقاوة والسعادة نسبية وأن العوالم التى تكون نورية جميلة غير هذه الأرضين مشرقة حقيقة تكون هى الجنة وتلك التى امتلأت نارا هى جهنم . أو ليس هذا عينه ما تقدّم فى سورة آل عمران أن النار فى الأرض كما نقل عن سيدنا علىّ وغيره وقد ذكرنا هناك أننا لانقول إن هذه نفس النار ولكن تشبهها وعلى المسلمين الجدّ فى البحث فالعلم يعوزه الجد .

قد عرفت فيما تقدّم أن حرارة الشمس لا يعرف منتهى درجاتها وعرفت درجات حرارة الأرض وأن

البرودة هى التى بها الثلج والمعادن كلها . وأقول الآن إن أقصى درجات البرودة ٢٧٣ تحت الصفر ، فالبرودة هذه درجاتها والحرارة لامنتهى لدرجاتها فالحرارة والبرودة بالمدّ والجزر فيهما نرى شموساً وأرضين ومعادن وأنهاراً وجنات وأعناباً وإنساناً وحيواناً هذا أوّل العالم وهذا آخره . وقد تبين لك أن العوالم كلما كانت أقرب إلى الجمود كانت ممتازة متفرقة متناقضة وكلما كانت أقرب إلى البساطة كانت أقرب إلى الوحدة وأن قشرة الأرض هى الظلمة فطبقاتها مظلمات وأصل هذه الطبقات أيضا نور فأصل كل شئ النور أو النار بل أصل كل شئ هو هذه الوحدة الصرفة التى لاتنعدم . وكلما كان الجسم ألطف وأقل تركيبا كان أدوم بقاء ، وكلما كان أكثر تركيبا كان أقلّ بقاء . ولقد قال العلامة بلنور ستيوار : إن جسم الإنسان والحيوان والنبات أشبه بالبارود السريع الانفجار الذى يلتهب لأقل احتكاك ، فالعوامل الحيوية تحلل التركيب الكيماوى دائما فيه والدم يصلح ماتلف من الأجسام بفعله المستمر ، أما التركيب المعدنى فإن حياته تطول إلى أمد طويل جداً . ألا ترى أن قطعة من الكربون تتركب بسهولة مع الأكسوجين فيصدر عنها حامض الكربونيك ، وإذا أردت أن نفرق هذين العنصرين احتجنا إلى ١٢٠٠ ألف ومائتى درجة من الحرارة أى مقدار مايغلى الماء مضاعفا ١٢ مرة ، فأما العناصر البسيطة فليس هناك حرارة فى أرضنا تفرقها والمادّة الأصلية التى منها العناصر لايمكن تحليلها . ولعلك بهذا فهمت قوله « وجعل الظلمات » فهو أوّلا خلق السموات أى خلق هذا العالم المضىء المشرق ، ثم جعل الظلمات والجعل فيه معنى التحويل فكأنه يقول : حوّل النور إلى ظلمات والظلمات هى الطبقات المتقدّمة وهى حقيقة ظلمات بعضها فوق بعض ، فأما النور فهو فى أصله واحد لجميع الظلمات جاء من هذا القبيل فهذا سرّ قوله « جعل الظلمات والنور » .

ارتقاء الأرواح فى عالم النور وسرّ قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » وكيف كان الإنسان يسعى ليخرج من الظلمات إلى النور وكيف أظهر الكشف الحديث هذا كله

أفلا ترى أن هذا سرّ قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » فإنه ظهر لك أن العالم كله نور فى نور ولاظلمة إلا قشور الأراضى التى تعدّ بمئات الملايين وأن هذه الظلمات طارئة وأنها لابدّ راجعة لحالها الأولى؛ ويقال فى الكشف الحديث الروحى : إن الأرض مغموسة مغمورة فى ذلك الأثير العام المالىء لسائر الفضاء ، وإن الأرواح لها غلاف كما تقدّم لطيف ألطف من الأثير ، وإن هذا الغلاف بما اعتراه من أدران المادة التى فى الأرضين كأرضنا هذه يجب على الروح أن تسعى لتنقى من تلك الأدران لترتقى فى العوالم الجميلة وتخرج من ظلماتها وكأن المادة نجستها فهى تتخلص منها لترجع لصفائها الروحى وحالتها الجميلة . ولقد تقدّم لك فيما ذكرته فى جواب سؤالك الثانى أن الدخان نتج منه نور وكهرباء وذلك بالتفاعل مابين فحم الموجات والنحاس والزنك والسوائل المحيطات بها فجاء نور عظيم من ظلام دامس هذا ماذكرته هناك وأقول هنا إن قوله تعالى « هو الذى خلقكم من طين » فتح لهذا الباب وكأنه يقول كما جعلت من الظلمات نارا فى الكهرباء المضيئة المشرقة هكذا جعلت فى أجسامكم المظلمة عملية وتحليلا وتركيبا يخرج منه نور لاترونه أو ترونه كما أن الكهرباء فيها نور ترونه ونور لاترونه ، فإذا قال الله «هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا» فى الدنيا لهذا الجسم وأجل مسمى عنده بعد الموت فمعناه أنه يصفيه من هذا الظلام ليجعله خالصا كما قال فى آية أخرى « وأن إلى ربك المنتهى » فالله نور وهو المنوّر للشموس والعوالم ثم جعل الظلام وخلقنا فيه لنتجدّ حتى نرجع إلى النور كرّة أخرى بحال أجمل وأبهى .

وكما أن السمك لايقدر أن يعيش فى البر والحيوان البرى لايعيش فى البحر وعالم الطير لايعيش فى التراب وعالم التراب لايعيش فى الهواء ولا فى الماء وذلك لطبعه وغرزته ، هكذا نحن فى الدنيا يألف كل منا ما كان على شاكلته صلاحا وفسادا ، وهكذا بعد موتنا نكون فى عوالم على مقتضى جبلتنا ، فإذا كان الإنسان متعلقا

بالعوالم

بالعوالم المظلمة لم يجد له قوة يدخل بها عالم النور ، وإذا دخل عالم نور قليل لم يقدر أن يدخل ماهو أضوأ وأنور بل لايقدر أن يصل إليه ولا يستطيع ذلك كما لايستطيع فى الدنيا أن يطير فى الجو ، وكما لايستطيع السمك أن يعيش فى البر إنما هنا يموت السمك فى البر فأما هناك فلن تموت الروح بل تجد جاذبية تجذبها لمركزها كما يجذب الحجر إلى أسفل ، فإذن عالم الآخرة مبنى على الاستعداد لاغير وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « إنك مع من أحببت » وإذن يكون الإنسان من الآن عالما بوضعه فى العوالم المقبلة . فقال صاحبى : هل لك أن تذكر شيئا من العلم الحديث فى هذا ثم تتبعه بما قاله القدماء حتى نعتقد مانقول .

قلت أما فى الحديث فاسمع .

الإنسان مضىء وهو فى هذا الجسد

لقد جاء فى صحيفة الماتان الفرنسية سنة ١٩٢٤ ونقلتها الجرائد المصرية فى شهر مارس من السنة المذكورة أن معهد العلوم الروحية فى باريس منذ شهر يواصل العمل مع التكتم الشديد فى تجارب مع الوسيط الإيطالى المشهور (ابرتو) وقد شهد هذه التجارب الدكتور (جيلى) وقد قال الدكتور (ستيفان نشوفيه) وهو من المعاونين المخاصين للدكتور جيلى . إن هنا عجائب خارقة للعادة فإن من الوسطاء للنوّمين بفتح الواو من يشع النور منهم شعاعا ظاهراً ولكن الوسيط الإيطالى (ابرتو) ظهرت منه أنوار أجلى ، فقد جرّد السنيور (ابرتو) من ملابسه تجريدا تاما وفحصت جميع تجاويفه الطبيعية فحصا دقيقا وبعد ذلك ألبس غلالة من النسيج صنعت له وهى ضيقة جداً بحيث تلتصق بجلده ، فلما نوّم تنويما مغناطيسيا ظهرت منه أنوار ماكان يصدّقها العقل فكانت تنبعث منه كرات نورية فى كل مكان من الحجرة غير متصلة بشىء بتاتا فى سماء تلك الحجرة فلم يكن هناك قوس ضوئى منير بينها وبين الوسيط ، وتارة ينبعث شرر كل شرارة أربعة أمتار ، وطورا يرى برق مختلف الأبعاد وأحيانا ضوء عظيم ينتشر بين الوسيط والجدار والضوء غالبا يكون أحمر أو أخضر أو فيه بعض غلس قليل ، وهذه الأضواء لايمكن اتصالها بالكهرباء ولا بموادّ مضيئة وهذه بشهادة أشهر علماء الطبيعة ، فقد بحث السنيور (ابرتو) فحصا دقيقا بأشعة (اكس) فى نهاية جلسة عقدت يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٤ فلم يعثر على أىّ أثر غير عادى فى جسمه وبهذا تأيد نهائيا وجود ظاهرات منيرة كفيلة بأن تثير انقلابا تاما فى جميع معلوماتنا الفزيولوجية (وظائف الأعضاء) والبيولوجية (علم الحياة) وفى نظرياتنا فى المادّة والقوّة (وقد حدث انقلاب من هاتين المادّتين الأخيرتين منذ بضع سنوات) ومن الممكن أن تؤدى دراسة هذه الظاهرات فى أيام قليلة إلى كشف الضوء البارد اهـ .

فانظر كيف كشف الناس نورا فى الروح الإنسانية بالتنويم المغناطيسى كما أن الأجسام تضىء بالكهرباء وبغيرها ، ولكن هذا سرّ جديد ليس مما عرف قديما إلا على سبيل السماع من الأنبياء والقديسين ، وقد امتلأت به كتب الديانات من أن الصالحين لهم إشراق ونور جسمى وضياء مشرق يظهر على وجوههم أحيانا فكأنهم بجهادهم أخذوا يخرجون من الظلمات إلى النور كقوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » فأنفسنا مضيئة ووضعت فى الأجسام المظلمات لتجاهد وترجع إلى النور مرّة أخرى فهى باستمرارها فى الترقى فى الأنوار تصل إلى الله ، قال الله تعالى « وأن إلى ربك المنتهى » وقال « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم » فإذن مآل الإنسان النور والجمال . ولا تظنّ أنى أعتبر النور الظاهرى المذكور إلا مقدّمة فليس النور الذى شهده أهل باريس فى السنيور (ابرتو) هو المقصود من النور فى القرآن وإنما هو مقدّمة له ، ومعنى هذا أن النفس الإنسانية كافرة أو مؤمنة أو مشركة مستعدّة للإشراق بالنور متى جاءت أسبابه بشرط الإيمان ، فأما النور الظاهرى فممكن بالتنويم المغناطيسى ، وأما الباطنى فلا يمكن إلا باجتهاد الإنسان وهذا هو الذى أذكره من القرآن ومن كلام المتقدمين .

ارتقاء الإنسان بعد الموت فى درجات الكمال إلى أن يكون مع الملائكة النوريين من نفس القرآن .

قال الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى « والنازعات غرقا » ماملخصه :

الوجه الثالث : فى تفسير هذه الكلمات الخمس « والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا » .

يقول الله تعالى أقسم بالأرواح التى تنزع من الجسم نزعا شديدا ؛ فمعنى غرقا نزعا شديدا ومعلوم أن نزع الروح من الجسم يحتاج إلى شدة حتى تخلص الروح ، ومتى نزعت نشطت للخروج من الجسم فهى الناشطات نشطا بسهولة ، ومتى خرجت الروح وكانت قوية لاتتعلق بالعالم المادى وقل اتصالها به واشتاقت إلى عالم أعلى من هذا وهى تريد أن تتخلص من عالم الأجساد فإنها تذهب إلى عالم الملائكة ومنازل القدس أسرع مايكون فعبر عن ذهابها على هذه الحال بالسباحة فقال والسابحات سبحا . ثم قال بالحرف الواحد إن مراتب الأرواح فى النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوى مختلفة فكلما كانت أتم فى هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك أسبق ، وكلما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أثقل ، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القسم بها ؛ ثم إن هذه الأرواح الشريفة العالية لايبعد أن يظهر منها آثار فى أحوال هذا العالم فهى المدبرات أمرا . ثم قال :

أليس إن الإنسان قد يرى أستاذه فى المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها . أليس إن الابن قد يرى أباه فى المنام فيهديه إلى كنز مدفون . أليس جالينوس قال : كنت مريضا فعجزت عن علاج نفسى فرأيت فى المنام واحدا أرشدنى إلى كيفية العلاج . أليس إن الغزالى قال : إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق إنسان مشابه للانسان الأول فى الروح والبدن فإنه لايبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره فى جانب النفوس الشريرة وسوسة ، وهذه المعانى وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلا أن اللفظ محتمل جدا انتهى كلام الرازى

فصار معنى الآية : إن الله يقول أقسم بالنفوس الشريفة التى تنزع من أجسامها ناشطة إلى مقرها سابقة لفرحها بالعالم الجديد الجميل مدبرة للعوالم كما تدبر الملائكة لقربها من جلالنا وعظمتنا وهذا الذى قرره الرازى هو بعينه ماتقل فى العلم الحديث عند محادثة الأرواح فى الجمعيات النفسية

مراتب الأرواح فى العلم الحديث

قالوا : لاتستطيع الأرواح ذات الأميال البهيمية الانتقال إلى مركز أعلى إلا إذا سعت فى تغيير أخلاقها بتجردها من الأميال البهيمية وإصلاح مابها من الرذائل والشوائب وتطهرها من الأوزار فبهذه تتدرج شيئا فشيئا إلى المراكز العلوية كما يتدرج رويدا رويدا . انظر من عاش كثيرا فى الظلام الدامس إلى ضوء النهار ثم إلى نور الشمس . قالوا أيضا وكلما اكتسب الروح رقيا فى عالم انتقلت إلى ماهو أعلى منه وليست الأجسام بغليظة إلا فى العوالم السفلية ، ثم بعد ذلك تكون ألطف وأقل مادة شيئا فشيئا حتى تشابه الجسم الروحانى فى لطافتها وهى فى كل عالم من العوالم التى تحل فيها تعطى قوة لترتقى بها إلى ماهو أعلى ، ولا يزال كذلك حتى يصبح من عداد الملائكة الذين يديرون حركات العوالم اه .

هذا ماجاء فى علم الأرواح وهو فى مجموعه أشبه بما جاء فى الرازى وهى أن آخر درجات الأرواح أن تكون من المدبرات أمرا ولا يكون هذا الرقى إلا بكمال الفضائل والعلوم والبصر والعزيمة ويؤيد هذا قوله تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » فجعل الروح والملك فى صف واحد وهذا ظاهر من أن الأرواح تكون مدبرات أمرا .

وأما

وأما ماقاله الفخر الرازى من العلاج بالرؤى فهذا كثير ومعلوم أن الرؤى فيها الغث والسمين وأكثرها كاذب ولكن قد يصح بعضها .

رؤيا مؤلف هذا الكتاب ورؤياه للنبى صلى الله عليه وسلم

أقول أنا نفسى وأنا مجاور بالجامع الأزهر : لما توجهت إلى بلاد الريف مرضت بعينى أياما كثيرة رأيت كأنى واقف بعد الفجر فى هواء طلق وقائل يقول لى إن فتحت عينى فى الهواء الذى مثل هذا فشفيت فأصبحت وفعلت كذلك يومين أو ثلاثا فشفيت ، وكان الوقوف فى ذلك الوقت بحيث لا يكون هناك غبار ؛ ورأيت رؤى كثيرة مثل ذلك لامحل لذكرها الآن . وأصل تأليفى لهذا التفسير من رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم مرارا ؛ فلقد رأيته وأنا لاأزال تلميذا بالأزهر وقد كنت نائما فى منزلنا بكفر عوض الله حجازى والمرحوم والدى نائم بجانبى وكأنى فى المكتب الذى كنت أتعلم فيه ببلدة تسمى الغار بجوارنا ، وكأن النبى صلى الله عليه وسلم جالس وأنا واقف أمامه وكأنه أخذ يملى تفسير القرآن فأسمعنى كلاما ثم قلت زدنى فزادنى وأنا أقول فى نفسى إن هذا هو النبى فيلزم الأدب أمامه هذا هو النبى ، ثم خرجت من عنده وقابلت والدى فى المنام أيضا وأنا خارج من المكتب فقال : أين كنت : قلت كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : وماذا فعلت ؟ قلت عملنى التفسير وسأكون كالصحابة أقول على القليل من الآيات معانى كثيرة فاستيقظت حالا وأيقظت والدى وأخبرته فسر وقال خيرا إن شاء الله . وأنا أقول هذه أول رؤيا رأيتها لأجل القرآن والعلوم . ولقد تركت ماهو أجمل منها وأشرف وأوضح وأنور وأجلى حتى تكون فرصة أخرى أذكرها ، وسأقص إذ ذاك ماأخبرنى به رب العرش جل جلاله فى المنام وكيف أخبرنى بأن العالم الإسلامى سيرقى وكأنه يشير إلى أن الرقى بنمو هذه العلوم التى تقرؤها فى هذا التفسير ونحوها . ولولا هذه المنبهات ماسطرت حرفا واحدا ، ولكن ذكرت هذه الرؤى الآن لمناسبة كلام الرازى ولأنه قد تحقق أن تفسير القرآن على النمط الذى فسر به المنام فى نفس المنام ، وإنى أقول ولا أخشى لومة لائم .

بشرى للمسلمين

أقول ولا أخشى لومة لائم : إنى يامعاشر المسلمين بشرت من الحق سبحانه وتعالى بارتقاء الإسلام ، وأن ماأكتبه لكم الآن سيكون من المبادئ التى يرتقى بها المسلمون . أقول هذا بعد ماشاهدت بنفسى مصداق تلك الرؤيا الإلهية التى ربما أذكرها ، ولم أقل هذا إلا بعد ماأيقنت أن المسلمين فى أقطار الأرض قد أقبلوا على هذا التفسير فعلمت أن الله يريد ذلك ، وأن تلك الرؤيا التى كنت أراها وأنا تلميذ تارة وبعد ذلك أخرى لم تكن أضغاث أحلام بل تحققت فعلا بالإقبال على هذا التفسير الذى أمرنى به النبى صلى الله عليه وسلم مرارا وأنا لست ممن يصدقون الأحلام أو يخدعون بالأوهام ، ولكنى ذكرتها لعلاقتها بارتقاء الأمة وارتقاء الأرواح ، فليبشر المسلمون فقد آن لهم النجاح ولا بد لهم من الفلاح ، والعلوم قد فتحت لهم أبوابها وسيردون على زمن السعادة والهناء ، ولتعلمن نبأه قريبا وبعد حين .

عجائب القرآن التى ظهرت فى هذا المقام ملخص ماتقدم

(١) جمع الظلمات . لأجل أن طبقات الأرض ٢٦ و صورها ست .

(٢) إفراد النور . لأن أصل العالم مادة واحدة نورية كما اتضح حديثا

(٣) تقديم السموات . لأن عالم السموات أقدم من الأرضين التى أرضنا واحدة منها لأنها مشتقات من الشموس المقدمة عليها .

(٤) كون جهنم فى الأرض . لأن جميع الأرضين التى تعد بالملايين أو مئات الملايين كرات نارية ؛ فمنها حديثة العهد فهى مضطربة ، ومنها قديمة العهد فهى ثابتة .

(٥) ورد مايدل على أن نار الدنيا أقل من نار جهنم نحو ٧٠ مرة .

وهذا هو الذى جاء فى العلم الحديث لأن النار فى جوف الأرض وقد بردت مرارا ، فإذا كانت تحت القشرة الأرضية ٣٣٣٣ درجة فهذه الدرجات تعادل مايغلى الماء ٣٣ مرة تقريبا ، وكل واحدة منها إذا انقسمت إلى قسمين صارت ٧٠ تقريبا فتصبح نار جهنم أقوى من نارنا نحو ٧٠ مرة ؛ ومعلوم أن الحرارة الجوية إذا كانت مساوية لجسم الإنسان لم تؤذه فإن ارتفعت إلى ٥٠ أحس بالحرارة فيقول هذه نار وهذه بتكرارها وتضاعفها تبلغ حول السبعين تقريبا ، وليس المقام التحديد وإنما هو التقريب .

(٦) يقول الله « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » فقد ظهر أن جسم الإنسان فى الدنيا فيه نور ويسعى للارتقاء فى النور كما فى الرازى وكما فى علم الأرواح .

(٧) تقديم الظلمات على النور . لأن الإنسان يخلق فى ظلمات الأرض ثم يرتقى .

(٨) نزول الحديد وجميع المعادن من السماء أيام أن كانت الأرض تكوّن الطبقة الصلبة .

(٩) الجبال التى على الأرض التى برزت فى العصر الرابع المسمى بالثالث لولاها لمالت الأرض بالزلازل لأن هذه الجبال ثابتة من الطبقة الصوّانية التى حول النار ، وهذه الطبقة الصوّانية حافظة للكرة النارية التى نحن عليها ، ومن هذه الطبقة الصوّانية برزت الجبال إلى الطبقة السادسة وسماها رواسى لأنها ترسو على الطبقة الصوّانية وتثبت عليها ، ومنها نبتت ولم يظهر من الطبقة الصوّانية إلا هذه الجبال ، والطبقة الصوّانية هى التى حفظت الأرض من طغيان النار على ظاهرها فتضطرب . فافهم وتعجب واعلم أنه كما خلقت الجبال من الطبقة الصوّانية خلق الفحم من الطبقة الثانية المسماة انتقالية ثم ارتفع بعد ذلك بالعوامل الطبيعية وفيها المعادن التى كانت تمطرها سحب الذهب والحديد والقصدير الخ وهذا قوله تعالى « أن تميد بكم » .

(١٠) « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » وقد علمت أن الحالة الدخانية هى الحالة العامة للمادّة كما تقدّم .

(١١) « قالتا أتينا طائعين » فالسموات والأرض جرتا فى الدوائر طائعة : أى بالتجاذب العام لامكرهة كما يجرى الحجر إلى أعلى بالحركة القسرية ، انتهى الكلام على العجائب .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فقال صاحبى : لقد أعجبنى ماقلت ولكن هناك مايهدمه من أساسه ويقوضه . فقلت وما هو ذاك ؟ قال قوله تعالى « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان » وقوله تعالى «هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات» .

قلت هذا برهان لى ومؤيد لقولى . قال وكيف ذاك ؟ . قلت لأنه يقول « ثم استوى إلى السماء » فإذن السماء موجودة قبل خلق الأرض وغاية الأمر أنه عمد إليها واستوى وهو دائما عامد لها ومستو ليقول لها وللأرض أطيعا إطاعة تامة : أى بجريهما جريا بالجاذبية . وفى الثانية يقول « ثم استوى إلى السماء فسوّاهن » فإذن السماء كانت موجودة ثم عمد لها كما هو عامد لها دائما وذلك ليسوّيها فهو دائما يسوّى : أى ينظم السماء وهو دائما يديرها . فأما خلقها فقد تقدّم وإلا فكيف يقصد إليها فافهم .

تفصيل الكلام على قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » بذكر سلسلة المخلوقات الأرضية

من ابتداء كون كرة الأرض نارية إلى أن يصل الخلق إلى أعلى علاه

(١) عصر الطبقة الصوّانية التى تكاملت فوق الكرة النارية الأرضية بعد انفصالها من الشمس وفيها خلقت المعادن ويقدّرون مدّتها بنحو ٣٠٠ مليون سنة كما قال العلامة ليل ،

(٢) عصر الطبقة الثانية الانتقالية . ظهرت فيها الحشائش والحيوانات البحرية والسمك والنباتات العظيمة الملاصقة المتكاثرة فكان منها الفحم الحجرى .

(٣) العصر الثانوى وفيه تكوّنت الطبقة الثالثة . كانت حيواناته أرق وكانت تماسيحه تتجاوز عشرين وثلاثين ذراعا .

(٤) العصر الثالثى فيه تكوّنت الطبقة الرابعة . ارتجت الأرض بعنف وزلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها فظهرت الجبال الشوامخ والطبقات الصدفية وبعض أماكن من الطبقات الصوّانية الأولى . ظهرت كما تبرز أسنان الصبى ولذلك نجد المعادن فى جبالنا وهى إنما تكوّنت هناك من أمطار الذهب والحديد الخ . وفى هذا العصر ظهرت الوحوش البرية الهائلة كالفيل والكركدن والماموث الخ .

(٥) العصر الطوفانى . فى هذا العصر حصلت نكبة فى الأرض قلبت كل شىء حتى إن القطبين كانا بلادا حارة فانقلبا فجأة أرضا مكسوّة بالثلج وترى الفيلة الآن لاتزال مطمورة لما فاجأها الزلزال فدفنت وهى إلى الآن باقية قد عثر عليها الكاشفون وكأنها كانت خط استواء فانقلبت حالا قطبين .

(٦) العصر الحالى وفيه زاد الهواء نقاوة ، وقد عثر الناس فى هذا العصر على عظام عديدة من الوحوش والكواسر عاشت قبل حصول تلك الفاجعة فوجدوها مطمورة فى المغاور فى أعالى الجبال فهلكت هناك جوعا أو افترس بعضها بعضا أو خنقا فى وسط المياه المتدفقة عليها ونسبوا ذلك كله إلى زمان العصر الطوفانى . وليس هذا هو الطوفان الذى جاء فى الكتب السماوية لأنه قبل مئات الملايين من السنين ، ولكن طوفان الكتب السماوية فى هذا العصر كان يمتد من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالى ، وأن بحر الخزر والأورلدون والبحيرات العديدة المالحة فى التتر وروسيا إنما هى من بقايا بحر عظيم كان هناك ، فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم عظيم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالى وقسم آخر إلى الأوقيانوس الهندى فغرقت بلاد مابين النهرين وجميع البلاد التى يسكنها أسلاف العبرانيين .

جدول الحياة على الأرض

(٧) أوّلها مادّة هلامية تسمى (بروتو بلاسما) فى قعر البحار ، وهى مادّة رخوة لزجة تتشكل بسائر الأشكال ، وباجتماع مقادير منها تكوّن مايسمونه فى الاصطلاح (الخلية) وباجتماع الخلايا تكوّن الأعضاء ، وتفرّع هذه الخلايا يكون بالتكاثر وهذا التكاثر يكون منظما بطريق الانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ وهكذا إلى مالانهاية له ، وهذا به يكون النمو مع النظام فى الأعضاء طولا وعرضا .

(٨) باجتماع هذه الخلايا ظهر النبات فى البحر والبر ، فأوّلا كان النبات .

(٩) نباتا حيوانيا كأنواع الدوفيت فهى حيوانات على شكل النبات وكأنواع الأخطبوط وهى هلامية الجسم ولا تمتاز عن النبات إلا بأحكام التنقل ، وفيها معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس لها نظر ولا شم ولا سمع .

(١٠) الدود هو أكمل أعضاء وأشدّ نشاطا وأكمل من الأخطبوط .

(١١) الحلزون وذوات الأصداف التى ليس لها فقرات .

(١٢) سرطان البحر .

(١٣) عقرب البرّ له سمع وبصر وحركة غذاء ودورة الدم .

(١٤) ذوات الفقرات كالسمك له نخاع شوكى .

(١٥) الحيوانات الأرضية .

(١٦) الطيور وهى تبيض .
(١٧) حيوان باستراليا الآن له كيس يحمل فيه صغاره ودماغه بسيط جدًا .
(١٨) ثم ذوات الأربع الباقية وأعلاها القرد فالإنسان .
(١٩) جنين الإنسان فى بطن أمه يكون أوّلا خلية بسيطة كالتى فى البحر .
(٢٠) ثم دودة . (٢١) فحلزونة . (٢٢) فسمكة . (٢٣) فذبابة . (٢٤) فقردا .
(٢٥) ويتوارى ذنبه بعد ذلك فى بطن أمه .
(٢٦) ومنه متوحشون . (٢٧) وعقلاء . (٢٨) وعلماء . (٢٩) وأنبياء .
(٣٠) ثم ينتقلون فى العوالم النورية طبقا عن طبق « وأن إلى ربك المنتهى » .

هذه السلسلة ذكرتها لتكون مطلعا فى كلمات قليلة على النظام واشتقاق الحياة من الجماد وأنها سلسلة واحدة : أى أنها منظمة بحيث لاتترك درجة إلا خلق فيها نوع . وليس معنى ذلك أن كل نوع خلق مما قبله، كلا بل هو النظام السائد . فانظر كيف كانت طبقات الأرض فى عصورها الست وكيف تولد النبات والحيوان وكانت هذه السلاسل منتظمة . ألا ترى سرّ قوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . أفلست ترى أن حياة الخلية ابتدئت فى البحر وعلماء العصر الحاضر يقولون : إن كل حيوان أصله من البحر . أو لست ترى هذا سرّ قوله تعالى « أأنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها » فقوله والأرض بعد ذلك دحاها هو عين ماجاء فى العلم الحديث أن طبقات الأرض بعد السموات وانفصال الأرض من الشمس، وقوله أخرج منها ماءها ومرعاها إشارة العصر الثانى ، وقوله والجبال أرساها إشارة العصور التى تلته فإن بروز الجبال إلى أعلى لم يكن إلا بعد العصر الثانى كما تقدّم . أليس القرآن اليوم أصبح يفسر فعلا بالعلم الحديث تفسيراً لفظيا . وإذا كان قوله تعالى هنا « الحمد لله الذى خلق السموات » يدل على أن خلق السموات قبل الأرض بطريق الإشارة كما قدّمنا ففى هذه الآية صارت الإشارة فيها عبارة والكناية صريحا والقوّة فعلا ، بجلّ العلم .

وأيضا هذه السلسلة التى ظهرت فى الحيوانات وفى الجنين فى بطن الأم هى التى يشير لها قوله تعالى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وقوله تعالى « وكل شىء عنده بمقدار » فهو لايخلق الأعلى إلا بعد خلق الأدنى، فلم يخلق الحيوان إلا بعد النبات ، ولم يخلق الإنسان إلا بعد الحيوان ، ولم يخلق الجنين الإنسانى فى بطن أمه إلا بعد مايمرّ على الطبقات الدنيئة لأن الطفرة محال فلابدّ أن يمر على حال الأحياء فى أوّل أمرها وهى فى البحر ، ثم ينتقل إلى أعلى وأعلى كما قال تعالى « خلق الإنسان من نطفة » وقال « من ماء مهين » ولقد أطلت فى هذا المقام فى أوّل سورة آل عمران وذكرت هذه الطبقات . واعلم أنّ ماتكتبه هنا وهناك ليس يمرّ على سائر الطبقات بل فيه الاكتفاء بالبعض تقريبا للأذهان . فأما السلسلة التى هنا فليست كلها واحدة . ألا ترى أن أوّل نبات بحرى وحيوان بحرى لم يكن بعد العصور الستة الأرضية بل ابتدئت الحياة فى العصر الانتقالى الذى كان فيه الفحم الحجرى ولكن ذكرناها مسلسلة لتسهيل النظر على القارىء، فتأمل فى عجائب العلم والحكمة .

فأنت ترى أن الأرض ظلمات والحيوان خلق فى ظلماتها والإنسان كذلك . والعلم والعقل والدين أنارت الأبصار فيرجعون النور كرّة أخرى فهذا قوله «وجعل الظلمات والنور » .

أقول الحمد لله على التوفيق لهذا المقال . انتهى تفسير الآيات من قوله « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » إلى قوله « ويعلم ماتكسبون » .

(القِسمُ الثاني)

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ *

انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون * ومنهم من يستمع إليك
وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها
حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين * وهم ينهون
عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون * ولو ترى إذ وقفوا على النار
فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا
يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هي إلا حياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين * ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى
وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا
جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم
ألا ساء مايزرون * وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا
تعقلون * قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى
أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين * وإن كان كبر
عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم
بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * إنما يستجيب الذين
يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون * وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل
إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون * وما من دابة في الأرض
ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم
يحشرون * والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ
يجعله على صراط مستقيم * قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير
الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون
ماتشركون * ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون

فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا
يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا
أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين
قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به؟
انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة
أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون * وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن
آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب
بما كانوا يفسقون * قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم
إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ أفلا تتفكرون *
وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم
يتقون * ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من
حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين *
وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم
بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه
الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم *
وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين * قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون
من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين * قل إني على بينة
من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير
الفاصلين * قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم
بالظالمين * وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من
ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين *
وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى

ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ
عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى
اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ
يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ
عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ
انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ
عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ
تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ
مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ *
قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ
هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ
الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *

﴿ التفسير اللفظي لهذا القسم ﴾

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) من الأولى زائدة ومن الثانية للبيان، والإعراض: ترك النظر (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) وهو القرآن (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) أى يظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم فى الدنيا كانهزامهم فى الحرب وكظهور الإسلام ، وفى الآخرة بعذاب جهنم (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) القرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن وليس له عدد معلوم . فإذا جعل مائة أو أكثر أو أقل فذلك ليس حاصرا له ولا المعنى قاصرا عليه (مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم) جعلنا لهم فيها مكانا وأعطيناهم من القوى وسعة الرزق والتصرف فى الأرض ما لم

نعطكم

نعطكم (وأرسلنا السماء) المطر (عليهم مدراراً) مغزاراً (وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) فعاشوا فى الخصب والريف بين الأنهار (وأنشأنا) وأحدثنا (من بعدهم قرناً آخرين ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس) مكتوباً فى ورق (فلمسوه بأيديهم) فمسوه بالأيدى(لقال الذين كفروا) منهم (إن هذا إلا سحر مبين) تعنتا وعناداً (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) هلا أنزل عليه ملك يكلمنا أنه نبى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) وهذه سنة الله فى الكفار أنهم متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به(ثم لاينظرون) لايمهلون (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون) أى ولو جعلنا قرينا لك ملكا يعاينونه لمثلناه رجلا فإن القوة البشرية لم تتأهل لرؤية الملائكة فى الصور الأصلية وبراهم الأنبياء بقوة أخرى قدسية، ولو جعلناه رجلا لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ماهذا إلا بشر مثلكم . وسيأتى إيضاح هذا من العلم الحديث بعد تمام التفسير اللفظى لهذا المقصد . فهو يقول : إن المانع من إرسال الملك أمران : الأول أن الملك إنما ينزل بالعذاب لمن يقترحون الآيات . والثانى أن الملك لن يراه الناس بصورته الأصلية فإذن يكون رجلا وإذن يختلط الأمر عليكم فتقولون هذا رجل ونحن نريد ملكا . ثم أخذ يسلى النبى صلى الله عليه وسلم بذكر الأنبياء السابقين وأممهم فقال : (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق) أحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أى وبال استهزائهم . ثم أخذ يذكرهم بالأمم السالفة ويأمرهم بالسير فى الأرض ليروا الأمم الهالكة بالتكذيب فقال : (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) سيروا فى الأرض على سبيل السفر تارة وعلى سبيل الفكر والاعتبار تارة أخرى بحيث يكون النظر العقلى تابعاً للسير الجسمى . فانظروا كيف أهلك الله الأمم بعذاب الاستئصال لما كذبت (قل لمن ما فى السموات والأرض؟) خلقا وملكا وهو سؤال تبكيت (قل لله) وهو المتعين للجواب (كتب على نفسه الرحمة) التزمها تفضلا وإحساناً منه والرحمة فى الدارين (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) اللام للقسم والجملة بدل من الجملة قبلها بدل بعض لأن جمع الناس يوم القيامة بعد موتهم من الرحمة (لاريب فيه) لاشك فيه (الذين خسروا أنفسهم) بتضييع الفطرة الإنسانية وهى رأس مالهم والذين مبتدأ خبره (فهم لايؤمنون) وقوله (وله ما سكن) عطف على لله أى لله ما فى السموات والأرض وما سكن بالليل والنهار ، من السكنى أو من السكون أى ما سكن فيهما ، أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر . وعلى الأول يكون بمعنى ما اشتملا عليه (وهو السميع) لكل مسموع (العليم) بكل معلوم ، وههنا فصول :

الفصل الأول فى الرد على دعوى الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ولياً

أى رباً ومعبوداً وناصراً ومعيناً من معبودات العرب

قال وإذا كان الله له ما فى السموات وما فى الأرض المتحرك والساكن فكيف أتخذ ولياً غيره ؟ وهذا قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً) إنكار لاتخاذ غير الله (فاطر السموات والأرض) مبدعهما . قال ابن عباس رضى الله عنهما ماعرفت معنى الفاطر حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها . ولما كان أمر الطعام به بقاء الأجسام خصصه بعد التعميم فقال : (وهو يطعم) يرزق الحيوان والانسان (ولا يطعم) لأنه ليس من جنس المخلوقات . ثم ارتقى إلى ما هو أخص وأبدع وهو الاختصاص فى العلم والحكمة والنفع العام فقال (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) أول من انقاد لله وأخلص له من أمتى فكيف إذن أتخذ ولياً غيره ؟ أأتخذ غير المبدع للطعم وهو لايطعم الذى خصنى بالحكمة والعلم وهداية الناس وفى هذه معنى أقرب إلى الأخلاق الإلهية كما فى الحديث « تخلقوا بأخلاق الله » ولذلك قال (ولاتكونن من المشركين) لما لك من ذلك الاختصاص الرفيع والعلم العظيم ولو أنك بعد هذه المعرفة أشركت لعظم عذابك لأن من يعلم ليس كمن لايعلم ، والعالم عذابه أكثر من الجاهل ، والغنى القادر والقوى الجسم

يعذبان على إهمال النفع بهما للناس وهذا ما يشير إليه قوله (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فكيف تطمعون بعد هذا كله أن أعبد غيره إطاعة لدعوتكم . ثم وصف العذاب بقوله (من يصرف عنه يومئذ) أى يوم القيامة (فقد رحمه) بأن أنجاه من العذاب (وذلك) أى صرف العذاب وحصول الرحمة (الفوز المبين) ولما كان فى العادة أن المرء يخاف من قوىّ قادر وهذا القوىّ قد يكون له نظراء فهو إن عصاه فربما صرف العذاب عنه غيره من القادرين بجاههم أو شفاعتهم وإن أطاعه وأنعم عليه فربما منع هذا الإنعام غيره من القادرين فقال كلا (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) فهو الجالب للخير الدافع للضرّ فاتخذه ولياً لك ونصيراً . ثم ختم تلك الصفات الإلهية بأعمها وأشملها فقال : (وهو القاهر فوق عباده) القاهر لهم وهم المقهورون، وهذه صفة عامة دخل فيها النفع والضرّ وإيصال الخير والشر؛ ولما كان القاهر قد يكون ظالماً باطشاً جباراً عنيداً يفعل مالاتقتضيه الحكمة قال (وهو الحكيم) فى تدبيره (الخبير) بشؤون عباده . وإذا كان الله هو القاهر فوق عباده فهو الحكم بينى وبينكم (قل أىّ شىء أكبر شهادة ؟) يقال إن أهل مكة قالوا سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر (قل الله) أكبر شهادة ، وهذا جواب الاستفهام فلا علماء اليهود ولا النصارى، ثم ابتدأ فقال هو (شهيد بينى وبينكم) هو الذى يخص من يشاء بما شاء ويكون هذا التخصيص آية بينة وشهادة ناطقة أبلغ من شهادة اللسان الإنسانى الذى قد يعتاد الحكم الكاذب والقول المخطىء؛ فإذا أعطى الله الأم قوّة الإرضاع والعالم قوّة الإفصاح والجاهل للتواضع حبّ الاستماع فتلك الفطر الظاهرة فى هؤلاء شهادات من المبدع الحكيم أنهم يقومون بما خلقوا له، وإذا خلقت العين للنظر والأذن للسمع والعقل للفكر فهى أيضاً شهادات ناطقة أنها أهل لما خلقت له من سمع وبصر وفكر فهكذا شهد الله لى بالرسالة بأن أنزل علىّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ومن بلغه من الأسود والأحمر وهذا قوله تعالى (وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) و إذا ثبت لكم أن هذه شهادة من الله لى أن أنذركم أيها الموجودون ومن بلغهم بعدكم فلأبلغ رسالتى بعد أن رفضت دعوتكم لى بالشرك وتخلصت من إثمها وأقمت الحجة على عدم قبولها فأقول لكم هل أنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى فهذا قوله (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) وهو استفهام تقريرى مع الانكار والاستبعاد (قل لاأشهد) بما تشهدون (قل إنما هو إله واحد) أى بل أشهد أنه إله واحد (وإننى برىء مما تشركون) يعنى الأصنام وبهذا تمّ الكلام على شهادة الله له . ثم أخذ يذكر شهادة الخلق له أيضاً بعد شهادة الله سبحانه وتعالى إذ ادّعت قريش أن علماء اليهود والنصارى زعموا أنه لم يذكر فى كتابهم كما تقدّم فقال : (الذين آتيناهم الكتاب) من علماء اليهود والنصارى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) كما قال عبد الله بن سلام لعمر بن الخطاب لما أسلم : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشدّ معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم منى بابنى، قال : وكيف ذلك؟ قال : أشهد أنه رسول الله حقاً ولاأدرى مايصنع النساء . فإذا شهد الله برسالتى وشهد علماء النصارى واليهود كذلك فلم يبق إلا الخسران على من لم يؤمن وليس خسران ذهب ولا فضة بل خسران النفس بحرمانها من كمالها الخاص بها وهو قوله : (الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون) ثم وصفهم بعد الوصف بالخسران بأنهم ظالمون بل أظلم من غيرهم فقال : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) كهؤلاء الذين قالوا إن الملائكة بنات الله افتراء عليه وكذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً (إنه) ضمير الشأن (لايفلح الظالمون) . ولما فرغ من إثبات ظلمهم أخذ يذكر نتائجه يوم القيامة فقال : (ويوم نحشرهم جميعاً) يوم منصوب بمحذوف (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم) أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونهم شركاء فيكون جوابهم أن يجيبوا كعادتهم فى الأرض عند القضاة فيحلفون أنهم ما كانوا مشركين ، وهذا قوله (ثم لم تكن فتنتهم

إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) والفتنة هنا المعذرة التي يتخلصون بها، تقول فتنت الذهب إذا خلصته (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) بنفي الشرك (وضلّ عنهم) غاب وذهب عنهم (ما كانوا يفترون) أي ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك في ذلك اليوم . ثم أخذ يصف فريقاً منهم فقال : (ومنهم من يستمع إليك) حين تتلو القرآن كأبي سفيان ومن معه فقالوا للنضر مايقول ؟ فقال : والذي جعلها بيته ما أدري مايقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول : أساطير الأولين، فقال أبوسفيان : إني لأرى حقاً، فقال أبو جهل : لا ، قال تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو مايستر الشيء كراهة (أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) صمماً وثقلا يمنع من استماعه (وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها) لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم (حتى إذا جاءوك يجادلونك) أي إلى ، وحتى هذه هي التي تقع بعد الجمل ولا عمل لها ؛ والمعنى بلغ تكذيبهم إلى أنهم إذا جاءوك حال كونهم يجادلونك (يقول الذين كفروا إن هذا إلاأساطير الأولين) والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطار جمع سطر والسطر الخط (وهم ينهون) الناس (عنه) أي عن النبي والإيمان به وبالقرآن(وينأون)بأنفسهم (عنه) فلا يؤمنون به كأبي طالب (وإن يهلكون إلا أنفسهم) أي مايهلكون إلا أنفسهم (وما يشعرون) أن ضرره لا يتعدّاهم ، وجاء في تفسيرها وجه آخر أن أبا طالب كان ينهى قريشاً عن إضرار النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كان ينأى عن الدين حتى أن قريشاً قالوا له خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع إلينا محمداً فقال : ما أنصفتموني أربي ابنكم وأدفع ابني لتقتلوه . ولما دعاه صلى الله عليه وسلم للإيمان قال: لولا أن تعيرني قريش لأقررت عينك ولكن أذبّ عنك ماحييت، ومن أبيات منسوبة له .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر بذاك وقرّ منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا
وعرضت دينا قد علمت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ثم قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) أي ولو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها فيقولون ياليتنا نردّ إلى الدنيا الخ ، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً عجيباً وموقفاً شنيعاً . ثم أضرب عن تمنيهم الرد وعدم التكذيب والإيمان فقال : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أي ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبائح الأعمال فتمنوا ذلك ضجر لا للعزيمة (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصي لأنها صارت سجية فيهم (وإنهم لكاذبون) فيما وعدوا من أنفسهم (وقالوا) عطف على عادوا (إن هي إلا حياتنا الدنيا) وضمير هي للحياة (وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أي يقول يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أي بسبب كفركم (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) إذ فاتهم النعيم وكال أنفسهم (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) غاية لكذبوا ، وبغتة فجأة (قالوا ياحسرتنا) أي تعالى فهذا أوانك (على ما فرطنا) قصرنا (فيها) في الحياة الدنيا (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) هذا تمثيل لاستحقاقهم الآثام (ألا ساء مايزرون) أي بئس شيئاً يزرونه وزرهم (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أي وما أعمالها إلالعب ولهو تلهي الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ، وهذا جواب لقولهم إن هي إلا حياتنا الدنيا (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) لدوامها ولأنه لا لغو فيها ولا تأثيم ولا تكليف ولا غم (أفلا تعقلون) أيّ الأمرين خير (قد نعلم) قد هنا لزيادة الفعل وكثرته كما قال الشاعر : * قد يهلك المال نائله * (إنه) أي

الحال والشأن (ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك) فقد قال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس أحد هنا يسمع كلامك غيرى فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصىّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش، وهذا تعزية للنبى صلى الله عليه وسلم فإن قومه لا يكذبونه وإنما هم يريدون أن لا يعلو عليهم أحد أى فإنهم لا يكذبونك فى السرّ (ولكن الظالمين) أى الكافرين (بآيات الله يجحدون) فى العلانية ، وقال فى حق غيرهم «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً» . ثم أخذ يسليه تسلية أخرى فقال : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا) على تكذيبهم وإيذائهم (حتى أتاهم نصرنا) وهكذا جميع الصابرين على الحق وأنت منهم (ولا مبدّل لكلمات الله) لمواعيده ومنها وعده للصابرين فلا يبدل وعده معك . ومعلوم أن هذه السورة نزلت بمكة ولم يكن هناك نصر بل كانوا فى حال ضعف فنصر بعد ذلك وهذا فى الحقيقة معجزة نبوية (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى من قصصهم وما كابدوا من قومهم ، ومن هنا صلة كما قال الأخفش كقولهم أصابنا من مطر أى مطر ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأن الأنبياء بعد تكذيبهم قد نصروا ، على أنك يا محمد على كل حال مأمور بالصبر على إعراضهم والوقوف عند حدّ ما أمرناك به واقتضت حكمتنا أن نفعله معك، ولم يكن فى حكمتنا أن ننزل الآيات التى يطلبها قومك لأن تلك الآيات ما كنا نرسلها إلا تخويفاً فإنزال الملك يقضى عليهم بالعذاب فلم يبق إلا أن تنتظر الفرج ، انتهى الفصل الأوّل .

﴿ الفصل الثانى فى طلب الكفار الآيات عناداً ﴾

(وإن كان كبر عليك إعراضهم) أى إعراض قريش لما طلبوا آية خارقة للعادة كما كان للأنبياء السابقين آيات فطمعت فى ذلك وأحببته، ونحن لم نر ذلك حكمة (فإن استطعت أن تبتغى) تطلب (نفقا فى الأرض) سربا ، والنفق سرب فى الأرض تخلص منه إلى مكان آخر (أو سلما فى السماء) يعنى أو تتخذ مصعداً إلى السماء ، والسلم مشتق من السلامة (فتأتيهم بآية) أى إن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك فإن قدرت أن تذهب فى الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدل على صدقك فافعل فأنا الذى حكمت بأن قوما يؤمنون وقوما لا يؤمنون (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فإن الناس مختلفون استعداداً كما اختلف كل حىّ وجماد فكيف أشاء اتحادهم وأنا الذى رتبت الدرجات كدرجات السلم ولا يرى اتحاد الناس فى كل شىء مرضا وصحة ، وغنى وفقراً ، وعلما وجهلا ، وطولا وقصراً ، إلا الذين تبرّءوا من الحكمة وابتعدوا عن العلم ، وحاشا أن تكون منهم (فلا تكونَنّ من الجاهلين) وإذا كان الناس فريقين فهل يؤمن إلا المستعدون للإيمان كما لا يعقل إلا من استعدّ للعقل فى سنّ معلوم (إنما يستجيب الذين يسمعون) سماع تعقل وتدبر ، وأما هؤلاء فكالموتى فكيف يسمعون (والموتى) أى الكفار الذين هم كالموتى فى أنهم لا يسمعون (يبعثهم الله) يوم القيامة فيسمعهم فيؤمنون حيث لا ينفعهم الإيمان (ثم إليه يرجعون) للجزاء ؛ ولما أعلم النبى صلى الله عليه وسلم أنه لن ينزل عليه ما يطلبون من الآيات كالأمم السابقة أخذ يعلمه كيف يردّ عليهم حين طلبهم فقال : (وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربه) أى مما اقترحوه أو آية أخرى سوى ما رأوه من الآيات الكثيرة (قل) يا محمد (إن الله قادر على أن ينزّل آية) مما اقترحوه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) عاقبة إنزالها فإنه سبب البلاء والهلاك والاستئصال . وكيف تنزل آية من خوارق العادات التى تخرق النواميس الطبيعية المعروفة وأنا رتبت العوالم ونظمت الكائنات وأتقنت الأمم والطوائف كلا بنظامه ولو أنى خرقت النواميس لاختلّ نظام مخلوقاتى وبدّلت كلماتى ، ولا مبدّل لكلمات الله . فأنا الذى أتقنت الطير فى الهواء، والدوابّ على اليابسة والهوامّ فى التراب والسمك فى الماء وأعطيت كل حيوان خلقه وهديته لمعاشه ونظمت طوائفها وأحكمت ألفتها وجعلت بينها تفاهما بلغاتها الخاصة بها وعلمت ذكرانها وإناثها أن تعيش جماعات منظمات ولم أذر مخلوقاتى

يتخبطون في دياجير الحياة . وأنا لولم أحافظ على تلك القوانين لاسودّ وجه الحياة ولمات معظم الجماعات ولم تكن لها حياة بل كل ذلك مسطور . إنكم يا معشر بنى آدم أمة تكنون مع أمم أخرى من هذه الطوائف الحيوانية ، وأنا الذى رزقتها وعرفت مستقرّها ومستودعها وكل قوانينها وأنظمتها وأحوالها فى كتاب مبين أى اللوح المحفوظ . فهل ترون فارقا بين الإنسان والحيوان إلا فى قوّة الإدراك ، فأما ما عدا ذلك فهم والحيوان سواء فلها جماعات منظمات وذكران وإناث وقوانين وآداب على قدر طاقتها ولها سياسات كجماعات الطيور فى الجوّ والحمر الوحشية والفيلة والبقر الوحشى والسمك وكل مادبّ ودرج وما أنتم أيها الناس إلا من الحيوانات ذات الفقرات فلئن ارتفعتم عن الطير ذى البيض وكانت صغاركم ترضع اللبن من أمهاتها فجميع الدوابّ من ذوات الأربع تشارككم فى هذه المزية ، ولئن كنتم تسوسون مدنكم فإن النحل يسوس خليته والنمل يحفظ مدنه وإن كنتم تحفظون أولادكم فأكثر الحيوان لأولاده حفيظ ولئن كنتم تذبحون الحيوان وتأكلون لحمه وكذلك تنحرونه وتشربون لبنه فما ذلك فضيلة فيكم ، فكم من آكل لحم أضرّه الطعام وشارب لبن أورثه السقام ، على أن الآساد شاركتكم فى أكل اللحوم . وبالجملة فهذه الحيوانات أمم أمثالكم ولست غافلا عن مخلوقاتى أينما كانوا « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم » فأنا أعطى كل طائفة من هذه الطوائف ماهى أهل له ولا أتعدى الحكمة ، كما أنى يا محمد أردت أن قوما ممن تدعوهم للإسلام لا يؤمنون وذلك على حسب نظامى العام ، وهذا قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (من شىء) وكما أنكم تحشرون إلى ربكم فهم كذلك يحشرون فهذا العالم نظام واحد وله مقصد واحد متجه إلى حال يجهلها الناس . والعلماء وأفاضل القوم من أمم الأرض يبحثون وهم مجدّون فهذه الأمم سائرة على نظام تام جميل فى الحياة (ثم إلى ربهم يحشرون) لا فرق بين الإنسان والحيوان . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال «يؤخذ للجماء من القرناء» .

وفى رواية مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» واعلم أن العلوم الحديثة قد أيدت ذلك وإن لم تكن بلغت مبلغ التحقيق أى أن الحيوان باق بعد الموت كالإنسان سائر لغرض نجهله ونحن هنا على الأرض التى حبسنا فيها لمعرفة ما فى هذا العالم ثم نكون فى عالم آخر فلعلنا نطلع على ما هو أدق وألطف وأجمل . ثم أخذ يتم الكلام على موضوع هؤلاء الذين لا يسمعون وهم قد جملوا فى منزلتهم فلم يعقلوا كلام ربهم وكذا نبيه على مقتضى نقص نفوسهم فقال : (والذين كذبوا بآياتنا صمّ وبكم فى الظلمات) فهم لا يزالون فى الظلمة الأرضية التى تقدم ذكرها فى أوّل السورة ولم ينفذ نور الهداية الإلهية إلى قلوبهم إذ لم يستعدّوا لها لعنادهم ونقصهم بحسب درجتهم ولو أنهم كان لهم استعداد لأدركوا ما أحاط بهم من عجائب الحيوان وغرائب الطير وبدائع الحيوان البرّى والبحرى وما أودع فيها من فطر وفهم وذكاء وتقدير وتدبير فيعرفون خالقها ولكنهم لم يصلوا إلى درجة الفهم « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فهم صمّ لا يسمعون وبكم لا ينطقون بالحق ، ثم بينه فقال : (من يشأ الله) إضلاله (يضلله) لأنه وضعه فى موضعه اللائق به كما وضع كل طائفة من الأمم فى مركزها حفظا للنظام (ومن يشأ) هدايته (يجعله على صراط مستقيم) ومستحيل أن يكون ذلك إلا عند الاستعداد « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم ــ ما فرّطنا فى الكتاب من شىء » فنحن لا نصنع إلا بحكمة . ولما كان الكلام فى خوارق العادات وفى إنزال آية كالأمم السابقة قد انتهى القول فيه كان الأجدر أن ينظر فى أمر نافع للإيمان ولا شىء أفضل من البحث فى أمر النفس والبحث فى الأحوال العارضة لها ، فأما الأحوال العارضة للعوالم فى الآفاق بالخوارق فلا فائدة منها . وأن النفس إذا نزل بها ملمّ أو حدث لها حادث عظيم كأن ينزل أمر عظيم من السماء كصاعقة أو من الأرض كزلزلة

أو تقوم الساعة فبالله ماذا يحس الإنسان في نفسه ؟ لاجرم أنه يحس باضطرار والتجاء إلى قوة فوقه يلتجئ إليها فيدعوها وماهي هذه القوة هي الحضرة العلية ، فإن الناس عند عظائم البلايا يلتجئون إلى ربهم بفطرهم ولا يحسون بأصنام ولا شيوخ ولا عظماء فهذا هو البرهان على وجود الله تعالى . فأنتم يا أهل مكة ليس ينبغي أن تعرفوا الله بطريق الأمور المزعجة في العوالم العلوية والسفلية ، أو بأن جبال مكة تصبح قاعا صفصفا ويحل محلها الجنات ، أو تكون أنهاراً ، أو يأتي لكم بكتاب من السماء فهذا كله لايفيدكم اليقين ، وإنما اليقين يأتي لكم من طريق أنفسكم ، فأنفسكم إذا حل بها كرب تلجأ إلى الله فهذا هو البرهان على وجوده من هذا القبيل فأنتم نظرتم إلى العرض وتركتم الجوهر، وهذا هو قوله : (قل أرأيتكم) استفهام تعجب ومعناه أخبروني ، تقول أرأيتك زيدا ماشأنه أي أرأيت زيدا ماشأنه فالكاف حرف خطاب لامحل لها من الإعراب وهي لمجرد تأكيد الخطاب وأصله أرأيتم ، وتقول العرب أرأيتك بمعنى أخبرنا بحالك (إن أتاكم عذاب الله) بالصواعق أو الخسف في الدنيا كما حصل في الأمم السابقة (أو أتتكم الساعة) القيامة (أغير الله تدعون) في كشف العذاب (إن كنتم صادقين) أن الأصنام آلهة (بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه) أي ماتدعونه إلى كشفه (إن شاء) أن يتفضل عليكم (وتنسون ماتشركون) وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لما ركز في الفطر من توجه النفوس إلى من فطرها . فمن هذا فلتؤخذ البراهين والدلائل على وجود الله . ولقد جعل لنا الله الفقر وشدته ، والمرض ووقعه ، والبلايا وكثرتها بابا من أبواب هدايتنا ونعمة من نعمه علينا ، فهي في الظاهر عذاب وفي الحقيقة نعمة عظيمة ، فهي باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب نسلطه على من نشاء من عبادنا كي يتفطنوا لما نزل بهم ويفكروا في أمور نفوسهم فإما أن يعرفوا فيتضرعوا وإما ألا تلين قلوبهم فحينئذ نهلكهم فالعذاب يكون أشبه بامتحان فمن آمن أبقيناه ومن لم يؤمن أهلكناه لأن النفوس الجامدة التي لاتعرف زمانها ولا تسير في طريق الصلاح هالكة حقاً ، وهذا قوله (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) من زائدة فكفروا (فأخذناهم بالبأساء) الشدة والفقر (والضراء) الضر والآفات (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتوبون ويرجعون عن ذنوبهم (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) لولا هنا للتنديم لدخولها على الماضي ، وهي للحض إذا دخلت على المضارع ويدخل في معناه أنهم لم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) فلا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم .

والأمم إذا لم توقظها الحوادث ولم تنبهها النوائب وبقيت معجبة بأنفسها مبتهجة بما زينه لهم شياطين الإنس والجن من الأعمال يلحقها البطر ويعلوها الأشر وتمتلئ إعجابا فتتمادى في غيها ولا تسمع نصح الناصحين ولا تذكير المذكرين وتكون أشبه بالذين يمتلئون من المآكل الدسمة من اللحم واللبن والبيض ولا يصيبهم مرض في أجسامهم بل تزداد وجوههم نضرة وجسومهم قوة وغيرهم مهزولون مرضى يعتريهم مايستخرج من أجسامهم كثيراً من المواد ، فهؤلاء كما قال أطباء العصر الحاضر بأوربا لاسيما في النمسا وألمانيا يأتيهم الموت فجأة ويموتون ولا هم يذكرون ، وعللوا ذلك بأن أجسامهم القوية إنما نشأت من تلك المآكل التي هي كثيرة التغذية فإذا دخلت في خلايا الأجسام دخلت بكثرة ثملأتها بلا توان بخلاف الأطعمة الخفيفة فإنها تدخل بالتدريج في الخلايا حتى إذا جاء أجلها خرت صريعة لليدين وللفم في يوم أو بعض يوم . فأما أولئك المرضى فإن أجسامهم قويت أن تطرد عن أجسامها تلك الأمراض أي الخارجة بالبثور والقروح مثلا والأمراض المتنوعة ، فمن يظنه أكثر الناس صحيحاً هو المريض ومن يظنونه مريضاً هو الصحيح لأن الجسم الضعيف ظاهراً أصبح قادراً على طرد البقايا المتخللة فيه . فأما ذلك الذي ملأ جوفه من المطاعم الدسمة فقد قتل نفسه وملأ الجسم بارودا وحشاه نارا فتفتك به بعد حين، وقالوا: إن الامتلاء من الأطعمة الدسمة هذا فعله وأمروا

أن يقلل الإنسان منه وأن يكثر من الفواكه والأطعمة الخفيفة والحبوب والخضر . هذا ما جاء فى الطب الحديث ، وهو عينه ما يحصل فى الأمم التى أنذرها المنذرون وحذرها المحذرون وهى لا تسمع ما يقولون ولا تعى ما يذكرون وسارت على طريقها المرسوم ولم ترجع عن غيها المعلوم ، وهذا قوله تعالى : (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ) من النعم لتكمل الحجة فيكونون قد ذاقوا العسر واليسر والنفع والضرّ والخير والشرّ (حتى إذا فرحوا) أعجبوا (بما أوتوا) من النعم كالصحة فى الأبدان والسعة فى المعيشة والأمن فى الأوطان (أخذناهم بغتة) كما حصل فى أجسام الناس الذين لا يتقون المآكل الدسمة (فإذا هم مبلسون) آيسون متحسرون (فقطع دابر) آخر ، يقال : دبره دبرا ودبورا إذا اتبعه (القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) على قيام الحجة وظهور الحقيقة وذهاب دولة الجاهلين وانتصار الحق على الباطل .

فالحمد حمدان : حمد فى أوّل السورة على نعم النور والأرض والسموات والارتقاء . وحمد هنا على إبادة الجهل وإحلال العلم محله وغلبة الحق على الباطل فهو رب العالمين .

ولما كان العذاب إما من خارج وإما من داخل وقد قدّم العذاب الخارج بخسف أو زلزلة أخذ يذكر هنا ما فى داخل الأجسام فيقول : لو أن الله سلبكم موهبة السمع والبصر فلا تسمعون ولا تبصرون ، وموهبة العقل فلا تعقلون فهل غير الله يأتيكم بأمثال ما فقدتم ؟.

ولما كان العذاب ربما يتوهم أنه ينصرف لغير الظالمين قال إن العذاب مهما جاء سواء أكان بغتة أو جاء بعد مقدّمات فهل يهلك إلا القوم الظالمون ، وهذا قوله تعالى : (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم) فلا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون (من إله غير الله يأتيكم به ؟) بما أخذ (انظر كيف نصرّف الآيات) كيف نبين لهم العلامات الدالة على توحيد الله بأنواع مختلفة : فمرّة بأحوال الأمم ، ومرّة بالتخويف ، ومرّة بالنظر فى أنفسهم فإنهم لو فكروا فيها لعلموا أن السمع والبصر والقلب وما يشعر به كل واحد من نفسه لا يخلقه سوى الله تعالى ، وكذلك إذا وقع فى غرق أو مرض عظيم فإنه لا يرى فى نفسه مدعوّا سوى الله تعالى ، فنحن نصرف لهم ذلك (ثم هم يصدفون) يعرضون عنها ويطلبون غيرها كالآيات التى كانت تنزل على الأنبياء السابقين وفيها هلاك أممهم هلاكا معنويا لأنها لا تورث اليقين ، فأما الأمور العقلية فإنها أنفع للقضية (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) من غير مقدّمة (أو جهرة) يتقدمه أمارة تؤذن بحلوله ، وقيل ليلا أو نهارا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) وبعد أن استوفى الكلام على المرسل إليهم أخذ يصف حال المرسلين فقال : (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين) للمؤمن بالجنة (ومنذرين) الكافرين بالنار ولم نرسلهم ليقترح عليهم ما ليس لهم أن يصنعوه فيتلهى بهم أناس (فمن آمن وأصلح) ما يجب إصلاحه على حسب الشريعة (فلا خوف عليهم) من العذاب (ولا هم يحزنون) بفوات الثواب (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) أى بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة . ثم أخذ يصف حاله صلى الله عليه وسلم :

﴿ الفصل الثالث فى أقواله صلى الله عليه وسلم مع المتواضعين ﴾

يقول صلى الله عليه وسلم : ليس عندى خزائن رزق الله ، ولا علم لى بالغيب ، ولا أنا من جنس الملائكة فأقدر على ما يقدرون عليه ولست أتبع إلا ما يوحى إلىّ . وهذا الوحى إنما يعرفه المتعدّون له المبصرون فأما عمى القلوب فهم لا يفهمونه ، وهذا قوله تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) فأوسع عليكم وأمنع فقركم وأجعل ما حول مكة جنات بدل هذه الجبال الجرداء (ولا أعلم الغيب) وهو من جملة المقول فأخبركم بما مضى وما سيقع فى المستقبل كما تقترحون علىّ أن أطلب لكم من الله سعة الرزق فى الأوّل وإخباركم بمصالحكم ومضاركم فى المستقبل (ولا أقول لكم إنى ملك) حتى لا آكل الطعام ولا أمشى فى الأسواق ولا

أتزوّج النساء، كما قلتم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ » وحينئذ أقدر على ما لا يقدر عليه غيري من الإخبار بالمستقبل فأنا لست كذلك (إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) ؛ إنما الأمر يرجع لاستعداد النفوس فمن تكبر وأعجب بنفسه قتله الإعجاب وباء بالنكال ولم يجب الدعوة وهم الأغنياء والمتكبرون (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) فتهتدوا (وأنذر به) أي القرآن (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون المفرطون في العمل ؛ وهكذا كل من يجوّز الحشر من المؤمنين والكافرين فالإنذار نافع لكل كافر مجوّز للحشر ولكل متردّد ولكل مؤمن مذنب ، فأما أولئك الجاحدون المكذبون فكيف ينجع فيهم الإنذار ولا إنذار إلا حيث تجوّز النفوس ما أنذرت به ، وهي نفوس الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم حال كونهم (ليس لهم من دونه وليّ) قريب ينفعهم (ولا شفيع) يعني يشفع لهم وليست الشفاعة التي تكون من الأنبياء والعلماء والشهداء وأعمها شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي بيناها أيما تبيان في سورة البقرة وحققنا هذا المقام تحقيقاً مستفيضاً هناك — ليست هذه الشفاعة للمؤمن إلا بإذن الله فأصبح الشفعاء شافعين بأمر الله فهي إذن ليست من دون الله فلا إشكال . واعلم أن الشفاعة التي ذكرناها في البقرة لاتدع شكا لمرتاب ؛ إنها غير مايفهمه كثير من الناس بلا تحقيق فهي مذكورة على التعليم وعلى الاقتباس والقدوة فلم يجعل الله الدين إلا للهداية ولا الأنبياء والشهداء والعلماء إلا لتعليم الناس بالعلم وبالقدوة لا أن يتكل الناس عليهم فاقرأ هذا الموضوع هناك فإن المعنى هناك جمع جميع الأقوال وأصبحت الشفاعة مناسبة للتربية العالية الإسلامية في المستقبل ، والله هو الهادي .

الفصل الرابع في معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقراء من المؤمنين
وأمر الله له بإكرامهم ، وهو إتمام للفصل الثالث

أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار غير المتقين فلما فرغ من الكلام عليهم أخذ بذكر حكم المتقين فالأوّلون غالباً كانوا من ذوي الجاه والغنى والثروة الطائلة فهم متكبرون فهم أشبه بذوي الأجسام القوية الممتلئة بالمآكل الدسمة كما تقدم ، فهم في الظاهر أقوياء وفي الباطن ضعفاء ، فأما الفقراء فإنهم أشبه بالأجسام الضعيفة التي وصفها الأطباء في العصر الحاضر أنها كثيراً ماتكون أقوى كما حصل للضعفاء الآتي ذكرهم فإنهم لصفاء نفوسهم وسلامتها من الأعباء الدنيوية والغرور بالمال والولد والصيت والقوّة والجاه قبلت نفوسهم الدين فهم عند الناس ضعفاء وعند الله أقوياء . فياليت شعري أيّ فرق بين هؤلاء وبين أمثالهم في المرضى والأصحاء فالمشابهة بينهما صحيحة تامة .

والنبوّة لاتهتم بالمظاهر ، وإذا كان الطب الذي لايهمه إلا الأجسام لم يرعه قوّة الأجسام بل قال : القوي عندي قد يكون ضعيفاً ، والضعيف قد يكون قوياً ؛ هكذا هنا :

(١) قال ابن مسعود مرّ ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يامحمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ، اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فنزلت هذه الآية .

(٢) قال عكرمة : جاء عقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحرث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له ؛ فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلى ماذا يصيرون ؟ فأنزل الله النعي بالآية فاعتذر سيدنا عمر من مقالته .

(٣) وروي نحوه عن سلمان وخباب بن الأرتّ قد قالا : إن الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن

حقرا

حقرا أن يجلسا مع صهيب وبلال وعمار وخباب فى نفر من ضعفاء المؤمنين وطلبا أن يجلس النبى صلى الله عليه وسلم فى صدر المجلس ويبعد هؤلاء لرائحتهم فقال : « ما أنا بطارد الذين آمنوا » فطلبوا أن يكون لهم مجلس ليس معهم فيه هؤلاء الفقراء فلما دعا عليا ليكتب نزلت الآية ، فألقى صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعا هؤلاء الفقراء فأتوه وهو يقول : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ الآية) فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فإذا بلغ الساعة التى يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

(٤) هكذا روى عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون طرد هؤلاء الخ وهذا أخرجه مسلم .

(٥) وقال الكلبى : قال أشراف قريش اجعل لنا يوما ، ولهم يوما ؟ فأبى ! قالوا : فولّ ظهرك إليهم ، وأقبل علينا ، فأبى .

(٦) وقال مجاهد : قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعنى ابن مسعود لبايعناك .

هذه الروايات التى ذكرتها مختصرة لأحضر لك أيها الذكى ماورد فى هذا المقام فنى كل رواية يقال فنزلت هذه الآية وكل هذا محتمل ولكن النزول لايكون إلا فى واحدة فإذا كان سلمان الفارسى وهو بالمدينة يقول : فينا نزلت ، وسورة الأنعام مكية فإن النزول إنما يكون بمكة كما فى رواية عكرمة وابن مسعود والكلبى فعلى هذا لاتفاق بين الروايات إلا فى إثبات الإنزال وذلك من تصرّف الرواة الذين فسروا الآية برواياتهم ، والخطب سهل فى ذلك .

والمقصود من الآية مكارم الأخلاق ؛ فإياك أيها الذكى أن تضيع وقتك فى جمع الروايات والترجيح بينها ، فالمقصود من هذا كله الأخلاق والفضيلة لنقتدى بالأنبياء فى أخلاقهم ونعمل لإصلاح المجتمع الذى خلقنا فيه ولنكون أئمة نقتدى بمتبوعنا العظيم فلنقرأ الآية ولنفسرها وإياك وضياع الوقت بل سر فى الآية وهى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ) الصبح والعصر والمراد الدوام، حال كونهم (يريدون وجهه) أى مخلصين فى الدعاء (ماعليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ) أى ماعليك حساب رزقهم وإيمانهم فالله يرزقهم، وإيمانهم ربما كان أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعا فى إيمانهم لو آمنوا وليس عليك اعتبار البواطن فإذا كان باطنهم ليس فيه إخلاص فحسابهم لايتعداهم إليك كما أن حسابك لايتعداك إليهم (فتطردهم) فتبعدهم وهذا جواب النفى (فتكون من الظالمين) .

الكلام على الفريقين الكافرين والمؤمنين

هنا يذكر الله عادته فى خلقه وأنه يبتليهم ويختبرهم . فاعلم أن الله عز وجلّ جعل التربية عامة فى خلقه فكل مايمسنا فى حياتنا الدنيا إنما يكون نتيجة لتربيتنا شئنا أم أبينا وليس فى الأرض من الكمال إلا النادر ، والناس إذا قلّ علمهم ونقص اختبارهم وساءت نفوسهم كانت النعم العامة مصيبة عليهم فيصبحون وهمومهم محصورة فى الموازنات والمشابهات والمناظرات ، وكلّ يقول فى نفسه لم فضل فلان بالعلم أو بالمال أو بالصحة أو بقبول الناس أو بالجمال وما اشبه ذلك . وما من امرئ فى الأرض إلا واجد من هو أحسن منه فى صفة أو صفات، فإما أن يصبر ويرجع ويدرس الحياة درساً نافعاً حتى يعقل، وإما أن تتحير نفسه وتذل ويصبح حاسداً لنعم يجب أن يتصف بها الناس ليساعدوه فى حياته ، ولكن لغباوة أكثر الناس لايبالون بهذه القضايا ويحزنون ولذلك قال الله : (وكذلك) أى مثل ذلك الفتن وهو اختلاف الناس فى أحوالهم فى الدنيا سعة وضيقا جعلنا أمثال عيينة بن حصن الفزارى أغنى من مثل سلمان الفارسى مثلا (فتنا بعضهم ببعض)

فى أحوالهم العقلية وأمورهم النفسية ، فجعلنا أمثال سلمان الفارسى أرقى عقلا وأعلى نفسا لإيمانه بالله تعالى (ليقولوا) أى الذين ارتقوا فى المال وانحطوا فى العقائد (أهؤلاء) الفقراء والضعفاء (منّ الله عليهم من بيننا) بالعلم والإيمان والاهتداء وكيف يكون ذلك ولو كان خيرا ماسبقونا إليه فنحن أولى بالعلم وأهدى سبيلا فالقوة سائدة عندنا علما ومالا ، فأجابهم الله قائلا (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أى الذين هم مستعدون للعلم والإيمان وليس فى هذا العالم عطاء إلا على مقدار الاستعداد ، وهؤلاء لما هذبت نفوسهم وارتاضت بالفقر تارة والضعف وقلة الصيت أخرى خف حمل الحياة عليهم ولم يؤثر فى نفوسهم الشره والطمع والرياسة والحرص والحسد والكبرياء وأمثالها مما يغطى على العقول فيكون الران عليها فلا تعى مايقال لها كبرياء وحسدا . فهؤلاء لما سلموا من ذلك استعدت نفوسهم لسماع الوحى وأخذت تقترب من الفضائل والسعادة النفسية فكلما خف الدين سهل الوفاء والمال والجاه والكبرياء والبطنة كل ذلك مبعد عن العلم والحكمة والله هو الذى جعل الدرجات متفاوتة كما تتفاوت المعادن كما فى الحديث « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام » فمن كان أصدق قولا وأصح رأيا وأقبل للحق فى الجاهلية بما أودع فى فطرته فإنه فى الإسلام كذلك يقبل الحق ، فالأمر يرجع إلى الفطرة الإنسانية والقابلية النفسية . والشمس تشرق على البر والبحر فينمو بها النبات ولا ينمو بها الحجر ولا التراب ولا الطين ولا المعادن وليست الشمس بمحجوبة لأجل أن الأحجار لا تنمو بها بل هى طالعة لتعطى القابلين الحياة بإذن الله . هكذا الأنبياء يعلمون الناس ولا يهمهم أن يتعلم إلا الشاكرون ، كما أن المؤلفين يضعون كتبهم والمدرسين يلقون دروسهم ويقصدون بذلك المستعدين فأما غيرهم إذا لم يعبأ بكتبهم ولم يسمع لدروسهم فليس ذلك بضارهم كما لايضر الشمس أن ضوءها لم يؤثر فى الحجارة وإنما يحيا بضوئها النبات كما يحيى القرآن والعلم والتأليف الشاكرين المستعدين لقبول النعمة ، فالمغرم بالشىء الحريص عليه هو القابل له والقابل باستعداده هو الشاكر لأن الشكر صرف العبد نعم الله عليه فيما خلقت له وهذا صرف نعمة الله وهو الاستعداد فيما خلقت له وهو الفهم وهكذا متى تعلم أفاد الناس فيصرف العلم فى المنفعة العامة كما فعلت الشمس فى إرسال ضوئها . هذا هو الشكر وهؤلاء هم الشاكرون ولذلك وصى الله عليهم فقال : (وإذا جاءك) يا محمد (الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) ولا تكتف بعدم طردهم من مجلسك وبقائهم مع الأغنياء بل حيهم بالسلام وبشرهم بأنى كتبت على نفسى الرحمة . فأنا أغفر ذنب من أذنب منهم إذا تاب فأنا لست أعبأ إلا بالقلوب ولا أنظر إلا إلى النفوس ، فأما مظاهر الأجسام والنعم الظاهرة من المال والولد فلم أجعلها مقياساً للكمال ولا دليلا على الارتقاء والعزة القعساء وإنما هى آلات تصلح للخير والشر والنفع والضر فهى إما أن ترفعهم إلى العلياء وإما أن تنزل بهم إلى الدركات ، ويؤخذ بعض هذا من قوله : (أنه من عمل منكم سوءا بجهالة) بفتح أن على البدل من الرحمة أو بكسرها على الاستئناف وقوله بجهالة فى موضع الحال وذلك كما كان من عمر رضى الله عنه لما اعتذر من مقالته التى قالها فيما تقدم فى هذا المقام فلما نزلت الآية اعتذر . فعمر وغيره إذا عمل سوءا بجهالة (ثم تاب من بعده وأصلح) بالتدارك والعزم على أن لا يعود (فأنه غفور رحيم) لمن تاب من ذنوبه بفتح أن وهو إما خبر لمبتدأ مضمر أى فأمره غفرانه وإما مبتدأ خبره محذوف أى فله غفرانه .

الفصل الخامس فى ذكر نتيجة ما تقدم فى الفصول السابقة على سبيل اللف والنشر المرتب

ولما أكمل الكلام على الجاحدين والمؤمنين أخذ يلقى درسا عاما يرجع لأصل المقال من دعوتهم له إلى الشرك وعبادة غير الله ومن اقتراحهم عليه آية من السماء فلما قتل هذا الموضوع درسا وتحقيقا وقال لا أتبع دينكم وأما الآيات المقترحة فإن الله لايأذن لى فيها ولست ملكا وليس عندى خزائن الله الخ وأرجع الأمر كله إلى الاستعداد وأن النفوس المستعدة للإيمان تؤمن فأما القلوب المتكبرة فهى لاتؤمن . رجع إلى أصل

الوضوع ليجعل له نتيجة فهو هناك كقضية يراد البرهنة عليها فلما أتى بالبراهين على هذه الأمور أخذ يذكر النتيجة فقال : (وكذلك) مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) آيات القرآن فى صفة المطيعين والمجرمين وإنزال الآيات وكيف كان المقترح منهم ليس ينفع فى الحياة ولا الإيمان ليظهر الحق (ولتستبين سبيل المجرمين) أى ولتبين سبيلهم على قراءة رفع سبيل أو لتستبين أى تستوضح يا محمد سبيلهم على قراءة النصب فتعامل كلا بما يلائمه . واعلم أن أمثال هذه الجملة تقال فى المواضع العظيمة من القرآن وهذا الموضع فيه أسرار تقدم بعضها وسيأتى كثيرمنها فيما سيأتى بعد آخر هذا المقصد، والحق أن هذه السورة منبع حكمة وستراها قريبا .

ثم شرع فى نفس النتيجة بعد التمهيد لها بالإجمال فقال : (قل إنى نهيت) صرفت بما نصب لى من الأدلة وأنزل علىّ من الآيات فى أمر التوحيد عن (أن أعبد) أى عن عبادة (الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) وهذه الجملة تأكيد لقطع أطماعهم (قد ضللت إذا) أى إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت (وما أنا من المهتدين) وما أنا فى شئ من الهدى، وفى هذا تعريض أنهم هم غير مهتدين وإذا كنت لا أتبع أهواءكم فإنى أتبع مايوحى إلىّ (قل إنى على بينة من ربى) على بيان وبصيرة فى عبادة ربى (وكذبتم به) الضمير لربى فإنكم أشركتم به غيره وهذا نتيجة لدحض اتباعهم فى الشرك بالله كما طلبوا فيما تقدّم . ثم أعقبه بالنتيجة الثانية وهى أن لاحق لهم فى اقتراح الآيات فقال: (ما عندى ما تستعجلون به) من الآيات المقترحات كما تقدّم تقريره (إن الحكم إلا لله) كما تقدم، فهو الذى جعل العالم درجات وكما رتب الحيوان ورتب الإنسان فى الدنيا والأخرى وفتن بعض الناس ببعض ليقول الغنى : كيف أصبح الفقير عالما ويقول الفقير كيف صار هذا الكافر غنيا وبهذا يتم ما أريد منهم كما سبق توضيحه (يقصّ الحق) أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به على مقتضى ترتيب الدرجات التى رتبها إذ نظم العالم من أعلاه إلى أسفله ثم من أسفله إلى أعلاه أى من عالم العقل إلى عوالم الضياء والنور وهى الأجسام الأثيرية فالشموس فالأرضون فما يحيط بها من الطبقات فالمخلوقات التى فوقها مرتبة درجات بعضها فوق بعض ، فالله يتبع الحق الواضح فى هذه الدرجات التى رتبها ونظمها يقال قصّ أثره إذا تبعه هكذا يتبع الله الحكمة فيما يعمل وليس يضرّ الله شيئا أن الناس يجهلونها وإنما ينزلها فى القرآن لتتلى حتى إذا جاء جيل رشيد أخذ يقصّ الحق الذى قصه الله فيقف على شئ منه فى الدنيا ثم إذا مات أخذ النور الذى أشرق على النفس فى الدنيا وهو العلم والحكمة يسعى بين أيديهم ليهديهم إلى ماهو أنور وأشرق، هذا هو المقصود من قوله يقصّ الحق أى فليس الله يتبع أهواءكم فى إنزال الآيات فيخرم النظام المتبع فى الطبيعة ويجعل العالم مضطربا لأن عالم الطبيعة إذا اختلّ نظامه لم يبق له وجود واقتراحكم يضادّ هذا وأنا لا أتبع إلا الحكمة فى عملى فعلى الناس أن ينهجوا نهجى ويقرءوا نظامى ويدرسوا حكمى فى دوابّ الأرض ونظامها وأنها أمم أمثالكم فادرسوها لتكونوا حقيقة أرقى من فى الأرض، فأما إذا عشتم كما تعيش العامة والبهائم فلكم منزلة فى الآخرة على قدر عقولكم ونفوسكم وأنتم محرومون من العالم الأعلى الذى هو فى جوار الملائكة والأرواح العالية وإذا اتبع الله الحكمة فى عمله فهو قاض يفصل بالعدل على مقتضى القوانين التى سنها (وهو خير الفاصلين) القاضين (قل لو أنّ عندى ما تستعجلون به) من إنزال العذاب (لقضى الأمر بينى وبينكم) أى لو ثبت أن فى قدرتى وإمكانى ماتستعجلون به من العذاب لأهلكتكم عاجلا لغضب ربى وانتصافا منكم لتكذيبكم (والله أعلم بالظالمين) أى أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه .

الفصل السادس فى شرح عام لما تقدّم كله

(١) وهو يرجع إلى أنه يعلم الغيب كما تقدّم من أنه جعل الحيوانات أمما أمثالنا فهنا يقول هو محيط علما بالعوالم كلها فى البرّ والبحر والورق والحبة فى ظلمات الأرض والرطب واليابس كل هذا فى كتاب مبين .

(٢) وإلى أنه يتوفى الناس ليلا ويبعثهم نهاراً .

(٣) وإلى أنه قاهر فوق العباد بدليل إنامتهم تارة وإيقاظهم تارة أخرى فهكذا بعد موتهم الذى هو كالنوم يحييهم بعد الموت كما أيقظهم بعد النوم .

(٤) وإلى أنه كما قهر أجسامهم فألجأها للنوم وللبقظة يسلط عليهم شدائد البر والبحر فيستغيثون وهو الذى ينجيهم .

(٥) وإلى أنه كما قهر الأجسام وأرواحها بالنوم واليقظة وبالظلمات فى البر والبحر سلط عليهم صواعق من السماء أو زلازل من الأرض وقذف فى قلوب بعضهم كراهة بعض إما حسداً وإما تديناً .

(٦) فكل هذه الأمور الخمسة الملخصة للفصول السابقة تلخيصا أكل تدعو العقل الإنسانى أن يفكر هل هذه الحياة تستحق أن تكون نهاية ؟ كلا بل هى مقدّمة وإلا فلماذا هذا الاضطراب والقهر والزلازل والحروب والنوم واليقظة ، كلا إن هذا أمر له مابعده فلذلك أتى آخرا بما يفيد أن قومك يا محمد كذبوا به وهو الحق فأعرض عنهم إذا خاضوا فى القرآن والوحى مكذبين ولا تجالسهم وكيف تجالس من اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وتركوا العلم والحكمة والجد ولم ينظروا إلى مايحيط بهم من العوالم والمحن هؤلاء قوم لايبالون فنفوسهم مسلمة إلى الهلاك لاشفيع لها ولا تقبل منها فدية وليس لهم إلا شراب من ماء مغلى فى بطونهم وعذاب أليم فى أجسامهم وقل لهم أندعوا من الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونكون كالذى أضلته الشياطين فى الأرض متحيرا ومعه رفقة يقولون ائتنا قل لهم لا نفعل ذلك فلا هدى إلا هدى الله ونحن مأمورون أن نخلص له وأن نقيم الصلاة لأنا سنحشر إليه وهو الذى خلق السموات والأرض الخ . هذا إجمال هذا الفصل السادس ، وهو (وعنده مفاتح) جمع مفتح بكسر الميم كالمفاتيح جمع مفتاح وهو مايفتح به المغاليق وإن جعل مفاتح جمع مفتح بفتح الميم فهو المخزن وسواء كان الأوّل أو الثانى فالمعنى أن الله عنده الغيب كله فمن عنده المفاتيح للشىء فعنده ذلك الشىء . ألا ترى أن من عنده مفاتيح الخزائن فإنه يتوصل بها إلى ما فى تلك الخزائن وإن جعل بالمعنى الثانى كان المعنى وعنده خزائن الغيب (لايعلمها إلا هو) قال ابن مسعود أوتى نبيكم كل شىء إلا مفاتح الغيب ومفاتح الغيب المذكورة أعم مما جاء فى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعلم أحد مايكون فى غد إلا الله، ولا يعلم أحد مايكون فى الأرحام إلا الله ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يدرى متى يجىء المطر أحد إلا الله» وفى رواية أخرى : لايعلم أحد ماتغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما فى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى الساعة إلا الله» أخرجه البخارى . وأعم أيضا مما روى عن مقاتل والضحاك أنها خزائن الأرض وعلم نزول العذاب ؛ ومما قاله عطاء وهو ماغاب من الثواب والعقاب ومما قاله غيرهم كانقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من سعادة وشقاء وخواتيم الأعمال وعلم مالم يكن بعد وعلم خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق وغيرها بل فوق ذلك علم كل ممكن وجد وكل ممكن لم يوجد . فمفاتح الغيب شاملة لذلك كله وكل هذه الأقوال داخلة فيها وإنما يقال فى كل مقام بحسبه على حسب قبول المخاطبين . ثم أخذ يشرح عموم علمه بالمشاهدات ليعرف الناس كيف يعلم الغائبات فيقول : إن المغيبات فى علمه منظمة على مقتضى ماترون فى هذا العالم الشاهد ولذلك قال (ويعلم ما فى البر والبحر) فليدرسها الناس ليظهر لهم كيف كانت خزائن علمه مقفلة على الناس قبل أن تبرز هذه العجائب فى البرّ والبحر . إن الذى برز فى البر والبحر من عجائب الخلقة وبدائع الصنعة من أنواع الجماد والنبات والحيوان والإنسان يدلنا على كيفية ترتيبها فى علمه القديم وهو بعض ماكان معلوما لله ولا يزال معلوما فسائر العجائب التى لاتحصى وهى عنده مخبوءة من العوالم التى قدّرها وستكون

في المستقبل

فى المستقبل لها نظام يشبه ما تشاهدون ، ومتى درستموه دلكم على حسن الإتقان وأدركتم طرفا من الجمال يسوقكم إلى استكناه الحقائق وفهم الدقائق وعلى مقدارها تقتربون من خالقها مع علمكم أنكم لاتصلون إلى نهاية علمه ومهما درستم وصفت نفوسكم فإنكم لا تدركون منتهاه وهذا مايديم لكم الشوق والجد لتسيروا فى أنوار العارف مجدّين . إن جميع الأرض إما بحر أو برّ فكأنه قال جميع ما فى الأرض (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى فهو عالم بالجزئيات ما عظم منها وما دق وما هو أدق من ذلك (ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس) معطوفات على ورقة (إلا فى كتاب مبين) مقدارها ووقتها ، والكتاب المبين إما علم الله أو اللوح المحفوظ . ومعلوم أن جميع الأشياء إما رطبة أو يابسة فعمم تارة بالبرّ والبحر وأخرى بالرطب واليابس وذكر الدقائق فى الورقة والحبة فلخصه أنه يعلم الكل وهو البرّ والبحر والرطب واليابس والأعم منه هى مفاتح الغيب والجزئيات الدقيقة كالورق والحبة فى باطن الأرض وهى الحبة قبل أن تنبت فإذا نبتت لم تكن حبة وقوله إلا فى كتاب مبين بدل من قوله لا يعلمها إلا هو بدل الكل على أن الكتاب علم الله وبدل اشتمال على أنه اللوح المحفوظ . إلى هنا انتهى ما فى المقام الأوّل من هذا الفصل .

المقام الثانى

(وهو الذى يتوفاكم بالليل) ينيمكم فيه ولا ريب أن النوم أخو الموت فكل منهما إزالة للإحساس ولكن الموت أشدّ استئصالا له فاستعيرله (ويعلم ماجرحتم بالنهار) كسبتم فيه كما هو العادة أن الليل للنوم والكسب للنهار (ثم يبعثكم فيه) يوقظكم وهذا ترشيح للاستعارة المتقدّمة فإن البعث من ملائمات المشبه به وهو الموت (ليقضى أجل مسمى) ليبلغ المتيقظ آخر أجله الذى قدّر له فى الدنيا (ثم إليه مرجعكم) بالموت (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) يوم القيامة بالمجازاة ؛ وهذا القول خطاب للكفار ولكل عاقل فهو يقول : أيها الناس إنكم فى الليل كالجيف الملقاة وفى النهار تكسبون الآثام والليل والنهار يدوران عليكم لا يفترقان فأما أنتم فإنكم لم تستيقظوا من غفلاتكم بل المؤمن منكم والكافر جميعا لا يفكرون فى أكثر الأحوال كيف كان نظام الليل والنهار واليقظة والنوم وهما دائبان فأما أنتم فساهون لاهون أو ماعلمتم أيها الناس أن هذه الحوادث المتكررة التى لامفرّ منها تشعر بطريق البرهان الاقناعى والقياس الظاهرى أن هذا النوم وهذه اليقظة قد ضربا مثلا للنوم الأكبر واليقظة الكبرى وإن ذلك إلا تمرين على الموت والحياة فإن متم فلا تجزعوا من انقطاع الحياة لأنها لامقطوعة ولا ممنوعة ولكن اجزعوا من غفلاتكم فأنتم لابدّ مبعوثون بدليل استيقاظكم من نومكم، وهذا من إحدى الأدلة التى ذكرها سقراط لتلاميذه وأفهمهم أنه برهان إقناعى يورث الظنّ لا اليقين فقال : ألم تروا أن الفقر يتبعه الغنى والغنى يتبعه الفقر والمرض بعده صحة والصحة بعدها مرض وهذه قاعدة أن الضدّ يتبعه ضدّه فالأضداد متتاليات والليل يتبعه النهار . هكذا فلتكن الحياة يتبعها الموت والموت يتبعه الحياة . هذا كلام سقراط وقد تقدّم فى سورة البقرة . فانظر كيف ذكر الله النوم واليقظة والليل والنهار ثم أتبعهما بقوله : (ثم إليه مرجعكم) ياليت شعرى أين جزيرة العرب وأين سقراط وأنا موقن أن المسلمين ليس فيهم إلا قليل قد اطلعوا على هذا البرهان من كلام سقراط وفيها هذا البرهان . وكيف يذكر النوم واليقظة وبنو آدم جميعا لايفكرون فيهما إلا الأطباء لأجل الصحة والمرض وإلا العشاق للاجتماع بمن يحبون وإلا المرضى للتألم مما أصابهم وهكذا وأهل الأرض جميعا إلا حكماءهم لايفكرون فى اليقظة والنوم من حيث إن الحياة الأخرى تعرف بالقياس لها . فإذا كان الناس اليوم يقرءون اللغات وهذه القصة فى كلام سقراط مع تلاميذه ولا يطلع عليها بلغة الإنجليز والفرنسيين وغيرهم إلا قليل من المسلمين فما بالك بالعرب فى جزيرتهم أيام النبوّة فلعمرك لم يسمعوا بحديثه هذا ولا كانوا يحسنون الكتابة العربية إلا قليلا منهم فكيف باللغات الأخرى وكيف بفلسفتهم، إن إيراد مثل هذا البرهان فى هذه السورة من عجائب

الحكمة التى تأتى فى الديانات والناس عنها لاهون ساهون . بمثل هذا تكون المعجزات وبمثل هذا تكون البينات على صدق النبوّة وبمثل هذا يجب على المسلمين أن يكونوا أوّل حكماء الأرض وفلاسفتهم .
أيها المسلمون هانحن أولاء بينا لكم ما يجب عليكم فاقتفوا أثر القرآن وادرسوا هذه الدنيا ونظامها فلا إتباع للقرآن مالم تدرسوا البرّ والبحر والسموات والأرض .

المقام الثالث من هذا الفصل

(وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) ملائكة تحفظ أعمالكم (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) ملك الموت وأعوانه وهم لايفرّطون بالتوانى أو التأخير (ثم ردّوا إلى الله) إلى حكمه وجزائه (مولاهم) الذى يتولى أمرهم (الحق) العدل وإذا كان كذلك فهو يحكم بالعدل (ألا له الحكم) وحده (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب الخلائق فى مقدار حلب شاة لايشغله حساب عن حساب .

إن قهر الله لعباده غلبته لهم والقهر تجده فوق كل شئ وبهذا القهر ثبتت هذه الكائنات ، فقهر الليل بالنهار والنهار بالليل والحرّ بالبرد والبرد بالحرّ ووضع الحارّ والبارد والرطب واليابس فى النبات والشجر وكسر هذا بهذا لحصل التفاعل كما هو ظاهر فى علم الكيمياء فلا مركب من المركبات إلا والقهر هو الذى حفظ تركيبه وأبقى هيئته وشكله وترى الأجزاء الداخلة فى تركيب النبات من الاكسوجين والأيدروجين والأوزوت والكربون والأملاح المختلفة وكذلك الحيوان كل هذه العناصر تتفاعل فى الأجسام العضوية فكل لكل قاهر فيتزن الجسم ولولا قهرها وتذليلها ما عاش حيوان ولا نما نبات ولبقيت العناصر ملقاة كهيئتها يوم خلقها الله بل الماء نفسه لولا القهر الطارئ على جزءيه الأكسوجين والأودروجين ما كان سائلا جاريا ولا ثلجا ثابتا بل كان جسما غازيا منتشرا فى الكون هوائيا لايصلح للأحياء . فالقهر لهذين العنصرين أبرز هذا الماء من العدم حول الكرة الأرضية ؛ ومستحيل أن يكون ماء أو نبات أو حيوان إلا بحساب متقن على مقتضاه يكون دخول هذه الأجزاء فى التركيب وعلم الكيمياء الآن أشهر من نار على علم يفهم منه هذا الحساب بسهولة . إذا فهمت هذا فتعجب كيف يذكر بعدها قوله : (ويرسل عليكم حفظة) فهو يقول قهرت العناصر فتفاعلت بالحساب . فإذا كان القهر عم كل شئ فالناس مقهورون والعناصر الداخلة فى أجسامهم بحساب لأنها مقهورة أيضاً ومن قهرها أن المواد الزجاجية الشفافة لا تكون إلا فى الأعين بحيث تقابل الضوء الداخل إليها ولولا هذا القهر ما رأيتم شيئا . هكذا فلتكن أعمالكم فأنا أحفظها فى سجلّ مكنون عندى فهناك ملائكة يحفظون أعمالكم بل أنتم ترسم فى نفوسكم كل ما عملتموه من خير أو شرّ فإذا عرفه الحفظة فأنتم كذلك كما فى قوله تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة) فكل أعماله مرسومة فى نفسه وتبرز يوم القيامة واضحة له فيندم ويحزن على القبح الذى يشاهده من نفسه (ووجدوا ما عملوا حاضراً) فإذا كان المرء يشهد على نفسه ويقال له : (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) فبالأولى تشهد عليه الملائكة فهذا قوله : (ويرسل عليكم حفظة الخ) وأما قوله : (وهو أسرع الحاسبين) فذلك ظاهر فى علم الكيمياء وتراكيبها وعلم الفلك فإن النبات والحيوان وكذلك حركات الفلك كلها تعرفك كيف كان سريع الحساب . وقد ذكرنا هذا مفصلا فى سورة البقرة وغيرها بأمثلة علمية مفيدة فى السموات والأرض .

المقام الرابع فى هذا الفصل

إن الناس من عاداتهم جميعا أنهم إذا نزل بهم مكروه من غمّ أو هم تمنوا زواله واستغاثوا بربهم وفزعوا ونذروا أنهم إن خرجوا من ذلك المكروه أقلعوا عن الذنوب وأخلصوا فى أعمالهم ونفعوا الناس . وهذه قاعدة مطردة فى الناس حتى إذا ذهب غمهم وزال بأسهم رجعوا إلى عاداتهم ونسوا عهودهم وساروا على طرقهم الأولى، اعتبر ذلك فى الذين يدمنون الخمر والميسر وشرب الدخان وسائر الذين يعتادون شهوة من الشهوات

فإنهم حينما يضيقون ذرعا من الشهوات يقلعون عنها ثم لايلبثون أن ينغمسوا فيها انغماسا ، وهكذا الفقراء فإنهم يقولون إن أغنانا الله كنا أرحم بالفقراء فإذا صاروا أغنياء كانوا أشدّ حرصا على المال منهم فى أيام فقرهم ؟ وهكذا المرضى يقولون لو كنا أصحاء لفعلنا كيت وكيت ثم إذا صحوا رجعوا لعاداتهم ونقضوا عهودهم مع ربهم فعبر الله عن هذا كله قائلا (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟) أى من الأهوال والشدائد للعبر عنها بالظلمات على سبيل الاستعارة يقال لليوم الشديد يوم مظلم ، فظلمات البر والبحر جميع المصائب الواقعة على الإنسان (تدعونه تضرّعا وخفية) معلنين ومسرّين (لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) الذين يعطون الحقوق لأهلها ويجعلون النعم فى مواضعها التى خلقت لها ولا يضنون بجاه ولا مال ولا علم ولا قوّة : أى يقولون لئن أنجيتنا الخ (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) غمّ سواها (ثم أنتم تشركون) تعودون للشرك ولا توفون بالعهد ، وكان مقتضى النظم أن يقال ثم أنتم لاتشكرون فعبر بالشرك عن رأس الخطيئة لأن انحراف القلب عن الحقائق هو الذى يحرّف الجسم عن العمل النافع .

المقام الخامس

إن الله عز وجل كثيرا ما يأمر السماء أن تنزل صواعق ويأمر الأرض بالزلزلة ويضع فى قلوب الناس الطمع والشره والحسد والحرص فيكون الحرب للمال والدين ولاحتلال الأرض كما هو الحاصل فى كل زمان؛ فالزلازل فى الأرض كثيرة وأهمها زلزلة بلاد اليابان فى هذه السنة وهكذا قد تنزل الصواعق وترى هذه الحرب الكبرى فيها قتل الناس فى الشرق والغرب بعضهم بعضا وزالت عروش وقامت أمم وانقسمت دول ووضع العزيز ورفع الذليل ، وهذا قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم) يخلطكم (شيعا) فرقا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم (ويذيق بعضكم بأس بعض) بأن يقتل بعضكم بعضا روى البخارى عن جابر رضى الله عنه قال « لما نزلت هذه الآية: قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك « أو من تحت أرجلكم » قال أعوذ بوجهك « أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » قال هذا أهون أو هذا أيسر» . وفى حديث مسلم ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم سأل الله ثلاثة أشياء فأجيب إلى اثنين وهما ألا يهلك أمته بالغرق وبالجدب ومنع الثالثة وهى ألا يجعل بأس أمته بينهم شديدا . وفى رواية الترمذى بدل الغرق «وألا يسلط عليهم عدوّا من غيرهم» . واعلم أن الآية عامة لسائر الناس وهى بيان لما عليه هذه الدنيا والحياة فيها وأنها مضطربة فعلى الناس أن يفكروا فى أمرها قبل الخروج منها . وما هذه الذكرات إلا ليتيقظ الناس ويتفكروا ، على أن كل امرئ متى ضعف أو كبر أو دنا أجله فمات فهذا قد قامت قيامته والدنيا فى حقه قد ذهبت فلا سماء ولاأرض لديه مما عندنا، فهذه المحن للتذكير بما نحن عليه من تقلب الأحوال، فنحن على كل حال راحلون من الأرض فإن لم يكن بصواعق السماء ولا بزلازل الأرض ولا بالحرب فيما بيننا فإن أجسامنا فيها من التبدل والتغير والتفاعل ما يجعل أعلاها أسفلها فنذهب من الوجود فعلينا أن نتفكر فى هذه العوالم عسى أن نهتدى للحقائق ، فإن لم يكن موتنا باضطراب الجسم العام وهو العالم كله فليكن ذلك باضطراب أجسامنا لافرق بين الاضطرابين (انظر كيف نصرف الآيات) بالوعد والوعيد (لعلهم يفقهون) .

المقام السادس

(وكذب به قومك وهو الحق) الواقع لامحالة (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل إلىّ أمركم فكيف أمنعكم من التكذيب أو أجازيكم (لكل نبأ مستقر) أى لكل خبر يخبر به الله فى القرآن وقت ومكان يقع فيه (وسوف تعلمون) عند وقوعه فى الدنيا والآخرة وهذه السورة نزلت بمكة وقد تمّ وعد الله

وفتحت مكة وانتشر الإسلام وظهر صدق القرآن فإنه لما قرأ هذا بمكة لم يكن هناك غزوات ولا فتوح ولا أمم دخلت فى دين الله أفواجا ، ولم يكن هناك هلاك لقريش كالتى فى وقعة بدر وأحد ولا غيرها وإنما حصل هذا كله بعد هذه السورة وأمثالها بزمان طويل وهذا هو الإعجاز الحقيق (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) بالتكذيب والاستهزاء والطعن فيها (فأعرض عنهم) فلا تجالسهم (حتى يخوضوا فى حديث غيره) غير القرآن لأن الآيات منه (وإما ينسينك الشيطان) بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهى (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد أن تذكره (مع القوم الظالمين) أى معهم ، وضع الظاهر موضع الضمر لأنهم ظلموا حيث استهزءوا بما يجب أن يؤمنوا به (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ) أى ليس على المتقين المجالسين لهم شئ مما يحاسبون عليه (ولكن ذكرى) ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى ليجتنبوا عن الخوض ويظهروا كراهة فعلهم (لعلهم يتقون) يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم .

واعلم أن الكفار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كان دينهم عبارة عن لعب ولهو كاتخاذ الأصنام والاستهزاء بالقرآن لأنهم يستهزئون به معتقدين أنهم يحافظون على دينهم الفاسد بل يلعبون ويلهون عند سماع القرآن ، ولكل أمة عيد فى دينها شرقا وغربا ، فتلك الأعياد اتخذتها الأمم لهوا ولعبا بخلاف عيد المسلمين فهو صلاة وتكبير وإحسان فلذلك قال (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) يشمل هؤلاء كلهم (وغرتهم الحياة الدنيا) حتى أنكروا البعث (وذكر به) بالقرآن مخافة (أن تبسل نفس) تسلم إلى الهلاك وترهن وتحبس وتحرم من الثواب (بما كسبت) من الإثم ، وأصل البسل فى اللغة التحريم ، تقول هذا عليك بسل : أى حرام ممنوع ، فالقرآن تذكير النفوس حتى لا تمنع من الثواب وتحبس فى جهنم (ليس لها من دون الله ولى) أى قريب يلى أمرها (ولا شفيع) يشفع فى الآخرة (وإن تعدل كل عدل) وإن تفد كل فداء ، والعدل الفدية لأنها تعادل الفدى (لا يؤخذ منها) أى ذلك العدل والفدية (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا) أسلموا إلى العذاب بسبب سوء أعمالهم وانحراف عقولهم (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فيشربون ماء مغليا فى بطونهم وتحرق أجسامهم فى جهنم بالنار (قل أندعو) أنعبد (من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا) ونرجع إلى الشرك (بعد إذ هدانا الله) إلى الإسلام (كالذى استهوته الشياطين) كالذى ذهبت به مردة الجن إلى المهامه ؛ والاستهواء : استفعال من هوى يهوى هويا إذا ذهب (فى الأرض حيران) متحيرا ضالا عن الطريق (له أصحاب) لهذا المستهوى رفقة (يدعونه إلى الهدى) أى يهدونه إلى الطريق المستقيم يقولون له (ائتنا قل إن هدى الله) الذى هو الإسلام (هو الهدى) وحده وما عداه ضلال (وأمرنا) بذلك (لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة) أى للاسلام ولإقامة الصلاة (وهو الذى إليه تحشرون) يوم القيامة . ثم أفاد أن خلق السموات والأرض إنما يكون لحكمة وهكذا قول الله الحق حين يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ فخلقه الخلق لحكمة وقوله حتى يوم يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ وتكون نتيجة ذلك أنه يخلق بالحكمة ومتى قال قولا يقتضى الإيجاد تم وتحقق ، وهذا قوله (وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) والحكمة فكيف يترك هؤلاء الضالين وشأنهم فالحكمة تقتضى أن يهذبوا ويؤدبوا . وكل من فعل بالحكمة من المخلوقين كالمهندسين والنجارين والمصورين يصعب عليهم العمل ولا يطاوعهم المصنوع من حديد أو ذهب أو حجارة فيحتالون ويجدون ، فأما هو فإن قوله الحق كائن حين يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ بلا نصب ولا تعب ولا آلات هندسية ولا حفر ولا تقيب ولا مدارس ولا معلمين ، وهذا قوله (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) فيوم واقع خبرا لقوله قوله الحق أى وقوله الحق كائن يوم يقول للشئ كن فيكون ذلك الشئ فهو نافذ فى الكائنات بخلاف الناس (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) جمع صورة والنفخ فيها إحياؤها بنفخ الروح فيها ولقد قالوا يا رسول الله كيف نفعل قال قولوا

حسبنا

حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا . وأجمع أهل السنة أن المراد بالصور القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل نفختين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب والقول الأول لأبى عبيدة (عالم الغيب والشهادة) يعلم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شئ (وهو الحكيم الخبير) هـذه الجملة ملخص الآية ، فذلكة لها . انتهى المقصد الأول من السورة تفسيرا لفظيا .

وفى هذا المقصد لطائف

اللطيفة الأولى : فى قوله « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » وكيف كان أول فكر المؤلف فيهما إذ قرأ أول كتاب فى علم الفلك .

اللطيفة الثانية : سؤال أحد الفلاحين له فى نهاية العالم من حيث المكان .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » وكيف كان العلم الحديث قد بين هذه بيانا شافيا ، وبه فهمنا معنى « وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » وكيف كانت القيامة رحمة لانقمة لأنها إحياء . وبيان المعجزة فى قوله « وله ماسكن الخ » .

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » وكيف كان القهر فى علم الكيمياء وغيره مصحوبا بالحكمة .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر الخ » وبيان ماكان من اختلاء المؤلف فى المزارع ليلا وتفكره فى أمر الحيوان وذكر الغرائز الحيوانيـة العجيبة التى تدل على نوع إدراك الحيوان ومحادثة المؤلف مع فلاح فى أمر الضفادع وإجابة امرأة مع عجز الرجل وتبيان أن هذه المسألة من أمهات المسائل التى عجزت عنها أهل الأديان ، وأن المسلمين قد قصروا لتركهم هذه المباحث العالية المرقية للأمم .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب » وبيان أقوال علماء الهند فى علم الله الغيب وقول علماء الأمم فى ذلك وعلماء العصر الحاضر ثم إظهار أن ذلك كله تقريب .

اللطيفة الأولى

أقص عليك أيها الذكى نبأ ما كنت أزاوله فى أول حياتى وأنا مجاور بالجامع الأزهر

كنت فى الجامع الأزهر حوالى أول القرن الرابع عشر الهجرى ولم أكن إذ ذاك أعرف شيئا عن المدارس المصرية التى كانت حافلة بالطلاب ، والتلاميذ فيها يقرءون علم الفلك والعلوم الرياضية ، ولكن هو التقليد يعمى ويصم فلم أكن لأعلم أن فى الأرض من يقرأ علم الفلك إلا القدماء ، وهذا يدلك أن الإنسان محجب عما حوله وأمامه وخلفه ما دام الأستاذ لايعلمه وكأن الناس فى هذه الأرض مسجونون لافى سجن جسمى بل سجن عقلى وبينهم حجب قد أسدلت ، فكم من علم يعرفه صاحبك وأنت تنكره بما أسدل من الحجب العقلية على الأنفس فتوارت بالحجاب . أقول فكرت ليلة فى هذه السماء ونجومها وصار فكرى هائما واشتعل القلب نارا وصرت أسأل فلا أجاب حتى إذا قابلنى أحد العلماء فقال عندى كتاب فأخذته وكان ذلك وقت المطلة فأخذته وسافرت مع المجاورين فى المراكب الشراعية ، والكتاب هو (الجغمينى) فقرأته فى يومين وأنا لا أتركه ساعة حتى اطلعت على البروج والمنازل والأفلاك وسير الشمس مع أنى إذ ذاك لم أقرأ علم الهندسة والحساب فعرفت ذلك معرفة عامة وهو يحيـل فى البراهين على إقليدس . الكتاب على طريقة القدماء وهو يصور الأفلاك التسعة وكواكبها وأنها طبقات بعضها فوق بعض الخ . وأنت تعلم أن هذه الطريقة جاء بعدها غيرها كما قدمناه فى هذا التفسير . والمقصود أنى بعد ما اطلعت على ملخص الكتاب فرحت فرحا كأنى أعطيت ملك سليمان وصرت أشد الناس اغتباطا ، ولما توجه المجاورون إلى أهليهم بقيت خارج القرية قبيل

الغروب وجلست فى أرض قرية (بردين) بين الحشائش الخضرة والأشجار النضرة والنسمات تهب والأوراق ترف والأرض قد اكتست جلابيب صفراء وهى تسر الناظرين ومجانى نهر فيه لجين وقد وشاه ذهب الأصيل .

والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الأصيل على لجين الماء

فأخذت أصلى العصر وأنظر الشمس وقد دنت من الغروب وأرفع طرفى إلى السماء وأحمد الله أن أرانى ما كنت إليه مشتاقا ، وبقيت كذلك فرحا مستبشرا حامدا شاكرا حتى إذا أقبل الظلام توجهت إلى البلدة قرير العين . وكانت العطلة لاتزيد على أسبوعين فصرفتها فى نقل هذا الكتاب ، ولكن بعد مدة دخلت مدرسة دار العلوم فتعلمته بعد علم الحساب والجبر والهندسة « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

ولعمرى ما أوردت هذه القصة إلا لأبشر الشائقين للعلم المغرمين بالحكمة أن الله حاضر عندهم سيهديهم رشدهم ويعطيهم طلبتهم . ولقد تعلمت بعد يأسى من العلم ولكم كنت فى ظلمات الليالى أرقب النجوم ويعجبنى جمالها وأسر لمرآها وأقول ماذا وراءها . وما كنت أعلم أن فى الأمم من يرقبون وينظرون ، فلما دخلت المدارس وقرأت عن أهل الغرب ألفيت الغرام بالعلم عاما ولا يعشق العلم إلا الأكابر .

ففز بعلم تعش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء

اللطيفة الثانية

كنت مرة فى قريتنا ببلاد الشرقية فقال أحد أقاربى : يا ابن أخى انظر هذه الأرض أليس لها آخر عندكم فى العلم ؟ قلت بلى . قال ووراء الأرض السماء . قلت نعم . قال وهكذا سماء وراء سماء وماذا بعد السموات ؟ هل يعلم أحد شيئا ؟ وهل أحد فى الأزهر عندكم يعرف ذلك ؟ وكان هذا السؤال من أسباب البحث فى هذه العلوم .

ولقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر كثير الشغف بجمال النجوم ، وكم ليلة بتها ساهرا أحس فى القلب بحزن عميق لجهلى بهذه العوالم وكنت أقول فى نفسى ليت شعرى ماذا يقول الناس فى هذه العوالم . ولقد بت ليلة ونساء قريتنا يندبن على ميت من سراة القرية وهن يرتلن أصواتا منتظمات نادبات هذا السرى والقوم جالسون فى خيمة فى الخلاء والنجوم باهرة فى السماء تتلألأ فكان لأصواتهن رنة حزن . ودام ذلك الحزن ليالى ذوات عدد فكانت رنة الأصوات تحدث فى النفس رقة محزنة ، وكأن الباكيات يندبننى لأنى جاهل بما فى العالم من الجمال .

اللطيفة الثالثة

يقول الله « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » ومعنى هذا أن الملائكة لايظهرون للناس إلا بصورة بشرية . ولقد ظهر فى العلم الحديث وذلك أنهم قد بحثوا فى علم الأرواح . كيف تظهر الروح فوجدوا أن أرواح الأموات التى تتجلى للأحياء تستعير من جسم الوسيط (أى الشخص المنوّم بالفتح) المواد التى تتشكل بها وجسم الوسيط إذ ذاك ينقص وزنه على مقدار ما أخذ منه . وهذا الأمر حققه العلامة (أكنا كوف) والسير (أرمستر وغ) والعلم (أولكوت) الانكليزى وخلافهم من المجربين الذين أجمعوا على أن جسم الوسيط ينقص وزنه عند انتقال مادته إلى جسم الروح ويقولون إن للأرواح جسما لطيفا يدوم لها أمدا طويلا كأنه غلاف للروح ، وهذا الجسم اللطيف كأنه قالب الجسم الشاهد لنا وفناء الجسد الشاهد لايغير هيئة الروح مع غلافها ، وإذا كان ذلك فى الأرواح فهو فى الملائكة أولى لأن للملائكة ألطف من الأرواح . يقول الله لو جعلت الملك مرسلا إليكم لجعلته رجلا فترونه ويرجع اللبس وإذن لابد من مادة حقيقية لامجرد وهم أو خيال ، فبهذا وافق الكشف الحديث القرآن وهو أن عالم الأرواح لايشاهد إلا بشكل مادى فما دمنا

فى

فى الحياة فلا ترى ذلك العالم إلا على أشكال حسية عنصرية . قالت مدام ماريات الانجليزية فى تأليف لها فى الحادث الروحانى أوقفنى العلامة وليام كروكس وقت الجلسة لمراقبة وزن الآنسة فلورنس كوك بعد أن وضعها على آلة للوزن اخترعها بنفسه فوجدت ثقل الوسيطة قبل تجلى كاتى ١١٢ ليره ولما تجلت الروح تناقص وزنها إلى ٥٦ ليره أى زهاء النصف انتهى .

اللطيفة الرابعة

قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » هذه الآية تعرف الناس رحمة الله . فهو يقول خلقتكم فى الأرض مفترقين متحاسدين متعادين وإنى وإن كنت شملتكم برحمتى فيها فهناك رحمة أوسع ومجال أبهج وكمال أبدع وهو اجتماعكم فى عالم السموات وأكناف العوالم اللطيفة المزدانة بالجمال المفرغة فى قالب الكمال وأنتم هناك مجتمعون بعد التفرق، وأى رحمة أعظم من إطالة الحياة وأنها ليست منتهية بالموت بل دائمة البقاء . وقوله « وله ما سكن فى الليل والنهار الخ » فى هذه الآية عجب عجاب من دلائل النبوّة وعجائب الحكمة فكيف جمع الله بالتعبير بسكن بين لطائف العوالم التى نشاهدها . فانظر رعاك الله كيف ترى أن الأرض والكواكب والشموس والأقمار جميعها متحركات لاسكون لها ، فلا أرض ولا شمس ولا قمر بل لاذرّة فى هذا الوجود ساكنة ، فالتعبير بالسكون مناقض لحال هذا العالم المشاهد ، ولكن إذا وقفت ليلا تنظر النجوم وتلاحظ الأرض حولك لاتجد حركة ، فالكواكب والأرض والعوالم حولك تراها ساكنة ثابتة وأنت مطمئن قرير العين بسكون هذه العوالم ، هذه هى الحكمة بل المعجزة . كون متحرك ولكنه ساكن مطمئن للنفوس . هذا هو سر قوله « وله ما سكن » كأنه يقول إن الإبداع فى العالم جعله ساكنا مع أنه متحرك انتهى .

اللطيفة الخامسة

قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » القهر فوق العباد مصحوب بالحكمة والعلم واعتبر ذلك فى كل ماهو ضرورى للبقاء ونعمة الحياة . وتأمل كيف ترى أن كل حىّ من إنسان وحيوان مقهور على الغذاء مفطور على طلبه، فهناك فى داخل جسمه داع حثيث يقهره على طلب الغذاء وألم باطنى يسمى بالجوع وداع آخر يسمى بالشبع وهو كراهة الأكل ولولا سائق الجوع وقائد اللذة فى الطعام وسائق العطش وقائد اللذة فى الشراب وسائق الشبق وقائد اللذة فى الوقاع، ما أكل الناس ولا شربوا ولا ولدوا ، فالأولان بهما بقاء الأشخاص والأخير به بقاء الأنواع فى كل حيوان . ومعلوم أن حياة الأشخاص وحياة الأنواع هى المقصود الأعظم من هذه الدنيا ومن عليها فكيف كان قهر الحيوان على الحياة . ومن عجب أنه لم يوكل إلينا أمر البقاء ولا التناسل بل قهرنا عليهما قهرا ولم نكن فيهما إلا مضطرين بخلاف بناء المنازل وزرع الأرض وحرثها والتجارة فإننا نهندس ونحفر الترع وليس هناك إلا قائد وسائق عقليان . فأما حياتنا فقد وجدنا أن نفوسنا فيها لكل شىء سائق بسوطه ليقهرنا ويلجئنا أن نأكل ونشرب ونوافع وقائد مشوق لذلك كما يكون للحيوان فى الأمكنة المخيفة رجل يقود وآخر يسوق حتى يسلم من العطب مبالغة فى المحافظة عليه، وكما يجعل الدابة سائق بالعصا وآخر معه حشائش تنظرها لتتبعه فيكون ذلك أعون على سرعة سيرها . فهذا هو القهر والغلبة ولكن لامع الظلم ووضع الشىء فى غير موضعه بل هو القاهر وهو الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه وهو الخبير بما يصنع .

واعتبر ذلك فى المرأة ترضع ولدها والناقة ترضع فصيلها ، والدجاجة والحمامة والنعامة تحضن بيضها فإنهن جميعا مقهورات على ذلك العطف قهرا لامفرّ منه ، بل اعتبر ذلك أيضا فى المخترعين والمؤلفين الذين يجدّون فى أعمالهم وهم لايعلمون شيئا فى مستقبل أمرهم ويجدّون ليلا ونهارا وربما ضاعت أموالهم فى سبيل

أعمالهم وصحتهم وحياتهم وليس يجنى الثمرة إلا أممهم كما لم يجن ثمرة الحياة إلا فصيل الناقة وولد الظبية وكل لكل مسخرون وهم لايعلمون بل العالم هو الحكيم الذى سخر الآباء والأمهات بالعطف والحنان .

ومن عجب أن الناس مسخرون ولايعلمون أنهم مسخرون ومقهورون وهم لايشعرون . والناس يضربون المثل فى الظلم بجامع الرفاعى بمصر قديما وهو قريب من قلعة الجبل بمصر ويقولون إن الوالى كان إذا أمر رجلا أن يعمل فيه وأبى أن يطاوعه يقول له الوالى لا بالله ويقهره على العمل فيه حتى سمى المسجد إذ ذاك (بمسجد لا بالله) وقيل فيه :

بنى مسجداً لله من غير حله فكان بحمد الله غير موفق

فهذا القهر ضرب به المثل ولكن نحن مقهورون فى دائم الأوقات قهرا بحكمة وعلم فلم نحس بأننا مقهورون . وترى القهر فى السموات فوقنا ، فالكواكب تسير بالقهر والشمس والقمر وهذا القهر منظم لأنها أطوع منا فلذلك قال « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » فلم يسم هذه العوالم ظالمة لأنها لامخالفة منها فترى مواعيد الكواكب لاتغير فيها وكذا الحيوان لايقرب أثناء أيام حملها ولا يأكل إلا ما يصلح جسده ، أما الإنسان فكثيرا ما يخطئ فى تقدير الأكل والشرب والوقاع فيقع فى الضر فقل مرض الحيوان وكثر مرض الإنسان وخطؤه وذنوبه لاسيما فى المدن والقرى بجهله وخطئه . فهاهنا حمل الإنسان الأمانة والتكليف ووجب عليه أن يتجافى عن أشياء ضارة به كالادخار ، وكلف ببذل المال والعبادات وما أشبه ذلك وحتم عليه تربية القضاة لفصل قضاياه والأطباء لمداواة مرضاه فى المدن وقل ذلك فى الأعراب بالبوادى . فأما الحيوان فهو غير محتاج إلى الأطباء مادام بعيدا عن الناس لصفاء عيشه وحسن تقديره لطعامه ، فتكون الحيوانات الوحشية فى الأحراش والغابات والفلوات وطيور السموات سليمة لأنها سائرة فى القهر مع حكمة الحكيم كما سارت الكواكب والشمس والقمر فلم تكلف بما يصلح خللها كما كلف الإنسان .

ولما جرت الكواكب والشمس والقمر بحساب أرسلت الحرارة على الأرض فقهرت الثلج فذاب فصار ماء ، والماء أقرب إلى البساطة لأنه مركب تركيبا قليل العناصر فأصبح وهو جامد ثلجى منظما نظاما بديعا ، فإن قطرات الماء إذا ضربها البرد فى درجة أقل من الصفر وقعت ثلجا فى البيوت بالبلاد الشديدة البرد فإذا اجتمع خلق كثير فى قاعة صغيرة هناك وفتحت نافذة من نوافذ القاعة والبرد شديد جمد البخار فى هوائها ووقع ثلجا والثلج مركب من بلورات من الجليد إبرية الشكل يصل بعضها ببعض على أشكال تدهش الناظر وتبهر النواظر وقد رسم بعضها بالأشكال الستة المسدسة فى سورة آل عمران . فانظر كيف كانت مسدسة الشكل وليس فى الأشكال مسدس منها يشابه المسدس الآخر . فتجد وحدة فى التسديس واختلافا فى الأشكال كما ترى نظام بيوت النحل فهو مسدس الشكل ولكن شكله واحد . أما هنا فالتسديس واحد والنظم مختلف لأن مسدسات النحل فى بيوتها من صنع حيوان ضعيف ، أما هنا فإنه صنع الحكيم الخبير فهنا العمل واسع وهناك ضيق ، وهـــذا هو قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » .

اعلم أن الاكسوجين لم يوجد حرًّا فى الطبيعة خالصا من الشوائب وهوداخل فى التراب ومع الكربون أى الفحم فى حامض الكربونيك وهو داخل فى تركيب المواد التى حولت لمثل الصخور والرمل والتراب وكذا المعادن إذا حصل لها الصدأ وكل ما صدئ وزاد وزنه فزيادة الوزن ناجمة من الاكسوجين الذى هو داخل فى الهواء وفى الماء وهو المصلح لدمنا بالتنفس . فانظر لقهر الله وحكمته انظر كيف ترى أن المعدنين المتشابهين كالرصاص والقصدير إذا تركبا كان المركب قريبا منهما . أما العنصران اللذان لاتشابه بينهما

كالاكسوجين

كالأكسوجين والأدروجين فإنهما غازان ، فالأول ضرورى للاشتعال والثانى قابل للاشتعال ويكون منهما سائل ليس من طبع أحدهما وهو الماء فهو يطفئ النار ويمنع الاشتعال . فتعجب من قهر الله فوق عباده حيث قهر الغازين فصارا سائلا وهذا السائل أطفأ ما أشعلاه ومنع ما قبلاه انتهى .

الاطيفة السادسة

قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » لقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر أرجع إلى بلاد الريف أيام العطلة ، فإذا غابت الشمس وأخذ الليل يرخى سدوله وأقبل الظلام من المشرق خرجت من البيوت طالبا الحقول والخلوات فأجلس حتى لايهوّش على عقلى المهوّشون وكنت أنشد قول مجنون ليلى :

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدّث عنك النفس بالليل خاليا

وكانت النظرات فى تلك الخلوات للنجوم وجمالها والحقول وسماع النغمات باجتماع الحشرات فيها بتلك الظلمات والنجم مشرق والقلب مستيقظ والنفس توّاقة . وتارة أحضر القرون الخالية والأيام الماضية وتمرّ الجيوش تلو الجيوش والملوك تلو الملوك على الأرض التى أنا عليها من الفراعنة العظام والملوك الفخام ، وكان يخيل إلىّ أنها دول يتبعها دول قد مرت فى مكانى الذى أنا جالس فيه والزمان مقبل والمواكب حافلة والجنود مصطفة وكل مطيعون ولساداتهم خاضعون . وتارة أنظر فى ذلك الجوّ البعيد المدى الكثير الجدا الواسع الأكناف البعيد الأطراف ، وأرى كيف خيم على الحقول والأحراش والغياض والغابات، وأتأمل كيف جلس قبلى أناس فسمعوا ما سمعت من نغمات الحشرات فى دياجى الظلمات وهم لايعون ما تقول ولا يسمعون إلا أصواتا . وكم جلس جالس قبلى وهو دهش من حيث يرى ولايرى ويعجب قائلا كيف تجلى الليل بالأنوار والنغمات وقد هبت النسمات وتمايلت الأغصان وأخذ الفكر يجرى مجراه وهو لايعلم إلا قليلا والنظام الليلى فى أصواته وهوائه وحقوله واحد لايتغير ؛ فالهواء يهبّ والريح تلعب بالغصون والحشرات المغنيات الفرحات بالخصب والريف لم تنقص نغمتها ولم تتغير بهجتها ، فمن سمعها منذ ألف سنة وسمعها الآن يظن أنها هى بعينها وذلك لشدة النظام وحسن الاتقان كما تقوم الدولة أثر الدولة والولد أثر أبيه بعد موته والآخر يتبع الأول والمتأخر يتبع المتقدم .

حكاية الإنسان والحيوان

بينما أنا جالس ذات ليلة إذ مر ذئب أو ثعلب سريعا فقلت فى نفسى يا للعجب ألهذا عقل وكيف رأينا الذئاب والثعالب وسائر الحيوانات البرية لديها ذكاء كأنه عقل ، وكيف كان علماؤنا لايقولون لنا إلا أن هذه غريزة؛ فأخذت أشك فيما قرأت وقلت فى نفسى : يقولون الإنسان حيوان ناطق فالنطق الفكرى خاص بالإنسان ومع ذلك نرى هذه الحيوانات عندها من الذكاء ما لاينكر ، ومن ذلك الوقت أخذت أفكر فى أنواع الحيوان وواليت الدرس والتنقيب ورأيت بعض رجال الدين يقولون : إن الحيوان لايحشر لأنه ليس كالإنسان وإن حشر لايدوم وهكذا فكانت هذه الأقوال عندى مربكة للفهم مزعجة للنفس ، فهل كانت هذه الحيوانات كلها مخلوقة لا لغاية ثم نظرت فوجدت الأمم الحالية قد مرق كثير من المتعلمين منها من الديانات بشكوك ومنها هذه المسألة ، قالوا كيف يكون الإنسان والحيوان مخلوقين معا فى درجات الرقى منتظمة من أدنى حيوان إلى أعلى إنسان ثم لايحظى بارتقاء بعد الموت إلا الإنسان ولم هذا الاختصاص وكيف كان أدنى الإنسان يحيا بعد الموت وهو قريب من الحيوان والحيوان لايحيا وهكذا . والقرآن يقول « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون » فالآية صريحة واضحة والناس لايبالون بالدين ولا بالعقل وإعامّ المتعلمين فى ديار الإسلام محصور

فى أمرين : العلوم الفقهية لمسائل القضائية والكلمات الفلسفية فى الكتب الوراثية ، فأما غير ذلك فالعقول فى غطاء والناس نيام ، وهذا القرآن جاء ليفك العقول من عقلها وينشط الناس إلى العمل والفكر فعكس الناس الأمر وأرخوا على العقول حجبها وحبسوا النفوس فى أقفاصها ومات قوم شهداء الجهالة قتلى التقليد صرعى الأوهام، فلم ينبغ نابغون إلا فيما سطره المؤلفون من المعقدات وأورثه المتقدمون من المجادلات مع أن العقول مصنوعة صنما إبداعيا مفطورة فطرة قوية فكان حقها أن يطلق سراحها وأن لايكبح جماحها وأن يطلق لها العنان فتنظر فى كل شىء نظرا يرضيها وتسرح الطرق فيما يرقيها ، فيا أسفا على أمم درست وعقول غفلت ونفوس هلكت وهم مسجونون اللهم إلا قليلا ممن شرفهم الله وأنتم عليهم برضاه فكتموا العلم خوفا من السيف والسنان وجور السلطان وتقول الجهلة الطغام فأولئك هم السادة الأخيار . وكان حق المسلمين أن يكونوا أول العالمين مفكرين ناظرين لامقلدين جامدين .

القرآن هنا صريح أن الحيوان له حياة تماثل حياتنا فله مستقر ومستودع وله علم بحياته وهكذا سيحشر كما نحشر . هذا هو الحق الصراح ، فأما مستقبله فمجهول كمستقبلنا لأننا لانعرف ماذا يكون إلا مما سمعنا أو فكرنا .

الحدأة تخاطبنى قائلة : قد سخر لى ما فى السموات وما فى الأرض

ورأى المرحوم أستاذى الشيخ حسن الطويل

بينا أنا يوما واقف بقريتنا أمام منزلنا إذ لمحت حدأة ترفرف بجناحيها كى تبحث بحدة نظرها عن حيوان حى صغير تختطفه أو ميت تلتقطه فخيل لى وهى فى الجو ترفرف أنها تقول لى: لقد سخرت لى الممالك والملوك والزارع والزروع والحيوان والنبات وعالم الأفلاك . ألم يكن عيشى على فراخ دجاجكم التى ربيت فى أحضانكم وتحت إشرافكم واقتاتت من حبكم الذى زرعتموه ومن حقلكم الذى رويتموه ومن أنهاركم الجارية ونيلكم المعظم . وهل يتم هذا النظام أو يقوم هذا العمل إلا بمهندسين ومنظمين ومعارس ومدرسين وحاكمين ومحكومين وقضاة ومتقاضين وجيوش وعلماء مهيمنون . أنتم المربون للدجاج وأنا الخاطفة لها ولا يتم لكم شىء من هذا إلا بنظام تام وحكومة صادقة ولايتم شىء على أرضكم إلا بحرارة جوية وإشراقات شمسية ودوران الكواكب الدرية . فالعالم مسخر لى فأين دعواك إذ تقول سخرت لى الأفلاك وأنا شريكتك فى دعواك . فأنتم الزارعون المربون للحيوان وأنا قاطفة الثمرات ، فإذا ادعيت أنك سخرت لك الأرضون والسموات فهذه دعوى الكاذبين ، فلئن سخر لك الحيوان فقد سخرت أنت وهو لى كل لكل مسخر فما هذا الضلال والإفك والبهتان . ومن عجب أن الحدأة ظلت ترفرف بجناحيها حتى انتهى الفكر إلى هذا كأنها كانت تعطينى هذا الدرس ثم طارت إلى حيث تريد ، ورجعت حائرا فى أمرى حتى إذا رجعنا إلى المدرسة حدثت أستاذى الشيخ حسن الطويل وكان طويل الباع رحمه الله فى هذه الآراء . فقال نعم هذا حق ولكن الإنسان أوسع مجالا وأكثر نوالا وأبعد إرقالا وأغزر أملا وأعز نفرا لأنه لانهاية لكمالاته ولا غاية لسعاداته . وهذه أقوال إقناعية على الطريقة المعروفة والآراء الموروثة تقنع السامع إقناعا وقتيا وترضيه مليا . ثم يرجع له الفكر كرتين ويؤت طالب اليقين ولا يقين إلا قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » يا حسرة على الأمة التى داسها الفرنجة وهم نائمون وسخر منها الغرب وهم ساهون لاهون ماتوا وهم أحياء وكانوا أعزاء ، شقوا وكانوا سعداء . ذلك البلاء النازل على العقول والكسل المخيم على النفوس والنوم الذى أحاط بالناس . فلا الحوادث بصرتهم ولا الكتاب أيقظهم ولا العقل بصرهم . فلتكن الأجيال المقبلة والعقول الجديدة بعدنا أصفى وأنقى وأرقى وليرجعوا مجدا ضاع وعزا ذهب وليوقدوا نارا خبت وليكونوا خير أمة أخرجت للناس .

نظري في الحقول ومحادثة مع فلاح وإجابة امرأة عنه

كنت يوما مارّا في حقول قريتنا وما كنت في الحقول إلا دارسا ولا أمرّ فيها إلا قارئا فالقراءة إنما تكون في الحقول وفي نظر النجوم ، فأما القراءة اللفظية فما أبعدها عن الأمور العقلية وكان الخاطر في أول أمري هكذا « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » وتارة يكون هذا الخاطر « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » وتارة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر » الخ الآية في سورة البقرة ، وكنت أجد ذلك ملازما لفكري لايفارق عقلي .

ولقد حدّث أحد الفلاحين مرة عن العسل الذي يشتاره الناس من الجبال وأنه يكون هناك بكثرة وقد يجمد في الجبل وفي حلاوته ميل إلى طعم الملح لأنها تشرب من الماء المعين . وكان الحديث ليلا والهواء صافيا فكنت أشعر بميل شديد وشوق إلى معرفة عجائب النحل ، وكان المحدث والسامعون يتذكرون القطع العسلية التي يحملها المسافرون من ذلك العسل . فأما أنا فقد كنت مشغول الفؤاد مهتمّ القلب بعجائب النحل وفوائده .

محادثة

ومرة مررت بجانب نهر فيه ماء قليل من بقايا ماء النيل وفيه حيوانات صغيرة تسمى (أبا ذنيبة) ترى ذاهبة جائية في المستنقعات ، وكنت في تلك السنة قد قرأت في مدرسة دار العلوم أن هذه الحيوانات أصل الضفادع ولم أكن لأعلم ذلك إلا من المدرسة ، فقلت لرجل من الفلاحين يا إبراهيم أتدري ما هذا ؟ فقال ومن أين أعرف، وكانت امرأة تحمل جرّة على رأسها قد ملأتها ماء قد سمعت هذا القول فقالت أيها الرجل كيف تجهل هذا وأنت شاب . ألم تعلم بأن هذا هو أصل الضفادع قد ولدتهنّ الضفدعة ؟ فعجبت من قولها غاية العجب وقلت: إن في القرى والفلاحين من هم أهل للحكمة والعلم رجالا ونساء ، ولكن قلة التعليم منعت الناس من السعادة والارتقاء . وهاك عجائب مما جاء في العلوم في الحيوان .

عجائب الحيوان

العجيبة الأولى : قد شاهد العلماء قرودا في الممالك المتحدة تبني قنطرة من أغرب ما سمعه البشر ، وذلك أنها إذا أرادت عبور نهر انتخبت أفرادا منها وأمسك واحد بغصن الشجرة على شاطئ النهر وأمسك بيديه ورجليه ثم أمسك آخر فآخر حتى تنتظم سلسلة من القرود ثم يصنع أسفلهن اهتزازا في السلسلة فلا تزال في ارتفاع وانخفاض حتى يمسك القرد الذي في طرف السلسلة شجرة على الشاطئ الآخر وتتكوّن قنطرة محدبة من القرود ثم تمر عليها مئات منهن عبورا اعتياديا بلا خوف حتى إن الصغار ليتغامزن فوق تلك القنطرة ، فإذا انتظم عقد جمعها في الشاطئ ونجوا جميعا سالمين أنزل الذي أمسك بالشجرة في الشاطئ الأول يديه ، ومعلوم أن الآخر مثبت يديه في الشاطئ الثاني فتنتقل السلسلة للشاطئ الآخر ويصبح أول القردة إمساكا بالشاطئ الأول أدناها في الشاطئ الثاني وقد خرج بالسلامة فيه ثم تتبعه بقية السلسلة مع باقي القرود . وهذا قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلّ في كتاب مبين » وقوله هنا « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » انتهى من كتابي جمال العالم نقلا عن الكتب الإفرنجية .

الكلب وفضائله وذكاؤه

العجيبة الثانية : حكي أن امرأة كانت في سفينة تجارية معها ظئر تحمل ولدها فوقفت الظئر في نافذة مشرفة على البحر وأطلت على الماء والصبي في يدها فقدّ رأسه فسقط في البحر فصرخت الظئر واهتاج

أهل السفينة، وأما أمه فأغشى عليها وكان فى أخريات الناس شاب فى يده كتاب وبجانبه كلب من بلاد الأرض الجديدة فأسرع إلى الظئر وقال لها : هل معك شئ من أثر الصبى ؟ فقالت لا إلا خرقا من ثيابه بقيت فى يدى حين سقط فى البحر فأخذها منها وأشار إلى الكلب بها متجها إلى الموضع الذى سقط فيه الصبى فما كان إلا كلمح البصر حتى وثب الكلب إلى تلك النقطة وغاب تحت الماء ، وكان هناك سفن شراعية تحاول أن تقف بالصبى على أثر فلم يمكنها ، فبينما هم كذلك والناس منتظرون إذا بالكلب قد أقبل يضارب الأمواج وفى فمه شئ ثقل عليه ، فأسرعوا إليه من كل صوب حتى انتشلوه والصبى فى فمه حيا سليما ، فلما رأت أمه ذلك خرت مغشياً عليها ثم دنت من الكلب وأخذت تمسحه وتقبله وتمشط رأسه ثم قالت لمالكه : إنى غنية ذات ثروة واسعة فهل تعطيه لى بكل ما تطلب من ثروتى ولو كانت كلها ؟ فتبسم ضاحكا وقال : الحمد لله إذ أدى لك الكلب هذه الخدمة ولكن لا أبيعه ولو بملء الأرض ذهبا ، فرؤى الكلب إذ ذاك يمسح برجلى سيده كأنه فهم ما يقولان ، انتهى من كتابى جمال العالم .

العجيبة الثالثة : كلب البحر

من كتابى جمال العالم أيضا هذا الحيوان فى جهات كندا وفى أمريكا الشمالية ، وهو يكون جماعات تتحد على الأعمال وتفعل فعل الأمم الراقية فى الصناعات وفنون العمارات ، ولها مغارات وسراديب تحت الأرض لتسكن فيها زمن الحر ولا تزال فيها حتى إذا أقبل الشتاء وهجم بخيله ورجله عرفت تلك الحيوانات بوادره فاجتمعن زرافات وجماعات مابين المائتين وثلاث المائة فأخذن يردن الأماكن وينظرن أصلحها وأحسنها على شريطة أن يكون على شاطئ نهر جار ليبنين مساكنهن فيه ليكون الماء حصنا حصينا من هجمات الأعداء كما سترى ومخزنا نفيسا يقيها من الثلج القارس القابض ، وعلى ذلك تأتى هذه الكلاب ليلا إلى الأشجار القطعة على ضفق النهر وتقطع غصونها وكتلها الكبيرة حتى تسقط على سطح الماء الجارى فيأخذها فى تياره ويسير بها حتى إذا حاذت المكان المنتخب للبناء أوقف أولئك الكلاب سير الأخشاب ثم أخذن يكسرنها قطعا قطعا حسبما يقتضيه بناء السد ثم أخذن يغرسنها فى أسفل النهر بهيئة تكون سدا منتظما بين الشاطئين معارضا جرى الماء كسد العرم لبلقيس وخزان أسوان وملأن ما بين تلك الأخشاب بالأحجار والطين ، ولو رأيت ثم رأيتهن غاديات رائحات والطين والأحجار بين أفواههن وأيديهن وبعد الفراغ من ذلك يجتمعن كل عشرة أو اثنى عشرة منهن ويبنين بيتا ذا غرفتين ، عليا للسكنى وسفلى لخزن الأقوات من قشور خشب الأشجار كالحور ويتكون من تلك البيوت هيئة قرية . ومن العجيب أن الأبواب لا تفتح إلا تحت الماء بنحو ثلاثة أقدام أو أربعة حتى لا يصل إليها أحد بسوء وليس لها أبواب سواها ، فإذا اشتهت الأكل وهى فى الغرف العليا تدلت إلى السفلى المملوءة بالماء الداخل من الباب فتناولت تلك القشور الآمنة من الثلج المتراكم على سطح البسيطة والماء ، إذ عادة الماء من أسفل أن يوقى من الثلج ، ولما علم أهل تلك الجهات ذلك وأن هذا الحيوان حريص على سده أخذوا يحتالون على صيده بفتح سده فتخرج تلك الحيوانات سراعا سراعا إلى سده فى أسرع من لمح البصر فيصطاد منها الصيادون أثناء محاولة إصلاح السد ، فتأمل كيف اتحد هذا الحيوان على المصلحة وكيف عرف ما درسه الإنسان فى قضايا ارشميدس التى بها تجرى السفن فى البحار ، وكيف اتحد على الأعمال وفعل فعل أعظم الأمم التمدينة ، وكيف عجز أهل الشرق عن تقليده فى اتحاده وكيف وضعت له أسنان حادة بها يقطع تلك الأشجار أغنته عن الآلات والأدوات ، وكيف عرف ذلك كله بلا تعلم ولا تعليم (فسبحان الخلاق العظيم) .

العجيبة الرابعة : الكلب الذى هو نوع يسمى الدرواس

روى للمز بال فى المجلة العلمية حادثا شهده عيانا قال : سار كلب من نوع الدرواس على ماء مجمد وإذا

بالجليد

بالجليد انقض تحته وتكسر وكاد يغرق فحاول التشبث بطرف غصن مدلى لينجو به من الغرق فلم يتوصل إليه وإذا بكلب آخر من نوع (الترنوف) كان مراقبا للحادثة فأسرع إلى نجاته وسار على الجليد بما أمكن من التحفظ إلى أن دنا من الثقب الذى سقط فيه الدرواس وعض على طرف الغصن وأدناه من رفيقه فتشبث هذا به ونجا من الغرق . قال العلم بال: إن التعقل والحزم والشهامة التى بحثت من هذا الكلب فى عمل لم يكن له فيه محرك آخر إلا وجدانه الداخلى تدل على وجود عقل فيه قريب من العقل البشرى . انتهى .

العجيبة الخامسة : القرد وتعقله

إن أغرب رواية دلت على تعقل الحيوان ذكرها العلم (جراتيوله) فى تأليف له قال حدثنى (تورّيبيانكا) أنه كان جالسا مع أسرته فى غرفة والخادم مشتغل بشىّ كمية من (الكستنا) أى (أبى فروة) وكان هناك قرد داجن ينظر إليها بنهم ، وإذ خرج الخادم لقضاء حاجة نظر القرد إلى ما حوله ، وإذ لم يجد شيئا يستعين به على انتشال الكستنا من وسط الرماد وثب على قط راقد هناك وأمسك يده بعنف وجعل يحرث بها النار ويخرج الكستنا ، وإذ سمع أهل البيت ولولة الهر أسرعوا إلى المطبخ فوجدوا القط يعج ألما والقرد يأكل ما غنم اه .

العجيبة السادسة

إن القردة المعروفة (بالاورنجوتان) و (الشانبانزاه) تكتشف من نفسها بسهولة كيفية فتح الأقفال وقد ذكروا عن القرد المدعو (مافوكا) فى حديقة الحيوانات فى مدينة (دريسد) أنه سرق مرة مفتاح قفصه ليتيسر له الخروج منه متى شاء . وكثير من الكلاب والقطط والواعز تتعلم من نفسها فتح الأبواب . وقد روى ذلك أيضا عن البقر والخيل والحمير والبغال . أخبر العلم (هرمان فول) أنه فى إحدى زرائب مدينة (لانسى) اضطر صاحب الزريبة بعد بناء الحوض بمدة إلى أن يستبدل لولب الماء البسيط بلولب آخر ذى مفتاح لأن البقر كانت تعلمت من نفسها فتحه ، ومثل ذلك حدث فى مدينة أخرى بناها (اترى بوربت) فى مدينة (تورينو) ولقد نرى القرود تتسنم ظهور الكلاب تسير بها محمولة أسوة بالخيالة . اه من الكتاب المذكور .

العجيبة السابعة : القرد والفيل والكلب يخفن من الاستهزاء

قال فى الكتاب المذكور : إن القرد والفيل والكلب يخشين الهزؤ ويحرن على من يمكر بهن . روى العلم (رومانس) عن كلب له طفق يوما يقتنص ذبابا من فوق زجاج شباك ، ولما رآه المسيو (رومانس) يخطىء القرص أخذ يهزأ به ويضحك بقهقهة لكل إخفاق يصيبه ، فحنق الكلب غيظا وسوّلت له نفسه أن يتظاهر بقنص ذبابة وسحقها على الأرض فلحظ صاحبه الحيلة وأبانها له فتضاعف عندها خجل الكلب وهرول مستترا تحت الأثاث .

العجيبة الثامنة : القرد والقردة وشفقتهما

روى العلامة (لوره) عن قرد ماتت أنثاه فأخذ يعتنى بجروها الرضيع أشد من اعتناء الأم بواحدها فكان يحمله كل ليلة على ذراعيه ويتمشى به ليتيمه وفى النهار لاينفك عنه لحظة واحدة . وذكر أيضا عن قردة نادرة الإشفاق كانت لاتقتصر على تربية صغار القردة التى من غير نوعها ، بل كانت تسرق أيضا أجراء الكلاب جروا جروا وهكذا صغار القطط لترضعها وتربيها ، فاتفق مرة أن قطيطا صغيرا خمشها فاعتراها مزيد الاندهاش وشرعت تبحث فى يديه إلى أن أحست بأظافره فقرضتها بأسنانها بكل لطف اه .

العجيبة التاسعة : حكاية عن الذئب من كتابى (جمال العالم) نقلا عن الكتب الافرنجية

حكى أن رجلا رأى ذئبين كأنهما يتشاوران فى أمر ثم أسرع أحدهما إلى حفرة فى عرض الوادى وأسرع

الآخر إلى الناحية الأخرى منه فيها قطيع من الظباء يرعين فأزعجهن حتى جرين إلى تلك الحفرة التى فيها صاحبه فانقض ذلك المختفى على واحدة فأخذها ، وأتى الثانى معه فقتلاها وأكلاها فتأمل قوله تعالى « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » اهـ .

العجيبة العاشرة : الثعلب وتعقله والدب وتحيله

روى العلم (رومانوس) فى أحد أعداد المجلة العلمية سنة ١٨٧٩ أن ثعلبا غنم بطة داخل حقل ، ولما تعذر عليه بعد أن حاول ثلاثا أن يقفز من فوق الحائط وفريسته فى فمه مكث قليلا يتأمل فى الحاجز القائم أمامه ثم وثب بعد قليل وأخذ البطة برأسها وارتفع بيديه ما أمكنه على الحائط وأنشب منقار البطة فى شق هناك ثم وثب على رأس الحائط وتدلى إلى أن بلغ فريسته فأخذها ورمى بها إلى الناحية الأخرى وبعدها انحدر من مكانه وأخذها بفمه ومضى . وأخبر العلم (فلوران) أنه لما تكاثرت الدببة فى حديقة النباتات عزم أولياء الأمر على قتل اثنين منها فألقوا إليهما أقراصا مشربة بحامض البروسيك وهو سم زعاف فما كادا يشمان الأقراص حتى أجفلا وهربا ، ولكن الشره تغلب عليهما فأخذاها بأيديهما وجعلا ينفضان منها السم فى حوض الماء وأكلاها بعد تطاير السم منها ، فعجبوا لذكائهما وفطانتهما وكفوا عن قتلهما .

العجيبة الحادية عشرة منه أيضا : شفقة الغربان والخيل

أخبر المسيو بليت عن غربان رآها تطعم ثلاثا من رفقائها فاقدى البصر . وهكذا المسيو بورتون شهد ببغاء له كانت تعتنى بطائر تلفت رجلاه من غير جنسها فتنظف ريشه وتطعمه وتدفع عنه صدمات الجوارح وأغرب رواية من هذا القبيل ذكرها المسيو (بوسانيل) قائد فرقة (البوفيليه) قال فى سنة ١٧٥٧ طعن فى السن جواد أصيل من حصن فرقتنا وتلفت أسنانه إلى حد أنه لم يعد فى وسعه مضغ علفه فجعل الحصانان اللذان كانا يرافقانه فى الجرى يمنة ويسرة يأخذان كل ليلة علفه وبعد أن يمضغاه جيدا يلقيانه فى العلف ليأكله واستقامت الحال هكذا إلى أن قطى الجواد بعد شهرين ، وشهد هذا الحادث كثير من القواد والجنود .

العجيبة الثانية عشرة : طائر هندى يبنى بزخرف قصورا تسر الناظرين

إن الطائر الهندى المعروف (بطير الفردوس) لايكتفى ببناء عش بسيط بل يشيد أيضا أوكارا للنزهة فى غاية الإتقان والجمال والإبداع ، وتكون هذه المساكن أحيانا فسيحة الأرجاء وداخلها أروقة مسقوفة وأكثرها موشاة بالصدف والحجارة اللامعة وريش الببغاء وقطع النسيج وكل ما يصلح للزخرف والتزويق وأما النوع المعروف (بالامبليورنيس) فيحوط مسكنه بحديقة صناعية يصوغها من تراب مكسو بالخضر ويزينها بثمار وزهور يجددها كل يوم . وكم للطيور من بنايات هندسية ضربنا عنها صفحا اجتزاء بالقليل ، وعسى أن ترى فى ثنايا التفسير عجائب من هذا النوع فى غير هذا المقام .

العجيبة الثالثة عشرة : هل للحيوان لغات ؟

قال فى الكتاب المذكور : إن النطق اللفظى خص به الإنسان وحده ، ولكن الحيوانات التى من نوع تستطيع أن تظهر مقاصدها كل منها لأخيه . فالكلب الداجن يملك من النطق ما لم ينله أسلافه فى وحشيتها ، فله عواء مخصوص دال على الغضب وآخر على الجزع وآخر على اليأس وآخر على الفرح وآخر على الالتماس، هكذا الدلالة بالإشارة يبلغ أمده فى الحيوانات التى تعيش بالألفة ، كالخيل الوحشية والفيلة وكلاب الماء والنمل والنحل الخ ، وأسراب الخطاطيف تتفاوض وتتشاور قبل الرحيل إلى أقطار بعيدة . وبالإجمال إن أفكار البهائم بسيطة محدودة ومقصورة على حاجاتها الطبيعية ، فلا تحتاج التعبير عنها إلا إلى حركات وأصوات بسيطة اهـ .

العجيبة الرابعة عشرة : الزنبور وذكاؤه

روى العلامة (داروين) أن زنبورا حمل ذبابة وطار بها ، ولما ارتبك من مصادمات الرياح فى طيرانه لتلاعبها بجناحى الذبابة هبط بها إلى الأرض وجزّ جناحيها وعاد فطار بها .

العجيبة الخامسة عشرة : التنويم المغناطيسى وإثبات وجود الأرواح الحيوانية بعد موتها

قال فى الكتاب المذكور : روى داسيه ما تعريبه ، كنت مقيما بمدينة (بوردو) فى أواخر سنة ١٨٦٩ إذا بصديق لى فى إحدى الليالى دعانى إلى حضور جلسة مغناطيسية فلبيت الدعوة ولم أشهد فى هذا الاجتماع شيئاً جديدا يختلف عما يجرى فى اجتماعات كهذه ، إنما حصل فى هذه الجلسة أمر ذو بال أذهلنى ، وهو أن أحد الحضور رأى فى الأرض رتيلاء (عنكبوت) فداسها برجله وإذا بالنائمة هتفت قائلة : أرى روح رتيلاء يرتفع من الأرض فسألنها ماشكل هذه الروح؟ قالت شكل الرتيلاء بعينها . وذكر داسيه فى هذا الصدد شواهد أخرى عديدة تؤيد وجود الشكل السيال فى الحيوان حتى إنه يمكن انطلاقه من الجسد فى مدة الحياة وأخبرت المجلة الروحانية الافرنسية فى أحد أعدادها سنة ١٨٩٤ عن وسيطة ناظرة رأت حول الكونت دى ليفوف شبح كلب له مات منذ بضع سنين وكان الشبح على قول الوسيطة يقفز فرحا ويهز ذنبه كالحى عند تذكر صاحبه له اهـ .

يقول مؤلف هذا الكتاب : إن هذه الحكايات كلها وأمثالها هى تفسير قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » وبهذا وأمثاله يظهر سر القرآن وعجائبه وحكمه البليغة البديعة اهـ .

ثم إنه أثناء طبع هذا الكتاب جاء فى إحدى جرائدنا المصرية فى تاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ما يأتى فأحببت أن أثبته هنا تفسيرا للآية تحت هذا العنوان .

بحث تاريخى طبيعى فى عجائب ذكاء الجرذان ونظامها

اطلعنا فى إحدى الصحف الانجليزية على نبذة غريبة فى بابها عما أسفرت عنه أبحاث تاريخية طبيعية قام بها بعض علماء التاريخ الطبيعى فيما يختص بشؤون الجرذان ، وهاك ملخص هذه النبذة .

يرى الكثيرون من الأوروبيين والأمريكيين فى هذه الأيام أن الجرذان السمر الألوان هى أشد الحيوانات غير الأليفة خطرا وأكثرها ضررا ، فمنذ وضعت الحرب الأوروبية أوزارها أبان بعض البحاث أن هذا النوع من الجرذان يتفوّق فى ذكائه وفى قدرته على تنظيم شؤون معيشته حتى على النمل والنحل وما كشفه فيهما السير جون لبوك من عجائب الصفات .

وقد قضت الضرورة بعد الحرب على أهل مدينة نيويورك الأمريكية أن يدققوا البحث فى حياة الجرذان لكى يكشفوا نظمها الحكومية المختلفة (كذا) ويعرفوا وهل هذه النظامات كاملة ؛ ففى أثناء الحرب تكدست مقادير عظيمة من المؤن هناك حتى يأتى الوقت الذى تقضى فيه الضرورة بنقلها إلى أوربا فتجمعت الجرذان فى المكان الذى وجدت فيه تلك الأكداس تجمعا عظيما حتى يقدّر ما تجمع منها الآن فى جزيرة مانهاتان بثلاثين مليون فأر .

ومعلوم أن قسما من مدينة نيويورك قائم على تلك الجزيرة بحيث لم تنجح مجهودات كثيرة بذلت للقضاء على هذا الجيش من الجرذان أو لطرده من تلك الناحية فبدلا من أن تعنى تلك الجرذان بالانصراف إلى ناحية أخرى تكون فيها المعيشة أسهل ، تبينت أنها محصورة فى بقعة تحيط بها المياه من كل جهة ، فلمت تلك الجرذان شعثها ونظمت شئونها وصفوفها وازدادت مكرا ودهاء وأظهرت من المهارة والحنكة فى مقاومة تلك المجهودات ما اضطر أولياء الشأن إلى استنباط وسائل جديدة لمحاربتها .

وقد كشفوا الآن أنها لاتوجد هناك بصفة فرادى أو وحدات أو أزواج أو عائلات بل بصفة هيئات اجتماعية منظمة كالهيئات الاجتماعية الإنسانية التى توجد فى المستعمرات وكل عضو فى هيئة جرذان اجتماعية خاضع لنظام أدبىّ معين ، وهاك مثالا للنظام الذى تعمل به تلك الهيئات .

توجد ناحية واقعة تحت مراقبة أولياء الشأن ويوجد فيها خمسة وسبعون مخزنا أو أكثر تخزن فيه المؤن والجرذان متفشية فى جميع تلك الأبنية ما عدا بناء واحدا يخزن فيه القمح والدقيق ولم يدخله جرذ واحد من هذا النوع الأحمر الكبير . وإنما اكتظّ بفيران صغيرة من النوع المسمى (بالسيبى) الذى يفترسه هذا النوع من الجرذان السمر فكان من العجيب أن لايدخل هذا الأخير فى ذلك المخزن .

ولقد عنى الرجال بمراقبة ذلك المخزن المنعزل شديد المراقبة ووجد الحراس أن الجرذان الكبيرة بدلا من أن تتدخل فى شؤون ذلك المخزن ، وبعبارة أخرى ذلك المكان الذى اتخذته الفيران كمستعمرة لها عنيت باستحضار أغذية إضافية لجعل تلك الفيران الصغيرة ذات سمن وصحة وعافية إذ كانت الجرذان تجلب إلى تلك الفيران خضراوات ولحوما وقشور الفاكهة مع جواهرها وألبابها أى كانت تلك الجرذان تصلح غذاء الفيران بما كانت تضيف إليه من أنواع الأدم ، فلا عجب إذا سمنت هذه الأخيرة وصحت أجسامها .

ثم أتى على الذين كانوا يلاحظون تلك التدابير وقت لاحظوا فيه عددا من الجرذان الكبيرة يتقدم إلى بلدة أو مستعمرة الفيران الصغيرة وسرعان ما عمدت تلك الجرذان إلى فتحات موجودة فى جدران ذلك البناء وكانت الفيران الصغيرة تتخذها كمداخل ومخارج لها فوسعت الجرذان تلك الفتحات لكى تتمكن أجسامها الكبيرة من الدخول والخروج منها ثم دخل فيها أكبر الجرذان وأكثرها وحشية ، وما هى إلا لحظات حتى خرج الغزاة يحمل كل منها فأرا سمينا ثم يضعه ويعود إلى داخل البناء ويخرج بفأر آخر ، وهكذا استمرت هذه العملية حتى تجمعت فى خارج البناء أكداس من الفيران وعادت الجرذان فحملتها إلى مستعمراتها ليتفكه بها صغارها فظهر من هذا أن الجرذان ما كانت تمد الفيران بالطريف من الأغذية لتسمينها إلا لأن مثل مخزن الفيران لديها لم يكن إلا كمثل الأحراش التى يربى فيها الأثرياء من بنى الإنسان مختلف الحيوانات ليصيدوها متى نمت وترعرعت .

فلما أتممت هذا المقال قال صاحب لى أمصدّق أنت ما تقوله الأرواح ؟ قلت له أمصدق ما يقوله القرآن نص القرآن على بقاء الحيوانات وجعلها أمما أمثالنا ، فإذن قلنا إن العدل يقتضى بقاءها لحكم لانعلمها وإلا كان خلقها أشبه بالعبث ، والله يقول « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » وأىّ باطل أضل من خلق حيوانات لاتتناهى ثم تذروها الرياح فلا يكون لها وجود ، وما المانع أن تكون أمثال أرضنا محل زرع لأوائل الحيوانية ثم ترتقى فى عوالم أخرى على مقدار درجاتها فى النموّ الروحانى . وإذا كنا فى شك من كلام الروحانيين وجب علينا أن نبحث فى علومهم فالجهل هو العائق عن السعادة ، ومن جهل شيئا لم ينله كما أن من جهل التجارة والزراعة والصناعة مثلا لم ينل الغنى ؛ هكذا الجهال بالعوالم لايحظون بالرقى فيها والدنيا دار التجربة والعلم والعمل .

اللطيفة السابعة : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما فى البرّ والبحر الخ »

لقد يعلم الناس الحوادث المستقبلة ببعض القواعد فإنك لاتشكّ أن الليل والنهار والشهور والسنين والخسوف والكسوف لها أوقات محدودة وساعات معينة ودقائق ثابتة ، فترى الناس يعرفون الخسوف والكسوف والأيام والشهور بعد آلاف السنين فيحكمون على المستقبل القريب والبعيد من حيث ظهور الكواكب والخسوف والكسوف وغيرها حتى إن الشيخ محمود الشهرزورى ذكر فى كتابه الشجرة الإلهية كثيرا من آراء الأمم فى الأدوار والأكوار فقال ما ملخصه : إن العقول التى هى أرقى من عقل الإنسان

تقدر أن تعرف المستقبل الذى لانهاية له ، وذلك بمعرفة الأدوار الفلكية فكل دور من أدوار الفلك يكون ما بعده مماثلا له سنة فسنة وقرنا فقرنا ، فإذا كان ذلك العقل مطلعا لسعته على حوادث ذلك القرن فإن كل قرن بعده إلى ما لانهاية له مثله وتكون الحوادث واحدة فيها ويقال حينئذ إنه عرف ما لا نهاية له .

أقول وقد تقدّم فى هذا التفسير من المسائل الفلكية الحسابية المطردة التى تقرب أمثال هذا القول .

وإذا كانت حوادث العوالم الأرضية تتبع السماوية فإذن يتم العلم بالمستقبل . وترى علماء العصر الحاضر يرصدون حوادث المطر يوما فيوما عسى أن يجدوا سبيلا لعلم ما يكون فى السنين المقبلة من أدوارها الحاضرة وفى هذا اليوم وأنا أكتب فى هذا التفسير نقلت بعض جرائدنا المصرية يوم الجمعة ٢٨ مارس سنة ١٩٢٤ سير العلم فى شهر مارس من هذه السنة وقد كثرت السيول والعواصف فى إيطاليا وإن عالما إيطاليا يسمى الأب غبريال قدم تقريرا إلى أكاديمية العلوم الفرنسية فى ١٧ مارس الحالى عن العواصف والسيول وإمكان التنبؤ بها قبل وقوعها بأشهر وسنوات، فقد أعلن أن تجاربه التى قام بها فى حياته أثبتت أن العواصف والسيول لها أدوار كأدوار الفلك وقال إن الأربعين سنة التى تبتدئ من سنة ١٨٨٣ وتنتهى سنة ١٩٢٣ تضمنت ثلاثة أدوار بالنظر إلى السيول والعواصف وشرحها شرحا وافيا ولكل دور عواصفه . ثم قال: ونحن الآن فى الدور الأول الخ .

وقد أثنى عليه رجال الأكاديمية ثناء عاطرا لأنه سينفع الناس بهذا الكشف ، وسجل أيضا كشف آخر قدمه الأستاذ بريتون لأكاديمية العلوم وهو ما توصل إليه العالمان (لومان وكوماندون) اللذان صوّرا حركات القلب والرئتين والمعدة وسائر أعضاء الجسم الداخلية بالسينماتوغرافيا بمساعدة أشعة رنتجن . وقد أصبح من الممكن رؤية كل ما يحدث فى داخل الجسم من الحركات الغريبة على ألواح الصور المتحركة فى دور السينما قالوا وهذا الكشف سيحدث انقلابا كبيرا فى أساليب التعليم ويسهل على الأطباء معرفة كثير من الأمراض الداخلية . وكذلك اخترع الدكتور بازسكى من مدينة (كييف) من أعمال روسيا آلة حجمها كحجم آلة التصوير الشمسى وقال إنه عرف بها الأمراض الإنسانية من بدنية وأدبية وعقلية ، وقال إنه امتحنها فى مئات من المجرمين المسجونين بسجون مدينتى (كييف ووارسو) فكان فى بضع ثوان يقرر أن المجرم نمرة (١) قاتل عمدا ، وأن السجين نمرة (٢) متهم بالقتل ظلما ، وأن فلانا نمرة (٣) لص شكس ، ونمرة (٤) مهيج سياسى عنيف ، ونمرة (٥) برىء . ولما وقف على ذلك رجال الشرطة الروسيون اعترفوا بصحة جميع النتائج .

ويقول إن للمخ ٧٨ خلية رئيسية هى مدار كل أعمال الإنسان ، فإذا أريد معرفة مايستعدّ له الطالب من العلوم فليرسم رأس صناعى من الجبس ولترسم هذه الدوائر عليه وليصنع بواسطة الكهرباء أعمال تبين مقدار استعداد الطالب فى علم الطب أو الأدب وما أشبه ذلك بهيئات مخصوصة بحيث إن الكهرباء المسلطة على خلية من خليات المخ الصناعى المماثل للمخ الإنسانى صورة تؤثر فى نفس ذلك الممتحن (بفتح الحاء) متى اتصلت تلك الكهرباء به إذا أمسكها بيده تأثيرا يختلف باختلاف تلك الخلايا المسلطة عليها الكهرباء فى الرأس الصناعى وعلى مقدار التأثير يحكم باستعداده وعدمه . وليس من المطلوب لنا أن نعرف الطريقة بتمامها وإنما المراد معرفة ما وصل إليه الناس فى أيامنا . والقد أوقفتك على جلّ ما يجول فى عقول الناس قديما وحديثا من علم الغيب ، وأن القدماء يلجئون إلى الفلك وأدواره حتى إن بعضهم كان يجعل حساب حروف الجمل ذا تأثير فى علم الغيبيات وهكذا المحدثون يبحثون فى باطن الأعضاء ويعرفون الخواطر وكذلك الأمطار والعواصف المستقبلة . هذا ما وصل إليه البشر كما يعرفون الإنسان بخطوط إبهامه إذا ختم بها على الورق وعملت به الحكومات .

هل هذا علم غيب؟

أقول إن هذا كله أشبه بما يفعله الأطباء من الاستدلال بالبول وبالحرارة على نوع المرض فإذا صح بعض ما تقدّم أو أكثره فلم يخرج عن استدلال على أمور عامّة أو خاصة ، كاستدلال الطبيب بحمرة الخدّ أحيانا على مرض فى الرئة . فهذا وأمثاله لايعدّ علما بالغيب إذا صح ولكن علم الغيب ومفاتيحه فوق طاقة البشر ولوأن البشرعلموا الغيب لكانت حياتهم وبالا عليهم لأنهم لايرتقون ، فالارتقاء يكون بالجدّ والتشمير والعمل والإقدام ، فإذا عرف المستقبل ساءت الحال ونام الناس . فأما بعض الرؤى التى يراها الناس وقد تصيب نادرا فذلك لمساعدة المرء مساعدة قليلة فى النادر . هذا ما أردت ذكره وفيه الكفاية .

مفاتح العلوم فى هذه السورة

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر فى هذه السورة أن عنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو لم يخل هذه السورة من مفاتح العلوم فذكر مفتاحين منها . مفتاح تفتح به علوم السموات وهو ما قصه من نبأ إبراهيم ونظره فى الكوكب والقمر والشمس حتى انتهى إلى الله ، هذا هو المفتاح الأوّل من مفاتح العلوم .

المفتاح الثانى ما قصه الله من فلقه الحبّ والنوى وهكذا حتى انتهى إلى قوله « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ولا جرم أن الثمر لايكون إلا بعد الزهر ، والزهرة سترى رسمها هناك إن شاء الله فى هذه السورة وستعجب من كونها مع بساطة حجمها كانت مفتاحا لعلوم النبات وعبرت بنظامها واختلاف أعدادها عن مئات الألوف من النبات . هذان مفتاحان ستراهما فى هذه السورة ، مفتاح للسموات فى قصة إبراهيم وسترى الصور السماوية التى هى مفتاح العلوم هناك وكيف اجتهد العلماء اليوم فى هذا ، ومفتاح للعلوم النباتية الأرضية فى الزهرة المرموز لها بالثمر . فهذان المفتاحان المذكوران بعد قوله « وعنده مفاتح الغيب » يفتح بهما الله على الناس علم السموات وعلم الأرض إيضاحا لقوله تعالى فى أوّل السورة « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض الخ » ولما كانت السموات والأرض لايعلمان إلا بتعليم جعل لهما مفتاحين على سبيل اللف والنشر المرتب المنظم فتعجب من القرآن ونظامه وسيسرك ما ترى من الصور السماوية والعجائب النباتية وليست كمفتاح العلوم للعلامة السكاكى وفرق بين مفتاح الله ومفتاح السكاكى فمفتاح السكاكى يفتح علوم اللسان العربى أى بعض القواعد التى تعرف بها البلاغة والبلاغة مقدمة لاعتقاد أن القرآن معجز . فأما مفاتح الله هنا فليست لتعلم اللغة التى هى مقدمة للعلوم لا أنها هى العلوم المقصودة بل هى لتعلم الحقائق التى لأجلها نزل القرآن ولأجلها أرسل الله الرسل وما الرسل إلى مبلغون ولا يبلغون إلا بلسان فهذه علوم اللسان وليست مقصودة إلا للمعانى فهذه هى المعانى وهذه هى العلوم التى ارتقت بها أوربا والمسلمون نائمون ساهون لاهون يفتح الله لهم باب العلوم فيقفلونها على أنفسهم وقد آن أوان رقىّ الأمم الإسلامية « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ما أردت ذكره فى علم الغيب ومفاتح العلوم ، والله علام الغيوب . انتهى تفسير المقصد الأوّل من سورة الأنعام .

(المَقْصِدُ الثَّانِى)

وفيه المفتاح السماوى من المفتاحين المذكورين ، قال الله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ

عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا
رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *
وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي
شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَاأَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسٰى وَهَارُونَ ، وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيٰى وَعِيسٰى
وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *
وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذٰلِكَ هُدَى
اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا
بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ
قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسٰى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا
وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ * وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ

مَا أَنْزَلَ اللهُ ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *

التفسير اللفظى لهذا المقصد

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) هو اسم أبى إبراهيم (أتتخذ أصناما آلهة) تعبدها من دون الله (إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) ظاهر الضلال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أى ومثل هذا التبصير نبصره عجائب السموات والأرض وبدائعهما ، والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة ليستدل (وليكون من الموقنين) الذين تزول شبهاتهم بسبب التأمل والتفكر ، والإيقان أعظم من الإيمان لأن الإيمان بالتسليم والإيقان بالاستدلال والتعقل والتأمل وهو الغاية العظمى للانسان فى هذه الحياة (فلما جن عليه الليل) ستره بظلامه (رأى كوكبا) هو الزهرة أو المشترى (قال) مجاراة لقومه ليبين لهم فساد عقائدهم (هذا ربى فلما أفل) غاب (قال لا أحبّ الآفلين) فضلا عن عبادتهم وكيف ينتقل ويحتجب ويتغير وصف من هو إله العالمين (فلما رأى القمر بازغا) مبتدئا فى الطلوع (قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكوننّ من القوم الضالين) أظهر العجز ووكل الأمر إلى الله لتعاقب الظواهر المحيرة العقول فى الألوهية (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) كما يشعر به قومه ليقيم الحجة عليهم (فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) من الأجرام المحدثة التى تحتاج إلى موجد (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقوله (وحاجه قومه) جادلوه وخاصموه فى التوحيد (قال أتحاجونى فى الله) فى وحدانيته (وقد هدان) إلى توحيده ، ولما خوّفه قومه آلهتهم أن تضره قال (ولا أخاف ما تشركون به) أى لا أخاف معبوداتكم لأنها لاتضر ولا تنفع (إلا أن يشاء ربى شيئا) أى لكن أن يشاء ربى شيئاً كان ما يشاؤه لأنه قادر على النفع والضرر هذا استثناء منقطع ، وإنما استثنيت ما يشاء الله فأقررت بأنه يقع لأنه (وسع ربى كل شىء علما) أى أحاط به علما فلا مانع أن يكون فى علمه إصابتى بمكروه (أفلا تتذكرون) أى أفلا تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لاتضرّ ولاتنفع ثم قلب الموضوع عليهم فقال : وكيف أخاف أصنامكم وهى لاقوة لها وأنتم لاتخافون من الله وقد أشركتم به فأينا أحقّ بالأمن ؟ من يعصى القادر أم من يطيعه وينبذ الأباطيل التى أنتم عليها ، أنا أحقّ بالأمن وأنتم أحقّ بالخوف وهذا قوله (وكيف أخاف ما أشركتم) أى معبوداتكم وهى مأمونة الخوف (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به) باشراكه (عليكم سلطانا) حجة إذ الإشراك ليس يكون عليه حجة ، أى وما لكم تنكرون علىّ الأمن فى موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن فى موضع الخوف (فأىّ الفريقين) أى فريق الموحدين والمشركين (أحقّ بالأمن) من العقاب (إن كنتم تعلمون) ما يحق أن يخاف منه ، إن الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) معصية (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أى إلى سبيل الرشاد هؤلاء يأمنون العذاب فى أودية جهنم لأن نفوسهم خلصت من هذه الأرض ومن اللذة وظلامها

فأما الذين ارتكبوا الآثام أو مالت نفوسهم إلى الحياة الدنيا وظنوا أنها هى كل مقصود من الوجود فأولئك يعذبون وينتهى أمرهم بالنجاة ، وعلى هذا ماروى فى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال: لما نزلت « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على المسلمين وقالوا أينا لايظلم نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان عليه السلام لابنه « يابنىّ لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وفى رواية «ليس كما تظنون إنما هوكما قال لقمان لابنه وذكره» . فانظر قوله صلى الله عليه وسلم: ألم تسمعوا قول لقمان لابنه وذكر « إن الشرك لظلم عظيم » وهذا من أدق الأجوبة؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم الظلم المؤثر أثرا باقيا إنما هو الشرك ، فأما الظلم الذى يزول أثره بعذاب مؤقت فهو الذنوب وأكثر الناس إنما يخافون من العذاب الدائم ، ولو نظر إلى الخلص الذين لايعذبون فإنهم قليل . فالأمن المطلق لمن لم يذنب أو تاب توبة نصوحا وردّ الحقوق إلى أهلها ، فأما المذنبون فإنهم أقلّ درجة من أولئك فأمنهم أقل . هذا هو المفهوم من جوابه صلى الله عليه وسلم فالمقصد من ذكر الظلم العظيم أنه لايؤبد العذاب إلا به والمؤمنون لايؤبد لهم العذاب هذا هو المقصد . قوله (وتلك حجتنا) أى ما جرى بين إبراهيم وقومه (آتيناها إبراهيم) أرشدناه إليها وعلمناه حجة (على قومه) حجتنا بدل من تلك ، وآتيناها إبراهيم على قومه خبر (نرفع درجات من نشاء) فى العلم والحكمة (إن ربك حكيم) فى رفعه وخفضه لأنه يعطى حسب الاستعداد (عليم) بحال كلّ واستعداده (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا) منهما (هدينا ونوحا هدينا من قبل) من قبل إبراهيم (و) هدينا (من ذرّيته) ذرّية نوح (داود وسليمان وأيوب) وهو من ذرّية إسحق بن إبراهيم (ويوسف وموسى وهرون وكذلك) الجزاء (نجزى المحسنين) أى نجزى المحسنين جزاء كجزاء إبراهيم إذ رفعنا درجاته وباركنا فى ذرّيته كثرة ونبوة (وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس) وهو من نسل هرون النبى ابن عمران (كلّ من الصالحين) الكاملين فى الصلاح وهو الإتيان بما ينبغى والتحرّز عما لاينبغى (وإسماعيل واليسع) هو اليسع بن أخطوب ابن العجوز (ويونس) بن متى (ولوطا) هو ابن أخى إبراهيم وأبوه يسمى هاران وهو أخو إبراهيم (وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم) أى فضلنا كلا من هؤلاء بالنبوة والإسلام على عالمى زمانهم ، يقول فضلنا كلا من هؤلاء على العالمين وبعض آبائهم أى آباء الذين سميناهم وذرّياتهم وإخوانهم ثم عطف على فضلنا قوله (واجتبيناهم) اصطفيناهم (وهديناهم إلى صراط مستقيم) أى ثبتناهم على طريق مستقيم ، فأما آباؤهم فمثل شيث ، وأما الذرية فمثل أولاد يعقوب ، وأما الإخوة فمثل إخوة يوسف (ذلك) الصراط المستقيم (هدى الله) دين الله (يهدى به من يشاء من عباده) لأن الله هو المتفضل على الناس لأنه هوأصل الوجود والخلق منه وإليه (ولوأشركوا) أى ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع عظيم قدرهم (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) فهم كغيرهم فى سقوط الثواب بالشرك (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) أى جنسه (والحكم) أى الحكمة أو الفصل فى الأمور على ما يقتضيه الحق (والنبوة) الرسالة (فإن يكفر بها) بهذه الثلاثة (هؤلاء) أى قريش (فقد وكلنا بها) بمراعاتها (قوما ليسوا بها بكافرين) من الأمم الأخرى كالفرس والتتار والترك وأهل جزائر الهند الشرقية وأهل الصين وقوم من السودان وأمم أخرى لايعلمها إلا الله سيلدها الزمان المقبل لأنى لاأنزل علما ولا أخلق نباتا ولا شجرا إلا فيه مصلحة مستقبلة وهذا القرآن أنزلته إلى أهل الأرض لا إلى قريش وحدهم فإذا كفروا بها فكم من أمم ستأتى كقوم من الإنجليز فى هذه الأيام وآخرين من أمريكا وسيظهر من العجائب مالايخطر بالعقول قريبا . أقول أنا وستأتى أمم تفهم الإسلام على الحقيقة التى فسرت القرآن بها فى هذا الكتاب عاجلا وآجلا . بهذا أنا موقن وتكون أمم أرقى من الأمم الماضية وإسلام الأمم التى ذكرتها معجزة لأن النبى صلى الله

عليه وسلم كان بمكة وليس معه إلا قليل ، وهؤلاء جاءوا من بعد حتى الأنصار لم يكونوا أسلموا (أولئك) الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فى أس الدين الذين اجتمعوا عليه من توحيد الله وتنزيهه ووصفه بالصفات التى تليق به وفى جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة كالصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم ؛ فلتكن كريما ومجاهدا كإبراهيم ، وصابرا كاسحق ويعقوب وأيوب ، وشاكرا كداود وسليمان ، وجامعا بين الصبر والشكر كيوسف ، وصاحب معجزة باهرة وشريعة ظاهرة كموسى ، وزاهدا كزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، وصاحب صدق كاسماعيل وصاحب تضرّع كيونس ؛ فعليك يا محمد أن تجتمع فيك هذه الصفات وعلى أمتك أن تقلدك فى ذلك حتى يكونوا « خير أمة أخرجت للناس » والهاء فى قوله « اقتده » للوقف وقد أثبتها فى الوصل فأجراه مجرى الوقف ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وجعلوها ساكنة ، وبحذف الهاء فى الوصل حمزة والكسائى ، وهناك روايات أخرى لانطيل بها . وقوله (قل) يامحمد (لا أسألكم عليه) أى على التبليغ (أجرا) جعلا من جهتكم كما لم يسأل من قبلى من النبيين وأنا أمرت أن أقتدى بهم (إن هو) أى التبليغ أو القرآن (إلا ذكرى للعالمين) إلا تذكير وموعظة لهم (وما قدروا الله حقّ قدره) ما عرفوه حقّ معرفته فى الرحمة والإنعام على العباد (إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ) هذه السورة وإن نزلت بمكة فإن فيها آيات نزلت بالمدينة كما قال ابن عباس إنها نزلت جملة واحدة ليلا وكتبوها من ليلتهم غير ست آيات منها فإنها نزلت بالمدينة وهى « قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم » إلى آخر الثلاث آيات وقوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره الآية » وقوله « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شئ » إلى آخر الآيتين ، فالذين قالوا « ما أنزل الله على بشر من شئ » هم اليهود . ذلك أن مالك ابن الصيف خاصم النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبرا سمينا فغضب وقال « ما أنزل الله على بشر من شئ » فغضب عليه قومه بعد ذلك وقالوا أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت « ما أنزل الله على بشر من شئ » فقال مالك بن الصيف أغضبنى محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف وفى ذلك ونحوه نزل قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) حال كونه (هدى للناس تجعلونه) تكتبونه (قراطيس) أى فى قراطيس أى فى صحف مقطعة (تبدونها) أى تظهرون كثيرا منها مما لايخالف أهواءكم (وتخفون كثيرا) مما يخالف أهواءكم كصفات النبى صلى الله عليه وسلم (وعلمتم) يا أهل الكتاب ويامسلمين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم (مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من قبل زيادة على ما فى التوراة عندكم أيها اليهود وبيانا لما التبس عليكم وعلى آبائكم كما فى آية أخرى « إن هذا القرآن يقصّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » ثم أجاب على قوله « من أنزل الكتاب الخ » فقال (قل الله) أى أنزله الله ، أمر الله رسوله أن يجيب عنهم إشعارا بأن الجواب متيقن (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى فى أباطيلهم فإنما عليك البلاغ (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) كثير الفائدة والنفع (مصدّق الذى بين يديه) الكتب التى قبله فهذا الكتاب أنزلناه للبركة (ولتنذر أمّ القرى) أى أهل أم القرى وهى مكة لأنها مجتمع القرى وأعظم القرى شأنا (ومن حولها) من أهل الشرق والغرب (والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) فإن من خاف الآخرة تدبر ، ومن تدبر آمن وأهمّ الايمان الصلاة فإنها عماد الدين فيها يخاطب العبد ربه بطلب الهداية ويستحضر الصالحين جميعا واعدا لهم بالسلامة والأمان برحمة الله بعد وصف الله بأنه هو المستحق للمحامد وله كل الطيبات والصلوات ، فهؤلاء بتكرر ذلك على ألسنتهم وهم مستحضرون بقلوبهم تتمرن نفوسهم على ذلك العالم الأعلى فيقربون من ذى الجلال والإكرام وكما قال اليهود : لم ينزل الله على بشر من شئ ، سيأتى قوم بعد ذلك يدعون أنه

يوحى إليهم كذبا وزورا ، فالأولون بإنكارهم النبوّات كالآخرين بادّعائهم نبوّات كاذبة وكلاهما فى ضلال ، والذين يدّعون النبوّات الكاذبة مثل مسيلمة صاحب اليمامة وتبعه قومه من بنى حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغترّ قومه بذلك وقتله وحشى فى زمن خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ومثل الأسود العنسى بن عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادّعى النبوّة باليمن فى آخر عهد النبى صلى الله عليه وسلم وقتله فيروز الديلمى قبل موته صلى الله عليه وسلم بيومين وأخبر أصحابه بقتله كما تقدّم فى غير هذا المقام .

وفى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع فى يدىّ سواران من ذهب فكبرا علىّ وأهمانى فأوحى إلىّ أن انفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة » وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) كأولئك الذين ابتدعوا بدعا فى الديانات ، وكاليهود المحرّفين للتوراة وغيرهم (أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء) كهؤلاء الذين ادّعوا النبوّة (ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله) كالذين قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » (ولو ترى) الظالمين (إذ الظالمون فى غمرات الموت) شدائده وسكراته ، من غمره الماء إذا غشيه (والملائكة باسطو أيديهم) أى يبسطون أيديهم يقولون هاتوا أرواحكم مشدّدين فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال وهو قوله (أخرجوا أنفسكم اليوم) أى وقت الإماتة (تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) كادّعاء الولد والشريك لله ودعوى النبوّة والوحى كذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تتأمّلون فيها ولا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب (فرادى) منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ماآثرتموه من الدنيا وعن الشفعاء والأصنام وعن كل ناصر (كما خلقناكم أوّل مرة) .

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا « كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين» . وفيهما أيضا عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال الأمر أشدّ من أن يهمهم ذلك» . وفى رواية الطبرى « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » لاينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال قال تعالى (وتركتم ماخوّلناكم) أعطيناكم (وراء ظهوركم) من الأموال والأولاد والخدم والخول وقوله « وراء ظهوركم » أى فى الدنيا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يزعم المشركون أنهم عبدوا الأصنام لأنها تشفع لهم يوم القيامة لأنها شركاء لله فيوبخ الله المشركين يوم القيامة ثم قال (لقد تقطع بينكم) أى قد تقطع مابينكم عند من قرأها بفتح بين أو تقطع الأمر بينكم ، ومن رفع كان المعنى قد تقطع وصلكم ، والبين من الأضداد يكون وصلا وهجرا (وضلّ) ذهب وبطل (عنكم ما كنتم تزعمون) تكذبون فى الدنيا أنها شفعاؤكم أو لابعث ولا جزاء . انتهى التفسير اللفظى لهذا المقصد .

وفى هذا المقصد لطائف :

(اللطيفة الأولى) قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » الخ (اللطيفة الثانية) قوله تعالى « فبهداهم اقتده » (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » (اللطيفة الرابعة) قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم » الخ .

اللطيفة الأولى

اعلم أن هذه المباحث فى هذه السورة من أدق المباحث العلمية والآيات الحكمية وكيف كان إبراهيم قد ابتلى بالصابئين الذين هم كانوا مغرمين بالعوالم العلوية الروحانية من الملائكة وأنهم كانوا يجعلونها وسائط لهم

بينهم وبين الله تعالى فهم آلهتهم بهم يتقرّبون إليه وهؤلاء الآلهة لهم هياكل كهيا كلنا الجسمية وهى الكواكب السبعة ، ولما طال الأمد عليهم اتخذوا فى الأرض أصناما تمثل الهياكل الكوكبية التى هى أشباح وأشخاص النفوس القدسية وللملائكة العلوية فبالأصنام يتقرّبون إلى الكواكب ، وبالكواكب يتقرّبون إلى من يسيرونها ويجرونها فى السماء فى أوقات معينة فانحطت عزائمهم ونامت فطرهم فجاء الخليل إلى أصنامهم فكسرها ، وإلى عقائدهم فسفهها ، وإلى عقولهم فأرشدها ، وإلى تقاليدهم فحقرها . وكان أبوه آزر أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الأصناف النجومية حق الرعاية فأخذ يذكر له ضلال مايفعلون ويبين فساد ماكانوا يفترون . واعلم أنى لاأريد من شرح هذا المقام ذكر القصص التاريخية ولا أحوال الأمم الماضية سردا التاريخ ولا غراما بالسير ولكنى أريد أن يكون المقام مقام عمل لنا نحن الذين نعيش فوق الكرة الأرضية اليوم . فإذا كان إبراهيم كسر أصنام قومه وقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك على قومه ثم فعل كما فعل فكسر أصنام قومه فى مكة حذو القذة بالقذة كما فعل أبوه إبراهيم فمن الجهالة العمياء والنذالة الحمقاء أن يقرأ المسلمون القرآن تغنيا لاتعلما وتعبدا لاتذكيرا ، بل عليهم أن يقتدوا بمن أرسلوا إليهم اقتداء بكل مافعل ؛ فلأشرح لك أوّلا مذاهب الصابئة . وثانيا فعل الخليل معهم . وثالثا الحكاية التى يذكرها بعض المفسرين عن الخليل أيام صغره . ورابعا اقتداء الأمم وإن كانوا لايسلمون كأفلاطون فى جمهوريته . وخامسا خلوة النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء كما ورد فى قصة الخليل نوعا ، وكذا الاعتكاف فى المساجد وخلوات الصوفية وتوجه الهمم بحصر الفكر وأن قصة الخليل يقصد بها نشأة عالية إسلامية .

الفصل الأوّل من اللطيفة الأولى ــ الصابئة

اعلم أن النوع البشرى كان يبحث من العصور القديمة فى صانع العالم ولهم طرق فى ذلك مختلفة كثيرة ، وأهمها فى تلك العصور جمال الأنوار والبهجة والأضواء والكواكب وإشراقها حتى إنك لتجد الأمم الجرمانية والعائلة الآرية قد جاء فى لغتها أن الله عندهم هو النور والشمس وتجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور اللامع ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله ، ففى لغة السنسكريت (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس) وعند اليونان (ذيوس) وعند اللاتينيين (دووس) و (دوفس) وتصرّفوا فيها إلى أن قالوا (جوبتر) وفى الألمانية القديمة (ذيو) وفى السلاف (ديواس) ولفظة (تير) المشتقة منها معناها إله الحرب عند أمم الشمال ، والفرنساويون عن الخالق (ديو) مرخمه والإيطاليون (ديو) والأسبان والبرتغاليون (ديوس) وكلها مشتقة من أصل واحد كما تقدّم .

فهؤلاء الأمم الذين أغرموا بهذه الأجرام السماوية وأنوارها وصاروا لايذكرون الله إلا باسم النور أو بما هو مشتق من النور كانوا عاشقين لهذا الجمال فى الدنيا فأرجعوه لموجده وسموه باسمه وترى فى القرآن « الله نور السموات والأرض » ومن أسمائه النور ، فالقرآن يسمى الله بالنور كما سمته تلك الأمم القديمة الأوروبية والجماعات الآرية والجرمانية وأمم الهند القديمة ، فاتفاق الأمم قديما وحديثا على الاتجاه إلى النور فى الإسلام وغير الإسلام كان دليلا على أن الأمر عظيم فلنوجه العناية لهذا المقام ولنبحث فى الصابئة فإنهم من هذا المقام وجهتهم . الصابئون قوم ينتسبون للروحانيات ويظهر أن مذهبهم فى القرون الخالية والأجيال البائدة كان القدس والطهارة وجمال النفوس والعروج إلى المقام الأعلى والتشبه بالملائكة والصعود إلى الملأ الأعلى كما هى القاعدة أن كل دين يتبعه الناس فإنه فى أوّل أمره هداية للناس مناسب لفطرهم نافع لمتبعيه هاد لمعتنقيه ثم يسقط سقطة عظيمة لايصلح بعدها للإنسانية . كانوا يعتقدون أن للعالم صانعا مقدّسا عن صفات المخلوقين وأن له ملائكة وهؤلاء الملائكة هم المدبرون للعالم العلوى والسفلى .

فالكواكب السبعة لها ملائكة تدبرها كل كوكب يدبره ملك ويصل التأثير من الأعلى إلى الأدنى فتكون الهياكل أى الكواكب آباء والعناصر أمهات ، ومن هذا يكون كل موجود من حيوان ونبات وإنسان

وهؤلاء

وهؤلاء الملائكة يشمل نظرهم كل شيء ، فهم وإن كانوا متصرفين في المادة طاهرون لايعصون وليس لهم طعام إلا التسبيح والتقديس لربهم وهم أنفسهم في لذة وحبور وسعادة ليس لها نظير في الأرض ومن عليها . وهذه الطائفة تقول : نحن نهذب أنفسنا ونزيل الغضب والشهوة والأحقاد وترقى فينا النفس الإنسانية العقلية فتقرب من هؤلاء الملائكة الذين بهم تتقرّب إلى الله تعالى وقالوا نحن إنما أخذنا هذا المذهب من (عاذيمون وهرمس) العظيمين، وعلى ذلك أخذوا يتقرّبون إلى الهياكل التي هي السيارات السبع فعرفوا منازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها وقسموا الأيام والساعات والصور والأشخاص والأقاليم ، وتعلموا العزائم والدعوات وعينوا لكل يوم من أيام الأسبوع كوكبا ، فجعلوا لزحل يوم السبت وجعلوا ساعته الأولى وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصفته ولبسوا اللباس الخاص به وبخروا ببخوره الخاص به ودعوا بدعواته الخاصة وسألوا حاجتهم منه، وللمشترى يوم والمريخ وهكذا كما في زحل وقالوا الله رب الأرباب وهؤلاء هم الأرباب . ومنهم من جعل الشمس هي إله الآلهة فيتقرّبون إلى الهياكل تقرّبا إلى الروحانيات وإلى الروحانيات تقربا إلى الله .

ولما طال الأمد وقست القلوب قالت طائفة منهم إن الهياكل أى الكواكب السبعة قدتغيبت عنا فاتخذوا هياكل في الأرض وهى الأصنام وهؤلاء يسمون أصحاب الأشخاص على مثال الهياكل السبعة وهى النجوم ، فكل شخص في مقابلة هيكل فتقربوا وتبخروا ولبسوا وتطهروا وراعوا الوقت والساعة والشكل والدعوات والعزائم مثل ماكانوا يصنعون للهياكل وقالوا هذه الأصنام شفعاء عند الله : أى بواسطة الكواكب والكواكب للملائكة والملائكة لله . فياعجبا لهذا الإنسان شأنه في كل أمر أن يتنزل فيه إلى أدنى حتى يذهب من الوجود .

الفصل الثانى : مجادلات الخليل إبراهيم عليه السلام معهم

كسر إبراهيم الأصنام وهى الأشخاص النائبة مناب الهياكل وقال « أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون » وكان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية النجوم وكانوا يشترون منه الأصنام لعلمه بمواقع النجوم حتى يعمل الأصنام على طريقتها ولذلك كان الجدال معه . ومما قاله له « أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين » وقال « يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا » وقوله « يا أبت إنى قد جاءنى من العلم » إلى قوله « أهدك صراطا سويا » .

فهؤلاء هم الصابئون وهذا هو الدين الحنيف أى المائل عن الأديان . فإذن الصابئون لايقرّون بأنبياء ويقولون نتقرب إلى الله بأنفسنا ثم نزلوا إلى عبادة الأحجار والأصنام. وأما الحنفاء كأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام فإنهم يقولون نتبع هؤلاء الأنبياء . هذا ملخص ماذكره الشهرستانى في غاية الاختصار لمناسبة المقام لتحيط علما بما كان في الزمان الغابر .

حكمة هذه الديانات

واعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأمم مغرمة بالكواكب السبعة تدريبا لهم وتعليما في زمن كان الفلك غير معروف منه إلا هذه الكواكب السبعة ، وقد علم الله أن الفلك سيتغير في الأزمان الحاضرة فهيأ أنبياء وأمرهم أن يكسروا الأصنام التى على منوال تلك الهياكل لأمرين : الأول أن هذا الدين أصبح أرضيا لاسماويا معكوسا منكوسا فوجب زواله من الوجود ونسخه . الثانى أن هذه الكواكب السبعة والشمس علم الله أن ستصبح في العلم الجديد لاقيمة لها فما هى شمسنا وأرضنا وكواكبنا السبعة بل كواكبنا صارت أكثر من سبعة والشمس التى كانت إلها أصبحت في أخريات الكواكب الكبيرة بل أصبحت جزءا صغيرا جدا

وقد مهد الله النوع البشرى لذلك من أيام إبراهيم فلهج الناس بالله وقالوا لاشمس ولا قمر وإنما الله قاهر فوق عباده حتى تأهل العقل البشرى للنظر فى إلغاء تلك الألوهية واتساع العقل الإنسانى فلا يحجبه شمس ولا قمر ولاسيار ولاهيكل ولاصنم ولاصورة ، هكذا فعل إبراهيم وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولولا هذا ما تجرأ العقل البشرى على تلك الآلهة فى نظره أن يبحث فيها ، وهذا من السر فى تكسير الأصنام أيام إبراهيم ومحمد عليهما السلام .

ولما جاء الإسلام كانت الأمم لاتزال فى رأيها العام على رأى الصابئة وهو أن الهياكل السبعة هى ذات السلطان على الدنيا فتكون الكواكب سبعا والسموات سبعا والأيام سبعا وهكذا فلعدد السبعة كان السلطان إذ ذاك فنزل القرآن باللهجة المعروفة بين الأمم فقيل فيه سبعا شدادا وقيل « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » ومعلوم أن الأقاليم عند القدماء سبع فالقرآن جاء فى أواخر أيام العلم القديم فجاء على مقتضاه ولكنه أشار بطرف خفى إلى أن السموات والكواكب ليست سبعا فقال فى آية أخرى « ويخلق ما لاتعلمون » فهذه الآية يقول لنا: أنا وإن كنت أخبرتكم بأنى خلقت سبع سموات فإنى أترك ذكر غيرها حتى تعلموه لأنى أخلق ما لاتعلمون وما ذكرت لكم إلا مايمكن أن تعلموه .

الفصل الثالث : الروايات التى وضعها الناس فى هذا المقام

اعلم أن كل أمة من الأمم لها أسلوب فى التعليم خاص وأعم الأساليب نفعا الروايات بحيث يجعل العلم على هيئة رواية ، ولقد كان بنو إسرائيل أبرع الناس فى الروايات المنسوبة للأنبياء ، وقصة الخليل هذه كان لها شأن يذكر فى الأمم السالفة بلفظها تارة ومعناها تارة أخرى .

واعلم أن كل عالم وحكيم ونبىّ وفيلسوف قد عثر الناس على أحوال له تخالف الناس فى الانفراد والعزلة أو التفرّغ والعبادة والخلوة والانقطاع لما خلق له ولم يوجد فى النوع الإنسانى منهم من ليس كذلك . اعتبر ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تعبد فى غار حراء وهكذا جميع الأنبياء يعبدون ويبتهلون ومنهم إبراهيم الخليل . ولقد وضعوا قصة يستفاد منها أنه كان فى غار لم يتعرف بأهل الأرض سنين ، ثم لما خرج نظر الكوكب والقمر الخ فبهره مارآه ودهشه مافاجأه فقال لقومه مارأيته فى الآيات والقرآن ليس يتعرض إلا للحقائق ، فأما الروايات فهى تدل على روح المقصود وخلاصته عند أولى العقول وملخصها :

إن النمروذ رأى فى منامه أو قرأ فى كتب الأنبياء مايفيد أن مولودا يولد فى تلك السنة فى ناحيته يكون هلاكه على يديه فأمر بعزل النساء عن الرجال ولكنه ائتمن آزر أنه لايقرب امرأته حين أرسله إلى القرية فحملت بما قدّره الله ، ثم إنها لما وضعته أخبرت أباه ثم وضعوه فى مغارة وصارت تختلف إليه وترضعه ، وقيل إنه مكث سبع عشرة سنة وصار يسأل أمه من ربك ومن ربّ أبى ومن ربّ نمروذ ؟ فضربته وخافت وعرفت أنه هو الذى تخوّف منه النمروذ ؛ فلما أخرجاه من السجن بهره جمال النجوم فقال ماتقدم . انتهت الرواية .

الفصل الرابع

جئنا إلى المقصود من هذه القصة . اعلم أن أفلاطون جاء بعد الخليل عليه السلام بقرون لأن أفلاطون كان قبل المسيح بنحو أربع قرون وقد ألف كتابا يسمى (جمهورية أفلاطون) وهذه الجمهورية عشرة أقسام يسمى كل منها كتابا وقد اطلعت عليها باللغة الإنجليزية ولم تترجم إلى العربية والناس فى انكلترا وألمانيا وفرنسا يدرسون منها فصولا لطلبة العلوم لتربية الأخلاق فى التلاميذ لاسيما لطلبة مدارس المعلمين . وقد جاء فى أوائل هذا الكتاب مقال أشبه بقصة الخليل يوضح المقصود منها فقال ماملخصه : لو أن قوما عاشوا تحت الثرى فى سراديب وهم لم يروا وجه الأرض ولا شمسا ولا قمرا ولا نجوما ولكنهم فى ظلام حالك ، ثم إن هناك

فيا يقرب من هذا السرداب كانت نار متأججة والناس غادون رائحون فى الطريق بجانب النار والشمس تشرق عليهم ومعهم صور حيوانات ونبات وملابس وهذه الصور قد ارتسمت فى جوانب السرداب بنوع ما فأخذ أولئك الجالسون فى السرداب يسمون الصور النباتية والحيوانية بأسماء بحسب مايرون ويحسبون مسافاتها وسيرها وسرعتها ويقولون هذا هو الوجود كله فهذا هو النور وهذه هى المخلوقات ثم تنبه جماعة منهم فقالوا ياقوم لقد أخطأتم إن هذا النور صناعى وهذه الأشياء ليست حقيقية إن هى إلا صور وأسماء . فاختلفوا على ثلاثة أقسام؛ قسم صدّق هؤلاء المفكرين ، وقسم كذبهم ، وقسم متردد ؛ فقام من هؤلاء المفكرين جماعة فقالوا : لابد أن نخرج من هذا السرداب لننظر ؛ فلما خرجوا منه لم يقدروا أن ينظروا إلا صور النجوم فى الماء فى ليالى الظلمات ثم ارتقوا إلى منظر القمر ثم ضوء الشمس فقالوا إن النار التى أشرقت بجانب السرداب والصور التى رسمت فى أضوائها إن هى إلا من آثار الشمس ؛ فالنار أوقدت فى الحطب والحطب نما شجره بالشمس ، فالإشراق من الشمس لامن الحطب أصالة وهذه الصور الحيوانية والنباتية ليست حيوانا ولا نباتا على الحقيقة وإنما هى صورها فلا ضوء النار المتقدة فى الحطب أصل النور ولا الحيوانات والنباتات هى الطبيعية بل نور الشمس هو أصل نور الحطب، والنبات والحيوان الناميان هما الطبيعيان . ثم إن أولئك الذين خرجوا من السرداب وخالفوا جماعتهم نظروا فوجدوا الشمس لها سير منظم وفصول أربعة : شتاء وصيف وربيع وخريف ، ومن هذا الاختلاف كانت الزروع المختلفات والزهر والثمر وعجائب الخلقة فأخذ منهم العجب كل مأخذ ورأوا حسابا منظما وعجبا عجابا فقالوا إن هذه النظم العجيبة والهندسة والإحكام فى الصنعة لها عوالم وراء هذه وما مثل هذه الشمس إلى المبدع لها وهذه الحيوانات والنباتات إلى العوالم التى كانت سببا لها من العالم النفسى إلا كضوء النار عند السرداب وصور الحيوانات والنباتات المصنوعة المنعكسة على جوانب السرداب المظلم إلى الشمس وإلى الحيوانات والنباتات الحقيقية . هذا ملخص مثل أفلاطون .

ومن هذا المقام وأمثاله قيل (المثل الأفلاطونية) أى إن هذا العالم المنظور على منوال عالم غير منظور ولهذا المقام فروع عند الصوفية وجدال عند الفلاسفة فاعرف هذا فهو الأصل ، واعلم أنك الآن تقرأ لبّ العلوم .

ثم إن هؤلاء الذين عرفوا هذا رجعوا إلى السرداب وبثوا الفكرة فيهم واشتدّ بينهم الجدل والصراع ، فهذه حال الحكماء مع أممهم فإنهم يرون ما لايراه الناس ويرجعون إلى عالم المعقولات . فأما المحسوسات فإنما هى مظاهر والحقائق هى العوالم الروحية . واعلم أن مذهب أفلاطون الذى كثر جدال القدماء فيه هو شبه علم الأرواح الحديث فإذا ثبت ظهور الأرواح أو وجودها كما هو الأقرب كان هو شبه مذهب أفلاطون لأن هذا العالم هو الباقى وهو مماثل لعالمنا هذا ؛ فالحيوان والإنسان كلاهما ثابتان عند هؤلاء العلماء .

الفصل الخامس فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

اعلم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فى غار حراء شأنه عظيم ولو أنك قرأت ماقاله هنرى الفرنسى فى كتابه (خواطر وسوانح فى الإسلام) وكيف ذكر أنه صلى الله عليه وسلم فى غار حراء وهو ينظر إلى النجوم كأن قد شغفه الجمال والبهاء والحسن فى تلك القبة الزرقاء والنجوم فى ذلك القفر أكثر وضوحا وأبهر ضوءا وأعجب شكلا لصفاء الجوّ وبهجته إذ ذاك تجلى له الملك فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ الخ .

وإنما ذكرت لك كلام (هنرى الفرنسى) لأن الرجل عبر بحرّية على مقتضى ماتجرى به العادة فى العلم بين الأمم .

والقصد أنه صلى الله عليه وسلم كان فى الخلوة وكان له نظر فى النجوم . أفلا تعجب من أن فكرة النور عند الصابئين وكانت حقيقة باهرة وهى عند إبراهيم الخليل فهو وإن كسر الأصنام لم يترك النجوم التى عبدوها

بل جعلها وسيلة للاستدلال على مبدعها وفاطرها ، وأنها تدل على أنه مدرها ومدبرها ومكلمها ، ثم ترى النبي صلى الله عليه وسلم فى غار حراء ينظر فى النجوم وكان فى آخر الليل وقت التهجد حين يقوم يقرأ « إن فى خلق السموات والأرض » الآيات ، وفى القرآن « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » وجميع العبادات مرتبة على الأوقات التى هى مرتبة على سير النجوم . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية قوله تعالى « فبهداهم اقتده »

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فبهدى الأنبياء اقتد . وياليت شعرى لم تقرؤها الآن؟ ولم تتلوها صباحا ومساء، أتتلوها لأن نبينا صلى الله عليه وسلم الذى هو فى عالم الأرواح اليوم وعند ربه وللملائكة مكلف باتباع الأنبياء . كلا بل تتلوها لأجلنا نحن ونحن المكلفون باتباعهم . فبماذا مكلفون باتباعهم ؟ فى الصبر والشكر وجميع أنواع الكمالات .

ياعجبا كيف يقول الله فى داود عليه السلام « وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحا » ويقول إنه سخر لسليمان الريح . فهل كان ذلك مجرد قول نسمعه لنتفكه به ؟ كلا والله ثم كلا لقد كذب الجاهلون . سخر الريح لسليمان والحديد لداود ونظر إبراهيم فى النجوم وعرف تدرجها من كوكب إلى قمر إلى شمس وانتقل من الأدنى إلى الأعلى كما فى أمثال أفلاطون حتى كان الانتقال من النار إلى الشمس وهكذا حتى وصل إلى العوالم المجردة . وكان داود خليفة فى الأرض يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى . إن ذلك ليقتدى النبي صلى الله عليه وسلم بهم : أى لنقتدى نحن بهم ولا معنى لاقتداء أحد من قبلنا ولا من بعدنا لأنهم ليسوا معنا الآن ولسنا نقرأ القرآن لأجلهم إنما نقرأ القرآن لنا والاجتزاء بأن قراءته للرحمة ليست مطمح نظر الدين والنبوّة إنما هو العلم والحكمة . فماذا أعدّ المسلمون للريح حتى يسخروها . لقد سبقهم الفرنجة فسخروا الريح لاتقليدا لسليمان ولكن اتباعا لعقولهم . الله يقول لنا اقتدوا بهؤلاء ومنهم داود وسليمان وهما اللذان كانا شاكرين نعم الله ومن نعم الله تسخير الريح وإن كان ذلك معجزة ولكن نحن ننظر لها من جهة الشكر فكيف نشكر نعمة لانملكها ! ولقد أخضع الألمان الهواء إخضاعا عجيبا حتى إنهم قد جعلوا فى أيام الحرب نحو ثمان معامل كل معمل فيه نحو ٣٦٠ تليفونا للمخاطبة كلها يستخرج فيها نترات الفضة من نفس الهواء وكانت نافعة فى أعمال الحرب ثم الآن استعملت فى سماد الزرع . كل هذا من نفس الهواء مع أعمال أخرى .

أفليس من العجب أن الهواء يسمد الأرض ويساعد الجند بمادته . فماذا فعل المسلمون لشكر نعمة الهواء، ولا شكر إلا بحصول النعمة وإن صدّهم عن هذا أنه هناك معجزة ولين الحديد لداود معجزة . قلنا ليس الشكر على الحديد والهواء قاصراً على المعجزة فالعمل الإنسانى له فيهما مآرب ظهر كثير منها حديثا وكان على المسلمين أن يتنبهوا قبل الأمم ولكنهم إذ تأخروا عنهم فى التشبه فلماذا لايسعون فى الانتفاع بالهواء والحديد بل بكل شىء مما علم ومالم يعلم . المسلمون بالله اليوم عالة على النوع الإنسانى والله لايرضى ذلك وكيف يكونون عالة وهم « خير أمة أخرجت للناس » والعالة لايكونون خير أمة وقد آن أن ترجع الأمة كما كانت فى أوّل عهدها . اهـ

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا »

لقد وبخ الله اليهود على أنهم قد أخفوا كثيرا من قراطيس التوراة وأظهروا كثيرا ، ولقد خطر بنفسى لما ذكرت فى هذا المقام لعمرى أن هناك سرّا خفيا وعلما يجب نشره وحكمة يجب إظهارها ، كيف يقول الله هنا هذا ولم خصصه بهذا المقام . ومعلوم أن هذه الآيات لم يقصد بها أحد سوانا نحن الذين نعيش الآن من المسلمين لأن المسلمين الذين ماتوا والذين سيأتون بعدنا ليس الخطاب موجها لهم الآن فعلى المسلمين الذين

يقرءون القرآن فى أى زمن أى فى زماننا هذا أو بعد ذهابنا من هذا العالم أن يقولوا إن هذا القول يقصد به تنبيهنا إلى خطر فلتلاف ذلك الخطر . أما أنا اليوم فى هذا الجيل فى القرن العشرين فى السنة الرابعة والعشرين الميلادية وهى السنة الثانية والأربعون الهجرية أرفع صوتى للعالم الإسلامى وأقول لهم بكل صراحة ووضوح وجلاء لاشك فيه ولاغموض: إنّ هذه الآية منطبقة علينا فى مصر وفى الشام وبلاد العرب وبلاد الغرب وبلاد الترك وبلاد جاوه وبلاد الهند وبلاد الصين وبلاد الروسيا وبلاد السودان وبلاد الحبشة وبلاد البربر . أقول: أيها المسلمون جميعا خذوا حذركم . أحذركم أننا فعلنا فى القرآن ما فعله اليهود فى التوراة ولو أرسل لنا نبىّ الآن لقال لنا : أيها المسلمون إن القرآن قد جعلتموه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ونحن قد اتبعنا الأمم التى قبلنا حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل كما فى الحديث «لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لودخلوا جحر ضبّ لدخلتموه» ونحن قد دخلنا جحر الضبّ الذى دخلوه ؛ قد دخلناه وأنا أرى الجحر بعينى ولكنّ أكثر الناس لايعلمون أنهم فى جحر ضبّ .

فصل فى محاورات بينى وبين أحد الفضلاء

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد الإخوان من أهل الفضل فاطلع على هذا وأنا سائر فى الكتابة فقال يا فلان اربع على نفسك ماذا تكتب ؟ هذا والله الكفر بعينه ، وأىّ عاقل يقول هذا القول فضلا عن مؤمن وماكان ينبغى لك أن تكتب هذا بل أقول لاتكتبه فى التفسير لئلا يأخذ الناس بظاهر قولك ويحكون عليك بحكم لاترضاه فتضيع الثمرة من الكتابة .

قلت لم ذلك ؟ قال لأنك تزعم أن القرآن مغير وبعضه مخفى ، وكأنك تزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبلغ بعضه أو بلغ الكل ، والقرآن بعضه محذوف أو أن المصحف ناقص وهذا هو الكفر بعينه . قلت هوّن عليك يا صاح ولو أنى خطر لى هذا القول لم أجد دليلا فى العقل ولا فى النقل عليه ، قال إذن ما معنى كون المسلمين أخفوا بعض الدين ؟ قلت ألست تعلم أن الفحم الحجرى والحديد والنحاس كانت تستخرج من باطن الأرض من قديم الزمان ؟ قال بلى . قلت والبخار كان يراه الناس فى غدوّهم ورواحهم وفى منازلهم . قال بلى . قلت فكأنّ الفحم الذى علمه الناس والذهب وبقية المعادن منتفعا بها أما ماراوه بأعينهم فى مراجلهم وعلى شرابهم وطبيخ طعامهم وهم لم يعلموا علمه ولم يعرفوا ثمرته فقد حرموا منه ، قال نعم . قلت هكذا القرآن فإنك ترى آية الوضوء وآيات الحج والصلاة قد قتلها الأئمة رضوان الله عليهم بحثا وتنقيبا حتى لم يدعوا زيادة لمستزيد فتجد فى غسل الوجه من الأقوال ما لايدع قولا لقائل ، وترى ابن عباس يقول تغسل العين من الداخل ، وترى غيره يوجب غسل الفم والأنف أى المضمضة والاستنشاق وغيرهم يوجب غسل مقدم الأذنين بالماء وذلك لاختلاف الاعتبارات والنظر فى العبارات والهمة فى المعلومات واستيفاء العلم والحكمة فى الآيات وهكذا الفرائض والدعاوى والبينات والزكاة والصلاة والحج ومسح الخف وما أشبه ذلك وقامت متون هذه العلوم ١٣ قرنا حتى ألف الناس ذلك وصرفت أذهانهم وعقولهم ورغباتهم عما سواها حتى أصبح القرآن إنما يقرأ للتبرك وضاعت الثمرة المقصودة منه ، وترى من جهة أخرى آية إبراهيم مثلا فى هذه السورة وأنه رأى القمر والشمس والكواكب طالعات ففكر فيها وذكر الأنبياء بعده ثم ذكر الأمر الحتم يقول الله «فبهداهم اقتده» أى يقول لنا نحن الآن اقتدوا بهؤلاء ، ونحن نسمع هذا القول فنقول جميعا بلا استثناء فى مشارق الأرض ومغاربها الشمس والقمر والنجوم والأنبياء واقتداء النبى صلى الله عليه وسلم بهم كل هذا مفهوم عندنا ، كتب الفقه فيها جميع الأحكام ولم يبق زيادة لمستزيد ، وأما النجوم فإنها لالزوم للنظر فيها فقد عرفنا الله ، وأما الأنبياء فقد اختلف العلماء فيهم هل شرع من قبلنا شرع لنا وهكذا ، ويقف الذكى

عند أمثال هذا المقام وقد أسدل على جميع العقول الإسلامية الحجاب إلا الراشدين وهم الذين ميزهم الله بنور العلم وانزووا في زوايا الأرض لايعلمون ولا يرشدون .

فياليت شعري أيّ فرق بين قوله « اغسلوا وجوهكم » وقوله « فبهداهم اقتده » وأيّ فرق بين قوله « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد » وبين قوله في هذه السورة « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي الخ » ولم يفصل الكلام في الميراث ولا يفصل في الاقتداء بالأنبياء وفي النظر في الكواكب والشمس والقمر والمعدن والنبات والحيوان والتشريع . أليس هذا كله في القرآن وكيف يقول « وألنا له الحديد » ويقول « فسخرنا له الريح » ويقول « وسخر لكم ما في السموات ومافي الأرض جميعا منه » وهذا يشمل الريح والحديد والنحاس وغيرها ، فإذا كان الأنبياء قد أعطوا بعضا فقد سخر الكل لعباده . يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم اقتد بالأنبياء والأنبياء كان منهم من شكر الله على نعمة الهواء ، ومنهم من شكره على نعمة المعادن، ومنهم من بحث في النجم والشموس وهكذا ، أفلا نتقبل نعمة الله ونبحث في كل ما على الأرض ومافي السماء اقتداء بالأنبياء وإجلالا لقوله تعالى « وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعامنه » وقبولا لعطيته . ومن أعرض عن عطية الكريم الحكيم عاقبه بالحرمان ولا معنى لشكر النعمة إلا صرفها فيما خلقت له وقد أمرنا أن نشكر نعمه فقد قال « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » وقال تعالى « واشكروا لي ولا تكفرون » وقد عرفنا معنى الشكر . أفليس من كفران النعمة ومن العصيان أن ندع مايمكن الانتفاع به من المخلوقات فلا نستعمله وبذلك نصبح غير شاكرين ، وهل يليق بالمسلمين أن يكونوا غير شاكرين ؟ فأين العقول وأين الحكمة وأين الاستنباط وأين العقول الكبيرة التي خلقها الله ؟ .

إن تلك العقول قد وضعت في أغلال وحكم عليها بالإرهاق ، فإن العقول الكبيرة التي خلقت في البلاد الإسلامية قد حكم عليها أن تضيع الذكاء المفرط في علم الكلام من الرد على المشاغبين الذين ماتوا فكتب التوحيد أوّل مصيبة حلت بالأمم الإسلامية ، وقد استعيض بها عن النظر في السموات والأرض كنظرات إبراهيم الخليل . فهذه الكتب لا هي بمعطية اليقين ولا هي بمرقية العلوم . فأما نظرات الخليل عليه السلام في الفلك وبقية آي القرآن في الطبيعة والعلوم الأخرى فإنها ترقي العقول الإنسانية وتعطي المعلومات اليقينية وترقي الجامعة الإنسانية . فياليت شعري أيّ فرق إذن بين قوله تعالى « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر » وبين ظهور البحار قبل معرفة منافعه . لعمرك إنه لافرق بين خفاء الشيء وبين ظهوره مع الغفلة عنه ، وإذا وضعنا أمام الأعمى أجمل صورة في الوجود فإنا لاندعي أنه عرف جمالها أو أدرك محاسنها.

قال صاحبي وهل يقال إن المسلمين أخفوا بعضا من القرآن ؟ قلت النتيجة واحدة ، بل المخفيّ يمكن الاطلاع عليه بعد البحث ، أما الظاهر المكشوف الذي يراه كل إنسان وقد صرفت عنه الأذهان فإنه لاينتفع به اعتبر ذلك في الديانات وفي المخلوقات ، فإن دين المسيح لايعرفه إلا المسيحي مع أنه يكون في بلاد الإسلام ودين الإسلام لايعرفه إلا المسلم وهو في ديار النصارى مثلا وذلك لانصراف النفوس عن كل مالاتشوق إليه ، فالمسألة مسألة تشويق ورغبات . ونرى الصناعات والسياسات والتجارات في أوربا قائمة السوق رائجة ، والشرق نائم وهو يرى بعينيه صليل السيوف ودويّ المدافع وحصد النفوس في الشرق واستنزاف الثروة بالتجارة وهو ساكت غافل ولماذا هذا ؟ لأن العقلاء لم يحركوا النفوس المصروفة ولم يشوقوها للأمور النافعة المفيدة لتكون لها معشوقة . قال صاحبي فماذا تريد إذن ؟ قلت إذا قالوا في الكتب الدينية كتاب الصلاة والزكاة والحج والبيوع والفرائض والدعاوى والعتق فلم لايقال كتاب في نظام الطبيعة وكتاب في نظام الفلك وكتاب في عجائب الحيوان وفي النبات وفي الحشرات فيطلع أكثر أهل العلم على مجمل هذه العلوم ، وكما يختص قوم بالقضاء يختص قوم بالفلك وآخرون بالطبيعة التي هي علم التوحيد حقا وصدقا وآخرون بعلم الحشرات

وآخرون بعجائب غيرها ، فقال ذلك الفاضل أو يكون هذا دين الإسلام ، قلت نعم ولا إسلام غيره فهذا هو الإسلام الحقيق ، قال عجباً لك ! أفلست ترى أن المسلمين السابقين قد ألفوا فى هذه العلوم كلها ؟ قلت نعم ألفوا باعتبار أنها علوم إما كفرية وإما مستحسنة وكان ذلك عملا فردياً أو دنيويا ، ولكنى أقول بأعلى صوتى هذه العلوم دينية كالوضوء والصلاة والحج ، ولماذا يعتنى المسلمون بشروط البيع ولا يعتنون بعلوم المعادن ، ولماذا خصصوا للقضاء طائفة ولم يخصصوا نظيرها لعلم الحشرات أو لعلم النبات أو لنظام الحدائق الغناء مع المشاركة فى سائر علوم الدين ، أقول هذا وأنا موقن أن هذا هو الدين حقاً ، فعلى المسلمين أن يعوه وإلا فأنت تعلم أن الله قاهر فوق عباده ، فقد نقل الإسلام من قوم إلى قوم ، ولما ناموا جميعا أنزل عقابه على الجميع وأذلهم للفرنجة فسادوا عليهم أجمعين هذا هو الحق الصراح ، إن هذه الآية .

برزخ بين بحرين

وهى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » إلى قوله « وهذا كتاب أنزلناه مبارك الخ » .

يعجب المتأمل لهذه الآيات ويدهش من نظامها ، كيف لا وإنها لم تذكر إلا فى برزخ بين البحرين من العلم البحر الأول : علم السموات المفهوم من نبأ إبراهيم ونظره فى السموات . البحر الثانى : العلوم الأرضية فى النبات والحيوان الخ .

أيها الذكى انظر وتأمل وتعجب هذان بحران من العلم . أولهما فى الفلك ولا يتم إلا بجميع العلوم الرياضية من الهندسة والجبر الخ . ثانيهما علم النبات والحيوان ولا جرم أن العلوم الحكمية لا تخرج عن هذين ، فهى علوم العالم العلوى وعلوم العالم السفلى والأخيرة هى العلوم الطبيعية والنظر العام فيهما معا هى العلوم الإلهية . إذن هذه السورة جمعت علوم الحكمة كلها وقدمت الرياضيات كما هو منهج التعاليم فى العالم كله ، وأخرت الطبيعيات هذا واضح ظاهر ولكنى أريد أن أحدثك حديثا عجبا وهو المقصود . أحدثك عن وضع هذه الآية فى البرزخ بين البحرين وما حكمتها ، ولم لم توضع قبل البحر الأول أو بعد البحر الثانى ؟ إنما جعلها الله هنا لحكمة شريفة ظهرت فى هذا الزمان وأبرزها العلم والتاريخ .

ذلك أن اليهود المذكورين فى الآية قد خبئوا كثيرا من علوم التوراة وأظهروا بعضا على حسب أهوائهم والمسلمون اليوم وإن لم يخفوا القرآن وأظهروه ولكن العلوم التى يحث عليها قاموا ببعضها وتركوا أكثرها أما البعض فهى العلوم الفقهية ، وأما الأكثر المتروك فهى العلوم المذكورة فى هذه السورة وهما البحران المحيطان بهذه الآية ، فكأن وضعها هنا إشارة إلى أن هذه العلوم ستختفى زمنا ما فى الأمة الإسلامية والقرآن يطلبها ومتى عرف ذلك رجعت الأمة إلى قراءة تلك العلوم ، وأنت أيها الذكى لا تتصور ما قلته لك الآن مما تضمنه هذا الوضع إلا إذا قصصت عليك قصص الأمم الاسلامية فأقول :

لقد دونت الأمم الاسلامية العلوم عن الأمم السابقة الذين لم يعلم الناس عنها شيئاً إلا أن المصريين هم الذين نبغوا فى العلوم وقفى على آثارهم السريانيون والكلدانيون ثم الفرس واليونان ، وأجل هؤلاء (سقراط وأفلاطون وأرسطو) ثم انتقلت الحكمة والملك إلى الرومان وكان منهم (شيشرون وسنيكا) .

ثم لما كان آخر القرن الثانى حدثت شيعة الاسكندريين الذين كانوا يوفقون بين العلم والدين . ولما تنصر الفرنجة هجروا أكثر تلك العلوم ، ثم ظهرت الأمة العربية ودانت لها الأمم فأرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب (إقليدس) وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واشتاقوا إلى العلم لاسيما أنهم خالطوا الروم والفرس والصابئين فأثار ذلك شوقهم إلى العلوم . ولما جاء المأمون سعى جد السعى فى استخراج تلك العلوم ، وهناك ظهر المترجمون من اليونانية إلى العربية وكان ابتداء ذلك من سنة ١٣٦ وانتهى فى نصف القرن الرابع الهجرى ، ومن التراجمة فى تلك العصور

(يحيى بن البطريق وجورجيس بن جبرئيل ويحيى بن البطريق ويوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش ويوحنا بن البطريق وحنين بن إسحق وإسحق بن حنين ويحيى بن عدى) وغيرهم ، وهذه الترجمة كان فيها اختلاف كبير فلخصها الفارابى ومحصها ابن سينا .

انحطاط التعاليم فيما بعد ذلك

ثم أخذت ريح العلوم تركد والأمة ترجع القهقرى فأخذ صغار العلماء يحرّمون هذه العلوم وأصيب العلماء بهذه العلوم بمصائب الحسد والعداوة والشك والحبس كما حصل لعبد السلام الجيلى المعروف بالركن الذى اشتهر بهذه العلوم فى القرن السادس من الدولة الإمامية الناصرية وحصل له تقدم عند رجال الدولة فأخذ أطفال العلماء يذمّونه ويوقعون به حتى برزت الأوامر الناصرية بإخراج كتبه إلى موضع ببغداد يسمى (بالرحبة) وخطب الرجل المسمى (بابن المارستانية) فوق منبر وصار يلعن علم الفلك وعلم الحيوان وغيرهما ويلقى كتبها فى النار وحبس ذلك العالم فى السجن ولم يخرج إلا بعد مدة فى سنة ٥٨٩ هجرية .

هذا ما كان فى بلاد الشرق . ثم انظر ما حصل فى بلاد الغرب فإن القوم أحرقوا كتب الغزالى فى الأندلس والمغرب الأقصى ، ولقد وصل الأمر إلى ما حكاه أبو حيان فى تفسيره البحر ، أن أهل المنطق بجزيرة الأندلس كانوا يعبرون عن المنطق بالمفعل تحرّزا عن صولة الفقهاء حتى إن بعض الوزراء أراد أن يشترى لابنه كتابا فى المنطق فاشتراه خفية خوفا منهم مع أنه أصل كل علم وتقويم كل فنّ .

ثم إن القوم اضطهدوا ابن رشد فتحول العلم بهذه الأسباب من الشرق والإسلام إلى أوروبا من طريق تلاميذ ابن رشد النصارى واليهود فدار الزمان دورته .

هذا ما كان من أخلاق الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى فانظر ماذا فعل الله حالا ؟ سلط عليهم المغول والتتار المعبر عنهما فى علم الجغرافيا قديما كما سيأتى فى سورة الكهف بلفظ « يأجوج ومأجوج » جمعهم جنكيزخان وتوجه بهم إلى بلاد الإسلام لما وجد من قطب أرسلان ظلما لتجاره وتنكيلا بعهوده كما سيأتى إيضاحه فى تفسير سورة الكهف فخرّب البلاد وقتل الشيوخ والصبيان والنساء ، وقد يقتل البهائم ويدمر كل شئ تدميرا .

وأحرقوا كتب الخزائن العلمية فى بخارى وسمرقند وحلب ، فقد مزقوا ما فيها من الكتب لما دخلوها وهكذا ضاعت ومزقت كتب المكاتب الإسلامية ، ومما زاد فى الطين بلة الحروب الصليبية . إذن الأمم الإسلامية أوّلا غيروا ما بأنفسهم من العلوم وحبها فغير الله حالهم فأغارت عليهم الأمم « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ثم جاءت دولة الترك وفتحوا القسطنطينية وكان فيها فحول فى العلوم الحكمية والدينية كالعلامة شمس الدين الفنارى والفاضل قاضى زاده الرومى والعلامة خواجة زاده والعلامة على قوشجى والفاضل ابن المؤيد وميرجلبى والعلامة ابن الكمال . قال العلامة التركى منلا كاتب جلبى مؤلف كتاب (كشف الظنون) المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى .

ولما حلّ أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكمل ، فاندرست العلوم بأسرها إلا قليلا من رسومها فكان المولى المذكور سببا لانقراض العلوم من الروم كما قال مولانا الأديب شهاب الدين الخفاجى فى خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة اهـ منلا كاتب جلبى .

فانظر كيف ذهبت دولة الإسلام فى الشرق بجنكيزخان وخلفائه الذين أماتوا ألف ألف إنسان فى بغداد وجعلوا الكتب جسرا تمرّ عليه جيوشهم بدجلة . وانظر كيف جاء الملك (فرديناند) وزوجته (إزابلا) وقتلوا المسلمين بالأندلس ومن بقى تنصر ولم يفرّ منهم إلى بلاد شمال أفريقيا إلا القليل وأبناؤهم اليوم فى مراكش

وتونس

وتونس والجزائر . وانظر كيف انحطت دولة الترك البائدة الجاهلة فى زماننا وحلت محلها الأمة الحالية التى يقودها الغازى (مصطفى كمال باشا) وهى تجدّ فى تعلم العلوم بأسرها ، ولله عاقبة الأمور .

هذا تاريخ الأمة الإسلامية . أليس هذا الذى بسطته أمامك الآن معناه أن المسلمين لما أحيوا جميع العلوم كانوا فى منعة ، ولما غيروا مابنفوسهم غير الله حالهم « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له » ألست ترى أن هذه الآية منطبقة على تلك الأمم ؟ فإنهم لما غيروا ما بأنفسهم أراد الله بهم السوء . ولم يكن لذلك السوء مرد وقد حصل فعلا فقتل المسلمون فى أقطار الأرض . أو لست ترى معى أن قوله تعالى فى هذه الآية مخاطبا اليهود « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » يقرب مما ذكرناه ، فالقرآن وإن كان مقروءا ولم يغير فالذى غير وبدل هو طرق التعليم . فالمسلمون فى أول أمرهم كانوا يدرسون كل العلوم أو يجيزون دراستها ، ولما منعوها صاروا كأنهم أخفوا بعض الكتاب وأظهروا بعضا .
ألا ترى أنك تدخل المعهد الدينى فلا تسمع إلا أن المطلوب هو علم الفقه وعلم التوحيد ولا يقرءون الطالب جمال الطبيعة والفلك ولايذكرونه بأن العلوم جميعها فروض كفايات ويوزعونها على الأفراد . أليس مثل إخفاء القرآن تماما بل هذا هو المقصود من الإخفاء . لهذا جيء بهذه الآية بين العلوم الفلكية والعلوم الطبيعية تنبيها للمسلمين .

إننا ورثنا عن أسلافنا الأقربين علما ناقصا وتركنا أهمّ العلوم فكأننا نبدى بعض الكتاب وهو الفقه ، ونخفى كثيرا وهى العلوم الحكمية التى لها (٧٥٠) آية بخلاف الفقه الذى له ما لايزيد عن (١٥٠) آية فتعجب من عجائب القرآن . هذا ، ولما ترك المسلمون هذه العلوم رأينا وعلمنا أن كل طالب علم ارتقى عن الوسط الإسلامى فى الشرق والغرب نزل الإسلام فى عينه عن مكانته كما سمعت ذلك من جميع طبقات المسلمين .

قال لى أحد علماء الصين : إن أبناء الأغنياء للمسلمين بعد رجوعهم من أوروبا ينظرون إلى دين الإسلام نظرهم لمستصغر الأشياء وأدناها درجة لعلمهم أنه لايخرج عن الوضوء والطلاق وعقد العقود . هذا كلامه وقال : إن هناك سبعين مليونا من المسلمين . قد رأينا آثار قصة الخليل فى الأمم السابقة فأين آثارها فى الإسلام ؟ .

قد قلت لك قد عثرنا على طريقة تعليم القدماء قبل المسيح بأربعة قرون وكيفية البحث فى العالم العلوى والعروج إلى الكمال فى كتاب (جمهورية أفلاطون) وقد رأينا فيها أنه انتقل من العالم العنصرى إلى العالم الفلكى وجعل أصل المجد هناك ، ثم جعل العلم الرياضى كالحساب والهندسة والجبر هى محور العالم الإنسانى وأن الأعداد وأعمالها أقرب إلى عالم المجردات ، فالفكر يصعد بها إلى العدل والجمال والخلوص من شقاء المادّة وجهلها ، وكذلك أوجب الرياضة الجسمية إيجابا عظيما وحتم على كل رجال الجيش ورجال الحكومة أن يكونوا فى علم الرياضة بارعين وفى الحساب مدققين وأكد ذلك تأكيدا أكثر فى أمراء الأمة من الملوك والوزراء وأمثالهم فأوجب عليهم تعلم الرياضيات العقلية أكثر من قوّاد الجيوش وهكذا .

هذه المباحث كانت تقال قبل المسيح وبعضها يكاد يكون كتعليم الخليل كما تقدم . فماذا استنبط المسلمون من قصص الخليل ونظره فى النجوم ومن قصص سائر الأنبياء . ثم قد اكتفوا بأن نبينا صلى الله عليه وسلم فعل بالأصنام ما فعله الخليل وكسرها وقال آمنوا بالله فآمنا وانتهى الأمر وأصبح القرآن يتلى للعبادة . أما التفكر فأصبح فى كتب الفقه وكتب أصول الفقه وكتب علوم التوحيد وغاب عن الناس إشراق شمس الذات المحمدية والعلوم الكونية والأنوار القدسية والنجوم السماوية والأنوار الخليلية فعظمت البلية وقتلتنا الأمم الغربية كل ذلك حاصل ولكن الناس لايتذكرون يمحون به ولكنهم لايشعرون يعذبون ولكنهم

لايتوبون . ياليت شعرى أرضى للمسلمون بذلك فناموا ، أم السكرة أحاطت بالفكرة فأصبحوا خامدين ؟ .
لقد جاء وقتكم وأقبل سعدكم وأمر ربكم أنكم إلى طريق السعادة سائرون وإلى مقام الرشد مهتدون .

قال صاحبي فاذكر نبذة من جمال الفلك تكون تبصرة للقارئين وذكرى للذاكرين لمناسبة قصة الخليل واقتداء النبي صلى الله عليه وسلم به فى نظره الجليل امتثالا للأمر بالاقتداء على شريطة أن لايكون مما ذكرته فى هذا الكتاب .

سأذكر لك نبذة فى الفلك قريباً، وعند قوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر » وشيئاً من أبعاد الكواكب وعددها ، وأكتفى هنا الآن بذكر مسألة تختص بهذا النظام الشمسى فأقول : اعلم أن الأرض تدور حول الشمس وكذلك السيارات ثم القمر يدور حول الأرض كل ذلك فى مدارات متشابهة ويسمى كل منها (الشكل الإهليلجى) فإذا رأينا الربيع والخريف والصيف والشتاء فإن ذلك حاصل من سير الأرض حول الشمس ، وهذا المدار تعرفه بأن تذهب إلى الحدائق وفيها أشكال ذات أزهار منتظمة الوضع بطرق هندسية يعقلها البستانيون . وطريق ذلك أن يضعوا فى الحديقة وتدين فى الأرض وبينهما بعد يعينونه على حسب المصلحة والنظام المطلوب ، ثم يأتون بحبل أطول من ضعف المسافة بين الوتدين ثم يربطون طرفيه فيصير مقفلا ، ويأتون بخشبة ويضعونها على ذلك الحبل من الداخل ويجذبونها إلى الخارج ويدورون حول الوتدين فيرسمون بذلك شكلا تاما وهذا هو (الشكل الإهليلجى) فتراه كدائرة مستطيلة وتراه فى البساتين المحيطة بالقاهرة بديارنا المصرية ، وقد ألهم الله رجال البساتين أن يصنعوا هذا الشكل حتى إذا جاء من لم يمارس علم الفلك واطلع عليها وقد قرأ هذا الكلام أدرك أن هذا هو مدار السيارات حول الشمس ومدار القمر حول الأرض وموضع الوتدين فى ذلك الشكل يسميان (البؤرتين) أو (نقطتى الاحتراق) أو (المحترقين) وترى الشمس دائما بالنسبة للأرض والسيارات فى إحدى البؤرتين والأرض والسيارات جاريات على هذا الشكل وكذلك الأرض بالنسبة للقمر الدائر حولها أى أنها فى إحدى البؤرتين دائما .

كيف قصر المسلمون ونبغ الغربيون فى القرون الأخيرة وأسلافهم الأقدمون
تلاميذ علماء الإسلام بالأندلس كما هم به معترفون

لقد ذكر العلامة (سديو) الفرنسى الذى ألف كتاب (تاريخ الأمة العربية) أن علماء أوروبا فى القرن الرابع عشر والخامس عشر المسيحى قد ادّعوا أنهم كشفوا مسائل فى الفلك والطبيعة وغيرهما وهم فى ذلك كاذبون سارقون وأثبت تلك السرقة بعشرة أدلة ، مثل أن أوروبا لم يكن بها مراصد فى ذلك الزمان وإنما كانت فى ديار الإسلام ، ومثل أن بعض المسائل المكشوفة وجدت فى كتب عربية بعد الكشف تاريخ تأليفها قبله بقرون وهكذا الخ .

أقول فهؤلاء الأوربيون الذين هم تلاميذ آبائنا كما ذكره العلامة (سديو) القائل إنهم كانوا تلاميذ المسلمين بالأندلس الخ قد أصبحوا اليوم أرقى من المسلمين فى جميع العلوم والمسلمون نائمون خامدون جاهلون، ولأذكر لك آخر ما يصنعون بالفلك وهو :

عجيبتان

(الأولى) منظار للبحث فى القمر . (الثانية) خريطة السموات .

أما الأولى وهى منظار القمر فذلك أنه فى هذه السنة أى سنة ١٩٢٦ يصنع فى باريس منظار (تلسكوب) يزيد حجمه عن ضعف أىّ منظار فلكى فى العالم حتى اليوم ، ويؤمل أن يرى بواسطته الكواكب التى لاتشاهد الآن على مسافة خمسة عشر ألف مرة منها ، وهذا المنظار يقيمه الآن العالم الفلكى الأمريكى

(جورج

(جورج رتشى) وسير القمر بواسطته على بعد عشرة أميال فقط وهكذا يتضاعف أمام النظر الكون المرئى مليونا وخمسمائة ألف مرة فى الحجم ويقولون إنه مستعد للعمل فى صيف هذه السنة .

أما العجيبة الثانية وهى خريطة السموات . فاعلم أنه قد اشترك ١٨ مرصدا فى عمل هذه الخريطة وابتداء العمل كان فى سنة ١٨٨٧ وسيستغرق ٧٥ عاما ، وقد أتم ثلاث مراصد العمل الآن وهى مراصد الكاب فى جنوب أفريقيا وجرينوتش وأكسفورد فى إنكلترا . وقد بلغت تكاليف الخريطة حتى الآن مليونا من الجنيهات وستحتوى على قسمين مختلفين عند تمامها ؛ أحدهما صورة تخطيطية عامة، والآخر الأسماء والأوصاف والقياسات لما يقرب من نصف مليون كوكب ، وعلى كل مرصد أن يأخذ ألفا ومائتى لوحة تصويرية مرتين وعلى كل لوحة ما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة كوكب يقاس كل منها ويقيد بأصوله ويبلغ ما يخص كل مرصد عندئذ نصف مليون من الكواكب اه من الجرائد الإنجليزية فى هذه الأيام .

هذا عمل أوروبا . وهذا هو الذى يرمى إليه الخليل عليه السلام ومقصد القرآن . هذا هو الذى يطلبه الإسلام . كان هذا واجبا على المسلمين وجوبا كفائيا .

إن هذه الصور السماوية التى يأخذها الأوروبيون نافعة من الوجهة العلمية والتوحيد ومن جهة ارتقاء النفوس، ومن جهة التجارة فإن كثرة المعارف السماوية الكوكبية تسهل طرق الملاحة، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قطرة من بحر ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله لإبراهيم عليه السلام

والكلام على الكوكب والقمر والشمس المذكورات فى هذه القصة

(١) الكواكب على قسمين : ثوابت وسيارات . أما الثوابت فهى أكثر التى نراها فى السماء كل ليلة وهى تبلغ مئات الملايين بالمناظير المعظمة . وقد ذكرنا هذا فى مواضع من هذا التفسير .

ونريد الآن أن نبين أن القدماء قد قسموها إلى عدة صور . والمنقول عن بطليموس أن تلك الصور (٤٨) صورة منها ٢١ فى الشمال و١٥ فى الجنوب و١٢ فى الجزء المتوسط بالقرب من دائرة المعدّل ويشتمل مجموع هذه الثمان والأربعين صورة على ١٠٢٩ نجمة عند القدماء منها ٣٦١ للصور الشمالية و٣١٨ للصور الجنوبية و (٣٥٠) للصور المنطقية ، والاثنتاعشرة صورة المنطقية هى المنازل المعروفة ، وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت والإحدى والعشرون الشمالية منها الدب الأصغر أو بنات نعش الصغرى والدب الأكبر والثعبان والملتهب والعوّاء والجاثى على ركبتيه والمرأة المسلسلة والخمس عشرة صورة الجنوبية منها : قيطس . الجبار . نهر الأردن . الأرنب . الكلب الأصغر . الكلب الأكبر . السفينة . الشجاع . الكاس . الغراب . المجمرة . سنطورس الخ .

وقد جعلوا هذه النجوم أقدارا فأضوؤها القدر الأول ويليه الثانى وهكذا . والمتأخرون حافظوا على هذا التقسيم ولكنهم رأوا أن النجوم أكثر حتى جعلوها ستة آلاف نجمة لذوى الأبصار الحادّة ومئات الملايين بالآلات الراصدة كما تقدّم إيضاحه فى سورة البقرة . ومن هذه الثوابت الآتى :

(١) النجوم المتغيرة فلا تحفظ ضوءها شدة واحدة ، وهذا التغير فيها إما لمدة معلومة وإما ليس يعلم له دور .

(٢) ومنها النجوم الوقتية الجديدة فقد تظهر نجوم فى محالّ من السماء لم ير فيها نجوم من قبل ثم تختفى مثل النجمة المشهورة التى رصدوها سنة ١٥٧٢ فى وسط ذات الكرسى فكانت أضوأ كوكب فى السماء ثم أخذت تنقص تدريجا ثم اختفت بعد ١٧ شهرا .

(٣) ومنها النجوم التى ظهرت ثم بقيت مثل نجمة ظهرت فى صورة الإكليل الشمالى سنة ١٨٦٦ ظهرت كلؤلؤة ثم ضعفت ولا تزال إلى الآن ولكن ترى بالمناظير .

(٤) ومنها النجوم التى اختفت ولم ترجع .

(٥) ومنها النجوم المزدوجة إذ بعض النجوم التى نراها واحدة بالعين تكون فى الواقع نجمتين وقد عدّوا منها (٧٠٠) مجموعة إلى الآن .

(٦) ومنها النجوم المضاعفة بأن تكون النجمة واحدة بنظر العين ولكنها تكون ثلاثا أو أربع شموس بالمنظار ومنها نجمة من الجبار مركبة من ست شموس .

(٧) ومنها القنوان والسدام . فالقنوان جمع قنو مثل صورة الثريا الموضوعة فى صورة الثور وهى مركبة من (٨٠) نجمة ، و (٦) منها ترى بالعين ، والسدام جمع سديم وهو الضباب الرقيق ، وعند الفلكيين نجوم صغيرة القدر جدًا متقاربة حتى ترى كأنها سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لاتحلّ إلى نجوم منفردة بالنظارات القوية . وملخص هذا النوع ثلاثة أقسام ، فإن أمكن حله بالنظارات سمى مجموعة كوكبية مثل (قنوتوكان) وهذا فى قسم السماء الجنوبى ويرى دائما بالعين (العادية) وإن أمكن حلّ البعض منها فإنها ترى على هيئة شكل منتظم كثيرا أو قليلا وإن لم يمكن حلها أصلا فشكلها الذى يرى يكون غير منتظم .

(٨) ومنها طريق التبانة أو المجرة وهى منطقة ضيقة بيضاء يراها الناس جميعا فى الليالى الصافية تقسم الكرة السماوية إلى قسمين متساويين تقريبا ولا تقلّ النجوم التى فيها عن ١٨ مليون نجمة ، ولبعد هذه النجوم ترى كأنها لبن أو تبن ، هذه هى النجوم الثابتة .

أما السيارات فإنها قليلة جدًا والفرق بينها وبين الثوابت أن الأولى ضوؤها هادئ ساكن وأن الثانية متلألئة الضوء وتظهر كأنها نقط مضيئة قطرها الظاهرى صغير جدا بحيث لايمكن قياسه ، ولبعض السيارات أشكال كأشكال القمر . وقد لاحظ الناس قديما أن بعض النجوم لها حال خاصة مثلا يرون فى ليلة ما أن كوكبا من هذه الكواكب ظهر بجوار نجم ثابت ، وفى الليلة الثانية يرون أنه قد تأخر قليلا إلى الشرق وهكذا كل ليلة ولا زالوا يراقبون كوكبا فكوكبا حتى عرفوا هذه الكواكب على هذا الوصف وهى عطارد والزهراء والمريخ والمشترى وزحل ، وأضافوا إلى هذه الخمسة القمر والشمس .

ولما رأى علماء العصر الحاضر أن الشمس مركز العالم وأن القمر يدور حول الأرض وأن الأرض تدور حول الشمس بعكس ما كان يظنه الأقدمون أن الأرض مركز العالم والشمس والقمر وغيرهما يدرن حولها .

أقول لما عرفوا ذلك لم يعتبروا الشمس ولا القمر من السيارات ، بل جعلوا الأرض سيارا كأخواتها الخمس المذكورات وزادوا عليها ما كشف سنة ١٧٨١ وهو (أورانوس) وما كشف سنة ١٨٤٦ وهو (نبتون) فتكون السيارات إذن ثمانيا والأرض منها ، وكل هذه السيارات تتم دورتها حول الشمس فى أزمان غير متساوية وغير متغيرة . وقد وجدوا أنه كما أن للأرض قمرا فللمريخ قمران وللمشترى ولأورانوس لكل منهما أربعة أقمار ولزحل ثمانية ولنبتون واحد كالأرض ، وترى الزهراء ابتعادا عن الشمس بعد غروبها ولاتزال تبتعد ليلة فليلة بحركة تسمى طردية إلى أن تبلغ (٤٨) درجة تقريبا يراها جميع الناس مساء وكان يسميها الأقدمون (نجمة الليل) ثم تكرّ راجعة بحسب مرأى العين حتى تختفى ثانيا تحت أشعة الشمس وبعد أيام قليلة تظهر قبل شروق الشمس وتسمى (نجمة الصبح) وهذه تسمى حركة تقهقرية لأنها من الشرق إلى الغرب حتى تبلغ (٤٨) درجة ثم تصير حركتها طردية ثانيا أعنى من الغرب إلى الشرق وتدخل تحت أشعة الشمس

وهذا

وهذا كله بحسب الظاهر ، وإلا فإن الحقيقة أن لا رجوع ولا وقوف ، وإنما ذلك بسبب النظر الظاهرى الذى يحصل بسبب دوران الكوكب فى مداره كما هو معروف فى محله بالبرهان . وبهذا تفهم قول الشاعر :

وللنجم من بعد الرجوع استقامة   وللشمس من بعد الغروب طلوع

وهذه الظواهر التى تراها بعينك للزهراء تراها أيضا لعطارد الذى هو وهى سياران سفليان ، وإنما يتباعد هو(٢٣) درجة فقط ومدة الدورة الاقترانية للزهراء (٥٨٤) يوما ، ولعطارد(١١٦) يوما ، وأما المريخ فإنه يبتعد إلى (١٨٠) درجة فله ولسائر الكواكب العليا اجتماع واستقبال كالقمر ، أما الزهراء وعطارد فليس لهما إلا الاجتماع ، أما الاستقبال فهو مستحيل إذ الاستقبال لايكون إلا بالمقابلة على بعد (١٨٠) درجة وهذان لايبتعدان إلا إلى (٢٣) درجة لأحدهما و (٤٨) درجة للثانى ، فكيف يكون استقبال كاستقبال القمر وللمريخ حركة طردية وتقهقرية بحساب أوسع مما تقدم .

هذا بيان وصف السيارات

(عطارد) أقرب السيارات إلى الشمس يتم دورته فى ٨٨ يوما تقريبا وترى الشمس فيه أكبر سبع مرات مما ترى من الأرض وشدة ضوئها وحرارتها تكون أكبر سبع مرات أيضا منهما على الأرض وله أشكال كأشكال القمر .

(الزهراء) الشمس ترى فيها أكبر مما ترى من الأرض مرتين تقريبا وكذا الحرارة والضوء ، وحجم عطارد صغير جداً ، أما حجم الزهراء فإنه يقرب من حجم الأرض وأيام دورتها ٢٢٥ يوما تقريبا .

الأرض

محيط الأرض يبلغ (٤٠) مليون متر ، ونصف قطر خط الاستواء ٦٫٣٧٨٫٤٠٠ متر .

أعلى الجبال المعروفة لايزيد ارتفاعه عن سطح البحر عن (٩٠٠٠) متر وهو جزء من سبعمائة جزء من نصف قطر الأرض ، وإذا رسم على كرة قطرها متر لايزيد ارتفاع أعلى الجبال بجبال ممالايا عن السطح العمومى بأكثر من مليمتر ونصف (١٫٤) مليمتر . العمق المتوسط للبحار (٦٠٠) متر .

نهاية عمق البحار (١٠٫٠٠٠) متر .

السطح الكلى للأرض يبلغ (٥٠٩) مليون كيلومتر مربع .

مياه البحار تشغل منه (٣٨٣٫٠٠٠٫٠٠٠) كيلومترا مربعا . اليابسة (١٢٦) مليون مترا مربعا .

حجم الأرض يزيد عن ألف مليار كيلومتر مكعب (١٫٠٧٩٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) أى أكثر من ألف ألف ألف ألف كيلومتر مكعب . سمك الجو قدره (٤٨٫٠٠٠) مترا .

مدة دورة الأرض حول الشمس ٣٦٥ يوما و ٢٥٦ جزءا من ألف جزء من اليوم .

بعد الأرض عن الشمس يساوى (٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠) فرسخا تقريبا أو (٩٢) مليون ميل تقريبا ويقطع الضوء المسافة المذكورة فى ثمان دقائق و١٨ ثانيـــة ، والقطار السريع فى (٣٥٠) سنة تقريبا وقلة المدفع فى (١٢) سنة تقريبا .

المـــريخ

السيار الذى يلى الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وقد تقدم الكلام عليها ، والذى يليها هو المريخ وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة ومقداره (٢٢٥) مليون كيلومترا ، ويرى قرص المريخ من الأرض ذا أشكال ولا يظهر وقت البدر كامل الاستدارة بل يشبه قرص القمر قبل أو بعد البدر بيومين أو ثلاثة .

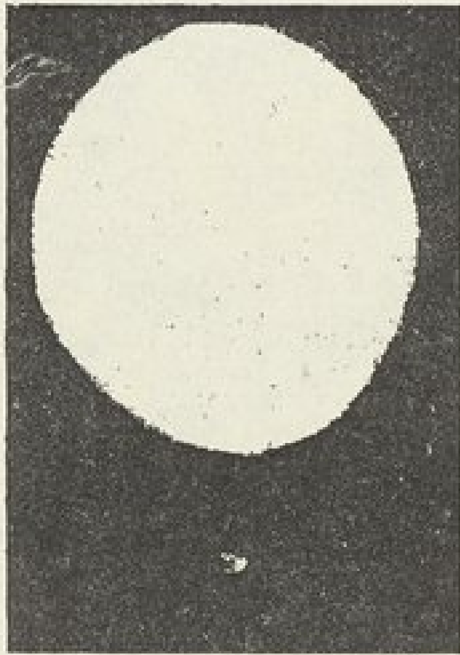
حجم المريخ يبلغ نحو سدس حجم الأرض ١٤٧ر٠ ويظن أن فيه بخارا وقارات وبحيرا وقطبين يخيم عليهما الثلج ويتراكم ويمتد شتاء هناك ويقل امتداده فى صيف المريخ فهو فى هذا كالأرض .

وقد كشف قمراه سنة ١٨٧٧ وهما (فوبوس) و (ديموس) وأولهما أقرب إليه من ثانيهما ، وسنة المريخ ٦٨٦ يوما و ٩٨٠ جزءا من ألف جزء من اليوم .

المشترى — أبعاده

هو أكبر جميع السيارات وحجمه قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوى ١٤٠٫٠٠٠ كيلومترا فهو قدر خط الاستواء الأرضى (١١) مرة وبعده عن الشمس فى المتوسط (٧٧٠) مليون كيلومترا .

أنظر صورة المشترى والأرض فى شكل (١)



شكل (١) المشترى والأرض

سنة المشترى تعادل (١٢) سنة من السنين الأرضية له جو يظن أنه سميك جدا وفيه كتل سحابية تحملها رياح كما فى الأرض وهى منتظمة انتظامها .

وللمشترى أربعة أقمار ولها كسوف كما فى قمرنا وقد عين العلماء مدد دورات تلك الأقمار وأبعادها بالفراسخ وأنصاف أقطارها كما فعلوا فى أرضنا وقمرنا وسموا تلك الأقمار بأسماء منها (يو) و (جاليستو) الخ .

هذا ما كنا تعلمناه عن أستاذنا المرحوم حسن افندى حسنى منذ (٣٦) سنة ونقلته من كتابه الذى تلقيناه بدار العلوم ، ولكن الآن بلغت أقماره التى كشفها الناس (٩) أقمار وآخرها كشف قبيل سنة ١٩٢٠ :

زحـــل

امتاز زحل بأن له حلقات منفصلة عن الكرة وتدور حوله فى خط استوائه ، والبعد المتوسط لزحل عن الشمس قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف أعنى (١٤٠٠) مليون كيلومترا تقريبا ويقطع مداره فى (١٠٫٧٥٩) يوما أعنى (٢٩) سنة ونصفا تقريبا وحجم زحل قدر حجم الأرض الذى عرفته (٧١٨) مرة وقطره (٩٫٢٩٩) بأخذ نصف قطر الأرض وحده، وفصول زحل مشابهة لفصول أرضنا ، وكل فصل من فصوله تزيد مدته عن سبع سنين من السنين الأرضية.

مجموعة حلقات زحل

هى ثلاث حلقات سمكها رقيق جدا وعروضها غير متساوية والحلقة الخارجة مفصولة عن المتوسطة بفراغ وأما الحلقة الداخلة التى هى أقرب إلى السيار فيظهر أنها ملاصقة للثانية والوسطى ألمع الثلاثة وأكثر استضاءة من كرة زحل والحلقة الخارجة لونها سنجابى مثل الأحزمة المعتمة من القرص تقريبا وكلا هاتين الحلقتين مظلمتان وتحذفان على زحل ظلا ظاهرا جدا . ومجموع عروض هذه الحلقات (٦٠٠٠٠) كيلومترا تقريبا .

أقمار زحل

هى ثمانية وقد سماها العلماء بأسماء مثل (سيماس) و (ديونى) و (ريا) الخ وعينوا مدة دوراتها وأبعادها بالكيلومتر وأنصاف أقطارها وقالوا إن أكبرها هو المسمى (تيتان) فحجمه قدر حجم قمرنا ثلاث مرات وهو أضوؤها . هذا ما تلقيناه من أستاذنا المرحوم حسن افندى حسنى ثم كشف بعد ذلك قمران ؛

أحدهما

أحدها سنة ١٨٩٨ ، والثانى سنة ١٩٠٤ كشفهما عالم أمريكى ، وأغرب هذه الأقمار العشرة القمر التاسع فإن الأقمار كلها تدور حول الكوكب من الغرب إلى الشرق ولكن هذا يدور من الشرق إلى الغرب .

أنظر شكل زحل والأرض :

أورانوس قد كشف سنة ١٧٨١ كشفه (هرشل) والمدون ناءون مختلفون ، حجم أورانوس قدر حجم الأرض (٦٩) مرة ، بعده المتوسط عن الشمس (٦٧٥) مليون فرسخ ودورته (٨٤) سنة تقريبا أو(٣٠٦٨٧) يوما بالضبط ، وله أربعة أقمار وقد سماها العلماء وبينوها بالمساحات ومعرفة الأبعاد ومدة الدورات مثل قولهم(أوبرون)و(اريل)وهكذا



(شكل ٢) زحل والأرض

السيار نبتون

هو لايتمّ دورته حول الشمس فى أقل من (١٢٥) سنة تقريبا ولا يمكن أن يرى بالعين المجرّدة وقطره يساوى (٣٫٨٠) إذا أخذ قطر الأرض وحده وحجمه قدر حجم الأرض (٥٥) مرة تقريبا ، وله تابع واحد يتم دورته حوله فى خمسة أيام وإحدى وعشرين ساعة وهو قمره .

سيارات صغيرة

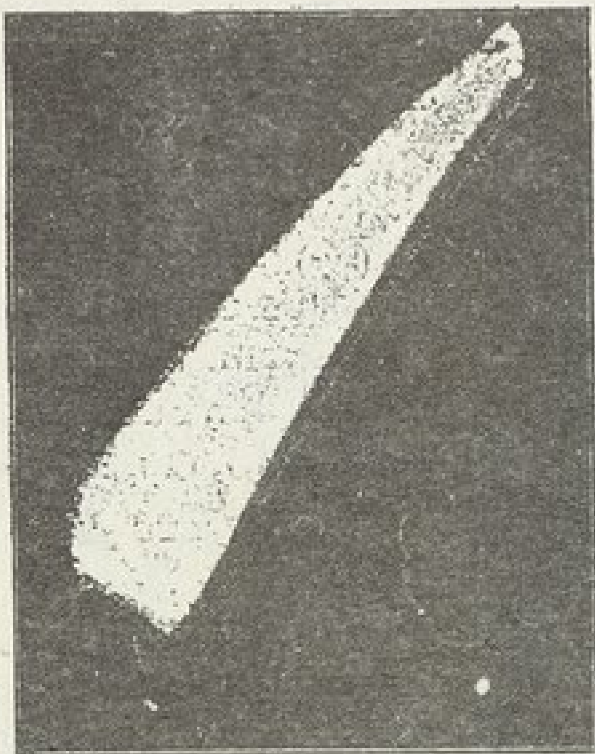
هناك منطقة بين المريخ والمشترى رأوا فيها كواكب صغيرة جدّا كأنها كانت كوكبا مثل المشترى أو نحوه ثم تحطم وهذه شظايا وقطعه فهى تدور فى مداره بين الكوكبين ، وهناك ذوات الأذناب المسماة عند القدماء بذوات الشعور وهى عدد عظيم من الكواكب التى تتحرّك حول الشمس ولها أذناب كأنها سحابات مستضيئات وقد شوهدت نجوم ذات ذنبين بل أكثر ، وذوات الأذناب تزيد عن (٨٠٠) وبزيادة الكشف الحديث يحتمل أن تعدّ بالملايين فى المستقبل وقال (كبلر) إن عدد ذوات الأذناب كعدد سمك البحار .

ومن ذوات الأذناب ما علم أن مدة دورتها حول الشمس تعدّ بألوف السنين أو بمئات الألوف منها . ومنها ما يؤمّل رجوعها عن قريب . ومن المعروفة جدّا الذنب المسمى (هالى) ومدة دورتها (٧٦) سنة تقريبا حول الشمس ومنها ذات الذنب (انك) ومدّتها (٣) سنين و (٣١٠) أيام .

وهناك ذوات أذناب قال الفلكيون برجوعها ولم ترجع وقد ظهرت فى الجيل التاسع عشر ذوات أذناب لامعة لمعانا شديدا . وأشهرها التى ظهرت سنة ١٨١١ وقد أثرت تأثيرا غريبا عجيبا وهى لاترجع إلا بعد ثلاثة آلاف سنة .

انظر شكل مذنب سنة ١٨١١ الذى سيرجع بعد (٣٠) قرنا .

وذات الذنب التى ظهرت سنة ١٨٤٥ هى ألمع جميع ما رؤى من ذوات الأذناب حتى إن قلبها وجزءا من ذنبها كان يرى فى النهار وهى قريبة من الناظر إليها ، وضوء ذوات الأذناب من انعكاس ضوء الشمس .



(شكل ٣) ذات الذنب فى سنة ١٨١١

الشهب الحجارة الجوّية

يرى الناس فى أكثر الليالى ما يشبه شعلا نارية تمرّ بسرعة فى الجو ترسم منحنيا مستضيئا وتختفى بسرعة بعد بضع ثوان وتسمى (نجوما ساقطة وشهبا) وما هى إلا أجسام صغيرة جدّا تجرى حول الشمس كما تجرى ذوات الأذناب والسيارات الكبيرة والصغيرة ، فمتى قابلت الجو الأرضى سخنت بمقابلة الهواء لها حتى تصير لامعة من الاحتراق ويرى وراءها ذيل مضىء ناشىء من احتراقها ويرى ثوانى أو دقائق ثم يختفى ، وقد تكثر تلك الأجسام فى بعض الليالى مثل العاشر من شهر أغسطس ونحوه ، والكرات النارية كالشهب غير أن حركتها بطيئة وتحدث فرقعة بالقرب من الأرض وما وقع منها على الأرض يسمى (الحجارة الجوّية) والكرات النارية قليلة . إلى هنا انتهى الكلام على السيارات وذوات الأذناب والشهب والحجارة الجوّية والكرات النارية ، وإنى أحمد الله عزّ وجل الذى ألهم وعلم وسهل حتى اختصرت المقام اختصارا وأحضرت بعونه تعالى بين يديك بعض ملكوت السموات والأرض لتكون من الموقنين ، فوالله لهذا أنزل القرآن دالا على هذا .

فياليت شعرى ما هذا الكون الشاسع وما هذه السيارات الجميلة والأقمار الباهرة والأبعاد الكبيرة والأنوار الساحرة وذوات الأذناب التى لا ترجع والتى ترجع بعد آلاف السنين ، وكيف كانت شمسنا لها هذه الحاشية العظيمة المختلفة الأقدار والأبعاد والأشكال والأزياء والملابس والأعمال ، فمن زحل والمشترى العظيمى الحجم إلى شهب لا تعدو الواحدة منها قدر البلاطة . كل هذه تجرى حول شمسنا كما تجرى أرضنا وبهذا انتهى الكلام على لفظ (كوكب) المذكور فى الآية .

الكلام على القمر المذكور فى الآية

تقدّم فى هذا التفسير حساب السنين القمرية وذلك فى آخر (آل عمران) ومعرفة السنين الكبيسة والبسيطة فلا نعيده وذلك من أجل سير القمر . سطح القمر يساوى واحدا من ١٤ من سطح الأرض تقريبا وحجمه يساوى واحدا من خمسين من حجمها تقريبا ، والبعد المتوسط لمركز القمر عن مركز الأرض يساوى نصف قطر خط الاستواء الأرضى (٦٠ر٢٧٣) مرة .

للقمر (٢٢) جبلا ارتفاعها يزيد عن (٤٨٠٠) متر وهو ارتفاع الجبل الأبيض وقد سماها العلماء بأسماء وقاسوها بالأمتار مثل ارتفاع جبل (دوورفيل) وهو (٧٦٠٣) أمتار . وتلك الجبال صفاتها بركانية بالكلية

ولها من أعلاها فوّهات مستديرة قطرها يبلغ (١٥) فرسخا وعمق التجاويف يزيد عن الارتفاع الخارجى ، وقد يصل الفرق إلى (٧٠٠٠) أو (٨٠٠٠) متر وليس للقمر جوّ وماء على سطحه .

وعرفوا هذا بكسوف النجوم التى تمرّ خلف الحافة المظلمة بقرص القمر فإنها تنطفئ بغتة فلا يحصل فيها نقص تدريجى بسبب غاز يحيط به ، وإذا انتفى هذا فلا يكون هناك بخار ولا نوع من السوائل ، وكيف يكون هناك ماء والماء لا يحفظه من الانطلاق فى الجوّ على هيئة بخار مرة واحدة إلا ضغط الجوّ الهوائى ، فإذا لم يكن جوّ ذهب الماء حالا . فإذن لا يمكن أن يكون هناك نبات ولا حيوان فالغالب على الظنّ أن القمر غير مسكون ؛ انتهى الكلام على القمر .

الكلام على الشمس وهى الثالثة فى الآية

نصف قطر الشمس (٦٩٢٠٠٠) كيلومترا وسطحها قدر سطح الأرض فيما تقدّم (١١٨٠٠) وحجمها قدر حجم الأرض (١ر٢٨٠ر٠٠٠) مرة . وبعدها عن الأرض قد تقدّم هناك .

ضوء الشمس كما قال (اراجوا) أشدّ من ضوء (١٥ر٠٠٠) شمعة وهو قدر ضوء البدر (٣٠٠ر٠٠٠) مرة، ورأى (والستون) أنه بقدره (٨٠٠ر٠٠٠) أى إنه يلزم ثلثمائة ألف بدر أو ثمانمائة ألف بدر فى السماء لإحداث نهار مضىء كنهار الشمس فى وقت صحو .

لطيفـــة

وههنا عجب عجاب فنقول: إن مسألة الأنوار ذات حكمة عالية ترينا اختلافا باهرا ، فبينا نرى الكواكب فى السماء وهى تبلغ نحو ستة آلاف أو أقل أو أكثر ترى بالعين المجرّدة وكل منها له نور ومع ذلك لا تضىء لنا الطرق والمسالك لضعف ضوئها الواصل إلى أرضنا ؛ فالنجمة الواحدة ضوؤها جزء من ستة آلاف جزء من المجموع وهذا كله ليس شيئا مذكورا بالنسبة للبدر الذى نوره جزء من ثمانمائة ألف جزء من نور الشمس ونور الشمس جزء من ثمانية آلاف جزء من نور السماك الرامح كما نص عليه اللورد (افبرى) والسماك الرامح وراءه كواكب أضوأ منه. وهذا غاية العجب أن يكون ضوء الكواكب الواصل إلينا جزءا من مئات الآلاف من ضوء البدر وهو جزء من مئات الآلاف من ضوء الشمس وهو جزء من آلاف من ضوء كوكب آخر يبعد عنا مائتى سنة بسير النور وهو السماك الرامح كما تقدم ، فإذن اختلاف الأنوار المشاهدة يفوق التصوّر ، فإن نسبة البدر إلى السماك الرامح: ١

(٨٠٠٠ فى ٨٠٠ر٠٠٠) / (٦ر٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) أى جزء من ستة آلاف وأربعمائة مليون من ضوء السماك الرامح

فصل فى نسبة ضوء الشمس إلى أضواء الكواكب على حسب منظرها من الأرض

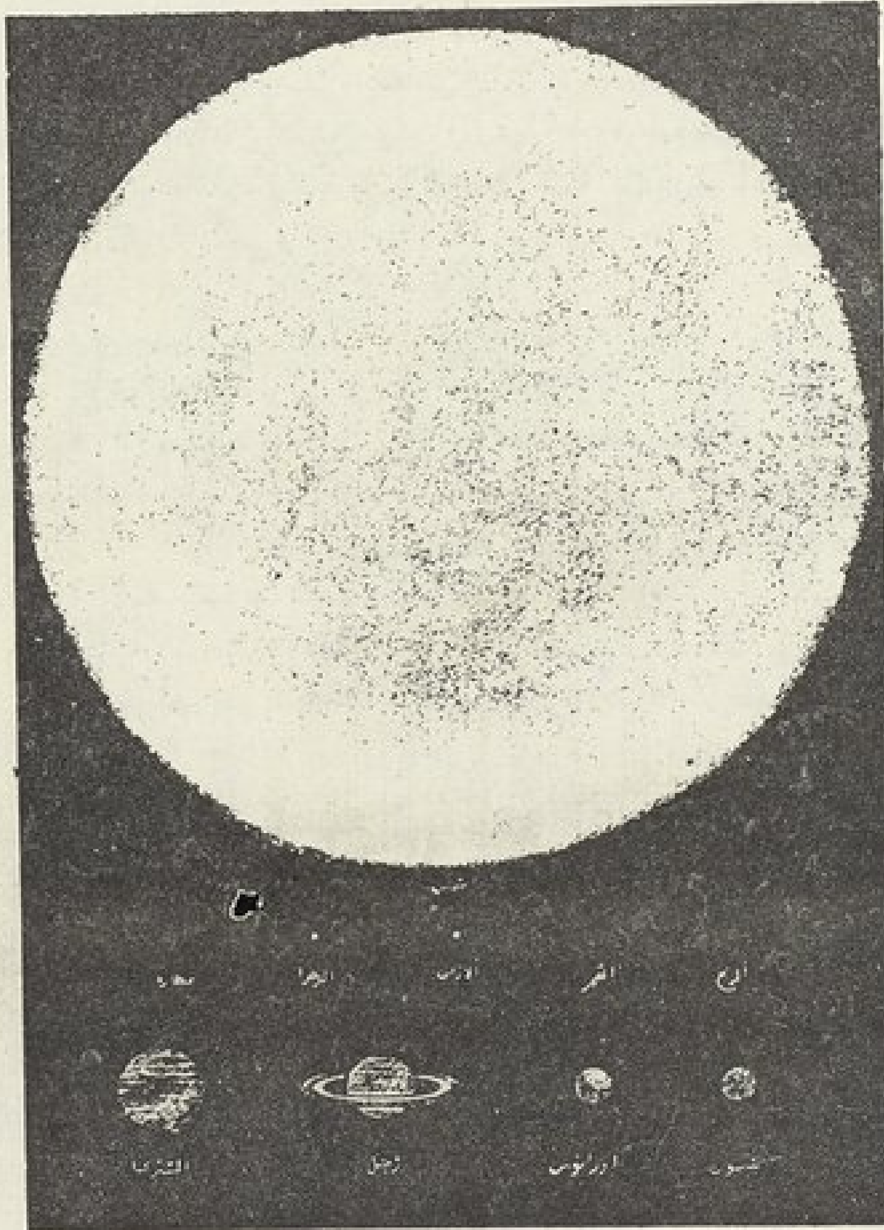
لقد علمت نسبة البدر إلى الشمس وأن أعظم مقدار له قدّره العلماء أنه جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس أى أنه لو كان هناك ثمانمائة ألف بدر لكان ضوؤها مجتمعة يساوى ضوء الشمس . أما النجوم فإن أضوأها وألمعها كالشعرى اليمانية يحتاج ضوؤها الواصل إلينا إلى مقدار عشرة آلاف مليون مرة حتى يصل ذلك كله إلى أن يكون كضوء الشمس .

وأوسط الكواكب كالعيوق يحتاج ضوؤه إلى مضاعفته ستا وخمسين ألف مليون مرة ، فلو أن هناك (٥٦) ألف مليون نجمة فى ليلة واحدة لصار الليل نهارا .

وأضعف الكواكب قد قيس نوره فوجد أنه لو جمع نور (٥٠٠) ألف مليون من أمثاله يساوى نور شمسنا . هذه هى المباحث التى برزت على يد العلماء فى أمريكا وأوروبا التى بذلت للناس قاطبة ونحن منهم والتى بها عرفنا جمال الله وبدائع صنعه وغرائب حكمه .

مقايسة

إن اختلاف الأضواء الواصلة إلينا من شمس وقمر وكواكب دلتنا على درجات تعدّ بالملايين وألوف الملايين والعقل والعلم شبيهان بالنور فلا عجب إذا اختلفت العقول اختلاف الكواكب ، فمن الناس من عقله كالبرق الذى هو أضوأ من نجوم ضعيفة ، ومنهم من عقله كالشعرى ، ومنهم من عقله كالقمر ، ومنهم من هو كالشمس وإذا عرفت ذلك تفهم كيف يشبه النبى صلى الله عليه وسلم بالشمس وذلك لعموم تعليمه ولا فضل لعالم إلا على مقدار ما أثر فى الناس فنفعهم بعلمه «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» انظر شكل المجموعة الشمسية :



(شكل ٤) المجموعة الشمسية

هذا بعض ملكوت السموات والأرض الذى يورث اليقين .

آراء صغار العلماء وجميع العامة فى أئمة الإسلام

يظن صغار العقول من المتعلمين والجهلاء أن نظر الخليل عليه السلام إلى الكواكب وإلى القمر وإلى الشمس بالنظر الظاهرى وعلى هذا لايكون هناك فرق بين نظر الخليل ونظر العامة والجهلاء ، فإذن اليقين أمر سهل وهذا من الغرور الذى طمس على البصائر فى أمتنا فتركوا العلوم فأرسلها الله إلى أوروبا لما أغفلها وجهلها المسلمون ، ألا وإن ما ذكرناه ونحوه ظواهر الملكوت وأحوال الناس تختلف ؟ فمنهم من ارتقوا وأدركوا بواطن لايدركها إلا هم « وفوق كل ذى علم عليم » اهـ .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم »

يسمع المسلمون اليوم كيف أصبح القرآن يظهر تفسيره على لسان الأرواح فى أوروبا ، أصبح القرآن ظاهرا على ألسنة الأرواح الناطقة من عالم الغيب فى أوربا وأمريكا ، فى إنكلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا والمسلمون نائمون هائمون لايعلمون شيئاً والقرآن يقول « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ويقول فى هذه السورة « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » والذى أراه أن هذا هو الزمان الذى ظهر فيه القرآن بالعلم الحديث ، فعلم طبقات الأرض من جهة وعلم الفلك وعلم الطبيعة كل واحد من جهة كما رأيته فى هذا التفسير ، ولكن من ذا كان يظن أن عالم الأرواح يخاطب البشر وبماذا يخاطبه ؟ يخاطبه بنفس مافى القرآن . ومن حكمة الله أنه جعل المسلمين اليوم فى مجموعهم غافلين وأنطق الأرواح وأظهر العلوم على أيدى الغربيين وهم نصارى حتى إذا جاء مؤلف هذا الكتاب ونقل عن الأوروبيين ما يفيد معجزات القرآن لم يتطرّق شك العلماء فى صدق المباحث ، لأنها لو قالها المسلمون لقال الناس إنهم يريدون تأييد دينهم . أما الغربى فليس يهتمّ إلا بالحقائق ولا يبالى بدين من أديان الأرض فى جانب العلم فضلا عن الإسلام الذى لايدين له ، فانظروا أيها المسلمون ظهور هذه الآية على لسان الأرواح .

ملخص ما نقل عن الأرواح فى حال الموت فى الجمعيات النفسية

إن الناس قسمان : صالحون وفاسقون ، والموت إما فجائى وإما أن يتقدّمه مرض أوكبر فى السنّ وضعف فالموت الفجائى مزعج للنفس ، وقالوا إن الروح الإنسانية جسمين ، جسما لطيفا شفافا وجسما أرضيا وهو المعروف ، ومعنى نزع الروح أن يأخذ جسمنا الكثيف الأرضى يتخلص من الجسم اللطيف الروحى المحيط بالروح ، وكلما كان الإنسان صالحا أو مريضا أو كبيراً فى السنّ كان الانفصال أسهل ، وكلما كان الإنسان أكثر ظلما وفسوقا وحبا للمال والولد والجاه وأمور الدنيا كان الانفصال أقسى وأقوى وأصعب .

والشهوات والذنوب أكبر الدواعى للمصائب التى تحلّ بالنفس عند النزع لاسيما الذين لايقرّون بحياة أخرى فأولئك يضطربون ويقاسون عذابا لايطاق ، فإذا انفصلت الروح من الجسم وكانت مادية متكبرة جاهلة بخيلة ظالمة الخ أحست بآلام لاتطاق فرأت من هم أدنى منها منزلة صاروا أعظم منزلة وأعلى مقاما ، فيحصل هناك عذاب لايطاق وتبقى تلك الروح محوطة بغلاف ظلمانى يحجبها حتى لاتخلص إليها أحد من الأرواح العالية ليعرفها حقيقة الحياة التى وردت إليها . وأما الروح التقية الصالحة فإنها لخفتها واستعدادها للعلا تكون عند الموت مشتاقة غير مفكرة فى الدنيا بل هى فرحة مغتبطة لخلاصها من هذه الأجساد الثقيلة ، فهذه تشاهد مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ إذ تعاين هذه الكواكب والشموس وترى سكانها ونظامها وتطلع على جمال وبهاء وأنوار مدهشة حتى تسكر من تلك المناظر سكرا يغمرها سنين ، ثم إذا جاء أجلها نقلت إلى عالم لطيف شريف تزيد فيها معارف النفس وتعرف من العلوم مالايتصوّره أهل الأرض ، ثم ترتفع درجات فدرجات ألطف فألطف فألطف حتى ترى الله جل وعلا . وهذه المرتبة تحول

الأرواح عزيزة جدا ، وتكون تلك الأرواح العالية مدبرة للعوالم بإذن الله تعالى فتدبر الملك لمالها من الخبرة الواسعة والحكمة والعلم ، وليس يتولى التدبير العام إلا أرواح لاخطأ عندها ولا غلط وليس هناك اختصاص بل الأمر بالعدل . فاعجب كيف كان كلام الأرواح على يد غير المسلمين أصبح ناطقا بالقرآن ، وكيف يكون المغرم بالدنيا والمذنب فى ذهول وقت الموت لايدرى ما العمل وربما بقى كذلك سنين وهو فى عذاب لايطاق وكيف تخرج روحه على كره منه لتعلقه بهذه الدنيا ، وكيف تأتى الأرواح العالية فتلاطف الصالحين لأنه ليس حولهم حجاب يحجبهم ، وكيف تكون الأرواح الصالحة متمتعة بمحادثة الأرواح العالية لتعلمها كيف ترتقى ، وكيف يكون ذلك كله مطابقا لنص القرآن ، فقوله هنا «أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون» نطقت به الأرواح ويقول فى سورة أخرى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » أى عند الموت « أن لاتخافوا ولا تحزنوا الخ » وهذا نفسه ما تقوله الأرواح كما تقدم . وكيف يقول « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم » وقد نطقت به الأرواح أيضا . وكيف يقول « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » هو عين ما قالته الأرواح أيضا وقال « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » وفى الحديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » وفى الحديث أيضا « سترون ربكم » وفى الآية « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وبه قالت الأرواح وقال « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » بل تقول الأرواح يكون الفجار محجوبين أيضا عن الأرواح الصالحة .

والحاصل أن ما نطق به القرآن فى الآخرة نطقت به الأرواح بعد الموت باعتبار أن الموت أول منازل الآخرة وأن الحساب من يوم ساعة الموت وهذا من أعجب العجائب « والله هو الولىّ الحميد » انتهى المقصد الثانى .

(المَقْصِدُ الثَّالِثُ)

إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَىِّ ذٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

التفسير اللفظى

يقول الله إن الله يفلق الذرة والقمح والشعير والأرز وهذا هو الحبّ ، ويفلق النوى جمع نواة وهى ضدّ الحب كنوى الرطب والمشمش والخوخ وهكذا النطفة والبيضة ، ومتى فلق هذه الأنواع خرج منها نبات القمح والشعير والأرز وأشجار النخيل والمشمش والخوخ والإنسان والطائر ، وخروج النبات والشجر من الحبّ والنوى والإنسان والطائر عبارة عن حياة ، فالنبات والشجر أحياء خرجت من الأموات لأن النامى حىّ وغير النامى ظاهرا كالميت لاحسّ به ولا حركة فيما يظهر للعيون كما يخرج المؤمن من الكافر والذكى من البليد والصالح من الطالح وهكذا يخرج الحبّ والنوى والكافر والفاسق والبليد من النبات والنخل والمؤمن والصالح هذا هو قوله تعالى (إن الله فالق الحبّ والنوى) المفسر بقوله (يخرج الحىّ من الميت) ثم عطف على فالق قوله (ومخرج الميت من الحىّ ذلكم) المحيي المميت (الله) الذى يستحق العبادة (فأنى تؤفكون) تصرفون عنه . واعلم أن الناس لايرون منه إلا قليلا ، فإن ملايين من الحيوانات تعيش فى نقطة صغيرة من الماء تعلق برأس الإبرة مثلا وتنمو وتتكاثر وتموت ، كما تعيش حيوانات البرّ فى القفار وحيوانات الماء فى البحار وهى تتقاتل وتتحارب ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح لايخلو منها مستنقع وتصعد فى البخار الذى يتصاعد من الماء بحرارة الشمس وتطير فى الجوّ مع الهباء ثم تعيش وتتكاثر أينما نزلت ووافقتها الرطوبة والحرارة ، وهذه الحيوانات مع صغرها تتحجر وتصير منها طبقات متسعة من (الطباشير) فى الأرض وتربة طرابلس التى يصقل بها مؤلفة منها وكل حيوان منها فى التربة يساوى $\frac{1}{187000000}$ من القمحة والطباشير مؤلف من أصداف غاية فى الدقة كذلك ومعلوم أن لكل حيوان منها معدة ، والطعام يدور من أقنية متعددة فى جسمه وطعامها مؤلف من دقائق سائلة وجامدة مثل الإنسان والحيوان . ولاجرم أن هذه الدقائق أصغر من الحيوان المذكور ، فدقة الحيوان ودقة ما يأكله تحير العقول . ولقد جاء نبأ عن هذه الحيوانات فى ١٧ إبريل سنة ١٩٢٤ بالجرائد المصرية . ذلك أن حيوانات دقيقة كهذه ظهر منها نوعان فى أمريكا نوع منهما يأكل الأسلاك المعدنية ونوع هو دود يهدم قناة (بناما) ويسمى (الدودة الهادمة) وبالنوع الأوّل عطل خمس عدد (التليفون) فى أمريكا ، والنوع الثانى يحفر أنفاقا حقيقية تحت الأرض وقد أحدث بقناة (بناما) ضررا يقدّر بالملايين ، والدودة الواحدة تلد مليون دودة فى العام اهـ .

ولما كان النبات والشجر من نتائج الأنوار السماوية والحرارة الجوّية أتبع الكلام فيهما بذكر سببهما وأبان أنه شق عمود الصبح عن سواد الليل فتميز بنوره عن ظلمته معترضا فى الأفق الشرقى والإصباح فى الأصل مصدر أصبح إذا دخل فى الصباح سمى به الصبح ، ويصح أن يقال (فالق الإصباح) أى خالقه يقول كما شقّ النواة والحبة والبيضة والنطفة فانفلقت وخرج منها تلك الأحياء شقّ الظلمة فأخرج منها عمود الصباح فتشابه العالم العلوى والسفلى كلاهما فيه العجب نور اشتقّ من الظلام وأحياء من الأموات « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فتشابه وتشاكل الأمر ، ترى النور بهر فى السماء والحىّ ظهر فى الأرض هذا من الجماد وذاك من الظلام . ثم أكمل الكلام على العلويات فقال (وجاعل الليل سكنا) يسكن الناس والحيوان فيه من التعب الذى لاقوه فى النهار فلا يتحركون ، ومن قرأها جعل عطفها على فالق بمعنى فلق والليل مفعول لجعل أو لجاعل على القراءتين وجاعل للاستمرار فى الأزمنة المختلفة وعطف عليه قوله (والشمس والقمر حسبانا) مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان مصدر حسب بالكسر فيهما أى على أدوار مختلفة تحسب بهما الأوقات كما أوضحناه فى البقرة وآل عمران وغيرهما ، وبهذا تمّ الكلام على الأحياء والأموات فى الأرض والنور والظلمة فى السماء (ذلك) أى التسيير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) القاهر فوق عباده بحيث سيرها

على وجه مخصوص (العليم) بتدبيره وكيف رأى أن المصلحة فى هذه الدورات طولا وقصرا وظلمة وإضاءة ثم هو قاهر ومع هذا القهر لايعمل إلا الحكمة كما تقدم فى قوله « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم » فى هذا القهر (الخبير) أنه هو الأنفع لخلقه ، ياعجبا لهذه الموافقات البديعة .

ثم أخذ يشرح بقية الشموس المشرقة التى تسمى عندنا نجوما فقال (وهو الذى جعل) أى خلق (لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر) أى فى المسالك والطرق المشتبهات فى البرّ والبحر إلى حيث تريدون فترصدون تلك النجوم كالنجمة القطبية التى هى كأنها ثابتة لاتتزحزح من مكانها وهكذا النجوم الأخرى والبوصلة التى اشتملت على الإبرة المغناطيسية التى كسبت المغناطيس بالطرق المعروفة عندكم تقوم مقام النجمة القطبية إذا أظلم الجوّ بسحاب أو غيره فإنها تتجه إلى الجنوب والشمال مع بعض انحراف يتغير بقوانين مخصوصة منها تعرفون الطرق والمسالك ، فالهداية فى البرّ والهداية فى البحر إنما تكون بالنجوم أو بما يقوم مقامها .

وذلك كله بحساب، ولقد جعلت الدول الغربية كانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا معاهد خاصة لتعلم حساب هذه الكواكب حتى يعرف الربان فى وسط اللجج البحرية وظلمات الليالى وفى الطرق المشتبهات النجوم الظاهرة وبروجها ومنازلها فيرصدها ويهتدى إلى سواء السبيل .

ولما كان الأمر يعوزه علم وحكمة قال (قد فصلنا الآيات) أى بيناها وأظهرناها (لقوم يعلمون) فهؤلاء هم الذين ينتفعون بما فصلناه لأنهم به ينتفعون . وياليت شعرى كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقتسمون البحار والطرق البحرية ويختصون بعلم النجوم ويحرم المسلمون من ذلك ، كل هذا لأنهم جهلوا دينهم جهلا تاما إلا ظواهر العبادات . اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان وأنت أحكم الحاكمين فقد نصحت لهم جهدى وإنى ذاهب إليك وقد فعلت مافى طاقتى بنشر الكتب وتأليف هذا التفسير . أقول هذا وأنا موقن أن الله سينزل غضبه على من يكتم العلم بل على من يقرأ بعض هذا التفسير ولا ينصح المسلمين بالبحث فى العلوم كلها ولا ينبههم إلى الخطر الداهم .

ولما أتمّ الكلام على العلويات التى ذكرها كالسبب للسفليات أى لإحياء النبات والشجر والطير والإنسان أخذ يتمّ الكلام على علم الحياة بعد الفراغ من فهم مصدرها وسببها فشرح خلق الإنسان وخلق النبات شرحا لقوله « يخرج الحىّ من الميت » ولم يشرح إخراج الميت من الحى لأن المقام مقام ظهور وحياة لا مقام موت وخفاء وإظهار جلال القـــدرة وجمال الحكمة وعجائب الحياة وقدّم الإنسان لأنه أكمل والحيوان بعده فقال (وهوالذى أنشأكم من نفس واحدة) وهذه تقدّمت فى أوّل النساء فلكم استقرار فى الأصلاب واستيداع فى الأرحام . ولما كان خلق الجنين فى بطن أمه من أعجب العجائب كما تقدّم فى أوّل سورة آل عمران يحتاج إلى فكر دقيق يعبر عنه بالفقه قال (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بالماء (نبات كل شىء) أى نبت كل صنف من النبات وهى مع اختلافها تسقى بماء واحد وتعيش فى هواء واحد وبعضها أفضل من بعض فى الأكل (فأخرجنا منه) من النبات (خضرا) شيئا أخضر يقال أخضر وخضر كما يقال أعور وعور (نخرج منه) من الخضر (حبا متراكبا) وهو السنبل (كالمطر) بضم فسكون المسمى بالكوز فى الذرة وكسنبل القمح (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) فقنوان مبتدأ خبره من النخل ومن طلعها بدل منه يقول وقنوان دانية أى قريبة من المتناول كائنة من طلع النخل وقوله (وجنات من أعناب) عطف على نبات كل وعطف على « نبات كل شىء » قوله (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) حال من الزيتون والرمان أى بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه فى الطعم واللون والقدر والهيئة ، وترى ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرها مختلف (انظروا إلى ثمره) جمع ثمرة (إذا أثمر) أى إذا أخرج ثمره كيف يختلف زهره ولونه وأوقات طواف الحشرات على الزهرات وكيف يختلف نوع النبات باختلاف الأزهار وكيف جاء العلم الحديث بجعل مدار علم النبات

على

على أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وكانت هذه أهمّ ما قام به العلم الحديث فى النبات بحيث كان العمار فى تفصيل أنواع النبات وأجناسه وفصائله على هذه المسألة . وتعجب كيف غفل المسلمون عن هذا العلم . وكيف يقول الله « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » أى نضجه وإدراكه ، والينع فى الأصل مصدر ثم نعتت به الثمرة إذا أدركت ، وقيل ينع جمع يانع كتاجر وتجر . وفى قراءة « ينعه » بضم الياء وهى لغة فيه (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) والآيات : أى العلامات للمؤمنين فى هذا المقام لاحصر لها فهى علم النبات وما كشفه الكاشفون وما درسه الدارسون والمسلمون هم النائمون .

اللهم إنى موقن أن الإسلام سيكون فى مستقبل الزمان ، فأما اليوم فإنما هى ظواهر وقشور ، فأما الجهل فهو ضاربٌ أطنابه الآن فى بلاد الإسلام وعسى أن أمثال هذه الآراء فى الأمم الإسلامية تكون من الأسباب التى وضعها الله فى بلاد الشرق ليخرج بها إصباح الإسلام ويفلق بنوره ظلمة الجهالة الحالكة المدلهمة فنقول فالق إصباح الهدى والنور عن ظلمة الجهل والغفلة كما فلق عمود الصبح وخلصه من ظلمة الليل وكما أخرج الحىّ من الميت . اللهم إنك تخرج العالم من الجاهل والحىّ من الميت فأخرج من هذا الجيل الإسلامى النائم جيلا مستيقظا ، بل إن فى الآية دلالة على ما أقول فإن الظلام بعده النور والموت بعده الحياة فهكذا الإسلام اليوم فى نوم عميق وقد آن أوان ارتقائه وأقبل يوم إسعاده ، هذه الآية مما يشير إلى هذه المعانى ويرشدنا إلى تحقيق هذه الأمانى ، بل هذا المقام من الدلائل التى استدل بها (سقراط) على البعث والحشر فقال: كل فقر بعده غنى وكل جهل بعده علم وهكذا الأضداد يتبع بعضها بعضا . وهكذا يقول ربّ سقراط فليبشر المسلمون بإقبال الزمان وسعادة الأمم الإسلامية . أقول هذا وأنا موقن بما أقول « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » انتهى التفسير اللفظى .

لطائف

(اللطيفة الأولى) البدائع والعجائب فى قوله تعالى « إن الله فالق الحبّ والنوى » .

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « فالق الإصباح » .

(اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها » .

(اللطيفة الرابعة) فى قوله تعالى « وهو الذى أنزل من السماء ماء » .

(اللطيفة الخامسة) « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » وهناك تنظر رسم الزهرة التى جعلت مفتاح علم النبات .

اللطيفة الأولى البدائع والعجائب فى قوله تعالى « إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحىّ ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ . فالق الإصباح »

يقول الله عزّ وجل هنا « يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحى » ثم يقول « فالق الإصباح » ويقول فى سورة آل عمران « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ » فليفكر المسلمون فى هذا الاقتران كيف يقرن إخراج الحىّ من الميت والميت من الحى فى المقامين بالأضواء والأنوار ، فهناك فى آل عمران يقدّم الأضواء والأنوار على الإخراج وفى الأنعام هنا يقدّم الإخراج على الضياء . وياليت شعرى أىّ علاقة بين الضوء وبين النبات والحيوان .

عجائب النور وغرائبه

لايأبه الناس بالنور ولا بالهواء ولا يعرفون أن هذا النور الذى لاطعم له ولا وزن ولا يباع ولا يشرى ولا يخزن وإنما يرسل من الشمس والكواكب إلينا ونحن ساهون ويذهب عنا ونحن لاهون لايدرى الناس أن هذا النور هو الذى به يكون تدبير حركات النبات وحياته وحياة الحيوان .

أوّلا ماهو النور ؟ اعلم أن الأصوات التى نسمعها والنور الذى نراه لم يكونا إلا حركات ، فعدد الحركات هو الذى يجعل هذا صوتا وهذا ضوءا . أفلا تتعجب من هذه الدنيا كيف تكون الأصوات ليست شيئا سوى الحركات والأضواء ليست شيئاً سوى الحركات ، فإذا تكلم إنسان أمامنا أو حدثت حركات فى الهواء أو الماء أو الجماد فإن الهواء المحيط بنا يتموّج تموّجات كثيرة بحيث لاتزيد عن (٣٢) ألفا فى الثانية الواحدة وإذن نسمعه لحركات الهواء الحاصلة بتموّجه بما أصابه من الحركات كما يتحرّك ماء البحر بإلقاء حجر فيه وصنع دوائر تتسع كلما بعدت عن المركز وتكون أضيق كلما قربت منه هى التى تحدث الصوت وتكون عدد الحركات فى الثانية الواحدة لاتزيد عن (٣٢) ألفا تقريبا لأن الصوت إذ ذاك يكون مرتفعا جدّا ، فإذا زادت عن ذلك لم نقدر على استماعه وتكون حركات الهواء بعد ذلك لاعلم لنا بها .

وجعل العلامة (هلمهز) صوت الموسيقى (٣٨٠٠٠) اهتزازة فى الثانية وجعل أنقصها (١٦) اهتزازة ، فمتى نقصت عن ذلك لم تسمع صوت الموسيقى ، ومتى زادت الحركات عن ذلك لم تسمع شيئاً البتة ومافوق هذه الحركات فى الهواء لايدركه الناس ولا يعرفونه .

فأما حركات الأثير فلا يعرف الناس منها إلا ما وصل إلى (٤٥٨) ألف ألف ألف ألف أى ٤٥٨ تريليونا من الاهتزازات فى الثانية الواحدة ولاتزال الاهتزازات تزيد إلى غاية (٧٢٧) تريليونا فيكون اللون البنفسجى وهو آخر الألوان التى تشاهد فى قوس قزح وما عداها فهو أقلّ منه . فتبين لك بهذا أن الصوت حركات وأن الضوء حركات وكذلك الحرارة حركات ، ومقدار الأعداد فى الثانية هو الذى يعين الحرارة ويعين الضوء ويعين الصوت وأن فى العالم الذى نسكنه من الحركات التى لها نتائج مالانصل إليها ولا علم لنا بها لأن الحرارة والصوت والضوء ماهى إلا أعداد مخصوصة معلومة ، وما زاد أو نقص نجهله جهلا باتا وغاية الأمر أن الناس كشفوا أشعة رنتجن وأشعة الراديوم التى تخترق الحواجز الكثيفة فترينا ما وراءها ، وهذه الأشعة تهتز اهتزازات أسرع من الأضواء المعروفة ويجهلون ماعدا ذلك .

فنحن الآن فى جوّ من الجهالة العمياء ، فإن حواسنا لم تعرف من العوالم المحيطة بنا إلا أعدادا محدودة من الحركات وما عداها لانعرفه وهو مالايتناهى . ومن عجب أنهم أيام طبع هذا التفسير صنعوا حجرة من (السلنيوم) سلطوا عليها نور بعض الكواكب المسمى (كابيلا) وهو يبعد عنا ملايين الملايين من الكيلومترات ثم ضاعفوا التيار الكهربائى الناشئ عن وقوع النور على ذلك المعدن فتحوّل النور إلى صوت سمعوه بآذانهم فياله من حادث مزعج ، لقد أصبحت النجوم تسمع كما كانت ترى وأصبحت تناجى البشر كما يناجونها وقد أعلن فى أكاديمية العلوم الفرنسية فى أوائل هذا الشهر (إبريل سنة ١٩٢٤) أن العلماء يواصلون تجاربهم فى هذا الشأن فى معمل (الانفاليد الكيماوى) وأن هذا الكشف سيحدث انقلابا مدهشا فى العلم .

هذا تمام الكلام على تعريف الصوت وحركاته وأصواته التى لم تعلم إلا فى هذا الشهر ، فلتنظر ولتتعجب من هذا العالم الذى نعيش فيه . ضوء نراه بأبصارنا يظهر لنا العلم أنه حركات وتلك الحركات مقدّرة فى الثانية وهذا الضوء متى لامس معدنا خاصا وجعل فيه نوع من الكهرباء ظهر له صوت فكأن النجم الذى ننظره بأبصارنا يصلح أن نسمعه بآذاننا ، هذه عجائب لنفس الضوء ألا فلتتعجب لأعماله ؟ .

أعمال الضوء إدارة النظام الأرضى (علم النبات)

اعلم أن هذا الضوء الذى عرفته أنه حركات وأنه ينقلب صوتا هو المدبر والمهندس الذى يقوم بشؤون العوالم النباتية ، وهذا المهندس تحته عاملان يعملان تحت إشرافه فأحد العاملين هو الورق والثانى هو الجذور .

اعلم

اعلم أن النبات ليس له جوف لهضم غذائه ولا له قلب لإدارة سائلاته فى كل أقسامه كالحيوان ، بل يمص غذاءه من التراب بواسطة جذوره ومن الهواء بواسطة أوراقه وبالأوراق أيضا يدفع إلى الخارج ما لاينفعه . فههنا جذور تمصّ وورق وههنا ورق لإفراز ما لاينفع . إن غذاء النبات منه المائعات ومنه للوجودات الهوائية (الغازية) فأما الجامدات فلاحظّ للنبات فيها .

وفى الماء موادّ غازية ومعدنية مذوّبة فيه ، فمتى حملت الجذور الماء الذى امتصه صعد بما معه من المواد المعدنية والغازية فى أنسجة النبات إلى الأجزاء التى فوق سطح الأرض المعرّضة للهواء فيدخل الأوراق .

إيضاح هذا المقام

إنا نشاهد أن الجوّ الذى نعيش فيه يحتوى على أدخنة من الآلات البخارية ، وتلك الأدخنة أجزاء فحمية (الكربون) وهكذا كل أنفاس الإنسان والحيوان مشتملة على نوع من هذا الفحم أو (الكربون) كالذى تتنفسه الآلات البخارية بدليل أننا إذا تنفسنا فى المرآة حصل على وجهها المصقول الزجاجى طبقة تحجب عنا صورنا فيها ، وتلك الطبقة هى الفحم الخارج مع نفسنا من الرئة حينما صلح الدم فخرج ما فيه من المواد المحترقة الكربونية الخارجة من أجزاء أجسامنا كما خرجت المواد المحترقة فى الآلات البخارية من الداخن سواء بسواء . فهذا الدخان يسير فى الجوّ فيصل إلى أوراق النبات . وهذا هو الغذاء الذى يدخل فى ورق النبات فهذا هو المسمى (الحامض الكربونيك) فمتى تناوله الورق واجتمع بالماء الذى امتصته الجذور يقابلها النور فيكون منهما معا النشاء المعلوم ، والنشاء هو الذى يذوب إذا مضغت حبة قمح فى فمك فما ذاب منها فى ريقنا سميناه نشاء وما بقى لزجا سميناه (المواد الشبيهة بالزلال) ثم إن الجذور إذا امتصت أكثر مما يلزم من الموادّ المائية تحوّلت بخارا فى الأوراق وتطير فى الجوّ فتنخفض درجة الحرارة كما تنخفض درجة حرارة الماء إذا كان فى الفخار وقت الحر .

ثم إن هذا النشاء المركب من الكربون والأكسوجين والأودروجين لايتم له ذلك التركيب إلا بفعل المادّة الملونة الخضراء ، وهذه المادّة الملونة لاتتم إلا بفعل النور فيها بدليل أن الجذور لاتلوّن به لاحتجابها عن الشمس بجوهر الأرض ولابد من مادّة حديدية يمتصها النبات للمادّة الملونة ، والمادّة الملونة حينما يأخذ الورق الحامض الكربونيك من الهواء تحلل الحامض المذكور بفعل النور فتبث أحد جزءيه وهو الأكسوجين إلى الهواء وترسل الجزء الآخر وهو الكربون فى جسم النبات فيتحد مع أكسوجين الماء وأيدروجينه وهو النشاء فما النشاء المعروف الأبيض إلا ماء وفحم تركبا ثم هذا الغذاء ينبث فى أجزاء النبات فيصير قوّة له .

ثم إن هذا النشاء مع الموادّ التى منها غاز النتروجين التى تمتصها الجذور من التراب مذوبة فى الماء الجارية فى أنسجة النبات تتكوّن مواد شبيهة بالزلال يتغذى بها النبات فينمو سواء أكان عشبا أو نجما أو شجرا ويكون هذا الشبيه بالزلال مركبا مما تقدم (الكربون والأكسوجين والأيدروجين والنتروجين) ومن الكبريت ومنها المادة الغروية (أى المادة اللزجة) التى كلما زادت فى الحب كان أشدّ تغذية .

وفى النبات مواد شبيهة بالقلى وهى (المورفين والكينا) ونحو المادة الفعالة فى الشاى وفى القهوة .

ومادة السليكا أيضا وهو الصوّان ، وأما الفسفور فيدخل فى المواد الزلالية .

العجب العجاب

فانظر كيف حول النور مع ما نتج منه من المادة الملونة الكربون والماء إلى نشاء ، وهذا النشاء يسير فى الخلايا ويخزن منه فى البزور ليكون غذاء فى المستقبل ، ومنه ما يخزن فى الجذور فى زمن الشتاء ليتضح به

النبات فيما بعد وقد يتحوّل إلى سكر بفعل المادة الملونة أو إلى مادة زيتية أو دهنية كما ترى فى بزر القطن واللوز والخروع والزيتون وبزر الكتان . وفائدة هذه المواد للنبات كفائدة النشاء . واعلم أن السكر هو نفس النشاء ، فإذا أضفت إليه ماء ووضعتهما فى موضع دافئ يتحول النشاء إلى سكر فيصير السيال حلو المذاق ، وترى ذلك فى قصب السكر وعصير العنب وجذور الشمندور وفى جميع الأثمار الحلوة .

ثم انظر كيف كان هذا النشاء نفسه يقابل فى النبات أملاحا فيها النتروجين وكذلك الكبريت فتكون المواد الشبيهة بالزلال ، وذلك كله بفعل النور فلا بد من الحرارة ولابد من النور ، ذلك النور المكوّن النشاء والمواد الزلالية .

الحيوان والنبات

أفلا تعجب من هذا النظام وكيف نسير فى الضوء والهواء ونحن غافلون ؟ ياعجبا لغفلة الإنسان ! ترى الكربون فى الهواء ونستنشق الأكسوجين ولا ندرى ما فيهما من العجائب ، فهذا الكربون يخرج من الإنسان ومن الأفران ومن الآلات البخارية كما تقدّم ويذهب فى أوراق الأشجار ويحلل الأكسوجين المصاحب له ويرسل فى الهواء ليصلحه وكأن الورق هو الرئة التى خلقها الله للهواء .

فرئتنا تمتص الأكسوجين وتدخله فى أجسامنا وترسل الكربون إلى الهواء هكذا الأوراق ترسل الأكسوجين إلى الهواء والكربون إلى النبات بعكس ما تفعل رئتنا .

كيف يتكوّن الحيوان ؟

إن عظام الحيوان تكون من المواد المعدنية وعضلاته من النتروجين وهو الآزوت ودهنه من الكربون ولما ضعف الحيوان عن تناول هذه المركبات خلق النبات له حاويا تلك المواد لتكون فى بنية الحيوان .

فياعجبا كل العجب نشاء ومواد زلالية مركبات من الكربون والماء والكبريت مع مواد أخرى من الحديد والمادة الصوانية والفسفور والبوتاسا فى النباتات البرية والصودا فى النباتات البحرية والكلسيوم : أى الجبس والمورفين والكينا والاستركنين والفخسين والأتروبين وخلاصة الشاى وخلاصة البن . هذه المواد تكون فى النبات ثم تكون بنية الحيوان ، اشتراك عظيم ونظام جميل ، يارب ما أعجب هذه الدنيا وأجمل نظامها .

يا الله ! أنر بصائرنا حتى نقف على الجمال الذى أبدعته والنور الذى أنزلته ؟ يا الله ! نور فى الجوّ نزل من السماء ، نورك الجميل الذى تحوّل على بعض المعادن إلى صوت يسمعه الناس فى هذا الشهر ، وهذا النور هو الذى حوّل الفحم إلى نشاء مع الماء ثم حوّل هذا النشاء مع الأوزوت والكبريت إلى مواد زلالية ، وهذه المواد بها حياة النبات ثم هى مع مواد أخرى فى النبات يكون بها حياة الحيوان . وكيف يارب كان الفحم لنا دهنا والأملاح لنا عظاما والأوزوت لنا لحما . وكيف يصير الفحم فى أجسامنا دهنا والأملاح عظما والأوزوت لحما ؟

وكيف ترى ما تخرجه أنفاسنا راجعا إلى أجسامنا بهيئة دهن « إن ربك هو الخلاق العليم » حقا لقد حارت الأفكار فى هذه الحكم والعجائب .

أو ليس مما يدهشنا أن الورق له فعلان : فعل إدخال الكربون وفعل إخراج الأكسوجين وبخار الماء كما ترشح القربة الماء ويخرج أيضا من الفتحات الصغيرة على قفا الورقة ، وقد حسب العلماء فتحات ورقة من شجرة التيليوم فوجدت (١٫٠٠٠٫٠٠٠) فتحة . ومن فوائد هذا البخر تبريد النبات فى شدة الحرّ .

ألا ترى أن عباد الشمس يبخر كل (٢٤) ساعة نحو رطل ماء ؟ فكيف يكون مقدار ما يبخره شجر السنديان والبطم والخروب وأضرابها ؟ هذه أفعال الأوراق .

الجذور وعجائبها

أما أفعال الجذور فإنها أعجب ، فإنها تغلظ وتصير مخشوشبة وتدفع التراب عن جوانبها كما تدفعه عن أطرافها ، وهذه القوّة النامية من غرائب الدهر وعجائب البرّ والبحر . ألم تر أنها تدفع الحجارة الكبار أمامها وتهدم جدران الأبنية التى تمدّ تحتها أو بين حجارتها ؟ وفى الأقاليم الحارة الكثيرة الرطوبة يظهر فعل النبات فى خراب الأبنية أقوى من فعل الزلازل والعواصف والنيران والأمطار ، لأن هذه القوى مما لا تقدر على إزاحة حجارة مثل حجارة قلعة (بعلبك) وأهرام مصر ، وإذا وقعت خلالها بزرة تينية مثلا تنمو وتدخل خيوط جذورها فى أدق الثقوب والخلال فتزع الحجارة من مواضعها . بهذا نفهم قوله تعالى « إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحىّ من الميت ومخرج الميت من الحى » فهذا هو إخراج النبات من ماء وكربون وأزوت بفعل نور الإصباح فيها المذكور بعدها فهو يقول « يخرج الحى » كالنبات والحيوان « من الميت » وهو الكربون والأزوت والماء والأملاح « ومخرج الميت » وهى هذه العناصر « من الحىّ » وهو النبات والحيوان « ذلكم الله فأنى تؤفكون » وإذا كانت هذه المواد الميتة تصرف فيها فجعلها نباتا وحيوانا ثم حللها فتصرف فيها بالتحليل والتركيب وأنتم منها فكيف تصرفون عن تصرفه فيكم . ثم أبان ما به التصرف فى ذلك فقال « فالق الإصباح » وهذا هو مبدأ النور الذى به يكون تكوين النشاء وتكوين الزلال من تلك المواد الميتة فيكون النبات ثم الحيوان . فانظر كيف أخرج الحى من الميت والميت من الحىّ . فبمثل هذا فليفسر القرآن الحكماء وليفهم العلماء اهـ .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « فالق الإصباح »

هنا أمران يحدثان فى الأرض والشمس غائبة عنا . أحدهما يكون قبل طلوعها ، والآخر بعد غروبها فأوّل الأمرين هو الصبح وهو الضوء المنتشر قبل طلوع الشمس ، والآخر هو الباقى بعد غروبها ، وهذان الحادثان معدومان فى خط الاستواء ويبتدئ ظهورهما فى أوّل المناطق المعتدلة ، وكلما ازددنا قربا من القطبين ازداد ظهورهما ، ولذلك ترى أهل (لابونيا وسمويد وسبير) يمكثون أربعة أشهر تقريبا وهم لا يرون الشمس وإنما الشفق والفجر فى هذا الليل الطويل يضيئان عليهم إضاءة كافلة بتصرّفهم فى معايشهم واجتيازهم السهول والهضاب والجبال والفاوز والأراضى الواسعة الثلجية ، ويرى أهل تلك البلاد من الجمال والبهجة فى الجوّ من إشراق النور الفجرى والشفق ما لا يعلمه ولا يحلم به سكان المدارين أى مدار (السرطان) ومدار (الجدى) فالحكمة الإلهية لم تكمل إشراق تلك الأنوار المتلألئة الوهاجة البديعة ووصولها إلى غاية الجمال والبهاء إلا لسكان الأقطار (الجليدية) جهة القطبين فإنها تنبعث مزدانة بحلل سندسية ذهبية تدهش العقول وتحير الألباب وتفتن أولى الألباب . فانظر كيف رأينا العدل جاريا مجراه ؟ فكلما كانت الشمس أكثر إشراقا حين طلوعها . ترى فجرها وصبحها وشفقها أقلّ جمالا ، وكلما كانت الشمس أقلّ ظهورا كان الشفق والصبح مشرقين باهرين جميلين يحيران الأبصار فهذه قسمة عادلة وحكمة باهرة . فأهل السودان المصرى لم يمنحوا جمال الفجر والشفق ، ولكن أهل الأقطار (الجليدية) يرون من الجمال ما يحير الأبصار اهـ .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها »

معلوم أن بعد الأرض عن الشمس (٩٣) مليون ميل وهذه المسافة يطيرها طائر بسرعة مائة ميل فى الساعة الواحدة وهذه أعظم سرعة للطير وهى سرعة الطيارات الحربية أيضا، فهذا الطائر بهذه السرعة يصل من الأرض إلى الشمس بحيث لا يقف ولا ينام ليلا ولا نهارا صيفا وشتاء فى مدة مائة سنة وست سنوات ونحو ٧ أشهر وهذا الطائر بهذه السرعة يقطع عرض النظام الشمسى من طرف إلى طرف فى مدة (٦٣٧٢) سنة وهذه المدة يقطع فيها هذا النظام المشتمل على الشمس وسياراتها مثل (نبتون وأورانوس وزحل) الخ .

فالشمس وسياراتها التى عرفت حديثا وتقدمت فى هذا التفسير وعرضها بما ذكرناه لم تخرج عن كونها كوكبا صغيرا من مئات الملايين من الكواكب وأبعادها عظيمة جدا . وهذا الطائر يقطع مليون ميل فى ٤١٦ يوما ويقطع مليون مليون ميلا فى أكثر من مليون سنة، ومليون المليون من الأميال المذكورة ليس شيئاً مذكورا فى أبعاد النجوم ، فإن أقرب نجم إلينا من السيارات نجم يسمى ألفا فى صورة قنطورس وبعده عنا ٢٥ مليون مليون ميل ، فهذا الطائر لا يصل إليه إلا بعد ٢٥ مليون سنة ، فهذا الطائر لا يصلح أن نجعله مقدرا بطيرانه بعد الكواكب ولذلك جعلوا المقياس سير النور وهو يقطع (١٨٦٠٠٠) ميلا فى الثانية الواحدة ويصل من الشمس إلينا فى نحو ثمان دقائق وثمان ثوان لأن بعدها عنا (٥٫٨٦٥٫٤٩٦٫٠٠٠٫٠٠٠) أى نحو ستة ملايين مليون ميل ، فنجم ألفا قنطورس المذكور يبعد عنا نحو أربع سنوات نورية وربع سنة وهو يبعد عنا ٢٥ مليون مليون ميل فلا يصل نوره الخارج منه فى هذه الدقيقة إلا بعد أربع سنين وثلاثة أشهر ، وقد سافر فى كل دقيقة (١١) مليون ميل فأكثر ، وإذا أطفىء هذا الكوكب جهلنا انطفاءه مدة أربع سنين وثلاثة أشهر .

ومع هذا فذلك ليس شيئاً مذكورا فى جانب الكواكب المدهشة فى البعد جدا ، فلننس الشمس ولننس نجمة قنطورس وأمثالها ولنسر فى الفلوات والساحات الواسعة السماوية ولننظر هذا الملك المعدّ لنا لتسبح فيه أرواحنا وتطلع على العوالم الجميلة فلندرسها الآن ولنتشوّق إليها كما قال تعالى هنا « وهو الذى جعل لكم النجوم » فهناك ما بعده من (١٢٠) سنة نورية إلى (١٤٠) سنة نورية أيضا وهى نجوم الثريا وكذلك القلاص وهناك نحو (٨٠) مجموعة مثل مجموعة الثريا ومجموعة القلاص تبعد (١٣٠٠) سنة نورية ، والمسافة التى فيها هذه المجموعات السبعون تبلغ (١٠٠٫٠٠٠) مائة ألف سنة نورية ووجد بعد سديم ممسك الأعنة (٥٠٠٠) خمسة آلاف سنة نورية وسديم الدجاجة كذلك خمسة آلاف سنة نورية وسديم العقاب بعده (١٧٠٠٠) سبعة عشر ألف سنة نورية (وقطر المجرة مائة ألف سنة نورية) وبعد السديم الذى فى المرأة المسلسلة نحو (٦٠٠٫٠٠٠) ستمائة ألف سنة نورية وسديم مجلان بعده (٦٠٫٠٠٠) ستون ألف سنة نورية وهناك سديم سعته مثل سعة سديم المرأة المسلسلة يبلغ نحو عشرين مليون سنة نورية .

هذه مخلوقات نورية فى السماء لا يصل ضوؤها لنا إلا فى عشرين مليون سنة نورية ، وقد علمنا أن المسافة بيننا وبين الشمس لا تبلغ فى السير إلا مدة ثمان دقائق وثمان ثوان ، فكيف يكون ذلك البعد الشاسع وقد سار النور فيه عشرين مليون سنة ؟ وكيف تكون مقادير الكواكب البعيدة عنا ؟ لعمرى إن شمسنا بالنسبة لتلك الكواكب ذرّة صغيرة .

أقدار الكواكب

قد قسموا أقدار الكواكب إلى عشرين قسما على حسب التقسيم الحديث ، والعين ترى ستة أقدار فقط ويبلغ ما تراه بها (٦٠٠٠) نجم، وترى العين بالمنظار المعظم الذى بلورته من بوصتين إلى ثلاث (١٠٠٫٠٠٠) مائة ألف نجمة أى إلى القدر السابع عشر .

ونجوم القدر الأوّل (١٤) والثانى (٣٧) والثالث (٧٣) والرابع (١٨٩) ثم (٦٥٠) ثم (٢٢٠٠) ثم (٦٦٦٠) ثم (٢٢٥٥٠) ثم (٦٥٫٠٠٠) وهكذا إلى القدر العشرين فإنه (٧٦٫٠٠٠٫٠٠٠) .

ومجموع هذه الكواكب ٢٢٤ مليون كوكب ، وهناك كواكب أخرى لا يحصرها العدّ لم يمكن تميزها وستظهر بعد حين .

هذا ولأذكر لك آخر ما وصل إليه الناس عند طبع هذا الكتاب إذ جاء فى إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد ٨ أغسطس سنة ١٩٢٦ ما يأتى بالحرف الواحد .

قد قام أخيرا العلامة (كنوت لندمرك) بإحصاء مدهش سلم بصحته أشهر علماء الفلك وبين فيه عظم المسافات التى تفصل بيننا وبين السدم الحلزونية ؛ فالسديم (اندردميد) يبعد عنا مسافة يقطعها النور فى مليون ونصف مليون سنة (وسرعة النور ثلاثمائة ألف كيلومترا فى الثانية كما هو معلوم) وهو عظيم جدا بحيث لايقطعه النور من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر بأقل من ستين ألف سنة مما يدل على أن حجم هذا السديم لاينقص كثيرا عن حجم المجرة .

وهناك سديم آخر يعرفه علم الفلك باسم (ن . ج . ت ٤٤٨٦) يبعد عنا مسافة ثمانية ملايين سنة نورية أى أن النور يحتاج إلى هذه المدة لكى يصل إلينا منه . وبعبارة أخرى إذا انقرض هذا السديم اليوم فإننا لانعرف انقراضه ولا ينقطع نوره عنا إلا بعد ثمانية ملايين سنة .

وقد أثبت العلامة (لندمرك) أن السديم المعروف باسم (ن . ج . ت ٤٥٩٤) يبعد عن أرضنا مسافة (٥٦) مليون سنة نورية أى أننا إذا نظرنا إليه اليوم بالنظارات الكبيرة نراه كما كان قبل (٥٦) مليون سنة .

وهذه السدم العظيمة لاتعدّ شيئاً مذكورا بالنسبة إلى الكون اللامتناهى حتى إن علماءنا لم يتنزلوا إلى تسميتها والدلالة عليها بغير الأرقام اهـ .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « هو الذى أنزل من السماء ماء »

ولما كان الماء معروفا وجب أن نذكر شيئاً من عجائبه ليكون سرورا للنفس وبهجة وأنسا لقارئ التفسير تنشرح به الصدور وتقرّ به العيون فأقول :

(١) الثلج القطبى

من عجائب الماء ما يشاهد فى القطبين من الجبال المكوّنة من الثلج العائمة فوق البحر هناك نحو مترين وتحت الماء سبعة أمتار ، وقد يكون عرض تلك الجبال (٢٥) فرسخا وطولها خمسين فرسخا .

والتيارات البحرية تجذب تلك الجبال فتعوم مع مائها السريع الجريان ثم تتكسر تلك الجبال هضبات كبيرة جارية مع الماء ثم تتلاقى ويفتك الأقوى منها بالأضعف ويكسره ويفتح فيه طريقا لنفسه ، وقد تتراكم بعض القطع الثلجية فوق بعض حتى تبلغ عشرة أمتار ، وبهذه الأعمال تنشأ أشكال عجيبة بديعة المنظر جميلة الأشكال محيرة للناظرين تسرّ أولى الألباب . وهذه المناظر الجميلة أشبه بهذه الحياة الدنيا ، جميلة فى الظاهر خطرة فى الباطن . فإن السفن متى صادمتها تكسرت حالا ، وإذا احتمى الركاب بها بأن صعدوا على تلك الهضبات والآكام الثلجية ماتوا من مكابدة الجوع والبرد الشديد للهلاك .

وهناك جبال تكون فى الجزائر وفى البرّ على شاطئ البحر المحيط داخله فى الأراضى إلى مسافات بعيدة جدّا ومتى انكسرت تلك الجبال وانحدرت إلى البحر كان منها جبال ثلجية تعوم فوق ماء البحر علوها من خمسين مترا إلى ستين مترا وذلك حول (امبزبرغ) وتكون فى جون (بافين) نحو مائتى متر .

والملاحون يلجأون إلى هذه الجبال ليتخذوها حمى لهم من التيارات المهلكة لسفنهم ، ولكنها كما قال الشاعر :

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فإنها بأدنى عارض تدور عليهم فتبتلع سفنهم حالا . وهذا الثلج القطبى منه ما هو مكوّن من الماء الملح ومنه ما هو مكوّن من الماء العذب .

الثلج المسهل للسير

اعلم أن أهل بلاد (لابونيا وسيبيريا والموسكوف والاسوجيين) يكون الثلج للصقول السميك الصلب سببا فى سهولة السفر ، ويكون فصل الثلوج عندهم فصل الأعمال والربح والفائدة ، ويستحيل السير فى غير

زمن الثلج بهذه السهولة ، والثلج يمكن أن يكون مسحوقا ناعما إذا وصل إلى درجة (٥٠) تحت الصفر وهو دائما في حجمه تزيد عن الماء جزءا من (١٤) جزءا ، ثم الأحوال التي تقتضي تكوين الثلج توجد دائما في أعالي الجو فوق رؤوسنا وفوق الجبال الشامخات ، وكذلك في جهة القطبين فهو يكون على ارتفاع (١٢٩٢٠) مترا تقريبا في درجة (١) شمالا وفي درجة (١٨و١٩) شمالا يكون على ارتفاع (٤٧٠٠) مترا تقريبا وفي عرض ٣٠ إلى ٣١ شمالا ترى مهابط جبال هيمالايا الشمالية يكون الثلج فيها على ارتفاع (٥٢١٠) مترا ويكون في مهابطها الجنوبية على ارتفاع (٣٩٠٠) وفي درجة (٦١) شمالا في بلاد (النرويج) يكون على ارتفاع (١٧٠٠) متر، فأما في القطبين فإنه يكون الثلج جبالا فوق الأرض .

وملخص ما تقدم أن الثلج يكون دائما لاينقطع صيفا وشتاء في القطبين فوق الأرض ولا يزال يرتفع مكانه منهما إلى خط الاستواء إلى أن يصل إلى ارتفاع نحو (١٣) ألف متر عند قرب خط الاستواء فما فوق ذلك القوس المختلف الارتفاع من خط الاستواء إلى القطبين تكون الثلوج دائمة فوق الجبال وفوق رؤوسنا ويشير لهذا قوله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء » فذكر الجبال هنا لم يكن معروفا عند الأمم العربية إذ ذاك ، واتساع العلم أرانا أن جبال الجليد والثلج دائمة في تلك المحال العالية ، والعلم اليوم هو معجزة القرآن وهذا هو قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقوله « والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » ولعل الكتاب أعم من كتب اليهود والنصارى بل يشمل العلوم الحقيقية الكونية . ومتى انتشر هذا التفسير وأمثاله سيسارع الفلاسفة وعلماء الطبيعة للإسلام بسبب علمهم بكتب الحقائق الطبيعية والكونية الموافقة كلها لدين الإسلام .

وفي بعض البلاد الثلجية يختفي النبات ما دام الثلج ، فإذا استهل فصل الربيع ذابت الثلوج واستيقظت تلك النباتات بعد موتها حتى تصل إلى غايتها في أسرع وقت ، فهو كالمسلمين الذين ناموا قرونا تحت ثلج الجهالة واحتلال أوروبا لهم حتى إذا قرءوا أمثال هذا التفسير وعرفوا من النابغين في مصر والشام والهند والمغرب من فحول العلماء أن ديننا هو دين العلوم استيقظوا في أقرب وقت سريعا كما استيقظ النبات الذي كان تحت الثلج وازدانت به الأرض وأخذت زخرفها وازينت للناظرين .

(٢) ألوان ماء البحر

اعلم أن الله كما خصص البلاد القطبية بإشراق الفجر والشفق وجمال المناظر الثلجية ومناظر الفجر والشفق والجمال البديع وحرم من ذلك الجمال سكان ما بين المدارين، أراد الله سبحانه أن يعطيهم جمالا بدل مافقدوه؛ ذلك أن السفن وهي تمر في البحر ترسم نهرا من نار على مستوى السائل يحصل من جانبيه أمواج يتقدح منها سيول ضوئية فترى المياه على أبعد من مد البصر تضاهي السماء المزينة بالنجوم الكثيرة المضيئة ذات الشرر اللامع، وترى هناك ما يحاكي النجوم الثوابت في السماء، وما يشبه ذوات الأذناب الضالة في الفراغ ، ثم تنقطع هذه الحركة زمنا ما فتكون ظلمة ثم تلمع تلك الكتل الضوئية وتتشتت من جميع الجهات فيكون منها سهل واسع من نار مهول لعظم سعته .

وإذا هبت الرياح أحدثت في الأمواج اضطرابا وتكون هناك أفانين الصور وأعاجيب الجمال الباهرات فتعلو الأمواج الضوئية ثم تتكسر وتصير على هيئة زبد مضيء متشكل بأشكال كثيرة من أقواس قزح ، وهذا الحادث ناتج من الفسفور المتحلل من الحيوانات الرخوة والحيوانات النباتية التي تسميها الفرنجة (ز.وفيت) وهي تكون في البحور الاستوائية أكثر منها في الأقطار المعتدلة والباردة والفسفور في تلك الحيوانات طبيعي كما أنه كذلك في كثير من الحشرات .

(٣) المياه المعدنية

المياه المعدنية هي التي تحتوي على موادّ غريبة بحيث تكون ذات طعم ويكون لها فعل مؤثر في الجسم الحيواني وقد وجدوا في تلك المياه الأصناف الآتية :

الكبريت والصودا والنوشادر والجير والمغنيسيا والألومين والبوتاسا والصوان والكلور والكربون والنحاس والحديد . وهذه المعادن متحدة مثل الحمض الكربوني والحمض الكبريتي وما أشبه ذلك . ومن هذه المياه ماله تأثير عظيم ، وقد قسموا هذا إلى أربعة أقسام رئيسية ، وهي :

(١) مياه كبريتية . (٢) مياه غازية أو محمضة . (٣) مياه حديدية . (٤) مياه ملحية .

وهناك مياه معدنية سمية ذاب فيها الزرنيخ أو الزئبق وهذه متى عرفت يبادر الناس بردمها حالا .

وهناك أيضا مياه صوّانية قد حملت مواد الصوّان فإذا لامستها الأجسام الحيوانية والنباتية نفذت إلى باطنها وتفرّقت في هياكلها واتحدت بأجزائها اتحادا تاما فيصبح الجسم كالحجر وتسمى هذه بالمياه المحجرة وهي نادرة الوجود في العالم .

فانظر كيف كان الماء جبالا وأنوارا وجمالا في القطبين ثم هو سماء زينت للناظرين وجمال يبهر العاقلين وكواكب أشرقت على السافرين وفيه قوس قزح والنجوم ذوات الأذناب وسهول مشرقات وغياض ناضرات وبهجات أعدّت للسافرين ونور وجمال وأنس للصادرين والواردين ثم يكون مما للشاربين وشفاء للمستشفين ولذة للشاربين وأنهارا وخلجانا للزارعين وسحبا وبردا وثلجا للناس أجمعين .

اللطيفة الخامسة « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه »

هذه الآية أصل عظيم في علم النبات ، فإن النظر إلى الثمر وزهره هو الذي أنتج علم النبات كله وذلك لم يتم إلا في القرون المتأخرة على يد الأوروبيين . ذلك أن آباءنا وأسلافهم اليونان كان علمهم بالنبات أقلّ مما جاء في العصر الحاضر بالكشف وكانوا يقسمون النبات إلى أشكال مختلفة باعتبارات شتى ولكن لم يقسموه باعتبار الثمر والذي اعتبر أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث محلا للتقسيم هم أهل أوروبا وذلك من معنى قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » فالنظر إلى الثمر وزهره أنتج التقسيم .

واعلم أن الزهرة كزهرة القطن مثلا يكون لها غلاف على لون الخضرة كلون الورق ويسمى هذا عند علماء النبات (كأسا) وغلاف في داخله ملون باللون الأصفر أو الأبيض أو الأحمر ويسمى (تويجا) تصغير تاج فكأنه لجماله تاج للملوك ، وفي داخل هذين الغلافين يكون التزاوج بين الذكران والإناث كما يكون بين الزوجين في أنواع الحيوان والإنسان سواء بسواء . وترى في هذه الزهرة وفي غيرها كرات صغيرة ناعمة مستعدّة لتصير بزرا متى لقحت كما جعل الله للإناث من أنواع الحيوان مواد فيها تنقلب حيوانا متى حصل اقتراب الذكران من الإناث ، وهذه الكرات دائما تكون في مركز الزهرة وهذا هو عضو التأنيث ويسمى عندهم (بالبستيل) وهذا البستيل عبارة عن ثلاثة أقسام :

(١) المبيض وهو في القاعدة وفيه الأصول الحلقية القابلة للنموّ وهو كالرحم والمبيض في الحيوان ، وقد يكون ذا مسكن أو عدّة مساكن .

(٢) وأنبوبة شعرية فيها بعض طول .

(٣) والجزء العلوي وهو كفم لتلك الأنبوبة وذلك الفم هو الذي يقبل اللقح من عضو التذكير ويوصله إلى المبيض بواسطة الأنبوبة المذكورة .

وترى في هذه الزهرة القطنية وغيرها أيضا عضوا أو أعضاء أخرى محيطة بذلك (البستيل) أي عضو التأنيث وتكون غالبا بينه وبين التويج ، فإذا نظرت زهرة القطن مثلا فأوّل ما يلقاك كأسها ثم تويجها

ثم عضو التذكير ، وفى الوسط تماما عضو التأنيث الذى استعد لاستقبال اللقح من عضو التذكير الذى أحاط به التويج ، فتلك الورقات الجميلة الزهرية الملوّنة باللون البهيج فى مختلف النبات كأنها هيئة العرس والأفراح التى يقيمها الناس وملابس الزوج والزوجة أيام الزفاف مع الروائح العطرية التى تبهج القلوب وتشرح الصدور فهذه التى يصنعها الناس عادة ويزينون العروس بالبهجة والنضارة قد خلقها الله للذكر والأنثى من النبات وجعلهما فى حلتين جميلتين ؛ إحداهما ملونة بأجمل الألوان وأبهاها وأحسنها وأجلاها وهناك الروائح العطرية البهجة . وترى الحشرات طائفات يغنين كأنهن الموسيق تصدح والمغنيات يزففن العروس إلى بعلها والنسمات مطربات يرفرفن بالورق وتسمع حفيف الأشجار وتغريد الأطيار ، وترى بهجة النجوم ونور الشمس المشرق والجمال والبهاء ، وكأن الدنيا فى عرس وليس فى مأتم إلا الإنسان فى أوربا وآسيا وأمريكا ، فهؤلاء هم المقتتلون المتشاكسون المحجوب أكثرهم عن هذا الجمال بالجهالة الشنعاء والحياة البلهاء .

وعضو التذكير المذكور عبارة عن رأس مرتفع على حامل له وعلى الرأس المذكور غبار وهو ما يحصل به الإلقاح . وأعضاء التذكير غالبا تكون بحسب عدد أقسام التويج ، وهذه الأعضاء إن ساوت عدد أقسام التويج كما هو الغالب فإنها تكون موضوعة بين أجزاء التويج بإزاء أقسام الكأس وإن كانت أعضاء التذكير ضعف أقسام التويج الملونة المذكورة كان نصف أعضاء التذكير موضوعا بإزاء أقسام التويج والنصف الثانى بإزاء أقسام الكأس .

وعضو التذكير إما واحد أو أكثر فيكون ذا ستة كالأرز أو عشرة كالترمس واللوبيا والفول وهكذا ، وعلى ذلك يقال زهر أحادى أعضاء التذكير وثنائيها وثلاثيها إلى العشرين وبعد العشرين يقال كثيرها .

والنبات إن اشتمل على أعضاء التذكير فقط سمى ذكرا ، وإن اشتمل على أعضاء التأنيث فقط سمى أنثى ، وإن اشتمل عليهما معا سمى خنثى كالداتورة والبنج وغيرهما .

ويقال أيضا إذا كانت أعضاء التذكير والتأنيث فى نبات واحد كما فى الخروع وفصيلة القرع سمى ذا المسكن وإن كانت أعضاء التذكير فى نبات وأعضاء التأنيث فى آخر سمى ذا المسكنين كالنخل ، وإن كانت أعضاء التأنيث والتذكير والخناثى معا فى نبات واحد كما فى الخرنوب والسنط والتين سمى (مزاوجا) اهـ .

عجائب البزر

قد يكون الثمر بزرة واحدة فيقال أحادى البزر ، أو بزرتان فيقال ثنائى البزر وهكذا إلى عشارى البزر ثم ما زاد عن العشرة إلى نحو (٥٠) يقال له قليل البزر ، وما زاد على ذلك إلى نحو المئات والألوف يسمى كثير البزر . ويخرج من ساق الذرة المسماة (بالعويجة) نحو ألفى حبة ، ومن عباد الشمس نحو (٤) آلاف حبة ، ومن رأس الخشخاش نحو (٣٢) ألف بزرة ، ومن ساق نبات الدخان (٣٣٠) ألف بزرة ، وشاهد العلم (دوهامين) حبة شعير نبت منها (١٥٠) سنبلة تحصل من مجموعها (٣٢٠٠) حبة وشاهد العلم (فلينيو) حبة (زمير) نبت منها (٣٤٠) ساقا لكل ساق سنبلة .

والعلماء يقسمون النبات باعتبار أعضاء التذكير أو أعضاء التأنيث أو البزور وهكذا . فانظر كيف دار علم العلماء فى عصرنا الحاضر حول ثمر النبات من زهره وبزوره لمعرفة علمه ومنافعه .

كل هذا والمسلمون نائمون لايدرون ماذا خلق الله فى النبات ولا بماذا تعرف أقسامه ولا أىّ الطرق تسلك فى معرفة أنواعه وأصنافه . فلا عجب إذا ملك الفرنجة أكثر بلاد الإسلام ، لأن الله لايسلم أرضه إلا للعاملين فيها ، ولا يخرج نباته إلا للذين يفقهون ويعقلون وينظرون « إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ويعرفون آيات ربهم ويؤمنون بها ، بمثل هذا يكون الإيمان ، وبمثل هذا يكون الإسلام .

أيها المسلمون . ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله وما نزل من الحق وأن تدرسوا النبات الذى خلقه الله لكم ؟ وكيف يقول لكم « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » وأنتم مغمضون ؟ وكيف تنظر أوروبا وأنتم لاتنظرون ؟ أف لكم أيها المسلمون عار عليكم . ولعلكم تقولون إن الصحابة لم يدرسوا هذه العلوم ! أقول لكم مالكم وما للصحابة رضى الله عنهم ، ولو كانت هذه العلوم فى زمانهم لكانوا أسبق الأمم لها كما سبقوها بالفتوحات ، ولكن القرآن جاء للناس جيلا بعد جيل وهاهو ذا الوقت الذى استأهل لتلك العلوم ، فلتبين للناس مقاصد القرآن فيها ولنحث المسلمين عليها . ولنبين لهم أيضا أن الله يغضب على الأمم التى تجهلها ، يغضب عليها لأنها لم تنظر وبعبارة أخرى أنها كفرت النعمة ولم تشكرها ؛ أعطانا بلادا زراعية خصبة ونعما عظيمة فأغمضنا الأعين عنها . ياعجبا ! أيها المسلمون كان علينا أن نعرف هذه النباتات وننظر لثمرها ولو لم يكن عندنا دين بل كان العقل يدل عليها ، فكيف بنا وقد جاء الدين فطلبها ؟ دين وعقل معا يطلبان هذه العلوم ، فكيف أعمنا عقولنا وديننا ؟ أفلا يغضب ربنا على الكافرين بنعمه ؟ المغمضين الأعين عن موائده التى نصبها ، ونعمه التى نشرها ، وهو الذى يقول « لئن شكرتم لأزيدنكم » وهذا هو الشكر الفعلى لا الشكر اللفظى الذى يتلهى به الجهلاء وصغار العلماء « والله هو الولىّ الحميد » .

هنالك قال لى صاحبى : كيف تقول إن المسلمين يجهلون هذه العلوم وبين يدىّ كتاب مصرى ألف أيام المغفور له محمد على باشا بمصر وفيه أنّ المعلم (لينيو) جعل أعضاء التذكير أساسا لتقسيم النبات والمعلم (تورنيفو) جعل التقسيم على صفات التويج والثمر ومدة حياة الجذع وفيه أن (لينيو) لم يفرق بين الأشجار والحشائش وأن الزهر يكون خنثى وأنثى وذكرا ، وأن الزهر سواء أكان ذكرا أو أنثى إما أن يكون ذا مسكن أو مسكنين أو كثير المساكن فقسم النبات إلى (٢٤) رتبة وكل رتبة تحتها أجناس عالية ، والأجناس العالية التى يسمى الواحد منها جنس الأجناس أيضا تحت كل جنس منها أجناس وتحت الأجناس أنواع وتحت الأنواع أفراد .

أما المعلم (جوسيو) فقد قسم النبات إلى قسمين عظيمين (الأوّل) يشتمل على النباتات التى لابزر لها . (الثانى) يشتمل على النباتات البزرية أو الفلقية ، والقسم الثانى يشتمل على النباتات البزرية ذات الفلقة الواحدة وعلى النباتات البزرية ذات الفلقتين .

فأما القسم الأوّل من القسمين العظيمين فهى كالحشيش البحرى ونحوه فإنه له حبوب صغيرة جدّا .

وأما القسم الثانى من القسمين العظيمين فإن ماكان منه ذا فلقة واحدة فهو كالنرجس والبصل والقلقاس والزنبق ، وقد تكون أزهار هذا القسم مجتمعة فى طرف الجذع ، وأعضاء التذكير قد تكون (٣) أو (٦) ويندر أن يكون واحدا ، وأوراق هذا القسم يكون طولها أكبر من عرضها كالنخل وبزرته منحصرة فى جسم واحد فلق .

فأما النوع الثانى منه وهو ذو الفلقتين فبزرته تكون منحصرة فى جسمين فلقين لحمين ، وهذا القسم يكون له كأس وتويج وأعضاء التذكير تكون خمسة فأكثر إلى مائة .

وهذه نبذة مختصرة من الأوصاف التى فى الكتاب المشار إليه فبأدنى التفاتة يعرف الإنسان النبات ذا الفلقة الواحدة والنبات ذا الفلقتين ، فكيف تقول إن المسلمين مقصرون فى هذه العلوم ؟ قلت له هذا أكبر دليل على التقصير فإنه نقل عن الفرنجة أيضا ، نعم هذا العلم كان يدرس فى مصر ولكن ليس ذلك باعتبار أن الدين يطلبه ، وكان على علماء الدين أن يفهموا الأمّة أن هذا العلم مطلوب كالصلاة والزكاة والصيام والحج وأن قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » يوجب هذا العلم فى الإسلام الذى يبلغ (٣٥٠)

مليون نفس أو أكثر ، وهذا هو الذى يجب على علماء الإسلام فى مستقبل الزمان « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .



(رسم الزهرة — شكل ٥)

فى هذا الشكل ترى الزهرة فترى لها الكأس الذى تقدّم ذكره المسمى باللسان النباتى (سبلا) وهو الذى تراه أخضر فوق الأوراق الملونة . وترى أوراق التويج وهى الملونة المسماة (بتيلا) أو (بتلا) وترى الوسط مؤلفا من خيوط قائمة منتهية بانتفاخات عليها غبار أصفر ، فالخيوط اسمها (أسدية) جمع سداة ، والانتفاخ اسمه (الانثير) والغبار اسمه (البلن) أو (الطلع) وفى مركز الزهرة نتوء بارز اسمه (المدقة) ينشأ من قاعدة الزهرة أو تحتها ، وللدقة ثلاثة أقسام سفلى وهى قاعدتها ويقال لها المبيض ، وعلوى وهو رأسها ويسمونه (السمه) وما بينهما يسمونه (القلم) والأسدية أعضاء التذكير والدقات أعضاء التأنيث وواسطة التلقيح البلن وهو القاح يقع من الانثير على السمة فى أعلى المدقة فيلقح بذورها فى المبيض بأسفل المدقة . ثم إن اختلاف المدقات والأسديات والسبلات والبتلات : أى أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير وأوراق الكأس وأوراق التويج أفرادا وأزواجا وقلة وكثرة ووضعا واختلافا واتفاقا .

أقول إن هذا الاختلاف به يمتاز النبات وبه تمايز جميع النباتات التى تعدّ بالمئات ، إذن الزهرة مفتاح علم النبات ، مفتاح ذو سنّ واحدة وسنين وثلاث وما فوقها . هذا هو مفتاح علم النبات الذى يشير له قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » وقد ذكرها مرتين فى هذه السورة ، وهـــذا سرّ من أسرار القرآن .

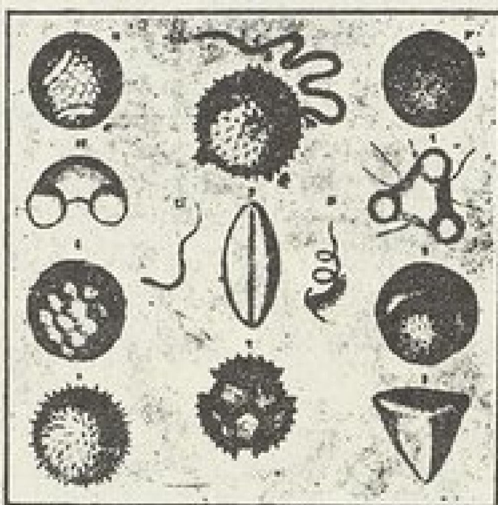
أمر الله المسلمين بالنظر إلى الثمر ، والنظر إلى الثمر يطلب النظر إلى الزهر الذى هو أصله ؛ فهذا مفتاح آخر للعلوم لامفتاح علوم العربية ، فهذا مفتاح أيضا من مفاتيح العلوم ، أما الله فعنده مفاتح الغيب وهذه مفاتح العلوم ألقاها إلينا امتحانا واختبارا .

أشكال هندسية فى الطلع المخلوق فى الأزهار

ذكرنا فيما تقدّم أن الغبار الذى يسمونه (البلن) هو الذى به يكون لقح الإناث فى الزهرة وهى السمة التى فى أعلى المدقة ثم ينزل ذلك الغبار إلى المبيض بأسفل المدقة وهناك يكون الثمر الذى أمرنا بالنظر إليه .

إن من ينظر لهذا الغبار يظنه لاشكل له بل هو كالدقيق ، ولكن العلماء وجدوا بالبحث بالآلة المعظمة (المكرسكوب) أنه على أشكال هندسية جميلة مختلفة باختلاف النبات ، بل أشكاله جعلت قاعدة لتقسيم النبات أيضا .

أنواع البلن وأشكاله



(رسم البلن — شكل ٦)

(المَقْصِدُ الرَّابِعُ)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا

إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن
يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون * وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس
والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم
وما يفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم
مقترفون * أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين
آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين *
وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم * وإن تطع
أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون *
إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * فكلوا مما ذكر اسم
الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين * وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه
وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم
بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين * وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون
الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون * ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه
لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون.
أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس
بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا في كل قرية
أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم
آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته
سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد
الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا
كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط
ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون * لهم دار السلام عند ربهم وهو

وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ
وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ
النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَاشَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ *
وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَايَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ
مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَاقَوْمِ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ
لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *

التفسير اللفظى

يقول الله ها أنتم أولاء قد رأيتم النبات واختلافه بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وأن منه الذكور ومنه الإناث ومنه الخنائى ، ومن هذا كان تقسيم النبات إلى رتب وأجناس عالية وأجناس ثم أنواع ثم أفراد فأنا للمتنوّع والخالق للذكران والإناث فكيف تقولون إن لى بنات والذى يلد إنما هو المخلوقات لا الخالق؛ فالمخلوقات متنوّعات والخالق لايتنوّع ولا يتغير . فكيف يقول العرب إن للملائكة بنات الله فيعبدونها . ويقول اليهود عزيرابن الله ، والنصارى المسيح ابن الله . وكيف تجعلون لمن ينظم هذه المخلوقات من الأضواء والظلمات والنجوم والنبات والحيوان كما فى الآيات السابقة شركاء؛ فيقول الصابئون منكم أيها الناس نعبد الملائكة ويعبد جهلة العرب وغيرهم من الصابئين المتأخرين الأصنام بوسوسة الشيطان لهم ، وإذا أنتم اتبعتموه فى وسوسته فقد أشركتم الشيطان مع الله ، وكيف يقول الثانوية منكم إن الله يخلق الخير والشيطان يخلق الشرّ وأنتم إذا فكرتم فيما ذكرنا فى الآيات السابقة علمتم أن الخير والشر من لامن خلق وهذا هو قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجنّ) لله شركاء هما مفعولا جعلوا والجنّ بدل من شركاء والجنّ يشمل الملائكة لاجتنانهم : أى استتارهم وهذا يشمل آراء الصابئين فى عبادة الملائكة والعرب فى قولهم إنهم بنات الله . والثانوية فى أن الشيطان يخلق الشر الخ ما تقدّم (و) قد (خلقهم) وهل من يخلق كمن لايخلق (وخرقوا) افتعلوا وافتروا (له بنين وبنات) فالبنون عند اليهود والنصارى ، والبنات عند العرب (بغير علم) من غير أن يعلموا . وهنا أخذ يؤكد الحجة ثانيا فقال (سبحانه وتعالى) تنزيها له وتعالى (عما يصفون) أى مما يصفونه به من الكذب والافتراء ، وكيف يصفونه بذلك وهو (بديع السموات والأرض) مكونهما على غير مثال سبق (أنى يكون له ولد) أى من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) يكون منها الولد (وخلق كل شئ

وهو بكل شئ عليم) وإذا خلق كل شئ فهو الذى نوّعه وشكله إلى ذكر وأنثى ويتفرّع منهما فروع كثيرة والإله يستحيل عليه التكثر ومن ذا الذى يحكم عليه بهذا التنوّع والولادة ، ثم إن الولد يقوم مقام الأب عند فقده ويكون قائما مقامه ، فالحاجة هى التى أوجبت الولد والله دائم فكيف يحتاج إلى الولد ، وأيضا إنه يعلم كل شئ فهو ينوّعه ذكرا وأنثى ويحكم عليه بذلك ولا حكم لأحد على الله ولا يحيطون به علما (ذلكم) الموصوف بما سبق (الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ) هذه أخبار بعضها بعد بعض ، وإذا كان متصفا بهذه الصفات (فاعبدوه) ولا تعبدوا الشيطان والأصنام والملائكة (وهو على كل شئ وكيل) أى متولى أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربكم (لاتدركه الأبصار) المركبة من موادّ أرضية لأن الله ليس مادّة ولا جسما وأبصاركم وأبصار الحيوان قاصرة على رؤية الأجسام وإنما ترونه بعيون غير جسمية إذا صفت نفوسكم ولطفت عقولكم وتأهلتم لرؤيته بتلك العيون التى لم تخلق ، وإذا كان الجنّ والشياطين لاترونهم وللملك إذا نزل إليكم كما فى أوّل السورة ينزل فى صورة رجل قال تعالى «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » فالله أجلّ من الملائكة فهو أولى وأحقّ ألا يرى بأبصاركم ، وإذا كانت الجنّ جاء فيها أنهم يرونكم من حيث لاترونهم فبالأولى يكون الله عز وجل خالق الجنّ وخالق الملائكة وقد جاء فى الكشف الحديث كما ذكرناه أوّل السورة ما يناسب هذا وأن الأرواح الملكية والشيطانية لاترى إلا إذا استعارت من جسم الوسيط موادّه فظهرت بهيئة الروح التى كانت عليها فى الدنيا (وهو يدرك الأبصار) ويحيط بها علما كما يحيط بكل شئ (وهو اللطيف) فلا تدركه الأبصار (الخبير) فيدرك الأبصار . ولما كان هذا المقام أدلته علمية طبيعية وقد استوفى البحث فيه أعقبه بقوله (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع بصيرة وهى للنفس كالبصر للبدن (فمن أبصر) الحق فآمن به (فلنفسه) أبصر (ومن عمى) جهل (فعليها) على نفسه عمى (وما أنا عليكم بحفيظ) برقيب أحصى أعمالكم وأفعالكم وما أنا إلا رسول . ولما كان من عادة القرآن أن المقام إذا كان مستوفى البيان أعقبه بما يدل عليه قال (وكذلك نصرّف الآيات) أى ونفصل الآيات فى كل وجه كما صرفناها وبيناها من قبل لتلزمهم الحجة (وليقولوا درست) اللام هنا لام العاقبة : أى ليقولوا قرأت على غيرك ، يقال درس الكتاب إذا أكثر قراءته . وكان أهل مكة يقولون تعلمت من يسار وجبر ـ وكانا عبدين من بنى الروم ـ ثم قرأت علينا تزعم أنه من عندالله ، أوتعلمت من اليهود . ولما كان القرآن نزل ليضلّ به كثير ويهتدى كثير وقد ضلّ من قالوا درست أعقبه بالمهتدين به فعطف على قوله : « وليقولوا درست » قوله (ولنبينه لقوم يعلمون) أى لنبين الآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوما وملخصه أنه يضلّ به قوم ويهتدى به آخرون، ثم قال (اتبع ماأوحى إليك من ربك) بالتدين به (لا إله إلا هو) جملة اعتراضية (وأعرض عن المشركين) ولا تلتفت إلى آرائهم إلى أن يأتى لك الأمر بالقتال . ولما كان دين الإسلام من قواعده الإيمان بالقضاء خيره وشره من الله مع وجوب استعمال العقل فى جميع الأحوال الممكنة تمرينا للنفس لتعرج إلى عالم القدس وكان من فضائل هذه العقيدة أنه إذا تعسر أمر ولم نجد حيلة لتحصيله فوّضنا الأمر إلى الله لتستريح النفس وتجدّ فيما تقدر عليه ولا تتقطع أسفا وحسرة على تفريطها وهى غير قادرة على شئ أردفه بما يسهل الأمر على رسوله تسلية له فقال (ولو شاء الله ما أشركوا) فلا تحزن عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظا) رقيبا (وما أنت عليهم بوكيل) تقوم بأمرهم . ولما كان من الإعراض عنهم أن لايسبوا آلهتهم قال تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) أى لاتذكروا آلهتهم التى يعبدونها بما فيها من القبائح (فيسبوا الله عدوا) تجاوزا عن الحق إلى الباطل (بغير علم) على جهالة ؛ وقد كان المسلمون فى صدر الإسلام يسبون الأصنام ، وكان الكفار يردّون عليهم فنهاهم الله عن ذلك وهم ضعفاء ،

وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدّت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدى إلى الشر شر، وكما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر على حسب استعدادهم لأننا وضعنا كل أناس فى مراتبهم التى يستحقونها ، فإذا كفر قوم ونحن أردنا ذلك فما كان كفرهم الذى أردناه ظلما لأننا نظمنا الملك وجعلنا فيه درجات كالحيوانات والنبات وهى درجات بعضها فوق بعض . هكذا هؤلاء كفروا لأنهم لم يصلوا للاستعداد لتلقى الإيمان كما لم تصل البهائم لدرجات الإنسانية ولم تصل الأطفال لدرجات الرجال فلو كان كفرهم ظلما منا لكان أغلب أعمالنا ظلما فلا يكون فى الأرض حيوان ولا نبات ولاصبيان ولا عصاة بحجة أن غيرها أفضل منها وهذا هو قوله (كذلك زينا لكل أمة عملهم) وعلى ذلك يجعلهم بعد الحياة فى المراكز التى استعدّوا لها (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) ولما كانت منزلة هؤلاء لاتسمح لهم بالتعقل والكبرياء حجاب مانع لهم من الفهم اقترحوا عليك الآيات وخوارق العادات وقالوا لك اجعل لنا الصفا ذهبا وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدون لك عيانا فنزلت الآية الآتية قائلة إن الآيات التى كانت تنزل على الأنبياء السابقين كعيسى وموسى من ضرب الحجر بالعصا فينبع ماء وإحياء الموتى وما أشبه ذلك لا يرقى العقول الإنسانية ولا يرفع الإنسانية إلا التعقل والتفكر كما أنزلنا فى هذا القرآن وهذه الأمم كانوا بعد الإيمان يرتدون إذا شاهدوا ماهو حسن فى نظر أعينهم . فأما العقل فهو المرشد الحكيم كما حصل فى سحرة فرعون إذ آمنوا بموسى لما عرفوا أن عمله فوق طاقتهم . فأما الجهلة وهم بنو إسرائيل فإنهم لما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم قالوا : ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . فهكذا هنا إذا أنزلنا آيات كهذه لاتنفعهم وإنما نريد أن نجعلهم علماء لايرتدون عن دينهم متى شهدت عقولهم كسحرة فرعون وهذا هو قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أى جاهدين فى الإتيان بأوكد الأيمان (لئن جاءتهم آية) مما اقترحوه (ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله) هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شئ منها بقدرتى والله منعها عنكم حتى يكون إيمان من يؤمن مبنيا على العقل لاعلى حاسة البصر (وما يشعركم) أى وما يدريكم استفهام إنكار (أنها) أى الآيات المقترحة (إذا جاءت لايؤمنون) بها كما حصل فى الأمم السابقة كما فى سورة أخرى « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » (ونقلب أفئدتهم) عطف على لايؤمنون : أى وما يشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه (وأبصارهم) فلا يبصرونه ، فلا يؤمنون بها (كما لم يؤمنوا به) أى بما أنزل من الآيات (أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وندعهم متحيرين لانهديهم هداية المؤمنين لأننا وضعناهم فى مرتبتهم فلا يتجاوزونها (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) كما اقترحوا فقالوا « لولا أنزل علينا الملائكة » وقالوا « فأتوا بآبائنا » (وحشرنا عليهم كل شئ قبلا) أى وجمعنا عليهم كل شئ من الطيور والدواب مقابلة ومواجهة أو قبيلة قبيلة . وقرئ « قبيلا » أى كفيلا بما بشروا به وما أنذروا به (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) إيمانهم لأن المدار على الاستعداد، وأيضا الأمور المحسوسة لاثبات لها بخلاف العقلية (ولكن أكثرهم يجهلون) مثل هذه الحكم فلايعلمون أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لايشعرون وهذا على حسب الاستعداد .

ثم أخذ يعزى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أصاب الرسل فقال (وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا) من المجرمين : أى كما جعلنا لك هؤلاء أعداء جعلنا لكلّ نبىّ سبقك عدوّا لأن هذه الدار دار جهاد وعلى مقدار الصبر يكون الارتقاء فلا داعى إلا ناله من الأذى على مقدار مقامه فى العمل والدعوة، ثم أبدل من قوله عدوّا (شياطين الإنس والجنّ) أى مردة الفريقين (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول) يوسوس بعض الإنس إلى بعض وبعض الجنّ إلى الجنّ وإلى الإنس الأباطيل المموهة من زخرفه إذا زينه (غرورا) أى لأجل الغرور (ولوشاء ربك) إيمانهم (ما فعلوه) أى ما فعلوا معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف وإنما كان

الشياطين من الجن ومن الإنس مدفوعين إلى ذلك بعوامل الفطر المغروسة فيهم . ولا ريب أن الأرواح الشريرة تسمع ما يقول الناس فى هذه الدنيا، وقد جاء فى علم الأرواح حديثا أن الأرواح البشرية الناقصة التى هى أشبه بالجن تستمع للكلام الذى يقوله الناس بل هى محجوبة عن العالم الأعلى فتكون عقولها أقرب إلى أهل الأرض الأحياء فتهتدى وتؤمن وتكفر كالناس الأحياء فصارت الأرواح الجاهلة كالأحياء الجاهلين والنبى صلى الله عليه وسلم أرسل للطائفتين ؛ ومثل هذا القول علمه سماعى ليس للعقل فيه دخل ، ولكن العلم الحديث الروحى جاء بتصديقه كما سيأتى فى آخر هذه المباحث . والحق أن مثل هذا لايعرف إلا بالعلوم الحديثة ، فأما بغير ذلك فإنها سماعية وليس عليها دليل إلا السمع ، فقراءة العلوم الحديثة الروحية وغير الروحية أمر حتم على المسلمين النائمين على ظهر هذه الأرض وقد أنذرت وحذرت « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله » قال (فذرهم وما يفترون) أى وكفرهم ، وعطف على غرورا فيما تقدم قوله (ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) أى ليغر بعضهم بعضا ولتصغى الخ (وليرضوه) لأنفسهم (وليقترفوا ماهم مقترفون) أى وليكتسبوا ماهم مكتسبون من الآثام .

ولما أنهى الكلام على دحض ما اقترحوه وبيان ضلالهم وغرورهم شرع يذكر أن الله هو الحكم بينى وبينكم وأن القرآن كاف لتعقلوا مافيه من العلم والإرشاد فقال (قل) يا محمد لهم(أفغير الله أبتغى حكما) أى أطلب من يحكم بينى وبينكم (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) أى القرآن مبينا فيه الحق والباطل بحيث ينفى التخليط والالتباس ، فأما الآيات التى اقترحتموها وهى حسية ففيها التخليط والالتباس ولا تفيد يقينا فلذلك منعناها لأننا نريد أنما تكون أرقى من الأمم السابقة لاسيما أننا بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم آخر رسول فى الأرض، ومن أراد أن يعرف الإسلام فليطلع على الكتب الدينية أوالكتب العلمية التى تظهر دقائق الكون ، فهؤلاء متى عرفوا حقائق تلك الكتب آمنوا بالقرآن وهذا قوله (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وأهل الكتاب هنا أعم من اليهود والنصارى بل أعم من أهل الكتب السماوية لأن اللفظ عام وإنما عممنا لأن شهادة العلوم العصرية كثيرة جدا والكشف الذى ذكرناه فى هذا التفسير يعد بالعشرات ولم يكن كثير منه معروفا عند الأمم السابقة . فقراءة العلوم اليوم فى الشرق والغرب تورث الإيمان بالقرآن كقراءة المتدينين الكتب الدينية التى فيها ذكر النبى صلى الله عليه وسلم كإنجيل برنابا الذى يطارده الفرنجة وقد أمروا بإحراقه فى ديارنا المصرية وذلك لأنهم كانوا قابضين على زمام الأمور فى هذه الديار (فلا تكونن) أيها الإنسان السامع لهذا القرآن (من الممترين) الشاكين فى أنه منزل من عند الله تعالى (وتمت كلمة ربك) القرآن بالأمر والنهى (صدقا) فى قوله (وعدلا) منه (لامبدل) لامغير (لكلماته) القرآن ويقال تمت ووجبت كلمة ربك بالنصر لأوليائه صدقا فى قوله وعدلا فيما يكون ،لامبدل: لامغير لكلماته بالنصر لأوليائه (وهو السميع) لمقالتهم (العليم) بهم وبأعمالهم .

ثم أتى بقاعدة عامة تشمل جميع أهل الأرض فقال إن الكوكب الذى تعيشون فوقه من العوالم التى فى درجة منحطة وأهلها ليسوا كاملين وإنما أرسلناك إليهم لتصلح من شأنهم فقال (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن) وليسوا على بصيرة ومنهم هؤلاء الكفار الذين يقلدون آباءهم (وإن هم إلا يخرصون) يكذبون لبعدهم عن الحقائق . ولقد خلقناهم وعلمنا مقدار استعدادهم فنجعل كلا فى مرتبته التى استعد لها (إن ربك هو أعلم) بـ(من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فقوله من يضل مجرور بناء وهما متعلقان بأعلم ودل عليها الباء فى قوله « بالمهتدين » وهى نظيرتها ويصح أن يجعل من منصوبا بفعل محذوف أى يعلم الخ لأن افعل لاينصب الظاهر

ثم

ثم أخذ يذكر نتائج إنكار اتباع هؤلاء، كأكثر أهل الأرض لجهالتهم فأمر بأكل مايذبح مقرونا بذكر اسم الله على ذبحه ولم يبح مخالفة ذلك إلا لضرورة كما تقدم مرارا ، ثم عمم الأحكام فأمر بترك كل إثم ظاهر وباطن لتخلص النفوس من ظلمة هذه الدنيا وخص الكلام على تحريم مالم يذكر اسم الله عليه ليقتلع العادات الوثنية ووصفه أنه فسق وأفاد أن قوما من الكفار يوسوس بعضهم إلى بعض ليتعاونوا على مجادلتكم فإياكم ومطاوعتهم . وهل يستوى الفريقان فريق كان ميتا فأحييناه وفريق لايزال فى الظلمات يتخبط فى ديجورها . وهذان الفريقان سائران على ما زيناه لهم ، فريق المؤمنين الذى أحييناه وفريق الكافرين الذى أبقيناه فى الظلام فكل يعمل على شاكلته وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا .

ثم أبان داء الأمم الضال وهم الرؤساء وعظماء الأمم فأفاد أن هناك قاعدة عامة وهى أن كل قرية وأمة قد صير نا مجرميها أكابر فيحدثون فيها المكر وسوء الخلق والخلاعة والفسوق والمثل السوء والناس تبع لهم وكل ذلك وباله واقع عليهم فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها والناس يحاسبون على مقدار ماعندهم من قوة وقدرة ، ومن إجرام هؤلاء الذين هم أعداؤك أن يقول بعضهم كأبى سفيان لن نؤمن لك حتى يوحى إلينا كما أوحى إلى محمد وسائر الرسل وكيف يكون ذلك والرسالة إنما تكون لمن هم لذلك مستعدون ولاجرم أن مثل هذا استكبار وتعاظم والعقاب عليه بضده وسيصيب هؤلاء المجرمين صغار وذلة وعذاب شديد .

وختم هذا المقام بأن مسألة الإيمان ترجع إلى شرح الصدر ، ومسألة الإضلال ترجع إلى ضيق الصدر ؛ فالرسالة استعداد والإيمان استعداد والضلال استعداد والله هو المحدث لذلك وعلى الناس الجد والبحث والتنقيب، والجزاء يكون على مقدار الأعمال وهذا هو قوله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) تفسير هذه الآيات ظاهر ولكن لابد من بيان بعض الكلمات ، فقوله « ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » أى وأى غرض لكم فى أن تتحرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه ، وقوله « إن ربك هو أعلم بالمعتدين » بالمجاوزين الحق إلى الباطل : أى فيجازيهم ، وقوله « ظاهر الإثم وباطنه » ما يعلن ومايسر وما بالجوارح وما بالقلب ، وقوله « يكسبون الإثم » أى يكسبون الذنب، وقوله «ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» مذهب داود أن متروك التسمية حرام . وقال الشافعى لايحرم مطلقا . وأبوحنيفة قال : إن ترك التسمية عمدا لاتحل وإن تركها ناسيا تحل . وأحمد ورد عنه روايتان فيمن ترك التسمية عمدا ومن تركها ناسيا حلت له . وقوله « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » قالوا يامحمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ فقال الله قتلها . قالوا : فتزعم أن ماقتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام ؟ وقوله « وإن أطعتموهم » أى فى أكل الميتة ، وقوله « أومن كان

ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » ميتا أى كافرا، فأحييناه: أى هديناه وأرشدناه للعمل الصالح، وقوله « مثله » أى صفته وهو مبتدأ خبره قوله « فى الظلمات » وقوله « ليس بخارج منها » حال من الضمير المستكنّ فى الظرف، وقوله « وكذلك جعلنا فى كل قرية الخ » أى كما جعلنا فى مكة « أكابر مجرميها ليمكروا فيها » صيرنا فى كل قرية مجرميها أكابر، وقوله « وإذا جاءتهم آية الخ » .

روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبى صلى الله عليه وسلم « لو كانت النبوّة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا » وروى أن أبا جهل قال : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبىّ يوحى إليه والله لانؤمن به ولانتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، وقوله « الله أعلم حيث يجعل رسالته » حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته ولا موضع إلا نفوس مشرقة بالفضائل ولا دخل للنسب ولا للمال .

ومعنى « يشرح صدره » يفسحه فيتسع لقبول الهدى، وقوله « ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » أى ينبو عن قبول الحق ومن ضيق صدره كأنه يزاول مالايقدر عليه من صعود السماء فيكون الإيمان ممتنعا عليه امتناع صعود السماء، وقوله « كذلك يجعل الله الخ » أى كما يضيق صدره يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، وقوله « وهذا » إشارة إلى البيان المتقدّم من الخذلان والتوفيق « صراط ربك » الطريق الذى ارتضاه أو عادته وطريقه الذى اقتضته حكمته « مستقيما » لاعوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة، وقوله « قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » فيعلمون أنه القادر وأن ما يحدث من خير وشرّ فهو بقضائه وقدره وأنه عالم بأحوال العباد وقد وضع كلا فى مركزه لحكمته التامة . ثم بين أن هؤلاء الذين يذكرون (لهم دار السلام) أى لهم دار السلامة من المكاره ومن كل آفة (عند ربهم) فى ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لايعلم كنهها غيره وهى الجنة وأعلاها أن يكونوا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويكونون وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة ويرون ما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر من الجمال الفائق والحسن الناضر والبهجة والاطلاع على العوالم العلوية وإشراق شموسها وبهجتها فيسكرون بخمرة العلم وهم فرحون مغبوطون، ثم قال (وهو وليهم) مواليهم وناصرهم (بما كانوا يعملون) أى بسبب أعمالهم، ثم أخذ يشرح حال الشياطين من الإنس والجنّ . ولقد أظهر علم الأرواح فى الكشف الحديث أن الأرواح الشريرة توسوس لأمثالها من الأحياء بما يناسب طباعها ويوالونهم ويودّون أن يكونوا على طرائقهم وأهل العلم والفضلاء يعاونون الأحياء إرشادا وتعليما نافعا كما كانوا فى الدنيا، وعلى ذلك يكون الفاسقون الميتون من البشر ملحقين بالجنّ فى الوسوسة والصالحون الميتون ملحقين بالملائكة فى الإلهام . وهذا الكشف الحديث الذى ملأ أمريكا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وجميع بلاد العالم ماعدا المسلمين هو الذى به يكون تفسير القرآن .

فياعجبا كيف يصبح ما كان سماعيا فى الإسلام محسوساً ملموسا ؟ ياعجبا كيف يقول الله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وقد سمعت أيها الذكى فى هذا التفسير من علوم الآفاق كعلم طبقات الأرض وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك العجب العجيب فهاك أسمعك من علم الأنفس الذى عرفه جميع العالم إلا المسلمين حتى إذا جاءت الآيات السابقة وجدتها منطبقة عليه تمام الانطباق .

لقد جاء فى كتاب الأرواح الذى نقلت فيه ـ قبل هذا التفسير ـ عن علماء أوروبا كثيرا مما جاء فى الجمعيات النفسية أن علماء تلك الجمعيات سألوا روحا أحضروها بالوسيط وألقوا عليها أسئلة منها : ماذا يقصد الروح الشريرة بظهوره لإنسان ما فكان الجواب يقصد إزعاجه أو الانتقام منه . وسئل ماذا يقصد الروح الصالح بتجليه فأجاب يقصد تعزية من يبكى على فقده وإثبات وجوده وبذل النصيحة لمن يحبه أو طلب

الإسعاف لنفسه ، وهناك قال الروح الذى وجهت إليه أسئلة كثيرة مايفيد أن الأرواح تحيط بالناس من كل جانب وأن رؤيتها تعرقل مساعى الناس فى أعمالهم فلذلك لم تجعل رؤيتهم عامة الخ . وهناك ذكرت ما يناسب هذا من الإحياء فى الجزء الثالث صفحة ٢٦ وهو أن خواطر الخير بإلهام الملائكة لمستعدين لذلك الإلهام وأن خواطر الشرّ من الشياطين والقلب بينهما ، وهناك ذكر الحديث الآتى « فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى وليحمد الله تعالى ، ولمة من العدوّ إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

ولقد جاء فى هذا الكتاب وفى كتب أخرى كثيرة كالتى ألفها صديقنا « محمد فريد وجدى » أن الناس فى أوروبا وأمريكا يجلسون ويحادثون الأرواح بطرق معلومة عندهم كما تقدّم فى (سورة البقرة) ويلقون إليهم أكاذيب وحكايات خيالية مادام المحدثون من الإنس من الأنفس الناقصة وأن الذين يكلمونهم من الأرواح يكونون على مقتضى مذاهبهم وأخلاقهم وأن الأرواح العالية لاتخاطب النفوس الناقصة وأن الناقصة تألف الناقصة ويفرح بعضها ببعض وأن بعض الأرواح الشريرة تألف الناس وتسمع نصائحهم وتفهم أقوالهم لتعلقها بالأرض ومن فيها وعلى ذلك يكون العلم الحديث تفسيرا فعليا للقرآن وتكون سورة «قد أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا الخ » قد أصبحت مكشوفة واضحة ظاهرة وأن إيمان الجنّ أصبح من اليقينيات لامن المسموعات ، وأنا أقول سيقرأ هذا القول من الناس متكبر مراء فيقول كيف نصدّق الخرافات ؟ نقول له : القرآن جاءنا فسمعناه والعلم فى أوروبا جاء بهذا حتى أصبح مشهورا على أيدى ملايين بل مئات الملايين من الناس وفيهم فلاسفة وعلماء وهو مطابق مطابقة تامة لكتابنا المقدّس . فإما أن نقول إن هذا وعد الله بأن يرينا آياته فى أنفسنا كما سمعناها بالقرآن وإذن يصبح هذا القرآن يقينيا أى على مقتضى العلم لابمجرّد التسليم . وإما أن نقول نشك فى كلامهم وإذن يجب البحث كما بحثوا وقد تقدّم هذا مشروحا فى البقرة فارجع إليه إن شئت ، وإنى أعتقد أن هذا التفسير سيفتح بابا للأمم الإسلامية يدخلون منه إلى علوم أمم الأرض قاطبة ويخرجون من ظلمات الجهالة إلى حظيرة نور العلم والعرفان والله هو الموفق الهادى إلى طريق الصواب .

إذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى (و) اذكر (يوم يحشرهم جميعا) الضمير لمن يحشر من الجنّ والإنس فنقول (يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس) أى من إغوائهم لأنكم لقربكم من أخلاقهم والفكم عوائد أهل الأرض وبعدكم عن العالم العلوى توسوسون لهم وتجذبونهم إلى أخلاقكم . ومن عجب أن علم الأرواح قد جاء فيه أن الأرواح العلوية لما سئلت : هل يمكن التخلص من الوسوسة ؟ فأجابت نعم ذلك لايكون إلا للنفوس الراقية فى الأرض عندكم وقليل منكم من هو راق ، والنفوس العالية عندكم لاتجسر الأرواح الشريرة على الاقتراب منها وهذا قوله تعالى « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فاستكثار الجنّ من إغواء الإنس إنما يكون فى الطبقات الجاهلة الفاسقة فيحشرون معهم لأن أرواح الأحياء إذا ماتت لاتجد مكانا إلا مكان أمثالها من الأرواح المنحطة وهى التى كانت توسوس لهم من أرواح الجنّ (وقال أولياؤهم من الإنس) الذين أطاعوهم (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى انتفع الإنس بالجنّ والأرواح الشريرة المناسبة للأحياء بأن دلوهم على الشهوات التى كانت تلك الأرواح تقترفها فى الدنيا لأن الإنسان إذا عجز عن شهوة أنس بمن يتعاطاها كما ترى ذوى الشهوات يحبون النظر لمن يتعاطونها إذا عجزوا عن إتيانها استرواحا لفعل الموافقين فى الأخلاق والعادات والأحوال ، والنفس لاتألف إلا أمثالها ولاتحبّ إلا من على شاكلتها وتهوى أن ترى من

يوافقها ويشاكلها . فهؤلاء يقولون « استمتع بعضنا ببعض » (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) بالبعث (قال النار مثواكم) منزلكم أو ذات مثواكم (خالدين فيها) حال (إلا ماشاء الله) أى يخلدون فى عذاب النار أبدا إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير (إن ربك حكيم) فيما يفعل بأوليائه وأعدائه (عليم) بأعمالهم فيجزى كلا على وفق عمله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) أى نكل بعضهم إلى بعض أو نجعل بعضهم يتولى بعضا فيغويهم ويكونون قرناء فى العذاب كما كانوا فى الدنيا (بما كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصى . ثم خاطبهم خطابا عاما فقال (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) وقد اختلف المفسرون أمن الإنس الرسل أم منهم ومن الجن؟ خلاف أطال فيه المفسرون؛ والعلم الحديث طابق الآية مطابقة تامة وهو أن كثيرا من الأرواح الموسوسة للناس ملحقة بالجن لأنهم على شاكلتهم فى الشر فيوسوسون للناس كما توسوس الجن . ومعلوم أن هذا الفريق من الأرواح كانوا فى الأرض ومذاهبهم التى كانوا عليها قد ثبتت فى أذهانهم فهى لاتفارقهم فيوسوسون بها « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » فتبقى عقائدهم راسخة فيوسوسون بها ، وبعضهم قد يسمع نصح أهل الأرض وهو فى حال الموت فيقلل الشرور والفساد فى أعماله وبهذا يفهم قوله تعالى « ألم يأتكم رسل منكم » فإذن جميع الأنبياء يسمعهم الجن والإنس وفى الجن قوم ربما ينتفعون بما يسمعونه كما فى آية « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن الخ » فأنذروا قومهم وهذا القول قبل العلم الحديث ما كان العقل يصدقه ويقربه بل يراه من الأمور البعيدة عن العادة فتعجب من القرآن كيف أخبر بما لم يكن معروفا فأصبح اليوم معروفا مشتهرا إلا عند الملحدين فهم وحدهم الذين لايعلمون إلا قليلا منهم وهؤلاء يعرفون أن قوله تعالى «ألم يأتكم رسل منكم» قد طابق العلم الحديث (يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى يوم القيامة (قالوا) جوابا (شهدنا على أنفسنا) كما يقول الناس اليوم حينما تحتل دولة أجنبية بلادهم نحن مفرطون مذنبون جاهلون وكما يقول الفساق لقد أضعنا حياتنا فى فسوقنا . ويقول الذين ابتلوا بشرب الخمر أو التدخين لقد قتلتنا عاداتنا السيئة القبيحة هكذا عذاب الآخرة ماهو إلا نتائج للعادات والأخلاق والأحوال المكتسبة ، ويقال فيها ما يقال فى الدنيا فيشهد الناس على أنفسهم (وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) ولما كان من عادة الله فى خلقه ألا يجعل الأمور طفرة بل يأتى لها بمقدمات كالمرض مثلا يتقدم الموت والرياح تتقدم المطر وكذلك البرق ليستعد الناس هكذا لم يشأ أن يترك القرى وشأنها فلابد من ظهور نابغين فيهم إما بالحكمة والعلم وإما بالنبوة ولذلك قال (ذلك) إشارة إلى ماتقدم من بعث الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة (أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) هذا تعليل الحكم المتقدم أى لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه وهم غافلون لم ينبهوا برسول ، أولم يكن ربك مهلك القرى بظلم منه وهم غافلون؛ وإذا كان الله أرسل الرسل فقد انتفى الظلم (ولكل) من المكلفين (درجات) مراتب (مما عملوا) من أعمالهم (وما ربك بغافل عما يعملون) فيخفى عليه عمل (وربك الغنى) عن العباد والعبادة ولكنه جعل ذلك ترقية للناس ليخلصهم من المادة ، وهو (ذو الرحمة) يترحم عليهم بالتكليف (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) ممن يصلحون لسكنى أرضه ، وقد حصل ذلك فقد زالت أمم ودول كأهل أمريكا الأصليين وغيرهم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى قرنا بعد قرن (إن ماتوعدون) من البعث وأحواله (لآت) لكائن لامحالة (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين طالبكم « أينما تكونوا يدرككم الموت » (قل) يامحمد (ياقوم اعملوا على مكانتكم) على غاية تمكنكم واستطاعتكم (إنى عامل) على مكانتى التى أنا عليها وما أمرنى به ربى: أى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فإنى ثابت على الإسلام (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار)

أى

أى الذى له عاقبة الدار (إنه لايفلح الظالمون) أى الكافرون وضع موضعه الظالمون لأنه أعم فائدة . انتهى التفسير اللفظى لهذا المقصد .

﴿ لطائف هذا المقصد ﴾

(اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى « وكلمهم الموتى »

(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » .

(اللطيفة الثالثة) « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

(اللطيفة الرابعة) « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها » .

(اللطيفة الخامسة) « يامعشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس الخ » .

(اللطيفة السادسة) « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء » .

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « وكلمهم الموتى » ﴾ . ﴿ واللطيفة الخامسة « يامعشر الجنّ الخ » ﴾ .

إن الكلام مع الموتى الآن أكبر آية أنزلها الله للناس لما فسدت العقائد وقد امتلأ بها السهل والجبل ، نعم فى هذا الكلام شك والعلم لا يزال فيه نقص ولكن الشك فى العلم لا يوجب تركه فإن العلماء الذين يعدون بمئات الألوف يشتغلون فيه الآن فارجع إلى ما كتبته فى سورة (البقرة) وإلى كتاب الأرواح الذى ألفته وإلى ما كتبه حضرة « محمد أفندى فريد وجدى » وكذلك الكتب الأفرنجية المنتشرة فى العالم الإنسانى وسترى فى هذه الكتب ما يدهش العقول وإن الناس فى العالم الإنسانى اليوم يتحادثون مع الأرواح بطريق [الطاولة] أو [بطريق الكتابة] أو بطريق [التنويم المغناطيسى] وهناك من الشك والريب تارة والتصديق تارة أخرى ما لا يحصى ، وترى هناك أن النفوس الإنسانية الناقصة لايأتى لها ولا يحادثها إلا الأرواح التى على شاكلتها وتعطى لها معلومات مما يناسب أمور معاشها وأحوالها الدنيوية وهذه تكون « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه » وتصبح تلك الأرواح هازئة بالأحياء ضاحكة عليهم استهزاء ، وتارة تخبرهم بأخبار يظهر كذبها فيما بعد لقصور نظر الأرواح وإن لم تقصد هزوا ولا سخرية ، وأما الأرواح العالية فهى لاتتنزل إلى صغائر الأمور ولا تهتمّ إلا بالأمور العلمية ولا تطيع من يدعوها إلى الاستفهام عن الأمور الشهوية ، وتقول إننا لا نحب أن ندخل معكم فيما يجعلكم معلقين بالدنيا بل تخليكم عنها وفقركم وبؤسكم يقربكم من العالم الأخروى . وهذه الأقوال قد شرحتها فى كتاب الأرواح وعجبت كل العجب من أنها موافقة للحكمة الإسلامية ولما شرحه الإمام الغزالى فى الإحياء . وأىّ معجزة للقرآن أكبر من هذه وكيف يظهر ملخص الدين على ألسنة الأرواح .

﴿ عجائب القرآن ومعجزاته فى القرن العشرين فى آية ـ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون . وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا الخ ﴾

أفادت هذه الآية أن الإيمان بالله واليوم الآخر تابع لمشيئة الله واستعداد الإنسان فليست البراهين بمغنية ما دام المرء لا يستعدّ والقضاء لم يسعد وهذا بعينه الحاصل الآن . ألم تر إلى أننا اليوم فى القرن العشرين نسمع أن العلماء فى [أمريكا وأوروبا] يكلمون الموتى ومع ذلك نرى بعض المتعلمين فى بلادنا الشرقية يكفرون بالله واليوم الآخر ولا يقلدون فى الإيمان ساداتهم من الفرنجة الذين كفروا تقليدا لهم فلما آمنوا لم يقلدوهم وهذا هو ما فى نفس الآية . فالله تعالى أذن للناس أن يكلموا الموتى فى عصرنا الحاضر كما فى الآية ولا يزال الناس

فريقين : كافرا بالله واليوم الآخر ومؤمنا ، وهذا معجزة باهرة . ومن غرائب ما حدث فى هذا الدهر وإن شئت بينة على ذلك فهاك ما جاء فى جريدة (الأهرام بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢١ فإن ما ستقرؤه فى المقالة التالية ناطق بمعنى الآية معجزة للقرآن كما فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ وهذه هى المقالة :

﴿ مناجاة الأرواح ﴾

فى الجهة الغربية من ولاية (نيويورك) وعلى بعد ٦٠ ميلا من مدينة (بفلو) مصيف باسم للى دال اشتهر بجمال موقعه وعذوبة مائه وعليل هوائه وامتاز بكثرة أحراجه وضخامة أشجارها وسمو ارتفاعها وأحاطت به بحيرة واسعة الأطراف وتقوم بإدارة هذا المكان جماعة من الروحيين الذين يعتقدون بمذهب (مناجاة الأرواح) ويبدون من أعمالهم وأقوالهم فيه ما لايدرك له العقل حلا ولا يدرى إلى أى ناموس يرده .

ومن العجب أنه مع تقادم العهد على ظهور هذا المذهب وسعة انتشاره لم تزل آراء العلماء فيه على اختلاف مبين ؛ فمنهم من ينكره إنكارا باتا ويعد أعمال القائمين به من باب التدجيل والأوهام ، ومنهم من يعتقده اعتقاد الحقائق المسلمة ذهابا إلى أن فى الطبيعة أسرارا لا يسع الوجدان إنكارها وإن لم تقع فى حيز العقل .

وقد زار هذا المكان أحد أدباء (السوريين) وكتب إلى الهدى (النيويوركية) يصف ما رأى فقال كان يجتمع فى الملعب خلق كثير لسماع الخطيب الروحى (جان سلاتر) أحد زعماء هذا المذهب ووسطائه المشهورين .

وقبل ميعاد الاجتماع كان معظم الحضور يتسابقون إلى إلقاء أوراق صغيرة على (طاولة) الخطيب يكتبون عليها بعض الأرقام أو الحروف المتقطعة التى كان الوسيط يكتفى بها دون كتابة الأسماء ثم يفتتح الخطيب الحفلة بإلقاء كلمة بهذا الموضوع من الوجهة العلمية ويسترسل فى الكلام إلى مسألة خلود النفس وإمكان مخاطبة أرواح الموتى السابحة فى الفضاء بواسطة وسطاء حقيقيين والوساطة موهبة عظيمة ، إنما فى بعض الأحيان يخلو الوسيط من القوة اللازمة لتأدية الوظيفة حقها ولكن متى توافرت القوة كالواجب تظهر البينة وتتجلى الحقيقة للعيان

ثم يتناول الخطيب الأوراق الملقاة على (الطاولة) أمامه فيقرؤها الواحدة بعد الأخرى مرسلا عن كل منها جوابا يتناوله من التجليات والمخاطبات الروحية فيدهش الحضور بما يأتيه من المعجزات .

جاء الوسيط إلى عدد (٦) فنادى بصوته الجهورى قائلا مستر (جيمس هاملتون) وأشار بيده إليه فأجاب نعم ، فقال له ألا تسكن (كلفلند أوهايو) وتقيم فى الشارع الفلانى رقم (كذا) . فأجابه نعم وهذا عنوانى الحقيق . فقال : إنى أرى الآن والدتك واقفة بإزائك تقرئك الشوق والتحيات وقد أوعزت إلى أن أبلغك نصيحة وهى أن الرجل الذى قابلته فى (ديترويت ميشكن) مساء الاثنين الماضى وتحادثت وإياه بشأن افتتاح تجارة فى تلك المدينة ووعدته بأنك ستعود إليه فى الغد للمباحثة فى العمل فهى تنصحك بالاقلاع عن هذا العزم لأن الرجل لا يضمر الخير ولا الإخلاص لك فإياك أن تتعامل معه .

فوقف الرجل مبهوتا ورفس الأرض برجله وقال نعم هذا هو الحادث بعينه فقد أقلعت الآن عن عزمى وسأعمل بهذه النصيحة .

ثم تناول الخطيب ورقة أخرى كان عليها حرف (ج) على ما أذكر فالتفت إلى الجمهور وقال (مسز مارى رولاند) وبأقل لحظة وقعت عينه على هذه السيدة فقال لها : لايمكن أن يكون هذا اسمك الحقيق أجابت نعم . قال ألا تقيمين فى (شيكاغو) فى شارع كذا ونمرة كذا ؟ قالت نعم وكل ذلك صحيح . قال لها إننى أرى الآن نجلك (البرت) الذى تجند فى الحرب الكبرى وسافر مع الفرقة الأخيرة وانقطعت أخباره

عنك

عنك حتى أصبحت وأنت لا تعلمين عنه شيئا جاء إلىّ بروح مملوءة من الشجاعة والحماسة وهو يقول لك إنه وقد كان مقتله قبل انتهاء الحرب بمدّة قصيرة قال وإن جثته بقيت مطروحة مدّة ثلاثة أيام قبل الاهتداء إليها . وهنا وصف الوسيط ملامح نجلها ومظهره وأخبرها عن اسم المكان واليوم الذى قتل فيه .

وبعد ذلك قرأ الوسيط عدد (١٨) مسز (ألن مكلان) وأشار بيده إليها فذكر لها اسم المدينة التى تقطنها واسم الشارع الذى تقيم فيه حسب عادته ، ثم قال لك شقيقة تدعى (أنا) جميلة الطلعة شيقة القوام كانت تسكن فى (دنفر) من ولاية (كولا رادو) مرضت مرة مرضا شديدا كاد يودى بحياتها فكتبت إليك تطلب حضورك إليها ، وقد حالت الظروف دون ذهابك فساءها ذلك وقطعت أخبارها عنك وهذا ماحملك على الاعتقاد بأنها توفيت والحقيقة هى أنها لم تزل حية ترزق وتقيم اليوم فى مدينة (بلتيمور) وكنت أودّ أن لا أخدش مسمعك بإيراد شىء مما عرفته عنها ولكن الحقيقة يجب أن تقال ، فإن سوء أحوالها وسوء العشرة دفعاها لارتياد منازل الفساد وهى تسكن فى الشارع (الفلانى) تحت نمرة كذا وإذا شئت مراسلتها فعليك الاعتماد على هذا العنوان وإذا لم يكن ذلك صحيحا فإنى أضرب على نفسى غرامة مالية كبيرة وأتخذ هذا الجمع الغفير شاهدا علىّ على ذلك .

ثم جاء الخطيب إلى عدد آخر فقال مستر (توماس فيليبس) فأجابه نعم ، قال إنى أراك شديد الاهتمام بمسألة مبيع (البناية) التى تملكها فى (جامستون نيويورك) لجورج مارش وتودّ أن تعرف إذا كان المبيع ينتهى حسب طلبك أم لا ، وكثيرا ماتباحثت مع امرأتك فى هذا الشأن مع أنك قبضت من ثمن البناية حوالة بألف ريال وذلك مساء الجمعة الماضى ، وأزيدك الآن اطمئنانا بأن المبيع سيتمّ بالقيمة التى اتفقتما عليها وهى مبلغ عشرون ألفا (بيعة لم يحضرها إبليس) والشارى غير مغبون .

فاستغرق الجمهور فى الضحك وأغرق صاحبنا فى التعجب ، ولما وصل الوسيط إلى هنا فى الكلام صمت هنيهة ثم قال فى هذه الساعة حدثت حادثة محزنة فى ضواحى (فلادلفيا) وذلك أن سيارة تقلّ خمسة ركاب انقلبت براكبيها من شاهق فقتل اثنان وأصيب الباقون بجروح خطرة وبينهم امرأة لها بنت موجودة بيننا تدعى (لوزاو تنكس) ولم يكد يدور نظره على الجمهور حتى رآها فقال نعم إن والدتك من جملة الركاب الذين هوت بهم السيارة وهى الآن فى المستشفى (الفلانى) القريب من محل الحادثة فأسرعى لإغاثتها فصرخت الفتاة وبكت والتفتت إلى الساعة وكانت قد قاربت التاسعة والنصف ليلا وهو الموعد الذى يترك فيه القطار الأخير المحطة ، فقالت : وما الحيلة والقطار قد سافر ؟ قال لها الوسيط : انتظرى قليلا ثم التفت إلى الملا وسأل أهل القطار ترك المحطة وتمتم بلغة غير مفهومة ، ثم قال أسرعى وأعدّى حوائجك فإن القطار متأخر عن ميعاده نصف ساعة فهبت الفتاة مسرعة وأعدّت لوازمها وجاءت إلى المحطة فوجدت القطار على جناح السفر فركبته ، وفى اليوم الثالث ورد من الفتاة رسالة على صديق لها هناك تخبره بأن الحادثة وقعت كما رواها الوسيط وتؤمل بأن والدتها تتقدّم إلى الشفاء اهـ .

﴿ اللطيفة الثانية « وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّا شياطين الإنس والجنّ » ﴾ .

وهذه أيضا مفهومة مما سبق فى مواضع كثيرة من التفسير فالأنبياء وجميع المصلحين بعدهم يكون نصيبهم على مقدار مقامهم من العلم والتبليغ ، وأما شياطين الجنّ فإنها تلك الأرواح التى كانت قلوبها فى غطاء فأصبحت فى العالم الروحى كما كانت فى الدنيا فأصبحت ملحقة بالشياطين الذين يوسوسون إلى أمثالهم لانغلاق أبواب السماء ، ومفاتيح العلم فى يد الله لايصلون إليها فترتد نفوسهم إلى أهل الأرض وتتسلى بما ترى من نفوس ناقصة فتغريها بما كانت تودّه فى الدنيا وعقولها مقفلة فحكم عليها بذلك قصاصا لها فأصبحت نقمة على نفسها وعلى أمثالها من البشر ، ولذلك سئلت بعض الأرواح فقيل لها هل الأرواح تقدر على أذى الناس

فكان الجواب كلا ؟ وإنما الناس هم الذين يؤذى بعضهم بعضا ، وإنما الأرواح إذا قصدت الأذى وسوست إلى الأحياء بما تريد فهذا هو الأذى ، « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم «لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة» لأن نفوسهم لم تستعدّ لتلك الأنوار وهى أشبه بالأجسام (الغازية) البخارية التى ترتفع فى الجوّ وكل جسم له حدّ محدود لايتجاوزه والله لايمنع أحدا عن النعم ولكن العوائق من النفوس . فى النفوس جنتها وفى النفوس نارها ، فأى نفس غلظت وفسقت وأحبت الحياة الدنيا فان طبعها لايقبل الجنة ولا عالم الملائكة فلا يصل لذلك بحسب استعداده ، وأىّ نفس أحبت ذلك العالم واستعدّت له وخفت مؤنتها فانها ليس بينها وبينه إلا الموت ، وهناك تصعد إليه وترتقى « وأن إلى ربك المنتهى » .

واعلم أن ما يكشف اليوم من الكواكب والسيارات إنما هو ذخيرة قد أعدها الله للأرواح الأرضية المشرقة النبيلة لتتفرّج عليها إذا ماتت ويكون موتها أكبر سعادة وأشرف أيامها ، فما أسعد أيام الخروج من هذه الدار التى حبستنا فيها حبسا عاقنا عن العروج والخروج إلى باحات الهناء وساحات السعادة والصفا حتى نرى تلك الكواكب البهجة بأقدارها وهيئاتها وأنوارها وإشراقها والحياة عليها ونرى تلك العجائب ، وإذ ذاك نفك من هذا الاعتقال الأرضى ونطالع تلك الشموس فى المجرة التى تبلغ مئات الملايين ونرى شمسنا بقعة صغيرة منها وأرضنا أصغر من كل شىء ، حينئذ ننسى هذه الدنيا وننسى بؤسها وشقاءها ونخرج من جهنمها إلى السعادة التى نشاهد كل ليلة بصيصا من نورها ، وقبسا من نارها ، وحورا فى طرفها ، ولوامع مشرقات فى دياجى الظلمات تطل علينا تدعونا حثيثا إلى الخروج من هذه الظلمات إلى تلك الأنوار .

أيها القارىء الذكى اجعل حياتك معراجا لذلك المقام الشريف ولا تدّخر وسعا فى النفع العام لأمتك وللعالم أجمع إذا قدرت حتى تكون خليفة مبدع هذه الموجودات وناظم عقدها وموحّد نظامها وهو اللطيف البديع النور الهادى إلى سواء الصراط اهـ .

﴿ اللطيفة الثالثة « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ﴾

اعلم أن أهل الأرض قاطبة مقلدون لرؤسائهم تابعون لساداتهم مسوقون بخواصهم فترى العلم ربما كان خطأ فيبقى مئات السنين والناس يظنونه حقا لما أن قوما من المشهورين قرءوه وأقرّوه ودرسوه فيتبع الآخرون الأوّلين واللاحقون السابقين ، وترى المذاهب الاسلامية والنصرانية واليهودية يتبع الأخير الأوّل ويتعصب له ويقول هو الحقّ وما سواه ضلال ، وهكذا فى سائر العلوم كالفلك والطب والطبيعة ، وليس يتقدم من ذلك بعد مئات السنين إلا أفراد يخلقهم الله فيجاهدون ويهذبون الشعوب ويعلمونهم ، فأكثر أهل الأرض مقلدون والمجتهدون هم الأقلون ؛ ألا ترى أن ابن النصرانى نصرانى وابن اليهودى يهودى وابن المسلم مسلم كل ذلك لأن الناس فى أكثر أحوالهم مقلدون وعلومهم إنما تكون محفوظة والنبوغ فيها يكون على مقدار استظهار مادرسوه وفهم ماعقله غيرهم ، فأما الرجوع إلى أصل تلك المذاهب والتأمل فى أساسها فإن البشر غالبا لايتعبون أنفسهم فيه والأعمار قصيرة ، وعلى ذلك يجب أن يكون فى الأمة الإسلامية مفكرون يفكرون فى أصول المذاهب الإسلامية ويهيمنون على الأمم الإسلامية ويهيئون عقولها للرقى والاصلاح لأن السنى والشيعى وسواهم أصبحوا لايرون إلا ماقرءوه فى كتبهم وهى أمور متشابهة ، ثم إن الأمة لم ترفع عن أعينها الأغطية التى غطيت بها العيون وليس عندى إلا نشر العلوم الكونية كما نفعل فى هذا التفسير فبهذا يخرج الناس من ظنهم إلى اليقين .

إن علم الفقه علم عملى والظنّ يكفيه ، أما معرفة هذه العوالم فإنها علمية عملية معا ، فهى علم بالعالم من سموات وأرضين ومتى عرفت الصنعة عرفت الصانع وفوق ذلك يرقى الشعب الإسلامى باستخراج منافع الهواء

والماء

ونماء والأرض والسماء ، هذا مافهمته من قوله تعالى « وإن تطع أكثر من فى الأرض الخ » ، أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو عند ربه الآن وفائدة هذا الكلام ترجع لنا الآن أيضا ، فأما تلكؤنا بأن نفسر بغير ذلك فليس يكون فيه فائدة مرجوة لنا اهـ .

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها » ﴾

اعلم أن هذه الآية هى التى تطبق على الأمم كلها لاسيما المسلمين الآن ، فإنك حيثما أدرت عينك لاترى الغىّ ولا الفساد ولا الضلال فى الأمة إلا من رؤسائها لاسيما بعض مشايخ الطرق ، أولئك الذين هم وبعض علماء الدين والملوك وعظماء الأمم الإسلامية قاطبة ، هؤلاء هم آفات الإسلام ومصائبه ، هم الذين يساعدون الفرنجة على احتلال أرض الإسلام ، هم الذين يوالونهم ويحبونهم لأنهم يغدقون النعم عليهم ويولونهم المناصب العالية ويهبونهم الألقاب الضخمة ، وترى ذلك فى شمال أفريقيا فى بلاد مراكش وتونس والجزائر وطرابلس ومصر وبلاد العراق وغيرها ، فهذه الأمم لم يدخل الفرنجة فيها إلا مجرموها الأكابر ، فهم الذين فسقوا فيها وعلموا الشعوب كيف يفسقون ويميلون إلى الشهوات لتخضع القوم للفرنجة واستناموا لهم ، وربما استنار القوم بعد حين . انتهت اللطيفة الرابعة .

﴿ اللطيفة السادسة فى قوله تعالى « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرّية قوم آخرين » ﴾

هذه اللطيفة تناسب اللطيفة التى قبلها، فإن الأمم إذا فسدت بفساد أكابرها ولم يظهر فيها نابغون أجدر أن تلقى من الوجود وأن تهلك لأن الله لم يجعل فى الأرض ولا فى غيرها عملا لغير فائدة بل هو الذى جعل الأزهار التى لا لون لها ولا رائحة إنما يلقحها الريح كما تقدّم ، أما الأزهار ذات الرائحة الجميلة والمحاسن البديعة والألوان البهجة فإن الحشرات هى التى تلقحها ، وجعل ذلك الجمال وتلك الألوان والروائح والعسل مغرية لتلك الحشرات أن تمرّ عليها فتلقحها ؛ فلم يخلق الجمال عبثا بل خلقه لمنفعة راجعة لنفس النبات لأنه ليس فى الوجود معطل فإذا كان هذا فى نبات ندوسه بأرجلنا ونقطعه لنشم رائحته ولا نبالى به وتارة نغرقه بالماء وتارة ترعاه دوابنا وتارة نجعله لأغراضنا فى معايشنا فكيف يخلق أمما فى الأرض لا ثمرة فى بقائها ، فإذا منع الجمال والرائحة عن هذا النبات إذا لم تكن لذلك فائدة واكتفى بمرور الرياح عليها لإلقاحها فما أحراه أن يهلك الأمم التى لاتناسب زمانها فيهلكها ويستبدل غيرها بها ، ولقد حصلت مبادئ هذه فى الأمم الإسلامية فأخذت الفرنجة تسومنا الخسف وتدخل فى عقائدنا مايضرّ أخلاقنا وعاداتنا ، فإن لم يفكر عقلاء المسلمين فليعلموا أن وعد الله حقّ وأنه لايخلف وعده وأنه لايريد إلا الإصلاح ولا يبقى من الأمم إلا مايصلح للوجود ، ولذلك أرسل التتار من الشرق فى القرن السابع فأبادوا الدول الإسلامية (السلجوقية والعباسية) وكذلك أرسل الأمم الأوربية فى نحو تلك العصور لمحاربة المسلمين ، وكذلك أرسل الأسبان فأبادوا أكثر الأمة العربية وبقاياهم هزموا وهربوا « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . اهـ المقصد الرابع .

(المَقْصِدُ الخَامِسُ)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ٭

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم
دينهم، ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها
إلا من نشاء بزعمهم، وأنعام حرمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء
عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا
ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم *
قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله،
قد ضلوا وما كانوا مهتدين * وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل
والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر
وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * ومن الأنعام حمولة وفرشا
كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * ثمانية
أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت
عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر
اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم
شهداء إذ وصاكم الله بهذا؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير
علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه
إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله
به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم * وعلى الذين هادوا حرمنا كل
ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا
أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون * فإن كذبوك فقل ربكم
ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين * سيقول الذين أشركوا لو شاء الله
ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء؛ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا
بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا

تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

لما فرغ فى المقصد الرابع من الكلام على كفرهم وإشراكهم وجهلهم أخذ يذكر فى هذا المقصد تفصيل ضلالهم العملية وأحكامهم الفاسدة : فمنها أنهم كانوا يقصدون الزروع والثمار وهى المعبر عنها بالحرث، والإبل والبقر والغنم، وهى المعبر عنها بالأنعام فيجعلون منها نصيبا لله ونصيبا للأصنام ، فأما ما كان لله فإنهم يجعلونه للضيفان والمساكين ، وأما ما كان للأصنام فإنهم يجعلونه للخدام والسدنة ، فإن سقط شىء مما جعلوه لله فى نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غنىّ عن هذا ، وإن سقط شىء من نصيب الأصنام فيما جعلوه للأوثان ردّوه إلى الأوثان وقالوا إنها محتاجة إليه وكانوا إذا هلك شىء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا انتقص شىء مما جعلوه للأوثان جبروه بما جعلوه لله ، هذه أول مسألة . [المسألة الثانية] أن السدنة كانوا يزينون لهم هم والشياطين أن يقتلوا أولادهم فكان الرجل يقول فى الجاهلية لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرنّ آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله . [المسألة الثالثة] أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى المذكورات المفسرات فى سورة (المائدة) كانوا يحرّمونها ولا يأكلها إلا الرجال وهى على النساء محرّمات كما تقدّم هناك ويحرّمون ظهورها فلا يركبون البحائر والسوائب والحوامى . [المسألة الرابعة] أنهم لايذكرون اسم الله على الذبائح عند الذبح بل يذكرون أسماء الأصنام . [المسألة الخامسة] أنهم كانوا يجعلون الأجنة فى بطون البحائر والسوائب لذكورهم وليس للإناث فيها من نصيب كما تقدّم فى (المائدة) هذا إذا نزلت حية ، فإذا نزلت ميتة أكلها الرجال والنساء .

هذه المسائل الخمس ذكرها الله فى هذه الآيات بعد ماقدمنا معتقداتهم فلذلك قال فى المسألة الأولى (وجعلوا) أى مشركو العرب (لله مما ذرأ) خلق (من الحرث والأنعام نصيبا) أى وللأصنام نصيبا (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) بزعمهم وكذا مابعده أى زعموا أنه لله ، والله لم يأمرهم بذلك (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أى لايصل إلى الوجوه التى كانوا يصرفونها إليها من قرى الضيفان والتصدّق على المساكين كما علمت (وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) من إنفاقهم عليها والإجراء على سدنتها، وقوله « مما ذرأ » بيان أنهم لو عقلوا لم يجعلوا للأوثان شيئا لأن الله هو الخالق فلذلك قال (ساء ما يحكمون) والمخصوص بالذم محذوف أى حكمهم هذا ، وقال فى الثانية (وكذلك) أى مثل ذلك التزيين فى قسم القربان (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) هو فاعل زين . وفى قراءة زين بالبناء للمجهول وقتل نائب فاعل وأولادهم مفعول وشركائهم مضاف إليه ، وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه أى وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم ، والشركاء هم الجنّ أو السدنة (ليردوهم) ليهلكوهم بالإغواء (وليلبسوا عليهم دينهم) وليخلطوا عليهم ماكانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ، ومعلوم أن كل ما يقع فى هذه العوالم إنما يكون بنواميس واستعداد وقابلية (ولو شاء الله مافعلوه) أى مافعل المشركون مازين لهم ولا الشياطين مازينوا (فذرهم وما يفترون) أى افتراءهم أو مايفترونه من الإفك ، وقال فى المسألة الثالثة (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) أى حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الذكر والمؤنث والواحد والكثير (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعنون خدم الأوثان والرجال دون

النساء كما تقدم (وأنعام حرمت ظهورها) . وقال فى المسألة الرابعة (وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه) مفعول لأجله (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى بسببه ، وقال فى المسألة الخامسة (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام) أى أجنة البحائر والسوائب (خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم) أى جزاء وصفهم (إنه حكيم عليم) .

ثم أتى بما يفيد خسرانهم بما تقدّم فقال (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) فكانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر والسبى وأبناءهم إذا نذروا ذلك كما تقدّم (سفها بغير علم) لخفة أحلامهم وجهلهم أن الله تعالى رازق أولادهم لاهم (وحرموا مارزقهم الله) من البحائر وغيرها (افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) وهذا ملخص ماتقدّم من أعمالهم الفاسدة . ولما أكمل الكلام على تعديد أعمالهم الفاسدة وقد ذكر أنهم تصرّفوا فيما ذرأ الله لهم من الحرث وهو الثمر والزرع ، والأنعام وهى الإبل والبقر والغنم شرع يفصل الكلام على هذين القسمين أى الحرث والأنعام على اللف والنشر المرتب فقال فى الحرث :

﴿ الكلام على الزرع والشجر ﴾

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) يعنى والله الذى خلق وابتدع بساتين مبسوطات على الأرض كالقرع والبطيخ وكالعنب الذى يبقى على وجه الأرض منبسطا ، والعنب الذى كهيئة سقف ويقال عرشت الكرم أعرشه عرشا وعرّشته تعريشا إذا جعلته كهيئة السقف ، واعترش العنب العريش إذا علاه ، فالعنب بنوعيه أى مافوق العريش وما ينبسط على الأرض والبطيخ والقثاء والخيار والقرع ، كل ذلك يقال له جنات معروشات أى مبسوطات إما على الأرض فى أكثرها وإما على العريش فى أحد نوعى العنب ، وقوله : « وغير معروشات » هى ما قام على ساق كالنخل والزرع وسائر أنواع الشجر .

﴿ عجائب فى النبات ﴾

اعلم أن هذا هو القسم الأصغر وهو مايراه الناس من الجنات المعروشات وغير المعروشات ، أما القسم الأعظم منه فهو أنواع الحدائق والبساتين التى ترى فى الطحلب الذى يكسو وجه الماء فى البرك والمستنقعات فهذه بساتين ترى بالمنظار المعظم مزهرة باهرة وكذلك مايعلو الجدران والسطوح وجذوع الأشجار والأرض الرطبة والصخور المرطبة فى المحالّ الظلية ، والعفونة النابتة على الحيطان الرطبة وعلى الجلود المدبوغة كجلود الأحذية وجلود الكتب وعلى الخبز فهى بساتين كالبساتين التى نراها بأعيننا ، وهكذا ماعلى سطح ماء البحر بحيث يتلوّن بها الماء ، وعلى الصخور اليابسة على هيئة قشور يابسة أو غبار وهكذا مايفسد العنب والبطاطا وما يخلق فى داخل الحيوان الحى فهذه وغيرها أنواع من الجنات المعروشات وغير المعروشات متى نظرت بالمناظير المعظمة علم أنها هى القسم الأكبر عددا والأوسع نطاقا فهى أوسع مما يراه الناس بأعينهم العادية ، وكما رأى الناس الكواكب بأعينهم فكانت (٦) آلاف وهى بالمنظار المعظم مئات الملايين هكذا هنا فى النبات سواء بسواء « ويخلق مالا تعلمون » .

﴿ لطيفـــة ﴾

جاء فى جرائدنا المصرية بتاريخ (١٩) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن أحراج غيانا البريطانية (فى جنوبى أمريكا بالقرب من خط الاستواء) تحتوى على أنواع من الديدان والحشرات تفوق الحصر ، فقد وجدوا مايزيد على ألف نوع منها فيما لايتجاوز مساحته (ياردة) مربعة من الأرض .

﴿ أعمار النبات ﴾

اعلم أن دود الحرير يعيش ثلاثة أشهر من أيام أن يكون بزرا صغيرا إلى أن يكون دودا ، فشرنقة : أى كرة صغيرة داخلها دودة محيط بها حرير ففراشة خارجة من الدودة فتبيض ثم تموت ، والخيل تعيش (٣٠) سنة

والفيل

والفيل يعيش عمرا طويلا هكذا يكون النبات ؛ فمنه ما لايعيش إلا فصلا واحدا كالحنطة والشعير والذرة ، ومنها مايعيش مئات السنين مثل البلوط والصنوبر ، ولذلك يقولون إن النبات إما سنوى تكون حياته كلها فى سنة فأقل كما تقدم وإما نبات محول مثل اللفت والشمندور فإنهما يورقان فى السنة الأولى ثم فى السنة الثانية يزهران ويلقحان ويبزران ، وإما معمر وهو مايعيش سنين عديدة كالأشجار والأنجم وبعض الأعشاب التى تزهر وتبلغ وتبزر ويموت مافوق الأرض منها كل سنة ويبقى ماتحت الأرض حيا ويجدد النبات فى السنة التالية كالبطاطا والسوسن والزنابق ، هذه هى الجنات المعروشات وغير المعروشات ، ثم أخذ يفصل بعض الجنات غير المعروشات فقال (والنخل والزرع مختلفا أكله) أى ثمره الذى يؤكل وهذه حال مقدرة لأن النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله « فادخلوها خالدين » وذلك الاختلاف فى اللون والطعم والرائحة (والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه) فى الطعم (كلوا من ثمره) أى من ثمر كل واحد (إذا أثمر) ولا أحرم عليكم أكل مالم يدرك بحجة أن الفقراء والمساكين حقا فيه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير فلكم أكل مالم يتم نضجه (وآتوا حقه يوم حصاده) أى جذاذه وقطعه ، وهو أن يطعم من حضر ويترك ماسقط من الزرع والثمر ولقاط السنبل وقد كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر وكان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيلقونه فى جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله ، وهذا الأمر للندب ؛ والآية ليست منسوخة بآية الزكاة فهى محكمة ، أما الزكاة فقد تقدمت فى سورة (البقرة) فارجع إليها هناك إن شئت ، ثم قال : (ولا تسرفوا) فى التصدق كقوله تعالى فى آية أخرى « ولا تبسطها كل البسط » لأن فى المال حق الزكاة أيضا فمتى انضم الإسراف فى الصدقة إلى الزكاة كان ذلك مضيعا للعيال ؛ والسرف مجاوزة الحد ، ولذلك قال السدى معناه لاتعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء ، وقال الزجاج لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف وفى الحديث « ابدأ بمن تعول » ثم قال (إن الله لايحب المسرفين) فيه وعيد وزجر عن الإسراف فى كل شيء ، وقال سبحانه فى الأنعام :

﴿ الكلام على الإبل والبقر والغنم ﴾

وقد عطف على جنات قوله (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أى كما خلق من النبات مايبسط على الأرض وهو المعروشات وما يقوم على ساق وهى غير المعروشات خلق من الأنعام ماهو كالمعروشات وهى الصغار الدانية من الأرض كالفرش الذى يفرش وذلك كالمعز والضأن وصغار الإبل وما هو كغير المعروشات من الشجر وهى مايحمل عليه من كبار الإبل والبقر وهى التى يطلق عليها حمولة كما يطلق على مايحمل من الخيل والبغال والحمير، ثم قال (كلوا مما رزقكم الله) أى كلوا مما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما كان فى الجاهلية روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » إلى قوله « قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ثم قال (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فى التحريم والتحليل من عند أنفسكم كما كانت الحال فى الجاهلية (إنه لكم عدو مبين) ثم أبدل من قوله « حمولة وفرشا » (ثمانية أزواج) والزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه ، وقد يقال لمجموعهما والمراد الأول (من الضأن اثنين) زوجين اثنين الكبش والنعجة ، وهو بدل من ثمانية ، والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين أو هو جمع ضائن كتاجر وتجر (ومن المعز اثنين) التيس والعنزة ، ولقد كان القوم فى جاهليتهم كما تقدم يحرمون بعض الضأن والمعز والإبل والبقر تارة الإناث وتارة الذكور وتارة أولادها كيف كانت زاعمين أن الله حرمها فقال الله (قل) يامحمد (آلذكرين حرم) ذكر الضأن والمعز (أم الأنثيين) ونصب الذكرين والأنثيين بحرم (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين)

أى أو ماحملت إناث الجنسين ذكرا كان أو أنثى (نبئونى بعلم) أى بأمر معلوم يدل على أن الله حرم شيئاً من ذلك (إن كنتم صادقين) فى دعوى التحريم (٠) خلق (من الإبل اثنين) ذكرا وأنثى (ومن البقر اثنين) ذكرا وأنثى (قل) يامحمد لهم (آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء) أم منقطعة : أى بل أكنتم شهداء حاضرين (إذ وصاكم الله بهذا) حين وصاكم بهذا التحريم (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب إليه تحريم مالم يحرم ، والمراد كبراؤهم المقرّرون لذلك وأوّلهم عمرو بن لحى بن قمعة المؤسس لذلك (ليضل الناس بغير علم إن الله لايهدى القوم الظالمين . قل لا أجد فيما أوحى إلىّ) فى القرآن (محرّما) طعاما محرّما (على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) أى إلا أن يكون الطعام ميتة (أو دما مسفوحا) عطف على أن المصدرية وما دخلت عليه : أى إلا كونه ميتة أو دما مسفوحا فهذا عطف على المصدر المؤول والمسفوح المصبوب كالدم فى العروق لا كالكبد والطحال (أو لحم خنزير فإنه رجس) فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوّده أكل النجاسة (أو فسقا) عطف على لحم خنزير (أهلّ لغير الله به) صفة له موضحة ، وسمى ماذبح على اسم الصنم فسقا لتوغله فى الفسق (فمن اضطرّ) فمن دعته الضرورة إلى تناول شىء من ذلك (غير باغ) على مضطر مثله (ولاعاد) أى ولا متجاوز قدر الضرورة (فإن ربك غفور رحيم) لايؤاخذه على مافعل وهذه هى التى كانت محرّمة عند نزول هذه الآية . وروى مسلم عن ابن عباس «نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير» . وروى أيضا مسلم «أنه صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية» . وروى البخارى ومسلم «أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل» . وعن جابر «أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه» . وقد استثنى النبى صلى الله عليه وسلم من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال . وورد فى الصحيح « خمس يقتلن فى الحلّ والحرم وهنّ الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور » ونهى صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد» أخرجه أبو داود . ولقد أوضحنا الكلام فى هذا المقام فى سورة (المائدة) .

ذكر ما حرم على اليهود

ثم شرع يذكر ماحرم على اليهود فقال سبحانه (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) ماله أصبع كالإبل والسباع والنعام ؛ وكل ذى مخلب وحافر ، وسمى الحافر ظفرا مجازا (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) الثروب وشحوم الكلى (إلا ماحملت ظهورهما) إلا ما علقت ظهورهما (أوالحوايا) أو ما اشتمل على الأمعاء جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن (أو ما اختلط بعظم) يعنى من شحم الألية لأنه اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التى تكون فى الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال لليهود والمحرم عليهم شحم الثرب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهوحلال لهم . عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال لا ، هو حرام ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ، يعنى أن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ــ يعنى أذابوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » قال تعالى (ذلك) التحريم أوالجزاء (جزيناهم ببغيهم) أى بسبب ظلمهم (وإنا لصادقون) فى الإخبار (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لايهمل (ولايردّ بأسه عن القوم المجرمين) حين ينزل . ولما كان هذا المقام يقتضى سؤالا يرد فيقال هذه السورة جاء فيها التحريم والتحليل والإيمان والكفر وقد جاء نسبة الإيمان لله وقضائه كما فى قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله الخ » وجاء أيضا «ولو شاء

ربك

ربك مافعلوه » فالقرآن صريح أن كل هذا من فعل الله نفسه صراحة وإن كان أهل السنة يقولون بالكسب الاختيارى والمعتزلة يقولون قولا آخر وهو أن الفعل للعبد وآخرون يقولون بالجبر وعدم الاختيار فكيف يكون هذا لحسن هنا أن يأتى بهذه الآية قال (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرّمنا من شئ) فكيف توعدنا يامحمد بالعقاب على الشرك وعلى التحريم والتحليل مع أن صريح القرآن أن الله هو الذى أراد هذا منا . وقد تقدّم فى هذا التفسير مراراً أن هذا العالم قد خلق على نظام بديع وأنه درجات بعضها فوق بعض،وما مثل النفوس الناقصة مع النفوس الكاملة والمستعدّة للفضائل التى لا استعداد عندها إلا كمثل الحيوان مع الإنسان وكمثل النحاس مع الماء فالنحاس لايذوب إلا على درجة عالية والماء يذوب على درجة قريبة من الصفر ولكل منفعة فى الوجود ، فللنحاس منفعة وللماء منفعة وللحيوان منفعة وللإنسان منفعة ولكن الغرائز المودعة فى الحيوانات ، والعقول المودعة فى الإنسان ، والديانات التى نزلت والعلوم التى اخترعت تدعو حثيثا إلى الارتقاء إلى أعلى مدارك العرفان ، ولذلك وجدنا الإنسان علم الحيوان حتى أدّبه فركب عليه ولم يتركه على طبعه،فهنا أمور عملية قام الإنسان والحيوان بها فلايجوز ترك الأشياء وطباعها بل لابد من المزاولة والعمل وإخراجها من حال أدنى إلى حال أعلى فعلى ذلك أمر الأنبياء أن يهذبوا الناس ليخرجوهم من ظلماتهم إلى نورهم ، والآباء يعلمون أبناءهم ، والعلماء يعلمون الجهال لإخراجهم إلى العلم . وهذا العمل هو الذى امتاز به العقلاء من الناس وليس لهم سبيل للرقى إلا به .

فالأنبياء والعلماء وسائر العقلاء عليهم الجهاد فى تهذيب أنفسهم وهذه العلوم وهذه الديانات أعمال ألزموا بالقيام بها ولو تركوها لأصبح الإنسان كالحيوان الأعجم ، ولو أن الناس قالوا كفانا أن الله هو الذى أراد كل شئ فعلام السعى لجاز لهم أن يتركوا الأكل والمشى وشرب الماء وتموت الناس فى يوم أو بعض يوم . والناس لغفلتهم يعترضون على القضاء ولا يفكرون أنهم يأكلون ويشربون فلم لايتركون الأكل والشرب اتكالا على الله .

إن أمثال هذا القول من الأسباب التى تسقط الأمم وتثبط الهمم وما من أمة أخذت به إلاخربت ديارها وذهبت سدى وضاعت . وليس عذاب الآخرة تشفيا ولا أخذا بالثأر وليس إلا عملا من الأعمال التى لابد منها كما أن الماء يسيل على أدنى درجات الحرارة ، والنحاس يسيل على درجات رفيعة جدّا عالية كما تقدم فى هذا التفسير .

وهناك مصالح لانعلمها نحن ولكن إذا ارتقت عقولنا أدركت فأصبح بهذا القول عذاب الآخرة سائرا على الناموس الذى نشاهده كل يوم ونحن غافلون ، فمن أكل السم مات ولايعترض أحد لأنه ناموس طبيعى ومن أكل أكلا صحيا لم يمرضه . وهذه أمور مشاهدة محسوسة فالآخرة كالأولى « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

واعلم أن أمثال هذا القول كان علماؤنا رحمهم الله يقولون : إن هذا سرّ القضاء والقدر والسرّ الآن يجب إظهار بعضه لأن النوع الإنسانى ارتقى فلابد من إظهار العلم له . ولما كان هذا القول نتيجة تكذيب القرآن قال تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل هذا التكذيب لك كذبت الأمم الخالية أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول (حتى ذاقوا بأسنا) الذى أنزلناه عليهم بتكذيبهم (قل) يامحمد لهم (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أى هل عندكم من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه فيثبت أن الله رضى شرككم (إن تتبعون إلا الظنّ) فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم مالم يحرّمه الله وتحسبون أنكم على حق (قل) يامحمد (فلله الحجة البالغة) البينة الواضحة فأنتم لم تطلعوا على ما يعلمه الله وإنما أنتم

مكلفون بالأعمال فلله عليه وعليكم العمل (فلو شاء لهداكم أجمعين) إذا كنتم مستعدين للإيمان وهو لايشاء إلا ماهو ممكن ، فالمشيئة لاتتعلق إلا بالأمور الممكنة والوجود ليس فيه طفرة فهو يهدى ويضل على حسب الدرجات ولو لم تكن درجات لم يكن هذا النظام (قل) يامحمد (هلم شهداءكم) أى أحضروهم وهذا الفعل لايتصرف عند أهل الحجاز ويتصرف عند بنى تميم (الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم) لأنهم فى شهادتهم كاذبون (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى إذا وقع منهم شهادة فهى باتباع الهوى (والذين لايؤمنون بالآخرة) أى ولا تتبع أهواء الذين لايؤمنون بالآخرة كعبدة الأوثان (وهم بربهم يعدلون) يجعلون له عديلا اهـ التفسير اللفظى .

لطيفتان فى هذا المقام

اللطيفة الأولى الزهر . اللطيفة الثانية فى الكلام على المتشابه وغير المتشابه وبعض الأشجار .

اللطيفة الأولى الزهر

قد جاء فى هذا المقصد قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » وقد ذكر هذا فى قوله « إن الله فالق الحب والنوى » وقد بينا هناك أن مسألة الثمر والزهر هى الشغل الشاغل للأمم اليوم فى تقسيم النبات وأن رتبه (٢٤) . وهنا لابد من الإشارة إلى أنواع الزهر تفكهة للقراء ليكون ذلك ترويحا للنفوس وإظهارا للعجائب العلية والبدائع الحكمية والمحاسن الطبيعية .

جمال النبات وبهجته فى عجائب الأزهار وإلقاحها

كنت أود أن أذكر هنا عجائب الأزهار وإلقاحها . (١) وأبين تلك الزهرات التى لها شعرات تحميها فلا يدخلها إلا النحل (٢) والزهر ذا المفاتيح والأقفال (٣) وذا الحارس (٤) والزهر المنظم كأنه الجند (٥) ونوعا من الشجر فيه نوعان من الزهر فيهما أعضاء ذكور وأعضاء إناث طويلات وقصيرات ، وللنحل مع هذين النوعين عجائب وغرائب وحكم ونظام لامحل لذكرها الآن (٦) وكيف ينام الزهر وكيف يستيقظ وما أوقات نومه وما أوقات يقظته وما العلاقة بين نوم الزهر ويقظته وبين الحشرات والنحل وكيف يستيقظ نوع الحشرات عند استيقاظ الزهر الخاص به وينام عند نومه ليلا ونهارا وعلاقة ذلك كله بالإلقاح والإلقاح لسعادة نوع الإنسان (٧) وبيان الزهر الأحمر والأصفر والأبيض والأزرق . وكيف كان اختلاف الألوان مناسبا لأنواع الحشرات الطائفات عليه . وكيف كان الأبيض والأصفر يناسبان وقت الغلس بعد الغروب وغيرهما يناسب النهار ولكل حشرات تعرفه .

وكيف كان الزهر الذى لاجمال فيه كزهر السنط والصفصاف لايحتاج للحشرات ويكفيه الهواء ، والزهر الذى جمل شكله ولونه قد احتاج الحشرات فكان ذلك الجمال معشقا لتلك الحشرات الخ (٨) والزهرة التى أعطيت من السياسة والإلهام مالم يعطه غيرها بحيث يغتر بشكلها نوع من الحشرات جهالة فيقع عليها فيحصل الاهتزاز فيكون الإلقاح ولا تنال الحشرة شيئا (٩) والزهرة التى يحصل إلقاحها بمجرد الاستدفاء بها إذ تصل لها الحشرة مستدفئة وتطير لأخرى مستدفئة وهكذا والبرد يحكم على الحشرات بالدخول ثم يضيق صدرها فتخرج فيحصل البرد فتدخل فى أخرى من نفس النوع ، وفى أثناء ذلك تكون قد أخذت طلعا من زهرة الذكور ووضعته فى زهرة الإناث فحصل الإلقاح والناس حولها لايشعرون .

أقول كنت أود أن أبين هذا المقام وأشرح هذه الأنواع شرحا مستفيضا ولكن لايسوغ لى ذلك هنا لأنه بسورة (الحجر) أليق فانظر هذا المقام هناك واضحا جليا شارحا للصدور فى تلك السورة إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء الخ » فهناك تقرأ هذا المقام منقولا من كتاب

(الزهرة) التي هي مقدمة لكتابي (نظام العالم والأمم) مترجما من كتاب اللورد (افبرى) الانجليزى المسمى جمال الطبيعة « والله هو الولىّ الحميد » اه .

اللطيفة الثانية فى الكلام على المتشابه وغير المتشابه من النبات والشجر

من النبات والشجر ماورقه وثمرته متناسبات فى الكبر واللون والشكل والملمس كالأترجّ والنارنج والليمون والكمثرى والتفاح وما شاكلها . ومن النبات والشجر ماثمرته وحبه غير متناسبين لورقه فى الكبر مثل شجر الرمان والتين والعنب والجوز والنخل .

ألا ترى أن شجر الأترج مدحرج الشكل ثمرها أخضر اللون لين الملمس مناسب لورقه والنارنج مستدير الشكل مناسب لورق الشجرة . والكمثرى مخروط الشكل وكذلك ورق شجرته . والتفاح مستدير الشكل وكذلك ورق شجرته . وأما ثمرة الرمان فغير مناسبة فى الكبر لورق شجرته . وكذلك التين والعنب وغيرهما على هذا القياس .

الكلام على النخل

قد ذكرت فى تفسير (الفاتحة) شيئا فى النخل ونزيد الآن فنقول :

(١) كثرت عروق النخلة الضاربة فى الأرض لشدّة حاجتها لها لكبر جثتها وطول قامتها وكثرة عدد سعفاتها وأوراقها لكيما تخدم فى جرم أصولها . وفى جرم سعفها ، وفى جرم أوراقها ، وفى ليفها ، وفى جرم أكمام طلعها ، وفى جرم قضبان قنوانها ، وفى جرم نواة ثمرها ودبسها وشيرجها ، فهذه الفروع الضاربة فى الأرض لتقسم على تلك الأنواع والأعضاء المختلفة .

(٢) لماذا جعل جسم ساقها رخوا متخلخلا ، ذلك لأنه لو كان غير متخلخل كالساج والسرو لعسر على القوى الطبيعية جذب تلك المواد إلى أعلى النخلة فى السعف والليف وغيرهما وأيضا تلك الخيوط الدقيقة التى ركب منها باطن جذع النخلة كل خيط منها متصل بعرق ضارب فى الأرض لتوزع الغذاء على تلك العروق لتوصله إلى ماخلقت له من أوّل الأمر .

(٣) ومن أعجب العجب أن الناس يشاهدون النخلة وقد جعل عليها (ليف) كأنه مآزر مشدودة على أصول مخارج سعفاتها من أجذاعها كأنها مشمرة بها والناس يأخذونه يجعلونه حبالا لأمتعتهم لحفظها من التبدد .

وما علم أكثر الناس أن الليف قبل أن يلم أمتعتهم ويحفظها قد حفظ النخلة من التفرق والتشتت لأن جرمها كما قلنا رخو ومستحيل أن يثبت عليها سعف أو قنوان ، بل كانت لولا الليف المشدود بتحريك يسير من الهواء تتناثر وتتبعثر تلك السعفات وتقع على الأرض فلا خوص ولا سعف ولا ثمر ولا يكون على وجه الأرض نخلة مثمرة ولا ثمرة تؤكل . فتعجب ثم تعجب من الحكمة والعلم والناس فى الأرض غافلون نائمون .

(٤) وهناك ماهو أعجب : ترى طلع النخلة يحفظ فى غلاف وهو (الكفرّى) ليصونه من الآفات العارضة من الحرّ والبرد المفرطين والمطر الشديد والرياح والعواصف والغبار وغيرها لأن الطلع يخرج رطبا نديا رخصا رخوا ، فإذا استحكم واشتدّ انشقت تلك الأكمام والتلف عنها وظهرت تلك الثمرات لنسيم الهواء وحرارة الجوّ لتربو وتضجها حرارة الشمس وتصير بسرا ورطبا ثم تجفّ وتصير تمرا .

لعمرى ما أغفل الناس عما يشاهدون فى جمال الدنيا . طلع النخل يحفظه الغلاف عند ضعفه كالجنين فى بطن أمه فإذا استأهل وقوى انشق الغلاف عنه كما يخرج الجنين من بطن أمه والبيضة من الطائر عند قدرة تحملها ملاقاة الجوّ والاكتساب منه والعيش فيه « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

وهذا هو علم التوحيد . وعلم رقىّ الأمم . وعلم سعادة الدنيا والدين ، فليقلع المسلمون عن نومهم العميق وليعلموا أن هذا هو دين الإسلام . هذا هو أصل الدين ، أصل الدين أن تقرأ وتدرس ما خطه الله بيده على هذه الطبيعة إنه حكيم ، ومن هنا فلتعرف الحكمة ومن هنا فليفهم مقصد الحكيم . فى القرآن قد ذكر أنه «حكيم» عشرات المرات فهذا تفسيره ، تفسيره هذا الوجود ، فلتفتح البصائر ولتجمل السرائر ، وبمثل هذا يكون الحكماء فى الإسلام ، وبهذا يكون حبّ الله ، هذا هو سعادة الدنيا والدين .

(٥) وهناك حكم أخرى مثل النسج الحريرى على النواة ، ومثل الحفرة المستطيلة فى جرم النواة ، ومثل النقرة التى على ظهر النواة التى منها تخرج النخلة ، ومثل القمع الذى على رءوس الثمرات ، فهذه وأمثالها تقدّم ذكرها فى تفسير (الفاتحة) عند قوله « رب العالمين » .

وبمناسبة ما تقدّم من ذكر التمر وبهيمة الأنعام أذكر هنا محاورات دارت بينى وبين فلاح مصرى ، وقد نشرتها جريدة (كوكب الشرق) فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ، وهاهى ذه .

حديثى مع فلاح مصرى ذكى الفؤاد

خرجت يوم السبت (٢٩) من شهر أغسطس سنة ١٩٢٥ لأروّح النفس من عناء الأعمال فى الحقول وأستنشق النسمات فى الخلوات لا القهوات والمنتديات فأسامر الزهر والشجر والزرع والثمر والحبّ والورق وأمتعها بالحكمة واجتلاء بدائع النظام فى مناظر الفاكهة « والنخل ذات الأكمام . والحبّ ذى العصف والريحان » قال الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وذلك فى المزارع التابعة عن بلدة (الجيزة) وبينما أنا أمشى فى طرقات المزارع وأتأمل ذلك الجمال الرائع إذ قابلنى (فلاح) يسقى الذرة وهو يجمع الكلأ من تحته لجاموسته فأخذ يقول أظنّ أنك جئت هنا للنزهة واستنشاق الهواء منفردا عن الجامع والمجالس . قلت نعم وكان فى يدى إذ ذاكَ زهرة قطن أخذتها من حقله فسألنى قائلا : ما الذى تستفيده من هذه الزهرة إذ ليس لها رائحة ذكية ولا منافع مادّية ؟ فقلت انظر معى تعال هنا لأريك عجائبها وأعلمك بدائعها ، قال وأىّ عجب فيها ونحن نشاهدها كل حين ولا نرى فيها عجبا ؟ فقلت : انظر . ألست ترى ههنا ثلاث وريقات محيطات بالزهرة أتدرى ما فائدتها ؟ قال هى هكذا وربنا يعلم أمرها . فقلت هذه تحافظ على دثار هذه العروس الجميلة وملابسها السندسية الصفراء المزدانة بلون الشفق وفى داخلها نقط حمر وقطرات العسل الحلو قد أعدت للحشرات تجتنيه .

فقال عروس وملابسها . أما الملابس فهى حق إنها بهجة جميلة لأنى أرى هذه الوريقات الصفراء كذلك ولكن أين العروس ؟ فقلت : انظر هنا داخل الأثواب البيض المصفرة . انظر هذه الأنبوبة من داخلها ألست ترى أنها حاملة حملا خفيفا فى جوفها وهى جوزة القطن ؟ قال أرى ذلك . قلت هذا هو الرحم وهذا هو الجنين وهذه الأنبوبة هى الأنثى وهذه الأوعية الحاملات حولها حبوبا صفرا هى الذكور وتلك الحبوب الدقيقة هى الطلع الذى هو كطلع النخل ، وهذا الطلع به يكون الإلقاح وكل نبات هكذا فيه ذكر وأنثى كهذه الجاموسة وكالإنسان . إذ ذاك رأيت الرجل أخذ يظهر الدهش والتعجب ويقول : عشنا ولم ندر شيئا فى الدنيا زدنى زدنى سبحان الله أهذا كله فى العلم ؟ الله يعمر الأزهر ويجعله آهلا بالعلماء الله الله إن العلم حسن جدّا ، قل لى قل لى وهل هذا فى القرآن ياسيدنا ؟ قلت له نعم . قال الله تعالى «ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» قال (هـ) لعلكم تذكرون ونحن لانتذكر من هنا جاء الذل للناس من هنا حاقت بهم المصائب

هم لايعرفون ربهم لايعرفون شيئاً من أمور دينهم ودنياهم . قال (الفلاح) أنت قلت لى ههنا عسل وهل هذا العسل للعروس تأكله والله إن العروس فى ثيابها كأجمل ثياب المرائى . فقلت قد قلت لك إن العسل أعد للحشرات مثل النحل . فقال ولماذا ؟ قلت إن الحشرات إذا نظرت لون الزهرة فإنه يعجبها فتطير إليها لحسنها ثم إذا دخلتها أكلت هذا العسل وعند دخولها وخروجها تحمل أجنحتها من هذا الطلع الأصفر ونحوه فيقع منها على الأنثى التى رأيتها بعض الطلع فيحصل اللقح والنحلة لاعلم لها بما تحمله وإنما هى مسخرة وقد أخذت أجرتها وهو العسل والمناظر البديعة فى الزهرات وتارة تكون الرياح هى الملقحات وحدها ولون الزهر معدّ لأجل الحشرات الطائفات على الزهرات وهى مغنيات كما تسمع النساء يغنين للمرائى أيام الزفاف فقال ياسبحان الله شىء عجيب أنا الآن أريد أن أسألك عن كل شىء ، فقلت له أجيبك على ماأعرفه ، فقال أنت تعرف كل شىء ، فقلت قليلا قال الله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » قال (ياسيدنا) ماذا تقول فى الذرة ؟ قلت هو كالقطن ، قال فأين مادّة اللقاح ، قلت فى أعلى العود ألست تراه أشبه بشماريخ طلع النخل ، قال بلى وأخذ يضرب كفا على كف وقال هو هكذا ، قلت نعم هكذا قال فأين الرحم فى الأنثى ، قلت انظر إلى هذه الأنابيب الشعرية التى هى سلوك حريرية إن فيها فتحات لاتراها والطلع ينزل من أعلى العود ويمرّ داخلها فتحمل بحبة واحدة فكل حبة على القطر (الكوز) من الذرة جاءت من لقح ذكر وحمل أنثى وإذن يكون القطر الواحد عبارة عن قرية فيها بيوت كثيرة ومواليد بعدد الحبات المنتظمات على (القولحة) قال هذا حق والله لأنى رأيت رجال الحكومة فى مصلحة البساتين الأميرية يجعلون الذرة فى خطوط ويأتون إلى الخط الذى يأتى الربع من جهته فيتركونه ويأتون إلى الخط الذى تحت الربع فيقطعون أعلاه ليجىء اللقح من الأول إلى الثانى وهما من نوعين من الذرة فيحصل صنف جديد من الذرة بأشكال جديدة ، فقلت له أحسنت أنت فهمته عملا ولكنك لم تكن قد اطلعت على سرّه ، قال نعم .

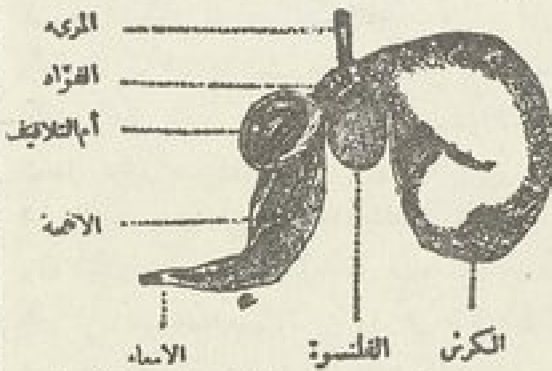
ثم قال الفلاح انظر إلى جوزات القطن فهاهى ذه قد فتحت وظهر قطنها ، قلت وماذا تسأل عنه ؟ قال أسأل عن السبب فى أن القطن هكذا ظاهر واضح ، فأما الذرة فإنها إذا نضج حبها وأينع فإنه لايزال داخل الغلاف ونحن نرفعه عنه بأيدينا ، فأما القطن فإنه يظهر للناس خارجا ليس له وقاية تقيه ولا حافظ يحفظه فالزهرة قد ذبلت ووقعت والجوزة انحلت عنه وأصبح بارزا تراه العيون ، وأما حب الذرة فإنه يبقى محفوظا فى سنابله مخبوءا فى أماكنه ، فقلت له ليس القطن ظاهرا كما تقول بل هو خاف مخبوء فكما اختبأت حبات الذرة محافظة عليها فهكذا اختبأ القطن ، فقال اختبأ هاهو ذا تراه بعينك ، قلت أرى الشعر وهو وقاية للبذرة فالمقصود الأعظم هو البذرة وأما الشعر فهو وقاية لها كغلاف الذرة فهناك غلاف حافظ للحب وهنا شعر القطن يحفظ البذرة التى تنبت فتصير قطنا آخر فيما بعد ، والغلاف فى الذرة والشعر فى القطن فى الحفظ كزلال البيضة الحافظ لمحها (صفارها) فقال لاتدخلنى فى مسائل عويصة ولا تطوّح بى بعيدا بل نبقى هنا فى الغيط ثم قال إنك فتحت لى بابا عظيما وأنا سعيد جدّا بهذا الكلام إن العلم حسن وعلماء الأزهر متمتعون بنور العلم فرحون به ، فقلت له هذا العلم يقلّ من يدرسه فى مصر الآن ، فقال يقلّ ومن أين تعرفه أنت ؟ فقلت أنا من القليل الذين يدرسون ، قال ألم يكن هذا فى الدرس وأنت قلت إنه فى القرآن ؟ قلت بلى ولكن الإهمال عظيم جدّا وليس كل عالم بالدين دارسا لهذه العلوم الجميلة .

ثم جاء ابنه ومعه ماكان مجموعا من (الكلأ) ليقدّمه للجاموسة ، فقال أسألك ياسيدنا عن هذا أيضا ، قلت : سل . قال ربنا جعل الحشيش للبهائم وجعل لنا الحبّ لأننا أفضل من البهائم والبهائم تأكله وهى قوية الجسم ومرضها إذا اعتنينا بها قليل ولكن الحب نطحنه ونخبزه والخضر نطبخها ومع ذلك نتعب من الأكل ونحس ببعض الأوجاع والمغص ونستعمل الأدوية فلماذا ؟ قلت إن الله لما أعطاك العقل وطبخت وخبزت

أعطاك أيضا معدة واحدة فقط ، أما هذه الجاموسة وأمثالها من الحيوانات التى تأكل الحشيش فإنها لها أربع معدات اثنتان تجعلان مخزنا للطعام حين تتعاطاه الجاموسة يحفظ فيهما إحداهما تسمى (الكرش) والثانية (القلنسوة) واثنتان لهضم الطعام بعد رجوعه من الأوليين لفم الحيوان فالحيوان يسترجع ماخزنه فى الأوليين ليجتره وبعد مضغه يدخله فى الأخريين ليتمّ هضمه فيهما وهاتان الاثنتان إحداهما يسمونها (الأنفحة) والثانية يسمونها (أم التلافيف) فالعدل قام هنا وظهر .

فلما كان الحيوان لايقدر على طحن ولا عجن ولا خبز ولا طبخ أعطى أربع معدات تخبز وتطبخ له وكانت له الحرية التامة أن يخزن فى اثنتين ويمضغه بعد ذلك ثم يرجعه للاثنتين الأخريين . وأما الإنسان فكفاه ماهو فيه من الأعمال الخارجية الكثيرة ولم يمنح إلا معدة واحدة ، وهنا تمت المسائل العلمية بيننا وابتدأ (الفلاح) يسأل أسئلة عامة فى أحوال الأمة المصرية

فقال ألا قل لى ولماذا كان لهذه الجاموسة فى بطنها مخزنان ولماذا لم يكن الطعام متوجها إلى ماتسمونه (الأنفحة وأم التلافيف) مرة واحدة فقلت هذان المخزنان جعلا لأجل هذه الحيوانات فى الجبال إذ تكون الغزالة خائفة من الأسد والنمر ونحوهما ، فإذا صادفت عشبا أخذت منه مسرعة ماتحتاجه وخزنته ثم أسرعت إلى كناسها واستراحت وأخذت ترجعه ثانيا إلى فمها وهكذا وتجتر الطعام وترجعه



(شكل ٧ — رسم آلات الهضم للأنعام)

للهضم فهذان المخزنان خلقا للخوف من السباع الضارية ، فقال ولماذا ترى ربنا سلط السباع على هذه الحيوانات ؟ فقلت لقد أطلت الأسئلة ، فقال لا أزيد على هذا السؤال ، فقلت : إن السباع جعلت لتأكل لحم هذا الحيوان بدل أن يعفن فى الجو فيملأه بالمكروبات الضارة فيكون الوباء والكوليرا ويموت الناس والحيوان فالآساد نعمة لانقمة ، وأيضا إذا مات هذا الحيوان ولا منفعة للحمه يكون عبثا فجعل لحمه للآساد والنمور والذئاب لتعيش به ، أفلست ترى أن الناس حين يموتون يعيش الدود فى لحومهم ويتغذى بها ذلك ، لأنه يراد أن يكون لكل شىء منفعة . فقال الرجل والله إن هذا كلام حسن وجميل لأنه يفتح الأعين ويشرح الصدور وإنى كنت قد فرحت بك ولكن لما قلت لى إن الذين يعرفون الدين يجهلون هذا اغتممت غما شديدا ، وإذا كان هذا قولا جميلا فلماذا لايعرفه الناس كافة ؟ وكيف يعرفون ربهم وبماذا يعرفون الله إذن ؟ فقلت عندنا علم يسمى علم التوحيد ، فقال هذا هو التوحيد ، التوحيد فى معرفة فعل الله الذى أريته لى الآن ثم قال وكيف يفكرون فى التوحيد ؟ قلت يقولون الله واحد وهو قادر وعالم وحىّ ومريد ويقولون إن الله لو لم يكن واحدا وكان له شريك لحصل هناك نزاع بينهما والغالب منهما يكون إلها قادرا فإذن لايكون إلا إله واحد . قال ولماذا يذهبون بعيدا ، الله واحد وهو ظاهر فى فعله جعل الذكور والإناث فينا وفى البهائم وفى شجر القطن والذرة ، فلو كان الخالق غيره لكان العمل مختلفا ، فالعمل هنا يجرى بطريقة واحدة منظمة ، وأما هذا الكلام فالاقتصار عليه تقصير فى العلم وفى الدين وضياع للعقول وغرور كبير . ثم قال يظهر لى أن الناس أغمضوا عيونهم ولم يعلموا ، قل لى قل لى هل واحد فى الدنيا يعرف هذه الأشياء معرفة عامة ، قلت هم الفرنجة ، قال تعنى الخواجات ، قلت نعم هم يدرسون هذا ويعرفونه ، قال ولكن أنت تقول إن ديننا يطلبه ، قلت نعم ولكن الثقلة استحكمت ، فقال أنا فهمت الآن ، قلت ماذا فهمت ؟ قال فهمت

أننا

أننا فى الفلاحين مثلكم تماما ، فالفلاح منا يرى هؤلاء الأجانب يزرعون زرعا منظما وينظمون الطرق ويأتون بأشجار غريبة ونحن ننظر لهم ولا نفكر فيما يعملون ويقول الرجل منا هذا يحتاج لنقود كثيرة ، وإذا صرفنا فنحن لسنا عن يقين من المكسب، وهؤلاء أغنياء ونحن فقراء، وتقول هذا ماوجدنا عليه آباءنا، فالابن يتبع أباه وهؤلاء يرتقون فى بلادنا ويملكون أرضنا ونكون نحن عندهم مأجورين عاملين لاغير فأظن أنتم مثلنا يخاف كل واحد منكم على مركزه ووظيفته ويقول لو أنى جعلت النظام على الطريقة النافعة لكرهنى الناس ولقاموا علىّ قومة واحدة فيبق تعليمكم عقيما وتعلمون الناس ألفاظا يحفظها الابن عن الأب والتلميذ عن الأستاذ وهكذا طبقا عن طبق وربنا لايرضى عن الناس قط إذا فعلوا هذا ، فالأجانب ملكوا أرضنا بجهلنا وأنتم أيضا بعلمكم المعوجّ ضيعتم البلاد والعباد والله يسألنى عما أقول إن احتلال البلاد وضياعها ناشئ من جهل القائمين بالأمر من رجال الدين وغيرهم . نحن نستحق المدافع والطيارات والموت مادام كل واحد منا يقول مالى وللمسلمين فنحن وأنتم فى هذه المسئولية سواء بسواء .

انظر ياسيدنا إن مصلحة (البساتين) كانت تعمل كل يوم تجارب ، وهذه التجارب تأتى بأنواع جديدة ونظامهم أحسن من نظام الأجانب ، ثم إن الفلاحين لايقلدون هذه المصلحة ، وإذا كان للفقراء عذر فلماذا نرى الأغنياء عنها ساهين لاهين ، فأنا أظن أنكم مثلنا تماما أهملنا وأهملتم وضيعنا أرضنا وضيعتم أنتم عقولنا .

ولكن ياسيدنا أنت تقول إن علماء الدين لايقرءون هذا ؛ فقلت كانوا يقرءونه أيام المغفور لهم (إسماعيل باشا وتوفيق باشا) وأوائل الاحتلال وبعد ذلك حذف من البلاد بالتدريج قال حذف من المدارس ، قلت نعم قال لأجل أن تقفل الأعين جميعا ؛ أعين رجال الدين ورجال الحكومة ، ولكن كيف ياسيدنا تقول هذا القول مع أنى أخبرتك أن رجال البساتين يقطعون أعلى الذرة ليعملوا تجارب وهذا يدل على أنهم يعرفون مسألة اللقح فلا بد أنهم يعرفون فكيف تقول إنهم لايعرفون ، فقلت هؤلاء هم علماء هذا الفن وطبعا يعرفونه أحسن منى أنا ومن غيرى ولكن هذه معرفة لأجل الصناعة لا أنها لأجل الاستنتاج العقلى منها فيما أتكلم معك فيه وكان يجب أن يكون جميع رجال الدين وتلاميذ المدارس عارفين هذه الأمور معرفة تامة لترقيه عقولهم . فأما رجال البساتين ومصلحتها فهم أشبه بالأطباء يبحثون عن الزراعة كما يبحث أولئك عن المرض فهذا بحث خاص قال الآن فهمت وصدّقت قولك ، يعنى أن هذا العلم ليس معمما فى المدارس قلت نعم وسيعم من الآن . قال ومن أين جاء لك؟ قلت إنهم تنبهوا لهذه الأمور الآن، قال تنبهوا هنا لايكفى ياسيدنا أنت حرام عليك إن لم تقل لهم هذا القول ، وإياك أن تكون خائفا كالذين يخافون وإن هذا الكلام الذى قلته ينفع كثيرا . وصار يقول سألتك بالله أن تقول لهم هذا القول ، ولو كنت بدلك لكنت ملأت المجالس بهذا وكتبت فى الجرائد ، فقلت له سأكتب كل ماجرى بينى وبينك اليوم فى الجرائد السيارة ومتى كتب أحضر إليك هنا وتسمعه ، قال وهل تعاهدنى على ذلك؟ قلت أعاهدك ، قال الآن انشرح صدرى وهذا العمل يرقى الناس ترقية عامة . انتهى حديث (الفلاح) ولقد أحببت أن أكتبه لأن العامة أقرب إلى الفطرة فوجدانهم وشعورهم مقتبسان من النور الإلهى « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » انتهى الكلام على المقصد الخامس .

(المَقْصِدُ السَّادِسُ)

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها
وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون *
ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان
بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ،
ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون * ثم آتينا موسى
الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم
يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما
أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو
أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة
فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء
العذاب بما كانوا يصدفون * هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي
بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من
قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا
شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * من جاء بالحسنة
فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون * قل إنني هداني
ربي إلى صراط مستقيم * دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن
صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول
المسلمين * قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها
ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .
وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم
في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم *

التفسير اللفظي

(قل تعالوا) أى هلموا أيها القوم (أتل) أقرأ (ماحرم ربكم عليكم) حقا يقينا لاشك فيه وليس كما تزعمون من تحريمكم المبنى على الأهواء بل هذا نزل به الوحى علىّ ثم قال التلو (ألا تشركوا به شيئا) من الشرك (و) أحسنوا (بالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) من أجل فقر ومن خشيته كقوله فى آية أخرى « خشية إملاق » (نحن نرزقكم وإياهم) يقول لاتئدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإنى رازقكم وإياهم، فالله تكفل بالرزق فعلى الآباء القيام بالتربية (ولا تقربوا الفواحش) كبائر الذنوب (ما ظهر منها وما بطن) بدل من الفواحش أى علانيتها وسرها (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) واعلم أن جميع الفواحش الظاهرة والباطنة لا استثناء فى تحريمها كالزنا والغصب والسرقة وما أشبهها . أما القتل فقد يكون لقصاص أو لزنا الثيب أو لترك الدين بالردّة لذلك أفرد بالذكر لينص على الاستثناء بقوله (إلا بالحق) المذكور من هذه الثلاثة ونحوها (ذلكم) ما ذكر من الأوامر والنواهى (وصاكم به لعلكم تعقلون) لكى تفهموا ما فى هذه التكاليف (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) أى بالفعلة التى هى أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره (حتى يبلغ أشدّه) حتى يصير بالغا والأشد جمع كنعمة وأنعم (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بالعدل والتسوية (لانكلف نفسا إلا وسعها) إلا ما يسعها ولايعسر عليها فليس إيفاء الكيل والميزان إلا بما فى الطاقة أما الأمور المعسرة فقد عفى عنها لأن التكليف بما فى الطاقة والوسع (وإذا قلتم) فى حكومة ونحوها (فاعدلوا) فيها (ولو كان ذا قربى) ولو كان المقول له أو عليه من ذوى قرابتكم (وبعهد الله أوفوا) يعنى ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون به (وأن هذا) المذكور فى هذه السورة بأسرها من إثبات التوحيد والنبوّة وبيان الشريعة وعجائب الخلقة من السموات والأرض والجنات المعروشات وغير المعروشات وبدائع الحكمة الإلهية والأنوار والظلمات والنظر فى الثمر إذا أثمر والنهى عن قتل الأنفس والمحرمات بأسرها وما شاكل ذلك وكذلك جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه الرسول وورد فى القرآن من دين الإسلام (صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى (فتفرق بكم) أى فتفرقكم وتميلكم (عن سبيله) الذى هو اتباع الوحى والبرهان (ذلكم) الاتباع (وصاكم به لعلكم تتقون) السبل والضلال والتفرّق عن الحق . ولما أتم الكلام على المحرمات والتوصية بتركها شرع سبحانه يقول على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم (ثم) أخبركم أنا (آتينا موسى الكتاب تماما) الكرامة والنعمة (على الذى أحسن) أى على من أحسن القيام به من أمته كما أنزلنا القرآن كذلك إتماما للنعمة والكرامة على كل من أحسن القيام به وحافظ على أوامره وترك نواهيه كالذى ورد فى هذه السورة من الأوامر والنواهى والإرشادات للجمال والبدائع التى أحسنها الله وزينها للناظرين (وتفصيلا لكل شئ) أى تماما للنعم على المحسنين وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه فى الدين (وهدى ورحمة لعلهم) أى لعلّ بنى إسرائيل (بلقاء ربهم يؤمنون وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) كثير النفع (فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه وإنما أنزلناه ولم نكتف بالتوراة والانجيل كراهة (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) اليهود والنصارى وإنما لم يذكر الكتب السماوية الأخرى لأن العرب لايعرفون غيرهما (وإن كنا) إن هى المخففة من الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة فى خبر كان أى وإنه كنا (عن دراستهم) قراءتهم (لغافلين) لاندرى ما هى أو لانعرف مثلها (أو تقولوا) عطف على الأوّل (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لحدّة أذهاننا وثقابة أفهامنا وكيف لايكون كذلك ونحن على أميتنا حفظنا تاريخنا بأشعارنا وعرفنا الأنواء والنجوم والمنازل بحدة أذهاننا ولنا قوة جلد

وصبر نقتحم بهما المهالك وننشر العرفان فى أنحاء الكرة الأرضية فنصل إلى الهند والصين وأوروبا وننشر علمنا فى العالمين ثم قال الله تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) لمن تأمل فيه وعمل به (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله) بعد أن عرف صحتها وتمكن من معرفتها (وصدف عنها) أعرض أو صدّ عنها فضلّ وأضل (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) شدته (بما كانوا يصدفون) بإعراضهم أو صدّهم (هل ينظرون) أى ما ينتظرون (إلا أن تأتيهم الملائكة) ملائكة الموت أو العذاب (أو يأتى ربك) أى كل آيات ربك : أى آيات القيامة والعذاب والهلاك الكلى (أو يأتى بعض آيات ربك) أى أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث إذا خرجن لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض » أخرجه مسلم . وروى البخارى ومسلم « أنه صلى الله عليه وسلم قال لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها » وفى رواية « فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا » وفى رواية من مسلم « إن هناك عشر آيات الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم » قال تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها) كالمحتضر إذا صار الأمر عيانا والإيمان برهانا (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) والمعنى أنه لاينفع نفسا حينئذ إيمانها غير مقدمة إيمانها أو مقدمة إيمانها غير كاسبة فى إيمانها خيرا . قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك ، فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدّقوا فإنهم لاينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التى تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . قال الله تعالى (قل انتظروا) أى انتظروا ما وعدتم به من مجىء الآية ففيه وعيد وتهديد (إنا منتظرون) ماوعدكم به ربكم من العذاب يوم القيامة (إنّ الذين فرّقوا دينهم) كاليهود الذين افترقوا إحدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة وكالنصارى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة وهكذا المسلمون فرق كثيرة (وكانوا شيعا) فرقا وأحزابا (لست منهم فى شىء) أى فى شىء من السؤال عنهم وعن تفرّقهم أو من عقابهم (إنما أمرهم إلى الله) يتولى جزاءهم ولكن لما نزلت آية السيف قاتلهم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) بالعقاب (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أى عشر حسنات أمثالها فضلا من الله سبحانه وتعالى وسبعون وسبعمائة وبغير حساب كما فى آيات أخرى فالعشر إما أقلّ العدد للضاعف وإما المراد بها الكثرة بلا نظر لنفس العدد الخاص (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) أى فى مقابلتها (وهم لايظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم) بالوحى والإرشاد إلى ما نصب من الحجج (دينا) بدل من محل صراط لأن المعنى هدانى ربى صراطا مستقيما (قيما) فيعلا من قام كسيد من ساد أو قيما فى قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى على أنه مصدر نعت به وكان القياس أن يقال قوما كعوض فأعلّ لإعلال فعله كالقيام (ملة إبراهيم) عطف بيان لدينا (حنيفا) حال من إبراهيم (وماكان من المشركين) عطف عليه (قل إن صلاتى ونسكى) عبادتى كلها (ومحياى ومماتى) أى حياتى وموتى واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وسائر أفعاله لايشاركه فيها أحد من خلقه وهذا هو قوله (لله ربّ العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت) يعنى قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أوّل المسلمين) وأنا أوّل المستسلمين بقضائه وقدره (قل) يامحمد لهؤلاء الكفار (أغير الله أبغى ربا) أى سيدا أو إلها (وهو رب كل شىء) سيد كل شىء ومالكه لايشاركه فيه أحد (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) أى إن إثم الجانى

عليه

عليه لاعلى غيره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لاتؤاخذ نفس آثمة بإثم أخرى، أولاتحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد (ثم إلى ربكم مرجعكم) يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) يعنى فى الدنيا من الأديان والملل (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) أى جعلكم يا أمة محمد خلائف فى الأرض فإن الله أهلك من قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم فى الأرض تخلفونهم فيها أو خلفاء الله فى أرضه تتصرفون فيها وعلى هذا يكون الخطاب عاما لكل الأمم، ثم قال (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فى الغنى والشرف (ليبلوكم فيما آتاكم) من الجاه والمال وغيرهما: أى يعاملكم معاملة المختبر والمبتلى فيبتلى الغنى بغناه ، والفقير بفقره ، والعالم بعلمه ، والشريف بشرفه ، والوضيع بدناءته . والعبد والحر من جميع أجناس خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب لأن العبد إما أن يكون مقصرا فيما كلف به وإما أن يكون موفيا ما أمر به فالمقصر بخوف ورغب فلذلك قال (إن ربك سريع العقاب) لأن ماهو آت قريب (وإنه لغفور رحيم) أى لذنوب أهل طاعته ، انتهى التفسير اللفظى .

يقول الله فى هذا المقصد إياكم والإشراك بربكم ثم أطيعوا الوالدين واستوصوا بأولادكم خيرا فلاتقتلوهم خيفة الفقر وكأنه تعالى لما أمر الناس بإعظام الخالق فالوالد فتربية الولد قد أتم هذا النظم وهو إعظام من فوقنا والرحمة بمن تحتنا أخذ يأمرنا بترك الفواحش الظاهرة والباطنة فكما راعينا بالعبادة والإجلال من فوقنا وبالرحمة من تحتنا هكذا يشملنا تجمل الظاهر والباطن من أحوالنا بالتباعد عن سيئات الأمور . هذه أول وصية .

فأما الوصية الثانية فهى المعاملة مع الناس فلا نأكل مال اليتيم ونلاحظه كما نرحم أبناءنا ونزن ونكيل ونقول بالحق فلا نطفف المكيال والميزان ولا نظلم فى أقوالنا ونشهد بالحق على الأنفس والأقارب .

فأما الوصية الثالثة فهى أن لانعدل عن هذا الصراط الذى فى هذه الآيات وفى هذه السورة وفى القرآن كله فإذا اتبع كل فريق هواه ضلّ وغوى ووقع فى الهاوية . ولما أتم الوصايا الثلاث شرع يخبرنا عن سبيل الديانات قديمها وحديثها وذكرائم القديم وهو دين موسى عليه السلام وأتم الحديث وهو دين محمد صلى الله عليه وسلم الذى أمرنا بأن نتبعه فلا نعدل عنه فقال أيها الناس قد آتينا موسى كتاب التوراة لتتم النعمة على من أحسن القيام به علما وعملا وفصلنا فيه البينات والهدى وجعلناه رحمة عسى أن يوقن أتباعه بلقاء ربهم ؛ هكذا أنزلنا القرآن فاتبعوه فليس محمد بدعا من الرسل ، أيها الناس ليس لكم اعتذار فلا تقولون قد أنزلت التوراة والإنجيل على غيرنا فكيف تعذبنا ونحن غافلون عن دراستهما مع أننا أذكى أذهانا ، وأحدّ أفئدة ، وأقوى قلوبا وأشجع ، وقد صدق وعدنا ووعيدنا وصبرنا فى البأساء والضرّاء فقوى بأسنا ، فلو نزل علينا كتاب لرفعنا به الأمم الأرضية ولطرنا به فى الشرق والغرب ، ولهذبنا الأمم وهديناها وربيناها وأدّبناها . فهاهو ذا القرآن قد أزال اعتذاركم بإرشاداته القيمة البليغة ، فمن أعرض عنه أو صدّ الناس عن اتباعه جازيناه سوء العذاب .

فاتبعوا القرآن ولا تتبعوا الأهواء، فلم يبق لكم عذر واحذروا التفريق ولاتكونوا كالأمم السالفة .

ومن لم يتبع هذه النصائح من الأفراد والأمم فإنهم لامحالة واقعون فى العذاب الأليم . . .

﴿ عجيبة من عجائب القرآن فى هذه الآيات ﴾

وهى « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك
يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها الخ » الآية .

اعلم أن كل عمل له وقت خاص فإذا تجاوزه لم ينفع العمل ، ألا ترى رعاك الله أن لكل زرع وشجر وقتا محدودا وزمنا معينا فمتى جاوزه لم يفلح زرعه ولم يثمر ، هكذا ترى بنى آدم إنما يكون تعلمهم وقت

الصغر فإذا كبروا صعب العلم ، وهكذا الأدب لايفيد إلا صغار السن ومتى جاوز السن لم يفد ، هكذا جميع أعمال الحياة فى هذه الدنيا لها أوقات معلومة متى جاوزتها لم تكن لها فائدة .

فلننظر نظرة فى أهل الأرض فى الفرد والأمة والكرة الأرضية كلها ، فإذا لم تكن الأخلاق والآداب والعلوم للفرد فى حال تمكنه وذهب وقت ذلك وحل الموت فلا يفيد الإيمان ولا العلم ولا الأخلاق ، إن الإنسان يحشر على مامات عليه فإذا رأى الحقائق عند الموت وهو قد مات ولا علم عنده ولا أخلاق ، فأى قوة له على الطيران فى تلك الباحات الشاسعة والأماكن العالية ؟ وكما لاينفع سقى القطن بعد أن عطش أيام إثماره فلا إثمار بعد فوات سقيه فى أيام الإثمار ، هكذا لا فائدة من ظهور الحقائق للذى مات ولا علم ولا عمل ولا أخلاق ، وإنما يكون فى حسرة وحزن على ضياع زمانه بلا فائدة جناها ولا أعمال زاولها .

وكما رأيت الفرد ترى الأمة فإنها إن لم يقم كل فيها بما استعد له من علم أو صناعة أو عمل ضاقت عليها الأرض بما رحبت وأسرعت إليها الأمم من كل جانب ، وكذلك إذا تفرقت أهواؤها فإن العدو يغير عليها كما حصل فى الأزمان الغابرة أيام هجم المغول والتتار وهما الأمتان المجاورتان للبلاد الصينية وهم المسمون (يأجوج ومأجوج) فى كتب الجغرافيا القديمة كما يتضح لمن اطلع على خريطة كتاب (إخوان الصفا) فإنه يرى أن تلك البلاد تسمى (يأجوج ومأجوج) ، ففى ذلك الوقت هجم (جنكيزخان) على الأمم الإسلامية لما قتل (قطب أرسلان) رسل (جنكيزخان) الذين أرسلهم للتجارة فى بلاد الإسلام ولم يستحل جنكيزخان ذلك الهجوم إلا بعد أن أرسل خطابا لقطب أرسلان وسترى نصه فى سورة (الكهف) نقلته عن كتابى المسمى (نظام العالم والأمم) وهذا الكتاب فيه طلب المبادلة والمعاملة . ولما قرأ قطب أرسلان الخطاب قطع آذان الرسل ، فحينئذ صام (جنكيزخان) ثلاثة أيام لم يذق فيها الطعام ، وقال : يا ألله أردت عمارة أرضك ، ولكن المسلمون هم الذين أرادوا خرابها ثم هجم الهجمة التى مزقت الإسلام شر ممزق ، فلم تقم للدولة قائمة إلا قليلا ، وخربت بغداد بعد ذلك خربها (هولاكو) من أعقاب جنكيزخان ، هكذا ترى دولة الأندلس إذ فسق المسلمون هناك بعد واقعة بغداد بنحو (٣) قرون ، وتقاطعوا وتدابروا وأباحوا التجارة بلا قيد ولا شرط ، فشربوا خمر الفرنجة ولبسوا ملابسهم ، وتعلموا فى مدارسهم ، فتفرقوا شيعا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وكانت شروط المدنة بين بارونات أوروبا ودوق فينيزيا والبابا من جهة ، وبين ملوك الإسلام فى الأندلس من جهة أخرى أن التعليم حر ، والتجارة حرة ، والدين حر ؛ فتوغل الأسبانيون فى بلاد الإسلام إذ ذاك وسقوهم الخمر وعلموهم التنعم بلبس الحرير والترف والفسق والخلاعة ، واستدانوا وتقامروا وخاصر الشبان الشابات فى الحارات وعلى قارعة الطريق وخلعوا العذار وحقروا مجد العرب ودينهم وصاروا يقرءون علوم أسلاف الأسبانيين وآدابهم وتاريخهم ، فأصبحت مدارس الإسلام خاوية على عروشها وصار الناس مسرفين شرهين جاهلين فحقت عليهم كلمة ربك ، فأخذهم العذاب من حيث لايشعرون وحقت عليهم آية « إن الله لايحب المسرفين » وهؤلاء أسرفوا فى الأموال والخلاعة فاستعبدهم الأسبان فقام الملك (فرديناند) والملكة (إزابلة) فأفنوهم وطردوا من بقى إلى أفريقية ، ذلك لأنهم تفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض ، وصار لكل منهم وجهة هو موليها ، حتى إن أحد ملوكهم لما استغرقوا فى الفسوق اصطاد فتاة أفرنجية من أبيها فشكا أبوها إلى ملك آخر من ملوك الإسلام هناك ، فأرسل هذا الملك إلى الأول الذى هو ابن ذى النون أن أقلع عن خطتك وأرجع الفتاة لأبيها وكيف تكون زانيا ؟ فرد عليه جوابا شديدا ، فقامت بينهما الحرب وساعد الفرنجة ذلك الملك المنتصر للفتاة وضربوا الأمير ابن ذى النون ، وعملت هناك ليال راقصة فرحا بانتصار الإسلام والنصرانية معا على ابن ذى النون الذى فسق وغوى ، هذا هو سبب خراب دول الإسلام قديما ، وإلى الآن ترى آثار ذلك فى الأعقاب فإن المسلمين اليوم متفرقون شيعا وقد ذاق بعضهم

بأس

بأس بعض ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فإن الفرنجة يعلمون الناس تحقير الديانات والآداب والأخلاق الشرقية، وهم قائمون بدياناتهم عاكفون على كنائسهم يريدون أن يصدّونا عن عوائدنا وأخلاقنا ليضعوا أيديهم علينا ونحن صاغرون ، ولم يتفطن لذلك إلا طائفتان وهم : أهل (الهند) فقد منعوا المنسوجات الأجنبية من بلادهم ، وإخواننا (الترك) فإنهم فى هذا الشهر (مارس سنة ١٩٢٥) قد حرّموا تدريس الديانات غير الاسلام فى بلادهم ، وهذا أوّل ماتنبه الشرقيون للخطر الداهم ، فإذا سمعت الله فى القرآن يقول فيما نحن بصدده : هل ينظرون إلا أن تأتيهم ملائكة الموت فيقبضون أرواحهم أو يأتى بعض آيات ربك ؟ وقد فسر فى الصحيحين معا بطلوع الشمس من مغربها ، فاعلم أن موت الإنسان كهلاك الناس كلهم ، فإذا طلعت الشمس من مغربها فذلك من أشراط الساعة وخراب الأرض ، فإذا مات إنسان فلا ينفعه إيمانه إذا عرف الحقيقة ، وإذا هلك أهل الأرض كلهم فلا توبة لهم بعد الموت ، وإذا سمعت حديث مسلم وقد روى أن آيات ربك عشرة ، وذكر منها أنواع الخسوف وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ابن مريم وخروج الدابة ونحو ذلك مما تقدم إيضاحه فى غير هذا المكان ؛ فلتعلم أن ذلك راجع إلى طلب الشىء بعد فواته .

ألا ترى أن خروج يأجوج ومأجوج الذى أوضحته فى كتاب [نظام العالم والأمم] وستراه فى سورة الكهف قد كان خرابا على الإسلام كما أجملته لك سابقا وقس عليه ماذكر من الخسوف ، فإنه لم يخرج عن إهلاك الأنفس التى خسفت الأرض بهم ، فكيف يفيد إيمانها بعد ذلك ؟ فأصبحت آيات الله عبارة عن الانقلاب الذى يحصل فى الأمم أو فى أرض الله كلها ، فخراب دولة كخراب الأرض كموت إنسان .

عموم القرآن للأمم

ولما كان القرآن لم ينزل لأمة خاصة بل لعموم أهل الأرض ، جاء ذكر هذه الأمور عامة حتى يأخذ كل من أهل الأرض منها بقدر طاقته ، وأن المسلم كما ينظر فى أمر نفسه ينظر فى أهل وطنه ودينه وينظر فى أمر الأمم كلها ؛ فلذلك ترى المذكور فى حديث مسلم عبارة عن أمور عامة لاتخص أمة ، مما يدل على أن المسلم يعنيه النظام العام .

وملخص آيات ربك فى هذا المقام مايكون من الأمور الموجبة لفوات الفرصة ؛ فالموت والانقلاب العام فى دولة وخراب الأرض كلها متساوية فى هذا المعنى .

وضوح معنى الآية

فكأن الله يقول أيها الناس احرصوا على العلم والدين والأعمال الصالحات قبل الفوات ، وعلى كل امرىء أن يهذب نفسه ويسعى فى تعليم أمته لئلا تضلّ ؛ فهلاك الفرد لاينفع بعده إيمانه ، وكذلك هلاك أمته يكون سبب هلاكه ، لأن المصائب تعم . وإذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خربت دولهم ، لأن الأمّة كالفرد الواحد ، فليكن المسلم مهذبا لنفسه هاديا لأمّته ، فإن لم تفعلوا ذلك ولم تكونوا على سبيل فانتظروا معاينة العذاب بموت الأفراد منكم ، أو انتظروا ماسيحلّ بكم من تفرّق الأهواء حين يخرج (يأجوج ومأجوج) ويقتلون الفرس والعرب الذين هم مسلمون ، وكذلك تقوم الفرنجة على المسلمين فى الأندلس وهكذا .

انتظروا الانقلابات العظيمة فإن هذه كلها ستحصل ، وإذن لاتنفع التوبة ويذل المسلمون « فانتظروا إنا منتظرون » ولذلك أعقبه بقوله « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » معناه أنت منهم برىء وهم منك براء ، تقول العرب : إن فعلت كذا فلست منك ولست منى ، أى كل واحد منا برىء من صاحبه ، هكذا هنا يقول الله : إن أمّتك يا محمد حين تتفرّق أهواؤها وتختلف أحوالها وتصبح شيعا ويقوم كل قوم ضدّ الآخرين فإنك برىء منهم وانتسابهم لك لايجديهم نفعا ، ولقد صدق الله وعيده فإن ابن

العلقم وزير المستعصم هو الذى سهل لهولاكو دخول بغداد انتقاما من المستعصم الذى كان (سنيا) والوزير (شيعى) واحتلّ (يأجوج ومأجوج) البلاد فلم يرحموا (سنيا ولا شيعا) فحاق الخراب بالأمم الإسلامية لما تفرّقوا شيعا ، هذا معنى قوله تعالى « لست منهم فى شىء » وليس معنى ذلك أنهم كفار ، بل ذلك معناه أنهم يعاقبون بما يستحقون لمخالفتهم صراطك المستقيم ، لأن شريعتك قائمة على قول الحق والعدل وإقامة الميزان فى كل شىء وإعظام الكبير ورحمة الصغير ، فإذا تحوّلت أمتك عن الجادّة نزل بها العقاب ولا تقصير فلا تثريب عليك فقد بلغت ونصحت .

جواب اعتراض

لقد اطلع على هذا القول أحد الفضلاء ، فقال : هذا حمل للآية على معنى بعيد جدّا ، وما لهذه الآية والخراب بغداد وخراب الأندلس؟ ومالك تذهب بالمعانى إلى مالا تحتمل الآية ؟ فقل لى بالله كيف يثق الناس أن هذا هو معنى الآية ؟ كلا والله ! إن هى إلا معان قامت بذهنك فأوردتها فى هذا المقام كأنها معنى وليست بمعنى ، وياليت شعرى كيف تذكر هذا وإنه لبعيد ؟ فقلت : أيها الفاضل أنا لست بدعا فى هذا التفسير ولم آت به من عند نفسى ؛ فهل إذا أسمعتك أنه تفسير النبى صلى الله عليه وسلم نفسه تكون مقتنعا بذلك ؟ قال نعم ! قلت فاسمع : قال أبو هريرة رضى الله عنه فى هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة ، وروى ذلك مرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء وليسوا منك : هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة » أسنده الطبرى ، فهذا حث للمسلمين على الاتحاد . وروى عن عمر بن الخطاب « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا : هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة» ذكره البغوى عن العرباض بن سارية : وفى هذا المقام ذكر المفسرون الأحاديث التى تحض على الاتحاد وما أخرجه أبو داود والترمذى من وعظ النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى وجلت القلوب وأمرهم بالسمع والطاعة ولو ولى عليهم عبد حبشى ، وأمر أن تتبع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده ، وقال : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وفى أحاديث أخرى : إن اليهود افترقت والنصارى افترقت كما تقدّم ، وإن هذه الأمة ستفترق (٧٣) فرقة إلى آخر ماتقدّم ، فهذا كله يدلّ على أن مسألة الآيات فى قوله « يأتى بعض آيات ربك » إلى آخر ماتقدّم يرجع إلى ممالك الأمم الإسلامية الذين تفرّقوا شيعا وذلوا .

رأى المفسر

وأرى أن هذه الآيات أكبر عبرة فى الدين الإسلامى ، ذلك أن تفرّق المسلمين إنما جاء للجهالة الشائعة بينهم ، ولو أن علماءهم أفهموهم أن دين الإسلام ليس خاصا بالمسائل الفقهية بل هو يشمل جميع العلوم لأصبحوا أمة واحدة ، ولكن الجهالة العمياء والبلاهة الكنعاء وظلم الملوك والأمراء وجهل بعض علماء الدين الذين لا يعرفون من هذا الدين إلا أحكام الفقه التى لاتزيد على مائة وخمسين آية ، كل ذلك هو الذى حصر عقل المسلم فى عناد أخيه حتى كره كلّ صاحب مذهب الآخر ، ولو أنهم عرفوا أنهم يجب أن يكونوا أعلم بالعلوم العلوية والسفلية ؛ ففى القرآن (٧٥٠) آية فى الأخلاق و(٧٥٠) آية فى العلوم الكونية لو عرفوا ذلك لرأوا أن الاختلاف فى أحوال قليلة جدا والاتحاد فى أمور كثيرة فإذن يتحدون .

ولكن أقول إن عمر الإسلام لم يزد عن (١٣) قرنا إلا قليلا ، وهذا العمر فى الديانات أشبه بالطفولة للإنسان ، ولقد جاء زمن المراهقة للإسلام وسيكون فى المستقبل من المسلمين فطاحل العلماء فى العلوم العلوية والسفلية لا الفقهية وحدها ، وإذن يرتقى المسلمون ويكونون حاملى ألوية السلام وذلك بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات علماء الإسلام فى الأقطار الإسلامية .

هذا

هذا، ولما كان المسلم لايعم نفعه إلا بالإخلاص أعقب هذا القول بما يفيد ذلك فبدأ بالحسنات وأنها تضاعف لمحسن وأكمل القول بالإخلاص إشارة إلى أن الحسنات لاتكون إلا بالإخلاص كما أن الاتحاد لايكون إلا بالإخلاص فلذلك قال «إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم» وهوالدين القيم الذى كان عليه الخليل عليه السلام وصلاتى وعبادتى وحياتى ومماتى . كل هذه مسلمة «لله رب العالمين» وأنا بذلك مأمور «وأنا أوّل المسلمين» ثم أفاد أنه رب كل شئ وأن النفس لاتحمل إلا ذنبها وكل لله راجعون .

ثم ختم السورة بقاعدة عامّة وهى أن الناس جميعا فى الأرض ممتحنون مختبرون فلا ينجو مسلم بإسلامه من الاختبار ولا صالح ولا طالح بل جميع الناس سواء فى ذلك . فإذا عوقبت أمّة من الأمم الإسلامية أوأفراد فذلك لايمنعه الإسلام لأن كل نفس تحمل ذنبها وعدل الله حقّ على الجميع ، فالناس كلهم خاضعون لتلك القوانين العادلة الإلهية .

وإذا كان الله سريعا عقابه فليس معنى هذا أنه يتمادى فى غضبه ، فالأمة التى ترجع إلى ربها تقبل وترقى ولذلك ختم بقوله «وإنه لغفور رحيم» فإذا اتعظ المسلمون بأسلافهم وتعلموا وعرفوا علوم الأمم وعلوم العوالم فإنهم يسودون أهل الأرض ولا يكونون كالمسلمين أيام (قطب أرسلان) إذ جهلوا قوّة المغول والتتر لنومهم على مهاد الراحة لأنه ثبت أنهم كانوا يجهلون قوّة جيرانهم فاحتقروهم ، فما شعروا إلا وطلائع القوم قد حلوا بساحتهم فأبلوا بلاء حسنا فعرف المسلمون أنهم جاهلون بمن حولهم وأيقنوا بالهلاك فدهمهم التتر والمغول وخرّبوا المدن تخريبا تاما وقتلوا كل نفس كما تقدّم .

فعلى المسلمين أن يعلموا أن تفرّقهم لأنهم جهال نائمون غافلون وأن الأمم الإسلامية الماضية كان بعض علمائها أشبه بالأمّيين لايعرفون من العلوم الشرعية إلا الفقه وصرفوا الناس عن علوم جمال السموات والأرض ففتنوا المسلمين وناموا نومة أهل الكهف فى الجهالة العمياء والبلاهة الكثعاء فعذبهم الله بالذلة .

فليعتبر المسلمون الحاليون ، وإنى موقن أنه ظهر فيهم مصلحون وما أكثر المصلحين اليوم فى الإسلام . وإنى أسأل الله أن يجعل كتابى هذا من مبشرات الرقى فى الإسلام بل أقول إنه سيكون كذلك . وهذا أوان الرقى فلأبشر به المسلمين وليكونوا من مستقبل أمرهم على يقين «ولتعلمنّ نبأه بعد حين» .

جوهرة مشرقة

بعد أن ختمت تفسير هذه السورة رأيت أن قوله تعالى «يوم يأتى بعض آيات ربك» يحتاج إلى زيادة إيضاح فهاك ما وقر فى النفس بعد ما تقدم فأقول :

اعلم أن هذه الأحوال كلها أوجلها قد ظهر فى هذه الأرض وقد قلت فيما تقدم إن مرجعها كلها للفاجأة بالهلاك ونتيجة ذلك أن تكون الأمم والأفراد مستيقظين للأعمال النافعة فى الدنيا والدين فإن للموت يأتى فجاءة وكذلك الأحوال العامّة التى تحلّ بالأمم .

(١) فإذا جاء فى الحديث الذى أجمع عليه البخارى ومسلم «أن الشمس إذا طلعت من مغربها لم تقبل التوبة» فذلك للمفاجأة التى تصيب الناس من ظهور الحقائق بالبلاد الأوروبية حيث تغرب الشمس فإن العلوم لما ظهرت وبهرت وكانت أمم الإسلام لايعرفون إلا العلوم الفقهية مدّة قرون جاء لهم أهل الغرب فأذلوهم وقتلوهم وابتدءوا ذلك بالأندلس ثم تخطوا ذلك إلى بلاد الشرق وهاهم أولاء تراهم يحرقون القرى ويهلكون أهلها ولايرحمون صغيرا ولا كبيرا . فالأمم الإسلامية التى تأنف من علوم الكائنات وتظنّ أنها تنافى إيمانها ودينها فهى لامحالة آيلة إلى الهلاك كما حصل فى بلاد (أفريقيا) من دول أوروبا . فأما التى يكون اعتقادها بالإسلام يحضها على العلوم فهؤلاء الذين يكسبون فى إيمانهم خيرا وحينئذ ينجون من الخطر فيعيشون مع العالم بسلام فإذا رأينا بعض الأمم الإسلامية اليوم يقرءون العلوم العصرية فهؤلاء إذا اعتقدوا أنها من الدين

ترقوا سريعا لاعتقادهم الراسخ فى أذهانهم فيعيشون مع العالم بسلام وإلا أذلهم الغرب بالحرب والهلاك وفاجئوهم بالمدافع فقتلوهم .

(٢و٣و٤) وإذا جاء فى الحديث أن هناك خسفا بالمغرب وخسفا بالشرق وخسفا بجزيرة العرب فاعلم أن هذا تنبيه على أن الأرض تحصل فيها زلازل كما تقدم فى هذا الكتاب وهذا تنبيه أيضا على أمر طبيعى ومفاده أن من القرى ما تقع فيها الزلزلة على سبيل المفاجأة فأهلها يموتون وكل منهم يموت على ما عاش عليه ولا تنفع التوبة وهذا تحذير من أمر طبيعى كما يحذرنا من الغفلة لئلا يفاجئنا الموت .

(٥) وإذا جاء فى (مسلم) أن هناك نارا تطرد الناس إلى محشرهم فحكمها كسابقها وهى المفاجأة فليكن الناس على حذر صالحين فى أعمالهم .

(٦) وإذا جاء فى حديث (مسلم) أيضا أن الدجال إذا نزل لاتقبل التوبة فاعلم أننا قدّمنا فى سورة (البقرة) أن من يشبه الدجال هم الأمم المستعمرون ، فإنهم إذا نزلوا بساحات الأمم الشرقية أذلوها وأهلكوا أهلها فمن مات منهم لاتنفعه توبته عند الموت ، وهذا تحذير للأمم الإسلامية من دجل الأمم وإضلالها ومدّها بالترف والنعيم والصناعات والخمر والملابس الفاخرة فيستنزفون ثروتهم ثم يقبضون عليهم ويملكون بلادهم وقد أروهم جنة الشهوات واللذات والوظائف والبضائع الجميلة فأصبحت على الشرقيين نارا تلظى لايصلاها إلا الجاهلون فأذلوهم . وقد قلت فى سورة (البقرة) وغيرها أنا لست أقول إنهم هم (المسيخ الدجال) وإنما أقول هم نظراؤه وأشباهه فلهم حكمه ، كما أنى أقول إن طلوع الشمس من مغربها وإن كان على حاله وحقيقته يراد منه على سبيل الكناية المقصودة للناس فى هذا الزمان شمس العلوم والعرفان ، وهذه كناية بحسب القواعد فى علم البيان ، فالدجال كناية وطلوع الشمس من مغربها كناية والقرآن أولى بالكنايات والكناية أبلغ من المجاز ومن الحقيقة .

(٧) وإذا جاء فى حديث (مسلم) الدخان فقد ظهر بأوضح وجه فى هذا الزمان . أولست ترى أن الدخان هو الذى يحارب به الآن ؟ أولست ترى الغازات الخانقة والمعمية ؟ والتى تأتى بالطاعون ، والتى تميت سريعا والتى تأتى بالسل ، والتى تأتى بالجنون الخ .

وهذا قوله « يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم » وقوله تعالى « ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير » وهذا الحاصب ينزل من الطيارات فى بلاد (العراق) وفى بلاد (مراكش) وفى بلاد (سوريا) فالأوّل من الإنجليز . والثانى من الأسبانيين . والثالث من الفرنسيين وذلك حاصل الآن أى سنة ١٩٢٦ .

(٨) وإذا جاء ذكر (يأجوج ومأجوج) فها أنت ذا عرفت حقيقتهما فيما سبق قريبا وقد أريتك ما يكفيك وإلا فاقرأه فى كتاب [نظام العالم والأمم] وفى سورة (الكهف) فيما سيأتى .

(٩و١٠) وإذا ذكر الدابة وظهور عيسى ابن مريم فهذا كناية ظهور الحقائق واضحة جلية . فالقلوب النقية المستعدة تنال السعادة وتفهم الحقائق ، والقلوب المطموسة التى لم يهذبها الدين ولا العلم فلا توبة لها لعدم تعقلها وفهمها .

وإذا ذكرت هنا فإنما جعلته كناية والكناية تكون مع الحقيقة والقرآن للهداية نزل . واعلم أن سورة الأعراف قد أوضحت هذا المقام تمام الإيضاح فلقد جاء فى أوّلها كيف تفاجأ الأمم بالهلاك ثم سرد قصص نوح وعاد وثمود ومدين وقوم لوط وفرعون وأنهم دمروا وهم لايشعرون . فهذا من بعض آيات ربك التى إذا جاءت لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا .

واعلم أن ثمرة هذه الآيات والعاجآت إنما يكون فى هذا الزمان فالخسف والتدمير والدخان والعلوم والدجالون الكذابون من الأمم القوية كل أولئك أحاطوا بالمسلمين وكذلك العلوم والمعارف . فإذا لم يشاكل المسلمون الأمم التى حولهم حقت عليهم كلمة العذاب فأصبحوا خامدين . وماكانت سورة الأعراف الآتية ولا بعض آيات ربك التى فى هذه السورة لتنزل لمجرد التلاوة أو الإخبار بل هى إنما نزلت لاستيقاظكم أيها المسلمون فى هذا العصر وإنى أنذركم صاعقة العذاب الهون وخراب الدول إن لم تقوموا من فوركم بما أبنت لكم فى تفسيرى هذا من عجائب الله تعالى وتعرفوا ما ذرأ الله فى الأرض والسموات من بديع صنعه وجميل إبداعه .

هذا هو الزمان الذى تنشر فيه الحقائق الإسلامية ويقوم المسلمون بنهضتهم العلية العمرانية وإلا فليعلموا أنهم خامدون مائتون هالكون صرعى المدافع والقنابل والدخان والدجالين أوتخسف بهم الأرض بما يقذف عليهم من الطيارات وهكذا « إن ربك سريع العقاب » بذلك « وإنه لغفور رحيم » لمن أدركوا وعقلوا فأبقاهم إلى حين ، انتهى تفسير سورة (الأنعام) ويليها سورة (الأعراف) .

تفسير سورة الأعراف

هذه السورة مكية إلا ثمان آيات

وهى قوله تعالى « واسألهم عن القرية » إلى قوله « وإذ أخذ ربك من بنى آدم الخ » .

وقد قسمت إلى تسعة أقسام :

[القسم الأوّل] من أوّل السورة إلى قوله « كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون » وهذا القسم فيه أربع مقاصد (المقصد الأوّل) فى مقدمة السورة فى ابتداء تفصيل الكلام على ما أجمل فى آخر سورة (الأنعام) من مفاجأة الأمم بالحوادث المزعجة ، فعليه يجب أن يكون الناس مستيقظين دائما من قوله «المص» إلى قوله « قليلا ما تشكرون » (المقصد الثانى) فى قصة آدم وحوّاء وما أصيبا به من خروجهما من الجنة ونزولهما إلى الأرض وهى أوّل ما جاء من القصص كالتطبيق على ما يصاب به الناس مفاجأة من قوله « ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم » إلى قوله « وفيها تموتون ومنها تخرجون » (المقصد الثالث) بيان أن هذه القصة كسائر القصص ليست تقصد لذاتها أو للتفكه بل هى للحكمة والاعتبار والعمل وحث الناس على ألا يتبعوا وسوسة الشيطان كما اتبع أبوهم آدم وسوسته فغوى . وليحذروا أن يفتنهم الشيطان فينزع عنهم لباس التقوى كما نزع من أبويهم اللباس المادّى .

ثم أخذ يذكر أحكام اللباس فى الصلاة وحكم الزينة التى خلقها الله وهكذا وذلك من قوله « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم » إلى قوله « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » (المقصد الرابع) فيما هو أهم مما تقدّم وهو النظر فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والسحاب والمطر والنبات الخ من قوله « هل ينظرون إلا تأويله » إلى قوله « كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون » .

[القسم الثانى] فى قصة نوح وقومه وكيف غرقوا بكفرهم من قوله « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » إلى قوله « إنهم كانوا قوما عمين » .

[القسم الثالث] فى عاد ونبيهم هود عليه السلام من قوله تعالى « وإلى عاد أخاهم هودا » إلى قوله « وما كانوا بآياتنا مؤمنين » .

[القسم الرابع] فى ثمود ونبيهم صالح عليه السلام من قوله « وإلى ثمود أخاهم صالحا » وكيف كانوا يتخذون من السهول قصورا وينحتون من الجبال بيوتا . وكيف خسفت بهم الأرض لما طغوا وبغوا إلى قوله « ولكن لاتحبون الناصحين » .

[القسم الخامس] قصة قوم لوط عليه السلام إذ كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فأمطر الله عليهم مطرا غزيرا فهلكوا من قوله « ولوطا إذ قال لقومه » إلى قوله « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » .

[القسم السادس] قصة أهل مدين ونبيهم شعيب عليه السلام إذ كذبوا وطففوا المكيال والميزان وبخسوا الناس أشياءهم فأخذتهم الرجفة لما كذبوا من قوله تعالى « وإلى مدين أخاهم شعيبا » إلى قوله تعالى « فكيف آسى على قوم كافرين » .

[القسم السابع] فى نتائج عامة من القصص المتقدّمة ونصائح عامة فصل فيها ما أجمل فى أوّل السورة وفى آخر سورة (الأنعام) من أحوال الأمم البائدة وأنه يجب الحذر فى كل حين لأن خراب الأمم قد يأتى

بغتة ليلا أو نهارا وأن أكثر نوع الإنسان لاعهد له من قوله تعالى « وما أرسلنا فى قرية من نبىّ » إلى قوله تعالى « وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

[القسم الثامن] قصص موسى عليه السلام وما كان من أمر فرعون معه . وكيف كان أصحاب العقول أقرب الحقائق ممن يتبعون خوارق العادات كما حصل لسحرة فرعون وجهلة بنى إسرائيل إذ آمن الأوّلون لما رأوا ما هو فوق قدرتهم على يدى موسى وكفر الآخرون لما جاوزوا البحر «وقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » وغير ذلك من الآيات المفصلات إلى قوله « وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » .

[القسم التاسع] قصص بلعام بن باعوراء الكنعانى إذ أعطاه الله العلم فضلّ به وما يتبع ذلك من الأحكام العامة من قوله « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » إلى آخر السورة .

مقدّمة تبين ارتباط هذه السورة بما قبلها

اعلم أن سورة (الأعراف) متممة لسورة (الأنعام) وبيانه أن سورة (الأنعام) يرجع أهمّ ما فيها إلى أمرين اثنين (أوّلهما) النظر فى العالم العلوى والسفلى (والثانى) اجتناب الشرك والظلم والمعاصى والقتل والعقوق والزنا وما أشبه ذلك، وتجد العناية بالأمر الأوّل واضحة جلية فى ابتداء السورة بالحمد على أن الله خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وفى نظرات الخليل فى الكواكب متدرّجا من أدناها إلى أعلاها وفى أن الله هو الذى فلق الحبّ والنوى وأخرج الحىّ من الميت وأخرج الميت من الحى وأضاء النهار وأظلم الليل وأنشأ جنات وأعنابا ونخيلا وهكذا مما كثر ذكره فى السورة ، وترى الأمر الثانى ظاهرا فى التنديد بعبادة الأصنام والشرك واتباع الهوى وتحريم الحلال وتحليل الحرام وظهر جليا فى آخر السورة إذ قال « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

وختم السورة بإنذار الأمم إذا أهملت العلوم لجهات العوالم العلوية والسفلية أو لم تراع الأخلاق والآداب فظلمت وعصت فأنذرها بقوله «يوم يأتى بعض آيات ربك» ولم يبين تلك الآيات وإنما أبهمها وتركها الناس يفكرون فيها وجاءت بعض الأحاديث بما يشفّ عن بعض الآيات بطريق الرمز ورجع مافيها إلى أمور عامة ذكرناها يقصد بها أن تكون الأمم متيقظة عاملة عاملة كما شرحناه .

فكأن الله يقول فى سورة (الأنعام) كما قال فى سورة (الفاتحة) أى عبادى هأناذا آمركم أن تحمدونى لأنى ربيت العالمين ولن تعرفوا التربية العامة إلا بدراسة ما ربيته ونظمته من العالم العلوى والسفلى . أنتم مأمورون أن تحمدونى لأنى ربيت العالمين ولأنى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور، ولاحمد لمن يجهل صفات المحمود ولا شكر لمن غفل عن صفات المشكور وأنا لم أبتدئ القرآن بحمدى على أنى رب الثواب والعقاب ولارب البيوع والشفعة والرهن والميراث والقضايا والبينات والوضوء وأركانه وأنواع الحيض وأقسام المياه التى يجوز التطهير بها ولا على مسائل المنطق ولا على مجادلات علماء التوحيد واختلافهم فى صفاتى وهل هى عين ذاتى أو غير ذاتى وإنما أمرتكم بحمدى على أنى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور وخلقتكم من طين وربيت العالمين . وكيف تحمدوننى وأنتم أجهل الناس بأعمالى وجمالى ونورى الذى أشرق والظلمات التى تجىء وتذهب بحساب ؟ وكيف تحمدوننى وأنتم لم تدرسوا الفلك ولا الطبيعة ولا النبات ولا الحيوان ولا جمال مخلوقاتى ؟ على هذه يكون حمدى ولاحمد لكم إلا بالدراسة والعلم فمن جهل صفات المحمود كان حمده نفاقا وشكره لفظا وتعبده جهلا وحبه لربه رياء . وكيف تحبون من تجهلون أو تتقرّبون إلى من لاتعرفون وهل تعرفوننى إلا بأعمالى ؟ أعمالى التى أبرزتها فى جوّ الكواكب والشموس والأقمار والنبات والحيوان والإنسان فلا جمال إلا من جمالى ولا حكمة إلا من أعمالى .

ولا يتسنى لكم معرفة جمالى فى هذه المخلوقات إلا إذا انتظمت دولكم ولا يكون النظام إلا حيث تتركون المعاصى ظاهرا وباطنا وتقومون بالصلاة والزكاة وبقية أركان دين الإسلام وتتركون ظاهر الإثم وباطنه وأن تتركوا ما حرم ربكم عليكم فلا تشركوا به شيئا ولا تقتلوا أولادكم .

وانظر رعاك الله كيف ختم السورة ؟ بماذا ختمها ؟ ختمها بالإنذار للأمم كلها . أنذرهم وحذرهم قل لهم اتبعوا صراطى مستقيما ولاتفرّقوا وإلا أنزلت عليكم ما يصيب الأمم الجاهلة بفعل ربها ونظامه فى خلقه الظالمة فى أعمالها العامّة والخاصة . فإذا أتت لكم بعض آيات ربكم لاتنفعكم التوبة .

يقول قوموا بالأمرين معا : معرفة نظام السموات والأرض . وتهذيب نفوسكم ونظام دولكم وإلا فإنكم معرّضون للانتقام وذهاب دولكم يوم يأتى بعض آيات ربكم وإذن لاينفعكم توبة ولا ينجيكم اتباعكم لدين الإسلام بمجرّد اللفظ وأنتم تجهلونه فلا تكسب كل نفس إلا عليها ، إنكم خلائف الأرض وأنتم مختبرون ممتحنون ، فمن فاز فى الامتحان قرّبناه ومن رسب أنزلناه « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » نحن اختبرناكم فيما أعطيناكم فلا تقصروا فى شكرنا ولا تناموا عن معرفة نظامنا .

سورة الأعراف

لما كانت سورة (الأنعام) لم يفصل فيها هلاك الأمم الجاهلة ولم يبين كيف يهلك الذين لايعقلون والذين هم يظلمون بارتكاب المعاصى جاءت سورة (الأعراف) وقد ذكر فيها آدم ونوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وبنو إسرائيل وقوم فرعون وقد هلك من هلك من هؤلاء . إما لتطفيف المكيال والميزان وإما لعدم معرفة النعمة وشكرها على قصور فى سهول وبيوت منحوتة فى الجبال . وإما على الظلم بالقتل . وإما على الفسوق بمباشرة الرجال ومخالفة حكمة الخالق فى الاقتراب من النساء . وإما على تكذيب الأنبياء ونبذ الحق ومخالفة طريق الهدى .

فانظر كيف ابتدأ سورة (الأعراف) بما لم يبتدىء به سورة (الأنعام) . ابتدأ سورة الأنعام بإيقاظنا إلى النعم التى حولنا وتوجيه عقولنا إليها .

ولما علم أن أمة الإسلام ستكون بعد النبوّة بأمد طويل كالقرن الرابع عشر لاتعير هذه النعم التفاتا ولا تلوى إليها عنانا ولا تعرف المقصود منها مع أنها أم العلوم وأم النعم وأن الحمد لم يذكر فى الفاتحة ولا فى الأنعام إلا عليها .

ختم سورة الأنعام بالإنذار . وابتدأ سورة الأعراف بإكمال الإنذار فقال « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » يقول فى سورة الأنعام توجهوا بعقولكم إلى مخلوقاتى واتركوا المعاصى ويقول فى الأعراف أنزلت إليك الكتاب فلا يكن فى صدرك ضيق منه فأنذر به الناس واتل عليهم أنباء الأمم الضالة فكم من أمة أهلكناها ليلا أو نهارا . فسورة الأعراف لبيان الأمم التى جهلت ماصنعه ربها وغفلت عن نعمه أو عصت فى أعمالها .

القرآن ونهر النيل

اعلم أن مثل القرآن مع الأمم الإسلامية كنهر النيل مع الأمّة المصرية . إن النيل كان يجرى قديما من وراء خط الاستواء من فوق جبال (القمر) ويمرّ فى الأودية والبحيرات ويقطع أميالا وأميالا آتيا من نهرين : النيل الأبيض والنيل الأزرق وهما يجتمعان عند مدينة (الخرطوم) ويتجهان شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن النيل سدود تمنعه ولا قناطر تحجزه ولا حبوس تحفظه ولكن كان يمرّ فى طريقه ولا يعرّج على شىء ولا يلوى على أحد حتى يصب فى البحر الأبيض . وغاية الأمر أنه فى زمن الفيضان أيام الخريف يعم الأرض وبعد ذلك يقلّ ماء النيل فتجف الأرض فيزرعونها مرة واحدة . وكان الناس أيام

الفيضان يعيشون فى مدنهم وقراهم والماء من حولهم ويأكلون مما يخزنون ولا يتزاورون إلا على المراكب والقوارب وما أشبههما . ولقد كان لقدماء المصريين بحيرة يخزنون الماء فيها لينفع ذلك أيام قلة المياه . ومن ابتداء الفتح الإسلامى وقبله إلى أمد قريب لم يكن لتلك البحيرة عمل بل هجرت لما ذهب مجد الأمة القديمة وبقى النيل يجرى مجراه حتى إذا كان العصر الحديث جعلت للنيل قناطر وسدود فى جهات كثيرة وضبط مافيه من الماء بقدر الإمكان فأخصبت مصر وأصبحت عروسا وازينت للناظرين هكذا القرآن ..

القرآن

يقرأ الناس القرآن بألسنتهم وهم لايعملون بما فيه بل هم أجهل الناس به كما كان النيل يجرى من وراء خط الاستواء إلى البحر الأبيض ولا ينتفع الناس به إلا أيام الفيضان وهى أيام قليلة ولذلك لم يكن يسكن بلادنا إلا نحو مليونين . أما الآن فقد أصبح السكان نحو (١٤) مليونا أى سبعة أضعاف سكانه من قبل وفيضان القرآن على أمة الإسلام فى القرون المتأخرة لم يكن إلا الأحكام الشرعية من الحيض والنفاس والميراث والوضوء وهكذا فأجدبت الأمة الإسلامية وخلت ربوعها من الأنيس وحل بها الإنكليس وأذلها الإنجليز والفرنسيس وو-وس لها إبليس .

فهذه سورة (الأعراف) جاء فيها ذكر الأمم الجاهلة أو الفاسقة تذكر المسلمين بما حل بهم الآن من خراب ممالكهم كما خربت عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون لما طغوا وبغوا وجهلوا العلم والحكمة وكانوا ظالمين .

سورة (الأعراف) تذكرة للمسلمين وإنذار لهم بقرب ذهاب دولهم بل ما فيها من القصص هى عين ما حل بالأمة من ذهاب مجد وضياع بلاد وخراب أمم بما فسقوا وبما جهلوا والفسق والجهل متلازمان وهما صنوان وأخوان لايفترقان .

سورة الأعراف جاءت لإظهار الحقائق

جاء فى سورة (البقرة) قصة آدم وأتبعت بقصص بنى إسرائيل ولم يذكر هناك صراحة نتائج قصص آدم ولا ثمرته ، ولكن فى هذه السورة العلم والمعرفة والفهم . ألم تر أن قصة آدم فى هذه السورة قد أعقبها بدرس فى التهذيب والتربية فقال « يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ينزع عنهما لباسهما بل تجاوز ذلك إلى ماهو أرقى وأكمل وأتم وأعظم وأنفع وأجمل فقال « ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله » ياعجبا يذكر قصة آدم ويخرج من نزع لباسه الجسمى إلى الكلام فى لباس التقوى لنا ويجعل لباس التقوى خيرا ويقول « ذلك من آيات الله » .

إن هذه القصة ذكرت فى أول سورة (الأعراف) فى ابتداء القصص ليدلنا أن هذه الحكايات والقصص لايراد لفظها ولا مجرد حفظها ولا فهم معناها . بل يراد منها مايلزمنا فى حياتنا . ويحفظ فى كياننا . ويؤلف جامعتنا . ورقينا فى هذا الوجود وإلا فأين ماحصل لآدم وحواء من كشف سوآتهما وما ألهماه من خصف الورق عليهما وما جاء تفريعا على قصصهما من ذكر اللباس الذى يوارى سوآتنا من القطن والكتان والتيل والحرير وغيرها وما فوق ذلك من لباس التقوى وأنه يجب علينا أن نتقى وسوسة الشيطان لئلا ينزع عنا لباس التقوى كما نزع من أبوينا اللباس الظاهرى . هذه القصة تنطق بلسان فصيح أن ماورد فى القرآن من القصص لم يكن إلا للنتائج التى تنفعنا ولم يذكر من ذلك قصص لذاته وإلا فهذه القصص أصبحت مشهورة بين الناس وهم لايلتفتون إليها .

فعلى المسلمين أن يحذروا من وقوع العذاب الذى هم أعلم الناس به فقد حل بالدول الإسلامية كلها وأحاط بهم من كل جانب وهم نائمون . ولو أنهم عرفوا أن سورة (الأعراف) إن هى إلا مثل من الأمم الخالية

لما سيحصل في الأمم المستقبلة التي نحن منها وقد مسنا نفس العذاب الذي حاق بتلك الأمم من عاد وثمود الخ .

لو عرف المسلمون ذلك لرجعوا إلى نظام الله في السموات والأرض وفهموا خلق السموات والأرض والظلمات والنور وعلوم النبات والحيوان الخ . وإذن تكون هذه العلوم التي تبلغ آياتها (٧٥٠) آية أشبه بالقناطر التي في نهر النيل والسدود والعرم والحبوس التي تحفظ الماء فيسقى الأرض ؛ هكذا أنتم أيها المسلمون عليكم أن تقفوا عند آيات النظام العام التي لا يمكن حمد الله حمداً حقيقياً إلا بها . وتدرسوا ما اشتملت عليه دولته كسياسة أوروبا بل أعظم وتكون تلك الدراسة أشبه بالقناطر في نهر النيل فيعم العلم ويتبعه السعادة فتعرفون نعمة الله وتنالون منافع ما خلق بعلمكم وعملكم لا بمجرد الطبيعة كما يتربى الدود على العود لا يفكر من أين وإلى أين ومم خلق ؟ وإذن يعطيكم الله من منافع جباله وأنهاره وسهوله ونجومه وزروعه وإلا قال لكم « فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » لأني لم أخلقكم دوداً ولا ذباباً ولا ناموساً ولا بهائم بل خلقتكم لتفكروا ولا تكونوا أعمى من معرفة العوالم العلوية والسفلية معرفة بها تستنتجون المنافع المادية والمعنوية وأنا إذن أعطيكم على قدر ما تكسبون « والوزن يومئذ الحق » وكل شيء عندي بميزان . انتهت المقدمة

(القسم الأول من سورة (الأعراف) وفيه أربعة مقاصد كما تقدم)

(المَقْصِدُ الأَوَّلُ)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ *

التفسير اللفظي

(المص) تقدم الكلام عليها بأبسط وجه في أول سورة (آل عمران) وهذه السورة (كتاب أنزل إليك) والجملة صفة كتاب (فلا يكن في صدرك حرج) ضيق (منه) لما اشتمل عليه من هلاك الأمم السالفة ومفاجأتها بالعذاب لما قصرت في كيل وميزان أو عدل أو شكر لنعمة أو كانت تفعل الخبائث ، ولم تسبق سورة قبل هذه فيها إنذار باستئصال الأمم ؛ فلذلك ابتدئت بأمره صلى الله عليه وسلم ألا يكون في صدره حرج وضيق ، لأن التبليغ يحتاج إلى الإنذار والتبشير والخوف والرجاء ، وهذه السورة وكذا سورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم عليهم السلام وما أشبهها قد أنزلت لبيان ما يعتري الأمم من الهلاك . وهذه السورة

أوّل سورة من هذا القبيل ؛ فلذلك بدأها سبحانه بطلب نفى الحرج عن صدره إيذانا بإتمام التبليغ ، وهى ليست كسورة الفاتحة المبدوءة بالحمد على تربية العالمين ولا كسورة آل عمران المبدوءة بتوحيد الله ولا كسورة النساء المبدوءة بطلب تقوى ربنا لأنه خلقنا من نفس واحدة ولا كسورة المائدة المبدوءة بالأمر بالوفاء بالعقود، ولا كسورة الأنعام التى ابتدئت بحمد الله على خلق السموات والأرض والظلمات والنور ، بل هذه هى التى فيها ذكر الأمم الهالكة بظلمها ، وقد جىء بها هنا بعد ما تقدم من تبيان الصلاة والزكاة والصيام والحج والتوحيد والنبوّة والميراث والعدل والحلال والحرام فى السورة المتقدّمة بل بعد ماذكر أن ديننا قد تمّ وكمل فى سورة (المائدة) فناسب أن يؤتى هنا بما يفيد خراب الأمم الظالمة فناسب ذكر عدم الحرج فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » (لتنذر به) ولتذكر (وذكرى للمؤمنين) فمن يكذبونك ينذرون به ومن يؤمنون بك يذكرون بما حلّ بالأمم قبلهم وليعلموا أنهم لاينجون من الخطر إذا قصروا فى شريعتك وإلا فلا معنى للذكرى، فتذكير المؤمنين معناه أنهم معرّضون لما تعرّضت له الأمم الظالمة ، فإذا تفرّق شمل المسلمين ، وإذا جهلوا ، وإذا ظلموا فإنى أنزل بهم العذاب كما أنزلت على الأمم الماضية ، وليس الإسلام بمنجيهم من الهلاك لأنى عدل أعدل بين الأمم وبين الأفراد ؛ فلذلك أعقبه بقوله (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) من القرآن والسنة (ولا تتبعوا من دونه أولياء) يضلونكم من الجنّ والإنس : أى ولا تتبعوا من دون دين الله أولياء (قليلا ماتذكرون) أى تتذكرون تذكرا قليلا ، وما زائدة للتأكيد .

ثم شرع يبين مقصود ماجاءت به السورة مما يوقع الحرج فى القلوب والضيق فى النفوس تبيانا لما سبق فى آخر الأنعام من مجىء آيات الله بغتة حيث لاتنفع التوبة للأمم ولا للأفراد ، فقال (وكم من قرية) وكثيرا من القرى (أهلكناها) أردنا إهلاك أهلها (فجاءها بأسنا) عذابنا (بياتا) بائتين كقوم لوط (أوهم قائلون) عطف على بياتا أى قائلين نصف النهار كقوم شعيب إذ أخذتهم الظلة ، وأصل الكلام بياتا أو وهم قائلون ، فحذفت واو الحال استثقالا لاجتماع حرفى العطف : الواو ، وأو ، وإنما خصّ وقت البيات والقيلولة لأنهما وقت الاستراحة ، فوقوع العذاب فيهما أفظع (فما كان دعواهم) أى فما كان دعاء أهل القرية واستغاثتهم (إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسرا عليه ، وهذا هو المشاهد الآن فى الأمم الإسلامية ، إذ يدخل أهل الغرب فى مصر وتونس والجزائر ومراكش والهند وجاوه وسومطرة وسائر بلدان الإسلام كالهند وغيرها وبلاد السودان ، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وينزلون المقذوفات والنار من الطيارات فى سوريا والعراق وغيرها ، فتنزل تلك النار على الأمم الإسلامية ليلا ونهارا أو وقت القيلولة كما فى هذه الآيات ؛ فنسمع المسلمين يقولون : ربنا نحن متفرّقون جاهلون متواكلون ظالمون ، فعاقبنا الله بذنوبنا وليس عندنا علماء ولا حكماء ونحن فينا الطمع والحسد والظلم ، فعاقبنا الله بما كنا ظالمين .

هذا كلام المسلمين الذى قال الله فى هذه الآيات لنبيه صلى الله عليه وسلم فى شأنهم « وذكرى للمؤمنين » فعذاب هذه الأمم جاء فى هذه السورة « ذكرى للمؤمنين » ونحن المؤمنون وقد حلّ بنا ماذكرنا به ولم ينفع الندم ولا التوبة عند وقوع المصائب بالأمم الإسلامية . ومن أعظم المصائب ما أخبرت به عند كتابة هذا الموضوع إذ جاءنى مدرّس بمدرسة (الأمريكان) بالقاهرة ، وهو من متخرجى مدرسة دار العلوم ، وقال إن ناظر المدرسة المسيحى يأمر التلاميذ المسلمين جميعا أن يحضروا الصلاة ، وكذلك يأمر المدرّسين المسلمين أن يحضروا ، ثم إنه يجمع التلاميذ فى يوم من الأسبوع ويلقى عليهم درساً فى الأخلاق ملخصه : الذم فى الإسلام

وفي القرآن وفي نبينا صلى الله عليه وسلم ، حتى أن بعض التلاميذ ارتد وتنصر ، والباقون يحقرون دينهم ، وعندنا مجلس النواب ومجلس الشيوخ والوزارة ، وليسوا يقدرون أن يصنعوا شيئاً لأنه لاسلاح عندنا . أما الترك أيدهم الله بالنصر المبين ، فقد حرّموا مثل هذا في هذه الأيام وأغلقوا مدارس أمثال هؤلاء، وهم مصلحون .

وهذا من آثار العذاب الذي حلّ بديارنا أن يكون ثمرة غرسنا وهم أحسن أبنائنا ، والخلص منهم يخرجون حاقرين دينهم ووطنهم وأمتهم ، ونرجع فنقول إنا كنا ظالمين .

ثم لتعلم أيها الذكي أن حكمة الله في مثل هذا إنما هو إيقاظ النفوس وترقية المدارك . ولعمرك ما أرسل الله هؤلاء ليذمّوا في ديننا إلا ليحثنا على ارتقائه وذلك حتما يرقي الناس ، فارتقاء الشعوب لا يكون إلا بالمناظرة وإذا كانت الحرب داعية إلى رقيّ الأمم هكذا فليكن حرب الديانات بالذم والطعن داعيا حثيثا لرقيها والبحث في إعلاء شأنها ، وكل ذلك لارتقاء الأمم على الأرض . ولما كانت الأمم لابدّ لها من هداة ، وأولئك الهداة مسئولون والأمم مسئولون أعقبه بقوله (فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين) فيسأل الله الأنبياء هل أجيبوا ، والأمم عن قبول الرسالة ؟ والسؤال القصد منه التقريع والتوبيخ لإيقاع النكال ، وهذا هو عذاب الخزى المذكور في سورة آل عمران وإلا فإنه تعالى يعلم ما يفعلون وليس غائبا (فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين) فليس يخفى علينا شيء من أحوالهم . ولما كان العالم بالأشياء لايلزم أن يكون عدلا في حكومته أردفه بقوله تعالى (والوزن يومئذ الحقّ) أي ووزن الأعمال العدل السويّ حاصل يومئذ ، أي يوم القيامة ولقد عرفت الوزن في أوّل سورة آل عمران ، وأن الله وزن في هذه الدنيا سائر الذّرات والحركات والسكنات ، ومن قرأ علم الفلك والطبيعة والكيمياء أدرك وشهد كيف توزن الذرات في دخولها في الماء المكوّن من (اكسوجين وأودروجين) إذ تكون ذرات أحدهما مع ذرّات الآخر بنسب صادقة تامة عدّا ووزنا ولو اختلت ذرة واحدة لم يكن ماء ، وهكذا إذا قرأت ما كتبناه في سورة (البقرة) عند قوله تعالى « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس » وكيف كان نظام الذرات والعناصر في تركيب النبات من القمح والذرة والبرسيم وغيرها لايختلف ، وباختلاف العناصر في المقدار عند دخولها في النبات يختلف فيصير الغذاء ملبسا والملبس غذاء ، كل هذا مذكور في سورة البقرة وفي آل عمران موضحا مشروحا ، ليعرف الذين قرءوا هذه العلوم وليشهدوا أن الله وزن كل شيء بالحق ، ومن شهد ذلك في هذه الحياة سهل عليه وزن يوم القيامة فالله رب العالمين . والعالم قسمان : عالم الدنيا وعالم الآخرة ، ولقد شهد الحكماء الوزن في الدنيا ؛ فهكذا يقرّون بالوزن يوم القيامة ، وهذا سهل على من قرأ صنعة الله في الدنيا ؟ فأما من عداهم من الذين لايقرءون فما أحراهم أن يوصف لهم ذلك بضرب الأمثال !.

قال ابن عباس رضي الله عنهما « يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة ، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان » وإذا سمعت ما قاله البغوى عن بعضهم إن الأشخاص هي التي توزن مستدلين بما روى في الصحيحين « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة » وإذا سمعت ما قاله غيره إن صحائف الأعمال توزن . وما قاله آخر : إن نفس الأعمال توزن فاعلم أن ذلك كله ضرب مثل ليعرف الناس بما يزاولون وإلا فنحن نشاهد وزن الله في السموات والأرض فبهذه العلوم أدركنا أنه وزن الحركات والسكنات والذرات في النبات والحيوان والفلك ، ومن اطلع على ما تقدّم من هذا التفسير أيقن إيقانا تاما أن الله يزن كل شيء ولا يبخس شعيرة ولذلك تسمع الله سبحانه وتعالى يقول « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فكأن العبد لما اطلع على صورته الحقيقية أدرك بنفسه نقصه وكماله وصار هو نفسه شاهدا على نفسه كأن ميزانه أصبح في فهمه وقائم بذهنه وأدرك ما كان حسنا وما كان قبيحا من أفعاله .

وإذا كانت الأيدى والأرجل والألسن تشهد ثم الأنفس تعرف فهذا دليل أن ميزانه فى الدنيا هو ميزانه فى الآخرة .

بهذا فليعرف جمال الله وحكمه ووزنه الحق الذى شاهدنا ونظامه الجميل الذى أدركنا فالموزون عاينّاه والميزان ما رأيناه فالموزون مشاهد والميزان معلوم لم تشهده العيون وقد أقرّت به القلوب .

وإذا سمعت ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مدّ البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتى الحافظون؟ فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لايارب إلى أن قال فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ » وهذا الحديث أخرجه الترمذى وأحمد بن حنبل .

فإذا سمعت هذا فاعلم أنه تمثيل لحال الوزن وترغيب فى الإيمان لأن من آمن يطمع فى أن يعمل ومتى عمل ثقلت موازينه ، وكثير من يغترون بظاهر الحديث فينطقون بالشهادتين ويكتفون بهذا وهم مغرورون جاهلون بل الوزن حقّ والحساب مبنى على الوزن ولابد من التهذيب والتربية .

فالمراد من ذلك أن هذه الشهادة أسّ للأعمال فالوزن لها ولما ترتب عليها وإن لم يكن كذلك ضاعت ثمرات جميع الأديان وهذا هو الذى يغترّ به الجاهلون كما أوضحناه فى غير هذا المكان ولذلك قال تعالى هنا « والوزن يومئذ الحق » (فمن ثقلت موازينه) أى أعماله الحسنة (فأولئك هم المفلحون) الناجون الفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) أى أعماله (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) بتضييع الفطرة السليمة التى فطرت عليها (بما كانوا بآياتنا يظلمون) فيكذبون بدل التصديق .

واعلم أن الوزن كما ذكر فى ديننا ذكر فى الديانات السابقة كديانة قدماء المصريين وقد صوّروا هيئة الميزان والكفتين واللسان ، فإن غلبت الحسنات السيئات ارتقت الروح إلى ربها ، وإن غلبت السيئات الحسنات التقم قلب الميت كلب ، والذى يقضى على الميت عندهم (٤٢) قاضيا وصورهم مرسومة فى المعابد والهيا كل يقرؤها المتعلمون فى الدول الحاضرة .

فهذا الوزن الذى فى القرآن وردت به الكتب السماوية لأن دين المصريين هو دين إدريس الذى ورد ذكره فى القرآن وهو من الرسل الذين يجب معرفتهم تفصيلا فى دين الإسلام ويسمى عند بعض الأمم (اخنوخ) ويسمى أيضا (ميزوستريس) وهذه اللفظة وردت فى القرآن (إدريس) ولها مشابهة فتعجب كيف شابهت الأديان فى الوزن والميزان .

ولما كان الناس خلفاء الله فى الأرض وهم يستمتعون بها وبذلك وجب حسابهم أردفه بقوله (ولقد مكناكم فى الأرض) أى مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) أى أسبابا تعيشون بها جمع معيشة (قليلا ما تشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا على ما صنعت لكم وأنعمت به عليكم . والشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، ويقال الشكر تصوّر النعمة وإظهارها . انتهى المقصد الأوّل من القسم الأوّل .

(المَقصِدُ الثَّانِى)

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَامَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *

التفسير اللفظى

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) ممن سجد لآدم . وظاهر الآية أن إبليس كان من الملائكة . واعلم أنه لاطائل فى الخلاف : أمن الملائكة هو أم ليس منهم ؟ وإنما هو من نار وهم من نور والاستثناء على الأول متصل وعلى الثانى منقطع فإن الله هو أعلم بغيبه ، ولكن الذى نشاهده فى هذا الوجود يفيدنا أن آدم وأبناء آدم قد انقسم العالم الذى أمامهم قسمين ؛ قسم أطاعهم كالأنعام والدواب والطيور وقسم عصاهم كالوحوش والأسود وما أشبه ذلك، وهكذا الحيوانات الذرية منها ماهو لفائدة الحيوان والإنسان ومنها ماهو لقتلهم .

ولاجرم أن هذا كله خاضع لتنظيم الملائكة بحكمة دبرها الحكيم ، فآثار السجود من الملائكة وامتناع سجود إبليس لها نظائر فى المشاهدات حولنا ؛ كما أن من النفوس المجردة عن المادة ماتوسوس للناس ومنها ماتهديهم فترى آثار الصلاح من الهداية والطلاح من الوسوسة . هذه هى الآثار التى نعلمها فى المشاهدات أمامنا والمعلومات بعلومنا وماعدا ذلك نسكله إلى الله . وإليك بقية المحاورة (قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك)

أى أىّ شئ منعك من السجود، ولا زائدة. وفى آية أخرى « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ » وهذا السؤال للتوبيخ والتقريع (قال أنا خير منه) أى الذى منعنى من ذلك أنى خير منه ، وهل يسجد الفاضل للمفضول والرفيع للوضيع فكيف يؤمر به ؟ .

ثم علل ذلك فقال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) ولاجرم أن النار ألطف جوهرا وأخفّ وأجمل وفيها الضياء والنور ولها الشرف . أما الطين فإنه ثقيل لاضوء فيه ولا شرف ، وأنا وإن كان بعض المادّة فى تركيبى فالنار غالبة على هيكلى، وآدم وإن كانت الحرارة من قوام جسمه ومن نظام هيكله فإن الطين غالب عليه . إن آدم من صلصال إذا نقرته صوّت كالفخار الذى يصنع منه الناس الآنية .

ولا جرم أنه مركب من نار وطين والطين هو الأغلب ولذلك ترى فيه طبائع مختلفة ، فبينا تراه لايقدر على الطيران فى الجو لثقل جثته تراه يفكر فى الأمور العالية لخفة روحه ولطافة شكله ، ففى الإنسان ثقل الطين وخفة النار ولطافتها، وفيه الغضب وهو من القوة النارية وفيه الشهوات وطلب الأغذية وهى ترجع إلى عنصر الطين . أما أنا فإنى خير منه لأن طبع النار وهو الأشرف غالب علىّ .

وهذه الحجة من الحجج التى يستعملها الناس فى محاوراتهم للمغالطة والمكابرة والمكاثرة والكبرياء ذكرها الله ليرينا أكثر ما يحاور الناس فى سياستهم وجدالهم . واعلم أن هذه الحجة خطؤها من أربعة وجوه ، فإن عنصر الطين فيه من الفضائل مالايصلح لها عنصر النار كالرزانة وقبول النبات من الشجر والزرع، وفى الطين الأمانة بحفظ الصور وليس فى النار مثل ذلك وفى النار هلاك .

وإذا سلمنا أن النار أفضل من الطين جدلا فمن ذا الذى جعل الفضل بالعنصر والأصل أليس للصورة دخل فى التفضيل وكذلك الفاعل وهكذا نتائج الأعمال والأخلاق فكل مصنوع كالكرسى لابدله من مادّة وصورة وفاعل وغاية ، فمادة الكرسى الخشب وصورته هى التى بها يصلح للجلوس عليه وفاعلها النجار وغاية هذا كله الجلوس عليه .

هكذا آدم مادّته الطين وفاعله الله وصورته معروفة وغايته الحكمة والعلم والعمل . فانظر كيف يقول الله فى الصورة « فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » فهذا إشارة إلى إكمال الصورة و « قال ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ » إشارة إلى عناية الفاعل . وأشار إلى غاية آدم بقوله « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة » فإذا كان استعداد آدم للعلوم فاق استعداد بعض الملائكة أفلا تكون هذه الغاية ذات فضل عظيم ويكون هو أفضل من إبليس فثبت أن هذه الحجة أشبه بحجج (أباليس الأرض) من رجال السياسة والدجالين والكذابين .

ولست ترى كلام أكثر الناس إلا على هذه الطريقة . فترى الرجل يقول أنا خير من فلان فإنّ أبى كان أكثر مالا وولدا وأنا من نسل رجل عظيم فيظنّ الجهول أن الله يرفع الناس على حسب عناصرهم وأصولهم ، وما درى أن الورد تشم رائحته ولا ينظر لما فى الطين الذى تغذى منه من قذر وهكذا يستقذر الناس ما خرج من الإنسان وهو أفضل من على الأرض ويقول رجال الاستعمار قد جئنا بلادكم لنرقيكم ، وهم إنما جاءوا ليفسدوا فى الأرض ويأكلوا أرزاقهم .

فهذه الحجة من الحجج التى نسمعها صباحا ومساء من أمم الأرض المتعلمين فى المدارس والكليات فى أوربا والشرق الذين يضلون الناس بآرائهم ليأكلوهم « أكلا لما » لأنهم يحبون المال حبا جما .

ولما كانت هذه من نوع السفسطة وهى المغالطة وهى من أقيسة المنطق الخمسة وهى أدناها منزلة كما يقال الرجل ، لاتشرب العسل فإنه قىء الزنابير . ومن كان هذا ديدنه من الناس لايقنعه جواب ولا يهذبه خطاب

كما نرى رجال السياسة يحاولون بالباطل ولا يمكنهم إلا الحرب ، فأما القول فلا يفيد ، لذلك أجاب الله إبليس إجابة تعلمنا ألا نجادل المشاغب السفسط وإنما نعدل إلى القوة والغلبة ونسعى لإزالة المنكر بالعمل لا بالقول ، ولذلك (قال) الله تعالى إن كنت تتكبر (فاهبط منها) أى من صورة الملائكة أو من السماء (فما يكون لك أن تتكبر فيها) فى صورة الملائكة أو فى السماء ، لأن آثار المخلوقات إن لم تكن مشاكلة لمبادئها انحطت قيمتها ، والإنسان مثلا إذا لم يحافظ على فضائل العلم والعقل انحط إلى درجة أدنى واستعمل استعمال البهائم لجر الأثقال ، وهكذا إذا كان ملوك الأرض لايقومون بجلال الملك وحقه ينزلون عن عروشهم، والسيف إذا لم يكن قاطعا صارما استعمل استعمال السكين ، هكذا من خالط الملائكة وتنزل عن صفاتهم أولى بأن يسلب صورتهم ويطرد من مقامهم وينحط إلى الأعمال الصغرى كما نرى الحيات والعقارب المؤذية للانسان والحيوان ؛ فلتكن الأرواح الشريرة الإبليسية منحطة إلى دركات الجهالة فتستعمل استعمال الحيات لتؤذى الناس ، فهذه بسمها وهذه بوسوستها .

وكما لا تصل الحية لمنصب غزال المسك الحامل نوافجه ، هكذا لا تصل نفس إبليس ومن على شاكلته درجات العز والكرامة فتوصل إلى الناس علما ومعرفة كالملائكة بدل الوسوسة التى ترديهم وتسقط ناقصيهم ، وكما ينجو من خطر الحيات من سكنوا بيوتا خلت من العفونات ، هكذا ينجو من خطر الوسوسة نفوس نقية صالحة ، ومن كانت هكذا حالهم من الشقاوة بسبب الكبرياء والعظمة فإن الهوان لاحق به ، ولذلك أردفه تعالى بقوله (فاخرج إنك من الصاغرين) أى فاخرج من صورة الملائكة إنك من الأذلاء المهانين . ولما كان من عادة الله ألا يدع جسما ولا روحا بلا عمل لأنه لامعطل فى الوجود ، فإنك ترى الأرض التى لايزرعها الناس يخرج فيها زرع ينبت بهطول المطر سواء انتفع الناس به أم لم ينتفعوا وهكذا نجد أجسام الحيوان الميتة تصبح مأوى للدود والحشرات تعيش فيها وهى رديئة منتنة ، فإذن لامعطل فى الوجود .

ولما كان إبليس من المخلوقات وقد فاته حياة الكرامة فلا جرم يعيش حياة أدنى منها ، فإن لم يصلح للإلهام فلا جرم ينحط للوسوسة ، وهذا حتم فى هذه الحياة التى نحن فيها ، لأن عالمنا فيه الخير والشر والنحس والسعد والموت والحياة ، ومن فقد أحد الضدين تلبس بالآخر وبهذا تفهم هذه المحاورة (قال) إبليس (أنظرنى) أمهلنى (إلى يوم يبعثون) أى إلى يوم القيامة فلا تمتنى (قال) الله (إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى فبسبب إغوائك إياى وإيقاعك الغى فى قلبى الذى كان سبب هبوطى إلى الأرض لأجلسن لهم على طريقك القويم بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم قياما بطبيعتى كما تقوم الحيات باللدغ والوحوش بالافتراس والهوام بالإيذاء والحيوانات الذرية بإحداث الحمى والجدرى والحصباء والطاعون ؛ فليكن فى بنى آدم من يكونون على شاكلتى إتماما للنظام العام ، فلا ينجو من وسوستى إلا المصطفون الأخيار ، ولذلك قال تعالى فى آية أخرى « هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين » وإنما انحطوا إلى جهنم ، لأن الكبرياء من آثار الغضب الذى هو قوة نارية ؛ فجهنم يرجع إليها من كانوا فى الدنيا على طبيعة تدعوهم إلى ورودها ، وطبيعة الكبرياء لا اعتدال فيها ، وحرارة النار وزمهريرها خارجات عن الاعتدال . ثم أخذ إبليس يفصل كيفية الإضلال ، فقال (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) وإنما قص الله علينا ذلك ليعلمنا أن الوسوسة داخلة فى أحوالنا كلها فهى أشبه بالهواء المحيط بالإنسان والحيوانات الذرية التى تحدث الأمراض فينا كالسل والجذام والبرص

وهى محيطة بنا من كل جانب ، ولا ينجو منها إلا الأقوياء الذين لم يستعدّوا لتلقيحها ، هكذا هنا تجد الوسوسة والخداع عامّة فى النوع الإنسانى . وما هو ذاك ؟ هو أنك تجد الأدلة التى يستعملها الناس فى أحوالهم العامة كالدليل الذى ذكره إبليس ، فإذا قال إبليس « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » على سبيل المغالطة ، هكذا ترى الناس يضلون بأدلة مثل هذا الدليل سواء بسواء بل الضلال الذى يحيط بنا كثير جدا ، ولذلك قال شقيق البلخى : مامن صباح إلا قعد لى الشيطان من الجهات الأربع من بين يدىّ ومن خلق وعن يمينى وعن شمالى ، أما من بين يدى فيقول لاتخف فإن الله غفور رحيم ، فاقرأ « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » وأما من خلق فيخوّفنى من وقوع أولادى فى الفقر ، فأقرأ « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وأما من قبل يمينى فيأتينى من الثناء فأقرأ « والعاقبة للمتقين » وأما من قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » اه .

فانظر كيف جعل الناس الغفران سببا فى الذنوب ، وهذه هى الداهية الدهياء والمصيبة العمياء أن يسمع الإنسان آية أو حديثا وربما كان موضوعا أو ضعيفا فيغترّ به فيصبح فاسقا فاجرا ، وقد أصبح المسكين بسبب فهمه فى الدين جهلا من الغاوين الضالين . ومن الناس من يكتفى باسم الإسلام ولا علم ولا عمل ، وهذا هو قوله تعالى « يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضلّ به إلا الفاسقين » وحجج هؤلاء كحجة إبليس سفسطة ومغالطة ومجادلة بالباطل ، وبهذه الحجج الإبليسية انحط كثير من أمم الإسلام وتأخروا ، فيقولون لانقرأ الطبيعة لأنها كفر ولا نبالى بالأسلحة الحديثة لأن الإسلام منصور ، وهكذا من الحجج الخاطئة الكاذبة الجاهلة الناقصة ؛ فتعجب كيف كانت الوسوسة كلها من قبيل هذه الحجة ، وتعجب كيف جاءت فى القرآن؟ وكيف كان ذلك دائما صباحا ومساء فنغتاب الناس ونقول « إن الله غفور رحيم » ونأ كل فوق طاقتنا وعلم الطب يمنعنا فنقول شىء قليل والقليل لايضرّ ، ونظلم الناس ونقول هم يستحقون ؟ وهكذا من الأدلة الكاذبة التى تلازمنا فى أ كثر أحوالنا ؟ .

عجائب القرآن

فانظر كيف كانت هـذه الحجة الإبليسية فى ظاهر الأمر وعند العامة أمرا سهلا لاشىء فيه ، وعند العقلاء والخواصّ أصبحت رمزا لكل الحجج التى تدلى بها صباحا ومساء فى أ كلنا ونومنا ومحادثاتنا ، فياعجبا كل العجب من هذا البيان القرآنى ! ظاهره يفهمه الجاهلون ، وباطنه بحر علم زاخر وأمر عظيم وحكمة دقيقة بالغة لايمسها إلا المطهرون ، ولا يعقلها إلا العالمون ، ولا يدركها إلا المفكرون . ولما كان أ كثر الناس متقلبين فى هذه الحجج صباحا ومساء ، قال « ولا تجد أ كثرهم شا كرين » وقال تعالى فى آية أخرى « وإن تطع أ كثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ » فانظر كيف تطا بق القولان .

ولما كان هذا شأنه (قال اخرج منها) من السماء (مذءوما) معيبا من ذأمه إذا ذمّه ، والذأم والذم العيب (مدحورا) مطرودا مبعودا من رحمة الله ، والله (لمن تبعك منهم) وجواب القسم قوله (لأملأنّ جهنم منكم أجمعين) والقسم وجوابه جواب الشرط . ولما أتمّ الكلام على إبليس وكبره وحججه السفسطية أخذ يبين نتائج هذه الأخلاق وثمراتها ، فإن من طبيعة هذا الوجود أن يجذب كل مخلوق غيره إلى مشاكلته والدخول فى زمرته والسير على طريقته والجرى على منواله . ألا ترى إلى النبات كيف يجتذب إليه العناصر المحيطة به فتدخل فى تركيبه جذوعه وسوقه وأغصانه وأوراقه وأزهاره وأثماره ، وإلى الحيوان كيف يجتذب تلك الأوراق والأزهار إلى جثمانه فتتشكل بهيئته وعروقه وعظامه ولحمه ودمه ورأسه وعينه ، وإلى الإنسان كيف كان يسعى لأن يملك ماحوله ويستخدم الإنسان والحيوان المحيط به ، ولا يفتأ يدعو من حوله ليكونوا

على شاكلته فى أخلاقه وملابسه وعاداته ودياناته وعلومه . وهـذه الطبيعة شاملة لهذا الوجود حتى إن النار لتلتهم ماحولها وتدخله فى حدود مزاجها والماء يرطب ماخالطه ، فهكذا هنا فى إبليس لما حرم الدرجات العليا وتلبست نفسه بالإثم والبغى وخاطب الله بحجة المغالطة أشربت نفسه الضلال والبهتان وأصبح ذلك عادة ملازمة وطريقة دائمة أخذ يلقى إلى غيره من بنى آدم مارسخ فى نفسه ويوحى إليهم ما امتلأت به نفسه من الضلالات والرجس والبهتان ، كما نرى أن المرأة الفاجرة إذا طوى الزمان سجل شبابها وخارت قوى شهواتها وفارقها أعز أحبابها عمدت إلى الشابات فأوعزت إليهن بما امتلأت به نفسها ، وهكذا الرجال الفاسقون الذين شبوا وشابوا وهم فى الفسوق هائمون تـتـروح نفوس هؤلاء ، وهؤلاء بمن يشاكلهم فى أخلاقهم ويوافقهم فى آدابهم ويناسبهم فى أعمالهم ، ويحب الفاجر والأكول أن يرى الفاجرين والآكلين ليتسلى بطلعتهم ويفرح بمرآهم .

وقد ورد فى المثل « إن الطيور على أشكالها تقع » لذلك قص الله قصص آدم الذى أغواه إبليس ولقنه من الحجج السفسطية ما امتلأت به نفسه ليميله إلى طبعه ويقوده إلى خلقه استرواحا بالنقائص وحبا للمشاكلة فقال (و) قلنا (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظالمين) أما الجنة فهى كما قال أبو مسلم الأصبهانى : كانت بعض جنات الأرض ولذلك تمكن الشيطان من الوسوسة لآدم ؛ فلذلك قال تعالى (فوسوس لهما الشيطان) الوسوسة الصوت الخفى كالهينمة والخشخشة ، ومنه وسواس الحلى ، ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس إليه ألقاها إليه ، ثم ذكر عاقبة الوسوسة فقال (ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما) ليكشف لهما ماستر عنهما من عورتهما وكانا لايريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . ثم ذكر كيفية الوسوسة والحجة السفسطية التى اجتذب بها إبليس آدم وأغواه بها ، فقال تعالى (وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا) كراهة (أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) أى إنما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة ، لأن من أكل منها إما أن يكون كالملائكة يعلم الخير والشر ويستغنى عن الغذاء ، وإما أن يكون من الخالدين الذين لايموتون ويبقون فى الجنة ، فالله منعكما منها لتبقيا مفتقرين للأكل والشرب ولتموتا ، فهو بهذا المنع يحرمكما من الكمال الأتم والمقام الأعظم . ولم يكتف بهذا الدليل الموهوم بل أقسم لهما (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) فهذا البرهان المغالطى الذى يشبه البرهان المتقدم الذى تعالى فيه على آدم بشرف عنصره وبالقسم الذى يدخل فى النفس صدق قائله خدع آدم ، فلذلك قال (فدلاهما) أى فنزلهما إلى الأكل من الشجرة وبذلك أنزلهما من درجة عالية إلى درجة سافلة (بغرور) بما غرهما به من القسم كما يقول الرجل لآخر : اشرب هذا الكأس فإنه مقوّ لشهوة الطعام ومفرح للقلب وكما يقول آخر : إنما الحياة مغالبة لخذ من الناس ماقدرت عليه حقا وباطلا (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) أى فلما وجدا طعمها وهما يأكلان منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عورتهما كما يسقط لباس الشرف والفضل والمال بالخمر والزنا والظلم ، ويصبح الإنسان موصوفا بأنواع الفسوق والظلم وتتلون نفسه بلون تلك المعاصى فتصير سجية له ، وهل لباسهما كان نورا ساطعا مانعا من رؤية العورات أو غيره ؟ لافائدة فى معرفة ذلك ، لأن الذى يهمنا نحن غير ذلك ، يهمنا أخلاقنا المستنبطة من هذه القصة .

ولما كان من يفعل ذنبا يجدّ فى إخفائه ليستر عورته البادية ويخفيها ويكتمها عن الناس حتى لاتنكشف سوأته ويبذل للخطباء الأموال ويدفع للجرائد مالا ليذودوا عنه وليخفوا عوراته وسوآته ، هكذا من انكشفت عورته يجدّ فى إخفائها ، لذلك قال الله تعالى (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من ورق التين أو غيره ، وكما أنك ترى من نوع الإنسان فى السودان

للصرى من يعيشون بلا لباس بل هم عراة بالفون اللابس ولاتستر عليهم حتى على عوراتهم ، وإذا حضروا أمام الحكام للصريين أو لإنجليز ألبسوا لباسا ثم يخلعونه عند خروجهم . وهناك قوم آخرون يخصفون الورق وآخرون يسترون العورة ، وهكذا ذكر الله كيف كان آدم عاريا ثم خصف الورق ثم أنزلهما إلى الأرض فزرع هو وأولاده فأكلوا ولبسوا بعرق جبينهم . ولما كان الإنسان عادة يذكر عواقب الذنوب بعد وقوعها وبكون التوبيخ والتقريع ، قال الله (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين ؟) بعاتبهما على مخالفة النهى موبخا (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أضررناها بالمعصية والتعريض للاخراج من الجنة (وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين) وهـذا كان قبل أن يكون آدم نبيا . واعلم أن طاعة الجاهل قد تكون معصية العالم . وطاعة العالم قد تكون معصية الأنبياء كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ألا ترى أن العالم المفكر إذا ترك العلم وأخذ فى العبادة ليلا ونهارا وترك الأمة فإنه قد عصى وظلم نفسه ؟ ولكن معصيته بترك ماهو أفضل ويعاقب ، مع أن صرف الزمن فى العبادة أرقى درجات الذين تنحوا عن العلوم وعن الأعمال النافعة للأمة ، فمعصية آدم بالنسبة لدرجته فما صدر منهم على سبيل السهو أو التأويل يجدون فى أنفسهم حرجا منه وليست معاصيهم كمعاصى بقية الناس ، هكذا يقول كثير من العلماء ، لذلك خاطب الله آدم وحوّاء وذريتهما (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ) أى متعادين ، وذلك أن العالم الإنسانى مركب من عناصر مختلفة وطباع متشعبة ، وباختلاف قواه تختلف الأخلاق ، وباختلاف الأخلاق تكون العداوات ، وبالعداوات يكون الارتقاء ، فإن المسابقات فى الحروب والصناعات والأعمال تحثّ الناس على إكمال الأعمال ، فصار العقاب على المعاصى من أسباب الكمال ، فإن النوع الإنسانى لما تنزل عن العالم الكامل الجميل ونزل إلى عالم الكون والفساد كان للعبر عنه بالعقاب سببا لارتقائه وسهولة معايشه ، ولذلك أردفه بقوله (ولكم فى الأرض مستقرّ) استقرار (ومتاع) تمتع (إلى حين) إلى أن تنقضى آجالكم (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) للجزاء على الأعمال ، انتهى المقصد الثانى من القسم الأول من (سورة الأعراف) .

(المَقصِدُ الثَّالِثُ)

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ

فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون * وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون * ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون .

التفسير اللفظى

اعلم أن هذا المقصد قد جاء عقب قصة آدم ليبين المقصود من القصص ، وأنها ليست ترد لمجرد الحكاية فماذا يهم الحاضرين من الماضين إلا العبرة ؟ ولعمرى ليس للتاريخ من فائدة إلا الاتعاظ ، فلذلك لما قص الله قصص آدم عليه السلام أخذ سبحانه يبين مقاصد وفوائد هذه القصة المشتملة على لباس آدم ، وقد تعرى منه وعلى أن ذلك بسبب فتنة الشيطان له وبها خرج من الجنة وعلى احتجاج إبليس بأنه من عنصر النار وإغوائه لآدم حتى لبس عليه الأمر فقال إنك إن أكلت من الشجرة كنت كالملائكة ، فهذه ثلاث أصول : اللباس والإغواء والحجة الداحضة ، فلذلك أخذ الله عز وجل يخاطب بنى آدم جميعا ممتنا عليهم باللباس الذى أنزله فى الأرض من القطن والكتان والحرير وما أشبهها بحيث يستغنون عن خصف الورق ، وكيف كانت العناصر الأرضية بتفاعلها وامتزاجها بنسب معلومة تكون قطنا أو كتانا ، وهى بأنفسها على نسب أخرى تكون قمحا أو شعيرا ، فالملبوس هو عين المأكول من حيث العناصر ، وإنما أصبح هذا ثوبا وهذا رغيفا لاختلاف المقادير الداخلة فى النباتين (راجع هذا المقام العجيب فى سورة البقرة) عند قوله تعالى « وانظر إلى حمارك » إلى آخر الآيات فى قصص العزيز ، فإنك تجده مستوفى هناك من علم الكيمياء العضوية ، فتأمل فيما هناك وتعجب ، وذلك هو السر العجيب فى قوله تعالى « ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » وقد أفاد أن اللباس الجسمى الناتج من هذه العناصر الذى هو من آيات الله ويوارى سوآتكم وتتجملون به ليس خير لباس بل لباس التقوى من العمل الصالح والإيمان والحياء والسمت الحسن والعفاف وخشية الله فهذا اللباس خير من اللباس الذى أنزله الله للناس من القطن والحرير والكتان الخ .

ثم أشار سبحانه إلى ثانى الأمور الثلاثة وهو الإغواء فقال محذرا أبناء آدم قائلا : إياكم يابنى آدم أن يخرجكم الشيطان من الجنة بإغوائكم كما أخرج أبويكم من الجنة فلا ينزعن ملابس التقوى عنكم كما نزع عن أبويكم اللباس ، وبين سبب ذلك أن إبليس وقبيله يرونكم من حيث لا ترونهم وأن الأرواح جنود مجندة

والنفوس الشيطانية تنزع إلى أخلاقها فى وسوستها ، ولقد جاء فى علم الأرواح الحديث وفى مقال الامام الغزالى والفخر الرازى أن أرواح الأشرار من الناس تتمنى لو تعاد إلى اللذات فى الدنيا فلما حرمت تلك اللذات أخذت توسوس لما شاكلها من أرواح الأحياء حبا فى المشاكلة وإكثارا للأمثال والأشكال كما سيأتى فى قصة بلعام بن باعوراء الذى آتاه الله العلم والحكمة فتركها وصار معلما الضلال ، فالعالم الفاضل يعلم الناس طريقه حيا بالتعليم وميتا بالالهام ، والفاسق الضال يعلم الضلال حيا وميتا كما قيل عن هؤلاء الأعلام فكأنّ الشرير ملحق بالشياطين والفاضل ملحق بالملائكة فهذا قوله تعالى « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون »

وأشار سبحانه إلى الأمر الثالث فى القصة وهو الاحتجاج بالمغالطة كما احتج إبليس عند ربه لما أغرى آدم فقال (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فهذه الحجة كالتى تقدّمت فى قول ابليس إذ اعتبر الفضل بالأصل فهكذا هؤلاء يعتبرون التشريع بالموروث عن الآباء والحجتان مستويتان مغالطتان فان الآباء قد يكونون ضالين ، كما كانت النار فى حجة إبليس قد تكون سبب التدمير والاهلاك كما أن المخلوق منها وهو ابليس والشياطين والأرواح الشرّيرة سبب المعاصى والضلال لقصور عقول الأرواح الموسوسة والموسوس إليها ، وهذا هو ملخص قوله تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) إلى قوله (أتقولون على الله ما لاتعلمون) وقوله فيها (يوارى سوآتكم) أى التى قصد الشيطان إبداءها . روى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لانطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، وقوله (وريشا) أى لباسا تتجملون به والريش الجمال، وقيل الريش المال يقال ترش الرجل إذا تموّل (ولباس التقوى) تقدم هنا تفسيره وقوله (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) حال من أبويكم (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) تعليل للنهى وتأكيد التحذير منه ومن جنوده ، وقوله (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون) أى بما أوجدنا بينهم من المناسبة وقوله (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) لأنه تعالى لايأمر إلا بمكارم الأخلاق والفضائل .

ثم أخذ سبحانه يبين الأوامر التى يأمر بها فقال (قل أمر ربى بالقسط) بالعدل وهو الوسط فى كل شىء ، فلا إفراط ولا تفريط فى قول ولا فى عمل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) أى اقصدوا عبادته تعالى مستقيمين اليها غير عادلين إلى غيرها فى كل وقت سجود أو فى كل مكان سجود (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة متنبين بها وجهه خالصا (كما بدأكم تعودون) كما أنشأكم ابتداء يعيدكم ، وإذا كان كذلك فلتكن العبادة خالصة له سبحانه وتعالى (فريقا هدى) بأن وفقهم للايمان (وفريقا حق عليهم الضلالة) بمقتضى استعدادهم . ثم بين سبب ذلك فقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) للمناسبة الموجودة بينهم وهذا مقتضى طباعهم (ويحسبون أنهم مهتدون) فان المذنب له حجة يقتنع بها كما اقتنع إبليس بحجته والضالون مقتنعون بالاحتجاج باتباع الآباء . واعلم أن النوع الانسانى ما أوقعه فى الضلال إلا جهله ، فمن سرق أو قتل أو ظلم أو أسرف فى الأكل والشرب وغيرها أو استدان أو أسرف فى عمل من أعمال الحياة فانه لم يفعل ذلك إلا وهو معتقد أن له عذرا ، ولا ترى شريرا أو ظالما إلا وعنده براهين يقبحها وأعذار ينتحلها كالبرهان المذكور عن إبليس، فقوله « ويحسبون أنهم مهتدون » أى بما قام عندهم من الدليل السفسطى الذى أقامه إبليس فى تفضيله نفسه على آدم .

ولما كان ذكر المساجد والصلاة فيها والدعاء بعد ذكر اللباس ناسب أن يبين حكم اللابس فى الصلاة . ولما كان الأكل مناسبا للملبس لاقترانه به فى أمور الحياة ذكر أحكامهما معا فقال (يابنى آدم خذوا زينتكم) ثيابكم لموارة عوراتكم (عند كل مسجد) لطواف أو صلاة . ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة فى الصلاة ، وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة .

قال قتادة: كانت امرأة تطوف وتضع يدها على فرجها ، وقال ابن عباس: إنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على حقلها سيورا مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب . وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية « خذوا زينتكم عند كل مسجد » أخرجه مسلم ، وقال مجاهد: كان حيّ من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجا أو معتمرا يقول لاينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت ربي فيه فيقول من يعير مئزرا فإن قدر عليه وإلا طاف عريانا فأنزل الله فيه ماتسمعون « خذوا زينتكم عند كل مسجد » والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة فستر العورة واجب في الصلاة والطواف . وقد كان بنو عامر لايأكلون في أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحقّ أن نفعل ذلك يارسول الله ، فأنزل الله عز وجل (وكلوا) من اللحم والدسم (واشربوا ولا تسرفوا) بالشروع في الحرام أو في مجاوزة الشبع أو بتحريم مالم يحرّمه الله من أكل اللحم والدسم ، فلا تحرّم الحلال ولا تتناول الحرام ولا يكن منك إفراط في الطعام وشره عليه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة .

وكان للرشيد طبيب نصراني حاذق ، فقال لعليّ بن الحسين بن واقد ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا » فقال النصراني ولم يرو عن رسولكم شيء في الطب ، فقال جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة وهي قوله عليه الصلاة والسلام « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عوّدته » ، فقال النصراني ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا . ولما كان الاسراف مذموما شرعا وعقلا أتبع ماتقدّم بقوله تعالى (إنه لايحب المسرفين) في الأكل والشرب وغيرهما ، فأما فيهما فالمرض وضياع المال ، وأما في اللباس والزينة وزخرفة المنازل والمباهاة فإن الاسراف فيها يدعو إلى ضياع المال والجهد ؛ ثم إن الأمم الشرقية الاسلامية وغيرها التي تتناول صناعات الفرنجة من مأكل وملبس ومشرب ومفرش وهم يسرفون فيها أموالهم ويهلكون أنفسهم يصبحون وقد ملكهم أرباب تلك المصنوعات ثم تتبعهم دولهم فيحتلون البلاد ، ولقد غرق العالم الاسلامي اليوم في المنسوجات الافرنجية وفتنوا بأعمالهم فياليتهم قلدوهم في الصناعات ولكنهم اشتروا مصنوعاتهم ترويجا لها وكسادا لصناعات بلادنا فينشط الأجنبي ويكسل الوطني وتتدلى الأمة إلى مقام الذل والعبودية .

إن التجار اليوم هي أسّ الاستعمار والاحتلال كما هو حاصل في أكثر بلاد الشرق ، إن اسراف المسلمين أذلهم للفرنجة وأضاع بلادهم ، لأذكر لك مثلا مما امتاز به المسلمون في الاسراف لتعلم كيف جهل ملوكهم جهلا فاحشا فأسرفوا وعموا عما حولهم من العالم الراقي وجهلوا دينهم جهلا فاضحا فقلدهم العامة وحذوا حذوهم في الإسراف فلذلك سقطوا في الذل لأن الله لايحبهم لأنهم مسرفون ومن لايحبه الله أذله فهؤلاء المسرفون يبغضهم الله وان كانوا في ظاهرهم مسلمين فهاك ماجاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٢٦

ملوك وملوك

حمل الينا البرق في الأسبوع الماضي نبأ الاحتفالات الباذخة التي أقامها مولاي يوسف سلطان مراكش احتفالا بتزويج ولديه وطرفا من النفقات الطائلة التي بذلت في هذه الاحتفالات ، من ذلك أن تكاليف الأنوار بلغت وحدها ثلاثة ملايين فرنك والحلاوى زهاء مليون والمثلجات زهاء مليون وأن للمدعوين من فرسان

وسادة وأسراء بلغوا زهاء أربعمائة ألف فذكرنا فى الحال ذلك الإغراق الذى يبلغ حدّ السفه فى صنوف البذخ الذى لبث لعنة الأمم الشرقية على القرون ، ثم قرأنا بعد ذلك ما أذيع من محتويات البرنامج الرسمى لقران ملكى آخر هو زواج ولى عهد البلجيك بالأميرة (أستريد) السويدية . واليك خلاصة هذا البرنامج الذى يشفّ عن الحزم ولاتنقصه الفخامة فى نفس الوقت .

يعقد العقد المدنى فى (ستوكهلم) ثم يعود الأمير البلجيكى وعائلته إلى (بروكسل) فى اليوم السابع من هذا الشهر وفى اليوم التالى تذهب العائلة المالكة إلى (انفرس) حيث يصل فى ذلك اليوم الطراد السويدى (تالجيا) وعلى ظهره الأميرة (أستريد) ووالداها ودوق ودوقة فستروجاسى والأمير اليكس الدنماركى وزوجته وأشقاء العروس وغيرهم من الأمراء والأميرات .

ولن يحضر ملك السويد إلى (بروكسل) حيث تذهب الأسرتان الملكيتان فى قطار خاص وتقام الزينات من المحطة إلى القصر الملكى ، وتقام فى المساء حفلة كبرى فى الاوبرا تقيمها بلدية (بروكسل) إكراما للعروسين .

ثم تقام حفلة الزواج الدينى فى كاتدرائية (بروكسل) فى اليوم العاشر من نوفمبر ، وفى المساء يقيم ملك (البلجيك) وملكته حفلة استقبال كبرى يحضرها ثلاثة آلاف شخص ، ويقال إن البرنس (أوف ويلز) سيكون بين المدعوين .

هذه مقارنة إسراف السلطان المراكشى واقتصاد البلاط البلجيكى وهو إسراف يثير العقل والحزم خصوصا إذا ذكرنا ماهنالك من فرق بين البلجيك ومراكش وبين سلطان تظلله الحماية الأجنبية وبلاط أمة مستقلة .

وهذا من سرّ قوله تعالى « إنه لايحب المسرفين » ثم أخذ سبحانه يردّ على من حرّم اللابس فى الطواف فقال (قل) يامحمد لهم (من حرم زينة الله) من الثياب وكل مايتجمل به (التى أخرج لعباده) أى أصلها يعنى القطن من الأرض والقزّ من الدود ونحو ذلك (والطيبات من الرزق) والمستلذات من المآكل والمشارب . قيل كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة ومايخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) بالأصالة ، والكفار وإن كانوا شركاءهم فيها فهم تبع لهم (خالصة يوم القيامة) لايشاركهم فيها غيرهم ، ثم قال (كذلك) أى كتفصيلنا هذا الحكم (نفصل الآيات لقوم يعلمون) وياعجبا لم ختم هذا المقام بهذه الجملة بعد أن أبان أن الطيبات من الرزق حلال وأن زينة الله التى أخرج لعباده كذلك ، وماالغرض إذن من تبيين الآيات لقوم يعلمون . يريد الله عزّ وجل أن يفهمنا فى أيامنا هذه نظائر ماكانت تفعله الجاهلية وأن نقيس الغباوة والجهل الحاصلين فى بلاد الاسلام الآن بالغباوة والجهل اللذين كانا عند أهل الجاهلية ، كلا ، ثم كلا ، إن الغباوة والجهل الحالين بأمم الاسلام الآن أشدّ وقعا وأعظم فتكا وأشدّ قتلا وأقوى عملا وأبعد أثرا فى انحطاط الأمم الاسلامية من عمل الجاهلية فى انحطاط أممهم . ولعمرى لئن تحامى الجاهل لبس الثوب فى الطواف فلكم تحامى بعض علماء الاسلام فى أيام أسلافنا وفى العصر الحاضر أن يدرسوا علوم الآفاق من الفلك والطبيعة مثلا ويحسبون أنهم بذلك يخدمون الدين وهم إنما يخدمون الشيطان ويحسبون أنهم مهتدون .

اختص الفرنجة بالمعادن ونظام النبات وتربية الحيوان ، فأما المسلمون فانما يقرءون ما كان يقرؤه آباؤهم وهم مقتصرون على علوم قشرية وأحكام شرعية وهم فى الكون لاينظرون ، ومن بحر نعمة الله الزاخر لايغترفون .

ولئن تحرّج بنو عامر أيام الحج عن تعاطى الطعام الدسم واللحم ، وإذا امتنع أهل اليمن أن يلبسوا

أثوابهم فى الطواف فلقد تخطى المسلمون فى أقطار الأرض كل معقول وتركوا نعم الله فى الأرض وفى السماء للفرنجة وخالفوا نص كتابهم لظنهم أن علم الفقه كاف وحده ، ولقد أخبرنى عظيم من عظماء الهند أن بعض العلماء هناك يحرّمون العلوم . وقال لى العالم الصينى (وان ون كين) من مدينة (تاينتسن) إن العلماء هناك حرّموا على المسلمين جميع العلوم حتى سبقتهم الأمم العائشة معهم فى الصين من الوثنيين ، ولعمرى لئن قال الله هنا « قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وقال المفسرون : إن زينة الله للذين آمنوا بالأصالة ولغيرهم بالتبع ، لقد انعكس الأمر وأصبحت زينة الله ومائدته المنصوبة ونجومه المنظورة وحيواناته المبثوثة ونباتاته المشهودة وآثاره المعهودة وجنوده المنظومة ومدنه العظيمة وجواهره البديعة ومعادنه اللطيفة ونظام الحكومات وحفظ العلوم واللغات ، كل ذلك أصبح خاصا بالفرنجة والمسلمون لهم تابعون ، فيا ألله ألهمنا علما وحكمة إننا من عبادك ، وهذا كتابك وأنت أخبرت أنها لنا فى الدنيا وقال السادة المفسرون إنها لغيرنا تبع لنا فكيف انعكست الآية ، اللهم انك عدل وقولك صدق ، نصبت المائدة فأعرضنا ودعوتنا إلى شكر النعمة فامتنعنا وأحجمنا ، إننا يا ألله حاملو كتابك لمن بعدنا وهم الذين يكونون قد تلوا نعمك وزينتك بالأصالة وغيرهم تبع لهم لأنهم رحمة للعالمين بعد نبينا صلى الله عليه وسلم .

ثم شرع سبحانه يبين ماحرّمه فقال (قل إنما حرم ربى الفواحش) جمع فاحشة وهى ماقبح وفحش من قول أو فعل : أى قل يامحمد لهؤلاء المتجرّدين من الثياب عند الطواف ويحرّمون أكل الطيبات مما أحل لهم كيف تحرّمونه على أنفسكم والله لم يحرّمه عليكم ؟ « إنما حرم ربى الفواحش » من الأفعال والأقوال (ماظهر منها وما بطن) أى سرّها وعلانيتها (والإثم) ومايوجب الاثم وهذا تعميم بعد تخصيص (والبغى) الظلم والكبر (بغير الحق) متعلق بالبغى للتأكيد (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) تهكم بالمشركين ودلالة أن ماليس عليه برهان لايجوز اتباعه (وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) بالإلحاد فى صفاته تعالى والافتراء عليه كما قالوا هنا : والله أمرنا بها .

ولما أتمّ سبحانه الكلام على ماترتب على القصة من الأوامر والنواهى شرع يحذر الناس أفرادا وأمما : (١) من التهاون لئلا تعاجلهم المنايا (٢) ومن عصيان الرسل بالكذب والافتراء ، وينذرهم هول الموت وسؤال الملائكة ، وكيف يجتمع الظالمون من الأمم لاتحادهم فى الصفات ويلقى الآخرون الذنب على الأولين وكيف تكون حجتهم داحضة فلاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة وإنما يدخلون النار وليس التكليف بما لايطاق فعلى كل امرىء أن يقوم بما فى وسع طاقته ، ثم وصف أهل الجنة بأنهم صافية نفوسهم عالية درجاتهم ، وهناك محاورات أهل الجنة وأهل النار ، وكيف يكون الأنبياء والعلماء بين الجنة والنار وهم ينظرون إلى أهلهما ويحاور بعضهم بعضا ، هذا ملخص مايأتى من الآيات وهو (ولكل أمة أجل) وقت معين لنزول العذاب بهم إذا كذبت رسولها وهذا وعيد لأهل مكة (فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لايتأخرون ولا يتقدّمون أقصر وقت (يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى) أى يقرءون عليكم كتبى والجملة صفة وجواب الشرط قوله (فمن اتقى) الشرك (وأصلح) العمل منكم (فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) تعظموا عن الإيمان بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ممن تقوّل على الله مالم يقله أو كذب ماقاله (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) مما كتب لهم من الأرزاق والآجال أو من اللوح المحفوظ (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) أى يتوفون أرواحهم بإذننا وهم أعوان ملك الموت المذكور فى آية أخرى ، فالموت من الله بواسطة الملك وأعوانه وجواب إذا قوله تعالى (قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توبيخ : أى أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله (قالوا) أى قال الكفار مجيبين الرسل (ضلوا عنا)

غابوا عنا (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) اعترفوا بكفرهم (قال) الله تعالى يوم القيامة أو أحد للملائكة (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم) أى كائنين فى جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة (من الجن والإنس) يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين (فى النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) النار (لعنت أختها) شكلها فى الدين : أى التى ضلت فى الاقتداء بها (حتى إذا ادّاركوا فيها) أصله تداركوا : أى تلاحقوا واجتمعوا فى النار ، فأبدلت التاء دالا وسكنت للادغام ثم أدخلت الهمزة (جميعا) حال (قالت أخراهم) منزلة وهم الأتباع والسفلة أو آخرهم دخولا (لأولاهم) أى لأجل أولاهم ، لأن الخطاب مع الله ، وهؤلاء إما القادة والرءوس ، وإما الذين دخلوا أوّلا على ماتقدم (ربنا هؤلاء أضلونا) سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم (فآتهم عذابا ضعفا من النار) مضاعفا لأنهم ضلوا وأضلوا (قال لكلّ ضعف) أما القادة فبكفرهم وتضليلهم وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم (ولكن لاتعلمون) ما لكل فريق منكم من العذاب (وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل) عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة أو للمتأخرين فى الدخول « لكل ضعف » أى فقد ثبت ألا فضل لكم علينا وأنا متساوون فى استحقاق الضعف (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة أو المتقدمين دخولا للمتأخرين ، ويصح أن يوقف على فضل وتكون الجملة بعده من كلام الله والخطاب منه سبحانه للطائفتين . ثم شرع سبحانه يصف مايلاقيه الرؤساء والمرءوسون جميعا فقال (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) أى عن الإيمان بها (لاتفتح لهم أبواب السماء) لايؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة إذ هى فى السماء ، وإنما تكون أرواحهم راجعة إلى ما كانت تحنّ إليه من العالم السفلى تبقى فيه محبوسة تهيم فى أودية العوالم المظلمة ، والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها ، وفى قراءة « لاتفتح » بلا تشديد (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط) الولوج الدخول ، والجمل الحبل الغليظ من القنب وكذلك الحبل الذى تشد به السفينة ، وسم الخياط ثقب الإبرة ؛ فسم بالضم والكسر ، والخياط والمخيط مايخاط به وهو الإبرة . فدخول الكفار الجنة محال كما أن دخول الحبل العظيم فى ثقب الإبرة محال ، ويصح أن يراد بالجمل الحيوان المعروف والمعنى واحد ، ثم قال (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى المجرمين . لهم من جهنم مهاد) فراش (ومن فوقهم غواش) أغطية (وكذلك نجزى الظالمين) المشركين وصفهم تارة بالإجرام وتارة بالظلم ، وقرن الأوّل بالحرمان من دخول الجنة ، وقرن الثانى بالعذاب تنبيها على عظم الذنب ، يقول إن توغلهم فى المادّة وبعدهم عن صفاء النفوس منعهم من دخول الجنة فلا محالة يدخلون النار بظلمهم للتناسب بين الساكن والمسكن .

ولما وصف الكافرين بما ذكر أخذ يصف سبحانه وتعالى المؤمنين ، ومن عادة القرآن أن يتبع الوعيد بالوعد والعكس .

وصف المؤمنين

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وقوله « لانكلف نفسا إلا وسعها » جملة اعتراضية للترغيب فى اكتساب النعيم المقيم (ونزعنا مافى صدورهم من غلّ) أى نخرج من قلوبهم أسباب الغلّ أو نطهرها منه حتى لايكون بينهم إلا التوادّ فإنه لايتفق النعيم مع الحقد والغلّ ، كما أن النار تناسب الطباع الغليظة التى لاصفاء فيها ، فالإجرام سبب دخول النار كما أن الصفاء يناسب دخول الجنة (تجرى من تحتهم الأنهار) زيادة فى لذتهم وسرورهم ، ولا لذة بالأنهار وغيرها إلا لقلوب خلت من الشواغل المحزنة كالغل فلذلك تقدم نزعه ، ولما تمّ لهم السرور النفسى ومباهج الآفاق حولهم فرحوا (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) لما جزاؤه هذا (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) لولا هداية الله وتوفيقه لنا ، وجواب لولا محذوف دلّ عليه ماقبله : أى وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله لنا

واللام لام الجحود لتوكيد النفي ، ثم قال (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) فاهتدينا بإرشادهم ، يقولون ذلك اغتباطا وسرورا وإظهارا لما اعتقدوا (ونودوا أن تلكم الجنة) أن بمعنى أي كأنه قيل ، وقيل لهم تلكم الجنة (أورثتموها) أعطيتموها بسبب أعمالكم ، والجنة بدل أو عطف بيان لتلكم وأورثتموها خبر . ولقد ورد في الحديث «إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله وإنما يدخلها برحمة الله» وهو لاينافي ماهنا ، لأن العمل الصالح من رحمة الله ؛ فالعمل الصالح من الرحمة ودخول الجنة مسبب على ماتسبب من الرحمة (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن) بمعنى أي فهي مفسرة (قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا) وهذا القول شماتة بأصحاب النار وتحسير لهم واعتراف بنعم الله لهم ، وقوله « ماوعد ربكم » أي وعدكم ربكم (قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم) نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار (أن) بمعنى أي مفسرة كما تقدم (لعنة الله على الظالمين) ثم وصفهم بقوله (الذين يصدون عن سبيل الله) دينه (ويبغونها عوجا) أي ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض (وهم بالآخرة) بالدار الآخرة (كافرون . وبينهما) وبين الفريقين (حجاب) وهو السور المذكور في قوله « فضرب بينهم بسور » أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى (وعلى الأعراف) أي على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الفريقين أو الدارين ، وهي أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ، والعرف المرتفع من الشيء فهو لظهوره يكون أعرف من غيره (رجال) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخيار المؤمنين والعلماء (يعرفون كلا) من زمرة السعداء والأشقياء (بسيماهم) بعلاماتهم .

واعلم أن علم الفراسة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن ، قال تعالى « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » وقال « تعرفهم بسيماهم » وقال « ولتعرفنهم في لحن القول » فكأن الفراسة اختلاس للعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للانسان عن خاطره ولايعرف له سبب وذلك ضرب من الإلهام أو الوحي وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « إن في أمتي لمحدثين وإن عمر لمنهم » ويسمى ذلك أيضا النفث في الروع ، والضرب الثاني ما يكون بصناعة متعلمة وهي الاستدلال بالأشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة ، وقوله تعالى « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » قال بعض العلماء : فيه أن البينة هو القسم الأول وهو إشارة إلى صفاء جوهر الروح ، والشاهد هو القسم الثاني وهو الاستدلال بالأشكال على الأحوال ، فإذا سمعت المفسرين يقولون إن أصحاب الأعراف يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ، وأهل الجنة ببياض وجوههم ونضرة النعيم ، وبعضه روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فاعلم أن ذلك ضرب من سيماهم ، والسيما العلامة الدالة على شيء وأصله من السمة (ونادوا أصحاب الجنة) أي نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة (أن) بمعنى أي كما تقدم (سلام عليكم) وذلك تهنئة منهم لأهل الجنة ، وقوله تعالى (لم يدخلوها) صفة لرجال ، أي لم يدخلوا الجنة (وهم يطمعون) في دخولها . قال الحسن : ماجعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم ، ولا تظن أن الجنة التي طمعوا في دخولها ولم يدخلوها إلا أعلى الجنة التي لايصل إليها إلا المقربون ، وإنما وقفوا على الأعراف ليطلعوا على الفريقين ليظهر عدل الله على ألسنتهم وليبينوا للناس أن هذا جزاء مافعلوا من خير وشر ثم يرتقون إلى منازلهم العالية ، وهذا على أنهم أعاظم الناس من الأنبياء وغيرهم ، وهناك تفسير آخر لامحل لذكره ، وهؤلاء كما قالوا لأهل الجنة سلمتم من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة حين ينظرون إليهم يقولون لأهل النار حين ينظرون إليهم « ما أغنى عنكم جمعكم الخ» ولذلك أعقبه بقوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا) نعوذ بالله (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) في النار (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم) من رؤساء الكفرة (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) عن الحق أو على الخلق (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) وهذا من تتمة قولهم للرجال

يشيرون إلى أهل الجنة الذين كان الكفار يحتقرونهم فى الدنيا ويحلفون إن الله لايدخلهم الجنة (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) أى فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوها، وأنت ترى أن أصحاب الجنة نادوا أصحاب النار وأصحاب الأعراف نادوا الفريقين ولم يبق إلا أصحاب النار ، فلذلك قال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن) بمعنى أى مفسرة (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) من غيره من الأشربة أو الطعام والفاكهة إذا أريد من الإفاضة الإلقاء (قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) منعهما عنهم منع المحرّم عن المكلف ، ثم وصف الكافرين فقال الله تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) فحرّموا وأحلوا ما شاءوا (وغرّتهم الحياة الدنيا) اغترّوا بطول البقاء فيها وخصب العيش ولذته (فاليوم ننساهم) نتركهم فى العذاب المهين (كما نسوا لقاء يومهم هذا) فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدّوا له (وماكانوا بآياتنا يجحدون) وماكانوا منكرين أنها من عند الله أى كنسيانهم وجحودهم (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ وميزنا حلاله وحرامه وقصصه (على علم) عالمين بكيفية تفصيل أحكامه (هدى ورحمة) حال من منصوب فصلناه (لقوم يؤمنون) ظاهر التفسير .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين . قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون الخ » ﴾

أيها المسلمون انظروا كيف يذكر الله عز وجل أخذ الملابس فى الصلاة ويعقبها بعدم الإسراف فى الأكل والشرب ويتبع ذلك بحلّ الطيبات من الرزق ، أيها المسلمون أىّ مناسبة بين الصلاة وبين الأكل والشرب وعدم الإسراف فيهما وحلّ الطيبات من الرزق . إن المقام مقام علم وحكمة وليس للاهمال فيه من نصيب ، ولذلك ختم المقال بقوله « نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

يقول الله هنا إن أخذ الزينة فى الصلاة ونحوها والأكل والشرب بلا إسراف وطيبات الرزق إنما نفصلها لقوم يعلمون ، ويقول فى سورة الأنعام قبلها « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البرّ والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » وأتبعه بأنه خلقنا من نفس واحدة الخ ، وأن ذلك البيان لقوم يفقهون ، فعلم الفلك لقوم يعلمون ، وعلم التشريع لقوم يفقهون كما تقدّم ، وههنا علم الصحة لقوم يعلمون .
إذن علم الفلك وعلم الصحة كلاهما محتاج إلى علماء ، أما علم الفلك والهيئة فعلماؤهما ملئت به الأقطار إلا فى بلاد الإسلام فى القرون المتأخرة اللهم إلا شذرات ضئيلة وهكذا علم الصحة ، اللهم إنك أنت الذى أرشدت المسلمين لعلم الصحة فناموا ، وماذا تقول لهم أكثر من أن الطيبات حلال وأن الخبائث حرام وأن الإسراف فى المأكل والمشرب حرام ؟ وهكذا فى الملابس وكل شىء. اللهم إن هذا هو علم الصحة . إن علم الطب قسمان : قسم يختص بإرجاع الجسم إلى الصحة بالعقاقير ، وقسم نحفظ به الصحة من المرض ، وثانى القسمين أفضل من الأوّل وهو الذى أوجبه الله فى هذه الآية وأمثالها ، جعل الله علم حفظ الصحة واجبا وجوبا شرعيا عينيا ، فعلى كل امرىء أن يعرف من علم حفظ صحته مايحتاج إليه ، وكما أن الواجب من علم الفقه كما تراه مسطورا فى إحياء الغزالى على كل نفس ما تحتاج إليه ، فالزكاة لايجب تعلم تفصيلها إلا على من عنده ذلك النوع مما يملكه . هكذا هنا فى صحة الأبدان يجب على كل امرىء فى نفسه أن يعتنى بصحته ويتعلم مايقدر عليه ، وكلما ازداد مرضا وضعفا وجب عليه أن يزيد علما ، وعلى أمة الإسلام أن يكون فيها علماء للصحة كما يكون فيها علماء للفقه .

فقل لى رعاك الله : قد جاء فى السور السابقة « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم الخ » أمرنا بالصلاة وقال نظفوا أجسامكم تارة بالغسل وتارة بالوضوء ، وما الوضوء والغسل إلا لصحة الصلاة ،

وما

وما طهارة الثياب إلا لذلك ، وما هذا وذاك إلا ليكون المصلى حاضر القلب لايلهيه قذارة ثوبه ولا جسمه وهو متوجه للقبلة مصروف الفكر للمعبود ، فإذا كان الوضوء وما يتبعه نافعات فى حضور قلب المصلى ، فيكون بالأولى مرة وألف مرة صحة البدن . إن المريض ومن به قولنج أو صداع لايحضر قلبه فى الصلاة ، فإذن تكون العناية بالصحة أولى وأجدر ، ولهذا لما جاء الوضوء والغسل فى السورة السابقة ووجوب النظر فى العالم العلوى والسفلى فى سورة الأنعام جاء فى هذه الآيات فى هذه السورة يقول لنا : توضئوا واغتسلوا وتطهروا وانظروا فى السموات والأرض ولكن لايتم ذلك إلا بعلم الصحة ، فأنا أنهاكم عن الإسراف فى المأكل والشرب وغيرها، وأنهاكم عن الخبائث فى الرزق، والإسراف فى المأكل والمشرب لايعرفه إلا علماء يخلقون لذلك ، لأن هذا من فروض الكفايات ، وفروض الكفايات إذا لم تقم بها طائفة وقع الذنب على الجميع ، والمسلمون اليوم جميعاً آثمون معذبون فى هذه الحياة الدنيا ، لذلك عذبهم الله بالجهل فى سائر العلوم لاسيما علم الصحة الذى لايتمّ حج ولا صلاة ولا زكاة ولا علم إلا به ، لهذا قال الله « إنه لايحبّ المسرفين » وحرم الخبائث المفهوم من لفظ الطيبات .

اعتنى العلماء بعلم الفقه وابتدءوا بكتاب الطهارة ، هذا حسن ولكن الأحسن منه أن يؤلف لأبناء المسلمين كتب صغيرة تعطى لهم قبل الوضوء والطهارة يذكر فيها علم الصحة امتثالا لقوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ولقوله « والطيبات من الرزق » ياعجبا كل العجب ! يذكر الله اللباس والأكل والشرب وعدم الإسراف « والطيبات من الرزق » مصحوبا بقوله « خذوا زينتكم عند كل مسجد » وقد علمت أن فى تفسيرها الصلاة ، إن هذا رمز إلى أن الصلاة كما تحتاج إلى الوضوء والغسل تحتاج إلى جسم صحيح وعقل حاضر، ولا صحة ولاحضور عقل إلا بمعرفة علم الصحة ؛ فلئن وجب الوضوء فإن الصحة أوجب، أى الأخذ فى أسبابها أولى ، فإذا طرأ المرض على المصلى وتيمم لضرر الماء فليكن عليه أيضا أن يتداوى أو يلازم شروط الصحة جريا على أمر الله من عدم الإسراف ومن ترك الخبائث من الرزق .

علم الصحة

وها أنا ذا أبدأ بما بدأ الله به فى الصحة وهى الملابس ثم المآكل ثم الماء وأبين الطيبات منها والخبائث بطريقة مختصرة وأتبع ذلك بفوائد صحية . وإنى موقن أن علماء الإسلام بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيقرءون علوم الطب ويوقنون بأنها من علوم الدين وأن ما أذكره هنا نموذج صغير أو قطرة من بحر أو حبة ستنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء .

الملابس

يقول الله تعالى «يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» ويقول « ولاتسرفوا » ولم يبين فى أىّ الأنواع يكون الإسراف ، فهو وإن ذكر بعد الأكل والشرب محذوف المعمول فالله تعالى لايحبّ من أسرف فى أىّ عمل من الأعمال ، وحذف المعمول مؤذن بالعموم . فالإسراف فى الملابس وغير الملابس على حدّ سواء . وسواء أكان الإسراف بغلوّ الثمن للفقير أو بالملابس التى تزيد عن الحاجة وهكذا فكله إسراف فلأذكر لك أحوال الملابس .

يشترط فى الملابس ما يأتى :

(١) ألا تكون ضيقة تتعب الإنسان فى غدوّه ورواحه بل يجب أن تكون واسعة .

(٢) ألا تكون ثقيلة ،فقد أجمع علماء الصحة أن الدفء لن يكون بتراكم الملابس وإنما يكون بنوع ما يفيد الدفء .

(٣) أن تكون للملابس لها مسامّ لتجفف العرق لأن العرق إذا بقى فى الجسم أصابه البرد الذى يكون سبب الزكام وآلامه فالمسامّ إذن أكبر عون على الصحة .

الصوف ونحوه والحرير والقطن والتيل والجلد

اعلم أن صوف الغنم ووبر الجمال وشعر المعز لها خاصيتان : الأولى أنها تحفظ حرارة الجسم . الثانية أنها تنشف العرق . إذن هذه المواد أصلح لأن تلبس على نفس الجلد وهو (الشعار) وعليه يحسن أن يكون الشعار من الصوف .

الحـــرير

اعلم أن الحرير الذى أحله الله للنساء وحرمه على الرجال يحفظ الحرارة كالصوف ولكنه لاينشف العرق بسهولة كالصوف .

القطن

أما القطن فهو قليل الحفظ للحرارة وقليل التنشيف للعرق ، والملابس المأخوذة من (التيل) أقلّ من القطن فى خواصه .

الجـــلد

والملابس المصنوعة من الجلد تحفظ الحرارة ولا تلبس إلا فى البلاد الباردة .

فوائد عامة فى الملابس

يجب أن تكون واسعة ، وألا تكون طويلة ، وأن تحفظ فى صيوان خاص ، وأن يوضع معها نحو الفلفل الأسود بعد تنظيفها أو (النفتالين) أو نحوها خيفة (العثة) .

وليغير الشعار مرتين فى كل أسبوع صيفا ومرة شتاء . ومعلوم أن الملابس (الوسخة) تغسل بالماء الساخن والصابون . وينظف الصوف بغسله بالماء البارد مع عدم عصره ثم توضع فى الظلّ حتى تجف .

وليكن الشعار خفيفا فى زمن الشتاء . وليكن لون الثياب الخارجية فى الصيف غير قاتم . أما فى الشتاء فيجب أن يكون اللون (أدكن) وذلك ليسمح لحرارة الشمس أن تدخل إلى الجسم . أما الأبيض فإنه يمنع حرارة الشمس أن تدخل للجسم وهو بالصيف أليق . انتهى الكلام على الملابس .

الأكل

اعلم أن الأغذية المستحسنة عند علماء الطب هى الأغذية السهلة الهضم الطازجة من الأغذية الحيوانية والنباتية مثل اللحم واللبن والزبدة والقمح والذرة والبطاطس ، ويستحسنون طبخ الأغذية لسهولة هضمها لقتل الجراثيم الضارّة ويوجبون غسل الخضر بالماء الساخن قبل أكلها وقاية من الإصابة بالديدان . فإذن يغسل الفجل والجرجير والبصل وأمثالها بذلك قبل الأكل .

ويقدّمون من الحيوان ما كان أصغر سنا على غيره ولحم الضأن على غيره فى الهضم . ولحم الدجاج على لحم البط والأوز . ويقولون إن لحم السمك أقلّ تغذية من لحوم غيره من لحوم الحيوانات . ويقولون إن اللبن غذاء الأطفال ولا يكفى الكبار . ويوجبون غليه وحفظه فى إناء مخصوص محكم الغطاء مغسول بالماء المغلى . ويقولون إن البيض الصالح يعرف بوضع ما يملأ ثلاثة فناجيل قهوة من الملح فى ثلثمائة درهم من الماء ويذوب فيه ثم يوضع البيض فما طفا فوق الماء فهو غير صالح وما رسب يكون صالحا . ويقولون الجبن أجود مايصنع من اللبن المحض الخالى من المواد المضافة فى الصناعة .

الزبدة

الزبدة غذاء مفيد ويستحسن أن تؤكل مع الخبز وقليل من السكر وهى تنفع رجال العمل الجسمى .

البقول

البقــول

هى مثل العدس والفول ونحوهما يمكن الاستغناء بها عن مقدار عظيم من اللحم بأنواعه ويضاف إليها الزبدة أو الزيت .

الخضر

بعضها أسهل هضما مثل القرع وبعضها عسر الهضم قليل التغذية ولكنه نافع للجسم مثل الاسفاناج (السبانخ) وخبز القمح أحسن من غيره وأكثر تغذية .

التوابل

هى كالفلفل والخلّ والخردل والملح . هذه كثرتها تعسر الهضم . فإذا قلت الشهوة للطعام حسن تعاطى القليل منها . وقد نهى الأطباء عنها إلا قليلا .

الأغذية التى هى غير طيبات وهى الخبائث

القريب (الفسيخ) والسردين والفواكه التى ليست ناضجة مثل (الرمخ) وهو البلح الأخضر . ومثل الفواكه التى زادت فى نضجها . واللحوم الكثيرة الدهن . والأسماك ذات القشور الغليظة وذات المحار .

ولأختم هذا المقام ببيان المدة التى تهضم فيها الأطعمة من لحم وخضر وفاكهة ليختار الإنسان ما يناسب مزاجه ولا يتناول إلا ما تقدر معدته على هضمه (فأوّلا) الطعام الذى لايهضم فى أقلّ من ست ساعات وهو لحم الضأن المقلوّ فى السمن . والخيار . والقثاء (وثانيا) الطعام الذى يهضم فى أقلّ من ست ساعات ولا ينقص عن خمس وهو لحم العجل والكلى المقلوين فى السمن ولحم الضأن المسلوق (وثالثا) ما تنقص مدّة الهضم فيه عن خمس ساعات ولا تنقص عن أربع وهو :

(١) لحم الدجاج والحمام والبقر والبط والأوز المقلوات كلها فى السمن .

(٢) لحم العجل المشوى . (٣) لحم البط والأوز المسلوقين .

(٤) لحم السمك المسلوق . (٥) لحم العصافير المقلى . (٦) الكرنب .

(٧) الجزر . (٨) الفجل . (٩) السلجم وهو (اللفت) .

(ورابعا) ما يقلّ عن أربع ساعات ولا ينقص عن ثلاث وهو لحم الأرنب والجمل المقلوين فى السمن ولحم الدجاج والحمام والكلى المسلوقات . ولحم البقر المشوى . والكبد واللسان . ثم الدجر الجاف والكرفس والبطاطس والحمص والتين والشمام والجوز .

(وخامسا) ماينقص عن ثلاث ساعات ولاينقص عن ساعتين وهو لحم الديك (الرومى) المقلوّ فى السمن والمسلوق منه ومن الأرانب ومن لحم البقر ثم المخ .

هكذا الباذنجان والبامية والدّجر (اللوبياء) الخضراء والفول الأخضر والقنبيط والبطاطة المشوية والطماطم والتفاح النىء (وهو الذى لم يطبخ) والبلح والبرتقال والعنب والكمثرى وعصير حبّ الرمان .

(وسادسا) ماينقص عن ساعتين ولاينقص عن ساعة وهو الكرش المسلوقة والهليون (كشك الماظ) والقرع والاسفاناج (السبانخ) والتفاح المطبوخ والموز والسفرجل انتهى .

فإذا سمعت قول الله عز وجل « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وكنت ضعيف المعدة فاعلم أن الأوفق لك ماكان سريع الهضم كالقرع وكالعنب . فإذا أكلت الخيار والقثاء فأنت مسرف لأنك جاوزت حدّك وعلى هذا ابدأ فقس .

فأما إذا كنت قوىّ المعدة فلتأ كل ما تشاء من لحم العجل والضأن وغيرها . ولكل مقام مقال .
انتهى ما قصدته من الكلام على الغذاء .

الماء الذى يشرب يجب له الشروط الآتية

(١) أن يكون خاليا من الرائحة ومن اللون .

(٢) أن يكون رائقا فلا ترى ذرات صغيرة سابحة فيه . ولا يرسب منه فى قرار الإناء شئ .

(٣) أن يكون عذبا .

(٤) أن يذيب الصابون وينضج البقول والخضر إنضاجا تاما . وإلا كان محتويا على أملاح ضارّة بالجسم

(٥) أن يكون خاليا من الجراثيم وهى (المكروبات) ولا يمكن معرفة المكروبات إلا بالمجهر أى (المكرسكوب) .

الأمراض التى يكون سببها الماء الذى ليس مستوفيا الشروط

(١) الإسهال المزمن بسبب التراب والرمل اللذين يكونان فى الماء .

(٢) الحمى التيفوذية .

(٣) الهيضة الأسيوية (الكوليرا) .

(٤) البول الدموى (البلهارسيا) .

هذه الثلاثة الأخيرة بسبب الجراثيم المنتشرة فى الماء .

تنقية الماء

لذلك طرق ثلاث (الطريقة الأولى) أن يوضع نوى المشمش أو الخوخ أو اللوز الحلو فيرسب هناك طبقة تحمل الأقذار فى أسفل الإناء ويكون ما فوقها من الماء صافيا ، ويوضع جزء من الشبّ فى الماء ، وهذه الطريقة فيها ضرر للشاربين يستعملها العامّة وهم يجهلون أضرارها . (الطريقة الثانية) أن يرشح الماء فى إناء ذى مسامّ من الفخار ويغسل من الداخل والخارج بالماء والصابون والليف غسلا جيدا ثم يغطى ذلك الإناء بغطاء نظيف ويوضع تحته إناء نظيف ليتلقى الماء النقى المتساقط بعد رشحه من السطح الخارج ويجب أن يوضع هذا الإناء وما تحته فى محل نظيف بحيث لايصل إليه الغبار ، والأحسن أن يكون وعاء خشبيا كبير الحجم ، وفى اللغة العربية يقال للإناء الذى فيه الماء (الحب) ولغطائه (الكرامة) فيقولون لمن يحبون (حبا وكرامة) وأصله هذا المعنى الذى عرفته ، وهذا يسمى فى مصر (الزير وغطاءه) .

وهناك أدوات للرشح غير ما ذكر ، وهذه تباع فى الأسواق فلا طائل فى ذكرها مثل ما يسمى (راشح بركفيلد) (الطريقة الثالثة إغلاء الماء) وهذه هى الطريقة التى بها نعرف تماما خلوّ الماء من الجراثيم وهذا هو الذى يتبع فى زمن الأوبئة فيغلى الماء للشرب والطبخ وغيرهما ويحفظ ما للشرب فى إناء نظيف محكم الصمام ويشرب بعد أن يبرد .

هذه نبذة مما يتضمنه قوله تعالى « يا بنى آدم خذوا زينتكم » وذكر الأكل والشرب ، ثم أمر بعدم الإسراف فمن لبس ما يضرّه أو أكل السردين أو الفسيخ أو الفواكه التى ازدادت فى النضج فهو مسرف كمن يأكل فوق الشبع . ومن شرب فوق حاجته مسرف كمن شرب الماء الذى فيه التراب أو الرمل أو الجراثيم التى تصيب الإنسان فتورثه البول الدموى أو الحمى التيفوذية أو الحمى الأسيوية ، كل هؤلاء مسرفون فمن لبس شعار الصوف الغليظ فى الصيف مثلا أو أكل البلح الأخضر أو شرب الماء الذى فيه قذر فكل هؤلاء مسرفون .

فالإسراف إما فى الكم كلبس الملابس الكثيرة وأكل وشرب المآكل والمشارب الكثيرة وإما بالكيف كما تقدم . كل هذا إسراف والمسلمون نائمون والدنيا كلها طافحة بالعلم ولم يغفل عنه إلا المسلمون .

اللهم إنى أدّيت ما علىّ وما قدرت عليه وأنت ستنتقم من كل من قرأ هذا التفسير وفهمه ولم يرشد المسلمين إلى جميع العلوم ومنها علوم الصحة التى ذكرتها فى هذه الآيات فحللت الطيبات وحرّمت الخبائث « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » .

اللهم إنك أوجبت هذه العلوم على طوائف من الأمة ولما قصرنا فى ذلك عذبتنا فى الدنيا بالضعف والذل وسلطت علينا الناس حاربونا لنتذكر وهانحن أولاء تذكرنا وإنى أكتب هذا تفسيرا لكتابك فهل للمسلمين عذر فى الجهل بعد هذا التفسير وأمثاله ؟ كلا . ثم كلا إن قارئ هذا التفسير ملزم أن يرفع صوته فى كل مجلس ومقام ، وفى كل كتاب يكتبه « والله عليم حكيم » .

فوائد صحية

اعلم أن أسباب نقل المرض من المريض إلى الصحيح إما أن تكون من الأوّل إلى الثانى مباشرة ، وإما أن تكون بواسطة الماء ، وإما أن تكون بواسطة الحشرات .

فالأوّل وهو أن يكون بنفس المريض فذلك مثل (الجرب) وهو مرض جلدى يعد سريع الانتشار ويكثر بين من لا يحافظون على نظافة أجسامهم .

وينتقل هذا المرض من الأجرب إلى الصحيح بالمصافحة والمساكنة والملامسة واستعمال ملابس المصاب بهذا المرض الوبيل .

فأما الثانى وهو أن يكون بواسطة الماء ، فانظر تر العجب العجاب فى العلم وفى دين الإسلام ، انظر تر علماء الفقه نهوا عن الاستحمام فى الماء الراكد ، وعن البول فى الماء مطلقا الخ . وانظر العلم الحديث وظهور فضائل الدين الإسلامى . انظر ثم انظر ، ههنا مرضان : مرض البول الدموى وهو (البلهارسيا) المتقدم ذكره . ومرض الضعف العام المسمى (الانكلستوما) فهذان المرضان يكونان بالعدوى ولكن بطريق الماء .

فمرض البول الدموى إنما يكون من ديدان تسكن فى (الأوردة) وتعيش فى الدم وتبيض فيه ويخرج البيض مع الدم ومع بال الإنسان فى الماء فقس ذلك البيض الذى لا يراه الناس وخرج منه حيوان صغير لا تراه العيون ولكنه إذا نظر له الإنسان بالمنظار المعظم ظهر كهيئة العقرب .

فهذا الحيوان يبحث عن قوقعة من قواقع الماء فيدخل فيها تكون له أما بدل أمه ، فإذا كبر فيها خرج فإذا صادف إنسانا يستحم مثلا ودخل جسمه كما كانت أمه سابقا وهو لا يعلم تاريخ حياتها فيدخل من المسام ويتجوّل فى الجسم حتى يكبر ويبيض كما كانت أمه تبيض وهكذا يكون الخلف كالسلف .

سبحانك اللهم ربيت الدود فى أجسامنا وأنزلته فى مائنا وأدخلته فى القوقعة حتى يكبر ثم أرجعته إلى أجسامنا بعد ما صار حيوانا عقابا منك للمسلمين على تقاعسهم عن علم الصحة وعلى مخالفتهم للفقهاء الذين نهوا عن التبرز والبول فى الماء والاستحمام فى ماء البرك والمستنقعات التى فيها ذلك الحيوان .

أما مرض الضعف العام فهو المسمى (الانكلستوما) وهو فقر الدم فترى الوجه شاحبا والشفتين ذابلتين وعسر التنفس بعد أى عمل ويحس بألم فى الرأس والركبتين واضطراب فى الهضم . وذلك أن هناك ديدانا تلقح ذكرانها إناثها فتبيض فى الأمعاء لا كديدان البول الدموى التى تبيض فى الدم وهذا البيض يخرج مع الفضلات ، فإذا تبرز المصاب فى الماء فقس البيض فيه وعاش الحيوان الخارج منه أشهرا فيه فإذا شرب

إنسان ذلك الماء أو أكل خضرا مغسولة فى تلك المياه أو استعمله لاستحمامه دخل هذا الحيوان جسمه بواسطة الجلد أو بواسطة المعدة فيصاب بالمرض القتال .

ولا ينجى الناس من هذا ونحوه إلا ترشيح الماء كما تقدم . وألا تغسل أوانى الأكل إلا بالماء المرشح أو المغلى . وألا تؤكل الخضر التى لاتطبخ إلا بعد غسلها جيدا بالماء المغلى . وألايمشى الإنسان عارى القدمين ولا يلعب فى المياه القذرة ، وأن يغسل اليدين جيدا بالماء والصابون بعد قضاء الحاجة وقبل الأكل . انتهى الكلام على القسم الثانى .

[القسم الثالث] وهو أن يكون نقل المرض بواسطة الحشرات . فاعلم أن الله عز وجل جعل ما ينفعنا وما يضرّنا من الحيوان على قسمين قسم ظاهر وقسم باطن وكل منهما إما نافع وإما ضارّ .

فالقسم الباطن النافع منه مثل الكرات البيضاء والحمراء فى الدم فإنها تشبه الحيوان من حيث الدافعة عن الإنسان وتقاتل جراثيم المرض الداخلة فى الجسم وهذا معلوم فى الطب . والقسم الضارّ منه مثل ما ذكر آنفا من جراثيم البول الدموى وجراثيم فقر الدم اللاتى تعيش فى الماء وتدخل جسم من يستحم مثلا وهكذا .

فأما القسم الظاهر من الحيوانات فهو قسمان أيضا نافع للانسان وضار . فالنافع للإنسان مثل المذكور فى قوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل الخ » وقد قدمت لك أن النحل وأمثاله من الحشرات هى التى تطوف على الأشجار فتنقل الطلع من الذكور إلى الإناث . ولذلك تجد الحدائق دائما فيها أصوات هذه الحشرات ولذلك تصفها العرب بأنها غناء .

فهذه الحشرات التى ترى شرحها فيما تقدم فى التفسير كسورة (الأنعام) وغيرها جعلها الله لتكون سببا فى فاكهتنا وحبوبنا ونحن لانشعر ، فأكثر الناس يأكلون الفاكهة ويتنعمون بالنعم وهم لايعلمون أن الحشرات التى أمامهم هى من أسباب تلك النعم . فأما الضارّ للانسان من الحشرات فهى كثيرة : منها الذباب والقمل والبق والبراغيث والناموس . ولأتكلم على الناموس ثم الذباب مكتفيا بهما فى هذا المقام فأقول :

(١) الناموس يعيش فى المياه الراكدة والمستنقعات . وفى المنازل التى هى غير صحية . وهى تنقل حمى (الملاريا) وهى من أنواع الحمى وتسمى (الحمى الأجمية) منسوبة للأجمات لأن الناموس يعيش فيها ، ولذلك يجب إبادة الناموس من المنازل بوضع زيت البترول فى المراحيض . ويجب ردم البرك والمستنقعات ، أو وضع زيت البترول على سطح الماء حتى يقتل صغار البعوض التى تعيش على سطحه . وعلى النائم أن تكون له ناموسية سليمة من الثقوب حتى لايدخل إليه الناموس .

فهذا الناموس إذا لدغ مصابا بالحمى المذكورة ثم بعد ذلك لدغ آخر سليما أصيب السليم بها أيضا فينتقل المرض من الأوّل إلى الثانى . فكما رأيت أن الجرب ينتقل من المريض إلى الصحيح بالملامسة ومرض البول الدموى ومرض الفقر الدموى ينتقلان بواسطة الديدان التى تعيش فى الماء . هكذا ترى هنا الناموس ينقل المرض مباشرة من المريض إلى الصحيح . هذا ولأختم هذا المقام بالكلام على الذباب .

الذباب

إن الذباب ينقل المرض من إنسان لآخر كما يفعل الناموس .

غذاء الذبابة

تأكل اللحم والدم والخضر واللبن والزبد والجبن والمادة السكرية والمواد المتخمرة كالجبن المتخمر والمش وبراز المواشى وبراز الإنسان ، وهو يفضل المواد المتخمرة لأنها فيها يبيض ومنها يأكل .

إذا علم أن الأنثى من الذباب تبيض ما بين شهر وشهرين ونصف . والبيض يكون على دفعات كل دفعة من مائة بيضة إلى مائة وخمسين بيضة وجميع البيض يبلغ ألف بيضة . وفى النادر شاهد العلماء أنها باضت

فى إحدى

فى إحدى وثلاثين يوما نحو ألفى بيضة . والبيضة تفرخ فيما بين ثمان ساعات واثنتى عشرة ساعة . ومتى فقس البيض خرج دود أبيض يتحوّل فيما بعد إلى ذبابة فى مدة ستة أيام أو عشرة أيام أو أربع وأربعين يوما بحسب اختلاف الأماكن حرارة وبرودة . ومن ذلك دود المش واللحم ونحوها . فهذا كله دود ظهر من بيض الذباب أو نحوه لأن الذباب وسائر الحشرات يكون له بيض ، فالبيض يكون دودة فشرنقة أى مثل ماترى فى دود القز إذ ينام مدة بهذه الصفة ثم يصير حشرة كاملة .

ضرر الذباب بنوع الإنسان

(١) ينقل جرثوم الرمد الصديدى من العين المريضة إلى العين الصحيحة من نفس الطفل المريض أو طفل آخر مجاور للمريض ، وأكثر العميان فى مصر بسبب هذه الحشرة .

(٢) مرض (الدسنتاريا) وهو إسهال شديد بهيئة خاصة . هذا المرض ينقله الذباب من المريض إلى الصحيح .

(٣) الذباب ينقل جراثيم الحمى التيفوذية لأنه يذهب إلى البراز الملوّث بجراثيم المرض ثم يذهب إلى أطعمة الأصحاء الذين هم قريب من ذلك المكان لأن الذباب لايذهب بعيدا .

(٤) الكوليرا تنتقل بأطراف الذبابة وخرطومها . ويقال إن مكروب المرض يبقى حيا ١٧ ساعة على أطراف الذبابة . وقد يدخل الجرثوم المرضى فى باطن الذبابة بطريق الطعام ويخرج حيا بالتبرز فى طعام الأصحاء فهى تنقل المرض بأطرافها وببرازها .

(٥) جراثيم (السلّ) التى يتلقفها الذباب من بصاق المسلولين يرى حيا فى براز الذبابة بعد مرور خمسة أيام من أكلها البصاق المعدى .

وهكذا وجدوا ديدان الحيوانات التى تعيش فى أمعاء الإنسان . وهكذا الدودة الوحيدة . كل هذه يبلعها الذباب مع المواد البرازية ويخرج مع برازه . انتهى ما أردت من الكلام على الذباب .

الصراصير

وهكذا يقولون إن الصراصير يعيش فى جوفها جراثيم السرطان . فإذا جاءت على طعام الإنسان أنزلت ذلك فيه فتولد السرطان فى جسم من يأكله ولا يزال يمشى فى الجسم حتى يجد له مكانا ضعيفا فيعيش وينمو ويموت المريض اهـ .

هذا قطرة من بحر من قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وقوله « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرّزق » فياعجبا كل العجب كيف يقرأ المسلمون الطيبات من الرّزق وأكثرهم يجهلون الفرق بين الطيبات والخبائث .

فياليت شعرى كيف يعرف المسلم أن هذا الطعام خبيث وأن هذا الطعام طيب إلا إذا قام فى الأمة جماعة فدرسوا هذه العلوم ثم نشروا بين الأمة كيف يكون الطعام الذى يحوم حوله الذباب أو تلمّ به الصراصير خبيثا ؟ وكيف يتحامون الاستحمام فى الماء الراكد أو ملامسة (الأجرب) أو نحو ذلك إلا بنشر هذه العلوم نشراً تاما مع بيان الفوائد بقدر الإمكان .

اللهم إنى بينت هذا المقام فى كتابك بقدر إمكانى وإنى موقن أنه سيأتى بعدنا من يسهلون الطرق ويرقون الشعوب ويعلون أمم الإسلام وسترى مايكون .

ولأختم هذا المقام بأرجوزة كنت نظمتها منذ نحو عشر سنين قبل طبع هذا الكتاب . وهذا نصها :

حفظ الصحة في فصل الصيف

قرأت مقالة في حفظ الصحة في أوّل فصل الصيف سنة ١٩١٦ بقلم عظيم من أعاظم الأطباء النطاسين فجعلتها نظما . وها هي ذه :

أرجوزة في الطب للإخوان — نظمتها أيام الامتحان
من بعد ما قرأتها تكرارا — لكي أزيد فهمها استبصارا
ليحفظوا صحتهم في الصيف — لحرّه مثل غرار السيف
للصيف حرّ يلفح الوجوها — ويزهق النفوس إذ يغزوها
والشمس مهما قتلت جرثوما — فإنها تحيي سواه دوما
ما أفتك الجرثوم بالأطفال — فإنها ككثرة الإسهال
تسطو بجماها على الأولاد — فتحتسى بفلذ الأكباد
إن اتقاء المرض المخوف — أفضل من علاجه الموصوف
فنظف الطعام والشرابا — والجسم والمكان والثيابا
كذلك الحدائق الغناء — وكل مجرى كان فيه الماء
* فإنها حمالة الداء — تقذفه في داخل الأحشاء
فلتحترس من طائف الذباب — فإنه أعدى من الذئاب
يعدى الذي يلقى بلا ارتياب — ويجعل الأحياء في تباب
مثل الذباب فعل الناموس — فإنه لمرض جاسوس
فاجعل له وقاية تقيكا — على السرير حيث لايرديكا
يا ربة المنزل يا ذات الأدب — حفظ الصغار صحة مما وجب
فارعى رعاك الله عين الطفل — وفمه وأذنه بالغسل *
لايشربنّ لبنا أو ماء — حتى تزيل النار منه الداء
كذلك الفواكه اطبخيها — حتى يزول الداء مما فيها
وليستحمّ الرجل الكبير — والطفل والطفلة والصغير
بكل ماء فاتر نظيف — منظف للجسم في الصيف
وليأخذ القويّ ماء باردا — إذا أراد حيث لايخشى ردى
وقلل المأكول والمشروبا — ولا تطع من أكلوا ضروبا
وكلّ ما تشربه مبرّدا — يبرد الأحشاء حتى تخمدا
والثلج والكازوزة المعروفه — وشبهها على الأذى معكوفه
ولا تطع قول الذين قالوا — الثلج يروى إنهم جهال
وخذ من البقول والفواكه — والخضر ما تهواه غير واله
* وأقلل اللحوم والمفلفلا — فهل تحب أن تكون في لظى
خير الثياب البيض عند الحر — وشبه بيض مثلها كالسمر
ثم لتكن واسعة الأطراف — كالردن والقباب والأعطاف
واجعل شعار الجسم لبس الصوف — لمصّ ريع العرق المعروف

كذاك أما كنت فى عراء ... ليلا غص الصوف بالغطاء

ومن يكن ذا عرق فى الصيف ... فشرب مثلوج له كالسيف

وكلّ تيار من الهواء ... يدعوه للبأساء والضراء

جمال الله فى هذا المقام

يا ألله ! خلقت آدم وبنيه بيديك وقلت لإبليس «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى» الخ ، فأنت بخلقك له بيديك شرفته وعظمته ، وهذا الشرف وهذه العظمة ظاهرة واضحة فى التكاليف التى كلفته بها ، فلم يقف التكليف عند الفرائض التى نزلت بها الأنبياء بل خلق الله للانسان بإحدى يديه للنور والهواء والجمال والنجوم والحيوانات النافعة ، وهكذا النباتات المثمرة ، وخلق باليد الأخرى للموت والحيوانات القاتلة الفاتكة فمن السباع إلى الذباب والناموس والحيات والعقارب إلى الذرات الفاتكة بالأجسام إلى ما وراء ذلك .

وهكذا نرى النبات يفتك به الكلأ والحشائش القاتلة له . يتأمل العاقل فى هذه الدنيا فيرى هذا الإنسان يحوط بإحدى يديه النحل النافع لإلقاح الأشجار ويقتل بالأخرى أنواع السباع والحشرات وهكذا يحافظ بإحدى يديه على القمح والقطن وأمثالهما ويقطع بالأخرى الحشائش والكلأ .

اللهم إنّ نظرنا فى هذه الأرض جعلنا نفهم أنك خلقت الإنسان ليكدّ ويجدّ وبهذا يقوى على السير فى عالم آخر ، وإلا فلماذا جعلت الذباب ينمو ونحن نقاتله ويحيط بنا من كل جانب ونحن والحوادث الجوّية نبيده وهو لايبيد ونقاتله وهو لايزال فى الوجود ، إنك بذلك فتحت بصائر الإنسان وعلمته التبيان وجعلته لايهدأ ولو أنه هدأ لأحطته بالمهلكات . كل ذلك من رحمتك لأنك تريد رقى عقله وقواه ولا رقى لهما إلا بالجهاد فى جلب النافع ودفع الضار ، وضعف النافع كالنحل وقوّة الضار كالذباب يجعلانه دائما يجاهد لتقوية الأوّل وإضعاف الثانى ، إنك يا ألله بهذا تريد نقلنا إلى عالم غير هذا تكون الحياة فيه على مقدار ما نلنا من القوّة وما كسبنا من العلوم ، فالشر والخير والذباب والنحل جعلتهما لنا رحمة كما أمرتنا أن نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، انتهى المقصد الثالث من القسم الأوّل .

(المَقْصِدُ الرَّابِعُ)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ

كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ *

التفسير اللفظي

يقول الله تعالى (هل ينظرون) هل ينتظرون (إلا تأويله) أى إلا مايئول اليه أمره من تبين صدقه بظهور مانطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل) تركوه ترك الناسى (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى قد تبين أنهم جاءوا بالحق (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم (أو نرد) أو هل نرد إلى الدنيا وجواب الاستفهام الثانى (فنعمل غير الذى كنا نعمل) ثم قال تعالى (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون) بطل عنهم فلم ينفعهم . ولما كان ماتقدم من محاورات أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف ونعيم الجنة وعذاب النار راجعا إلى اليوم الآخر المرتب على الايمان بالله والكفر به وكان التوحيد أجل مابنى عليه العالم للشاهد المحسوس أعقب ماتقدم بما يذكر بعجائب السموات والأرض الدالة على الله فذكر خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر والنجوم وإرسال الرياح والسحاب وإنبات النبات المختلف الثمرات ، وهذه الآية أشبه بآية « إن فى خلق السموات والأرض » المذكورة فى سورة (البقرة) وكأنها خلاصتها فارجع اليها هناك ؛ ثم قال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) أى فى ستة أوقات (ثم استوى على العرش) والعرش فى اللغة يطلق على السرير وعلى ماعلا فأظل ، وسمى مجلس السلطان عرشا لعلوه ويكنى عن العز والسلطان والملك بالعرش على الاستعارة والمجاز يقال فلان ثل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه ، وثم للترتيب الذكرى وإلا فالله عز وجل مستول على الملك أزلا وأبدا يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ولذلك أخذ يبين الاستيلاء على العالم العلوى فأبان أعظم الأعمال التى نراها من ذلك الاستيلاء وهو تسخير الشمس والقمر والنجوم وبهذه الحركات التسخيرية تكون جميع العوالم التى بها حياتنا وبقاؤنا فلذلك قال (يغشى الليل النهار) يغطيه به فيحتمل أن النهار يغشى الليل وأن الليل يغشى النهار ، ولا جرم أن كلا منهما يغطى الآخر بسبب جريان الأرض حول الشمس فالوجه المقابل الشمس مضىء والمغطى عنها مظلم (يطلبه حثيثا) يعقبه حال كونه سريعا كالطالب له لايفصل بينهما شىء ، والحثيث فعيل من الحث (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) بقضائه وتصريفه بمقتضى استيلائه على الملك ونصبها العطف على السموات ونصب مسخرات على الحال ، ثم لخص ماتقدم كله فى هذه الجملة فقال (ألا له الخلق) راجع لقوله « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ » (والأمر) راجع لقوله « ثم استوى على العرش وسخر الخ » فالخلق وأمر الكائنات بيده كما قال « يتنزل الأمر بينهن » ثم قال (تبارك الله رب العالمين) تمجد وتعظم وارتفع ، فانظر كيف ذكر أنه خلق السموات والأرض فى أوقات ستة بحيث أدار المادة اللطيفة المسماة (بالأثير) وحركها فى أزمان قديمة العهد جدا فكان منها شموس وشموس ثم دارت الشموس ومنها شمسنا آلافا وآلافا من السنين فانفصلت منها الكواكب السيارة ومنها أرضنا وانفصل القمر من الأرض ثم كان المعدن والنبات والحيوان والانسان فهذه هى الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض ، فأولها الشمس ، فالأرض ومعها السيارات ، فالمعدن فالنبات ، فالحيوان ، فالانسان . هذه هى الأيام الستة التى خلق الله فيها عالمنا .

لطيفة

لطيفة

اعلم أن لفظة (يوم) قد وردت فى علوم البابليين والآشوريين التى عثر عليها العلماء فى المكتبة الملكية بقصر (آشور بانيبال) فنى هذه الخزانة وجدوا أنهم قسموا منطقة البروج إلى اثنى عشر قسما وهى البروج وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة وهكذا الدقيقة والثانية الخ والأسبوع سبعة أيام ، ويقولون إن تقهقر الاعتدالين فى زمان (٤٣٢٠٠ سنة) ويسمون هذه المدة يوما من الأيام العالمية ، وجعلوا السنة الشمسية التى قدرها ٣٦٥ يوما وربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية ، ثم هم يقسمون اليوم العالمى إلى اثنى عشرة ساعة ، فتدبر تجد أن اليوم قد جاوز عشرات الألوف من السنين وهو اليوم العالمى . فاليوم فى الآيات عبارة عن أزمان متطاولة نسميها أياما عالمية لا أياما معتادة فتعجب ، ولنرجع إلى مقام التفسير فنقول :

وهانحن أولاء نشاهد الأمر يجرى بين السموات والأرض فنرى الليل يغشى النهار والنهار يغطى الليل ونرى القمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب لاحرية لكوكب أن يسير على غير نظام ، فاذا كان هذا الخلق له وهذا الأمر له أفلا يكون مستحقا للتعظيم والإجلال فيقال « تبارك الله رب العالمين » من العوالم السفلية والعوالم العلوية ، وإذا كانت هذه صفات الله وأنه خلق هذه الكائنات واستوى على عرشها وسخرها ونظمها فلم يبق إلا أن يتوجه له عبيده بالدعاء فلذلك أعقبه بقوله (ادعوا ربكم تضرّعا) تذللا من الضراعة وهى الذل (وخفية) سرّا (إنه لايحبّ المعتدين) المجاوزين ما أمروا به فى الدعاء وغيره بأن يرفعوا أصواتهم ونداءهم وصياحهم فى الدعاء وبأن يسألوا منازل الأنبياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء » أخرجه أبو داود . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أيضا أنه قال « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء؛ وحسب المرء أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرّب منها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب إليها من قول وعمل » وهل الأفضل إظهار العبادات أو إخفاؤها؟ رأيان رجح الأوّل من نظر إلى الاقتداء بالعابد ورجح الثانى من خاف عليه الرياء ، وقال قوم الأوّل فى الفرض والثانى فى النفل كالصلاة والزكاة فرضا ونفلا .

ولما أكمل الكلام على خلق العالم العلوى والسفلى وأتبعه بوجوب الدعاء والتوجه لله بالقلب مع الخشوع والتضرّع وحرّم مجاوزة الحدّ وأمر بالخضوع والتذلل لمن هو المستوى على العرش المدبر للأمر عند ذكر العالم العلوى ، أقول لما أكمل ذلك كله أمر بإصلاح الأرض وعدم الافساد فيها قبل أن يبدأ بذكر الرياح والسحاب الجاريات حول الأرض الساقيات المزارع النابت بسببها النبات ، وأخذ يصف البلد الطيب والبلد الذى خبث ، فانظر كيف جعل عند كل عالم مايناسبه فاذا نظرنا للاستواء على العرش دعونا وخررنا ساجدين وان نظرنا إلى نظام أرضنا وسحابها ومطرها ورعدها وبرقها ونباتها وحيوانها وجب أن نكون عادلين صادقين فنسعى لرقىّ الأمم حولنا ونظام حكوماتنا والانتفاع بخيرات هذه العوالم المحيطة بنا فهو كما دبر ملكه وهو مستو على عرشه بجر كواكبه منظم لعوالمه ، أمرنا أن ندبر ملكنا بالعدل ونقوم بالقسط وإلا كنا مفسدين فى الأرض مهملين غير شاكرين ، وانظر كيف أمرنا هنا أن ندعوه خوفا وطمعا لأن الأمر فى العوالم الأرضية غيره فى العوالم السماوية ، ففى الأوّل لاعمل لنا فى إدارة السموات فلذلك نرانا مضطرين إلى الخضوع والتذلل لمجرى الكواكب فرحين بأعماله ، وفى الثانى نرانا ندعو خوفا من العقاب وطمعا فى الثواب لأن المقام مقام عمل لامقام علم ؛ فبالعلم بما فى نظام الملك خشعنا ، وبالنظر للعمل فى أرضنا دعونا خائفين تارة وطامعين أخرى لأنا مكلفون بالنظام والقيام بالعدل واستخراج المنافع من عالمنا وهذا قوله تعالى (ولا تفسدوا فى الأرض) بالظلم والشرك والمعاصى والدعوة إلى الشر وإتلاف النفس بالقتل أو غيره وإفساد

الأموال بالغصب والسرقة وأخذه من الغير بالحيل وإفساد العقول بالخمر والأنساب بالزنا وإفساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء (بعد إصلاحها) بالعدل والإيمان والطاعات والدعوة إلى الخير ونظام الأمم والأفراد وحفظ الأعضاء والعقول وإرسال الرسل بالاحسان ومكارم الأخلاق (وادعوه خوفا وطمعا) ذوى خوف من الردّ لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع فى إجابته تفضلا واحسانا لفرط رحمته ، ثم رجح جانب الطمع بالرحمة فقال (إن رحمة الله) شيء (قريب من المحسنين) فمن أحسن عمله أو خلقه توالت عليه الرحمات ، ومن أتقن صناعته أو زراعته أو عاشر الناس بالمعروف تشاهد الاقبال عليه يكون على قدر إتقانه ، وكذلك الذين صبروا وعبدوا وصدقوا فى العبادة فهؤلاء تتوالى عليهم الرحمات والرحمة فى كل عمل بحسبه ، فإن كان جسمانيا كانت الرحمة من قبيله وإن كان روحانيا كانت الرحمة من قبيله ، فالرحمات على قدر الإحسان ، إن الله حكيم فى إعطائه يعطى على مقتضى الاستحقاق ، فإذا لم يحسن المسلمون صناعاتهم أقبلت إليهم الأمم الغربية فأذاقتهم العذاب الهون ، وإذا جهلوا الزراعة والتجارة ولم يحسنوها أقبل عليهم أهل الغرب وأهل أمريكا وأنزلوا بضائعهم فى أسواقهم وباعوها منهم وأخذوا ماملكت أيديهم لأنهم لايحسنون صنعا ، ولا يقيمون العمل وزنا فيصبحون أذلاء فقراء يتخطفهم المحسنون ، وفى الأثر « إن الله يحبّ المتقن عمله » ثم أخذ يصف الرحمة العامة فقال (وهو الذى يرسل الرياح بشرا) جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر : أى مبشرات ، وقرئ (نشرا) مخففة نشر كرسل ورسل جمع نشور كرسول ورسل : أى ناشرات للمطر (بين يدى رحمته) قدّام رحمته يعنى المطر ، فإن الريح تهبّ حاملة قطرات الماء من البحار فتحفظها الجبال الراسيات من الجانبين فلا تزال هابة حتى تصل إلى الأماكن البعيدة فتسق الزرع ، قال تعالى (حتى إذا أقلت) حملت (سحابا ثقالا) بالماء ، وإنما جمعه لأن السحاب بمعنى السحائب (سقناه لبلد ميت) أى لأجله أو لإحيائه وسقيه ولن يكون ذلك إلا بحفظ الجبال للهواء والسحاب من الجانبين (فأنزلنا به الماء) بالبلد (فأخرجنا به) بالماء (من كل الثمرات) من كل أنواعها (كذلك نخرج الموتى) أى كما أحيينا البلد الميت وأخرجنا من كل الثمرات نخرج الموتى بردّ الأرواح إلى أجسادها بعد جمعها وتنظيمها (لعلكم تذكرون) فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا (والبلد الطيب) الأرض الكريمة التربة (يخرج نباته بإذن ربه) بمشيئته وبتيسيره حيث يكثر النبات ويغزر نفعه (والذى خبث) كالأرض السبخة والحجرية والطباشيرية والجيرية وما أشبهها (لايخرج إلا نكدا) قليلا عديم النفع ونصبه على الحال وتقديره ، والبلد الذى خبث لايخرج نباته إلا نكدا ؛ فهكذا الناس كالأرض لأنهم منها ، فمنهم من هم كالأرض الطيبة فهم يعلمون ويعملون ، ومنهم من هم كالأرض الخبيثة فهم لاينتفعون بالعلم ولا الدين ، وفى الحديث « إن مثل مابعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله عز وجل ونفعه مابعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله تعالى الذى أرسلت به » أخرجاه فى الصحيحين ، ثم قال الله تعالى (كذلك نصرّف الآيات) أى مثل ذلك التصريف نصرّف الآيات نردّدها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويعتبروا بها وليقوموا بحقها فلا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها بل عليهم أن يكونوا صالحين مصلحين عادلين فهؤلاء هم الشاكرون ، انتهى التفسير اللفظى للقسم الأوّل من (سورة الأعراف) وفيه عشر لطائف :

[اللطيفة الأولى] قوله تعالى « فلا يكن فى صدرك حرج منه » .

[اللطيفة الثانية] « وكم من قرية أهلكناها الخ » .

[اللطيفة

[اللطيفة الثالثة] « الوزن والميزان » .

[اللطيفة الرابعة] نظام هذا القسم من السورة مع ذكر فرعين : وهما قوله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الخ » وإيضاح مامضى من قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحبّ المسرفين » .

[اللطيفة الخامسة] قوله تعالى « كما بدأكم تعودون » وقوله تعالى « ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس فى النار الخ » .

[اللطيفة السادسة] لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة الخ » وقوله تعالى « إن الله حرّمهما على الكافرين » .

[اللطيفة السابعة] « لانكلف نفسا إلا وسعها » .

[اللطيفة الثامنة] « ونزعنا مافى صدورهم من غلّ » .

[اللطيفة التاسعة] أصحاب الأعراف وكيف يعرفون أهل النار وأهل الجنة بسيماهم ؟

[اللطيفة العاشرة] « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ » .

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ﴾

لقد شرحت هذه اللطيفة فى أوّل السورة وأبنت كيف كان أوّل هذه السورة مؤذنا بأن الانذار والإرهاب حاصل فيها بهلاك الأمم الغابرة وذلك تذكرة للمؤمنين وإنذار للكافرين . ولقد تبين هناك كيف حلّ هذا الوعيد بالأمم الاسلامية لما قست القلوب وضلت العقول وجهلت الأمم وخربت الذمم وتقاتل الرؤساء وجهل المرءوسون فلم يعرفوا كيف يؤدّبونهم وقوله تعالى « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » هو وما قبله من قوله « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ومابعده من قوله « وكم من قرية أهلكناها الخ » من تمام الكلام فى آخر سورة (الأنعام) . ألم تر فى آخرها قوله تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل » وفيه أيضا « يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها الخ » ولانطيل إيضاح هذه اللطيفة فقد استوفيت فى أوّل السورة .

اللطيفة الثانية « وكم من قرية أهلكناها الخ » قد وضحت فى تفسير أول السورة

اللطيفة الثالثة « الوزن والميزان »

قد ذكر بعضه فى هذه السورة وقد تقدّم فى آل عمران وفى البقرة وفى الأنعام فى مواضع شتى ، ولكن لابد من ذكر عجيبة جاءت فى بعض الجرائد وهى تبين أن الأرض تتنفس كما يتنفس الناس وتنفسها فى أوقات محدّدة فهى فى نفسها موزونة أيضا فتعجب .

تنفس الأرض

هل تعلم أن الكرة الأرضية (تتنفس) مرة فى نحو كل مئتى سنة وأن تنفسها هذا ينجيها على الأرجح من الانفجار لأن الغازات تتمدد فى باطنها باستمرار . وعند ما تتنفس تراها تتقلص من نواح وتتمدد من نواح أخرى فينشأ عن ذلك خلل صغير فى ضبط المواقيت لم يتنبه إليه العلماء إلا منذ عهد قريب ؛ فقد اتفق فى أثناء حرب (البوير) أنهم أنبأوا بقرب وقوع خسوف كلى ولكن ذلك الخسوف لم يقع إلا بعد الوقت المعين بسبع ثوان . وحدث أيضا بعد ذلك ببضع سنوات أن خسوفا آخر تأخر عشرين ثانية عن ميعاده فدهش علماء الفلك فى العالم أجمع وشرعوا يبحثون عن السبب حتى انجلت لهم الحقيقة وعرفوا أن تقلص الأرض وتمددها بسبب تنفسها هما سبب ذلك فأخذوا يحسبون حساب أرصادهم ويضبطون المواقيت .

اللطيفة الرابعة فى نظام هذا القسم من السورة وفى قوله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الخ »
وايضاح مامضى من قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا الخ »

إن فى نظام هذه السورة ولا سيما هذا القسم منها لعبرة لنا وتفهيما . انظر كيف ابتدأ السورة بالإخبار بالأمم البائدة والقرون الخالية ومن فاجأهم العذاب ليلا أو نهارا وهم يقولون « إنا كنا ظالمين » وكيف أتبعه بأن الميزان حق والنظام صدق فمن غلبت حسناته فهو الفائز ومن غلبت سيئاته فهو الهالك . ثم أخذ يقول مامعناه: أيها الناس إنا مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش فكفرتم النعمة وأبيتم الفضيلة فكان شكركم قليلا وكفركم كثيرا . ثم أخذ يصف ماكان من إبليس من براهين المغالطة والحجج السفسطية والكبر الجاهلى . وكيف أصبح بعد أن ضل وغوى موسوسا لآدم وبنيه لخرج الآخر من الجنة كما سقط الأوّل من الصورة الملكية ومن السموات العلية ثم تاب آدم ولكن إبليس لايزال شيطانا رجيما .

وكيف جعل سبحانه هذه القصة لنا عظة واعتبارا لم يدع جزءا من أجزائها إلا جعله درسا نقرؤه وعلما نفقهه وحكمة نتلوها وآية نعقلها وعبرة نعتبر بها · ألم تر كيف وعظ بنى آدم ألا يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم من قبل . وكيف حذرهم من نزع لباس الفضيلة والأدب بوسوسته كما نزع عن أبيهم لباس الجسم المادّى . وكيف جعل ذلك عبرة للعرب الذين حرموا اللباس فى الطواف بوسوسة الشياطين ودعواهم أن هـذا قربة لرب العالمين . وكيف كان أمثال هذا من مثار البدع والشكوك والأهواء منهيا عنها داخلا فى حوزتها جاريا على منهجها . وكيف كان تحريم الحلال والتحرّج من طيبات الرزق من خدع الشيطان . وذلك كله مبنى على وسوسة إبليس لآدم ومشابه له ومماثل . وكيف كان سقوط المسلمين اليوم فى الحضيض والجهالة العمياء والضلالة العوراء والنوم العميق والجرم العظيم مشبها لما حصل لآدم من الوسوسة بل لما حصل للعرب الجاهلية الذين ظنوا العرى قربى إلى الله فى الطواف كما ظنّ المسلمون اليوم ترك العلوم والمعارف والصناعات وترك حبل الأمور على غاربها من القرّبات لذى الجلال والإكرام وكما كثر من يدعو إلى ذلك من بعض رجال الصوفية الذين يعلمون أتباعهم مناهجهم ويفهمونهم أن طريقهم خير الطرق بل ربما كفروا بقية المسلمين .

ولعمرى إن هذا لهو الداء العياء والأمر المظلم . وسوس الشيطان لعرب الجاهلية فأعراهم فى الطواف ووسوس لمسلمى الشرق والغرب بقول بعض صغار العلماء وبعض ضعاف شيوخ الصوفية الذين هم ومن قبلهم من شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا أن العلوم حرام وما أشبه ذلك من الضلالات والخرافات التى علقت بالأذهان فليس يخرجها إلا نشر الحكمة والعلم والعرفان بين أمم الإسلام .

حكاية

لما حضر إلى مصر العالم (وان ون كين) من مدينة تاينتسن الذى أشرت إليه سابقا قال :

لقد سبقنا الوثنيون وقالوا للمسلمين أنتم محرّفون وليس عندكم إلا الحيض والنفاس والجهل والوسواس فأنتم لاتحفظون إلا علم الطلاق والميراث والبيع والهبة والقرض وماشاكلها من العلوم ، فأما هم فإنهم يقرءون العلوم بأنواعها من طبيعة وفلك وينقلونها عن أهل أوروبا . فأما العلماء فى الإسلام هناك فإنهم يصدّون الناس عن سبيل العلوم ويقولون إنها حرام ودين الإسلام لايوجب أن نحب الأوطان ولا أن نعلم شيئا عن بنى الإنسان ولا أن نفكر إلا فى الركعات والسجدات والحج والزكاة وما عدا ذلك فإنما هو حديث خرافة . وقد كان كتاب [القرآن والعلوم العصرية] يطبع إذ ذاك فترجمه وكانت سورة (الفاتحة) من هذا التفسير تطبع فترجمها وأرسلها إلى بلاده . أفليست هذه الحكاية دلالة أن الشيطان أعرى المسلمين من العلوم كما أعرى الجاهلية فى الطواف .

رأى القسر

والذى أراه أن أمم الإسلام قد دخلت فيها أمم وأدخلت على عقائدها ما أصبح عالقا بالإسلام وقواعده حتى أصبحوا كالبوذية فى الزهد ودخل فى الصوفية الصحيحة ما شوّهها من الفواشى الغريبة ، فإن المتأخرين من الصوفية أحدثوا بدعا أبعدت أصولهم عن الدين وصاروا هم قادة الأمم الإسلامية لاحتلال الأمم الإفرنجية اللهم إلا الصالحين منهم الصادقين الفضلاء أولئك هم الصالحون .

ثم انظر كيف ذكر الناس بأنه أنزل عليهم لباسا من الحرير والقطن والكتان وقال إن ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . نعم إنه من آيات الله، ألا ترى أن شعر القطن وحب الشعير كلاهما مكوّن من موادّ واحدة . ولما اختلف التركيب اختلفت الصور ، فالبوتاسا فى الشعير ٢١ فى المائة تقريبا وفى القطن ٥ فى المائة والصودا ٤ فى المائة فى الشعير و ٤ فى المائة فى القطن إلا قليلا والجير ٢ فى الشعير و ١٥ فى القطن والمغنيسيا ٩ فى الشعير و ٩ إلا قليلا فى القطن وحمض الفسفوريك ٣٤ إلا قليلا فى الشعير و ٨ فى القطن وحمض الكبريتيك ٢ فى الشعير و ٨ إلا قليلا فى القطن والسلكا ٢٨ إلا قليلا فى الشعير و ٦ فى القطن والكلور أقلّ من واحد فى المائة فى الشعير و ٦ فى القطن وأوكسيد الحديد نحو ثمن الواحد فى المائة فى الشعير وهو معدوم فى القطن . هذا صنف واحد مما نلبسه وهو القطن قد وازناه بالشعير وكلاهما يزرعان فى حقولنا .

عجائب الجذور الأرضية النباتية

فتعجب كيف كان نبات القطن ونبات الشعير قد أعطى كل منهما فتحات صغيرات فى الجذور وهذه الفتحات قدّرت بقدر بحيث لايدخل فى فتحات جذور القطن ما لايصلح للبس ولا فى فتحات جذور الشعير ما لايصلح للأكل .

هل يعلم الناس ذلك ؟ وهل يعلم الناس أن فتحات جذر الشعير لاتصلح لإدخال شئ من مادّة الجير إلا نحو سبع ما تدخله فتحات جذور القطن ؟ ولو أن جذور الشعير أخطأت فتحاتها فأدخلت من الجير فوق سبع ما أدخلت جذور القطن لم يكن الحب شعيرا بل كان شيئا فاسدا . فياليت شعرى ما هذا الحساب ؟ ما هذا النظام ؟

أيها المسلمون ! هل كانت جذور القطن علامة دراكة فوزنت البوتاسا بحيث كان ما أدخلته فى جرم شجرة القطن يبلغ نحو ربع ما أدخلته جذور الشعير ؟ عجب لهذا النظام ! أيها المسلمون هذا هو دينكم هذا هو الذى عناه الله فى القرآن .

يقول الله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم » فهذا هو اللباس . وكيف ينادى الله بنى آدم ويقول قد أنزلنا عليكم لباسا وهو لايناديهم إلا فى الأمور العظيمة . لماذا ناداهم ؟ ناداهم ليقول لهم « ذلك من آيات الله » ولقد عرفت فى هذا المقام كيف كان من آيات الله بالعلوم الكيمية التى تقدم ذكرها .

إيضاح قوله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم » أيضا

ذكرى أيام الشباب وطلب العلم

أذكر فى هذا المقام ما كنت أفكر فيه أيام الشباب فى نحو سنة ١٣٠٠ هجرية ذلك أنى كنت نلت فى الأزهر قسطا من العلم وهو النحو والفقه وشئ من التوحيد .

ومعلوم أن العادة جرت أن الصبى يحفظ القرآن صغيرا بلا عقل ولا فكر ولا فهم ، فها أنا ذا كانت هذه حالى ؛ فى تلك الأيام أيام أن دخل الإنجليز مصر انقطعت عن الأزهر ردحا من الزمن وهو ثلاث سنين

كنت فى خلالها أقاسى متاعب ومرضا ومشاقّ ، وفى الوقت نفسه كنت أقوم بأمر الأسرة وهناك تجلت لى هذه الحياة بمظهر لايتسنى لى وصفه الآن وقد وصفته فى كتابى المسمى (التاج المرصع) وهو منتشر بالعربية واللغة الأوردية بالهند واللغة القازانية بالروسيا ولكن الذى يهمنى الآن ما يناسب هذه الآيات فأقول :

لقد كنت أصوم بعض الأيام وأصلى بالليل وأفكر فى أكثر الأحوال فى هذا الوجود وفى صانع العالم وما الدليل عليه وهل العالم منظم وإذا كان منظما وعرفت ذلك نلت كل مطلوبى من حياتى . فليفكر الذكى فى موقفى لاعلم عندى ولا علماء حولى ولا كتب تهدينى ولا مدارس ترشدنى ولا أعرف إلا علم التوحيد وعلم التوحيد بصورته فى البلاد الإسلامية مبعد عن الحقائق إلا قليلا ، أخذ وردّ والقرآن فى ناحية والناس فى ناحية ، وكنت أقول هل القرآن يترك نظام هذه الدنيا ؟ وهل ديننا قاصر على هذه المشاغبات فى علم التوحيد ؟ وكيف يكون دين الفطرة ؟ فصممت أن أقرأ القرآن جعفل فى الصلاة لأنى كنت أردّد هذا البيت :

وصلاة الليـل مسافتها فاذهب فيها بالفهم وجى

وكثيرا ما كنت أصلى ليلا وأتممه قراءة فى صلاة الليالى أشهرا لا أتذكر عددها الآن وها أنا ذا وصلت إلى ما أريد الآن ، وذلك أنى ليلة كنت أقرأ فى الصلاة هذه الآيات « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا » وكنت كثيرا ما أكرر الآية عشرات المرات فى نفس الصلاة مستحضرا المعنى فأعجبنى معنى هذه الآية وأدهشنى كيف يوافق ماأراه فى حقولنا . نحن نزرع الذرة والقطن بجانبه ، القطن للابس والذرة والقمح للآكل .

عجبا ذرة تؤكل وقطن يلبس كانت هذه الآراء تهجس فى نفسى وأقول إن فى هذا القطن وفى هذه الذرة التى فى حقولنا بمصر لسرا يدهشنى أن ألبس من نفس الحقل وآكل منه . وكيف يكون هذا الطين مخرجا لنا غذاء ولباسا . أهذا الطين يتحوّل ملبسا ويتحول غذاء يهضم وهكذا كانت هذه المعانى لاتفارقنى من وجهين : وجه الغاية منهما وهى ملابسنا ومآكلنا ، ووجه التركيب فى الخلقة : أى إنى أقول كيف اتفق أن الأرض صالحة لأن يتحوّل طينها إلى قطن وكتان الخ تلبس على الأجسام وإلى طعام وغذاء ، ثم كيف ظهر أن هذا التحوّل للبس والغذاء مناسب لحياتنا فأنا فى دهش من هذا الوجود ثم أعود فأقرأ الآية فى الصلاة فرحا مندهشا كثير التعجب كثير الحسرة على جهالتى والحزن على نفسى المسكينة التى لاتجد لها معلما يرشدها ولاهاديا يهديها فيريها كيف تركب هذان النباتان وما الأجزاء الداخلة فيهما .

وهكذا تمرّ الشهور تلو الشهور وأنا على هذه الحال وكنت لا أجد محيصا من هذا إلا التضرّع لموجد هذا الكون ليلا ونهارا أن يرجعنى إلى الجامع الأزهر فأجاب الدعاء ووصلت لطلب العلم مدة كافية ثم دخلت (دار العلوم) فدهشت أيضا إذ وجدت العلوم الطبيعية والفلكية هى هى التى كنت أبحث عنها وأنا أصلى حتى ضج إخوانى الطلبة من فكرتى وتوجهوا إلى أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل وقالوا إن (طنطاوى) مهوّس فى هذه العلوم التى أتى بها النصارى وهى كلام لاطائل تحته فأجابهم قائلا (دعوه يبحث عن ربه فى سمواته وأرضه دعوه دعوه) فكنت إذ ذاك أرى أن ماطلبته فى الحقول وفى الصلاة هو عين ما يدرس فى المدارس فى العالم الإنسانى كله .

أفليس هذا الذى ذكرته لك أيها الذكى يوجب علىّ أن أوضح للمسلمين أن القرون المتأخرة فى الأمم الإسلامية كانت فى نوم عميق وأن الدين الإسلامى هو أمثال مافى هذا التفسير . أليس مما يؤلمنى ويوجب الحسرة والأسى أن أرى أمما تتبعها أمم يتلاحقون ويحيون ويموتون وهم يقرءون وأكثرهم لايعقلون ؟..

هاهى ذه حقيقة الإسلام . حقيقة الإسلام ما جاء فى نحو هذا التفسير . ذكرت لك أن فطرة الإسلام هى مثل ما اتفق لى فهل من المعقول أن يكون هذا دين أضعف الأمم قوة .

اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان وأعلم أنى محاسب على كتمان هذه الحقائق بل فوق كل ذلك من اطلع على هذا التفسير وشاركنى فى هذه الحقائق فهو مدين ومعاقب ومعذب فى الدنيا والآخرة إن لم يفعل ما فعلته أنا من بثّ الفكرة بين أمته على قدر إمكانه ، وليعلم أن الله سيعينه وفوق ذلك يرى إكراما وإجلالا واحتراما وعطفا وحبا وودّا .

أنا مسئول عن نشر هذه الآراء ، وأنت أيها الذكى المشارك لى فيها مسئول . كيف يكون دين الإسلام العلوم التى بها ارتقت أوروبا وأمريكا والمسلمون لايعلمون ؟ علىّ وعليك أن نعمم الفكرة بين الأمم التى نعيش فيها ، وهذا التفسير اليوم يقرأ بين يدى المسلمين فى أقطار الإسلام ، فإذا ذكرت قومك بما قرأته فيه فاعلم أن إخوانك فى الأقطار الأخرى يذكرون قومهم بما يقرءون فيه أيضا . واعلم أن هذه الفكرة ستعم سريعا وسيتم ما أنبأتك عنه وسيكون فى الإسلام جيل وأجيالٌ خير ما أقلت الأرض . فمن هذا النبع فاسق المسلمين وعلى هذا المهيع فليجدّ المجدّون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، انتهى .

بهذا فليفسر القرآن . وبهذا وأمثاله فليرتق المسلمون . تمرّ قصة آدم على كثير من المسلمين وغيرهم فى مشارق الأرض ومغاربها ولكن القرآن يقول قفوا قفوا لاتتخطوا أيها الناس ادرسوا نباتى انظروه . ألم أقل لكم فى أوّل السورة « والوزن يومئذ الحق » أنا واحد ووزنى واحد فى الدنيا والآخرة كما قلت « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » فزنوا ذرات الملابس وذرات المآكل النباتية وتعجبوا من صنعتى حتى تحبونى وتمتنوا المحوق بى فلا تغتروا بالأرض ومن عليها .

ولما كان مقام الملبس ربما يصعب عليكم ذكرت مباحثه بعد كلام الأرض والنبات والبلد الطيب والبلد الخبيث واختلاف النبات تبيانا لما ذكر من الملابس النباتية فى القصة الآدمية « والله هو الولىّ الحميد » وهنا نذكر الفرعين لهذه اللطيفة .

الفرع الأوّل إيضاح « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الخ »

[تفصيل معنى (عليكم) فى قوله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم الخ »]

فقوله تعالى « عليكم » يفيد تخصيصه ببنى آدم وهنا ينظر فى صفين وهما :

(الصف الأوّل) أسد . ثور . طير . (الصف الثانى) الإنسان .

هذان الصفان تراهما فى الأرض وفى الجوّ ها أنت ذا ترى الطير له ريش يقيه غوائل (القيظ والزمهرير) وترى الأسد والثور كل منهما قد كفاه ماله من جلد وما عليه من أشعار . كفاهما الله وكفى غيرهما من دواب الأرض حتى الحيات فى أجحارها والسمك فى الماء والحشرات فى الخلاء . كل هذه كفاها ما خلق لها من فلوس على السمكات ووقايات مختلفات .

أما الصف الثانى فهو أمر عجب أقول أمر عجب لأنى نظرت وما أعجب ما نظرت ! هذا الإنسان خلق عارى الجسم رقيق البشرة قلّ شعر جسمه فماذا صنع الله له ؟ صنع له نظاما آخر وإليك موادّه :

(١) ادّخر له فى الأرض فحما . (٢) وجعل قوّة الكهرباء . (٣) وبذر القطن .

(٤) وجعله واقفا على رجلين . (٥) وله يدان تعملان . (٦) وله عقل يفكر .

(٧) فعرف أن القطن والكتان والأوبار والأشعار والأصواف وقاية له .

(٨) زرع القطن . (٩) جعل الله القطن قوّة بها ينبت مرة أخرى .

(١٠) استعمل الكهرباء والفحم فى إدارة الآلات لسقيه . (١١) وهكذا لحلجه .
(١٢) ونقله بالتجارة . (١٣) وغزله . (١٤) ونسجه . (١٥) وخاطه . (١٦) ولبسه

هذه ملابس الإنسان من تيل وقطن وغيرهما وكذا الحرير تعاون عليها الماء والأرض والحيوان والكهرباء والفحم . فانظر للإنسان عارى البدن رقيق البشرة كيف اضطر إلى جميع هذه الأعمال ووجد كل ما يحتاج إليه فلبس بعد كل هذا لينال ما ناله الأسد والثور والطير .

فانظر لحكمة مدهشة وآية عجيبة حيوان ضعيف جعل له ما يقوّيه فى نفسه بالعقل وفى الآفاق فإنا نجدها تساعده وهذا هو إيضاح قوله فى أوّل السورة « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » وإنما قلّ شكرنا لأننا كثيرا ما نذهل عن هذا الجمال الباهر والنظام المحكم ، إن هذه آيات بحروف كبيرة ليقال كيف كان هذا النظام سائدا ولم رأينا الوجود كاملا فى خلقه تاما فى نظامه ما أجهل هذا الإنسان يزرع المصرى والأمريكى القطن وأكثرهم لايعقلون إلا ربحه فى الثمن أو خسارته ونحوهما .

أما كون هذا النوع من الحكمة عجيب وغريب وكيف اختص الإنسان بالعقل وجعلت أعضاء الحركة ملائمة الزرع والغزل والنسج ووافقته العوالم الخارجة كلها وساعدته على إتمام لبسه وكيف منع هذا العقل وهذه الأعضاء المطاوعة للعمل عن الثور والأسد والطير . وكيف رأينا نظاما محكما فى كل ما نشاهد من هذا الوجود ، فإن الناس جميعا لايفكرون فيه إلا قليلا من حكمائهم . هم الذين تراهم على أرائك الحكمة متكئين. هؤلاء هم الذين يقرءون هذا الوجود بلا حرف ولا كتاب فيرونه ناطقا نطقا أفصح من الإنسان قائلا تضافرت الأدلة وتكاثرت بل أصبحت أشبه بالشمس المشرقة جللت وجه الأرض ولونتها بلونها الذهبى بحيث أصبحت البصائر فى ضوئها اللامع أشبه بأعين الخفافيش تبهرها الأضواء اللامعة ولا يتجلى لها النور إلا فى دجنات الليال وظلمات الآفاق .

إن هذا الدرس وحده : أى درس الملابس بل درس الحكمة (الحكم) وحدها أى تخصيص الملابس بالإنسان فى الآية وفى الطبيعة يعطى علما جما وهو الذى عبرنا عنه بالنور الشمسى أن الناس يعرفون وجود أنفس الحيوان والإنسان بما ظهر لهم من الحس ومن الحركات ، فإذا فقد هذان من الحى حكمنا بأنه ليس فيه نفس . إننا لم نر نفسا قط وإنما حكمنا على النفوس التى فى أجسامنا وأجسام حيواننا بآثارها ، فإذا كانت أنفسنا وأنفس حيواننا ما عرفناها بأبصارنا وإنما عرفناها بعقولنا مستدلين بآثارها ، وإذا كان هذا حكمنا على وجودنا فهذا حكمنا بوجود مدبر حكيم لهذا العالم ، وإذا كان حكمنا على وجود زيد ودابة زيد والطير فى وكره والأسد فى عرينه بما ظهر من آثار أرواحهم حكما لايشوبه شك فكيف يكون حكمنا على هذا الحيوان الكبير الذى نعيش فيه وهو المجموعة الشمسية التى رأيتها مرسومة مصوّرة مفهومه فى (سورة الأنعام) هذه المجموعة التى نحن وأرضنا جزء منها فيها آلاف وآلاف من الحكم التى رأيتها فى القطن والكتان واختصاصهما بالإنسان .

فكل هذه ناطقات شاهدات بحكمة نظمت وقدرة بها أبرزت هذه العجائب . إن الشواهد الناطقة بالحكمة التامة والتدبير المحكم لاعدد لها وأى نسبة بين حيوان عرفته بآثار جسمه وبين منظم الكون الذى رأينا له آثارا لاتتناهى ونعما لاتحصى .

سهل على عقل الإنسان أن يفهم وجود زيد وحيوانه لأنه صغير فهم الصغير ولكنه قد يعسر عليه فهم خالق العالم لأنه عظيم ودلالاته لانهاية لها فبهرت بصيرته فصار يبحث عن هذا الخالق فى ظلمات البراهين والمناقشات والكتب أن جميع ما نطقت به الأدلة المنطقية والعلوم الوضعية المكتوبة بالحروف اللفظية أشبه

بظلمات الليالى والناس فيها خفافيش ، فأما الدلائل التى عرفتها هنا فهى أشبه بالنهار فغابت عن العقلاء فتاهوا فى البيداء .

هذا ما وقر فى نفسى عند طبع هذه السورة أثبته ليكون تبصرة لأولى الألباب . إن هذا هو الحبّ والشوق والعشق والغرام والهيام . هذا هو المقام الذى فيه تذوب القلوب حبا وهياما . وهذا هو المقام الذى يقال فيه إن طلبنا أن نرى نفس الصانع لا مجرد الصنعة وههنا يضمحل جمال الجنات وتختفى أنواع اللذات إلا لذة النظر إلى الذات الواجب الوجود وهذا مقام الحكماء والأولياء . قال الشاعر :

إذا اشتبكت دموع فى خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

وكل يدعى وصلا لليلى ... وليلى لاتقرّ لهم بذاكا

وهذا هو الفرع الأوّل من فرعى هذه اللطيفة الرابعة فى إيضاح قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحبّ المسرفين » .

الفرع الثانى من اللطيفة الرابعة

[زيادة إيضاح لما مضى فى قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين »]

لقد تقدّم الكلام على جسم الإنسان وتشريحه مرارا فى هذا التفسير لاسيما فى سورة (آل عمران) ولكن لابد لنا من جملة وجيزة توضح مجمل هذا البدن ثم نتبعها بجملة أخرى فى أطعمته إجمالا وقلما يضرّ منها زيادة للفائدة فأقول :

إن البدن الإنسانى كله قوامه الهيكل العظمى وأهمه العمود الفقرى الذى ينتهى بالجمجمة الكاسية للمخ الذى تتفرّع فيه أعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وفى هذا العمود الفقرى تغرس الأضلاع المنحنية المكوّنة لما يشبه صندوقا يحتوى على القلب والرئتين وتحت هذا الصندوق البطن وفيه المعدة والأمعاء والكبد والكليتان . ثم إن هذا الهيكل يمتد منه الرجلان من أسفل واليدان من أعلى فبالرجلين نسعى لجلب الطعام وباليدين نتناوله ونضعه فى الفم وتتناوله الأسنان بأنواعها وتطحنه كما تفعل الطواحين التى صنعها الإنسان ليصلح أن يدخل فى المرىء الموصل إلى المعدة فيستقر هناك زمنا ما ويهضم حتى يصلح أن يكون دما .

ولما كانت الآلة البخارية الطاحنة مثلا لابد لها من وقود هكذا كانت أجسامنا فهذه الآلة الجسمية يجب أن يقدم لها الوقود وما هو إذن ؟ هو الطعام . إن الجسم ليس موقدا توقد فيه النار حقا ولكن فيه الطعام الذى يدفئنا بلا دخان ولا نار وينقلب دما يجرى فى شرايينا فينتشر من القلب إلى جمجمة الرأس وإلى نهاية أصابع اليدين والرجلين . وما القلب إلا كالآلة الماصة الكابسة فهو يجذب الدم إليه ثم هو يدفعه دائما ولن يدوم القلب فى حركته التى لانعيش إلا بها إلا إذا استوفينا شروطا لابد منها لذلك الدوام فضلا عن الطعام كالهواء النقى والضوء والرياضة البدنية . إذا تم هذا كله فإن الفضلات لابد من إخراجها وهى تخرج بالجلد والكليتين والرئتين والأمعاء ، فبالجلد يخرج العرق ، وبالكليتين يخرج البول وبالرئتين يخرج الكربون ؛ أى المادّة الفحمية ، وبالأمعاء تخرج الفضلة الغليظة .

ومعلوم أن الكليتين يأخذ الماء عنهما الحالبان وهما يوصلانه إلى أحد السبيلين . إذا عرفت هذا وقمت بما يوجب صحة بدنك ومضغت الطعام جيدا ولم تر فى ذلك أى ضر فإنك تكون فى صحة جيدة ولكن لايتم ذلك إلا بخمسة أمور وهذا بيانها :

(١) أن تكون مسرورا بما حولك وبعملك .

(٢) وأن تكون آراؤك وأميالك موزونة لامضطربة .

(٣) وأن تكون قانعا بما لديك من أمور هذه الدنيا .

(٤) وأن تكون صابرا عند الملمات والحوادث المزعجة .

(٥) وأن تجعل لك فى وقت فراغك عملا مقبولا لأنك إذا تركت نفسك لحظة تنازعتها الأهواء فضلت فأحزنتك فنمت الصحة .

اعلم أيها الذكى أن الفقير تعينه الصحة على جلب القوت، وإذا فقد الصحة الغنى والفقير فقد فقدا السعادة والسرور . فالصحة شرط السعادة متى صح جسمك نفعت نفسك ونفعت غيرك وكنت سعيدا ، فإياك أن تأكل فوق الشبع مثلا أو تعرض نفسك للبرد أو تأكل ما يضرك ؟ بل عليك بالنظام الذى يشير به الأطباء .

إن الدم الجارى فى الأوعية الدموية يعوض ما تفقده كما تقدم ؛ فنه يكون العظم والشحم واللحم والظفر والشعر والعين والأذن وما شاكل ذلك ، فإذا اختلفت الأعضاء وجب أن يختلف الغذاء والخبز عماد الحياة وقوامها فإنه يحتوى على مادّة اللحم ، والمادة التى تحدث فى الجسم حرارة ومن الأغذية الفاكهة والخضر واللبن والبيض .

ثم إن الملح فى الطعام وبعض المعادن الأخرى التى تدخل فى الأطعمة كلها يتكوّن منها العظم فكان هذا النوع الإنسانى إذ يميل إلى الملح فى خبزه وفيما يطبخه من الخضر واللحم يعمل لتكوين عظمه وهو لايعلم لماذا دام هذا الاصطلاح فى الناس .

واعلم أن الناس لما اتفقوا على أن يطبخوا ويخبزوا ويغلوا الطعام لم يكن ذلك عبثا فهذا فضلا عن جعله الطعام مقبولا فى ذوقنا يجعله أقرب إلى الهضم وأسرع دخولا فى الأوعية الدموية .

مناقضات الصحة وموجبات العلل والأسقام

(١) الطباق وتسميه الفرنجة (توباكو) سموه باسم جزيرة (توباجو) إحدى جزائر (انتيله) بأمريكا قد اعتاد الناس تدخينه وحرم جميع الأطباء استعماله وقد شرحنا هذا المقام فى سورة (البقرة) عند آية الخمر بإيضاح تام ، وكذلك شرحنا مسألة الطعام عند قوله تعالى «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ الخ» فقد أفضنا فى هذا المقام هناك وبينا أن أكثر ما اصطلح عليه الناس أنه حسن هو ضار بهم كالسكر الصناعى المعروف فقد أشار الأطباء بالإكثار من الفواكه بدله لأنه ضار وقد عملت بهذا ووجدته حقا . وهكذا مما لانعيده هنا وإنما نريد أن نشرح مسألة الطباق (الدخان) شرحا أوسع لم نذكره هناك . وإليك موادّ أضراره بالصحة العمومية وهاهى ذه ٠

إن أكثره (١) يفسد الريق (٢) ويضر حاسة الذوق والشم والبصر (٣) ويضعف المعدة (٤) ويقلل شهوة الطعام (٥) ويهيج الأنسجة الهوائية فى الرئة (٦) ويورث الخفقان فى القلب (٧) ويضعف الأعصاب (٨) ويحمل فى المخ ارتجاجا وتخديرا (٩) ويجعل الذاكرة ضعيفة (١٠) ويضعف القوّة المفكرة (١١) وقوّة الإرادة (١٢) وربما يحدث الجنون (١٣) وتارة يحدث الرمد فى العينين (١٤) وفى المجموع العصبى يحمل فتورا (١٥) ويعيق الجسم عن النمو .

وقد حلله الأطباء كيماويا فوجدوا أنه يحتوى على مادّة سامة إذا وضع منها خمس نقط فى فم كلب مات فى الحال أو عشر نقط فى فم جمل كفت لقتله . وهاك حكاية :

أكثر طبيب من النصح لرجل كان يدمن تعاطى التدخين فلم يزدد المريض إلا اغراما به ، فبينما هو سائر ذات يوم إذ رآه الطبيب يسعل وهو لايستطيع المشى ولا أى عمل إلا ببطء ، وقد أصبح يحمل العصا لتعينه فقال الطبيب له لقد صدق من قال [الذى يفرط فى استعمال (الطباق) لايسرق متاعه لص ولا يعضه كلب ولا يبيضّ له شعر] فلما استفهم المريض عن سبب ذلك قال الطبيب لأنه يسعل الليل كله لمرضه فيظنه اللص

مستيقظا فلا يسرق منزله وعصاه التي يتوكأ عليها تحرسه من الكلاب وهو يموت في ريعان شبابه فكيف يبيضّ شعره وقد ضمه القبر فاعتبر المريض وتحمل فراق (الطباق) وعاش قرير العين اه .

ويلحق بالدخان الأفيون

هو عصير الخشخاش يعصر منه قبل تمام ثمره ، فإذا يبس تراه أسود اللون مرّ الطعم وهوخطر شديد يورث إخلال العقل فيهذي الإنسان ولا يعقل مايقول . ومتى ملكت هذه العادة الإنسان أصبح في عبودية لها لاتطاق ومثل ذلك أيضا ما يسمى :

الحشيش

وهو مخدر مزعج شديد الفتك بالأبدان والعقول . وهو من نبات ينبت في البلاد الحارة . وتستعمله الطبقات المنحطة في بعض البلاد كبلادنا المصرية والحكومة تراقبه مراقبة شديدة وتعاقب من يتعاطاه بالحبس وهو سم مهلك لمن استعمله إلا من تاب . وأنا أسأل الله أن يجعل ما أكتبه الآن مثالا ينسج على منواله المسلمون وينشرون مضارّ هذه السموم بينهم حتى يخرجوا من عداد المذكورين في قوله تعالى « إنه لايحبّ المسرفين » فهذا كله من الإسراف المذكور في الآية وإن هذا البيان الذي ذكرته تشمله الآية وتشمل غيره فالمسلم الذي يتعاطى الدخان أو القهوة أو غيرهما مما هو أشدّ فتكا كالشاي والخمر والحشيش والأفيون . أوأقل فتكا مثل الكاكاو وغيره معدود من المسرفين ويقول الله تعالى « إنه لايحب المسرفين » ولما قلّ حب الله لنا بسبب تعاطي هذه المضار سلط علينا الأمم فهو لايحبّ أكثرنا لجهلنا بأمرين القرآن وعجائب صنعه لأنهما متفقان إذ كلامه يوافق عمله والحمد لله رب العالمين .

[اللطيفة الخامسة قوله تعالى « كما بدأكم تعودون » وقوله تعالى « قال ادخلوا في أمم قد خلت الخ »]

فقوله تعالى « كما بدأكم تعودون » اعلم أن الناس إذا ماتوا فقد درجوا على طباع ألفوها وأخلاق سلكوها وعوائد عرفوها وأحوال اقترفوها . وكل فريق مغرم بما جبل عليه محب لما خلق فيه من صلاح وطلاح وكمال ونقص وفضل وجهل كل يعمل على شاكلته فإذا ماتوا رجع كل إلى مشربه وحنّ إلى مألفه وفرح بما عنده . وروى عن ابن عباس أن الله عز وجل بدأ خلق بني آدم مؤمنا وكافرا كما قال « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا . وروى جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث كل عبد على مامات عليه » أخرجه مسلم . وزاد البغوي في روايته « المؤمن على إيمانه والكافر على كفره » . وهذا هوالذي ورد في علم الأرواح في الوقت الحاضر فإنهم أثبتوا أن روح الإنسان تبقى فيها أخلاقها وآدابها وأعمالها وذلك كله تام غير منقوص . ونحن أن أنقل إليك أيها الذكي ماسطرته في كتاب الأرواح لتعجب من مطابقة الكلام النبوي والقرآن لعلوم العصر الحاضر وهذا نصه :

مطابقات الشريعة الإسلامية الغراء

ثم قلت أليس هذا (ياشير محمد) من العجب العجاب أو ليس حديث ديكنس السابق هذا يومئ إلى قوله عز وجل « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » وقوله « وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرّة » وقوله « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فقال (شير محمد) أماحديث ديكنس فهو عجيب إن صح بل هو أعجب ماسمعنا وأما هذه الآيات فلا أدري ماموقعها وأي علاقة لعرض جهنم على الكفار يوم القيامة وعلى الله وقراءة الإنسان كتابه لما في حكاية ديكنس من غلط الإنشاء وخطأ الإملاء . فقلت اعلم (ياشير محمد) أن هذه الآيات فيها دلالة واضحة أن كل عمل نعمله

واعتدناه يصبح فينا سجية وغريزة ثابتة فلا ينزعه منا الموت وإن ديكنس لم يقتلع الموت منه خطأ الإملاء وأبقى عنده حسن الإنشاء . ولا جرم أن كل ذنوبه وأعماله من الخير والشر بقيت فى نفسه يحاسب عليها ويعاقب، وهذا قوله تعالى « ولوردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » لأن الغريزة لاتقاوم كما لم يمكن إصلاح الإملاء بعد الموت عند ديكنس وهكذا كل ذرّة من الخير والشر حاضرة عندنا باقية فى نفوسنا هى هكذا لم تتغير فلا تغادر الله صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا ولايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وكفى بنفسنا حسيبا علينا. وإذا قلنا «ارجعنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل» أجابنا «أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » ويقول لورددتكم لعدتم لما نهيتكم عنه وأنتم تكذبون كما كنتم تكذبون فى الدنيا بنقض عهدى بعد مرض يصيبكم أوفاقة تنتابكم أو نازلة تحقكم فلا عهد لكم عندى .

ياشير محمد إننا غافلون عن نفوسنا فى هذه الدنيا ولقد أفلح المؤمنون الذين هم فى آيات ربهم يتفكرون ولأذكرك بالحديث الصحيح الشريف « يبعث العبد على مامات عليه » وقال الشيخ محمد الزرقانى

وتحشر أطفال وسقط كل ما يكونون عند الموت ثم تكمل

وقال فى شرحه للنظم هل يحشر الطفل والسقط بصفته وقت الموت أم لا؟ جوابه قال الحافظ ابن حجر كل واحد من أهل الموقف يكون على مامات عليه :

أقول ألست ترى (ياشير محمد) أن كلام النبوة صريح فى أن الإنسان حافظ لأخلاقه وآدابه حتى يحشر عليها . أليس هذا بعينه ما فى حكاية ديكنس وأنه قد حفظ أخلاقه فى أسلوب الإنشاء وخطأ الإملاء . وهكذا يقاس عليها سائر أخلاقه التى يحشر عليها إلا أن هذه الأخلاق الثابتة فينا بعد الموت أعدل ناقد وأكبر شاهد كنت فينا فأظهرها الله . ألا وإن العادات المغروسات فينا بالتكرار لن تزول بل تبقى خزيا علينا وعارا وفضيحة يقرؤها الناس فى صحائف أرواحنا ويكون عذاب الخزى . فليقلع المرء عن عاداته وليوطد النفس على منابذة الهوى ومحاربة العادات الذميمة فإنها برسوخها فينا تشهد علينا .

أو ليس الخطأ فى إملاء ديكنس شهد عليه بذلك . أليس ذلك مصداقا لقوله تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » وقوله « حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أوّل مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون » اهـ

[اللطيفة السادسة قوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء الخ »]

اعلم أن هذا المقام قد استوفيناه فى سورة (آل عمران) بما لامزيد عليه فالمدار فى هذا الوجود على الاستعداد ، فالنفوس الغليظة التى لاتعرف إلا المادّة ولا تقدّس إلا الأجسام ولا قدرة لها ولاميل إلى صفاء النفوس وتهذيبها وترقيتها لاتقدر على العروج إلى الدرجات العالية والسموات الصافية بل تبقى فى عوالم منحطة على مقدار طاقتها كما مثلنا لذلك مرارا بأحوالنا الدنيوية فليس منا أحد يقدر أن يطير فى الجوّ ولا أن يعيش فى البحر بل حكم علينا أن نبقى على وجه الأرض ومن لم يتعلم الهندسة لايقدر أن يجارى المهندسين، ومن جهل البناء لايوكل له بناء البيوت هكذا فى الآخرة يجد الإنسان فى نفسه ما تما يمنعه من الصعود إلى المقامات الرفيعة متى كان ليس أهلا لها كما يمنع فى الحال الجسمية من الطيران فى الهواء مع أن الهواء مباح مبذول للجميع وليس المانع هو الهواء ولا خالق الهواء ولكن المانع استعداد الإنسان ومثل ذلك يقال فى قول أهل الجنة

إلى

إلى أهل النار لما قالوا لهم « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين » وليس ذلك التحريم إلا استعداد نفوسهم وضعفها عن تلك المنازل الرفيعة إذ يجدون روحا وريحانا ويشربون ويأكلون .

[اللطيفة السابعة قوله تعالى « لا نكلف نفسا إلا وسعها »]

لقد تقدّم الكلام عليها فى (سورة البقرة) فراجعها هناك فقد شرحتها شرحا وافيا يشمل العلوم الواجبة على الأمة الإسلامية وعلى نظام التدريس فيها .

[اللطيفة الثامنة قوله تعالى « ونزعنا مافى صدورهم من غلّ »]

فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم فى دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا» اهـ فتأمل هذا الحديث فانه موافق للقرآن وللحقائق العلمية فذكر الاقتصاص وكيف يأخذ كلّ حقه وهذا موافق لقوله تعالى «والوزن يومئذ الحقّ» وانظر كيف يقول «إنهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار الخ» ويقول «حتى إذا هذبوا ونقوا أذن الله لهم فى دخول الجنة» . فاعلم أيها الذكى أن هناك من الأمور الغيبية وراء هذه الألفاظ مالانعلمه الآن، فالجنة لن يدخلها إلامن تأهل لها بالعمل كما تأهل الطير باستعداد جسمه إلى الارتفاع فى الجوّ . هذا هو الحقيقة فاذن نزع الغلّ والحقد لابد منه قبل دخول الجنة وما دام الحقد باقيا والعداوات متراكة فلا جنة ولانعيم . وكيف ينعم الإنسان والعداوة كامنة فى صدره وأهل الأرض معذبون بالعدوان فى الدنيا فمن مات على ذلك بقى معذبا به فكيف يفرح بالجمال المحيط به وقلبه بالعداوة مشغول وكشف هذا المعنى فى علم الأرواح بأوروبا فقد جاء فى كتاب الأرواح فى ترجمة كتاب (برايفت) داودينج قال : ألا وإن جهنم دار خداع وضلال . ألا وإن من أنس بالحواسّ وصدّق أنه لاوجود إلا ما صورته ولا حياة إلا مانسجته فاغترّ بنرورها واستضاء بنورها وفرح بجمالها فذلك مخدوع يوم يلقى حتفه . ومن ذا يقدر أن يرجعه عن غيه وهو يقول ياليتنى أردّ فأقاتل الأعداء، وأواسى الأصدقاء، وأقضى الوطر وأستلذ بما تسعد به الحواسّ من المطاعم والمشارب والمآرب . هنالك تثور فيه ثائرة الحزن والأسى على مافاته وتحيط به خطيئاته من الحسد والغشّ والعداوة والبغضاء والطمع والكبرياء وحب الذات والحقد وصغر الهمة « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » وهناك مطهرة أنا الآن فيها يخرج المطهرون فيها إلى العلا وقليل من الناس يأبونها . ألا وإن الناس فريقان . فريق عرف أن هناك حياة روحية فعمل لها وآخر عكف على إرضاء أهوائه وسدّ شهواتها . فالأولون هم الناجون . والآخرون لايسمعون نصحا . ولا يذرون ما اعتادوه فى الحياة من المطامع والشهوات . ولما أن حللت بساحة جهنم قال الرسول لن تقدر أن تخترق تلك الآفاق المظلمة فمكثت مكانى وتقدّم أخى والملك حتى وصل إلى ذلك الجندى ليتقذه ولكنه أبى أن يفارق الجحيم لأن الهلع خلع قلبه أن يغادر مكانه حتى لايصيبه ما هو أشد من العذاب فالخوف والجهل أعمياه ولو عرف الحب لكان من الناجين . فانظر كيف ذكر أن هناك مكانا للتطهر الذى عبر عنه بالمطهرة بكسر الميم وفتحها . وقال السدى فى آية « ونزعنا مافى صدورهم من غل » إن أهل الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع مافى صدورهم من غلّ فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم الحديث ؟ فتعجب كيف تقول الأرواح إن عندها ماء تتطهر به تنزيل الحقد من القلوب وكيف كان هذا مصداقا للحديث .

اللطيفة التاسعة فى أصحاب الأعراف وكيف يعرفون الناس بسيماهم

قد عرفت أن أصحاب الأعراف هم أعاظم الأمم، وهؤلاء يعرفون كلا بسيماهم وفى الحقيقة أن أكابر الحكماء والأنبياء والعلماء يعرفون اليوم كلا بسيماهم فمن هم أصحاب النار؟ ومن هم أصحاب الجنة؟.

اعلم أن أصحاب النار واضحون لذوى البصائر فى الحياة الدنيا ففى الحديث «أنت مع من أحببت» فمن أحبّ المباهاة والمفاخرة والمكاثرة والمغالبة وأحاديث الباطل والزور والأكاذيب والظلم فهو فى الحياة لاقرار لراحته ولا سعادة لقلبه ولاهناء لعيشه ولا صفاء لضميره فهومتقلب فى الشقاء. يظن القلق راحة والاضطراب صفاء وهو أبدا قلق معذب كثير الهموم والأحزان. يرضى من السعادة بالرياء، ومن الحياة بالخيال، ومن الراحة بالخبال. فهو أبدا فى همّ مستطير وألم مقيم وعذاب دائم، والناس يرونه سعيدا وهو شقى، قريبا وهو بعيد. فمن هذه حاله إذا مات لاتفارقه صفاته وتبقى روحه معذبة أبدا حتى تتغير حاله بحال أخرى كما قال تعالى «إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

فأما أهل الجنة فانك تراهم من الذين هدأت نفوسهم وصفت أرواحهم وهم ساكنون هادئون قد كفوا الناس شرهم وضمائرهم فى راحة وقد اتسموا بالصبر والفضيلة والعفة وعيشهم أشبه بالكفاف، لا كثرة تطغيهم ولا قلة تقلقهم ولاظلم يضعف بصائرهم. فأهل الجنة يعرفون بسيماهم وأهل النار يعرفون بسيماهم. فالنفوس المائلة للعلوم والمعارف أقرب إلى الجنات. والنفوس المنهمكة فى جمع المال وفى الوظائف أقرب إلى أهل النار، وهناك منازل بين الطائفتين «ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا» فالنفوس فى الدنيا هى النفوس فى الآخرة، وخيرالنفوس من عملت لمنفعة الجميع وأحبت النوع الإنسانى وكانت مغرمة بالعلم وترقية الجميع فهذه أقرب إلى الجنات وأبعد عن النيران والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

اللطيفة العاشرة فى قوله تعالى «إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام»

لقد ذكرت فى تفسير الأيام الستة ما يناسب العلم الحديث ولا تظنن أن الذى قلته هو المتعين وإنما هى صورة من الصور المحتملة، فإنا نعلم أن هناك المادة الأصلية للكائنات وهى الأثير ثم كانت شموس وأرضون ومعدن ونبات وحيوان وإنسان فهذه ستة أعمال فى ستة أزمان. ويقال إن أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وماخلق وماهوخالق إلى يوم القيامة. ثم خلق الظلمة والنور، ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درّة بيضاء، ثم خلق التربة، ثم خلق السموات ومافيها من نجوم وشمس وقمر ثم مدّ الأرض وبسطها من التربة التى خلقها أوّلا، ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك، ثم خلق آدم آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق فى ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول أكثر العلماء.

أفلست ترى أن هذا الحديث أقرب إلى ما كشف فى العلم الحديث وذكرته فى (سورة الأنعام) فى أوّلها أفلا ترى أن قوله خلق السماء من درة بيضاء أقرب إلى خلق جميع الشموس من الأثير الذى لايرى، وقوله ثم خلق التربة إشارة إلى انفصال الأرض وجميع الأرضين من الشموس وجميع السيارات التى بردت بعد مدّة فاستعدت لمادّة التراب والشموس لاتزال حارة، وقوله ثم خلق السموات ومافيها من نجوم وشمس وقمر الخ إشارة إلى نظام الشموس فى دورانها وتنظيمها وقوله ثم مدّ الأرض وبسطها من التربة إشارة إلى ما حدث فى الأرض من الطبقات المذكورة فيما تقدم فى (الأنعام) من صوّانية إلى فحمية وهكذا. وقوله خلق جميع ما فيها من جبال إشارة إلى علم المعادن الذى فى الجبال الذى هو مقدم على النبات الذى أشير له هنا بالشجر وهو مقدم على الحيوان وهى الدواب المذكورة هنا. ثم فى آخر الأمر خلق آدم. فهذا الحديث على وجه التقريب أقرب إلى الكشف الحديث «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم».

بهجة العلم والحكمة والنظام والسلام العام فى قوله تعالى « وهو الذى يرسل الرياح بشرا الخ »
سأريك أيها الذكى فى هذا المقام عجبا عجابا وذلك فى نظام المطر والرياح وكيف كانت الكرة الأرضية كلها متصلة متضامنة متحدة والناس يقرءون وكأنهم لايقرءون ويعلمون ولكنهم لايشعرون أنهم يعلمون .

أنت تعلم أن الهواء لايكون رياحا إلا بسبب وذلك السبب هو الحرارة الشمسية . وآية ذلك أننا نوقد النار فى تنورنا فى منازلنا فيخف الهواء فى داخل المنزل ويلطف فيعلو إلى الجوّ ويحلّ محله الهواء الذى هو خارج القربة فنرى فى الحال تيارا يجرى إلى داخل المنزل وذلك التيار جاء خاصا بهذه الحادثة . هذه حادثة تمرّ على الناس فى منازلهم وهم لايعلمون وعلى هذه القاعدة ننظر فى الأرض كلها أى فى نصف الكرة الشمالى ونصف الكرة الجنوبى فماذا نرى ؟

ترى هذه المسألة وأمثالها تظهر فى قارّة آسيا وقارّة استراليا

إذا حلّ زمان الصيف فان داخل بلاد آسيا يكون حارّا فترتفع درجة الحرارة تبعا لشدّة حرارة سطح الأرض وهناك تتدافع الرياح من المحيط إلى القارة كما رأينا تيارا يدخل منازلنا لما ارتفعت الحرارة فى التنور لخبز العجين ، فهذه الرياح المتدافعة تهبّ على الهند والهند الصينية والصين ، وهناك تكون أمطار غزيرة وتقف الجبال فى طريق المطر فتصدّ الأمطار عن الدخول إلى أواسط البلاد الجافة . وكما رأيت صيف آسيا هكذا ترى صيف قارة استراليا فانه أيضا يكون داخل القارة فيه شديد الحرارة فتهبّ هناك رياح شمالية غربية تحمل الأمطار وهذه الرياح هى تلك الرياح التى تهبّ على الهند فى ذلك الوقت نفسه الذى هو شتاء هناك .

فصل الشتاء فى آسيا وفى استراليا

ومثل مارأيت آسيا واستراليا فى الصيف هكذا تراهما بعكس ماتقدّم فى الشتاء . ذلك أن كلا منهما يكون وسطه شديد البرودة فماذا يكون ؟ تتجه الرياح من الداخل إلى أطراف القارة فى الجهتين . ومعنى هذا أن استراليا فى زمن الشتاء، وآسيا كل منهما يبرد وسطه فمن برد الوسطان كان هناك شتاء مع العلم بأن ماء البحر فى أطراف القارتين يعلوه هواء أدفأ مما فى وسط القارة وقد قلنا إن الحرارة بها يرتفع الهواء فيحل محله الهواء البارد وعلى ذلك تجرى الرياح من داخلهما إلى خارجهما فى شتاء كل منهما . ومعلوم أن شتاء أحدهما هو صيف الآخر فصيف النصف الشمالى من الكرة شتاء الآخر والعكس بالعكس . فتجد الرياح فى زمن الشتاء فى استراليا متى اتجهت من الداخل إلى المحيط تمر من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى وتستمر إلى بلاد الهند التى يكون ذلك الوقت صيفا عندها فتكون هناك رياح موسمية جنوبية غربية . ومثل ذلك الشتاء فى بلاد آسيا فان الرياح التى تهبّ من وسطها إلى خارجها من الشمال الشرقى تصير شمالية غربية جنوب خط الاستواء . فاذا رأيت الجهات الموسمية فى بلاد آسيا وهى الهند والهند الصينية والصين وكوريا وسهول منشوريا وجزر اليابان . أقول إذا رأيت هذه الجهات نزل المطر فيها مدرارا فى زمن صيفها فزرعوا الأرز والشاى والقطن الخ فاعلم أن تلك الريح امتداد للرياح الآتية من وسط بلاد استراليا فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية .

عجب عجاب شتاء فى آسيا وصيف فى استراليا فى زمان واحد

يكون البرد فى أولاهما والحرارة فى أخراهما سببا فى حدوث الرياح بحيث تهب الرياح من الجهة الشتوية إلى الجهة الصيفية وهكذا بالعكس شتاء فى استراليا يدعو الرياح أن تهب منها إلى الجهة التى فيها الشمس فهذه هى الرياح الموسمية المحدّدة الهبوب فستة أشهر تهب إلى جهة وستة أشهر بالعكس على طول

الزمان . تظهر الشمس فى جهة فتجلب الرياح إلى جهتها فان كانت فى الجنوب فالرياح تتبعها وإن كانت فى الشمال فكذلك .

عدل الله فى النسيم بين الشتاء والصيف والبر والبحر

علم الناس اليوم أن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس فبالأولى يكون الليل والنهار وبالثانية يكون الشتاء والصيف ، والعجب العجاب هنا أن الحركة الأولى كما يكون بسببها الليل والنهار ليقوم العدل فى الإضاءة والإظلام هكذا يكون العدل أيضا فى الرياح . إن اشراق الشمس على اليابسة يسرع تسخينها أكثر من الماء فيخف الهواء فوقها فيحل محله نسيم البحر فيهب فى البر فاذا جن الليل وأرخى سدوله كانت الأرض أسرع للبرودة من البحر فانعكست الآية وأخذ نسيم البر يهب على البحر الذى لايزال جوه أدفأ من البر فهناك عدل ونظام وحكمة ، فكما يقلب الله الليل والنهار بالاضاءة والإظلام هكذا يقلب النسمات من البر إلى البحر ليلا ومن البحر إلى البر نهارا وهذا يسمى نسيم البر والبحر ، فأما الذى يكون بالنسبة للحركة السنوية فهى الرياح الموسمية التى شرحناها فيما تقدم . فاعجب لنظام محكم مقدر بالعدل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء « ذلك تقدير العزيز العليم ـ الذى أحسن كل شىء خلقه » . اللهم إن صنعك لعجيب موزون منظم ولعمرى ماذا تريد من الوجود إلا أن تقرأه فتراه بهجة الناظرين وجنة المفكرين وحياة الأنبياء والعلماء العاملين ، اللهم إن جمال وجهك أشرق فملأ الأرجاء .

هذا ، وبينما ترى الرياح تهب تبع حركات الشمس صيفا وشتاء وليلا ونهارا ترى ذلك يتبعه سير السفن للتجارة وسير الرياح لتفريق المطر على اليابسة « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

واعلم أنه كما يكون الشتاء والصيف ببعد الشمس وقربها هكذا يكون الجمود فى الأمم والنشاط بقرب العلوم وبعدها . كان أهل الشرق قديما أعلم من أهل أوروبا ثم طلعت على الغربيين شمس المعارف وأصبح الشرقيون فى برد شتاء الجهل . ولكن الله يقلب الليل والنهار والرياح الموسمية ونسيم البر والبحر كما رأيت ، فها هو ذا سبحانه وتعالى أخذ يعكس الآية وها نحن أولاء نرى أهل الشرق قد استيقظوا فى مصر وشمال أفريقيا واليابان والصين والترك والأفغان لأن الله له نظام مبنى على العدل فى الضوء والإظلام والرياح وهكذا فى سياسة الدول ونظام الشرق والغرب . اقرأ هذا المقام فى قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك الخ » فى سورة آل عمران .

هذا بعض قوله تعالى « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » فلولا الرياح ما كان سحاب وما عاش إنسان . ولولا حرارة الشمس لم تكن رياح فحرارة الشمس بها تحريك الرياح والرياح تحمل السحاب والكرة الأرضية كلها متضامنة متحدة . فبلاد استراليا وبلاد آسيا تعطى كل منهما الأخرى فى زمانها هواءها ؛ فتعطى استراليا لآسيا الرياح زمان صيف الثانية وتعطى آسيا الرياح لاستراليا زمن صيف الثانية ، فهناك اتحاد لم يعمل الانسان بعلمه والحيوان عمل على مقدار غريزته ، فالانسان اليوم قاصر وهو جهول كفار .

اللهم إن الناس على أرضك غافلون . اللهم إنى وجميع المتعلمين فى أوروبا والشرق نعلم هذا وندرس نظامك ونعرف أنك جعلت كرتنا الأرضية جميعها ذات نظام موحد ، فرياح آسيا ورياح استراليا تتجه من كل منهما إلى الأخرى فى زمان معين فكل منهما لها نصف السنة وهذا قد رتبته على مقتضى سير الشمس والشمس واحدة أنت جعلت نظامك واحدا ولم تجعل فيه تفاوتا . وتراك علمتنى وعلمت جميع أهل العلم فى الأرض هذه المعارف ولم تعلم هذا لأمثال النمل والنحل والغربان وكلاب البحر تلك الأمم التى تعيش جماعات

وجمهوريات

وجمهوريات ذات نظام جميل تامّ على حسب طبائعها وغرائزها . هذه الحيوانات لاتعرف النظام العام كما نعرفه نحن وقد قامت بما تعرف من نظام جماعاتها وحاربت جماعات النمل فى قرية جماعات النمل فى قرية أخرى فهى لا تعرف إلا ذلك ولو أنها درست كما درسنا نظامك لكان نمل الشرق متحدا مع نمل الغرب . أما الإنسان الذى أعطيته هذه العلوم والمعارف فإنه جميعه طفل فى الشرق والغرب . كل هؤلاء ساساتهم وفلاسفتهم أنظارهم قاصرات على أممهم يجارون العامة والجهلاء .

الإنسان الأعلى

فأما الإنسان الذى يصل إلى مدى الإنسانية الحقة فهو ذلك الذى يجعل جميع الناس فى الكرة الأرضية متحالفين متحدين منظمين الكرة الأرضية على مقتضى نظامك وعدلك ، فكما أعطت كل من آسيا واستراليا الرياح للأخرى زمن شتائها هكذا يكون الإنسان فى شمال الكرة وجنوبها وشرقها وغربها كل منهم يعدل مع الآخر كعدل هذه الرياح . أما الإنسان الحاضر فهو لايزال طفلا وربما عددناه مراهقا . والدليل على ذلك أنك بينما تراهم متشاكين تفتخر الدولة بتسخير دولة أخرى فى إطعامها ومساعدتها ، ترى بلاد أمريكا تبلغ للممالك المتحدة فيها فوق مائة مليون بعد أن كانوا ممالك مختلفة فهذه هى المراهقة . فأما بقية الأمم كأممنا الإسلامية وغيرها فإنهم لم يزالوا جهلاء مختصين لجهلهم مع أن الله خلقهم ليكونوا خلفاء .

ما اواجب على المسلمين فى هذا الزمان

جاء فى هذه الآيات « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا » أن الأمم الأسلامية ما عاقها عن ظهور الكمال فيها وبزوغ الشمس المحمدية والسلام العام فيها إلا أنها أمة فى هذا العصر جاهلة جهلا مريبا محزنا فاضحا ، ولا يؤهلها الخلافة فى الأرض إلا تعميم التعليم ، فتعميم التعليم هو الذى يؤهل القلوب أن تقبل النصائح القرآنية وتكون القلوب هناك مثل الأرض الطيبة تقبل الإصلاح سريعا .

فليستعدّ المسلمون لتعليم جميع الأفراد رجالا ونساء من الآن لنكون خلفاء الله فى الأرض ويكون التعليم ابتدائيا وثانويا وعاليا كأهل اليابان وأوروبا وأمريكا ، ولنأخذ بأحسن الطرق والأساليب فهناك يليق أن يكونوا مع الأمم وليبدءوا هم بالسلام العام وذلك لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين ، فلنكن نحن رحمة للعالمين ، ومستحيل أن نكون رحمة وهم علماء ونحن جهلاء بديهنا لأنك تعلم من هذا التفسير أن العلوم التى ملأت الأرض اليوم هى نفسها علم التوحيد الذى هو أهمّ من علم الفقه والتعمق فيها فرض كفاية ، فمتى عرفنا العلوم وعمت أقطار الإسلام هنالك نجلس معهم أى مع أهل أوروبا واليابان والصين ونقول نريد السلام العام لأن الله أخبرنا أنه يأتى يوم تضع فيه الحرب أوزارها كما سيأتى فى سورة (القتال) والقرآن لم يقيده وقال المفسرون هو يوم مجىء عيسى عليه السلام ولكن القرآن لم يخصص . فلو أن الأمم استعدت للسلام فلا معنى لأن المسلم هو الذى يحارب .

إن الإنسان اليوم ناقص وهو يسير إلى الكمال فلا معنى لأن المسلمين يتقاعسون فليتعلموا وليكونوا خير أمة أخرجت للناس بأمرين : (أولا) أن يتعلموا كما تعلمت الأمم (ثانيا) أن يقودوا الأمم السلام العام . فأما الآن فإن الإنسانية جاهلة غافلة يتحاربون كما يتحارب النمل لم يمتازوا عن الحشرات وكلاب البحر والغربان فى نظام الجمعية الإنسانية « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ذكرى للأمم الإسلامية

فيا أيتها الأمم الإسلامية استعدوا للواجبات العلمية والعملية . أفلا ترون أن الأرض التى نعيش عليها قد أصبحت مغلفة بالأسلاك البرقية والطرق الحديدية وتبادل البريد والطرق الجوية للطيارات وهكذا التلغراف الذى لاسلك له فهاهى ذه أرضنا اليوم أصبحت أشبه بجسم حيوان ، فلكل حيوان جلد يحسّ بما يصيبه

بالحواس الخمسة المفرقة على ظواهره ، هكذا أرضنا فهما حصل فى جهة فإن سائر الجهات شرقا وغربا تعرفه ، الأرض كانت قبل اليوم لاعلم لشرقها بما عند غربيها ، ولا لجنوبيها بما عند شماليها إلا قليلا ، واليوم أصبحت أشبه بإنسان فى ابتداء صباه يحس ويتحرك ولكنه يعوزه التربية والتعليم ، أصبحت الآن الأمم متصلة بعضها فهاك .

مسألة القطن فى أمريكا ومصر والعرض والطلب بأوروبا

إنها كمسألة الرياح الموسمية بين آسيا واستراليا

قد عرفت أيها المسلم الذكى فيما تقدم كيف كانت الرياح فى شتاء استراليا تبعث منها إلى الصين وما والاها ستة أشهر ، وفى الستة الأشهر الأخرى ينقلب الأمر فترسل آسيا الريح من أواسطها ذاهبا إلى استراليا ، وتكون تلك الأيام صيفا لها . هكذا نحن نرى القطن فى أمريكا لما كثر أضر بقطننا فى مصر فصار السعر رخيصا على قاعدة العرض والطلب ، فيقال إن عندهم فى هذه السنة (١٩٢٦) عند طبع هذه السورة نحو (١٨) ألف ألف بالة غير ماخزنوه من عام أول وهو نحو ثلث هذا المقدار فأضر هذا بقطننا المصرى ، هذه مسألة واحدة من مسائل التجارة والاجتماع ، فإذن تصريف الرياح وإزجاء السحب ونحوها ذلك يضارعه أحوال أهل الأرض ؛ فالناس أشبه بأسرة واحدة ، كما أن المطر والرياح قد صرفها الله بالتبادل والتكافؤ والاشتراك ، فالإنسان لايتم كله إلا إذا أصبح أمة واحدة ، إن النحل والنمل لا اشتراك بين شرقيه وغربيه ولكن الإنسان يتبادل المنافع شرقية وغربية ، فما دام أشبه بالحيوان فى نظامه وأن كل جماعة تحارب أخرى كالنمل فإنه طفل ظالم لنفسه جهول ، وهذا قوله تعالى « إن الإنسان لظلوم كفار » وقوله « إنه كان ظلوما جهولا » فليكن نظامه على مقتضى رقى عقله اهـ .

يقول الله تعالى هنا « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » قد صرف الله هذه الآيات فى القرآن كما صرف آيات الرياح والسحاب ، كل ذلك ليشكر الناس ولا معنى للشكر إلا بثلاثة أمور : (الأمر الأول) العلم بهذه الدنيا ونظامها وحكمها . (الثانى) مابنتج من هذا العلم طبعا وهما أمران : حب منافع المخلوقات طرا لاسيما الإنسان ، الثانى حب الله لأن من أعجب بهذا النظام المتقن بحيث يرى أن الرياح والسحب لم تكن بلا قوانين بل هى تابعة لسير الشمس الذى هو نظام لاخلل فيه فيتبعه نظام مثله ، وحينئذ نرى النظام فى مزارع استراليا كما نراه فى الصين ؛ فكل قوم فيهما يعلمون أوقات الزرع والحصاد فلا يخطئون ، والمطر يجىء لهم فى وقته ، ذلك لحسن نظام الشمس وسيرها ، فالله لم يترك الرياح وسحبها بلانظام متقن ، فمثل هذا يحدث فى القلب حبا للخالق وإخلاصا لعباده ، وهذان هما الأمران الناتجان عن الأول (الأمر الثالث) انطلاق اللسان بالحمد وتسخير الأعضاء للعمل للصالح العامة ، هذا هو الشكر الذى قاله علماؤنا وهو المذكور هنا فى قوله تعالى « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » اللهم إننا معاشر المسلمين قد قصرنا فى شكرنا فلا علم نظامك الذى ذكرته هنا درسنا ولا نتائجه حصلنا بل نحن من أقل الأمم علما ، فأين الشكر إذن ؟ فالشكر مافصلناه وذلك بالتعليم العام بجميع أنواعه ، ثم قيادة أهل الأرض إلى السعادة والسلام حتى نكون شاكرين ورحمة للعالمين ، وهناك نكون خلفاء الله فى أرضه ، والحمد لله رب العالمين .

وهذا مايرمى إليه قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » أرسل الله نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ولا يتم هذا فى الدنيا إلا باجتماع الناس على فكرة عامة بينهم ، والمسلمون هم نواب عن نبينا صلى الله عليه وسلم فليقوموا بهذه النيابة . وقد ألفت كتابا بمعنى هذا يسمى [أين الإنسان] وقد انتشر فى أوروبا والشرق . وقرظه الأستاذ (سنتلانه) الطليانى فى مجلة العلوم الشرقية . وكذلك الأستاذ (كراديفو) الفرنسى فى المجلد الخامس من كتابه [مفكرو الإسلام] وهكذا غيرهم من العلماء لا أذكرهم الآن ، وما كنت أعلم

الإلهية ، أنى أعيش حتى أرى هذه الفكرة ينشرها الناس فى حياتى فى الشرق والغرب ، وهذا من عجائب الحكم ، قد قلت فى الكتاب المشار إليه إن الأمم سائرة إلى هذه الغاية ، فانظر كيف جاء اليوم إلى مصر الأستاذ الشاعر الهندى (طاغور) الذى ملأ صيته الآفاق شرقا وغربا أثناء طبع هذا التفسير وخطب خطبة يوم الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٦ توافق ما نحن بصدده الذى قرأته فيما تقدم وتوافق كتابى [أين الإنسان] وهذا نص ما قاله نقلا عن جريدة (الأهرام) فى التاريخ المذكور ، وها هى ذه :

لقد أسرفت الأمم فى الأثرة والأنانية وفى العصبية الجنسية التى يتمسك بها فريق كبير من أهل الأمم المتحضرة ، على أن هذه العصبية أكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة فهى التى تجر الأمم إلى التطاحن لنيل غاياتها وهى التى تثير بينها حروبا مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الأثرة ، وما أشك مطلقا فى أنه قد وجدت أمم من قبل وبادت، أفنتها الحروب فى سبيل أغراضها ، وماتزال الآن فى مجاهل أفريقيا أمم تسير فى طريق الفناء لأخذها فى حياتها بهذه الخطة ، ولئن كان هذا ممكنا تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الأمم وتجعل كلا تعتز بمكانها وبجنسها وتجعل من لون أصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر، فلم يبق لهذا التصور اليوم محل بعد أن أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لأسباب أهمها تقدم المواصلات والتموج العقلى بين الأمم ، لذلك يجب أن تزول الأثرة وأن يزول التعصب للجنس والتعصب للون ، ويجب أن يشعر العالم أن هناك وحدة روحية تربط أممه المختلفة ، ومن حسن الحظ أنى رأيت أثناء سياحاتى فى البلاد المختلفة كثيرا من الرؤوس الكبيرة متفقة وإياى فى الرأى واثقة كما أثق بأن سيأتى اليوم الذى تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعا ، بل لم يقف الاقتناع عند الرءوس الكبيرة فقد احتفل بى فى بلاد عدة كثير من البسطاء لأنهم أحسوا فى كتاباتى الدعوة لهذه الوحدة الروحية التى تصبو إليها نفوسهم، والوسيلة لقهر الأنانية ولزوال التعصب الجنسى ليست هى الحديد والنار وإنما هى انتشار الأفكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعا لإدراك الحقيقة ، فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة يجب أن تكون غاية الغايات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف وغاية الغايات للإنسان الكامل ، ويوم يأتى الوقت الذى يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة ، فإذا رآها لم يتردد فى إعلانها ، يومئذ يكون الإنسان قد وصل إلى الكمال وفى هذا اليوم ينشر السلام على الأرض ، نعم ! فالسلام لن يترتب على عمل صناعى مطلقا كالاتفاقات الدولية وما إليها ، إنما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هى الوحدة الروحية، وأحس أن هذه الوحدة بدا فى العالم ظهورها وختاما لهذا الحديث أرتل حكمة غالية من أحد كتبنا المقدسة ، وهنا أطرق ورتل حكمة بصوت عذب يصل إلى القلب بلغته الأصلية أبياتا نقلها إلى الإنكليزية ومعناها على التقريب ما يأتى :

« رب الأرباب وإله البشر جميعا تنزهت عن كل لون وجنس ، بأمهيمنا على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها وحد بين قلوبها وألهمها تبادل المحبة وأيدها بروح الحق والعدل » .

وهذه الفكرة الدينية نزل بأجل منها القرآن كآية « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وكآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ » وكآية « وتعاونوا على البر والتقوى الخ » انتهى .

﴿ جوهرة ﴾

[عجائب أسرار القرآن فى هذا التفسير معنى « المص »]

قبل الانتقال من القسم الأول من (سورة الأعراف) والابتداء فى القسم الثانى المشتمل على قصص الأنبياء عليهم السلام يحسن أن أذكر من عجائب القرآن ما به يتذكر أولو الألباب ويعجبون لآى التنزيل .

قد جاء فى أول السورة « المص » وقد أحلنا ذلك على أول (سورة آل عمران) ولكن للمعنى هناك

علم ، والخاص بآل عمران ذكرته هناك عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا » وأريد هنا أن أبين السرّ المصون والجوهر المكنون والحكمة البالغة والآية الباهرة والنور الزاهر والسلطان القاهر ، انظر وتعجب كيف اختير فى أولها هذه الحروف الأربعة .

فاعلم أن المقصود من القرآن نتائجه ، ولعمرى مالنا حظ من هذا القصص إلا ما انتفعنا به ، فإن لم ننتفع ولم نعلم فلا تفسير ولا علم ومحل الانتفاع فى هذه السورة أمران اثنان يجمعان زهرة علومها ومقاصد حكمها وثمرات أخبارها : (أولهما) الاعتبار بهذه القصص والأخبار ، فالاعتبار هو الذى أنزل له القرآن ومنه هذه السورة (الأمر الثانى) نصح الناصحين مع صبر المسترشدين بالعمل بالنصيحة ، وإلى الأول (الم) وإلى الثانى (ص) فانظر قوله تعالى « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين » هذه الجملة تجمع مقصود السورة بتمامها ،لأن أخبار نوح ومن بعده يقصد منها ملخص هذا المعنى ألم أقل لكما كذا ، فهذه الجملة تفيد كل ماسيأتى من أن الإنسان إذا وقع فى الجريمة فهو مقصر إذا وضحت أمامه الأدلة ، فالألف واللام والميم قد أدّت مقصود هذه السورة إجمالا ، وقوله « ألم أقل لكما الخ » تفصيل المجمل ، ثم نفس أخبار الأنبياء مع أممهم ترجع لهذا المعنى .

وانظر قول إبليس لآدم وحوّاء « إنى لكما لمن الناصحين » وقول نوح « وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون » وقول هود «وأنا لكم ناصح أمين» وقول صالح « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » وقول شعيب « ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » وقول موسى عليه السلام لقومه « استعينوا بالله واصبروا الخ » .

فهمنا نصح من الأنبياء ومن إبليس ، وأحد الناصحين أمين كما فى قول هود والنصيحة تلتبس فلا يدرى الإنسان أيهما أصدق ، نصح إبليس فضل آدم بنصيحته ، ونصح الأنبياء فكفر الناس بهم ، فالأمين متروك والكاذب متبع ، هذه هى قضية هذه الدنيا ، لذلك يقول الله « ألم أقل لكما إن الشيطان لكما عدوّ مبين » فالنصح والصبر على قبول النصيحة ممدوحان وفى كليهما الصاد ، ونصح الصادق فيه صعوبة ومشقة ، لكن نصح الكاذب فيه لذة كالأكل من الشجرة ، يقول الله « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » فهذا التوبيخ منصبّ على آدم وأولاده لأنهم يتبعون الشهوات بسبب النصح المغشوش فلا صبر عندهم ولا يميزون بين النصحين .

كل هذه المعانى مندمجة فى « المص » وتفصلها السورة بتمامها ، فإذا تذكر المسلم فى أكثر أوقاته هذه الحروف الأربعة كانت كنزا له ثمينا ، فهى تذكره بالتقريع على المعصية الشهوية وعلى عدم الصبر على الفضيلة وعلى عدم سماع النصيحة وتذكره بخصف الورق على أبويه من قبل ، فهذه أربع صادات : وهذه الألفاظ فى نفس السورة كلها وتذكره بالقصص المذكور فى هذه السورة إذ قال تعالى « فاقصص القصص » هذا هو المعنى المفهوم من« المص » .

ولقد تبين لك فى سورة البقرة أن « الم » هناك تشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وإلى قصة العزير وقصة الخليل إذ يقول «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه الخ » فكأنه فى (سورة البقرة) ذكر المسلمين بأهم الأمور وهى أمران : الجهاد والعلوم الطبيعية والفلكية وغيرها ، وهذه الأخيرة تضمنتها قصة الخليل والعزير ، وهكذا (سورة آل عمران) جاء فيها « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا الخ » يحذر المسلمين من الغرور الذى وقعنا نحن فيه الآن ، وقد أوضحت هذا هناك إيضاحا تاما بإطناب وبينت مسألة البقرة هناك لافى (سورة البقرة) لأنى لم أوفق لذلك إلا فى (آل عمران) ، أما هنا فإن « المص » تبيان لفهم القصص وتمييز النصح من الناصحين المختلفين والصبر على الشاقّ حتى نميز بين الأمين وغير الأمين

فهذه السورة فيها تشديد وتوبيخ وتقرير ولذلك زاد حرف (ص) فكأنه يقول فى أوّل (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف) هكذا عليكم بالجهاد وحوز العلوم وإذا تلم ذلك فإياكم والغرور لئلا تفرّقوا شيعا ويذوق بعضكم بأس بعض. ثم إياكم أن يغركم الشيطان بنصحه، ألم يكن الشيطان عدوكم فليكن الصبر ديدنكم . هذا هو الذى افتتح الله به هذا المقام والحمد لله رب العالمين . انتهى القسم الأوّل من سورة (الأعراف) .

(الْقِسْمُ الثَّانِي : مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ .

التفسير اللفظى

قد علمت فيما مضى أن هذه السورة نزلت للاعتبار بالأمم وهلاكها والدول وخرابها وأن هذه أوّل سورة جاءت لهذا المعنى بحسب الترتيب الذى جاء فى السور لابحسب ترتيب الوحى، فابتدأ بقصة آدم وحواء وإبليس وكيف كان أمرهم عبرة للمعتبرين . فإبليس أقصى عن المعالى وآدم وزوجه نزلا إلى الأرض وحكم عليهما وعلى أولادهما بالمكث فى الأرض وأن بقاءهم فيها متوقف على تنازع البقاء المبرعنه بقوله تعالى «بعضكم لبعض عدوّ» وفى قصص آدم نكتة جميلة وهى أن البيئة والتوارث من أسباب الأخلاق وتكوينها فى الأشخاص ، فآدم لما خالط إبليس غشه وهذا هو الذنب والخلق بسبب (البيئة) أى الوسط ، وآدم لما أذنب خرج هو وكل ذريته إلى الأرض . والذى يهمنا من هذا القصص ما نراه ماثلا أمامنا كل حين وهو أن الوسط والبيئة تأثيرا فى أخلاقنا وكذلك الميراث، فقصة آدم منطبقة تمام الانطباق علينا معاشر أهل الأرض . إننا نعيش غافلين فنرى ابن المسيحى مسيحيا وابن اليهودى يهوديا وابن البوذى بوذيا وابن الوثنى وثنيا وابن المجوسى مجوسيا ، وهذا تأثير البيئة وتأثيرها فى الأخلاق .

وهكذا نجد المنسول من أسرة عريقة المجد طيبة الأصل غالبا يتخلق بأخلاقها . ومن كان أبواه طويلين أو أبيضين أو أسودين خرج غالبا على هيئتهما وهذا فى الشكل الظاهرى . وهناك بواطن لاندركها نراه قد تخلق بها كما نرى العصفور يلد العصفور والبازى يلد البازى والنخل ينتج نخلا . فقصة آدم ترينا أمرا عجيبا . ترينا أن فى هذا الوجود قد حكم علينا أن نعيش على صفات خاصة وأديان معلومة يوجبها علينا تناسلنا وتوارثنا وأوساطنا التى نعيش فيها .

وهذا هو الأمر الطبيعى الذى خطه الله على الوجوه ورسمه فى القلوب . ولكن يمنع ذلك ماجاء فى قصص هؤلاء الأنبياء، من أنهم فكوا الأغلال عن الناس وكسروا الأصنام وأمروا الناس أن ينبذوا عاداتهم ويتركوا

ما عليه آباؤهم من الأخلاق والآراء والعقائد وأن من بقى منهم على ذلك حاق به الهلاك وأودى به العذاب وعليه ذكر هذه القصص كقصة قوم نوح وعاد وثمود وما بعدها ليقول لنا ذروا العادات واخلعوا عن أعناقكم ربقة الكسل والجمود وارتقوا فى الأسباب .

ثم إن الفطن إذا علم أنه فى وسط وبيئة مملوءة من الأباطيل وأنه واحد من هذه البيئة له مالها وعليه ماعليها يجد ويجتهد فى تهذيب طباعهم وغسل أدرانهم وتطهير أخلاقهم ورفع رؤوسهم ولنا فى الأنبياء قدوة حسنة .

فعلى كل عاقل أن يجد فى تطهير المجتمع الذى هو فيه من أدرانه فيكون أقرب إلى ربه وذلك هو المقام الأوفى . وهاك قصص نوح عليه السلام .

اعلم أيها الذكى أن هذه القصة وما بعدها من سورة (الأعراف) وهكذا بقية قصص الأنبياء أكثرها إنما نزل قبل الهجرة يوم لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم تابعون كثيرون .

فانظر هذه القصص وتأمل فيها تجد أن كل واحدة منها تبتدئ بتكذيب الأنبياء وهلاك الأمم المكذبة وبقاء المؤمنين . ثم تراه يقول « فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » فتأمل أيها الذكى كيف كان يقص هذه القصص وليس فى يده حول ولا طول ولا جيش بل كانوا يصلون خفية خائفين من الكفار . وإن من أعجب العجب أن يكون تاريخه صلى الله عليه وسلم كتواريخ الأنبياء الذين قصهم فكان فى أول أمره مكذبا وفى آخر أمره منصورا . وهذه فى الحقيقة أكبر معجزة لأنه صلى الله عليه وسلم تنبأ بما سيحصل وقد تم كما جاء به الوحى .

فانظر فى هذه القصة يقول الله : والله (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) فاللام واقعة فى جواب قسم محذوف . يقال إنه كان نجارا . ويقال إن أباه لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام ، ومعلوم أن إدريس نبى قدماء المصريين وهو من المقدسين عندهم ولعله (سيزوستريس) المذكور فى كتبهم المنقول عن آثارهم .

وعلى هذا يكون نوح من أبنائه وهذه مما لايقوم عليها برهان قاطع وليس يهمنا من تحقيقها شئ وإنما المقصود أنه أرسله الله (فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وغيره بجر على اللفظ ورفع على المحل لأن إله مرفوع بحسب إعرابه مجرور بحسب لفظه (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هويوم القيامة أويوم نزول العذاب بهم من الطوفان لأن التحقيق أن عذاب الناس فىالدنيا والآخرة ولكن أكثر الناس لايعلمون أنهم معذبون ، فالعاصون والظالمون معذبون بظلمهم ، فإذا هلكوا ذهبوا إلى جهنم ليتموا دروسهم التعذيبية فيوم العذاب قد يكون فى الدنيا كما هو فى الآخرة .

ثم قال تعالى (قال الملأ من قومه) أى الأشراف لأنهم يملئون العيون جلالة والقلوب مهابة (إنا لنراك فى ضلال مبين) بين (قال ياقوم ليس بى ضلالة) أى شئ من الضلال (ولكنى رسول من رب العالمين) والرسول يكون فى الغاية القصوى من الهدى (أبلغكم رسالات ربى) ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة أو فى المعانى المختلفة من الأوامر والنواهى والمواعظ والبشائر . وهذه الجملة مستأنفة بيان لكونه رسول رب العالمين (وأنصح لكم) وأقصد صلاحكم بإخلاص يقال نصحته ونصحت له ، والنصح أن تريد الخير لغيرك أو هى النهاية فى صدق العناية (وأعلم من الله ما لاتعلمون) فأعلم صفاته من القدرة والعلم وأنه لايرد عذابه عن الكافرين (أ) كذبتم (وعجبتم) من (أن جاءكم ذكر) موعظة (من ربكم على رجل منكم) على لسان رجل من جنسكم إذ تنكرون إرسال الآدمى ولا تصدقون إلا بملك من السماء ، وتقولون « لو شاء ربنا لأنزل

ملائكة» (لينذركم) ليحذركم عاقبة الكفر (ولتتقوا) ولتخشوا بسبب الإنذار (ولعلكم ترحمون) ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم (فكذبوه) فنسبوه إلى الكذب (فأنجيناه والذين معه) يقال إنهم كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة . ويقال أيضا هم تسعة : سام وحام ويافث وهؤلاء الثلاثة أبناؤه وستة آمنوا معه (فى الفلك) متعلق بمعه كأنه قيل والذين صحبوه فى الفلك أى السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (إنهم كانوا قوما عمين) عمى القلوب غير مستبصرين ، يقال أعمى فى البصر وعم فى البصيرة . انتهى القسم الثانى من السورة .

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ : مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ

عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ .

التفسير اللفظى

اعلم أن عادا وثمودا من العرب البائدة كالعمالقة وطسم وجديس وأميم ووبار وجرهم وحضرموت ومن ينتمى إليهم. ويقال إنهم كانوا نزحوا من بابل وحلوا بجزيرة العرب وجميع العرب البائدة من نسل سام بن نوح. أما العمالق فمن نسل لاوذ بن سام . وأما بقيتهم فمن نسل إرم بن سام . وعلى ذلك يقال عاد إرم وثمود إرم ثم قيل لكل من كان من نسل إرم بن سام إرمان .

هذا ملخص مايقوله العلامة ابن خلدون، والكشف الحديث على الإجمال يؤيده ، فالعرب البائدة جميعهم آراميون إلا العمالقة فإنهم من نسل لاوذ . ويقال إنهم ملكوا العراق وملكوا مصر ويسمون الرعاة .

ولقد كان فى العراق دولة الأكديين ودولة الكلدان ودولة العرب ودولة الأشوريين والدولة العربية المذكورة هى التى تسمى (الدولة البابلية الأولى) ورأسها يسمى (حمورابى) المشهور كان فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وقيل إن عدد ملوكها (١١) ملكوا ثلاثة قرون وهذا رأى (مسبيرو) .

وفى أيام هذه الدولة العربية ظهر إبراهيم الخليل عليه السلام وقد كشف العلم الحديث ماكان لهذه الدولة من العلوم والقوانين ومجموع القوانين (٢٨٢) مادة وجدوا نسخة منها ١٩٠١ فى بلاد السوس منقوشة بالحرف المسمارى على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبعة أقدام .

ولما غلبت هذه الدولة على أمرها نحو ٢٨٢ سنة قبل الميلاد وقد حكمت ٣٣٤ سنة خرجت من العراق إلى جزيرة العرب راجعة إلى موطنها الأصلى وأنشأوا فى (اليمن) دولة عربية تسمى (دولة المعينين) كانت عظيمة جدًا قبل دولة سبأ وحمير وآثارها ظهرت فى العالم الغربى اليوم .

ولقد كشف المستشرق (هاليفى) لما سافر إلى بلاد الجوف وحدها ٧٩ نقشا فى معين و١٥٤ نقشا فى براقش بالقرب منها . ولقد حكم المعينيون جزيرة العرب حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط وشواطىء الخليج الفارسى فكأنها حكمت جزيرة العرب كلها وهذه الدولة أفناها السبئيون .

الكلام على عاد

إن العرب كما قلنا نزحوا من العراق لما غلبوا على أمرهم فرجعوا إلى الجزيرة وقلنا إن المعينيين سكان اليمن أخذوا دورهم ثم أفناهم السبئيون وهذه الدول آثارها ظاهرة اليوم . هكذا نعلم أن العرب دخلوا مصر وبقوا بها نحو ٥٠٠ سنة أى من نحو الأسرة الثانية عشرة إلى نحو الأسرة الثامنة عشرة ثم طردهم المصريون فرجعوا إلى جزيرة العرب أيضا .

أفلا ترى أن يكون عاد من هؤلاء كالمعينيين المذكورين فيما تقدم وربما كانوا هم أنفسهم ولقد أفناهم أهل سبأ .

أولست ترى أن هذا القول يوافق ماهو معلوم أن قدماء المصريين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ؟ وكيف لايكون ذلك وأنت ترى فى جبالنا المصرية بيوتا منحوتة لأغراض خاصة وقد كانوا إذا اقتطعوا حجارة من جبال مصر جعلوا هذا الاقتطاع هندسيا ليستفيدوا فائدتين : البناء بما اقتطعوا من الجبل والانتفاع بمكان القطع . فإذا قال الله « تنحتون من الجبال بيوتا » كان ذلك مما تعلمه من المصريين .

لطيفة

قد كان العالم الأثرى الفاضل كمال بك الذى هو أعلم العلماء فى فن الآثار المصرية يوما يلقى درسا عاما فيا عرفه من علوم قدماء المصريين فذكر لنا تاريخ حياته وأنه تعلم هذا العلم من ابتداء سن الخامسة عشرة من عمره وأنه أخذ عن علماء فرنسا وقال قد كنت أعثر من وقت لآخر على كلمات أجدها مطابقة للغة العربية حتى أن الخبز وحده وجدت له ٤٢ كلمة مثال ذلك (خبز . عيش . خبز الملة . كعك . بتاو) وهكذا قال وقد كنت أبحث فى (لسان العرب) و (القاموس) فأجد جميع الألفاظ عربية غاية الأمر أنها دخلها القلب والإبدال وهكذا وأرانا ١٣ جزءا أمامه قد كتبها مبينا اتفاق العربية مع لغة قدماء المصريين · ثم إنه بعد ذلك بسنين أتم هذا الكتاب ثم توفى قريبا رحمه الله .

فلما انصرف من ذلك الدرس التفت إلينا معاشر مدرسى اللغة العربية وقال قد وجدنا كتابة على الدير البحرى تاريخها فى الأسرة الثامنة عشرة ؛ ملخصها أن المصريين قد كثروا جدا فهاجر منهم طائفتان : طائفة نزحت إلى بلاد العرب وطائفة نزحت إلى بلاد المغرب فى شمال أفريقيا ، وعلى هذا يكون منهم عاد وثمود . أفلا ترون ذلك يا حضرات الأساتذة ؟ فوافقه المرحوم حفنى بك ناصف وكذلك أنا (طنطاوى) وقلنا لا مانع من ذلك وليس عندنا ما يمنعه . فهذا آخر ما وصل إلينا من العلم فى أمر عاد من حيث التاريخ الحديث .

أما ثمود فكان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى إلى مكة . وقد وصلت لها السكة الحديدية الحجازية . والذى ثبت الآن أن مدائن صالح وهى الحجر دخلت قبل تاريخ الميلاد فى حكم النبطيين سكان بطرا . وبطرا هذه قصبة الأنباط مدينة صخرية قائمة فى مستوى من الأرض تحيط به الصخور وهى واقعة فى وادى موسى عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن وأطلالها الآن باقية كشفها العلماء فى هذه الأيام . وهناك كتابات ونقوش بالقلم النبطى وبجانبها مرسح منقور فى الصخر ووراءه كهوف كثيرة منقورة وطبيعية وكانوا يسكنونها قديما وهى الآن يأوى إليها الفقراء من المطر الغزير .

هذه هى (بطرا) التى هى عاصمة النبطيين الذين ملكوا الحجر وهى مدائن صالح التى كلامنا فيها ، فلقد وجد على أطلال تلك المدائن كتابة نبطية ، وقد زار هذه المدائن مستشرقون وقرءوا نقوشا منقوشة فى الصخر منها أنقاض تعرف (بقصر البنت) و (قبر الباشا) و (القلعة) وقرءوا عليها ما نصه :

هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلية ابنتها وذريتهما فى شهر طبية من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه فمسى ذو الشرى وعرشه واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتهما ومن يخالف ما كتب عليه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس لعنات ويغرم الساحر غرامة مقدارها ألف درهم حارثى إلا من كان بيده تصريح من يد كمكم أو كلية ابنتها بشأن هذا القبر والتصريح يجب أن يكون صحيحا صنع ذلك وهب اللات بن عبادة . انتهى .

واعلم أن هذه المعلومات التى وصلت إلينا فى العصر الحاضر ستزيد على مدى الأيام فإن بلاد العرب مشحونة بالأمور العجيبة المدفونة تحت الثرى .

كشف الأمم العربية القديمة فى العصور القريبة

اعلم أن أول من فكر فى كشف آثار آبائنا العرب مثل ثمود وسبأ وحمير ومعين ولحيان وأمثالها إنما هم الألمان فى أواسط القرن الثامن عشر . وما دعاهم إلى ذلك إلا ما كان يسمعه الفرنجة فى أسفارهم إلى الهند

عن طريق البحر الأحمر ومصر وما تتناقله ألسنة أهل شواطىء اليمن وحضرموت إذ يقولون عندنا آثار مدفونة عليها كتابات لانعرفها وأول من فكر فى ذلك العالم (ميخايلس) وهو عالم ألمانى توفى سنة ١٧٩١ وهو الذى اقترح على [فردريك الخامس] ملك الدانمارك سنة ١٧٥٦ تأليف لجنة البحث عن تلك المدائن المذكورة فى التوراة تحقيقا للعلم .

وكان الرجل فيلسوفا عالما عظيما فأرسل الملك المذكور جماعة فماتوا إلا رجلا يسمى (نيوهر) كتب كتابا عن بلاد اليمن التى هى المقصودة بالذات وانتشر فى أوروبا . وفى القرن التاسع عشر عرفت اللغة (الهيروغليفية) بمصر فطمع العلماء بأوروبا فى معرفة علوم جيرانها .

ثم سافر (رتسن) الألمانى سنة ١٨١٠ إلى اليمن فعثر على مدينة (ظفار) وبعد ذلك تنبه الإنجليز . فأول الباحثين : الألمان فالإنجليز فالفرنسيون وهم أوسع مجالا ومنهم العلامة (هاليفى) سنة ١٨٦٩ بلغ مأرب ورجع ومعه ٦٨ نقشا ، وقد مر ببلاد الجوف التى هى قرب (صنعاء) وأهل صنعاء لايعلمون بها . ثم كشف معين المتقدمة وهو سائر إلى (نجران) ثم ذهب (أدوارد غلازر) إلى اليمن وهو عالم ألمانى فوصل إلى مأرب ونقل معه ألف نقش وفيها كيفية بناء سد مأرب وإصلاحه .

ولقد أصبحت متاحف أوروبا الآن ملأى بآثار اليمن بعضها منقوش على الحجر ، وبعضها على البرونز ، وبعضها منقول بالرسم أو الطبع يزيد عددها على ألفين . فبهذه الرسوم والنقوش عرفنا بعضا من أخبار القرآن كما سيأتى فى سورة (سبأ) والسد المذكور فى القرآن وطوله وعرضه والجنتان اللتان هناك كما سيأتى فى سورة (سبأ) أيضا .

هذا ملخص ما وصل لنا الآن من الكشف واهتمام أوروبا بالبحث فى علوم العرب آبائنا وآثارهم لأنه ورد ذكر هذه الآثار فى التوراة .

الخرافات

لقد كان كثير من أهل السير قديما يتسلون بحكايات خرافية كمدينة ذكرها القصاصون تسمى (إرم ذات العماد) بناها عاد وهى فى اليمن لينافس بها قصور الذهب والفضة فى الجنة ، وأنه كتب إلى عماله أن يجمعوا جميع ما فى أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيوجهوا بها إليه ثم استخرج المعادن من الذهب والفضة ثم استخرج عماله الجواهر من البحر وأتوا بالياقوت والزبرجد من المعادن فضرب الذهب لبنا وبنى به المدينة وأمر بالدر والياقوت والجزع والزبرجد والعقيق ففصص به حيطانها وجعل فيها غرفا من فوقها غرف بعمد من الزبرجد والجزع والياقوت ، ثم جعل تحتها واديا ساقه تحت الأرض ٤٠ فرسخا وأجراه فى كل مكان تحتها وجعل حصباءها الجواهر ، وجعل على حافتى البحر أشجارا من الذهب مثمرة وثمرها الياقوت والجواهر وطول المدينة ١٢ فرسخا وعرضها مثل ذلك وفيها ٣٠٠,٠٠٠ قصر مرصعة ومرصفة وقصره يعلو على القصور كلها واتخذ بنادق المسك والزعفران فألقيت فى الشوارع وارتفاع البيوت ٣٠٠ ذراع والسور ٣٠٠ ذراع ومكث فى بنائها ٥٠٠ عام .

هذه ملخصات علوم الأواخر وخرافات أرباب السير من المتقدمين .

يا أمة الإسلام

عجبا كنا نقرأ فى القرآن أخبار عاد وثمود فنمر عليها مر الكرام كأن عادا ليسوا من أسلافنا وكأن ثمودا ليست مساكنها فى بلاد الإسلام .

ويا ليت شعرى كيف بحث الغربيون عنها ونحن نائمون . ويدرسون آثارنا ونحن غافلون . بل يبحثون عن معانى كتابنا المقدس ونحن عن ذلك كله ساهون لاهون .

نعم إن قصة عاد وثمود لم ترد إلا للاعتبار بالأمم المكذبة ولكن واسوأتاه واحسرتاه على أمم الإسلام ، إن سمعوا قوله تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » قالوا لقد عرفنا الله فماذا ننظر ، وإن سمعوا قصص الأولين قالوا إنها جاءت للاعتبار ومعرفة تقلب الأيام ونحن بذلك عالمون .

وعلى هذا أصبح القرآن فى نظر الأمة الإسلامية كتابا يتلى . فأما المعانى والمباحث فهم عنها نائمون . اللهم إلا المباحث الفقهية وليس منها إلا مائة وخمسون آية كما قدمنا . ويا للأسف لايستدلون بها إلا تبعا للأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وغيرهم من كبار العلماء .

بهذا وأمثاله نامت أمة الإسلام فعلى مجدهم فليبكوا وعلى بلادهم فليحزنوا للجهالة العمياء والبلاهة الغبراء والبومة الشوهاء السوداء ، وقد آن أوان استيقاظهم « والله بكل شئ محيط » .

وقد آن أن أفسر الآيات تفسيرا لفظيا بعد ما بينت المقام بقدر الإمكان فأقول : قال تعالى (و) أرسلنا (إلى عاد) وهو عطف على نوح (أخاهم) واحدا منهم تقول يا أخا العرب للواحد منهم وإذا كان واحدا منهم كانت الحجة ألزم عليهم (هودا) عطف بيان لأخاهم وهو من نسل سام بن نوح كما تقدم (قال ياقوم اعبدوا الله) إلى قوله (أفلا تتقون) وهذا ظاهر (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة) خفة وطيش وسخافة عقل (وإنا لنظنك من الكاذبين) فى ادّعائك الرسالة (قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين) إلى قوله (وأنا لكم ناصح) فيما أدعوكم إليه (أمين) على ما أقول لكم .

جمال الخطاب

اعلم أن مقابلة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى الضلال بمثل هذا القول الجميل الرقيق اللطيف داع إلى كسر حدة الخصم وهو الدواء الوحيد لتلطيف حدّته وثوره ، بل ربما أذعن بمثل هذا الحلم . يقولون « إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » فيقول : « ياقوم ليس بى سفاهة الخ » فلا يقول لا بل أنتم السفهاء ، فان هذا من أخلاق الجاهلين ، والعفو وحسن البيان والأدب بالأنبياء والعلماء ألزم . فهذا من الله تعليم للأنبياء وللدعاة . وأما قوله « أو عجبتم أن جاءكم ذكر » إلى قوله « لينذركم » فقد تقدم نظيره ثم قال (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أى خلفتموهم فى الأرض أو فى مساكنهم ، وإذ مفعول به وليس ظرفا (وزادكم فى الخلق بسطة) قامة وقوّة (فاذكروا آلاء الله) جميعها (لعلكم تفلحون) لأن ذكر النعم يؤدى إلى شكرها فيكون الفلاح (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) وهذا احتجاج كالذى تقدّم فى حجة إبليس المذكورة فى أوّل السورة إذ احتجّ بأصله وهو النار ، وهؤلاء احتجوا بصفة من صفات آبائهم القلبية فاتبعوها وهذا برهان سفسطى (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فيه (قال قد وقع عليكم) قد وجب عليكم (من ربكم رجس) عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب (وغضب) إرادة الانتقام (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان) حجة أى فى أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الألوهية (فانتظروا) نزول العذاب (إنى معكم من المنتظرين) ذلك (فأنجيناه والذين معه) أى من آمن معه (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) الدابر الأصل أو الكائن خلف الشىء ، وقطع دابرهم : استأصلهم ودمرهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) وملخص القصة التى فى كلام المفسرين أن عادا قد ملكوا البلاد مابين (عمان وحضرموت) وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله اليهم (هودا) عليه السلام فكذبوه فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام فأوفدوا إليه قيل بن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد وكان يكتم إيمانه بهود عليه السلام ، وأهل مكة إذ ذاك العمالق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه بظاهر مكة فقال لهم مرثد لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود فخلفوا مرثدا وخرجوا

فقال قيل: اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل : اختر لنفسك ولقومك فاختار السوداء على ظن أنها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد لهم فاستبشروا وقالوا هـذا عارض ممطرنا فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم ونجا (هود) والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا اهـ .

أنا لا أطيل لك أيها الذكى فى هذه القصة فقد أسمعتك ماقال المفسرون وماحققه علماء العصر الحاضر ولعلك تقول أين فائدة القصة ؟

تقول أين فائدتها ؟ عاد هلكوا وماتوا بريح صرصر عاتية . ومالنا ولهم ؟ . أقول : نستفيد فائدتين : فائدة أدبية وفائدة علمية . أما العلمية فقد تقدمت فى البحث فى الأرض اليمانية . وأما الأدبية فاعلم أنه وإن لم تكن سحابات تنزل علينا اليوم ولم نخير كما خيروا فان هذه الأحوال تحصل لنا كل يوم ونحن غافلون ؟ ألم تر إلى الأمم الشرقية كيف يغترون بالفرنجة فيحتمون بهم ليضربوا بهم أعداءهم من جيرانهم الشرقيين ثم ينقض عليهم الفرنجة أيضا . وهذه قاعدة مطردة . يدخل الفرنجى بلاد الشرق بالاستعانة ببعض أهل البلاد كما فى العراق والشام ومصر وغيرها فينقلب الفرنجة على أهل البلاد فيكونون سببا لخسرانهم وهذا هوالحاصل الآن تماما فيظن أهل الشرق أن هـذا الغربى نعمة عليه لغناه وجاهه إذا هو كالسحابة السوداء كثيرة الماء فاذا دخلوا بلادهم انقلبوا عليهم نارا وسعيرا فابتزوا أموالهم . وكم تغفل الغربيون أهل الشرق فأذلوهم أجمعين « إلا من رحم ربك » وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

وهذه كقصة المسيخ الدجال من حيث إن الناس يطمعون فى جنته إذا هى نار ، بل أكثر أمور الحياة هكذا نحن نعذب بما ظننا أنه نعيم ؟ فالمناصب والأموال والبنون كل ذلك يكون من أسباب الشقاء والتعب كما وضح فى سورة (البقرة) فلنجعل ذلك سلما للفضيلة لانتيجة الحياة . قال تعالى (وإلى ثمود) أى وأرسلنا إلى ثمود هم من ذرّية إرم بن سام بن نوح وهم وعاد ونحوهم يقال لهم الآراميون نسبة لارم ولذلك جاء فى القرآن « عاد إرم » بالإضافة وهو ظاهر والتاريخ يوافقه والكشف يبينه . وقد تقدّم ذكر مساكنهم بإيضاح ثم قال تعالى (أخاهم صالحا) إلى قوله (قد جاءتكم بينة من ربكم) آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوّتى فكأنّ سائلا قال ماهذه البينة؟ (قال هذه ناقة الله) اضافهاالله للتعظيم والتخصيص لأنه كوّنها بلاصلب ولا رحم (لكم آية) حال من الناقة والعامل معنى الاشارة ولكم بيان لمن هى له آية وهى ثمود لأنهم عاينوها (فذروها تأكل فى أرض الله) أى الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل فى أرض ربها من نبات ربها (ولا تمسوها بسوء) ولا تضرّوها ولا تعقروها ولا تطردوها (فيأخذكم عذاب أليم) وهو جواب النهى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم) وأنزلكم، والباءة: المنزل (فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا) غرفا للصيف (وتنحتون الجبال بيوتا) للشتاء وبيوتا حال مقدّرة كما تقول خط هذا الثوب قميصا فالجبل لايكون بيتا حال النحت ولا الثوب قميصا فى حال الخياطة (فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) . وملخص قول المفسرين فى قصتهم أن عادا لما هلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوها فى الأرض وعمروا أعمارا طوالا فأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله إليهم صالحا عليه السلام وكانوا عربا وصالح منهم فلم يتبعه فى دينه إلا المستضعفون فأنذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة بعينها ناقة عشراء فصلى ودعا ربه فتمخضت فخرجت منها ناقة كما شاءوا فآمن به رهط من قومه (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا) للذين استضعفهم رؤساء الكفار ثم أبدل منه قوله (لمن آمن منهم) أى من قومه فيكون جميع المستضعفين مؤمنين أو من الذين استضعفوا فيكون المستضعفون قسمين كافرين ومؤمنين (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) فكأنهم قالوا

إنا

إنا نعلم أنه مرسل ودليله إنا مؤمنون به وهو أبلغ فى الجواب (قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) فوضعوا آمنتم موضع أرسل به ردّا لما جعله المؤمنون معلوما مسلما (فعقروا الناقة) أى نحروها وما نحرها إلا قدار بن سالف ولكن كان ذلك برضاهم ، وكان قدار هذا أحمر أزرق قصيرا (وعتوا عن أمر ربهم) تولوا عنه واستكبروا ، وهو مابلغهم صالح بقوله (فذروها الخ) (وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة) الصيحة التى زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) خامدين ميتين . قال المفسرون : إنهم من بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا ونحتوا البيوت فى الجبل وكانوا فى خصب من العيش فأرسل الله لهم صالحا وأجابهم إلى الآية التى طلبوها كما تقدم فخرجت الناقة من الصخرة ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فمكثت الناقة ترعى فى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها حتى تشرب البئر ثم يحلبون منها مايشاءون ويملئون أوانيهم ويدّخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب أنعامهم منها إلى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك فذبحوها واقتسموا لحمها وغاب الفصيل فى الجبل بعد أن رغا ثلاثة أيام، فقال لهم صالح تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودّة ثم يصبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله فى أرض فلسطين . ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا . ثم قال تعالى (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين) والظاهر أنه خاطبهم بهذا القول بعد موتهم كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة فى قليب بدر وهم ميتون .

سؤال ورد على المؤلف

لما وصلت إلى هذا المقام ، واطلع عليه أحد الأصدقاء أهل العلم المفكرين قال : أىّ فائدة لهذه القصة فى زماننا ونحن اليوم فى عصر الحديد والبخار والغازات الخانقة والكهرباء والطيارات وزلزلة الأرض بأنواع الديناميت فلا ينتظر الناس أن تزلزل بهم الأرض زلزلة عظيمة طبيعية ، وأىّ ثمرة لمعرفة ناقة خرجت من صخرة وتبعها ابنها ثم قتلت ، وأىّ فائدة فى ذكر أنهم شربوا لبنها ثم خانوا فأتتهم الصاعقة ، وياسبحان الله إن عصر التقلبات والآيات والفاجآت قد مضى وانقضى وإن العقول اليوم لا ترى لهذا أثرا فى الوجود ، وكيف يأتى كتاب سماوى بمثل هذا ، وما الفائدة إذا كان لاينتفع به الناس ؟.

الجواب

أعلم أيها الذكى أن هذا السؤال يرد على جميع العقول الذكية ، فمنهم من إذا مرّ عليه هذا الكلام يسكت ويقول فى نفسه إنى إن نطقت بهذا كفرت مع أن الله مطلع على قلبه ، ومنهم من يجهر ، ويقول إن الدين للعوام أما نحن فنحن علماء فلا حاجة إلى الديانات عندنا ، هـذا ما عليه المتدينون فى هذه الدنيا شرقا وغربا.

واعلم أن كل دين فيه أمثال هذه القصص، ولو خلا دين من أمثال هذا لم تتبعه الأمم فإن الديانات جاءت ليفهمها الجهلاء بظاهرها ويستنتج منها العقلاء من أسرارها وعجائبها وليس يخفى عليك كتاب (كليلة ودمنة) الذى يقرأ فى المدارس جميعها شرقا وغربا وفيه حكايات يفهمها الجهلاء بظاهرها ويدرسها الحكماء والفلاسفة والسياسيون بحسب باطنها ويستخرجون منها نظام الدول والممالك والحيل السياسية وهى بحر علم وفلسفة وحكمة وأدب وخلق وجمال ، وإذا كان هذا فيلسوفا فكيف بكتاب أنزل على نبىّ من ربه ، إن سائر الديانات ظاهرها سهل « وفيها معان الحكماء لعلهم يتدبرون » ، ولا تظنّ أنى أقول إن ناقة صالح كحكايات كتاب (كليلة ودمنة) فى أنها غير حقيقية فنحن نؤمن بناقته وبما جاء فى ظاهر القرآن ونكل علمها إلى الله تعالى ولا نؤمن بالتفصيلات الطويلة التى لم يرد فيها نص ، فقال عرفت هذا وأىّ فائدة فيها عند الخواص؟ . قلت

اعلم أن أحوالنا التي نحن عليها ونشاهدها كل حين في بلاد الإسلام أشبه بما حصل لقوم صالح فالناقة نعقرها كل سنة والرجفة تأخذنا كل يوم ونحن غافلون ، قال وانجبا لك أنت رأيت الناقة وسمعت الرجفة ؟ قلت له وأنت أيضا لأنك من الذين رضوا بقتل الناقة فعذبوا ، قال هذا خارج عن المعقول : فكيف تفسر القرآن إذا كنت تقول ما يخالف العيان؟ قلت أنا أقول لك كما يقول القرآن ، قال قل: قلت انظر أليس أمر الناقة المذكورة أنها خرجت من صخرة وكان لها لبن يشربونه فنحروها ؟ قال بلى : قلت أليس الصخر يفتته الماء والهواء والحرارة فيصير حصا ورمالا ويجرى عليها الماء فينزل إلى السهل فيزرع فيخرج منه الشجر والزرع فتأكله الدواب فيخرج ألف ناقة وألف جمل ونحن نشاهد هذه الآيات ونكفر بها ؟ أوليس من الكفر بها أن نترك النعم التي أنعم الله بها علينا في السهل والجبل والسماء والأرض ؟ أوليست السموات والأرض من آيات الله ؟ كما أن ناقة صالح من آيات الله ؟ غاية الأمر أن الناقة يفهمها العامة والآيات الأخرى يفهمها الخاصة ، ألم يقل الله « وفى الأرض آيات للموقنين » والموقنون أرقى من المؤمنين ، فلئن آمن قوم صالح بناقته وهى آية « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقال الله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين » أفليست آية النهار أرقى ألف مرة من آية ناقة صالح ؟ أليس شروق الشمس بعد الإظلام وظهورها مشرقة تتلألأ كعروس تزينت بالحلى والحلل وقد نشرت على الأرض حللا ذهبية جميلة مشرقة بهجة بهية منيرة تعطى الحياة لكل حى أكبر ألف ألف ألف مرة من ظهور ناقة في صخرة يشرب منها قوم في قرية خاصة بل لانسبة بين الناقة وبين الشمس ، على أن الشمس لايقدر على قتلها الناس ، فإنها قد تميت الحموم وكم أناس تضايقوا منها فلم يقدروا أن يقتلوها وهى باقية إلى اليوم والناس يحيون ويموتون وهى باقية ، والله سبحانه سماها آية وسمى ناقة صالح آية . فأما الأولى فهى آية العقلاء ، وأما الثانية فهى آية العقول الجامدة ، ولذلك جاءت هذه السورة لتوضح الفرق بين الآيات العقلية والآيات الخارقة للعادة كما سيأتي إيضاحه عند الكلام على سحرة فرعون وأنهم علماء فكان إيمانهم ثابتا ، أما الجهلاء من بنى إسرائيل فإن إيمانهم المبنى على خوارق العادات لم يلبث أن تبدل كفرا ؟ فالسورة يراد بها إظهار الحقائق للمسلمين وأن الإيمان بمثل هذا إيمان الغافلين ، إيمان لا ثبات له ، أما العلوم الكونية فالإيمان التابع لبراهينها هو الإيمان وهو اليقين ، فقال صاحبي : أى كفر كفرناه وأى ضر أصابنا وأى مناسبة بين حالنا وحال قوم صالح ؟ قلت ألست تعلم أن الله أعطانا أرض عاد وثمود التي هى كانت أولا في اليمن ثم رحلوا إلى الأرض التي يقال لها مدائن صالح على مايقال وعندنا أرض الحجاز ومصر وفلسطين وسوريا والعراق كل هذه وغيرها من البلدان المذكورة في القرآن ملك للمسلمين الآن ، ولا جرم أن هذا الملك أضخم من ناقة صالح ، أفلست ترى أن المسلمين لم يقوموا بشكر النعمة فيحفظوا الأمانة التي استودعها الله إياهم ، فترى المسلمين أقل الأمم علما وعملا وتجارة وصناعة فأى عقر للناقة أعظم من هذا ؟ إننا نحن الآن عقرنا آلافا من النياق عقرا معنويا لأننا لم نقم بزراعة الأرض حق القيام ولا باستخراج مناجمها ولا بحفظ ثغورها ولا بتعليم أبنائها ولا باتحادهم فإذا عقرت ثمود ناقة خرجت من الجبل فنحن منعناها أن تخرج ومنعنا ألف ألف ناقة وبقرة وإنسان بتخريب الأرض وقلة حفظها . قال صاحبي : فحينئذ أنا وأنت كافرون ، قلت كلا : بل نحن عاصون ، لأن انتشار الصناعات والعلوم فرض كفاية وكل عنه مسئول ، ألا ترى الله تعالى يقول في أول السورة « وذكرى للمؤمنين » ونحن المؤمنون وهذه هى الذكرى .

ألا ترى أن أهل أمريكا الأصليين وهم الجنس الأحمر النحاسى انقض عليهم الأوروبيون فأهلكوهم وأخذوا ديارهم ، لأن الله هو الذى فعل ذلك لأنهم أليق لعمارة الأرض ، فأما الحمر المتوحشون فإنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وانظر إلى إخواننا عرب الأندلس في الزمن القريب كيف أنام الأسبان بالاتحاد مع أهل أوروبا وتلاهم أجمعين ، أليس ذلك لأنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ؟ وأى ناقة

أعظم

أعظم وأضخم من ملك الأندلس ، قال إذن تريد أن تخرج عن ظاهر اللفظ إلى المعانى التى ذكرتها ولكنى أراه بعيدا عن القرآن ، قلت بل هو القرآن نفسه ، قال وكيف ذلك ؟ قلت لسببين : (السبب الأوّل) ماجاء فى أوّل السورة من قصة آدم وإبليس ، ألم تر أنه خرج من تلك القصة التى لايجهلها أصغر وأجهل إنسان فى بنى آدم إلى مسألة اللباس وكيف استنتج منها أنهم يجب عليهم أن يلبسوا اللباس فى الطواف ، ثم ارتقى إلى أن القطن والكتان والحرير التى هى لباس لنا من آيات الله وإلى أن هناك لباسا أعلا وأشرف وأعلى وهو لباس التقوى ، ثم طلب من بنى آدم ألا يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم فخلع عنه لباسه ، فليس ينبغى أن يخلع عنكم لباس التقوى بالمعاصى ، فلا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن .

فانظر كيف جعلت القصة درسا فى الطبيعة النباتية ، ودرسا فى ستر العورة فى الصلاة ، ودرسا فى أن الشياطين يرونكم ولا ترونهم وهكذا . فإذا كان القرآن هو الذى فتح باب الفهم والعلم ، مع أن الكتب السماوية لاتتجاوز الظواهر اتكالا على العقول ، فكيف نقف عند الظاهر فى قصة ثمود والناقة . (السبب الثانى) أن الله لايريد لنا هذه الآيات بل يريد لنا الآيات الكونية ، وهو القائل « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » فانظر كيف أبان أن خوارق العادات ليست مثار الهداية للأمم ، وإنما هى زجر وتخويف وانظر كيف خصص ثمود والناقة .

فعلى القادة والعلماء أن ينبهوا المسلمين للأخطار الواقعة بهم وليوقظوهم من غفلتهم وليعلموهم مقصود هذه الآيات وأن الله إنما يريد أن ننظر الحقائق ، ولذلك لما ألحّ كفار مكة على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية مثل هذه ، قال الله «أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» قال وما السبب فى أن خوارق العادات لاتكفى للإيمان ، وأن الأمم الإسلامية يجب أن يكونوا مفكرين لامقلدين . قلت اعلم أن خوارق العادات أشبه بالتنويم المغناطيسى ، وكلما كانت الأمم غافلة كان الكذب عليها أدخل ، وكلما كانت أعقل كان العلم إليها أقرب والكذب عنها أبعد ، وهذا التنويم الآن شائع بين السياسيين والأطباء والدجالين وبعض رؤساء الديانات .

الطب

اعلم أن أهل الأرض جميعا بالنسبة للأطباء كالمنوّمين ، ولو أنهم قالوا لهم الحق لم ينتفعوا بالطب لجهالتهم فإن أكثر الناس لايعلمون ، وأيضا لو قال الأطباء الحق لم يكونوا أغنياء .

حكاية

قابلت طبيبا كان تلميذى بالمدارس التجهيزية وسألته عما يدرّ اللبن للمرأة التى قلّ لبنها . فقال الكشك والفجل وعدّ أنواعا كثيرة ، فقلت وكيف ذلك ؟ فقال : تأخذ ماء الفجل مثلا وتعطيه لقليلة اللبن فتشربه وهذا أمر سهل ، ولكن الأطباء عندهم قاعدة وهى أنهم لايقولون للمرضى إن دواءك هو فيما بين يديك ، لأنهم لو قالوا ذلك لاحتقروا الطبيب ولم ينتفعوا بدوائه ولم يعطوه نقودا ، وكلما كان الطبيب أكثر حفظا لمركزه وأكثر إغرابا فى القول والعمل كان ذلك أدعى للاعتقاد فيه ، ولو أنه نزل للمريض وقال إن دواءك فى الفجل مثلا أو فى اللفت لاحتقره المريض وقال إنه جهول بل يكتبون التذاكر (الروشته) بلغة لايفهمها الجمهور حرصا على المنفعة وجلبا للدراهم والناس جاهلون ، أليس هذا تنويما للناس وتغشية على عقولهم وهم لايعلمون .

الدين

ألست ترى أن كثيرا من مشايخ الطرق يستعملون أمورا غريبة ليصدقهم أتباعهم ويؤمنوا بهم ،

أليس ذلك كناقة صالح ؟ وأن هذا الإيمان بالشيوخ قد يصدّ التلميذ عن بعض العلوم ومتى علم نقيصة في شيخه رجع إلى المعاصي وهو غوى شيطان ، كما قال تعالى « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » وإنما الذى يحفظ الأمم إنما هو التعقل والتبصر ، أفلا ترى أن أكثر العامة فى الإسلام يتبعون الشيوخ لأمور تقوم على يديهم ، إما دجلا وتزويرا ، وإما بأمور أخرى كالتى ذكرها ابن خلدون عن قوم يسمون البعاجة متى أشاروا إلى قطيع من الغنم انبعجت بطون بعضها فيعطيهم صاحب الغنم بعضها ليتقى بها سوء الفقر والهلاك ، فسواء صحّ هذا أم لم يصح ؛ فخوارق العادات سواء أكانت على يد صالح أو ساحر لايمكن أن ترتقى بها أمة ، ولذلك ترى أتباع هؤلاء الشيوخ من الصوفية لايرقون المجموع ، بل ترى معلوماتهم قاصرة على بعض الأحوال ويفرون الكون وما حواه والقرآن ومن تلاه وتقف العقول مقصورة على شيوخهم نائمة حول أضرحتهم وهم غافلون، فعلى المسلمين أن يعلموا جميع الأمة تعليما عاما وإلا فلا حياة لهم ولا دنيا ولا دين . هذا مانؤمله ونرجو الله أن يحققه .

السياسة

وأما تنويم السياسة فاعلم أن الساسة فى أوروبا يقولون الشرقيين قد جئنا بلادكم لنخرجكم من الوحشية إلى نعيم المدنية فإذا هم أكثر توحشا وأوسع بطونا وهم ظالمون . بهذه الكلمات يقتل بها الشرقيون وهى كلمات يقولها المنوم للمنوّم بالفتح حتى تقفل عيناه ولا تسمع أذناه ويصبح قليل العقل لاعتياده النوم واتباع منوّمه وذلك ضياع لقواه المادّية والعقلية .

هكذا إذا نامت أمة السياسيين فإنهم يخربون بلادهم وهم غافلون . وهكذا أتباع الشيوخ إذا نامت عقولهم تبعا لأشياخهم كان رقيها محدودا .

ومن مصائب الإنسان أن يقف عقله عند حدود شيخ واحد وربما كان جاهلا . فالعقل الإنسانى أوسع مجالا وأوفى علما وأرقى عملا وأبعد أملا . ولست أقول إن جميع أرباب الطرق كذلك فإن كثيرا منهم صالحون مصلحون .

التجارة

وهكذا ترى الأمم الغربية حبست عقول الشرقيين بتجارتهم الجميلة المنظر فبهروهم وأخذوا نقودهم فأصبحت بلادهم خاوية على عروشها من الجهالة العمياء ، فلا اقتصاد ولا أعمال ولاعلوم، وهذا من نوع التنويم والأخذ بالعيون وإنامة الأمم وإضعافها . ومن ذلك إشاعة الفسق والفجور فى الأمة فيصبح الناس على الفسوق عاكفين وبالكل راضين . سرّح طرفك فى بلاد الشرق التى احتلها الفرنجة تجدهم بهذا متصفين ، قال تعالى « وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » انتهى الكلام على القسم الثالث والرابع .

(الْقِسْمُ الْخَامِسُ)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ *

التفسير اللفظى

(و) أرسلنا (لوطا) بن هاران بن تارخ وهو ابن أخى إبراهيم ، وإبراهيم عمه (إذ قال لقومه) يعنى أهل سدوم وإليهم كان قد أرسل ؛ وذلك أن لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما السلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين ، ونزل لوط الأردن أرسله الله إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وقوله تعالى « إذ قال » أى وقت قوله (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وهذا توبيخ وتقريع على تلك الفعلة أى ما فعلها قبلهم أحد قط ، ثم بين الفاحشة فقال (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) وهذا مبالغة فى الإنكار والتوبيخ والعاقل يأنف أن يجعل المباشرة لداع غير الولد ، فإن الشهوات أودعت غرائز لمقاصد التناسل وبقاء العمران (بل أنتم) أيها القوم (قوم مسرفون) مجاوزون الحلال إلى الحرام (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) من الفواحش (فأنجيناه وأهله) أى من آمن به (إلا امرأته) فإنها كانت تسر الكفر (كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب إنها كانت كافرة فهلكت مع من هلكوا (وأمطرنا عليهم مطرا) أى نوعا من المطر عجيبا . وبين فى سورة أخرى بقوله « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » وهو الطين المطبوخ (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) .

روى أن لوط بن هاران بن تارخ لما هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا . وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم . اهـ التفسير اللفظى للقسم الخامس .

(القِسْمُ السَّادِسُ)

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ

الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ *

التفسير اللفظي

أى (و) أرسلنا (إلى) أولاد (مدين) بن إبراهيم خليل الله (أخاهم شعيبا) بن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، ثم إن أم ميكيل بنت لوط وكان شعيب أعمى وكان قومه أهل كفر وبخس فى المكيال والميزان (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم) يريد المعجزة التى كانت له ولم يبينها القرآن (فأوفوا الكيل) المكيال (والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) ولا تنقصوهم حقوقهم (ولا تفسدوا فى الأرض) بالكفر والحيف (بعد إصلاحها) بعد ما أصلح من أمرها بالخصب والهداية باتباع الأنبياء (ذلكم) الذى ذكرت وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء الكيل والميزان وترك الظلم والبخس (خير لكم) يعنى مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (إن كنتم مؤمنين) يعنى إن كنتم مصدقين (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) وكانوا يقطعون الطريق ولما أرسل شعيب كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا إنه كذاب فلا يفتننك عن دينك ويوعدون من آمن به بالانتقام (وتصدون عن سبيل الله من آمن به) أى بالله (وتبغونها عوجا) أى وتطلبون لسبيل الله عوجا بإلقاء الشبه ووصفها للناس بأنها معوجة (واذكروا إذ كنتم قليلا) عددكم وعددكم (فكثركم) بالبركة فى النسل والمال والعدد (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم قبلكم فلكم فيهم عبرة، وقوله (فاصبروا) تربصوا وانتظروا، وقوله (حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين (وهو خير الحاكمين) إذ لامعقب لحكمه لأنه حاكم عادل منزه عن الجور (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) إلى قوله (فى ملتنا) أى ليكونن أحد الأمرين: إما إخراجكم من القرية أوعودكم فى الكفر، ومعلوم أن شعيبا لم يكن فى ملتهم وإنما خوطب بما يخاطب به الذين آمنوا تغليبا الجماعة على الفرد (قال) شعيب عليه السلام (أ) نعود إلى ملتكم (ولو كنا كارهين) أى أتعيدوننا فى حال كراهتنا (قد افترينا على الله كذبا) أى قد اختلقنا عليه (إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وجواب إن محذوف يدل عليه ماقبله، يقول قد تخرصنا عليه من القول باطلا إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علمنا فسادها وأنقذنا الله منها (وما يكون لنا أن نعود فيها) وما يصح لنا ذلك (إلا أن يشاء الله ربنا) خذلاننا وارتدادنا وهذا يفيد أن الكفر بمشيئة الله تعالى ومشيئته على حسب ما سبق به القضاء وما سبق به القضاء على مقتضى حال المعلومات والاستعدادات والقوابل.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول كثيرا «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» (وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا) فى أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار ويوفقنا لازدياد الإيمان (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) احكم بيننا وبينهم، والفتاح القاضى والفتاحة الحكومة. أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل (وأنت خير الفاتحين) القاضين أو الكاشفين الأمور (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا) وتركتم دينكم (إنكم إذا لخاسرون) لاستبدالكم ضلالته بهداكم ولأنكم محرومون مما تنالون من البخس والتطفيف، وهذه الجملة سادة مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام،

(فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فى مدينتهم ميتين . يقال إن الله حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحرّ حتى هلكوا .

وقال قتادة: بعث الله شعيبا إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين ، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة ، وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعا (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها) استؤصلوا كأنهم لم يقيموا بها، والمغنى: المنزل (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) دينا ودنيا لا الذين اتبعوه كما زعموا فإنهم هم الزائلون من الوجود . وهذا ردّ على قولهم «ولئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون» ثم قال (فتولى عنهم) بعد نزول العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) اشتدّ حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتدّ حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم . انتهى التفسير اللفظى .

لطيفة

ترى أن قصة أهل مدين وقصة قوم لوط قد ذكرنا بعد عاد وثمود لتكون العبرة شاملة والذكرى جامعة ، فكما أن قوم عاد أهلكوا بما اختاروا لأنفسهم من السحابة السوداء فهبت عليهم ريح صرصر عاتية وأصبح القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فكانت العبرة فى ذلك كما تقدم أن الأمم تغتر بوعود الأمم الخلابة فتكون عليها عذابا وهكذا ثمود هلكوا بعقر الناقة ، وكانت العبرة أن كفر النعم مؤدّ لخراب الأمم .

هكذا كان فى قوم لوط استبدلوا الرجال بالنساء فكان الهلاك الواقع عليهم مشيرا لما فعلوا فقال فى سورة أخرى « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » وكذلك قوم شعيب بخسوا الناس أشياءهم فى الكيال والميزان فأرسل عليهم حرّ شديد فأخذ بأنفاسهم فلم ينفعهم ظلّ ولا ماء فدخلوا فى الأسراب كما قيل ليبردوا فيها فوجدوها أشدّ حرا من الظاهر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحتراق الجراد فى المقلى وصاروا رمادا « إن بطش ربك لشديد » هذا ما يقال عن قوم شعيب عليه السلام .

تطبيق هذا على حال المسلمين اليوم

اعلم أن الأمم الشرقية اليوم قد افتتنت بأهل الغرب الذين يحتاون بلادهم فبخسوا الناس أشياءهم . ومعنى ذلك أنهم يحبون متاجر الفاتحين ويغرمون بمصنوعاتهم وهذا بخس لأشياء أهل وطنهم وظلم لقومهم فقد وفوا للأعداء وبخسوا الأولياء ، وهكذا فى العلم فتراهم يحقرون دين آبائهم وتاريخهم وينسون مجدهم وهذا بخس لأبناء ملتهم وتحقير لشأنهم .

هكذا فى الأزياء والأحوال . تراهم يتزيون بزيهم ويتطبعون بطباعهم ولا ينطقون إلا بلغاتهم . وهذا بخس لأهل وطنهم . وهذا أشدّ وقعا من البخس فى الكيال والميزان وإذا وظفوا أجنبيا احترموه ولو كان جاهلا . هذا هو الذى نفهمه من العبرة فى ذلك . هكذا تراهم يقلبون الحقائق وهذا كما قلب الحقائق قوم لوط فقلب الله عالى قريتهم سافلها .

هكذا ترى أهل الشرق حينما يفعلون ذلك ويحتمون بالأجانب ويلبسون ملابسهم ويشربون شرابهم ويشاركونهم فى فجورهم ولهوهم ويفرحون بهم . قد جعلوهم ظلة لهم فاستظلوا بهم وربوا أولادهم على مشاربهم وأعطوا بعضهم شهادات دراسية كاذبة من بلادهم فيرجعون إلى الشرق وهم جاهلوها وهم جاهلون فيجلسون على أرائك الحكم فيظلمون ولا يزالون على تلك الحال حتى ينقضّ عليهم أولئك الأعداء فيفتكون بالأمم فتكا مريعا ويسلبون الظالمين والمظلومين .

هكذا كان ذلك بالأندلس . وهكذا هو اليوم فى مصر والشام والعراق والهند . إن هؤلاء جميعا تقوم طوائف منهم يستظلون بظل الأمم الغربية هم ونساؤهم وأولادهم كقوم شعيب حتى إذا اجتمعوا تحت الراية الأجنبية وتمّ لهم الفوز انقلبوا عليهم فأهلكوهم فصار النسيم سموما والرحمة عذابا والنعيم جحيما .

فالعبرة فى القصص الأربع التى مضت راجعة لحفظ البلاد من الأعداء وعمارة الخراب وحفظ النسب والعلوم وألا يبخس الوطنى ويعظم الأجنبى الخ ، فمن احتمى بالأعداء أضرّ به الداء ومن نبذوا تاريخهم أو لغاتهم أو أديانهم أو الجميل من عاداتهم أو لم يقوموا بما وهبهم الله من أرض وعقول فينموها ويرقوها أهلكهم الله وأذلهم كما فعل بالأمم السالفة .

حكاية مصرية

أخبرنى منذ أيام مفتش من أفاضل المفتشين بوزارة المعارف المصرية قال : لقد ألف (فلان) الافرنجى كتابا فى علم الفلسفة العربية لا أفهم له معنى ولا أعقل فيه لفظا عبارات غامضة وآراء خاملة وعلوم خاطئة ولحن مشين وعلم ركيك . قال فوالله لقد طلب منى تقرير هذا الكتاب بوزارة المعارف ثلاثة وزراء على التوالى فما أجبت لهم سؤالا ولا أطعت لهم أمرا ، ولقد تركت الوزارة هاربا ورجعت إلى العلم تائبا انتهى .

أقول إن سبب هذا أن الفرنجة لاحتلالهم بلادنا قبل استقلالنا يأمرون الوزراء أن يجعلوا كتب أبناء ملتهم هى التى تكون فى مدارسنا لأنهم يعلمون أنها لا تسمن ولا تغنى من جوع والوطنيون يجيبونهم لذلك حفظا لمراكزهم واستبقاء لمرتباتهم وقياما بأوامر المسيطرين عليهم .

حكاية أخرى مصرية

إنى أول ما ألفت من الكتب كتابا يسمى [جواهر العلوم] فقرّره المفتشون فى المعارف ، فلما علم بذلك وزير المعارف وكان متخرجا من مدارس (الفرير) وهو من نسل تركى أخذ الكتاب وقرأه فرأى أن فيه مزج العلم بالدين فلم يرقه ذلك فعمد إلى الأمر بعدم تقرير الكتاب وذلك لأنه على غير المبادئ التى تعلمها وعلى غير النظام الذى تلقاه عن المبشرين من الأوروبيين . انتهى القسم السادس .

(الْقِسْمُ السَّابِعُ)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا

كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ *

لقد علمت أن هذا القسم إنما هو درس على القصص المتقدمة ، ولقد جاء فى أوّل السورة « وكم من قرية أهلكناها » وأبان أنّ الهلاك ليلا أو نهارا . وقد جاء عند الآيات الكونية « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » .

ولما كان أكثر الناس لايعقلون ما يرون فى الأرض والسماء من العجائب التى ذكرت فى القرآن وغيره أبرزها على لسان الأنبياء كما تقدّم عن شعيب . فإذا قال الله تعالى « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » عند ذكر السموات والأرض أمر شعيبا أن يقولها لأن الجاهلين لايفقهون إلا بالقصص وكأن الأنبياء صدى صوت الوضع الإلهى فى الأرض والسماء ، فإذا كان الله جعل العالم منظما ومن لم يسر على النظام حرم من ثمرته بطريق العقل . هكذا قال الأنبياء كما ظهر فى وضع الكون ونظامه « إن ربك حكيم عليم » .

هذا مما ظهر فى أثناء القصص فانظر كيف ألقى الله درسا عاما على الأمم تثبيتا لما ألقاه فى أوّل السورة فأفاد أنه سبحانه يأخذ القرى بالخوف والبلاء والأمراض والأوجاع عسى أن يتذللوا لله ثم تغدق عليهم النعم حتى يكثر زرعهم وضرعهم فيقولون إذا رأوا تعاقب الخير والشر وقد أثروا وتنعموا ماذا يضرنا لقدكان آباؤنا يتقلبون فى الأمرين النعم والبؤس والخير والشر والنعمة والضر فيأتيهم العذاب وهم لايشعرون .

ثم قال إن البركات من السماء والأرض مرتبات على الإيمان لأنه يوجب الاتحاد وصفاء الأخلاق وهذان يدعوان إلى الخيرات والبركات . ثم أعاد الدرس السابق فى أوّل السورة ، فكما قال هناك « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

وقد ذكر القرى التى أشار إليها ، فأهل لوط جاءهم العذاب بياتا ، وقوم شعيب جاءهم نهارا هكذا قال هنا ها أنتم أولاء قد سمعتم ماحلّ بالأمم ، فقوم هلكوا ليلا وقوم هلكوا نهارا كما قلنا ، أفأمنتم أن ينزل عليكم العذاب ليلا أو نهارا كما سمعتم ؟ أقول والله لانأمن ذلك لأن الحروب فى العصر الحاضر تأتى للأمم الغافلة وهى على غير استعداد ، وقد جعل الله هذا القرآن ذكرى لنا ولقد رأينا الطيارات تحوم فى الجوّ فتحرق قرى المسلمين تارة ليلا وتارة نهارا فى العراق وفى الشام وفى بلاد المغرب كما كان فى الأمم السابقة . فإذا قال الله «أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا الخ» نقول والله لانأمن يا ألله فإن العذاب الذى ذكرته قد عايناه بأنفسنا ولمسناه بأيدينا وأصبح المسلمون اليوم حيارى سكارى من شدّة الجهالة العمياء واتباع الشهوات .

إن للمسلمين اليوم مساكين لجهل بعض علمائهم وشهوات بعض كبرائهم وهم غافلون تائهون وسيصلح الله أمرهم ويلمّ شعثهم عما قريب . حقق الله الآمال .

ثم يقول هل أمنتم مكر الله أوليس نظامه يقضى أن يهلك الذين لاينفعون ، وكيف يضلّ الناس وهم قد ورثوا أرضا بعد فناء أهلها وهم يطلعون على آثارهم ويدرسون تواريخهم كما يدرس الناس اليوم تاريخ قدماء المصريين وأهل سبأ والصينيين وأهل أمريكا القدماء والأشوريين والبابليين .

يقول إنكم أيها الناس تقرءون تاريخهم وتطلعون على آثارهم وأنتم تعلمون أنهم ما هلكوا بعد عظمتهم ولا ذلوا بعد أنفتهم إلا بعد أن غيروا نظمهم وعصوا علماءهم وطغوا وظلموا فعاقبناهم وجعلناهم مثلا لكم ، أفلا تخافون أن أطبع على قلوبكم أى أختم عليها فلا تفهم الحقائق لتراكم الضلالات والبدع عليها فلا تعرف الحق وتكون الحياة كلها تقليدا وجهلا .

يا محمد . أنا قصصت عليك قصص تلك القرى وقد كذبوا الأنبياء وقد طبعنا على قلوبهم هكذا نطبع على قلوب الكافرين لمشابهتهم لهم فى الأعمال فتشابهوا فى النتائج . إن أكثر الأمم لا عهد لها . إن أكثر أهل الأرض فاسقون لأن العالم الأرضى مقدمة لعالم أعلى منه وليس عالما تاما كاملا والناس فيه أطفال جهال وسينقلون فى عالم أرقى بعد الموت « ولكل درجات مما عملوا » .

تفسير بعض ألفاظ الآيات

(البأساء) البؤس والفقر (الضراء) المرض (يتضرعون) يتذللون (بدلنا مكان السيئة الحسنة) أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء نعمة ورخاء (عفوا) كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم ، يقولون عفا النبات إذا كثر ، وقوله (أهل القرى) أى التى أرسل إليها الأنبياء (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بالمطر والنبات، أو لآتيناهم بالخير من كل وجه ، وقوله (بما كانوا يكسبون) أى بكفرهم ، وقوله (أفأمن أهل القرى) عطف على قوله (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) وما بينهما اعتراض . والمعنى أبعد ذلك أمن أهل القرى ، وقوله (بياتا) أى تبييتا، أو وقت بيات ، أو مبيتين وهو فى الأصل مصدر بمعنى البيتوتة وقوله (وهم نائمون) حال من ضمير «هم» البارز أو المستتر فى بياتا ، وقوله (أو أمن أهل القرى) أى أغفلوا وأمنوا وقوله (ضحى) أى ضحوة النهار وهو فى الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت ، وقوله (وهم يلعبون) يلهون من فرط الغفلة أو يشتغلون بما لا ينفعهم ، وقوله (أفأمنوا مكر الله) هذا تقرير لقوله « أفأمن أهل القرى » ومكر الله استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، وقوله (الخاسرون) أى الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار وقوله « أو لم يهد » أى أو لم يبين فلذلك عديت باللام، وقوله (أن لو نشاء) أى أن الشأن لو نشاء (أصبناهم بذنوبهم) وأن وما بعدها فى تأويل مصدر فاعل يهد وقوله (ونطبع) أى نختم (على قلوبهم) معطوف على ما يؤخذ من قوله « أو لم يهد » كأنه قيل أيغفل الناس فلم يبين لمن يرثون أرض من خلا قبلهم أنا قادرون أن نصيبهم بذنوبهم ثم قال «ونطبع» كأنه يقول يغفلون ونطبع ، ويصح أن يكون مستأنفا وهو أسهل، وقوله (تلك القرى) أى التى ذكرناها وهو مبتدأ خبره (نقص عليك الخ) وقوله (بالبينات) أى المعجزات ، وقوله (وما وجدنا لأكثرهم) أى لأكثر الناس أو لأكثر الأمم المذكورين (من عهد) أى وفاء عهد فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم فى الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج ، أو ما يعطون من العهود وهم فى مخافة فيقولون « لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) وجدنا علمنا وإن هذه هى المخففة واللام فارقة . ويقول الكوفيون إن نافية واللام بمعنى إلا كأنه قيل وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين . انتهى القسم السابع

(القِسْمُ الثَّامِنُ)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا

لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا
إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا
أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ
مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ *
وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ
آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ *
قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ
لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى
رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَا
آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا
هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ *
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ

كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق
الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا
ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر
فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال
إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله
أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء
العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وواعدنا
موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه
هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا
وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر
مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال
سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي
وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له في الألواح من كل شيء
موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار
الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل
آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه
سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة
حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون * واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم
عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين *
ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن
من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي
أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم

استضعفون

استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين *
قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا
العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين * والذين
عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت
عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون *
واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت
أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من
تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا
في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي
وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون
الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل
يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث
ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه
واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يا أيها الناس إني رسول الله
إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله
ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون . ومن قوم
موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا
إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا
قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من
طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قيل لهم اسكنوا
هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم
خطيآتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا

عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ * وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا قالُوا مَعْذِرَةً إِلىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذٰلِكَ وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا ما فِيهِ وَالدّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلىٰ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هٰذا غافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

قد أخر الله عز وجل هذه القصة لطول الكلام عليها، ولما فيها من العبر والآيات، ولقد كان زمانها بعد ما تقدمها وكم فيها من عبرة . وكم فيها من حكمة . ألم تر كيف كان موسى عليه السلام تارة يحاج الفراعنة ويدعو إلى الله ثم يحاج قومه ويعظهم أخرى . وكيف أفادت تلك المحاورات الفرعونية ما كان في مصر من المجالس النيابية والحكومات الشورية مع وصفهم بالظلم وبعدهم عن العدل مع الفقراء ؛ ثم كيف استبان ما للإيمان المبني على العلم من الأثر الشريف والفضل المنيف . وكيف كان السحرة أثبت إيمانا وأعلى بنيانا من جهلة بني إسرائيل إذ قالوا « يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » وكيف رضي السحرة المصريون أن يموتوا وهم موقنون ورضوا بالقتل وهم متدلهون . وكيف عبد بنو إسرائيل عجلا مصنوعا من الذهب بعد

ما رأوا العصا قلبت ثعبانا فهم بذلك أشبه بالصبيان يفرحون بالحلوى حتى إذا سئموها أكلوا غيرها وكالذين يبيعون الرطب من النخل الذى هم زارعوه يأكلون رطبا كثيرا فإذا سئموا منه أكلوا سمكا مملحا وهكذا شأن جميع الناس فى أمورهم الجسمية يستحبون تغيير المناظر والأطعمة والملابس والأزياء والسفر إلى البلدان ترويحا للنفس من عناء الأعمال .

فالعالم المادّى كثير التلوّن والتغير وعلى ذلك لاثبات له . فأما الثبات فليس يكون إلا لعالم المعنويات والبراهين العقليات والعلوم الرياضيات والحجج المنطقيات فتلك هى العلوم الباقية والآراء الثابتة والأحوال الصادقة . فانظر كيف كان إيمان الجهل أضعف أثرا وأقلّ دواما وكيف أضلّ السامرى بنى إسرائيل إذ صنع لهم « عجلا جسدا له خوار » فقال « هذا إلهكم وإله موسى » .

وفى هذه الآيات دلالة أن الجهاد من المهد إلى اللحد فإن موسى عليه السلام بعد أن حاج المصريين ونجى قومه وذهب إلى التيه معهم أصبح فى جدال وحوار معهم وهم يكفرون تارة ويؤمنون أخرى فهو محارب لعدوّه وعلى حذر من قومه ولكن العاقبة للمتقين ، فقد فازوا بقبولهم الألواح واهتدوا بهديه وأصبحوا مؤمنين. فهذه القصة تعطى علم الصبر وأن النجاح يتبعه وتفيدنا أن الإيمان اليقينى لاسبيل إليه إلا بالعلم ولا نجاح لأمة إلا بالعلم ، فأما التقليد فإنه شر مستطير . فالأول كالسحرة والثانى كبنى إسرائيل ، وتعلمنا أن الإنسان مجاهد مادام حيا فلا يركنن إلى أحد فإنهم جميعا متقلبون وليس الحذر من الصديق بأقلّ قوّة من مقاومة العدوّ بل الأولياء والأصدقاء هم الذين يراقبون لأن القلوب متقلبة والنفوس الإنسانية غير ثابتة كالمادة التى فيها يتقلبون، وأيضا هؤلاء ملازمون والأعداء مفارقون وللعاشر إذا ضرب لم يخطئ في ضربته بل يصيب المرمى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » وذلك لما رجع من إحدى الغزوات ، وترى هذا واضحا فى هذه القصة فإن موسى كانت عداوة فرعون له وقتية ونجا منه . أما قومه وأهله فقد تلوّنوا مرات كثيرة : سئموا المنّ والسلوى . وعصوا أن يدخلوا الباب سجدا . وعبدوا العجل وهكذا فلا تظهر عورات الأمم إلا فى حال أمنها . أما فى حال الخوف فإنهم بالعدوّ مشغولون .

وهؤلاء لم تظهر عيوبهم إلا بعد أن خرجوا من مصر فتفرغوا لما استعدّت له نفوسهم من التلوّن والتفرّق والعداوة والشك والإشراك ولذلك ختمت هذه القصة بآية أخذ العهد وسيأتى أن العهد الذى أخذه الله على الناس يرجع إلى نظام العالم وجماله وكأنه ناطق بفصيح العبارة أن الله لارب سواه، وأردف ذلك بقصة من هو عالم وترك العلم فلم يعمل به وعصى وانسلخ منه وصار شيطانا مريدا .

فأمّ مافى هذه القصة العلم اليقينى ولا يكون إلا بالنظر فى الطبيعة بدليل العهد المأخوذ على الناس فى مناظر الأرض والسموات ويتلو العلم الصبر والأخلاق الفاضلة وتكون النتيجة الفوز والنجاح .

وتعجب كيف تكون هذه القصص كلها على نسق واحد وقد كانت تتلى على المسلمين وهم ضعفاء فتقوى عقائدهم ، ثم كيف أصبحوا أقوياء مشاكلة لقصص الأنبياء . هكذا تكون العلوم . وهكذا تكون المعجزات . وهذه هى الفوائد المستنتجة من الآيات، لافائدة إلا بنحو ماذكرناه ولانفع إلا فى نحو ماحررناه .

فأما القراءة اللفظية والتفسيرات الحرفية فإنما هى شأن المقرئين وقراء القرآن المجوّدين ولكن حياة الأمم بالاستنباط والاستدلال ، والرقىّ بغير ذلك وأمثاله محال .

ولنبدأ بالتفسير اللفظى فنقول : قال تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) الضمير للرسل فى قوله « ولقد جاءتهم رسلهم » (موسى بآياتنا) بالمعجزات الواضحات (إلى فرعون وملئه فظلموا بها) فكفروا بآياتنا أجرى مجرى الكفر لأنهما من واد واحد وفرعون لقب لكل من ملك مصر ككسرى لملك فارس (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يامحمد بعين العقل والبصيرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم (وقال موسى يافرعون

إنى رسول من رب العالمين) إليك قال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أى أنا حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق (قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل) خلهم يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدسة التى هى وطنهم .

وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفى غلب فرعون على نسل الأسباط واستعبدهم لأن المصريين القدماء كأهل الصين لا يسمحون للغريب أن يطأ بلادهم ، ولكن لما دخل العرب العمالقة مصر واستوطنوها نحو خمسمائة سنة أباحوا دخول الأجانب كالعبرانيين .

ولما شب يوسف عليه السلام وعظم شأنه وأصبحت فى يده خزائن مصر أرسل إلى أبويه وإخوته فأتوا مصر وبعد مدة رجع المصريون إلى فكرة الخوف من الأجانب فاضطهدوا بنى إسرائيل بحكم تنازع البقاء فجاء موسى وقال لفرعون فأرسل معى بنى إسرائيل .

والمدة بين دخولهم أيام يوسف وخروجهم أيام موسى الذى أنقذهم أربعمائة عام (قال إن كنت جئت بآية) من عند من أرسلك (فأت بها إن كنت من الصادقين) فائتنى بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها (فألقى موسى عصاه فإذا هى) إذا هذه للمفاجأة وهى ظرف زمان بمنزلة ثمت وهناك (ثعبان مبين) حية عظيمة وقوله « مبين » ظاهر .

روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم (٢٥) ألف نسمة الخ .

وهذا لم يذكره القرآن فلا نعرف إلا ما جاء به أو ما يثبت فى أحاديث قام البرهان على صحتها .

وعلى كل فالمهم فى هذا كله العبرة من هذه القصص ، فالقصص تذكر بمناسبتها العلوم وما عدا ذلك يكتفى به القاصرون .

واعلم أن هذه الحية العظيمة كانت خفيفة الحركات فمن يراها يظن أنها جان أى حية صغيرة كما فى آية أخرى « كأنها جان » أى فى خفة الحركة فهى كبيرة الجسم خفيفة الحركة (ونزع يده) من جيبه أو من تحت إبطه (فإذا هى بيضاء للناظرين) معناه أن البياض لم يكن من جبلتها وطبيعتها لأن سيدنا موسى عليه السلام كان آدم شديد الأدمة فليس فى يده بياض فلما أدخلها فى إبطه وأخرجها إذا هى بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس فصار بياضها للناظرين لا فى جبلتها ، ويصح أن يقال بيضاء بياضا خارجا عن العادة تجتمع عليه النظارة (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) . ولقد جاء فى سورة الشعراء « قال فرعون للملأ حوله إن هذا لساحر عليم » اعلم أن مجلس الأعيان والنواب عن البلاد والملك على رأسهم متى تشاوروا فى أمر وأقروه بعد المراجعة والمحاورة أصبح مقولا لهم جميعا ، وإذا كان هذا قولهم هنا وقول فرعون فى سورة القصص فمعناه أن الأمر كان شورى وكان الرأى متى تم عملوا به بدليل أن الملأ قالوه هنا وفرعون سيقوله فى الشعراء فإن الحكومة لا تعمل بالمشورة إلا بعد تمامها فكان ذلك إشارة إلى الحكومة المنظمة إذ ذاك يقول الملأ ثم تقول الحكومة وقول الملأ جعل فى القرآن فى السورة التى تقدمت على السورة التى ذكر فيها قول فرعون وهذا من عجائب العلم والحكمة . تقول الأمة فتخضع الحكومة . ومعنى كونه ساحرا عليما أنه يأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم أن العصا صارت حية ويرى الشىء بخلاف ماهو عليه كما أراهم يده بيضاء وهو آدم اللون وقد كان السحر غالبا فى مصر (يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ؟) تشيرون فى أن نعمل (قالوا أرجه) أى أرجئه أى أخره أى أخر أمره ، وقرىء « أرجئه » على الأصل (وأخاه) هارون (وأرسل فى المدائن حاشرين) جامعين (يأتوك بكل ساحر عليم) ماهر بصناعة السحر (وجاء السحرة

فرعون) بعد ما أرسل لهم الشرط فى طلبهم (قالوا إنّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) وهذا جواب سؤال كأنه قيل ماذا قالوا إذ جاءوا؟ (قال نعم) إن لكم لأجرا (وإنكم لمن المقرّبين) عطف على الجملة التى سدّ مسدها نعم (قالوا ياموسى إما أن تلق وإما أن نكون نحن الملقين؟) خيروا موسى مراعاة للأدب أو إظهارا للجلادة وإن كانوا هم أنفسهم يرغبون أن يلقوا قبله (قال ألقوا) من باب الكرم والتسامح وحسن الخلق والأدب اللائق بالأنبياء (فلما ألقوا سحروا أعين الناس) بأن خيلوا إلى الأعين مايخالف الحقيقة (واسترهبوهم) وأرهبوهم إرهابا شديدا كأنهم طلبوا رهبتهم (وجاءوا بسحر عظيم) فى فنه . يقال إنهم طلوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصىّ زئبقا أيضا وألقوها على الأرض فلما أثر حرّ الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى خيل للناس أنها حيات والأرض إذ ذاك قد امتلأت بالحيات وأوجس فى نفسه خيفة موسى لأجل فزع الناس خيفة أن يتفرّقوا قبل ظهور معجزته (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك) فألقاها فصارت حية (فإذا هى تلقف مايأفكون) أى تبتلع مايزوّرونه من الإفك ، والإفك هو صرف الشىء عن وجهه يقال إنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين لتبتلعهم أيضا فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم منهم ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت فقال السحرة لو كان هـذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) فثبت لظهور أمره (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر والمعارضة والافك (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) أى صاروا أذلاء مبهوتين ، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين ، والضمير لفرعون وقومه (وألقى السحرة ساجدين) لله : أى إن الله حملهم على السجود حتى ينكسر فرعون وينهزم بمن أتى بهم عدّة ليكسر بهم موسى وانقلب الأمر عليه فان الحقيقة تظهر وتخدمها ماهو فى جانبها وماهو فى صف عدوّها على السواء ، فالحقيقة غالبة ولو بعد حين ومادام الانسان على الحق فانه غالب لامحالة (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون . قال فرعون آمنتم به) بالله أو بموسى (قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه) أى إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى (فى المدينة) فى مصر قبل أن تخرجوا للميعاد للضروب (لتخرجوا منها أهلها) أعنى القبط وتخلص لكم ولبنى اسرائيل (فسوف تعلمون) عاقبة مافعلتم ، وهذا تهديد مجمل ، ثم فصله فقال (لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف) من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم أجمعين) تفضيحا لكم وتنكيلا وخزيا لكم وعبرة لغيركم (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) بالموت فلا نبالى بوعيدك . وقيل فى المعنى :

وإذا لم يكن من الموت بدّ ... فمن العجز أن تكون جبانا

ثم قال الله تعالى (وما تنقم منا) وما تنكر منا (إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) أى ما تنكر منا إلا إيماننا ولاجرم أن حرية الفكر هى مبدأ السعادات فاذا لم نكن أحرارا فى آرائنا فالقبر خير لنا ولم يبق لنا إلا الرجوع إلى الله (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى هب لنا صبرا واسعا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء إفراغا (وتوفنا مسلمين) ثابتين على الاسلام . قيل إنه لم يفعل بهم ذلك فلم يقدر على إنفاذ وعيده فيهم لما جاء فى آية أخرى « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » وهنا قد فرغت المحاجة وخذل القوم من جهة السحر ، وعادة القوىّ أن يستعمل الحجة فاذا بطلت استعمل القوّة وهذه عادة الأقوياء مع الضعفاء وأوروبا مع أهل الشرق ولذلك أعقبه بقوله (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض) أى أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها (ويذرك وآلهتك) معطوف على يفسدوا . ومعلوم أن مصر فيها معابد كثيرة وفيها أبو الهول وغيره وكانوا كالصابئين يعبدون الكواكب ويجعلون لها على الأرض أصناما تبنى لتأخذ بألباب العابدين ولهم جداول وفقيه للكواكب السبعة وفيها حساب دقيق قد ذكرت ملخصة فى أوّل سورة البقرة وأن الله هو الواحد فله عدد (١) وأما المادّة التى بها هذه الكائنات فلها عدد (٢)

وزحل (٣) والمشترى (٤) والمريخ (٥) والشمس (٦) والزهرة (٧) وعطارد (٨) والقمر (٩) وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها فى صحائف من ذهب فى أوقات خاصة لمنافع يزعمون أنهم ينالونها وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد فى نفسه . فمثلا المشترى له عدد (٤) وشكله (١٦) وتجد الأعداد فى الطول والعرض إذا جمعتها تكون متساوية وهى تبتدئ بواحد وتنتهى بعدد (١٦) وكل صف أفقى أو رأسى أو قطر من القطرين مجموعه (٣٤) فاذا كان الصف الأعلى (٤) و (١٤) و (١٥) و (١) والذى تحته (٩) و (٧) و (٦) و (١٢) فانك تجد كل واحد (٣٤) وهكذا . ولعلماء الارتماطيق فى هذه الأشكال قواعد يمكن وضعها بها فى غاية السهولة . ويظهر أن هذه الأشكال كانت تخلب عقولهم إذا علموا أن حسابها منظم مدهش فتحدث فى النفس الانسانية استهواء فتصير فى حال أشبه بحال التنويم المغناطيسى ، فبمثل هذا كانوا يعبدون الصور المصنوعة والصور المصنوعة قائمة مقام الكواكب والكواكب من صنع الله الذى هو الواحد وهى من تكرار الواحد فلولا الواحد ما كان الاثنان وهو المادّة ولولاهما ما كان الثلاثة وهو زحل وهكذا فكل واحد هو وما قبله سبب فيما بعده كما أن كل عدد هو وما قبله علة لما بعده . هذه هى الآراء التى كانت فاشية عند أكثر الأمم القديمة . ومعلوم أن فراعنة مصر كانوا ينسبون للعلوم العلوية انتسابا خرافيا كملوك الصين وملوك اليابان ولولا بطلان الآراء القديمة ما تقدّم نوع الانسان لأنه إذا كانت الكواكب السبعة هى التى وقف عليها علوم البشر وحاموا حولها وجعلوا النظام الالهى الشمسى قاصرا عليها حتى تصل إلى القمر الذى من تحته عالمنا الأرضى لما كان يتسنى للناس أن ينظروا السيارات الجديدة مثل (اورانوس ونبتون) كما أوضحناه فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام فى سورة الأنعام فلما قال الملأ من قوم فرعون ذلك (قال) فرعون (سنقتل أبناءهم) صغارا كما كنا نقتلهم قبل ولادة موسى (ونستحيى نساءهم) نتركهنّ أحياء لنستخدمهنّ وذلك لتقلل عدد بنى إسرائيل الذين يعتزّ بهم موسى (وإنا فوقهم قاهرون) وهم مقهورون تحت أيدينا (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه وذلك ليسكن قلوبهم (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) هـذا وعد لهم بالنصر وأنهم سينجون من قبضة المصريين والأرض للجنس لا للعهد وإلا فبنو إسرائيل لم يملكوا القطر المصرى (قالوا) أى بنو إسرائيل (أوذينا من قبل أن تأتينا) بالرسالة بقتل الأبناء (ومن بعد ما جئتنا) باعادته (قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض) أى جنس الأرض وهى هنا فلسطين وهذا وعد صريح بعد التلويح زيادة فى التثبيت لزيادة الشكوى وتكرارها (فينظر كيف تعملون) فيرى ماتعملون من شكر وكفر وطاعة وعصيان فيجازيكم على مقتضى أعمالكم ، وحقيقة قد فعل بهم ذلك لأنهم لما خرجوا إلى فلسطين كانت لهم حكومة جمهورية ثم حكومة ملكية ثم طغوا فى الأرض فأذلهم الله على يد بختنصر ففرقهم فى جهات أصبهان ثم رجعوا وعصوا أيام عيسى عليه السلام فأجلاهم الروم الجلوة الكبرى قبل انتهاء القرن الأول للمسيح ولم يرجعوا إلى الآن . نعم فى هذه الأيام أرجعهم الإنجليز فى الحرب الكبرى ولكن لا ندرى ماذا يصنع الله بهم بعد الآن . هذا معنى قوله تعالى « فينظر كيف تعملون » فليس مجرد النصر كافيا كما أنه ليس مجرد الانتساب إلى الاسلام كافيا فالمدار على الأعمال .

الآيات التى أنزلت على موسى عليه السلام

اعلم أن قصة موسى فى التوراة ذكرت فى سفر الخروج فذكر فى أوائله أن بنى إسرائيل بعد موت يوسف تغيرت حالهم عند الملوك الذين جاءوا من بعد فقالوا إن بنى اسرائيل قوم أجانب عنا وإذا حدثت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويفسدون فى الأرض فسخروهم وأذلوهم وجعلوا عليهم رؤساء من المصريين ليسخروهم فبنوا لهم مدينتين وهما (مخازن فيثوم ورعمسيس) وكانت أهم أعمالهم فى الطين والتراب وعمل الزراعة ،

فهم يصنعون اللبن للبناء ويزرعون الحقول وكان ما كان من قتل الأطفال ونجاة موسى من القتل وهو طفل وكيف كبر موسى ونصر الإسرائيلى على القبطى وقتل المصرى ثم فرّ وتوجه إلى شعيب وتزوّج ابنته بمدين وكل هذا سيأتى تفصيله فى سورة القصص والتوراة قد أطالت القول فيه ثم رجع بامرأته فأوحى الله إليه لما رأى النار فى شجرة العليق وأمره بأن يخاطب فرعون فامتثل أمر الله . ولما رجع إلى مصر أظهر آية العصا وآية اليد لبنى إسرائيل فآمنوا . ثم توجه إلى فرعون ومعه أخوه هرون بأمر الله فقالا لفرعون ، وهذا نص التوراة :

« هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعبدونى فى البرية . فقال من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه . ثم زاد الكرب والضغط على بنى إسرائيل بحيث كانوا يؤمرون بجمع التبن لأجل ضرب اللبن فضلا عن عدد اللبن المطلوب منهم المفروض على كل منهم »

يقول فى التوراة إن موسى حينما دخل على فرعون كان ابن ثمانين سنة وهرون كان ابن ثلاث وثمانين سنة. وأمره الله أن يلقى العصا أمام فرعون فصارت ثعبانا . ويقول إن السحرة المصريين رموا عصيهم فصارت ثعابين فابتلعت عصا موسى عصيهم والذى رماها هو هرون بأمر موسى . ثم لما لم يمتثل فرعون ولم يرسل بنى إسرائيل أمر الله موسى أن يقول لفرعون (ها أنا ذا أضرب العصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر فتحوّل دما ويموت السمك الذى فى النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء من النهر الخ)

ولم يمتثل فرعون بعد ذلك ولم يطلق بنى إسرائيل فضرب هرون العصا بأمر موسى على الأنهار والسواقى الخ فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر . وفى كل مرة يستغيث فرعون ويقول « أرسلهم معك » ثم بعد زوال المصيبة بدعاء موسى وهرون يغدر عليهما ، ثم كان ضرب العصا أيضا فعمّ البعوض بلاد مصر ثم الذباب ثم موت المواشى ثم الدمامل ثم نزول البرد من السماء على هيئة مطر فتموت البهائم التى فى الحقول والنار كانت تلتهب فى وسط البرد ، ثم كان الجراد ، ثم كان ظلام دامس .

فإذن الآيات المذكورة فى التوراة اليد والعصا والدم والضفادع والبعوض والذباب وموت المواشى والدمامل والبرد والجراد والظلام الدامس ، وقد جاء فى هذه الآيات العصا واليد وقد تقدّمتا ، وقد ذكر غيرها من البقية فقال (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) بالجدب لقلة الماء والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به ثم اشتق منها فقيل أسنت القوم إذا قحطوا (ونقص من الثمرات) بكثرة العاهات والآفات (لعلهم يذكرون) لكى يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم فترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده (فإذا جاءتهم الحسنة) كالخصب والسعة (قالوا لنا هذه) لأجلنا ونحن مستحقوها (وإن تصبهم سيئة) جدب وبلاء (يطيروا بموسى ومن معه) يتشاءموا بهم ويقولوا ماحلّ بنا هذا البلاء إلا بشؤمهم وهذا من قساوة القلب فإن المصائب إنما تحلّ بالناس لترقق القلوب ، فأما هؤلاء فإن قلوبهم اشتدّت صلابتها فهم كالطين يتماسك ويتصلب بإيقاد النار عليه بخلاف الماء وأنواع السوائل فإن النار تلطفها فالناس إذن قسمان : قسم تهذبه المصائب فهو كالمواد المستعدّة للذوبان ، وقسم تقسو قلبه فهو كأنواع الأحجار والطين وما أشبه ذلك ومنهم من يحتاج إلى نار شديدة تهذبه كالحديد والنحاس ، ثم قال تعالى (ألا إنما طائرهم) سبب خيرهم وشرّهم (عند الله) فى حكمه ومشيئته والله هو الذى يقدّر مايصيبهم من الحسنة والسيئة « قل كلّ من عند الله » (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) ذلك (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) يعنى أيما شئ تأتنا به ، وبين مهما المفسرة بما ذكر بقوله من آية

السحر بها أعيننا وتلبسه علينا « فما نحن لك بمؤمنين » والضمير في به وفي بها لمهما ولكنه مذكر أولا باعتبار لفظ مهما ومؤنث ثانيا لما بينت بلفظ آية ، ومهما في محل نصب بفعل يفسره تأتنا أو في محل رفع بالابتداء (فأرسلنا عليهم الطوفان) ماطاف بهم وغشى أماكنهم من مطر وسيل ، وقيل الموتان أو الطاعون وهذا القول الأخير قريب مما جاء في التوراة (والجراد والقمل) قيل هي البراغيث (والضفادع والدم) وقد تقدّم أكثر ذلك نقلا عن التوراة (فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه) إلى حدّ من الزمان هم بالغوه لامحالة كما قدّرناه عندنا في علمنا القديم (إذا هم ينكثون) أي فلما كشفنا عنهم العذاب فاجئوا بنكث العهد ونقض الميثاق ولقد تقدّم ذلك في عبارة التوراة فقد كانوا كلما عاهدوا موسى أن يدعو الله برفع العذاب وبعد ذلك يأذنون له بأخذ بني إسرائيل فيدعو الله ويستجاب الدعاء ينكثون ثم يأمره الله بآية أخرى وهكذا في كل مرة يعاهدونه ثم ينقضون الميثاق بعد ذهاب العذاب عنهم (فانتقمنا منهم) والانتقام ضد الإنعام كما أن العقاب ضد الثواب (فأغرقناهم في اليمّ) هو البحر وهو معظم الماء (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) وهم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) أي مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها ، وهي بيت المقدس وما يليه من الشرق والغرب وهـذا هو الذي تمّ فعلا في التاريخ ، وأما ذكر مصر في هذا الموضوع فهي خرافة دخلت في كتب التفسير وهي كاذبة بأمرين : التاريخ وهو معلوم والقرآن ، فإن الأرض التي بارك الله فيها في القرآن لاتطلق إلا على الأرض المقدّسة . ألا ترى إلى قوله تعالى « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » فافهم (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل) وهي قوله تعالى « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» فها هي ذه تمت كلمة الله الحسنى لهم بأن ملكهم أرض بيت المقدس (بما صبروا) بسبب صبرهم على الشدائد (ودمرنا) وخرّبنا (ماكان يصنع فرعون وقومه) من المباني العظيمة وبعض الأهرامات والعمارات (وماكانوا يعرشون) أي ماكانوا يسقفون من ذلك البنيان ، أو ماكانوا يبنون من البيوت والقصور . وهذا تمام قصة فرعون وقومه ، وهنا لطائف :

اللطيفة الأولى

قد علمت أيها الذكي أن هذا القصص جاء تذكرة لنا وآيات موسى من الجراد والقمل والعصا واليد مضت في الأيام الغابرة والعصور الدائرة وبنو إسرائيل الأوّلون قد ماتوا، ونحن الآن في عصر لانهتم فيه إلا بما ينفعنا لأن الله يقول « وذكرى للمؤمنين » فأما الذكرى لنا فاعلم أن النذر والآلام والبلايا إذا صبها الله على قوم فإنه لايريد إلا إيقاظهم ورقيهم ، وهؤلاء القوم إما أن يكونوا كالطين كما قدّمنا فيزدادوا صلابة فيستحقوا النار كاللبن المصنوع من الماء والطين والتبن إذا ضربته الشمس صلب فيوضع في التنور فيزداد صلابة ، وإما أن يكون كالثلج أو كالزبد فإذا سلطت النار عليها لانت شكيمتهم وسلبت طبيعتهم وانقادوا خاشعين خاضعين كالماء ينزل إلى الأنهار فيجري وكالسمن من الزبد .

ولقد فعل الله ذلك مع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فأنزل عليهم ظلم الأمم التي حولهم مرة بعد أخرى على وفاق ما فعل الله في مصر على يد موسى وهرون عليهما السلام ، وأقرب أمة الأندلس هؤلاء أبناء العرب إخواننا أصابتهم مصائب متكررة من الفرنجة في قرون عدّة ، فلم يزدادوا إلا حبا الشهوات وقربا من الظلم وبعدا عن العدل واختلاف كلمة وبعد مودّة وعذابا واصبا ماله من دافع فمزقوهم شرّ ممزق وأسكنوهم اللحود خالدين وورثوا أرضهم وديارهم وهم مطرودون ، انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

إن بنى إسرائيل لما صبروا نجاهم الله وأسكنهم فى بيت المقدس ، وهكذا تتم كلمة الله الحسنى على كل أمة صبرت وجاهدت ، ألا ترى أن دولة بولونيا قد مزقت بين ثلاث دول من أوروبا أى بين الروسيا وألمانيا والنمسا ، فبقى أبناؤها حافظين ذكرى بلادهم وهم صابرون حتى إذا جاءت الحرب الكبرى استقلت بلادهم وحفظوا كيانهم ، فإذا تمت كلمة الله الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا فهى تتم على كل أمة صبرت ويقال لها « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » فإذا لم تكن بيت المقدس التى لبنى إسرائيل فهى الأرض التى أنبتهم الله منها . وهكذا اليونان والبلغار والصرب والجبل الأسود وأمم كثيرة جاهدت وصبرت فأخذت استقلالها وأصبحت أمة لاسلطان لأحد عليها ، وانظر إلى دولة الترك ودولة الأفغان ودولة الفرس المسلمين كيف نبذوا الأجانب فى هذه الأيام وأخرجوهم من الديار بما صبروا وهم فائزون .

وانظر إلى الأمم التى حكمتها دولة القياصرة أزمانا وأزمانا وجعلوهم فى حكم دولة واحدة وهى (روسيا) كيف استقلت بما صبرت ، هذا هو الوعد الذى وعده الله للأمم وهذا الوعد صادق على جميع الأمم فلم يذكر ذلك فى القرآن لأجل سواد عيون بنى إسرائيل وإنما هو لأهل المشارق والمغارب ، فالصابرون هم الذين ينالون الاستقلال لهذا أنزل القرآن ، انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه الخ »

اعلم أن مدائن بلادنا المصرية كانت كثيرة وقد شاهدت بعينى رأسى المدينة التى هى قريبة من قريتنا وهى قرب الزقازيق وتسمى (تل بسطة) واسمها قديما (بوبسطيس) باسم معبودهم وهو (بست) وهى القطة وقد وجدت محنطة هناك ، فكنت أرى فى حداثة سنى بنيانها مرتفعا ارتفاعا شاهقا جدًّا يعلو على كل بناء مشيد قديم العهد أو حديثه وكأنها مدينة بنيت فوق مدينة ، وهذه الأبنية عبارة عن آكام وقد يكشف الناس عما تحتها فيظهر بعض الجدران باللبن الذى عاش نحو أربعة آلاف سنة وكم وجدوا فيها من كنوز ، وهذه المدينة بما حولها ربما بلغت أربعة آلاف فدان ، أما الآن فقد انقشعت تلك الآكام ولم يبق إلا أطلال دارسة قليلة جدًّا تحافظ عليها الحكومة ، وكم فى البلاد من مدن مثل هذه أو خلقها الله فوجدناها مخرّبة لايدرى إلا الله كيف كان خرابها ، وقد سألت أستاذى فى علم التاريخ (إسماعيل بك رأفت) فقال خربت بزلزلة كبرى بدليل ما شوهد فى معبد من معابد تلك المدينة أن الأعمدة مائلة ، والله أعلم بغيبه .

وهذا هو قوله تعالى « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » ثم بدّلت الحال بعد قرون وبدّل الدين المصرى القديم بالدين المسيحى والإسلامى ، هذا معنى قوله تعالى « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه الخ » أيضا . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

اعلم أن تدمير ماصنعه فرعون وقومه لم يكن إلا فى قرون متطاولة وذلك لأسباب عمرانية وأخلاقية ودينية ، وأهمّ ما أزال ملك المصريين القدماء خرافاتهم الدينية كما يشير لها القرآن ، إذ كانوا فى القرون الأولى قوما عارفين بجلال الله وجماله ، ومن غرامهم به بنوا فى الأرض معابد عجيبة باقية للآن ، وصنعوا هياكل قد شاهدنا آثارها فى جهات منف وأهرام الجيزة وغيرها(١) . ثم لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم

(١) قوله منف وأهرام الجيزة وغيرها ، قال البيضاوى فى تفسيره : منف على ضفة النيل الغربية ، أعنى محل مدينة الجيزة الآن اهـ مصححه .

بحكم السنن الإلهية فى الأرض واستدراج الأمم بما جبلوا عليه من التفنن والإغراق فى الدين حتى يصبح الدين الجديد كأنه ليس من الأصل فى شىء ، مثلا كانوا يقدّسون الطيور لأن العلماء أمروهم بحفظها لتأكل الديدان فعبدوا بعضها بعد التقديس ، فتقديسها بأمر الدين وعبادتها إفراط ؛ كذلك البقر مقدّس لمنفعته فعبدوه ، ولقد شاهدت مدافن العجول التى كانوا يعبدونها فى جهات (سقارة) فوجدت هناك نحو ٢٤ مدفنا قد سرقت منها تلك العجول ، وتلك المدافن لا تزال باقية وهى أحواض زرق حجرية كبيرة يزورها الناس للتفرّج عليها ولم تكتشف إلا قريبا .

وهكذا توسع القوم فى الأمور الجسمية وعبادتها حتى عبد قوم جهة أسوان (التمساح) وآخرون (السمك) ، ولا تزال ترى فى المدافن سمكا صبروه وغنما من الذهب تستخرج للآن ويتنافس فيها المتنافسون من الفرنجة .

هذه أمة بعد أن كان نظرها إلى الكواكب والشمس وأنها من نور الله وكانوا صابئين أصبحت أنظارها متجهة إلى العوالم الأرضية ففسدت النفوس وخربت العقول ، فانظروا ماذا جرى لما حضر الفرس بجيوشهم وعلى رأسهم الملك الفارسى قاتلوا جنود المصريين ، وقد عرف الفارسيون ضعف عقول المصريين وعقائدهم فأحضروا القطط المعبودة عندهم المقدّسة فى دينهم فأوقفوها بين الصفين فتحرّج المصريون من ضربهم خيفة على القطط التى هى آلهة فى الأرض ، فأوغل الفارسيون فيهم قتلا وأسرا ، ومن ذلك الحين سقط مجد مصر وهوت إلى أسفل سافلين ، فانظر كيف كان الدين سبب الهلاك ، بهذا خربت مصر ، ولهذا قال الله « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » انتهت اللطيفة الرابعة .

اللطيفة الخامسة

كما أن المصريين تدلوا فى الدين وتزلوا فى العقل ، هكذا كثير من الأمم الإسلامية تفرّقوا شيعا بمثل الطريقة التى تفرّق بها المصريون سواء بسواء وانحطت دولهم بسبب التفرّق الدينى ، ألم تر كيف ذلت النفوس وصغرت العقول وأصبح كل فريق من أرباب الطرق يختص بأهل طريقته ولا يعتقد الفضل إلا فيهم ثم يقوم آخرون وآخرون وهم يتغالون فى شيوخهم ولا يزالون يقدّسونهم حتى يخيل لمن يراهم أنهم على دين غير دين الإسلام ، وهذا هو التغالى فى الدين .

ولقد علمت أن شيخا عالما أزهريا قد اتبعه عشرات الألوف فى مصر وفى مدنها وفى قراها ، وذلك فى زماننا الحاضر ، وقد تمسك بأمور مثل أن (العذبة) التى تنزل من العمامة فرق بين المسلم والكافر ، وتمسك بأن بعض البدع تورث الكفر حتى اعتقد أتباعه أن المسلمين جميعا كفار وهم المؤمنون .

وهكذا قام آخر منا معاشر المصريين واستباح لنفسه أن يذكر أتباعه اسمه مائة ألف مرة فى اليوم فكما يقولون (الله) يقولون (فلان) وهكذا أمة الاسلام أصبحت اليوم فرقا ذاق بعضها بأس بعض . وكما رأيت أن (قنبيز) الملك الفارسى غلب المصريين بأس دينى . هكذا ترى أهل أوروبا ضحكوا على عقول المسلمين واقتطعوا منهم طوائف لتغلوّهم فى أمور دينهم أو تفريطهم .

إن المسلمين ظنوا أن الدين هو ما فى كتب الفقه وحده ولو أنهم عرفوا أن القرآن أوسع ألف مرة من الفقه ودرسوا ما فيه وانتبهوا لأمثال ما نذكر الآن لكانوا أقرب إلى التعاون . ولكن القرآن من أيام الأئمة الأربعة رضى الله عنهم تركه الناس استغناء عنه بالفقه وأفهمهم العلماء أن خلاصة القرآن الفقه وما عدا ذلك فإنما هو بركة يتبرك به الناس لاغير ، فبهذا أصبح المسلمون شيعا وظنوا أن فروع الفقه هى الدين ، والحقّ أنها سياج الدين وحارس الدين لا نفس الدين . أما نفس الدين فهو عجائب هذا القرآن كالتى نذكرها الآن

لتقريب فهم مقاصده، ومراميه إلى الأذهان لتهذيب العقول ورفع منزلة النفوس وتمحيص الأخلاق وتوسيع المدارك .

وسيقوم بها قوم أعلى مقاما وأرفع نفوسا فى العلم وأطول فى الفهم باعا « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » واعلم أنه لاسبيل لرقى المسلمين إلا بأمر واحد وهو تعميم التعليم ونشر العلوم الطبيعية والرياضية والتأمل فى عجائب السموات والأرض مع التحلى بالدين فإنهم بذلك تتفق مشاربهم وتقوم قائمتهم . فالعلوم وتعليمها هى الدواء، وما عدا ذلك فهو هراء وهواء . انتهت اللطيفة الخامسة .

اللطيفة السادسة

إن هذه القصة تخص بلادى وأهلها المصريين فنحن وقومنا سكان وادى النيل وقد ورثنا أرضهم ورأينا آثارهم وبلادنا كانت مراتع الأجانب منذ أيام (قنبيز) للآن ولم نقدر أن نتخلص منهم إلى الآن منذ ألفى سنة فأكثر . ولكن فى هذه السنة حين تأليف هذا الكتاب قد نال قومى حكما ذاتيا ولنا مجلس نواب ومجلس شيوخ ، وعسى الله أن يتم أمرنا ونفوز بالاستقلال ويرجع الفلك إلى دورته الأولى «والله هو الولىّ الحميد » انتهى الكلام على قصص فرعون وقومه ولطائف ذلك الستة .

ثم أخذ سبحانه يبين عقول بنى إسرائيل وما هو مقدار تطوّرهم وفهمهم بعد أن نجوا من أرض مصر فإن شأن الإنسان إذا مسته البأساء أن يتضرّع حتى إذا نجا من الهلاك طغى . فأما فرعون وقومه فقد تقدم القول فيهم وهذا القول خاص ببنى إسرائيل ، وفيه ذكر :

(١) طلبهم عبادة الأصنام وردّ موسى عليهم وكيف سفه أحلامهم .

(٢) وذكر وعد الله لموسى بالمناجاة وإعطاء التوراة وكان ذلك بعد إتمام (٤٠) ليلة .

(٣) وذكر استخلاف موسى لهرون وذكر بعض وصايا التوراة .

(٤) وذكر اتخاذ قوم موسى عجلا من الحلى ، كما اتخذ المصريون العجل (ابيس) معبودا .

(٥) وذكر رجوع موسى لهرون وقومه واعتذار هرون له .

(٦) وذكر اختياره السبعين رجلا من قومه ليتوجهوا معه .

(٧) وذكر الاستطراد بمدح الأمة المحمدية التى بشر بها التوراة والإنجيل .

(٨) ونداء الناس جميعا أن نبينا صلى الله عليه وسلم رسولهم .

(٩) وقصتهم فى السبت والحكم عليهم بتفريقهم فى الأرض شذر مذر أجمعين . فهذه تسع مباحث وإليك بيانها .

البحث الأوّل

قال تعالى (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر) فصاموا يوم عاشوراء شكرا لله تعالى (فأتوا على قوم يعكفون) يقيمون ويواظبون (على أصنام لهم) تماثيل بقر . يقال إنهم كانوا نازلين بالرقة : أى ساحل البحر (قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) لأن الله لانراه وهذه نراها فنعبدها لتقرّبنا إلى الله زلفى (قال إنكم قوم تجهلون) وكيف تطلبون ذلك بعد ما عرفتم كفر المصريين لعبادتهم الأصنام والتماثيل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه) أى مكسر مهدم فالله يهدم دينهم الذى هم عليه ، فالديانات التابعة للصورة متقلبة كتقلب الصور لاثبات لها (وباطل) مضمحلّ (ما كانوا يعملون) من عبادتها وإن قصدوا التقرب بها إلى الله تعالى (قال أغير الله أبغيكم إلها) أطلب لكم معبودا (وهو فضلكم على العالمين) الجملة حالية ومن شأن الإنسان ألا يحمد الله إلا على الصفات الخاصة بنفسه والامتياز الذى له على غيره . وهذا شأن أكثر الناس لجهالتهم ،

وإلا فالله عند التحقيق يشكر على النعم العامّة والخاصة بل العامة أولى فهنا ذكر لهم أنه فضلهم على العالمين . ثم أردفه بنجاتهم إذ قال (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) أى واذكروا صنيعه معكم فى هذا الوقت حال كونهم يسومونكم الخ ، ثم أبدل منه قوله (يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم) أى وفى الإنجاء أو العذاب (بلاء من ربكم عظيم) نعمة أو محنة عظيمة . انتهى المبحث الأوّل .

المبحث الثانى

إنما ذكر الله هذه المباحث التى تتعلق بجهل بنى إسرائيل ليثبت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يصيبه من قومه فليس نصره فى غزوة أحد وبدر وأمثالهما مما تقدم ذكره فى سورة آل عمران بدافع ماسيفعله المنافقون من الكذب والافتراء على دين الإسلام كما فعل بنو إسرائيل وليبين للمسلمين كيف كانت الأمم جاهلة فيحترسون من جهلهم .

ولما أبان جهلهم ذكر بعد ذلك ماأنعم الله به على موسى إذ علمه التوراة وناجاه وهذا جزاء المحسنين فإنه نفع قومه وأخرجهم من الذل فأخذوا يرتدّون والله يجزى المحسنين فيزيدهم من فضله . فإذا جهل قوم موسى فإن الله قرّبه إليه واصطفاه وأنزل عليه التوراة ، فإن جزاء العبد عند ربه لاعند الناس .

هذا ما يفيده هذا المقام فليصبر الإنسان على ما يصيبه من الناس فذلك مقوّ لروحه كما قويت نفس موسى حينما آذاه قومه بعد إيذاء فرعون وقومه . ثم قال تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) ذا القعدة (وأتممناها بعشر) من ذى الحجة .

ذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل إذا أهلك عدوّهم فرعون أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب الذى وعد به فأمره أن يصوم ثلاثين يوما ويعمل ما يتقرّب به إلى الله ، ثم كلمه وأعطاه الألواح فى العشر التى زادها . فلهذا قال « وأتممناها بعشر » وهو تفصيل ما أجمل فى سورة البقرة فى قوله «وإذواعدنا موسى أربعين ليلة» ثم قال تعالى (فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة) بالغا أربعين ليلة . انتهى المبحث الثانى .

المبحث الثالث

(وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى) كن خليفتى فيهم (وأصلح) ما يجب أن يصلح من أمورهم ، أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) ولا تطع سبيل من دعاك إلى الفساد (ولما جاء موسى لميقاتنا) أى لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص : أى اختص مجيئه لميقاتنا بعدين (وكلمه ربه) من غير وسط كما يكلم الملائكة وكلام الله ليس ككلام الناس فليس يأتى من جهة خاصة فلا جهة له خاصة ، فلما سمع كلامه الذى ليس بحرف ولاصوت اشتاق إلى رؤيته وغلب الشوق عليه هنالك (قال رب أرنى أنظر إليك) ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر إليك وأراك (قال لن ترانى) بعين فانية بل بعين باقية (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه) بقى على حاله (فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل) ظهر له عظمته وتصدّى له اقتداره وأمره . ويقال أعطى الله له حياة وعلما ورؤية حتى رأى الله فلما رأى الجبل ربه (جعله دكا) مدكوكا مفتتا ، والدك والدق أخوان . وفى قراءة « دكاء » أى مستوية بالأرض إلا أكمة فيها ، وناقة دكاء لاسنام لها (وخرّ موسى صعقا) حال : أى سقط مغشيا عليه (فلما أفاق قال) تعظيما لما رأى (سبحانك تبت إليك) من الجرأة والإقدام على السؤال من غير إذن (وأنا أوّل المؤمنين) أى أنا أوّل من آمن بأنك لاترى فى الدنيا لأن النفوس البشرية مهما صفت فعلائقها بالدنيا تمنعها من رؤية ذاتك العلية ، وإذا كانت

الكهرباء والمغناطيس والجاذبية والقوى الخفية في المادّة لانقدر أن نراها في الدنيا لشدّة لطافتها وغلظ أجسامنا التي سكنت فيها أرواحنا ، بل إن مادّة الأثير وما فيها من الذرات لم يرها أحد في الدنيا ولم نعرفها إلا بالبرهان ، فليس من المعقول أن نراك في الدنيا بل إن أرواحنا إذا تجردت من المادّة لاقدرة لها أن تراك مادامت أقرب إلى أحوال المادّة وعلائقها إذ لامناسبة بينها وبين جمالك .

اللهم إلا إذا ارتقت أرواحنا وخلصت ولطفت وخلعت جميع العلائق للمادّية بعد دهور ودهور فحينئذ يمكن أن نشاهد ذاتك لقرب الأرواح من التجرد عن المادّة وتكون تلك الرؤية بعد معرفة جميع العوالم والوقوف على عجائب صنعك إذ يستحيل التوصل للطيف إلا بعد اختراق الحجب الكثيفة كلها ومعرفة أسرارها حتى نزداد قربا وبازدياد القرب نزداد الشوق إلى أن يصل إلى الكمال وقد عرف أسرار كل موجود وإذن يصل إلى المقام الأعلى عند سدرة المنتهى ويرى ربه جلّ وعلا بما لانعلم من الأحوال المغيبة عن الناس .

ثم قال تعالى (قال ياموسى إني اصطفيتك) اخترتك (على الناس) الموجودين في زمانك وهرون كان تحت أمر موسى (برسالاتي) هي أسفار التوراة (وبكلامي) وبتكليمي إياك (فخذ ما آتيتك) أعطيتك من الرسالة (وكن من الشاكرين) على النعمة ولا شكر على النعمة إلا بصرفها فيما خلقت له بأن تبلغ الرسالة مجدّا في ذلك (وكتبنا له في الألواح من كل شيء) مما يحتاجون إليه من أمر الدين (موعظة وتفصيلا لكل شيء) أي وتبيينا لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام ، وقوله «موعظة» بدل « من كل شيء » أي كتبنا كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام (فخذها بقوّة) أي فقلنا لموسى إذ كتبنا له في الألواح كل شيء خذها بجدّ واجتهاد أو خذها بقوّة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالنسبة إلى الانتصار والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل (سأريكم دار الفاسقين) كمنازل عاد وثمود ومن نحا نحوهم من الأمم البائدة كقوم [معين] الذى كشفوا حديثا وكوبار التي قال فيها الشاعر :

ومرّ دهر على وبار فهلكت جهرة وبار

وإنما أريكم دارهم لتعتبروا بهم وتتحاموا أعمالهم فلا تقعوا فيما وقعوا فيه من الهلاك والدمار والبوار .

لطيفة في كلام الله مع سيدنا موسى فوق الجبل

في هذا المقام جاء في التوراة في سفر الخروج أن بني إسرائيل ارتحلوا إلى برية سيناء ونزلوا مقابل الجبل ، وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل وأخذ يأمره بما ملخص بعضه ما يأتي :

[إني نجيتكم من المصريين وجئت بكم إليّ . وإذا حفظتم وصاياي وعملتم بها كنتم أمة مقدّسة]

فبلغ موسى هذه الكلمات إلى شيوخ الشعب فأجاب جميع الشعب ثم قال له الله [إني سآتي إليك في ظلام السحاب] ثم أوصاه أن يهيأ الشعب بالنظافة وغسل الثياب ولا يقربوا النساء إلى اليوم الثالث وفي ذلك اليوم صارت رعود وبروق وسحاب على الجبل وصوت بوق شديد جدّا فارتعد كل الشعب . وكان جبل (سيناء) كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل ارتجافا شديدا جدّا وموسى يتكلم والله يجيبه . ولم يؤذن لأحد بصعود الجبل إلا لموسى وهرون . وأما بقية الشعب فهم تحت الجبل .

ومن كلام الله له ما معناه وملخصه ما يأتي :

(١) لاتعبد إلها غيري ولا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء وما في الأرض الخ .

(٢) لاتنطق باسم الرب إلهك باطلا .

(٣) اذكر يوم السبت وقدّسه . اعمل ستة أيام واسترح السابع لاتصنع فيه عملا ما لا أنت ولا ابنك ولا ابنتك ولا عبدك ولا أمتك ولا بهيمتك وكل من هو داخل أبوابك .

(٤) أكرم أباك وأمك لتطول أيامك على الأرض .

(٥) لاتقتل . (٦) لاتزن . (٧) لاتسرق .

(٨) لاتشهد على قريبك شهادة زور . (٩) لاتشته بيت قريبك .

(١٠) لاتشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك .

وكان الشعب من بعيد يرتعد من الرعود والبروق وصوت البوق وما رأوا من دخان الجبل، فالشعب كان واقفا من بعيد . وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله .

وقد ذكر فى هذا المقام أن العبد إذا كان إسرائيليا لايخدم إلاست سنين وفى السنة السابعة يصير حرا . ومن الأحكام ما يأتى :

(١) من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا .

(٢) من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا .

(٣) من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا .

(٤) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولايؤكل لحمه . فأما صاحب الثور فإنه يقتل إذا كان ثوره نطاحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فإن لم يكن ذلك فهو برىء . وإذا وضعت عليه فدية فليدفع كل ما يوضع عليه .

(٥) وإذا نطح ثور إنسان ثور صاحبه فمات يبيعان الثور الحىّ ويقتسمان ثمنه والميت أيضا يقتسمانه الخ .

(٦) إذا سرق إنسان ثورا أو شاة فذبحه أو باعه يعوّض عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم .

(٧) إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم .

(٨) لاتضطهد الغريب ولاتضايقه لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر .

(٩) لاتسىء إلى أرملة ولا إلى يتيم . إن أسأت اليه فانى إن صرخ إلىّ أسمع صراخه .

(١٠) إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى لاتضعوا عليه رباء . اه المقصود

أقول ها أنا ذا قد أسمعتك بعض وصايا التوراة وأحكامها مما سمعه موسى عليه السلام وهو على الجبل لتطلع على الأخلاق التى لاتنافى أخلاق ديننا وسائر الديانات وعلى الأحكام الشرعية التى تختلف عن أحكامنا الشرعية المحمدية بعض الاختلاف باعتبار اختلاف الزمان والمكان والأمم ثم إن هذه الأحكام والوصايا وأمثالها فى التوراة وفى الإنجيل وفى القرآن لايعقلها ولا يقوم بها إلا القلوب المتواضعة النقية . أما أرباب الكبرياء والعظمة فانهم يأنفون أن يخضعوا للحق . فاذن الكبر حجاب بين المرء وبين الحقائق العلية . وعلى ذلك يعيش المتكبر ويموت وهو غافل عما بين يديه من العلوم والمعارف ويكتفى بما يعلمه ولا يزيد عليه لكبريائه الذى حال بينه وبين ما لديه من العجائب الحكيمة العلية والعملية والسماوية والأرضية ولذلك أعقبه بقوله تعالى (سأصرف عن آياتى) المنصوبة فى الآفاق وفى الأنفس (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) فلا يتفكرون فى السموات والأرض ولايسمعون كلام الأنبياء ومواعظهم كالقرآن والتوراة (وإن يروا كل آية) منزلة أو معجزة (لايؤمنوا بها) لعنادهم ولذلك لايتبع الأنبياء فى أول بعثهم إلا الضعفاء والفقراء (وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا) لاستيلاء الكبرياء عليهم كما تقدّم فى أول السورة من كبرياء إبليس الذى جعل أساسا لهذه المعاصى (وإن يروا سبيل الغىّ يتخذوه سبيلا . ذلك) الصرف (بأنهم كذبوا بآياتنا)

بسبب تكذيبهم للآيات (وكانوا عنها غافلين) أى وعدم تدبرهم للآيات فلا اتعاظ لهم بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى ولقائهم الدار الآخرة أو ما وعد الله فى الدار الآخرة (حبطت أعمالهم) لاينتفعون بها (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى إلا جزاء أعمالهم . انتهى المبحث الثالث .

المبحث الرابع والخامس

اعلم أنه جاء فى التوراة أنّ الرب قال لموسى اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله . وأما الشيوخ السبعون فقال لهم اجلسوا لنا ههنا حتى نرجع إليكم وهاهوذا هرون وحور معكم فمن كان صاحب دعوى فليتقدّم إليهما فصعد موسى الجبل فغطى السحاب الجبل وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب ـ إلى أن قال : وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة . وهنا أعطاه أوامر أهمها مايخصّ صنع التابوت المقدس الذى يجعل من خشب السنط وطوله وعرضه وهناك ذكر البخور وأنواع الزينة كالذهب والفضة وما أشبه ذلك . وكيف تصنع المائدة من السنط . وكيف تغشى بالذهب ويكون عليها إكليل من الذهب . وكيف تصنع المنارة من ذهب نقىّ . وكيف يصنع المذبح وقد أطال الكلام فى هذا المقام فى التوراة بتفصيل عجيب وبيان أوفى .

ثم قال : (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه . فقال هرون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتونى بها) ثم أفاد أن هرون عليه السلام هو الذى صنع العجل من ذلك الذهب وبنى هرون مذبحا أمامه وقال غدا عيد للرب .

يقول مؤلف الكتاب

تبارك الله إنه لولا أن القرآن نزل لأيقن الناس أن هرون وهو نبى قد صنع العجل . إنى لأعجب من الأمم السابقة كيف كانوا يبيحون لأنفسهم أن يغيروا الحقائق . وكيف يقال إن هرون كفر بالله وصنع عجلا . ان القرآن قد أتى بالحقائق الناصعة وسيأتى نص الآيات وأن الذى صنع العجل هو السامرى . فتعجب من تلك الأمم ومن تغييرهم الكتب المقدسة . فترى النصارى يرضون أن عيسى إله واليهود يقولون إنه كذاب . وترى اليهود يعتقدون أن هرون صنع العجل من الذهب ، والقرآن أتى بالحقائق ونزه الأنبياء عليهم السلام .

وفى ذلك الوقت أخبر الله موسى أن قومه زاغوا عن الحق وأفهمه كل ماحصل فرجع موسى إلى قومه فأبصر العجل والرقص فغضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل ثم أحرق العجل وطحنه وذرّاه على وجه الماء ولام هرون كما فى الآيات الآتية . وأمر جميع بنى لاوى فقتلوا من الشعب ثلاثة آلاف كما تقدّم فى البقرة ، ثم صعد إلى الجبل وطلب المغفرة من الله كما فى الآيات الآتية أيضا لأنه قال : « والآن إن غفرت خطيئتهم وإلا فامحنى من كتابك الذى كتبت » فاستجاب الله دعاءه ووعدهم أن يملكوا الأرض التى وعدهم بها ويرسل لهم ملكا ولا يكون هو فى وسطهم لأنهم شعب صلب الرقبة . وهنا ذكر كيف قال الله لا تقدر أن ترى وجهى لأن الانسان لايرانى ويعيش . ثم قال فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى ، ثم أمره أن ينحت لوحين بدل المكسورين ، ففعل ، وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات لأنى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع إسرائيل ، وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر .

وهنا فى سفر الخروج وصايا كثيرة جدا ، وكذلك فى السفر الذى بعده وهو المعنون (اللاويين) مما يستغرق عشرات الأوراق .

واعلم أن هذه أهم النصائح فى التوراة . وإذ ذكرت لك ملخص ما فى التوراة فى هذا المقام مع انحراف بعضه عن الحقائق العلمية وعصمة الأنبياء فاسمع الآية ، قال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده) من بعد ذهابه لميقات (من حليهم عجلا جسدا) من الذهب خاليا من الروح ونصبه على البدل (له خوار) صوت البقر . يقال إن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حيا . وقيل صاغه بنوع من الحيل فتدخل الريح جوفه وتصوّت كما نراه الآن فى السيارات (الاتوموبيلات) واعلم أن الناس فى العصور السابقة فى الاسلام قد توصلوا لما هو أبعد من ذلك إضلالا فيأتون بعجل مذبوح مطبوخ ويوضع على المائدة ويحضرون (ضفدعة) ويضعونها فى داخل فم الثور فيكون لها نقيق وهو يشبه صوت البقر وكم من حيل يعملها الناس ليغشوا الناس بذلك فلا مانع أن يفعل السامرى أمثال ذلك ، ثم قال تعالى : (ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا) فكيف يتخذونه إلها والإله يرشد عباده ثم كرره الذم فقال : (اتخذوه) إلها (وكانوا ظالمين) واضعين الأشياء فى غير مواضعها (ولما سقط فى أيديهم) أى ولما اشتد ندمهم . وأصله أن من اشتدّ ندمه يعضّ على يديه غما فتصير يده مسقوطا فيها لأن فاه وقع فيها وسقط وقوله فى « أيديهم » مسند إليه (ورأوا) وعلموا (أنهم قد ضلوا) باتخاذ العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا) بانزال التوراة (ويغفر لنا) بالتجاوز عن الخطيئة (لنكوننّ من الخاسرين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) شديد الغضب . وقيل حزينا (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) فعلتم بعدى حيث عبدتم العجل وما نكرة موصوفة تفسر المستكنّ فى بئس والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعد انطلاق إلى الجبل خلافتكم (أعجلتم أمر ربكم) أى أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدّرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائها (وألقى الألواح) طرحها من شدّة الغضب وفرط الضجر حمية للدين (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه (يجرّه إليه) توهما بأنه قصر فى كفهم ، وكان عليه السلام حمولا لينا ولذلك كان أحبّ إلى بنى إسرائيل (قال ابن أمّ) ذكر الأم ليرفق عليه وكانا من أب وأم (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) وقاربوا قتلى (فلا تشمت بى الأعداء) فلاتفعل بى مايشمتون بى لأجله (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة (قال رب اغفر لى) بما صنعت بأخى (ولأخى) إن فرط فى كفهم وإنما ضمه إلى نفسه فى الاستغفار ليرضيه وليدفع الشماتة عنه، قال (وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم منا بنا وأرحم من أمهات الطير وسائر الحيوان بأولادها فرحمتها كلها مشتقة من رحمتك ومستمدة منها . ثم قال تعالى (ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم) وقد حصل ذلك بالقتل المذكور فيما تقدّم (وذلة فى الحياة الدنيا) وهو خروجهم من ديارهم (وكذلك نجزى المفترين) على الله ولا فرية أعظم من فريتهم وهى قولهم « هذا إلهكم وإله موسى » (والذين عملوا السيآت) من الكفر والمعاصى (ثم تابوا من بعدها) من بعد السيآت (وآمنوا) واشتغلوا بالإيمان وماهو مقتضى من الأعمال الصالحة (ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور رحيم) وإن عظم الذنب ولو كان عبادة العجل أو كثر كذنوب بنى إسرائيل (ولما سكت عن موسى الغضب) باعتذار هرون وبتوبتهم، وفى الكلام مبالغة من حيث جعل الغضب كأنه كان مغريا له فسكت عن الإغراء (أخذ الألواح) التى ألقاها أو التى أحضرها بأمر الرب على ماتقدّم إن صحّ مافى التوراة الحاضرة . وأيضا فيها أنهما لوحان فيكون الجمع لما فوق الواحد وان لم يصح مافى النسخة الموجودة فالجمع هنا على حاله (وفى نسختها) وفيما نسخ فيها أى كتب (هدى) بيان للحق (ورحمة) إرشاد إلى الصلاح والخير (للذين هم لربهم يرهبون) أى للذين هم يرهبون معاصى الله لربهم .

لطيفة

جاء فى التوراة ما ملخصه فى هذا المقام أنه لما نزل موسى من جبل سينا، ولوحا الشهادة فى يده لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه فدعاهم موسى فرجع إليه هرون وجميع الرؤساء فى الجماعة فكلمهم موسى ، وبعد ذلك اقترب جميع بنى إسرائيل فوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه فى جبل سيناء . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج ثم يخرج ويكلم بنى إسرائيل بما يوصى به، فاذا رأى بنو إسرائيل وجه موسى وأن جلده يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه . وإنما نقلت لك هذا لتعلم نوع أقوال التوراة فى هذا المقام حتى لايفوتك أهم مافيه . انتهى المبحث الرابع والخامس .

المبحث السادس

قال تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) أى من قومه والمراد بالميقات الميقات الذى كلمه فيه ربه وقد تقدم هذا المعنى منقولا عن التوراة الحالية وبه قال بعض المفسرين . وقال آخرون إن هؤلاء السبعين حضروا للاعتذار من عبادة العجل (فلما أخذتهم الرجفة) إذ دنوا من الجبل ودخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه ثم انكشف الغمام فأقبلوا اليه ، وقالوا « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » فأخذتهم الرجفة ، يعنى الصاعقة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) عنى هلاكهم وهلاكه قبل أى يرى مايرى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) من العناد والتجاسر على طلب الرؤية أو بعبادتهم العجل، وهؤلاء السبعون قد اختيروا للاعتذار كما هو رأى المفسرين فغشيتهم هيبة قلقوا منها ووجفوا (إن هى إلا فتنتك) ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا فى الرؤية أو أوجدت فى العجل خوارا فزاغوا به (تضل بها من تشاء) ضلاله بالتجاوز عن حده (وتهدى من تشاء) هداه فيقوى به إيمانه (أنت ولينا) القائم بأمرنا (فاغفر لنا) بمغفرة ما قارفنا (وارحمنا وأنت خير الغافرين) تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة) حسن معيشة وتوفيق طاعة (وفى الآخرة) الجنة (إنا هدنا اليك) تبنا اليك ، وهاد اليه يهود إذا تاب ورجع والهود جمع هائد وهو التائب. هذا هو الدعاء الذى دعا موسى به الله فكأنه يقول : يارب كيف تعمم النقمة والعاصون أقل من المغضوب عليهم ، وكيف تؤاخذنا بالفتنة وإنما هى من عملك فأنت المضل وأنت الهادى ، وأيضا أنت متولى أمورنا ، ثم رتب على هذه الثلاثة طلب المغفرة ليخلصوا من الذنب ثم الرحمة ثم أن يجعل عيشهم سعيدا فى الدنيا والآخرة لأنا تبنا إليك ، فأجاب الله على هذا السؤال فقال سبحانه وتعالى ، إنى وإن كانت الفتنة من خلق والهدى من عندى فلى الحجة البالغة (عذابى أصيب به من أشاء) إصابته وهل أشاء إلا ما كان حكمة وعدلا فأسلط عذاب الفقر على من اتكل على عمل غيره وعذاب الهم واضطراب القلب والحزن على من جعل جمع المال كل همه وعذاب المرض على من ترك أعضاءه وجسمه فلم يشغلها بالحركات لتنشط وتقوى ، وأسلط عذاب الجوع على من ترك الغذاء حتى يأكل ، وأسلط عذاب الشبق ولذع الشهوات على قوى المزاج حتى يقترن بمن تلد له ولدا ، وسلطت الندم والألم على من لم يخلص فى عمله بأن قصد بعمله رضا الأزواج أو الولد أو السلطان أو الجيران أو نحو ذلك ولم يكن موجها قصده إلى الله تعالى فان العالم السفلى أكثر أهله جاهلون يكذبون الأنبياء ويؤذون العلماء ويسيئون للمحسنين ويعق الولد أبويه فاذا كانت الوجهة شخصية ندم العلماء والمحسنون على ماعملوا من خير لمن جحد به فلا سعادة لأحد إلا بالإخلاص فى عمله وتكون وجهته الاقتداء بمالك الملك امتثالا لأمره أنه يفعل رحمة وإحسانا لا رياء، ولا طلبا للمكافأة ، وأسلط حزن الجهل على من ترك العلم كسلا وخمولا ؛ وبالجملة أسلط العذاب على من لم تكمل جميع قواه الجسمية والعقلية فليكمل جسمه بأنواع الرياضيات ليقوى وعقله

بالعلوم ونفسه بالتهذيب وأهله بالإكرام وأمته بالنصيحة وأهل دينه بنشر العلم وهكذا فمن نقص شيئا من ذلك عذبته عذابا أرقى نفسه به ، إن العذاب هو الشريعة الصامتة ، شريعة عادلة هي سوط أنزلته فى الأرض أسوق به الناس إلى السعادة ولو أنى لم أنغأ العذاب الناس وهم مفرّطون لماتوا فى بعض يوم . فالآلام نعمة جليلة ترقى النفوس، إن هذه الشريعة التى حتمتها فى الطبيعة تعاقب على الصغيرة والكبيرة وعلى العمد والخطأ والغفلة لأنها لا تغفل طرفة عين ، وليس هذا ظلما لأنها ناطقة بلسان فصيح : لا تغفلوا أيها الناس وتعلموا العلوم وتفطنوا ، وعلى ذلك تكون الرحمة قسمين : قسم هو اللذات ، وقسم هو الألم كما يؤلم الأب ابنه والأستاذ تلميذه والطبيب مريضه بشرب المرّ وماأشبه ذلك ، وأنالم أفعل فى خلق أقلّ من الطبيب ولا المعلم ولا الأستاذ بل إن عملى أبدع إحكاما ، وأعظم شأنا ، فاذن الآلام من أجلّ النعم ، وهذا قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) لأنه بعد هذا البيان أصبح الألم نعمة فأين العذاب إذن ولا عذاب إلا حيث الألم ولا ألم إلا حيث المنفعة وتهذيب النفس أو نحو ذلك ، وإذا وسعت الرحمة كل شىء فلم يبق من اعتراض بعد ، وإذا قال موسى « إن هى إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء الخ » .

يقول الله هنا فتنته ليستيقظ ولا أزال أفتنه وأعذبه حتى يستيقظ ، فهذه الفتن كلذعات الجوع ، ومن ذا يقول إن ألم الجوع نقمة ؟ من ذا يقول إن ألم العضو المريض الذى ينادى بلسان فصيح (كل ماقص منى) ومن ذا يقول إن هـذا غضب وأين الرضا ؟ إن الألم من الجوع والعطش والمرض والشبق والحقد والحسد تنطق بلسان فصيح أن كل الغذاء واشرب الماء وداو العضو وتزوّج من تلد لك ونظف قلبك من الغلّ ، لأن نار الحقد ستحرقك وعذاب الحسد سيهلكك وما أشبه ذلك . إن الناس فى عذاب وهم لايشعرون وفى ألم وهمّ وهم لايبصرون ، فمتى عرفوا ألم النفوس كما عرفوا ألم الأجسام أقلعوا عن تلك الذنوب وتغذوا بالمعارف وتركوا الحقد والبخل والحسد وأمثالها فيصبحون سعداء ويصبحون فى نعيم مقيم ، لايمنع الناس من فهم ما ذكرناه إلا جهلهم وكبرياؤهم « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » .

ولما كان هذا المقام من الدقة بمكان بحيث لايعقله إلا الحكماء ، ولا يدركه إلا الكبراء ، ولا ينال حدّه إلا أولو الألباب شرع يذكر الأمم التى تدرسه وتعرفه حقّ معرفته وهو ما يأتى :

المبحث السابع

قال تعالى (فسأكتبها) فسأثبتها فى الآخرة (للذين يتقون) الكفر والمعاصى (ويؤتون الزكاة) وخصها بالذكر لأنها أشقّ (والذين هم بآياتنا يؤمنون) فلا يكفرون بشىء منها ، ثم أبدل من الذين يتقون قوله (الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمى) الذى لايكتب ولا يقرأ فكمل علمه مع عدم القراءة وهذه معجزة من معجزاته ، ثم وصفه فقال (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات) مما حرم عليهم كالشحوم (ويحرّم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم إصرارهم) وهو الثقل الذى يأصر صاحبه : أى يحبسه عن الحراك لثقله . والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس فى توبتهم وكبعض الأحكام الشاقة التى تقدّم ذكرها نقلا عن التوراة ، ثم قال (والأغلال التى كانت عليهم) هى الأحكام الشاقة السالفة الذكر (فالذين آمنوا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (وعزّروه) وعظموه ، أومنعوه من العدوّ حتى لايقوى عليه عدوّ ، وأصل العزر المنع : ومنه التعزير ، لأنه منع عن معاودة القبيح (ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى القرآن : ومع متعلق باتبعوا ، أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته (أولئك هم المفلحون) يعنى هم الناجون الفائزون بالهداية والنعيم .

لطيفة

لطيفــة

اعلم أن هذه الآية لامجال للشك فيها أن مانرمى إليه إنما هو فيما يبدو القارئ أن من اتبع نبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء وصفه فى التوراة والإنجيل فإنه ناج ، ومن كفر به من النصارى واليهود مع ثبوت وصفه فى كتابيهما المقدّسين ، فإنه داخل النار لأنه جحد حقيقة لمجرد الشهوات الدنيوية والعناد والحسد وحب الرياسة أو التقليد الأعمى ، والتأمل يجد فيها معنى أدقّ وهو أن محاورة موسى عليه السلام تدور على كل لسان وفى كل جنان ولا تزال جميع الديانات وعلوم الفلسفة تذكر هذا السؤال : لم يعذبنا الله وأين رحمته ؟ ولم أمرض وأجوع وأدخل جهنم ، ولم هذه كلها ؟ . فأجاب الله إن عذابه لحكمة ، وإنما قلنا لحكمة كما تقدّم ، لأنه قال « ورحمتى وسعت كل شىء » وعلى ذلك يكون المعذب داخلا فى الرحمة وقت تعذيبه ، لأن التعذيب ثمرته الإنذار والتذكير ، ومن ظنّ التذكير عذابا فما أجهله ، ومن ظنّ الوعظ جحيما فما أضله . إن أكثر الناس غافلون . والنوع الإنسانى مادام لايفرق بين النقمة والنعمة فهو طفل ، وما دام الناس لا يعلمون أن الآلام مذكرات عدوّها شقاء ، ومتى عدوّها شقاء لم يعتبروا بها ولم يتداركوا ما فرط منهم فيكونون أشبه بالأطفال يبكون والطبيب يداويهم ولا يعلمون أن هـذا لمصلحتهم ، فهم يكونون دائما فى عذاب .

ولما علم الله أن الأمة التى سترتقى فى المعارف والعلوم إنما هى الأمة الإسلامية ، فهؤلاء هم الذين سيعرفون حقائق الأشياء ويدركون سرّ الرحمة ولذلك كتبها لهم ، وكيف تكتب الرحمة لمن لايعقلها أو تساق الهدية لمن لايتقبلها ؟ فلا يزال الناس فى عذاب حتى يدركوا الحقائق ومتى أدركوها زال عنهم النصب والعذاب الواصب ولا سبيل للعلم فى الآخرة إلا بعد التفكر فى الدنيا .

ولما كانت أمة الإسلام لم يمض عليها من الزمن غير ألف وثلثمائة سنة وكانت أمة اليهود محصورة العدد لأنهم يكرهون اتساع دينهم لأنه دين قوم مخصوصين ، وأمة النصارى قد نبذت تعاليم كتابها وفتكت بأهل الأرض ، خطر بنفسى أنه سيأتى فى هذه الأمة أناس مفكرون حكماء لم يسمح بهم الدهر ، وهؤلاء يدركون حقائق العالم الذى نحن فيه فيعلمون الرحمة ونتائج الآلام وما أشبه ذلك ؟ فينالون الرحمة تامة فى الآخرة ككثير من سلفنا الكرام الذين أفيضت عليهم المعارف وأدركوا الحقائق ولله عاقبة الأمور .

لم خلق الإنسان وهو فى آلام وذنوب وظلمات وما فائدته من الوجود ؟

ومما يناسب هذا المقام مادار من الحديث بينى وبين بعض الفضلاء من مفتشى وزارة المعارف العمومية المصرية ، وهذه صورتها :

جلست وطائفة من العلماء والسادة الأدباء ممن لهم قدم فى العلم راسخة ، وشهرة فى الفضل ذائعة ، من رجالات وزارة المعارف وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، فقال أوسطهم مقاما ، وأفصحهم كلاما وأوسعهم جاها ، حدّثنى رعاك الله حديث هذه الدنيا والحياة فيها وما شأنها ، وكيف ضلّ أهلها وفجر أعاظمها ؟ ولم تر من هـذا الإنسان المتمدين بعد مرّ الدهور وكرّ العصور والارتقاء المشهور إلا أخلاق الذئاب وحرص الكلاب وتهافت الذباب ، ولو أنك سرت فى أمريكا وأوروبا واطلعت على أسرار الأسرات لرأيت أمرا « إدّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا » من خيانة إلى جناية إلى سعاية إلى سرقة إلى عداوة إلى عار وشنار وهمّ مستطار ، فلا الزوج بمخلص لزوجته ، ولا الزوجة بصادقة لزوجها ، ولا الأسرة بصالحة لشأنها ، بل كل لكل حاسد وعليه حاقد ، فلو فتش مافى القلوب « وحصل مافى الصدور » لم يجالس الأخ أخاه ، ولا الابن أباه ، ولا الزوج حماه ؛ فأين الإنسانية المنشودة وهذه آثارها النكودة ؟ فياعجبا ! لم خلق الإنسان ؟ ولم علم البيان ؟ ولم يقرأ التوراة والإنجيل

والقرآن ؟ فلما فرغ من فصيح بيانه وعجيب كلامه أصغى الجمع إلى ما سألقيه من الجواب ، فقلت بالقرآن أجيبك ؟ قال كلا ! فنحن به عالمون ، فقلت : إذن بالبرهان ، قال نعم : قلت البرهان قسمان : يقينى وإقناعى ، أما اليقينى فأنت تعلمه كدلائل الهندسة والحساب والجبر ، وهذه ترجع فى أواخر الأمر إلى القضايا الأوّلية المستخرجة من المشاهدات الحسية ، قال نعم ! قلت : ولكن عقول أهل الأرض وفلاسفتهم لاطاقة لها ولا تقدر أن تعلم هذه العلوم بالبراهين العقلية المستمدّة من المعلومات الحسية ، لأن الأمر أعظم وأوسع من هذه الأرض ومن فيها ، قال إذن تكون الأدلة إقناعية ؟ قلت نعم ! قال فمن أين نستمدّها ؟ قلت من مدارسكم العصرية ، أفليس فيكم المدرسون والمفتشون ؟ قالوا بلى ! قلت ألستم ترون المدارس متفاوتة الدرجات ؟ قالوا بلى ! قلت هكذا الإنسان يرتقى درجات فى آلاف السنين ومئات الآلاف بل فيما لايتناهى من الزمان « لتركبن طبقا عن طبق » وهو فى كل درجة يستمدّ مما قبلها ويستعدّ لما بعدها ، وكل فكرة يجدها أو سيئة يجترحها أو حسنة يفعلها تكون له أو عليه ولا تزايله كما ترى التلميذ فى المدارس يركب طبقا فيها عن طبق ، فما للناس لايفقهون ، قال أتستدلّ بالقرآن ونحن اليوم فى مقام الإقناع بالبرهان ؟ قلت كلا ! وإنما هو اقتباس واستئناس لابرهان وقياس ، فأجاب قائلا : أجبتنى على غير السؤال ، ولعمرى لشتان بين المدارس العصرية وسؤالنا على الحياة الإنسانية ؛ فأين الثريا وأين الثرى ؟ قلت إن الناس اليوم على هذه الأرض أشبه بالصبيان فى مدرسة (روضة الأطفال) فاستغرقوا ضاحكين ورفعوا أصواتهم ساخرين وقالوا أتتخذنا هزوا ؟ قلت : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وهم صاخبون مازحون متغامزون ، فقال قائل منهم : سلوه عن كنه جوابه ولا تسرعوا باللائمة على مقاله ، فقال الذى سألنى أوضح ماتقول ، فقلت : على شريطة ألا يقاطعنى فى الحديث أحد حتى أتمّ البرهان ، قالوا : قبلنا شريطتك فأتمم مقالتك ، فقلت : أحدّثكم حديث النبات وحديث الحيوان وحديث الكواكب ففيها البيان ، فقالوا نعم ! فقلت :

(١) النبات ينتابه الحرّ والبرد والمطر والصقيع والثلج ليكون له نتائج ظاهرة ومنافع باهرة من الكلأ للحيوان والحبّ للإنسان . (٢) والحيوان ينتابه ماينتاب النبات من الحوادث المذكورة ثم يزيد عليه الآلام النفسية والحوادث الجسمية ويعطى الحواس الخمس المعلومة وهى تختلف اختلافا كثيرا ؛ فبينما ترى الدود فى لب الثمار وجوف الحيوان لاينال إلا حاسة اللمس ، إذ الدود الذى يدب على العود يعطى حاستين : اللمس والذوق ، وبعض الحيوان فى قاع البحر يزيد عليهما حاسة الشم ثم الحلمة العمياء تزيد السمع لأنها تعيش فى جوّ حالك الإهاب ، ثم تكون الحيوانات المعلومة ذوات الحواس الخمس ثم الإنسان الذى يستنتج المعلومات الأوّلية ، ويقرأ العلوم المشهورة والمعارف المفيدة (٣) الكواكب ، أما الكواكب فأنت ترى أن أرضنا التى نحن عليها لاهى فى العير ولا فى النفير ، ولو أنا وازناها بأخواتها الصغيرات من السيارات حول الشمس لازدراها المشترى والمريخ ولنبذها ظهريا (أورانوس ونبتون) وفوق ذلك أنها بالنسبة للشمس كرة صغيرة ضئيلة ، والشمس وما حولها إذا نسبن إلى كواكب أخرى كانت كذرة فى الفضاء بالنسبة لقصر شامخ أو قطرة من ينبوع ماء كما كشفه العلم الحديث وسارت به الركبان وعرفه علماء هذا الزمان . ولو أن الشمس ناظرت الفرقدين أو فاخرت السماكين لقالا لها بفصيح البيان وساطع البرهان ماقاله جرير :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

* أطرق كرا إن النعامة فى القرى *

[رأيك فى الكرّ لا فى الضحّ] هذه هى المقدّمات التى أوردتها لإيضاح المقام فى قوله إن الإنسان على هذه الأرض كالتلاميذ فى مدرسة (روضة الأطفال) إذن ، قال من سألنى . فماذا يبنى على هذه المقدّمات ؟

فقلت

فقلت : ألستم تعلمون أن التلميذ فى مدرسة [روضة الأطفال] يدخلها وهو ابن خمس سنين ؟ قالوا بلى ! قلت : أليست أخلاقه شيطانيـة ؟ قالوا بلى ! قلت : وأعماله صبيانية وآراؤه هزلية والأبوان والأساتذة به فرحون ، فإن نطق بالحروف الهجائية مدحوه ، أو بالأعداد الحسابية كافئوه وهم يرونه طول النهار يقاتل الصبيان ويضارب الإخوان ، ولم تر أحدا يئس من أعماله المستقبلة ولا من أن هؤلاء الصبيان هم بعد ذلك الوزراء والعلماء والملوك والحكام والحكماء ، قالوا بلى ! قلت : فإذا رأيتم هذا الإنسان طغى وبغى وتعدّى حدّه ولم يقدّر حقوق الفضل والنّعَم وخان إخوانه ظلما ومشأمة وعدت الدول القوية على الضعفاء وأمسى كلّ لكل عدوّا مبينا وعم الحسد والكبرياء والخبث وسوء الطوية والحرص والنكد والهمّ والغم « ثم رددناه أسفل سافلين » فلتعلموا أنه اليوم فى مدرسة [روضة الأطفال] .

الحيوان والإنسان

فإذا اختلف الحيوان فى مقدرته الحسية وتعالت أنواع النمور والقرود وارتقت عن جماهير الدود التى تدبّ على العود فى عدد الحواس واشتدّ اختلاف الناس فى معقولاتهم ودرجات فهمهم فكانوا أوسع نطاقا من درجات الحيوان فى المحسوس ، أفلا نقول إذن إن هذا الإنسان على هذه الأرض الضئيلة المسكينة التابعة لشمسنا الصغيرة أشبه بالدود على العود الذى يدب على النبات ولم يملك من الحواس إلا اثنتين : اللامسة والذائقة وأن هذه الأرض التى هو عليها لايستعدّ سكانها لأ كثر مما يعلمون ويكون هم الأطفال والأرض روضتهم ومدرستهم ، فإن صغر علمهم فهذا استعدادهم ، وإن شكست أخلاقهم وقبحت طباعهم فلذلك خلقهم لأنهم أطفال لايزالون فى أوّل درجات الآمال ، وربما كانت آلامًا مؤلمة كما نرى درجات الحيوان فى الإدراك وكذلك الإنسان « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وستنالون كل علم على طول الأزمنة والدهور المستقبلة « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ولئن راعكم ماترون من جهله الظاهر وخلقه الباثر ورأيه القاتر ، فلنقس عقله بقياس الكوكب الذى هو عليه ولننظر كيف يسوغ أن يكون الإنسان أعلى العالمين وقد رأينا أرضه لانسبة بينها وبين الكواكب الصغرى فضلا عن الكبريات ، أفلا نقول على سبيل القياس التمثيلى إن العقول تتفاوت فى درجاتها تفاوت الكواكب فى أقدارها والحيوانات فى إدراكها وإنه الآن فى أوّل سلم الارتقاء فربما ارتقى فى عوالم طبقا عن طبق فوق ماعرفناه .

ولقد كان الإنسان يظنّ أنه سيد العالمين حينما كانت الأرض مركز العوالم . فأما الآن فقد زال البهتان ورأيناها حجرة صغيرة فى مدينة واسعة .

ومن عجب أنك تسمع العلامة (أوليفرلودج) سيد علماء الطبيعة فى بلاد الإنجليز يقول على ملأ من قومه [إنى أصبحت موقنا أن عقل هذا الإنسان بالنسبة للعوالم الروحية المحيطة به أشبه بالنمل بالنسبة لعقل الإنسان] .

ثم قلت وإذا رأينا الإنسان يزداد على مدى الزمان شراسة وشكاسة والدين لم يهذبه والعلم لم يؤدّبه . قلت هكذا المرض يزداد انتشارا كلما ازداد الطب اختبارا فهل ترون إقفال مدارسه أو إغفال نقابته ؟ قالوا لا . ولو فعلنا ذلك لاضمحلت الإنسانية ورجعت إلى حال الهمجية . قلت هكذا تلك الديانات والعلوم ، ولئن قلتم فما بالنا نرى الأمراض تنتابه والفقر يؤذيه والجهل يرديه والعذاب يحيط به لنقولنّ إن الآلام الحيوانية والحوادث الإنسانية ليرتقى بها وجدانه كما أنتجت حوادث الجوّ فى النبات حبه وثمره ، فارتقاء الوجدان فى الحيوان والإنسان بحوادث الأيام كاستكمال الحبّ والثمر بحرّ الهجير وبرد الزمهرير . فقال قائل منهم إنى منذ أيام ذبحت زوجا من الحمام وهو ينظر إلى الدنيا نظر المريض إلى وجوه العوّد وكنت أدهش من هذا

النظام لم ذبحناه وهو صغير فقلت ألم أقل لك إننا فى مدرسة [روضة الأطفال] وهذا انتقال من فرقة دنيا إلى فرقة عليا « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » .

وقصارى الأمر ومحاداه أن للإنسان خمس درجات حسية وخمسا أخرى نظامية أو طبيعية فى مدرسة [روضة الأطفال] تابعا فى ذلك سنة الارتقاء كالحيوان إنه يتقلب جنينا فى صور مختلفة من صور الحيوانات من أدناه إلى أعلاه حتى إذا ولد طفلا تبدّت له مدرسة اللمس فالذوق فالشم فالسمع فالإبصار يتلو بعضها بعضا كفصائل الحيوان ثم تكون تربية منزلية فمدارس أوّلية فالابتدائية والثانوية والعالية إن دخل للمدارس النظامية وإلا اكتفى بالمدارس الطبيعية من العسر واليسر والغنى والفقر والنفع والضرّ والصحة والمرض والخير والشرّ .

ولئن قلتم فما بالنا لانعرف برهان ماتقول وإنما أنت تلقيه لنا على سبيل القياس التمثيلى لا البرهان ؟ قلت يا سبحان الله لو أنكم سألتم الدود فى الشجرات والسمك فى البحيرات والحشرات فى الخلوات والطيور فى الهواء عن الإنسان وعلومه أوكل فريق عن الآخرين لقالوا جميعا « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » ولو أنك أردت أن تفهم صبيان [روضة الأطفال] عن الوزارة وعظمة الإمارة لم تجد لذلك إلا أمثلة مما يألفون من الكرة والصولجان والزهر فى البستان والورد فى الأكمام وحلاوة التفاح وطعم ألذ الفواكه والثمرات

ولما كان العقل الإنسانى خلق فى الأرض طفلا أعطى من العلم على مقدار طاقته ، ولوأنك سألت الدودة فى لب النبات عن عالم الحشرات أوالسمك عن عالم الطيور أوالحشرات عن السباع لكان الجواب «وماشهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » .

هكذا الإنسان لايشهد العلم الذى بعد هذا وإنما يعلم بالقياس ويدرس بالاقتباس الذى دله على عوالم منتظرة . وإذا علمه المؤدّبون مثلوا له أحواله المستقبلة بما يناسب معارفه فالكلام كالدواء يعطى لمن يفقهونه بمقدار . واعلم أن هذا الارتقاء كله روحى لاجسمى فى عالم البرزخ فافهم انتهى الحديث .

حكمة

لقد أطلت المقال فى هذا المقام لتفسير « قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ » لأن أعقد العقد فى العالم الإنسانى رحمة الله مع أنه يعذبنا . وكيف نعتقد أنه رحيم ونصدّق به وهو يؤلمنا فهذا القول قد أبان هذا المقام على قدر الطاقة ، وبهذا تفهم كيف كان من أركان المبايعة الإسلامية فى إبان نزول الشريعة الإسلامية عند الحضرة المحمدية أن يقال لمن أراد الإسلام « وأن تؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله » فكان للسلم لازما أن يعلم أن الشر الذى نابه من الله وكيف يتفق هذا مع الرحمة ، فبهذا المقام زال الإبهام وعليه تعرف قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ولاجرم أن العذاب فى الدنيا وفى البرزخ مكروه لنا ، فإذن يكون خيرا وهذا القول هو المعقول وهو مقتضى قوله تعالى « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا» فهذا عذاب من رحمن كما يكون العذاب من الطبيب إذن هو رحمة « والله هو الولىّ الحميد » .

غرق الانسان فى الرحمة أعماه عنها

اعلم أن الناس يعيشون مغمورين بالرحمات غارقين فيها ولكن القليل من يحسّ بهذه الرحمات . ليس من الحكمة ولا العقل أن يكون العدم خيرا من الوجود . إن الحكيم إذا خلق خلقا فهو لا محالة يحوطه بالإنعام ويجعل له الحياة محبوبة لامبغضة مكروهة . ناهيك ماترى فى الأمهات والآباء فهؤلاء وإن لم يكونوا

خالقين وإنما كان لهم بعض الأسباب فى وجود الذرّية رأينا حرصهم عليهم وحنهم وعطفهم واستماتتهم فى سبيل إنعاش الأبناء، وإسعادهم وإنقاذهم من المهلكات .

ان العقل والقياس يقضى أن يكون خالق هذا العالم الذى نعيش فيه أكثر رحمة وأشد محافظة وعطفا على مخلوقاته وإلا فان خلقهم يكون مخالفا الحكمة منافيا للصراط المستقيم . إن محدث هذا العالم لايجوز ولايعقل أن يكون كالأبوين رأفة ورحمة بل القياس يقتضى أن يكون أكثر رأفة ورحمة . وهنا يتبادر هذا السؤال : فلماذا إذن نرى البؤس والشقاء والذل فى الانسان ؟.

الجواب

اعلم أن الناس غارقون فى الرحمة كما قدمنا ولكنهم عنها محجوبون، وها أنا ذا أحدّثك عن نفسى وأنت طبعا مثلى ، إنى من الأمة المصرية ومن نسل عربى فانظر ماذا ترى أليست الحكومة المصرية والأمة المصرية هما اللتان يحافظان على حياة أفراد المصريين وأنا منهم . إن الحكومة نظام واحد وهذا النظام لو اختلّ اختلّ الأمن فهو كدولاب واحد لابد من صحة سائر أجزائه . النيل يجرى لسقى الأرض والحكومة تهندس وتحافظ وهذه الأمة تتبادل المنافع مع اليابان والصين والهند وأوروبا وهذا معلوم بدليل [مصلحة الجمارك] وصادراتها ووارداتها . فاذن كل الأمم شرقا وغربا تساعدنى سواء أعرفت أنا أم لم أعرف أى أنهم يساعدون أمتى المصرية التى لا أكون مطمئنا إلا باطمئنانها . إذن جميع العالم الانسانى يساعدنى علمت أم لم أعلم ، وهذه الأمم كلها تشرق عليها الشمس والقمر والكواكب . وهذه الأنوار لاسيما ضوء الشمس مؤثرات فى المزارع والحيوان والنبات وهى التى تثير البخار من البحار وتزجى الهواء فيكون رياحا ثم الرياح تحمل السحاب فيكون مطرا ثم إن الضوء يؤثر فى نمو النبات فلا تكون المادّة الملونة فى النبات إلا به وبها تكون المواد المنمية النبات كما أوضحناه فى سورة الأنعام .

إذن تكون الأمة المصرية والأمم كلها والشمس والقمر والكواكب والهواء والماء والسحاب والرياح كلها خادمات لى . وبهذه كلها كان لى جسم وأعضاء تبلغ (٢٤٨) عضوا وعضلات وأعصاب حس وأعصاب حركة وعقل فى الدماغ وحسّ مشترك وقوة خيالية وأخرى مفكرة وحافظة وواهمة . وهذه كلها متصلات بالحواس الخمس وبأعصاب الحركة التى تتجه إلى ظواهر البشرة فتحرك الأعضاء الطلب تارة والهرب أخرى وفى أعضائى من العجائب ما لا حدّ له . خذ مثلا العين والأذن واقرأهما فى سورة آل عمران فهما هناك مرسومتان مصوّرتان مشروحتان شرحا وافيا وفيهما من العجائب مايدهش العاقل ويحير اللبيب ويربو فى الحقائق المدهشة على مايدهش المرء من عجائب ألف ليلة وليلة التى هى وأمثالها خيالات يتسلى بها الشاب قبل أن يلج الحقائق التى شرحها من العلوم الطبيعية والفلكية . هذا الجسم وحواسه وعقله وقواه مغمور فى الهواء الذى يتنفس فيه وحوله الماء متوافر والغذاء والهواء والفاكهة والمدارس والمعلمون والتلاميذ وقراء الكتب التى يؤلفها والتى يتعلم منها، ولبلاده مدارس وحكومة منظمة . كل هذا نعمة علىّ أنا . فاذن العالم كله نعمة أسديت إلىّ أنا وأبناء جنسى ودينى .

ولكن الانسان ينشأ من صغره غافلا جاهلا ماحوله حكم عليه أن يكون هذا العالم مدرسة له واقتضت الحكمة أن يكون منه غذاؤه ودواؤه وداؤه وحياته وموته كما يكون منه علمه وحكمته فهو علم وهو غذاء .

خلق الإنسان فى الأرض وقيل له أنت ملزم أن تحافظ على قوتك وملبسك ومسكنك وصحتك وأمتك وتتعاطى الطعام وتجلبه ولست كالنبات يأكل من الأرض ولا كالحيوان يأكل من غير أن يزرع ولا يحرث ولا يطحن كلا .

ينكب الإنسان على ما يسد جوعه ويزيل مرضه ويأخذ فى أسباب العلم والرقى ويستغرق فى الهموم والأحزان بما ينتابه من الآلام أو الفقر أو التنافس أو الكسل أو العداوة أو الكبرياء أو الحسد أو الشره، فهناك ينسى تلك النعم نسيانا حقيقيا فيقول الفقير أنا أريد الغنى . والجائع أريد الخبز . والمظلوم أريد النصر ومن علا عليه أقرانه يريد أن يغلبهم . ومن شمت به أعداؤه يريد الفوز .

وأضرب لك مثلا شابا عشق فتاة جميلة وامتنعت عليه فهل يفكر فى نعمة العقل والحواس والصحة والغنى والثروة والهواء والماء والأمة والأم والشمس والقمر ؟ كلا . ثم كلا لايرى لله نعمة ولا رحمة إلا أن يحظى بمعشوقته . كفاك هذا المثل وأنت تعرف أمثاله وأمثاله .

فالإنسان تحيط به الرحمات التى لاعدد لها ولكنه يحجب عنها حجبا حقيقيا بطمع أو كبرياء أو غفلة أو ظلم .

يكون للانسان آلاف من الجنيهات فيحسد من زاد عليه ألفا واحدا وينسى آلاف الآلاف من النعم ومن النقود ومن الصحة والبنين والأصحاب والخلان ويعترض على خالق هذا العالم الذى جعل له رجلا يشاكله واعتلى عليه .

هذا هو مثل الناس فى بدوهم وحضرهم . فأين رحمة الأب أو رحمة الأم من أرحم الراحمين ؟ ولكن الشهوات وأنواع الغضب وأخلاق السوء وماأشبه ذلك أصبحت حجابا كثيفا بين الناس وبين الإحساس بالنعمة والرحمة .

الحجاب المضروب بين الناس وبين رحمات الله

رأيت من هذا البيان أن الناس جميعا فى رحمات لاتعد بآلاف الآلاف ولاحصر لها وهى مشاهدة ملموسة مسموعة مشمومة مذوقة قد غرق الناس فيها ولكنهم لايحسون بها «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون» وها أناذا أريتك السد ببصيرتك فهذا السد أنواع كثيرة جدا كسد الحرص والشره والحقد والحسد والجهل والغفلة .

يعيش الإنسان ويموت وهو لايدرى أن له جسما وأن هذا الجسم نعمة ولا يعقل أن ذلك كله فضل من الله ومنة .

فمن عجب أن تحيط بنا سدود ولا نراها وتلك السدود تحجب عنا جمال هذه المخلوقات ، فالعيون مفتحة ولكن لاتبصر وذلك لتلك الحجب التى شرحناها . إنما مثل الناس فى الدنيا بالنسبة لما حولهم من النعم كمثل العمى والصم الذين أمامهم الصور الجميلة وحولهم النغمات الشجية البديعة ، والأولون لايستلذون بالمبصرات والآخرون لايشعرون بالنغمات فلا فرق بين حاسة لم تخلق وبين حاسة مخلوقة عليها غشاء حسى أو معنوى .

هذه المعانى مقتبسة من أول هذه السورة أى من قوله تعالى «ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون» .

بين الله هناك أن الناس أعطوا معايش وقليلا منهم شاكرون ، وبين مجمل تلك النعم بالخلق والتصوير ، ثم أبان موانع الشكر كعدم الاعتراف بالنعمة أو جهلها أو عدم استعمالها فيما خلقت له فذكر عصيان إبليس عن السجود واستكباره بأصله النارى الذى هو القوة الغضبية السارية فى أكثر الناس فهم أشبهوه من هذه الناحية وحجب عنهم الإحساس بالنعمة وانحصرت قواهم فى الغلبة والحسد والشهوات والتنافس فنسوا سائر النعم إلا ما حبست عقولهم فيه من الترهات .

ثم

ثم انظر كيف يقول إبليس مشيرا لما قررناه أنه أقسم أن يغوى بنى آدم فلا يكون أكثرهم شاكرين .
ألا تعجب من هذا العجب أن تكون الآية التى نحن بصدد الكلام عليها قد ذكر فى أول السورة معناها وبين مغزاها . يقول الله هناك إنه مكن بنى آدم فى الأرض وقليل منهم شاكرون .

ثم أعقب ذلك بقصة خلق آدم وتصويره وبتبع ذلك جميع النعم، ثم كيف قفى على ذلك بقصة إبليس الذى حلف أن يغوى أبناء آدم حتى لايكون أكثرهم شاكرين فرد العجز على الصدر الذى هو نوع من أنواع البديع الذى يفرح به أطفال العلم فى الأمم الإسلامية المتأخرة وقد جهلوا الحكمة المخبوءة ومنها ماذكرناه أن الكبر والحسد والحقد والحرص والشره وأمثالها هى الحجب التى أسدلت على عقول الناس بإغواء الشيطان الذى حلف أن أكثرهم لايكون شاكرا وذلك أن الشكر لايكون إلا بالإحساس بالنعمة ولاإحساس بها مادام المرء مشغول الفؤاد بما يهوى من مال أو ولد أو صيت كاذب أو فتاة حسناء .

فكل هؤلاء متى فتنوا بما أحبوه فإنهم لامحالة ينسون جميع النعم لأنه حيل بينهم وبينها بسد كثيف قوى متين فلا يكونون شاكرين .

من هم الشاكرون لله

اعلم أن الإنسان لايشكر النعمة إلا بأحد أمرين :

[الأمر الأول] منع النعمة عنهم كما ترى الفقير والمظلوم والجائع والظمآن وذا الشبق والذليل والمريض ، فمتى اغتنى الفقير وجبر كسر المظلوم وأكل الجائع وشرب الظمآن وتزوج ذو الشبق وعز الذليل وشفى المريض . أقول متى نال هؤلاء مامنع عنهم شكروا ربهم .

قد يعيش المرء عشرات السنين وقد أعطى مالا وولدا ولكنه لايحمد الله على شئ منها لأنها لم تنزع منه حتى يعرفها ويرى الفقير بجانب منزله نال كسرة بعد جوعه فيحمد ربه حمدا كثيرا وذلك يسخر منه ويستهزئ .

واعلم أن هذا الشكر ضئيل أشبه بشكر العبد الذليل الذى اعتاد سيده أن يضربه فمتى سكت عنه حمد سيده على هذه النعمة أى نعمة العفو عنه . وإنما الشكر الحقيقى فيما يأتى من الأمر الثانى وها هوذا .

[الأمر الثانى] دراسة هذه الدنيا ونظامها وقراءة علوم هذا العالم والإلمام بمجملها والبحث فيها وذلك هو المسمى [علم ما وراء الطبيعة] ولا تظن أن هذه الكلمة على حقيقتها بل ما وراء الطبيعة معناه العلم الذى يشمل الرياضيات والطبيعيات : أى العلم الذى لايختص بأحدها ، فالبحث فى نظام الكائنات إلمام منه وقراءة المقولات وتقسيم العلوم منه .

وهذا التفسير أشبه بهذا العلم لأن مباحثه عامة . فليس معنى ما وراء الطبيعة غير ذلك ويدخل فيه علم الأرواح والبحث فى وجود الله والرسل وما أشبه ذلك .

قلنا فيما تقدم إن الإنسان يعيش عشرات السنين وهو فى سجن شهواته وغضبه فلا يرى جمالا ولا نعمة ولا رحمة وقد يتمنى الموت كما قالت مريم « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فنا كلها عيسى وهو طفل وأفهمها أنه رسول الله سرى عنها وعرفت أن هذه المصيبة والفضيحة والخزى لادوام لها وأن الشر الدنيوى يعقبه الخير الأخروى والسعادة الأبدية بالمنافع العامة للناس .

هكذا خلق الله فى نوع الإنسان أناسا اصطفاهم واختارهم فهم يدرسون هذا الوجود ولهم يتجلى الوجود على ماهو عليه على قدر الطاقة البشرية ويدركون جماله . وهم وإن انتابتهم المصائب وحلت بهم النوائب كسائر الناس فإن فى بواطنهم بواعث السرور والجذل والفرح بالحكمة التى هى جمال لاينضب وذخر لاينفد

فيذهب عنهم الحزن فى الدنيا . وكلما أصابهم غم أو هم أشرق عليهم ذلك النور فهم دائما فى حبور وسرور وإشراق ونور وجمال وبهاء . وما مثل هذه الطوائف إلا كمثل السمع والبصر فى الإنسان كلاهما مدرك لما بعد عنه . أما بقية الناس فإنهم أشبه بحاسة اللمس والذوق فهما لايدركان غير الملامس . أما هذه الطائفة فإن بصائرها مفتوحة لجمال هذا العالم فأدركت الرحمة فى الهواء وفى الماء وفى النبات وفى السماء . ولا يحجبهم تراكم النعم عليهم بل هم يخترقون تلك الحجب ويهجمون على الحقائق ويتناولونها بحثا وتنقيبا حتى تظهر واضحة كالشمس فى رابعة النهار . وكما سرى عن مريم بما سمعت من صوت ولدها أنه رسول وأنه براها كذلك يذهب السوء عن هذه الطائفة الشاكرة بما يلهمون فى قلوبهم من جمال الوجود وبهجته وأن الذل والشرّ يعقبان عزا وخيرا ويرون الصبر نعمة عظمى يشير لذلك قوله تعالى « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة الخ » فهؤلاء المتقون المنفقون أموالهم هم الذين فتحت بصائرهم للنظر فى هذا الوجود وهم هم الشاكرون حقا .

وهنا يرد هذا السؤال فيقال لم عذب الناس عند الموت بنزع الروح أليس ذلك شقاء للصالح والطالح على سواء بل الخوف من الموت شقاء ملازم . أقول هذا السؤال لايرد بعد مابينا أن الناس فى سجن من الجهالات والأخلاق، ولو أن الناس قرءوا العلوم لأدركوا أن الموت لا ألم فيه البتة بل هذه خرافة مثل قصص العجائز . وإنما الألم كما قلنا راجع للحجب المسدولة على العقول وهذه يعوزها التربية والتأديب الإلهى .

ولقد قال علماؤنا المتقدمون كالإمام الغزالى : إن الموت لا ألم فيه وإنما الألم الوارد فى الأخبار راجع إلى التحسر على فراق الدنيا لقلة العلم كما تقدم فى قول إبليس «ولا تجد أكثرهم شاكرين». ولأختم هذا المقام بما خبرته بنفسى وقرأته فى الكشف الحديث استئناسا للمقام فأقول :

كان بوزارة المعارف أحد المستخدمين وكانت علاقتى به أنه تلميذى فغاب عنى شهورا ثم تصادف أن قابلته معاتبا فقص علىّ قصص ما انتابه إذ سقط على إفريز الطريق (الرصيف) المرصوف بالحجر وهو يريد ركوب قطار الترام فزلقت رجله فخرّ صريعا قال ولم أعلم بنفسى إلا بعد أيام وأخبره الطبيب أنه منذ أيام لم يذق طعاما وأن رأسه مربوط لجرح بسيط فى جلدة الرأس ثم بعد أسابيع شفى تماما فقص عليه الحقيقة فقال إنك قد كنت كالميت ورأسك كان مشدوخا ولو أخبرتك لأضرّ ذلك بك . فقلت له ما الذى أحسست به حين وقعت على رأسك . فقال لم أحس بألم البتة وإنما أحسست بأنى قد خف جسمى ثم لم أع بعد ذلك شيئا اه .

هذا ما عرفته بنفسى . فأما عذاب النفس بعد الموت فذلك ناشئ من نقص العقول والأخلاق فهاك مانصه الأطباء فى أوروبا أيام طبع هذا التفسير ، فقد جاء فى بعض جرائدنا المصرية ما يأتى :

على عتبة الأبدية

بماذا يشعر الإنسان عند الاحتضار

نشر أحد الأطباء الإنجليز مقالة فى إحدى المجلات العلمية أثار بها اهتمام الرأى العام ودعا الأطباء إلى القيام بمباحث واسعة النطاق لمعرفة ما يشعر به الإنسان فى دقائقه الأخيرة على هذه الأرض وذلك لتجريد الموت من كل ما يلقى الهلع فى النفس ولا ثبات أن دخول المرء فى دور الاحتضار لايصحبه شئ من مسببات الفزع على الإطلاق . ومن رأى الطبيب المذكور أنه متى عرف المرء هذه الحقيقة لم يبق للخوف أثر فى نفسه .

إن العلم لايعرف عن الموت حتى الآن إلا النزر اليسير . والأطباء وإن كتبوا المجلدات الضخمة عن الولادة وفن التوليد فإن ما كتبوه عن الموت قليل تافه لايشفى الغليل . ذلك لأن الموت لايزال سرا مبهما .

ترى بماذا يشعر الميت وهو فى حشرجة الموت يحاول أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهل الموت أمر بسيط كالولادة أم هو مصحوب بالهلع بما يتمثل للمرء من ظلمة القبر ووحشة الأبدية . إن معظم الذين يعوّل على آرائهم مجمعون على أنه متى حضرت المرء الوفاة زال كل أثر للخوف .

وفى الواقع أن معظم الناس يموتون بالسهولة التى يستغرقون بها فى سبات عميق ولا يشعرون بشىء من القلق . وبعض الناس ينظرون إلى الموت وهم فى ساعة الاحتضار كأنهم على سفر إلى عالم جديد .

أما الذين يعانون الآلام المبرحة فإنهم يرون فى الموت إنقاذا لهم من تلك الآلام . والمظنون أن قليلا جدّا من الناس ينزعجون أو يصابون بالهلع متى حضرتهم الوفاة .

قال الدكتور (فيليب أمان) مدير مستشفى تشارنج كروس بلندن : لقد رأيت الثلث من الناس فى ساعة احتضارهم وقلما رأيت على أحدهم شيئا من علامات الهلع ولست أعتقد أن المرء يشعر بالخوف متى دخل فى دور الاحتضار ، ولعلّ أبلغ حادث خبرته بنفسى من هذا القبيل ماوقع لشاب فى السابعة والعشرين من عمره دخل المستشفى وكان على أهبة الزواج قبيل مرضه ببضعة أيام ويظهر أنه كان قد عين فى وظيفة خارج انجلترا ولكن مرضه الفجائى حال دون سفره ونظرا إلى اشتداد وطأة المرض عليه لم يبق أمل فى شفائه فاضطررت أن أخبر خطيبته التى كانت تحبه ويحبها حبا يقرب من العبادة وليس ذلك فقط بل كان من الواجب علىّ أن أطلعه هو نفسه على حقيقة حاله لكى يكون مستعدا للموت وقد قمت بذلك الواجب المؤلم على ألطف وجه فأخذ يصيح صيحات مؤلمة قائلا كلا . كلا لاأريد أن أموت ويلاه لا أريد أن أموت وكان المشهد مؤثرا للغاية وظلّ ذلك الشاب فى اضطراب عظيم مدة يومين متواليين ولكن فى اليوم الثالث طرأ عليه تغير عظيم إذ هدأ ثائره وانقطع عن الصراخ ولما قابلته رأيت أعصابه هادئة فقال لى بكل هدوء ورباطة جأش : إن أبى توفى لما كان عمرى ثلاث سنوات وتوفيت أمى منذ أربع سنوات وكنت بعد وفاتها أتمنى الموت كثيرا إلى أن تعرفت بخطيبتى فزالت عنى كآبتى وعزمت أن أبدأ الحياة من جديد وها أناذا على أهبة الرحيل من هذا العالم وقد اعتدت فكرة الموت فلم يبق للخوف أثر فى نفسى . على أنى أجهل ماهو المكان الذى أنا ذاهب إليه وهل يتاح لى أن أرى أمى وأبى هناك . قال الطبيب وقبل وفاته بنحو ساعتين استدعى الممرضة وطلب منها أن تضىء الأنوار الكهربائية لأنه لايبصر . فقالت له الممرضة ولكن الوقت نهار ونور الشمس يملأ الغرفة ، فقال لها إن الظلام حالك ولست أبصر شيئا فلم يسع الممرضة إلا أن تجيبه إلى طلبه وظلت الأنوار الكهربائية مضيئة فى غرفته إلى ما قبل وفاته ببضع دقائق فنادى الممرضة وقال لها : الآن يمكنك أن تطفئ الأنوار لأنى أبصر ولأن أمامى منظرا ساطعا جميلا .

ومن الأمور التى تكاد تكون مؤكدة أنه مهما يكن الموت مفزعا لنا نحن الأحياء فإنه يفقد كل مافيه من أثر مفزع فى ساعة الاحتضار .

ولقد ثبت أن الكثيرين يقولون فى دقائق احتضارهم إنهم يسمعون إيقاع القياثير وأصوات الموسيقى المطربة . ويقول غيرهم إنهم يرون مناظر بديعة لم يروا مثلها فى حياتهم . ومنهم من يبسطون أذرعهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة كأنهم يستقبلون أشباحا تبدو لهم .

ومن رأى السر (اربوتنت لاين) وهو من مشاهير الجراحين الإنجليز أن الخوف من الموت ينتفى بتاتا فى ساعة الاحتضار .

وهذا رأى معظم الأطباء فى الوقت الحاضر ، فالموت لايخرج عن كونه حادثا طبيعيا ولا شك أن الكثيرين من الشيوخ الذين شبعوا من الحياة وعانوا أحزانها لايزعجهم الموت مطلقا بل قد يرحبون به من كل قلوبهم .

وقال السرلاين المشار إليه : إنه فى معظم حوادث الوفاة التى شهدها كان الموت أشبه بالاستغراق فى سبات عميق. وهو غير مصحوب بما يلقى الهلع فى النفس ، وإذا كان العلم يسعى لتسهيل عملية الولادة فلماذا لا يسعى لتسهيل عملية الموت وتجريدها من عوامل الهلع والفزع . وفى الواقع إن الموت أسهل بكثير مما تصوره لنا المخيلة . فإن الكثيرين ممن كانوا على وشك الموت ونجوا بأعجوبة يشهدون أنهم لم يشعروا بشىء من الهلع وأن حاسة الخوف انتفت منهم عند ما شعروا بدنو دقائقهم الأخيرة .

يروى عن المستر (باريليون) من كبار مؤلفى الروايات أنه مرض مرضا لم يكن يرجى له منه الشفاء ، فلما علم بدنو أجله أظهر شجاعة غريبة إذ قال [إن الموت لا يخيفنى على الإطلاق لأن الحياة قد أصبحت عبئاً ثقيلا بل أنا أتمنى الموت بسرعة لأرى ما وراء هذا الأفق ومن هم الذين سأقابلهم فى ذلك العالم . إننى أرى الموت كالاستغراق فى سبات هادىء] .

وكتب المستر (بريكس) الكاتب الشهير ما كان يشعر به فى دقائقه الأخيرة وهذا بعض ما كتبه :

[إذا كان الموت حالة من حالات عدم الشعور كما أعتقد فأحسن ما يستطيع المرء عمله متى حضرته الوفاة أن يقنع نفسه بأنه عما قليل سيستغرق فى سبات هادىء لا تزعجه فيه الأحلام ولا تقلقه الأشباح . وإذا كان ثمة عالم آخر وراء هذا الأفق فما أسعدنا إذ سنلاقى جبابرة الأجيال الماضية مثل [أفلاطون وأرسطو وسقراط وشكسبير وغيرهم] اه .

وقد شهد جميع الذين كانوا يزورون هذا الكاتب فى دقائقه الأخيرة أنه كان بشوشا يشير إلى قرب وفاته بشجاعة غريبة حتى لقبه الناس بعد وفاته بالميت الشجاع .

وروى عن (المس كافيل) الممرضة الإنجليزية التى حكم الألمان عليها بالإعدام فى زمن الحرب أنها أظهرت شجاعة فائقة كأن الموت حادث اعتيادى. ولما زارها الكاهن قبيل إعدامها بدقائق أكدت له أنها لا تخاف من الموت لأنها رأت الكثيرين من الأبطال يموتون أمام عينيها فى ميادين القتال . وقد دهش جميع الذين حضروا إعدامها من الشجاعة التى أظهرتها حتى آخر نفس من أنفاسها .

والخلاصة أن آراء معظم الكتاب والعلماء مجمعة على أنه عندما تحضر المرء الوفاة يفقد الموت كل ما فيه من أثر الرهبة والهلع اه .

هنا أقف أيها الذكى معك وقفة وأخاطبك بما وقر فى نفسى . أقول لك إن هذا القول الذى يذيعه أطباء أوروبا والذى قلته أنا كلام إقناعى ليس يقينيا ولكن هو الذى يوافق حكمة الحكيم ورحمته فهو يعطينا صورة من رحمته .

وأقول لك ولا أخشى لومة لائم إن هذه الصفة هى التى أعتقدها فى صانع هذا العالم وإلا فبالله كيف نراه يسير على وتيرة واحدة فى نظامه . نراه ألهم الناس فأعدوا أطباء الولادة وهناك القابلات لتسهيل خروج الولد من الرحم . هكذا نراه عمم ذلك فى أصغر الحشرات . ألم تر إلى ما ستقرؤه فى سورة النحل فإنك ترى هناك فيما نقلنا عن كتب الفرنجة بطريق الترجمة أنهم شاهدوا النحل قد خصصت طائفة منها لنزع الغلائف عن أولادها الصغار . وذلك أن النحل تضع بيضها والبيض يكون دودا ثم يصير (فيلجة) أى كرة صغيرة محوطة بخيوط حريرية تنسجها الدودة النحلية على نفسها كما يفعل دود القز ثم بعد أيام تنبت لها أعضاء الحركة فتستعد للخروج فترى النحلات الكبيرات المعدّات لذلك يساعدن الصغار ويجاهدن حتى تفك الربط الحريرية. أليس هذا بعينه هو ما تفعله القابلات عندنا وأطباء الولادة ؟ .

أنا لا أشك أن الله تعالى جعل هناك عالما روحيا لمقابلة الأرواح عند خروجهم من الحياة جريا على عادته أن قانون الله فى الحياة والموت لا يتغير فهو يرحم المولود ويرحم الميت . فسبحانه من إله عظيم .

وإياك

وإياك أن يصدك عن هذا مسألة المعاصى والكفر فإن هذا يحتاج إلى تطويل ولكن يكفيك الساعة أن أقول لك فائدتين .

[الفائدة الأولى] اعلم أن الإمام الغزالى يقول كما نقلناه عنه فى كتاب (الأرواح) إن العذاب أوّلا يكون بسبب الشهوات ثم بعد أمد يكون على الذنوب ثم بعد أمد يكون على الجهل . ولاشك أن الجهل يدخل فيه الكفر ثم بعد ذلك يكون عذاب النار .

[الفائدة الثانية] إننا نرى الله يخلق الصبيان وقد سوّى بينهم فى أن القابلات مستعدّات للجميع فلا تفرقة بين الأغنياء والفقراء من حيث العموم ثم بعد ذلك يمتاز الأطفال فى حياتهم على حسب درجات آبائهم وأمهم وهكذا .

والموتى جميعا يخرجون من الدنيا فيختلفون بعد الموت بحسب أعمالهم وأخلاقهم كما اختلف أبناء الأغنياء والفقراء قال تعالى « ولكل درجات مما عملوا » .

وإن كان الجميع قد ساعدتهم القابلات مع العلم بأن ابن الزانية تقابله القابلة وهى مشمئزة . هكذا الفجار يقابلهم العالم الروحى وهو معرض عنهم هذا معنى قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شئ » والحمد لله رب العالمين .

زيادة إيضاح فى قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شئ » أيضا

حكمة بالغة فى جوهرة ناضرة

حدثنى أحد الصلحاء الأذكياء قائلا ما يأتى :

كثيرا ما يختلج فى صدرى قوله تعالى «ورحمتى وسعت كل شئ» بعد قوله «عذابى أصيب به من أشاء» فكيف نعتقد أن الرحمة عامة اعتقادا صادقا وأنت لو فتشت فى القلوب لوجدتها مطبقة على التألم من هذه الدنيا التى حوت الحرب والمرض والطاعون وأنواع الحمى والجدرى ونقص الأنفس والأموال والثمرات والبرد القارس القاتل .

فأين هذه الرحمة وإنى أتمنى أن أقف على هذه الرحمة الواسعة حتى أفرح بها . وياليت شعرى لماذا نزل هذا فى القرآن بل كيف يكلفنا الله بالمستحيل. ألم يرد لنا فى الحديث الصحيح أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن نؤمن بالقدر خيره وشره من الله . فهذا صريح فى أن الله عنده خير وشر فأين سعة رحمته إذن .

وترانا نقول فى قنوت الصبح كل يوم [فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت] إذن نحن نحمد الله على القضاء عامة : أى على الخير والشر وكيف يكون الحمد على الشر ولا حمد إلا على نعمة . أما النقمة فكيف نتصور الحمد عليها ؟ .

يظهر لى أننا نعيش فى جوّ من الجهالة ونلوك ألفاظا لاندرك معناها . وعجبى للديانات كلها أنها فى هذا المعنى متشابهات . وما مثل الناس فى ذلك إلا كمثل عبيد العصا يحمدون ساداتهم خوفا من أذاهم لاحبا لهم .

الإجابة

فقلت له : اعلم أن هذا المقام بسطته فى سورة آل عمران عند قوله تعالى « بيدك الخير إنك على كل شئ قدير » ففيه هناك ما يكفى ذا اللب . وقد أبنت لك هناك أن ما أذكره فتح باب البحث وأن اليقين إنما يأتى من طريق البحث والتنقيب وقراءة آراء الأمم وعدم التعصب لرأى خاص ورجوع النفس إلى الله والذكر والفكر .

واعلم أن الله عز وجل ماذكر هذا فى كتابه ولا على لسان رسوله ولا فى دعاء الصلاة ولا فى الفاتحة إذ كرر الرحمة فيها أربع مرات إلا ليحفزنا إلى درس هذا الوجود ويحثنا على دراسة هذه الكائنات التى نعيش فيها فإن هذه الشبهة التى وردت عليك لم تخلق فيك عبثا وإنما خلقت لحكمة وهى حثك على الجد والمثابرة فى البحث حتى تدرك يصيرتك سر الموت والحياة والمرض والأرزاء ومتى أدركت ذلك اطمأنت نفسك لهذا الوجود وعرفت مايدل على هذه الحكمة : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

فقال ذلك الصالح الذكى: أنا لم أقرأ ما كتبته أنت فى سورة آل عمران ولم أدرس كتب الفلاسفة ولم أنل حظا عظيما من الذكر فهات لى لمحة تفتح لى باب النظر وعجالة يكون فيها المبتدأ والخبر بحيث يفهم العامة والعلماء والخاصة والجهلاء ولا يكون لها سابق ذكر فى هذا الكتاب . فقلت إن جميع ما نقاسيه فى هذا الوجود أشبه بما يقاسيه المريض من الطبيب . فكم من مريض يسم له الدهر بالطبيب فسقاه المر ومنع عنه زيارة الأصدقاء وحماه من اللذات والشهوات وبتر منه بعض العظام والعضلات . فهل ذلك لنكاية فيه أم لاهتمام به إنما الآلام مبدأ الرحمات وباب النجاة . إن طبيعتنا أرضية وأحوالنا حيوانية ، فالتأديب بالتعلم والحوادث مرهفات لعزائمنا مقويات لنفوسنا حتى ترجع إلى عالمنا الأعلى وما مثلنا فى ذلك إلا كمثل ماء البحر الملح سلط الله عليه الشمس فجعلته بخارا فصار فى الجو سحابا فنزل على الأرض مطرا فجرى فى مجارى مختلفات فاجتمعت تلك المجارى فكونت نهرا فجرى النهر إلى البحر «كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا» فرجعت القطرات إلى أوطانها فرحات بأهلها .

هكذا هذه الأرواح جاءت لهذا العالم وذاقت حلوه ومره ثم رجعت إلى عالمها . وإن أردت ضرب أمثال للشر يكون هو نفسه خيرا فهاك هذه الحوادث .

الحادثة الأولى

عملية جراحية أورثت الشفاء فى السمع والنطق .

ذلك أنه فى أيامنا هذه كان رجل يسمى (أرنست باباج) مغرما بالملاكمة والمباراة فيها وبينما هو يلاكم مرة أصيب بلكمة فى عنقه فجعلته أصم أبكم وبقى هكذا مدة عامين ومنذ أسابيع من كتابة هذه المقالة التى أكتبها الآن قبيل فجر ليلة ٤ يناير سنة ١٩٢٧ دخلت شظية فى إحدى أصابعه فقصد طبيبا جراحا لإخراجها لأن أصبعه التهبت فكانت العملية شديدة الصعوبة قاسية الألم ، فلما أن أخرج الشظية شفى تمام الشفاء من المرضين مما قاساه أحد رفاقه فأراد أن يأخذه من ذراعه فصرخ قائلا (دعنى وحدى فإنى بخير الآن) فهذه أعادت له حاسة السمع والنطق . انتهت .

أما ما نذوقه فى الدنيا من الألم لعله أشبه بآلام هذا المريض عند استخراج الشظية من أصبعه وانفتاح البصيرة لمعرفة جمال هذه الدنيا الموصدة أبواب علومها أمامنا أشبه بما حصل له من شفاء سمعه ونطقه .

الحادثة الثانية

أن رجلا أعمى أخرس من قرية فى مقاطعة (نورثمبتون شير) قصد طبيبا فقرر له عملية فى عينيه وهو لايثق برجوع حاسة البصر له ، وبينما هو ينتظر الجراح وهو يحضر مشارطه إذ سقط على الأرض وعند النهوض وجد نفسه قادرا على الكلام . انتهت .

الحادثة الثالثة

أن رجلا أعمى جىء به إلى مستشفى فى مدينة (برمنجهام) لإجراء عملية جراحية له فى دمل بالمخ كان يهدد حياته فنجحت العملية نجاحا فوق ما يصفه الواصفون إذ شفى من الدمل وعاد إليه بصره .

الحادثة الرابعة

روت مجلة (اللانسبت الطبية) أن رجلا فى الثلاثين من عمره أجريت له عملية (السكاتاركت) فى عينيه بمستشفى الرمد فى مدينة (جلاسجو) وكان ولد أكمه لم يشهد فى الدنيا شيئا فنجحت العملية وعادت له حاسة البصر التى لم يعرفها قبل ذلك .

الحادثة الخامسة : مزعجات حسنت الخلق

فى سنة ١٩١٤ كان رجل مجرم اسمه (سيزبكلى) فى سجن الحكومة بولاية (بنسلفانيا) فأصيب بإصابة قوية فى رأسه فعطبتها عطبا شديدا والجمجمة كانت إصابتها خطرة فأسرع طبيب السجن وأسعفه بالعلاج فأنقذ حياته وهناك حصل مايدهش الأبصار . إن سيزبكلى كان رجلا متوحشا قاسيا يدخل الرعب على نفوس رفقائه المسجونين فما انتهت هذه العملية حتى تبدل خلقه وصار ذكيا نشطا رحيا مطيعا فرحا مساعدا للسجانين وللمسجونين ولله فى خلقه شؤون اه .

الحادثة السادسة

وقع لصبى فى الخامسة عشرة من العمر يسمى (حبيبى بيرد) وله نزعة قوية فى الإجرام فأصيب يوما بجرح فى رأسه ، فلما أجريت له عملية جراحية تبين أن فى رأسه قطعة عظم ضاغطة على المخ فلما رفعت هذه القطعة صار الصبى ذا خلق جميل وهو فرح مسرور اه .

الحادثة السابعة

حدث فى بلادنا المصرية منذ ثلاثة أعوام أن قرويا فى بلدة (طلخا) أصيب بفقد بصره ولم ينفعه علاج وباع فدانين من أرضه لنفقات العلاج بلا جدوى . واتفق يوما أن جلس فى بار (قهوة) فى بلده ولما فتح عامل القهوة (الجرسون) زجاجة الغازوزة لأحد الجالسين طار سداد الزجاجة فأصاب أنف الرجل الأعمى المذكور فسقط الدم من أنفه كما يحصل فى الفصد فعاد للرجل بصره فى الحال . قال الشاعر :

من يعتصم بالله العرش يحفظه   فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

أليست هذه الحوادث تمر على الجهال مر النسيم على الحصباء والصرصر على الفضاء . أخلاق تبدلت وأسماع وأبصار شفيت بأعمال جراحية . لعل حياتنا كلها عملية جراحية تشفى نفوسنا من أمراض فيها لاندريها فإذا جهلنا نحن كما جهل أطباؤنا جميعا فى الأرض أن مرض العين فى الحادثة السابعة مثلا يشفيه فصد فى الوضع المعين من الأنف .

وأن المجرمين فى الحادثة الخامسة والسادسة يكفى لتحسين خلقهما عملية فى رأسيهما مع أن علم الطب قد تقدم فى زماننا تقدما عظيما وقطع دابر الأمراض العاتية وأثر أثرا محسوسا حتى كثر نوع الإنسان على الأرض .

أقول إذا جهل أطباؤنا ماذكر فى أجسام إنسانية حاضرة لدينا فإن ذلك يدل دلالة قاطعة أن هذه الأجسام وهذه العوالم مكتظة بالعلوم والرحمات مملوءة حكمة ونورا وأسرارا وأن الله يحدث أمثال هذه النوادر ليقول لنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » جدوا وابحثوا فلن تصلوا إلىّ حتى أطلعكم على حقائق رحماتى ، وما أنتم اليوم إلا كسمك فى البحر والرحمة أشبه بالعوالم المائية والهوائية ، فأنتم لاتعرفون من رحماتى إلا كما يعرف عالم السمك عن عالم الأرض والهواء من نبات وحيوان وطير ، ولن يكون يقين إلا بالجد فى الترتيب ودراسة العلوم جميعها شرقية وغربية ، فإذا قال المسلم رضيت بالله ربا ، وإذا قال آمنت بالقدر خيره وشره من الله فإن ذلك يسوقه إلى أن يتبع الإيمان بالعلم إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومتى درس النظام جاءه اليقين .

واليقين هو المقصود من هذا الوجود وهو الذى أعطاه الله لإبراهيم الخليل عليه السلام كما تقدّم فى سورة الأنعام ، إذ أراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، وإذ أمر بتشريح الطيور فشرحها وقطعها ثم أحياها الله ، وذلك إشارة لعلم الكيمياء الذى يدل على حسن النظام والترتيب وقد تقدّم هذا فى سورة البقرة بإيضاح أوفى فراجعه إن شئت .

فإذا كان الخليل يطلب من الله اطمئنان القلب فطمأنه باليقين بعلم الكيمياء فى سورة البقرة وعلم الفلك فى سورة الأنعام ؛ فهذا أمر لى أنا وأنت أن ندرس هذه العلوم إذا قدرنا ، لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أمر أن يتبعه إذ قال تعالى «فبهداهم اقتده» وأمر النبى أمر لأمته ، وما ألطف قوله صلى الله عليه وسلم « نحن أحقّ بالشك من إبراهيم » كأنه يدعونا نحن أن نقول ذلك وبذلك نجدّ فى العلوم ، فرجعت هذه الآية إلى تقوية المدارك العلمية فى البلاد الإسلامية .

إن عذاب الدنيا والآخرة مرجعه الجهل بنظام هذا الوجود ، إن الله خلقنا للعلم والعمل ، وكل مانعانيه فى الدنيا مفتاح للعلم حتى إن مصائب المسلمين اليوم مفاتيح لرقيهم ، ولولاها لصاروا أمثال هذا التفسير الذى صرّح بأمور قد كفر بأقل منها المسلمون ، العلامة ابن رشد والغزالى وابن سينا والفارابى ، راجع ذلك فى سورة الأنعام تحت عنوان : [برزخ بين بحرين] بل لولاها لم يكن هذا التفسير .

إن مثل ما أصيب به المسلمون اليوم من الضنك وإذلال الفرنجة لهم كمثل تلك العمليات الجراحية التى عملت فى الحوادث السبعة الآنفة الذكر فشفت أبصار المرضى وأبرأت أصمهم من حيث لايعلمون ، إن الإنسان لايزال معذبا على مقدار جهله وكلما زاد علما بهذا النظام العام أدرك الرحمة ففرح ، إن جهنم دار خلقها الله لمن لايعقلون .

ألا ترى إلى قوله تعالى « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » وقوله « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم الخ » ومن تتبع هذا التفسير أرجو أن يكون له فيه سداد من عوز والحمد لله رب العالمين اه .

فلما سمع ذلك ، ذلك الصالح قال هذا حسن ، ولكن الأحسن من هذه النوادر أن أسمع منك أمورا فى نفس الطبيعة المشاهدة حتى نرى بأنفسنا أن الرحمة فى المصائب فعلا ، أما هـذا الذى قلته فعلا فإنما يتجلى بالاستنتاج ، فقلت سل ما بدا لك . فقال : ما الفوائد الناتجة من شدّة البرد ومن تغطية الأرض بالثلج فى الأقطار الباردة؟ فإذا عرفنا أن الحرّ فى الأقطار الاستوائية يهيج الأرض بالنبات والروائح العطرية والأزهار البهيجة والجنال والغابات والنعم العظيمة ، فأى فائدة فى شدة البرد وفى كثرة الثلج للأراضى الباردة المسكونة بالإنسان والحيوان ؟ . فقلت : أما شدّة البرد فإنها تقتل الحشرات الفاتكة بالزرع وذلك عام فى بلادنا المصرية ، والبلاد التى اشتدّ بردها فمتى أقبل فصل الشتاء غابت عنك الحشرات التى كنت تراها فى أرضنا مثل : أبى دقيق والجراد وغيرها ، فهذه فاتكات بزرعنا فأهلكها الله ثم يخلق غيرها . وأيضا البرودة تجعل فى الأرض قابلية لبذر الحب بما تفعله فى الطين من التفتت ، أما الثلج فى البلاد الثلجية فإنه يغطى الأرض ليحفظ البذور والنباتات الصغيرة من سطوة البرد كما يحفظ الماء الذى تحته فى الأنهار من أن يصير ثلجا وإلا لمات السمك ؛ فالثلج يحفظ نبات البرّ وسمك البحر ، قال هذا والله عجب عجاب ! فقلت : إذن الثلج نعمة على الحيوان والإنسان يحفظ البذر والسمك والنبات من البرد ؟ والبرد نعمة فيقتل الحشرات ويصلح الأرض للزرع ؛ فسبحان العظيم الخلاق .

فهنا إذن : (١) حشرات تخلق لتنظيف الجوّ وذلك بأ كلها الرطوبات المضرة بنا (٢) برد قاتل

لتلك الحشرات . (٣) ثلج مانع لذلك البرد القاتل أن يفتك ببذرنا وزرعنا الصغير . (٤) ثم ضوء الشمس المزيل للثلج فيخرج نباتا وينمو زرعنا ونعيش آمنين .

جهل الناس هذا الجمال ففزعوا إلى الروايات وأبرزوها بهيئة مسارح تسر الناظرين ، ولو أنهم رأوا هذا الجمال لبهرهم ، هذه هي الحكمة . حشرة نافعة في امتصاص الرطوبة ؛ فمتى أتمت واجبها ضربها البرد ، فمتى أتم واجبه منعه الثلج أن يضر الزرع الصغير ، فمتى أتم واجبه برزت الشمس . هذا هو الجمال وهذا هو العلم .

ومن هذا يفهم الناس معنى قوله تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء » انظر كيف وسعت رحمته ، انظر كيف كان ثلجه وبرده وحشراته كلها مهلكات ولكنها لحكمة عامة ، فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذا هو الذي يشرح الصدر ، ولكني أسألك سؤالا أهم من هذا ، إذا كان الله هكذا رءوفا رحيما فلماذا يميتنا ؟ وهل هذا فعل الرحيم ؟ فقلت هذا هو الذي أحب أن أكلمك فيه .

اعلم ان الأطباء في زماننا الحاضر في أمريكا وأوروبا يجدون أن في طاقتهم أن يطيلوا الأعمار ويزعمون أن هذا ممكن ، وأنا أقول لك : إنه مستحيل ومستحيل أن تطول الأعمار كما يشتهون ، نعم يعمر قوم على سبيل الندور والقلة ، أما أن طول العمر يعم في المسكونة فذلك لاسبيل إليه ، وذلك لأمرين : (الأول) أن الناس لو عاشوا ألف سنة أو خمسمائة سنة مثلا وتناسلوا لأصبحت الأرض لاتسعهم : أى لاتسع سكناهم وحدها فلا يجدون مكانا يجلسون فيه ، فيبقى الابن وابنه إلى الجيل العاشر أو الثانى عشر ، وهذا هو العذاب الأليم ، وإذن يقتل الناس بعضهم بعضا إن عاشوا ووجدوا قوتا ، ومن أين يكون قوتهم إذن ؟ (الأمر الثانى) أن هذه المادة التى نعيش فيها لو أنها خصصت بنا نحن ولم نلد ولم نولد وعشنا أعمارا طوالا لكان ذلك خطلا وخطأ (وذلك) لحصر النعمة في عدد معلوم من المخلوقات .

فأما الموت والحياة والحمل والولادة فإن معناه تكثير الأحياء فيعدون بمئات الآلاف من الأجيال بدل جيل واحد ، وأيضا لو كنا جيلا واحدا على الأرض أزلا وأبدا فما الذى نأكله ؟ أليست الحيوانات والنباتات؟ ولكنا فرضنا أن الأحياء لاتتجدد ، فما الذى نأكله بعد انقراض النبات والحيوان ؟ اللهم إلا إذا كان هناك (نظامان) : نظام لنا بالخلود وعدم الموت ، ونظام للنبات والحيوان بالتجدد وهو خطل في النظام ؛ فسبحان مدبر الكون ومبدعه .

هذا معنى قوله تعالى «ورحمتي وسعت كل شيء» فلما سمع صاحبي ذلك قال : كفى لقد أصبحت موقنا بسعة رحمة الله وعرفت أن أهل الأرض في الشرق والغرب نائمون وأحببت ما يحبه الله من حياتي الآن وموتي عند بلوغ الأجل ، وأيقنت أن أكثر هذا الإنسان غافل ساه ، ولو أنهم علموا مادار بيننا لم يكره أحد الموت . إن الله حكيم ، إن الله رحيم . هذه هي النعمة ، وهذه هي الرحمة .

إن هذا هو العلم الذى تسكون به سعادة النفوس وانشراح الصدور ، بل هذا هو السر المصون والجوهر المكنون ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

شهود المناظر العجيبة في محاسن الخليقة

أيها الذكى ها أنت ذا شاهدت معى منظرا ساحرا تخر له العقلاء للأذقان سجدا ، وقد شهدت هنا وفي مواضع كثيرة من هذا التفسير الذى جعله الله روضة من رياضه فيه جنات من نخيل وأعناب وفواكه مما يشتهون ؛ فها أنت ذا رأيت تلك الصور الساحرة ؟ إنها صور تمثيلية أو صور متحركة (سينما) إن الطبيعة أمام العقل الجامد جامدة وأمام العقول اللطيفة متحركة ساحرة باهرة جميلة المحيا .

فانظر رعاك الله هذه المناظر ؛ فهنا طائفتان : شاهد ومشهود (ذلك) أن الله عز وجل ألهم الناس أن

ينشئوا فى الأرض محالّ للتمثيل تمثل فيها الروايات بالأشخاص فى المسارح المشهورة ، ومحالّ أخرى للصور المتحركة كما ذكرناه ، والنظار من الناس يشهدون ، إذن الناس قسمان : شاهد ومشهود ، هكذا هنا فى الحكمة ، الناس فريقان : مشهود وهم علماء الأمم فى اللغات كالنحو والصرف والمعانى والإنشاء ، وفى العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك ، وفى الطبيعيات كعلوم المواليد الثلاثة وكالكيمياء والطبيعة وفروعها .

أما الشهداء لهذه المناظر العلمية فهم الحكماء والصدّيقون أولئك الذين يخلقون فى الأمم جيلا بعد جيل ، ويجيلون النظر فى تلك العلوم وينظرون إليها نظرة عامة كما ترى فى القرآن .

فهؤلاء هم الشهداء أشبه بالنظارة فى المسارح العامة ومشاهد الصور المتحركة ، هؤلاء نظرهم عام هم الذين يخلقون فى الأرض ليرشدوا الأمم لتلك العلوم ويهيئوهم للإصلاح ؛ وهم هم الأبرار الذين « يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » وهم « فى نعيم على الأرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » وسترى تفسير ختام المسك والرحيق هناك فى الجزء الأخير من هذا التفسير .

وستعلم أن ذلك يرجع إلى الحكمة والعلم واليقين ، فهؤلاء شهداء على الأمم يجيئون هنا إلى الأرض وفطرهم مولعة بحب الاطلاع والإصلاح ، وهؤلاء هم الأبرار الذين قال الله فيهم : « إن كتاب الأبرار لفى عليين وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم يشهده المقرّبون » فهؤلاء كتابهم فى عليين ، لأن علومهم وأنظارهم عامة .

فأما أصحاب العلوم الخاصة كالفقهاء والنحاة والفلكيين والرياضيين ، فإنهم مختصون بعمل فى المشهد العام ومسارح التمثيل فى الكون ، والأبرار هم الشهداء عليهم وهم الذين يعرفون كلا بسيماهم . وكتاب هؤلاء الأبرار يشهده المقرّبون من الملائكة عند الله تعالى ، لأن المقرّبين نظرهم كلى فهم يلاحظون هؤلاء المصلحين ويشهدون أعمالهم ويلهمونهم الخير فى الدنيا ، ولن يشهد المقربون أصاغر الأمم الذين ليسوا مشرفين على العلوم العامة والنظام الكلى ، لأن كتاب أولئك الأصاغر ليس فى عليين فليس كليا ، إن الأبرار والصديقين كتابهم فى عليين ، وهم من جهة أخرى مشهودون يشهدهم المقرّبون ، وهؤلاء هم الذين جاء فيهم قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » فالناس مختلفون ولكن هذه الطائفة من المفكرين هم الذين رحمهم ربك ، وإنما رحمهم لأن نظرهم عام وبه فهموا الرحمة العامة التى فى هذه الآية « ورحمتى وسعت كل شىء » وهؤلاء الأبرار هم من الذين يشملهم قوله تعالى : « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » إلى قوله « وأولئك هم المفلحون » .

إنى أرجو أن يكون هذا التفسير وأمثاله نواة صالحة لإنشاء فئة من المفكرين فى الأمم الإسلامية يكون مشربهم على نمطه فيكونون هم الأبرار وهم الصديقون وهم الشهداء على الناس وتشهد كتابهم الملائكة وهم الذين رحمهم ربك لأنهم يتحدون ، وباتحادهم تتحد الأمم الإسلامية المسكينة التى اختلف قوادها وأقطابها لجهالتهم الفاشية إلا قليلا منهم ، فهؤلاء الذين يقرءون ما كتبناه سيجدون أنهم على مشرب واحد فى سائر المذاهب الإسلامية فيوحدون الأمم الإسلامية جيلا بعد جيل ، والحمد لله رب العالمين . انتهى المبحث السابع .

المبحث الثامن

هذا المبحث هو المقصود من القصص المتقدّمة وهو إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم ، فلقد ذكر فى القصص

المتقدمة معجزات الأنبياء ، وأنها قوبلت بالإعراض . فأما رسولنا صلى الله عليه وسلم فإنه قال فيه « واتبعوا النور الذى أنزل معه » .

بدائع سورة الأعراف

اعلم أن هذه السورة تفيد أن الإيمان على قسمين : إيمان دائم يرفع إلى أعلى الدرجات ، وإيمان ناقص لايلبث أن يزول . والقسم الثانى إيمان العامة ومن نحا نحوهم من الأمم الجاهلة ، فإن الله عندهم لايعرف إلا بما يخالف النواميس الطبيعية ، والأنبياء والقديسين فى نظرهم لايعرفون إلا بما يخالف نواميس الطبيعة ، ولذلك ترى العالم الإنسانى من قديم الزمان وإلى هذا العصر يخضعون لكل من أدهشهم بأمر فوق طاقتهم فلا نبىّ إلا حيث يخرق النواميس ، ولا ولىّ مقدسا إلا حيث تقلب له الأوضاع ، فجاءت سورة الأعراف فنقضت هذه القضايا وكذبت هذه الدعاوى وأبعدت هذه الرزايا وأعتقت الجنس البشرى من التعويل على ما كان مخالفا للنواميس ، فقد ذكر كيف كفرت الأمم بعد الإيمان ، وكيف صدق السحرة فى الإيمان وكفر بنو إسرائيل بعد ما رأوا الآيات بالعيان ؟ فالمدار على الأنوار النفسية والعلوم العقلية والوقوف على الحقائق الكونية حتى تعرف الرحمة الإلهية ويمتاز الخبيث من الطيب ، إذ العامة ومن نحا نحوهم يعيشون ويموتون وهم مخدوعون ، إيمانهم تقليدى ودينهم لفظى ، فلا يعرفون النواميس الطبيعية ولا العجائب الفلكية ، ونفوسهم نائمة فلا يذكرون الله إلا إذا دهمتهم واقعة وصدعتهم قارعة وبطشت بهم باطشة ، فلا يذكرون الله إلا قليلا .

أما القسم الأول فهم الذين يرون الله عند كل حركة وسكون ، ونور وظلام ، وسهل وجبل ، وشمس وقمر ، وحجر وشجر ، لأنهم يعرفون نظام الطبيعة وإتقان الخليقة وعجائب هذه الدنيا .

وهذا معنى وصف القرآن هنا بأنه النور ، فالأنبياء عندهم يهدون الناس بطريق الحقائق ، والعلماء والمصلحون هم الذين يرشدون الناس بعقولهم لا بإنامة أفكارهم بالمدهشات والغرائب حتى تقف العقول عند ما وصل إليه الشيوخ ، وكم من شيخ كان الاعتقاد فيه سببا لوقوف عقل تلاميذه ، وكم دين كان الوقوف على ظواهره من أسباب الخلل فى النظام والجهل فى الأحكام ، ثم تفرّق الأمة بعد ذلك شذرمذر والناس تائهون لايعلمون مايصنعون .

واعلم أن هذا الفريق فى الأمة المحمدية اليوم كبير قد تركوا عقولهم وأناموا بصائرهم ، فهم بعد الصدر الأوّل عالة على الأمم ، وسيكون فى المستقبل منهم حكماء وعلماء دارسون لهذا الوجود ، مؤمنون بما صنعته يد الله فى كل موجود ، موقنون إيقان الحكماء لاتقليد الجهلاء .

هذا ماتتوقعه ونرجو الله أن يحققه ، هذا هو الذى سيكون فى أمة الإسلام فى مستقبل الزمان وسيقلّ تقليد الشيوخ الجاهلين الذين يقولون : الله لايعرف إلا بنظراتهم ، وسيعرف المسلم أن الله لن يعرف حق معرفته على قدر الطاقة إلا بمعرفة جمال هذه العوالم العلوية والسفلية و « لله الأمر من قبل ومن بعد — ولله عاقبة الأمور » .

ولما كان هذا هو شأن القرآن وهو الذى أوضحته فى سورة الأعراف التى يشير اسمها إلى معرفة المعانى العالية ، والحكم والآراء الثاقبة ، والعلوم العالية ، والأنوار المشرقة ، والشموس المتألقة ، والأضواء البارقة والقوّة الساحقة ، أخذ يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن هذه الحقيقة على رءوس الأشهاد ويقول (قل) يا محمد (ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) فإن الدين العامّ هو ما ناسب الفطرة ، والفطرة تأنس بالنظام ، فأما الخوارق النادرة فلا نظام فيها ولا ثبات ، وقوله « جميعا » حال من إليكم (الذى له ملك السموات والأرض) صفة لله تعالى (لا إله إلا هو يحيى ويميت) وإذا كان له ملك السموات والأرض وهو

المتصرّف فى الوجود وحده والحياة والموت من صنعه فإنى رسوله الدالّ على النظر فى نظامه العام ، فلا أعوّل إلا على النظام الطبيعى والعجائب الفلكية والغرائب الحكمية ، فهذا هو الذى أرسلت لأبينه ، وهو أرحم الراحمين وأنا أرسلت للناس رحمة ، ولما كانت هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله النبىّ الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته) ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه (واتبعوه لعلكم تهتدون) جعل رجاء الهداية مرتبا على الإيمان المذكور وعلى التقوى ، فمن آمن به وهو غير تقىّ فليس مهتديا .

ولما فرغ من وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستطراد رجع إلى قوم موسى فقال (ومن قوم موسى) يعنى من بنى إسرائيل (أمة يهدون بالحق) يهدون الناس بكلمة الحق (وبه) وبالحق (يعدلون) بين الناس فى الحكم وهم الثابتون على الإيمان فكأنه سبحانه يقول : إنا قد ذكرنا فى هذه السورة مخازى بنى إسرائيل وأنهم قوم خشنو العقول والطباع فقد عبدوا العجل ولهم مخاز كثيرة، وإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين تجتمع لهم الرحمات وتنزل عليهم البركات فهم أرقى من أمة موسى ، ولكن هذا لايدل على أن قوم موسى جميعهم فاسقون ، كلا فإن من قوم موسى طائفة قامت بالحق وحكمت بالعدل (وقطعناهم) وصيرناهم قطعا متميزا بعضهم عن بعض (اثنتى عشرة) مفعول ثان لقطع أى صير وقوله (أسباطا) بدل منه (أمما) بدل بعد بدل: أى جماعات وقبائل، والأسباط هم أولاد يعقوب ويعقوب هو إسرائيل وكانوا اثنى عشر (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه) فى التيه (أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست) أى فانفجرت (منه) من الحجر (اثنتا عشرة عينا) يعنى لكل سبط عين (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم وظللنا عليهم الغمام) ليقيهم حر الشمس (وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) واعلم أن هذا المقام تقدّم شرحه فى البقرة وقد وازنت هناك ما بين العصا التى ضرب بها موسى وبين عجائب الطبيعة التى أبرزها الله فى الأرض التى بها تنفجر الأنهار والمسلمون غافلون فارجع إليه ان شئت (واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية) أى اذكر، والقرية بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيآتكم سنزيد المحسنين) وهذا المقام تقدّم فى سورة البقرة أيضا فافهمه فيها (فبدّل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) كل هذا تقدّم فى البقرة ، ذكر ثلاث حوادث : اثنتان خاصتان ببنى إسرائيل والثالثة عامة لنوع الانسان .

أما الحادثتان الخاصتان ببنى اسرائيل فأولاهما مسألة القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ وذلك أن اليهود الذين كانوا يسكنون أيلة وهى العقبة وهى بلدة قريبة من البحر قد فعلوا أمرا مخالفا للشريعة فانهم فعلوا مع الله فى شريعته ما يفعل السارقون والنشالون وكذبوا عليه تعالى بحيل لفقوها وفتاوى شرعية كتبوها ؛ ذلك أن الله حرم عليهم كل عمل يوم السبت فاحتالوا على العمل فى ذلك اليوم بحيلة شيطانية كما يحتال صغار الفقهاء من المسلمين بالحيل الشرعية غرورا وجهالة . ذلك أن السمك فى يوم السبت كان يظهر فوق وجه الماء فتحاموا صيده ولم يمسكوه ولكن إذا رأوه داخل مكان فى جانب البحر جعلوا على مدخله سدّا فلا يفلت منه السمك حتى إذا كان اليوم الثانى انقضوا عليه فاصطادوه . فظاهر الأمر أنهم اصطادوا فى غير يوم السبت ولكن الحقيقة أن الصيد الحقيق هو فى يوم السبت فأنزل الله هذه الآيات على رسوله صلى الله عليه وسلم ليوبخهم ويقرعهم ويظهر لهم مكنون العلم الذى خبئوه فى التوراة وليفضحهم ويقول لهم : يا أيها الناس أنتم قديما وحديثا عاصون مخالفون تاركون لأوامر الله فأنتم أشرار الناس . وهذا قوله تعالى (واسألهم) يا محمد (عن القرية) وهى أيلة وهى قرية بين مدين والطور على شاطىء البحر الأحمر . وهذا معنى قوله (التى كانت حاضرة البحر) الأحمر : أى قريبة منه (إذ يعدون فى السبت) يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت،

وإذ ظرف لـكانت أى وقت يتجاوزون الحد (إذ تأتيهم حيتانهم) أى وقت تأتيهم حيتانهم (يوم سبتهم شرّعا) يوم تعظيمهم أمر السبت ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان (ويوم لايسبتون لا تأتيهم) أى ويوم لايدخلون فى السبت الخ (كذلك) مثل ذلك البلاء الشديد (نبلوهم بما كانوا يفسقون) واختلف أهل القرية إذ ذاك فكانوا فرقا ثلاثة : فقوم هم الخاطئون، وقوم نهوهم عن ذلك، وقوم سكتوا وقالوا للناهين : «لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا» الخ، وهذا قوله تعالى عطفا على «إذ يعدون» (وإذ قالت أمّة منهم) من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما أكثروا لهم من الوعظ للفرقة التىلاتزال تعظ الفرقة المخطئة (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) علما منهم أن الوعظ لاينفع فيهم (قالوا) وعظناهم (معذرة) أى وعظناهم للمعذرة (إلى ربكم ولعلهم يتقون) أى ولطمعنا فى أن يتقوا (فلما نسوا) أى أهل القرية (ماذكروا به) ماذكرهم به الصالحون، عبر عن ترك العمل بالنسيان للمبالغة فى تعريف ضلالهم (أنجينا الذين ينهون عن السوء) عن أخذ الحيتان يوم السبت (وأخذنا الذين ظلموا) بالاعتداء ومخالفة أمر الله (بعذاب بئيس) شديد ، من بؤس يبؤس بؤسا إذا اشتدّ (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم. عن الحسن قال: نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان . يقال إن الناهين لما أيسوا من اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم فجعلوا بينهم وبينهم جدارا فيه باب مطروق ثم فصل ذلك العذاب البئيس فقال : (فلما عتوا عما نهوا عنه) أى فلما أبوا أن يرجعوا عن المعصية وتمرّدوا فى العصيان (قلنا لهم) وهذا كقوله تعالى « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (كونوا قردة خاسئين) أى صاغرين مبعدين من كل خير . قال مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم . أقول : وسبب ذلك أن الانسان قد امتاز عن الحيوان وعن أعلاه وهو القردة بالفكر والعقل وهؤلاء لما طرحوا أفكارهم ظهريا وأرجعوا أمر التحريم والتحليل للألفاظ التى يتلاعبون بها نامت غرائزهم وصارت عقولهم مطيعة التقليد العلماء الضالين . والتقليد من شأنه أن يميت القوّة العاقلة وينزل الانسان إلى دركات البهائم وأقربها إلى الانسان القردة ، فكأنه تعالى يقول إن الذنوب والمعاصى هى التى سلبتهم عقولهم فرجعوا إلى البهائم وصفاتها من عدم التعقل (أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون) وهذا التفسير هو المناسب لعصرنا الحاضر ، ألا ترى أن المسلمين لما كثر فيهم الجهال من صغار الفقهاء وقالوا لهم اعرفوا العلوم الفقهية وقصروهم عليها كيف أصبح كثير منهم كالقردة واستعبدهم أهل أوروبا . فياعجبا كل العجب مالى أرى هذه القصة منطبقة تمام الانطباق على أمّة الاسلام . نحن معاشر المسلمين إلا قليلا منا فعلنا فعل اليهود . ألم يترك كثير من المسلمين العلوم والمعارف وهى مفروضة عليهم . ألم يترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاسيما من حكمهم أهل أوروبا . ألم يكن اقتصارهم فى الطهارة والنجاسة على طهارة الثوب والبدن وترك نجاستهما داعيا إلى عدم العناية بالطهارة من الكبرياء والحسد والغلّ والحقد وما أشبه ذلك . إن اقتصارنا على ظواهر العبادات وطرحنا ظهريا طهارة نفوسنا وأخلاقنا دعا إلى تفريق كلمتنا وتأخر تجارتنا وسياستنا وزراعاتنا وصناعاتنا .

فنحن نظرنا إلى الظواهر كما نظر اليهود إلى ظاهر لفظ الصيد ولم نعبأ بالباطن كما لم يعبئوا هم بالحقائق وأن المدار على حقيقة الصيد فهذه الآية منطبقة علينا تمام الانطباق .

تذكرة للمؤلف أيام المجاورة بالجامع الأزهر

لقد كنت أيام المجاورة بالجامع الأزهر الشريف قبل أن أتعلم التفسير أقرأ هذه الآيات فى ظلمات الليالى والنجوم ظاهرة ، والأضواء باهرة ، وآيات الله فى الجو حافلة ، والجمال باهر ، والشوق للحكمة والعلم سافر فأقول ياليت شعرى ماهى البلدة التى كانت حاضرة البحر وما اسمها وما اسم البحر ؟

وكنت أتعجب من قوله تعالى : « واسألهم الخ » وكانت هذه الآراء تأخذ من قلبي كل مأخذ وأبيت مفكرا فيها بشوق وتوق لامزيد عليهما . هكذا كنت إذا سمعت ذكر الأوّلين ومبانيهم أجد فى النفس شوقا كثيرا إلى معرفة مابنوا وما تركوا للخلق ، وكأن الله ألهم الأمم أن تبنى مصانع ليتعجب الخلق فيشتاقوا للمعرفة ولجاراتهم فيما يصنعون ، وأوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم شذرات من التاريخ للعظة وليكون تشوقا إلى إحاطة الآخرين بما فعل الأوّلون . فهذا العالم قائم بناؤه على الأشواق والتذكير .

ذكرى للمسلمين بهذه القصة وبكاء ابن عباس رضى الله عنهما

روى عكرمة عن ابن عباس قال: أسمع الله يقول : « أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس » فلا أدرى ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكى ، قال عكرمة فقلت له جعلنى الله فداءك ألا تراهم قد أنكروا وكرهوا ماهم عليه وقالوا « لم تعظون قوما الله مهلكهم » وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فأعجبه قولى ورضى به وأمر لى ببردين فكسانيهما وقال نجت الساكتة . اهـ

أقول فياليت شعرى لم بكى ابن عباس . إن ابن عباس بكى لما علم أن الله لايغفر لمن سكت عن النهى عن المنكر ، وغاية الأمر أن الأقوال التى قالوها دلت على أنهم قد عملوا آخر مايقدرون عليه .

فياعجبا كل العجب . علم ابن عباس ماسيكون من العقاب لهذه الأمة على سكوتها . سكتت الأمة الإسلامية عن نهى المجرمين منها ، أجرم كثير من المسلمين ، أجرموا بالجهل ، أجرموا بالبهتان والكذب والبغض ، أجرموا بترك الصناعات والعلوم والمعارف ، أجرموا وأجرموا وأجرموا ، فماذا حصل ؟ . أغار الفرنجة عليهم ثم استخدموهم كالحيوانات بجز صوفها وشرب لبنها ، وهذا مثل ما ذكره الله فى قوله : « كونوا قردة » والقردة مطيعة القائم بتدبير شأنها ، فترى الرجل يأخذ القرد فى الأسواق فيرقصه ويضرب له على الطبل، وهكذا وهوفى جميع أموره تابع لأمر سيده ، هكذا الأمم الإسلامية لما ابتليت بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شاع الجهل وذاع الذل والصغار لأنهم تركوا مواهبهم فأصبحوا للفرنجة مسخرين ، وللطغاة خاضعين وللظالمين صاغرين ، وقد آن أوان مجدهم وبزغت شمس يوم عزهم وسيكون لهذا القول وأمثاله من كتاب الإسلام أثر فى القلوب الواعية ، ووقع فى النفوس العالية ، وسيقوم فى المسلمين طائفة تخرجهم من هذه الحال القردية إلى حال الإنسانية ، وقد ابتدأ الترك والأفغان والعجم والمصريون وغيرهم أن يوقظوا العقول وينبهوا النفوس ، والله هو الولىّ الحميد .

مستقبل اليهود بعد ذنوب آبائهم

قال تعالى : (وإذ تأذن ربك) أى أعلم (ليبعثن عليهم) اللام للقسم : أى كتب الله على نفسه ليسلطن على اليهود (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى من يوليهم أى يعذبهم بأشدّ العذاب فكانوا يؤدّون الجزية للمجوس فلما جاء الاسلام ضربها عليهم وقد سلط عليهم بختنصر وسنجاريب وملوك الروم وهؤلاء هم الذين نفوهم من ديارهم بعد رفع المسيح بنحو سبعين سنة ، والمراد من هذا العذاب ، العذاب الدنيوى ، ومعلوم أمر اليهود اليوم وقد قامت باذلالهم دولة القياصرة فى الروس قبل زوالها ، وكذلك قام الألمان اليوم على بعض اليهود فقتلوهم ، وهم أينما حلوا كانوا شديدى العصبية لأنفسهم ، ثم ختم المقال سبحانه بقوله : (إن ربك لسريع العقاب) لمن أقام على الكفر (وإنه لغفور رحيم) لمن آمن منهم . ولما كان اليهود قد حكم عليهم أن يعذبوا من الدول إلى يوم القيامة لشدّة عصبيتهم ذكر الله تفصيل أحوالهم فقال تعالى : (وقطعناهم فى الأرض أمما) أى وفرقناهم بحيث لايكاد يخلو قطر منهم ولا يكون لهم شوكة (منهم الصالحون)

الذين آمنوا (ومنهم دون ذلك) ناس منحطون وهم الفسقة أى ومنهم ناس منحطون عن الصلاح فمحل دون ذلك الرفع وهو صفة للموصوف المحذوف الذى ذكرناه (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) بالنعم والنقم والخصب والجدب (لعلهم يرجعون) ينتهون فينيبون إلى الله (فخلف من بعدهم) من بعد المذكورين (خلف) وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثوا الكتاب) التوراة ووقفوا على مافيها من التحريم والتحليل والأمر والنهى ولم يعملوا بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) هو حال من الضمير فى ورثوا والعرض: المتاع، أى حطام هذا الشىء الأدنى يريد الدنيا ومايتمتع به منها وهو من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام وعلى تحريف الكلم والتعبير بالأدنى يشعر بالتخسيس والتحقير (ويقولون سيغفر لنا) لايؤاخذنا الله بما أخذنا والفعل مسند إلى الأخذ أو إلى الجار والمجرور وهو لنا (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) الواو للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرّون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى الميثاق المذكور فى الكتاب (ألا يقولوا على الله إلا الحقّ) أى أخذ عليهم الميثاق فى كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق وهو عطف بيان لميثاق الكتاب (ودرسوا ما فيه) وقرءوا مافى الكتاب وهو عطف على قوله « ألم يؤخذ عليهم » لأنه تقرير كأنه قيل أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا والمحارم (أفلا تعقلون) أنه كذلك (والذين يمسكون) يعتصمون ويتعلقون (بالكتاب وأقاموا الصلاة) خصها بالذكر لأنها عماد الدين ولأن العبد فيها يناجي ربه فهى صلة بينه وبين ربه وإلا فالكتاب فيه كل عبادة وأمر ونهى (إنا لانضيع أجر المصلحين) إنا لانضيع أجرهم .

انتهى الكلام على إحدى الحادثتين الخاصتين باليهود وما فرّع عليها من الحكم والمواعظ وتحريم الرشوة وأن التوبة الزائفة الكاذبة المصطنعة التى ينتحلها الكاذبون من جهلة المسلمين لاتفيد ولا تنفع وكيف تنفع التوبة اللفظية والنفس طامحة إلى ذنوبها ، غارقة فى بحار شهواتها ، عازمة على اقتحامها مصممة على انتهاك حرماتها ، ذلك شأن كثير من قضاة المسلمين وحكامهم وأرباب الجاه فيهم وبعض الفقهاء الغافلين الآثمين .

الكلام على الحادثة الثانية الخاصة باليهود

قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) أى قلعناه ورفعناه فوقهم ، وأصل النتق الجذب (كأنه ظلة) سقيفة وهى كل ما أظلك (وظنوا) وتيقنوا (أنه واقع بهم) ساقط عليهم لأن الجبل لايثبت فى الجوّ ولأنهم كانوا يوعدون به ، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم ، وقيل لهم إن قبلتم مافيها وإلا ليقعنّ عليكم ، وقلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب (بقوّة) بجدّ وحزم على تحمل مشاقه وهو حال من الواو (واذكروا مافيه) بالعمل به ولا تتركوه كالمنسىّ (لعلكم تتقون) قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق . وهذا كله تقدّم فى سورة البقرة ، انتهت الحادثة الثانية الخاصة ببنى إسرائيل .

ذكر الحادثة الثالثة العامة لجميع نوع الإنسان

ههنا فرغ سبحانه من القصص التى ذكرها فى هذه السورة وقد تبين فيها ما يعترى الأمم من الهلاك إذا عصت الناصحين تحقيقا لما جاء فى أوّلها من هلاك القرى ليلا أو نهارا وأهلها يقرّون بأنهم ظالمون ، فها هو ذا هلاك القرى المتقدّم وأن كل أمّة تقرّ عند الهلاك أنها كانت ظالمة ، فههنا ذكر سبحانه الحجة العظيمة والآية الكبيرة التى تعمّ الأمم كلها .

ذلك أن الأمم جميعها قد نصبت لها الدلائل وقامت لها الحجج وظهرت لها بوارق الحقّ فى آفاق السماء ومناكب الأرض وفى الأنفس التى أجملها فى أوائل السورة فى قوله تعالى « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ » فالعجائب الكامنة والبدائع الواضحة فى هذه العوالم العلوية والسفلية هى العهود والمواثيق التى

أخذها الله على الناس أن يؤمنوا بالله وأن يعدلوا فى أحكامهم ويصدقوا فى أقوالهم ، وأنت لو سرت فى شرق الأرض وغربها لوجدت الأمم كلها مغرمة بالبحث فى الحقائق ، عاكفا عظماؤها على درس هـذا الوجود ، لافرق فى ذلك بين أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى وأمريكا ، وهذا الاندفاع فى الاستطلاع هو الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، لأنهم بيحثهم يعرفون أن للعالم صانعا ، ومصداق ذلك أنك ترى الأمة المصرية بين القرن السابع والعشرين قبل الميلاد والقرن الثانى عشر قبل الميلاد أيضا قد بحثت فى جميع الفنون والعلوم والنظام والحكمة وسائر وجوه الأعمال الإنسانية ، وهكذا الصين فى ذلك الوقت فقد كانت الأخيرة تمارس الزراعة والفنون الصناعية وكانت لها تجارة واسعة وسياسة اجتماعية وقوانين ومدارس عامة ويعرفون الفلك والطب والموسيقى والنحت والنقش ، هكذا قال وزير معارف الصين .

وترى أنه بعد ذلك فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد ظهر هناك حكماء يبحثون شرقا وغربا فى نظام هذا العالم ؛ فكما كان الفيلسوف الإغريقى (إمبدوقليس) يقول إن العناصر أربعة كان نظيره فى الصين (كى تسو) يقول إن العناصر خمسة ، وأدخل فيها الخشب والمدن وأخرج الهواء ، وبينما العلامة (سقراط) اليونانى يستعمل المحاورة مع التلاميذ لاستخراج الحقائق كان فى الصين الفيلسوف (لاوتسو) و (شوانج تسو) يعلمان الرياضة والطبيعيات والمنطق والسياسة والآداب وكذلك (كونفوسيوس) الذى كان يعلم قواعد السلوك .

ثم انتشرت البوذية فى الشرق الأقصى أى بلاد الصين فى الوقت الذى ظهرت المسيحية فى الشرق الأدنى وفى أوروبا وهو القرن الأول للميلاد ، ثم إنه بينما كانت الأمم الصينية فى القرون الوسطى إلى القرن السابع عشر أشبه بأوروبا من حيث أن أتباع كونفوسيوس كانوا ذوى فلسفة أشبه بفلسفة أوروبا ، إذ ذاك كانت أمة الإسلام هى النبع الأصلى الذى أنقذ أوروبا من الجهالة ، وانتشرت آراء ابن رشد من الأندلس إلى سائر أوروبا فارتقت وذلك فى القرن السابع عشر والثامن عشر وما حولهما ؛ فأما الصين فقد تنبهت إلى بعض العلوم الظاهرية كاللغات ونحوها إذ ذاك ، فأما الآن فالعالم الإنسانى كله يريد أن يتجه إلى العلا سالكا طريقا معينا فى العلوم والمعارف وهو نتيجة ما كان عند المصريين واليونان والرومان وأهل بيزنطية والعرب .

هذا هو التاريخ المجمل للديانات فى الأرض والفلسفة ، وجميع هذا دالّ على أن الإنسان خلق مغرما بالبحث والتنقيب والتفكير لا فرق بين الشرقى والغربى والناس جميعا يستمدّ بعضهم من بعض ، فههنا يقول الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيتهم) أى أخرج من أصلابهم نسلهم ؛ فبعد أن كانوا فى أصلاب الآباء خرجوا إلى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود (وأشهدهم على أنفسهم) بما ركب فيهم من العقول التى قدّمنا ذكر نتائجها فى مصر وأوروبا والصين والإسلام ، وأراهم عجائب خلقه وغرائب صنعه التى أجملناها فى هذا المقام شرقا وغربا ؛ فبهذا الإشهاد صاروا كأنهم قيل لهم (ألست بربكم) وكأنهم (قالوا بلى) وذلك بما أظهر لهم من الدلائل التى تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم بما ركب فيهم من العقل والفكر والفهم ، فقالوا بلى (شهدنا) على أنفسنا أنك أنت ربنا ، وهذا مجاز لاحقيقة ، ومثل هـذا فى كلام العرب مشهور .

ثم اعلم أن أكثر المفسرين فسروا الآية بوجه آخر لأنهم رووا أحاديث فى هذا المعنى ، منها ماروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذرّ ثم كلمهم قبلا وقال: ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » . وفى رواية أخرى « أنه لما خلق آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذرّيته كالذر وكتب أرزاقهم وآجالهم ومصائبهم » .

وهذا

وهذ القول قد توسع فيه المفسرون وقالوا إنه يدل أن هذا الذر خرج من صلب آدم ثم خرج بعضه من بعض على الترتيب الذي رأيناه في الدنيا ، ثم ركب فيه العقل والفهم وخوطب وأجاب ، ثم رجع الذر من حيث أتى في صلب آدم وكان ذلك إشارة إلى عالم آخر كنا فيه ، والأحاديث لم تذكر إلا هذه الرموز التي بين فيها أن من كان هناك شقيا فهو شقي هنا وكذلك السعداء .

ولتعلم أن علم الأرواح يفيد أن الناس كانوا قبلا في عالم غير هـذا وهم هنا على ما كانوا عليه هناك ، وسيكونون بعد الآن على ماهم عليه الآن ، وهذا يشابه تلك الأحاديث من حيث الإجمال ويخالفها من حيث التفصيل « وفوق كل ذي علم عليم » قال الله تعالى فعلنا ذلك كراهة (أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وفي قراءة بالتاء الفوقية (أو تقولوا) عطف على أن تقولوا (إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فاقتدينا بهم ، وكيف يصح التقليد مع قيام البرهان (أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك (وكذلك) أي مثل ذلك التفصيل البليغ (نفصل الآيات) ليتدبرها العباد (ولعلهم يرجعون) أي عن التقليد واتباع الباطل ، انتهى القسم الثامن .

(القِسْمُ التَّاسِعُ)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ

كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ *

التفسير اللفظى

اعلم أن ماسبق فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام وما مضى فى سورة الأعراف التى نحن بصددها الآن مملوء من الحكم والمواعظ لاسيما فى هذه السورة التى جاء فيها ذكر آدم وإبليس

وما تبع قصتهما من أحكام اللباس والتقوى وأهل الجنة وأهل النار والأمر بالنظر فى السموات والأرض وقصص الأنبياء وأممهم وكيف أهلكوا بتقصيرهم وتكذيبهم لاسيما أقرب الأمم إلينا وهم اليهود .

فهذه السورة جاءت عظة واعتبارا بذكر خراب الأمم ودمار أهلها وإهلاكهم متى كذبوا بآيات الله وانصرفوا عنها ، فلذلك أعقب ماذكر بقوله (واتل عليهم) اقرأ عليهم يامحمد (نبأ) خبر الحبر وهو من أحبار بنى إسرائيل سيأتى ذكره ، أو أمية بن أبى الصلت من شعراء الجاهلية الذى آمن قلبه وكفر لسانه كما سيأتى تفصيل قصته ، أو كل منافق من أهل الكتاب يعرف صفته صلى الله عليه وسلم ويجحده أو كل من عرض عليه الهدى فلم يؤمن ، فوصف الواحد من هؤلاء جميعا بقوله (الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) أى فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره (فأتبعه الشيطان) فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له (فكان من الغاوين) فصار من الضالين الكافرين (ولو شئنا لرفعناه) إلى منازل الأبرار من العلماء (بها) بتلك الآيات (ولكنه أخلد إلى الأرض) مال إلى الدنيا ورغب فيها ، فإن الدنيا عبارة عما فى الأرض من المدن والضياع والمتاع والمعادن والنبات الخ (واتبع هواه) فى إيثار الدنيا ولذاتها ، ومقتضى المقابلة أن يقال ولكنه أخلد إلى الأرض ، فحططناه ووضعنا منزلته فأتى الله بما هو أبلغ فى الحط فقال (فمثله) أى فصفته التى هى مثل فى الخسة والدناءة (كمثل الكلب) كصفته فى أخس أحواله ، وهو (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث : إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند التعب والإعياء ، يقول الله إنه يلهث دائما سواء أحمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولم يتعرض له بخلاف سائر الحيوانات ، فلا يكون اللهث منها إلا إذا حركت ، أما الكلب فإنه يلهث فى الحالين .

فهذا مثل ضربه الله لمن آتاه الله حكمة فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات ، وهو الكلب فى أخس أحواله وهو اللهث ؛ فكما أن الكلب يلهث على كل حال سواء أشددنا عليه وهجناه أم تركناه ، هكذا من أوتى حكمة وعلما ولكنه كفر أو جعل العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا وابتزاز أموال الناس بالباطل فإنه واقع فى الجهالة والمنزلة الوضيعة سواء أوعظناه أم تركناه ، فكأن هذه الحال الوضيعة أصبحت طبيعة له لاتفارقه ، فإن أعطيناه العلم أو لم نعطه فإنه لايترك حاله التى هو بها متلبس .

وقد ترى العالم الذى أغناه الله عن التعرض لحطام الدنيا الخسيسة يميل إلى طلبها فهو يقرؤها ويقررها ويبالغ فى تقريرها لاطلبا لمرضاة الله تعالى ولا ثوابه ، ولكن طلبا لزيادة الرزق الذى هو مستغن عنه بالكفاف فهو يدلع لسانه فى تقرير العلوم لأجل الرزق فكانت حاله كحال الكلب يلهث فى الحالين .

وهذا يتظاهر بالبلاغة ليحصل على ماليس فى حاجة إليه من المال ، فكأنه يلهث فى الحالين : حال البؤس وحال الرخاء فأصبح العلم وسيلة لغرض خسيس وأصبح العالم فى هذه الحال مثله كمثل كلب ألبس ملابس الوزراء وأجلس مع الملك على سرير الملك فلمح عظما منبوذا أو عرقا ملقيا بعتبة الباب فأسرع إلى التقاطه ونبذ الوزارة والوزراء والملك والعظماء وأخذ يهشم العظم هشما ويقضمه قضما راجعا إلى طبيعته مسرعا إلى سليقته ، فليس للملك عنده من قيمة ولا يرضى إلا بطبيعة أبناء جنسه .

هذا تقرير هذا المثل بطريق الإجمال ، قال الله تعالى (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعنى أن المثل الذى ضربناه الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فعم هذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها .

فوجه التمثيل أنهم جاءتهم الرسل ليهدوهم فلم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا فهم ضالون على كل حال كالكلب يلهث على كل حال سواء أحملنا عليه أم تركناه .

[موازنة بين ذكر الكلب في كلام العرب وذكره في هذه الآية]
نقلا من كتابي مذكرات في أدبيات اللغة العربية

شبه الإنسان الودود بالكلب في حكاية مروية عن بدوي استدعاه أمير فأكرمه فمدحه بما رآه في الصحراء من الدلو والتيس والكلب ، قال :

أنت كالدلو لاعدمناك دلوا من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالكلب في حفاظك للودّ وكالتيس في قراع الخطــوب

وقال بعض الشعراء :

جزاني جــزاه الله شرّ جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقال عمرو بن كلثوم :

وقد هرت كلاب الحيّ منــا وشذّبنا قتادة من يلينا

يقول : كلاب الحي صوّتت منا وقطعنا شوك القوم الذين أمامنا فلا قوة لهم على محاربتنا ، ويقول الشاعر :

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بدينار

هــذا نوع مايقوله العرب إذا ذكروا الكلب تمثيلا ، فوازن بين هذا وبين مارأيت في قوله تعالى « واتل عليهم نبأ الخ » وكيف كان التمثيل ناهجا منهج الحكمة والعلم وتعليم العلماء أن يترفعوا عن سفاسف هذه الدنيا وأن يعرفوا قيمة النعمة العلمية ، فهل خطر هذا لأعرابي في شعره ؟

إن العالم قد يحجب عن نعمة العلم التي هو من رحمة الله الواسعة فيتدلى إلى خسائس الكلاب ، فبهذه الآية يعرف قدر نفسه ، وهذه أسمى درجات البلاغة التي لا تخطر لمتعلم فضلا عن بدوي في الصحراء اهـ .

ثم قال تعالى « (فاقصص القصص) القصة المذكورة على اليهود وغيرهم يامحمد (لعلهم يتفكرون) تفكرا يؤدّي بهم إلى الاتعاظ (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي ساء هو : أي المثل ، وقوله « مثلا » تمييز ، وقوله « القوم » أي مثل القوم ، وقوله « وأنفسهم كانوا يظلمون » معطوف على قوله « كذبوا » فهو داخل في حيز الصلة : أي الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم .

ولما كان هذا المثل وصفا لحال الضالين أعقبه بأن الضلال والهدى من عند الله ، فالمهتدون والضالون بمشيئة الله اهتدوا ، وبمشيئة الله ضلوا ، وهذه الصفات القائمة بهم من كفر وإيمان وهدى وضلال وصلاح وطلاح خلقت لهم على حسب استعدادهم ومقتضى أحوالهم ، والحكيم العدل من يضع الأمور في مواضعها ويجعلها في مواطنها ولا يحيد عن الحقائق ، وهذا مقتضى التربية والنظام ، وهــذا قوله (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) والناس على هذه الأرض مختلفو الطبائع والغرائز ، ولكل صفات تخصه وتميزه عمن سواه ، فمن غلب عليهم الجحود والعصيان فهم كنبات الشوك والحنظل وكل مايؤذى الناس ويألمون منه وأولئك هم أصحاب النار ، ومن غلب عليه حب الطاعات والمعارف والعلوم فهم كالأشجار النافعة كالنخل واللوز وأولئك هم أهل الجنة .

الكلام على الأولين

وإلى الأولين أشار سبحانه بقوله (ولقد ذرأنا) خلقنا (لجهنم كثيراً من الجن والإنس) وهم المعرضون عن تدبر آيات الله فكفروا أو عصوا أمر الله (لهم قلوب لايفقهون بها) الحق ولايتفكرون فيه (ولهم أعين لايبصرون بها) الرشد (ولهم آذان لايسمعون بها) الوعظ (أولئك كالأنعام) في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر (بل هم أضل) من الأنعام لأن الأنعام لم يخلق فيها العقل فلا تكليف عليها والإنسان عاقل مكلف فاذا ترك النظر والتفكر تنزل إلى درجة البهائم وانحط عن درجته فهو إذن أضل من الأنعام التي تطلب منافعها وتهرب من مضارها وتقوم بالأعمال التي تطلبها غرائزها وهو لم يقم بما يطلبه عقله (أولئك هم الغافلون)

الكاملون فى الغفلة . وكيف لايكونون تامى الغفلة وقد شاركوا البهائم فى القلوب والأبصار والأسماع ولم يمتازوا عنها بالبحث والتنقيب حتى يستنتجوا أن لها صانعا حكيما متصفا بصفات الجلال والجمال التى تدل عليها الأسماء الحسنى ولذلك أعقبه بقوله (ولله الأسماء الحسنى) الصفات العليا: العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها. أو الأسماء التى هى أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة والحسنى تأنيث الأحسن وحسنها إنما يكون بمعانيها ولا معنى للحسن فى حق الله تعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال . وترجع إلى معنيين عدم افتقاره لغيره وافتقار غيره إليه ؛ فمن تلك المعانى ما هى حسنة بحقائقها كالقدم والبقاء والقدرة والعلم والوحدة، ومنها ماهى حسنة بآثارها كالغفران والرحمة والشكر والحلم ، وقوله (فادعوه بها) أى سموه بتلك الأسماء أو ادعوه لقضاء حوائجكم ولالدعاء شروط كأن يستحضر الداعى عظمة المدعوّ مع الإخلاص والتعظيم ويعزم المسألة راجيا الإجابة فذلك له تأثير عظيم، ثم قال تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) أى يميلون عن الاستقامة كما كان المشركون يقولون اللات والعزى ومناة لأصنامهم اشتقاقا من الإله والعزيز والمنان . وفى هذا دليل أن أسماء الله توقيفية فلاتقول ياسخىّ أو ياعاقل أو ياطبيب مع أنا نقول ياجواد وياعالم وياحكيم . وفى الحديث روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر» وفى رواية أخرى «من أحصاها». وخير مافى تفسير هذا ماقاله بعضهم: من أطاقها وأحسن المراعاة لها والمحافظة على مايقتضيه واجبها وصدّق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة . فالحفظ يراد به لازمه وهو المعنى ثم التخلق لأن حفظها شىء يسير والإسلام دين جعل الجنة فى مقابلة الأخلاق والعلوم والآداب والأعمال . فالتخلق بأسماء الله من القدس والرأفة والعلم الخ يجعل العبد قريبا من ربه كما فى الحديث «تخلقوا بأخلاق الله» . وقال الحكماء: القصد من الفلسفة هو التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية . وقد ورد فى رواية الترمذى عدّ هذه الأسماء وهى الله الذى لا إله إلا هو الخ . وهى معروفة . وقال الشيخ النووى الحديث لايدل على حصر أسماء الله فى ذلك العدد . وقد قال الحافظ أبو بكر بن العربى المالكى عن بعضهم إن لله ألف اسم ، قال ابن العربى وهذا قليل ؛ وبالاجمال لايجوز تسمية الله بما لم ينزل به سلطان ولذلك قال فيمن يلحدون فى أسمائه (سيجزون ما كانوا يعملون) فى الآخرة تهديد لمن ألحد . وهذا نهاية الكلام فى الأولين وهم الذين ذكرنا أنهم كنبات الشوك والحنظل وهم أصحاب النار .

الكلام على الآخرين

وأشار إلى الآخرين وهم الفريق الذى هو كشجر النخل واللوز ونحوهما وهم أهل الجنة بقوله (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهؤلاء فى مقابلة الملحدين . واستدل العلماء بهذه الآية على صحة الإجماع لأن المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله صلى الله عليه وسلم : «لاتزال من أمتى طائفة على الحق إلى أن يأتى أمر الله» . وروى «أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ، ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» . وفى البخارى ومسلم عن معاوية قال: وهو يخطب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لاتزال أمتى قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» .

فانظر كيف جاء فى الوحى مايشهد به العقل ، ألا ترى أن الله لما خلق الخلق أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، فاذا أوحى إلى النحل وإلى النمل وإلى العنكبوت وألهمها أعمالها وسياساتها ونظامها لافرق بين ما كان فى زمن الطوفان ومابين حيوان مستقبل الزمان .

هكذا جاء فى هذه الآية والأحاديث أن فى أمة اليهود السابقين على الإسلام هداة للصلحة العامة، وهكذا أمتنا الإسلامية لابد أن يظهر فيها هداة ينبغون جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن لأن الله هو القائم بتدبير خلقه، ومن أجل الهداية التى ألهمها لعلماء هذه الأمة فى هذا الزمان ومستقبل الزمان النظر فى عجائب السموات والأرض واستيعاب جميع العلوم كما هو مقصود كتابنا المقدس.

ثم أخذ سبحانه يبين كيف يعامل الفريق الأول وهم المكذبون فقال: (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم) سنستدنيهم إلى الهلاك قليلا قليلا، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة (من حيث لايعلمون) ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله بهم فيزدادوا بطرا وانهماكا فى الغى حتى تحق عليهم كلمة العذاب (وأملى لهم) وأمهلهم عطف على « سنستدرجهم » (إن كيدى متين) إن أخذى شديد وسماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان كالذى يحصل لمن يأكل من الطعام ما لذ وطاب ويكثر الألوان فان عاقبته المرض والضعف، وكمن أعطى أموالا كثيرة فاستغرقت جميع أوقاته فى الفكر والهم واللذات، فهذان يظنان أن الله قد قربهما منه وهما يشاهدان الأنعام تستلذ بالمراعى فوق لذتهما وقد كثرت أقواتها فى الأرض، وهذان لايسعدان إلا بما يحفظ الصحة ويزكى النفس ويرفعها عن السفاسف.

ولما نسبوا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجنون نزل (أولم يتفكروا ما بصاحبهم) محمد صلى الله عليه وسلم (من جنة) من جنون. روى أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا يحذرهم بأس الله فقال قائلهم إن صاحبكم لمجنون بات يصوّت إلى الصباح. يقول الله أولم يتفكروا فيما بينهم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ثم نفى عنه الجنون بقوله: « ما بصاحبهم من جنة » ويصح أن يقال أولم يتفكروا فيعلموا مابصاحبهم من جنة (إن هو إلا نذير مبين) موضح إنذاره بحيث لايخفى على ناظر. إن الناس عادة يصفون من خالفهم وعرف ما لم يعرفوا وأسمعهم مالم يكونوا يسمعون بأوصاف منكرة على مقدار مخالفتهم فى صفاتهم وأحوالهم.

فلذلك وصف العرب النبى صلى الله عليه وسلم بالجنون فقيل لهم: كلا مابه من جنون فتفكروا فى أمره وتدبروا فى أحواله وانظروا فى أقواله فما هو إلا نذير لكم يبين عاقبة أموركم ويوقفكم على مستقبل أنفسكم وإن شككتم فى أمره ولم تؤمنوا بقوله فانظروا بأنفسكم وتفكروا بعقولكم وتأملوا فيما ذرأ الله فى ملكوت السموات والأرض والأشياء التى خلقها والأجناس التى نوّعها، والعجائب التى أبرزها، وكيف لاتتفكرون ولاتتدبرون والموت يناديكم، والآجال تناجيكم، والدنيا تزجيكم. أرسلنا رسولا منكم فكذبتم، وقلنا انظروا فى ملكنا فأبيتم وتربصتم وغمتم، وقلنا ألا تخافون الفوات ولحوق الممات وضياع البلاد بالهلاك والآفات فلم تعوا مايقال ولم تزيدوا إلا ضلالا وطغيانا، فبأى حديث بعد هذا البيان تؤمنون، أم بأى وعظ تنتفعون، أم أى قول تعقلون، إن أنتم إلا قوم ضالون « ومن يضلل الله فلا هادى له » لأن استعداده فى الضلال أبقاه وهو فى الطغيان مغمور وفى عمه البصيرة الذى هو أشد من البصر مقبور. « فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور». وكيف يفلح من أحاطت به النذر من كل صوب فتعامى، جاءه نبىّ فلم يع مايقول، وأعطى السمع والبصر والعقل فلم يتصرف بها فى معقول ولا منقول، وقد غشته النذر من بين يديه ومن خلفه وهو مشغول ثم لايدرى أقريب أجله أم بعيد، وإذا كان أمر الآجال مجهولا وأمر الساعة والقيامة العامة مبهما لاتعلموا ما، فكيف يستقر له قرار، أو يكون له اصطبار، إن أمر الساعة مجهول وليس يظهر أمرها فى وقتها إلا الله، وإنها لعظيمة على أهل السموات والأرض، ولا تأتى إلا بغتة فقد أخفاها الله كما أخفى الآجال فلم يعلمها الأنبياء والمرسلون. ومن ذا يملك لنفسه منهم نفعا أو ضرا، أم من ذا الذى يعلم الغيب من الأنبياء وهم يصابون كما يصاب الناس بالآلام والمجائع؛ ولو أنهم علموا الغيب لاحترسوا

لأنفسهم ولتوقوا الشر الذى يقعون فيه ولم يمسهم سوء يرتكبون فيه ؛ فالأنبياء وسائر الناس سواء فى أنهم يجهلون الغيب وهم جميعا مبتلون بالخير والشر ، فجهل الساعة وجهل الآجال ليتم الامتحان ، فكيف إذن يذر الناس التفكير فى هذه العوالم المشاهدة وفى ملكوت السموات والأرض ، إن الناس لهذا التفكير خلقوا ، بل كل ماجاء فى هذه السورة مقدمة لهذه الآيات ، أى قوله تعالى : (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض الخ .)

هذا ملخص قوله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » إلى قوله (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقوله « أولم ينظروا » أى نظر استدلال فى الملكوت : أى الملك العظيم ، وقوله (وأن عسى) أن مصدرية والتقدير أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض العظيم وفى اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ماينجيهم قبل الموت ونزول العذاب ، وقوله (فبأى حديث بعده يؤمنون) كأنه قيل لعلّ أجلهم قد اقترب فما بالهم لايبادرون للإيمان والأعمال الصالحة . وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق؟ وأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به ، وقوله (فى طغيانهم) أى كفرهم (يعمهون) يترددون (يسألونك عن الساعة) هى من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا ، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق (أيان) متى مشتق من أىّ على وزن فعلان منه لأن معناه أىّ وقت (مرساها) إرساؤها كالمدخل بمعنى الإدخال أو وقت إرسائها أى إثباتها والمعنى متى يرسيها الله (لايجليها لوقتها إلا هو) لايظهر أمرها فى وقتها إلا هو (ثقلت فى السموات والأرض) أى إن أهل السموات والأرض أهمّ كل واحد منهم شأن الساعة وتمنى أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وثقل عليه ، أو ثقلت فى السموات والأرض لأن أهلها يخافون شدائدها وأهوالها (بغتة) فجأة (يسألونك كأنك حفىّ عنها) عالم بها فعيل من حفى عن الشئ إذا سأل عنه ، فإن من بالغ فى السؤال عن الشئ استحكم علمه به (نفعا ولاضرا) جلب نفع ولا دفع ضر لنفى ادّعاء علم الغيب (إلا ما شاء الله) من ذلك فيلهمنى إياه ويوفقنى له (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) أى ولو كنت أعلمه لخالفت حالى ماهى عليه وذلك باستكثار المنافع واجتناب المضارّ حتى لايمسنى سوء (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة .

جوهرة فى تفسير قوله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأىّ حديث بعده يؤمنون »

اعلم أن النظر فى ملكوت السموات والأرض إما واجب وجوبا عينيا . وذلك على كل قادر على النظر وليس ذلك الواجب عينيا لأجل معرفة الله للإيمان فقط . كلا . بل هو واجب لأمرين :

(الأوّل) ازدياد المعرفة كما قال تعالى « وقل رب زدنى علما » .

(الأمر الثانى) الشكر لله تعالى . ومعلوم أن الشكر علم وعمل ، والعلم يرجع النظر فى هذا العالم ، فالشكر واجب بإجماع علماء الأصول وهو فى آيات كثيرة فى القرآن فهو واجب بالنص فى القرآن وبالإجماع .

والنظر فى النبات والحيوان وغيرها والفلك والنجم . كل هذا واجب كما قررناه فى أكثر مواضيع هذا التفسير .

وإما واجب وجوبا كفائيا وذلك هو النظر لازدياد السعادة الدنيوية للأمم الإسلامية . إن الله عز وجل قال « ورحمتى وسعت كل شئ » وقال « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » .

إن هذا الكون الذى نسكنه قد ملأه الله بالنعم وأباح لنا التزود منها وأوجب على الأمة كلها أن تخصص منها جماعة لاستخراج منافعها . وذلك هو المسمى [فرض الكفاية] بإجماع العلماء أيضا . فكما أجمعوا على الشكر أجمعوا على فرض الكفاية كما شرحته فى سورة المائدة عند ذكر الغراب ، وفى البقرة عند قوله تعالى « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » وبينت هناك إجماع العلماء، وتوبيخ الإمام الغزالى وتقريعه لعلماء الإسلام لجهالتهم ونومهم وإنامتهم للمسلمين فى زمانه .

فإذا كانت رحمة الله وسعت كل شئ . وإذا كان المسلمون كتبت لهم هذه الرحمة . وإذا كانت الصناعات كلها فرض كفاية والصناعات التى بها ارتقاء الثروة من أهمها . فكيف رقى المسلمون صناعاتهم » . يقول الله « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة » .

انظر كيف كتب الرحمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يؤتون الزكاة وهم المأمورون بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم . الله أكبر المسلم يؤتى الزكاة والمسلم ينظر فى ملكوت السموات والأرض لئلا يفجأه الموت وهو غافل ، والمسلم هو الذى ينظر ليزداد علما ويزداد شكرا لربه . والمسلمون فرض على جماعة منهم أن يرقوا المسلمين فى الصناعات والعلوم، الله أكبر هل قام المسلمون بهذا ؟ هل قبل المسلمون رحمة الله الواسعة ؟ هل أعدّوا العدّة للارتقاء كالأمم حولهم إن لم يفوقوهم . كلا والله لاهذا ولا ذاك أصبحت كل الأمم علماء إلا المسلمين . كل الأمم تعلم جميع أفرادها رجالا ونساء إلا المسلمين . وإنما تعلموا جميعا ليستخرجوا كنوز ربهم من أرضه .

وبعبارة أخرى يطلبون رحمته من أرضه . أما المسلم فيقول أنا أعطى الزكاة من المال الموجود ولا أبحث عن غيره وأترك رحمة الله تتسرب لغير المسلم . كتب الله الرحمة لنا فى الدنيا والآخرة فلم نتعرّض لها فى الدنيا واكتفينا بالآخرة التى لم نعمل لها .

سيقول جاهل أنا يجب علىّ أن أخرج الزكاة من المال الذى عندى ولكن لايجب علىّ أن أسعى لجمع المال ولا لشيوع الصناعات فى الإسلام .

وهذا القول الذى هو كامن فى قلوب صغار العلماء فى الإسلام مردود مكذوب بأن ذلك فرض كفاية . وكيف نترك تلك العلوم وتلك الصناعات حتى أصبحنا أذل أمة فى هذه الأرض التى نسكنها ، أصبحنا غرباء فى ديارنا لجهلنا والفرنجة لعلمهم برحمة ربهم يستخرجونها من أرضنا وذلك لجهلنا وكفرنا بنعمة ربنا وإن كنا مؤمنين به .

ومما يحزن المسلم أن يقف مكتوف اليدين عند إعلان هذا الخبر فى الجرائد المصرية يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ الموافق ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ وهاهو .

التفنن فى اصطناع السكر

وفق أحد علماء الكيمياء فى المدّة الأخيرة إلى اصطناع السكر من (حثالة الخشب) إتماما لنبوءة أحد العلماء الألمانيين الذى قال منذ بضع سنين ما يأتى [سيأتى يوم يأكل فيه قراء الجرائد جرائدهم بعد قراءتها وتحويل أجزائها إلى طعام] .

وقد تحققت نبوءة العالم الآن إذ ورد إشعار على المجمع الكيماوى البريطانى من الدكتور (أورماندس) يقول فيه : إنه ابتكر طريقة جديدة لأجل تحويله حثالة الخشب (النشارة) إلى سكر ، وذلك بعد معالجتها بالحامض الكلوريك .

وقال إن ذلك السكر يفيد جدًّا كسائر أصناف السكر للطعام ، وقد جاء هذا الابتكار محققا لثورة

التهديد التي كنا نتلقاها بأن معين الأطعمة لابدّ أن ينضب في القريب العاجل ، وقد ابتدع الكيميون المختصون بوزارة الزراعة الأمريكية وسيلة أخرى لاستخراج السكر من الذرة الصفراء اهـ .

هذا هو الذي نشر في الجرائد اليوم ، المسلم مأمور بالزكاة في المال إن وجد المال ، ولكنه من جهة أخرى مأمور بالعلوم والصناعات هذا بإجماع العلماء ، وقد قال إمام الحرمين وكثير من العلماء إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين ، لأن الإنسان بقيامه به قد خلص المسلمين من ذنوب تعمهم ، فمن قام بعمل مثل هذا بأن عمم صناعة أو علما فقد أعطى المسلمين آلاف آلاف أضعاف مايعطى الرجل من الزكاة ، الزكاة محدودة والصناعات والعلوم لاحدّ لهما كما ترى في الاختراع المذكور في هذا المقام .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة ، قيل أرأيت إن لم يجد ؟ قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدّق ، قال أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف ، قال أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يأمر بالمعروف أو الخير ، قال أرأيت إن لم يفعل ؟ قال يمسك عن الشر فإنها صدقة » أخرجه الشيخان ، ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل سلامى[1] من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع عليه الشمس ، قال تعدل بين الاثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، قال والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول .

هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل على المسلم صدقة كل يوم على أصغر أعضائه فأكبرها أولى وأشار إلى أن الأعمال جميعها صدقات سواء أكانت رفعا للأذى أم جلبا للنفعة العامة ، فقوله صلى الله عليه وسلم يعمل ويتصدّق ، إشارة إلى أن المسلم يغترف من رحمة الله ولا يقتصر على ماهو موجود .

إن أوروبا قطعت خطوات واسعة والمسلمون واقفون بل ناكصون على أعقابهم ، ونبينا صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالعمل ، والعلماء نصوا على ذلك ، والله يقول « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » وها أنا ذا قد نبهت وبينت وأفصحت وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى كل عالم أن يبين للناس ما نزل إليهم وما بيناه في كلام الله وما عرفه من عقله أو من كلام العلماء ، فهذا زمان يجب فيه الجهر بالحقيقة فإن المسلمين في غفلة وستنقشع الغشاوة عن أعينهم قريبا إن شاء الله تعالى .

ثم قال تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) هو آدم (وجعل منها) أي من جنسها ، لقوله تعالى « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » (زوجها) حوّاء (ليسكن إليها) ليستأنس بها ويطمئنّ إليها اطمئنان الشيء إلى جنسه (فلما تغشاها) جامعها (حملت حملا خفيفا) خف عليها ولم تلق منه ما تلق منه الحوامل غالبا من الأذى (فمرت به) فاستمرت به وقامت وقعدت (فلما أثقلت) صارت ذات ثقل إذ كبر الولد في بطنها (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا) ولدا سويا قد صلح بدنه (لنكوننّ من الشاكرين) لك على هذه النعمة المجدّدة (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) أي جعل أولادهما لله شركاء فيما آتى أولادهما فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد شمس (فتعالى الله عما يشركون . أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) وقد دخل في ذلك أبناء قصيّ من قريش وهم أربعة : عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الدار ، فهؤلاء قد جعلت أسماؤهم دالة على الشرك ، وقوله « وهم يخلقون » أي الأصنام (ولا يستطيعون لهم نصرا) أي

(١) السلامى كحبارى : عظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل جمع سلاميات اهـ قاموس في مادّة السلم .

لعبدتهم (ولا أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها ما يعتريها (وإن تدعوهم) أى الأصنام (إلى الهدى) أى إلى أن يهدوكم (لا يتبعوكم) أى لا يجيبكم إلى مرادكم كما يجيبكم الله (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) عن دعائكم فى أنه لا فلاح معهم ولا يجيبونكم (إن الذين تدعون من دون الله) تعبدونهم وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أى مخلوقون مملوكون أمثالكم (فادعوهم) لجلب نفع أو دفع ضرّ (فليستجيبوا لكم) فليجيبوا (إن كنتم صادقين) أنهم آلهة ؛ ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم فقال (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ؟) البطش الأخذ الشديد فى كل شىء (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟) فلم تعبدون ما هو دونكم (قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم فى عداوتى (ثم كيدون) أى بالغوا فيما تقدرون عليه من مكر أنتم وشركاؤكم (فلا تنظرون) فلا تمهلون فإنى لا أبالى بكم لوثوق بولاية الله وحفظه (إن وليى الله) أى الذى يتولى حفظى ونصرى عليكم هو الله (الذى نزّل الكتاب) القرآن ، والمعنى كما أيدنى بإنزال القرآن علىّ ، كذلك يتولى حفظى ونصرى (وهو يتولى الصالحين) يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشرّ .

فإذا كانت هذه عادته فى الصالحين من عباده فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوّروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه وهم لا يبصرون المرئى (خذ العفو) أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلب ما يشق عليهم ، والعفو ضدّ الجهد ، وكل ماجاء بلا كلفة : أى اقبل الميسور من أخلاق الناس ، ولا تستقص عليهم فيستقصوا عليك فتتولد من ذلك العداوة والبغضاء (وأمر بالعرف) المعروف والجميل من الأفعال وكل خصلة يرتضيها العقل (وأعرض عن الجاهلين) ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم ، وفسرها جبريل عليه السلام بقوله « أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك » .

قال جعفر الصادق رضى الله عنه : ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله بعثنى لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال » .

قال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم فكيف بالغضب يارب ؟ فأنزل الله عز وجل (وإما ينزغنك) ينخسنك (من الشيطان نزغ) نخس ووسوسة وريب ، والنخس : الغرز شبه وسوسته الناس إغراء لهم على المعاصى وإزعاجا بنخس السائق مايسوقه من أنواع الدواب (فاستعذ بالله) فامتنع بالله من وسوسته واستجر به والجأ إليه فى دفعه عنك (إنه سميع) يعنى لدعائك يسمع استعاذتك (عليم) يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها مغنيا إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان) لمة منه وهو اسم فاعل من طاف كأنّ اللمة والنخسة طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم ، وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان ، وأن عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته (تذكروا) ما أمر الله به ونهى عنه (فإذا هم مبصرون) فأبصروا السداد والصواب ودفعوا وسوسته بسبب تذكرهم مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه فيها ، هذه حال الذين اتقوا .

ثم أعقبه بحال الذين لا يتقون وهم المشركون والفساق وأتباع الهوى ، فقال (وإخوانهم) أى وأما إخوان الشياطين من الذين لم يتقوا فإن الشياطين (يمدّونهم فى الغىّ) أى يطيلون لهم فى الإغواء حتى يستمروا

عليه أو يزيدونهم فى الضلالة (ثم لايقصرون) لايمسكون عن إغوائهم ولا يكفون عن الضلالة ولايتركونها، قال الكلبي : لكل كافر أخ من الشياطين .

وروى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامنكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال وإياى إلا أن الله أعانني عليه فأسلم» بالرفع : أى فأسلم أنا من شره ، والخطاب فى الآية لعموم نوع الإنسان : أى وإما ينزغنك أيها الإنسان الخ .

اعلم أيها الذكى أن هذا الحديث وهذه الآية من الأمور السمعية التى لم يعرفها الناس بالعقل ولم ترد لهم إلا من السمع ؛ فالشيطان لايعلمه الناس إلا من سبيل الدين .

هذا هو المعروف فى سائر الديانات وفى دين الإسلام ، ولكن قد كشف العلم اليوم هذه المعانى وامتلأت به المحافل فى أوروبا وألفت فى مثل هذا الموضوع آلاف آلاف المجلدات فى عالم الأرواح الموسوسة والأرواح الملهمة ، والغرب بهذا قرير العين، أما المسلمون فهم لايعلمون عن هذه الحركة إلا قليلا وقد أصبحوا يخاطبون الأرواح فى آلاف المجالس ، وقد أخبرتهم أن الأرواح الشريرة توسوس للأحياء بما كانت تفعله فى الدنيا لأنها فى برزخها تفرح بكل ماتشاهد مما يماثل أفعالها فتوسوس لمن على شاكلتها أن يفعل فعلها وهو شر ، لأن هذا هو الذى يسرها ، وقد تفعل ذلك انتقاما من ذلك الشخص معاقبة له على ماارتكب معها من الإثم فى حياتها الدنيا ، والأرواح لاسلطان لها على النفوس الراقية والقلوب المخلصة والعقول الكبيرة المفكرة .

هذا كلام الأرواح وقد ألفت كتابا فى هذا الصدد سميته [كتاب الأرواح] وقد أشرت إليه فى هذا التفسير من قبل وهذا من أعظم معجزات القرآن ، وكيف يوافق الكشف والعلم الحديث ماجاء فى القرآن الكريم ويكشف الغامض من عجائب هذه العوالم الغائبة عنا، وكيف تنطق الأرواح اليوم بنفس ماشرحه نبينا صلى الله عليه وسلم وما جاء فى القرآن فلتتعجب أيها العاقل !

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض ماينزغ به الشيطان ، فأفاد أن الكفار كانوا يقترحون على النبى صلى الله عليه وسلم آيات : أى معجزات باهرة كأن يزيل جبال مكة وينزل عليهم كسفا من السماء ، فإذا أبطأ ماطلبوه قالوا هلا طلبتها من الله ؟ فأمر أن يقول لهم « إنما أتبع مايوحى إلى من ربى » هذا القرآن بصائر القلوب ، بها تبصر الحق أبلج ، وهذا قوله تعالى (وإذا لم تأتهم بآية) مما اقترحوه (قالوا لولا اجتبيتها) هلا طلبتها من الله (قل إنما أتبع مايوحى إلى من ربى) لست بمقترح للآيات ، إن الآيات لاتنزل إلا تخويفا وأنا إنما أرسلت للتعليم والتبصير ، فكيف أقترح مالم يفد الأمم السابقة كما اتفق لبنى إسرائيل الذين عبدوا العجل لأن إيمانهم مبنى على مشاهدة المحسوسات والغرائب المحيرة للعقول كقلب عصا موسى حية ، ولو أنهم كانوا مستبصرين متعقلين ما كفروا بعد إيمانهم (هذا) القرآن (بصائر) تبصركم وجوه الحق (من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) به ، فكيف تعدلون عنه إلى تلك الخوارق التى لاتقوم بها قائمة الأمم فإنما أرسلت لأخرج الناس من عالم الخيال إلى الحقائق والمعارف الحقة .

فالقرآن سبب لبصائر العقول فى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم المسبب .

ولما كان القرآن بصائر للناس أخذ يأمرهم بالالتفات إليه فقال (وإذا قرئ) عليكم أيها المؤمنون (القرآن فاستمعوا له) اصغوا له بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه وحكمه (وأنصتوا) عند قراءته ، والإنصات السكوت للاستماع ، يقال نصت وأنصت وانتصت ، وهذا واجب على مايأتى من محامل الآيات والأحاديث الشريفة :

(١) إما على العموم فى أى وقت وفى أى موضع فى الصلاة أو فى الخطبة أو غيرهما فيجب على كل مسلم فى ذلك كله الاستماع والإنصات للقرآن ، وهذا قول الحسن وأهل الظاهر .

(٢) وإما فى الصلاة وحدها ، وجاء فى الحديث « أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن » . وأيضا « كان بعضهم يسلم على بعض فى الصلاة فنهوا بهذه الآية » ، وأولهما مروى عن أبى هريرة والثانى عن عبد الله بن مسعود .

(٣) وإما لترك الجهر بالقراءة خلف الإمام ، فقد كانوا يقرءون مع قراءته . وأيضا يرفعون أصواتهم عند ذكر الجنة والنار ، وهذا عن أبى هريرة للأول وعن الكلبى للثانى .

(٤) وإما فى الخطبة يوم الجمعة ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء .

(٥) وإما فى قراءة القرآن وعند الخطبة عند بعضهم .

واعلم أن هذه السورة مكية ولم تشرع الخطبة إلا فى المدينة ، فما جاء فى القول الرابع والخامس من حمل الآية على الخطبة ضعيف ، وقد اتفقوا على وجوب الإنصات عند سماع الخطبة للحديث الذى رواه الشيخان فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت » .

هل تجب القراءة خلف الإمام ؟

(١) تجب القراءة على المأموم سواء أجهر الإمام بالقراءة أم أسر عند عمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ والأوزاعى والشافعى .

(٢) لايقرأ المأموم سواء أسر الإمام أم جهر عند جابر وأصحاب الظاهر .

(٣) يقرأ فيما أسر الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما يجهر الإمام فيه عند ابن عمر وعروة والقاسم والزهرى ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحق .

(٤) لايقرأ فى الحالين وهو لجابر وأصحاب الرأى .

هذا ملخص ماجاء فى تفسير قوله تعالى « فاستمعوا له وأنصتوا » وأما قوله تعالى (لعلكم ترحمون) فمعناه لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به ، ولما كانت قراءة القرآن نتيجتها تهذيب الأخلاق والعلم ومعرفة الأحكام .

وهذه كلها مقدمات لما هو أرقى منها وهو ارتقاء النفس وعروجها إلى عالمها وتخلصها من هذا العالم المظلم أردفه بما هو أعلى فقال (واذكر ربك فى نفسك) أى استحضر فى قلبك عظمة الله جل جلاله فى الصلاة وفى قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك من سائر الأذكار ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين ، وقوله (تضرعا وخيفة) أى متضرعا وخائفا : والضراعة الخضوع والاستكانة والذل للغير ، وقوله (ودون الجهر من القول) يعنى ومتكلما كلاما دون الجهر ، لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ، وقوله (بالغدو والآصال) أى بأوقات الغدو والعشيات لفضل هذين الوقتين ، والغدو جمع غدوة . والآصال جمع أصل جمع أصيل : وهو مابين صلاة العصر والمغرب .

واعلم أن هذين الوقتين تتجلى فيهما عظمة الله وحكمته وآياته الكبرى وعجائبه المدهشة من إشراق الشمس وبهجة ضيائها ونورها وجمالها وجلابيبها السبعة وهى الألوان المشتبكة المتداخلة المشرقة على المخلوقات الأرضية فى الغدوات وهى الحال الأولى ، ومن إقبال الظلام وإشراق الكواكب التى لاعداد لها على آفاق المكونة وأضوائها المشتبكة فى الجو ، وذلك يوجب للمتأمل عظة وانشراح صدر ومعرفة بعظمة الخالق .

واعلم أن ما ذكرته لك لايفطن له أكثر الناس فترى الشمس مشرقة غاربة ذات بهجة فى الحالين وهما المشرقان والمغربان ، بل إن كثيرا من المصلين وقت الصبح والعصر لايفكرون فى جمال الشمس فى إشراقها ولا فى غروبها ولا يوجهون أنظارهم إلى ما يحيط بهم من جمال الله الذى كسا به هذه القبة الزرقاء وغطى به وجه الغبراء وبدّل حالهما كل يوم وكل ليلة فلذلك أعقبه بقوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله فتخفى العادة عليك لتكرار الشروق والغروب وأنت ساه لاه قد أفسد اعتيادهما واطرادهما عليك تفكيرك ولتكن مفكرا ذاكرا متذكرا بتقلب الظلام والضياء عليك خالق الكائنات ومدبر الحركات التى اطردت فى سائر الأزمان بتدبير الملأ الأعلى من الملائكة الذاكرين لربهم عسى أن تلحق بذلك العالم بعد موتك فى جوار ربك (إن الذين عند ربك) مكانة ومنزلة وهم الملائكة (لايستكبرون عن عبادته) لايتعظمون عنها (ويسبحونه) وينزهونه عما لايليق به (وله يسجدون) ويخصونه بالعبادة والتذلل لايشركون به غيره .

روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «عليك بكثرة السجود لله فإنك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

لطائف القسم التاسع

اللطيفة الأولى

اعلم أن هذه السورة اشتملت على التحلية وعلى التخلية كما أوضحناه سابقا ، فالتخلية غلبت فى قصص الأمم الضالة التى أماتها وأزالها من الوجود ما تخلقت به من الظلم والفتك وتطفيف المكيال والميزان وما أشبه ذلك . فأما التحلية فقد تجلت فى مواطن شتى منها ، وأهمها موطنان:

(الأول) ما جاء فى أوائلها من ذكر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد فسرت هناك فارجع إليها إن شئت .

(والموطن الثانى) ما جاء فى القسم التاسع فإنه بعد أن ذكر أنه ذرأ لجهنم كثيرا من الجن والإنس لا أحلام لهم ولا فكر وجعلهم كالأنعام أخذ يذكر أن له أسماء حسنى . ولا جرم أن الأسماء ذوات مدلولات ومدلولها صفاته سبحانه وتعالى من العلم والقدرة وغيرهما وهذه الصفات لها آثار وآثارها ما نشاهد من العالم الجميل الذى نعيش فيه فلذلك أتبعها بعد آيات بقوله « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » ثم قال « فبأىّ حديث بعده يؤمنون » فكأن الأسماء لاتراد إلا معناها وآثارها وهذا الإنسان جاء فى هذه الأرض لدراسة الآثار حتى يعرف الصفات .

وهذه الآثار هى الكون بسائر مظاهره العجيبة وآياته الغريبة . ولذلك ذكر اقتراب الآجال فى هذا المقام وأتى بالاستفهام على سبيل التعجب فقال « فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » وبأى سبيل يهتدون إذا لم تكن هذه السبيل رائدهم . وإذا لم يمارسوا العلم والحكمة والتغذى بالعلوم فما هى حياتهم وما فضل وجودهم فى الدنيا وما قدر بقائهم فيها ؟ .

إن الآجال قاطعة فليحذر الناس الفوات وليدرسوا هذه الدنيا ونظمها وعجائبها وغرائبها فإن هذه هى الوسيلة لارتقائهم والطريق لسعادتهم وهى أجنحتهم التى بها يطيرون وقوائمهم التى بها يسيرون ومعارجهم التى عليها يعرجون .

وإن فى ذكر الآجال واقترابها كما قدمنا لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين . وكيف لايكون كذلك وأنت تعلم من هذا التفسير وما تقدم فيه أن العلوم كما تكون معارج الأفراد للارتقاء فى الدنيا والآخرة تكون معارج الأمم أيضا وأبهما حرمها حرم سعادة الحياة .

والبرهان على ذلك ما ترى من انقطاع حبل المسلمين وضعفهم واستكانتهم للجهالة العمياء بهذه العوالم المحيطة بنا كأنهم ما خلقوا فى الوجود وكأن أعينهم فى غطاء وأسماعهم فى غشاء .

ومن المحزن أن يدّعى وعاظهم وصغار العلماء فيهم أن الدين لاينظر لهذه العلوم إلا شذرا وذلك من مصائب الزمان والحرمان العام .

ومن قرأ العلوم من شبانهم فى أوروبا رجع كليل الطرف وهو حسير ودعا بالويل والثبور على الأديان ومروّجيها والعبادات ومتبعيها إلا أفاضل منهم وأهل جدّ وعقل راجح ، فأولئك لهم قدم صدق وهم كثير — والحمد لله — فى الإسلام .

ولما أشرقت شمس العلوم فى أوروبا وأضاء فى أنحاء الشرق شعاع منها وأتت إلى مصر أنوارها أيام المغفور له محمد على باشا وخلفائه حسد الأوروبيون للمصريين أهل بلادى على نعمة العلوم وخافوا أن يرجع مجد العرب لسابق عهده ويستردّوا مجده الخالد وفخره التالد كما كان فى عصر النبوّة .

انقضوا على مصر فاحتلوها وانتزعوا العلم منها انتزاعا وأضاعوها . هكذا شأن الفرنجة فى بلاد الإسلام قاطبة اليوم . وجعلوا التعليم فى مدارسها صورة مجوّفة أو قبرا مبيضا أو برا منفضا . وقد درست أنا فى مدارس البلاد نحو (٣٠) سنة وأنا أرى التلاميذ يجهلون كثيرا من هذا الوجود بعد أن كان آباؤهم أيام محمد على باشا يدرسون كما تدرس أوروبا .

ولما أذاعوا فى العالم أنهم ردّوا إلى بلادنا استقلالها وكان أغلب المتعلمين قد درسوا دراسة سطحية إنجليزية كتبت مقالا لمجلسى النواب والشيوخ ولدولة وزير المعارف وقد نشرته جريدة المقطم يوم الخميس ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٤ الموافق ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٤٢ تحت عنوان [مذكرة التعليم الثانوى بالمملكة المصرية] وستراه إن شاء الله فى المجلد الخامس من هذا التفسير . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ»

لقد نظرنا نظرات فى هذا التفسير فيما خلق الله من شئ فلننظر نظرة الآن فيما خلق الله فى هذا العالم ومن أين جاءت الحياة إلى الأرض غير ما ذكرناه فيما تقدم .

اعلم أيها الذكى أن العلماء فى هذا العصر اضطربت آراؤهم فى أصل الكائنات الحية . ومتى خلقت ؟ وهل يخلق الحىّ من غير حىّ ؟ وقد قدّروا أنها كانت قديمة العهد جدّا قبل الآن بمائة مليون سنة تقريبا .

وأنت تعلم أيها القارئ مما تقدم كيف كانت الأرض دائرة حول الشمس ولها أخوات يسرن معها حولها وبينهنّ مسافات معلومة مرسومة فيما تقدم أيضا . والشمس جاذبة لهذه السيارات . وهذه الأرض والسيارات مركبة من معادن وصخور وموادّ ملتهبة كالتى تتركب منها الشمس . والشمس تزن سبعمائة مرة مجموع الكواكب التى تدور حولها وهى مقدار وزن الأرض ٣٢٤ ألف مرة .

وهناك فى السماء عوالم تسمى (السدم) جمع سديم أشبه بسحاب غير ظاهر التكوين وله مركز أشدّ وضوحا مما حوله . فهذه السدم تملأ فراغا وتصنع فيه حركات دورية وهى لم تزل فى حال التكوين . فهذا يفيد أن الشمس وما حولها قد كانت على هذه الحال قديما .

وقد وجدوا من هذه السدم ٦٠ ألفا . وقد وجدوا حركات ذلك السديم وتكوّنه شيئا فشيئا وهو دائر حول المركز أشبه بمجال سائل فى الإناء كزيت مثلا أدرناه فإنه ينقسم إلى دوائر وحلقات تدور حول المركز كما تدور السيارات حول الشمس .

ثم إننا إذا نزلنا جوف الأرض ارتفعت الحرارة درجة بميزان (سنتجراد) كلما نزلنا نحو ٣٠ مترا وفى عمق مائة كيلومتر تبلغ الحرارة ثلاثة آلاف درجة وهى تحوّل أغلب المواد إلى نار ملتهبة . ونصف قطر الأرض

يبلغ

يبلغ ستة آلاف كيلومتر . وعليه يكون الملتهب فى باطنها عظيما جدًا كما تقدم . وهنا يبتدأ الكلام على أصل الحياة .

(١) الحىّ يتكوّن من غير الحىّ كما تتولد الفيران وثعابين السمك من الطين ودود الجبن منه . وهذا قول العامّة وبعض القدماء .

(٢) الحىّ لايتولد من الجماد ودود الجبن إنما هو مخلوق فى الدور الأوّل ليكون ذبابا فهو من نوع الحشرات فقد باض الذباب بيضه ثم صار دودا ثم يصير ذبابا . وقد بين العلامة (ريدى) و (سوميدام) والراهب الإيطالى (سبلانزانى) فى القرن السابع عشر فساد تكوّن الفيران والسمك من الطين والدود من الجبن خلافا لقول القدماء .

(٣) إن بعض الحيوانات ذات الخلية الواحدة تتولد فى السوائل مثل منقوع الأوراق .

(٤) نفى هذا القول وأنكره العلامة (شلس) و (شفان) و (ملن ادوارس)

(٥) المكروبات وهى الحيوانات الدقيقة جدًا التى لاترى تتكوّن من الموادّ غير الحية .

(٦) ونفى هذا القول العلامة (باستور) و (كوخ) بتجاريب لامحل لذكرها .

وبهذا ثبت أن الحىّ لايتولد إلا من حى . فمن أين جاءت الحياة ؟!

(١) كانت الحياة قبل الآن والأرض ملتهبة وعدم إمكان التولد الذاتى الآن لايمنع وجوده قديما . وهذا رأى العلامة (ارنست هيكل) .

(٢) أفسد هذا الرأى أن العلماء الباحثين حاولوا بكل الطرق التجريبية أن يحدثوا حياة فلم يفلحوا فهل حال البحار الأولى إلا حالة من الحالات التى نوّعها العلماء بالتجارب .

(٣) الحياة لم تأت الآن ولم تأت قديما على هذه الأرض بل أتت على شكل حيوانات دنيئة وصلت إلى الأرض محمولة على قطع صغيرة أو كبيرة من كواكب أخرى فى وقت أن كان الوسط مناسبا وهو قول (رشتر)

(٤) قال (هلمهز) و(تمسن) و(ارينوس) رأيا قريبا مماتقدم: إن الأنواع الدنيئة كبذور الحيوانات الدنيا تنفصل باستمرار من الكواكب وإن ضوء تلك الكواكب وضوء الشمس هو الذى يطرد تلك الجراثيم ويبعدها فى الفضاء وهى محرومة من الماء ومن الهواء وواقعة تحت برد قارس (٢٢٠) درجة تحت الصفر وهذه المقذوفات تصل فى كل لحظة إلى الأرض وغيرها ونحن لانراها . هذه الآراء فى أصل الحياة وفيما خلق الله من شئ تريك صورة ماوصل إليه علم العلماء وحكمة الحكماء وفهم العقلاء فى هذا الكون . ولعلك تقول وما فائدة هذه المباحث وما أغراضها ؟

أقول : إن هذه المباحث هى التى أمر الله بها لنقف على حقائق الأشياء ؛ فإن هذه المباحث قد أنارت لنا السبل فعلمنا أن الحىّ لايتولد إلا من الحىّ ورأينا كيف خضعت العقول وقهرت النفوس ووقفت الآراء وعجزت عن أصل الكائنات وسرّ المخلوقات .

وهذا يفيدنا أن هناك حياة أرقى ومقاما أجل وعلما أعلى ، وبه نفهم قوله تعالى فى سورة أخرى «ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » وكلما ازددنا فكرا زدنا هدى وبصيرة وعلما فنعلم أن الحياة من عالم أرقى من عالمنا « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

اللطيفة الثالثة فى قوله «يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو »

لقد ذكرنا فى هذا التفسير فيما تقدم مقالات كثيرة فى الحياة بعد الموت فلأذكر لك الآن عجائب من العلم الحديث لتقف على علم العلماء وحكمة الحكماء فاعلم أيدك الله :

(١) أن عالما يسمى (لونهوك) شاهد سنة ١٧٠١ أن حيوانا يبلغ طوله مليمترا وهو يعيش على الطحلب وعلى السقوف وفى مجارى الأمطار الأزلية لما جففه وأصبح ترابا بقى خمسة أشهر لا أثر للحياة فيه ثم لما غمره بالماء رجع إلى الحياة مرة أخرى وأخذ يسعى ويتغذى .

(٢) وفى سنة ١٧٤٣ شاهد العلامة (بندهام) وغيره نفس هذا الأمر . ذلك أن الناس يشاهدون بعض حب القمح مصابا بمرض فيكون ضعيفا متغير اللون فلما بحث العلماء هذا الحبّ وجدوا فيه عجبا عجابا مثل العلامة (بندهام) المذكور، وتفصيل ذلك أن هناك حيوانات صغيرة جدّا تعيش فى سنابل القمح وتبيض فيها وتفقس ويخرج من بيضها علقات تسبح حتى تدخل تلك الحبات ويكون فى كل حبة من تلك الحبات من عشرة آلاف إلى عشرين ألف حيوان ، فإذا حصد القمح وجفّ الحبّ جفّ هذا الحيوان فيه ، فإذا أصابه الماء حييت تلك الحيوانات ثانيا وبعثت من مرقدها وطلبت لها نباتا من القمح تعيش فيه ولاتزال هكذا حتى إذا ظهر السنبل سمنت تلك الحيوانات وفعلت ما فعله آباؤها من قبل .

(٣) ولقد اختلف العلماء لما رأوا هذه العجائب وقالوا أدائمة هذه الحياة أم هى منقطعة وأعقبها بحث تحيروا وشكوا ورجعوا إلى التجارب .

(٤) ففى سنة ١٧٧٦ جرب العالم الراهب الإيطالى (سبلنزانى) فى حيوانات تعيش فى الماء تجارب كثيرة فإنه جففها فانعدمت معالم الحياة فيها انعداما تاما وجعلها على هيئة تراب مدة ثلاث سنوات وعرّضها للبرد الشديد والأشعة المحرقة وبعد ذلك ندّاها بالماء فرجعت لها الحياة .

(٥) وأيضا جرب العالم المذكور حبة القمح التى تحتوى على أكثر من عشرة آلاف حيوان كما قدمنا جففها كما تقدم ١٦ مرة وبعد كل تجفيف ندّاها بالماء فرجعت لها الحياة .

(٦) وقام العلامة (دويير) من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٢ فوضع بعض تلك الحيوانات المتقدمة فى وعاء فرغ من الهواء تفريغا تاما مدة أيام ثم عرضها إلى درجة ١٠٠ أو إلى درجة ١١٠ سنتجراد مدة دقيقتين ولما نداها بالماء رجعت إلى الحياة .

(٧) ومثله العلامة جفرى سنة ١٨٥٩

(٨) وحذا حذوه العلامة (دافين) جفف دود القمح فصار على شكل تراب أبيض اللون مكوّن من خيوط بيضاء دقيقة جدا خالية من كل مرونة وبعد أشهر نداها بالماء فحييت وسبحت مع أن الدودة وهى حية لاتتحمل بعض هـذا بل تموت ، وجفف بعض الحيوانات وحفظها عشر سنوات ولما نداها حييت مع أن حياتها العادية لاتزيد عن بعض أسابيع .

(٩) وعلقات القمح المتقدّمة لاتعيش إلا عشرة أشهر فلما جففت عاشت أربع سنوات ثم حييت لما نزل عليها الماء ، بل جففها (دافين) عشر مرات ثم رجعت للحياة كل مرة .

(١٠) والعلامة (بيكر) ندّى علق القمح بالماء بعد ماجف ٢٨ سنة وهذا من المدهشات .

من هنا جزم (دافين) و (دويير) بعد هذه الأبحاث التى استمرت إلى سنة ١٨٦٠ أن الحياة انقطعت فى هـذه الحيوانات انقطاعا تاما ، ولـكن العلامة (بوشى) قال الحياة مستمرة . هناك عينت الجمعية الحيوية الباريسية لجنة مكونة من خمسة علماء تحت رياسة (بروكا) للشرح الشهير فوضعت هـذه اللجنة بعض الدواب العجلية مجففة فى الفراغ الجاف أعنى الذى لابخار ماء فيه مدّة ٢٨ يوما متتابعة ، ثم بعد ذلك عرّضت تلك الحيوانات إلى حرارة مائة درجة مدّة نصف ساعة وبعد ذلك كله رجعت تلك الدويبات إلى الحياة بعد التندية .

فتعجب أيها الذكى كيف أظهر العلم الحديث أن البعث للأحياء حاصل فعلا وأن حبة القمح فيها آلاف من المخلوقات ، وأن تلك المخلوقات تموت ثم تحيا متى نزل عليها الماء ، وكأن حبة القمح التى نراها ضعيفة منحرفة أرضنا التى نعيش عليها ، وكأن الحيوانات التى فيها هى أنفسنا وأن جفافها ورميها فى الفراغ وتعرضها للحرارة تارة والبرودة أخرى وجعلها دقيقا أشبه بما يحصل لأرضنا من التفريق والأحوال المختلفة ، أو أنّ حياة تلك العلقات الكامنة فيها بعد هذه الأحوال العظيمة أشبه بحياتنا بعد موتنا وتعرّض أجسامنا إلى أحوال مضنية .

فياليت شعرى كيف وصل العلم الحديث إلى أن البعث يحصل فى هذه الدنيا وكيف تكذب الجمعية الحيوية فى باريس من ينكر حياة تلك الحيوانات بعد موتها الذى شاهدوه . وكيف يوافق هذا مثات الآيات القرآنية ألم تر كيف يقول الله تعالى « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

فانظر كيف جعل خروجنا بعد الموت كحياة الأرض بالنبات بنزول الماء . ولا جرم أن حبة القمح المذكورة إذا نزل عليها الماء بعث الحيوان منها بعد موته . فتعجب كيف كان ظاهر القرآن يفيد أن حياتنا بعد الموت مشبهة بالنبات فكشف العلم الحديث أن فى باطن هذا حياة الحيوان فى القمح بعد موته . إن هذا لشىء عجاب .

فليعجب المسلمون كيف أصبح العلم الحديث يفسر القرآن تفسيرا لفظيا بعد أن كان ذلك أمرا تقريبيا بالتشابه . ومن هذا فليفهم العقلاء والحكماء معنى قوله تعالى فى سورة أخرى « ويسألونك عن الروح » روح الحيوان وروح الإنسان وروح كل حى على وجه الأرض « قل » يامحمد لهم « الروح » ليس من الأمور التى يمكنكم معرفتها لأنها ليست من المادة التى أمامكم فليست تخلق من الطين ولا الهواء ولا الماء ولا هى التى تحصل فى حال خاصة من أحوال المادّة عند تنوعها كما فعل الكيماويون الذين عجزوا عن توليدها فى المادة فانقطع علم الخلائق عنها حتى أرجعتموها أيها الناس إلى عالم غير عالمكم الأرضى وقلتم لعلها تأتى من كواكب أخرى وكأنكم قلتم إنها « من أمر ربى » لانقطاع علمها عنكم فها أنتم أولاء عجزتم عن علمها وحرتم فى أمرها وهاهى ذه علومكم عجزت عن معرفتها وحوّلتها إلى عالم الضياء « وما أوتيتم من العلم » بأمر الروح « إلا قليلا » من ظواهر كالحياة والحس والحركة والاختيار والإرادة والحواس الخمس . أما ماعدا ذلك من أصل منشئها وخلقها ومن أين أقبلت فقد أقررتم بالعجز عنها . وهذه من المعجزات الكبرى لخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ استبان انقطاع العلماء فى هذا العالم عن استقصاء خبرها ومعرفة حقيقتها والوقوف على أسرارها بمثل هذه المعارف المبنية على المشاهدة والتجربة ، فليرتق المسلمون ، وبمثلها فليتعلم المجتهدون .

وبهذا فليفهم قوله تعالى أيضا : « فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى » وقوله : « ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه » فانظر كيف نسب الروح إلى نفسه إيذانا بأنها ليست من العالم الأرضى وإنما هى من عوالم فوق المادة ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

جوهرة مضيئة

فى ملخص هذه السورة

إن هذه السورة مكملة لسورة الأنعام ، مفصلة لما جاء فى آخرها من أن الإيمان الذى لايثمر ثمرة ما كالكفر عند الهلاك جنة فلا ينفع الناس توبتهم عند غرغرتهم وعند النوازل الفاجئة كما تقدّم شرحه .

هذا مما فى آخر الأنعام، فسورة الأعراف ابتدئ فيها أولا بالحروف (ا ل م ص) وقد قدمنا أن هذه الحروف الأربعة مذكرة بملخص السورة . مذكرة بالتوبيخ فى قوله تعالى « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » أى التوبيخ على اتباع الهوى الذى اتبعه الانسان وعلى عدم اتباع نصح الناصحين الأمناء، وسماع نصح الناصحين الغاشين الأغبياء وقد أشار لذلك هود عليه السلام بقوله : « ناصح أمين » أى بخلاف إبليس فهو غير أمين . ثم أتبع ذلك بالأمر بترك الحرج لما فى السورة من النوازل على الأمم وأمتنا مذكرة بذلك معرضة له وأتبعه بزواجر أعقبها بأنه جعل لنا معايش فى الأرض وأن شكرنا قليل وأتبع ذلك قصة آدم وإبليس وختمها بقول إبليس «ولا تجد أكثرهم شاكرين » فهى تبيان للآية قبلها . فإذا كان الناس لا يشكرون النعم فسببه أنهم لا يسمعون نصح الناصحين ويتبعون خطوات نصح الغاشين المعنون عنهم بأكبرهم إبليس الذى تكبر فلم يسجد فنزل عن مرتبته وأراد أن يجرّ آدم إليها فأغواه فسقط فى الذنب . فإبليس ضل بالكبرياء وهى القوة الغضبية ، وعصى آدم بالقوة الشهوية. ثم توالت القصص بعدها؛ فقوم عاد بطشوا جبارين وهذه هى القوة الغضبية كإبليس . وقوم صالح عقروا الناقة لأجل الشهوة البهيمية لأنها كانت تقاسمهم بعض رزقهم وهى شهوة البطن . وقوم لوط شهوة الفرج ، وقوم شعيب فى المكيال والميزان وهى شهوة البطن ، وهذه شهوة آدم وحوّاء ، وقصة موسى أعمّ مما قبلها ، ثم انتهى بقصة الذى آتيناه آياتنا وهى تلخص مامضى كله فإن محصلها أن الإنسان يعطى علما فيغترّ به فيجره العلم والقرب لله إلى استعمالها فى معصيته فينزل عن مرتبته ، وهذا بعينه ماحصل لإبليس نزل عن مرتبته الشريفة إلى منزلة وضيعة فصار معلما للشرّ ، فهذا الذى يسمى (بلعام بن باعوراء) صار ملقنا للشرّ وأصبح كبعض الدول الأوروبية الآن تستعمل علما فى دسّ الدسائس والحيل السياسية ، إذ أرسل النساء (المومسات) إلى جيش موسى حتى يضلّ القوم فينهزموا فى الحرب .

فهذا بعينه مايفعله أهل الغرب فى الشرق إذ منهم طوائف ينتشرون فى أقطار الإسلام يفسدون نساء الأكابر والفضلاء ويذيعون الفحش ويغرون الشبان بالفسوق ، كل ذلك ليوقعوهم فى الفاحشة حتى لا يفتحوا أعينهم لأعمالهم .

هكذا شأن الفرنجة فى بلاد الإسلام كافة ، وهذه عينها مسألة إبليس الذى لما سقط أخذ يغوى الناس ويغرّهم ليكونوا مثله عصاة .

فانظر كيف رأيت قصة الذى انسلخ من الإيمان رجعت إلى أوّل السورة من إغواء إبليس الذى غوى بعد أن كان فاضلا وجرّ غيره إلى الجهالة وأن الذى يعطى الخير والنعمة إذا لم يحترس ولم يفهم بعقله يقال له « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة الخ » فتشابه إبليس وبلعام بن باعوراء فى الكرامة أوّلا والضلال آخرا وأنهما ينصبان الأشراك لإغواء الناس .

وهذا فيه بيان أن الذى يعطى علما أو نعمة فإنه أيضا على خطر إذا لم يحترس ، وهذا يفيدك أن سورة الأنفال والتوبة بعد هذه السورة فيهما الغنائم والغزوات وفتوح البلدان ، وأن هذا الفتوح خير كما كان علم بلعام خيرا ، وكما كان علم إبليس خيرا أيضا ويخاف أن يكون خير المسلمين فى فتوح البلدان يعقبه شرّ بالتخاذل وحب الرياسة فيذلوا بعد عزهم كما ذل بلعام وذل إبليس .

ولقد تمّ ذلك كله فإن المسلمين بعد أن فتحوا البلدان ووصلوا إلى قرب باريس لم يبق بينهم وبينها إلا مسيرة ثلاثة أيام وقفوا ثم تخاذلوا ، وهكذا رجعوا القهقرى فى أخلاقهم واتبعوا شهواتهم .

وقام النزاع فى الشرق أيضا بين الأمويين والعباسيين انتهى بفشل الأمة الإسلامية ووقعنا نحن اليوم فى أسوأ الأحوال .

ألست

ألست ترى أن إبليس الذى تكبر بدرجته الرفيعة ، وبلعام الذى نال حظوة عند ربه باسم الله الأعظم قد انحطا عن سماء عظمتهما بكبر الأوّل وشهوة الثانى فصار كل منهما يغوى الناس ، وهكذا دولنا الإسلامية فتحوا البلدان لنصر الدين كما كان أوّلا إبليس وبلعام صالحين ثم تخاذلت الأمم الإسلامية واتبعوا الشهوات فذلوا للأمم الغربية كما سقط إبليس وبلعام .

أليس هذا هو قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث البخارى « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها » أو ما فى معناه « إذ قال رجل يارسول الله : أو يأتى الشرّ من الخير ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم حتى تصبب عرقا وهو يوحى إليه ثم أجابه بما يفيد أن خيرات الدنيا أشبه بالمطر والناس يتلقون هـذا الخير كما تنتفع الحيوانات بالعشب والكلأ فنها مايأكل النافع ومنها مايأكل الضار فتمرض وتموت » فاقرأه فى البخارى فإن فحواه ماذكرته لك .

فعلى هذا يكون فتح البلدان وترادف الخيرات على المسلمين أعقبه السقوط فى مهاوى الشره والعصيان واتباع القوى الغضبية والشهوية فصار الناس فى آخر الزمان تلاميذ إبليس وتلاميذ بلعام بن باعوراء ، وغير خاف عليك أن ذكر سورة الأنفال والتوبة بعد هذه السورة قد ظهر سرّه فافهم .

وملخص هذا كله أنه يقصد نصحنا نحن ، فأما إبليس وغيره فتلك أمثال لنا « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » فههنا تجات القوّة الشهوية والقوّة الغضبية فى الأمم الإسلامية وانحطت عن الأمم كما أنذر الله بهذه السورة واتصفت بما اتصف به عاد من البطش ، وما اتصف به قوم شعيب من تطفيف المكيال ومن اتباع الشهوات البهيمية كما جاء فى قوم لوط .

فهذه السورة إنذار للمسلمين الذين قد وقعوا فى جميع ماذكر فيها ، وإنى مؤمّل أن هذا التفسير سيكون من المذكرات والمنبهات لهذه الأمم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وختمها بقوله « إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته الخ » أى بخلاف إبليس الذى تكبر فلم يطع الله ، فالملائكة لايستكبرون عن عبادة الله ولا يفعلون مافعل إبليس من الكبرياء والامتناع عن السجود لآدم الذى هو عدم امتثال لأمر الله فالملائكة لايستكبرون وله يسجدون بخلاف إبليس وتلاميذه من جميع الأمم التى ضلت بالبطش فى الأرض أو بالقوة الشهوية، وكان حقّ هذه الأمم كلها أن يطيعوا ربهم كالملائكة ولا يعصون كإبليس ومن على شاكلته وذلك بعد أن أمر صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله من الشيطان المذكور فى أوّل السورة وبيان أن الذين اتقوا يتذكرون متى مسهم طائف من الشيطان لئلا يغرّهم نصحه كما غرّ آدم وحوّاء فى أوّل السورة وكما غرّ بلعام وأمثاله من جميع الأمم السابقة ؛ وبعد أن أمره هو أيضا أن يذكر ربه بالغداة والعشىّ ولا يكون غافلا فرجع آخر السورة إلى أوّلها وردّ عجزها على صدرها وبان كمالها وجمالها والحمد لله رب العالمين .

[عقد منظم من جواهر هذه السورة]

فى الكلام على أن العذاب باتباع الشهوات وترك القوّة العقلية
أكثره بالهلاك فى الدنيا قبل عذاب الآخرة

لقد اطلعت أيها الذكى على ملخص هذه السورة وأنها تمثل القوى العقلية كلها ؛ فالشهوات البهيمية والقوى الغضبية يكبحهما ويضبطهما العقل والحكمة التى تتبع بهذا القرآن .

وها أناذا فى هذا العقد أبين لك أمرا عجبا ؛ ذلك أن عقاب الأمم يبتدىء بالعذاب فى الدنيا .

ألا تنظر إلى قوم شعيب كيف أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ؟ ولماذا أخذتهم ؟ أخذتهم لأنهم طففوا المكيال والميزان . وحينئذ يقال وما ضرر تطفيف المكيال والميزان فنقول : نعم إن القوم إذا

فعلوا ذلك أصبحو مغرمين بأعمال الشر وتمادوا فيه ويستبيح زيد مال عمرو ويأخذ القوى مال الضعيف فتضعف الأمة فتموت وإذن يكون هلاك الأمة حتما لازما .

ولما وصلت إلى هذا المقام جاءنى أحد العلماء واطلع على هذا المقال فقال أوضح هذا المقام وأى مناسبة بين المكيال والميزان وبين خراب الأمم . فقلت له قد بينت وأوضحت . فقال لو أن زيدا اشترى من عمرو قنطارا تمرا أو عنبا أو تينا أو أردبا قمحا وعند الوزن أو الكيل زاد فى وزنه وكيله رطلا أو قدحا فماذا حصل ؟ حصل أن مال عمرو انتقل منه جزء يسير إلى مال زيد خلسة بدون مقابل . فهل هذا يوجب أن تبتلعهم الأرض؟ فقلت له إن الأمة إذا رسخت فيها هذه الأخلاق أصبحت فيها ملكة فيأخذ الناس المال بالحيلة تارة وبالنصب تارة أخرى وبالسرقة والإكراه ثالثة وهكذا .

ولا جرم أن هذا الخلق يقبض الأيدى عن الكسب فتموت الأمة وتذل ويلحقها الدمار والبوار وهذا عذابه يعجل فى الدنيا أولا فالآخرة «ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» قال وما مغزاه لهذه الأمة الإسلامية اليوم. قلت إن الأمة الإسلامية اليوم قد فعلت أكثر ألف مرة مما فعلت تلك الأمم ولذلك استحقت من الله أن يرسل لها الدافع فتأخذها الرجفة كما جاء فى أول السورة « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » فها هى ذه الأمم الإسلامية اليوم نائمة جاهلة مسترسلة منتظرة فى كل حين أن يأتى لها العذاب من الأمم القوية النابهة المفكرة ليلا أو نهارا كما فى أول السورة . قال ماذا فعلت الأمم الإسلامية ؟ قلت لم تعمل بما جاء فى هذه السورة . يقول الله « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » والشكر مستحيل إلا بمعرفة النعمة والمسلمون لم يقرءوا نعم الله التى على هذه الأرض فكيف يشكرونها . فقال هذا كلام غامض فأوضحه . فقلت :

مثل أمة الإسلام اليوم مع الله تعالى

إنما مثل أمة الإسلام اليوم مع ربها كمثل عبيد الملك أقطعهم حدائق وجنات فيها نخيل وأعناب ورمان وتين وفاكهة مما يتخيرون وطير مما يشتهون . قال ثم ماذا ؟ قلت وأرسل لهم رسولا من عنده ومعه منشور فيه [هذه حدائق لكم وهى ملككم ومن أخذ من حديقة جاره قطف عنب أو عذقا من تمر أو قبضة من تين فإنى آخذ منه حديقته وأعطيها لغيره وربما أهلكته] فلما قرءوا هذا المنشور اتبعوه مدة ثم بعد ذلك أخذوا يلعبون ويرتعون ويتركون حدائقهم ولا يزلون إليها الماء ولا يسقونها ويكتفون بماء المطر فقيل لهم لماذا تعملون ذلك ؟ فيقولون إن الله حرم علينا أن نأخذ مال غيرنا ولم يحرم علينا أن نترك زرعنا ولا أن نمنع عنه الماء . فقيل لهم لقد أخطأتم إن من يأخذ من مال غيره معاقب مع وفرة المال عنده وعند غيره فيكون من باب أولى إذا تركا معه تنمية المال . فإذا كان الله يعاقب قوما عندهم مال على أن يأخذ أحدهم من الآخر رطلا بطريق التطفيف فأولى ثم أولى إذا كان كل منهما لا مال عنده إلا قليلا وقد تركا حديقتهما فلم ينزلا لها الماء فإن الخسران هنا أعم وأتم والعذاب يكون أعظم وأعظم لأنهم ضيعوا قناطير وقناطير . فقال وهل فعل المسلمون ذلك ؟ قلت نعم . قال ولم ذلك ؟ قلت لأنهم ملكوا أرض الله فى فلسطين وسوريا ومصر والعراق والهند والصين والسودان وبقية شمال أفريقية . وفى تلك البقاع أنواع المعادن والغابات والأرض الخصبة والمياه الجارية والكهرباء المخزونة والمغناطيس الكامن فى المعادن بالاستعداد والفحم المخزون للناس والبترول .

وهناك من النعم ما لا يحصى . ترك هذا كله المسلمون وناموا فسألتك بالله أيها الفاضل قل لى : هل خلق الله هذه المخازن لنفسه ؟ قال لا . قلت إذن لمن هى ؟ قال لعباده . قلت هؤلاء هم المسلمون عباده وقد سلمهم مفاتيح أرضه وقال لهم : من ظلم منكم عذبته فى الدنيا والآخرة فرأيناهم جميعا تركوا عقولهم ومواهبهم

وأرضهم

وأرضهم وناموا . فقل لى بربك أيهما أشدّ خسارة وضرّا ؟ . رطل عنب وقدح برّ فى التطفيف المذكور فى قصة شعيب، أم آلاف آلاف من النعم العظيمة من الفاكهة والحبّ وغيرها ومن الفحم فى الأرض؟. قال بل الأمر هنا أعظم لأن رطل العنب أو قدح البرّ خرج من زيد إلى عمرو، والناس عندهم مال، أما هنا فمعناه أن الآلاف وآلاف الآلاف قد خسرها الناس . قلت حينئذ يكون مغزى هذه السورة أن المسلمين إذا تركوا نعم الله التى فى الأرض تعاقبهم الأمم وتأخذ منهم أرضهم أو تهلكهم وتبيدهم .

قال وهل هذا يوافق آراء علماء الإسلام ؟ قلت عجبا ، أليس هذا كقوله تعالى « ولا تقل لهما أفّ » فالولد نهى أن يقول لوالديه « أفّ » قال العلماء إن الضرب يكون محرما من باب أولى فهنا يقال فإذا كان رطل عنب أخذه رجل من آخر فى الإسلام ظلما يوجب ذلك بتكراره وشيوعه عذاب الأمة فى الدنيا فمن باب أولى إذا قعدوا جميعا عن زرع أرضهم فالخسران هنا أشدّ .

يا سبحان الله كل هذه القصص القرآنية رتب فيها خراب الأمم على تقصيرهم فى حفظ نظامهم . إذن القرآن يأمرنا بنظام الأمة .

ومن عجب أن يكون أكثر العذاب المذكور فى القرآن دنيويا ويتبعه الأخروى والوعاظ فى الإسلام لايوضحون هذا بل هم لايعلمون . قال فهل نصّ العلماء على ماتقول ؟. قلت قد أوضحت فى هذا التفسير فى غير موضع أن فروض الكفايات متى تركها المسلمون أثموا . وفروض الكفايات لنظام الأمة وماتحتاجه فى معاشها فما قلته الآن داخل فى ضمن هذا الموضوع وقد أوضحته فى سورة المائدة عند مسألة الغراب وابن آدم فارجع إليه إن شئت . فقال :

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الأعراف .

تمّ بحمد الله وحسن توفيقه : الجزء الرابع من [الجواهر فى تفسير القرآن الكريم]

ويليــه

الجزء الخامس ، وأوّله : تفسير سورة الأنفال

فهرست

الجزء الرابع من تفسير الجواهر

صفحة

٢ تقسيم سورة الأنعام ، وأنها ست مقاصد .
المقصد الأول من قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق ـ إلى قوله ـ ماتكسبون » وتفسير ذلك لفظيا وتقريع من لايفكرون فى ترتيب هذه العجائب فى الآية مع أن القدماء بينوا ذلك فى الوضوء مثلا .
٤ مناسبة هذه السورة لما قبلها بأمور : مثل أن اختتام المائدة بملك السموات والأرض الخ وكذلك ابتدأ سورة الأنعام ، ومثل خلق الطير من طين فى المائدة وخلق الإنسان منه فى الأنعام وهكذا .
٥ تشبيه الليل والنهار والعالم بستائر سود وبيض الخ فى قصر مشيد .
٦ إيضاح هـذا القصر فى التشبيه ، شرح ألوان الشمس السبعة التى جعلت سترا واحدا ، وبيان أن جهل هذه العلوم معناه عدم شكر المسلمين لربهم على نعمه التى لا تحصى .
٧ إعراب هذه الجملة فى الآية ، والفحم الحجرى والعظمى والنباتى وخم الموجات والنور يشتق من هذه الظلمات .
٨ كيف كان غاز الاستصباح إنما يخرج من الفحم بعد تنقيته بعمليات هائلة ، وكيف كان الماس والفحم مادّة واحدة ، وكيف جهل المسلمون هذه النعم فإذن لاشكر على المجهول .
٩ الآية الثانية والثالثة « هو الذى خلقكم من طين الخ » وبيان أن تركيب جسم الإنسان من عناصر لاتعقل فانتظمت فكان العقل فى الرأس أعلاها وقوّة الغضب فى القلب أوسطها والقوّة الشهوية أدناها من المعدة والأمعاء الخ .
١٠ بيان أن من يفعل ذلك النظام لايخادع فهو يعلم السرّ ، وبيان عجائب القرآن فى العلوم الحديثة .
١١ الأثير يكون حرارة وضوأ وحركة وكهرباء ، وهذه ينقلب بعضها على بعض ، والكلام على أحوال المادّة الثلاث وأن الماء إذا صار بخارا يكون أكبر حجما ٧٠٠ مرة ، والاختلاف أكثره فى الكثيف ، وبيان أن السموات خلقت قبل الأرض فى العلم الحديث كترتيب الآية ، وبيان أن ظلمة الأرض إنما جاءت بعد تكوّن قشرتها ، وبيان أن قشرة الأرض تبلغ مائة كيلومتر وكل ثلاثين مترا ترتفع الحرارة درجة وأن الطبقات ٢٦ والعصور ستة ، والكلام على السحب التى تمطر ذهبا وفضة وبقية المعادن .
١٣ الجبال أسنان الأرض نبتت من الطبقة الصوّانية ، والكلام على الكرة الأرضية والكرة النارية بها وأن قشرتها كقشرة البطيخة والبيضة والتفاحة ثم الأرضون التى خلقها الله كلها كأرضنا ويظنّ أنها ثلثمائة مليون أرض وهى مختلفة اضطرابا وثباتا .
١٤ أقصى درجة البرودة ٢٧٣ درجة تحت الصفر والحرارة لاتعلم نهايتها ، وبالقلة والكثرة فيهما كانت عوالم لامنتهى لها ، أصل كل شىء النور ، قطعة الكربون تحتاج فى تفريق كربونها من أكسوجينها إلى ١٣٠٠ درجة ، ارتقاء الأرواح فى عالم النور ، وسرّ قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» وكيف كان الإنسان يسعى ليخرج من الظلمات إلى النور ، وكيف أظهر الكشف الحديث هذا كله .

صفحة

١٥ الإنسان مضىء وهو فى هـذا الجسد كما جاء فى صحيفة الماتان الفرنسية سنة ١٩٢٤ وذلك فى تنويم الوسيط الإيطالى المشهور (ابرتو) ، ارتقاء الإنسان بعد الموت فى درجات الكمال إلى أن يكون مع الملائكة النوريين من نص القرآن ، كلام الفخر الرازى فى تفسير « والنازعات » استشهادا على ماتقدم ، أى أن الإنسان يرتقى إلى أن يكون مدبرا للكائنات ملحقا بالملائكة ، مراتب الأرواح فى العلم الحديث مذكورة كما ذكره الرازى ، واستدل أيضا برؤيا الأحياء للأموات وتصدق الرؤيا .

١٨ اعتراض على المؤلف وجوابه ، وتفصيل الكلام على قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » بذكر سلسلة المخلوقات الأرضية من ابتداء كون الأرض كرة نارية إلى أن يصل الخلق إلى أعلاه .

تفصيل طبقات الأرض الستة ثم تسلسل العوالم من الحلقة الأولى إلى الإنسان إلى العوالم الأخرى فهى ٣٠ مرتبة . بقية هذه التقسيمات من كون الجنين خلية فسمكة فنبابة فقردا فإنسانا الخ .

٢١ القسم الثانى « وما تأتيهم من آيات من آيات ربهم ـ إلى قوله ـ وهو الحكيم الخبير » مضبوطا بالشكل .

٢٤ تفسير هذه الآيات تفسيرا لفظيا ، وفيه :

٢٥ الفصل الأول فى الرد على دعوى الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتخذ وليا من معبودات العرب .

٢٨ الفصل الثانى فى طلب الكفار الآيات عنادا ، وتفسير ذلك لفظيا .

٣١ الفصل الثالث فى أقواله صلى الله عليه وسلم مع المتواضعين .

٣٢ الفصل الرابع فى معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقراء من المؤمنين وأمر الله له بإكرامهم .

٣٣ الكلام على الفريقين : الكافرين والمؤمنين .

٣٤ الفصل الخامس فى ذكر نتيجة ماتقدم فى الفصول السابقة على سبيل اللف والنشر المرتب .

٣٥ الفصل السادس فى شرح عام لما تقدم كله وهو تفسير « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو الخ » .

٣٧ المقام الثانى فى قوله تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل الخ » وتفسيرها لفظيا .

٣٨ المقام الثالث من هذا الفصل فى قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده الخ » .

المقام الرابع فى هذا الفصل : نسيان الناس لعهودهم إذا أجيب دعاؤهم .

٣٩ المقام الخامس «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا الخ» . المقام السادس «وكذب به قومك الخ» .

٤٠ تفسير قوله تعالى « وإما ينسينك الشيطان الخ » .

٤١ اللطائف الست وذكرها إجمالا . اللطيفة الأولى أقص عليك أيها الذكى نبأ ما كنت أزاوله فى أول حياتى وأنا مجاور بالجامع الأزهر الشريف .

٤٢ اللطيفة الثانية فى سؤال قريبه له : هل للعالم آخر ؟ وكيف كان المؤلف يبيت ساهرا يتململ ويحدث صوت الحزن من نساء قريته رقة فى قلبه وحزنا على أنه جاهل بعلم هذه النجوم وعجائبها .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا» وكيف ظهر هذا فى التنويم المغناطيسى .

٤٣ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة ـ وله ماسكن فى الليل والنهار » وبيان أن العالم كله متحرك ولكن من شدة الإحكام والإتقان نرى ساكنا وهذا ماتشير إليه الآية .

اللطيفة الخامسة « وهو القاهر فوق عباده الخ » وبيان قهر المرأة والناقة والدجاجة والحمامة الخ وأن الناس مسخرون ويجهلون ذلك .

٤٤ تسديس الأشكال فى الثلج وفى بيوت النحل ، والكلام على العناصر المتشابهة والتى لاتشابه بينها ؛ فالثانية تكون مركباتها أشد مخالفة لعناصرها من مركبات الأولى لأصولها .

صفحة

٤٤ بيان اللطيفة السادسة وأن المؤلف كان أيام عطلته يخرج من بين البيوت ويجلس مفكرا فى أمر النجوم والأمم والدول .
حكاية الإنسان والحيوان وذكر أنه رأى ليلة حيوانا مسرعا كثعلب نجل بخاطره غرائز الحيوان .
٤٦ الحدأة تخاطبنى قائلة : قد سخر لى ما فى السموات وما فى الأرض .
٤٧ نظرى فى الحقول ومحادثتى مع فلاح وإجابة امرأة وذلك فى مسألة الحيوان المسمى (أبا ذنيبة) وكيف كان أصلا للضفدعة .
ذكر عجائب الحيوان وبناء القرود قنطرة على النهر . الكلب وفضائله .
٤٨ كلب البحر يبنى السدّ على النهر .
العجيبة الرابعة : الكلب الذى يسمى الدرواس ، وكيف نجى كلبا آخر من الغرق بذكاء عجيب .
٤٩ القرد وتعقله فى مسألة (أبى فروة) والقط وكيف كشف القرد المسمى (شانبنزاه) فتح الأقفال بأعجوبة ، وكيف أزال الدب السم الذى كان على الأقراص التى رميت له . شفقة الغربان والخيل وكيف أطعمت الغربان رفيقها الأعمى . ثم الطائر المندى الذى يبنى بزخرف قصورا ، وهل للحيوان لغات ؟ والكلام على الزنبور ، وهل للحيوان أرواح باقية كما يظنون ؟ ذكاء الجرذان ونظامها ، وكيف تربى الأقوياء منها الضعفاء وتشفق عليها حتى إذا سمنت أخذت تأكلها .
٥٢ اللطيفة السابعة « وعنده مفاتح الغيب .
٥٣ الأب غبريال الإيطالى يقول : إنه عرف للعواصف والسيول قوانين وهناك عالمان قد صوّرا حركات القلب والرئتين والمعدة وسائر أعضاء الجسم ، والدكتور (بازسكر) الروسى اخترع آلة بها يعرف المجرم من غيره فى السجن ويقول إن المخ (٧٨) حلبة ، وهل هذا علم الغيب الخ ؟
٥٤ مفاتح العلوم فى هذه السورة تنقسم إلى قسمين : قسم علوم السموات ، ومفاتح العلوم فى العالم الأرضى .
المقصد الثانى وفيه المفتاح السماوى « وإذ قال إبراهيم ـ إلى قوله تعالى ـ ما كنتم تزعمون » والتفسير اللفظى لهذا المقصد .
٥٩ لطائف هذه الآيات أربعة : اللطيفة الأولى ، والكلام على الصابئة ونحو ذلك .
٦٠ الأمم الجرمانية يقولون إن لفظة النورشائمة هى ومشتقاتها فى اللغات المختلفة . والكلام على الكواكب السبعة عند الصابئين .
٦١ مجادلات الخليل إبراهيم عليه السلام مع قومه وكسره الأصنام . وذكر أن الصابئين لايقرون بأنبياء وحكمة هذه الديانات . والكلام على الروايات التى وضعها الناس فى هذا المقام تنويرا للعقول . والكلام على جمهورية أفلاطون والمثل الذى ضربه . المثل الأفلاطونية .
٦٣ الفصل الخامس فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء وكلام (هنرى) الفرنسى فيه .
٦٤ الكلام على قوله تعالى « فبهداهم اقتده » وهؤلاء الأنبياء لهم مزايا فعلى المسلمين أن يتصفوا بها عملا اقتداء كما أمرنا بذلك فى نفس الآية .
اللطيفة الثالثة « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا الخ » وبيان أن ماحصل من اليهود حصل من المسلمين تقصيرا وقصورا فقد أحرقوا الكتب وكرهوا العلوم شرقا وغربا فسلط عليهم جنكيزخان شرقا وملوك الأسبان غربا فأزالوا دولهم كما أزيلت دولة اليهود أيام النبوّة ، وهكذا جهل الترك الخ

صفحة

٦٤ ذكر محاورات دارت بين المؤلف وصديق له يغالطه فى ذلك . والكلام على جمهورية أفلاطون المؤلفة قبل المسيح بأربعة قرون .

٦٥ فصل فى محاورات بينى وبين أحد الفضلاء .

٧٠ كيف قصر المسلمون ونبغ الغربيون فى القرون الأخيرة وفلاسفتهم الأقدمون تلاميذ علماء الإسلام بالأندلس كما هم به معترفون .

العلامة (سديو) الفرنسى يكذب كثيرا من علماء الفرنجة فى دعواهم كشف بعض العلوم .

عجيبتان [الأولى] منظار البحث فى القمر [الثانية] خريطة السموات . قطرة من بحر من ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله لإبراهيم عليه السلام . والكلام على الكوكب والقمر والشمس المذكورات فى هذه القصة وتقسيم الكواكب إلى ثوابت وسيارات . وبيان صور الثوابت وأنها (٤٨) صورة وتفصيلها تفصيلا تاما .

٧١ أنواع النجوم ونجوم مضاعفة ومزدوجة والقنوات والسدام والمجرة ، والكلام على أن الشمس مركز العالم .

٧٢ السيارات وأوصافها والكلام على عطارد والزهراء والأرض ومحيطها وأعلى جبالها الخ وأوصاف المريخ وحجمه وقمراه والمشترى وحجمه وصورته الشمسية مرسومة وأقماره التسعة التى كشف بعضها قريبا ، وزحل والكلام على أوصافه وأقماره العشرة ورسم صورته الشمسية وحلقاته ظاهرة ونبتون وأوصافه وأقماره الأربعة . وهناك سيارات صغيرة . والكلام على ذوات الأذناب وأنها تزيد عن (٨٠٠) وربما ستزيد فى المستقبل عن ملايين ومنها (هالى) تدور فى (٧٦) سنة دورة وأخرى فى (٣) سنين تقريبا وأخرى فى (٣٠) قرنا دورة واحدة ، وأخرى لاترجع البتة .

٧٦ صورة شكل ذات ذنب ترجع بعد (٣٠) قرنا . الحجارة الجوية والشهب . الكلام على القمر وأبعاده وأوصافه .

٧٧ الكلام على الشمس وأوصافها . نسبة ضوء القمر إلى ضوء الشمس وإلى ضوء السماك الرامح . مشابهة تلك النسب الضوئية فى الشمس والكواكب إلى اختلاف عقول الناس فى العلم والحكمة .

٧٩ آراء صغار العلماء وجميع العامة فى أمة الإسلام . إن النظر سطحى كنظر البهائم والجهلاء والسذّج اللطيفة الرابعة « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم الخ » . ملخص ماقيل عن الأرواح فى حال الموت فى الجمعيات النفسية . المقصد الثالث « إن الله فالق الحب والنوى » .

٨١ بيان إخراج الحىّ من الميت ، وكيف كانت هناك حيوانات تتصاعد مع الأبخرة الخ .

تفسير قوله تعالى « فالق الإصباح الخ » وموازنة كلام العلامة (سقراط) بما فى هذا المقام ، وذكر خمس لطائف : عجائب النور وغرائبه ، وأن النور والصوت والحرارة والكهرباء ماهى إلاحركات فى الجوّ .

٨٣ حواسنا علمها قليل لاتعرف ما بعد اللون البنفسجى . أعمال الضوء إدارة العالم الأرضى .

٨٦ التبادل بين الحيوان والنبات .

زيادة إيضاح . كيف يتكوّن الحيوان فالعظام من المعادن والعضلات من التروجين الخ .

ورقة شجرة فيها ألف ألف فتحة . الجذور وعجائبها وأنها تخرب الأبنية .

صفحة

٨٧ لطيفة فى قوله تعالى « فالق الإصباح » وبيان أن أهل الأقطار الثلجية يرون شفقا جميلا بهجا ، وتلك الأضواء تتلألأ على الثلوج فيحدث ضوء بهيج وإشراق بديع يسر الناظرين .
الطيفة الثالثة « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها الخ » .

٨٨ أبعاد الكواكب قد بلغ بعد بعضها عنا ٢٠ ألف ألف سنة نورية ، والكلام على أقدار الكواكب وهى ٢٠ بعدها (٧٦) ألف ألف كوكب ، وأن هناك سديم يبعد عنا (٥٦) ألف ألف سنة نورية .

٨٩ الطيفة الرابعة « هو الذى أنزل من السماء ماء » . الكلام على الثلج وهناك يحصل أنواع من المناظر العجيبة المنعكسة على الثلج . الثلج السهل السير وهو فى بلاد لابونيا وسيبيريا والمسكوف .

٩٠ اختفاء النبات فى الثلج ثم ظهوره بعد الذوبان بشكل عجيب . ألوان ماء البحر . يظهر فى البحر بين الدارين أنوار كأنوار الكواكب .

٩١ المياه المعدنية وهى كبريتية وغازية وحديدية الخ .
«انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه» وبيان أن هذا أصل عظيم لعلم النبات والكأس والتويج واختلافها كل ذلك يتنوع على حسب تنوع النبات .

٩٢ عجائب البزر فهو يكون بزرة ويزيد فى رأس الخشخاش (٣٢) ألف بزرة ، وبيان اختلاف العلماء فى كيفية تقسيم النبات وتوبيخ المؤلف أئمة الإسلام لنومها عن هذه العلوم التى أمر بها الله هنا فقال : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ورسم الزهرة بالتصوير الشمسى .

٩٤ أشكال هندسية مرسومة بالتصوير الشمسى تبين صور الطلع : أى الحبوب الدقيقة .

٩٥ القصد الرابع « وجعلوا لله شركاء ـ إلى قوله ـ إنه لايفلح الظالمون » التفسير اللفظى لهذه الآيات .

١٠٥ لطائف ستة : الطيفة الأولى والخامسة فى قوله « وكلمهم الموتى » وفى قوله « يامعشر الجن والإنس » عجائب القرآن ومعجزاته فى هذا الزمان .

١٠٦ مناجاة الأرواح .

١٠٧ الطيفة الثانية « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن الخ » .

١٠٨ إن ما كشف من الكواكب وغيرها عدة لمستقبلنا بعد الموت لنفرح به أرواحنا هناك .
الطيفة الثالثة « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك الخ » وبيان أن بنى آدم مسوقون برؤسائهم فى الدين والدنيا ولو كانوا مخطئين ، وأن للمذاهب الإسلامية تتبع بالتوارث .

١٠٩ الطيفة الرابعة فى قوله تعالى « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها » . الطيفة السادسة فى قوله « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء » وبيان أن بعض مشايخ الطرق وبعض العلماء والأمراء فى الإسلام يكونون آفات الأمم الإسلامية الخ . القصد الخامس « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث » إلى « يعدلون » .

١١١ تفسير هذه الآيات .

١١٢ الكلام على الزرع والشجر المبسوط على الأرض كالقرع أو على العريش كالعنب وغير المبسوط كالنخل وعجائب النبات وأن أغلبه مايرى بالمنظار كالطحلب والعفونات فهى أشجار وجنات .

١١٣ بقية تفسير الآيات وهو قوله « والنخل والزرع الخ » والكلام على الإبل والبقر والغنم ، والكلام على ثمانية الأزواج .

صفحة

١١٤ ذكر ما حرم على اليهود .
١١٥ الكلام على قوله تعالى « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا الخ » .
١١٧ عجائب النخلة ، ولم كان عليها ليف فهو كالمئزر ؟ .
١١٨ حديثي مع فلاح مصرى ذكيّ الفؤاد . وذلك فى زهرة القطن وعود الذرة وإلقاحه الخ .
ولم كان للانسان معدة واحدة وللبقر والجاموس مثلا أربع معدات ؟ . وبيان ذلك بالرسم موضحا .
١٢١ المقصد السادس « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » إلى « وإنه لغفور رحيم » .
١٢٣ تفسير هذه الآيات .
١٢٥ عجيبة من عجائب القرآن فى هذه الآيات ، وهى « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة الخ » .
١٢٦ أهلك فرديناند وإزبلا مسلمى الأندلس ، ولايزال المسلمون غافلين ولكن قد تنبه بعضهم .
١٢٧ بيان عموم القرآن .
١٢٨ اعتراض على المؤلف وجوابه بما فى الحديث الشريف ، ورأى المفسر أن سبب ذلّ المسلمين جهلهم والجهل جاء من رؤساء الدين فهم لم يفهموا الشعب أن الدين يشمل سائر العلوم .
١٢٩ بيان ما فى أحاديث الصحيحين فى تفسير « أو يأتى بعض آيات ربك » كالخسف والدجال وطلوع الشمس من مغربها .
١٣٢ تفسير سورة الأعراف وتقسيمها إلى تسعة أقسام .
١٣٣ مقدّمة تبين ارتباط سورة الأعراف بما قبلها وأنها شارحة لما فى آخر سورة الأنعام .
١٣٤ بيان موازنة أوّل سورة الأعراف بأوائل السور الماضية كلها ، وأن هذا إنذار يفضى إلى حرج . القرآن ونهر النيل فإذا لم تكن سدود للنيل لاينتفع المصرى به فى الزرع هكذا القرآن واستنتج الله نفسه من القصة ليعلمنا فهم القرآن وفهم الحياة كلها .
١٣٦ المقصد الأوّل . قوله تعالى « المص » إلى قوله « تشكرون » والتفسير اللفظى لهذا المقصد .
١٣٧ كيف يقول المسلمون اليوم « إنا ظالمون » حين يرون العذاب محيطا بهم مصداقا لهذه الآية .
١٣٨ الوزن الحق يوم القيامة مشاهد نظيره فى الدنيا فمن قرأ العلوم الفلكية والكيمية فهم وزن الله ، والذين لايعلمون ضربت لهم الأمثال فى الأحاديث المذكورة .
١٣٩ المقصد الثانى « ولقد خلقناكم » إلى قوله « تخرجون » .
١٤٠ التفسير اللفظى .
١٤١ حجج إبليس وأنها سفسطة .
١٤٣ أهل الأرض الآن فى الشرق والغرب لهم حجج فى ذنوبهم وفى سياستهم كحجج إبليس السفسطية .
١٤٤ تفصيل الخداع لأنفس الناس فى الأرض .
١٤٥ المقصد الثالث « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا – إلى قوله – لقوم يؤمنون » .
١٤٧ التفسير اللفظى لهذا القسم .
ههنا ذكر الله نتائج الأصول الثلاثة فى هذه القصة ، وهى اللباس والإغواء والحجة الداحضة .
١٤٩ الكلام على الأكل والشرب واللباس والإسراف فى ذلك ، وأن المسلمين لما أسرفوا سلط الله عليهم الأمم إسراف بعض ملوك الإسلام فى عصرنا .

صفحة

١٥١ بيان ما حرم الله فى تفسير الآيات السابقة والاستمرار فى تفسير الآيات المذكورة .
١٥٤ لطيفة فى قوله تعالى « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد الخ » .
١٥٥ تبيان أن علم الصحة واجب معرفته كالوضوء وما أشبه ذلك .
نبذة صالحة فى علم الصحة لوقاية أجسامنا من الأمراض .
١٥٦ خواص الحرير والقطن والجلد وبيان المآكل من الزبدة والبقول المختلفة .
فوائد عامة فى الملابس والمآكل والزبدة والبقول .
١٥٧ الخضر . التوابل . الأغذية الخ .
١٥٨ تنقية الماء وطرقه ثلاث : نوى المشمش . الترشيح وأدوات الرشح . إغلاء الماء .
١٥٩ فوائد صحية . وبيان أن أسباب نقل المرض ، ثلاثة : إما بالمباشرة · وإما بواسطة الماء . وإما بواسطة الحشرات . وبيان مرض البول الدموى (البلهارسيا) ومرض الضعف العام (الانكلستوما) .
١٦٠ الحشرات قسمان : ضارّ ونافع .
١٦١ الصراصير وإحداثها السرطان .
١٦٢ منظومة ممتعة فى شروط الصحة .
١٦٣ إتمام الكلام على الحشرات الضارّة والنافعة ، وأن الله تكفل بالضارة وأرشدنا إلى أن نتكفل بالنافعة لنا .
المقصد الرابع « هل ينظرون إلا تأويله ـ إلى قوله ـ لقوم يشكرون » .
١٦٤ تفسيره اللفظى .
١٦٥ بقية التفسير اللفظى ، والكلام على لفظ (يوم) فى علوم البابليين والأشوريين وتقهقر الاعتداليين عندهم
١٦٦ الكلام على عشر لطائف .
١٦٧ الوزن والميزان ، وتنفس الأرض
١٦٨ اللطيفة الرابعة « يا بنى آدم قد أنزلنا الخ ـ وأيضا قوله تعالى ـ وكلوا واشربوا » .
حكاية العالم الصينى لما قابل المؤلف .
١٦٩ رأى المفسر . عجائب الجذور الأرضية النباتية .
إيضاح قوله تعالى « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم الخ» . ذكرى أيام الشباب وطلب العلم وصلاة المؤلف ليلا وصيامه نهارا وهو يطلب حقيقة هذا العالم فى الحقول ، وكيف دهش المؤلف إذ رأى أن ما كان يفكر فيه فى بلاد الفلاحين بلا علم هو نفسه الذى ارتقت به أوروبا وأمريكا وتعجب هو كيف كان المسلمون محرومين من نفس دينهم الذى هو نفس تلك العلوم . جلد الحيوان وريشه وقطن الإنسان . وكيف كان هذا أعظم حكمة .
١٧٢ بيان معنى قوله تعالى « ولقد مكناكم فى الأرض » وكيف كانت دلائل وجود الأرواح فى الأجساد هى الحركات والحسّ ، ودلائل مبدع الكون لاتتناهى .
١٧٣ الكلام على الهيكل الإنسانى إجمالا وتشبيهه بالآلات البخارية . ما شرائط كونك صحيح الجسم وسعيدا ؟
١٧٤ نوّع الله لنا الأغذية لأجل تنوّع أعضائنا .

صفحة

١٧٤ مناقضات الصحة (الطباق) وهو المعروف بالدخان ، مضاره العديدة وعواقبه الوخيمة .
١٧٥ يلحق بالدخان الأفيون والحشيش والكاكاو وأمثاله .
اللطيفة الخامسة قوله تعالى « كما بدأكم تعودون » .
الخطأ فى إملاء دبكنس بعد موته مصداق للقرآن .
١٧٦ اللطيفة السادسة .
١٧٧ اللطيفة السابعة والثامنة فى أن حجب الناس عن المقامات العالية من استعدادهم الخ ، وكلام الأرواح
١٧٨ اللطيفة التاسعة فى أصحاب الأعراف ، وفى قوله تعالى « إن ربكم الله الذى خلق السموات الخ » ومطابقة العلم الحديث للحديث النبوى الشريف .
١٧٩ عجيبة فى قوله تعالى «وهو الذى يرسل الرياح بشرا» وكيف تهب الرياح فى قارة آسيا وقارة استراليا وصيف كل منهما شتاء للأخرى فيهب الريح من القارة الباردة زمن شتائها إلى الحارة زمن صيفها فى وقت واحد وينعكس الحال بعد ستة أشهر . فسبحان مدبر الكون ومبدعه .
١٨١ إن أهل العلم فى أرضنا يعدون الاشتراك فى المصالح لجميع أهل الأرض ولكنهم عند العمل يحجمون لنقص الإنسانية .
١٨٢ الأمة الإسلامية هى خير الأمم فى المستقبل إذا تعلمت كالأمم وعلمتهم الانتفاع العام لأنهم رحمة للعالمين بالميراث عن نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد ألف المفسر كتاب [أين الإنسان] لهذا المعنى وقرظه الأوروبيون .
١٨٣ ذكر خطبة (طاغور الهندى) فى هذا المعنى والقرآن يوافقه
سر « المص — وسر — الم » فى سورة البقرة وآل عمران وسرها هنا وهذا هو السر الذى ظهر فى هذا الزمان .
١٨٥ القسم الثانى من السورة « لقد أرسلنا نوحا — إلى قوله — عمين » والتفسير اللفظى لهذا القسم .
١٨٧ القسم الثالث والرابع من سورة الأعراف من قوله « وإلى عاد — إلى قوله — الناصحين »
١٨٨ الكلام على العماليق وعاد وثمود وإرم ودولة اللاديين والكلدان والأشوريين والمعينيين باليمن
١٨٩ آراء المرحوم صديقنا الفاضل (كمال بك) إذ كشف أن لغة العرب هى فرع من لغة قدماء المصريين
كشف الأمم العربية القديمة فى هذه الأيام
١٩٠ كشف علماء ألمانيا والإنجليز والفرنسيين وكشفهم مدينة ظفار باليمن ومدينة معين وسد العرم ومدينة مأرب .
عدد النقوش نحو ألفين نشرت فى أوروبا بعد أخذها بالفوتوغراف من بلاد اليمن ، والسلفون نائمون
١٩١ التفسير اللفظى لهذه الآيات . مقصود القصة فى هذا الزمان .
١٩٣ إعتراض على المؤلف وجوابه ، وأن القرآن المنزل بالصدق أولى باعتراف الحكمة ، وأن هذا هو أسلوب الله تعالى فى أول هذه السورة .
١٩٥ الأطباء وبعض رجال الدين ورجال السياحة .
١٩٦ القسم الخامس « ولوطا إذ قال لقومه — إلى قوله — عاقبة المجرمين » .

صفحة

١٩٧ التفسير اللفظي لهذا القسم .
القسم السادس « وإلى مدين — إلى قوله قوم كافرين » .
١٩٨ التفسير اللفظي .
١٩٩ تطبيق ما جاء في قصة مدين وقوم لوط وعاد وثمود على حال المسلمين اليوم ؛ فإن قلب الحقائق في بلاد الشرق واستظلالهم بظل الأمم الغربية يشبه قصة هؤلاء القوم .
٢٠٠ القسم السابع « وما أرسلنا في قرية من نبيّ — إلى قوله — لفاسقين » .
٢٠١ بيان أن هذا القسم درس عامّ على ما تقدم وأن المسلمين اليوم ليسوا في أمان كما جاء في الآية لجهلهم بهذا الوجود وما أبدع الله فيه من عجائب .
٢٠٢ تفسير بعض ألفاظ هذا القسم .
القسم الثامن « ثم بعثنا من بعدهم موسى — إلى قوله — ولعلهم يرجعون » .
بيان أن هذه الآيات دالة على المجلس النيابي (البرلمان) عند المصريين .
٢١٠ هذا نص مافي التوراة في مسألة اليد والعصا والضفادع الخ . وبقية التفسير اللفظي للقسم الثامن .
٢١٢ المصائب التي صبت على المسلمين بالأندلس أشبه بما وقع لفرعون وقومه وكلاهما لم يزدجر فزال ملكهما والأمم التي اعتبرت نصرت مثل دولة (بولونيا) واليونان والبلغار والصرب والجبل الأسود وبلاد الروسيا والترك حديثا .
٢١٤ بتفرق العقائد في الأمة المصرية القديمة قهرهم قمبيز ملك الفرس هكذا تفرق المسلمون حل ببعضهم الذل.
تسعة أنواع من معاصي بني إسرائيل ، وبيان نصر الله المخلصين كما نصر موسى .
٢١٦ تفسير قوله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون الخ » .
٢١٧ ملخص الوصايا التي تلقاها سيدنا موسى عليه السلام من ربه على الجبل منقولة من التوراة .
٢١٨ تفسير قوله تعالى « سأصرف عن آياتي الخ » .
٢١٩ ما جاء في التوراة من أخذ الألواح .
٢٢٠ اتخاذ العجل وعبادته وأن صوته كصوت السيارات اليوم .
٢٢١ المبحث السادس قوله تعالى « واختار موسى قومه سبعين رجلا » وتفسير ألفاظه .
٢٢٢ بيان سعة رحمة الله لكل شئ وأن أكثر مانرى من الآلام إنما يوجه لترقية الهمم وتكميل الأجسام والعقول كالجوع يحث على الطعام وكالندم لأجل الإقلاع عن المعصية والظلم .
المبحث السابع « فسأكتبها للذين يتقون » وإيضاح مقام الرحمة .
لم خلق الإنسان وهو في آلام وذنوب وظلمات وما فائدته من الوجود .
٢٢٤ إيضاح هذا المقام وأن الناس في هذه الأرض كأطفال في مدارس يتعلمون ثم يرتقون بعد الموت على مقدار استعدادهم .
٢٢٥ تشبيه الناس في الأرض بالتلاميذ في مدرسة روضة الأطفال ، وذكر قول اللورد (أوليفرلودج) إن الناس في الأرض بالنسبة للعوالم الروحية كالنمل بالنسبة لنا .
٢٢٦ الناس يرتقون في الدنيا حسي درجات حسية بالحواس وحسا أخرى بالمدارس أو بحوادث الدهر .
٢٢٧ كيف نعتقد أن الله رحيم وهو يعذّبنا ؟ هل صانع العالم أرحم من الوالدين وما دليله ؟ .

صفحة

٢٢٨ بيان الحجاب المضروب بين الناس وبين فهم الرحمة . وأن الفقر والألم والحسد كل ذلك حجاب بيننا وبين النعم المحيطة بنا .
٢٢٩ إن قصة آدم وإبليس كلها بيان لعدم الشكر على الرحمة بالنعم العامة . الحكماء فى الأمم أشبه بحاسة السمع والبصر . شكر عيد الصا الخ .
٢٣٠ هل الموت ألم ؟ ذكر كلام الغزالى أن ألم الموت يرجع إلى فراق المألوف . وذكر حوادث تدل على أنه ليس هناك ألم جسمى .
٢٣١ شاب وخطيبته متحابان والموت يتربص أحدهما والطبيب ينصحهما . وكيف اضطرب الشاب أولا ثم كيف اطمأن للموت آخرا . لا أثر للفزع عند الموت وبيان المؤلف أن ذلك هو المناسب لرحمته تعالى ورأفته ، والعذاب يرجع للأخلاق والحسرات والذنوب .
٢٣٢ هذه الحوادث هى المفسرة لقوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شئ » وبيان أن النمل قوابل تسهل خروج الذرية من قبالها أى شرانقها .
٢٣٤ ذكر سبع حوادث كانت العمليات الجراحية فيها سببا فى شفاء أمراض أخرى كالأعمى الذى داوى الطبيب الدمل فى مخه فشفى وعاد إليه بصره . أو كالذى عمى فلما رعف أنفه بضربة شفى بصره حالا .
٢٣٦ بيان أن هذا هو الذى يفيد اليقين وهو الذى أمر به الخليل صلى الله عليه وسلم . وأن البرد يقتل الحشرات والثلج يمنع ضرر البرد والشمس تزيل الثلج . كل ذلك رحمة واسعة .
٢٣٧ بيان أن الناس لو عاشوا أمدا طويلا لكان ذلك خطأ لوجهين : شهود المناظر العجيبة فى محاسن الطبيعة
٢٣٨ إن الناس شاهد ومشهود والأولون هم الحكماء والأنبياء والآخرون هم علماء الفنون الخاصة كالفقه والهندسة فهؤلاء كأنهم ممثلون فى مرسح وأولئك يشهدون المناظر وهم الأبرار الذين هم فى عليين .
٢٣٩ بدائع سورة الأعراف . وأن الإيمان قسمان فى هذه السورة : قسم لاثبات له بخوارق العادات وقسم ثابت دائم بالمعارف . وتفسير قوله تعالى « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » .
٢٤٠ قوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر الخ » .
٢٤١ بيان حال المؤلف أيام المجاورة بالجامع الأزهر وهو يتوق إلى معرفة هذه القرية .
٢٤٢ لم بكى ابن عباس عند هذه الآية . قد أحسّ بما ينتاب أمتنا الآن . مستقبل اليهود بعد ذنوب آبائهم أخذهم الرشوة وقد نهوا عنها . إتمام تفسير هذه الآيات « وإذ نتقنا الجبل فوقهم الخ » .
٢٤٣ ذكر الحادثة الثالثة العامة لجميع الإنسان . وأن العلم عند أهل الدين وأوروبا والإسلام فى أزمان مختلفة مصداق للآية فهو حجة على الناس . وبيان المناصر عند الفيلسوف الصينى وعند الفيلسوف اليونانى فى زمن واحد .
٢٤٤ تتمة تفسير « وإذ أخذ ربك من بنى آدم » والأحاديث الواردة فى ذلك .
٢٤٥ القسم التاسع « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » إلى آخر السورة .
٢٤٦ التفسير اللفظى لهذه الآيات .
٢٤٧ تقرير حال العالم إذا أشبه الكلب بالانحطاط إلى طلب الدنيا .
٢٤٨ موازنة بين ذكر الكلب فى كلام العرب وذكره فى هذه الآية وأن الأديب لايقدر أن يضرب مثلا به كما ضربه القرآن . تفسير « فاقصص القصص الخ » .

صفحة

٢٤٩ الكلام على أسماء الله الحسنى وبقية تفسير هذه الآيات .
٢٥١ هذا ملخص تفسير قوله تعالى « أولم ينظروا الخ » وأنه شكر وتوحيد وفروض كفايات .
٢٥٢ هل إخراج الزكاة من المال يغنينا عن البحث فى استثماره والنربيون يستخرجون السكر من حثالة الخشب .
٢٥٣ حديث « على كل مسلم صدقة » . وأيضا « على كل عضو صدقة كل يوم » .
٢٥٤ تفسير قوله تعالى « وإن تدعوهم إلى الهدى الخ » .
٢٥٥ الإنصات عند سماع القرآن .
٢٥٦ هل تجب القراءة خلف الإمام والمذاهب فى ذلك ؟
٢٥٧ عجائب السموات غير ما تقدم . هل يتكوّن الحىّ من غير الحىّ
٢٥٩ ماقاله علماء العصر الحاضر فى الحياة من أين جاءت . اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « يسألونك عن الساعة » آلاف الحيوانات فى حبة القمح تموت ثم تحيا .
٢٦١ ملخص سورة الأعراف وأن « المص » تتضمن معناها .
٢٦٣ إخبار النبى صلى الله عليه وسلم بما حصل للإسلام الآن وهو ملخص سورة الأعراف .
٢٦٤ مثل أمة الإسلام اليوم مع ربها كمثل عبيد الملك .

